

فيودور دوستويفسكي

الأبله

* النص الكامل *



مكتبة علي بن صالح الرقمية

فيودور دوستويفسكي



الأب-ل-ه

النصّ الكامل

رواية

ترجمة سامي الدروبي

1869



كتب أونلاين

كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

الجزء الأول

الفصل الأول

في صباح من صباحات نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، في نحو الساعة التاسعة، أثناء ذوبان الجليد، كان قطار وارسو^[1] يقترب من بطرسبرج مسرعاً. الرطوبة والضباب يبلغان من الكثافة أن أشعة الشمس لا تكاد تنفذ إلى الأرض؛ فيصعب على راكب القطار، إذا هو نظر من النافذة يمنة أو يسرة، أن يميز أي شيء على مسافة عشر خطوات.

كان بعض الركاب عائدين من الخارج؛ غير أن حجرات الدرجة الثالثة، وهي الحجرات الأكثر ازدحاماً بالركاب، كانت ممتلئة بأناس من متوسطي الحال، يسافرون لقضاء أعمال، وليسوا قادمين من بعيد.

وكان الجميع مكدودين متعبين مرهقين طبعاً، قد أثقل النعاس أجفانهم واصطبغت وجوههم بصفرة كصفرة الضباب.

إن في إحدى حجرات الدرجة الثالثة راكبين قد جلس أحدهما أمام الآخر قرب النافذة منذ الصباح. كلاهما شاب؛ وكلاهما يلفت وجهه الانتباه؛ وكلاهما لا يكاد يكون معه متاع؛ وكلاهما يرتدي ثياباً ليس فيها كبير تأنق. أن من يراهما يحس أنهما يرغبان في التحدث. ولو قد أمكنهما أن يعرفا ما في كل منهما من غرابة وتفرد، لأدهشتهما هذه المصادفة التي جمعتهما هذا الجمع العجيب في حجرة من الدرجة الثالثة بقطار «وارسو - بطرسبرج».

إن أحدهما، وهو شاب قصير القامة، أجعد الشعر، أسوده تقريباً، يجب أن يكون في نحو السابعة والعشرين من العمر. عيناه شهابوان، صغيرتان، لكنهما تفيضان اشتعالاً واتقاداً؛ وأنفه عريض أفطس، ووجنتاه بارزتان؛ وعلى شفثيه الرقيقتين ترتسم دائماً ابتسامة غريبة، ابتسامة ساخرة، وقحة، تشبه أن تكون مبغضة حاقدة. غير أن جبيناً عالياً مستوياً يلطف من الشعور بالنفور الذي يحسه المرء حين يرى أسفل وجهه، الثقل الكريه. والشيء الذي يخطف البصر فيه خاصة إنما هو شحوبه الذي يشبه شحوب جثة، وهو شحوب يضيف على هذا الرجل هيئة الإرهاق والإعياء مع أنه يبدو متين البنية،

ويضفي عليه كذلك معني المكايدة التي تبلغ حل العذاب، رغم ابتسامته المتغطرسة الفظة، ونظرته العدوانية المتكبرة.

كان الرجل متدثراً بمعطف واسع أسود، مبطن بجلد خروف، فهو يشعر بدفءٍ كامل، ثم يحسّ ببرد الليل. ولا كذلك صاحبه الذي يجلس أمامه، فلا بد أن هذا قد ارتعش من شدة البرد وشدة الرطوبة في تلك الليلة من ليالي شهر نوفمبر الروسي. وهما برد ورطوبة كان واضحاً أنه لم يتهيأ لهما. إنه متلف برداء سميك لا أكمام له، يعلوه غطاء للرأس، كالذي يلبسه المسافرين شتاء في بلاد غير روسيا، في سويسرا أو في شمال إيطاليا مثلاً. ولكن هذا الرداء لا يصلح حتماً لسفرة طويلة طول هذه المسافة بين آيدكونن^[2] وبطرسبرج. إنه يصلح جداً لإيطاليا، ولكنه لا يلائم المناخ الروسي.

هذا الرجل الثاني الذي يرتدي هذا الرداء هو أيضاً شاب في نحو السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين من العمر. قامته أطول قليلاً من متوسط قامات الرجال؛ خداه خاسفتان؛ شعره كثيف أشقر؛ له لحية صغيرة مدببة تكاد تكون بيضاء اللون؛ عيناه واسعتان زرقاوان لهما نظرة ثابتة. أن في هذه النظرة شيئاً من رقة وعدوبة، ولكن فيها ثقلاً وتعبيراً غريباً، فإذا رآها خبير أدرك أن صاحبها رجل مريض بداء الصرع. ووجه الفتى بعد هذا محبّب إلى القلب لطيف رقيق دقيق، ولكنه شاحب اللون، بل إنه في هذه اللحظة قد ازرقّ من شدة البرد.

إنه يحمل بيده اليمنى صرةً هزيلة للملابس، ملفوفة بمنديل عتيق حائل اللون، وكان هذا كل متاعه فيما يبدو. وكان لحذاءيه نعلان سميكان، وكانت تغطي أعلى ظاهر الحذاءين لبادتان؛ وذلك كله ليس مما يستعمل في روسيا كثيراً.

وقد لاحظ جاره، الشاب الأسمر ذو المعطف، جميع هذه التفاصيل، تسريّةً عن نفسه. ثم اقتحم الصمت أخيراً فبدأ يحدثه مبتسماً تلك الابتسامة الوقحة نفسها التي تعبّر في أكثر الأحيان عما يشعر به امرؤ غليظ القلب من تكبر فظ أمام مصائب الآخرين. قال له وهو يهز منكبيه:

— برد، هه؟

فأجاب الجار بطوية سليمة ونية صادقة (ليلاحظ القارئ أن الجليد كان يذوب):

— برد جداً، فكيف يكون البرد أثناء الجليد؟ لم أكن أتخيل أن البرد يبلغ هذا المبلغ من الشدة في بلادنا. لقد فقدت عادة احتمال مثل هذا البرد.

- لا شك أنك آت من الخارج، أليس كذلك؟

- نعم، من سويسرا!

صاح الفتى الأسمر وهو يطلق صفرة ويضحك ضحكة كبيرة:

- ها.. إنها مسافة!

ودار الحديث. فكان الشاب الأشقر الذي يرتدي الرداء السويسري يجيب بنية طيبة وطوية سليمة عن جميع الأسئلة التي يلقيها عليه محدّثه، دون أن يلاحظ ما في بعضها من تزيّد وتندر بل ومن وقاحة. فروى فيما رواه أنه قضى في الخارج أكثر من أربع سنين، فقد أرسل إلى هناك ليعالج من مرض عصبي غريب، هو نوع من الصرع، أو من داء «رقص سان جي»، مع ارتعاشات وتشنجات. وقد أثارت قصته تبسّم جاره مراراً، حتى لقد أخذ جاره يضحك مقهقهاً حين سأله: «وهل شفوك؟» فأجاب: «لا، لم يشفوني!».

وأضاف الأسمر يقول مستهزئاً متهكماً:

- إيه... ما أكثر المال الذي لا بد أنك أنفقتَه هنالك سدىً في غير طائل! وما

أجهلنا هنا إذ نوليهم تلك الثقة كلها

فهتف رجل كان جالساً قربهما:

- هذه هي الحقيقة!

إن الرجل يبدو في نحو الأربعين من عمره، ويرتدي ملابس رديئة، ويدل مظهره على أنه موظف. إنه قوي الجسم متين البنية، له أنف أحمر يتوسط وجهاً ذا بثور.

كرر الرجل يقول:

- هذه هي الحقيقة، وهم يجتذبون إلى بلادهم جميع أموالنا الروسية!

قاطعه الفتى المريض بصوت رقيق عذب فيه روح الملاينة والمصالحة:

- لا، أنت مخطئ، في ما يتعلق بي أنا على الأقل. لست أستطيع أن أناقش، لأنني لا

أعرف كل ما يجري. ولكنني أقول، فيما يتصل بي، أن طببي قد دفع نفقات سفري من آخر ما يملك من قروش، بعد أن ظل يعالجنني بالمجان سنتين.

قال الأسمر:

- عجيب! ألم يكن هناك إذاً من يستطيع أن يدفع عنك نفقات علاجك؟

- لم يكن هناك أحد! أن السيد بافلتشف الذي كان يهتم بأمرى قد مات منذ سنين. فكتبتُ عندئذ إلى الجنرالة أيبانتشين، وهي سيدة تمت إليّ بقرابة بعيدة، ولكنى لم أتلّق أي جواب. فهأنذا أرجع أخيراً!

- وإلى أين تنوي أن تذهب؟

- تعني أين أريد أن أنزل؟... والله... لا أدري بعد!...

- لم تقرر بعد؟

وانفجر المستمعان كلاهما يقهقهان. وسأل الأسمر:

- وهذه الصرة الصغيرة تضم كل ما تملكه حتماً، أليس كذلك؟

فقال الموظف الأحمر الأنف مزاولاً، راضياً عن نفسه كل الرضى، مزهواً بها كل الزهو:

- أراهن على أن الأمر كذلك! وعلى أنك ليس لك شيء آخر بين الأمتعة والحقائب. على كل حال: ليس الفقر عيباً!

وصدق هذا القول أيضاً، فإن الشاب الأشقر بادر يؤيده بسرعة شديدة ولهفة كبيرة!

وتابع الموظف كلامه بعد أن ضحك الاثنان ما شاء لهما السكر أن يضحكا (الغريب في الأمر أن صاحب الصرة قد ضحك أيضاً وهو ينظر إليهما، فزاد ذلك ضحكهما قوة):

- أن لصرتك مع ذلك دلالة. صحيح أن المرء يستطيع أن يراهن على أنها لا تضم لُفات دنانير ذهبية، دنانير نابوليون أو فردريك أو حتى دنانير هولندية، رغم أن المرء يكفيه أن يرى لبادتي حذاءيك المصنوعتين في الخارج حتى يدور في خلدك ذلك... ولكن إذا أضفنا إلى متاعك القليل هذا احتمال أن يكون لك قريبة مثل الجنرالة أيبانتشين، فإن صرتك يصبح لها عندئذ شأن كبير وقيمة عظيمة، هذا إذا صح أن الجنرالة أيبانتشين قريبتك حقاً، وأنت لا تخطئ في هذا الأمر، ولو من قبيل السهو والنسيان... وذلك يحدث في كثير من الأحيان... بسبب سعة الخيال مثلاً!...

هتف الفتى الأشقر يقول:

- هنا أيضاً أنت على صواب! إنني مخطئ تقريباً. فالجنرالة لا تكاد تمت إليّ بقربى، حتى إنني لم أدهش البتة حين لم تبعث إليّ، بجواب. لقد كنت أتوقع ذلك.

- بددت مالا لإرسال رسالتك، هم!... على الأقل لا يستطيع المرء أن يأخذ عليك

أنك قليل البراءة والصدق. هذه صفات محمودة! هم!... أما الجنرال أبيانتشين فنحن نعرفه، لأنه في الواقع رجل يعرفه الناس كافة. أما المرحوم السيد بافلتشيف، الذي كان يعولك في سويسرا، فقد عرفناه أيضاً، هذا إذا كان هو نيقولا أندريفتش بافلتشيف حقاً، لأن الرجلين قريبان يحملان اسماً واحداً. فأما أحدهما فما يزال يعيش في القرم، وأما المرحوم نيقولا أندريفتش، المتوفى، فقد كان رجلاً محترماً له علاقات رفيعة وصلات عالية، وكان يملك في زمانه أربعة آلاف نفس... نعم...

أجاب الشاب وهو يتفرس في السيد الذي يبدو عليه أنه يعرف كل شيء، أجاب وهو يتفرس فيه بنظرة طويلة متفحصة:

— هو ذاك! كان اسمه نيقولا أندريفتش حقاً.

إن هؤلاء السادة «العالمين بكل شيء» يصادفون في بعض الأحيان بل قل في كثير من الأحيان بين صفوف طبقة اجتماعية معينة. أنهم يعرفون كل شيء، لأن فضولهم اليقظ وملكاتهم العقلية تلتقي جميعاً في اتجاه واحد، لخلو بالهم طبعاً من اهتمامات حيوية ومشاكل جدية أخطر شأنًا، كما قد يقول مفكر معاصر. على أننا حين نقول: «أنهم يعرفون كل شيء» يجب أن نفهم من ذلك أن ميدان علمهم محدود، وأن ساحة معرفتهم ضيقة. فإن علمهم يكاد يقتصر على أمور كالتالية: أين يعمل الموظف الكبير فلان، وما هي علاقاته، وما مقدار ثروته، وما هي المقاطعة التي كان حاكماً فيها، ومن هي المرأة التي تزوجها، وكم كان المهر الذي ناله من زوجته، ومن هو ابن عمه، ومن هو قريبه من الدرجة الثالثة، إلخ إلخ، وهم يعرفون ذلك كله معرفة مناسبة. وهؤلاء السادة «العالمون بكل شيء» هم في أكثر الأحيان أناس صعاليك يسكرون بأكمام مثقوبة أكواعها، ولا تتجاوز رواتبهم سبعة عشر روبلاً في الشهر، والناس الذين يعرف هؤلاء كل شيء عنهم لا يستطيعون حتى أن يتخيلوا الدوافع التي تحضهم على التماس هذه المعارف وجمع هذه المعلومات. ولكن كثيراً من هؤلاء «العالمين بكل شيء» تغريهم معارفهم هذه إغراء كبيراً، وهم يستمدون من هذه المعارف التي تساوي في نظرهم علماً حقيقياً، يستمدون منها احتراماً لأنفسهم، ويستمدون منها متعاً روحية عظيمة، وارتياحاً فكرياً كبيراً. ثم أن لهذه المعرفة جوانبها المغرية الجذابة. لقد عرفت علماء وأدباء وشعراء وسياسيين وصلوا بفضل هذه المعرفة إلى أهداف عالية وبلغوا غايات رفيعة، ووجدوا بواسطتها سكينه الروح وطمأنينة النفس، حتى أنهم مدينون لهذه المعرفة بما نالوا من مراكز في مجال عملهم.

لم ينقطع الأسمر عن التثاؤب طوال مدة هذا الحوار. وكانت نظراته لا تبرح تطوف

بالأفق من خلال النافذة، وكان واضحاً أنه يستعجل الوصول. كان يبدو ساهماً على نحو غريب، يكاد يكون قلقاً مهموماً مغموماً، حتى أصبح سلوكه من ذلك غريباً شاذاً، فهو تارة يصغي ولا يسمع، وتارة ينظر ولا يرى، ثم ينفجر ضاحكاً حتى دون أن يعرف لماذا هو يضحك.

وفجأة قال السيد ذو البثور يسأل الشاب الأشقر حامل الصرة:

– بالمناسبة.. هل يمكنني أن أعرف من هو السيد الذي أتشرف بمخاطبته الآن؟ ...

فأجاب الشاب الأشقر فوراً، بسلامة نية:

– أنا الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين.

قال الموظف مفكراً حالماً:

– الأمير ميشكين، ليون نيقولايفتش ميشكين؟ لا أعرفه.. لم أسمع به يوماً. لا أقصد أنني لم أسمع بهذا الاسم، فهو اسم تاريخي^[3]، وفي وسع المرء، بل لا بد له، أن يجده في كتاب التاريخ الذي ألفه كارامازين^[4]. لا، وإنما أنا أقصد شخصك. وإني لأعتقد من جهة أخرى أن المرء لا يصادف اليوم في أي مكان أحداً من أسرة الأمراء ميشكين، حتى أن ذكراهم قد انطفأت.

فعقب الأمير يقول بسرعة:

– طبعاً، طبعاً! لا يوجد الآن أي أمير بهذا الاسم، إلا أنا، لا بد أنني آخر رجل في السلالة. أما أسلافنا فكانوا من صغار مالكي الأتبان الذين يزرعون أرضهم بأنفسهم. والحق أن أبي قد خدم في الجيش برتبة ملازم ثان بعد أن تخرج من المدرسة الحربية. ومن المصادفات أن الجنرالة أيبانتشين منحدره هي أيضاً من سلالة الأمراء ميشكين، لا أدري كيف! فهي الأخيرة من نوعها أيضاً. صاح الموظف يقول مقهقهاً:

– هيء هيء هيء! الأخيرة من نوعها! هيء هيء هيء! أن لك طريقة بارعة في اللعب بالألفاظ.

وابتسم الأسمر هو أيضاً. أما الأشقر فقد بدا عليه شيء من الدهشة لأنه أفلح في أن يلعب بالألفاظ هذا اللعب، على رداءته.

وقال شارحاً:

– تصور أنني قلت ما قلت حتى دون تفكير فيه!

فأجابه الموظف مرحباً:

- طبعاً طبعاً، لاحظنا ذلك!

وسأله الأسمر فجأة:

- قل لي يا أمير: لا شك أنك طلبت العلم هناك عند أستاذك، أليس كذلك؟

- نعم ...

- أما أنا فلم أطلب العلم يوماً...

فأضاف الأمير قائلاً كأنما ليعتذر:

- على كل حال، أنا لم أحصل من العلم إلا شذرات أو فتاتاً، فقد كانوا يعدونني

غير مؤهل لمتابعة دراسة منتظمة، بسبب حالتي الصحية!

سأله الأسمر بغتة:

- هل تعرف آل روجويين؟

- لا، لا أعرفهم. على كل حال، أنا لا أعرف إلا قلة من الناس في روسيا. هل أنت

روجويين؟

- نعم، أنا روجويين، بارفيون روجويين.

تدخل الموظف يسأل مهتماً اهتماماً كبيراً:

- بارفيون؟ انتظر... أأنت واحد من آل روجويين الذين...

فقاطعه الأسمر مفاجئاً:

- نعم، أنا واحد منهم، واحد منهم هم أنفسهم.

لم يكن الأسمر قد كلمه حتى ذلك الحين، وإنما كان يقتصر على مخاطبة الأمير.

أجاب الموظف مذهولاً محملاً:

- ولكن... هل هذا ممكن؟

وسرعان ما اكتسى وجهه تعبيراً يفيض بالاحترام بل وبالقلق والخوف، وتابع

كلامه يقول:

- أأست قريأ سيمون بارفيونوفتش روجويين ذاك البورجوازي الفخري الوراآي^[5] الذي توفي مآلفاً ثروة قدرها مليونان ونصف مليون؟

أأابه روجويين مستآفأ، آآى دون أن يتنازل فيشرفه بإلقاء نظرة عليه:

- من أين تعرف أنه آلف ثروة قدرها مليونان ونصف مليون؟

ثم تابع كلامه وهو يغمز الأمير:

- عأيب أمر هؤلاء الناس! إني لأأسأل ما هذا الذي يصيبهم فإذا هم يسرعون يآومون آولآ؟ لقد مات أبي منذ مدة قصيرة آقأ. وأنا واصل من بسكوف متأآراً شهرأ. انظر كيف أعود إلى المنزل فقيراً معدماً أكاد أكون آافي القدمين. أن آخي، ذلك الوعد الفاجر، وكذلك أمي، لم يرسلأ إليّ مالأ، ولا أبلغاني النبأ! لكأنني في اعتبارهما آلب من الآلاب! لقد بقيت طريح الفراش في بسكوف شهرأ أعاني من آمي الآارة!

صاح الموظف رافعأ يديه إلى السماء:

- والآن ستقبض مليونأ أو أكثر، دفعةً واحدة! يا رب السماء!

قال روجويين وهو يآرك يده بآركة تنم عن العصبية والغضب:

- ولكن ما شأنه هو وهذا؟ هلأ قلت لي، أرجوك! أنت تعلم أنني لن أعطيك قرشأ واحداً ولو مشيت أمامي على يديك!

- سأفعل ذلك، سأمشي على يدي، ما رأيك؟

- انظر إلى هذا الرجل؟ قلت لك: إني لن أعطيك شيئأ، لن أعطيك شيئأ البآة، ولو لبثت ترقص أمامي أسبوعأ بكامله!

- لك ما تشاء! لا تعطني شيئأ، فأنا لا أستآق أن تعطيني شيئأ. لكن هذا لا يمنعي من أن أرقص لك. سأترك زوجتي، وأولادي الصغار، لأآيء أرقص أمامك، في سبيل ملاطفة، في سبيل ملاطفة ...

- قال الأسمر وهو يبصق اشمنزأأ:

- ليأخذك الشيطان!

ثم أضاف يقول مآاطبأ الأمير:

- منذ خمسة أسابيع، كنت مثلك، تركت أبي وأنا لا أكاد أحمل إلا صرة صغيرة. وهربت عند عمة لي بمدينة بسكوف. وهناك مرضت، ومات هو أثناء ذلك! غلبته المنية! رحمة الله على ترابه! ولكن يجب أن أقول لك: إنه أوشك أن يقتلني! صدقني يا أمير، أحلف لك. فلو لا أنني هربت لقتلني حتماً!

قال الأمير في لطف وهو يتفحص بكثير من الفضول هذا المليونير الذي يرتدي ذلك المعطف الفقير:

- لا بد أنك أغضبت، أليس كذلك؟

رغم أن هذا الميراث وهذا المليون جديران بالاهتمام، فإن شيئاً آخر هو الذي أثار دهشة الأمير واهتمامه. وكان روجويين، من جهته، يبدو متلذذاً أكبر التلذذ بمحادثة الأمير. ومع ذلك يشعر المرء أنه كان يتكلم إرضاء لحاجة آلية أكثر مما كان يتكلم تلبية لضرورة داخلية. كان يتكلم تسرية عن نفسه لا تعاطفاً مع غيره؛ كان يدفعه إلى الكلام نوع من القلق، نوع من الغم؛ كان يتكلم ليوجه نظره إلى شخص، وليحرك لسانه. وكأنه ما يزال تحت سيطرة الحمى، بل والهذيان. أما الموظف فكان معلقاً بشفتي روجويين، أسيراً لهما، لا يجرؤ أن يحول عنهما انتباهه لحظة واحدة. كان يتلقف ويزن كل كلمة من كلماته كأنها من ألماس.

أجاب روجويين عن سؤال الأمير فقال:

- أما أنه غضب فقد غضب. والحق أنه لم يكن على خطأ. ولكن المذنب الأكبر في الأمر كله إنما هو أخي. ولست أقول شيئاً عن أمي، فهي امرأة عجوز، عاكفة على قراءة حياة القديسين، غارقة فيها. وهي تقضي النهار كله في صحبة نساء عجائز، وأخي سيمون هو المسيطر على المنزل، المتحكم فيه، المستبد به. لماذا لم يبلغوني النبأ، هه؟ الأمر مضموم! صحيح أنني كنت عندئذ فاقداً وعيي. وهم يزعمون أيضاً أنهم أرسلوا إليّ برقية. ولكن البرقية وصلت إلى عمتي. وعمتي التي ترمّلت منذ ثلاثين عاماً تقضي وقتها كله، من الصباح إلى المساء، في صحبة نساء معتوهات. ليست عمتي امرأة مترهبة، ليست امرأة ممن يسمين مترهبات، بل هي شر من ذلك. فحين رأت البرقية أصابها ذعر، فحملتها إلى الشرطة دون أن تفضها، فلبثت البرقية عند الشرطة إلى هذا الحين. كونيف فاسيلي فاسيلفتش وحده ساعدني، فكتب إليّ كل شيء. أما أخي فإنه لم يجد ما هو خير من قضاء الليل يقص شراشيب الذهب من غطاء البروكار الذي يغطي تابوت أبي، بحجة أن لهذه الشراشيب «القيمة كبيرة». هل تعلم أن في وسعي أن أرسله إلى سيبيريا إذا شئت، لأن هذا العمل خرق للمقدسات!

قال الشاب الأسمر ذلك ثم التفت نحو الموظف، فأضاف:

- نعم، هذا في عرف القانون خرق للمقدسات حقاً، يا فزاعة العصافير في الحقول!

فأسرع الموظف يصيح قائلاً:

- هو خرق للمقدسات طبعاً، خرق للمقدسات طبعاً!

- وهو يستحق النفي إلى سيبيريا، هه؟^[6]

- إلى سيبيريا، إلى سيبيريا، إلى سيبيريا رأساً!

قال روجويين يخاطب الأمير:

- هم جميعاً يظنون أنني ما زلت مريضاً، ولكني، دون أن أقول كلمة لأحد، ودون أن أطلع أحداً على شيء، ركبت القطار رغم أنني ما زلت عليلًا، وجئت أفاجئهم! سيكون عليك أن تفتح الأبواب يا أخي العزيز سيمون سيميونوفتش! أنا أعلم جيداً أنه كان يثير أبي المرحوم عليّ، ويحقنه ضديّ! يجب أن أعترف الآن بأنني قد أغضبت أبي فعلاً بحكاية ناستاسيا فيليبوفنا تلك، هذا صحيح. في ذلك أنا وحدي مخطئ. لقد أغواني الشيطان الرجيم!

ردّد الموظف قول صاحبه محاولاً أن يستجمع ذكرياته:

- حكاية ناستاسيا فيليبوفنا؟

فصرخ روجويين في وجهه غاضباً:

- لا تعرفها حتماً!

فأجاب الموظف وقد لاح في وجهه معنى الانتصار:

- بل ربما كنت أعرفها!

- دعك من هذا الكلام! في العالم نساء كثيرات باسم ناستاسيا فيليبوفنا! أما أنت

فإنك وغد وقح وقاحة فظيعة. هذه هي الحقيقة أقولها لك.

ثم أضاف يخاطب الأمير:

- آ... كنت أعرف ذلك سلفاً، كنت أعرف سلفاً أنني لن أستطيع التملص من

أشخاص من هذا النوع!

أسرع الموظف يكرر قوله:

- جائز جداً أنني أعرفها. أن ليبيديف يعرف أشياء كثيرة. أنت يا صاحب السمو تتنازل فتوجه إليّ اللوم، فما عساك فاعلاً إذا أنا استطعت أن أبرهن لك على أن ما أقوله هو الحقيقة؟ اسمع إذاً: أن ناستاسيا فيليبوفنا هذه التي أراد أبوك، في شأنها، أن يقنعك بالعصا، إنما تسمى بارشكوف. ويمكن أن يقال عنها: إنها سيدة ذات مزايا، وإنها في نوعها، هي أيضاً، أميرة. ذلك أولاً. أما ثانياً فإن لها علاقة برجل اسمه توتسكي، آتانا زي إيفانوفتش توتسكي، وليس لها علاقة بأحد غيره. وهو رجل من كبار الملاكين، وهو رأسمالي ضخيم يدير عدة شركات؛ وتربطه بالجنرال أيبانتشين صداقة قوية..

ذهل روجويين فصاح يقول مبهوراً:

- عجيب! يبدو عليك أنك عالم بكل شيء حقاً! شيطان يأخذك! إنه يعرفها، إنه يعرف كل شيء!

كل شيء! ليبيديف يعرف كل شيء! يجب أن أقول لك: يا صاحب السمو أنني في الآونة الأخيرة قد ظللت شهرين كاملين أطوف في كل مكان مع ليخاتشوف، الضئى ألكسي ليخاتشوف. هو أيضاً كان قد فقد أباه. وإذ إنني أعرف جميع الأركان والزوايا، فقد أصبح لا يستطيع أن يخطو خطوة دون أن يصحبه ليبيديف. إنه الآن في السجن بسبب ديون تراكمت عليه. ولكنه أثناء طوافنا ذاك قد أتيح له أن يعرف آرمانس، وأن يعرف كورالي^[2]، وأن يعرف الأميرة باتزكي، وناستاسيا فيليبوفنا، وغيرهن كثير.

سأله روجويين وهو ينظر إليه نظرة شريرة، وقد اصفرت شفثاه وأخذتا ترتجفان:

- ناستاسيا فيليبوفنا؟ ما شأنها وليخاتشوف؟

أسرع ليبيديف يجيب:

- لا شيء! لا شيء البتة! لا شيء إطلاقاً! لم يستطع ليخاتشوف أن يحظى منها بشيء في يوم من الأيام، رغم أمواله كلها. لا، إنها ليست مثل آرمانس، هي لا علاقة لها إلا بصاحبها توتسكي. وقد تري مساء في شرفتها بالمسرح، «المسرح الكبير» أو «المسرح الفرنسي». ومهما يثرثر الضباط عنها، فأنهم عاجزون عن أن يبرهنوا على أي شيء. هم يقولون: «ها هي ذي! انظر إليها، ناستاسيا فيليبوفنا الشهيرة تلك!»، ولكن ذلك هو كل ما يستطيعون أن يقولوه، ولا كلمة عدا، إذ ليس ثمة شيء!

قال روجويين مؤيداً، وقد اربد وجهه وانقبضت أساريره:

- هذه هي الحقيقة. وقد روي لي زالويجيف هذا الشيء نفسه في حينه. في ذات يوم من تلك الأيام، كنت أقطع شارع نفسي راكضاً؛ وكنت أرتدي معطفاً قديماً لأبي، أرتديه منذ ثلاث سنين، فإذا أنا أراها تخرج من أحد المخازن فتركب عربتها. شعرت بنار تشب في جسمي فتحرق أحشائي حرقاً. وصادفت عندئذ زالويجيف. أن زالويجيف ليس مثلي. كان يتنزه في الشارع متأنقاً تأنق صبي حلاق، واضعاً على إحدى عينيه نظارة. أما نحن في منزل أبينا فإننا ننتعل أحذية مرقعة، ونأكل حساء كرنب. قال لي زالويجيف: «ليست هذه المرأة لأمثالك. إنها أميرة»^[8]. اسمها فيليبوفنا باراخشوفنا. تعيش مع توتسكي. لا يعرف. هذا المسكين توتسكي كيف يتخلص منها. لقد تقدم في السن. بلغ الخامسة والخمسين. يريد أن يتزوج أجمل امرأة ببطرسبرج!». ثم أخذ زالويجيف يغرس في ذهني أنني أستطيع أن أرى ناستاسيا فيليبوفنا مرة أخرى، ذلك المساء نفسه، في شرفتها في «المسرح الكبير» الذي يعرض الليلة مسرحية باليه. هه! حاول في بيت أبينا أن تذهب إلى الباليه: لو خطر ببالك شيء من هذا لكانت عقوبتك عقوبة واحدة هي القتل! مع ذلك استطعت أن أهرب لمدة ساعة. فرأيت ناستاسيا فيليبوفنا مرة أخرى، ثم بت ليلتي مسهداً لا يعرف النوم إلى جفني سبيلاً. وفي صباح اليوم التالي أعطاني المرحوم أبي سنيين ماليين قيمة كل منهما خمسة آلاف روبل قائلاً لي: «امض بهما، ثم اذهب بعد ذلك إلى مكتب أندرييف لسداد حساب مقداره سبعة آلاف وخمسمائة روبل. أما الباقي فأعده إليّ دون أن تتسكع في الطريق. سأبقى في الدار أنتظرك». بعث السنيين، وقبضت المال، ولكنني لم أذهب إلى أندرييف، وإنما أسرعرت أمضي قُدماً إلى «المخزن الإنجليزي»، فاخترت قرطين للأذنين تزينهما ماستان يبلغ حجم كل منهما حجم بندقة. أنفقت في ثمنهما العشرة آلاف روبل، حتى لقد احتجت إلى أربعمائة روبل مرة أخرى، ولكن حين ذكرت اسمي أولاني التاجر ثقتي. وحملت القرطين، وذهبت إلى زالويجيف فقلت له: «والان فلنذهب إلى ناستاسيا فيليبوفنا يا صاحبي!». وسرنا في الطريق. أصبحت لا أشعر بالأرض تحت قدمي، وكنت لا أرى شيئاً مما يجري أمامي ولا حولي! ودخلنا إلى الصالون رأساً! ها هي ذي تصل! لكنني لم أجد في تلك اللحظة أن أقدم نفسي. أن زالويجيف هو الذي أعلن لها قائلاً: «هذه هداية من بارفيون روجويين، ذكرى للقاء الأمس، أرجو أن تتلطفني فتقبلها». فتحت ناستاسيا العلبة، وأنعمت النظر في القرطين، ثم قالت مبتسمة: «أشكر عني لصديقك السيد روجويين لفتته اللطيفة». ثم حيتنا وخرجت. ليتني مت في مكاني ذلك اليوم! والحق أنني ذهبت إلى هناك مقدراً أنني لن أرجع حياً. وإنما أعاظني خاصة أن ذلك الحيوان زالويجيف قد نسب الفضل لنفسه في الأمر كله. كنت أنا

بقامتي الضئيلة وملابسي التي تشبه ملابس الخدم واقفاً هنالك محمق العينين مدمر النفس خجلاً. أما هو فكان يرتدي ملابس على أحدث زى، وكان متطيباً بالعطر، مجعداً شعره، وكان زاهي اللون مشرق الوجه، وقد عقد على عنقه ربطة ذات مربعات، وكان لا ينفك يهز عطفه رقة، ويحنى ظهره احتراماً. لا شك أنها اعتقدت أنه هو صاحب الهدية وقد قلت له غاضباً حين خرجنا: «أنصحك بأن لا تفكر فيها، مفهوم؟». فقال: «وددت لو أعرف كيف ستسد حساب سيمون بارفيوننتش!». والحق أنني كنت في تلك اللحظة احترق رغبةً في إلقاء نفسي بالماء بدلاً من العودة إلى الدار. ثم قلت لنفسي: «لا، ليس للأمر أي خطورة في الواقع!». ورجعت إلى الدار كالدخل إلى النار.

دمدم ليبيديف يقول وهو يلوي يديه خوفاً ويرتعش من مجرد تصور الأمر:

– الله الله... كان يتفق للمرحوم أن يرسل رجلاً من الرجال إلى العالم الآخر بسبب عشرة روبلات... فما بالك بعشرة آلاف روبل؟

قال ليبيديف جملته الأخيرة هذه متجهاً بالكلام إلى الأمير.

وكان الأمير يتفرس مستطلعاً في روجويين الذي بدا في تلك اللحظة شاحباً شحوباً أشد

قال روجويين:

– العالم الآخر؟ ماذا تعلم أنت عن هذا؟

والتفت نحو الأمير يستأنف سرد قصته عليه فقال:

– لم يلبث أبي أن عرف كل شيء طبعاً. لقد أخذ زاليوجيف يروي القصة لكل من يريد أن يسمعها. أصعدني أبي إلى غرفة، وحبس نفسه معي فيها، وأخذ يؤدبني خلال ساعة كاملة. وكان يقول: «ما هذا إلا لقمة أولى لتذوق الطعم، ولكني سأعود في هذا المساء، لأهيئ لك ليلة سعيدة ونوماً مناسباً!». هل تعلم ماذا فعل بعد ذلك؟ ذهب إلى ناستاسيا فيليبوفنا بنفسه، هو الشيخ الشائب، فانحنى لها محيياً حتى بلغ بانحنائه الأرض، وأخذ يضرع إليها ويبكي. فإذا هي ترمي العلبة في وجهه آخر الأمر قائلة له: «إليك القرطين فخذهما يا لحية عتيقة! لقد أصبحا أثمن في نظري عشر مرات بعد أن عرفت أن بارفيون حصل عليهما بمجازفة خطيرة كهذه المجازفة! أبلغ بارفيون تحيتي وشكري!». «

«واقترضت بعد ذلك عشرين روبلاً من سرجي بروتوشين، وركبت القطار متجهاً

إلى بسكوف بموافقة أمي ومباركتها. فما وصلت إلى بسكوف حتى كنت أرتعد من الحمى. وأسرعت العجائز تعالجنني وتداويني بتلاوة صفحات من حياة القديسين. فكنت مصعوقاً مبهوتاً. ثم خرجت أطوف بالكاباريهات، وأنفق فيها آخر ما بقي لي من قروش. وقضيت الليلة كلها في الشارع، منهاراً أكاد أموت من فرط السكر. حتى إذا طلع الصباح كنت أهذي. ومما زاد الطين بلة أن الكلاب تعرّضت لي في أثناء الليل وراحت تعضني وتنهشني في كل موضع من جسمي. ولم أسترد صحوي إلا بعد كثير من العناء.

قال ليبيديف وهو يضحك ساخراً، ويفرك يديه إحداهما بالأخرى:

- هيء هيء! بعد اليوم سنسمعها تغني، ناستاسيا فيليبوفنا هذه. ليست المسألة الآن مسألة قرطين يهديان إليها، فلسوف تُغمر بعد هذه الساعة بهدايا تبلغ من الكثرة أنها...

فزأر روجويين يقول وهو يمسك ليبيديف من ذراعه بوحشية:

- يميناً... لو قلت كلمة واحدة عن ناستاسيا فيليبوفنا، فلأرسلن إليك لكلمات كتلك اللكمات المتلاحقة التي... مهما تكن قد تجولت مع ليخاتشوف، فإن ذلك لا يمنعني من أن أسلخ جلدك ضرباً بالسياط. - إذا جلدتني بالسوط كان ذلك دليلاً على أن في نيّتك أن تحتفظ بي قريباً منك. فاجلدني إذن! إنك إذ تجلدني تدع عليّ طابعك. هه! ها نحن وصلنا!

كان القطار يدخل المحطة فعلاً. ورغم أن روجويين قد زعم أنه غادر بسكوف خفيةً دون أن يذكر ذلك لأحد، فقد كان ينتظره في المحطة عدد من الأشخاص أخذوا يصيحون وهم يلوحون له بطاقياتهم.

دمدم روجويين يقول وهو ينظر إليهم منتصراً ضاحكاً ضحكة خبيثة:

- هه! هذا زالويجيف أيضاً!

والتفت نحو الأمير فجأةً فقال له:

- اسمع يا أمير، لقد شعرت نحوك بعاطفة ومودة، لا أدري لماذا! ربما كان مردّ ذلك إلى أنني التقيت بك في لحظة كهذه اللحظة. ولكنني في هذه اللحظة أيضاً إنما التقيت بذلك الوغد (قال ذلك مشيراً إلى ليبيديف) فلم أحبه. زرني يا أمير. سوف نخلّصك من لبادتي حذاءيك البشعيتين هاتين. وسأعطيك معطفاً جميلاً جداً من فراء السمور. وسأوصي لك برداء «فراك» أيضاً، «فراك» من الطراز الأول، وبصديرة لونها

أبيض أو لونها هو اللون الذي تختاره! سأملأ جيوبك مائلاً... وسنمضي نرى ناستاسيا فيليبوفنا... أتزورني أم لا؟

قال ليبيديف ملحاً بلهجة فخمة تحاول الإقناع:

- فكر جيداً يا أمير. لا تفوت هذه الفرصة! لا تفوتها!

نهض الأمير، ومدّ يده إلى روجويين في أدب، وأجابه بلهجة رقيقة لطيفة:

- سيسرني جداً أن أزورك. وإنني لأشكر لك عاطفتك شكراً لا نهاية له. قد أجيئك في هذا اليوم نفسه إذا اتسع وقتي. يجب أن أعترف لك صادقاً مخلصاً بأنني أعجبت بك أنا أيضاً أكبر الإعجاب، ولا سيما حين قصصت عليّ حكاية دينك القرطيين المزدانين بالماس. وحتى قبل أن تحكي لي قصة القرطيين شعرت نحوك بإعجاب، رغم تجهم وجهك. أشكرك أيضاً على المعطف والثياب التي تنوي أن تهديها إليّ. ذلك أنني سأكون في حاجة كبيرة إليها قريباً، ولست أملك لشراء مثلها الآن قرشاً واحداً.

- سيكون معي مال، سيكون معي مال منذ هذا المساء.

تعال زرني!

ردّد الموظف يقول:

- سيكون معه مال، سيكون معه مال، سيكون معه مال منذ هذا المساء.

- قل لي أولاً يا أمير. أنت تحب الجنس اللطيف كثيراً؟

- أنا؟ لا! يجب أن أقول لك... لعلك لا تعلم.. ولكنني بسبب مرضي الولادي لم أعرف النساء قط!

فهااتف روجويين يقول:

- فإذا كان الأمر كذلك يا أمير، فأنت رجل كامل البراءة حقاً! والله يحب أمثالك!

قال ليبيديف مؤيداً:

- نعم نعم، الله يحبهم.

وقال روجويين أمراً:

- واتبعني أنت يا حضرة الموظف!

خرج الثلاثة من حافلة القطار. لقد بلغ ليبيديف مأربه أخيراً. ولم تلبث عصابة روجويين الصاخبة أن ابتعدت في اتجاه شارع فوزنسكي وكان على الأمير أن يدور إلى جهة ليتاينايا.

الجو يسوده الضباب وتملؤه الرطوبة. سأل الأمير المارّة. فعرف أن عليه أن يقطع ثلاثة فراسخ حتى يصل إلى حيث يريد أن يصل. فقرر أن يركب عربة.

الفصل الثاني

يسكن الجنرال أيبانتشين في منزل يبعد قليلاً عن ليتاينايا، من جهة كنيسة «التجلي». وهو يملك عدا هذا المبنى الجميل المظهر الذي يؤجر خمسة أسداسه، يملك منزلاً ضخماً للاستثمار في شارع سادوفايا؛ ويملك، قرب بطرسبرج، أرضاً شاسعة ذات غلال كثيرة، كما يملك مصنعا يقع في ضواحي بطرسبرج. إنه رجل ذائع الصيت، كان في الماضي يزاول أعمال تأجير الأراضي للمزارعين، أما الآن فهو مساهم خطير الشأن في عدة شركات كبرى. فهو يُعدّ رجلاً واسع الثراء، يقوم بمشروعات ضخمة وله علاقات رفيعة عالية. وقد استطاع في بعض الأوساط أن يكون إنساناً لا غنى عنه على الإطلاق، ومن بين هذه الأوساط الوسط الحكومي الذي يعمل فيه. ومع ذلك كان من الأمور المعروفة الثابتة أن أيفان فيدروفتش أيبانتشين لم يحصل أي تعليم ولم يجن أي ثقافة، وأن حياته العسكرية قد بدأت في مدرسة من مدارس العرفاء. ومما لا شك فيه أن هذا أمر يشرفه، ولكن الجنرال، رغم ذكائه، كان لا يخلو من بعض نقاط الضعف التي يمكن أن تغفر له على كل حال؛ من ذلك أنه كان لا يطيق أن يُشار إلى ماضيه. أما أنه ذكي وحاذق، فهذا أمر لا يسعك إلا تسلّم له به. فمن آيات ذلك مثلاً أنه قد اتخذ لنفسه مبدأ يلتزمه ولا يحيد عنه، وهو أن لا يضع نفسه في المقدمة يوماً، وأن يمحى متى وجب ذلك وكان كثير من الناس إنما يقدرونه لهذه البساطة بالذات، ولهذه اللباقة التي تجعله يعرف دائماً أين مكانه الصحيح فيقف فيه، وأين حدوده فلا يتعداها. ومع ذلك لیت الناس الذي يرون فيه هذا الرأي الحسن، ويحكمون عليه هذا الحكم الطيب، لیتهم يعرفون ما كان يجري أحياناً في نفس إيفان فيدروفتش هذا الذي كان واضحاً أنه يحسن المحافظة على مكانه!...

إن الجنرال أيبانتشين، رغم خبرته الواسعة في الأعمال، ورغم مواهبه الممتازة، كان يؤثر أن يظهر خادماً متحمساً لأراء غيره على أن يفرض آراءه هو. «خادم أمين، نعم، ولكن لا متملق دنيء»^[9]. وكان إلى ذلك - وهذه علامة من علائم العصر - يرى أن من شرف الإنسان أن يكون رجلاً ثابت الجنان، أن يكون روسياً حقيقياً. فمن هذه الناحية، اتفق أن حدثت له مغامرات أليمة مؤسفة، ولكن الجنرال ليس من الرجال الذين تخور عزائمهم ويدب إليهم اليأس حتى إزاء أصعب الظروف الشائكة. وبالإضافة إلى هذا، كان

موفقاً في المقامرة بمبالغ ضخمة. على أنه كان لا يحاول أن يتستّر على هذا العيب الطفيف أو هذه الخطيئة اليسيرة التي يدين لها في كثير من الأحيان بأرباح طائلة. بالعكس: كان يعلنها ويذيعها.

إنه ينتمي إلى بيئة خليطة طبعاً، ولكنها بيئة غنية وذات نفوذ على كل حال. وكان هو ينتظر من المستقبل كل شيء: أن في عمره لمتسعاً، ولا بد أن يجيء كل شيء في يوم من الأيام. أن الجنرال أيبانتشين ما يزال - كما يقال - في سن هي سن القوة. أن عمره ستة وخمسون عاماً، وهو العمر الذي يتفتح فيه الرجل تفتحاً كاملاً، العمر الذي يبدأ فيه الرجل «حياته الحقّة» فعلاً! صحته الحسنة، لونه النضر، أسنانه القوية رغم سوادها، جسمه المتين الشديد، وجهه الذي يعبر في الصباح عن الاهتمام بالعمل، ويعبر في المساء عن المرح أثناء اللعب بالورق أو في منزل صاحب السمو^[10]، ذلك كله كان يساهم في تحقيق نجاحه حاضراً ومستقبلاً، وينثر على طريق صاحب السعادة الورود.

وكانت أسرته زهراً متفتحاً. صحيح أنها لا تضم إلا وروداً، ولكن من حق الجنرال أن تكون له آمال عراض. هل هناك، في حقيقة الأمر، من هدف أخطر شأنًا وأقدس قداسة من مستقبل الأسرة؟ بم يمكن أن يتعلق المرء أن لم يتعلق بالأسرة؟ كانت أسرة الجنرال تتألف من زوجته وبنات ثلاث كبيرات. لقد تزوج الجنرال وهو في شرح الشباب، حين لم يكن إلا ملازماً أول، تزوج فتاة تكاد تكون في مثل سنه. لم تكن الفتاة متألفة لا بجمالها ولا بثقافتها. وهي عدا ذلك لم يتجاوز مهرها الذي حملته إليه خمسين نفساً؛ ولكن هذا كان بداية ثرائه والحق يقال: أن الجنرال لم ينكر في يوم من الأيام أنه تزوج قبل الأوان، لا ولا نسب هذا الزواج يوماً إلى حماسة الصبا واندفاع الشباب. وكان يحترم زوجته ويهابها، حتى لقد وصل من ذلك إلى حبها.

كانت الجنرالة، زوجة الجنرال، من سلالة الأمراء آل ميشكين، وهم أسرة عريقة جداً، وإن لم تكن متألفة كثيراً. وكانت الجنرالة تزهو بهذا المحتد النبيل زهواً كبيراً، وتستمد منه احتراماً لنفسها عظيماً. أن شخصية من شخصيات ذلك الأوان التي كان لها تفوق، شخصية من تلك الشخصيات التي تحب أن تكون لها صفة الحماية (وهي حماية لا تكلف صاحبها أية نفقة على كل حال)، قد أراد أن يهتم بزواج الأميرة الشابة، ففتح ذلك أمام الملازم الأول الشاب أبواب الارتقاء ودفعه إليها. ولم يكن أيبانتشين في حاجة إلى أن يدفع دفعاً، بل كانت تكفيه نظرة تشجيع، فلا تغيب عنه أو تفلت منه. وعاش الزوجان سني زواجهما الطويل في وفاق تام، باستثناء مصادفات طارئة قليلة. لقد استطاعت الجنرالة، بفضل منبتها الذي يصلها بسلالة أمراء، ولأنها آخر من يحمل اسم

هذه السلالة، وربما بسبب مزاياها الشخصية أيضاً، استطاعت منذ طفولتها أن تجد لنفسها حاميات لهن مراكز عليا ومنازل سامية. وبعد ذلك، وبفضل رتبته الرفيعة، أصبحت لا تشعر في المجتمع الراقي بأي حرج، بل كانت تحسي فيه بارتياح كامل وانطلاق تام.

وفي هذه السنين الأخيرة تفتحت وازدهرت بناتهما الثلاث: الكسندرا، وأديلايد، وأجلايا، ورغم أنهن يحملن اسم أيبانتشين فحسب، فقد دخلن الحياة بأرصدة عظيمة، هي: محتد أمهن التي تنتمي إلى سلالة أمراء، مهرٌ ضخّم محترم، نجاح أبيهما في المجتمع نجاحاً يبيح له أن يطمح في المستقبل إلى أعلى المناصب، ومن الأمور التي لا تفسد عليهن شيئاً، أنهن كنّ على جانب من الجمال، بما في ذلك كبراهن التي بلغت من عمرها خمسة وعشرين عاماً. وكان عمر الوسطى ثلاثة وعشرين؛ أما الصغرى فقد أتمت العشرين منذ قليل. والصغرى هذه يمكن أن يقال عنها: إنها بارعة الحسن فتانة الجمال حقاً، حتى لقد أخذ المجتمع يتحدث عنها كثيراً، فيمتدح جمالها ويشيد بحسنها. بيد أن هذا لم يكن كل شيء. فبنات الجنرال الثلاث كن يتألّقن كذلك بثقافتهن، وذكائهن، ومواهبهن. وكان من المعروف عنهن أيضاً أنهن متحابات كثيراً، وأنهن يتساندن تسانداً كبيراً. حتى لقد تحدث الناس في هذا الصدد عن تضحيات ارتضت الكبريان أن تقدماهما لأختهما الصغرى، معبودة الأسرة كلها. ولقد كن في المجتمع يتحاشين أن يضعن أنفسهن في المقدمة، حتى لقد كن مسرفات قليلاً في التواضع. فما من أحد يستطيع أن يأخذ عليهن شيئاً من عجب أو عجرفة؛ ولكن كان معروفاً مع ذلك أن لهن كبرياً وهن وأنهن يعرفن قدرهن ويشعران بقيمتهن. كانت الكبرى موسيقية، وكان أديلايد تملك موهبة عظيمة في فن الرسم، وهي موهبة ظلت مجهولة سنين طويلة، إلى أن اكتشفت في الآونة الأخيرة بمصادفة بحثة. الخلاصة أن الناس كانت تكيل لهن المديح وتغمرهن بالثناء. على أن هناك السنة سوء طبعاً، فمن ذلك خاصة أن بعض الناس كانوا يتحدثون بقلق وخوف عن قائمة الكتب التي قرأوها.

لم تكن الفتيات تستعجل أمر زواجهن. كن حريصات على بيئتهن الاجتماعية حرصاً كافياً، ولكن بغير غلو أو مبالغة، فكان في هذا تعارض واضح مع ما يتصف به أبوهن من طبع خاص ومطامح كبيرة وآمال عريضة.

كانت الساعة قرابة الحادية عشرة حين رن الأمير ميشكين جرس باب الجنرال. أن شقة الجنرال تقع في الطابق الأول، وهي على تواضعها تلبي مطالب منزلته ورتبته.

فتح له الباب خادم يرتدي ثياباً مزركشة من ثياب الخدم، واضطر الأمير إلى أن يقدم شروحاً طويلة لهذا الرجل الذي تفحصه في أول الأمر مرتاباً، ونظر إليه وإلى

صرّته شزراً. وأخيراً، بعد أن أكد له الأمير تأكيداً قاطعاً أنه هو الأمير ميشكين فعلاً، وأنه في حاجة ملحة إلى أن يرى الجنرال بشأن مستعجل، أدخله الخادم مبهوتاً إلى حجرة مدخل صغيرة تلاصق قاعة الانتظار، وتتصل بمكتب الجنرال. وهناك عهد به إلى خادم آخر يتولى الخدمة في حجرة المدخل هذه كل صباح، ويبلغ الجنرال عن وصول الزوار. أن هذا الرجل الذي تجاوز الأربعين من عمره، والذي يرتدي رداء رسمياً، يعبر وجهه دائماً عن كثرة الهم وشدة الانشغال. ولقد كان مكلفاً بخدمة مكتب صاحب السعادة خاصة، فهو لذلك قوي الشعور بخطورة شأنه وعلو منزلته

قال يخاطب الأمير بوقار ورصانة:

– انتظر في الصالون. أما صرّتك هذه فاتركها هنا.

ثم جلس على مقعد من المقاعد بكثير من التعالي، وهو يلقي على الأمير نظرة قاسية مدهوشة.

جلس الأمير على كرسي، وبيده صرّته، وقال:

– إذا سمحت، فأنا أفضل أن أنتظر هنا في صحبتك على أن أبقى وحدي هناك!

– ليس لائقاً أن تبقى في حجرة المدخل لأنك زائر. أنت ترغب في التحدث إلى الجنرال نفسه؟

كان واضحاً أن الخادم لا يكاد يستطيع أن يسلم بأن عليه أن يبلغ الجنرال عن وصول زائر كهذا الزائر، فقرر أن يعاود سؤاله.

بدأ الأمير يتكلم فقال:

– نعم، أربح في التحدث إلى الجنرال نفسه بشأن من الشؤون..

فقال الخادم يقاطعه:

– لا أسألك أن تذكر لي الشأن الذي تريد أن تحدث الجنرال فيه. فإن وظيفتي تقتصر على إدخالك إليه. ولكنني أعود فأقول لك: إنني في غيبة السكرتير لا أستطيع أن أبلغ الجنرال عنك.

كان ترتيب هذا الرجل يزداد دقيقة بعد دقيقة فيما يبدو. أن مظهر الأمير يختلف اختلافاً كبيراً عن مظهر الزوار المألوفين. صحيح أن الجنرال كان يستقبل في كثير من الأحيان، أن لم يكن في كل يوم، في ساعة معينة، ولا سيما من أجل «أعمال»، أفراداً

من كل نوع. ومع ذلك ظل الخادم حائراً، كان يبدو له أن وساطة السكرتير لا بد منها لإدخال الأمير على الجنرال.

وسأله أخيراً على نحو إليّ تقريباً:

– إذا... أنت قادم حقاً... من الخارج؟

ثم أخذ يغمغم، فلعله كان يريد أن يقول: «أأنت أمير من أسرة ميشكين فعلاً؟».

أجاب الأمير:

– نعم، تركت القطار منذ قليل. ولكن يخيل إليّ أنك أردت أن تسألني هل أنا حقاً

أمير من أسرة ميشكين، ثم لم تلق عليّ هذا السؤال أدباً ولطفاً.

همهم الخادم مدهوشاً:

– هم... هم...

قال الأمير:

– أؤكد لك أنني لم أكذب عليك. لن تتعرض لأي تأنيب. أما ملابسي وصرّتي

فليس في أمرها ما يبعث على الدهشة: ليست أمتعتي الآن بالأمتعة الراقية!

– هم... ليس هذا ما أخشاه. أنا مضطر أن أبلغ عنك الأمير. سيجيئ السكرتير

حتماً ليبراك... اللهم إلا أن... أن المزعج في الأمر إنما هو... اللهم إلا أن... أأنت تريد

مقابلة الجنرال لطلب معونة والتماس مساعدة؟ هل تسمح لي بأن ألقى عليك هذا

السؤال؟

– لا، لا، اطمئن كل الاطمئنان... ثق كل الثقة... فإنما أنا آتٍ لأمر آخر تماماً.

– معذرة، لقد سألت هذا السؤال بعد أن رأيت ثيابك. انتظر السكرتير. أن الجنرال

مشغول الآن مع الكولونيل. وبعد ذلك سيجيئ سكرتير إحدى الشركات.

– ما دمت سأنتظر مدة طويلة، فإنني أتمنى أن أرجوك أن تسمح لي بالتدخين في

مكان ما، معي غليوني ومعني تبغ.

ألقى عليه الخادم نظرة دهشة واحتقار، كأنه لا يصدق أذنيه:

– تدخن؟ تدخن؟ لا، لا تستطيع أن تدخن هنا؛ بل أن عليك أن تخجل لأن هذا خطر

ببالك. هم... يا له من كلام!

- عفوك! أنا لم يخطر ببالي أن أدخن في هذه الحجرة. إنني أعرف آداب السلوك وعادات المجتمع. وإنما أردت أن أذهب إلى مكان تدلني عليه فأستطيع أن أدخن فيه. إنني متعود على التدخين، ولم أدخن منذ ثلاث ساعات. على كل حال، لك ما تشاء. ولا شك أنك تعرف المثل القائل: «في دير أجنبى»^[11]...».

جمجم الخادم رغم إراداته قائلًا:

- ولكن كيف تريدني أن أبلغ الجنرال عن وصول زائر مثلك؟ أولاً ليس مكانك هنا، وإنما ينبغي أن تكون في الصالون. أنت هنا بمثابة زائر، أي بمثابة ضيف. لسوف ينالني تأنيب، ولكن أتراك تريد أن تنزل وتسكن معنا؟

أضاف الخادم تلك الجملة الأخيرة وهو يلقي، من جديد، نظرة مواربةً على الصرّة التي كان واضحاً أنها تقلقه.

قال الأمير:

- لا أظن ذلك. حتى لو دُعيت، فلن أبقى هنا. أنا إنما جئت للتعارف، ولا شيء غير ذلك.

صاح الخادم يقول مذهولاً وقد ازدادت علائم الارتياح في وجهه:

- كيف؟ للتعارف؟ فلماذا قلت لي إذاً: إنك جئت لشأن من الشؤون، لعمل من الأعمال؟

- ليس مجيئي لعمل تماماً. أقصد.. أن مجيئي لعمل أن شئت؛ أو قل: إنني جئت أسأل نصيحة. لقد جئت لأقدم نفسي خاصة، لأنني واحد من الأمراء ميشكين، والجنرالة إيبانتشين هي أيضاً آخر أميرات ميشكين، ولم يبق أحد غيرنا من سلالة الأمراء هذه.

صاح الخادم يقول مرتاعاً أشد الارتياح:

- معنى هذا أنك قريب من الأقرباء فوق ذلك؟

- قريب قرابة بعيدة جداً. أقصد: يمكن أن نعد قريبين إذا نحن أردنا ذلك، ولكن قرابتنا تبلغ من البعد أن من الصعب أن نعد قريبين. لقد كتبت إلى الجنرالة في ذات يوم، من الخارج، لكنها لم تبعث إليّ بجواب. ومع ذلك رأيت أن من الضروري أن اتصل بها عند عودتي إلى البلاد. إذا كنت أشرح لك هذا كله، فلنكي أنتزع من نفسك شكوكها، لأنني ألاحظ أنك ما تزال قلقاً. ليس عليك إلا أن تعلم الجنرال أن الأمير

ميشكين يستأذن في الدخول. حتى تصبح غاية مجيئي واضحة على الفور. فإن استقبلت كان هذا خيراً وبركة، وإن لم أستقبل فقد يكون هذا خيراً وبركة أيضاً. لكنني أحس أنهم لا بد أن يستقبلوني. فالجنرالة ستريد حتماً أن ترى الرجل الوحيد الذي بقي من أسرة الأمراء التي تنتمي هي إليها. فهي تحرص كثيراً على نسبها، كما سمعت ذلك عنها.

كان حديث الأمير يصطبغ ببساطة مطلقة ومع ذلك كان الخادم يزداد حيرة واضطراباً على قدر ازدياد البساطة في حديث الأمير، فهو بحكم تجربته لا يستطيع إلا أن يدرك أن هذه اللهجة التي تصلح لحديث يدور بين انسا وإنسان، لا تناسب حديثاً يدور بين زائر وخادم. ولما كان «الناس» أذكى كثيراً مما يتصور سادتهم، فقد انتهى صاحبنا الخادم إلى تصور حلين ممكنين: فإما أن هذا الأمير ليس إلا متشرداً أفاقاً يلتمس مساعدة، وإما أنه رجل ضعيف العقل بسيط الفكر. ذلك أن أميراً له عقل راجح وكبرياء شديدة لا يمكن أن يمكث منتظراً في غرفة المدخل، متحدثاً عن شؤونه مع خادم. وخلص الخادم إلى هذه النتيجة، وهي أنه سيكون مسؤولاً في الحالتين كليهما.

قال للأمير ملحاً بأكبر شدة ممكنة:

- يليق بك مع ذلك أن تنتقل إلى الصالون.

فأجاب الأمير ضاحكاً:

- ها قد رأيت بنفسك أنني لو انتظرت هنالك لما استطعت أن أشرح لك تلك الأمور كلها، ولظلمت قلقاً من ردائي وصرّتي. أما الآن فقد لا يكون من الضروري أن تنتظر السكرتير. أظن أنك تستطيع بنفسك الآن أن تبلغ عني.

- لا أستطيع أن أبلغ عن زائر مثلك. يجب أن يتم ذلك بواسطة السكرتير؛ لا سيما وأن الجنرال قد أوصاني منذ قليل بالألا أزعجه لأي سبب من الأسباب وبأي عذر من الأعذار ما ظل الكولونيل هنا. أن جبريل آرداليوننتش^[12] وحده يحق له أن يدخل دون أن يستأذن له.

- أهو موظف؟

- من؟ جبريل آرداليوننتش؟ لا، هو مستخدم في الشركة. اسمع: ضع صرّتك هنا على الأقل.

- خطر ببالي هذا. يسرني أن أضع الصرة هنا، ما دمت تأذن لي بذلك. على كل

حال، أحب كثيراً أن أخلع هذا الرداء أيضاً. ما رأيك؟

- طبعاً. لا تستطيع أن تدخل على الجنرال بهذا الرداء على كل حال!

نهض الأمير، فخلع رداءه بسرعة، فبدأ لابساً سترة لائقة المظهر حسنة التفصيل، وإن تكن مهترئة بعض الاهتراء؛ ولاحت تحت السترة، على الصديرة، سلسلة من معدن قد علقت بها ساعة فضية من جنيف.

شعر الخادم، رغم أنه صنف الأمير رجلاً ضعيف العقل، شعر بأنه ليس من اللائق أن يمضي في الحديث مع الأمير إلى أبعد مما مضى إليه حتى الآن. ومع ذلك نال الأمير شيئاً من رضاه، لا يدري هو نفسه لماذا! ولكن الأمير قد أثار فيه مع ذلك شعوراً واضحاً بالاستياء.

سأله الأمير وهو يعود يجلس في مكانه:

- والجنرالة متى تستقبل؟

- ذلك ليس من شأني أنا. والأمر مرهون بنوع الزائر. فهي مثلاً تستقبل صانعة قبعاتها في الحادية عشرة. كما أن جبريل أرداليونتش يحق له، هو أيضاً، أن يدخل عليها قبل غيره، ولو في ساعة الإفطار.

قال الأمير:

- البيوت أدفاً في الشتاء هنا من البيوت في البلاد الأخرى. والخلاء في البلاد الأجنبية أقل برداً من الخلاء هنا. ولكن ما من روسي يستطيع أن يعيش في بيوتهم، من شدة البرد فيها.

- أهم لا يدفنون إذاً؟

- بلى! يدفنون! ولكن المنازل هناك مبنية بطريقة أخرى، أقصد النوافذ والمدافئ.

- هم... وهل غبت هناك مدة طويلة؟

- أربع سنين. أقصد: مكثت طول الوقت تقريباً في مكان واحد، في الريف.

- لا شك أنك فقدت عادة الحياة في بلادنا، هه؟

- صحيح. هل تصدّق؟ إنني لأشعر بدهشة أحياناً من أنني لم أنسَ اللغة الروسية نسياناً تاماً. إنني أكلّمك الآن فأقول لنفسي: «إن لغتي لم تسوّ كثيراً». ولعل هذا هو

السبب في أنني ثرثار إلى هذا الحد. هذه هي الحقيقة: إنني منذ أمس اشتهد طول الوقت أن أتكلّم الروسية!

– هم... قلّي لي: هل كنت تسكن في بطرسبرج من قبل؟

كان الخادم رغم شدة حرصه على أن يسيطر على نفسه وأن يمسك عن الكلام، لا يستطيع أن يقطع حديثاً يبلغ هذا المبلغ من اللطف والكياسة والذوق.

أجاب الأمير:

– بطرسبرج؟ لا... لم أكن أقيم بها... وإنما كنت أمر بها مروراً. ثم إنني حتّى في ذلك الأوان لم أكن أعرف شيئاً هنا. فما بالك الآن وقد ازدادت الأمور الجديدة ازدياداً يجعل حتّى العارفين مضطرين أن يتعلموا كل شيء من جديد. من ذلك مثلاً المحاكم الجديدة التي يكثر الحديث عنها في هذه الأيام^[13].

هم... محاكم... نعم، هنالك محاكم، لا شلّك في هذا. ولكن قل لي: هل المحاكم هناك، في البلاد الأجنبية، أعدّل من المحاكم هنا؟

– لا أدري. سمعت كثيراً من الثناء على القضاء عندنا. من ذلك أن عقوبة الإعدام قد ألغيت^[14]...

– وهناك، هل يُعدمون؟

– نعم، رأيت إعداماً في فرنسا، بمدينة ليون^[15]. شنيدر هو الذي قادني إلى هناك.

– يشنقون؟

– لا... في فرنسا يقطعون الرأس.

– وهل يصرخ المعدّمون عندئذ؟

– يصرخون؟ هه... أن قطع رؤوسهم يتم في لحظة. يُضجع المحكوم عليه. فيهوي على رأسه نصل آلة يسمونها مقصلة، نصل ثقيل قوي، يفصل الرأس عن الجسم فوراً. ولكن الشيء الأليم الفظيع إنما هو الإعدادات: قراءة قرار الحكم بالإعدام، إلباس المحكوم عليه، إيثاقه بالحبال، إصعاده على الصقالة. تلك هي البرهة الرهيبة! والجمهور يحتشد، وحتى النساء تتوافدن، رغم أنهم لا يريدون للنساء هناك أن ترى هذا المشهد.

– فعلاً، ليس هذا مكانهن.

- طبعاً، طبعاً! كيف يشهدن تعذيباً كهذا التعذيب؟... لقد كان المحكوم عليه، في ذلك اليوم، رجلاً يبدو عليه أنه لا يهاب ولا يخاف، رجلاً ذكياً، قوي الجسم، ليس شاباً صغيراً بل هو ناضج السن، اسمه نيغروس. ومع ذلك، أؤكد لك، صدقني أن شئت، أؤكد لك أنه حين اعتلى الصقالة كان يبكي، وكان أبيض اللون كورقة. أهذا ممكن؟ أليس هذا فظيلاً؟ هل يمكن حقاً أن يبكي المرء من شدة الخوف؟ لا، لم أكن أصدق أن أحداً يمكن أن يبكي هذا البكاء خوفاً... لست أتكلم هنا عن طفل، بل عن رجل لم يسبق له أن بكى يوماً، عن رجل في الخامسة والأربعين من عمره! ما الذي يحدث للنفس في تلك الدقيقة؟ ما هذه التشنجات التي تصير إليها؟ هذه إهانة للنفس وإساءة إلى الروح. ولقد قيل مع ذلك: «لا تقتل»، فما بالهم يقتلون رجلاً لأنه قتل؟ لا، هذا شيء لا يمكن أن يقبله الإنسان! لقد شهدت ذلك المنظر منذ أكثر من شهر، وما زال يتراءى لي حتى الآن، كأنه أمام عيني، حتى لقد وافاني في أحلامي خمس مرات على الأقل.

تحمس الأمير وهو يتكلم، وتلون وجهه الشاحب بعض التلون. إلا أن لهجة صوته ظلت هادئة. وكان الخادم يصغي إليه باهتمام ومحبة ومودة، حتى وكأنه لا يستطيع أن يحول انتباهه عن القصة. لعله كان هو أيضاً إنساناً من أصحاب الخيال.

قال الخادم:

- من حسن الحظ، على الأقل، أن الإنسان لا يتألم مدة طويلة حين يُقطع رأسه.

فاستأنف الأمير كلامه يقول بحرارة:

- هذه الملاحظة التي ذكرتها أنت الآن تخطر ببال كل إنسان. ولتحقيق هذه الغاية إنما اخترعوا تلك الآلة، أعني المقصلة. أما أنا فقد خطرت ببالي في ذلك اليوم فكرة أخرى إذ تساءلت: «تُرى ألا يمكن أن يكون هذا أسوأ؟». قد تبدو لك فكرتي هذه باعثة على الضحك، بل قد تبدو لك غريبة عجيبة، ومع ذلك فإن فكرة كهذه يمكن أن تخطر ببال أي إنسان إذا هو أعمل خياله قليلاً. فكر في الأمر: لننظر في التعذيب مثلاً. أن الآلام والجروح والوجع الجسمي، أن هذا كله يشغل النفس عن عذابها وينسيها ما قد تكابده من هول، فلا يتألم المرء عندئذ إلا من الجروح إلى أن يموت منها. والألم الرئيسي، والألم الذي هو أشد الآلام قوة قد لا يكون ألم الجروح، بل الألم الذي ينشأ عن يقين المرء من أنه بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة، ثم الآن فوراً، ستترك روحه جسدها، وأنه لن يكون بعد تلك اللحظة إنساناً، وأن هذا أكيد، إنه «أكيد» خاصة. فحين يضع المرء رأسه تحت المقصلة البتارة، وحين يسمع انزلاقها فوقه، في ربع الثانية ذاك، إنما يشعر المرء بالخوف الأكبر. هل تعلم أن هذا الذي أقوله

ليس مستمداً من الخيال فحسب؟ لقد ذكره كثيرون. وإنني لأبلغ من قوة الاقتناع به أنني سأقول لك رأيي في هذا الأمر صريحاً كل الصراحة. أنا أرى أن قتل إنسان بسبب ارتكابه جريمة قتل هو قصاص لا تناسب بينه وبين الجريمة نفسها. أن قتل قاتل أفضح كثيراً من جريمة القتل التي ارتكبها ذلك القاتل. أن الإنسان الذي يقتله القتلة، إذ يذبحونه ليلاً في غابة أو غيرها، يظل إلى آخر لحظة يأمل أن ينجو. يروي الناس عن مقتولين أنهم ظلوا، بعد حزنٍ رقابهم، يأملون ويحاولون الفرار ويتضرعون سائلين الشفقة عليهم والرفقة بهم. أما في الإعدام فإن الأمل الأخير، الأمل الذي يجعل احتمال الموت أسهل عشر مرات يُنتزع منك «حتماً». أن صدور الحكم واستحالة الإفلات منه هما اللذان يجعلان العذاب رهيباً فظيعاً. صدقني: ليس في الدنيا عذاب أشد هولاً من هذا العذاب. لو أخذت جندياً فوضعت في قلب المعركة أمام فوهة المدفع، ثم أطلقت عليه النار، لظل يحتفظ بالأمل إلى آخر لحظة. أما إذا قرأت لهذا الجندي نفسه قراراً يحكم عليه بموت «مؤكد»، فإن هذا الجندي سيفقد عندئذ عقله، أو سيجهش باكياً. من ذا الذي قرر أن الطبيعة الإنسانية تستطيع أن تحتل تعذيباً كهذا التعذيب دون أن تهوي إلى الجنون؟ فيم إيقاع أذى يبلغ هذا المبلغ من السوء والعقم؟ ربما كان يوجد في هذا العالم إنسان حُكم عليه بالموت، وشرع في تعذيبه ذلك التعذيب، ثم قيل له أخيراً: «امض فقد صدر عفو عنك!»^[16]. أن في وسع هذا الإنسان أن يحكي لكم وأن يقص عليكم. المسيح نفسه قد تكلم أيضاً عن هذا العذاب، عن هذا الخوف! لا، لا يجوز أن يعامل كائن إنساني معاملة كهذه المعاملة!

فهم الخادم الشيء الأساسي الذي يعبر عنه كلام الأمير، رغم أنه ما كان له أن يستطيع التعبير عنه كما عبر عنه الأمير. نعم، لقد فهم، وكان ذلك واضحاً في ما ظهر على وجهه من علائم التأثر والشفقة والحنان. وقال للأمير:

— إذا كنت ترغب في التدخين رغبة قوية هذه القوة، ففي وسعك أن تدخن، ولكن افعَل بسرعة، إذ ما عساي أصنع إذا طُلبت فُكُنْتُ غائباً! اسمع: هناك، تحت السلم، هل ترى الباب؟ افتح الباب وادخل، فترى على اليمين حجرة صغيرة، ففي إمكانك أن تدخن في تلك الحجرة الصغيرة. ولكن لا تنس أن تفتح الطاقة، فالتدخين هنا مخالفة...

ولكن الوقت لم يتح للأمير أن يمضي إلى تلك الحجرة الصغيرة، فقد دخل إلى الغرفة شاب يحمل بيده أوراقاً، فهب الخادم يأخذ عنه فراءه. وألقى الشاب على الأمير نظرة مواربة.

تكلم الخادم فقال بلهجة من يفضي بسر، دون كلفة:

- هذا يا جبريل أرداليونتش سيدٌ يقول: أنه الأمير ميشكين، قريب الجنرالة. لقد وصل من الخارج ونزل من القطار مع هذه الصرّة. ولكن...

لم يستطع الأمير أن يسمع تتمة الكلام، لأن الخادم أخذ يتكلم بصوت خافت جداً. وكان جبريل أرداليونتش يصغي بانتباه، ويلقي على ميشكين نظرات تفيض استطلاعاً وفضولاً. وكف عن الإصغاء أخيراً، واقترب من الأمير بسرعة، فسأله بتحبب كبير وكياسة عظيمة:

- أنت الأمير ميشكين؟

إنه شاب وسيم الطلعة جداً، في نحو الثامنة والعشرين من العمر هو أيضاً، أشقر اللون، رشيق القوام، أميل إلى الطول، له لحية صغيرة جداً على طريقة نابليون الثالث، وجهه يدل على ذكاء، ويمتاز بجمال. ولكن ابتسامته مفرطة في الرقة على كونها محببة لطيفة، وهي تكشف عن أسنان منضودة كاللؤلؤ مفرطة في الكمال والاتساق. أما نظرته فإنها رغم كل ما فيها من بشاشة وبراعة ظاهرة، كانت تتميز بكثير من الإلحاح، وكان فيها كثير من التدقيق والبحث والتقصي.

«أغلب الظن أن هذا الشاب لا تكون له هذه النظرة نفسها حين يخلو إلى نفسه، ولعله لا يضحك قط». ذلك كان شعور الأمير.

كرر ميشكين، بسرعة، كل ما سبق أن قاله للخادم، وما سبق أن قصّه على روجويين قبل ذلك. فكان جبريل أرداليونتش في أثناء ذلك يبدو كمن ينبش ذكرياته. ثم سأله:

- أأنت أنت الذي كتبت إلى إليزابت بروكوفينا في العام الماضي، أو في وقت أحدث، من سويسرا، فيما أظن؟

- نعم أنا.

- إذا أنت هنا معروف، ولا شك أنهم يتذكرونك. هل تريد أن تقابل صاحب السعادة؟ سأبلغه وصولك. بعد قليل يخلو. ولكن كان ينبغي لك... كان يليق أن تكون في الصالون...

- لماذا بقي السيد هنا؟

- قلت لك. هو نفسه أراد ذلك وأصرّ عليه!

وفي تلك اللحظة فتح باب المكتب فجأة، فخرج منه ضابط يتأبط حقيبة أوراق. كان الضابط يتكلم بصوت عالٍ، ويكثر من التحيات. وصاح صوت من آخر المكتب ينادي:

– أنت هنا يا جانيا؟^[17] تعال اذاً...

أوماً جبريل أرداليونتش للأمير بحركة خفيفة من رأسه، وأسرع يدخل المكتب، وبعد دقيقتين فتح الباب من جديد، وسمع صوت جبريل أرداليونتش، الرنان المتودد، يقول:

– تفضل فادخل يا أمير!

الفصل الثالث

كان الجنرال إيفان فيدروفتش إيبانتشين واقفاً في وسط مكتبه ينظر إلى دخول الأمير باستطلاع شديد وفضول قوي؛ حتى لقد خطا للقائه خطوتين؛ واقترب الأمير وقدم نفسه.

قال الجنرال:

– حسن جداً. في أي شيء أستطيع أن أخدمك!

قال الأمير:

– ليس لي الآن أي أمر مستعجل. وليست غايتي من هذه الزيارة إلا التعارف. لا أحب أن أزعجك. إنني لا أعرف اليوم الذي تستقبل فيه، ولا أعرف العادات التي تأخذ نفسك بها... وقد جئت من محطة القطار إلى هنا رأساً... وأنا قادم من سويسرا...

ابتسم الجنرال ابتسامة خفيفة، لكنه فكر فأسرع يكظمها. ثم فكر مزيداً من التفكير، فغض عينيه وعاد يتفحص الزائر من القدمين إلى الرأس، ثم أشار له إلى الكرسي ليجلس عليه. وجلس هو نفسه متنجحاً بعض التنحي، والتفت نحو الأمير مستطلعاً نافذ الصبر. وكان جانبا واقفاً في ركن من المكتب يستل أوراقاً.

أجاب إيبانتشين قائلاً:

– لا يتسع وقتي عامةً للتعارف مع أناس جدد، ولكن لما كان لك هدف حتماً فإنني...

قاطعه الأمير يقول:

– كنت أحس سلفاً أنك سوف تنسب إلى زيارتي منفعة أبتغيها، أو فائدة ألتمسها. لكنني أحلف لك أنني لا هدف لي إلا مسرتي بمعرفتك.

– المسرة متبادلة طبعاً، ولكن المسرة ليست كل شيء دائماً، فقد يكون هنالك أعمال... ثم إنني لم أتوصل إلى إدراك الصلة التي يمكن أن تربطنا والعلاقة التي يمكن أن تجمع بيننا... أقصد: لست أدرك السبب الذي حملك على أن...

- ما من صلة أو علاقة... ذلك أمر لا جدال فيه... وليس هناك أشياء كثيرة تجمعنا. فلأن أكون من أسرة الأمراء ميشكين ولأن تنتمي زوجتك الكريمة إلى هذه الأسرة نفسها، فليس هذا سبباً كافياً بطبيعة الحال... إنني أدرك ذلك حق الإدراك. ومع هذا فذلك هو السبب الوحيد الذي دفعني إلى المجيء. لقد تركت روسيا منذ أربع سنين، وحين رحلت لم أكن مالكاً جميع قواي العقلية. كنت لا أعرف من الحياة شيئاً. وحتى الآن لا أعرف عنها شيئاً كثيراً. أنا في حاجة إلى معرفة أناس ذوي قلوب كريمة. على سبيل المثال: هناك الآن قضية يجب أن أحلها، ولا أدري من أي طرف أبدأ. قلت لنفسي منذ أن بلغت برلين: «هؤلاء أقرباء لي تقريباً، فسأبدأ إذاً بهم، فلعلنا نستطيع أن ينفع بعضنا بعضاً؛ وهؤلاء أناس ذوو قلوب كريمة». وقد ذكر لي أن لك قلباً كريماً عطوفاً.

قال الجنرال مبهوراً:

- كلام لطيف. هل أستطيع أن أعرف أين نزلت؟

- حتى الآن لم أنزل في مكان!

إذاً، حين تركت القطار، جئت إلى عندي رأساً، هه؟ و.. جئت مع أمتعتك؟

- ليس لي إلا صرة صغيرة بها بعض الملابس، ولا شيء غير ذلك. وأنا أحملها بيدي عادةً. يتسع الوقت، من الآن إلى المساء، لاستئجار غرفة في فندق.

- في نبّله إذاً أن تستأجر غرفة؟

- نعم، طبعاً.

- ظننت من أقوالك أنك كنت تنوي الإقامة عندي.

- كان يمكن أن أفعل ذلك لو دعوتني. ومع هذا أعترف لك بأنني ما كنت لأبقى ولو دُعيت، ما كنت لأبقى بدون سبب. ذلك طبع فيّ.

- إذاً فقد أحسنت لأنني ما دعوتك، ولا أدعوك. كلمة أخرى يا أمير، من أجل أن نضع الأمور في نصابها. ما دمنا قد اتفقنا على أنه لا مجال للكلام عن قرابة بيننا، رغم أن هذه القرابة كان يمكن أن تشرفني طبعاً، فإنه يترتب على هذا...

- يترتب على هذا أنه لم يبق لي إلا أن أنهض وأنصرف.

نهض الأمير وهو يضحك من قلبه، رغم كل ما في هذا الوضع من حرج وارتباك.

وتابع كلامه يقول:

- وأؤكد لك، يا جنرال، أنني رغم قلة خبرتي ورغم جهلي بالعادات هنا، كنت أعلم حق العلم أن الأمور ستجري على هذا النحو تماماً. على كل حال، ربما كان هذا أفضل... ثم أن رسالتي لم يُردَّ عليها... طيب... استودعك الله، واغفر لي إزعاجك.

كانت نظرة الأمير في تلك اللحظة تفيض لطفاً وبشاشة، وكانت ابتسامته خالية كل الخلو من أي عداوة، وحتى من أي عداوة خفية مستترة، فما كان من الجنرال إلا أن توقف، وأخذ ينظر إلى الأمير بعين جديدة وأصبح وجهه يعبر تعبيراً يختلف كل الاختلاف عما كان قبل ذلك. وقد تحقق له هذا التحول في طرفة عين.

قال الجنرال للأمير بصوت يوشك أن يكون قد تغير تغيراً كاملاً:

- اسمع يا أمير: أنا في الواقع لا أعرفك؛ وربما كانت زوجتي من جهة أخرى تحب أن ترى الرجل الذي يحمل اسم الأسرة الذي تحمله هي... فانتظر إذا شئت وإذا كان يتسع وقتك.

أجاب الأمير وهو يسرع فيضع قبعته المبتلة المدوّرة على المائدة:

- هوه! وقتي يتسع كل الاتساع! وقتي خالٍ كله! أعترف لك بأنني كنت أقدر فعلاً أن إليزابيث بروكوفينا قد تتذكر أنني كتبت إليها. منذ قليل، أثناء انتظاري في حجرة المدخل، خيل إلى خادمك أنني جئت ألتمس بعض المساعدات. لاحظت ذلك على نحو واضح. ولا بد أن أوامرك شديدة في هذا الصدد. أؤكد لك أنني ما جئت لهذا، وإنني لم آت إلا للتعارف حقاً. لكنني أخشى أن أكون قد ضايقتك، وهذا يقلقني.

قال الجنرال وهو يبتسم ابتسامة فرحة:

- طيب يا أمير، إذا كان باطنك كظاهرك، إذا كنت كما تبدو فعلاً، فربما كانت معرفتك تسر وتبهج. ولكنك ترى طبعاً أنني أمرؤ مشغول. سأضطر حالاً إلى العكوف على بعض الأوراق أدرسها وأوقعها، وعليّ بعد ذلك أن أذهب إلى صاحب السمو، ثم أمضي إلى مكنتي. معنى ذلك أنني رغم ابتهاجي الشديد برؤية أناس لطف محبين... أي... ولكن... أقصد أنني على ثقة بأن تربيتك الممتازة لا بد أن... ما سنك يا أمير؟

- ستة وعشرون عاماً.

- حقاً؟ كنت أحسبك أصغر سناً من ذلك بكثير.

- نعم، يقال: إنني أبدو شاباً صغير السن. فيما يتعلق بعدم إزعاجك، سأحاول ألا أزعجك. لأنني أكره أن أزعج... ويخيل إليّ أخيراً أننا مختلفان في الظاهر اختلافاً شديداً... لأسباب كثيرة، وأننا ليس بيننا أمور مشتركة كثيرة؛ رغم أنني في الواقع لا أصدق هذا من جهتي: فكثيراً ما يكون الاختلاف ظاهرياً، وكثيراً ما يكون ثمة في حقيقة الأمر نقاط مشتركة... أن الكسل هو الذي يدعونا إلى التسرع في تصنيف الناس والتفريق بينهم قبل أن نجد ما يحمل على ذلك أو يفرضه. أظن أنني أصبحت مضجراً مملاً، أليس كذلك؟ إنك تبدو...

- كلمة أخرى: هل تملك بعض ثروة على الأقل؟ لعلك تأمل أن تجد عملاً؟ اغفر لي أنني أكلّمك بهذه الفجاجة..

- أرجوك، بالعكس... إنني أفهم اهتمامك هذا وأقدّره حق قدره وأشكره لك. لا أملك الآن أي ثروة، وليس لي أي مركز، لكنني سأحتاج إلى هذا طبعاً. أن المال الذي كان معي إلى الآن ليس مالي. أن شنايدر، الأستاذ الذي كان يعالجنِي ويعلمني بسويسرا، هو الذي أعطاني ذلك المال. وقد أخذت منه ما يكفيني للرحلة بلا زيادة ولا نقصان، فلم يبق معي الآن إلا بضعة كويكات. في ذهني أمر من الأمور، وأنا في حاجة إلى نصائح، ولكن...

قاطعه الجنرال سائلاً:

- قل لي: ممّ تنوي أن تعيش بانتظار ذلك، وما هي مشروعاتك؟

- أريد أن أعمل، بطريقة أو بأخرى...

- ها... حقاً إنك لفيلسوف. قل لي: هل عندك موهبة من المواهب؟ هل عندك كفاءات يمكن أن تهَيّ لك خبز يومك؟ مرةً أخرى أعتذر عن...

- لا تعتذر! ما أحسب أن لي موهبة أو كفاءات خاصة. بالعكس: أنا رجل مريض، ولم أتابع تحصيلي. أما عن خبر يومي، فيخيل إليّ..

قاطعه الجنرال مرةً أخرى ليزحمه بالأسئلة. فقص الأمير قصته مرةً أخرى. واتفق أن كان الجنرال قد سمع عن المرحوم بافلتشف، حتى لقد عرفه شخصياً. لم يستطع الأمير أن يشرح لماذا اهتم بافلتشف بتربيته وتعليمه، ولم يزد على أن قال: لعل ذلك لم يكن إلا تكريماً لذكرى صداقته القديمة بالمرحوم أبيه. لقد تيمم الأمير منذ طفولته الغضة، وقضى سنين حياته الأولى بالريف، لأن حالته الصحية كانت تحتاج إلى فضاء

واسع وهواء نقي. وعهد به بافلتشف إلى قريبات له عجائز كن يعشن في أراضيه.

وكانت له في أول الأمر خادم تشرف على تربيته، ثم أصبح له بعد ذلك مربّ يتولى تعليمه. ورغم أنه يتذكر كل شيء تذكراً واضحاً قوياً، فإنه لم يستطع أن يقدم تعليقات كافية وتفسيرات مقنعة، لأنه - على حد تعبيره - لم يكن في ذلك الأوان يدرك الأشياء إدراكاً جيداً. وقد جعلته نوبات مرضه المتكررة يصير إلى البلاهة، فهو الآن أبله (قال الأمير كلمة: «أبله»).

وروى الأمير أخيراً أن بافلتشف كان قد التقى في برلين بالأستاذ السويسري شنايدر، الأخصائي في هذا النوع من الأمراض. وكان للأستاذ شنايدر في مقاطعة فاليه بسويسرا مستوصف يداوي فيه المرضى بطريقة خاصة به، أساسها الرياضة البدنية وحمامات الدوش الباردة؛ وكان أيضاً يداوي البله والمجانين، ويعنى بتعليمهم، ويهتم بتنشئتهم الروحية خاصة. وقد أرسل بافلتشف الأمير إلى شنايدر منذ خمس سنين. ومات هو بعد ذلك بثلاثة أعوام، دون أن يتخذ أي تدبير. ولكن شنايدر احتفظ بالأمير وظل يعالجه طوال هذين العامين الأخيرين. ولم يتوصل إلى شفائه من مرضه، لكن العلاج كانت له نتائج حسنة. ثم قرر شنايدر، تلبية لرغبة الأمير نفسه، وعلى أثر حادث جديد، أن يعيده إلى روسيا.

ظهرت على الجنرال دهشة جديدة، وسأله:

- إذاً ليس لك في روسيا أحد؟ ليس لك فيها أي قريب؟

- حتى الآن ليس لي أحد، ولكنني أمل... ثم إنني قد تلقيت رسالة.

قاطعه الجنرال قائلاً دون أن يكون قد سمع الجملة الأخيرة التي تشتمل على إشارة إلى الرسالة:

- ولكن لا بد أنك تعلمت شيئاً ما، على الأقل... لا بد أنك تعلمت مهنة من المهن... أن مرضك لن يمنعك من أن يكون لك وظيفة ما... لا أقول وظيفة صعبة... بل وظيفة ما في إدارة ما.

- طبعاً لا يمنعي مرضي من ذلك. أما عن الوظيفة فإنني أود كثيراً أن يكون لي وظيفة. إنني أحب كثيراً أن أعرف ما أصلح له وما أقدر عليه. لقد ظللت أدرس وأتعلم طوال السنين الأربع الماضية. صحيح أن دراستي لم تكن منتظمة مطردة، لأن أستاذي كان مضطراً أن يستعمل في تعليمي منهجاً خاصاً، لكنني استطعت في الوقت نفسه أن

أقرأ كتباً روسية كثيرة.

- كتباً روسية؟ فأنت إذا تعرف قواعد الإملاء وتستطيع أن تكتب بدون أخطاء.

- آ... طبعاً... مؤكداً..

- عظيم، وخطك؟

- خطي ممتاز؛ بل أستطيع أن أقول من هذه الناحية أن لي موهبة. أنا خطاط فعلاً.

وأضاف الأمير يقول بحماسة:

- انتظر... سأكتب لك شيئاً على الفور من قبيل التجربة.

- افعل! افعل! بل أن هذا سيكون مفيداً جداً. لقد أحببت فيك حسن إرادتك وهمتك يا عزيزي الأمير. حقاً أنك لللطيف كل اللطف.

- ما أجمل أدوات مكتبك! ما أحسن هذه الأقلام، وهذه الريش... ما أروع هذا الورق! وسماكته مناسبة... و يا لها من حجرة مكتب فخمة! اسمع: إنني أعرف هذا المنظر. هو مشهد من سويسرا. أنا على يقين من أن الرسّام الذي صور هذا المنظر قد نقله عن الطبيعة. أنا واثق بأنني أعرف هذا المكان: هو في مقاطعة أوري....

- جائز جداً، رغم أنني اشتريت اللوحة من هنا. يا جانيا، اعط الأمير ورقاً. إليك ريشاً وورقاً. تفضل اجلس إلى المائدة الصغيرة.

والتفت الجنرال نحو جانيا فرآه يخرج من حقيبة أوراقه صورة فوتوغرافية كبيرة ويمدها إلى إيبانتشين. فسأله الجنرال:

- ما هذا؟ آ... هذه ناستاسيا فيلييوفنا! أهى التي أرسلت إليك الصورة؟

كذلك سأله متدفقاً في الكلام، وقد بدا عليه استطلاع قوي وفضول شديد.

أجابه جانيا:

- أعطيتها منذ قليل، حين ذهبتُ أقدم إليها تمنياتك. لقد طلبتها منها منذ مدة طويلة. تُرى أليس في هذا الماع منها إلى أنني جئتُها خالي اليدين لا أحمل لها أي هدية في مثل هذا اليوم؟

أضاف جانيا جملته الأخيرة هذه وهو يبتسم ابتسامة كريهة. فقاطعه الجنرال بلهجة جازمة:

- لا، لا، حقاً أن لك تفكيراً غريباً! أهى امرأة من تلك النساء التي تُلمع، وتغمز وتلمز؟ أنت تعرف حق المعرفة أنها ليست امرأة تنشد منفعة وتلتمس ربحاً. ثم ما عسى تكون الهدايا التي يمكن أن تهديها إليها؟ لامرأة مثلها لا يقدم المرء إلا آلاف الروبلات! كان في وسعك طبعاً أن تقدم إليها صورتك أنت أيضاً. بالمناسبة: ألم تطلب منك صورتك حتى الآن؟

- لا، لم تطلبها حتى الآن، وقد لا تطلبها في يوم من الأيام. أنت لم تنس سهرة اليوم طبعاً يا إيفان فيدوروفتش، أليس كذلك؟ ذلك أنك واحد من ضيوف الشرف.

طبعاً طبعاً، لم أنس .. لم أنس .. سأحظر حتماً .. هو عيد ميلادها... عيد ميلادها الخامس والعشرين... هم... لا بأس يا جانيا، سأفضي إليك بسر. فأصغ إلي: لقد بذلت لي ولأتانازي إيفانوفتش وعداً بأن تعلن قرارها هذا المساء. أكون أو لا أكون. ضع هذا في الحساب، ولا تنسه!

اضطرب جانيا فجأة، حتى لقد امتنع لونه قليلاً. وسأل بشيء من اختلاج في صوته:

- هل قالت هذا حقاً؟

- قطعت على نفسها عهداً منذ ثلاثة أيام. لقد بلغنا كلانا من الإلحاح واللجاجة أنها أذعنت آخر الأمر. لكنها رجتنا ألا نذكر لك شيئاً من ذلك قبل أن تحين الساعة.

كان الجنرال يتفرس في جانيا بنظرة فاحصة، وكان واضحاً أن اضطراب جانيا يسوءه.

قال جانيا مضطرباً متردداً:

- لاحظ يا إيفان فيدوروفتش أنها تركت لي حرية اتخاذ القرار كاملة إلى أن تتخذ قراراً بنفسها. ومن المتفق عليه أن تبقى الكلمة الأخيرة وأن يبقى القول الفصل لي أنا حتى في تلك الحالة.

صاح الجنرال يقول مروّعاً مذعوراً:

- ولكن هل تُراك... هل تُراك ذكرت أن...

- لم أقل شيئاً.

- أرجوك، ما الذي تريد أن تخلص إليه؟

- أنا لا أرفض. لعلمي أخطأت التعبير...

قال الجنرال غاضباً دون أن يحاول كظم استيائه وكتمان امتعاضه:

- لن ينقصنا إلا أن ترفض! يا صديقي، لم تعد المسألة عندنا أن «لا» ترفض. وإنما يجب عليك أن تظهر الغبطة والامتنان والسعادة الكاملة في اللحظة التي تعلن فيها رأيها. وما الذي يجري في بيتك؟

- في بيتي؟ في بيتي يجري كل شيء وفق مشيئتي وإرادتي. أبي وحده يُجنّ جنونه، على عادته. لقد أصبح في منتهى الدناءة. وأصبحت لا أكلمه. لكنني ما زلت أقسو عليه وأغلظ له. ولولا أمي لطردته من المنزل. أمي ما تنفك تبكي طبعاً. وأختي غاضبة غضباً شديداً، لكنني أعلنت لهما إعلاناً قاطعاً واضحاً أنني سيد مصيري، وأني لا أطلب شيئاً في البيت إلا أن أطاع. على كل حال، هذا ما أبلغته لأختي بحضور أمي.

قال الجنرال شارد الذهن وهو يهز منكبيه ويباعد قليلاً بين ذراعيه:

- أما أنا يا عزيزي فما زلت لا أفهم!.. لا شك أنك تتذكر أن نينا ألكسندروفنا، حين زارتني في الأيام الأخيرة، قد أخذت تنتحب وتشن، فلما سألتها: «ماذا بك»، فهمت أن الأمر الذي يؤلمها هو ما يهددهن من «تلطخ الشرف» بالعار فيما يبدو. فأين تلطخ الشرف في هذا كله؟ وددت لو أعرف أين تلطخ الشرف في هذا؟ من ذا الذي يستطيع أن يأخذ على ناستاسيا فيليبوفنا أي شيء، أو أن يروي عنها أي سوء؟ هل يمكن أن تؤاخذ على العلاقة التي بينها وبين توتسكي؟ ألا أن هذا يكون سخفاً كاملاً، لا سيما إذا نظرنا إلى الظروف الخاصة التي تحيط بالأمر. قالت لي عندئذ: «هل تدع لها أن تقترب من بناتك؟». هه! سمعت؟ غريب أمر نينا ألكسندروفنا! أن الأمر مع ذلك واضح، كيف لا تدرك...

- كيف لا تدرك وضعها؟

بهذا أكمل جانبا جملة الجنرال ليخلصه من ارتباك.

ثم تابع كلامه فقال:

- إنها تدرك وضعها حق الإدراك. لا تؤاخذها! ثم إنني قد أسرع ألقنها درساً حتى تتعلم ألا تتدخل في شؤون الآخرين. على كل حال، ما يزال يسود بيتنا شيء من الهدوء، لأن الكلمة الأخيرة ما قيلت بعد. غير أن الصاعقة ستنفجر. فإذا قيلت الكلمة الأخيرة اليوم، أفلت كل شيء من عقاله.

سمع الأمير ذلك الحديث كله، رغم إكبابه في ركنه على عمله في الكتابة بالخط

الجميل.

فلما أنجز عمله اقترب من المائدة، ومدّ الورقة. ودمدم يقول بعد أن أنعم النظر في الصورة بانتباه وتشوّق:

– أهذه إذن ناستاسيا فيليبوفنا؟

ثم أضاف يقول بحرارة:

– إنها رائعة الجمال حقاً!

كانت الصورة الفوتوغرافية تظهر قسمات امرأة ذات جمال نادر فذ في الواقع. والمرأة ترتدي ثوباً من حرير أسود، ثوباً أنيقاً رشيقاً خالياً من البهرج والزخرف: شعرها كستنائي واضح، قد صفف تصفيفاً بسيطاً في تسريحة من الداخل؛ عيناها دكناوان عميقتان؛ في جبينها إمارات تفكير؛ وجهها يعبر عن اندفاع عاطفي، ويعبر عن شيء من تعال وكبرياء، وهو نحيل، ولا بد أن يكون شاحباً.

دُهِش جانيا والجنرال من كلام الأمير، فالتفت نحوه. وسأله الأمير.

– كيف؟ ناستاسيا فيليبوفنا! أنت تعرف ناستاسيا فيليبوفنا؟

فأجاب الأمير:

– نعم، أنا في روسيا منذ أربع وعشرين ساعة بل أقل. ومع ذلك أعرف هذه المرأة التي لا يضارع جمالها جمال.

وأسرع يروي لقاءه مع روجويين، وحكي القصة التي سمعها منه. أبدى الجنرال قلقاً، بعد أن أصغى إلى الأمير بانتباه شديد، وقال وهو يتجه إلى جانيا بنظرة مستفهمة سائلة:

– يا للنبا!

وجمجم جانيا يقول مضطرباً بعض الاضطراب هو أيضاً:

– هي حكاية طيش لا أكثر! ابن تاجر يلهو ويقصف! سبق أن سمعت عنه.

عاد الجنرال يتكلم فقال:

– وأنا سمعت عنه أيضاً يا عزيزي! أن ناستاسيا فيليبوفنا قد روت القصة كلها بعد حكاية القرطين تلك. ولكن الأمر الآن مختلف. ربما كان الأمر الآن أمر مليون...

وهناك أيضاً ذلك الوله... وهو وله خسيس طبعاً، لكنه وله مع ذلك. ونحن نعرف ما قد يفعله أمثال هؤلاء السادة بغير حرج حين يسكرون.

وختم الجنرال كلامه مفكراً حالماً يقول:

- هم... أرجو أن لا يؤدي هذا إلى حادث ما!...

قال جانبا وهو يضحك ضحكة ساخرة:

- هل المليون هو ما تخشاه؟

- أما أنت فلا تخشاه، طبعاً.

قال جانبا فجأة يسأل الأمير:

- قل لي يا أمير: ما شعورك تجاهه، أتشعر أنه رجل جاد أم أنه وغد حقير لا

أكثر؟ ما رأيك الشخصي؟

أحس جانبا بإحساس غريب وهو يلقي هذا السؤال، كأن فكرة جديدة فريدة قد

أنارت ذهنه، فأخذت عينه تسطعان بومضاتٍ من نفاذ الصبر.

وكان قلق الجنرال صادقاً ساذجاً، فالتفت هو أيضاً نحو الأمير، ولكن دون أن يبدو

عليه أنه يتوقع من جواب الأمير أشياء كثيرة.

أجاب الأمير:

- لا أدري ماذا أقول لك. لقد بدا لي على كل حال أنه شاب مشبوب الهوى جامع

العاطفة إلى حد المرض. ثم إنه هو نفسه يشعر من يراه بأنه مريض. ومن الجائز جداً

أن تنتكس صحته منذ أيامه الأولى ببطرسبرج، ولا سيما إذا أخذ يشرب.

هتف الجنرال يقول متشبثاً بهذه الفكرة:

- ها... هذا رأيك إذن؟

- نعم، هذا ما خيل إليّ.

قال جانبا وهو يضحك ساخراً:

- على كل حال، لا تحتاج مغامرة كهذه إلى بضعة أيام لكي تنفجر، حتى لقد نسمع

جديداً قبل هذا المساء.

قال الجنرال:

- هم... طبعاً... هذا جائز... لكن كل شيء رهن إذاً بما يخطر ببالها هي! إنك لتعرف حق المعرفة كيف تكون هي في بعض الأحيان!

ثم صاح الجنرال من جديد وقد استولت عليه حيرة شديدة، وبلبله كبيرة:

- ماذا تريد أن تقول؟ اسمع يا جانيا، أرجوك ملحاً ألا تعاكسها وألا تعارضها اليوم كثيراً. بالعكس: حاول أن تكون... أقصد.. كن لبقاً لطيفاً كيساً... هم... لماذا تلوي فمك هكذا؟ اسمع يا جبريل أرداليونتش: أن لنا أن نضع الأمور في نصابها، أن لنا ذلك! لماذا نحتمل هذا العناء كله؟ إنك لتدرك حق الإدراك أنني، فيما يتعلق بمصلحتي الشخصية في هذه القضية كلها، مغطى منذ زمن طويل. ولسوف أخرج منها بما يناسبني ويلائمني، بطريقة أو بأخرى. لقد اتخذتوتسكي قراراً لا رجعة عنه ولا راد له. فأنا أيضاً هادئ إذاً كل الهدوء، مرتاح كل الارتياح، مطمئن كل الاطمئنان. وإذا كنت ما أزال أرغب في شيء، فهو خيرك أنت. فكر ملياً: ألسنت تثق بي؟ لا سيما وأنت رجل... رجل... رجل ذكي. ثم إنني قد وضعت أمني فيك. وفي الوضع الراهن، في الوضع الراهن...

- هذا هو الشيء الرئيسي!

كذلك قال جانيا يساعد الجنرال في إتمام جملته مرة أخرى.

والتوت شفتا الفتى على ابتسامة ساخرة مسمومة أصبح لا يحاول حتى إخفاءها. وكانت نظراته المحمومة مصوبة نحو عيني الجنرال، كأنه يريد أن يقرأ الجنرال فيها كل تفكيره. فاصطبغ وجه الجنرال بحمرة شديدة، وغضب فاستأنف كلامه وهو ينظر إلى جانيا بقسوة:

- نعم، الذكاء هو الشيء الرئيسي. ألا إنك لغريب الأطوار يا جبريل أرداليونتش! لكأنك مبتهج بوصول هذا الشاب التاجر ابتهاجك بحل يهبط من السماء! كان يجب في هذه القضية أن تبرهن على ذكاء منذ البداية. كان يجب عليك أن تفهم الموقف فهماً سليماً، وأن تقدر الوضع تقديراً صحيحاً... و... و... وكان يجب عليك أن تعمل من الطرفين، من الجهتين... مع التزام الاستقامة والصراحة... وإلا فلا أقل من التنبيه والتحذير، حتى لا يتورط الآخرون، ولا يتعرضوا لشيء. ولقد كان في وقتك متسع لهذا. وما يزال في وقتك متسع على كل حال (هنا رفع الجنرال حاجبيه على نحو مفهوم، رغم أنه لم يبق إلا بضع ساعات. هل فهمتني؟ أتريد أم لا؟ إذا كنت لا تريد

فعليك أن تقول ذلك، وأن تقوله في الوقت المناسب! ما من أحد يريدك على غير ما تحب يا جبريل أرداليونتش، ما من أحد يدافعك إلى فخ، إذا كنت حقاً أنك لا ترى في هذا إلا فخاً).

قال جانبا بصوت خافت، ولكن بلهجة ثابتة:

– بل أريد!

وخفض عينيه، وصمّت مظلّم الوجه مُربدّ الأسارير.

رضي الجنرال وارتاح. لقد غضب منذ قليل واندفع، أما الآن فكان واضحاً أنه نادم على غلوه في الماضي إلى ذلك الحد. والتفت نحو الأمير فجأة، وقد بدا في وجهه قلق: لقد شهد الأمير الحديث، وسمع كل شيء.

لكن الجنرال لم يلبث أن استردّ هدوءه. أن نظرة واحدة إلى الأمير كانت كافية لإعادة الثقة والطمأنينة إلى نفسه.

هتف الجنرال يقول وهو ينعم النظر في نموذج الخط الذي مدّه إليه الأمير:

– عظيم، عظيم! خط رائع! آية من آيات الفن! آية نادرة! انظر يا جانبا، انظر! يالها من موهبة!

كان الأمير قد كتب على الورقة السميكة الفاخرة، بأحرف روسية من القرون الوسطى، العبارة التالية:

«إن المطران الذليل بافنوس قد وقّع هذا بخط يده»^[18].

وقال الأمير شارحاً بحماسة كبيرة، ولذة عظيمة:

– هذا توقيع المطران بافنوس نفسه، نقلاً عن مخطوطة يرجع عهدها إلى القرن الرابع عشر. كانت لهم في الماضي توقييع جميلة، مطارنتنا وبطاركتنا جميعاً! ما أعظم ما فيها من ذوق، ومن عناية، ومن صبر! أليست عندك نسخة من طبعة بوجودين يا جنرال؟ انظر: هنا قلّدت نموذجاً آخر من نماذج الخط: إنه نموذج الخط المدور القائم الكبير، الذي عُرف بفرنسا في القرن الماضي؛ حتى أن بعض الأحرف تُكتب بأشكال مختلفة. هذه هي الكتابة العادية، كتابة عامة الكتاب، وهي مستمدة من كتابة الخطّاطين الأصليين (اقتنيت نموذجاً منها). اعترف أن لها محاسنها. أنعم النظر في هذه «الهاء» وهذه «الطاء» المدورتين القائمتين. لقد قمت أنا بنقل هذا الطراز الفرنسي من الخط

إلى الكتابة الروسية. كان ذلك عملاً صعباً جداً، لكنني نجحت فيه. إليك نموذجاً آخر من الكتابة، نموذجاً أصيلاً جداً، فيه طرافة عظيمة ورشاقة مدهشة. أنظر في هذه الجملة: «الاجتهاد يذلل جميع الصعاب»، هذه كتابة روسية، كتابة حكومية، أو قل: أن شئت إنها كتابة حكومية عسكرية. بهذا الخط إنما تكتب رسالة رسمية لشخصية خطيرة الشأن. وهو خط مدور قائم أيضاً، على جانب عظيم من الأناقة والرشاقة، يُطلق عليه اسم الكتابة «السوداء». وهو خط يبدو حالك السواد فعلاً، لكنه في غاية الجمال. أن خطاطاً محترفاً لا يمكن أن يسمح لنفسه يوماً بهذه الزيادات الطفيفة، هذه الذبول الصغيرة، هل تراها؟ ومع ذلك تستطيع أن تلاحظ أنها تضي على الخط طابعاً خاصاً. أن المرء يقرأ فيها كل روح الكاتب العسكري. يحس المرء أن هذا الكاتب العسكري يود أن يرخي العنان لخياله، وأن موهبته تناديه إلى ذلك، لكن الياقة العسكرية صلبة، فهي تقيدته تقييداً شديداً. أن النظام العسكري يعبر عن نفسه تعبيراً حلواً في الخط. لقد خطف بصري منذ مدة قصيرة نموذج من هذا النوع. تصور أنني وقعت على ذلك النموذج في سويسرا. وإليك الآن مثلاً عادياً مألوفاً للخط الإنجليزي، مثلاً صافياً نقياً للخط الإنجليزي. لا أرشق منه ولا أحلى! هو سحر كله: لؤلؤة، جوهرة! هو الكمال بعينه. وإليك خطأ هو تعديل لذلك الخط الإنجليزي بالطريقة الفرنسية. لقد أخذته من مندوب متجول لبيت من بيوت التجارة. هو الطراز الإنجليزي نفسه، غير أن الأحرف المملأى فيه أشد بروزاً وأكثر سواداً. وهذا يبدل توازن النسب فوراً. لاحظ هذه الصفة أيضاً: أن الأحرف البيضاء قد تبدلت هنا فصارت أكثر تدوراً، كما أن الذبول في هذا الخط مقبولة غير مرفوضة. والذبول أشد المزالق خطراً بطبيعة الحال، لذلك كان لا بد للخطاط ههنا من ذوق خارق يجنبه هذه المزالق، ولكن إذا نجح الخطاط في هذه المحاولة فوجد الأبعاد السليمة والنسب الصحيحة، حصل عندئذ على خط لا يضارع، خط يعشقه المرء عشقاً.

قال الجنرال ضاحكاً:

- عظيم، عظيم، إنك مطلع على أدق الدقائق وألطف اللطائف! تست يا صديقي خطاطاً فحسب، بل أنت أيضاً فنان، هه؟ ما رأيك يا جانيا؟

أجاب جانيا موافقاً:

- شيء مدهش!

ثم أضاف وهو يضحك ضحكة ساخرة:

- حتى أن هذا يدل على موهبة عظيمة يبشّر بأنه سيكون له مهنة محترمة!

قال الجنرال:

- اضحك، اضحك ما شئت أن تضحك. إنه يملك حقاً ما يؤهله لمزاولة مهنة ممتازة. هل تعرف، يا أمير، إلى أي شخصية سنكلفك بالكتابة؟ أن في الإمكان أن تُعطى راتباً قدره خمسة وعشرون روبلاً في الشهر، بلا تردد.

ثم أضاف الجنرال قائلاً وهو ينظر في ساعته:

- ولكن الساعة أصبحت الثانية عشرة والنصف. اسمع يا أمير، لننتقل إلى جوهر الموضوع، فأنا في عجلة من أمري، وقد لا تتاح لنا فرصة اللقاء مرة أخرى اليوم. اجلس لحظة. سبق أن قلت لك إنني لن أستطيع أن أستقبلك في أحيان كثيرة. ولكنني أرغب صادقاً في أن أبذل لك بعض العون، أن أبذل لك عوناً ضئيلاً هو القدر اللازم الذي لا بد منه ولا غنى عنه. أما فيما عدا ذلك فدبر أمرك على النحو الذي يحلو لك، وبالطريقة التي تراها مناسبة. سأجد لك وظيفة صغيرة في المكتب، عملاً ليس شاقاً مسرفاً في المشقة، ولكن سيكون عليك أن تجد وأن تجتهد. واسمع الآن ما سأقوله لك: أن صديقي الشاب جبريل آرداليونوفتش إيفولجين، الذي تراه، والذي أعرفك به الآن، يعيش مع أسرته؛ وقد أعدت أمه وأخته في شقتهم غرفتين مؤثنتين أو ثلاثاً، فهما تؤجران هذه الغرف مع الطعام والخدمة لأناس موصى بهم مشهود لهم بحسن الخلق. وأنا على يقين من أن نينا ألكسندروفنا ستقدر توصيتي بك وشهادتي لك. هذا كنز بالنسبة إليك يا أمير؛ فلا تعيش وحيداً، بل تعيش في حضن أسرة أن صح التعبير. وفي رأيي أنا أنه ليس من الخير لك أن تبقى وحيداً من اليوم الأول في عاصمة مثل بطرسبرج. أن نينا ألكسندروفنا، أم جبريل آرداليونوفتش، وباربارا آرداليونوفا، أخته، هما سيدتان أحترمهما احتراماً عظيماً، وأجلهما إجلالاً كبيراً. أن نينا ألكسندروفنا هي زوجة آرداليون الكسندروفتش، الجنرال المحال على التقاعد، الذي كان رفيقي في الجيش، لكنني قطعت جميع صلاتي به لبعض الأسباب، دون أن يمنعني ذلك من أن أكن له بعض الاعتبار والاحترام، إنني أشرح لك هذا كله يا أمير، من أجل أن تفهم أنني أوصي بك وأشهد لك بنفسني، وأنني إذاً أتحمّل التبعة. أن أجرة المسكن، مع الطعام والخدمة، معتدل جداً، وأنا آمل أن يكون راتبك في القريب كافياً للوفاء به كفاية تامة. صحيح أن المرء يحتاج أيضاً إلى بعض المال يضعه في جيبه وينفق منه عند الحاجة، لكنني ألفت نظرك يا أمير، دون أن أريد لك أن تغضب، ألفت نظرك إلى أن من الأفضل لك ألا يكون في جيبك مال تنفق منه، لا ولا أن تملك أي مال تضعه في

جيبك. ومع ذلك، لما كانت حافظة نقودك خالية كل الخلو الآن، فاسمح لي أن أقدم إليك خمسة وعشرين روبلاً لنفقاتك الأولى. وستحاسب في المستقبل طبعاً؛ وأعتقد أنه لن تكون بيننا أي صعوبة، إذا كنت حقاً ذلك الرجل الصادق المخلص الودود الذي كشف عنه حديثك. ولئن كنت أهتم بك هذا الاهتمام كله، فلأن هناك أموراً سأعهد إليك بها وسأعوّل عليك فيها، أموراً ستعرفها في المستقبل. هكذا ترى أنني أكلمك ببساطة تامة وصراحة كبيرة. أمل يا جانيا ألا ترى بأساً في أن يسكن الأمير عندكم، هه؟

أجاب جانيا مؤكداً بلهجة فيها ظرف وترحيب وبشاشة:

- بالعكس. ولسوف تكون أُمي سعيدة..

- أظن أنكم أجرتم حتى الآن غرفة واحدة يسكنها ذلك الرجل الذي يسمي فردي... فردي...

- فردشتينكو^[19].

- نعم، فردشتينكو. انه يعجبني صاحبكم فردشتينكو هذا. مهرج عفن. لا أفهم لماذا تدعمه ناستاسيا فيليبوفنا دائماً. هل صحيح أنه يمت إليها بقرابة؟

- لا، لا! ما هذه إلا مزحة إما من قرابة..

- طيب... شيطان يأخذه... فما رأيك إذن يا أمير؟ أنت مسرور أم لا؟

- شكراً يا جنرال. لقد غمرتني بأريحيّتك، مع أنني لم أطلب منك شيئاً. لا أقول هذا من باب الكبرياء. حقاً كنت لا أعرف إلى أين أذهب. صحيح أن روجويين قد دعاني إلى داره منذ قليل، لكن...

- روجويين؟.... لا... كل شيء إلا هذا! انس هذا السيد روجويين! تلك نصيحة أب لابنه، أو قل نصيحة صديق لصديقه إذا كنت تؤثر ذلك. ومهما يكن من أمر، فإنني أوصيك عامة بالاعتصام على الأسرة التي ستعيش معها.

قال الأمير:

- ما دمت طيباً نبيلاً إلى هذا الحد، فإنني أريد أن أستشيرك في أمر ألتمس فيه نصحك. لقد تلقيت إبلاغاً.

قاطعه الجنرال قائلاً:

- لا، اعذرني، لا أملك الآن دقيقة واحدة. سأكلم عنك إليزابيث بروكوفينا حالاً. فإذا أعربت عن رغبتها في استقبالك منذ الآن (وهذا ما سأوصيها به)، فإنني أنصحك بأن تستغل الفرصة لتحظى برضاها. أن من الممكن أن تقدم لك خدمات عظيمة، لأنك تحمل اسم أسرتها. أما إذا لم ترغب في أن تستقبلك، فلا يسوءنك هذا، وارتقب فرصة أخرى. وأنت يا جانيا، ألق نظرةً على هذه الحسابات أثناء ذلك. لقد كسّرنا رأسنا بها أنا وفيدوسييف. ينبغي أن نفكر في إدراجها ...

وخرج الجنرال، قبل أن يستطيع الأمير أن يعرض عليه الأمر رغم محاولات عدة. وأشعل جانيا سيجارة، وقدم للأمير سيجارة، فقبلها الأمير ولكنه لم يحاول أن يستمر في الحديث مخافة أن يزعجه أو أن يضايقه. وأخذ يتفحص المكتب. غير أن جانيا لم يكذب يلقي نظرةً على الورقة الملأى بالأرقام التي أشار إليها الجنرال. كان جانيا ذاهلاً شارد اللب. حتى أن ابتسامته ونظراته وهيئته المهمومة أصبحت أثقل وطأة على صدر الأمير وأشد إيلاماً له حين اختلها.

واقترب جانيا من الأمير فجأةً بينما كان الأمير قد عاد يتأمل صورة ناستاسيا فيليبوفنا، فقال له جانيا وهو يتفرس فيه تفرس من يخفي نية ويبيت أمراً.

- إذاً تعجبك هذه المرأة يا أمير؟

أجاب الأمير:

- وجه مدهش، وأنا واثق بأن القدر الذي كتب عليها قدرٌ نادر. الوجه باش، ولكنها قاست آلاماً رهيبه، أليس كذلك؟ أن المرء يقرأ هذا في نظرتها، في هذين النتوءين، في هاتين النقطتين تحت العينين عند منبت الخدين. وجه فيه كبرياء، كبرياء شديدة! لكنني أتساءل هل هي خيرٌ النفس طيبة القلب؟ ... آمل أن تكون كذلك! فهذا يمكن أن يُنقذ كل شيء!

تابع جانيا كلامه دون أن يحوّل عن الأمير نظراته المحمومة:

- قل لي: هل يمكن أن تتزوج «أنت» امرأة كهذه المرأة؟

قال الأمير:

- أنا لا أستطيع أن أتزوج أية امرأة. أنا مريض.

- وهل يمكن أن يتزوجها روجويين؟ ما رأيك؟

- هو؟ أظن يمكن أن يتزوجها حتى منذ الغد! يتزوجها ثمانية أيام، ثم قد يذبحها!
حين سمع جانبا هذه الكلمات الأخيرة التي قالها الأمير ارتجف ارتجافاً بلغ من القوة
أن الأمير أوشك أن يصرخ. وأمسكه من ذراعه وقال له:

- ماذا بك؟

هنا ظهر خادم في عتبة الباب يقول:

- صاحب السمو، أن صاحب السعادة يرجوك أن تذهب إلى صاحبة السعادة، الجنرالة.
وخرج الأمير يتبع الخادم.

الفصل الرابع

تمتاز كل من الأنسات الثلاث إبيانتشين بأنها قوية الجسم نضرة زاهرة، وبأنها مهيبة الطلعة، على منكبين عريضين وصدر جميل، وذراعين لا تكادان تقلان قوة عن ذراعي رجل. وبحكم هذه الصحة وهذه القوة طبعاً، كنّ يقدرن قيمة وجبة من وجبات الطعام حق قدرها، ولا يحاولن أن يخفين ذلك البتة.

وكانت أمهن، الجنرالة إليزابت بروكوفيفنا، يسوؤها في بعض الأحيان أن ترى هذه الصراحة في شهوتهن للطعام وإقبالهن عليه. غير أن جزءاً كبيراً من نصائحها وتوصياتها قد فقد في الواقع ما كان لهذه النصائح وهذه التوصيات من سلطان عليهن وتأثير فيهن، رغم أنهن ما زلن يصطنعن في قبولها مظهر الامتثال والإذعان؛ وقد أخذ التحالف بين الأخوات الثلاث يثير الجنرالة في كثير من الأحيان، وهي امرأة تحرص على رزانتها ووقارها أشد الحرص، وترى أن الأفضل ألا تناقش وتجادل، بل أن تقبل وتسلم. صحيح أن المزاج كثيراً ما ينتصر ويتمرد على قرارات العقل؛ حتى لقد أخذت إليزابت بروكوفيفنا تغدو، سنة بعد سنة، أشد نزوة وأقل صبراً، بل وأجمع خيالاً. ولكن لما كانت ما تزال تملك زوجاً أحسنت ترويضه حتى صار طوع بنانها، فإن زوجها هذا هو الذي كانت تصب عليه ما يطفح به قلبها. فكان الانسجام يعود عندئذ إلى المنزل، وكان كل شيء يجري بعد ذلك على ما يرام.

على أن الجنرالة ما كانت تفقد شهوة الطعام. فهي في العادة تشارك بناتها وجبة الإفطار الوفيرة التي تكاد تكون من وفرتها غداء، والتي تقدم بعد الظهر بنصف ساعة. وتكون البنات قبل هذه الوجبة قد تناولن في أسرتهن عند استيقاظهن من النوم فنجاناً من القهوة في الساعة العاشرة تماماً. فهذه عادة من العادات ألفنها وترسخت فيهن منذ زمن طويل. حتى إذا أزفت الساعة الثانية عشرة والنصف فرشت المائدة في غرفة الطعام الصغيرة المتاخمة للجناح الخاص الذي تحتله إليزابت بروكوفيفنا؛ فإذا كان وقت الجنرال لا يضيق عن المشاركة في هذه الوجبة العائلية الحميمة شارك فيها. أما ما تضمنه الوجبة فهو، عدا الشاي والقهوة والجبن والعسل والزبدة، لحوم مشوية (أضلاع) ونوع خاص من الفطائر تحبه الجنرالة حباً خاصاً، وربما ضمت المائدة كذلك مرقاً

ساخنا مكثفا.

في الصباح الذي تبدأ فيه قصتنا هذه كانت الأسرة كلها مجتمعة في قاعة الطعام تنتظر الجنرال الذي كان قد وعد بالمجيء في الساعة الثانية عشرة والنصف. فلو أنه تأخر عن المجيء ولو دقيقة واحدة إذن لأسرعن يرسلن إليه من يبحث عنه. لكن الجنرال قد تقيد بالموعد تقيداً تاماً، فما هو ذا يدنو من زوجته ليحييها وليقبل يدها، فيلاحظ على وجهها تعبيراً خاصاً جداً. ورغم أنه كان في عشية ذلك النهار قد أوجس بأن شيئاً من هذا سيحدث بسبب «قصة ما» (على حد تعبيره)، ورغم أنه حين نام في المساء فكر في هذا بكثير من القلق، فقد استولى عليه خوف واعتراه رعب. وجاءت بناته فقبلنه. كان لا يبدو عليهن أنهن غاضبات، ومع ذلك كان ظاهراً هنا أيضاً أن ثمة شيئاً غير طبيعي. صحيح أن ظروفًا معينة كانت قد جعلت الجنرال كثير الظنون شديد الارتياب، لكنه، وهو رب أسرة خبير حاذق، قد أسرع يتخذ الإجراءات اللازمة.

لعلنا نستطيع، دون أن تُفقد قصتنا هذه مسارها ومعالمها، أن نتوقف هنا قليلاً، فنقدم ببعض الشروح. فكرة أقرب إلى أن تكون مباشرة ودقيقة وواضحة، عن الأوضاع والظروف التي كانت عليها أسرة الجنرال إبيانتشين في الوقت الذي تبدأ فيه هذه القصة.

سبق أن أشرنا إلى أن الجنرال كان - رغم ضآلة حظه من الثقافة - (ولقد كان على كل حال يفتخر بأنه عصامي علّم نفسه بنفسه) - كان زوجاً خبيراً وأباً بارعاً. ولقد قرر خاصة ألا يحث بناته كثيراً على الزواج. وكان لا يحرص على أن «يعلق نفسه فوق رؤوسهن بغير انقطاع»، وأن يعذبن دائماً بحب أبوي يسعى إلى سعادتهن، كما يحدث هذا في كثير من الأحيان حدوثاً طبيعياً، بغير قصد أو إرادة، حتى في أعقل الأسر التي عندها بنات للزواج.

حتى لقد استطاع أن يقنع زوجته بهذا المذهب، وتلك مهمة بالغة الصعوبة، لأنها تعارض غريزة المرأة. غير أن حجج الجنرال وأدلتها قد أثمرت، لأنها كانت تتناول وقائع محسوسة ملموسة. وكان أسلوبه هو التالي: أن البنات إذا تركت لهن حرية التصرف، فلا بد أن يصلن من تلقاء أنفسهن إلى حل معقول، فيجري الأمر عندئذ سريعاً، لأنهن يقبلن عليه بقلوبهن، متخليات عن النزوات الطارئة، وعن الغلو والمبالغة؛ ولا يكون على الأبوين بعد ذلك إلا أن يراقباهن بمزيد من اليقظة والتخفي، ليجنباهن اختياراً رديئاً أو انحرافاً سخيلاً، حتى إذا أن الأوان ساعدهن بكل ما لهما من قدرة، ووضعاً ثقلهما كله في الميزان، ليقوداهن في الاتجاه السليم. هذا عدا أن ثروة الأسرة

تربو سنة بعد سنة بتزايد هندسي، ومركزها الاجتماعي يعلو ويسمق، فكلما انقضى الزمن جنت البنات من ذلك نفعاً، حتى من جهة الخطبة. ولكن ذلك كله قد أضيفت إليه واقعة جديدة: هي أن البنت الكبرى قد بلغت الخامسة والعشرين بسرعة مفاجئة، كأنما على غير توقع (كما يحدث ذلك دائماً).

وفي تلك الآونة نفسها تقريباً أعرب آتانا زي إيفانوفتش توتسكي، وهو رجل من عليّة القوم له علاقات رفيعة وثروة خارقة، أعرب مرة أخرى عن رغبته القديمة في الزواج. إنه في الخامسة والخمسين من عمره تقريباً، ذو طبع لطيف محب ودود، وذو ذوق رفيع مرهف رقيق. كان يريد لنفسه زواجاً جميلاً. إنه يقدرّ الجمال كما لا يقدره مثله أحد. وإذ ربطته منذ مدة بالجنرال إيبانتشين صداقة كبيرة كانت تعززها وتقويها مصالح مشتركة في بعض المشروعات المالية، فقد سأله أن ينصحه كما ينصح الصديق صديقه هل يستطيع أن يخطب إحدى بناته. وهكذا فإن الحياة الهادئة الوداعة المنظمة المرتبة التي كانت تعيشها أسرة الجنرال إيبانتشين أصبحت موشكة على اضطراب يقلبها رأساً على عقب.

إن أجمل البنات الثلاث، كما سبق أن ذكرنا ذلك، إنما هي الصغرى، آجلايا، بلا مراء ولا جدال. ولكن توتسكي نفسه، رغم أثرته المضربة، قد أدرك أنه ليس له أن يعقد آمالاً من هذه الناحية، وإن آجلايا ليست له.

ومهما يكن من أمر، سواء أكانت أختا آجلايا تحبانها حباً أعمى أم كانتا تحملان لها عاطفة مسرفة في الحماسة، فالمهم أن أسرة إيبانتشين كانت تتوقع للأخت الصغرى آجلايا، بصدق وإخلاص، لا مصيراً عادياً بل حياةً تقترب أكبر اقتراب ممكن من المثل الأعلى للفردوس الأرضي. فيجب أن يكون زوجها المقبل رجلاً يتمتع بجميع صفات الكمال، وأن يحقق جميع أنواع النجاح، فضلاً عما يجب أن ينعم به من ثراء. حتى أن الأختين كانتا قد قررتا فيما بينهما، دون كلام كثير لا طائل تحته، أن تضحيا بنفسيهما في سبيل آجلايا إذا اقتضى الأمر ذلك. وقد أعدت الأسرة للفتاة آجلايا مهراً ضخماً مميزاً. وكان الأبوان على علم بالاتفاق الذي تمّ بين الأختين الكبيرتين. ولذلك حين سأل توتسكي صاحبه الجنرال إيبانتشين أن يسدي إليه النصح، فإن الأبوين لم يشكا كثيراً في أن إحدى البنيتين لن ترفض تلبية رغبتهما، لا سيما وأن توتسكي ليس من الرجال الذين تستوقفهم مسألة المهر. والجنرال رجل صاحب خبرة وتجربة، لذلك قدرّ الخطوة حق قدرها؛ وإذ أن توتسكي نفسه قد فرض على نفسه، بسبب بعض الظروف، تكتماً كبيراً في المباحثات حول هذا الأمر، فاقصر على جسّ النبض أو سبر الأرض أن

صح التعبير، فإن الأبوين من جهتهما لم يذكرنا للبنات إلا افتراضات غامضة وتخمينات مبهمة؛ فحصلنا في مقابل ذلك من البنات على تأكيد غامض مبهم هو أيضاً، لكنه مواسٍ، بأن الكبرى ألكسندرا قد لا ترفض.

إن ألكسندرا، على كونها ذات طبع صلب وخلق ثابت، فتاة عاقلة دمثة لينة سهلة المعاشرة؛ ولقد ترتضي أن تتزوج توتسكي، فإذا تعهدت بأن تتزوجه برّت بعهدا ولم تخلف الوعد. إنها لا تنشئ حياة براقاة ساطعة، ولا خوف معها من مصاعب ومتاعب، ولا خوف معها من انقلاب مباغت. بالعكس: إنها تستطيع أن تجعل الحياة ناعمة وادعة يرفرف عليها الهدوء والسلام. وهي فتاة جميلة، وإن لم تكن ساطعة التألق. هل كان يمكن لتوتسكي أن يمني نفسه بأكثر من هذا؟

ومع ذلك ظلت القضية تتقدم بخطى بطيئة وتلمّس متوجّس. فكان توتسكي والجنرال، بفضل اتفاق ودي، يتجنبان أن يقوموا الآن بأية خطوة رسمية حاسمة. وكان الأبوان نفساهما ما يزالان لا يكشفان البنات بالأمر صراحةً. حتى لقد كان يمكن أن يلاحظ المرء أن بينهما شيئاً من الخلاف في الرأي. أما الجنرالة، بصفتها أمّاً، فقد أخذت تظهر شيئاً من عدم الرضي، وكان ذلك أمراً على جانب كبير من خطورة الشأن. وهناك عدا ذلك ظرف معقد شائك كان يعرض المشروع كله للإخفاق إخفاقاً حاسماً.

إن أصل هذا الظرف «المعقد الشائك» (على حد تعبير توتسكي) يرجع عهده إلى زمن بعيد، إلى ثمانية عشر عاماً خلت. فعلى مقربة من إحدى الأراضي التي يملكها آتاناوي إيفانوفتش، وهي أراض تقع في أحد أقاليم وسط روسيا، كان يعيش ملاك صغير فقير الحال تقريباً. وكانت حياة هذا الرجل سلسلة من المصائب والنوازل، سلسلة تبلغ من التتابع والاتصال أنها تشبه أن تكون حكاية من الحكايات أو قصة من القصص. هو ضابط محال على التقاعد، سليل أسرة عريقة النبالة، لعلها تفوق في رفعة المحتد أسرة توتسكي. كان اسمه فيليب ألكسندروفتش باراشكوف. وقد استطاع أخيراً، وهو غارق في الديون مرهق برهن عقاراته، استطاع بالعمل الشاق والجهد المضني، وبشغل يشبه أن يكون في قسوته ومشقته شغل فلاح، أن يعود إلى استثمار أرضه الصغيرة استثماراً مناسباً. وكان أيسر نجاح يحققه، يبت فيه شجاعة خارقة، ويعيد إليه أملاً كبيراً، حتى امتلاً ثقة وطمأنينة وتفاؤلاً؛ وذهب ذات يوم إلى مركز الإقليم ليقابل أحد دائنيه الكبار، وليبرم معه اتفاقاً أو ينتهي معه إلى تسوية في حدود الإمكان. فلما كان اليوم الثالث من إقامته بمركز الإقليم رأى عميد قريته يصل إلى المركز على حصان، محترق الخدين واللحية، ويبلغه أن أملاكه قد شب فيها الحريق بالأمس في

وضح النهار، فهلك امرأته، لكن أولاده نجوا وسلموا.

لم يستطع باراشكوف أن يصمد لهذا المصاب الجديد، رغم أنه ألف ضربات القدر، ففقد عقله وجنّ، ثم مات بحمى دماغية بعد شهر واحد.

وقد بيعت أراضيهِ المحترقة وبيع فلاحوه المبعثرون لسداد ديونه. أما ابنتاه الصغيرتان، وعمرهما ست سنين، فقد تكرم آتاناوي إيفانوفتش توتسكي فكفلهما.

تربّت البنّتان أولاً مع أولاد وكيل توتسكي، وهو موظف محال على التقاعد، رب أسرة كبيرة العدد، ألمانية فوق ذلك. ولم تلبث ناستاسيا أن أصبحت وحيدة، لأن أختها الصغرى ماتت بمرض السعال الديكي. أما توتسكي الذي كان يعيش في الخارج، فلم يلبث أن نسيهما كليهما. وبعد خمس سنين، مرّ آتاناوي إيفانوفتش بالمنطقة، فخطر بباله أن يزور أراضيهِ هنالك، فإذا هو يلاحظ في منزله الريفي، مع أسرة وكيله الألماني، فتاة حلوة عذبة لذيذة في الثانية عشرة من عمرها، فتاة فارهة ماهرة، ذكية لطيفة، تبشر بأنها ستكون في المستقبل بارعة الجمال فاتنة الحسن. لقد كان توتسكي في هذا المجال رجلاً ذا خبرة وتجربة، لا يخطئ ظنه ولا يخيب فأله. ولم يقض في أراضيهِ هذه المرة إلا بضعة أيام، لكن اتسع وقته مع ذلك لأن يتخذ إجراءاته. فحدث تغير كبير في تنشئة الفتاة وتعليمها: جيء لها بمرربة سويسرية هي امرأة محترمة متقدمة في السن، لها خبرة في التربية والتعليم، مثقفة، قادرة على أن تعلم، عدا اللغة الفرنسية، علوماً شتى.

سكنت المربية السويسرية في المنزل الريفي، وسار تعليم الصغيرة ناستيا بخطى سريعة. فما انقضت أربع سنوات حتى انتهت دراسة ناستيا، وسافرت المربية، فجاءت عندئذ سيدة هي ملاكة لها أطيان تجاور أرضاً يملكها توتسكي في إقليم ناء. جاءت هذه السيدة فأخذت ناستيا تنفيذاً لأوامر آتاناوي إيفانوفتش، وعملاً بسلطات خوّلها إياها. أن في تلك الأرض الصغيرة التي يملكها توتسكي جناحاً أن يكن صغيراً فإنه حديث البناء مؤثث تأثيثاً جميلاً فيه ذوق، وفيه أناقة. وكان من المصادفات التي تشبه العمد أن تلك القرية نفسها كان اسمها هذا الاسم الموحى: «أوترادنويي»^[20].

أخذت السيدة الفتاة إلى ذلك المسكن الهادئ رأساً، ولما كانت دارها هي قرية من ذلك المسكن، وكانت أرملة لا ولد لها، فقد أقامت مع الفتاة. وكان في خدمة ناستيا هنالك امرأة تتولى أعمال الإنفاق والحساب وخادم شابة لكنها ذات تجربة وخبرة.

وكان المسكن (الشاليه) يضم أدوات موسيقى، ومكتبة مختارة تناسب الفتيات،

ولوحات، وصوراً محفورة على الخشب، وأقلاماً، ومناقش، وألواناً؛ وكان يضم كذلك كلبة سلوقية جميلة.

وبعد أسبوعين وصل آتانازي إيفانوفتش بنفسه...

ومنذ ذلك اليوم أصبح يؤثر تلك القرية الصغيرة المعزولة التائهة في السهوب إيثاراً عظيماً. فكان يأتيها كل صيف، يقضي فيها شهرين، أو ثلاثة أشهر في بعض الأحيان. وانقضى على هذا النحو زمن طويل هو أربع سنين هادئة وادعة سعيدة، في جو من ترف البذخ وحسن الذوق.

وفي ذات يوم من مطالع الشتاء، بعد نحو أربعة أشهر من إحدى إقامات آتانازي الصيفية في أوترادنويي، وهي إقامة لم تطل في تلك المرة أكثر من خمسة عشر يوماً، جرت شائعة أو قل سمعت ناستاسيا فيليبوفنا شائعة تقول: أن توتسكي على وشك أن يتزوج ببطرسبرج فتاة جميلة غنية نبيلة المحتد، أي أن يتزوج زوجاً يناسبه. وقد اتضح فيما بعد أن الشائعة غير صحيحة من بعض النواحي: فالزواج لم يكن إلا فكرة أو مشروعاً، وما يزال كل شيء غامضاً مبهماً. ومع ذلك ولّد هذا الحادث اضطراباً كاملاً وبلبله تامة في حياة ناستاسيا فيليبوفنا. وسرعان ما برهنت على أنها تملك إرادة حازمة، وعزيمة قوية، وصلابة لم تكن في الحسبان؛ فإذا هي تترك مسكنها الريفي الصغير بلا تردد، وتسافر إلى بطرسبرج، وتمضي على الفور وحيدة إلى توتسكي.

ذهل توتسكي، وأراد أن يوضح لها الأمور وأن ينتحل لنفسه الأعذار. لكنه أدرك منذ الكلمات الأولى تقريباً أن عليه أن يغيّر تغييراً تاماً، طريقة كلامه ونبرة صوته، وموضوعات حديثه الممتعة الأخاذة التي أصابت حتى ذلك الحين نجاحاً كبيراً، وأن يغيّر منطقته نفسه، أن يغيّر كل شيء، كل شيء! أن أمامه الآن امرأة أخرى لا تشبه المرأة التي كان قد عرفها حتى ذلك الحين والتي تركها في شهر تموز (يوليه) بقرية أوترادنويي.

لقد اتضح قبل كل شيء أن هذه المرأة الجديدة تعرف وتفهم أشياء كثيرة، أشياء تبلغ من الكثرة أن المرء يتساءل أين عساها حصلت مثل هذه المعارف وكيف استطاعت أن تكون آراء واضحة هذا الوضوح كله. هل يمكن أن يكون ذلك قد تمّ لها في مكتبتها التي هي مكتبة فتيات؟ وكأن هذا كله لم يكن كافياً أيضاً، فهي تفهم الشؤون القضائية كذلك أكمل الفهم. وفي ذهنها تصورات واضحة وضوحاً كبيراً أن لم يكن عن المجتمع كله، فعن الطريقة التي تجري بها بعض الأمور فيه. ثم أن طبعها الآن ليس طبعها في الماضي. لقد زایلها ذلك النوع من الخشية، لقد تحررت من ذلك الوجع

المبهم الغامض الذي تتصف بمثله بنات المدارس الداخلية، وتحررت من تلك الاندفاعات الساذجة الحلوة التي يلطفها في بعض الأحيان حزن وقلق وخوف يمضي إلى حد ذرف الدموع.

لا، أن أمام توتسكي الآن امرأة لم يسبق أن تصورها في هذه الصورة، امرأة غريبة عجيبة، تضحك مقهقهةً بأعلى صوتها، وتمطره بوابل من سخريات مسمومة، امرأة تعلن له صراحة بأنها لم تشعر نحوه في يوم من الأيام بعاطفة غير عاطفة الاحتقار العميق الذي يبلغ مبلغ التقزز الباعث على الغثيان، وهو تقزز ملأ نفسها بعد انقضاء شعور الدهشة الأولى فوراً.

إن هذه المرأة الجديدة تعلن له أنها لا يهملها في شيء أن يتزوج حالاً أي امرأة، ولكنها مع ذلك قد جاءت بدافع الشر وحده تحول بينه وبين هذا الزواج، لا شيء إلا لأنها تجد في ذلك مسرة، فلا يمكنها إلا أن تستجيب لنداء هذه المسرة. قالت له: «هب ذلك تسلية على حسابك. لقد أن لي أخيراً أن أضحك أنا أيضاً!».

بهذه الألفاظ إنما عبّرت عن نفسها على الأقل. قد لا تترجم هذه العبارات كل ما في قرارة فكرها. ولكن بينما كانت ناستاسيا فيليبوفنا الجديدة هذه تضحك ضحكاً مجلجلاً وهي تبسط حججها وتبدي أسبابها، كان آتاناзи إيفانوفتش يدرس الموقف بينه وبين نفسه، ويحاول أن يضع شيئاً من النظام والترتيب في خواطره وأفكاره. ودامت هذه الدراسة مدة طويلة، فقد أنفق فيها آتاناзи إيفانوفتش قرابة أسبوعين، ولكنه في ختام هذين الأسبوعين كان قد عزم أمره واتخذ قراره.

يجب ألا ننسى أن آتاناзи إيفانوفتش كان عمره في ذلك الأوان نحو خمسين عاماً، وكان رجلاً مهيباً رصيناً، وكان ذا وضع اجتماعي قوي راسخ، وكان مركزه في المجتمع الراقي يقوم على أسس متينة مضمونة.

كان آتاناзи إيفانوفتش يحب ويقدر، أكثر من أي شيء في العالم، شخصه وراحته ورخاءه ودعته، كما يليق ذلك برجل له مثل تلك المزايا العالية!... فأى اضطراب يعكّر الصفو، بل أي قلق يعتري مجرى الأمور، كان شيئاً لا يمكن أن يقبله أو أن يحتمله تنظيم للحياة ساهم عمرٌ كامل في إقامته وترسيخه.

وسرعان ما أوجت إلى توتسكي تجربته الواسعة وحصافة رأيه وصدق حكمه أنه أمام امرأة فريدة قادرة على أن تحقق وعيدها وتنفذ تهديدها، لا سيما وأنها لا تحرص على شيء في هذا العالم، وأنها لا سبيل إذاً إلى إغرائها. لا، لا! واضح أن الأمر هنا أمر آخر

تماماً! أن ههنا نوعاً من اختلاط عاطفي واستياء خيالي روائي ليس له سبب واضح ولا موضوع معين، أن ههنا رغبة في الاحتقار لا يرتوي لها ظمأ ولا تقف عند حد، أي... أن ههنا شيئاً... سخيفاً كل السخف، شيئاً فظاً غليظاً جافياً لا يمكن قبوله في المجتمع الراقي المهذب، شيئاً هو بالنسبة إلى رجل شريف كريم بلية من عند الله.

كان يمكن طبعاً أن تعين توتسكي ثروته وعلاقاته، فتتيح له بسهولة أن يقوم بعمل من تلك الأعمال الخبيثة الصغيرة، البريئة كل البراءة، التي يمكن أن تخرجه من المأزق وتخلصه من الورطة. وكان واضحاً من جهة أخرى أن ناستاسيا فيليبوفنا لا تقدر أن تفعل أي شيء ضده ولو من الناحية القانونية القضائية مثلاً؛ لا ولا تستطيع أن تثير فضيحة ذات بال، لأن من السهل على آتاناخي إيفانوفتش أن يجعلها تخفق لا محالة. ولكن ذلك كله إنما يصدق إذا تصرف ناستاسيا فيليبوفنا تصرف جميع الناس في أمور كهذه الأمور، ولم تبتعد كثيراً عن القاعدة. ولكن نفاذ البصيرة وسداد الرأي وحصافة الحكم إنما خدمت آتاناخي إيفانوفتش في هذا المجال: فلقد استطاع أن يحزر أن ناستاسيا فيليبوفنا تدرك هي نفسها إدراكاً كاملاً أنها عاجزة من الناحية القانونية القضائية، واستطاع أن يحزر أن في ذهنها شيئاً آخر غير هذا، وذلك ما كان يفضحه سطوع عينيها وبريق نظراتها. إنها لعدم حرصها على شيء البتة، ولعدم حرصها حتى على شخصها (لا بد أن يكون توتسكي على جانب كبير من الذكاء ونفاذ البصيرة ليدرك في تلك اللحظة أن ناستاسيا أصبحت منذ مدة طويلة لا تحفل بشخصها البتة ولا تقيم لمصيرها أي وزن؛ لا بد لتوتسكي الريبي المستهتر المستخف الذي لا يصدق شيئاً ولا يؤمن بشيء غير مباهج الحياة الاجتماعية، لا بد له خاصةً من كثير من الذكاء ونفاذ البصيرة ليؤمن بأن عاطفة ناستاسيا تلك جد لا هزل)، أقول: أن ناستاسيا فيليبوفنا، لعدم حرصها على شيء البتة، ولعدم حرصها حتى على شخصها كانت قادرة على ألا تحجم عن تحطيم حياتها تحطيماً لا رجعة عنه، وعن تدمير وجودها بأسوأ الأساليب، ولو اقتضى الأمر أن تذهب إلى سيبيريا، سجيناً، لا لشيء إلا للتلذذ بإهانة وإيذاء الرجل الذي تكرهه كرهاً يفوق طاقة الإنسان على الكره.

إن آتاناخي إيفانوفتش لم يخفي في يوم من الأيام أنه جبان بعض الجبن، وكان يسمي هذا الجبن محافظة. لذلك كان لا بد أن يروعه أن يتصور أن يُقتل أمام الهيكل، أو أن يقع له حادث آخر من هذا النوع على مرأى من الناس، حادث غير مستحب غير لائق... على أن اغتياله أو إصابته بجرح أو تلقيه بصقة في وجهه أمام الملاء أو وقوع أي حادث له لم يكن يهمه بقدر ما كانت تهمة طريقة وقوعه وصورة حدوثه على هذا النحو الذي لا يمكن أن يعد طبيعياً ولا يمكن أن يعد لائقاً مهذباً...

وبهذا نفسه إنما كانت تهدده ناستاسيا فيليبوفنا، ولو تهديداً مضمراً حتى الآن. كان يعلم أنها تعرفه معرفة عميقة، وأنها ستعرف أين تهوي عليه بضربتها، وإذ أن ذلك الزواج كان ما يزال فكرة أو مشروعاً، فإن آتانايزي إيفانوفتش خضع وتراجع وأذعن واستسلم أمام ناستاسيا فيليبوفنا.

وهناك أمر آخر سهل عليه اتخاذ هذا القرار. أن من الصعب على المرء أن يتصور مدى الاختلاف بين ناستاسيا فيليبوفنا الجديدة وبين ناستاسيا فيليبوفنا القديمة، حتى من ناحية الجسد. أن ناستاسيا لم تكن في الماضي إلا بنية حلوة جداً، أما الآن... آه!... أن توتسكي قد ظل مدة طويلة لا يغفر لنفسه أنه نظر إليها أربع سنين دون أن يراها حق رؤيتها! صحيح أن انقلاباً في صلاتهما يبلغ ذلك المبلغ من المباغته والمفاجأة لا بد أن يكون له شأن في هذا. ولكن توتسكي قد تذكر لحظات خطرت بباله فيها أفكار غريبة حين كان ينظر إلى عينيها فكأنه يوجس في أعماقها سراً خفياً مظلماً لا يدري ما هو! كانت تلك النظرة تحدق إليه، وتثبت عليه، وكأنها تعرض له لغزاً أو أحجية أو طلسماً. وكثيراً ما خطف بصره، في أثناء السنتين الأخيرتين، انكفاء لون ناستاسيا فيليبوفنا: كانت في بعض الأحيان تشحب شحوباً رهيباً؛ والشيء الغريب أن هذا كان يزيدها جمالاً.

كان توتسكي، وهو في هذا يشبه أمثاله من السادة العجائز العابثين اللاهين القاصفين، كان في الماضي ينظر نظرة ازدراء إلى استيلائه السهل هذا على فتاة بسيطة غير ذات خبرة؛ ولكنه كان قد غير رأيه قليلاً في الآونة الأخيرة. ومهما يكن من أمر، فإنه قد قرر منذ الربيع الماضي أن يقف على ناستاسيا فيليبوفنا مهراً سخياً، وأن يسرع في تزويجها برجل محترم واسع الصدر رحب الفكر، له مركز في إقليم آخر (آه... ما أفضع استهزاء ناستاسيا فيليبوفنا الآن بتلك الفكرة، وسخرها منها!).

أما الآن فإن آتانايزي إيفانوفتش، وقد فتنته جدة الموقف وأغوته، قال لنفسه: أن في إمكانه أن يستثمر هذه المرأة الشابة من جديد، فقرر أن يجعل إقامتها ببطرسبرج، وأن يحيطها بالترف والرخاء والبذخ. ذلك عدا أن في وسعه أن يفتخر في بعض الأوساط باستيلائه على امرأة كهذه المرأة، وأن يستمد من ذلك اعتزازاً ومباهاة وظهوراً. لقد كان آتانايزي إيفانوفتش يحرص كثيراً على هذا النوع من المجد.

انقضت خمس سنين على إقامة ناستاسيا فيليبوفنا ببطرسبرج، وتوضحت في أثناء ذلك الوقت أمور كثيرة. أن وضع آتانايزي إيفانوفتش ليس فيه ما يطمئن. وأسوأ ما في الأمر أنه وقد خاف مرة، استبد به الخوف حتى أصبح لا يستطيع التخلص منه. كان

خائفاً، حتى دون أن يعرف كثيراً ممّ هو خائف: كل ما هنالك أنه كان يخشى ناستاسيا فيليبوفنا. وفي خلال بعض الوقت، أثناء السنتين الأولين، أخذ يظن أن ناستاسيا فيليبوفنا تحاول أن تتزوجه. كان يفسّر صمتها عن رغبتها هذه بأنه كبرياء شديدة منها، وكان مقتنعاً بأنها تنتظر أن يفتحها في الأمر، نافذة الصبر. ذلك تصور غريب في الواقع. غير أن آتانازي إيفانوفتش أصبح كثير الظنون والهواجس. فكان إذا ساورته هذه الفكرة يتجهّم وجهه، وتأخذ تدور في رأسه خواطر ثقيلة. حتى إذا اقتنع فجأة، في ذات يوم من الأيام، بمناسبة حادث من الحوادث، أنه لو عرض عليها أن يتزوجها لرفضت أن تتزوجه، دُهِش دهشة شديدة، بل شعر بشيء من الأسف والحسرة (ذلك هو قلب الإنسان!)، ولم يسلم بهذه الحقيقة إلا بعد مدة طويلة.

تفسير واحد بدا له معقولاً: هو أن كبرياء «هذه المرأة الخيالية الشاذة» قد بلغ من الحدة والغلو أنها تفضل أن تعبّر عن احتقارها دفعة واحدة برفض، على أن تضمن لنفسها وضعاً مستقراً ببلوغ مرتبة لا تأملها.

وأسوأ ما في الأمر أن ناستاسيا فيليبوفنا أصبحت تسيطر على الموقف مزيداً من السيطرة شيئاً بعد شيء. لقد قاومت كل إغراء من نوع مادي، مهما تكن ضخامته، وهي رغم قبولها ما أحيطت به من ترف وبذخ كانت تعيش حياة متواضعة، ولم تكد تدخّر شيئاً من مال خلال هذه السنوات الخمس.

وقد تجرأ آتانازي إيفانوفتش فعمد إلى حيلة بارعة كل البراعة لطيفة كل اللطف لتحطيم سلاسلها وفك أغلالها، فحاول بمعاونات ذكية حاذقة، على نحو خفي محكم لبق، أن يفتنها بمغريات مثالية. ولكن لا الأمراء، ولا الفارسان، ولا سكرتيري السفارات، ولا الشعراء، ولا الروائيون، حتى ولا الاشتراكيون، أمكن أن يؤثروا فيها أي تأثير. لكان قلبها من حجر، ولكأن عواطفها قد جفّت وماتت إلى الأبد.

كانت تعيش حياة أميل إلى الانزواء، تقرأ وتطالع وتدرس وتهوي الموسيقى. كانت علاقاتها قليلة، وكانت تنصرف بإيثارها إلى نساء طاعنات في السن سخيفات من زوجات الموظفين. وكانت تعرف ممثلتين، وتعرف عدداً من عجائز طبيبات أخريات. وكانت تتردد على أسرة كثيرة الأولاد هي أسرة معلم طيب من معلمي المدارس الابتدائية، وكان أفراد هذه الأسرة يبادلونها الحب ويبتهجون بزياراتها. وكثيراً ما كان يجتمع عندها في المساء، خمسة أشخاص من معارفها أو ستة، وقلماً يزيد العدد عن ذلك. وكان توتسكي نفسه يحضر سهراتها حضوراً مطّرداً. وكان الجنرال إيبانتشين قد استطاع في الآونة الأخيرة، بعد شيء من المشقة، أن يظفر بزيارة بيت ناستاسيا

فيليبوفنا. وفي الوقت نفسه، تمكن موظف صغير اسمه فردشتينكو أن يتعرف عليها بدون أي عناء. إنه نوع من مهرج سيء التربية قليل الذوق يدعي خفة الظل وروح الدعابة ويميل إلى الشراب والسكر.

وكانت ناستاسيا تستقبل كذلك شاباً غريباً اسمه بتتسين، هو فتى متواضع مرتب يعتني بهندامه، كان فقيراً بائساً فلما تخلص من الفقر والبؤس أصبح مرابطاً. وفي آخر آونة تعرفت ناستاسيا على جبريل آرداليوننتش...

يجب أن نذكر أخيراً أن سمعة عجيبة كانت تحيط بناستاسيا فيليبوفنا. أن جميع الناس يعرفون جمالها، ولكن لا شيء غير ذلك، وما من أحد كان يمكنه أن يتباهى بأنه حظي منها بشيء، ولا كان هناك أحد يمكن أن يروي عنها أية قصة. فهذه السمعة وما تمتاز به ناستاسيا من ثقافة، ومن رشاقة، ومن فكر، ذلك كله قد أوحى إلى آتانازي إيفانوفتش خطة ما. وفي تلك الفترة من الزمن إنما يقع التدخل النشيط للفعال الذي قام به الجنرال إيبانتشين في القصة كلها.

حين سأل توتسكي صاحبه الجنرال بكثير من اللطف والمودة أن يسدي إليه النصيحة التي يسديها صديق إلى صديقه، في أمر زواجه بإحدى بناته، فإنه قد فتح له قلبه بصدق كامل وصراحة تامة، فقال: إنه عزم أمره على ألا يحجم عن استعمال «أي وسيلة من الوسائل» في سبيل الحصول على حريته، وإنه لن يعد نفسه في أمان ولو وعدته ناستاسيا فيليبوفنا نفسها بأنها ستدعه هادئاً في المستقبل، وأن الأقوال أصبحت لا تكفيه فلا بد له من ضمانات أكيدة وكفالات تامة. وناقش الرجلان الأمر، فقررا أن يعملتا متكاتفين.

اتفقا أولاً على أن يستعملتا ألطف الأساليب، وأن «يضربا على أنبل أوتار النفس الإنسانية» أن صح التعبير. فذهبا إلى ناستاسيا فيليبوفنا، وأسرع توتسكي يتكلم عما في موقفه من سوء لا يطاق. أقرّ بأنه آثم مذنب في كل أمر من الأمور، ولكنه اعترف صراحةً بأنه من حيث هو رجل شديد الشبق عاجز عن السيطرة على نفسه، لا يستطيع أن يشعر بندامة فيما يتعلق بالخطيئة الأولى التي ارتكبها. وقال: أن في نيته أن يتزوج، وأنها تملك بين يديها مصير هذا الزواج المناسب إلى أقصى حد، وأنه يستنجد بشهامتها، ونبل قلبها. وتكلم الجنرال هو أيضاً، بصفته أباً، فقال كلاماً معقولاً متزنأً، تحاشى فيه أن يستدر العطف والحنان ولكنه ذكر أنه يعترف لها كل الاعتراف بحقها في تقرير مصير آتانازي إيفانوفتش، ولم يفته مع ذلك أن يبرز مذلتة في كثير من الكياسة ذاكراً أن مصير ابنته، وربما مصير ابنتيه الآخرين، رهن بما تتخذه هي من قرار. فلما

سألت ناستاسيا فيليبوفنا مستفهمةً «عما يراد منها على وجه الدقة»، اعترف توتسكي، صادقاً ذلك الصدق نفسه، بأنها قد بلغت من تخويفه وترويعه منذ خمس سنين أنه أصبح لا يستطيع أن يشعر بطمأنينة كاملة وأمان تام إلا إذا وافقت ناستاسيا فيليبوفنا هي نفسها على زواجه. وأسرع يضيف إلى ذلك أن هذا الذي يوحى به الآن يكون سخيلاً لولا أنه مستند إلى أسباب قوية ومدعم ببواعث متينة. فلقد لاحظ بوضوح كامل وعرف معرفة محققة أن شاباً من أسرة طيبة جداً ومحترمة جداً، شاباً تعرفه وتستقبله في دارها، هو جبريل آرداليوننتش إيفولجين نفسه، موله بحبها منذ مدة طويلة، ويتمنى أن يحظى بعطفها ولو دفع نصف حياته ثمناً لذلك؛ وهذه الاعترافات إنما أسرّ بها جبريل آرداليوننتش منذ زمان طويل إليه هو، آتانازي إيفانوفتش، صادقاً مخلصاً بكل ما يحمله له من صداقة، وبكل ما يزخر به قلبه الشاب من اندفاع وحرارة؛ كما أن إيفان فيدوروفتش، حامي الفتى، يعرف الأمر منذ مدة هو أيضاً؛ ومن حق آتانازي إيفانوفتش أن يظن، إلا إذا أخطأ ظنه، أن عواطف الفتى لا تجهلها ناستاسيا فيليبوفنا أيضاً، حتى لقد خيل إليه أنها تظهر بعض الرضى عنها وبعض الترحيب بها. وطبيعي أنه يصعب ذلك على أي إنسان آخر. ولكن إذا شاءت ناستاسيا فيليبوفنا أن تصدق أنه، عدا مصلحته الأنانية ورغبته في تنظيم حياته، قد يريد لها الخير، فلا بد أن تدرك أن عزلتها تبدو له منذ مدة طويلة غريبة وأليمة. وهو واثق بأن هذه العزلة ليست إلا ظلمات كثيفة، وأنها ناشئة عن الكفر بإمكان أن يجدد المرء حياته. ولكنه مؤمن بأن حياتها يمكن أن تنبعث انبعاثاً رائعاً بالحب والأسرة اللذين سيضيفان عليها معنى جديداً.

وأضاف آتانازي إيفانوفتش يقول: أن مواهب قد تكون لامعة تضيع عندها، وإن رضاها هذا عن حزنها ويأسها، أي هذا النوع من الرومانسية، لا يتفق والحس السليم ولا يناسب ما تتحلى به نفس ناستاسيا فيليبوفنا من نبل.

وبعد أن كرر مرة أخرى أن الكلام في هذا الأمر يشق على نفسه أكثر من أي إنسان آخر، ختم حديثه قائلاً: إنه لا يملك إلا أن يأمل ألا تستقبل ناستاسيا فيليبوفنا بالاحتقار والازدراء رغبته الصادقة في أن يكفل لها مستقبلها بأن يقدم إليها رأس مال مقداره خمسة وسبعون ألف روبل. وأضاف معلقاً أن هذا المبلغ مكتوب لها في وصية، فلا داعي إلى أن تعدّه تعويضاً... أو شيئاً من هذا القبيل... ولا داعي على كل حال إلى ألا يصدق المرء وألا يغض هذه الرغبة الإنسانية في تخفيف عذاب الضمير، إلخ، إلخ، إلخ.

الخلاصة أن آتانازي إيفانوفتش قال كل ما يحسن أن يقال في مثل هذه الأحوال.

ولقد تكلم آتانازي إيفانوفتش مدة طويلة ببلاغة وفصاحة، وأشار عرضاً - وهذا أمر

هام جداً - إلى أن هذه هي المرة الأولى التي يجيء فيها على ذكر مبلغ الخمسة وسبعين ألف روبل، فما من أحد على الإطلاق، سمع عن هذا قبل الآن، حتى ولا إيفان فيدوروفتش.

وتكلمت ناستاسيا فيليبوفنا فأذهل جوابها الرجلين.

فلا شيء فيها الآن مما كان يسود كلامها من سخرية وعداوة وكره، ولا شيء من تلك الضحكة التي كانت ذكرها وحدها تجمد توتسكي رعباً، بالعكس: أن المرء ليحس بأنها تكاد تكون سعيدة من قدرتها أخيراً على أن تجري مع أحد الناس حديثاً فيه إخلاص وصراحة، وفيه مودة وصداقة. واعترفت بأنها كانت تتمنى منذ مدة طويلة أن تحصل على نصيحة من صديق، وأن الكبرياء وحدها هي التي منعتها من طلب النصيح حتى الآن. أما وقد تكسرّ الجليد، فلا شيء يمكن أن يبهجها وأن يسعدها أكثر من ذلك.

لقد بدأت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها وهي تبتسم ابتسامة حزينة، ثم ضحكت من كل قلبها حين قالت: إنها لن تشير زوبعة كالزوبعة التي أثارها في الماضي؛ وإنها على كل حال قد غيرت رأيها في أمور كثيرة منذ مدة طويلة، وإنها رغم أن قلبها لم يتغير، لا تملك إلا أن تعترف بالأمر الواقع، فما حدث قد حدث، وما مضى قد مضى، حتى إنها ليدهشها بقاء هذا الرعب في نفس آتانا في إيفانوفتش إلى الآن.

ثم اتجهت بالكلام إلى إيفان فيدوروفتش فقالت له، باحترام عميق، أنها قد سبق أن سمعت عن بناته، وإنها تمحضهن منذ مدة طويلة أصدق الاعتبار وأعمق الاحترام، وإنها لتشعر بسعادة واعتزاز متى تصورت أن في وسعها أن تنفعهن في شيء.

ولقد كان صحيحاً كذلك أن حياتها، في تلك الآونة، كانت شاقة كالحمة، كالحمة إلى أبعد الحدود. لقد حزر آتانا في إيفانوفتش أحلامها. نعم، إنها تودّ لو تنبعث، أن لم يكن بالحب فبالحياة في أسرة مع الشعور بغاية جديدة. لكنها لا تكاد تستطيع مع ذلك أن تقول شيئاً عن موضوع جبريل آرداليونتش. صحيح أنها يبدو لها أنه يحبها، وصحيح أنها تشعر من جهتها بأنه كان يمكنها أن تحبه لو آمنت بمتانة تعلقه وقوة ارتباطه، ولكن هبه صادقاً، فإنه ما يزال شاباً صغيراً، ومن الصعب اتخاذ قرار. وعلى كل حال، فإن ما يعجبها فيه أكثر من أي شيء آخر هو أنه يعمل وأنه يعول أسرة بكاملها.

وقد سمعت عنه أنه شاب نشيط، فعّال، عزيز النفس، ذو أنفة، طموح، تواق إلى الارتقاء. كما سمعت أن نينا ألكسندروفنا إيفولجينا، أم جبريل آرداليونتش، امرأة جديرة بالإعجاب، خليقة بالاحترام من جميع النواحي، وأن أخته باربارا آرداليونوفا فتاة

نشيطة فعالة ممتازة هي أيضاً. لقد كلمها بتتسين كثيراً عنهم؛ وهي تعرف أن الأسرة كلها تتحمل أنواع الشقاء مرحلة متفائلة؛ وهي تود أن تتعرف إلى هذه الأسرة، ولكن بقي عليها أن تعرف هل تحسن هذه الأسرة استقبالها، وهل ترحب بها.

الخلاصة: أنها على وجه الإجمال لا تعارض فكرة هذا الزواج، لكنها ترى أن الأمر يستحق مع ذلك تفكيراً جدياً، فهي تتمنى لهذا ألا تُستحث على الإسراع كثيراً. أما فيما يتعلق بالخمسة وسبعين ألف روبل، فإن آتانا زي إيفانوفتش قد أخطأ حين تخرج من الكلام عليها. فهي تعرف قيمة المال حق معرفتها، وهي لذلك تقبل هذه الهدية مغتبطة. وشكرت لآتانا زي إيفانوفتش أيضاً أنه كان رقيق الشعور فلم يقل عن هذا الأمر كلمة واحدة لا للجنرال ولا لجبريل آرداليونتش. ولكنها تساءلت لماذا لا يُطلع جبريل على ذلك سلفاً هو أيضاً؟ فإنها لن تشعر بأي خجل من هذا المال حين تصبح عضواً في الأسرة. ثم إنها لا تنتوي أن تعتذر لأي إنسان عن أي شيء، وتحرص على أن يُعرف هذا. وهي لن تقبل أن تتزوج جبريل آرداليونتش إلا حين تقتنع بأنه لا يضمّر أية فكرة سيئة عنها، لا هو ولا أسرته. ومهما يكن من أمر، فهي لا تشعر بأنها آثمة في شيء، وهي تود أن يطلع جبريل آرداليونتش على ظروف حياتها أثناء هذه السنين الخمس بمدينة بطرسبرج، وعلى صلاتها بآتانا زي إيفانوفتش، وعلى الثروة التي استطاعت أن تجنيها؛ وهي أخيراً أن قبلت هذا المال، فلا تقبله ثمناً لعارها الذي لا تحس أنها مسؤولة عنه، وإنما تقبله تعويضاً عن تحطيم حياتها.

وقد بلغت من الحماسة والحرارة والحمياً أثناء تدفق لسانها بهذا الكلام كله (وذلك طبعي جداً على كل حال) أن الجنرال إيبانتشين شعر بارتياح كبير، واعتبر القضية منتهية. أما توتسكي، المروّع المذعور إلى الآن، فإنه لم يصدق هذا الكلام تصديقاً تاماً، وظل يخشى أن يكون تحت الأزهار أفعى.

ومع ذلك بدأت المباحثات بين الصديقين. فكانت النقطة التي تعتمد عليها حيلتهما، أعني إمكان أن تتوله ناستاسيا فيليبوفنا بحب جانياً، كانت هذه النقطة تتوضح وتتأكد شيئاً بعد شيء، حتى أن توتسكي نفسه كان يصل في بعض الأحيان إلى الاعتقاد بحظ من النجاح. وفي أثناء ذلك جرى حديث بين ناستاسيا فيليبوفنا وبين جانياً، حديث لم يتبادلا فيه إلا كلاماً قليلاً، فكان حياء ناستاسيا وخفها كانا يصدانها عن الكلام؛ ومع ذلك قبلت حبه وارتضته، لكنها أصرت على أن تعلن له أنها لا تريد أن ترتبط بأي عهد، وأنها إلى أن يتم الزواج (إذا تم) تحتفظ لنفسها بحرية أن تقول: «لا»، حتى آخر لحظة؛ ومنحت جانياً هذه الحرية نفسها على كل حال.

وسرعان ما علم جانبا علم اليقين، بفضل مصادفة مواتية، أن اعتراض أسرته كلها على هذا الزواج، واعتراضها على شخص ناستاسيا فيليبوفنا نفسها، وهو اعتراض كانت تفضحه مشاجرات متكررة، كانت ناستاسيا فيليبوفنا تعرفه بجميع تفاصيله. ومع ذلك لم تكلمه عنه في يوم من الأيام، مع أنه كان يتوقع أن تفتحه فيه كل يوم.

على أن هناك أشياء كثيرة أخرى ينبغي أن نقولها عن الظروف والأحداث التي أثارها مشروع الزواج هذا، والتي أثارت المباحثات بين الصديقين، ولكننا قد استبقنا منذ الآن أموراً كثيرة، لا سيما وأن بعض الظروف لم تكن تبدو في ذلك الأوان إلا شائعات غامضة جداً.

من ذلك ما قيل من أن توتسكي قد علم، لا أدري من أين، أن ناستاسيا فيليبوفنا أصبحت لها علاقات سرية غير محددة المعالم ولا واضحة الغايات بالأنسات إيبانتشين؛ وهي شائعة لا يمكن أن يصدقها العقل. وفي مقابل هذا صدق توتسكي رغم إرادته شائعة أخرى أخذت تسبب له في الليل أحلاماً ثقيلة وكوابيس مرهقة: لقد أكد له بعضهم أن ناستاسيا فيليبوفنا كانت على علم كامل بأن جانبا لن يتزوجها إلا في سبيل المال وحده، وأنه أمرٌ حقير النفس، أسود القلب، شديد الطمع، قليل الصبر، حسود، لا يحب إلا نفسه، ولا يسعى إلا وراء مصلحته؛ وقيل: أن ناستاسيا قد علمت كذلك أن جانبا أن كان قد سعى إلى الظفر بها في الماضي عاشقاً مولها، فإنه منذ اليوم الذي قرر فيه الصديقان أن يستغلا غرامه لمصلحتهما ببيعه ناستاسيا فيليبوفنا زوجة شرعية له، قد أخذ يكرها كرهاً شديداً ويبغضها بغضاً قوياً فكأنها كابوس؛ ثم اختلطت الشهوة والكراهية في نفسه اختلاطاً عجبياً، حتى إذا قرر أخيراً، بعد تردد طويل أليم، أن يتزوج هذه «المرأة الفاسدة»، كان في قرارة نفسه قد حلف لينتقم منها شرّاً انتقام، وليجعلها تدفع ثمن ذلك كله غالياً باهظاً. وقيل: أن ناستاسيا فيليبوفنا كانت على علم بكل شيء، وإنها كانت تدبر في الخفاء أمراً.

وقد بلغ توتسكي من الخوف أنه أصبح لا يطلع إيبانتشين على هواجسه وعلى ما يحس به من نذر الشؤم. ومع ذلك كان في بعض اللحظات يسترد رباطة جأشه ويستعيد تفاؤله ونشاطه وانتعاشه، كما يقع هذا لكل إنسان. ذلك ما حدث له، مثلاً، حين وعدت ناستاسيا فيليبوفنا أصدقاءها أخيراً بأن تعلن لهم كلمتها الأخيرة في مساء الاحتفال بعيد ميلادها.

غير أن هناك شائعة أخرى هي أغرب الشائعات وأبعدها عن أن يصدقها العقل، شائعة تتعلق بالمحترم إيفان فيدوروفتش نفسه، كانت تتأكد شيئاً بعد شيء وأأسفاه!

كان ذلك كله يبدو من النظرة الأولى جنوناً محضاً. لقد كان من الصعب على المرء أن يصدق أن رجلاً مثل إيفان فيدوروفتش، يمكنه في ختام حياته المشرفة الكريمة، مع ما يملكه من سلامة الحس ورجاحة العقل وسعة التجربة وغنى الخبرة وما إلى ذلك، أن يقع هو نفسه في غرام ناستاسيا فيليبوفنا، وأن تبلغ نزوته هذه حدّاً يشبه أن يكون حد الوله العنيف والهوى الجارف. ماذا كان يأمل؟ أن من الصعب على المرء أن يجيب عن هذا السؤال. ولعل إيفان فيدوروفتش كان يعوّل على التواطؤ مع جانبا. ولقد كان توتسكي، على كل حال، يشبهه في وجود نوع من الاتفاق المضمّر بين الجنرال وجانبا، وهو اتفاق قائم على فهم متبادل. ومن المعروف أن الرجل الذي يستسلم لهوى جارف، ولا سيما إذا كان متقدماً في السن، قد يعمى عماوة كاملة، فإذا هو يرى أملاً حيث لا أمل، وإذا هو يفقد سداد الرأي وصدق الحكم فقداً تاماً، وإذا هو يتصرف تصرف صبي غرّ مهما يكن عظيم الذكاء!

كان معروفاً أن الجنرال قد هياّ لعيد ميلاد ناستاسيا فيليبوفنا عقداً من اللؤلؤ كلفه مبلغاً ضخماً، وإنه كان يعوّل على هذه الهدية كثيراً، رغم علمه بأن ناستاسيا فيليبوفنا امرأة زاهدة في المنفعة. وكان في عشية عيد الميلاد محموماً من شدة الاضطراب، ولكنه استطاع أن يحسن إخفاء عواطفه بحذق وبراعة. وعن ذلك العقد من اللؤلؤ إنما كانت الجنرالة إيبانتشين قد سمعت الناس يتحدثون!

صحيح أن إليزابت بروكوفينا قد استطاعت منذ مدة طويلة أن تدرك خفة زوجها وطيشه، حتى لقد ألفت فيه هذه الخفة وهذا الطيش واعتادت عليهما بعض الاعتياد. ولكن لم يكن في وسعها طبعاً أن تدع لحادث خطير كهذا الحادث أن يتم. أن حكاية اللؤلؤ هذه تهمّها إلى أبعد حد. وقد أدرك الجنرال الأمر في الوقت المناسب. إنه منذ الليلة البارحة قد سمع بضع كلمات ذات دلالة، وهو يوجس أن مناقشة حاسمة ستقوم اليوم.

لهذا لسبب كان الجنرال، في هذا الصباح الذي تبدأ فيه قصتنا، لا يشعر بأي رغبة في أن يتناول طعام الإفطار مع الأسرة. ولذلك كان قد قرر، حتى قبل وصول الأمير، أن ينصرف من البيت بحجة العمل. وكانت كلمة «الانصراف» تعني عند الجنرال في بعض الأحيان «الفرار»!

كان لا يطمع في أكثر من أن يقضي النهار، ولا سيما السهرة، بدون حادث ينغص عليه صفوه.

وفجأة وصل الأمير في هذا الوقت المناسب. قال الجنرال لنفسه وهو يدخل على زوجته: «الله أرسله»!...

الفصل الخامس

كانت الجنرالة شديدة الاعتزاز بنبل محتدها. ففي وسعك أن تتخيل انفعالها حين علمت، دون أي تمهيد، أن ذلك الأمير ميشكين نفسه، الرجل الأخير من سلالة أسرتها، الذي سبق أن سمعت عنه أشياء غامضة، ليس إلا شاباً مسكيناً أبله، يكاد يكون معوزاً، ويضطره فقره إلى قبول مساعدة أو معونة. وقد حرص الجنرال على أن يوقظ في نفس زوجته انفعالاً قوياً وأن يبعث فيها اهتماماً شديداً، ليصرفها عن الموضوع الذي كان يشغل بالها، ويتحاشى بذلك أن تخوض في موضوع عقد اللؤلؤ.

حين تكون الجنرالة في حالات قلق قصوى، فإنه تحمّل بعينيها، وتردّ جسمها إلى وراء، وتأخذ تنظر إلى أمام زائغة الهيئة لا تقول كلمة واحدة.

هي امرأة فارعة القوام؛ في سنّ زوجها؛ شعرها أسمر قد ملأه الشيب لكنه ما يزال كثيفاً؛ أنفها محدودب قليلاً؛ وجهها ضامر نحيل أصفر؛ خذاها خاسفتان؛ شفثاها رقيقتان منضمتان؛ جبينها عال لكنه ضيق؛ عيناها شهاباوان واسعتان لهما في بعض الأحيان تعبير لا يتوقعه المرء البتة. وقد ألفت منذ القديم أن تعتقد أن لنظراتها تأثيراً كبيراً، ثم بقيت لها هذه القناعة إلى الأبد.

— أن أستقبله؟ تريد مني، أن أستقبله الآن؟ فوراً؟

كذلك قالت الجنرالة محملقة بكل ما أوتيت من قوة، محدقةً إلى إيوان فيدوروفتش النشيط الذي كان يتحرك حولها.

أسرع الزوج يجيبها موضحاً:

— لا حاجة بك إلى كثير من الاحتفال ومن التقيد بالمراسم معه، إذا كنت تريدين أن تريه يا عزيزتي. إنه لطفل حقاً، بل إنه ليثير بعض الشفقة. إنه مصاب بنوبات مرض لا أدري ما هو! لقد وصل الآن من سويسرا مرتدياً ثياباً غريبة كأنها على الزي الألماني، وليس معه قرش واحد، حتى ليكاد يذرف دموعاً. أعطيته خمسة وعشرين روبلاً، وأمل أن أجد له عملاً كتابياً صغيراً!.. وأرجوكن، يا سيداتي، أن تطعمنه، فإنه ليخيل إليّ أنه فوق ذلك جائع جداً...

تابعت الجنرالة كلامها تقول بتلك اللهجة نفسها:

- إنك لتدهشني! جائع وذو نوبات؟ نوبات ماذا؟

- أوه! النوبات لا يصاب بها في أحيان كثيرة؛ ثم إنه يكاد يكون طفلاً، رغم أنه مثقف.

قال الجنرال ذلك ثم التفت نحو بناته مرة أخرى وأضاف:

- نويت يا سيداتي أن أجري له امتحاناً صغيراً. ليس ضاراً أن عرف ما هو عليه قادر.

قالت الجنرالة متحيرة أعمق التحير، وهي لا تنفك تجيل عينيها متنقلة من زوجها إلى بناتها ومن بناتها إلى زوجها:

- إم...-ت...-حا..ن؟

- آه... عزيزتي... لا تولي هذا الأمر شأنًا كبيراً، ولا تقيمي له أي وزن! الخلاصة: افعلي ما يحلو لك. لقد قام في ذهني أن أستقبله استقبلاً لطيفاً، وأنه أدخله إلى الأسرة، لأن ذلك بدا لي عملاً حسناً وفعلاً طيباً.

- أن تدخله إلينا؟ آت من سويسرا؟...

- ما قيمة أن يكون آتياً من سويسرا؟ على كل حال، لن يكون إلا ما تريدين. ولئن تكلمت في هذا الأمر، فلأن الشاب يحمل اسم أسرتك، وقد يكون قريباً لك؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه لا يعرف حقاً أين يمكنه أن يوسد رأسه. حتى لقد اعتقدت أن أمره سيعنيك بعض الشيء، لأنه واحد من السلالة على كل حال.

قالت البنت الكبرى، الكسندرا:

- طبعاً يا ماما، إذا كان في وسعنا أن نستقبله بلا احتفال أو كلفة أو تقيد بالمراسم، وما دام جائعاً بعد رحلة طويلة ذلك الطول، فلماذا لا ندعوه إلى أن يأكل معنا؟ لا سيما إذا كان لا يعرف إلى أين هو ذاهب..

- وهو فوق ذلك طفل حقيقي فيما يبدو، حتى ليمكن أن يلعب المرء معه لعبة «كولان مايار»!...

- لعبة «كولان مايار»؟ ما هذا الكلام؟

قاطعتها آجلايا تقول بشيء من الحزن:

- أو! ماما! كفاك تظاهراً، أرجوك...

فلم تستطع البنت الثانية، ذات الطبع الضاحك، أن تكظم مرحها، فإذا هي تنفجر مقهقهة.

وقالت آجلايا جازمة:

- أرسل إليه أن يجيء يا بابا.

فرن الجنرال الجرس وأصدر أمره بإدخال الأمير.

قالت الجنرالة بحزم:

- ولكن على شرط أن نعقد حول عنقه منشفة حين يجلس إلى المائدة. نادوا فيدور أو نادوا مافرا ليكون أحد وراءه يراقبه أثناء تناوله الطعام. أهو هادئ على الأقل حين توافيه تلك النوبات؟ ألا يحرك يديه بإشارات؟

- بالعكس... إنه مهذب لطيف يتقن آداب المجتمع ويتقيد بها. كل ما هنالك أنه قد يكون بسيطاً ساذجاً في بعض الأحيان. ها هو ذا بنفسه على كل حال! أقدم إليك الأمير ميشكين، آخر من يحمل اسم هذه السلالة، ولعله قريب لنا، فاستقبله بما يجب له من عاطفة. سيهيأ الإفطار يا أمير، فشرّفنا بأن... أما أنا فأرجوك أن تعذرني... لأنني مستعجل جداً، حتى لقد تأخرت..

قالت الجنرالة بهيئة وقور:

- لا نجهل المكان الذي تستعجل الذهاب إليه!

- مستعجل جداً، مستعجل جداً يا عزيزتي، حتى لقد تأخرت! ناولته دفاتركن، يا سيداتي، ليكتب لكن شيئاً... إنه خطاط ذو موهبة نادرة! موهبة! لقد خط لي منذ برهة في مكتبي عبارة: «إن المطران بافنوس قد مهر هذا بتوقيعه»... إلى اللقاء، إلى اللقاء!

قالت الجنرالة: - بافنوس؟ مطران؟

وبينما كان زوجها يتقهقر إلى وراء، صرخت تقول ملحة محتدة احتداداً متزايداً يشوبه قلق:

- انتظر! انتظر! إلى أين أنت ذاهب؟ من هو بافنوس هذا؟

- نعم نعم يا عزيزتي، كان في الزمان القديم المطران بهذا الاسم.. ولكن الكونت ينتظرني منذ مدة طويلة، وهو الذي حدّد لي الساعة. يا أمير، إلى لقاء قريب...

وانسحب الجنرال مسرعاً أشد الإسراع.

قالت إليزابيت بروكوفينا مغتاضة وهي تنقل نظرتها الحانقة نحو الأمير:

- أنا أعرف أي كونت يعني!

ثم أضافت تقول محاولة أن تتذكر وقد لاح في وجهها تبرم واحتقار:

- هيه! ما هي المسألة؟ آ... نعم... من هو ذلك المطران؟

حاولت ألكسندرا أن تتدخل (بينما كانت آجاليا تخبط بقدمها الأرض نافذة الصبر) فقالت:

- ماما!

فقالت الجنرالة جازمة:

- لا تقاطعيني يا ألكسندرا! أنا أيضاً أريد أن أعرف! اجلس هنا يا أمير، على الكرسي الذي يقع قبالتني... لا بل اجلس هنا، في الشمس؛ اقترب من الضوء لأراك رؤية أوضح. طيب... والآن حدثني عن ذلك المطران!...

بدأ الأمير يتكلم وقد ظهر في وجهه الانتباه والجد:

- هو المطران بافنوس...

- بافنوس؟ عجيب... هيه... ثم ماذا؟

كانت الجنرالة تلقي هذه الأسئلة نافذة الصبر دون أن تحوّل عنه بصرها، وكانت تصاحب كل كلمة من كلمات جواب الأمير بهزة من رأسها.

قال الأمير:

- عاش المطران بافنوس في القرن الرابع عشر، وكان يرأس صومعة للنسك على نهر الفولغا في الإقليم الذي يسمى الآن إقليم كوستروما. وقد اشتهر بحياته التقية الورعة، وذهب مراراً إلى بلاد التتار لحل أمور مختلفة. ففي مناسبة من تلك المناسبات ذيل إحدى الوثائق بتوقيعه، وقد رأيت أنا نسخة منها، فأعجبني الخط، فتعلمت محاكاته. ومنذ قليل حين أراد الجنرال أن يرى خطي ليجد لي عملاً، كتبت عدة

عبارات بأحرف مختلفة، فكانت إحدى هذه العبارات: «إن المطران بافنوس قد وقع هذا بخط يده»، وقد كتبتها على طريقة بافنوس في الخط، فأعجب الجنرال بها كثيراً، وإلى هذا إنما أشار منذ هنيهة.

قالت الجنرالة:

- يا أجاليا، تذكرى: بافنوس؛ بلي سجّلي، فأنا أنسى كل شيء. لكنني أعترف بأنني كنت أتوقع شيئاً أهمّ من هذا. أين ذلك التوقيع؟
- أظن أنه بقي على المنضدة في مكتب الأمير.
- هاتوني به حالاً.
- لكنني أستطيع أن أخطه لك مرة أخرى إذا شئت.

قالت ألكسندرا:

- طبعاً يا ماما؛ والأفضل أن نأكل الآن، فإننا جميعاً جوع.

قالت الجنرالة:

- طيب. تعال يا أمير: أنت جائع جداً؟
- نعم، بدأت أشعر الآن بجوع؛ وإنني لأشكرك أجزل الشكر.
- حسن جداً أنك مؤدب مهذب؛ وإنني لألاحظ أنك لست غريباً إلى الحد الذي أرادوا أن يصلوا إليه في تصوير غرابتك. تعال، اجلس هنا، قبّلتني، لأستطيع أن أنظر إليك (كذلك قالت له متحركة منشغلة مهتمة، حين صاروا جميعاً في قاعة الطعام). ألكسندرا، أديلايد، اهتما بالأمير؟ ألا تريان أنه ليس مريضاً إلى الحد الذي...؟ ربما كنا في غير حاجة إلى المنشفة. قل لي يا أمير: هل كانوا يعقدون منشفة حول رقبتك؟
- نعم، أظن، في الماضي، حين كان عمري سبع سنين. أما الآن فقد تعودت أن أضع المنشفة على ركبتي.

- هذا ما يجب. ونوباتك؟

قال الأمير مدهوشاً بعض الدهشة:

- نوباتي؟ أصبحت الآن نادرة. مع ذلك... لا أدري! يقال: أن المناخ هنا لن يكون مناسباً لحالتي الصحية.

قالت الجنرالة مخاطبةً بناتها وهي ما تزال تصاحب كل كلمة من كلمات الأمير بهزة من رأسها:

- إنه يجيد الكلام. لم أكن أتوقع ذلك. إذاً لم يكن كل ما قيل إلا أكاذيب وترهات باطلة، كالعادة!

ثم عادت تخاطب الأمير فقالت له:

- كل يا أمير، وقصّ علينا أين ولدت وأين نشأت وترعرعت وتربيت. أريد أن أعرف كل شيء. أن أمرك يهمني كثيراً.

شكرها الأمير، وأخذ يكرر ما سبق أن رواه مراراً في تلك الصبيحة من النهار... أخذ يكرره وهو يأكل بشهية كبيرة..

ازداد ارتياح الجنرالة ورضاها شيئاً بعد شيء. وكانت البنات أيضاً تصغي إلى حديث الأمير بانتباه. واستعرضت القرابة، فاتضح أن الأمير يعرف شجرة النسب معرفة جيدة، ولكنهم رغم جميع الجهود لم يتمكنوا من العثور على أي قرابة تربط الأمير بالجنرالة. كل ما هنالك أنهم يستطيعون أن يتصوروا أن بين الأسلاف الأبعدين قرابة غامضة كالقرابة التي تكون بين أبناء الأعمام. وقد سُرّت الجنرالة كثيراً بالخوض في هذا الموضوع الصعب، لأنها رغم كل رغبتها، قلما أتيح لها قبل اليوم أن تتحدث عن أجدادها، لذلك نهضت عن المائدة منتعشة انتعاشاً كبيراً. قالت:

- الأفضل أن نمضي إلى قاعة الاجتماع، فستحمل القهوة إلينا هناك.

وأضافت تشرح للأمير وهي تجرّه:

- هي غرفة مشتركة لنا جميعاً، بل قلّ: هي صالوني الصغير الذي نجتمع فيه حين نكون وحيدات، وتكون كل واحدة منا منصرفة إلى شؤونها: فابنتي الكبرى، ألكسندرا، تعزف على البيانو أو تقرأ أو تخطط؛ وابنتي أديلائيد ترسم مناظر طبيعية أو وجوهاً إنسانية (دون أن تنهي أي شيء في يوم من الأيام)؛ أما أجاليا فإنها لا تعمل شيئاً البتة. وأنا أيضاً يسقط الشغل من بين يدي، ولا أفلح في إنجاز شيء. ها نحن أولاء وصلنا. اجلس يا أمير، قرب المدفأة، وقصص علينا. أريد أن أعرف كيف تحكي. أريد أن أتأكد من ذلك، فإذا رأيت الأميرة العجوز بيلوكونسكيا حدثتها عنك. أريد أن تثير اهتمام الجميع. فهاً تكلم!

قالت أديلائيد التي كانت في أثناء ذلك قد ركزت حاملة لوحاتها وتناولت فراشيها

وصحن ألوانها وأخذت تنقل عن صورة مطبوعة منظراً طبيعياً كانت قد بدأت تصويره منذ مدة طويلة، قالت:

- ماما، يصعب على الإنسان كثيراً أن يحكي ويقص في ظروف كهذه الظروف التي تحيطين بها الأمير.

وجلسات ألكساندرا وأجلالها إحداهما إلى جانب الأخرى على أريكة صغيرة، وقد عقدت كل منهما يديها على صدرها، واستعدت للإصغاء إلى الحديث. ولاحظ الأمير أن انتباه الجميع منصرف إليه.

قالت أجلالها:

- ما كنت لأحكي شيئاً أو لأقص شيئاً لو أمرت بهذا أمراً على هذا النحو.

- فقالت الجنرالة:

- لماذا؟ أي شيء خارق في هذا؟ ما عسى يمنعه من الكلام؟ أن له لساناً. أريد أن أعرف كيف يجيد الحديث. اقصص ما تشاء. قل لنا هل أعجبتك سويسرا، صف لنا انطباعك الأول هناك. سوف ترين: إنه سيبدأ، وسيجيد الحديث أيما أجادة.

بدأ الأمير الكلام فقال:

- كان انطباعي الأول قوياً جداً...

فقاطعت الجنرالة النافذة الصبر، متلفتة إلى بناتها قائلة لهن:

- هل رأيتم؟ هل رأيتم؟ لقد بدأ...

فأوقفتها ألكساندرا قائلة:

- دعيه يتكلم على الأقل يا ماما!

وهمست تقول لأختها أجلالها:

- قد يكون هذا الأمير مكاراً كبيراً، لا أبله!

فأجابتها أجلالها تقول:

- هذه حقيقة أكيدة لاحظتها منذ مدة. وإنها لدناءة منه أن يمثل دور الأبله. هل

يظن أنه يجني من ذلك نفعاً ما؟

استأنف الأمير كلامه فقال:

- كان انطباعي الأول قوياً جداً. حين أخذوني من روسيا واجتزنا مدناً ألمانية، كنت لا أزيد على أن أنظر صامتاً، وكنت لا ألقى أي سؤال (ما زلت أذكر هذا) وقد حدث ذلك في أعقاب نوبات من مرضي عنيفة جداً وأليمة جداً. وقد ألفت، في أوان النوبات، حين يكثر تعاقبها، أن أصبح في حالة انصعاق، فأفقد ذاكرتي فقداناً تاماً، وينقطع مجرى المنطق في أفكاري، (رغم أن فكري يظل يعمل) فلا يتسلسل في ذهني أكثر من فكرتين أو ثلاث. أو ذلك هو على كل حال الانطباع الذي بقي في نفسي. حتى إذا هدأت النوبة رجعت سليماً معافياً، قوياً كقوتي الآن.

«أذكر أنني أحسست حينذاك بحزن لا يطاق، حتى لقد استبدت بي رغبة في البكاء. كنت لا أزيد على أن أشعر بدهشة وقلق. لقد فاجأني كثيراً أن كل شيء حولي كان أجنبياً. نعم، لقد أصبحت في «الخارج». فهمت ذلك. أن هذا «الخارج» كله يهوي بي إلى قاع الحزن واليأس. ثم لم أخرج من تلك الظلمات خروجاً كاملاً - ما زلت أذكر هذا - إلا في المساء، بمدينة بال، عند وصولنا إلى سويسرا. إذ أن نهقة حمار في ميدان السوق هي التي أيقظتني من انصعاعي. لقد أثرت نهقة الحمار في نفسي تأثيراً قوياً، وأعجبتني إعجاباً شديداً، لا أدري لماذا؟ وفي الوقت نفسه كان كل شيء في رأسي يضيء...».

قالت الجنرالة:

- حمار؟ غريب... ولكن لا... لا غرابة. أن بيننا نحن معشر النساء من يقعن في غرام حمار.

أضافت الجنرالة هذه الجملة الأخيرة، وهي تنظر شبه غاضبة إلى الفتيات، اللواتي كن يضحكن. وأردفت تقول:

- وذلك شيء تكلمت عنه أساطير اليونان الأقدمين. أكمل كلامك يا أمير.

تابع الأمير حديثه فقال:

- ومنذ ذلك الوقت أصبحت أحب الحمير حباً عظيماً. أصبح هذا عندي عاطفة حقيقية صادقة. وأخذت أجمع معلومات عن الحمير. لم أكن قد رأيت حماراً قبل ذلك اليوم؛ وسرعان ما عرفت أن الحمار حيوان مفيد جداً، وأنه قوي نشيط صبور قنوع ذو مقاومة وجلد. وبواسطة هذا الحمار أخذت سويسرا كلها تعجبني، فأنهى ذلك حزني.

- هذا كله غريب حقاً، ولكن دعنا... ولننتقل إلى موضوع آخر. ما الذي يضحكك يا أجلايا، وأنت يا أديلائيد؟ لقد تحدث الأمير عن الحمار فأجاد الحديث. هو رآه بنفسه، فماذا رأيت أنت؟ أنت لم تسافري يوماً إلى الخارج.

قالت أديلائيد:

- سبق أن رأيت حماراً يا ماما!

وأضافت أجلايا:

- وأنا قد سمعت حماراً.

وأخذت البنات الثلاث تضحك. وضحك الأمير أيضاً.

قالت الجنرالة:

- هذا منكن شر وسوء! اعذرهن يا أمير، فأنهن بنات طيبات القلب، وإني لأشاجرهن دائماً، لكنني أحبهن. هن طائشات العقل مجنونات...!

قال الأمير ضاحكاً.

- لماذا؟ لو كنت في مكانهن لما فوتُ الفرصة أيضاً. على كل حال، أنا أعشق الحمار: الحمار مخلوق طيب مفيد.

قالت الجنرالة:

- وأنت يا أمير، هل أنت طيب؟ أسألك عن هذا من باب حب الاطلاع.

وأخذ الجميع يضحكون من جديد.

وهتفت الجنرالة تقول:

- أنا أقصد ذلك الحمار اللعين، ولم يخطر الأمير ببالي. ثق يا أمير إنني لم أعقد أي....

- مقارنة؟

هكذا ساعدها الأمير في إتمام جملتها، وأضاف يقول وهو ما يزال يضحك:

- لم يساورني أي شك في هذا!

قالت الجنرالة:

- حسن جداً أنك تضحك. أنني أدرك من هذا أنك شاب طيب جداً.

أجاب الأمير:

- يتفق لي ألا أكون كذلك!

قالت الجنرالة على نحو غير متوقع:

- وأنا أيضاً طيبة؛ بل قل: أن شئت إنني طيبة دائماً، وذلك عيبي الوحيد، لأن على الإنسان ألا يكون طيباً على الدوام. إنني كثيراً ما أغضب منهن، ومن إيفان فيدوروفتش خاصة، ولكن المؤسف المحزن هو أنني لا أكون في لحظة من اللحظات طيبة كطيبتني أثناء الغضب! منذ برهة، قبل وصولك، كنت قد غضبت فتظاهرت بأنني لا أفهم شيئاً. ذلك يحدث لي أحياناً كما يحدث للأطفال. لقد لقنتني آجاليا درساً. شكراً لك على هذا الدرس يا آجاليا. على كل حال، ما أسخف هذا كله! ترهات في ترهات!... ما أنا بالغبية إلى الحد الذي يبدو عليّ، أو إلى الحد الذي تريد أن توهم به بناتي. أن لي إرادة قوية وعزيمة صلبة، ولست أتحرج كثيراً. تعالي إلى هنا يا آجاليا وقبليني...

ثم قالت الجنرالة حين قبلتها آجاليا على شفتيها ويدها بكثير من العاطفة:

- وكفاك عواطف سخيفة!

ثم التفتت إلى الأمير تقول له:

- واصل حديثك يا أمير. قد تتذكر شيئاً يشوق الحديث عنه أكثر مما يشوق الحديث عن ذلك الحمار!

قالت آجاليا:

- ما زلت لا أفهم كيف يستطيع المرء أن يحكي شيئاً على هذا النحو. لو طلب إليّ ما يُطلب إليه لما وجدت شيئاً أقوله.

- ولكن الأمير سيجد ما يقوله، لأن الأمير ذكي إلى أبعد حدود الذكاء؛ هو أذكى منك عشر مرات على الأقل، أو اثنتي عشرة مرة. أرجو أن تدركي هذا من الآن. برهن لهن على صحة قولتي يا أمير، وأكمل. أما الحمار فنستطيع فعلاً أن ندعه الآن وشأنه. هيه، ماذا رأيت في الخارج، عدا ذلك الحمار؟

قالت ألكسندرا:

- كان الحديث عن الحمار ذكياً جداً كذلك. لقد وصف لنا الأمير حالته المرضية

وصفاً شائقاً، وذكر لنا كيف أسترده حبه للأشياء على أثر صدمة خارجية. لقد طالما اشتقت أن أعرف كيف يفقد الإنسان عقله وكيف يمكن أن يسترده، ولا سيما حين يتم ذلك على نحو مباغت!

صاحت الجنرالة تقول:

- أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أرى الآن أنه يتفق لك أيضاً أن تكوني ذكية في بعض الأحيان. والآن كفى ضحكاً! أظن يا أمير أنك توقفت عن الكلام حين وصلت إلى وصف الطبيعة السويسرية، فماذا عن الطبيعة بسويسرا؟

قال الأمير:

- وصلنا إلى لوسيرن، وقادوني في نزهة على البحيرة. كنت أحس أن هذا جميل، ومع ذلك كنت منقبض الصدر.

سألت ألكسندرا:

- لماذا؟

فأجاب الأمير.

- أنا نفسي لا أفهم علة ذلك. إنني أشعر دائماً بانقباض في صدري، وتمتلئ نفسي قلقاً حين أرى منظراً من هذا النوع أول مرة. على كل حال، كان هذا يحدث أيام كنت ما أزال مريضاً...

- أما أنا فكان يسعدني أن أرى ذلك كله. إنني لأتساءل هل سنعزم أمرنا على السفر إلى الخارج في يوم من الأيام. لقد أصبحت منذ عامين لا أجد موضوعاً للوحة أرسمها:

«وُصف الجنوب والمشرق منذ زمن طويل...»^[21]. يا أمير، هلّا وجدت لي موضوع لوحة أرسمها!

قال الأمير:

- لست في هذا المجال على شيء من خبرة. يخيل إليّ أنه ليس على الرسام إلا أن ينظر ويرسم.

- أنا لا أحسن النظر.

قاطعتهما الجنرالة قائلة:

- ما بالكما تتكلمان في الغاز؟ لست أفهم مما تقولان شيئاً! ما هذا الذي تزعمينه؟
«لست أحسن النظر!» أن لك عينين فما عليك إذاً إلا أن تنظري! وإذا لم تستطعي أن
تنظري هنا، فلن تتعلمي في الخارج أن تنظري. الأفضل أن تقول لنا يا أمير كيف تنظر
أنت؟

قالت أديلائيد:

- هذا أفضل. أن الأمير قد تعلم في الخارج كيف يحسن النظر!
- لا أدري كثيراً! أنا لم أزد هنالك على أن أسترده صحتي. لا أدري هل تعلمت أن
أنظر. على كل حال، كنت سعيداً طوال الوقت!
هتفت أجلايا:

- كنت سعيداً؟ أنت تعرف كيف تكون سعيداً فكيف تستطيع أن تقول إذاً: إنك لم
تتعلم أن تنظر؟ لا بد أن تكون قادراً على أن تعلمنا ما تعلمت!
قالت أديلائيد وهي ما تزال تضحك:

- نعم، علمنا ما تعلمت.

قال الأمير وهو يشاركهن الضحك:

- لا أستطيع أن أعلم أحداً شيئاً. إنني طوال الوقت الذي قضيته في الخارج تقريباً،
قد عشت في تلك القرية السويسرية الصغيرة، ولم أكن أتركها إلا في القليل النادر
لأقوم برحلة قصيرة. فماذا أستطيع أن أعلمكن؟ كل ما ظفرت به في البداية هو أنني
استطعت ألا أشعر بملل وسأم. وتحسنت صحتي تحسناً سريعاً. وبعد ذلك أصبح كل
يوم من الأيام ثميناً في نظري، أثنى فآثمن، وكنت أدرك ذلك إدراكاً تاماً. كنت أرقد
في المساء سعيداً جداً، وأستيقظ في الصباح أشد سعادة أيضاً. أما سبب ذلك فأمر لا
أدري كيف أعبر عنه!

سألته ألكسندرا:

- هل بلغت من السعادة أنك أصبحت لا تتوق إلى شيء في غير ذلك المكان؟
- في البداية شعرت بذلك النوع من النداء، فكنت أحس من ذلك بقلق وغم. كنت
أفكر في المستقبل، وأتمنى أن أستشرف مصيري. وكنت في بعض اللحظات اضطرب
اضطراباً كبيراً. أن هناك لحظات من هذا النوع كما تعلمين، ولا سيما في العزلة. كان

في تلك القرية الصغيرة شلال صغير نحيل يشبه أن يكون خيطاً من ماء، يسقط من علو شاهق، ويكاد يكون عمودياً، وهو أبيض مزبد مرغٍ صاخب. إنه يسقط من علو شاهق جداً، ولكن المرء لا يشعر بالارتفاع الذي يسقط منه. أن المسافة تبلغ نصف فرسخ علواً، ولكن المرء يحسها خمسين خطوة. كنت أحب أن أسمع صوت سقوط الماء ليلاً. وفي تلك اللحظات إنما كان يزداد اضطرابي.

«وفي بعض الأحيان أيضاً، أثناء النهار، على مكان ما من الجبل، كنت أتوقف وحيداً بعد صعود طويل. من حولي أشجار صنوبر ضخمة قديمة تفوح منها رائحة الراتينج. وفي بعيد، على مستوى أدنى، تلوح قريتنا الصغيرة التي لا تكاد تُرى. والشمس تسطع. والسماء زرقاء. والصمت مطلق. فهناك إنما كنت أحس أحياناً ذلك النداء نحو المجهول، وأقدر أنني لو مضيت إلى أمام قُدماً، وأوغلت إلى بعيد، إلى بعيد، وتجاوزت ذلك الخط الذي تلتقي عنده الأرض بالسماء، فسأجد جواباً عن كل شيء، وسرعان ما تنكشف لي حياة جديدة، أكثف كثافة وأعنف عنفاً وأحرّ حرارة من الحياة عندنا ألف مرة. وكنت أحلم بمدينة كبرى مثل نابولي، مألّى بالقصور، وبالصخب، وبالحركة، وبالحياة... ما أكثر الأشياء التي حلمت بها!.. ليس هناك شيء لم أحلم به! وبعد ذلك خيل إليّ أن المرء يستطيع حتى في السجن أن يجد حياة عريضة واسعة».

قالت أجلايا:

– هذه الفكرة الأخيرة المحمودة سبق أن قرأتها في كتاب مختارات حين كنت في الثانية عشرة من عمري.

وقالت أديلائيد:

– هذا كله فلسفة. أنت فيلسوف جئت تعلمنا الحكمة!

قال الأمير مبتسماً:

– قد تكونين على حق. ربما كنت فيلسوفاً بالفعل؛ ومن يدري؟ لعلمي أنوي أن أعلمكم الحكمة أيضاً... هذا جائز، جائز جداً.

استأنفت أجلايا كلامها فقالت:

– فلسفتك لا تختلف، على كل حال، عن فلسفة أولامبي نيقولايفنا أرملة الموظف التي تجيء إلينا من حين إلى حين متطفلة. أن المشكلة الكبرى عندها هي السعر الرخيص والقدرة على العيش بأقل نفقة، فهي لا تحسن الكلام إلا عن كوكبات. لاحظ

أنها تملك مالاً: إنها مأكرة جداً. ذلك بعينه هو شأن حياتك العريضة الواسعة في السجن، ولعله أيضاً شأن سنين سعادتك الأربع التي قضيتها في تلك القرية بائعاً مدينة نابولي، ربما مع تحقيق شيء من ربح، وإن لم يتجاوز الربح كوكبات.

قال الأمير:

- أما عن الحياة في السجن، فمن الجائز ألا يكون كلامي صحيحاً كل الصحة. فإنما أنا سمعت هذا الكلام من رجل قضى في السجن قرابة اثنتي عشرة سنة. إنه أحد المرضى الذين كان يعالجهم طبيبي. كان هذا الرجال يصاب أحياناً بنوبات، وكان كثير الحركة والاضطراب والتخبط، حتى لقد حاول أن ينتحر. كانت حياته في السجن حزينة، أوكد لكن ذلك... ولكن لا شك أنها كانت تساوي أكثر من كوكبات، مع أنه لم يكن له علاقات إلا بعنكبوتة وشجرة صغيرة نبتت تحت نافذته... على أنني أفضل أن أقص عليك قصة لقاء آخر تم لي في العام الماضي. أن في الأمر الذي سأحكيه لكن الآن شيئاً غريباً جداً، غريباً بندرة حدوثه. هو رجل اقتيد مع رجال آخرين محكوم عليهم بالإعدام، اقتيد معهم إلى المكان الذي سيتم فيه تنفيذ الحكم^[22]، وقرئ عليهم قرار المحكمة بإعدامهم رمياً بالرصاص لجريمة سياسية. وبعد نحو عشرين دقيقة تلي عليهم قرار الأشغال الشاقة. ولكن في الفترة التي انقضت بين تلاوة الحكم الأول وتلاوة الحكم الثاني، أي خلال العشرين دقيقة أو الربع ساعة على الأقل، عاش الرجل في يقين مطلق بأنه ميت لا محالة بعد بضع لحظات. ما كان أشد رغبتني الرهيبة في أن أسمعته يصف المشاعر التي أحس بها أثناء ذلك! حتى لقد أخذت ألقى عليه الأسئلة تلو الأسئلة مراراً! كان يتذكر كل شيء بوضوح خارق، ويؤكد أنه لن يستطيع نسيان تلك الدقائق في يوم من الأيام. على مسافة عشرين خطوة من صقالة الإعدام التي وقف قربها الناس والجنود، كانت قد دُفّت في الأرض أعمدة ثلاثة، إذ كان هنالك عدة رجال محكوم عليهم بالإعدام. اقتيد الثلاثة الأول نحو تلك الأعمدة، وشدوا إليها، وألبسوا لباس المحكوم عليهم بالإعدام (وهو نوع من جلباب طويل أبيض)؛ وعُصبت أعينهم حتى لا يروا البنادق. وبعد ذلك جاءت تقف، قبالة كل عمود، زمرة الجنود التي ستطلق رصاص الإعدام. أن الرجل الذي أحدثكن عنه هو الثامن في الترتيب. فكان عليه إذاً أن يذهب إلى العمود في الفوج الثالث. وجاء كاهن يبارك الرجال المحكوم عليهم بالإعدام. ولم يبق لهم من الحياة إلا خمس دقائق يعيشونها. قال لي الرجل: أن هذه الدقائق الخمس قد بدت له طويلة طويلاً لا نهاية له، غنية غنى لا ينضب. بدا له أنه خلال هذه الدقائق الخمس سيعيش حيوات تبلغ من الكثرة أنه ليس في حاجة، بعد، إلى التفكير في

اللحظة الأخيرة. حتى لقد رتب أموره واتخذ إجراءاته على هذا الأساس، فحدّد الزمان الذي سيودّع فيه رفاقه وخصّص له دقيقتين، وعيّن دقيقتين أخريين للتجمع على نفسه مرة أخيرة، وترك الوقت الباقي لإلقاء نظرة على ما حوله. وإنه ليتذكر تذكرًا واضحاً أنه تقيد بهذا التوزيع للوقت تقيداً تاماً. كان سيموت وهو في السابعة والعشرين من عمره^[23]، مليئاً بالصحة والعافية، زاهراً بالنشاط والقوة. وإنه ليتذكر أنه حين ودّع رفاقه ألقى على كل منهم سؤالاً لا علاقة له بالحالة الراهنة، حتى أنه اهتم اهتماماً كبيراً بسماع أجوبتهم. حتى إذا فرغ من التوديع، جاء دور الدقيقتين اللتين نذرهما «للتجمع على نفسه» من أجل التأمل. كان يعلم سلفاً ما الذي سيفكر فيه. كان يريد أن يتصور بأقصى سرعة ممكنة وبأكبر وضوح ممكن ما سيحدث: هو الآن هنا، هو الآن حي؛ وبعد ثلاث دقائق سيصبح «شيئاً آخر»، سيصبح شخصاً آخر أو شيئاً آخر، ولكن ماذا يصبح؟ وأين يصبح؟ كان يقدر أنه سيعرف ذلك كله خلال هاتين الدقيقتين! وفي مكان غير بعيد، كانت تقوم كنيسة تلتمع قبتها المذهبة تحت أشعة الشمس. إنه يتذكر الآن شدة تحديقه إلى تلك القبة وإلى الأشعة التي كانت تنعكس عليها حينذاك. كان لا يستطيع أن ينتزع نفسه من تأمل تلك الأشعة: كان يتراءى له أن تلك الأشعة هي طبيعته الجديدة، وأنه بعد ثلاث دقائق سيندمج فيها وينصهر معها... أن تلك الحالة من عدم اليقين ومن النفرة تجاه المجهول الذي سيحين حينه كانت رهيبة فظيعة. ولكنه قال: إنه لا شيء كان أشق على نفسه عندئذ من هذه الفكرة التي كانت تدور في خاطره: «ليتني أستطيع ألا أموت! ليت الحياة تُردّ إليّ! ما أعظم الأبدية التي سأنعم بها إذا أمكن ذلك! لأحيلن كل دقيقة دهرًا، ولأحصين جميع الدقائق لا أضيع منها واحدة، ولا أبدد منها واحدة!». وقال: أن هذه الفكرة قد صارت آخر الأمر إلى نوع من جنون حتى أصبح لا يتمنى إلا أن يُطلق عليه الرصاص.

صمت الأمير فجأة. وكان الجميع يتوقعون أن يستمر وأن يستخرج من كلامه نتيجة يختمه بها.

سألته آجلايا:

— هل انتهيت؟

فقال الأمير وكأنه يخرج من حلم:

— نعم... انتهيت!

— ولكن لماذا رويت هذا كله؟

- هكذا... تذكرته... في سياق الحديث!

قالت ألكسندرا:

- ولكنك أنهيت الكلام إنهاءً مبالغاً جداً. لعلك كنت تنوي يا أمير أن تستخرج منه نتيجة هي أنه ليس في الحياة لحظة تقاس قيمتها بكوبكات، وأن خمس دقائق من الحياة تساوي كنوز الأرض كلها في بعض الأحيان؟ هذا كله محمود... ولكن اسمح لي: أن ذلك الصديق الذي روى لك تلك الأحوال قد خُفِّفَ الحكم عليه من حكم الإعدام إلى حكم بالسجن مع الأشغال الشاقة، أليس كذلك؟ معنى هذا أنه قد وهبت له تلك «الحياة التي لا نهاية لها»، فكيف استعمل ذلك الغنى كله من بعد؟ هل عاش يحسب الدقائق فلا يضيع منها دقيقة واحدة؟

- لا... لقد ذكر لي الحقيقة هو نفسه... لأنني سألته في هذا الموضوع. إنه لم يعيش بهذه الطريقة أبداً، بل بدّد دقائق كثيرة.

- هذه إذاً تجربة قاطعة: ليس في وسع الإنسان حقاً أن يعيش حياته «حاسباً». ولا بد أن لهذا علة وسبباً.

قال الأمير:

- طبعاً، لا بد أن يكون لهذا علة وسبب. ويخيّل إليّ أيضاً... لكني لا أستطيع مع ذلك أن أصدّق...

سألته أجاليا:

- هل معنى هذا أنك تتصور أن تحيا حياة فيها من الذكاء والحكمة ما ليس في حياة الآخرين؟

- نعم... خطر ببالي هذا في بعض الأحيان.

- ولا يزال يخطر ببالك؟

- نعم... أقدر أنني أستطيعه.

بهذا أجاب الأمير وهو يبتسم تلك الابتسامة الخجلى العذبة نفسها، ناظراً إلى أجاليا. ولكنه لم يلبث أن أخذ يضحك وهو ينظر إليها من جديد مرحاً.

قالت أجاليا منزعة بعض الانزعاج:

- يا له من تواضع!

قال الأمير:

- ما أعظم شجاعتك! أنتن تضحكن بينما أنا قد أقلقتنى هذه القصة إقلاقاً بلغ من القوة أنني حلمت بها في نومي، ولا سيما تلك الدقائق الخمس...

ونظر الأمير إلى البنات مرةً أخرى بانتباه وجدّ.

وسألهن مضطرباً على حين فجأة، مع استمراره في التحديق إلى أعينهن:

- أأنتن غاضبات مني؟

فصاحت الفتيات الثلاث يسألنه مدهوشات:

- ولماذا تغضب؟

لأن طريقتي في الكلام تشبه طريقة إلقاء درس...

فأخذن يضحكن.

قال الأمير:

- إذا كنتن قد غضبتن، فلا تغضبني بعد الآن! أنا أعرف أنني عشت أقل مما عاش الآخرون، وإنني أفهم الحياة أقل مما يفهمها الآخرون. ولا بد أن طريقتي في الكلام غريبة!...

واضطرب الأمير اضطراباً تاماً.

قالت أجاليا بقسوة وإلحاح:

- ما دمت تقول: إنك كنت سعيداً، فلقد عشت أكثر من الآخرين لا أقل منهم. فعلام الاعتذار والمواربة؟ ولا يقلقنك خاصة أنك تبدو كمن يلقي درساً؛ فإن هذا لم يكن فيه أي انتصار. أن المرء يستطيع بمثل تصوّفك أن يملأ بالسعادة حياة طولها مائة سنة. وسواء أأروك تنفيذ حكم بالإعدام أم مدّوا إليك أصبعاً صغيرة، فإنك تستخرج من الأمرين كليهما فكرة فلسفية وتظل راضياً سعيداً. فما أسهل الحياة هكذا!

تدخلت الجنرالة التي ظلت تدرس وجوه المتحدثين مدة طويلة فقالت:

- ما لي أراك غاضبة حانقة دائماً؟ ثم إنني لا أفهم أيضاً عمّ تتكلمين! أي أصبع صغيرة تقصدين؟ ما هذا الهذر كله؟ أن الأمير يقول كلاماً حسناً، وإن يكن مُحزناً

بعض الشيء. فلماذا تحاولين أن تثبطي همته وتدخلِي اليأس إلى قلبه؟ لقد كان يضحك حين بدأ يتكلم، ثم ها هو ذا الآن مبهوت مصعوق.

- لا بأس يا ماما! وإنها لخسارة يا أمير أنك لم تشهد تنفيذ حكم بالإعدام في يوم من الأيام، وإلا لسألتك عن بعض الأمور.

أجاب الأمير:

- شهدت تنفيذ حكم بالإعدام.

صاحت أجلايا:

- رأيت إعداماً؟ كان عليّ أن أقدر ذلك! هذا يزيد الطين بلة! فما دمت قد شهدت إعداماً فكيف تستطيع أن تدعي أنك كنت سعيداً طوال ذلك الوقت؟ ألم أكن على حق؟

وسألت آديلاييد:

- أكانت تُنفذ في قريبتكم أحكام بالإعدام إذا؟

- شهدت إعداماً بمدينة ليون. كنت قد سافرت إلى ليون مع شنايدر. وتم الإعدام يوم وصولنا.

عادت أجلايا تقول مصرّة ملحة:

- فماذا؟ هل أعجبك المشهد كثيراً؟ هل استخرجت منه تعاليم نافعة؟

قال الأمير:

- كلا، لم يعجبني البتة، حتى إنني مرضت بعده قليلاً. لكنني أعترف بأنني كنت أنظر إلى المشهد مشدوداً إليه شداً قوياً فكأنني لا أستطيع أن أحول بصري عنه.

قالت أجلايا معترفة:

- أنا أيضاً ما كان لي أن أستطيع أن أحول عنه بصري لو أتيح لي أن أشهده!

- الناس هنالك لا يحبون للنساء أن تجيء لترى هذه المشاهد، حتى أنهم يتحدثون عن أمثال هاته النساء في الجرائد.

- ذلك لأنهم يرون أن هذا ليس من شأن النساء، فكأنهم يريدون أن يقولوا: أن هذا من شأن الرجال وحدهم وأن يبروره. يا للمنطق العجيب! لا شك أنك تشاطرهم رأيهم.

قالت آديلايد مقاطعة:

- اقصص علينا حادثة تنفيذ الحكم بالإعدام!

قال الأمير مضطرباً:

- ما كنت لأتمنى أن أفعل هذا، اليوم.

واكفهرّ وجهه.

فتدخلت أجلايا اللاذعة مرة أخرى تقول:

- لكان حديثك إلينا في هذا الأمر يشق على نفسك ويحدث لك ألماً.

- لا بل لأنني عن ذلك الإعدام نفسه إنما تحدثت منذ هنيهة.

- إلى من تحدثت عنه؟

- إلى خادمكم، بينما كنت أنتظر أن أستقبل...

قالت النساء الأربع تسألن:

- أي خادم؟

- ذلك الذي يمكث في حجرة المدخل... رجل شائب أحمر الوجه، كنت في حجرة

المدخل أنتظر أن يستقبلني إيفان فيدوروفتش.

قالت الجنرالة:

- غريب!

وقالت أجلايا:

- الأمير رجل ديمقراطي. ولكن ما دمت قد قصصت الأمر على ألكسي، فإنك لا

تستطيع أن تضنّ به علينا.

وعادت آديلايد تقول:

- إنني أحرص على سماع هذه القصة حرصاً شديداً!

قال الأمير وهو يتلفظ إليها وينتعش قليلاً (الحق أن الأمير كان يتحمس بسرعة

واضحة وثقة تامة):

- منذ قليل، خطر ببالي فعلاً، حين سألتني عن موضوع اللوحة ترسميها، خطر ببالي فعلاً أن تصوري وجه رجل محكوم عليه بالإعدام، وذلك في الدقيقة التي تسبق سقوط النصل القاطع على عنقه، أي بينما هو ما يزال واقفاً على المقصلة قبل أن يضطجع على اللوح.

سألت أديلائيد:

- كيف؟ الوجه؟ الوجه واحد؟ أن هذا ليكون موضوعاً غريباً شاذاً!.. أين اللوحة في هذا؟

قال الأمير مصرأً بحرارة:

- لا أدري، ولكن لم لا؟ لقد رأيت في مدينة بال، منذ مدة غير طويلة، لوحة مماثلة [24]. وددت كثيراً لو أحدثك عنها. وسأفعل ذلك في يوم من الأيام. لقد أثرت في نفسي تأثيراً كبيراً.

قالت أديلائيد:

- ستحدثنا حتماً عن اللوحة التي رأيته بمدينة بال، ولكن فيما بعد. أما الآن فاشرح لي لوحة الإعدام تلك. هل تستطيع أن تصفها كما تتخيلها؟ كيف يُرسم ذلك الوجه؟ أيرسم الوجه وحده، هكذا؟ وكيف هو، ذلك الوجه؟

بدأ الأمير يتكلم فقال بكل ما يملك من سلامة الطوية وحسن الإرادة، تقوده ذكرياته وكأنه نسي كل ما عدا ذلك فوراً:

- حدث ذلك قبل الموت بدقيقة. ففي اللحظة التي وضع فيها قدمه على المقصلة، بعد أن اجتاز السلم، في تلك اللحظة التفت نحوي، فرأيت وجهه وفهمت كل شيء... ولكن كيف السبيل إلى وصف هذا بكلمات؟ إنني لأتمنى كثيراً أن يتاح لك أنت أو أن يتاح لرسام آخر تصوير ذلك الوجه! الأفضل أن تكوني قد رأيت بعينيك! ولقد قدرت أنا منذ تلك اللحظة أن هذه اللوحة يمكن أن تكون مفيدة. ويجب على المرء أن يطلع على كل ما سبق ذلك، كل ما سبقه، كله! كان الرجل يعيش في السجن، وكان يقدر أنه سيعيش أسبوعاً على الأقل، قبل أن ينفذ فيه الحكم: كان يعول على أن الإجراءات الشكلية طويلة، وعلى أن الأوراق ستُرسل إلى جهة أخرى فلا تعود منها قبل انقضاء أسبوع، ولكن اتفق أن اختصرت الإجراءات لسبب من الأسباب. كان نائماً في الساعة الخامسة من الصباح. الوقت نهاية تشرين الأول (أكتوبر). وفي الساعة الخامسة من

الصباح يكون الظلام ويكون برد. دخل رئيس السّجانين مع الحرس بغير ضجة ولا ضوضاء، ولمس كتفه لمساً خفيفاً. نهض الرجال على كوعه ورأى النور، فقال يسأل: «ماذا جرى؟» ف قيل له: «الإعدام في الساعة العاشرة». كان لا يزال النوم في عينيه، ولم يشأ أن يصدّق أذنيه، وحاول أن يناقش، فقال: أن الأوراق لا يمكن أن تصل قبل أسبوع آخر. ولكنه حين استيقظ تماماً كف عن النقاش وصمت. ذلك ما رُوي هناك. وقال الرجل: «ولكن هذه قسوة، هكذا، على حين فجأة، دفعة واحدة!». ثم صمت من جديد، وأصبح لا يريد أن يقول شيئاً. انقضت ثلاث ساعات أو أربع في الاستعدادات: الكاهن، الإفطار الذي يشتمل على خمرة ولحم وقهوة (أليس هذا استهزاء؟ لو فكرنا في الأمر ملياً لرأينا أنه قسوة! ومع ذلك يفعله هؤلاء لبساطة قلوبهم موقنين يقيناً تاماً من أنه رافة إنسانية!). ثم بدأ تنظيف الرجل (هل تعلمين ما هو التنظيف الذي يؤخذ به رجل محكوم عليه بالإعدام؟) ثم اقتيد خلال المدينة إلى المقصلة... أظن أن المرء، هناك أيضاً، حين يُقتاد إلى المقصلة، لا بد أن يعتقد أن حياة لا نهاية لطولها ما تزال أمامه. يخيل إليّ أنه لا بد أن يقول لنفسه أثناء الطريق حتماً: «ما زالت حياة طويلة أمامي. بقيت ثلاثة شوارع. ثم ذلك الشارع الآخر الذي فيه دكان خباز على اليمين... ما يزال هناك وقت قبل أن نصل إلى دكان الخباز!». وفي كل جهة من حوله جمهور وصرخات وضوضاء وآلاف الوجوه وآلاف النظرات. أن عليه أن يحتمل ذلك كله، وأن يحتمل خاصةً هذه الفكرة: «هؤلاء ألوف من الناس لن يُعدم منهم واحد، أما أنا فأعدم!». على كل حال، هذا كله يسبق الدقيقة الفاصلة. ولكن ها هو ذا السلم الذي يؤدي إلى المقصلة، وها هو ذا الرجل يقف أمام هذا السلم فيأخذ يبكي فجأة. إنه مع ذلك رجل يزخر فحولة وقوة. هو واحد من قطاع الطرق فيما يظهر. كان الكاهن يجلس قربهِ طوال الطريق على العربة، ولا ينفك يكلمه. أغلب الظن أن الرجل لا يسمع من كلام الكاهن شيئاً. لقد بدأ يصغي إليه في البداية، ولكنه منذ سمع الكلمات الأولى أصبح لا يفهم. نعم، لا بد أن الأمور جرت على هذا النحو. وها هو ذا يصعد السلم أخيراً (إن أرجلهم موثقة فهم لا يستطيعون أن يتقدموا إلا بخطى صغيرة). كان الكاهن، ولعله رجل ذكي، قد كفّ عن مخاطبته، فهو لا يريد الآن أن يمدّ إليه الصليب ليقبله. كان الرجل منذ وصل إلى السلم قد اصفرّ اصفراراً شديداً، أما الآن، على المقصلة، فقد أصبح اصفراره كالبياض.

«لعل ساقيه كانتا لا تستطيعان حمله؛ أنهما متصلبتان كالخشب؛ ولا بد أنه كان يشعر بغثيان، كأن شيئاً كان يعبث بحلقه. هل أحسست بشيء من هذا يوماً حين كنت تخافين، أو في لحظات مرعبة يحتفظ فيها المرء بوعيه كاملاً، ولكنه يصبح بغير قدرة

البتة؟ يخيل إليّ أن الإنسان، حين يداهم هلاك لا سبيل إلى تحاشيه، كانهيار منزل فوقه مثلاً، إنما يشعر عندئذ برغبة لا تقاوم في أن يقعد مغمضاً عينيه، وليحدث ما يحدث!...

في مثل هذه اللحظات من الضعف والوهن إنما كان الكاهن يبادر، بحركة سريعة ومن دون كلام، فيقرب الصليب من شفتي الرجل لتقبيله، وهو صليب صغير من فضة، ذو أربعة أفرع، يقربه مراراً كثيرة، في كل لحظة... فمتى لامس الصليب الشفتين فتح الرجل عينيه وارتدّ إلى الحياة لحظات قليلة واستأنفت ساقاه السير. كان يقبل الصليب في نهم وشراسة، بسرعة شديدة، كأنه يستعجل التزود بشيء ما، كيفما اتفق، ولكنني لا أصدق أن يكون قادراً في تلك الدقيقة على أن يشعر بعاطفة دينية.

«وظل الحال على هذا المنوال إلى أن رقد الرجل على لوح الخشب الذي تسقط عليه سكين المقصلة... هنالك أمر غريب: أن من النادر أن يغمى على المرء أثناء هذه الثواني الأخيرة! على العكس، يحيا الدماغ عندئذ حياة أشدّ، وأنشط، بل وأقوى، كآلة مندفعة في عملها. إنني أتخيل قرعات الخواطر التي تقررع الرأس وتظل ناقصة، وربما كانت غريبة بل ومضحكة: (هذا الرجل الذي ينظر إليّ... أن له ثولولاً في جبينه. والجلاد: أن أحد أزرار سترته صدئ...». وفي مثل هذه اللحظات يعرف المرء كل شيء، ويتذكر كل شيء. هنالك نقطة وحيدة لا يمكن نسيانها ولا يمكن تجنبها بأغماء، وحول هذه النقطة إنما يدور كل شيء. تصوري أن الأمر يظل على هذا النحو إلى آخر ربع ثانية، حين يكون الرأس قد أصبح تحت السكين، فالرجل ينتظر... و«يعلم». إنه يسمع انزلاق الحديد فجأة فوقه. ذلك أنه يسمعه حتماً، ولا يستطيع إلا أن يسمعه. لو كنت أنا الشخص الذي ينفذ فيه الإعدام لتعمدت أن أتنصت، ولسمعت صوت انزلاق الحديد! قد لا يدوم هذا إلا معشار ثانية، ولكن المرء يسمع الصوت حتماً! تصوري أن هناك من يدعون أن الرأس، بعد انقطاعه وسقوطه، ربما يظل يعلم خلال ثانية أنه انقطع وسقط!.. يا له من إحساس!... وماذا لو دام هذا الإحساس خمس ثوان؟... ارسمي المقصلة بحيث لا يرى الناظر على المستوى الأول، إلا تلك الدرجة الأخيرة التي يضع عليها الجاني قدمه. إنه يضع قدمه على هذه الدرجة، فنرى في اللوحة رأسه، ووجهه الأصفر، والصليب الذي يمدّه إليه الكاهن. وهو ينظر، وهو «يعرف كل شيء». أن اللوحة هي ذلك الصليب وذلك الرأس. نعم تلك هي اللوحة. أما رأس الكاهن، ورأس الجلاد، ورأساً مساعديه، ورؤوس بعض المشاهدين، تحت، وكذلك أعينهم... أما كل ذلك فيمكن أن يُضاف إلى اللوحة خلفية أو ملحقات أو نوعاً من ضباب... هكذا أتخيل أنا تلك اللوحة».

صمت الأمير، ونظر إلى المستمعات.

قالت ألكسندرا وكأنها تخاطب نفسها:

- ليس في هذا شيء من تصوف طبعاً!

واقترحت أديلائيد:

- والآن اقصص علينا كيف وقعت في الغرام!

فنظر إليها الأمير مدهوشاً؛ فقالت أديلائيد بنوع من التسرع:

- اسمع. يجب عليك أيضاً أن تحدثنا عن لوحة مدينة بال تلك؛ أما الآن فأريد أن

أسمعك تقص علينا حكاية وقوعك في الغرام. لا تدافع عن نفسك، فلقد وقعت في الغرام. ثم إنك متى قصصت شيئاً، كففت عن أن تكون فيلسوفاً.

وسألته أجاليا فجأة:

- إنك متى فرغت من حكاية شيء تشعر فوراً بالخزي والعار مما قلته. فلماذا؟

قالت الجنرالة مقاطعة بلهجة حازمة وهي تلقي على أجاليا نظرة استياء:

- هذا غباء منك أخيراً!

فقالت ألكسندرا مؤيدة:

- نعم، هذا خروج علي العقل!

فقالت الجنرالة ملتفتة نحو الأمير:

- لا تصدّقها يا أمير. إنها تفعل ذلك عامدةً بدافع الخبث والمكر. ليست قليلة الأدب

إلى هذا الحد! لا تذهبن بك الظنون كل مذهب إذا رأيتهن يناكدنك هذه المناكدة!

لا شك أن في رؤوسهن أفكاراً مبيتة، ولكنهن يحبنك منذ الآن! أنا أعرف وجوههن!

قال الأمير ملحاً على هذه الأقوال:

- أنا أيضاً أعرف وجوههن.

قالت أديلائيد باستطلاع وفضول:

- كيف؟

وقالت البنتان الأخريان مشوّقتين أيضاً:

- ماذا تعرف من وجوهنا؟

لكن الأمير ظل صامتاً جاداً. وانتظرت البنات جميعاً جوابه. ثم قال في رفق وجد:

- سأحكي لكنّ هذا فيما بعد!

صاحت أجاليا:

- أنت تريد حتماً أن تستثير فضولنا وأن تدعنا في بلبلة! يا للتعاضم والتفاخم!

وأسرعت آديلائيذ تقول:

- طيب. ولكن ما دمت من علماء الفراسة، فلا بد أنك كنت في يوم من الأيام

عاشقاً مغرماً. لم يخطئ إذاً ظني. فاقصص علينا قصة عشقك!

قال الأمير بذلك الصوت العذب الرصين نفسه:

- أنا لم أكن عاشقاً. وإنما... وإنما كنت سعيداً بطريقة أخرى.

- كيف؟ بماذا؟

- طيب. سأحكي لكن.

بذلك تمتم الأمير وقد بدا عليه شروود الفكر.

الفصل السادس

بدأ الأمير يتكلم فقال:

- في نظراتكن إليّ من شدة الاستطلاع ما يدل على أنكن قد تغضببن إذا أنا لم ألبّ رغبتكن في إرواء هذا الاستطلاع.

ثم أسرع يضيف مبتسماً:

- لا، لا، كنت أمزح! كان هناك... كان هناك أطفال، وكنت أقضي وقتي كله مع الأطفال، معهم وحدهم. هم أطفال القرية، هم كل العصبة التي تذهب إلى المدرسة. ليس معنى هذا أنني عُنيت بتعليمهم، فلقد كان يعلمهم معلم هو جول تيبو. جازز أنني كنت أعلمهم قليلاً، ولكن المهم أنني كنت أقضي وقتي كله معهم، وفي ذلك إنما أنفقت السنين الأربع التي أمضيتهما هناك. لم أكن في حاجة إلى أي شيء آخر. وكنت أقول لهم كل شيء، ولا أخفي عنهم شيئاً. وقد أصبح آباؤهم وأمهاتهم وأسرهم يحقدون عليّ آخر الأمر، لأن الأولاد أصبحوا لا يستغنون عني، فهم دائماً حولي. أما المعلم فقد أصبح عدويّ الأكبر. كان لي أعداء كثيرون، بسبب الأطفال. حتى أن شنايدر نفسه أخذ يلومني. فما الذي كانوا يخشونه هذه الخشية كلها؟ أن في وسع المرء أن يقول للطفل كل شيء، كل شيء. لشد ما أدهشني دائماً مدى جهل الكبار بالصغار، بل ومدى جهل الآباء بأبنائهم أنفسهم. ما ينبغي أن نخفي عن الأطفال شيئاً بحجة أنهم صغار، وأنهم لم يآزف الحين الذي يجب فيه أن يعلموا.

يا لها من فكرة مؤسفة ضارة! أن الأطفال يدركون بسهولة عظيمة أن آباءهم يرونهم أصغر سناً من أن يستطيعوا الفهم، مع أنهم في الواقع يفهمون كل شيء! (إن الكبار يجهلون أن الطفل يستطيع حتى في أخطر ظرف أن يسدي بنصيحة رائعة). وحين ينظر إليك هذا الطائر الصغير الجميل، حين ينظر إليك سعيداً واثقاً، فهل تستطيع أن تغشه دون أن تشعر بالخزي؟ إنني أسميهم طيوراً صغيرة، لأن الطيور خير ما في العالم!

«أريد أن أقول: أن الناس حقدوا عليّ في القرية، بسبب شيء معين على وجه التخصيص... أما المعلم تيبو، فقد كان حقه غيرة وحسداً. كان في أول الأمر لا يزيد

على أن يهز رأسه ويدهش حين يرى أن الأطفال يفهمون عني فهماً واضحاً ذلك
الوضوح كله، مع أنهم لا يكادون يفهمون شيئاً مما كان يعلمهم. ثم أخذ يسخر مني
ويتهكم عليّ، حين قلت له: إننا لا نملك، لا أنا ولا هو، أي شيء نعلمهم إياه، وأنهم هم
الذين يستطيعون بالأحرى أن يعلمونا شيئاً ما. كيف أمكنه أن يغار مني وأن يشهر بي
مع أنه كان يعيش هو نفسه مع الأطفال؟ أن المرء لتبرأ نفسه وتشفى حين يعيش مع
الأطفال!... كان يوجد في مصحّ شنايدر مريض من المرضي كان إنساناً شقيّاً كل
الشقاء بائساً كل البؤس. أن شقائه يبلغ من الهول والفضاعة أنه قد لا يكون له شبيه أو
نظير. كان يعالج هناك معالجة مجنون. ولكنني أعتقد أنه لم يكن مجنوناً، وإنما كان
إنساناً يتألم ألماً رهيباً لا أكثر... فذلك هو مرضه كله. ليتكّن تعلمن ماذا أصبح
الأطفال عنده آخر الأمر! ولكن الأفضل أن أحدثك عن هذا المريض فيما بعد. أما الآن
فسأحكي لكنّ كيف بدأ هذا كله. كان الأطفال في البداية لا يحبونني. ذلك أنني كنت
كبيراً جداً، وكنت أخرق جداً. وأنا أعلم أنني لست وسيم الطلعة. وهنالك عامل آخر
هو أنني أجنبي. كان الأطفال في البداية يستهزئون بي، بل أنهم رموني بالحجارة حين
راؤني أقبل مارياً. ولم أكن قد قبلتها من قبل إلا مرة واحدة على كل حال.

وهنا لاحظ الأمير ابتسامات تلمّ بأفواه الفتيات اللواتي كن يصغين إلى حديثه،
فأسرع يوقف التبسم قائلاً:

- لا، لا تضحكن. لم يكن ذلك حباً. ليتكن تعرفان مدي تعاسة تلك المخلوقة، إذاً
لرثيتن لحالها مثلي. كانت من قريتنا. وكانت أمها امرأة عجوزاً دبّت فيها الشيخوخة
وأضناها الهرم. وقد أذن لها عمدة القرية بأن تحوّل إحدى نوافذ كوخها الحقير إلى
بسطة تعرض عليها ما تبيعه من بریم وخيط وتبغ وصابون بقروش قليلة تكاد تقيم بها
أودها وتمسك عليها رمقها. كانت الأم مريضة متورمة الساقين دائماً، فهي تظل قابعة
وراء النافذة طول الوقت. وكانت ابنتها مارياً، وهي في نحو العشرين من عمرها،
ضعيفة هزيلة نحيلة. لقد أضواها مرض السل منذ مدة طويلة، ولكن ذلك لم يكن
يمنعها من القيام بأعمال الخدمة المضنية القاسية طوال اليوم في دور مختلفة. كانت
تغسل الأرض وتنظف أواني المطبخ، وتكنس الأحواش، وتعتني بالبهائم في الحظائر. وقد
أغواها فرنسي هو مندوب محل تجاري كان ماراً بالقرية فأخذها معه ثم لم يلبث أن
تركها في عرض الطريق بعد أسبوع واحد، ومضى في سبيله. فعادت إلى البيت، بعد أن
تسوّلت واستجدت طوال الطريق، عادت رثة الأسمال، قذرة الهيئة، مثقوبة الحذاءين. لقد
ظلت تسير على قدميها أسبوعاً كاملاً، وتنام حيث يتاح لها أن تنام، فأصابها أثناء ذلك
برد، وكانت قدماها مقرحتين، وكانت يداها متورمتين متشققتين. ثم إنها لم تكن

جميلة في يوم من الأيام، باستثناء عينيها الطيبتين العذبتين البريئتين. وكانت تصمت صمتاً رهيباً. ذات مرة، في الماضي، أخذت تغني فجأة أثناء عملها. إني لأتذكر الآن أن جميع الناس قد دهشوا عندئذ وسخروا منها: «هه! ماريا تغني؟». فخجلت ماريا خجلاً شديداً واضطربت اضطراباً كبيراً، ومنذ ذلك اليوم صمتت إلى الأبد. في ذلك الأوان كان الناس ما يزالون يعاملونها معاملة لطيفة، ولكنها حين عادت مريضة ممزقة لم يشعر أحد نحوها بأي عطف أو شفقة. ما أقساهم في مثل هذه الظروف! ما أفضع ما تتصف به آراؤهم الراسخة وأفكارهم السابقة من عنف لا رحمة فيه ولا رأفة! أمها نفسها كانت أول من استقبلها بغضب واحتقار. قالت لها: «لقد لطخت شرفي بالعار!». كانت الأم أول من أسلمها للناس يغيرونها ويخزونها. فحين عرف سكان القرية أن ماريا رجعت، تواعدوا جميعهم تقريباً على أن يلتقوا في البيت الحقيق الذي تسكنه العجوز: شيوخ وأطفال ونساء وفتيات: جمهور كبير شره متعجل! كانت ماريا مستلقية على الأرض، عند قدمي العجوز، جائعة، رثة الثياب. وكانت تبكي. فلما رأت جميع هؤلاء الناس أخفت وجهها في شعرها المنفوش وتسطحت على بطنها. كان الجميع ينظرون إليها نظرتهم إلى بهيمة نجسة دنسة. العجائز يقرعونها ويشتمونها، والشباب يسخرون منها، والنساء يحقرنها ويؤنبنها وينظرون إليها باشمئزاز وتقزز نظرتهم إلى دودة عنكبوت. لقد سمحت الأم بهذا كله، وكانت تهز رأسها مؤيدة محبذة. كانت منذ ذلك الحين قد تفاقم مرضها تفاقماً شديداً حتى لكانها تحتضر. وقد ماتت فعلاً بعد شهرين. كانت تعلم أنها ستموت قريباً، ولكنها إلى أن ماتت لم تفكر في أن تصالح ابنتها. حتى إنها أصبحت لا تكلمها، وصارت تجبرها على أن تبیت عند المدخل، ولا تكاد تطعمها. وكانت الأم في حاجة دائمة إلى وضع قدميها المريضتين في ماء ساخن، فكانت ماريا تهیئ لها ذلك كل يوم، وتعتني بها، والعجوز تقبل هذه العناية صامته، فلم تقل لماريا كلمة لطيفة في لحظة من اللحظات.

«لكن ماريا كانت تتحمل كل شيء. وبعد ذلك، حين تعرفتُ إلى ماريا، لاحظت أنها هي نفسها كانت تؤيد وتحبذ المعاملة التي عوملت بها، وتعد نفسها أحقر الناس طراً. وحين أصبحت الأم لا تستطيع أن تنهض، أصبحت عجائز القرية تأتي إليها لتعتني بها واحدة بعد واحدة، كما جرت العادة بذلك. ومنذ ذلك الوقت أصبح لا يطعم أحد ماريا قط، وأصبح الناس في القرية يطردونها، وأصبح الجميع يرفضون أن يعهدوا إليها بعمل، حتى لكانهم يبصقون عليها، وصار الرجال كأنهم لا يعدونها امرأة فهم ينطقون في حضورها كلمات بذيئة فاحشة. ولكنهم في بعض الأحيان، في القليل النادر، حين يكونون سكارى يوم الأحد، يرمون لها على الأرض دريهمات قليلة ليضحكوا، فتجمعها

ماريا صامتة. وكانت منذ ذلك الحين قد أخذت تبصق دماً. وصارت أسماها آخر الأمر قطعاً ممزقة، حتى أصبحت تستحي أن تظهر للناس في القرية. وكانت منذ عودتها قد أخذت تمشي حافية القدمين. وفي ذلك الأوان خاصةً إنما اندفع الأطفال - وهم عصابة يبلغ عددهم قرابة أربعين طفلاً - اندفعوا يهاجمونها بضراوة، حتى ليرمونها بالوحل. طلبت ماريا من الراعي أن يسمح لها بحراسة الأبقار، ولكن الراعي طردها. ومع ذلك أخذت تتبع القطيع إلى المرعى كل صباح، من تلقاء نفسها دون أن يأذن لها الراعي بذلك. وإذ لاحظ الراعي أنها تنفعه في عمله كثيراً، أصبح لا يطردها. حتى إنه أصبح يعطيها بقايا غدائه من الجبن والخبز أحياناً. وكان يعد ذلك إحساناً منه ونعمة كبرى يمن بها عليها.

«وحين ماتت أمها لم يخجل الكاهن من أن يذلها وأن يهينها على مسمع ومرأى من جميع الناس. كانت ماريا واقفة وراء التابوت باطمئناها البالية تبكي. وكان الناس قد توافدوا لينظروا إليها سائرين وراء النعش. ففي تلك اللحظة قال الكاهن، وهو رجل ما يزال شاباً ولا يطمح إلى شيء إلا أن يكون واعظاً كبيراً، قال وهو يومئ إلى ماريا: «هذه هي التي كانت سبب وفاة تلك المرأة المحترمة (وهذا خطأ، فالعجوز مريضة منذ سنتين). ها هي ذي أمامكم لا تجرؤ أن ترفع عينيها لأن الله قد دمغها إلى الأبد، ها هي ذي حافية القدمين ممزقة الأسما، عبرة لجميع أولئك الذين يفقدون الفضيلة! ومن هي؟ هي ابنتها نفسها!»، وهلم جرا وهلم جرا!..

«تصورن أن هذا الصغار من جهة الكاهن قد أرضى جميع الناس تقريباً. إلا أن شيئاً قد حدث في تلك اللحظة، هو أن الأطفال قد تحزبوا لماريا، لأنهم في ذلك الأوان كانوا قد انحازوا جميعاً إلى صفي وأخذوا يحبون ماريا. ليكن تفصيل ما حدث:

«كنت قد أردت أن أصنع شيئاً لماريا. كانت ماريا في حاجة ماسة إلى شيء من مال، ولكنني لم أكن أملك هنالك قرشاً واحداً. لم أكن أملك إلا دبوساً له فص من ماس. فلما مرّ بالقرية بائع مقايض يتنقل من قرية إلى قرية، بعته الدبوس بثمانية فرنكات. لا شك أن الدبوس تساوي قيمته أربعين فرنكاً. وأخذت أبحث عن ماريا، وحدي، مدة طويلة. فالتقيت بها أخيراً وراء سور القرية في ممر بين الجبال قرب شجرة. فأعطيتها الثمانية فرنكات، ووصيتها بأن تحرص عليها لأنني لن أملك غيرها. ثم قبلتها وطلبت منها ألا يذهب بها الظن إلى أنني أطمع منها في سوء، ولم أقبلها لأنني مغرم بها، بل لأنني أرثي لحالها وأرأف بها كثيراً، وقلت لها: إنني لم أعدها في يوم من الأيام آثمة بل تعيسة. كنت أرغب رغبة قوية في مواساتها وتعزيتها، وفي إقناعها بأنها

يجب عليها ألا تشعر بالمدلة تجاه الآخرين، ولكنها لم تفهم ذلك حتماً؛ وقد أحسست أنا بذلك على الفور، رغم أنها ظلت صامتة طول الوقت تقريباً، مطرقة إلى الأرض، خافضة عينيها، خجلى إلى أبعد حدود الخجل. فلما فرغت من كلامي قبلت يدي، فأردت أن أقبل يدها تواءً، لكنها انتزعت يدها بقوة.

«وفي تلك اللحظة إنما فاجأتنا عصبية الأطفال. وقد علمت فيما بعد أنهم كانوا يراقبونني منذ مدة طويلة. أخذ الأطفال يصفرون صغيراً عالياً ويصفقون بأيديهم تصفيقاً قوياً، ويضحكون ضحكاً مجلجلاً، بينما كانت ماريا تهرب راكضة. حاولت أن أكلمهم، لكنهم رموني بالحجارة. وفي ذلك اليوم نفسه علم جميع الناس بالنبأ، علمت به القرية كلها. وسقط هذا كله مرةً أخرى على رأس ماريا. فأخذوا يحتقرونها مزيداً من الاحتقار؛ حتى لقد سمعت أنهم يريدون معاقبتها، ولكن الأمر لم يتجاوز حدود الكلام والله الحمد! غير أن الأولاد لم يتركوا لها بعد ذلك اليوم راحة. أصبحوا يطاردونها أكثر مما كانوا يطاردونها في أي يوم من الأيام قبل ذلك، وأخذوا يرمونها بالوحل. وصارت حين يلاحقونها تحاول أن تهرب منهم، ولكن سرعان ما كانت أنفاسها تنقطع بسبب مرض السل الذي يعيث في صدرها. صاروا لا يتركونها، وأخذوا يقذفونها بأنواع السباب والشتائم. حتى لقد اضطرت مرة أن أقتتل معهم. وحاولت بعد ذلك أن أكلمهم. وصرت أحدثهم كل يوم، في كل مناسبة. فكانوا يقفون ليصغوا إلى كلامي مع استمرارهم في إطلاق الشتائم بأصوات عالية. حدثتهم عن مدى الشقاء الذي تعانيه ماريا. فما هي إلا فترة قصيرة حتى أخذوا يكفون عن إهانتني، وتعودوا أن ينصرفوا صامتين. وتوصلنا أخيراً إلى أن نتبادل الحديث. لم أخفي عنهم شيئاً، بل حكيت لهم كل شيء. فكانوا ينصتون إليّ بكثير من الاهتمام، وسرعان ما أخذوا يرثون لحال ماريا، ويشفقون عليها. حتى لقد صار بعضهم يحيونها تحية لطيفة إذا التقوا بها عابرين. ولكن عادةً هناك: يحيي الناس بعضهم بعضاً إذا تلاقوا، سواء أكانوا متعارفين أم غير متعارفين. تخيلن دهشة ماريا. في ذات يوم حملت إليها طفلتان طعاماً، ثم جاءتا ترويان لي ذلك. قالتا: أن ماريا أخذت تبكي، وأنهما الآن تحبانها كثيراً. ولم تنقض مدة قصيرة حتى أخذ جميع الأطفال يحبونها، وحتى أخذوا يحبونني أنا أيضاً في الوقت نفسه. أصبحوا يجيئون إليّ أحياناً كثيرة، ويطلبون مني دائماً أن أحكي لهم شيئاً ما. أظن أنني كنت أجيد الحكى، فقد كانوا يحبون كثيراً أن يستمعوا لي. ثم أصبحت لا أدرس ولا أقرأ إلا لأستطيع أن أحكي لهم بعد ذلك ما درست وما قرأت. وعلى هذا النحو إنما انقضت السنين الثلاث الأخيرة من حياتي هناك. وفيما بعد، حين أخذ عليّ الناس - ومنهم شنايدر - أنني أكلم الأطفال الصغار كما لو كانوا أشخاصاً كباراً،

دون أن أخفي عنهم شيئاً، كنت أجيبهم جميعاً بأن من العار أن نكذب على الأطفال، وبأن الأطفال يعرفون كل شيء حتى دون أن نحدثهم عنه، مهما نحاول إخفاءه عنهم، وبأن ما نخفيه عنهم قد يتعلمونه تعلماً فاسداً، أما أنا فأطلعهم عليه بطريقة مناسبة. وحسب الإنسان أن يتذكر طفولته هو حتى يدرك صحة ما أقول. لكنني لم أفلح في إقناعهم...

«كنت قد قبلت ماريّا قبل موت أمها بنحو خمسة عشر يوماً. ولكن حين ألقى الكاهن خطبته، كان جميع الأطفال قد انحازوا إلى صفي. وأسرعت أقصّ عليهم وأشرح لهم ما فعله الكاهن. فغضبوا جميعاً عليه، حتى أن بعضهم بلغوا من غضبهم عليه أنهم كسروا له زجاج بيته بالحجارة وقد أوقفتهم عن ذلك، مبرهناتاً لهم على أن عملهم هذا شر. ولكن أهل القرية كانوا قد علموا بكل شيء، وعندئذٍ إنما أخذوا يتهمونني بأنني أضلّ الأولاد عن الطريق القويم؛ وعلموا بعد ذلك أن الأولاد أصبحوا يحبون ماريّا، فقلقوا قلقاً شديداً. ولكن ماريّا كانت قد سعدت كثيراً.

«وبلغ أهل القرية من القلق أنهم حظروا على أولادهم أن يقابلوا ماريّا، ولكن الأولاد كانوا يلحقون بها خفيةً إلى حيث توجد مع القطيع في مكان بعيد يقع على مسافة نصف فرسخ من القرية تقريباً، فبعضهم يحمل إليها حلوى، وبعضهم يجيء لا لشيء إلا أن يعانقها ويقول لها: «أحبك يا ماريّا»، ثم يعودون إلى القرية راكضين ركضاً سريعاً. غير أن ماريّا أوشكت أن تصبح مجنونة من هذه السعادة المبالغية. فهي ما كانت لتجرؤ أن تحلم بمثل هذا الانقلاب في يوم من الأيام. والحق أنها أصبحت مضطربة فرحة في آن واحد. أما الأطفال، ولا سيما البنات، فقد كانوا يحبون خاصةً أن يذهبوا إليها ليقولوا لها: إنني أحبها، وإنني أحدثهم عنها كثيراً. وحكوا لها أنهم مني إنما علموا كل شيء عنها، وأنهم الآن يحبونها ويرثون لحالها ويشفقون عليها، وأنهم سيظلون كذلك دائماً؛ وكانوا بعد ذلك يجيئون إليّ بوجوه فرحة وهيئات منهمكة ليقولوا لي: أنهم رأوا ماريّا وأن ماريّا تسلم عليّ.

«وكنت أذهب في المساء إلى الشلال. أن هناك ركناً تخفيه أشجار الحور عن القرية إخفاء تاماً. فإلى هناك كان يجيء الأطفال في المساء ليلتقوا بي، حتى أن بعضهم كان يجيء خفيةً وسراً. أعتقد أن حبي لماريّا كان يسعدهم أكبر السعادة؛ وكان هذا في الواقع هو الأمر الوحيد الذي كذبت عليهم فيه طول مدة إقامتي هناك. فإنني لم أحاول أن أبعد أو هامهم شارحاً لهم إنني لا أحب ماريّا، أي أنني لست عاشقاً لها مغرماً بها، وإنما أنا أرثي لحالها، وأرأف بها. كنت ألاحظ أنهم يفضلون أن يكون الأمر على نحو ما تصوروا وقرروا. كذلك سكتُ وتركت لهم أن يظنوا أنهم حزرُوا

الحقيقة!

«وكانت قلوب هؤلاء الصغار تبلغ من رقة العاطفة والحنان أنهم بدا لهم، فيما بدا لهم من أمور، أنه إذا كان صديقهم ليون يحب ماريا هذا الحب كله، فلا يجوز أن تظل ماريا رثة الثياب إلى هذا الحد، ولا أن تمشي حافية القدمين.

«تصورنّ أنهم جاؤوها بحذاءين وجوربين، بل جاؤوها أيضاً بثوب. أما كيف استطاعوا ذلك، فهذا ما لا أفهمه. لقد تكاثفت العصبية كلها على إنفاذ الأمر. فإذا سألتهم لم يزدوا على أن يضحكوا، البنات كن يصفقن بأيديهنّ ويقبلنني. وكان يتفق لي في بعض الأحيان أيضاً أن أرى ماريا خفية. لقد تفاقم مرضها تفاقماً شديداً، فلا تكاد تستطيع أن تمشي. ثم أصبحت أخيراً لا تنفع الراعي في شيء، لكنها ظلت تتبع القطيع كل صباح، وتجلس منتحية منزوية. كان هنالك صخرة تهبط هبوطاً عمودياً وفيها ما يشبه أن يكون مصطبة ناتئة، فكانت ماريا تجلس في القاع على الصخرة مختفية من جميع الجهات، وتلبث على هذه الحال لا تكاد تتحرك، من الصباح حتى ساعة عودة القطيع إلى القرية. لقد أوهنها السل حتى صارت في أغلب الأحيان تغمض عينيها وتستند إلى الصخرة وتغفو غفواً ضعيفاً وهي تتنفس بكثير من العناء. وقد بلغ وجهها من الهزال أنه أصبح أشبه بهيكل عظم؛ وكان العرق يتصبب على جبينها وصدغيها.

«على هذه الحال كنت أجدها دائماً. وكنت لا أجيئها إلا للحظة قصيرة، فقد كنت أنا أيضاً أحرص على أن لا يراني أحد. فما أن أظهر لها حتى تنتفض وتفتح عينيها وتهرع تقبلّ يدي. أصبحت لا أسحب يديّ حين تقبلهما، فقد لاحظت أن تقبيل يديّ يسعدها. وكانت ترتجف وترتعش وتبكي ما ظللت قريباً منها هناك. صحيح أنها حاولت أحياناً أن تتكلم، ولكن كان يصعب على المرء أن يفهم ما تقوله. كانت في بعض الأوقات كالمجنونة، من فرط انفعالها الرهيب وانشداها المذهل.

«وكان الأطفال يصحبونني أحياناً. وقد ألفوا في مثل تلك الأحوال أن يقفوا غير بعيد، ليقوموا بمهمة الحراسة ويحمونا مما لا أدري! كان ذلك يبهجهم كثيراً! حتى إذا انصرفنا بقيت ماريا وحيدة من جديد، لا تتحرك، مغمضة العينين، مسندة رأسها إلى الصخرة. لعلها كانت تحلم...

«وفي ذات صباح لم تقوْ على أن تتبع القطيع، ولبثت في بيتها الصغير الخالي. وسرعان ما علم الأطفال بذلك، فجاءوا يزورونها في النهار، كلهم تقريباً. كانت مستلقية على سريرها وحيدة تماماً. وانقضى يومان لا يعتنى بها أثناءهما إلا الأطفال مناوبةً. حتى إذا عرف أهل القرية بعد ذلك أن ماريا تحتضر، جاءت عجائز تسهر عليها.

يبدو أن الناس في القرية قد أخذوا يشفقون على ماريا آخر الأمر. أو هم أصبحوا، على الأقل، لا يحرّمون على أولادهم أن يروها، ولا يؤنبونهم إذا هم رأوها. وكانت ماريا طوال الوقت في حالة غزو، إلا أن نومها كان مضطرباً، وكان يمزّق صدرها سعال رهيب. وكانت العجائز تطرد الأولاد، إلا أن الأولاد يهرعون إلى النافذة ولو لحظة قصيرة ليقولوا: «تحية يا صديقتنا الطيبة ماريا!» فكانت ماريا ما أن تراهم أو تسمعهم حتى تنتعش، فإذا هي تحاول أن تنهض على كوعها دون أن تستجيب لنهي العجائز، وإذا هي تحييهم بهز رأسها وتشكرهم. واستمر الأولاد على أن يأتوها بحلوى، لكنها أصبحت لا تكاد تأكل من حلواهم شيئاً.

«أؤكد لكنّ أنها بفضل الأولاد إنما ماتت سعيدة. وبفضل الأولاد إنما نسيت شقاءها الأسود، كأنها حصلت على غفران خطاياها، ذلك أنها ظلت إلى النهاية تعتقد أنها آثمة كبيرة. كان الأولاد يتدافعون على نافذتها تدافع العصافير تلطم الزجاج بأجنحتها، ويصيحون قائلين لها كل صباح: «نحن نحبك يا ماريا!». وماتت ماريا بسرعة. وكنت أظن أنها ستعيش زمناً أطول من ذلك كثيراً.

«عشية موتها، عند غروب الشمس، ذهبت أعودها. لا بد أنها تعرفتني. صافحتها مرة أخيرة. ما كان أشد يبوسة يدها! وفي الغداة جاء من يقول لي: أن ماريا ماتت!

«أصبح يستحيل عندئذ ضبط الأطفال. غمروا تابوتها بالأزهار، ووضعوا على رأسها إكليلاً. وفي الكنيسة، امتنع الكاهن في هذه المرة عن ذكر سوءاتها. ومهما يكن من أمر، فإن الذين حضروا الدفن كانوا قلة قليلة هم عدد من الفضوليين. ولكن الأطفال هرعوا جميعاً حين وجب حمل النعش. وإذا كانوا لا يقوون على حمله فقد حاولوا أن يساعدوا وأن يعاونوا. وركضوا وراء النعش، وكانوا جميعاً يبكون. ومنذ ذلك الحين أصبح قبر ماريا ضريحاً يزوره الأطفال. فهم في كل سنة يغمرونه بالأزهار، وقد زرعوا حوله أشجار ورد.

«ولكن بعد دفن ماريا أخذ أهل القرية يضطهدونني في أمر الأولاد. وكان الكاهن والمعلم أكبر المحرّضين على اضطهادي. حرّموا على الأولاد أن يروني، وحتى شنايدر وعد بأن يسهر على تنفيذ ذلك. لكننا كنا نستطيع أن نرى بعضنا بعضاً، فنتخاطب بالإشارات من بعيد. ثم سوّيت الأمور من بعد، غير أن ما حدث كان حسناً جداً: فبفضل تلك الاضطهادات، اقتربت من الأطفال مزيداً من الاقتراب. حتى إنني في السنة الأخيرة تصالحت تقريباً مع المعلم والكاهن. أما شنايدر، فكان يكلمني كثيراً، ويناقد «مذهبي» المشؤوم في معاملة الأولاد. أي مذهب؟ لقد أطلعني شنايدر أخيراً على فكرة غريبة جداً

كانت قد خطرت بباله - حدث هذا قبيل سفري مباشرة - فقال لي: إنه مقتنع اقتناعاً تاماً بأنني أنا نفسي طفل حقاً، طفل من جميع النواحي، وإنني ليس لي من صفات الرجل البالغ الراشد إلا القامة والوجه، أما من ناحية النفس والطبع والتكوين وربما الذكاء، فما أنا بالرجل البالغ الراشد، وإنني قد أظل على هذه الحال ولو عشت ستين عاماً. ضحكتُ من كلامه ذاك. فلا شك أنه لم يكن على حق. وإلا ففي أي شيء يمكن أن أعدّ طفلاً؟ هناك شيء واحد صحيح، هو إنني لا أحب صحبة الكبار فعلاً؛ لقد لاحظت هذا في نفسي منذ مدة طويلة. وما زلت لا أحب صحبة الكبار، ولا أحسن التعامل معهم. ومهما يظهروا لي من طيب ونبل، فإنني أظل أشعر بضيق ما بقيت معهم، حتى إذا استطعت أن أتركهم وأن أمضي إلى رفاقي أحسست بارتياح وغبطة؛ ورفاقي هم دائماً أطفال، لا لأنني أنا نفسي طفل، بل لأنهم يجتذبونني لا أكثر!

«إنني منذ بداية إقامتي في تلك القرية، أثناء نزهااتي التي أقوم بها في الجبل وحيداً حزيناً، كنت إذا التقيت أحياناً، ولا سيما عند الظهر، ساعة الخروج من المدرسة، بتلك العصابة الصاخبة من الأطفال الذين يركضون حاملين حقائبهم وألواحهم، صارخين، ضاحكين، لاعبين، كنت أشعر بنفسي كلها تتجه إليهم وتندفع نحوهم على حين فجأة. لا أدري كيف أفسّر هذا وكيف أعلمه، ولكنني ما التقيت بهم مرةً إلا شعرت بسعادة قوية تملأ قلبي وتغمر نفسي. كنت أتوقف وأضحك سعادةً حين أرى إلى سيقانهم الصغيرة المتحركة النشيطة المتواثبة دائماً، وحين أرى هؤلاء الصبية والبنات يركضون، وحين أراهم يضحكون أو يبيكون (ذلك أن بعضهم يكونون قد اتسع وقتهم أثناء الطريق من المدرسة إلى المنزل، لأن يتضاربوا ويبكوا، ثم يتصالحوا ويستأنفوا لعبهم). كنت عندئذ أنسى حزني. وبعد ذلك، طوال تلك السنين الثلاث، أصبحت لا أستطيع حتى أن أفهم كيف ولماذا يمكن أن يشعر البشر بالضجر والسأم، أو بالحزن والأسى! لقد كان مصيري كله مع الأطفال.

«لم أفكر يوماً في أن أترك تلك القرية، ولا خطر ببالي ساعة أنني أستطيع أن أعود إلى روسيا في يوم من الأيام. كان يخيل إليّ أنني مقيم هناك إلى الأبد، لكنني فهمت أخيراً أنني لا أستطيع أن أكون عالة على شنايدر؛ وفي ذلك الأوان إنما حدث أمر خطير إلى حدٍّ أن شنايدر نفسه استحثني على الرحيل، وكتب إلى هنا باسمي. سوف أرى ما هو الأمر، وسوف أطلب النصيح. ولعل مصيري يتغير بذلك تغيراً تاماً، ولكن المسألة ليست هنا، وليس هذا أهم شيء. فإنما الشيء الهام أن حياتي قد تغيرت تغيراً كاملاً منذ الآن. لقد تركت هناك أشياء كثيرة، أشياء كثيرة جداً. لقد زال كل شيء. قلت لنفسي وأنا في القطار: «أنا الآن ذاهب إلى الناس. وربما كنت لا أعرف شيئاً غير

أن حياة جديدة قد بدأت، قررت أن أنفذ مهمتي بشرف واستقامة، وثبات وصلابة. إنني أقدر أن حياتي مع الناس ستكون شاقة ومملة. فقررت أن أكون مهذباً مع الجميع، وأن أكون صريحاً. لا شك في أنهم لن يطالبوني بأكثر من ذلك! وربما عدوني طفلاً هنا أيضاً. لا بأس! ثم أن جميع الملاء يعدونني أبله! إنني لأتساءل لماذا يعدونني كذلك؟ صحيح إنني مرضت في الماضي حتى صارت أشبه بأبله. ولكن في أي شيء أنا الآن أبله، أحدث نفسي قائلًا: «أنهم يعدونني أبله، وأنا مع ذلك ذكي، ثم هم لا يخطر لهم هذا على بال!». كثيراً ما تدور هذه الفكرة في رأسي.

حين تلقيت بمدينة برلين الرسائل الصغيرة التي استطاعوا أن يرسلوها إليّ من هناك، أدركت أخيراً مدى ما يحملونه لي من حب. أن الرسالة الأولى تثير كثيراً من الألم دائماً! ما كان أشد حزنهم حين صحبوني إلى محطة القطار. كانوا قد بدأوا يستعدون لرحيلي منذ شهر قائلين: «ليون مسافر، ليون مسافر إلى الأبد». أصبحنا نلتقي قرب الشلال في كل مساء، ونأخذ نتحدث عن فراقنا المرتقب، ونكون أحياناً مرحين كمرحنا في السابق، لكنهم تعودوا حين يتركونني ليذهبوا إلى النوم، أن يضموني بأذرعهم ضمّاً قوياً فيه كثير من المحبة والحنان، وذلك أمر لم يكونوا يفعلونه من قبل. وكان بعضهم يجيئون فرادى، خفية عن الآخرين، ليعانقوني على مهلهم من دون رقيب. وفي يوم رحيلي، جاؤوا جمهرةً واحدة ليصحبوني إلى المحطة. أن المحطة تبعد عن القرية مسافة فرسخ. كانوا يكبحون شعورهم ويكظمون عاطفتهم فيمسكون عن البكاء، غير أن بينهم من كانوا لا يفلحون في ذلك فإذا هم ينشجون بأصوات عالية، ولا سيما البنات. سرنا بخطى سريعة حتى لا نصل متأخرين، لكن واحداً منهم انفصل عن الآخرين فجأة، وارتدى عليّ في منتصف الطريق، وطوقني بذارعيه الصغيرتين، وأخذ يقبلني، فاستوقف بذلك موكبنا كله. وحين ركبت وتحرك القطار صاحوا يودعوني بصوت واحد، ولبثوا في أماكنهم إلى أن اختفى القطار عن أبصارهم اختفاء تاماً. وكنت أنا أيضاً أنظر إليهم...

«اسمعني... حين دخلت إلى هنا منذ قليل، فرأيت وجوهكن اللطيفة - أنا الآن أنعم النظر في الوجوه كثيراً - شعرت بفرح في قلبي منذ الكلمات الأولى. ولا أكتمكن أنني قلت لنفسني منذ برهة: لعلي خلقت إنساناً محظوظاً بالفعل. إنني أعرف أن المرء لا يلتقي كثيراً بأناس يمكن أن يحبهم من أول وهلة. ومع ذلك ما كدت أترك القطار حتى التقيت بكن. أنا أعلم أن على الإنسان أن يخجل من التحدث عن عواطفه إلى جميع الناس؛ ومع ذلك أراني أحدثكن عن عواظي؛ إنني لا أحس تجاهكن أي شعور بالخجل أو العار. إنني غير اجتماعي، وقد لا أزوركن مرةً أخرى إلا بعد مدة طويلة. فلا تسئن

تفسير ذلك، ولا يذهبن بكن الظن خاصةً إلى أنني لا أحرص عليكن، أو أن شيئاً قد صدر عنكن فأذاني. لقد طلبتن مني أن أصف لكنّ ما رأيته في وجوهكن. يسرنني أن أفعل هذا. فأما أنت يا آديلائيدي إيفانوفنا، فإن لك وجهاً سعيداً هو أقرب وجوهكن أنتن الثلاث إلى القلب. وعدا أنك جميلة جداً، فإن المرء يقول لنفسه حين ينظر إليك: «إن لها وجه أخت طيبة». إنك تواجهين الناس ببساطة ومرح، لكنك تحسنين أيضاً سبر القلوب. ذلك ما يوحيه إليّ وجهك. وأما وجهك أنت يا ألكسندرا إيفانوفنا، فإنه هو أيضاً جميل محبب إلى القلب، ولكن ربما كنت تخفين حزناً. ليس هناك أي شك في أنك طيبة القلب، لكنك لست فرحة. أن في وجهك شيئاً يذكر بوجه «مادونا» هولباين بمدينة درسدن^[25] هذا عنك أنت. ترى هل حزرت؟ أنت التي تعتقدين أنني أحزر. وأما أنت يا إليزابت بروكوفينا (قال ذلك وهو يلتفت فجأة نحو الجنرالة)، فإنني لا أحس إحساساً بل أوقن يقيناً أنك طفلة حقيقية، طفلة في كل شيء، طفلة في الخير وفي الشر على السواء، وذلك رغم كل سنك. هل غضبت لأنني أقول لك هذا؟ إنك لتعرفين رأيي في الأطفال وشعوري نحوهم. ولا يذهبن بكن الظن إلى أنني حدثكن عن وجوهكن بمثل هذه الصراحة لأنني بسيط ساذج فحسب، فربما كانت لي فكرة أبيتها».

الفصل السابع

حلين صمت الأمير، كان الجميع يناظرون إليه فرحين، حتى آجلانيا، ولكن الفرحة كان واضحة في وجه إليزابيث بروكوفينا خاصة.

هتفت تقول:

- هذا هو الامتحان! فيا أيتها الأنسات، أنتن اللواتي كنت تقدرن أنه سيكون عليكن أن تحمينه حمايتكن لفتى صغير مسكين، ها هو ذا قد تكرم عليكن فأبهجكن، ثم تحفظ فلم يعد بالمجيء إليكن إلا نادراً. ها نحن أولاء جميعاً غيبات. وإنه ليسعدني ذلك. لكن أغبانا وأدعانا إلى الضحك منه والسخرية به إنما هو إيفان فيدوروفتش. مرحى يا أمير! منذ حين، كان قد صدر أمرٌ بامتحانك!... أما ما قلته عنى من النظر في وجهي، فهو الحقيقة بعينها. أنا طفلة. وأنا أعرف ذلك. وكنت أعرف ذلك قبل أن تعرفه أنت. لقد أحسنت الإفصاح عن رأيي بكلمة واحدة. إنني أجد طبعك شبيهاً بطبعي من جميع النواحي، وإنني لسعيدة بهذا. نحن كقطرتي ماء تشابها، مع فارق واحد هو أنك رجل وأنا امرأة، وأنني لم أكن بسويسرا يوماً. ذلك هو الفرق كله.

هتفت آجلانيا تقول:

- لا تتعجلي كثيراً يا ماما. لقد قال الأمير منذ هنيهة إنه في جميع ما أسرّ به إلينا كان يبيت فكرة، وإنه لم يتكلم عبثاً ولهو!

وقالت الأختان ضاحكتين:

- نعم، نعم.

- لا تسخرن يا عزيزاتي. قد يكون أمكر منكن أنتن الثلاث مجتمعات. لسوف ترون، ولكن لماذا لم تقل شيئاً عن آجلانيا يا أمير؟ أن آجلانيا تنتظر، وأنا أيضاً أنتظر.

- لن أقول شيئاً الآن. سأقول فيما بعد.

- لماذا؟ يخيل إليّ أنك لاحظتها ملاحظة كافية!

- آ... نعم نعم... لاحظتها كثيراً. أنت آية من آيات الجمال يا آجلانيا إيفانوفنا.

أنك تبليغين من الجمال أن المرء لا يجرؤ أن ينظر إليك.

قالت الجنرالة ملحة:

- أهذا كل شيء؟ وطبيعتها؟

- يصعب على المرء أن يقضي في الجمال برأي. لم أتهياً لهذا بعد. الجمال لغز.

تداخلت آديلائيذ قائلة:

- معنى هذا أنك تلقي على آجلايا لغزاً أو أحجية. حاولي أن تحزري يا آجلايا.

ولكن أليست جميلة يا أمير؟

أجاب الأمير بحرارة وهو ينظر إلى آجلايا معجباً:

- جميلة جمالاً خارقاً. تكاد تكون في مثل جمال ناستاسيا فيليبوفنا، رغم أن وجهها

مختلف جداً...

نظرت النساء الأربع بعضهن إلى بعض مدهوشات.

وسألتها الجنرالة:

- من؟ ناستاسيا فيليبوفنا؟ أين رأيت ناستاسيا فيليبوفنا؟ أي ناستاسيا فيليبوفنا؟

- منذ قليل كان جبريل آرداليونتش يري إيفان فيدوروفتش صورتها.

- كيف؟ حمل إلى إيفان فيدوروفتش صورتها؟

- ليريه الصورة. أن ناستاسيا فيليبوفنا قد أهدت اليوم صورتها إلى جبريل

آرداليونتش، فجاء بها هذا إلى الجنرال ليريه إياها.

صاحت الجنرالة تقول:

- أريد أن أرى الصورة! أين هي تلك الصورة؟ إذا كانت قد أهدتها إليه هو، فلا بد

أنه محتفظ بها، ولا بد أنه الآن في حجرة المكتب. إنه يأتي للعمل هنا في جميع أيام

الأربعاء ولا ينصرف قبل الساعة الرابعة. احضروا جبريل آرداليونتش حالا! بل لا

تحضروه! فلست أموت شوقاً إلى رؤيته! يا أمير، يا صديقي، هلاًّ تلطفت فذهبت إلى

حجرة المكتب، فأخذت تلك الصورة منه، ثم جئتني بها إلى هنا. قل له، من فضلك،

إنني أريد أن أرى الصورة!

قالت آديلائيذ بعد أن خرج الأمير:

- لا بأس به! لكنه بسيط مسرف في البساطة قليلاً!

فقالت ألكسندرا مؤيدة:

- نعم، مسرف في البساطة قليلاً، حتى ليصبح من ذلك مضحكاً بعض الشيء!

لا الأولى ولا الثانية كان يبدو عليها أنها تفصح عن كل رأيها، وتعبّر عن كل ما يخالج نفسها.

قالت أجلايا:

- واعم ذلك عرف كيف يحسن التصرف حين تحدث عن وجوهنا. مدحنا جميعاً وسرنا جميعاً، حتى ماما. صاحبت الجنرالة تقول:

- لا تتخابثي! هو لم يمدحني، ولكن أنا التي شعرت بأنني مدحت.

سألت آديلائي:

- هل تظنين أنه كان يحاول أن يحسن التصرف ويصل إلى الهدف؟

- يخیل إليّ أنه ليس بسيطاً إلى الحد الذي يُظن فيه.

قالت الجنرالة غاضبة:

- ها هي ذي تعيد الكرة! في رأيي أنا أنكنّ أدعى منه إلى الضحاك عليكن! صحيح أنه ساذج قليلاً، لكنه يعرف ماذا يريد - أقول هذا بأنبل معاني هذا التعبير. هو مثلي تماماً.

قال الأمير يحدث نفسه نادماً وهو ذاهب إلى حجرة المكتب: «لا شك أنني أخطأت إذ جئت على ذكر تلك الصورة. ولكن ربما أكون قد أحسنت إذ تكلمت عنها مع ذلك...».

إن فكرة غريبة قد أخذت تومض في ذهنه، وإن لم تكن بعد واضحة كل الوضوح.

إن جبريل آرداليوننتش ما يزال في حجرة المكتب، غارقاً في أوراقه. كان يبدو عليه أنه يستحق فعلاً الرواتب التي كان يتقاضاها من شركة الأسهم.

واضطرب إلى أقصى حدود الاضطراب حين طلب منه الأمير الصورة، وروى له كيف علموا هناك بوجودها. وصاح يقول غاضباً حانقاً مقهوراً:

- آه... آه... ما كانت حاجتك إلى تلك الشرثرة كلها؟

ثم تمتم يقول من بين أسنانه:

- أنت لا تعرف شيئاً... أنت أبله!

قال الأمير:

- متأسف. قلت ما قلته من دون تفكير، أثناء الحديث. قلت: أن آجلانيا تكاد تكون في

مثل جمال ناستاسيا فيليبوفنا.

سأله جانينا أن يقصل عليه الأمر بالتفصيل، ففعل الأمير. فألقى عليه جانينا نظرة

ساخرة.

ودمدم يقول:

- أنت مغرم بناستاسيا فيليبوفنا طبعاً...

ولكنه لم يكمل كلامه، وشرد فكره.

كان واضحاً أنه قلق. وذكره الأمير بأن الجنرالة تطلب منه الصورة.

قال جانينا فجأة، كأن فكرة مباغتة قد وافته:

- اسمع يا أمير. هناك معونة ضخمة أحب أن أطلبها منك... ولكنني... حقاً... لا

أدري...

اضطراب جانينا ولم يكمل كلامه. كان يبدو نهياً لصراع داخلي، وكان يلوح عليه

التردد في اتخاذ قرار.

انتظر الأمير صامتاً. وعاد جانينا يروز الأمير بنظرة ثابتة فاحصة متفرسة. ثم بدأ

يتكلم ثانية فقال:

- يا أمير... إنني الآن... لسبب من الأسباب... سبب غريب كل الغرابة... بل سبب

مضحك... لست مسؤولاً عنه... وهذا على هامش المسألة على كل حال... أقول: إنني

الآن.. فيما أظن.. مؤاخذاً قليلاً هناك... لذلك قررت أن أغيب مدة من الوقت إلا إذا

دُعيت. لكنني مع ذلك في حاجة قصوى إلى أن أكلم آجلانيا إيفانوفنا. لقد كتبت بضعة

أسطر (كان جانينا يحمل بيده ورقة مطوية)، ولكنني لا أدري كيف أوصلها إليها. فهل

لك يا أمير أن تحمل هذه الورقة إلى آجلانيا إيفانوفنا فوراً، ولكن إلى آجلانيا إيفانوفنا

وحدها، أي دون أن يرى أحد ذلك؟ هل تفهمني؟ ليس الأمر أمر سرّ كبير... ليس

هناك أي شيء يمكن أن... ولكن هل تصنع لي هذا؟

أجاب الأمير:

- لا يسرني هذا كثيراً!

فألحّ جانياً قائلاً:

- أه... أمير... المسألة بالغة الخطورة بالنسبة إليّ... وقد تجيبني آجاليا... صدّقني... إذا كنتُ أتجه إليك وأستعين بك فلأن المسألة بالغة الخطورة... من ذا الذي يمكنني أن أكلفه بإيصال الرسالة إليها سواك! أن المسألة ذات خطورة... خطورة رهيبة، بالنسبة إليّ.

كان وجه جانيا يعبر عن خوف بلغ من الفضاءة والهول أن الأمير لم يرفض وأجاب يقول وهو ينظر إلى جانيا نظرة إشفاق:

- طيب... سأنقلها.

فقال جانيا ضارعاً وقد اطمأن رو عه:

- ولكن يجب ألا يلاحظ أحد... وإني لأعتمد على عهد الشرف الذي تقطعه على نفسك يا أمير، أليس كذلك؟

قال الأمير:

- لن أري الرسالة لأحد.

أفلت من جانيا لفرط تعجله قوله:

- ليست الورقة مختومة، ولكن...

ثم أمسك عن إتمام كلامه خجلاً مضطرباً.

فأجابه الأمير ببساطة:

- لن أقرأها.

وأخذ الصورة، وخرج من حجرة المكتب.

فلما أصبح جانيا وحيداً، أمسك رأسه بيديه، وقال يحدث نفسه: «كلمة واحدة منها تكفي... فربما أقطع عندئذ صلتي ب...». كان من شدة انفعاله أثناء الانتظار، لا يستطيع أن يعود إلى أوراقه، وأخذ يذرع الغرفة من ركن إلى ركن...

وكان الأمير يمشى شارد اللب. لقد أدهشه إدهاشاً مزعجاً أن يكلف بهذه المهمة. بل أن مجرد تصويره رسالة يبعث بها جانبا إلى آجاليا كان يسوءه. لكنه قبل أن يصل إلى الصالون قاطعاً إليه حجرتين، توقف فجأة كمن تذكر شيئاً ما، وألقى نظرة على ما حوله، ثم اقترب من النافذة التماساً لمزيد من الضوء، وأخذ ينعم النظر في صورة ناستاسيا فيليبوفنا.

كان كمن يحاول أن يحزر شيئاً يختبئ في هذه الصورة وقد خطف انتباهه منذ قليل. لم يتركه ذلك الشعور الذي قام في نفسه حينئذ، ولكنه يحاول الآن أن يتثبت منه، على ما يظهر.

إن هذا الوجه الخارق بجماله وبشيء آخر، يخطف الآن انتباهه بمزيد من القوة. أن فيه كبرياء وعجباً، وإن فيه احتقاراً وازدراء، بل يكاد يكون فيه كره وبغض، غير أنه يعبر في الوقت نفسه عن ثقة وبراءة وسداجة غريبة. حتى أن هذا التضاد نفسه يوقظ في النفس شيئاً من العطف والشفقة. ثم أن هذا الجمال الذي يبهر الأبصار لا يكاد يطاق: جمال الوجه الشاحب ذي الخدين الخاسفين قليلاً، والعينين الساطعتين.. إنه جمال غريب؛ تأملها الأمير لحظة، ثم تاب إلى نفسه، فألقى نظرة حوالية؛ وها هو ذا يقرب الصورة من شفثيه بحركة سريعة فيقبلها!

حين دخل الأمير الصالون بعد قليل كان وجهه هادئاً كل الهدوء. ولكنه قبل ذلك ما أن صار في قاعة الطعام (قبل الصالون بحجرتين) حتى كاد يصطدم عند الباب بآجاليا، داخله.

لقد كانت وحيدة.

قال لها وهو يمد إليها الرسالة.

- رجاني جبريل آرداليونتش أن أنقل إليك هذا.

فتوقفت آجاليا، وتناولت الورقة، وألقت على الأمير نظرة غريبة. لم يكن في هذه النظرة أي اضطراب أو خجل. كل ما هنالك شيء قليل من دهشة؛ حتى أن هذه الدهشة كانت من طرف الأمير وحده. فكأن آجاليا كانت بهذه النظرة تطالب الأمير بأن يشرح لها كيف وجد نفسه مقحماً في هذه القضية، وتطالبه بذلك في هدوء وتعالٍ. وارتسم على وجهها أخيراً شيء من سخرية، وابتسمت ابتسامة خفيفة ومرّت،

تأملت الجنرالة صورة ناستاسيا فيليبوفنا خلال مدة من الوقت صامتة، مع شيء من

الاحتقار، وكانت ممسكة بالصورة أمامها مادةً ذراعها إلى مسافة بعيدة مسرفة في البعد.
ودمدت تقول أخيراً:

- نعم، هي جميلة، بل هي جميلة جداً. لقد رأيته مرتين، ولكن من بعيد.

ثم اتجهت إلى الأمير فقالت له:

- إذا هذا هو نوع الجمال الذي تحبه؟

فأجاب الأمير بشيء من الجهد:

- نعم... هذا هو...

- أقصد.. هل هو هذا بعينه؟

- نعم... هو بعينه؟

- لأي سبب؟

دمدم الأمير يقول رغم إرادته تقريباً، كأنه يكلم نفسه ولا يجيب أحداً:

- في هذا الوجه ألم كبير وعذاب عظيم...

قالت الجنرالة:

- على كل حال قد لا يكون هذا عندك إلا هدياناً...

ورمت الصورة على المائدة بحركة كبيرة متعالية. فتناولت ألكساندرا الصورة،
واقتربت منها أدلياً، وأخذت البنتان تنعمان النظر فيها معاً. وفي تلك اللحظة عادت
أجلانيا.

هتفت أدلياً تقول فجأة وهي تنظر إلى الصورة بشراهة من فوق كتف أختها:

- يا لها من قوة!

فسألتها إيزابت بروكوفينا بخشونة:

- أين؟ أي قوة؟

فقالت أدلياً بحرارة:

- أن جمالاً كهذا الجمال لهو قوة. أن جمالاً كهذا الجمال يمكن أن يقلب العالم!

وعادت إلى مسند لوحتها شاردة الذهن مفكرة.

لم تُلقِ آجاليا على الصورة إلا نظرة عابرة، فجعدت عينيها، ومطت شفرتها السفلى، ومضت تجلس منزوية عاقدة ذراعيها على صدرها.

دقت الجنرالة الجرس، فدخل خادم فقالت له:

- ادع جبريل آرداليوننتش. هو في حجرة المكتب.

فهمت ألكسندرا تقول:

- ماما!

فقالت الجنرالة حاسمة، مانعة كل جواب:

- أريد أن أقول له كلمة! كفى!

كان واضحاً أنها مهتاجة. والتفتت إلى الأمير فقالت له:

- هل ترى يا أمير؟ لم يبق عندنا هنا إلا أسرار، لا شيء إلا الأسرار! يظهر أن هذا لا غنى له... يا للغباوة! وذلك في أمر يقتضي منتهى الصراحة والوضوح والصدق والاستقامة! هناك مشروعات زواج... وليست تعجبني هذه المشروعات!...

أسرعت ألكسندرا توقفها عن الكلام من جديد قائلة:

- ماما! ماذا جري لك؟

- ماذا تريد يا ابنتي العزيزة؟ أهي ترضيك أنت، هذه المشروعات؟ لا مانع أن يسمع الأمير... فنحن أصدقاء!... أنا وهو، على الأقل صديقان... أن الله يبحث عن الأخيار أما الأشرار وأصحاب النزوات، فما أكثرهم! ولا سيما أصحاب النزوات أولئك الذين يقررون اليوم شيئاً ويفعلون في الغد شيئاً آخر. هل تفهمين ما أقصد يا ألكسندرا إيفانوفنا؟ هن يقررن، يا أمير، إنني غريبة الأطوار، في حين أنني أستطيع أن أميز الأمور. ذلك أن العبرة بالقلب، أما ما عدا ذلك فسفاسف! صحيح أن الذكاء لازم أيضاً، بل قد يكون الذكاء أهم شيء. لا تضحكي ساخرة يا آجاليا، فأنا لا أتناقض. فالحمقاء التي لها قلب وليس لها ذكاء، لا تقل شقاء عن حمقاء لها ذكاء وليس لها قلب. هذه حقيقة قديمة. فأنا الحمقاء التي لها قلب وليس لها ذكاء؛ وأنت الحمقاء التي لها ذكاء وليس لها قلب؛ وذلك هو السبب في أننا كلتينا شقيتان، وفي أن كلينا نتألم وتعذب.

لم تستطع أديلائيدي أن تكبح جماح نفسها، بعد أن كانت بين جميع الحاضرات

أكثرهن احتفاظاً بمزاحها المرح الفرح، فقالت:

- ما الذي يشقيك يا ماما؟

فقالت الجنرالة حاسمة:

- يشقيني أولاً أن لي بنات متفيهقات كثيراً... ولما كان هذا كافياً فلا داعي إلى أن أفيض في الكلام على ما عداه! كفى ثرثرة! سنرى كيف تحسنان التصرف كلتاكما (ولست أعد آجاليا) بما تملكان من قوة فكر وسنرى هل ستستطيعين، أنت يا ألكساندرا إيفانوفنا المدهشة، أن تكوني سعيدة مع صاحبك السيد النبيل!...

وإذ رأت جانبا داخلاً، صاحت تقول:

- آ... وهذا عريس آخر...

وحيا جانبا، فأجابته دون أن تدعوه إلى الجلوس:

- صباح الخير. هيه... إذاً ستزف؟

فتمتم جبريل آرداليوننتش يقول مبهوراً مصعوقاً:

- أزف؟ كيف هذا؟... كيف أزف؟

لقد اضطرب اضطراباً فظيلاً.

- أقصد ستتزوج؟ ذلك ما أسألك عنه، إذا كان هذا التعبير يرضيك أكثر!

فكذب جبريل آرداليوننتش قائلاً وقد احمر وجهه من الخجل:

- ل... ل... لا... لن.. لن..

وألقى نظرة سريعة على آجاليا التي كانت ما تزال منتحية، ثم أشاح وجهه بسرعة. كانت آجاليا تنظر إليه بهدوء وبرود، دون أن تحولّ عنه بصرها، وكانت تراقب اضطرابه.

ألحت إليزابيت بروكوفينا اللجوج تسأله:

- لا؟ تقول لا؟ يكفي. سأ تذكر أنك في صباح يوم الأربعاء قد أجبت عن سؤالي

بقولك: «لا». في أي يوم نحن؟ ألسنا في يوم الأربعاء؟

أجابت آديلائي:

- أظن أنه يوم الأربعاء يا ماما.

- لا أحد يعرف الأيام والتواريخ. في أي يوم من أيام الشهر نحن؟

قال جانبا:

- في اليوم السابع والعشرين.

- في السابع والعشرين؟ هذا تاريخ مناسب من بعض النواحي. طيب. أستودعك الله! عندك أعمال كثيرة فيما أظن، وأنا يجب عليّ أن أرتدي ثيابي لأخرج. استرد هذه الصورة. وانقل تحيتي إلى أمك المسكينة نينا ألكسندروفنا! إلى اللقاء يا أمير، يا صديقي، يا صديقي! زرني كثيراً. أما أنا فإنني ذاهبة إلى العجوز بيلوكونسكايا خصيصاً لأكلها عنك. واسمع يا عزيزي: إنني أؤمن صادقة بأن الله إنما أرسلك من سويسرا إلى بطرسبرج من أجلي أنا. قد تعمل شيئاً آخر، ولكنك بعثت إلى هنا من أجلي أنا خاصة. الله هو الذي شاء ذلك. إلى اللقاء يا عزيزاتي. ألكسندرا، تعالى إليّ يا صديقتي.

وخرجت الجنرالة. وتناول جانبا الصورة من على المائدة مضطرباً طائش العقل ممتلئ النفس حقداً، ثم التفت نحو الأمير وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة:

- أنا عائد إلى بيتي يا أمير. فإذا كنت ما تزال تنوي أن تقيم عندنا، فسأقودك إلى هناك، فأنت لا تعرف العنوان.

قالت آجاليا وهي تنهض عن مقعدها:

- لحظة يا أمير. عليك أن تكتب شيئاً في دفثري (الألبوم). بابا يدعى أنك خطاط. سأجيئك بالدفتر.

قالت آديلايد:

- إلى اللقاء يا أمير. أنا أيضاً منصرف.

وصافحت الأمير مصافحة قوية، وابتسمت له ابتسامة فيها لطف ومودة ومحبة، وخرجت دون أن تلقي على جانبا نظرة واحدة.

قال جانبا وهو يصرف بأسنانه ويهرع نحو الأمير:

- أنت الذي ثرثرت فجئت على ذكر زواجي... يا لك من ثرثار وقح!

بهذا جمجم جانيا متعجلا بصوت خافت، وقد استعر وجهه سخطا وحنقا، والتمعت عيناه خبثا وشرًا.

أجابه الأمير بأدب هادئ:

- أوكد لك أنك مخطئ. لقد كنت أجهل كل الجهل أنك ستتزوج.

- لقد سمعت إيفان فيدوروفتش يقول منذ قليل: أن كل شيء سيتقرر هذا المساء في منزل ناستاسيا فيليبوفنا، وهذا ما نقلته إليهن. أنت كاذب! أنى لهن أن يعلمن النبأ بغير ذلك. من ذا الذي كان يمكن أن يبلغهن النبأ سواك؟ ألم تشر العجوز إلى هذا إشارة مباشرة؟

- أنت أقدر مني على أن تعرف من عساه أطلعهن على النبأ، إذا كنت تحس حقاً أنه قد كان ثمة إشارة. أما أنا فلم أقل كلمة واحدة.

قاطعها جانيا يسأل محمومًا:

- هل نقلت رسالتي؟ ماذا كان الجواب؟

ولكن آجلًا دخلت في تلك اللحظة نفسها، فلم يتسع وقت الأمير لأن يجيب.

قالت آجلًا وهي تضع دفترها على المائدة:

- إليك الدفتر يا أمير. فاختر منه صفحة واكتب لي شيئاً. هذه ريشة جديدة كل الجدة. لا ضير في أن تكون من معدن؟ لقد سمعت أن الخطاطين لا يستعملون ريشة من معدن.

كانت وهي تكلم الأمير كأنما لا تلاحظ حتى وجود جانيا. ولكن بينما كان الأمير يهيئ الريشة ويختار صفحة ويستعد للكتابة، دنا جانيا من المدفأة التي كانت تقف آجلًا قربها على يمين الأمير، وتمتم يقول في أذنها تقريباً، بصوت مختلج متقطع:

- كلمة، كلمة واحدة منك، فأنجو!

التفت الأمير بحركة سريعة ونظر إليهما كليهما. كان يُقرأ في وجه جانيا كرب كبير ويأس هائل. لكنه نطق بتلك الكلمات دون تفكير، كمن يلقي بنفسه في الماء.

تأملته آجلًا بضع لحظات بتلك الدهشة الهائلة نفسها التي ظهرت عليها منذ قليل أمام الأمير؛ فكانت هذه الدهشة، وهذه البلبلة اللتان يبدو أنهما ناشئتان عن أن الفتاة لا تفهم شيئاً البتة مما يقال لها، كانتا أشد هولاً وأفظع وقعاً في نفس جانيا من أعمق

احتقار وأكبر ازدراء!

سأل الأمير:

- ماذا يجب أن أكتب؟

فقالت آجلايا وهي تلتفت إليه:

- سأملئ عليك. أنت مستعد؟ اكتب: «أنا لا أصلح للمساومات». والآن ضع التاريخ، وأرني الكتابة.

مد الأمير إليها الدفتر. فنظرت فيه وقالت:

- عظيم! أن لك خطأ رائعاً. هذا جميل حقاً. شكراً. إلى اللقاء يا أمير! ثم أضافت وقد تذكرت شيئاً ما:

- لحظة أخرى. تعال. سأهدي إليك تذكراً.

فتبعها الأمير، ولكن آجلايا وقفت منذ صارت في حجرة الطعام، فمدت إليه رسالة جانبا وقالت له:

- اقرأ هذا!

تناول الأمير الرسالة، ونظر إلى آجلايا متحيراً. فقالت آجلايا:

- أنا أعرف على وجه اليقين أنك لم تقرأها، وإنك لا يمكن أن تكون نجياً هذا الرجل وحامل أسرار. اقرأ. إنني أصر على أن تقرأ.

كان يبدو أن الرسالة كُتبت على عجل. قرأ الأمير:

«اليوم يتقرر مصيري، تعلمين كيف. اليوم سأضطر أن أقطع على نفسي وعداً لا نكول عنه. ليس لي أي حق في اهتمامك بي، ولست أحمل أي أمل. غير أنك نطقت كلمة في ذات يوم، كلمة واحدة، فأنارت تلك الكلمة ظلام حياتي الحالك، وأمست منارة لي. قولي لي كلمة أخرى كتلك الكلمة، فتنقذني من الضياع! قولي فقط: «اقطع كل صلة»، فأفعل ذلك في هذا اليوم نفسه. آه... هل يكلفك باهظاً أن تقولي لي ذلك؟ إنني إذ أطلب منك هذه الكلمة لا ألتمس إلا علامة اكتراث وشفقة، لا شيء غير ذلك، لا شيء، لا شيء! إنني لا أجرؤ أن أسمح لنفسني بأي أمل، لأنني «لا أستحق». لكنني بعد كلمة واحدة منك سأرتضي فقري من جديد، وسأحتمل حالتي اليائسة فرحاً. سأستأنف الكفاح، وسيسعدني أن أكافح، وسأبعث بالكفاح بعثاً آخر، فأزخر بقوى جديدة.

«ابعثي إليّ بكلمة الشفقة تلك وحدها (»لا شيء إلا الشفقة« أحلف لك!). ولا يغضبنيك تهوّر رجل يائس، رجل يغرق فيتجراً أن يقوم بجهد أخير ليتقي الهلاك.

«ج.اي.»

فلما فرغ الأمير من القراءة قالت آجاليا بلهجة قاسية:

- يزعم هذا الرجل أن كلمة «اقطع كل صلة» لا يمكن أن تعرضني لشيء ولا يمكن أن تلزمني بشيء؛ وما هذه الرسالة، كما رأيت، إلا نوع من تأكيد مكتوب. لاحظ مدي سداجته في الإسراع إلى وضع خط تحت بعض الكلمات، ومدى الغلظة في ظهور فكرته المبيتة ونيتة المخبأة وراء ذلك. وهو يعلم على كل حال أنه لو قطع كل صلة من تلقاء نفسه، بمحض إرادته، دون أن ينتظر تشجيعاً مني، وحتى دون أن يكلمني في هذا الأمر، ودون أن يستطيع أن يعقد عليّ أي أمل، لكان من الممكن أن تتحسن عواطفني نحوه، ولكان من الممكن أن أغدو صديقة له. وهو يعلم ذلك حق العلم على كل حال! لكنه رجل دنس النفس. هو يعلم ذلك لكنه يطلب ضماناً. إنه لا يستطيع أن يبني عمله على الثقة، إنه يريد أن أعطيه أملاً، في مقابل المائة ألف روبل! أما عن الكلمة التي يزعم في رسالته أنني نطقت بها فأنارت حياته، فذلك كله كذب واختلاق وقح. كل ما هنالك أنني شعرت نحوه بشيء من الشفقة في يوم من الأيام. لكنه رجل وقح لا حياء فيه، فسرعان ما قدر أن في وسعه أن يعقد أملاً. لقد فهمت أنا ذلك فوراً. وهو منذ ذلك اليوم يحاول أن يوقعني في الفخ، وهذا بعينه ما حاوله في هذا النهار أيضاً. ولكن كفى الآن! خذ رسالته هذه، وأعدّها إليه متى خرجتما من الدار، لا قبل ذلك.

- وما هو الجواب الذي ينبغي أن أحمله إليه؟

- لا جواب، طبعاً! فذلك خير جواب. إذا أنت تنوي أن تقيم في بيتهم؟

قال الأمير:

- أن إيفان فيدوروفتش نفسه هو الذي نصحني بهذا منذ قليل.

- فكن منه إذاً على حذر! إنني أنبهك. لن يغفر لك إرجاع هذه الرسالة التي سترجعها إليه!

صافحت آجاليا يد الأمير مصافحة خفيفة، وخرجت. كان وجهها مقطباً مكفهاً. حتى إنها لم تبسم له وهي تحييه برأسها مودعة.

قال الأمير يخاطب جانينا:

- لحظة، آخذ صرتي فوراً ثم ننصرف.

قرع جانبا الأرض بقدمه من نفاذ الصبر. لقد اسودَّ وجهه حنقاً. وأخيراً خرج الاثنان إلى الشارع، والأمير يحمل بيده صرّته.

سأله جانبا وهو يكاد يرتمي عليه:

- هيه، الجواب؟ ماذا قالت لك؟ هل أعطيتها رسالتي؟

فمدّ إليه الأمير الرسالة صامتاً. فتصلب جانبا كالمتجمد، وهتف يسأل:

- كيف؟ رسالتي؟ آه... لم يعطها الرسالة! كان عليّ أن أقدر ذلك! آه... لعنة الله عليه... الآن يتضح لي كيف أنها لم تفهم إذن شيئاً منذ قليل!... ولكن كيف، كيف أمكنك ألا تعطيها الرسالة؟ آه... لعنة الله على..

- عفوك. إن ما حدث هو عكس هذا تماماً. لقد سهلت لي الظروف أن أعطيها رسالتك بعد أن أعطيتنيها أنت بلحظة واحدة، مع أدق الالتزام بما أوصيتني به. وإذا كانت الرسالة بين يدي الآن، فلأن آجاليا قد ردّتها إليّ منذ هنيهة.

- متي؟ متي ردّتها إليك؟

- عندما أنهيت الكتابة في دفترها دعّنتني إلى أن أتبعها (هل سمعتها؟). فلما صرنا في قاعة الطعام مدّت إليّ هذه الرسالة وطلبت مني أن أقرأها ثم أرجعها إليك.

زأر جانبا قائلاً:

- أن تقرأها؟ أن تقرأها؟ وقرأتها؟

تجمّد جانبا في وسط الرصيف وقد بلغ من الدهشة أن فمه ظل فاغراً...

قال الأمير:

- نعم، قرأتها.

- وهي التي أقرأتك الرسالة؟ هي نفسها؟

- نعم، هي نفسها. صدّقني. ما كان لي أن أقرأها قط لولا أنني أمرت بذلك.

لبث جانبا صامتاً خلال لحظة، يبذل جهوداً كبيرة من أجل أن يفهم شيئاً، ولكنه صاح يقول فجأة:

- مستحيل! لا يمكن أن تكون قد طلبت منك قراءة الرسالة! أنت تكذب! أنت قرأت الرسالة من تلقاء نفسك.

قال الأمير بتلك اللهجة الهادئة نفسها:

- لقد قلت لك الحقيقة. صدق أنني آسف أشد الأسف لما أحدث هذا الأمر في نفسك من انزعاج وضيق.

- ولكن، أيها الشقي، لا بد أنها قالت لك شيئاً على الأقل، حين أعادت إليك الرسالة؟ فهل حملتك جواباً ما؟

- نعم، طبعاً!

- فما بالك لا تتكلم إذا! ما بالك لا تتكلم!

وقرع جانبا أرض الرصيف مرتين بقدمه اليمنى المنتعلة جرموقاً من مطاط فوق الحذاء.

قال الأمير:

- ما أن أنهت قراءة الرسالة حتى قالت لي: إنك تحاول أن توقعها في الفخ؛ فأنت تريد أن تحصل منها على وعدٍ بأمل، فإذا قويت بهذا الوعد، أمكنك أن تقطع الصلة دون خسران، وذلك بأمل مقداره مائة ألف روبل؛ وأضافت أنك لو فعلت دون أن تساومها، أي لو قطعت تلك الصلة من تلقاء نفسك بمحض إرادتك دون أن تطلب منها أي ضمانات سلفاً، لكان من الجائز أن تفوز ب صداقتها لك. أظن أن هذا هو كل ما قالت. ... نعم... هناك شيء آخر: فحين سألتها بعد استرداد رسالتك ما جوابها، قالت: أن خير جواب هو ألا تعطي جواباً. أظن أن هذا هو ما قالت. سامحني إذا نسيت الألفاظ التي استعملتها هي نفسها نصاً، فأنا أنقل إليك ما أظن أنني فهمته.

استولي على جانبا غضب لا حدود له، وانفجر حنقه دون أي سيطرة على نفسه، فقال وهو يصرف بأسنانه:

- ها... هكذا!... ترمي رسائلني من النافذة!... هي لا تصلح للمساومات! طيب... طيب... ولكنني سأصلح لها أنا.. ولسوف ترى!... أنا لم أقل بعد كل شيء... لسوف ترى!... لتصلني أخباري!..

كان يصعّر وجهه، وكان يشحب لونه، وكان يرغب ويذبذ، ويهدد بقبضة يده

ويتوعد. وسارا بضع خطوات وهما على هذه الحال. لم يتحرّج جانيا أمام الأمير أي تحرّج، حتى لكأنه خالي إلى نفسه في غرفته، لأنه لم يكن يعدّه شيئاً مذكوراً. ثم توقف وقد فجأته فكرة مباغتة، فقال يسأل الأمير:

- ولكن كيف أمكنك (وأضاف جانيا يقول بينه وبين نفسه: كيف أمكن هذا الأبله)... كيف أمكنك أن تدخل إلى خفايا أمورهن وأن تصبح محل سرهن ولما ينقض على معرفتك بهن أكثر من ساعتين؟ كيف هذا؟

لم يكن ينقصه لاكتمال أنواع عذابه إلا أن تضاف إليها الغيرة. وها هي ذي الغيرة تعض الآن قلبه على حين فجأة.

أجابه الأمير قائلاً:

- هذا ما لا أستطيع أن أعلله لك!

فرشقه جانيا بنظرة خبيثة شريرة؛ وقال له:

- أمن أجل أن تهدي إليك ثقتها إنما دعتك إذاً إلى قاعة الطعام؟ لقد قالت: إنها تريد أن تهدي إليك شيئاً، أليس كذلك؟

- لا أفهم الأمر على غير هذا الوجه!

- ولكن لماذا؟ حقاً إنه لأمر عجيب!... ماذا فعلت هناك؟ كيف استطعت أن تحظى بإعجابهن؟ اسمع...

كان جانيا يضطرب بكل قواه. وكان كل شيء في نفسه مشوشاً يغلي ويفور، فهو لا يستطيع أن يفلح في جمع شتات أفكاره. وتابع كلامه فقال:

- اسمع... ألا تستطيع أن تحاول أن تتذكر كل ما تحدثت فيه وأن تعيده مرتباً منظماً متسلسلاً، وأن تذكر كل ما قيل من البداية إلى النهاية؟ ألم تلاحظ شيئاً يمكنك أن تتذكره؟

أجاب الأمير:

- أوه... هذا سهل! منذ البداية، منذ دخلت وتم التعارف، تحدثنا عن سويسرا.

- دعنا من سويسرا... فلتذهب سويسرا إلى جهنم!...

- ثم تحدثنا عن عقوبة الإعدام...

- عن عقوبة الإعدام؟

- نعم، عرضاً... ثم وصفت لهن السنين الثلاث التي عشتها هناك، وقصصت عليهن قصة القروية المسكينة.

- فلتذهب القروية المسكينة إلى جهنم! أكمل...

كان جانيا يدبب بقدميه من نفاذ الصبر وشدة التملل. وتابع الأمير كلامه فقال:

- ثم ذكرت لهن كيف أن شنايدر أطلعني على رأيه في طبعي، ودفعتني إلى...

- فليذهب شنايدر إلى جهنم! لا تهمني آراؤه! وبعد ذلك؟

- بعد ذلك أخذت أتكلم عن الوجوه، لا أدري بأية مناسبة، أقصد... عن تعبير الوجوه، فقلت لآجلايا إيفانوفنا أنها في مثل جمال ناستاسيا فيليبوفنا تقريباً. وعندئذ إنما أفلتت من لساني كلمات عن الصورة...

- لكنك لم تنقل إليهن ما كنت قد سمعته في حجرة المكتب، أليس كذلك؟ لم تنقله إليهن، أليس كذلك؟ لم تنقله إليهن...

- أكرر لك أنني لم أنقله إليهن...

- ولكن... عجيب... ألم تطلع آجلايا أمها على الرسالة؟

- أستطيع أن أضمن لك أنها لم تطلعها عليها. إنني لم أتركهن لحظة. ثم إنها لو أرادت أن تطلعها عليها لما اتسع الوقت لهذا.

- ولكن لعل شيئاً حدث ولم تلاحظه...

ثم صاح جانيا يقول وقد خرج عن طوره تماماً:

- يا لأبله النحس!... إنه عاجز حتى عن أن يروي الأمور على نحو مناسب!

وإذ شتم مرة فلم يلق مقاومة، أخذ يفقد كل تحفظ شيئاً بعد شيء، كما يحدث ذلك دائماً لبعض الأشخاص. حتى لقد كان من الممكن وقد بلغ ذروة حنقه أن يمضي إلى حد البصق. لكن هذا الحنق نفسه قد أعماه. وإلا لكان قد لاحظ منذ مدة طويلة أن هذا «الأبله» الذي يعامله هو هذه المعاملة يفهم في بعض الأحيان كل شيء بسرعة عظيمة، ودقة شديدة، ويجيد الرواية إجادة تامة. غير أن شيئاً لم يكن في الحسبان قد حدث على حين فجأة.

قال الأمير بغتة:

- يجب أن ألفت نظرك يا جبريل أرداليونتش أنني في الماضي كنت مريضاً بالفعل، حتى لقد أصبحت كالأبله، ولكنني شفيت منذ مدة طويلة، وإنه ليؤلمني أن أسمع أحداً يصفني بأنني أبله. ورغم أن المرء قد يعذرك بسبب ما أنت فيه من خيبة الآمال وسقوط الأمان، فقد شتمتني حتى الآن مرتين أو ثلاث مرات، وهذا ما لا أَرْضِي عنه البتة، لا سيما وأنه لا سبب له، وإنما أنت تندفع فيه اندفاعاً وتسترسل فيه استرسالاً بغير داع منذ أول لقاء بيننا. أفلا ترى والحالة هذه، ما دمنا الآن عند مفترق طرق، أن نفرق هنا، فتذهب يمنية وأذهب يسرة؟ أن معي خمسة وعشرين روبلاً، ولا شك أنني واجد فندقاً أبيت فيه.

أحس جانبا بخجل شديد واضطراب كبير، حتى لقد احمر وجهه من شعوره بالعار لأنه أخذ هذا الأخذ بغتة على وجه لم يكن يتوقعه البتة.

قال معتذراً بحرارة، منتقلاً من الشتم المقذع إلى التهذيب الرقيق:

- سامحني يا أمير، ناشدتك الله... أنك لترى ما أنا فيه من شقاء. أنت لا تعرف بعد شيئاً، فلو عرفت كل شيء لغفرت لي بعض الغفوان حتماً، وإن يكن سلوكي هذا لا يغتفر طبعاً...

أسرع الأمير يطمئنه قائلاً:

- لا أطلب كل هذه الاعتذارات. إنني لأدرك أنك قلق مضطرب، وأن هذا هو السبب في شتمي. طيب. فلنذهب إلى بيتك. أنا من جهتي يسرني هذا.

كان جانبا يقول لنفسه أثناء السير وهو يلقي على الأمير نظرات كره وبغض: «لا، يستحيل أن أتركه الآن. لقد أخذ مني هذا الوغد كل ما كان يريد، وها هو ذا يرمي عن وجهه القناع... أن في الأمر شيئاً مخفياً. سوف نرى. سوف يتقرر كل شيء، كل شيء، في هذا اليوم نفسه».

وكانا قد وصلا إلى الدار.

الفصل الثامن

يقع بيت جانبا في الطابق الثاني ويوصل إليه سلم نظيف فسيح نير، ويتألف من ست غرف أو سبع تتفاوت سعة؛ وإذا كان هذا البيت عادياً في الواقع، فلا شك أن أجرته فوق طاقة موظف متواضع يقع على كاهله عبء أسرة، ولو بلغ مرتبه ألفي روبل. لكن هذا البيت كان مهياً كذلك لاستقبال مستأجرين مع الطعام والخدمة، ولم يسكنه جانبا وأسرته إلا منذ شهرين في أكثر تقدير، على استياء من جانبا نفسه، وبإلحاح من نينا ألكسندروفنا وباربارا آرداليونوفنا اللتين كانتا ترغبان في أن تكونا نافعتين هما أيضاً، وأن تساهما في زيادة دخل العائلة ولو قليلاً. كان جانبا يظهر امتعاضه ويعدّ هذا التدبير سقوياً. وهو منذ أقاموا في هذا المنزل يشعر بحرج في المجتمع، حيث ألف حتى ذلك الحين أن يظهر فتى لامعاً يبشر بأن يكون له مستقبل فكانت هذه التنازلات كلها وهذا الشيوع المزعج كله بمثابة جروح عميقة في نفسه. حتى أصبح منذ بعض الوقت يثيره أبسط أمر من الأمور إثارة شديدة تخرجه عن طوره؛ وإذا كان لا يزال يرتضي أن يرضخ وأن يصبر، فما ذلك إلا لأنه عقد النية بثبات وقوة وصلابة على أن يغير هذا الوضع كله في أقصر مدة. ومع ذلك فإن هذا التغيير نفسه، والحل الذي انتهى الفتى إليه وعزم أمره عليه، قد أصبحت مسألة خطيرة، مسألة يهدّد حلها بأن تكون متاعبه وهمومه أوفر عدداً وأشدّ إيلاً مما سبق.

كانت الشقة مشطورة شطرين بدელიز يبدأ من المدخل. ففي إحدى الجهتين تقع الغرف الثلاث الموقوفة على المستأجرين «الموصي بهم توصية خاصة»؛ وفي تلك الجهة نفسها، عند آخر الدهليز، قرب المطبخ، توجد حجرة صغيرة هي أضيق سائر الحجرات، يعيش فيها وينام فيها، علي ديوان عريض (كنبة)، رب الأسرة نفسه، الجنرال المتقاعد إيفولجين، الذي كانوا يضطرونه أن يكون خروجه ورجوعه من المطبخ وسلم الخدم. وفي تلك الغرفة الصغيرة نفسها يسكن أيضاً الفتى الصغير كوليا^[26]، أخو جبريل آرداليونتش، وهو تلميذ في المدرسة الثانوية عمره ثلاثة عشر عاماً. كان هذا الفتى الصغير مضطراً هو أيضاً إلى أن ينكمش حتى يستطيع أن يعيش في هذه الغرفة وأن يطالع دروسه فيها؛ فهو أيضاً ينام على ديوان آخر أصغر، متداع، ضيق، قصير، مثقب الأغطية. وكان عليه عدا ذلك أن يعتني بالجنرال وأن «يسهر عليه»، لأن الجنرال

كانت تزدداد حاجته إليه يوماً بعد يوم.

أعطى الأمير غرفة الوسط، فأما التي على يمينها فكان يسكنها فردشتينكو؛ وأما التي على شمالها فما تزال خالية لم يقطنها أحد. ولكن جانبا قاد الأمير في أول الأمر إلى ذلك الجزء من الشقة، الذي تقيم فيه الأسرة. إن الجزء يتألف من غرفة استقبال يحيلونها عند الحاجة إلى غرفة طعام، ومن صالون ليس في الحقيقة صالوناً إلا في الصباح حتى إذا حل المساء أمسى حجرة مكتب فغرفة نوم لجانيا؛ وهناك أخيراً غرفة ثالثة، صغيرة مقفلة الباب دائماً، هي غرفة نوم نينا ألكسندروفنا وباربارا أرداليونوفنا.

الخلاصة: أن جميع الأشياء وجميع الأشخاص كانت في هذه الشقة محشورة مترصة تعيش في مكان أضيق من أن يتسع لها. فكان جانبا لا يكف عن الصريف بأسنانه غيضاً، وكان لا يفوت من يراه منذ أول نظرة أنه في هذه الأسرة طاغية مستبد، رغم حرصه على أن يظهر بمظهر من يحترم أمه ويوقرها.

لم تكن نينا ألكسندروفنا وحيدة في الصالون، بل كانت تجالسها باربارا أرداليونوفنا. وكانتا كلتاهما منمكتين في النسيج بالإبرة، على تحدثهما مع زائر كان معهما هو إيفان بتتسين. إن نينا ألكسندروفنا تبدو في الخمسين من العمر. وجهها نحيل شاحب اللون؛ وتحت عينيها هالتان زرقاوان. مظهرها كله يدل على المرض، ويدل على شيء من الألم، غير أن في وجهها ونظرتها شيئاً من جاذبية. والمرء يدرك من أولى كلماتها أن لها طبعاً جاداً وخلقاً رصيناً ووقاراً صادقاً؛ وأنها رغم الألم الذي يعبر عنه وجهها، تملك جنناً ثابتاً، بل وعزيمة قوية. ثيابها متواضعة جداً، فهي سوداء، وهي على الزي الذي ترتديه العجائز؛ ولكن حركاتها وآدابها وحديثها وسلوكها، كل هذا يدل على أنها إنسانة عرفت كذلك بيئة أرفع من هذه البيئة وأرقى.

أما باربارا أرداليونوفنا فهي فتاة في الثالثة والعشرين من العمر، متوسطة القامة، نحيلة الجسم، إن لم يكن وجهها جميلاً حقاً، فإن فيه سرّ الفتنة بغير جمال، وآية الجذب إلى درجة الهوى. إنها تشبه أمها كثيراً، وتكاد ترتدي ما ترتديه أمها، فلا أثر في ثيابها لتبهرج أو تغندر. نظرة عينيها الشهاباوين يمكن أن تكونا في بعض الأحيان مرحتين كل المرح، ملاطفيتين كل الملاطفة، لكن هذه النظرة هي في الغالب الأعم رصينة مفكرة، مفرطة في الرصانة مسرفة في التفكير أحياناً، ولا سيما في هذه الآونة الأخيرة. ومن يرها يقرأ في وجهها الثبات وقوة العزيمة، ولكنه يحس أن هذا الثبات وهذه العزيمة يمكن أن يتجليا عندها بأكثر مما يتجليان عند أمها طاقة دفاقة ومبادهة أصيلة أيضاً. إن لباربارا أرداليونوفنا طبيعة مندفعة، حتى لقد كان أخوها يخاف اندفاعاتها بعض

الخوف أحياناً. وكان الزائر الذي تحدثانه، يخاف اندفاعاتها بعض الخوف هو أيضاً. إنه رجل ما يزال شاباً، في نحو الثلاثين من عمره، يرتدي ثياباً متواضعة لكنها أنيقة. في آدابه رقة ولطف، وإن يكن متصنعاً بعض التصنع. تدل لحيته الصغيرة القاتمة الشقرة على أنه رجل غير مقتصر على حياة الوظيفة، أو قانع بها. إذا تحدث كان حديثه ذكياً شائقاً، لكنه في أكثر الأحيان صموت. وهو على وجه الإجمال يحدث في النفس شعوراً بالارتياح.

كان واضحاً أن باربارا أرداليونوفنا تهمة وتعنيه، وهو لا يحاول أن يخفي عواطفه. وكانت هي تعامله بمودة وصداقة، لكنها ما تزال تتأخر في الإجابة عن عدد من أسئلة كان يظهر على باربارا أنها لا تعجبها. ولكن بتتسين لا تثبط من ذلك عزيمته ولا ييأس. وكانت نينا ألكسندروفنا تظهر له حفاوة وبشاشة، حتى لقد تعودت في الآونة الأخيرة أن تسرّ إليه بما في نفسها. وكان معروفاً من جهة أخرى أن بتتسين قد وجد لنفسه اختصاصاً هو أن يقرض مالاً بفوائد، لآجال قصيرة، على رهون مضمونة. وكانت تربطه بجانيا صداقة قوية.

قام جانيا بواجب التقديم والتعريف، ولكن على نحو متقطع. حيا أمه بكثير من الخشونة، ولم يسلم على أخته، ثم سرعان ما خرج مقتادا بتتسين.

وجّهت نينا ألكسندروفنا إلى الأمير بضع كلمات ترحيب، ثم أمرت كوليا، الذي يظهر في العتبة، بأن يقود الأمير إلى الغرفة الوسطى. أن كوليا فتى مرح بشوش، في طبيعته ثقة وبسطة.

سأل كوليا الأمير وهو يدخله غرفته:

- أين أمتعتك؟

- لي صرة وضعتها في حجرة المدخل.

- سأجيئك بها حالاً. ليس عندنا خدم إلا الطباخة وماتريونا، لذلك تراني أساعد

في العمل، أن فاريا تراقب كل شيء وتغضب.

- نعم.

- هل سويسرا جميلة؟

- جداً.

- فيها جبال؟

- نعم.

- طيب. سأجيئك بحزمك.

دخلت باربارا آرداليونوفنا. وقالت:

- ستهيئ لك ماتريونا سريرك. هل معك حقيبة؟

- لا شيء إلا صرة. ذهب أخوك ليجيئني بها. لقد تركتها في حجرة المدخل.

عاد كوليا إلى الغرفة وقال يسأل:

- لم أجد شيئاً إلا هذه الصرة الصغيرة، فأين وضعت الأخرى؟

فأجابه الأمير وهو يتناول منه الصرة:

- ليس لي صرة أخرى.

- ها... خشيت أن يكون فردشتينكو قد استولى عليها.

قالت له أخته بقسوة:

- لا تقل سخافات!

كانت باربارا تكلم حتى الأمير بلهجة خشنة تكاد تكون غير مهذبة.

قال لها أخوها:

- «يا بنتي العزيزة»! يمكنك أنت تكلميني بلهجة أرق. أنا لست بتتسين!

- بل يمكنني أن أجلك يا كوليا؛ إنك غبي جداً.

وعادت تكلم الأمير فقالت:

- في كل ما قد تحتاج إليه تستطيع أن تتجه إلى ماتريونا. الغداء عند الساعة

الرابعة والنصف. ولك أن تختار: تأكل معنا، أو يُحمل إليك الطعام في غرفتك.

وعادت تخاطب كوليا فقالت:

- تعال يا كوليا، لا تزعج السيد!

- هلمي بنا يا شديدة البأس!

وفيما كانا يخرجان اصطدما بجانيا.

قال جانيا يسأل كوليا:

- هل بابا هنا؟

فلما أجابه كوليا بأن بابا هنا، همس في أذنه ببضع كلمات. فهزّ كوليا رأسه ملبياً، وخرج يتبع باربارا آرداليونوفنا.

- كلمة أخرى يا أمير... نسيت أن أقولها لك في زحمة هذه.. هذه القصص كلها! لي رجاء أتوجه به إليك: قدّم لي هذه الخدمة - إذا كان ذلك لا يكلفك جهداً كبيراً لا طاقة لك به - وهي ألا تثرثر هانا عما جرى بيني وبين آجلايا، والا أن تثرثر «هناك» عما ستراه هنا. ذلك أن الأمور هنا أيضاً ليست جميلة كلها، وإن يكن هذا كله لا يعنيني.. حاول على الأقل أن تحفظ لسانك اليوم.

أجاب الأمير متضايقاً من ملامات جانيا هذه:

- أوكد لك أنني ثرثرت أقل كثيراً مما تظن.

كان واضحاً أن العلاقات بينهما تزداد سوءاً.

- على كل حال... لقد تحملت اليوم بسببك ما فيه الكفاية! الخلاصة: ذلك هو الرجاء الذي أتوجه به إليك.

قال الأمير:

- لاحظ أيضاً يا جبريل آرداليوننتش أنني لم أكن مرتبطاً بشيء هناك، لم أكن قد بذلت لك أي وعد، لم تكن قد طلبت مني أي أمر: ما الذي كان ينبغي أن يمنعني عن الإتيان على ذكر تلك الصورة؟ إنك لم تسألني هذا.

قال جانيا وهو يلقي على ما حوله نظرة احتقار:

- اف. يا لها من غرفة رديئة! هي مظلمة، مع هذه النوافذ التي تطل على الفناء! من كل النواحي، لم يحالفك التوفيق حين وقعت في هذا المكان. على كل حال، ذلك أمر لا شأن لي به، ولا يهمني في قليل أو كثير. لست أنا الذي أتولى هذه التأجيرات!

ظهر بتتسين في الباب ونادى جانيا. فأسرع جانيا يودّع الأمير وخرج، رغم ما يبدو عليه من أن هناك أشياء أخرى كان لا يزال يريد أن يقولها. ولكن كان واضحاً أنه لا يعرف من أين يبدأ، وأنه متحرج مرتبك؛ حتى أن انتقاده للغرفة لم يكن له من غرض

إلا أن يخفي ما هو فيه من تشوش واضطراب وبلبله.

ما أن فرغ الأمير من غسل وجهه ويديه، ومن ترتيب زينته بعض الشيء، حتى شقّ الباب مرة أخرى، فدخل عليه قادم جديد.

هو رجل في نحو الثلاثين من العمر، طويل القامة، يغطي رأسه الضخم شعرٌ أحمر مجعّد، وجهه سمين زهري اللون، شفاه سميكتان، أنفه قصير عريض، عيناه صغيرتان غائرتان في الشحم تعبّران عن سخرية وكأنهما تطرفان بغير انقطاع. في جملة شخصه شيء من وقاحة. ملابسه أدنى إلى الإهمال.

لقد شق الباب في أول الأمر شقاً ضيقاً يتيح له أن يطل برأسه فحسب؛ وأخذ هذا الرأس يفحص الغرفة خلال بضع ثوان، ثم أخذ الباب ينفتح ببطء إلى أن ظهرت قامة الشخص كلها في العتبة، ولكن الزائر لم يدخل مع ذلك، وإنما هو يكتفي الآن بالتفرس في الأمير طارفاً بعينه، إلى أن أغلق الباب وراءه آخر الأمر، واقترب، فتناول كرسيّاً، وأمسك يد الأمير إمساكاً قوياً فأجلسه على الديوان قبّالته.

قال وهو ينظر إلى الأمير بهيئة انتباه واستفهام:

— أنا فردشتينكو...

فقال الأمير وهو يوشك أن ينفجر ضاحكاً:

— طيب، ثم ماذا؟

دمدم فردشتينكو وهو ما يزال ينظر تلك النظرة نفسها:

— مستأجر هنا.

— تريد أن نتعارف؟

— هيه!...

بهذا نطق الزائر وهو يشعث شعره، ثم أخذ يحدق بنظره إلى الزاوية المقابلة من الغرفة وهو يتنهد؛ ثم عاد يلتفت نحو الأمير ويسأله فجأة:

— هل معك شيء من مال؟

— كم بالضبط؟

— خمسة وعشرون روبلاً.

- أرنيها.

أخرج الأمير من جيب صدريته ورقةً ماليةً بخمسة وعشرين روبلاً، ومدّها إلى فردشتينكو، ففضّها هذا، وفحصها، وقلبها، ثم نظر إليها من جهة الشفافية، ثم قال مفكراً:

- غريب! لماذا يقتّم لونها هكذا؟ أن أوراق الخمسة والعشرين روبلاً يقتّم لون بعضها كثيراً، على حين أن بعضها الآخر يفتح لونها تماماً، خذها.

استرد الأمير ورقته المالية. ونهض فردشتينكو عن كرسیه. وقال للأمير:

- جئت لأحذرك أولاً من إقراضي مالاً، لأنني سوف أطلب منك أن تقرضني، فإياك أن تلبي طلبی...
- سمعاً وطاعة.

- هل تنوي أن تدفع هنا أجراً؟

- نعم، أنوي ذلك.

- أما أنا فلا. شكراً. غرفتي إلى جانب غرفتك. هي الأولى على اليمين. هل رأيته؟ حاول ألا تجيء إليّ كثيراً. ولكن اطمئن: سأزورك أنا. هل رأيت الجنرال؟

- لا ...

- ولا سمعته؟

- ولا سمعته طبعاً!

- سوف تراه إذاً وسوف تسمعه. ثم إنه يطلب حتى مني أنا أن أقرضه بعض المال. هأنذا نبهتك. «تنبيه للقارئ!»... أستودعك الله. هل يستطيع المرء أن يحيا إذا كان يسمى فردشتينكو؟ هه؟

- لم لا؟

- أستودعك الله.

واتجه الزائر إلى الباب.

لقد علم الأمير، فيما بعد، أن هذا السيد قد أخذ على عاتقه أن يذهل الناس بمرحه وغرابته وشدوذه، ولكنه كان لا يفلح في ذلك كثيراً، حتى أن بعض الناس كانوا

يضيّقون به وينزعجون منه، فكان يتألم من ذلك صادقاً، ولكن دون أن يكف عن القيام بمهمته.

عند عتبة الباب، استطاع فردشتينكو أن يضفي على نفسه شيئاً من خطورة الشأن، حين اصطدم بقادم جديد: فإنه إذ تنحى أمام هذا الزائر الجديد الذي يجهله الأمير، ليفسح له مجال المرور، قد غمز بعينه عدة مرات مؤمناً إليه، فأتاح له ذلك أن يخرج محتفظاً بشيء من الثقة بالنفس.

القادم الجديد رجل طويل القامة؛ يبدو في الخامسة والخمسين من عمره أو يزيد؛ بدين بعض البدانة؛ وجهه محمر سمين مسطح قليلاً تحيط بعارضيه لحيتان كثيفتان شهبائيتان؛ له شاربان؛ عيناه واسعتان جاحظتان بعض الجحوظ. كان يمكن أن يكون لمنظره كله مهابة، لولا أن فيه شيئاً من سقوط واهتراء بل ومن اتساع. إنه يرتدي ردنجاتاً عتيقاً يكاد يكون مثقوباً عند الكوعين؛ وفي قميصه إهمال وبقع؛ ومن فمه تفوح رائحة فودكا خفيفة تشمها من قرب. ومع ذلك لا تعدم أوضاعه وحركاته أن تحدث في النفس بعض الأثر الحسن، رغم أنها محسوبة مدروسة، فهي تدل على رغبة واضحة عنده في أن يخطف البصر بوقاره.

اقترب الشخص من الأمير بغير تعجل، وهو يبتسم ابتسامة باشة هاشة، وتناول يده صامتاً، وظل ممسكاً بها يتأمل وجهه في انتباه كأنه يتعرف ملامح لا يجهلها.

ودمدم يقول برفق ولكن بوقار:

– إنه هو، هو. هو كما لو كان حياً. لقد سمعتهم ينطقون هذا الاسم المعروف العزيز، فاستيقظ في نفسي ماض كامل... أنت الأمير ميشكين؟

– نعم.

– أنا الجنرال إيفولجين، متقاعد بائس. هل يمكنني أن أسألك عن اسمك واسم أبيك؟

– ليون نيقولايفتش.

– نعم، نعم، هو بنفسه! أنت ابن صديقي، بل أستطيع أن أقول: إنك ابن صديق طفولتي، نيقولا بتروفتش.

– كان اسم أبي نيقولا لفوفتش.

- لفوفتش، نعم، لفوفتش...

كذلك صحّ الجنرال، ولكن دون تعجل، بل بثقة تامة، كأنه لم ينس قط، وإنما زل لسانه بغلطة.

وجلس، وأمسك الأمير بيده هو أيضاً، وأجلسه قربه.

- لقد حملتك بذراعي!

قال الأمير:

- أهذا ممكن؟ لقد انقضى على موت أبي عشرون عاماً.

- نعم، عشرون عاماً، عشرون عاماً وثلاثة أشهر. لقد كنا في المدرسة معاً، وما لبثت أن التحقت أنا بالسلك العسكري...

- أبي أيضاً خدم في الجيش، كان ملازماً ثانياً في لواء فاسيلكوفسكي^[27].

- بل في لواء بيلوميرسكي. لقد نقل إليّ لواء بيلوميرسكي عشية وفاته تقريباً. وكنت أنا هناك، وباركته إلى الأبد. وأمك...

هنا صمت الجنرال برهة قصيرة كأنما أوقفته عن الكلام ذكرى حزينة.

فقال الأمير:

- ماتت هي أيضاً بعد ستة أشهر، من إصابة ببرد.

- لا، لم تمت من إصابة ببرد، أبداً، صدّق كلام رجل عجوز. كنت أنا هناك. وقد شهدت جنازتها هي أيضاً. لقد ماتت من حزنها على فقد أبيك، لا من إصابتها ببرد. نعم، إنني أتذكرها هي أيضاً، الأمير! أه... يا لعهد الشباب! بسببها إنما أوشكنا، أنا والأمير، مع أننا صديقا طفولة، أوشكنا أن يقتل كل منا صاحبه.

أخذ الأمير يصغي إلى الجنرال بشيء من الشك والارتياب.

- كنت مولّها بحب أمك منذ أن كانت خطيبة، منذ أن كانت خطيبة صديقي. ولاحظ الأمير ذلك، فاضطرب اضطراباً شديداً، وجاءني ذات صباح في الساعة السابعة، فأيقظني من نومي. ارتديت ثيابي مذهولاً، وساد صمت... صمت منه وصمت مني!... أدركت كل شيء. أخرج أبوك من جيبه مسدسين. مبارزة من خلال منديل. دون شهود. فيم الشهود مادام كل منا سيرسل صاحبه إلى الآخرة بعد قليل. حشونا المسدسين.

نشرنا المنديل. اتخذنا مكانينا. أطبق كل منا بفوهة مسدسه على قلب صاحبه، وأخذ ينظر إليه محدقاً في عينيه. وفجأة انبجست الدموع من العينين، وارتجفت اليد: انبجست الدموع من عينيه وعيني في آن واحد، وارتجفت يده ويدي معا! ثم إذا كل منا يرتمي بين ذراعي صاحبه طبعاً، وإذا نحن نتبارى في الكرم، فالأمير يصرخ قائلاً: «هي لك»، وأنا أصرخ: «بل هي لك».. الخلاصة... الخلاصة... سوف تسكن معنا، أليس كذلك؟

قال الأمير مدمماً بشيء من السرعة:

- نعم، ربما بعض الوقت..

صاح كوليا يقول وقد ألقى نظرة من الباب:

- ترجوك ماما يا أمير أن تجيء إليها.

فهم الأمير أن ينهض، ولكن الجنرال وضع يده اليمنى على كتفه، وعاد يجلسه على الديوان بحركة صداقة؛ وقال له:

- لما كنت صديقاً وفيّاً لأبيك فإنني أحرص على أن أنبّهك: أنا كما ترى قد سقطت ضحية لظروف فاجعة، ولكن دون أن يصدر عليّ حكم. أن نينا ألكسندروفنا امرأة نادرة. وباربارا أرداليونوفنا، ابنتي، فتاة نادرة! والظروف تجبرنا على أن نؤجر غراً مفروشة، وهذا سقوط لا أعرف كيف أسميه... سقوط يصيبني أنا، أنا الذي كنت أوشك أن أعين حاكماً عاماً. وسنكون سعداء باستقبالك على كل حال. غير أن في بيتي مأساة!

ألقى عليه الأمير نظرة استفهام في كثير من الاستطلاع.

قال الجنرال إيفولجين:

- يُدبر هنا زواج، زواج نادر. زواج بين امرأة مشبوهة وشاب يمكن أن يصبح فتى مرموقاً في البلاط الإمبراطوري. يريدون أن يدخلوا تلك المرأة إلى بيتي، قرب ابنتي وزوجتي. ولكنني لن أدع لها أن تدخل إلى هذا البيت ما ظللت أتنفس! سوف أتمدّد على عتبة الباب، فلا تستطيع أن تدخل إلا إذا مرّت فوق جسدي. أصبحت لا أكلم جانبا، بل صرت أتخشى أن ألقاه. إنني أنبّهك إلى هذا عامداً، لأنك لا بد أن تلاحظه على كل حال، ما دمت ستقيم معنا. ولكنك ابن صديقي، ومن حقي أن أمل...

قالت نينا ألكسندروفنا منادية، وقد جاءت إلى الباب بنفسها هذه المرة:

- هلاً تفضلت يا أمير فأدركتني في الصالون.

هتف الجنرال يقول:

- تصوري يا عزيزتي. لقد اتضح أنني قد هدهدت الأمير بذارعي!

ألقت نينا ألكسندروفنا على الجنرال نظرة لوم، ثم ألقت على الأمير نظرة استفهام؛ لكنها لم تقل شيئاً. وتبعها الأمير. فما أن وصلا إلى الصالون وجلسا، وما أن أخذت نينا ألكسندروفنا تقول للأمير شيئاً بصوت خافت وعلى عجل، حتى دخل الجنرال نفسه إلى الصالون فجأة. فسرعان ما صمتت نينا ألكسندروفنا، وعكفت على حياكتها متضايقه تضاييقاً واضحاً، ولعل الجنرال قد لاحظ تضاييقها، لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار في إظهار مرح مزاجه. وهتف يقول مخاطباً نينا ألكسندروفنا:

- ابن صديقي! وعلى نحو لم أكن أتوقعه! لقد كففت حتى عن أن أحلم بهذا الأمر منذ مدة طويلة! ولكن من الممكن، يا عزيزتي، أنك أصبحت لا تتذكرين المرحوم نيقولا لفوفتش؟ إنك قد عرفتته مع ذلك... بمدينة تفير^[28]!

قالت نينا ألكسندروفنا:

- لا أتذكر نيقولا لفوفتش.

ثم التفتت إلى الأمير تسأله:

- أهو أبوك؟

قال الأمير:

- نعم، هو أبي.

ثم أضاف يقول للجنرال مصححاً على خجل:

- لكن يخيل إليّ أنه لم يمت بمدينة تفير، بل بمدينة إليزابتغراد. لقد قال لي بافلتشيف...

قال الجنرال مصرأً:

- بل مات بمدينة تفير. فقد نقل إلى تفير قبيل وفاته بقليل، بل حتى قبل أن يتطور مرضه ذلك التطور المشؤوم. كنت أنت صغيراً جداً في ذلك الوقت، فلا تستطيع أن تتذكر النقل ولا السفر. أما بافلتشيف فمن الجائز جداً أنه أخطأ، رغم أنه

كان رجلاً ممتازاً.

– هل عرفت بافلتشفيف أيضاً؟

– كان إنساناً نادر المثال. لكنني أنا كنت شاهد عيان، باركت أباك وهو على فراش الموت.

قال الأمير مرةً أخرى:

– لكن أبي مات متهماً، وإن كنت لم أستطع أن أعرف السبب في يوم من الأيام. لقد مات في المستشفى.

– أوه! السبب هو قضية الجندي كولباكوف، وليس هناك أي شك في أن أباك كان سيخرج من المحاكمة بريئاً.

سأله الأمير بشوق شديد واستطلاع قوي:

– صحيح؟ أنت متأكد؟

هتف الجنرال يقول:

– طبعاً طبعاً. لقد انقضت المحكمة دون أن تصدر حكماً. قضية مستحيلة! بل يمكن أن يقال: إنها قضية محفوفة بالسِر. مات قائد حاميتنا، النقيب لاريونوف، فكلف الأمير بأن يكون قائداً للحامية بالنيابة. وفي ذلك الحين ارتكب الجندي كولباكوف عمل سرقة، إذ سطا على أغراض لرفيق من رفاقه، ثم باع المسروقات وشرب بثمانها خمرة. طيب. هنا قرعه الأمير وهدده بالجلد، وذلك بحضور الرقيب والعريف. طيب. عاد كولباكوف إلى الثكنة، واستلقي على مضجعه، فما انقضى ربع ساعة حتى كان ميتاً. طيب. ولكن هذه الحالة لا يتوقعها أحد، وتكاد تكون مستحيلة. ودفن كولباكوف على كل حال. وكتب الأمير تقريراً بالواقعة، فشطب اسم كولباكوف من قائمة الجنود. هل هناك ما هو خير من هذا؟ ولكن ما أن انقضت على هذا الحادث ستة أشهر، بعد أن كان الجنود يُستعرضون كل يوم، حتى ظهر الجندي كولباكوف من جديد في السرية الثالثة من الكتيبة الثانية من فوج مدفعية نوفو زمليانسكي^[29]، وهو الفوج الذي ينتمي إلى ذلك اللواء نفسه وإلى تلك الفرقة نفسها!

هتف الأمير متعجباً وقد بلغ ذروة الدهشة:

– كيف هذا؟

فتدخلت نينا ألكسندروفنا فجأة فقالت وهي تنظر إلى الأمير نظرة حزن تقريباً:

- لا، ليس الأمر كذلك! هذا خطأ! «زوجي مخطئ».

- «مخطئ»؟ هذا تسرع في الحكم! اجهدي أن تحلي بنفسك سراً كهذا السر! لم يفهم أحد من الأمر شيئاً. لقد كان يمكن أن أكون أول القائلين: «هذا خطأ». ولكنني شهدت الأمر بعيني رأسي، وعُينت عضواً في اللجنة. فدلّت جميع المواجهات على أن الرجل هو ذلك الجندي نفسه كولباكوف الذي دُفن قبل ستة أشهر على النحو الذي توجبه الأنظمة العسكرية، من قرع الطبول وما إلى ذلك. أنا أسلم بأن هذه الحالة نادرة جداً، حتى لتكاد تكون مستحيلة، ولكن...

هنا دخلت باربارا آرداليونوفنا، فقالت تعلن لأبيها:

- غداؤك جاهز يا بابا.

- آ... عظيم... لقد أخذت أشعر بالجوع حقاً. ولكن يمكن أن يقال: أن هذه الحالة سيكولوجية...

قالت فانيا متململة:

- حساؤك سيبرد!

فجمجم الجنرال يقول وهو يترك الغرفة:

- حالا، حالا...

وسُمع يتم كلامه وهو في الدهليز: «وذلك رغم جميع التحريات!».

قالت نينا ألكسندروفنا للأمير:

- سيكون عليك أن تغض الطرف عن أمور كثيرة في آرداليون ألكسندروفتش إذا بقيت عندنا. ومع ذلك آمل أنه لن يزعجك كثيراً. إنه يتناول وجبات طعامه وحيداً. أظن أنك تسلم معي بأن لنا جميعاً عيوبنا و... خصالنا التي قد تكون غريبة شاذة، حتى أن لبعض الناس من هذه العيوب وهذه الخصال أكثر مما لأولئك الذين يشار إليهم بالأصبع. أريد أن أطلب منك هذا الطلب ملحة: إذا اتفق أن كلمك زوجي عن أجرة الغرفة فقل له: إنك دفعتها لي. إذا دفعت له مبلغاً فسيحسب طبعاً، ولكني أرجوك أن تقيد بهذه القاعدة التي ذكرتها لك. ماذا يا فاريا؟

كانت فاريا قد دخلت الغرفة، ومدت إلى أمها صورة ناستاسيا فيليبوفنا دون أن

تقول شيئاً. فارتعشت نينا ألكسندروفنا، ارتعشت أول الأمر بنوع من الرعب، ثم أخذت تنعم النظر في الصورة لبعض الوقت وقد ظهر على وجهها شيء من مرارة. وأخيراً ألقت على فاريا نظرة استفهام فقالت فاريا:

– هذه هدية أرسلتها إليه اليوم. وسيتقرر كل شيء في هذا المساء.

قالت نينا ألكسندروفنا مكررةً جملةً ابنتها بصوت خافت ولهجة بائسة:

– هذا المساء! إذاً لم يبق مجال لأي شك، ولا محل لأي رجاء.

إنها بإهداء هذه الصورة إليه قد أعلنت كل شيء. ولكن أهو الذي أراك الصورة؟

أضافت نينا ألكسندروفنا هذه الجملة الأخيرة مدهوشة.

أجابت الفتاة:

– تعلمين أننا أصبحنا منذ شهر لا نكاد نتخاطب. أن بتتسين هو الذي روى لي كل شيء. أما الصورة فقد رأيتها ملقاة على الأرض قرب المائدة فلممتها.

قالت نينا ألكسندروفنا للأمير وهي تلتفت إليه فجأة:

– كنت أريد أن أسألك يا أمير... والحق أنني من أجل هذا إنما رجوتك أن تأتي إلى هنا... كنت أريد أن أسألك: أنت تعرف ابني منذ مدة طويلة؟ يخيل إلي أنه قال: إنك اليوم وصلت من مكان ما، أليس كذلك؟

قدم الأمير شروحات موجزة، مسقطاً أكثر من نصف الوقائع، فكانت نينا ألكسندروفنا وفاريا تصغيان إليه بانتباه.

قالت نينا ألكسندروفنا:

– أنا لا أحاول أن أعرف شيئاً عن جبريل آرداليونتش حين ألقى عليك هذه الأسئلة. فما ينبغي أن تخطئ الظن في هذا المجال. وإذا كان هناك ما لا يريد ابني أن يعترف لي به من تلقاء نفسه، فإنني لا أحرص على أن أعرفه من غيره. وإذا كنت أكلّمك في هذا الموضوع فلأنه قال منذ قليل، بحضورك، ثم قال بعد انصرافك: «إنه مطلع على كل شيء، فلا داعي إلى التكلف والتصنع!». فما معني هذا؟ أي... أود لو أعرف مدى...

في تلك اللحظات دخل جانبا وبتتسين. وسرعان ما صممت نينا ألكسندروفنا. وظل الأمير جالساً إلى جانبها، بينما ابتعدت فاريا قليلاً. وكانت صورة ناستاسيا ما تزال ظاهرة على منضدة نينا ألكسندروفنا، أمامها تماماً. فلما لمح جانبا الصورة قطب

حاجبيه، واكفهرّ وجهه، وتناولها غاضباً، فرماها على مكتبه الذي يوجد في أقصى الغرفة.

سألته نينا ألكسندروفنا فجأة:

– هل في هذا اليوم يا جانيا؟

– ماذا في هذا اليوم؟

بهذا أجاب جانيا منتفضاً. ثم هجم على الأمير فجأة يقول:

– آ... فهمت... عدتْ تثرثر! أهذا مرض فيك يا صاحب السمو...

قاطعه بتتسين يقول:

– أنا المذنب يا جانيا، أنا وحدي من دون غيري.

فالقي عليه جانيا نظرة استفهام. فجمجم بتتسين يقول:

– هذا أفضل يا جانيا، لا سيما وأن القضية قد سوّيت، بمعنى من المعاني.

قال هذا ثم ابتعد، وجلس قرب المائدة، وأخرج من جيبه ورقة ملأى كتابةً بالقلم الرصاص، وأخذ ينظر فيها.

ظل جانيا واقفاً، مكفهرّ الهيئة مربدّ الوجه، ينتظر انفجار مشكلة عائلية، بكثير من القلق. حتى إنه لم يخطر بباله أن يعتذر للأمير.

قالت نينا ألكسندروفنا:

– ما دام كل شيء قد سوّي، فإن إيفان بتروفتش على حق طبعاً. أرجوك أن لا تقطّب يا جانيا وألا تهتاج. لن أسألك عمّا لا تريد أن تقوله له من تلقاء نفسك، وأؤكد لك أنني مدعنة كل الإذعان. فلا تقلق.

قالت ذلك من دون أن تترك حياكتها. قالت بهدوء ظاهر. فدهش جانيا، لكنه صمت حذراً متروياً، وأخذ ينظر إلى أمه منتظراً أن تفصح بمزيد من الوضوح. أن المشاجرات العائلية قد أزعجته حتى الآن كثيراً، وكلفته ثمناً غالياً. ولاحظت نينا ألكسندروفنا هذا الحذر وهذا التروي من جانبه، فأضافت تقول وهي تبسم ابتسامة مرة:

– ما زلت تشك، فلا تصدقني. اهدأ بالاً. لن ترى دموعاً ولا ضراعات، مني على الأقل. أن رغبتى الوحيدة هي أن تكون سعيداً. أنت تعرف ذلك جيداً. إنني مدعنة

القدري، لكن قلبي سيظل معك دائماً، سواء أبقينا معاً أم افترقنا. وأنا مسؤولة عن نفسي وحدها فأتحدث بلساني وحده؛ أما أختك فلا تستطيع أن تطالبها بمثل هذا. هتف جانينا يقول راشقاً أخته بنظرة سخر وكره:

- آه... هي أيضاً! أماه: إنني أكرر على مسامعك اليمين التي سبق أن حلفتها لك: ما دمت حياً فلن يجرؤ أحد في يوم من الأيام أن ينتقص من احترامك. أياً كان الشخص المقصود، أية كانت الإنسانية التي ستجتاز عتبة بابنا، فإنني سأعرف كيف أفرض عليها توقيراً كاملاً وكيف ألزمها باحترام مطلق.

لقد بلغ جانينا غاية السرور والحبور. كان ينظر إلى أمه بهيئة تعبر عن المصالحة، وتكاد تزخر رقة وحناناً.

- ما كنت أخشى عليك من شيء يا جانينا، فأنت تعرف ذلك حق المعرفة. وما من أجل نفسي قلق وتعبت طوال هذه المدة. يقال: أن كل شيء سيسوى بينكم هذا المساء؟ فما الذي سيسوى؟

أجاب جانينا:

- لقد وعدت بأنها ستعلن رأيها هذا المساء في بيتها. فيما أن توافق وإما أن ترفض.

- لقد تحاشينا أن نتكلم في هذا الأمر منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع، وحسنا فعلنا. أما الآن وقد تقرر كل شيء، فإنني لا أجد بداً من أن ألقى عليك هذا السؤال: كيف أمكنها أن تعلن لك موافقتها بل وأن تهدي إليك صورتها بينما أنت لا تحبها؟ هل يمكن لامرأة لها مثل هذه... هذه ال...-

- هذه التجربة أو الخبرة...-

- ليس هذا ما كنت أريد أن أقوله. هل يمكن أن تكون قد استطعت أنت أن تخذعها إلى هذا الحد؟

إن سخطاً شديداً وحنقاً رهيباً قد داخلا هذا السؤال بغتةً. فظل جانينا صامتاً، وفكر لحظة، ثم أجاب دون أن يحاول إخفاء سخريته:

- ها قد انقذت للاندفاع والاهتياج من جديد يا ماما! إنك لم تستطيعي حتى الآن أن تسيطر على نفسك وتتحكمي بمشاعرك؛ وعلى هذا النحو إنما كانت تبدأ الأمور عندنا دائماً، فتشب النار في البارود. لقد قلت: إنك لن تلقي لا أسئلة ولا ملامات، وها هي ذي الأسئلة واللامات تُستأنف! لنُدع هذا الأمر، فذلك خير وأبقى... أؤكد لك!

حسبك أنك أظهرت حسن النية وطيب الإرادة. لن أتركك في يوم من الأيام، بأي حال من الأحوال! غيري كان يفرّ من أخت كهذه الأخت. انظري كيف تحدجني ببصرها! حسبنا هذا! لقد كنت مبتهجاً أشد الابتهاج... ولكن كيف عرفت أنني أحاول خداع ناستاسيا فيليبوفنا؟ أما فاريا، فلتفعل ما تشاء. وكفانا هذا الآن!

كان جانيا يزداد حرارة وحماسة عند كل كلمة جديدة، وكان يسير في الغرفة بلا هدف. أن أمثال هذه المحادثات سرعان ما تصبح هي النقطة الحساسة لدى جميع أفراد الأسرة.

قالت فاريا:

– قلت: إنني سأترك هذا البيت متى دخلت هي، هذا عهد أقطعه على نفسي ولن أخلفه.

هاتف جانيا يجيبها:

– عناداً! وعناداً إنما ترفضين زواجك أيضاً. لماذا تلوين شفتيك على هذا النحو احتقاراً واشمئزازاً؟ لست أعبأ بشيء يا باربارا أرداليونوفنا... في وسعك أن تنفذي مشروعاتك منذ الآن إذا شئت. لقد بدأت أسأم منك وأضيق بك!

وإذ لاحظ جانيا أن الأمير ينهض صاح يقول له:

– كيف تقرر أخيراً أن تتركنا يا أمير؟

كانت تداخل صوت جانيا عندئذ تلك الدرجة من اللاهتياج التي يكاد يكون الإنسان فيها مسروراً من غضبه، فهو ينقاد له بدون أي تحفظ، بل يسترسل فيه بتلذذ متزايد، وليكن ما يكون!

وكان الأمير قد التفت ليردّ عليه، لكنه إذا أدرك في تعبير وجهه المتشنج أنه لم يبق ثمة إلا القطرة التي يطفح بها الكيل، أشاح وجهه وخرج دون أن يقول كلمة واحدة. وفهم بعد لحظات، من الأصداء التي كانت تصل إليه من الصالون، أن الحديث قد أصبح منذ انصرافه أشد صخباً وأكثر انفلاتاً.

اجتاز القاعة الكبيرة حتى حجرة المدخل ليصل إلى الدهليز فألى غرفته. فلما بلغ الباب المفضي إلى فسحة السلم سمع أحداً وراء الباب يحاول أن يشدّ حبل الجرس. ولكن الجرس كان معطلاً فيما يظهر، فهو لا يزيد على أن يتحرك تحركاً ضعيفاً دون أن يُسمع له أي صوت. فسحب الأمير المزلاج، وفتح الباب، فإذا هو يتقهقر مذهولاً مرتعشاً

بجسمه كله: كانت ناستاسيا فيليبوفنا واقفة أمامه، وسرعان ما عرفها من صورتها. فلما لمحتة ناستاسيا ومضت عيناها بمعنى الضيق والانزعاج، وأسرعت تلج حجرة المدخل، فتصدم الأمير بكتفها عند دخولها، وتقول له بلهجة حانقة هي تنضو عنها معطفها:

- إذا كنت من الكسل بحيث لا تحمل نفسك عناء إصلاح الجرس، فلا أقل من أن توجد في حجرة المدخل حين يقرع الباب قارع! ها هو ذا يسقط معطفي، مذهولاً!

كان المعطف قد رقد على الأرض فعلاً. ولم تنتظر ناستاسيا فيليبوفنا أن يساعدها الأمير في خلع المعطف، فرمته على ذراعيه بحركة من كتفها دون أن تنظر إليه، ولم يتسع وقت الأمير لأن يتلقاه.

- كان عليهم أن يطردوك من الخدمة. أبلغهم وصولي.

أراد الأمير أن يقول شيئاً، لكنه كان قد بلغ من الاضطراب أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة؛ وها هو ذا يتجه نحو الصالون وعلى ذراعه المعطف الذي رفعه من الأرض.

- الآن يأخذ معطفي! ما بالك تأخذ المعطف؟ ها ها ها! قل لي: ألسنت مجنوناً بعض الشيء؟

قفل الأمير راجعاً، وحدّق إليها كالمتجمد. فلما ضحكت ابتسم هو أيضاً، ولكنه ما يزال عاجزاً عن تحريك لسانه بكلمة. في اللحظة الأولى، حين فتح لها الباب، اصفرّ لونه. أما الآن فإن الدم يزدحم في وجهه.

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا ممتعة وهي تقرع الأرض بقدمها:

- ما هذا الأبله؟ إلى أين تذهب هكذا؟ ستبلغ عن وصول من؟

تمتم الأمير:

- عن وصول ناستاسيا فيليبوفنا. فسألته بقوة:

- كيف تعرفني؟ أنا لم أرك يوماً! هياً أبلغ عن وصولي... ما هذه الصرخات؟

أجاب الأمير وهو يتجه نحو الصالون:

- يتشاجرون.

ودخل عليهم الأمير في لحظة حاسمة: كانت نينا ألكسندروفنا متأهبة لأن تنسى نسياناً كاملاً أنها «مذعنة لكل شيء». كانت تدافع عن فاريا. وإلى جانب فاريا يقف بتتسين الذي كان قد ترك ورقته المطروسة كتابة. أما فاريا فلم يكن يبدو عليها كثيراً أنها فقدت سيطرتها على نفسها. ليست هذه الأنسة من النوع الخواف. ومع ذلك كانت فظاظات أخيها تصبح في كل كلمة أشد غلظة وأثقل وطأة، فهي لا تطاق. ولقد اعتادت الفتاة في مثل هذه الأحوال أن تكف عن المناقشة، فهي لا تزيد على أن تنظر إلى أخيها صامتة معبرة بوجهها عن السخرية، دون أن تحوّل بصرها عنه لحظة واحدة. إنها تعرف هذا التكتيك، وهي قادرة على أن تمضي فيه إلى أقصى حدوده.

في تلك اللحظة بعينها إنما دخل الأمير إلى الغرفة معلناً:

– ناستاسيا فيليبوفنا هنا!

الفصل التاسع

خيّم صمت شامل. نظر الجميع إلى الأمير كأنهم لا يفهمون، ولا يريدون أن يفهموا. تجمّد جانيا رعباً.

إن زيارة ناستاسيا فيليبوفنا، ولا سيما في مثل هذه اللحظة، هي في نظر كل واحد منهم أدعى حدث إلى الدهشة والعجب، وأبعث حدث على الحيرة والارتباك، على الأقل لأن ناستاسيا فيليبوفنا تجيء أول مرة. لقد ظلت حتى الآن متكبرة متعالية، فلم تعرب في أحاديثها مع جانيا عن أية رغبة في معرفة أسرته، بل لقد أصبحت لا تجيء على ذكرها كأنما لا وجود لها. ورغم أن جانيا قد سرّه بمعنى من المعاني إرجاء مثل هذا الحديث الذي يزعجه ويحرجه كثيراً، فإنه في قرارة نفسه قد حقد على ناستاسيا وحمل لها ضغينة. ولقد كان على كل حال يتوقع منها وخزات وسخریات في حق أهله أكثر مما كان يتوقع منها زيارة. كان يعلم علم اليقين أنها مطلعة على كل ما كان يجري في بيته بخصوص خطوبته لها، وعلى كل ما كان يراه ذووه من رأي فيها. فقيامها بهذه الزيارة «الآن»، بعد إهداء الصورة، في يوم عيد ميلادها، في اليوم الذي سبق أن وعدت بأنها ستقرر فيه مصيرها، إن قيامها بهذه الزيارة الآن يشير إلى قرارها ويدل عليه.

لم تطل البلبلة التي أحدثها دخول الأمير: فما هي ذي ناستاسيا فيليبوفنا بشخصها تظهر في إطار الباب، ثم تدخل الغرفة فتصدم الأمير مرة أخرى صدمة خفيفة.

– أخيراً ظفرت بأن أدخل... لماذا تربطون جرسكم؟

كذلك قالت ناستاسيا فيليبوفنا مرحةً وهي تمد يدها إلى جانيا الذي صار إلى جانبها بوثة واحدة.

وأردفت تسأله:

– ما لي أرى وجهك منقلباً؟ قدّمني إلى الحضور من فضلك.

كان جانيا قد فقد كل سيطرة له على نفسه، فقدّمها إلى أخته فاريا، فتبادلت المرأتان نظرة غريبة قبل أن تمد كل منهما يدها إلى الأخرى. كانت ناستاسيا

فيليبوفنا تضحك وتختبئ وراء قناع من المرح المصطنع، أما فاريا فلم تحاول أن تخفي شيئاً، فنظرتها ظلت مظلمة ثابتة ولم يظهر في وجهها حتى طيف ابتسامة مما توجبه أبسط مبادئ الأدب والتهذيب. فاغتاز جانبا من ذلك حتى كادت تنقطع أنفاسه. ولكن أوان ردها إلى الصواب قد فات؛ لذلك اقتصر على أن رشقها بنظرة تبلغ من امتلائها بالتهديد والوعيد أنها قرأت فيها عنفاً شديداً فأدركت قيمة هذه اللحظة عند أخيها، فبدأ عليها أنها أرادت أن تتساهل فاصطنعت لناستاسيا فيليبوفنا ما يشبه أن يكون ابتسامة (ما يزال أهل هذا البيت يسرفون في حب بعضهم بعضاً).

وجاء دور نينا ألكسندروفنا فأصلحت الحال بعض الإصلاح، رغم أن جانبا، من فرط اضطرابه طبعاً، قد قدّم ناستاسيا فيليبوفنا إليها بعد تقديمها إلى أخته، ثم زاد على ذلك فذكر اسم أمه قبل أن يذكر اسم ناستاسيا.

ولكن ما أن بدأت نينا ألكسندروفنا كلامها فقالت: «يسرني جداً أن...» حتى التفتت ناستاسيا فيليبوفنا نحو جانبا بحركة سريعة دون أن تدع للألم أن تكمل جملتها، وصرخت تقول له بعد أن استقرت على كنبه صغيرة قرب النافذة، دون أن تدعى إلى الجلوس:

– أين حجرة مكتبك؟ و... أين السكان الذي يستأجرون عندكم غرفاً مع الطعام والخدمة؟ عندكم مستأجرون، أليس كذلك؟

احمرّ وجه جانبا احمراراً رهيباً، وهم أن يثأثئ بجواب؛ لكن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد تابعت كلامها تقول:

– أين يمكنكم أن تُسكنوا مستأجرين؟ ليس لك حتى حجرة مكتب!

ثم التفتت فجأة نحو نينا ألكسندروفنا فقالت لها:

– هل التأجير يدر ربحاً على الأقل؟

حاولت نينا ألكسندروفنا أن تجيب فقالت:

– التأجير يورث متاعب كثيرة. وكان ينبغي أن يدر ربحاً بطبيعة الحال، غير أن...

ولكن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد انقطعت عن الإصغاء إليها، لأنها التفتت إلى جانبا وصاحت تقول له:

– ما لي أرى وجهك منقلباً هذا الانقلاب! رباه! ما هذا الوجه الذي له الآن؟

كان وجه جانبا قد تشوه فعلاً بعد بضع لحظات من ذلك الضحك. لقد بارحه فجأة ما أحسه في أول الأمر من ذهول، وما بدا على وجهه في أول الأمر من شدة مضحك مبعثه الخوف. أن شفتيه الآن منعقتان متشنجتان، وقد أخذ يُحدّق بنظرة ثابتة خبيثة شريرة، دون أن ينطق بكلمة واحدة، ودون أن يحولّ بصره لحظة واحدة، أخذ يحدّق إلى وجه هذه الزائرة التي ما تزال تضحك.

غير أن ملاحظاً آخر كان موجوداً هناك، ملاحظاً لم يكن هو أيضاً قد استطاع أن يتحرر من حالة البكم التي أغرقته فيها رؤية ناستاسيا فيليبوفنا. لكنه رغم أنه بقي مغروساً في مكانه من إطار الباب كأنه «وتد»، قد استطاع أن يلاحظ اصفرار جانبا وأن يرى ما طراً على وجهه من تغير ينذر بشر. إن ذلك الملاحظ هو الأمير. وها هو ذا يتقدم إلى الأمام خطوة على غير إرادة منه، حتى لكأنه آلة، وكان مروّعاً بعض الورع، وقال لجانبا:

– اشرب قليلاً من ماء، واكفف عن النظر هكذا...

كان واضحاً أنه قال ذلك كله من دون أي حساب، بل ومن دون أية نية خاصة، وإنما هو انقاد لاندفاعة أولى. لكن أقواله هذه كان لها أثر خارق، فكان كل ما كان يعتمل في نفس جانبا من حنق وغيظ وسخط قد انصب على الأمير دفعة واحدة، فها هو ذا يمسكه من كتفه، ويحدّق إليه بنظرة فيها انتقام وحقد وكره، صامتاً كأنه عاجز عن أن ينطق بكلمة. فسرى في الجمع كله انفعال شامل، حتى أن نينا ألكسندروفنا أطلقت صرخة صغيرة. وقلق بتتسين فتقدم خطوة إلى أمام. وكان كوليا وفردشتينكو قد ظهرا في الباب فوقاً مذهولين مشدوهين؛ وظلت فاريا وحدها خافضة رأسها، ولكنها تراقب الأحداث بانتباه. كانت قد لبثت واقفة إلى جانب أمها، عاقدة ذراعيها على صدرها. لكن جانبا لم يلبث أن عاد إلى صوابه تقريباً، فأطلق ضحكة عصبية، ثم استرد وعيه كاملاً، وصاح يقول بصوت حاول أن يجعله مرحاً طبيعياً:

– ماذا دهاك يا أمير؟ أتراك طبيباً؟ لقد كدت تخيفني.

والتفت إلى ناستاسيا فيليبوفنا، وأضاف يقول:

– ناستاسيا فيليبوفنا، اسمحي لي أن أقدمه... هو من أئتمن الناس، وإن كنت لا أعرفه أنا نفسي إلا منذ هذا الصباح...

نظرت ناستاسيا فيليبوفنا إلى الأمير محتارة. وقالت:

- أمير؟ أهو أمير؟ تصوروا أنني منذ قليل، حين رأيته في حجرة المدخل، قد ظننته خادماً، فأرسلته إلى هنا ليبلغ عن وصولي! ها ها ها!..

قال فردشتينكو وقد اقترب مسرعاً، مبتهجاً بأن الضحك قد استؤنف:

- لا بأس! لا بأس! حصل خير على كل حال...

- كدتُ أسيء معاملتك يا أمير، فاغفر لي، أرجوك!.. فردشتينكو، ماذا تفعل هنا في مثل هذه الساعة؟ كنت آمل على الأقل ألا أصادفك أنت هنا..

قالت ناستاسيا فيليبوفنا ذلك، ثم سألت جانيا ثانية، وهو ما يزال ممسكاً كتف الأمير يقدمه إليها ويعرفها به:

- ماذا تقول؟ أي أمير؟ ميشكين؟

فقال جانيا:

- هو مستأجر عندنا.

واضح أن الأمير قد قُدم على أنه شخص طريف نادر (جاء في الوقت المناسب جداً ليخرجهم من وضع خطأ)، حتى لقد كاد يُدفع نحو ناستاسيا فيليبوفنا دفْعاً؛ بل أن الأمير سمع كلمة «أبله» سمعاً واضحاً يدمدم بها أحدهم وراءه على سبيل الشرح والتفسير، ولعل قائلها هو فردشتينكو.

تابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها وهي تفحص الأمير من قمة الرأس إلى أخمص القدمين بدون تحرج:

- قل لي: لماذا لم تصح لي خطئي منذ قليل، حين ارتكبت في حقك... تلك الغلطة الرهيبة؟

كان يبدو على ناستاسيا توق شديد إلى سماع جوابه، لاقتناعها سلفاً بأن هذا الجواب سيبلغ من الحماقة أنها لن تستطيع إلا أن تضحك منه.

تمتم الأمير يقول:

- لقد دهشت من رؤيتك فجأة أمامي...

- وكيف عرفت أنني أنا؟ أين التقيت بي قبل اليوم؟ عجيب... يخيل إليّ حقاً أنني سبق أن رأيته في مكان ما!... واسمح لي أن أسألك أيضاً لماذا جمدت في مكانك لا

تتحرك... ماذا وجدت فيّ من شيء يبلغ هذا المبلغ من... الفتنة؟

قال فردشتينكو مجعداً وجهه:

- هيا... أجب... لماذا لا تجيب؟ أه... حين أفكر فيما كان يمكن أن أجيب به علي مثل هذا السؤال لو كنت في مكانك!.. طيب يا أمير... ما أنت في الحقيقة إلا عبيط!...

قال الأمير لفردشتينكو ضاحكاً كذلك:

- ولكن أنا أيضاً كان يمكنني أن أقول أشياء كثيرة لو كنت في مكانك.

ثم تابع كلامه مخاطباً ناستاسيا فيليبوفنا:

- في هذا الصباح خطفت صورتك بصري. وبعد ذلك تحدثت عنك مع آل إيبانتشين، و... في ساعة مبكرة من هذا الصباح، حين كنت بالقطار، حتى قبل وصولي إلى بطرسبرج، حدثني عنك بارفيون روجويين كثيراً. وفي اللحظة التي فتحت لك فيها الباب، في تلك اللحظة نفسها كنت بخاطري، فإذا أنا أراك أمامي.

- ولكن كيف عرفت أنني أنا؟

- عرفت ذلك من رؤيتي للصورة، و...

- وماذا؟

- ولأنني إنما كنت أتخيلك هكذا؛ وأيضاً لأنني كنت كمن سبق أن راك في مكان ما.

- ولكن أين؟ أين؟

- يخيل إليّ أنني سابق أن رأيت عينيك... ولكن هذا مستحيل!... لم يكن ذلك إلا... أنا لم أعش هنا قط. لعل ذلك حدث في حلم أثناء النوم...

هتف فردشتينكو قائلاً:

- مرحى أمير! لا، لا، إنني أسحب جملتي التي قالتها... أسحبها!... أحسنت...

ثم أضاف:

- رغم أن هذا كله إنما هو في الحقيقة سذاجة وبراءة من جانبه!

كان الأمير قد نطق تلك العبارات القليلة بصوت مختلج متقطع مشوّه، حتى لقد كان يتوقف عن الكلام في كثير من الأحيان ليسترد أنفاسه. كان كل شيء فيه يدل على انفعال شديد. وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تتأمل به باستطلاع قوي، لكنها كفت عن الضحك.

وفي تلك اللحظة نفسها جلجل صوت قادم جديد من وراء الجمهور الكثيف الذي كان يحتشد حول الأمير وناستاسيا فيليبوفنا، فشطّر الجمهور شطرين أن صح التعبير. إنه رب الأسرة، الجنرال إيفولجين بشخصه، يقف الآن أمام ناستاسيا فيليبوفنا. كان يرتدي بدلة «فراك» تحتها قميص نظيف، وكان شارباه مدهنين مطيّبين.

كان هذا فوق ما يستطيع جانيا أن يطيق وأن يحتمل.

أن جانيا شاب مغرور مفتون بالظهور ممتلئ حبا لنفسه إلى درجة الهوس. وقد عمد خلال هذين الشهرين الأخيرين إلى جميع الوسائل ليضفي على شخصه شأنًا خطيراً وليحلها منزلة هامة. وإذ شعر أنه ما يزال مبتدئاً في الطريق الذي رسمه لنفسه، وإذ كان غير واثق من قدرته على المضي إلى آخر الشوط، فقد قرر مستميتاً أن يتصف سلوكه في بيته بأكبر الوقاحة، فكان في بيته طاغية مستبدًا، ولكنه لا يجروء أن يفعل هذا أمام ناستاسيا فيليبوفنا التي تركته في بحران الشك إلى آخر دقيقة، وكانت تسيطر عليه بلا رحمة، حتى لقد خلعت عليه لقب «الشحاذ النافذ الصبر»، وهو لقب نقل إليه أنها وصفته به، فألى على نفسه لجعلها تدفع ثمن ذلك في المستقبل غالياً، مع احتفاظه بذلك الأمل الصبياني وهو أن يحل كل المشكلات وأن يصالح جميع المتناقضات.

وهو الآن ما يزال مضطراً أن يشرب هذه الكأس المرة حتى الثمالة؛ والأنكى من ذلك أن عليه في مثل هذه اللحظة أن يتحمل تعذيباً يُعدّ أقسى أنواع التعذيب عند إنسان مغرور، ألا وهو أن يحمرّ خجلاً ومذلة أمام أهله في بيته. فسرعان ما خطر بباله هذا الخاطر: «هل يستحق الثواب كل هذا العذاب في آخر حساب؟».

إن ما يحدث الآن أمام عينيه لم يكن قد تخيله أثناء هذين الشهرين الأخيرين إلا ليلاً، وكان ذلك كابوساً يجمّده رعباً ويحرقه خجلاً! أن اللقاء في داخل أسرته بين أبيه وناستاسيا فيليبوفنا يتم الآن أخيراً. لقد كان يحاول في بعض الأحيان، ليزعج نفسه، ويعذب نفسه، أن يتخيل الجنرال أثناء حفلة العرس، ولكنه لم يستطع في يوم من الأيام أن يكمل رسم هذه اللوحة الأليمة، فسرعان ما كان يتركها. لعله كان يبالغ في تضخيم هذه البلية تضخيماً كبيراً، ولكن هذا ما يحدث دائماً للأشخاص المغرورين. لقد

اتسع وقته خلال هذين الشهرين لأن يفكر ولأن يتخذ قراراً؛ وآلى على نفسه ليردّن أباه إلى الصواب مهما كلف الأمر، ولو إلى حين، حتى لقد يبعده عن بطرسبرج إذا اقتضت الحال ذلك، سواء أوافقت أمه أم رفضت. وهو قبل هذه اللحظة بدقيقتين، أي عندما دخلت ناستاسيا فيليبوفنا، قد بلغ من البهت والشدّة أنه نسي نسياناً تاماً احتمال ظهور آرداليون ألكسندروفتش، فلم يحتط للأمر أي احتياط، ولم يتخذ أي تدابير! وها هو ذا الجنرال يظهر الآن أمام جميع الناس؛ وأكثر من ذلك، أنه يجيء كالمتهيئ لاحتفال فخم، فهو يرتدي بدلة «فراك»، وذلك كله في اللحظة التي لا تحاول فيها ناستاسيا فيليبوفنا إلا أن «تتحين فرصة للاستهزاء به والتهكم على أسرته» (كان هو من هذا على يقين تام). وإلا فما عسى أن يكون مغزى زيارتها؟ أ جاءت تلتمس صداقة أمه وأخته، أم جاءت لتهينهما في عقر دارهما؟

ثم أن الشك ينتفي انتفاء تاماً متى رأى المرء موقف كل من المعسكرين. فأما أمه وأخته فقد جلستا متنحيتين كمن أدركهما إذلال، وأما ناستاسيا فيليبوفنا فقد كان يبدو عليها أنها نسيت حتى وجودهما في الغرفة!... ولئن استمرت في اتخاذ هذا الموقف، فإن ذلك يدل حتماً على أنها تخفي فكرة وتبيت نية!

استولى فردشتينكو على الجنرال ليقدمه فقال الجنرال وهو ينحني بوقار ويبتسم برصانة:

— آرداليون ألكسندروفتش إيفولجين. جندي قديم جار عليه الدهر، أب لأسرة يسعدها أن تأمل أن تدخل في عداها سيدة تبلغ هذا المبلغ من الروعة..

ولم يكمل كلامه. فإن فردشتينكو قد أسرع يدس تحته كرسيًا؛ وإذ أن الجنرال يكون ضعيفا على ساقيه بعد وجبات الطعام في العادة، فقد تهالك على الكرسي، بل قل: نه انهار على الكرسي انهياراً، ولكن دون أن يشعر من ذلك بأي اضطراب أو خجل. جلس أمام ناستاسيا فيليبوفنا تماماً، وتناول يدها، ثم حمل أصابعها إلى شفثيه بحركة بطيئة مدروسة مع اصطناع هيئة اللطف والبشاشة والتودد. كان الجنرال، بوجه عام، يصعب إحراجه أو إرباكه أو بلبلته. وليس يخلو مظهره الخارجي، إذا استثنينا شيئاً من الإهمال في ملبسه، ليس يخلو من مهابة، وكان هو لا يجهل ذلك. حتى لقد استقبل في الماضي في أرقى مجتمع، ثم لم يطرد من المجتمع الراقي طرداً نهائياً إلا منذ سنتين أو ثلاث سنين. ومنذ ذلك الحين إنما أخذ ينقاد لبعض مواطن الضعف فيه بدون تحفظ. ولكنه حافظ على شيء من الطلاقة والجاذبية.

بدا على ناستاسيا فيليبوفنا سرور عظيم بظهور آرداليون ألكسندروفتش الذي كان

واضحاً أنها سبق أن سمعت عنه.

وأراد آرداليون أن يتكلم فقال:

- علمت أن ابني...

- آ... نعم... ابنك!... أنت أيضاً ظريف لطيف! لماذا لا تجيء إليّ أبداً؟ أنت الذي تختبئ أم أن ابنك هو الذي يخبئك؟ أنت على الأقل تستطيع أن تزورني دون أن تعرّض سمعة أحد لخطر...

استأنف الجنرال الكلام فقال:

- أبناء القرن التاسع عشر وآباؤهم...

وصاحت نينا ألكسندروفنا تقول بصوت عال:

- ناستاسيا فيليبوفنا، تفضلي فاسمحي لآرداليون ألكسندروفتش بالانصراف لحظة، فأنهم يطلبونه...

- أسمح له؟ أرجوك... لقد سمعت عنه كثيراً فأنا أرغب في معرفته منذ مدة طويلة! ما هي الأعمال التي تناديه؟ أليس محالاً على التقاعد؟ لن تتركني يا جنرال، لن تنصرف، أليس كذلك؟

- أتعهد لك بأن يزورك شخصياً، أما الآن فهو في حاجة إلى شيء من الراحة.

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تسأله وهي تلوي شفتها استياء كطفلة مغناج انتزعت منها لعبتها:

- آرداليون ألكسندروفتش، يزعمون أنك في حاجة إلى راحة...

فأسرع الجنرال يتكفل بجعل وضعه أدعى إلى الإضحاك أيضاً، إذ قال يخاطب زوجته بلهجة متفخمة ونبرة لائمة، وهو يحمل إحدى يديه إلى موضع القلب من صدره:

- عزيزتي، عزيزتي...

فسألت فاريا أمها بصوت عالي:

- ألا تريدان أن تخرجي يا ماما؟

فأجابتها أمها:

– لا يا فاريا، سألني إلى النهاية!

لا يمكن إلا أن تكون ناستاسيا فيليبوفنا قد سمعت السؤال والجواب، ولكن مرحها لم يزد من ذلك إلا شدة وقوة. وأخذت تمطر الجنرال بالأسئلة، فما انقضت خمس دقائق حتى كان الجنرال يفيض في الهذر وسط ضحكات الحفل كله.

شدّ كوليا حافة سترة الأمير، وقال له:

– أنت على الأقل، أخرجه إلى مكان ما! ألا تستطيع أن تفعل ذلك؟ أرجوك...

وكانت تلمع في عيني الصبي المسكين دموع استياء. وأضاف الصبي يقول بينه وبين نفسه:

– لعنك الله يا جانيا!

استرسل الجنرال في الإجابة عن أسئلة ناستاسيا فيليبوفنا، فقال:

– نعم، كنت صديقاً حميماً لإيفان فيدروفتش إيبانتشين في الواقع. فأنا وهو والمرحوم الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين الذي أتيح لي اليوم أن أفرح بضمّ ابنه إلى صدري بعد فراق عشرين عاماً، كنا لا نفترق، كنا أشبه بالفرسان الثلاثة: آثوس، وبورثوس، وأراميس. ولكن... واحزنناه!... واحد منا هو الآن في القبر، مضى ضحية النميمة ورصاصة لثيمة؛ والثاني يمثل أمامك وما يزال يصارع النائم والرصاصات...

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تسأله متعجبة:

– الرصاصات؟

– هي هنا، في صدري، أصابتني أثناء حصار كارس^[30]، وما زلت أحسّها حين يسوء الجو. ثم إنني أحيا كما يحيا فيلسوف: أتجول، أتنزه، ألعب «الداما» بمقهى كبورجوازي اعتزل العمل، وأقرأ جريدة «الاستقلال»^[31]. ولكنني قطعت صلتي بصاحبنا بورثوس – إيبانتشين قطعاً تاماً، منذ ثلاث سنين، في أعقاب حادث وقع في القطار بصدد كلب صغير...

سألته ناستاسيا فيليبوفنا باستطلاع شديد:

– كلب صغير؟ ما تلك القصة؟ كلب صغير؟ في القطار؟...

وكانت كأنها تحاول أن تتذكر شيئاً ما.

- أوه! هي قصة سخيصة لا تستحق أن تُروى، حدثت لي مع مسز سميث، صاحبة الأميرة بيلوكونسكايا، قصة لا تستحق أن تحكي.

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول فرحة:

- بل أقصصها عليّ، يجب أن تقصصها عليّ حتماً!

قال فردشتينكو:

- أنا أيضاً لا أعرفها بعد. «هذا من الأمور الجديدة».

قالت نينا ألكسندروفنا بصوتها الضارع مرة أخرى:

- أريداليون ألكسندروفتش!

وصرخ كوليا يقول:

- بابا، أنهم يطلبونك...

بدأ الجنرال يحكي القصة مسروراً فقال:

- قصة سخيصة تُحكى بكلمتين. منذ سنتين تقريباً، بعد تدشين خط السكة الحديدي بين...، كنت مسافراً بالقطار لأعمال هامة جداً تتعلق بتسليم منصبي (وكنت قد ارتديت الثياب المدنية منذ ذلك الحين). قطعت تذكرة سفر بالدرجة الأولى، فلما صرت في حجرة القطار جلست أدخن، بل قولي: إنني استمررت أدخن، لأنني كنت قد بدأت أدخن قبل ركوب القطار؛ وكنت وحيداً في الحجرة. ولئن لم يكن التدخين ممنوعاً، إنه ليس مباحاً على كل حال. وإنما جرى العرف بالتسامح في أمره، وذلك يختلف باختلاف الأشخاص. وكان زجاج النافذة مخفوضاً. وفجأة، قبل انطلاق رنة الإيذان بتحريك القطار، دخلت الحجرة سيدتان وصلتا في آخر لحظة، ومعهما كلب صغير، وجلستا قبالي. إن إحداهن ترتدي ثياباً تبلغ غاية الأناقة، لونها أزرق سماوي. والثانية أقل أناقة من الأولى ترتدي ثوباً من حرير أسود فوقه كاب. والسيدتان كلتاها على شيء من الجمال، ولكنهما متعاليتان متكبرتان. وكانتا تتحدثان باللغة الإنجليزية. استمررت أنا في التدخين. ولقد فكرت في الأمر طبعاً، لكنني قررت مع ذلك ألا أكف عن التدخين، على أن أدير وجهي نحو زجاج النافذة الذي ظل مخفوضاً. كان الكلب الصغير فوق ركبتي السيدة التي ترتدي ثوباً أزرق بلون السماء، وهو كلب صغير جداً جداً، لا يكاد يتجاوز حجمه حجم قبضة اليد، جسمه أسود وقوائمه بيضاء... كلب نادر كل الندرة. وكان في رقبته طوق من فضة عليه نقوش، بقيت أنا ساكناً

صامتاً. لكنني لاحظت أن السيدتين تبدوان مستاءتين، بسبب السيجار طبعاً. فإحدهما تتفرس في وجهي من خلال نظارة تمسكها بيدها. ظللت لا أردُ بشيء، ما دامتا لا تقولان لي شيئاً! لو كلمتاني على الأقل، لو طلبتا مني ألا أدخن، إذن لكان يمكن أن ألام... إن للبشر لغة يتخاطبون بها، إن لهم لساناً يتكلمون به. لكن السيدتين لبثتا صامتين!... وفجأة... من دون أي إنذار... أؤكد لك أن ذلك تمّ من دون أي إنذار... كأن السيدة قد فقدت عقلها... انتزعت السيدة ذات الثوب الأزرق... انتزعت من يدي السيجار، ورمته من النافذة، واستمر القطار يسير، بينما أنا أنظر إليها مبهوراً مصعوقاً. إنها امرأة وحشية، وحشية فعلاً، وحشية تماماً، رغم أنها جميلة، بضّة، طويلة، شقراء، زاهية اللون، (بل زاهية اللون كثيراً). صعقتني بنظرتها صعقاً. وهأنذا، دون أن أقول كلمة واحدة، وبأدب كامل، بل بأدب يبلغ غاية الرقة، أمدُ أصبعي إلى الكلب، فأحمله بهما من جلد رقبتة حملاً لطيفاً... و... أرميه من النافذة ليلحق بسيجاري. لم يكد يتسع وقته لأن يعول أحوالة صغيرة!... واستمر القطار يسير.

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول وهي تنفجر ضاحكة وتصفق بيديها كصبية صغيرة:

– أنت شيطان!

وزأر فردشتينكو يقول:

–مرحى! مرحى!

وابتسم بتتسين هو أيضاً، رغم أنه كان هو أيضاً قد دُهِش واستاء من دخول الجنرال. وحتى كوليأ أخذ يضحك، حتي لقاد صرخ يقول: «مرحي!».

واصل الجنرال كلامه يقول متحمساً، ظافراً:

– كنت على حق، كنت على حق جداً. فإذا كان السيجار ممنوعاً في حجرة القطار، فالكلاب أولى أن تكون ممنوعة أيضاً.

صرخ كوليأ يقول متحمساً:

– مرحى، بابا! عظيم، رائع! لو كنت في مكانك لفعلت مثل الذي فعلت أنت حتماً!

سألت ناستاسيا فيليبوفنا نافذة الصبر:

– وماذا فعلت تلك السيدة؟

أظلم وجه الجنرال، ثم قال:

- هي؟ هنا جرت الأمور مجرى سيئاً: فبدون أن تقول كلمة واحدة، بدون أي تمهيد، صفعيني! قلت لك: إنها امرأة وحشية، وحشية تماماً!

- وأنت؟

خفض الجنرال عينيه، ورفع حاجبيه، وأعلى كتفيه، وزمّ شفتيه، وباعد ذراعيه، وقال أخيراً بعد صمت:

- لم أستطع أن أكبح جماح نفسي؟

- هل ضربتها ضرباً شديداً؟

- لا، أحلف لك! لقد أحدث الأمر يومئذٍ فضيحة، لكنني لم أضربها ضرباً شديداً. لم يكن ذلك مني إلا ردّ فعل، لا شيء إلا أن أبعدها. غير أن الشيطان دبّر لي هنا «مقلباً» لعيناً! فالسيدة التي تلبس ثوباً أزرق بلون السماء اتضح أنها إنجليزية، وأنها مرافقة الأميرة بيلوكونسكيا، بل وتكاد تكون صديقتها. تخيلي الدراما: إغماءات، دموع، حداد (كان الكلب الصغير أثيرهما)، صيحات الأميرات الست والسيدة الإنجليزية! ولقد ذهبت أعرب عن أسفي وأقدم اعتذاري طبعاً، حتى لقد كتبت رسالة، غير أنني لم أستقبل، لا أنا ولا الرسالة، ونشأ عن ذلك شقاق بيني وبين إيبانتشين بطبيعة الحال. فهأنذا الآن مشنّع عليّ، منفيّ عنهم، مبعد من صحبتهم!

سألت ناستاسيا فيليبوفنا فجأة:

- ولكن اسمح لي، كيف يمكن هذا؟ لقد قرأت منه خمسة أيام أو ستة، في «الاستقلال» (وأنا أقرأها بانتظام)، قرأت هذه القصة نفسها تماماً! حدث هذا على خط السكة الحديدية الذي يحاذي شاطئ نهر الراين، بين رجل فرنسي وامرأة إنجليزية: هي انتزعت منه سيجارة على النحو الذي وصفت، وهو رمي كلبها الصغير القزم من النافذة بالطريقة التي ذكرت؛ وكل شيء جري على نحو ما جرى لك دون أي اختلاف، فحتى ثوب السيدة كان أزرق بلون السماء!

احمر وجه الجنرال احمراراً شديداً. واحمر وجه كوليا أيضاً، وأمسك رأسه بيديه. وأسرع بتتسين يشيخ وجهه. فكان فردشتينكو وحده ما يزال يضحك ملء حلقه. أما جانبا، فالأفضل ألا نتكلم عنه. لقد ظل هنالك يعاني ألماً أخرس لا يطاق!

تمتم الجنرال يقول لناستاسيا فيليبوفنا:

- أؤكد لك أن هذا الشيء نفسه قد حدث لي...

وصاح كوليا:

- فعلاً وقع لأبي حادث مزعج مع مسز سميث، خادم بيلوكونسكايا. أنا أتذكر هذا.

عادت ناستاسيا فيليبوفنا تلح مصرة في غير رحمة ولا شفقة:

- كيف يحدث لك هذا الشيء نفسه؟ أنتكرر قصة واحدة في طرفي أوروبا، بجميع تفاصيلها، حتى الثوب الأزرق الذي لونه كلون السماء؟ سوف أرسل إليك العدد الذي قرأت فيه قصة تلك الحادثة من جريدة «الاستقلال البلجيكي».

وتابع الجنرال كلامه ملحاً:

- لاحظي مع ذلك أن الحادث الذي وقع لي عمره سنتان!

- آ... إذا كان الأمر كذلك، ف... طبعاً.

قالت ناستاسيا فيليبوفنا هذا وهي تضحك كأنما قد اعترتها نوبة هستيرية.

قال جانبا بصوت مرهق، وهو يمسك أباه من كتفه:

- بابا، أرجوك أن تخرج معي قليلاً... أريد أن أقول لك كلمتين.

كان كره لا نهاية له يسطع في نظرتة.

وفي تلك اللحظة دوى في المدخل صوت الجرسى قويا عنيفا يكاد ينخلع له الجرس انخلاعاً، فكان يدل على زيارة غير عادية. فأسرع كوليا يفتح الباب.

الفصل العاشر

سرعان ما سُمعت ضوضاء جمهور آتية من حجرة المدخل. أن من كان في الصالون يدرك أن عدة أشخاص قد دخلوا، وأن آخرين ما يزالون يدخلون. كانت أصوات كثيرة تتكلم في آن واحد، وتصرخ عند المدخل وعند السلم الذي ظل بابه مفتوحاً. واضح أنهم زوار غريبون عجيبون. أخذ جميع من في الصالون ينظر بعضهم إلى بعض متحيراً. واندفع جانبا إلى الصالون الكبير، غير أن عدداً من الأشخاص كانوا قد دخلوا إلى هناك.

صاح صوت يعرفه الأمير، صاح يقول:

– آ... هأنت ذا يا يهوذا، يا خائن! سلامٌ جانبا، يا وغداً عريقاً! وصاح صوت آخر يقول مؤيداً:

– نعم، إنه هو، هو نفسه!

لم يبقَ لدى الأمير أي شك. أن أحد الصوتين هو صوت روجويين، وأن الصوت الآخر هو صوت ليبيديف.

تجمد جانبا على العتبة مبهوراً مصعوقاً، وأخذ ينظر صامتاً، دون أن يحاول اعتراض دخول هؤلاء الأشخاص العشرة أو الاثني عشر الذين كانوا يجتاحون الغرفة وراء بارفيون روجويين.

كانت هذه العصابة خليطاً عجيباً، يتميز أفرادها لا بتنوعهم فحسب، بل بفوضاهم كذلك، حتى أن بعضهم دخلوا كما هم، بضرواتهم ومعاطفهم وكانوا يبدون جميعاً سكارى بعض الشيء، رغم أن أحداً منهم لم يكن سكران فعلاً. وكان يظهر عليهم جميعاً أن كلاً منهم في حاجة إلى الآخرين يشدُّ بهم أزره، ويستمد منهم شجاعته. ما كان لواحد منهم أن يجرؤ على أن يدخل لو كان وحيداً، ولكنهم كانوا كمن يدافع بعضهم بعضاً إلى الدخول دفعا. حتى روجويين الذي كان على رأسهم، إنما كان يدخل محاذراً؛ فكان يبدو مظلماً الوجه مشغول البال إلى درجة الهياج. أما الآخرون فلم يكونوا إلا «كورساً» هو فيه المغني أو قل: لم يكونوا إلا عصابةً عليها أن تساعد قليلاً. كانت العصابة تضم، عدا ليبيديف، كانت تضم زاليوجيف الذي عني بتجعيد شعره عناية كبيرة،

وترك فروته في حجرة المدخل، ودخل طليقاً متبخترًا، ووراءه شخصان أو ثلاثة أشخاص من هذا الطراز نفسه كان واضحاً أنهم أبناء تجار؛ وكان في العصبية كذلك رجل يرتدي معطفاً على الزي العسكري، ورجل قصير سمين مفرط في السمنة ما ينفك يضحك بغير انقطاع؛ ورجل ضخم، بدين هو أيضاً، بدانة غير عادية، يكاد يبلغ طوله مترين، متجههم الوجه شديد الصمت، لا بد أنه كان يعوّل على قبضتي يديه كثيراً؛ وطالب من طلاب الطب؛ وبولندي مرح. وعلى فسحة السلم سيدتان تنظران إلى حجرة المدخل ولا تجرؤان أن تدخل. فأغلق كوليا الباب أمامهما وشدّ المزلاج.

- سلام جانيا الوغد! إنك لم تكن تتوقع أن ترى بارفيون روجويين، أليس كذلك؟

هكذا ردّ بارفيون روجويين حين وصل إلى باب الصالون فوقف أمام جانيا. ولكنه في تلك اللحظة نفسها، لمح في الصالون، قبالته تماماً، على حين فجأة، لمح ناستاسيا فيليبوفنا. واضح أنه كان أبعد ما يكون عن تخيل إمكان أن يراها هنا. فما أن رآها حتى أحدثت رؤيتها في نفسه تأثيراً خارقاً، فإذا هو يبلغ من الشحوب وانكفاء اللون أن شفّتيه أصبحتا زرقاوين.

قال في رفق بصوت خافت، كأنما هو يحدث نفسه، وقد شلّ فلا يدري ماذا يفعل:

- ما يقال صحيح إذاً. انتهى الأمر!...

ثم قال مخاطباً جانيا من بين أسنانه، وهو ينظر إليه نظرة تفيض بغضب حانق لا يُغالب:

- طيب... سنتحاسب!...

لقد انحبست أنفاس روجويين، فلم يكده يستطيع أن ينطق بهاتين الكلمتين مقطعتين إلا بكثير من العناء. وتقدم في الصالون، ولكنه حين أبصر نينا ألكسندروفنا وفاريا على حين فجأة، توقف شاعراً ببعض الخجل رغم كل انفعاله. ودخل ليبيديف وراءه، يتبعه كظله، وقد نال منه الانكسار. ثم دخل الطالب، فالعملاق ذو القبضتين الهائلتين؛ ودخل وراءهما زاليوجيف يحيي ذات اليمين وذات الشمال؛ ثم دخل الرجل القصير السمين يحاول أن يشق لنفسه طريقاً. إن وجود السيدات قد كبّهم قليلاً، وكان واضحاً أنه يربكهم إرباكاً كبيراً، ولكن المرء يحس أن هذا الإرباك سيزول متى حانت لحظة «البدء»... فإن وجود السيدات لن يحول دون الفضيحة متى تُطلق إشارة «البدء».

قال روجويين في ذهول، ولكن مع شيء من الدهشة:

- كيف؟ أنت أيضاً هنا يا أمير؟ وما تزال اللبادتان على حذاءيك؟ وتنهّد. لكنه كان قد نسى الأمير وعاد ينقل بصره إلى ناستاسيا فيليبوفنا، وهو يقترب منها مزيداً من الاقتراب، كأنما يجذبه إليها مغناطيس.

وكانت ناستاسيا فيليبوفنا، هي أيضاً، تتفرس في الدخلاء قلقة مستطلعة.
وأخيراً ثاب إلى جانبا صوابه. فقال بصوت عال وهو يلقي على الدخلاء نظرة قاسية، مخاطباً روجويين بخاصة:

- اسمحوا لي! ما معنى هذا؟ أنتم هنا في إسطنبول أيها السادة؟! أمامكم هنا أمي وأختي...

قال روجويين من بين أسنانه:

- نرى أنهما أمك وأختك.

وزاد ليبيديف يقول:

- واضح أنهما أمك وأختك.

وأغلب الظن أن صاحب القبضتين القويتين قدّر أن الحين قد حان، فإذا هو يهتمهم.

فصاح جانبا رافعا لهجته إلى درجة الانفجار، قائلاً:

- كفى! أرجوكم أولاً أن تنتقلوا إلى الغرفة الأخرى، واسمحوا لي بعد ذلك أن أسألكم...

ضحك روجويين ضحكة شريرة ساخرة دون أن يتحرك من مكانه وقال:

- عجيب! لم يتعرفني! ألم تتعرف روجويين؟

- هبني التقيت بك في مكان ما، فإنني...

- هه! التقيت بي في مكان ما! أنسيت إذاً أنك منذ أقل من ثلاثة أشهر قد سلبتني بالقمار مائتي روبل هي ملك أبي؟ لقد مات الشيخ المسكين قبل أن يتسع وقته لمعرفة ذلك. أنت جررتني إلى اللعب، وصاحبك كونييف تولى الغش. أفلا تتعرفني إذا؟ في وسع بتتسين أن يشهد. على كل حال، يكفي أن أخرج من جيبتي ثلاث روبلات، وان أريكها حتى تركع وتسير على أربع إلى فاسيلفسكي آملاً في الحصول عليها. هذا أنت! تلك هي نفسك الخسيصة! وإنما جئت الآن أيضاً لأشتريك كلك بالمال! لا تنظر إلى

حذاءي فأنأ أملك يا صاحبي مالاً كثيراً، وفي وسعي أن أشتريك أنت وجميع ذويك...
لو شئت اشتريتكم جميعاً، جميعاً!...

كان روجويين يزداد اندفاعاً، ويبدو أشد سكرأ لحظة بعد لحظة. وهتف يقول:

- لا، لا تطرديني يا ناستاسيا فيليبوفنا! قللي لي كلمة واحدة لا أكثر: أنت مقبلة
على الزواج به أم لا؟

ألقى روجويين هذا السؤال كما يلقيه إنسان يشعر بأنه هالك، وخاطب ناستاسيا
فيليبوفنا كما يخاطب إنسان إلهه المعبود، ومع ذلك كان في لهجته جرأة هي جرأة
من حُكم عليه بالإعدام فلم يبق هنالك ما يخاف أن يضيع منه.

وراح ينتظر الجواب بقلق قاتل!

شملته ناستاسيا فيليبوفنا بنظرة ساخرة متعالية. ولكنها حين ألفت بصرها على
فاريا ونينا ألكسندروفنا ثم على جانيا، غيرت موقفها، وقالت تجيبه في رفق وجد، بصوت
تلوح فيه الدهشة:

- لا، أبداً، ماذا دهاك؟ ثم كيف خطر ببالك أن تلقي عليّ هذا السؤال؟

هتف روجويين يقول كمن جنّ فرحاً:

- لا؟ لا؟ صحيح أنك لن تتزوجيه؟ لقاد زعموا لي أنك ستتزوجينه... آه... طيب.
يا ناستاسيا فيليبوفنا! هم يدعون أنك وعدت جانيا بأن تتزوجيه... كيف تتزوجين
هذا... هذا ال... أذلك ممكن؟ لقد قلت لهم هذا. إن في وسعي أن أشتريه كله بمائة
روبل، فإذا أعطيته ألف روبل أو قللي ثلاثة آلاف روبل في سبيل أن يعدل عن الزواج،
لهرب عشية الزواج تاركأ خطيبته. أليس هذا صحيحأ يا جانيا، يا سافل؟ ألن تقبل
الثلاثة آلاف روبل؟ خذ! إليك هي! من أجل هذا إنما جئتُ اليوم! لقد جئت لأحصل على
توقيع منك بالعدول عن الزواج. قلت سأشتريك، ولسوف أشتريك فعلاً!

صرخ جانيا يقول وهو يحمر ثم يصفراً، ثم يصفراً ثم يحمر:

- اذهب من هنا! أنت سكران!

أحدثت هذه الصرخة انفجارات أصوات. كانت عصابة روجويين لا تنتظر منذ مدة
طويلة إلا أول استفزاز. وها هو ذا ليبيديف يهمس في أذن روجويين ببعض الكلام مهتماً
أشد الاهتمام.

أجاب روجويين:

-أصبتَ يا سيادة الموظف! أصبتَ يا أيها السكير! ولم لا، أخيراً؟

ثم هاتف يقول وهو ينظر إلى ناستاسيا فيليبوفنا كالمجنون، فتارةً برعب وتارة بجرأة تشبه أن تكون وقاحة:

- ناستاسيا فيليبوفنا! إليك ثمانية عشر ألف روبل! ... هناك مبالغ أخرى!...

قال ذلك ووضع أمامها، على منضدة صغيرة، حزمة ملفوفة بورق أبيض، ومربوطة بخيط.

ولم يجرؤ أن يكمل فكرته، لم يجرؤ أن يتم ما كان يريد أن يقوله.

همس ليبيديف في أذنه مرة أخرى يقول مرتاعاً:

- لا، ليس هذا...

كان واضحاً أن ضخامة المبلغ قد روعته، وأنه يقترح تخفيضه. فأجابه روجويين:

- لا يا صاحبي، هنا أخطأت... هنا أنت غبي...

وإذ رأى شرراً يقدح في نظرة ناستاسيا فيليبوفنا، ثاب إليه صوابه، وأخذ يرتجف، وأضاف يقول:

- بل نحن كلانا غبيان، أنت وأنا... آه... ما كان أشد حماقتي حين سمعت لك.

أضاف روجويين هذه الجملة الأخيرة بلهجة فيها ندم عميق.

فبعد أن لاحظت ناستاسيا فيليبوفنا بكثير من الانتباه كيف انقلب وجه روجويين وتشوّه، انفجرت تضحك فجأة، ثم أضافت تقول بلهجة خالية من الكلفة، طافحة بالوقاحة، وهي تنهض عن الكنية كأنما لتنصرف:

- ثمانية عشر ألف روبل، لي أنا؟

وكان جانبا يراقب المشهد منقبض القلب.

صاح روجويين يقول:

- بل أربعون ألفاً، أربعون ألفاً، لا ثمانية عشر!... لقد وعدني بتتسين وبسكوب بأن يدفع لي أربعين ألف روبل في الساعة السابعة! أربعون ألف روبل عدداً ونقداً!...

أصبح المشهد دنيئاً حقاً، ولكن ناستاسيا فيليبوفنا ظلت تضحك، ولم تعزم أمرها على الانصراف، كأنها تتعمد أن يطول المشهد. وقد نهضت نينا ألكسندروفنا وفاريا، هما أيضاً، ووقفتا تنتظران صامتتين مروّعتين ما عسى أن ينتهي إليه الأمر. فأما فاريا فعيناها تلتمعان؛ وأما نينا ألكسندروفنا فقد هزّها تعاقب الأحداث هذا هزاً قوياً كل القوة فهي ترتجف حتى لتكاد تسقط مغشياً عليها.

– إذا كان الأمر كذلك، فإنني أرفع المبلغ إلى مائة ألف. نعم، في هذا اليوم نفسه سأدفع مائة ألف روبل. بتتسين، ساعدني في جمع هذا المبلغ، ولك حسابك!

همس بتتسين قائلاً وهو يقترب منه بحركة نشيطة ويمسك ذراعه:

– أنت سكران: سوف نستدعى الشرطة! أين تظن نفسك؟

قالت ناستاسيا فيليبوفنا كأنما تثيره وتحرضه:

– الخمرة هي التي تتكلم!

فأخذ روجويين يصرخ قائلاً وقد ازدادت حماسته ازدياداً كبيراً:

– لا، أنا لا أكذب! سوف تقبضين مائة ألف روبل! هذا المساء! سوف أبرهن على أنني لا أتباخل!

هنا أرعد صوت آرداليون ألكسندروفتش على حين فجأة يقول غاضباً مهدداً وهو يتقدم نحو روجويين:

– ما معنى هذا كله أخيراً؟

إن هذه الاندفاع المبالغية التي لم يكن يتوقعها أحد من العجوز بعد أن ظل صامتاً حتى ذلك الحين، قد أحدثت أثراً مضحكاً، فانطلقت ضحكات هنا وهناك.

قال روجويين وهو يضحك ساخراً:

– من أين خرج لنا هذا؟ تعال معنا أيها العجوز فتشرب حتى تسكر!

فصرخ كوتليا الذي كان يبكي عاراً وغضباً:

– هذه دناءة!

وصاحت فاريا فجأة وهي ترتعش غضباً من قمة رأسها إلى أخمص قدميها:

– هل يُعقل ألا يكون بينكم واحد يُخرج هذه الوقحة من هنا؟

فأجابت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بمرح فيه احتقار:

- أنا أوصف بأنني وقحة؟ ما كان أغباني حين جئت لأدعوهم إلى سهرتي! انظر كيف تعاملني أختك يا جبريل أرداليونتش!

ظل جانيا بضع لحظات كالمصعوق من اندفاعه أخته، ولكنه حين لاحظ أن ناستاسيا فيليبوفنا عازمة في هذه المرة فعلاً على أن تنصرف، هاجم على فاريا كالمجنون فأمسك يدها بحلق شديد.

وهتف يسألها وهو ينظر إليها كمن يريد أن يحيلها إلى رماد على الفور:

- ماذا فعلت؟

كان قد خرج عن طوره، وأصبح لا يدري ماذا يصنع.

صرخت فاريا تقول وهي ترشق أياها بنظرة انتصار وتحدي:

- ماذا فعلت؟ وأنت إلى أين تجرني؟ أتراك تريد مني، أيها الرجل الساقط، أن أقدم إليها اعتذاري هي التي أهانت أمك، وغطت بيتك كله بالعار؟

ولبثا على هذه الحال بضع لحظات، وجهاً لوجه.

كان جانيا ما يزال ممسكاً بيد أخته بيده. وحاولت فاريا أن تخلص يدها مرةً أو مرتين بكل ما تملك من قوة، لكنها لم تفلح، فإذا هي بعد ذلك تخرج عن طورها فتبصق في وجه أخيها.

صرخت ناستاسيا فيليبوفنا تقول:

- هذه فتاة حقاً! يا بتتسين! أهنتك!

زاغ بصر جانيا، ونسي نفسه تماماً، فرفع يده يريد أن يضرب أخته بكل قواه. وكان يمكن أن تسقط يده على وجهها، لولا أن يداً أمسكت ذراع جانيا بانطلاقة سريعة فأوقفتها. لقد وقف الأمير بين الأخ وأخته.

قال الأمير حازماً، ولكنه كان يرتعش بجميع أعضائه هو أيضاً، كما يحدث في أثر اضطراب شديد:

- ما هذا؟ أما كفاكم؟!...

فزأر جانيا قائلاً وهو يترك يد فاريا:

- أأظل أجذك دائماً في طريقي؟

وكانت يد جانيا قد أصبحت طليقة، وكان قد بلغ ذروة السخط، فإذا هو يُنزل بيده على وجه الأمير بصفعة قوية.

صاح كوليا يقول وهو يرفع ذراعيه:

- آه... آه... رباه!..

وانطلقت هتافات التعجب من كل جهة. كان الأمير أصفر اللون، يحدّق إلى عيني جانيا بنظرة غريبة مثقلة لوماً، وكانت شفاته المختلجتان تحاولان أن تنطقا بشيء ما، وكانت ابتسامة عجيبة غير مألوفة تشنّجها فما تستطيعان أن تقولا شيئاً. واستطاع أخيراً أن يتلفظ فقال:

- أنا، لا ضير أن ضربتني... أما هي... فلن أسمح لك بأن تضربها!..

ولكنه فقد سيطرته على نفسه فجأة، فترك جانيا، وأمسك رأسه بيديه، واتجه نحو الحائط، وقال بصوت متقطع:

- آه... لشد ما ستشعر بالخزي والعار من فعلتك!

وكان جانيا كالمصعوق فعلا.

هرع كوليا إلى الأمير يقبله ويواسيه، وتبعه روجويين وفاريا وبتتسين ونينا ألكسندروفنا... تبعه الجميع، حتى الشيخ آرداليون ألكسندروفتش.

تمتم الأمير قائلاً وهو ما يزال يبتسم تلك الابتسامة غير المألوفة:

- ليس هذا بشيء! ليس هذا بشيء!

وصرخ روجويين:

- لسوف يندم على ما فعل. السوف تخجل يا جانيا من أنك أسأت إلى مثل... هذه النعجة (لم يجد كلمة أخرى). دعهم يا أمير، يا صديقي؛ وتعال... فسوف تري كيف يعرف روجويين أن يحب!

- تأثرت ناستاسيا فيليبوفنا، هي أيضاً، أشد التأثر من فعلة جانيا وموقف الأمير. إن وجهها الذي يكون في العادة شاحب اللون والذي يعبر في العادة عن شرود الذهن، وذلك ما لا يتفق كثيراً مع ضحكها الذي كانت تصطنعه اصطناعاً منذ قليل، قد غيرته الآن

عاطفة جديدة. هذا واضح كل الوضوح. ومع هذا يحس المرء أنها لا تحرص على إظهار ذلك، فهي تحاول أن تحافظ على ما كان يعبر عنه وجهها من سخرية.

وفجأة تذكرت السؤال الذي أثاره الأمير منذ قليل، فدمدمت تقول على حين بغتة، ولكن بشيء من الجد والرصانة منذ الآن:

– حتماً، سبق أن رأيت هذا الوجه قبل الآن!

فهتف الأمير فجأة يقول بلهجة عتاب عميق، لكنه عتاب فيه مودة وصداقة:

– وأنت، ألا تشعرين الآن بخجل؟ أنت لست تلك المرأة التي حاولوا أن يصفوها بما وصفوها به!...

دُهِشت ناستاسيا فيليبوفنا، وحاولت أن تبتسم كأنما لتخفي شيئاً ما. وبعد أن ألقت نظرة على جانبا اتجهت نحو باب الصالون مضطربة. لكنها حتى قبل أن تصل إلى حجرة المدخل، عادت راجها فجأة، فاقتربت من نينا ألكسندروفنا فتناولت يدها وحملتها إلى شفيتها. ودمدمت تقول بصوت سريع، وبحرارة، واقد اشتعال وجهها واحمر:

– لقد حزر. صحيح أنني لست هكذا...

ثم استدارت وخرجت، ولكنها بلغت من السرعة في هذا كله أن أحداً لم يتسع وقته لأن يعرف لماذا هي رجعت أدراجها؛ كل ما هنالك أنهم رأوها تكلم نينا ألكسندروفنا ببضع كلمات همساً، ولعلهم رأوها تقبل يدها. غير أن فاريا رأت كل شيء، وسمعت كل شيء، وتابعتها بنظراتها مدهوشة.

عاد إلى جانبا رشده، فاندفع ليصحب ناستاسيا فيليبوفنا، لكنها كانت قد خرجت، فأدركها في السلم.

صرخت تقول له:

– لا تصحبني! إلى اللقاء في هذا المساء! لا تتخلف! هل سمعت؟

فعاد جانبا مضطرباً، مفكراً، واجماً. أن لغزاً ثقيلاً يجثم الآن على قلبه، بل هو الآن أثقل مما كان. وطافت صورة الأمير أيضاً بخاطرته...

وقد بلغ من عمق الاستغراق أنه لم يكن يرى انسحاب عصبة روجويين التي كان أفرادها يصدّمونه في المدخل متدافعين متعجلين ترك المنزل في إثر رئيسهم. كانوا جميعاً يتناقشون بحرارة شديدة وصوت عال. وكان روجويين نفسه يمشي إلى جانب

بتتسين، ويكلمه ملحاً في شيء لابد أنه خطير ولا يحتمل أي تأخير. حتى إذا مرّ أمام جانياً قال له:

– خسرت يا جانيا!

فتابعهم جانيا بنظرة قلقة.

الفصل الحادي عشر

تركَ الأمير الصالون وحبس نفسه في غرفته. وسرعان ما أسرع إليه كوليا ليواسيه. كان يبدو على الصبي المسكين أنه أصبح لا يستطيع الانفصال عنه. قال له: - أحسنت إذ انصرفت. ستسوء الأمور مزيداً من السوء هناك. يحدث هذا في جميع الأيام. كل ذلك بسبب ناستاسيا فيليبوفنا تلك.

قال الأمير:

- في أسرتك، يا كوليا، آلام كثيرة متراكمة.
- نعم، هذا صحيح. والحق أننا ليس لنا أن نشكو. فالذنب كله ذنبنا. ولكن لي صديقاً هو أشقى منا أيضاً. هل تريد أن أعرفك به؟

- بسرور كبير. أهو أحد رفاقك؟

- نعم، تقريباً. سأشرح لك الأمر فيما بعد. إنها جميلة، ناستاسيا فيليبوفنا، أليست كذلك؟ لم يسبق لي أن رأيتها حتى الآن، رغم كل ما بذلت في سبيل ذلك من جهود. كانت اليوم باهرة حقاً، باهرة! كان يمكنني أن أغفر لأخي جانيا كل شيء لو كان يتزوجها عن حب. أما أن يأخذ مالا فهذا هو العيب!

- نعم، أخوك لا يعجبني كثيراً.

- أفهم ذلك جيداً، ولا سيما بعد الذي فعله بك... هل تريد أن أقول لك رأيي؟ هناك مواضع اجتماعية وأحكام شائعة لا أطيعها البتة. يكفي أن يقوم مجنون أو معتوه أو حتى وغد مجرم، يكفي أن يقوم وهو في حالة هذيان بصفع أحد الناس حتى يتلطمخ شرف الرجل الذي تلقى الصفعة، إلى الأبد، فإذا هو لا يستطيع أن يغسل الإهانة إلا بالدم! اللهم إلا أن يمشوا أمامه ركعاً ضارعين إليه أن يصفح ويغفر. في رأيي أن هذا طغيان واستبداد، وأنه سخف! وذلك هو موضوع الدراما التي كتبها لرمينتوف بعنوان: «الحفلة المقنعة»^[32]، والتي أجد أنها تافهة بلهاء، بل ومخالفة للطبيعة. يجب أن نذكر على كل حال أن تلك الدراما هي من الأعمال التي كتبها لرمينتوف في طفولته

تقريباً...

- أعجبتني أختك كثيراً.

- أرأيت كيف بصقت في وجه جانيا؟ شجاعةً فاريا! ومع هذا فإنك أنت لم تبصق، وما أظن أن مردّ ذلك إلى نقص في شجاعتك. هه! ها هي ذي بنفسها. صدق المثل: اذكر الذيب وحضرّ القضيّب. كنت أعلم أنها لا بد أن تجيء! إن فيها نبلاً وشهامة، وإن تكن لها عيوب ونواقص أيضاً.

كانت أول حركة من فاريا أنها قالت:

- أنت لا عمل لك هنا ولا شأن. اذهب إلى أبيك. لا بد أنه يُضجرك يا أمير؟

- لا، بالعكس.

- ها هي ذي الأخت الكبرى تندفع وتثور! ذلك هو عيبها. ولكن، بالمناسبة، لقد ظننت أن أبانا سيتبع روجويين. لا بد أنه نادم الآن على أنه لم يفعل.

وأضاف كوليا يقول وهو يخرج:

- يستحسن فعلاً أن أذهب إليه فأرى ما هنالك!

قالت فاريا:

- الحمد لله! استطعت أن أقود ماما وأن أرقدها، ولم يحدث انفجار جديد. جانيا غارق في خجله وهمومه. هنالك ما يدعوّه إلى ذلك على كل حال!... يا له من درس!... لقد جئت لأشكرك، ولأسألك أيضاً ألم تكن تعرف ناستاسيا فيليبوفنا قبل اليوم؟

- لا، لم أكن أعرفها.

- فلماذا قلت لها إذاً، وجهاً لوجه، إنها ليست «تلك» المرأة؟ ألا أن من الجائز أن تكون قد حذرت الواقع!... على كل حال، طاش عقلي، وتاه فكري، فأصبحت لا أفهم من الأمر شيئاً! لا شك في أنها كانت تنوي أن تهيننا. ذلك واضح. وقد سبق أن سمعت عنها أشياء كثيرة غريبة. ولكن إذا صدق أنها جاءت لتدعونا أنا وماما، فكيف نفسّر أنها بدأت بمعاملة ماما تلك المعاملة الغريبة؟ أن بتتسين يعرفها جيداً. وقد قال: إنه لم يستطع أن يعلل سلوكها منذ قليل. وموقفها ذاك من روجويين؟ إن من يحترم نفسه لا يسمح لنفسه بمثل هذه اللغة، في منزل... وأمي قلقة عليك كل القلق أيضاً.

قال الأمير وهو يحرك يده بحركة عدم الاكتراث:

- ما هذا بشيء!

- إنه لغريب مع ذلك أنها أطاعتك...

- كيف... أطاعتني؟

- حين قلت لها: أن عليها أن تشعر بالخجل، فإذا هي تتغير وتتبدل دفعة واحدة.

ثم أضافت فاريا وهي تبسم ابتسامة خفيفة:

- أن لك عليها نفوذاً وسلطاناً يا أمير!

وفُتح الباب، ودخل جانبا من حيث لم يكن يتوقع دخوله البتة. وحتى رؤية فاريا لم تحمله على التردد. تلبث عند العتبة لحظةً، ثم دنا من الأمير وقد بدا في وجهه الحزم والثبات، وقال فجأة بانفعال قوي:

- يا أمير، لقد كنت أنا دنيئاً، فاغفر لي يا عزيزي!

كانت قسمات وجهه تعبر عن ألم كبير وعذاب شديد. فتأمله الأمير مشدوهاً ولم يجب فوراً. فأسرع جانبا يكرر قوله نافذ الصبر:

- اغفر لي، أرجوك، اغفر لي. هل تريد أن أقبل يدك؟

فما كان من الأمير، وقد تأثر تأثراً شديداً، إلا أن عانقه بذراعيه دون أن يقول كلمة واحدة. وتبادل الرجلان القبلات صادقة.

قال الأمير أخيراً وهو يسترد أنفاسه بكثير من العناء:

- ما كان ليخطر ببالي أنك قادر على هذا... كنت أظن أنك غير قادر عليه..

- علي الاعتراف بأخطائي؟.. إنني لأتساءل كيف أمكنني أن أعدك أبلة، أنت الذي ترى ما لا يستطيع الآخرون أن يلاحظوه في يوم من الأيام. إنه ليكون مفيداً أن أجري معك حديثاً... ولكن... ربما كان السكوت افضل!..

قال له الأمير وهو يومئ إلى فاريا:

- وهذه إنسان آخر يجب عليك أن تستغفره!

فصاح جانبا قائلاً وهو يشيح بوجهه عن أخته:

- لا، لا، هؤلاء جميعاً أعداء لي. تأكد يا أمير أنني قمت بمحاولات كثيرة وبذلت جهوداً كبيرة. لا، هنا لا يغفرون غفراً صادقاً قط!

فقالت فاريا فجأة:

- بل سأغفر لك!

- وهل تذهبين هذا المساء إلى بيت ناستاسيا فيليبوفنا؟

- أذهب، إذا أمرتني بأن أذهب. ولكن احكم في الأمر بنفسك: هل يمكنني الآن أن أظهر هناك؟

- ما دامت ليست «تلك». إنك ترين الألغاز التي تقوم في أذهاننا عنها؟ ألا إنها لتجيد التمثيل!...

قال جانبا ذلك وضحك ضحكة ساخرة خبيثة.

- أنا أدرك أنها ليست ما يتراءى لنا، وأن في جعبتها «مقالب» أخرى. ولكن ما هي تلك «المقالب»؟ ثم انتبه يا جانبا! أنت تعرف رأيها فيك على الأقل؟ صحيح أنها قبلت يد ماما، ولنفرض أن سائر الأمور تمثيل، ولكنها مع ذلك قد سخرت منك وتهكمت عليك! هذه مذلات لا تساويها خمسة وسبعون ألف روبل! لا يا أخي! عهدي فيك أنك قادر على الشعور بعواطف نبيلة، لذلك تراني أقول لك هذا الكلام. صدقني. أنت نفسك لا تذهب إليها هذه الليلة! حذار أن تذهب! لسوف يجري الأمر كله مجرى سيئاً!

قالت فاريا ذلك، وأسرعت تخرج من الغرفة منفعة أشد الانفعال...

قال جانبا وهو يضحك مستهزئاً:

- كذلك هنّ جميعاً! هل يتخيّل أنني أنا نفسي لا أعرف؟ لا شك أنني أعرف أكثر مما يعرفون!

وهنا جلس جانبا على الديوان، فكان واضحاً أنه ينوي إطالة زيارته.

تجاسر الأمير فقال خجلاً وجلاً:

- إذا كنت تعرف، فلماذا اخترت إذاً هذا التعذيب عالماً أن خمسة وسبعين ألف روبل لا تساويه؟

فدمدم جانيا يقول:

- ليس هذا هو الأمر. ولكن قل بالمناسبة، فأنا أحرص على أن أعرف رأيك: هل هذا «التعذيب» تساويه خمسة وسبعون ألف روبل أم لا تساويه؟

- أعتقد أنها لا تساويه.

- مفهوم. وعارٌ أن يتزوج الرجل على هذه الشروط.

- عارٌ جداً!

- طيب... فاعلم أنني سأتزوج مع ذلك، واعلم أنني الآن أشد ثقة ويقيناً مما كنت من قبل. فمئذ قليل، كنت ما أزال متردداً، أما الآن فقد انتهى الأمر! لا تقل شيئاً! أنا أعرف ماذا تريد أن تقول...

- لا أريد أن أتكلم عما ظننت أنني سأتكلم عنه. كل ما هنالك أنني مدهوش من ثقتك ويقينك.

- مم؟ من ثقتي و يقيني؟

- من ثقتك أولاً بأن ناستاسيا فيليوفا ستتزوجك حتماً، وأن هذا أمر مفروغ منه؛ ومن ثقتك ثانياً بأن هذه الخمسة وسبعين ألف روبل ستلقى في جيبك رأساً. أقول هذا رغم أنني أجهل أشياء كثيرة على كل حال.

اقترب جانيا من الأمير بحركة نشيطة. وقال:

- طبعاً، أنت لا تعرف كل شيء. وإلا فلماذا كان يمكن أن أقبل احتمال هذا الثقل كله؟

- يخيل إليّ أن ذلك يحدث في كثير من الأحيان: يتزوج الرجل طمعاً في مال، ولكن المرأة هي التي تستولي على المال!

دمدم جانيا يقول واجماً مفكراً قلقاً:

- ل... لا! لن تجري الأمور هذا المجرى في زواجنا!.. هناك... ظروف معينة...

ثم أسرع يضيف:

- أما عن جوابها فلم يبق ثمة أي شك فيه! ما الذي يدعوك إلى افتراض أنها قد ترفضني؟

- لا أعرف أكثر مما رأيت. وقد قالت باربارا آرداليونوفنا، هي أيضاً، منذ قليل...

- هيه! هن يقلن هذا الكلام، لأنهن لم يبق لهن ما يقلنه! أما روجويين فقد كانت تسخر منه، ثق بهذا. ذلك شيء مميّزه واضحاً، ذلك شيء لا يخفى عن البصر. عانيت منذ قليل لحظة قلق، ولكنني أرى الآن رؤية واضحة. اللهم إلا أن يكون حكمك مبنيّاً على سلوكها مع أمي وأبي وفاريا؟

- وعلى سلوكها معك.

- هب ملاحظتك صحيحة. ولكن ليس إلا روح الانتقام الأبدية لدى النساء. أن ناستاسيا فيليبوفنا امرأة سريعة الاهتياج، شديدة التأذي، كثيرة الأنانية: لكأنها موظف من الموظفين المنسيين في كشوف الترقّيات! لقد حرصت على أن تثبت لهم قوة شخصيتها، وعلى أن تظهر لهم احتقارها... لهم... ولي أنا أيضاً، أن شئت. هذا صحيح. لست أنكره... لكنها ستتزوجني مع ذلك. إنك لا تستطيع أن تتخيل الألاعيب التي يمكن أن تدفع إليها الكبرياء. أن هذه المرأة تعدني شخصاً جديراً بالاحتقار، لأنني على علمي بأنها خلية رجل آخر، أَرْضَى أن أتزوجها في سبيل المال صراحةً. ولكنها لا يخطر ببالها أن شخصاً آخر كان يمكن أن يخدعها بطريقة أحقر وأدنا، كأن يأخذ يحدثها مفضياً مسهباً عن الأفكار اللبرالية والآراء التقدمية وتحرير المرأة وما إلى ذلك، ليجرّها بعد ذلك من أنفها! إن في وسعه بمثل هذه الأساليب أن يقنع هذه المجنونة إقناعاً سهلاً كل السهولة، يقنعها بأنه لا يختارها إلا «لنبل قلبها، وكثرة محبتها»، مع أنه في حقيقة الأمر لا يفكر إلا في مالها. أما أنا فلا أحظى بالقبول والرضى، لأنني أكره المواردبة... ولكن كان عليّ في الواقع أن ألجأ إلى ذلك الأسلوب! ثم قل لي: ما الذي تفعله هي؟ ألا تفعل هذا الشيء نفسه؟ فلماذا إذاً تحتقرنني، وتمثل هذا التمثيل كله؟ السبب بسيط: هو أنني أرفض أن أَرْضَح، وأظهر العزة والكبرياء أنا أيضاً! على كل حال، سوف نرى...

- أتراك أحببتها من قبل؟

- نعم، في بداية الأمر. ولكن كفى! هناك نساء لا يصلحن لأن يُتخذن إلا خليلات. لا أدعي بهذا القول: إنها كانت خليلتي. فإذا رضيت أن تكون عاقلة وأن تعيش هادئة، رضيتُ بذلك أنا أيضاً، أما إذا أخذت تتمرد وتثور، فسرعان ما سأتركها فاراً بالمال. لا أريد أن أكون أضحوكة، ذلك أهم شيء عندي!

قال الأمير بحذر:

- يخيل إليّ أن ناستاسيا فيليبوفنا ذكية، فكيف تقع في الفخ إذا كانت توجس هذا الشقاء كله سلفاً؟ في وسعها أن تتزوج رجلاً آخر ذلك ما يثير دهشتي...

- هنا يكمن الحساب كله! إنك لا تعرف كل شيء يا أمير.. ثم إنها مقتنعة على كل حال بأنني أحبها حباً يبلغ الجنون.. أؤكد لك ذلك... وأغلب الظن عندي أنها هي أيضاً تحبني على طريققتها، فكما يقول المثل: «من يحب حباً قوياً يعاقب عقاباً شديداً». طوال حياتها ستظل تعدني أسيراً تعدّبه (ولعل ذلك هو ما تحتاج إليه)، مع حبها إياي على طريققتها في الوقت نفسه. إنها تهين نفسها لهذا، فذلك هو طبعها. إنها امرأة روسية إلى أقصى حد، أؤكد لك هذا. أما أنا فإنني أخبئ لها أيضاً مفاجأة. إن ما حدث بيني وبين فاريا منذ قليل كان طارئاً عرضياً، لكنه يفيدني: لقد استطاعت أن تتأكد من تعلقي بها، ومن أنني سأقطع جميع الصلات في سبيلها. هأنت ذا ترى أنني أنا أيضاً لست غيباً إلى ذلك الحد. لا شك أنك تجدني كثير الثثرة. جائز جداً يا أمير أنني أخطئ إذ أفضي إليك بهذه المسارات كلها. ولكني ما هجمت عليك هذا الهجوم إلا لأنك أول إنسان نبيل ألقاه في حياتي! لا تأخذ كلمة «الهجوم» هذه بمعنيين: لست حاقداً عليّ لما حدث منذ قليل، أليس كذلك؟ لعل هذه أول مرة أتكلم فيها مفتوح القلب منذ سنتين. الشرفاء هنا قليل: أشرفهم بتتسين. ولكن يخيل إليّ أنك تضحك؟ ألا تضحك؟ إن الأوغاد يحبون الشرفاء كثيراً. ألم تكن تعرف هذه الحقيقة؟ وإذ أنني... ولكن قل لي حقاً: فيم أنا وغداً؟ هلأ قلت لي هذا صريحاً صادقاً! لماذا يقلدونها جميعاً فيعدوني وغداً؟ تصوّر فوق ذلك أنني حين أسمع كلامها وأسمع كلامهم أخذ أعد نفسي وغداً مثلما يعدونني كذلك! ذلك هو الصغار وتلك هي الحقارة في الواقع!

قال الأمير:

- أما أنا فلن أعدك بعد اليوم وغداً. الحق أنني منذ قليل كنت على شك أن أعدك وغداً بالفعل. ولكنك أفرحتني الآن كثيراً! هذا درس سأنتفع به في المستقبل، وهو ألا أحكم على الناس قبل أن تكون لي خبرة بهم. أنا الآن أرى أنك لست وغداً، بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول: إنك لست حتى رجلاً فاسداً. في رأيي إنك إنسان عادي جداً، ربما على شيء من ضعف الإرادة وقلة الأصالة.

ابتسم جانبا ابتسامة مريرة، ولكنه لزم الصمت. ولاحظ الأمير أن رأيه لم يحظ برضى جانبا. فخجل من ذلك كثيراً، وصمت هو أيضاً.

سأله جانبا فجأة:

- هل طلب منك أبي مائاً؟

- لا.

- سيطلب، فلا تعطه. أما أنه كان إنساناً لائقاً جداً، فهذا أمر أتذكره كل التذكر. لقد كان يُستقبل في أرقى مجتمع. ما أسرع ما يترددون ويسقطون، هؤلاء الناس اللائقون جميعاً! أمر غريب! يكفي أيسر تغير في ظروف حياتهم حتى يهوا إلى الدرك الأسفل، ثم لا يبقى منهم شيء، فكأنهم بارود اشتعل فاستحال كله دخاناً! أوكد لك أنه كان في الماضي لا يكذب أبداً كما يكذب الآن! كل ما هنالك أنه كان شديد التحمس، فانظر كيف صار الآن! هذا ذنب الشراب طبعاً. هل تعلم أنه يعول خلية؟ ثم إنه الآن ليس كذاباً بغير أذى. إنني لا أفهم كيف تصبر عليه ماما هذا الصبر كله، وكيف تتسامح معه هذا التسامح كله! هل روى لك قصة حصار «كارس»؟ أو قصة حصانه الأبلق الذي طفق يتكلم؟ إنه يصل إلى هذا الحد أحياناً.

قال جانبا ذلك وانفجر يضحك ضحكاً مجلجلاً. ثم سأل الأمير:

- ما بالك تنظر إليّ هكذا؟

- أدهشني ما في هذا الضحك من صراحة وصدق. أرى أنك ما تزال قادراً على أن تضحك كما يضحك طفل. ومنذ قليل، حين دخلت لتصالحني، سألتني: «هل تريد أن أقبل يدك؟». هذا بعينه هو ما يفعله طفل حين يستغفر من ذنب. ما زلت قادراً إذاً على هذا النوع من الكلام الطيب والاندفاع الصادق! فما بالك تنساق هذا الانسياق في تلك القصة المشبوهة، قصة الخمسة وسبعين ألف روبل. حقاً أن ذلك ليبدو لي مستحيلاً لا يصدق.

- فما هي النتيجة التي تستخرجها من هذا كله؟

- إنني أتساءل ألسنت تتسرع في سلوكك كثيراً؟ أليس الأفضل أن تفكر أولاً؟ قد تكون باربارا أرداليونوفنا على حق...

قاطعه جانبا قائلاً:

- ها... درس في الأخلاق!... أما أنني ما زلت صبيّاً صغيراً فذلك أمر أعرفه أنا نفسي. وأكبر دليل على ذلك أنني أثرت معك مثل هذا الحديث.

وتابع جانبا حديثه فاضحاً نفسه كفتي جُرحت كبرياؤه:

- لكنني لا أرتضي هذا الزواج بدافع الحساب وحده يا أمير. وإلا لكان من الممكن أن تخطئ حساباتي، فما زلت لا أملك لهذا الأمر كل عدته من دماغ قوي وعزيمة صلبة. وإنما أنا أقبل هذا الزواج مدفوعاً بهوى عنيف جامح، وميلٍ عارم لا يغالب، لأن لي هدفاً رئيسياً. لعلك تظن أنني متى قبضت هذه الخمسة وسبعين ألف روبل، فسأشتري لنفسني مركبة فخمة. فاعلم إذاً أن الأمر ليس كذلك. سوف آخذ عندئذ في إبلاء سترة عتيقة عمرها ثلاث سنين، وسوف أعدل عندئذٍ عن جميع علاقاتي بالمنتدى. ما أقل القادرين في بلادنا على الماضي في طريقهم قدماً لا يحيدون، وان تكن نفوسهم جميعاً نفوس مرابين! أما أنا فسأصمد وسأتابع السير إلى النهاية. فإنما المهم أن يسير المرء إلى النهاية. تلك هي المشكلة! كان بتتسين، في السابعة عشرة من عمره، يبيت في الشارع ويبيع سكاكين. بدأ كفاحه ببضعة كوبكات. وهو يملك الآن ستين ألف روبل. ولكن ما أقسى الجهود التي بذلها والمصاعب التي قاساها في سبيل ذلك أما أنا فأستطيع أن أتخطى جميع تلك المصاعب فأبدأ برأس مال كبير على الفور. فما أن تمض خمس عشرة سنة حتى يشير إليّ الناس بالبنان قائلين: «هذا إيفولجين، ملك اليهود!». أنت تصفني بأنني خالي من الأصالة. فاعلم يا عزيزي الأمير أن أكبر إهانة يمكن أن تلحقها بإنسان في عصرنا ومن جنسنا هي أن تنعته بأنه محروم من الأصالة والإرادة والمواهب الخاصة، وأن تقول عنه: إنه رجل عادي. إنك لم ترض حتى أن تعدني وغداً ذا قيمة؛ وإني لأعترف لك بأنني أوشكت منذ قليل أن ألتهمك التهاماً بسبب ما قلته في حقي! لقد آلمتني أكثر مما آلمني إيبانتشين ذاك الذي يظن أنني لن أتورع عن أن أبيع امرأتي (لم يصرح بهذا، ولكنه يضمه، وهذه سذاجة منه، فإنه لم يحاول حتى أن يسبر ما بنفسه). هذا كله يثيرني منذ مدة طويلة يا صديقي، وذلك هو السبب في أنني محتاج إلى مال. فمتى حصلت على المال، أصبحت على جانب كبير من الأصالة، ثق بهذا! من هذه الناحية خاصة إنما يجب أن يوصف المال بأنه حقير وبغيض، لأنه يضي على صاحبه حتى الموهبة! وسيستمر الحال على هذا المنوال إلى نهاية العالم. قد تقول لي: أن هذا الكلام كله صياني، أو قد تقول لي: إنه كله شعر. لا ضير... ليزدد الأمر بذلك سخفاً، ولكنه سيتحقق. سأسير إلى نهاية الشوط، وسأصمد. صدق المثل: «يضحك جيداً من يضحك آخرًا». لماذا يعاملني إيبانتشين هذه المعاملة؟ أعن خبث وشر؟ لا... وإنما هو يعاملني هذه المعاملة لأنني شخص يمكن إهماله تماماً، فليس له قيمة أو وزن. أما حين أصبح... على كل حال، كفى الآن كلاماً. لقد أزف الوقت... ثم أن كوليا قد أطلّ بأنفه مرتين، ربما ليناديك إلى الغداء. أما أنا فأخرج.. سأتي إليك أحياناً. لن تتضايق كثيراً عندنا، فلسوف يتبنونك الآن جميعاً! حذار أن تفضحني. يخیل

إليّ أننا لا نستطيع أن نكون إلا أصدقاء أو أعداء. قل لي يا أمير: لو أنني قبلت يدك منذ قليل (كما اقترحت ذلك صادقاً) أكنت أصبح بعد ذلك عدوك لهذا السبب؟

قال الأمير وهو يضحك بعد لحظة من تفكير:

- حتماً! ولكن ليس إلى الأبد، بل إلى حين، فإنك ما كنت لتستطيع أن تصمد طويلاً، فلا بد أن تغفر لي أخيراً.

قال جانيا:

- هيه... هيه!... أرى أن على المرء أن يكون حذراً كل الحذر معك. إنك حتى في هذا الجواب قد استطعت أن تدسّ شيئاً من سم. من يدري! لعلك عدواً بالمناسبة: هاهاها!... لقد نسيت: خيل إليّ منذ قليل أن ناستاسيا فيليبوفنا أعجبتك كثيراً، هل هذا صحيح؟

- نعم، تعجبني!

- أنت مغرم بها؟

- لا... لا!

- ومع ذلك احمرّ لونك، وظهر العذاب في وجهك. طيب ليس هذا بشيء. لن أسخر منك. إلى اللقاء. هل تعلم أنها امرأة متمسكة بالفضيلة؟ هل تستطيع أن تصدّق ذلك؟ لعلك تظن أنها خلية الآخر، توتسكي؟ أخطأ إذاً ظنك! ما هي خليلته، وذلك منذ زمن طويل! هل لاحظت خراقتها وخجلها في بعض اللحظات؟ تلك هي الحقيقة. إن أصحاب مثل هذه الطباع هم الذين يحبون أن يسيطروا. طيب. أستودعك الله!

انسحب جانيا بكثير من اليسر والطلاقة والسهولة، فكان عند خروجه أحسن حالاً وأصفى مزاجاً منه عند دخوله.

أما الأمير فقد لبث جامداً نحو عشر دقائق، لا يتحرك.

وأطل كوليا برأسه من الباب من جديد. فقال له الأمير:

- لن أتغدى يا كوليا، فقد أفطرت عند آل إيبانتشين منذ قليل فأكلت كثيراً من الطعام.

فدخل كوليا، ومدّ إلى الأمير رسالة. إنها ورقة مطوية ممهورة بتوقيع الجنرال. يستطيع من ينظر إلى كوليا أن يقرأ في وجهه مدى الألم الذي يشعر به وهو يناول

الأمير الرسالة. وقرأ الأمير الرسالة، فنهض وتناول قبعته.

قال كوليا خجلان مضطرباً:

- ليس المكان بعيداً، هو على مسافة خطوتين من هنا. بابا جالس إلى مائدة أمام زجاجة. إنني لأتساءل كيف استطاع أن يقنعهم بأن يسقوه ديناً. أرجوك يا عزيزي الأمير ألا تذكر لأحد إنني نقلت إليك هذه الرسالة. لقد حلفت ألف مرة ألا أعود إلى فعل هذا أبداً، ولكنني أشعر بشفقة عليه. ثم أرجوك أن لا تصانعه وتجاهله؛ أعطه بضعة نقود واكتف بهذا!

- كنت أنوي أنا نفسي يا كوليا أن... إنني في حاجة إلى أن أرى أباك... لسببٍ ما... هيا بنا!...

الفصل الثاني عشر

قاد كوليا الأمير إلى «مقهى - بلياردو» قريب من المنزل، قبل شارع ليتاينايا، يقع في قبو على الطريق. فإلى اليمين، في حجرة صغيرة خاصة، كان آرداليون ألكسندروفتش جالساً إلى مائدة كما يجلس زبون قديم، وقد وُضعت أمامه زجاجة، وكان يقرأ جريدة «الاستقلال البلجيكي» فعلاً. كان ينتظر الأمير. فما إن أبصره حتى ترك جريدته وشرع يفيض في شرح طويل حار لم يفهم الأمير منه شيئاً كثيراً على كل حال، لأن الجنرال كان في الواقع قد ثمل. وقاطعه الأمير يقول:

- ليس معي ورقة عشرة روبلات، ولكن إليك ورقة خمسة وعشرين روبلاً، فبدّلها ورُدّ إليّ خمسة عشر روبلاً، وإلا بقيت بغير كوبك واحد!

- آ... طبعاً... طبعاً.. تأكد أن هذا سيتم فوراً.. فوراً!..

- ثم أن هناك شيئاً أريد أن أسألك عنه يا جنرال: ألم تزر ناستاسيا فيليبوفنا في يوم من الأيام؟

صاح الجنرال يقول في نوبة اختيال وغطرسة وسخريه:

- أنا؟ لم أزرها في يوم من الأيام؟ أتسألني أنا هذا السؤال؟ مراراً يا عزيزي مراراً!... لكنني انقطعت عن زيارتها آخر الأمر حتى لا يكون في ذهابي إليها تشجيع على مصاهرة غير لائقة. لقد رأيت بعينيك وكنت شاهداً على ما حدث منذ قليل: إنني فعلت كل ما يستطيع أن يفعله أب لئِن متسامح. لكن أباً من نوع آخر سيدخل المشهد بعد الآن، ولسوف نرى عندئذ: هل المحارب القديم المظفر هو الذي سينتصر على المؤامرة ويحبطها، أم أن «غادة كاميليا» وقحة هي التي ستستطيع أن تدخل أسرة نبيلة كريمة المحتد!

- إنما أردت أن أسألك ألا تستطيع، بصفتك من رواد منزلها، أن تدخلني هذا المساء إلى بيت ناستاسيا فيليبوفنا؟ ولا غنى لي عن أن يتم الأمر في هذا المساء نفسه. أنا في حاجة إلى أن أراها، لكنني لا أعرف كيف أدخل عليها. صحيح أنني قُدمت إليها منذ قليل، ولكنني غير مدعو، هي تقيم في هذه الليلة حفلة. على أنني مستعد أن أخالف

بعض الأصول، ولو تعرضت لأن أكون أضحوكة، في سبيل أن أدخل إليها بطريقة أو بأخرى.

هتف الجنرال يقول بحماسة:

- ذلك يطابق فكرتي كل المطابقة يا صديقي الشاب.

ثم أردف يقول وهو يأخذ المال ويضعه في جيبه:

- أنا لم أزعجك بالمجيء إلى هنا من أجل هذا الأمر التافه (يقصد المال). وإنما استدعيتك لأقترح عليك أن تصحبني في هجوم على ناستاسيا فيليبوفنا! الجنرال إيفولجين والأمير ميشكين! ما أقوى الوقع الذي سيحدثه هذا التحالف في نفسها! سأتظاهر بأنني أزورها مهنئاً بعيد ميلادها، فأعرف عندئذ كيف أفرض إرادتي أخيراً، لا بطريقة مباشرة، بل بطريقة غير مباشرة، ولكن الأمران واحد. وسيعرف جانيا عندئذ ما الذي يجب عليه أن يعمل: فإما أن يختار أباً أحق بالاعتبار وأجدر بالاحترام وإما.. أن صح التعبير... إلى آخره... وليكن ما يكون! أن فكرتك خصبة جداً. سنتحرك في الساعة التاسعة، ما يزال في الوقت متسع.

- أين تقيم ناستاسيا فيليبوفنا؟

- في مكان بعيد عن هانا، قرب «المسرح الكبير»، في عمارة ميتوفتسوف، المظلة على الميدان تقريباً، بالطابق الأول... ولن يكون عندها ناس كثير، رغم أن الليلة عيد ميلادها، وسيتفرق الحفل في ساعة مبكرة.

تقدم المساء كثيراً، وما يزال الأمير جالساً يصغي إلى الجنرال وينتظره، والجنرال ما ينفك يشرع في سرد حكايات جديدة لا ينهي أي واحدة منها. كان، حين وصل الأمير، قد أمر بزجاجة جديدة لم ينته من شربها إلا بعد ساعة.. ثم طلب زجاجة أخرى، فكان مصيرها مصير سابقتها. ومن حقنا أن نفترض أن الجنرال قد اتسع وقته لأن يقص على الأمير سيرة حياته كلها تقريباً. ونهض الأمير أخيراً، وأعلن أنه لا يستطيع أن ينتظر أكثر مما انتظر... فسكب الجنرال لنفسه آخر قطرات الزجاجة، ونهض متجهاً نحو باب الخروج مترنح الخطو بعض الترنح. كان الأمير في حالة كرب شديد، وكمد قوي. لم يستطع أن يشرح لنفسه كيف أمكنه أن يعتمد على الجنرال وأن يركن إليه بمثل هذه الغباوة وهذه البلاهة. والحق أنه لم يكن قد اعتمد عليه أو ركن إليه قط، وإنما هو عوّل عليه ليستطيع الدخول إلى بيت ناستاسيا فيليبوفنا، ولو دفع ثمن ذلك فضيحة صغيرة. غير أنه لم يتصور أن تقع فضيحة ضخمة.

كان الجنرال قد أخذ منه السكر كل مأخذ، فانطلق لسانه فصيحاً فصاحة متدفقة لا ينضب معينها، فهو لا ينفك يتكلم بغير انقطاع أو تباطؤ، وهو لا يني يتحدث بانفعال وقد «امتلاً قلبه دموعاً». وكان مدار حديثه على ما أصاب أسرته من انهيار ودمار نتيجة لسوء سلوك أفرادها، وعلى أنه قد آن الأوان لأن يضع لهذا التدهور حداً آخر الأمر.

ووصل الرجلان إلى شارع ليتانيانا. ما يزال الثلج يذوب. وهذه ريح باردة رطبة عفنة تصفر في خلال الشوارع. العربات تهدر في الوحل، والخيول المترفة والأفراس الخسيسة تضرب الأرض بحوافرها المنعّلة. والمشاة يطوفون على طول الأرصفة جمهوراً مبتلاً بالماء، بينه سُكاري.

قال الجنرال:

- هل ترى الطوابق الأولى المضيئة من هذه العمارات؟ إنها جميعاً يسكنها رفاقي القدامى، وأنا... أنا الذي خدمت أكثر منهم وتألّمت أكثر منهم، أمشي على قدمي في اتجاه «المسرح الكبير»، إلى بيت امرأة سيئة السمعة مشبوهة الأخلاق! رجل في صدره ثلاث عشرة رصاصة... ألا تصدقني؟ ومع ذلك فمن أجلي وحدي إنما أرسل بيروجوف^[33] برقية إلى باريس، وترك سيباستوبول المحاصرة إلى حين، ثم حصل نيلاتون، كبير أطباء البلاط بباريس، باسم العلم، إذنا بالمرور إلى سيباستوبول المحاصرة ليفحصني. وكانت القيادة العليا على علم بما حدث. «آه أن إي فولجين هو الذي أصيب بثلاث عشرة رصاصة!...» كذلك كانوا يتحدثون عني. هل ترى، يا أمير، ذلك المنزل، هناك؟ في ذلك الطابق الأول يسكن رفيقي القديم الجنرال سوكولوفتش مع ذريته النبيلة المحتد، الغفيرة العدد. إن ذلك المنزل، وثلاثة منازل أخرى في شارع نفسكي ومنزلين آخرين بشارع مورسكايا، هي الآن كل حلقة علاقتي، أقصد علاقتي الشخصية. لقد أذعنت نينا ألكسندروفنا للظروف منذ مدة طويلة. أما أنا فما أزال أتذكر... بل أتجراً فأقول ما أزال أذوق بعض الراحة في صحبة رفاقي القدامى ومرؤوسيّ الذين ما يزالون يعبدونني عبادة إن صح التعبير. ذلك الجنرال سوكولوفتش مثلاً... على أنني منذ مدة طويلة لم أزره ولا رأيت أنا فيدورونا... أنت تعلم يا أمير: حين يصبح المرء عاجزاً عن استقبال أحد في بيته، فإنه يُضطر أخيراً إلى الانقطاع عن زيارة الآخرين... ومع ذلك... هم!... يخيّل إليّ أنك لا تصدقني... ولكن، بالمناسبة، لماذا لا أدخل على هذه الأسرة اللطيفة ابن خير أصدقاء طفولتي؟ الجنرال إي فولجين والأمير ميشكين! سوف ترى هنالك فتاة رائعة، ماذا! بل فتاتين، بل ثلاث

فتيات، هن زينة المجتمع وزينة عاصمتنا: جمال، ثقافة، فكر.. قضية المرأة، قصائد، ذلك كله ستراه هناك وقد انصهر في تنوع موفق منسجم! ناهيك عن أن كل واحدة منهن تملك مهراً مقداره ثمانون ألف روبل عدداً ونقداً، على الأقل، وهذا لا يفسد شيئاً بطبيعة الحال، رغم جميع قضايا المرأة والقضايا الاجتماعية... الخلاصة: يجب عليّ حتماً أن أدخلك إلى هذه الأسرة، يجب عليّ ذلك حتماً، هذا وأحب يقع على عاتقي! الجنرال إيفولجين والأمير ميشكن! تصور وقع ذلك في النفوس!

قال الأمير يسأله:

– الآن؟ حالا؟ فهل نسيت إذاً أن...

– لم أنس شيئاً البتة! ادخل من هنا! اصعد هذا السلم الرائع! يدهشني أن السويسري غائب. ولكن هذا اليوم عطلة، والسويسري يغيب في يوم العطلة. لم يطرّدوا ذلك السكّير حتى الآن. إن سوكو洛夫تش هذا مدين لي بكلي سعادة حياته، وبكل نجاحه وارتقائه في عمله، مدين بذلك لي وحدي دون غيري. ولكن... ها نحن وصلنا.

كف الأمير عن الاعتراض على هذه الزيارة، فكان يتبع صاحبه طائعا حتى لا يثير حنقه، وهو يأمل أن يتبدد الجنرال سوكو洛夫تش وأسرته كلها رويداً رويداً كما يتبدد سراب، وأن يتضح أن هذا الجنرال لم يوجد في يوم من الأيام، فيعودا يهبطان بهدوء وأمان وسلام. فما كان أشدّ ذعر الأمير حين أخذ يفقد ذلك الأمل: ذلك أن الجنرال كان يقوده على السلم قيادة رجل واثق بأنه سيجد أصدقاءه، وهو ما ينضك يذكر للأمير مزيداً من التفاصيل عن سيرة حياتهم وأوصاف أشخاصهم بوضوح شديد ودقة رياضية. حتى إذا بلغا «الطابق الأول»، توقفوا يمناً، أمام باب شقة غنية، فأمسك الجنرال قبضة الجرس، فهمّ الأمير أن يهرب، ولكن ظرفاً خاصاً أوقفه عن الهرب لحظة.

قال الأمير:

– لقد أخطأت يا جنرال، فإنني أرى على الباب صفيحة كتب عليها اسم كولاكوف، وأنت تريد أن تقرر جرس سوكو洛夫تش.

قال الجنرال:

– كولاكوف... كولاكوف لا يدل على شيء. البيت بيت سوكو洛夫تش، وأنا أقرر جرس بيت سوكو洛夫تش. لا يهمني كولاكوف ولا أعاباً به ولا اكثر له... ثم ها هم يفتحون الباب.

فُتِحَ البابُ فعلاً، وظهر خادم أعلن أن «سأدته قد خرجوا».

أخذ آرداليون ألكسندروفتش يكرر بصوت فيه حزن عميق:

– خسارة، خسارة حقاً أن يخرجوا في هذا اليوم بعينه!

ثم قال يخاطب الخادم:

– قل لهم إذن يا صاحبي: أن الجنرال إيفولجين والأمير ميشكين قد جاءا يؤكدان

لهم احترامهما، ويعبران لهم عن شديد أسفهما...

وفي تلك اللحظة، ظهر وراء الباب المفتوح شخص آخر لعله الناظرة أو المربية.

إنها سيدة في نحو الأربعين من العمر، ترتدي ثوباً قائم اللون، اقتربت مستطلعة محاذرة، حين سمعت اسمي الجنرال إيفولجين والأمير ميشكين.

قالت وهي تتفرس في الجنرال بانتباه:

– إن ماريا ألكسندروفنا ليست في البيت. لقد ذهبت مع الآنسة ألكساندرا

ميخائيلوفنا إلى منزل جدتها.

– ألكسندرا ميخائيلوفنا أيضاً؟ يا لسوء الحظ. أرجوك أن تتفضلني فتنقلي إلى

ألكسندرا ميخائيلوفنا تحيتي واحترامي، آملاً أن تتذكرني.. الخلاصة: أبلغها أنني

أرجو لها من كل قلبي أن تتحقق تمنياتها التي أعربت عنها مساء يوم الخميس أثناء

سماعها موسيقا شوبان. سوف تتذكر... انقلي إليها أخلص مودتي وأصدق أمانتي!

الجنرال إيفولجين والأمير ميشكين!

قالت السيدة وقد اطمأنت:

– لن أنسى أن أنقل إليها ذلك!

وبينما كانا يهبطان السلم استمر الجنرال يعبر بحماسة لم تفت عن أسفه وحزنه

لأنه لم يجد أحداً في المنزل، فحرم الأمير بذلك من عقد صلة جميلة رائعة.

– هل تعلم يا عزيزي؟ إنني لأكاد أكون شاعراً؟ هل لاحظت ذلك؟

ثم ختم كلامه يقول فجأة على نحو لا يمكن توقعه:

– ولكن... ولكن يخيل إلي أننا أخطأنا تماماً. لقد تذكرت الآن أن آل سوكولوفتش

يسكنون في عمارة أخرى، وأعتقد أنهم الآن بموسكو. نعم، لقد أخطأت بعض الخطأ،

ولكن... لا قيمة لهذا!

قال الأمير مبهوراً:

- أود أن أعرف شيئاً واحداً. هل يجب أن أعدل عدولاً تاماً عن الاعتماد عليك؟ أليس الأفضل أن أذهب إليها وحدي؟

- تعدل؟ تعتمد؟ وحدك؟ ولكن لماذا؟ لماذا والأمر عندي أمر رئيسي تتوقف عليه أشياء كثيرة، ويرتبط به مصير أسرتي؟ لا يا صديقي! إنك لا تعرف إيفولجين حق معرفته. من قال: «إيفولجين» فقد قال: «صخرة». «اعتمد على إيفولجين اعتمادك على صخرة». ذلك ما كان يُقال عني منذ أن كنت في فصيلة الفرسان أول عهدي بالجيش. وإنما ينبغي لي، قبل أن نذهب إلى هناك، أن أمر مروراً عابراً بمنزل ألفت منذ بضع سنين أن أريح فيه نفسي قليلاً بعد الشدائد والمحن...

- أتريد أن تمر إذن بمنزلك؟

- لا بل أريد أن أذهب إلى الكابتينة تيرنتيف، إلى أرملة الكابتن تيرنتيف، مرؤوسي القديم... بل وصديقي... فعند الكابتينة إنما تبعث نفسي، وهناك إنما أرمي نوائي وأحزاني العائلية.. وإذ كنت أجد نفسي اليوم أرزح تحت وطأة عبءٍ روحي ثقل، فإنني...

دمدم الأمير يقول:

- أظن أنني قد ارتكبت حماقة كبرى حين أزعجتك... ثم إنك الآن... أستودعك الله!

صاح الجنرال يقول:

- مستحيل، لا يمكنني أن أدعك تمضي هكذا يا صديقي الشاب! هي أرملة، هي ربة أسرة تعرف كيف تجد في نفسها أوتاراً تهز كياني كله! لن تطول زيارتي لها أكثر من خمس دقائق. أنا أستقبل في هذا البيت بغير كلفة أو حرج، حتى لكأنني في بيتي. سأرتاح بعض الراحة، وسأرتب زينتني قليلاً، ثم نمضي بعربة إلى ميدان «المسرح الكبير». ثق بأنني في حاجة إليك طوال السهرة. انظر. هذا هو المنزل. لقد وصلنا.

- آه... كوليا... أوصلت منذ الآن؟ هل مارتا بوريسوفنا هنا، أم أنت وصلت في هذه

الليلة؟

أجاب كوليا واقد اصطدم بهما عند باب الفناء:

- أوه! لا! أنا هنا منذ مدة طويلة، عند هيبوليت. لقد ساءت صحته مزيداً من السوء، واضطر أن يرقد في الفراش هذا الصباح. كنت قد نزلت لأشتري أوراق لعب.

وإذ لاحظ كوليا حالة أبيه، صاح يقول وهو يتفحص وضعه ومشيته:

- ولكن ما هذا يا بابا! الله الله! الخلاصة... هلمّ نصعد!

إن لقاء كوليا هذا دفع الأمير إلى أن يتبع الجنرال في دخوله إلى بيت مارتا بوريسوفنا، على ألا يمكث هنالك إلا دقيقة واحدة. لقد كان الأمير في حاجة إلى كوليا. أما عن الجنرال فقد قرر الأمير أن يتركه على كل حال، وأصبح لا يغفر لنفسه أنه فكّر في الاعتماد عليه. وطال الصعود حتى الطابق الثالث على سلم الخدمة.

سأل كوليا أباه أثناء صعود السلم:

- هل تنوي أن تعرفَ بالأمير؟

- نعم يا عزيزي، سوف أعرف به: الجنرال إيفولجين والأمير ميشكين... ولكن... كيف... هي مارتا بوريسوفنا؟

- هل تعلم يا بابا؟ الأفضل ألا تذهب إليها. لسوف تلتهمك التهاماً! انقضت على غيابك ثلاثة أيام، وهي تنتظر أن تحمل إليها مალأ. لماذا وعدتها بذلك؟ هكذا أنت دائماً، دبر أمرك الآن!

وقفوا في الطابق الثالث أمام باب واطئ. كان الجنرال قد خارت عزيمته وبارحته شجاعته، فهو يدفع الأمير إلى أمام، محتمياً به. دمدم يقول له:

- أنا سابقى وراءك. أحب أن أحدث لها مفاجأة!

دخل كوليا أول الداخلين. وظهرت على الباب سيدة مثقلة الوجه بالخضاب، ترتدي نعلين باليين وقميصاً فضفاضاً، قد ضفرت شعرها غدائر صغيرة، وهي في نحو الأربعين من العمر، فما أن ظهرت حتى انعدمت المفاجأة التي أرادها الجنرال انعداماً. فإنها ما كادت تلمحه حتى طفقت تشتم وتلعن قائلة:

- هذا هو! هذا هو الوغد النجس الوقح! قلبي حدثني بأنه آت...!

تمتم الجنرال قائلاً وهو يصطنع ابتسامة بريئة:

– فلندخل، لا قيمة لهذا!

ولكن هذا لم يكن غير ذي قيمة. فما أن قطعوا حجرة المدخل المظلمة الواطئ سقفها، فصاروا في غرفة ضيقة أثاثها نصف دسّنة من كراسي القشي، ومائدتان للعب، حتى استأنفت ربة البيت بكاءها تقول بلهجة دامعة مدروسة يبدو أنها مألوّفة لها معهودة فيها:

– ألا تخجل أيها الهمجي، أيها الطاغية المستبد الذي يسوم أسرتي سوء العذاب، أيها الشرير الزنديق الكافر؟ لقد نهبتني ومصصت دمي، أفلا يكفيك هذا؟ إلى متى أظل أتحملك، يا رجلاً بلا حياء ولا شرف؟

جمجم الجنرال يقول مرتعشاً محتاراً مفلول السلاح:

– مارتا بوريسوفنا، مارتا بوريسوفنا! هذا... هذا هو الأمير ميشكين. الجنرال إيفولجين والأمير ميشكين!

قالت الكابتينة فجأة تخاطب الأمير:

– هل تصدقني إذا قلت لك: أن هذا الرجل الوقح لم يرحم أولادي اليتامى، لم يرأف بهم، لم يشفق عليهم؟ لقد سلب كل شيء، أخذ كل شيء، باعه أو رهنه، ولم يترك لي شيئاً. ما عساي صانعةً بإيصالات الدين هذه كلها أيها المحتال الماكر الذي لا ضمير له؟ أجبني أيها الوغد، أجبني أيها الجشع الذي لا يشبع: بم أطعم أولادي اليتامى؟ هكذا يجيء دائماً: سكران حتى لكأنه ميت من فرط السكر، عاجزاً عن الوقوف على ساقية! ماذا فعلتُ أنا حتى استحققت غضب الله، أيها اللص الدنيء السافل! أجبني!

ولكن الجنرال كان عاجزاً عن الصمود أمام العاصفة. قال:

– مارتا بوريسوفنا، خذي... هذه خمسة وعشرون روبلاً.. هي كل ما أستطيعه الآن بفضل صديقي النبيل جداً! يا أمير! لقد أخطأ ظني خطأ قاسياً! هذه هي الحياة..

ثم ثأناً يقول بمشقة، واقفاً في وسط الغرفة، مترنحاً إلى جميع الجهات:

– ولكن... اعذرني الآن... إنني أشعر بضعف... أرجو أن تعذراني! لينوتشكا، عزيزتي... إليّ بوسادة!

أسرعت لينوتشكا^[34]، وهي صبية في الثامنة من عمرها، فجاءت بوسادة وضعتها على الديوان المهترئ القاسي المنجد بقماش مشمّع. فجلس الجنرال، وكان واضحاً أن هناك

أشياء كثيرة ما يزال يريد أن يقولها. لكنه ما أن مس الديوان حتى مال إلى جانب والتفت نحو الحائط ونام نوماً عميقاً. وبحركة فيها كثير من الاحتفال والتألم أشارت مارتا بوريسوفنا للأمير إلى كرسي قرب مائدة اللعب، فجلس الأمير عليه، وجلست هي قبالتها، وأسندت خلفها الأيمن إلى يدها، وأخذت تتنهد وهي تتأمل الأمير صامتة. واقترب من المائدة ثلاثة أولاد، بنتان وصبي، كبراهم لينو تشكا، فوضعوا أيديهم على المائدة جميعاً، وأخذوا يلاحظون الأمير بانتباه هم أيضاً. وظهر كوتيا، خارجاً من الغرفة المجاورة.

قال له الأمير:

- يسعدني جداً أنني وجدتكم هنا يا كوتيا، فلعلكم تستطيع أن تساعدني. إنني في حاجة إلى أن أذهب إلى ناستاسيا فيليبوفنا حتماً. وقد طلبت من آرداليون ألكسندروفتش منذ حين أن يقودني إلى بيتها، ولكن ها هو ذا قد نام. فهل لك أن تصحبني إلى هناك، لأنني لا أعرف الشوارع ولا الاتجاه؟ لكنني أعرف العنوان: ميدان «المسرح الكبير»، عمارة ميتوفزيفا.

- ناستاسيا فيليبوفنا؟ إنها لم تقطن ميدان «المسرح الكبير» في يوم من الأيام. ثم أن أبي لم يضع قدمه في بيتها قط، إذا أردت أن تعرف الحقيقة. غريب أنك ظننت أن في وسعك أن تعتمد عليه. إنها تسكن غير بعيد عن فلادميرسكايا، بشارع «الأركان الخمسة». إن بيتها أقرب كثيراً من ميدان «المسرح الكبير». الساعة الآن هي التاسعة والنصف. وإنه ليسرني أن أقودك إلى مسكنها.

وسرعان ما خرج كوتيا والأمير. واضطرا أن يمضيا سيرا على الأقدام، لأن الأمير لم يكن قد بقي معه ما يدفع منه كراء عربة، مع الأسف!

- كنت أود لو أعرفك بهيبوليت. إنه الابن الأكبر لهذه الكابتينة ذات القميص الفضفاض. لقد كان في الغرفة المجاورة. إنه مريض، وقد ظل راقداً طوال هذا اليوم. لكنه فتى غريب الأطوار. هو سريع التأذي. وقد خيل إلي أنه قد يخجل إذا أنت جئت في مثل هذا الوقت... أنا أقل شعوراً بالخرج منه. لأن الرجل أبي، على حين أن المرأة أمه، ولا عار يلحق بالذكر كالعار الذي يلحق بالأنثى. قد يكون هذا خطأ من الأخطاء التي يرتكبها المجتمع في أحكامه، إذ يجعل لأحد الجنسين غلبة على الجنس الآخر. إن هيبوليت فتى رائع، لكنه مستعبد لبعض الآراء الاجتماعية السائدة.

- قلت: إنه مريض بالسل؟

- نعم، وأعتقد أن من الخير له أن يموت بسرعة. لو كنت في مكانه لتمنيت أن أموت حتماً. إنه يرثي لحال أخيه وأختيه. لو كان في وسعنا أن نستأجر شقة مستقلة، لو كنا نملك مالاً ندفعه أجراً لشقة مستقلة، لتركنا أسرتنا وعشنا معاً. هذا حلم لنا. هل تعلم أنه غضب غضباً شديداً حين قصصتُ عليه حالتك؟ هو يزعم أن من الجبن والحقارة أن يتلقى المرء صفعةً ثم لا يدعو خصمه إلى مبارزة. يجب أن نذكر أنه على درجة من الحنق كان لا بد لي معها من الانقطاع عن التحدث إليه. إذاً دعتك ناستاسيا فيليبوفنا إلى بيتها أنت أيضاً على الفور؟

قال الأمير:

- لا، لم تدعني.

فصاح كوليا قائلاً وهو يقف في وسط الرصيف:

- فكيف تستطيع إذاً أن تذهب إليها؟ لا سيما و... أنت.. ترتدي مثل هذا اللباس، بينما هي تقيم حفلة فخمة ذات أبهة؟

- حقاً لا أدري كيف سأستطيع أن أدخل. أن استقبلت كان بها، وإلا فلا. أما عن ملابس، فليس في يدي حيلة.

- ولكن هناك سبب يدعوك إلى الذهاب؟ أم تراك لا تبغي إلا أن «تقضي بعض الوقت»^[35] في صحبة مجتمع محترم؟

- لا... الواقع أن... أعني... هناك سبب يدعوني إلى الذهاب إليها حقاً. يصعب عليّ أن أوضح ما بنفسي، ولكن...

- أما ما هو ذلك السبب، فهذا أمر يخصك أنت ولا شأن لي به. غير أن الشيء الذي يهمني هو ألا تدعو نفسك، بغير سبب، إلى سهرة تضم هذه النخبة الفتانة من «غادات كاميليا»، وجنرالات، ومرابين. فلولا أن هناك سبباً يدعوك إلى الذهاب، إذن لسخرت منك واحتقرتك يا أمير! معذرة! ليس ثمة إلا قلة من أناس شرفاء، ولا يكاد يوجد أحد يستحق الاحترام. إن المرء مضطر أن ينظر إليهم من فوق، ومع ذلك تراهم جميعاً يطالبون بالاحترام. وفي طليعتهم فاريا. هل لاحظت يا أمير أن جميع الناس في عصرنا هذا مغامرون؟ ولا سيما عندنا، في روسيا، في وطننا الحبيب! أما كيف أمكن أن يحدث هذا كله، فذلك ما لا أفهمه! لقد كان كل شيء يبدو متين القواعد راسخ الأسس، والآن... أن جميع الناس يقولون هذا الكلام ويكتبونه في كل مكان. أن جميع الناس

يتهمون. والآباء يتراجعون أول المتراجعين، ويحمرّون خجلاً من عاداتهم القديمة وأخلاقهم الماضية. إليك هذا المثال: أبٌ بمدينة موسكو يوصي ابنه بأن «لا يصدّه شيء» في سبيل الحصول على مال^[36]. تحدثوا عن هذا في الجرائد. انظر أيضاً إلى أبي الجنرال! انظر إلى أين وصل! ولكن هل تعلم؟ يخيّل إليّ أن الجنرال رجل شريف مع ذلك. أحلف لك! الفوضى والشراب هما وحدهما أفسداه! الأمر كذلك، أوكد لك! خسارة! إنني أخاف أن أعلن هذا الرأي، لأن الجميع يضحكون عليه ويسخرون منه. شيء مؤسف حقاً! وبماذا يتفوقون عليه أولئك الأذكىاء؟ هم جميعاً مرابون، جميعاً بغير استثناء! أن هيبوليت لا يؤاخذ المرابين ولا يستنكر عملهم. هو يزعم أن الربا ضرورة، ويتكلم عن إيقاع اقتصادي، وعن مد وجزر، وما لا أدري أيضاً! شيطان يأخذهم! هذا يضايقني كثيراً من هيبوليت، ولكن هيبوليت حانق! تصور أن أمه الكابتينة تأخذ مالاً من الجنرال، ثم تقرضه من هذا المال نفسه بالربا لأسبوع! يا للعار! وهل تعلم أن أمي، أمي أنا، أقصد نينا ألكسندروفنا، الجنرالة، ترسل إلى هيبوليت أمتعة ومالاً، بل وتساعد بواسطته إخوته الصغار لأن أهمهم تهملهم! وكذلك تفعل فاريا أيضاً.

- هأنت ذا ترى بعينيك إذاً يا كوليا! أنت تزعم أن لم يبق هناك أناس شرفاء أقوياء، ولم يبق هناك إلا مرابون. فما قولك بأمك وما قولك بفاريا؟ أليستا قويتين؟ أليس دليلاً على قوة الخلق عند الإنسان أن يساعد الناس في مثل هذه الظروف؟

- إن فاريا تفعل ما تفعله حبا للظهور وميلاً إلى التفاخر، حتى لا تكون دون أمها. أما أمي... فقولك عنها صحيح... إنني أحترمها؟ نعم إنني أحترمها وأبرر سلوكها. حتى أن هيبوليت نفسه يشعر شعوري، رغم إن عواطفه قد قست قسوة تامة. كان في أول الأمر يسخر من أمي ويعد ذلك منها صغاراً وحطة، أما الآن فقد أخذ يتأثر بعض التأثير أحياناً. هم... أنت تعد ذلك إذن قوة. سأسجل هذا. إن جانيا يجهله. ولو سئل لوصفه بأنه تشجيع على الرذيلة.

أفلت من الأمير قوله رغم إرادته، بينما كان غارقاً في أفكاره:

- ها... جانيا يجهله؟ يخيّل إليّ أن جانيا يجهل أشياء كثيرة أخرى!

قال كوليا:

- هل تعرف أنك تعجبني كثيراً يا أمير؟ إن الحادث الذي وقع منذ ذلك الحين لا يبارح ذهني.

- أنت أيضاً تعجبني كثيراً يا كوليا.

- اسمع: على أي نحو تقدر أن تعيش هنا؟ أنا سوف أجد لنفسي عملاً بعد حين، فأكسب بعض المال، فإذا عشنا معاً، أنت وهييوليت وأنا، كان في وسعنا أن نكتري شقة وأن نستقبل الجنرال في بيتنا، فما رأيك؟

- أقبل ذلك بسرور عظيم، على كل حال سوف نرى في المستقبل. أما الآن فأنا مضطرب... مضطرب جداً. ماذا؟ وصلنا؟ في هذا المنزل؟... ما أفخمه مدخلاً! حتى أن هناك سويسرياً. طيب!... لا أدري يا كوليا كيف يمكن أن تجري الأمور.

كان الأمير مضطرباً حائراً، حقاً!

قال كوليا يشجعه:

- سوف تقص عليّ كل شيء غداً! لا تدع للوجل سبيلاً إلى نفسك. اسأل الله أن يمدّك بعونه، لأنني أشاركك جميع آرائك. أستودعك الله. أنا عائد إلى هناك، وسأروي هذا كله لهييوليت. أما أنهم سيستقبلونك، فكن من ذلك على يقين، لا تخش شيئاً! إنها امرأة غريبة الطبع متفردة! اصعد هذا السلم. البيت في الطابق الأول. سيدلك عليه السويسري.

الفصل الثالث عشر

كان الأمير أثناء صعود السلم يشعر بقلق شديد، ويحاول أن يستجمع شجاعته بكل ما يملك من قوة. وكان يحدث نفسه قائلاً: «أسوأ الاحتمالات ألا أستقبل، وأن يأخذوا عني فكرة سيئة، أو أن يستقبلوني ليستهزئوا بي ويتهكموا عليّ طيب... لا بأس!». والواقع أن ذلك ليس ما كان يخشاه. غير أنه لم يكن يجد جواباً مطمئناً عن هذا السؤال: «ماذا جاء يعمل هنا، ولماذا جاء؟». ذلك أنه حتى لو أتيح له أن يقول لناستاسيا فيليبوفنا: «لا تتزوجي هذا الرجل، لا تضيعي نفسك، فهو لا يحبك، وإنما يحب مالك وحده، وأنه قال لي ذلك هو نفسه، وأن أجاليا إيبانتشين قالت له لي كذلك، وإنني جئت لأنقل إليك هذه الحقيقة». فإن من المشكوك فيه أن يكون هذا صحيحاً صادقاً من جميع الوجوه. وكان الأمير يلقي على نفسه سؤالاً آخر لا سبيل إلى حله، سؤالاً يبلغ من الخطورة أنه كان لا يجرؤ حتى على أن يفكر فيه، ولا يستطيع أن يسلم به، ولا يعرف كيف يصوغه. ولكن أية كانت شكوكه وأنواع قلقه، فقد دخل أخيراً، وطلب ناستاسيا فيليبوفنا.

أن ناستاسيا فيليبوفنا تشغل شقة إن لم تكن واسعة جداً فهي مجهزة أحسن تجهيز. إنها أثناء إقامتها ببطرسبرج مدة هذه السنين الخمس، قد أغدق عليها آتانازي إيفانوفتش إغداقاً كبيراً خلال فترة معينة في أول الأمر. كان لا يزال يأمل أن يحافظ على حبها، وكان لا يزال يعول على أن يفتنها بالرخاء والترف، لعلمه بأن الإنسان يألف الرخاء والترف بسهولة كبيرة، فيصعب عليه بعد ذلك أن يستغني عنهما متى أصبحت ضرورة من الضرورات شيئاً بعد شيء. ولقد كان توتسكي وفيما للعادات القديمة لا يغير منها شيئاً، وظل يؤمن بأن للحواس سلطاناً لا يقهر، فهو لذلك يحترم هذا السلطان احتراماً لا حدود له. وكانت ناستاسيا فيليبوفنا لا تكره الترف بل وتحبه، لكنها - وهذا هو الشيء الغريب - لم تستعبد له، حتى لكانها قادرة على أن تستغني عنه في كل لحظة؛ بل إنها حاولت عدة مرات أن تعلن ذلك، فدهش توتسكي وانزعج. على أن هناك أشياء كثيرة في ناستاسيا فيليبوفنا كانت تدهشه وتسوؤه (حتى لقد بلغ بعد ذلك حد احتقارها). فإلى جانب عامية الناس الذين كانت تحيط نفسها بهم أحياناً، وهذا يكشف عن ميل طبيعي فيها، أخذت تظهر لديها ميول أخرى غريبة كل الغرابة، هي خليط

وحشي عجيب من أذواق شتى تجعلها قادرة على أن تحب وتستعمل أشياء أو وسائل لا يمكن أن يقبل استعمالها إنسان أوتي حظاً من رقى النفس وعلو الثقافة. لعل آتانا زي إيفانوفتش كان يمكن أن يفتنه مثلاً أن يراها تتظاهر أحياناً بأنها تجهل جهلاً ساذجاً بريئاً أن الفلاحات الروسيات لا يلبسن ملابس داخلية من قماش الباتيستا مثلما تلبس هي؛ فلو فعلت لكان ذلك منها شيئاً جميلاً أخذاً. أن جميع الجهود التي بذلها آتانا زي إيفانوفتش في المرحلة الأولى من تربيتها وتعليمها إنما كانت تهدف إلى بلوغ مثل هذه النتيجة، وفقاً للبرنامج الذي وضعه على أساس خبرته الواسعة العميقة. لكن ثمرات جهوده خيبت آماله واأسفاه! ومع ذلك فقد بقي في ناستاسيا فيليبوفنا شيء يفرض نفسه عالي آتانا زي إيفانوفتش، هو تفرد نادر يفتنه ويغريه ويغويه، وظل متسلطاً عليه مستبداً به، حتى بعد أن تداعت جميع الآمال التي عقدها على هذه المرأة الشابة.

استقبلت الأمير خادمةً (كانت ناستاسيا فيليبوفنا لا تستخدم إلا نساء) فأصغت إلى كلامه وهو يطلب منها أن تبلغ عنه ناستاسيا فيليبوفنا، أصغت إلى كلامه دون أن تظهر عليها أية حيرة، فدهش الأمير من ذلك دهشة كبيرة. فلا حذاء المتسخان، ولا قبعته العريضة حوافها، ولا معطفه الذي ليس له أكمام، ولا هيئته المضطربة، لا شيء من ذلك كله أحدث في نفسها أي تردد. وقد ساعدته في خلع معطفه، ورجته أن ينتظر في حجرة المدخل، وأسرعت تبلغ عنه فوراً.

كان المدعوون عند ناستاسيا فيليبوفنا هم أصحابها المؤلفين. حتى لقد كان عدد الناس في عيد ميلادها هذا أقل مما كان في أعياد ميلادها السابقة. فمنهم أولاً وقبل كل شيء آتانا زي إيفانوفتش توتسكي، وإيفان فيدوروفتش إيبانتشين، وكانا يظهران كلاهما كثيراً من التودد والبشاشة، ولكن كان يبدو عليهما مع ذلك نوع من قلق ثقيل سببه توقهما الواضح المحرق إلى أن يعرفا أخيراً ما وعدت به ناستاسيا فيليبوفنا من إعلان إجابتها في موضوع جانبا. وكان هناك جانبا بطبيعة الحال. كان يبدو هو أيضاً قاتم المزاج كثير التفكير، حتى إنه من فرط ذلك يوشك أن يكون «قليل الأدب»، فهو في أكثر الأحيان معتزل منزو صامت. وهو لم يجرؤ أن يصطحب فاريا، ولكن ناستاسيا فيليبوفنا لم تلمح إلى ذلك ولم تشر إليه، بينما هي، في مقابل ذلك، ما أن سلّمت عليه حتى ذكرته بالحادثة التي وقعت له مع الأمير. ولم يكن الجنرال إيبانتشين قد علم بالأمر بعد، لذلك أظهر اهتماماً وأصغى منتبهاً. فطفق جانبا عندئذ يقص، بلهجة جافة وأسلوب متحفظ ولكن بصراحة مطلقة، ما قد جرى بعد الظهر، وأضاف إلى ذلك أنه قد مضى إلى الأمير يستغفره. وذكر في هذه المناسبة، بحرارة وحماسة، الرأي الذي ذهب إلى أن الأمير أبله، فاستغرب ذلك الرأي تماماً، إذ هو يعتقد

اعتقاداً جازماً بأن الأمير «رجل يعرف ماذا يريد». وقد أصغت ناستاسيا فيليبوفنا إلى هذا الرأي بكثير من الانتباه، وكانت تلاحظ جانبا مستطلعة مستغربة.

لكن الحديث سرعان ما انحرف نحو روجويين الذي شارك في الحادث مشاركة رئيسية هو أيضاً، وأثار هو أيضاً اهتمام آتانايزي إيفانوفتش وإيفان فيدوروفتش إثارة كبيرة. وقد اتفق أن استطاع بتتسين أن ينقل بعض المعلومات الخاصة عن روجويين الذي ظل حتى الساعة التاسعة من المساء تقريباً يسعى هنا وهناك لتنفيذ غرضه وتحقيق مأربه. لقد كان روجويين يصبر إصراراً شديداً على أن تجمع له المائة ألف روبل في ذلك المساء نفسه.

قال بتتسين أثناء حديثه:

– صحيح أنه سكران، ولكن يبدو أن المائة ألف روبل ستُجمع له أخيراً، مهما تكن المصاعب. كل ما هنالك أنني لا أدري هل يتم ذلك في هذا اليوم نفسه، ولا أدري هل يكون المبلغ كاملاً. غير أن الذين يعملون في الأمر كثيرون، فهناك كنيدر، وهناك تريبالوف، وهناك بيسكوب.

وختم بتتسين كلامه قائلاً:

– أن روجويين مستعد لدفع أي فائدة عن هذه القروض، وذلك لأنه في سكرين، سكر الخمرة وسكر فرحته الأولى.

هذه الأنباء كلها قد استقبلها الحضور باهتمام مكفهر بعض الشيء. وكانت ناستاسيا فيليبوفنا صامتة، وكان واضحاً أنها لا تريد أن تفصح عن رأيها؛ وكذلك جانبا من جهة أخرى.

لعل الجنرال إيبانتشين كان في قرارة نفسه أشد قلقاً من أي شخص آخر: أن اللآلئ التي قدمها في النهار قد استُقبلت بأدب فاتر وكياسة جامدة حتى لكان شيئاً من سخريّة كان يخالط ذلك الأدب وتلك الكياسة. وبين جميع المدعوين كان فردشتينكو مشرق المزاج مرحاً، فكان يضحك ضحكاً مجلجلاً، كما يحسن ذلك في يوم عيد، وكان ضحكه في بعض الأحيان بغير مناسبة تدعو إلى الضحك، لا لشيء إلا لأنه قد فرض على نفسه هذا الدور، دور المهرج. أما آتانايزي إيفانوفتش الذي اشتهر هو نفسه بأنه محدث بارع لبق، والذي كان في السهرات الماضية هو من يمسك زمام الحديث ويوجه دفته، فإنه في حالة اضطراب ليست معهودة فيه.

وأما المدعوون الآخرون، وعددهم قليل على كل حال، فهم: معلم مدرسة عجوز يرثي المرء لحاله، ولا يدري إلا الله لماذا دُعي إلى هذه الحفلة؛ وشاب في ريعان الصبا لا يعرفه أحد من الحضور، خجول خجلاً رهيباً، صموت صموتاً عنيداً؛ وسيدة جريئة في نحو الأربعين من عمرها كانت في الماضي ممثلة؛ وسيدة شابة جميلة جداً رانعا، ترتدي ثياباً أنيقة أشد الأناقة غنية كل الغنى، لكنها قليلة الكلام جداً.

كان هؤلاء جميعاً لا عاجزين عن تنشيط الحفلة فحسب، بل كانوا عاجزين حتى عن العثور على موضوع لحديث.

لذلك كان ظهور الأمير في هذه الظروف أمراً مناسباً جاء في محله وفي أوانه. ولئن أحدث الإبلاغ عن وصوله شيئاً من الحيرة والبلبل، ورسم على الشفاه ابتسامات دهشة، لا سيما وأن الحضور قد أدركوا من إمارات الاستغراب التي لاحت في وجه ناستاسيا فيليبوفنا أنها لم تكن قد خطر ببالها أن تدعوه قط، فإن ناستاسيا فيليبوفنا ما لبثت بعد بادرة الاستغراب الأولى هذه أن أظهرت على حين فجأة رضىً وارتياحاً بلغا من القوة أن أكثر المدعوين أسرعوا يتهيؤون لاستقبال الزائر الذي قادته المصادفة استقبلاً فرحاً مرحاً.

قال إيفان فيدوروفتش يختم كلامه:

— رغم أن براءته الساذجة هي التي تتحمل تبعة ذلك، ورغم أن تشجيع ميول من هذا النوع أمر خطر على كل حال، فليس سيئاً أن خطرت بباله فكرة المجيء الآن، وإن يكن ذلك شذوذاً؛ حتى لقد يحمل إلينا شيئاً من مرح، إذا صدق ما أعرفه عنه.

وأسرع فردشتينكو يقول:

— ولا سيما أنه دعا نفسه بنفسه!

قال الجنرال يسأل بخشونة، لأنه يكره فردشتينكو:

— أي ضير في هذا؟

— عليه أن يدفع رسم الدخول!

— أمير اسمها ميشكين ليس كرجل اسمه فردشتينكو!

بهذا أجاب الجنرال مندفعاً، ولم يكن قد استطاع أن يعتاد أن تضمه هو وفردشتينكو سهرة واحدة يكونان فيها ندين.

أجاب فردشتينكو وهو يضحك ضحكة ساخرة:

- على مهلك يا جنرال! عليك أن تراعي فردشتينكو وأن تداريه. إن لي هنا حقوقاً خاصة.

- ما هي هذه الحقوق الخاصة؟

- أتيح لي في المرة الماضية شرف شرحها للحفل. ومع ذلك يسرني أن أكرر لسعادتك ما سبق أن شرحتة. أن جميع الناس هنا يا صاحب السعادة، كما تستطيع أن تلاحظ ذلك، يملكون فكراً، أما أنا فمحروم من الفكر. ومن باب التعويض عن ذلك حصلت على إذن بأن أقول الحقيقة، لأن كل إنسان يعلم أن الحقيقة لا تنتمي إلا إلى المحرومين من الفكر. أضف إلى ذلك أنني أحب الانتقام، ومرد هذا أيضاً إلى أنني محروم من الفكر. فأنا أحتمل الإساءات والإهانات مذعناً، ما ظل الرجل الذي أساء إليّ وأهانني محتفظاً بما له من حظوة، حتى إذا بدت أولى علائم فقدته الحظوة، تذكرت الإساءة أو الإهانة التي ألحقها بي، فتأرت لنفسي، فرفست ولبظت، على حد التعبير الذي استعمله في وصفي إيفان فيدوروفتش بتتسين ذات يوم، وهو رجل لا يرفس أحداً ولا يلبظ أحداً قط. هل تعرف حكاية كيرلوف^[37] «الأسد والحمار» يا صاحب السعادة؟ هما نحن، أنت وأنا، يا صاحب السعادة! لقد كُتبت الحكاية عنا نحن.

قال الجنرال غاضباً:

- أراك تفرط مرة أخرى!

وكان فردشتينكو لا ينتظر إلا هذا ليستمر في كلامه، وليمضي إلى أبعد من ذلك، فاستأنف كلامه يقول:

- ما بك يا صاحب السعادة؟ لا تقلق! أنا أعرف مكاني يا صاحب السعادة. فإذا قلت: إننا، أنت وأنا، الأسد والحمار اللذان تحدثت عنهما الحكاية، فمن المفهوم أنني أحتفظ لنفسي بدور الحمار، بينما أنت الأسد يا صاحب السعادة، كما ورد في حكاية كيرلوف^[38]:

أسد قوي يهرب الغابات

فقد القوى إذ دب فيه الهرم

فأنا الحمار يا صاحب السعادة.

أفلت من لسان الجنرال قوله بغير ترو ولا تبصر:

- في هذه النقطة، أوافقك على رأيك!

ذلك كله كان فظاظه وغلظة طبعاً؛ وكان واضحاً أنه مبيت ومقصود. غير أن فردشتينكو كان قد ملك إلى الأبد حق أن يكون مهرجاً. حتى لقد صاح يقول في ذات يوم: «ثم إنني إنما أُستقبل هنا لهذا الغرض، وإنما يُحتفظ بي هنا لهذا الغرض، أعني من أجل أن أتكلم بهذه الطريقة. وإلا فهل يمكن أن يُستقبل رجل مثلي؟ أنا أفهم ذلك وأدركه... هيا!... هل من المقبول أو من المعقول أن أوضع، أنا فردشتينكو، جنباً إلى جنب مع سيد نبيل مرهف الفكر والشعور مثل آتانازي إيفانوفتش؟ لا بد لي إذاً أن أخلص من ذلك إلى هذه النتيجة، وهي أنني لا يتيسر لي هذا إلا لأنه غير مقبول وغير معقول!«.

ولكن فردشتينكو كان رغم عاميته وابتذاله يفلح أحياناً في أن يكون لاذعاً جداً؛ فكان ينبغي للذين يريدون أن يُستقبلوا في دار ناستاسيا أن يتحملوا فردشتينكو. ولعل فردشتينكو قد أدرك منذ البداية أن ناستاسيا فيليبوفنا أخذت تستقبله لأنه استطاع أن يزعج توتسكي منذ أول يوم. كما أن جانبا قد تحمل منه عذاباً لا نهاية له. فبهذا المعني عرف فردشتينكو أن يكون ذا نفع كبير وفائدة عظيمة لناستاسيا فيليبوفنا.

قال فردشتينكو وهو يراقب بطرف عينه أثر كلامه في ناستاسيا فيليبوفنا:

- أما الأمير فسيأخذ يغنى لنا أغنية على الموضة.

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا بخشونة:

- لا أظن ذلك يا فردشتينكو، وأنا أنصحك بأن لا تندفع كثيراً

- ... إذا كان ينعم بحماية خاصة، فلم يبق عليّ ألا أن أكون رقيقاً لطيفاً، وأن...

لكن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد نهضت دون أن تصغي إلى كلامه، ومضت تستقبل الأمير.

قالت وهي تظهر أمام الأمير فجأة:

- يؤسفني أنني نسيت من تعجلي أن أدعوك منذ قليل. وإنني ليسرني جداً أن تهين لي بنفسك فرصة شكرك وتهنئتك على ما تملك من روح التصميم.

كانت وهي تتكلم تنظر إلى الأمير بانتباه، محاولة أن تفسر لنفسها سبب مجيئه.

ولقد كان يمكن أن يردّ الأمير على كلماتها اللطيفة، لكنه كان مبهوراً مبهوراً فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة.

وقد لاحظت ناستاسيا فيليبوفنا ذلك مسرورةً مبتهجة. لقد كانت في ذلك المساء في أبهى حلة وأجمل زينة، وكان منظرها يحدث في النفس أثراً قوياً.

أمسكت الأمير من يده، وقادته إلى حيث كان المدعوون. وقد توقف الأمير على حين فجأة قبيل دخول الصالون وأسرع يهمس في أذنها منفعلاً انفعلاً شديداً:

- كل شيء فيك رائع كامل.. حتى نحولك وشحوبك.. لا يمكن أن يتمنى لك المرء غير هذا... لقد بلغت من قوة الرغبة في المجيء إليك أنني... معذرة... سامحيني...

قالت ناستاسيا فيليبوفنا ضاحكة:

- لا تعتذر، وإلا أفقدت بادرتك غرابتها وطرافتها. كانوا على صواب حين قالوا: أن فيك غرابة وتفرداً. إذن أنت تعدني رائعة كاملة؟

- نعم.

- هنا أنت تخطئ، رغم أنك تعدّ أستاذاً في فن الحزر والتنبؤ. سأذكرك بذلك في هذا المساء نفسه...

وقدمت الأمير إلى ضيوفها الذين كان أكثر من نصفهم قد عرفه من قبل. وسرعان ما وجد توتسكي شيئاً لطيفاً يقوله. وبدأ على الحفل شيء من الانتعاش، وأخذوا جميعاً يتكلمون ويضحكون. وأجلست ناستاسيا فيليبوفنا الأمير إلى جانبها.

صرخ فردشتينكو يقول وقد طغا صوته على جميع الأصوات:

- أي غرابة حقاً في مجيء الأمير؟ أن المسألة واضحة جلية.

فقال جانيا فجأة بعد أن ظل أخرس حتى ذلك الحين:

- بل المسألة واضحة كل الوضوح، جلية كل الجلاء! لقد ظللت أراقب الأمير هذا اليوم بلا انقطاع تقريباً، منذ اللحظة التي رأى فيها صورة ناستاسيا فيليبوفنا على مكتب إيفان فيدوروفتش. وإني لأتذكر تذكراً واضحاً أن فكرة قد قامت في ذهني حينذاك، وترسخت الآن في نفسي قوية، حتى أن الأمير نفسه قد أسرّ إليّ باعترافات عنها، أقول هذا عابراً...

نطق جانبا ثلاث العبارة كلها بجد كبير لا يخالطه أي مزاح، حتى أن وجهه كان مكفهراً، فأثار ذلك شيئاً من الدهشة.

أجاب الأمير يقول وقد احمر وجهه:

- أنا ما أسررت إليك بأي اعتراف، ولم أزد على أن أجبتُ عن سؤال ألقيته أنت عليّ.

أعول فردشتينكو يقول:

- مرحى! مرحى! هذا كلام فيه صدق على الأقل، فيه صدق وصدق.

وضحك الجميع مقهقهين. فقال بتتسين بصوت خافت فيه اشمئزاز:

- لا تصرخ هذا الصراخ يا فردشتينكو!

وقال إيفان فيدوروفتش:

- لم أكن أتوقع منك، يا أمير، «لمحات» من هذا النوع، لمحات لا يجيد مثلها إلا... إلا... لقد كنت أتصورك فيلسوفاً لا أكثر! ألا أن على المرء أن يخشى الماء الساكن!

- حين رأيت كيف يحمرُّ الأمير احمراراً فتاة بريئة لمزحة بريئة، انتهيت إلى أن هذا الشاب النبيل يضمّر قلبه أشرف النيات ويضم أجمل المشاعر!

كذلك قال: بل زأزأ يقول على دهشة من الحضور كافة، معلّم المدرسة الأهم الذي يبلغ من العمر نحو سبعين عاماً، والذي لبث صامتاً خلال ذلك الوقت، وكان لا يتوقع أحد منه أن ينطق بكلمة واحدة طوال السهرة. فانطلقت الضحكات مجلجة مزيداً من الجلجلة. وظن العجوز المسكين أن الناس تضحك لنكتته الفكهة فأخذ يشاركهم الضحك وهو ينظر إليهم، حتى ألمت به نوبة سعال شديد. وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تحب هذا النوع من الرجال الشيوخ والنساء العجائز الذين يتصفون بشيء من الغرابة والتفرد والشذوذ، بل كانت تحب حتى ضعاف العقول، فأخذت تلاطفه وتدللّه، حتى لقد قبلته، ثم أمرت بأن يُصب له فنجان آخر من الشاي. وطلبت من الخادمة أن تجيئه بخمارها فدثرت به وأمرت بإضافة حطب إلى الموقد.

وحين سألت الخادمة عن الساعة، أجابتها الخادمة بأن الساعة هي العاشرة والنصف.

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا تخاطب الحفل:

- ألا تشربون شمبانيا أيها السادة؟ لقد حضّرت الشمبانيا، فعسى أن تجعلكم الشمبانيا أكثر مرحاً؛ فارفعوا التكليف، أرجوكم...

إن هذه الدعوة إلى الشراب، ولا سيما بعبارات تبلغ هذا المبلغ من السذاجة، قد بدا صدورها عن ناستاسيا فيليبوفنا غريباً كل الغرابة. أن الجميع يعرفون التقيد بالقواعد الصارمة والآداب الدقيقة التي كانت تسود حفلاتها السابقة. لقد أخذت السهرة تنتعش ولكنها فاقت في انتعاشها المألوف في أمثالها. لم يرفض أحد الشمبانيا: قبلها الجنرال أولاً، ثم السيدة المتبرجة، فالشيخ المسكين، ثم فردشتينكو، ثم قبلها الجميع آخر الأمر. لقد قبل توتسكي، هو أيضاً، كأساً من الشمبانيا، بغية أن يسبع شيئاً من روح الدعابة اللطيفة على المجرى الجديد الذي جرت فيه السهرة. لكن جانبا وحده لم يشرب شيئاً. أما ناستاسيا فيليبوفنا التي تناولت كأساً كذلك، وأعلنت أنها ستشرب أثناء السهرة ثلاث كؤوس على الأقل، فقد كان من الصعب على المرء أن يفهم شيئاً من حركاتها المفاجئة العنيفة، وضحكها العصبي الذي لا موضوع له، والذي تتخلله فترات تفكير متجهم صامت. قدّر بعضهم أنها تعاني من حمى. وبدأوا يلاحظون أخيراً أنها تنتظر هي نفسها شيئاً ما، فهي تلقي نظرات كثيرة متكررة على ساعة الجدار، وهي قد أخذ يظهر عليها نفاذ الصبر وشروء الفكر.

سألتها السيدة الجريئة قائلة:

- كأنك تعاني شيئاً من الحمى!

فأجابتها ناستاسيا فيليبوفنا، مصفرة الوجه فعلاً، جاهدة أن تكبح ارتعاضها:

- بل إنني أعاني حمى شديدة، لذلك تدثرت بخماري.

فقامت من حولها حركة اضطراب وقلق.

اقترح توتسكي قائلاً وهو ينظر إلى إيفان فيدوروفتش:

- ماذا لو تركنا مضيفتنا ترتاح؟

فهمت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بإلحاح ذي دلالة:

- لا، أبداً أيها السادة! أنا أصر على أن تبقوا. إنني لا أستطيع الاستغناء عن وجودكم

هذا المساء.

وإذ كان جميع الضيوف تقريباً يعلمون سلفاً أن قراراً يبلغ مبلغاً كبيراً من خطورة

الشأن سيُتخذ في أثناء هذه السهرة، فقد بدت لهم هذه الكلمات مثقلة بالمعاني. وتبادل الجنرال وتوتسكي نظرة جديدة. وسرت في جانبا رعشة.

قالت السيدة الجريئة:

- يستحسن أن ننظّم «لعبة صغيرة».

فصاح فردشتينكو يقول متحمساً:

- أنا أعرف لعبة جديدة رائعة. هي على كل حال لعبة لم تُجرّب إلا مرة واحدة، ثم لم تنجح!

سألته السيدة الجريئة:

- ما هي هذه اللعبة؟

- اجتمعنا في ذات يوم لضيافاً من الأصحاب. فلما شربنا قليلاً - والحق يقال - اقترح أحدهم أن يقص كل واحد منا، دون أن ينهض عن المائدة، قصة عن نفسه، على شرط أن يكون في قرارة ضميره مقتنعاً بأن القصة التي سيرويها هي أسوأ فعل ارتكبه في حياته، وعلى شرط أن يكون صادقاً كل الصدق، خاصة أن يكون صادقاً كل الصدق فلا يكذب البتة!

قال الجنرال:

- فكرة عجيبة!

- ليس هناك فكرة أعجب منها يا صاحب السعادة، ولكن هذا نفسه سرٌ حسنها.

قال توتسكي:

- شيء مضحك! لكنه مفهوم! نوع مقلوب من التباهي والمفاخرة!

- لعل هذا بعينه هو ما كانوا ينشدونه يا آتانا زي إيفانوفتش.

قالت السيدة الجريئة:

- أمثال هذه اللعب تبكي أكثر مما تضحك!

قال بتتسين:

- لعبة سخيفة!

سألت ناستاسيا فيليبوفنا:

- وهل نجحت اللعبة؟

- لم تنجح! جرت الأمور مجري سيئاً! صحيح أن كل واحد روى حكاية، وذكر أموراً صادقة كثيرة، حتى أن بعضهم كان يجد في رواية قصته لذة - تصوروا! - ولكنهم جميعاً شعروا بالخزي والعار آخر الأمر، ولم يقولوا على متابعة اللعبة إلى نهايتها! يمكن أن نقول بوجه عام: أن اللعبة كانت مسلية، ولكن في بدايتها طبعاً!

قالت ناستاسيا فيليبوفنا وقد تحمست فجأة:

- يحسن حقاً أن نجرب! حقاً يجب علينا أن نجرب هذه اللعبة أيها السادة! إنني ألاحظ أننا لم نستطع حتى الآن أن نخلق جواً مرحاً في هذا المساء، ليت كل واحد منا يقبل أن يقص شيئاً ما... من هذا النوع طبعاً، إذا هو أراد... فكل واحد حر، هه؟ ولعلنا نستطيع أن نمضي في هذا إلى آخر الشوط. على كل حال، اللعبة طريفة جداً!..

قال فردشتينكو:

- فكرة عبقرية! غير أن السيدات معميات... السادة وحدهم هم الذين سيقصون!... وسنحدد دور كل واحد بالقرعة، كما فعلنا في المرة السابقة، هذا لا بد منه! والذي لا يريد أن يروي حكاية، له أن يمتنع طبعاً... ولكن لا بد أنكم توافقون على أن هذا لن يكون لطيفاً منه! ليكتب كل واحد اسمه على ورقة أيها السادة، ولنضع الأوراق كلها في قبة، هنا! وسيتولى الأمير سحب الأوراق واحدة بعد واحدة بالقرعة. مهمتكم بسيطة جداً. على كل واحد منكم أن يقص قصة أسوأ فعل ارتكبه في حياته. وهذا سهل جداً أيها السادة! سوف ترون! حتى إذا لاحظت في ذاكرة أحدكم توانياً، توليت أنا تنشيطها!

كانت الفكرة مستهجنة فلم ترض أحداً. فبعضهم تقطبت حواجبهم واكفهرت وجوههم، وبعضهم رسموا على شفاههم ابتسامات ساخرة. واحتج بعض آخر، ولكن دون إلحاح شديد، مثل إيفان فيدوروفتش الذي كان لا يريد أن يسخط ناستاسيا فيليبوفنا والذي كان قد لاحظ مدى افتتانها بهذه الفكرة الغريبة، ربما لما تتصف به هذه الفكرة من غرابة توشك أن تكون استحالة. ولقد كانت ناستاسيا فيليبوفنا امرأة لا ينشني عزمها ولا تتراجع عن رغباتها متى قررت أن تظهر هذه الرغبات، ولو كانت نزوات شاذة لا تجديها نفعاً. وإنها الآن لفي حالة تكاد تكون هسترية، فهي تتحرك كثيراً وتضطرب اضطراباً شديداً وتضحك ضحكاً تشنجياً، ولا سيما في الرد على ما كان يبيديه توتسكي من احتجاج قلق. كانت عيناها القاتمتان تسطعان، وقد ظهرت على خديها

الشاحبين بقعتان حمراوان. ولعل ما في وجوه بعض المدعويين من تجهم واشمئزاز كان يزيد ضرام رغبتها الساخرة في إزعاجهم؛ ولعل ما كان يرضيها في تلك الفكرة التي اقترحتها فردشتينكو إنما هو استخفافها واستهتارها وقسوتها. حتى لقد أيقن بعضهم أن ناستاسيا فيليبوفنا تبیت نية ما. على أن الحضور قد قبلوا الاقتراح أخيراً، فالفكرة طريفة شائقة على كل حال، وهي بالنسبة إلى بعضهم مغرية أشد الإغراء، وكان فردشتينكو أكثر الحضور نشاطاً وحركة.

قال المراهق الصموت سائلاً في خجل:

– فماذا لو كانت القصة يستحيل على المرء أن يرويها... بحضور سيدات؟

فأجابه فردشتينكو قائلاً:

– ما عليك في هذه الحالة إلا أن تمتنع عن روايتها. يا للشباب الساذج! لكأنه لا توجد أفعال أخرى سيئة كثيرة!

قالت السيدة الجريئة صائحة:

– أما أنا فلا أدري ماذا أختار من بين أفعالي السيئة!

فعاد فردشتينكو يكرر:

– النساء معفيات من ضرورة رواية شيء. لكنهن معفيات فحسب. أما من شاءت منهن أن تذكر شيئاً من وحي ذاتها ومن تلقاء نفسها، فلها أن تفعل ذلك مشكورة. والرجال أيضاً معفيون إذا أزعجتهم هذه اللعبة كثيراً.

سأل جانبا:

– ولكن كيف أبرهن على أنني لا أكذب؟ إذا كذبت فقدت اللعبة كل معناها. ومن ذا الذي يمكن ألا يكذب؟ إن كل واحد سوف يكذب، هذا أكيد!

صاح فردشتينكو يقول في نوبة من حماسة شديدة:

– يكفي أن نرى أحد الأشخاص يكذب حتى نشعر من هذا وحده بمتعة. أما أنت يا جانيتشكا فليس لك أن تخشى الكذب حقاً، لأن الفعل الذي هو أسوأ ما ارتكبت في حياتك من أفعال سيئة يعرفه الجميع منذ الآن. تصوروا كذلك أيها السادة، تصوروا بأي عين سينظر كل منا إلى الآخر غداً بعد جميع القصص التي سنرويها!

سأل توتسكي بوقار وورصانة:

- أهذا ممكن؟ أهذا جدّ حقاً يا ناستاسيا فيليبوفنا؟

قالت ناستاسيا فيليبوفنا ساخرة:

- من يخشى الذئب لا يذهب إلى الغابة!

وعاد توتسكي يقول ملحاً، بينما كان قلقه يزداد ويشتد شيئاً بعد شيء:

- لكن اسمح لي يا سيد فردشتينكو: كيف يمكن أن تجعل من هذه اللعبة لعبة مجتمع؟ أوكد لك أن الألعاب التي من هذا النوع لا تنجح أبداً. ولقد قلت أنت نفسك: أن هذه اللعبة لم تنجح مرة.

- كيف لم تنجح؟ ألم أقصص في المرة الأخيرة كيف اتفق لي أن سرقت ثلاثة روبلات؟ ألم أقصص ذلك؟

- صحيح. ولكن لم يكن في وسعك أن تقص القصة على نحو يظهرها صادقة. فيصدقك المستمعون، أليس كذلك؟ لقد ذكر جبريل آرداليونتش منذ هنيهة - وهو في ذلك على صواب - أنه يكفي أن يشم المستمع رائحة كذب في القصة حتى تفقد اللعبة معناها. أن الحقيقة غير ممكنة هنا إلا بالمصادفة، أو بنوع فاسد من حب الظهور لا يمكن قبوله ولا يمكن تصويره في هذا المكان.

صاح فردشتينكو قائلاً:

- يا لك من رجل مرهف الفكر لطيف الحس حقاً! إنك لتثير دهشتي يا آتاناзи إيفانوفتش. انظروا أيها السادة: إنه حين نبّه إلى أنني لم أستطع أن أتحدث عن سرقتي على النحو الذي يجعلها تشبه الحقيقة قد أفهمنا بالطف أسلوب وأنعم طريقة أنني في الواقع لم يكن في إمكاني أن أرتكب جريمة السرقة (إذ ليس من اللائق أن يتحدث المرء عن مثل هذه الأمور)، رغم أنه ربما كان في قرارة نفسه مقتنعاً كل الاقتناع بأن فردشتينكو يمكن أن يسرق! ولكن هلموا يا سادتي هلموا: أصبحت الأسماء في القبة، ومنها اسمك أنت آتاناзи إيفانوفتش، فالجميع إذاً موافقون. ابدأ يا أمير!

أغطس الأمير يده في القبة دون أن يقول شيئاً، وأخرج منها أول ورقة فكانت ورقة فردشتينكو، ثم سحب الثانية فكانت ورقة بتتسين، ثم سحب باقي الأوراق واحدة بعد واحدة، فكانت الثالثة ورقة الجنرال، وكانت الرابعة ورقة آتاناзи إيفانوفتش، وكانت الخامسة ورقته هو، وكانت السادسة ورقة جانيا، إلخ. ولم تكن السيدات قد وضعت في القبة أوراقاً.

هاتف فردشتينكو يقول:

- يا لسوء حظي! لقد كنت آمل أن يخرج اسم الأمير أول اسم، وأن يخرج اسم الجنرال بعده! من حسن الحظ على كل حال أن اسم إيفان فيدوروفتش يأتي بعد اسمي، فهذه مكافأة لي أو تعويض. واضح إذاً يا سادة أنني أنا الذي يجب أن أكون القدوة الحسنة في هذه اللعبة، ولكن ما يؤسفني أكثر من أي شيء آخر في هذه اللحظة هو أنني أمرؤ تافه كثيراً وأنني لا أتميز بشيء، فحتى رتبتي ليس لها أي شأن. ما قيمة أن يكون فردشتينكو قد ارتكب عملاً سيئاً في الواقع؟ وما هو أسوأ أعمالي؟ حقاً إنه ليصعب عليّ الاختيار! اللهم إلا أن أقص حكاية السرقة تلك نفسها، فأبرهن لآتانازي إيفانوفتش أن من الممكن أن يسرق المرء دون أن يكون لصاً.

- لقد استطاعت أن تقنعني أيضاً يا سيد فردشتينكو أن من الممكن أن يجد المرء متعة ولذة في أن يروي قصص أعمال قذرة، حتى دون أن يكون أحد قد طلب منه ذلك. على كل حال... معذرة يا سيد فردشتينكو!

قالت ناستاسيا فيليبوفنا تحسم الموقف بلهجة فيها تملل وانزعاج:

- أبدأ يا فردشتينكو! لقد أسرفت في التطريز والتوشية حتى لتكاد لا تفرغ من ذلك!

ولاحظ الجميع أنها بعد نوبة الضحك الأخيرة التي انتابتها، قد ارتدت فجأة إلى نوع من الحذر المتجهم، وإنها أصبحت أسهل استشارة وأسرع احتياجاً. ولكنها ما تزال تصرّ على تنفيذ نزوتها بإلحاح عنيد مستبد. كان آتانازي إيفانوفتش في مثل الجحيم عذاباً. وقد أحرقه كذلك موقف إيفان فيدوروفتش الذي كان يحتسي كأس الشمبانيا هادئاً، ولعله كان عازماً على أن يقص قصة متى جاء دوره.

الفصل الرابع عشر

هتف فردشتينكو يقول:

- أنا إنما أثرثر كثيراً لأنني يعوزني الفكر. ولكني سأبدأ. لو كان لي فكر كفكر آتانا زي إيفانوفتش أو إيفان فيدوروفتش، للبتت أنا أيضاً صامتاً ساكناً طوال السهرة كلها. يا أمير، اسمح لي أن أسألك هل توافقني على هذا الرأي: يخيل إليّ أن عدد اللصوص في العالم أكبر من عدد غير اللصوص، حتى لقد يمكن القول: إنه ما من إنسان لم يسرق طوال حياته شيئاً ما. هذا انطباع شخصي. لا أستنتج منه مع ذلك أن ليس في العالم إلا لصوص، رغم أن القول بهذا الرأي كثيراً ما أغراني، أعترف لك بذلك. فما رأيك أنت؟

قالت داريا ألكسيفنا (السيدة النشيطة الجريئة):

- ما أسخف هذا الكلام! ما أغبى هذا الهذر! ليس ممكناً أن يكون جميع الناس قد سرقوا شيئاً ما. أنا لم أسرق شيئاً في يوم من الأيام.

- أنت لم تسرق في يوم من الأيام يا داريا ألكسيفنا، ولكن ما قول الأمير الذي أرى أنه احمر وجهه؟

قال الأمير وكان قد احمر وجهه فعلاً:

- يخيل إليّ أنك على حق فيما تقول، ولكنك تبالغ كثيراً.

- ولكن ألم تسرق أنت نفسك شيئاً ما في يوم من الأيام يا أمير؟

تدخل الجنرال يقول:

- كلام مضحك سخيف! هلاً فكرت فيما تقول يا سيد فردشتينكو؟

وقالت داريا ألكسيفنا حاسمة:

- أمرك بسيط: إنك حين أخرجت خجلت أن تروي شيئاً، لذلك تحاول أن تجر الأمير معك، لأنه لا يملك عن نفسه دفاعاً.

قالت ناستاسيا فيليبوفنا بشدة وقسوة:

- فردشتينكو! لك أن تقصّ أو أن تسكت. ولكن لا تهتم إلا بنفسك؟ لقد آخذت تفقدني صبري!

- حالاً يا ناستاسيا فيليبوفنا، ولكن ما دام الأمير قد اعترف (وإني لألح على هذه النقطة، لأن ما قاله إنما هو اعتراف حقاً)، فأنا أتساءل عما عسى أن يقصّه علينا شخص آخر (لا أسميه) إذا هو أراد أن يقول الحقيقة يوماً. أما أنا أيها السادة، فالحق أن ما سأرويّه لكم ليس شيئاً كثيراً، فهو بسيط غاية البساطة، وهو عدا ذلك غبي وبشع. لكنني أوّكد لكم مع ذلك أنني لست لصاً، وإنني ارتكبت فعل السرقة ذاك دون أن أدري لماذا! لقد حدث ذلك منذ ثلاث سنين، في فيلا صديق من الأصدقاء، هو سيمون إيفانوفتش اشتينكو، في يوم أحد. كان عنده ضيوف، ولما انتهى الغداء بقي الرجال يتجاذبون أطراف الحديث أمام كأس. وخطر ببالي أنا أن أطلب من ماريا سيمونوفنا، ابنة صاحب الدار، أن تعزف لنا شيئاً على البيانو. فلما اجتزت إحدى الغرف لمحت على منضدة عمل ماريا إيفانوفنا ورقة نقدية خضراء بثلاثة روبلات لا شك أنها كانت قد أخرجتها لحاجة من حاجات الدار. لم يكن في الغرفة أحد. تناولت الورقة ودسستها في جيبتي. لماذا؟ لا أدري! إنني لا أعرف السبب الذي لعله دفعني إلى ذلك. ولكنني أسرعت أعود إلى المائدة. ولبثت هنالك أنتظر، منفعلاً بعض الانفعال. كنت أثرثر بلا توقف، وأروي فكاهاات، وأضحك. ثم جلست قرب السيدات. وبعد انقضاء قرابة نصف ساعة، لوحظ اختفاء الورقة النقدية، فسُئل عنها الخدم. وحامت الشبهة حول داريا، الخادمة. أظهرت كثيراً من الاهتمام والاستطلاع، وشاركت في الاستجابات، حتى لأتذكر أنني، حين ارتبكت داريا ارتباكاً تاماً، أخذت أقنعها بضرورة الاعتراف، وحلفت برأسي لأضمن لها تسامح ماريا إيفانوفنا، وذلك على مسمع ومرأى من جميع الحضور. فكان هؤلاء ينظرون إليّ، وكنت أشعر بلذة عظيمة من تدفقي في الكلام والوعظ بينما الورقة النقدية في جيبتي. وفي مساء ذلك اليوم نفسه شربت بالمال خمرة في أحد المطاعم: دخلت فأمرت لنفسني بزجاجة من خمر «لافيت». لم يحدث قبل ذلك أن طابت زجاجة على هذا النحو دون أن أكل شيئاً. ولكنني كنت أستعجل إنفاق ذلك المال. على أنني لم أشعر بأي ندم خاص، لا في ذلك الحين، ولا بعده. ولا أعتقد أن في إمكاني أن أرتكب ذلك الفعل مرة أخرى. صدقوني: أن الأمر لا يهمني. انتهت القصة. هذا كل شيء.

قالت داريا ألكسيفنا مشمئزة:

- لكنني أعتقد أن هذا العمل ليس أسوأ عمل ارتكبته في حياتك طبعاً!

وعقب آتانا زي إيفانوفتش:

- بل ليس هذا عملاً وإنما هو حالة نفسية مرضية.

وسألت ناستاسيا فيليبوفنا دون أن تحاول إخفاء تقززها:

- وماذا جرى للخدمة؟

- طردوها في اليوم التالي طبعاً. ذلك بيت شديد لا يتهاون في أمر كهذا الأمر!

- وتركتم لهم أن يطردوها؟

- هه! فهل كنتم تريدون إذاً أن أشي بنفسي وأعترف بفعلتي؟

بذلك أجاب فردشتينكو، وقد دهش، على كل حال، من الأثر السيء الذي أحدثته قصته في نفوس الحضور.

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول:

- ما أقدر هذا العمل!

- هوه! أتطلبون من إنسان أن يروي أسوأ فعل ارتكبه في حياته ثم تريدون أن يكون هذا الفعل ناصعاً متألقاً؟ أن أسوأ الأفعال قدر دائماً يا ناستاسيا فيليبوفنا. لسوف يثبت لنا ذلك إيفان بتروفتش بعد قليل. ثم أن كثيراً من الناس يظهرون بمظهر باهر، ويوهمون بأنهم مثال الفضيلة لأنهم يملكون الثراء! وما أكثر الذين يملكون الثراء في هذه الأيام! ولكن ليتنا نعرف الوسائل التي استعملوها للوصول إلى ذلك... إنهم لا يتورعون عن شيء، ولا يتحرجون من شيء!

الخلاصة: أن فردشتينكو قد خرج عن طوره، وأصبح سليط اللسان ناسياً نفسه متجاوزاً كل حد. إن كشرة خبيثة تجعد الآن وجهه. لعله كان يتوقع أن تحدث قصته في نفوس سامعيه أثراً غير هذا الأثر تماماً، مهما بدا توقعه هذا غريباً. إن هذا النوع من «الزلات» الرديئة و«التباهي الخاص»، على حد تعبير توتسكي، أمر مستمر مألوف عند فردشتينكو، وهو يناسب طبعه، ويعبر عن خلقه.

ارتعدت ناستاسيا فيليبوفنا غضباً، وحدقت فيه بنظرة ثابتة، فسرعان ما استولى عليه رعب شديد، فصمت وقد جمده الخوف من أن يكون قد أسرف قليلاً.

قال آتانا زي إيفانوفتش يقترح متهمكماً:

- ألا نحسن صنعاً إذا نحن اكتفينا بهذا؟

فقال بتتسين:

- هذا دوري أنا، لكنني أستعمل حقي في الرفض، فلا أروي شيئاً.

- ترفض؟

- لا أستطيع يا ناستاسيا فيليبوفنا. ثم إنني أعد مثل هذه اللعبة غباوة وحماقة!

قالت ناستاسيا فيليبوفنا وهي تلتفت نحو إيبانتشين:

- يا جنرال، أعتقد أن الدور دورك الآن. فإذا امتنعت أنت أيضاً فقد انهارت لعبتنا كلها، ولسوف يؤسفني ذلك كثيراً، لأنني أنوي أن أقصّ في الختام قصة عمل مأخوذ «من حياتي أنا». لكنني لا أريد أن أفعل ذلك قبلك وقبل آتانازي إيفانوفتش، إذ لا بد أن تشجعاني.

قالت ناستاسيا فيليبوفنا جملتها الأخيرة هذه ضاحكة. فهتف الجنرال يقول بحرارة وحماسة:

- أوه! إذا كنت تعدّين بذلك، فإنني مستعد أن أروي لك قصة حياتي كلها. وأعترف لك بأنني قد هيأت قصة أحكيها متى جاء دوري..

تجراً فردشتينكو فقال وهو ما يزال خجلاً بعض الشيء، لكنه يبتسم ابتسامة وقحة مع ذلك:

- يكفي أن يراك المرء يا صاحب السعادة حتى يحزر ما شعرت به من لذة أدبية في سبك قصتك.

وألقت ناستاسيا فيليبوفنا على الجنرال، هي أيضاً، نظرة خاطفة، وابتسمت. ومع ذلك كان يستطيع المرء أن يرى أن أعصابها كانت تزداد توتراً، وأن اضطرابها كان يزداد شدة. وارتعش آتانازي إيفانوفتش حين علم أنها ستقص، هي أيضاً، حكاية ما.

بدأ الجنرال كلامه فقال:

- لقد اتفق لي، أيها السادة، كما يتفق لكل إنسان، أن ارتكبت في حياتي أفعالا لا توصف بأنها أنيقة جداً، ولكن أغرب ما في الأمر أنني أعد القصة القصيرة التي سأرويها لكم الآن هي أسوأ فعل اقترفته في حياتي. صحيح أن خمسة وثلاثين عاماً على وجه التقريب قد انقضت على حدوث تلك القصة، ولكنني لم أستطع قط أن أحرر ذاكرتي

من ذلك الانطباع الذي يقبض صدري. هي حكاية غبية جداً على كل حال. كنت لا أزال أيامئذ في الجيش برتبة مرشح؛ وإنكم لتعرفون ما المرشح: دم يغلي ويفور، وجيب خالي إلا من قروش معدودة. وكان لي تابع اسمه نيكيفور يهتم بالقيام بأعباء البيت اهتماماً شديداً؛ فهو يوفر ويقتصد، ويرتق ويرفع، ويمسح الأرض ويلمّع البلاط، بل هو يسرق من كل مكان كل ما يتاح له أن يسرقه خلسة ليزيد به رزقي. كان يمتاز بأمانة تامة واستقامة نادرة وشرف لا يضارع. أما أنا فكنت في معاملته الرجل الذي يوصف بأنه قاس، ولكنه عادل. ولقد بقينا في الحامية مدة من الوقت بمدينة صغيرة. كنت قد أعطيت سكناً في ضاحية من الضواحي، عند أرملة ملازم ثاني محال على التقاعد. هي عجوز قصيرة في الثمانين من عمرها أو في نحو ذلك. وكان بيتها الخشبي يشبهها بلى وتداعياً وتهتماً، وكانت تبلغ من الفقر أنها ليس عندها حتى خادمة تساعد في أعمال البيت. غير أن الشيء الذي تتميز به خاصة هو أنها كان لها في الماضي أسرة كبيرة العدد وأقرباء كثيرون. وتعاقت السنون فبعضهم ماتوا وبعضهم سافروا أو نسوها. أما زوجها فكانت قد دفنته منذ ما يقرب من خمسة وأربعين عاماً. وقد احتفظت خلال مدة طويلة بفتاة حذاء هي بنت أختها، وكانت الفتاة فيما يروى عنها شريرة خبيثة كساحرة، حتى لقد عضت خالتها في أصبعها ذات يوم، لكن الفتاة ماتت آخر الأمر هي أيضاً، فأصبحت العجوز تدبر أمورها بنفسها وحيدة منذ ثلاث سنين. وكنت أشعر عندها بضجر شديد وسأم قوي، فليس ثمة ما يمكن أن أعقد عليه أملاً. وأخيراً سرقت من دجاجي في ذات يوم ديكاً. وظل الأمر غامضاً، ولكن لا يمكن أن يكون السارق أحداً غيرها. وقد تشاجرنا تشاجراً عنيفاً في موضوع الديك، واستطعت بعد ذلك بمدة قصيرة أن أحصل على إذن بتغيير مسكني تلبية لطلبي، فأرسلت إلى ضاحية أخرى عند بائع طويل اللحية كثير الذرية. إنني أتذكر هذا كأنني أراه اليوم. انتقلنا أنا ونيكيفور فرحين، وتركنا العجوز لخزيتها وعارها. وبعد ذلك بثلاثة أيام، عدت إلى البيت من التدريب فبادرني نيكيفور بقوله: «لقد أخطأت، سيادتك، إذ تركت للعجوز وعاء الحساء، فإنني لم يبق عندي وعاء أصب فيه الحساء». فتجمدت من الدهشة طبعاً وقلت: «كيف تركنا لها وعاء الحساء؟»، وأخذ نيكيفور يشرح لي الأمر، فتبين أن العجوز قد رفضت عند رحيلنا أن ترد إليه وعاءنا، زاعمة أنها تحتفظ به بديلاً عن آنية كنت قد كسرتها لها، وأنني أنا الذي اقترحت عليها ذلك. فلما شرح لي نيكيفور ذلك، فار دم «المرشح» في عروقي طبعاً، بسبب حقارة هذه المرأة وصغارها، فإذا أنا أشب وأطير؛ فما وصلت إلى العجوز حتى كنت خارجاً عن طوري، ووجدتها جالسة في المدخل وحدها، منزوية في ركن من الأركان كأنما لتحتمي من الشمس، مسندة خدها إلى يدها. فنزلت عليها

نزول الصاعقة، وأخرجت لها كل ذخيرتي من الشتم والسب: «يا كيت وكيت!»... على الطريقة الروسية... هل لاحظتم؟ لكنها بدت لي غريبة عجيبة: فهي ما تزال جالسة أمامي تحدّق إليّ بعينيها الجاحظتين دون أن تجيبني بكلمة واحدة، وما تزال نظرتها غريبة غرابة شديدة، وكأنها كانت تترجح قليلاً. وهدأت أخيراً، ونظرت إليها، وسألتها، فظلت صامتة لا تجيب. فلبثت متحيراً من هذا الصمت، في جو هذه الشمس الغاربة وهذا الذباب المدندن؛ ثم اضطربت أخيراً فقفلت راجعاً. وقبل أن أصل إلى داري استدعيت إلى القيادة، واضطرت أن أمرّ بسرّيتي، ثم لم أعد إلى بيتي إلا في الليل. فكانت الكلمات الأولى التي بادرني بها نيكيفور هي: «هل تعلم، سيادتكم، أن صاحبة البيت ماتت منذ قليل؟» فسألته: متى؟ فقال: اليوم في هذا المساء، ربما منذ ساعة ونصف ساعة. إذاً فقد ماتت لحظة كنت أغرقها بالشتائم والسباب! بلغت من قوة الشّدّه إنني لم أثب إلى رشدي إلا بعد وقت. أصبحت العجوز لا تفارق فكري، حتى لقد حلمت بها في الليل. صحيح أنني أمرؤ لا أؤمن بالخرافات ولا أتطير، ولكنني ذهبت في اليوم الثالث أشيع جنازتها واحضر دفنها. وصرت مع مضي الزمن أفكر في هذه القصة مزيداً من التفكير. لا أزعّم أن هذه القصة قد احتلت فكري كله، ولكنني أقول: إنها كانت تنبثق في ذهني على حين فجأة، فأشعر بانزعاج واضطراب. وفهمت أخيراً ما الذي كان يفجؤني أكثر من أي شيء آخر: هذه امرأة، أو قل بلغة هذا العصر ذي النزعة الإنسانية: هذه كائن حي، عاشت زمناً طويلاً حتى نسيها الموت. ولقد كان لها في الماضي أولاد، وزوج، وأسرة، وأقرباء. وكان ذلك كله يغلي ويفور من حولها أن صاح التعبير، وكانت تحوطها ابتسامات من كل صوب؛ وفجأة لم يبق من ذلك كله شيء، وغاب بما يشبه أن يكون ضربة سحر، فإذا هي تبقى وحيدة مثل... مثل ذبابة خريف، كأنها تحمل على ظهرها لعنة العصر. وقادها الله أخيراً إلى نهايتها، فطارت هي أيضاً في ذات مساء لطيف من أماسي الصيف عند غروب الشمس. هذه فكرة زاحرة بالعبر طبعاً. ولكن المرشح الشاب، بدلاً من أن يغمرها بالدعوات وبدلاً من أن يذرف العبرات، يضع يديه على خاصرته، وينفخ صدره، ويمطر العجوز المحتضرة، بوابل من الشتائم المقذعة ثأراً لنفسه، لأنها سلبته وعاء الحساء. لا شك في أنني أثمت، ذلك أمر لا جدال فيه. ورغم أنني أصبحت منذ زمن طويل أعدّ ذلك الفعل غريباً عني، لتقادم العهد أولاً، ولتغير طبعي ثانياً، فما زلت أشعر بأسف وحسرة، حتى إنني أدهش من ذلك، لا سيما وإنني إن كنت آثماً ولا شك، فلست آثماً كل الإثم: فما الذي حملها على أن تموت في تلك اللحظة نفسها؟ من الواضح على كل حال أن عذر ذلك العمل السيئ أن له بواعث نفسية، وأنه ثمرة حالة سيكولوجية. ومع ذلك لم يهدأ بالي هدوء تاماً ولم تطمئن

نفسى طمأنينة كاملة، إلا حين قررت، منذ نحو خمسة عشر عاماً، أن أقف مبلغاً من المال على ملجأ من الملاجئ لإيواء امرأتين عجوزين، لتكون أيامهما الأخيرة من حياتهما الأرضية أخف وطأة على نفسيهما بفضل ظروف معاشية أفضل. حتى إنني أنوي أن أستمّر في وقف هذا المال إرثاً. تلکم هي القصة كلها. أعود فأقول: لعل في حياتي آثاماً أخرى، ولكن هذا الفعل الذي رويت لكم الآن قصته هو الذي يبدو لي أسوأ عمل ارتكبته في حياتي.

فما أن أنهى الجنرال كلامه حتى انبرى فردشتينكو يقول:

– إنك، يا صاحب السعادة، بدلاً من أن تروي لنا قصة أسوأ عمل ارتكبته في حياتك، رويت قصة أفضل عمل قمت به في حياتك، فخبيت بذلك فآل فردشتينكو.

وقالت ناستاسيا فيليبوفنا بهدوء وإهمال:

– حقاً يا جنرال... ما كنت أتصور أن يكون لك قلب طيب! خسارة..

فسألها الجنرال وهو يضحك ضحكة تحبب وتلطف:

– خسارة؟ لماذا؟

وشرب جرعة من الشمبانيا، بشيء من الاعتزاز.

جاء الآن دور آتاناڤي إيفانوفتش الذي هيا نفسه لرواية قصة هو أيضاً. كان الحضور يقدرون أنه، كما فعل إيفان فيدوروفتش، لن يرفض أن يروي قصة، وكان بعضهم، لأسباب معينة، ينتظرون قصته بكثير من الشوق واللهفة، وهم يلقون على ناستاسيا فيليبوفنا نظرات مختلصة.

وبوقار عظيم يتفق ومهابته، أخذ آتاناڤي إيفانوفتش يسرد واحدة من «قصصه اللطيفة» بصوت هادئ عذب. (يجب أن نذكر عابرين أن آتاناڤي إيفانوفتش رجل طويل القامة مهيب الطلعة، على شيء من الصلع والشيب؛ بدين بعضي البدانة، خداه زاهيتان رخوتان خاسفتان قليلاً. أسنانه صناعية. يرتدي ثياباً أنيقة فضفاضة، ويلبس قميصاً ناصع البياض. يده البضتان البيضاءوان تخطفان الانتباه. في بنصر يده اليمنى خاتم ثمين من ماس). فكانت ناستاسيا فيليبوفنا طوال مدة سرده قصته لا تنفك تنعم النظر في شريط الدانتيل الذي يزدان به كمها والذي كانت تقرصه بأصبعين من يدها اليسرى، فلم يُتَح لها أن تنظر إلى القصاص ولو مرة واحدة.

بدأ آتاناڤي إيفانوفتش كلامه فقال:

- إن الشيء الذي يسهل مهمتي هو أنني مضطر اضطراراً مطلقاً أن أروي أسوأ فعل ارتكبته في حياتي. فلا مجال في مثل هذه الحالة لأي تردد، فالضمير وذاكرة القلب يمليان عليّ اختيار القصة ويفرضانها فرضاً. يجب عليّ أن أعترف، وأنا أشعر بغير قليل من المرارة، أن بين الأعمال الطائشة... الصبائية التي ارتكبتها والتي قد يكون عددها لا نهاية له، أن بين تلك الأعمال عملاً نقشت ذكره في نفسي عميقة فلا سبيل إلى نسيانها. حدث ذلك منذ قرابة عشرين عاماً. كنت عندئذ في إقامة قصيرة بالريف عند أفلاطون أوردنتسيف الذي انتخب منذ برهة وجيزة ماريشالاً للطبقة النبيلة، وكان يقضي أعياد آخر العام في أراضيه مع امرأته الشابة. وكان عيد ميلاد آنفيسا ألكسيفنا يقع في تلك الفترة نفسها، فكانت تهيئاً لهذه المناسبة حفلة رقص. وفي ذلك الأوان كانت الرواية التي ألفها ألكسندر دوما الابن «غادة الكاميليا» رائجة رواجاً عظيماً في المجتمع الراقي، وكانت قد أحدثت في ذلك المجتمع ضجة كبيرة. وهي في رأيي عمل أدبي لا يمكن أن يموت، بل ولا يمكن أن يشيخ. كانت جميع السيدات في الريف متحمسة له أشد الحمس، ولا سيما اللواتي قرأنه. فجمال القصة، وطرافة الموقف، وأصالة الشخصية الرئيسية، والتصوير المرهف لبيئة ملأى بالأمور الجذابة، وجميع تلك التفاصيل الأخاذة المنثورة في الكتاب (كاستعمال باقات من أزهار الكاميليا بيضاء وحمراء على التناوب)، الخلاصة أن الكتاب، في جملة وتفصيله، كان قد أحدث أثراً كبيراً هزّ نفوس الناس هزاً قوياً. وأصبحت أزهار الكاميليا موضة يتهافت عليها الناس تهافتاً شديداً، ويسعون إليها سعياً محموماً، ويريدون شراءها مهما يكن الثمن. وإني لأسألكم: هل يمكن أن يوجد كثير من أزهار الكاميليا في مقاطعة صغيرة حين يريد جميع الناس أن يشتروا أزهار الكاميليا لحفلات الرقص، ولو لم تكن حفلات الرقص هذه كثيرة. وكان بطرس فورخوفسكي في ذلك الأوان يموت حياً وهياماً بآنفيسا ألكسيفنا. لست أدري حتى هذه اللحظة هل كان بينهما شيء، أقصد هل كان يمكن أن يساوره أمل جدي. وإنما المهم أن المسكين أخذ يسعى هنا وهناك كالشيطان المسعور بغية الحصول على أزهار كاميليا لحفلة الرقص التي ستقام بمناسبة عيد ميلاد آنفيسا ألكسيفنا... وكان قد عُرِف أن الكونتيسة سوتسكي (من بطرسبرج) وهي صديقة زوجة الحاكم، وصوفيا بسبالوفا، ستجئان حتماً ومعهما باقات من أزهار الكاميليا البيضاء. فكانت آنفيسا ألكسيفنا ترغب في أن يهدي أحدها إليها أزهار كاميليا حمراء ليكتمل بها تأثيرها وسحرها. فكان أفلاطون التعيس في أشد الضيق وأكبر الحرج. إنكم تعلمون ما واجبات الزوج: لقد تورط فوعد بباقة من أزهار الكاميليا الحمراء. ولكن ما العمل؟ أن كاترين ألكسندروفنا ميتستشيفا، التي هي أروع منافسة لآنفيسا ألكسيفنا في كل شيء، والتي

يمكن أن توصف العداوة بينهما بأنها عداوة تبلغ درجة الطعان، كانت قد نشلت من المنطقة كل ما فيها من أزهار الكاميليا قبل حفلة الرقص بيوم واحد. فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أن آنفيسا ألكسيفنا انتابتها نوبات بكاء، وأغمي عليها، إلخ! لقد هلك أفلاطون! أن من الواضح أن بطرس إذا استطاع في هذه اللحظة الحاسمة أن يحصل على الباقة المطلوبة، فستحقق أموره تقدماً كبيراً. إن العرفان بالجميل والشعور بالامتنان لا حدود لهما في حالات كهذه الحالات. أخذ بطرس يسعى هنا وهناك كمن مسّه جن، ولكن الأمر كان مستحيلاً، حتى إنه لا مجال للتفكير فيه! وهأنذا ألقى بطرس، عشية عيد ميلاد آنفيسا، عند جارة من جيران أسرة أوردنتسيف، فأراه مشرق الوجه متهلل الأسارير.

سألته:

– ماذا حدث؟

– وجدت، أوريكا^[39]!

– إنك لتدهشني حقاً! كيف وجدت؟ وأين؟

– بمدينة إيكاييسك (مدينة صغيرة بالمقاطعة المجاورة تقع على مسافة لا تكاد تبلغ عشرين فرسخاً) يوجد هنالك تاجر طويل اللحية واسع الثراء، اسمه تريبالوف يعيش مع امرأته وحيدتين ويتخذان عصافير الكناري بمثابة أولاد، ويهويان الأزهار هوى عظيماً، وعندهما أزهار كاميليا.

– ولكن هذا أمر غير مضمون. ما لو منعها عنك؟

– سأركع عندئذٍ أمامه، وأظل قابلاً على قدميه إلى أن يوافق، ثم لا أنصرف قبل أن يعطيني الأزهار!

– متي تسافر إليه؟

– غداً في الفجر، الساعة الخامسة.

– طيب. أسأل الله أن يمدك بعون من عنده!

شعرت حقاً بسعادة كبيرة له. وعدت إلى دار أسرة أوردنتسيف. وفيما كنت أهمّ بالمرضى إلى السرير لأنام، خطرت ببالي على حين فجأة فكرة من أطراف الفكر. فسرعان ما ذهبت إلى المطبخ، فأيقظت سافيلي، الحوذي، ووعدته بخمسة عشر روبلاً إذا هو قرن

الخيـل بالعـربة في خـلال نـصف سـاعة. فـما انقـضى نـصف سـاعة حـتى كـانت العـربة تـنتظرني عـند البـاب طـبعاً. وـقد أُـبـلـغـت في أـثناء ذـلك أن آـنـفـيسـا أـلـكـسـيـفـنا قـد انـتابـها صـدا، وآـلـمـت بـها حـمى، وآـنـها تـهـذي.

رـكـبـت العـربة، وآنـطـلقـنا. وآنـقـضـت بـعد السـاعـة الرـابـعة بـقـلـيل أـمـام نـزل إـيـسـايسـك أنـتـظر طـلـوع الفـجر، فـما أن طـلـع الفـجر حـتى اسـتأنـفـت المـسـير؛ وـفي السـاعـة السـابـعة كـنت عـند تـريـبالـوف أـحـدثـه في أـمـري. قـلـت لـه:

– هـل عـنـدك أـزهار كامـيـليـا؟ كـن أباً رـحـيماً، سـاعـدني، أنـقـذني، فأنـحـني لـك حـتى الأـرض مـحـيياً شـاكراً.

وآـرآـيت الشـيـخ طـويل القـامـة، مـبـيـض الشـعر، قـاسـي الـهـيئـة، رـهـيباً مـخـيفاً. وسمـعـته يـقـول:

– ل... لا... لا! لا تـحـاول! إنـني أـرـفـض!

وآـنـاذـا أسـقـط عـلى قـدمـيـه، وآـنـبـطـح... نـعم أنـبـطـح انـبـطـاحاً تـاماً كامـلاً. فـخـاف الرـجـل، وـقـال يـنـادـيـني:

– ما هـذا الـذي تـفـعـله يا بـني؟ ما هـذا الـذي تـفـعـله؟ رـبـاه!

فـصـحـت أقـول لـه:

– أن حـيـاة إنـسـان هـي المـعـرّضـة لـلـخـطـر!

– طـيـب.. طـيـب... خـذ أـزهار الكـامـيـليـا... وـكان الـلـه مـعـك!

فأـخـذـت أـجـني أـزهار كامـيـليـا حـمـراء! كـانت أـزهاراً رـائـعة، فـتـانـة! جـنـيت كـل ما ضـمـتـه مـنـها حـديـقـته. وآنـهـد الشـيـخ. فأـخـرجـت مـن جـيـبي وـرقة نـقـد بـمـائـة رـوبـل. فـقـال:

– لا يا بـني، لا تـلـحـق بـي هـذه الإـهـانة!

فـقـلـت لـه:

– طـيـب، إذـا كان الأـمر كـذـلك، فـتـفـضـل بـدفع هـذه المـائـة رـوبـل لـمـسـتـشـفى المـديـنة تـرفـيهاً عـن المـرضى.

قـال:

– هـذا، هـذا شـيـء آخـر يا عـزـيـزي! هـذا عـمـل طـيـب نـبـيل، عـمـل يُـرـضـي الـلـه. سـأـقـدم هـذه الـهـبة نـيـابة عـنـك.

أعجبني ذلك الشيخ، ذلك الشيخ الروسي الأصيل، الأصيل حقاً، الأصيل حتى الأرومة، ذلك الشيخ الذي ينتمي إلى ما يسمى باسم «الطبقة الكريمة حقاً».

وعدت أدراجي مفتوناً بالنجاح الذي حققته، ولكنني سلكت طرقاً ملتوية، حتى لا ألتقي ببطرس. فما أن وصلت حتى أرسلت الباقية إلى أنفيسا ألكسيفنا لتفاجأ بها متى استيقظت من نومها. وفي وسعكم أن تتصوروا دهشتها، وامتنانها، والدموع التي ذرفت بها اعترافاً بالجميل! وهذا هو أفلاطون الذي كان أمس متهدماً مدمراً ميتاً، ها هو ذا يرتدي على صدري ناشجاً. وا أسفاه! ذلك هو شأن جميع الأزواج دائماً منذ ابتدئ... الزواج الشرعي! لا أجرؤ أن أضيف شيئاً إلى ما قلت، عدا أن جميع آمال ذلك المسكين بطرس انهارت منذئذٍ انهياراً لا قيام لها بعده! ولقد قدّرت في أول الأمر أنه سيدبحني إذا عرف الدور الذي قمت به في هذه القضية، حتى لقد تأهبت للأمر واستعددت، ولكن حدث ما لم يكن في وسعي حتى أن أتصور أن في الإمكان أن يحدث: لقد أغمي عليه، وفي المساء أخذ يهذي، وفي اليوم التالي كانت قد انتابته الحمى الدماغية، فهو يجهد باكياً مع تشنجات شديدة كطفل. حتى إذا أبلّ من مرضه بعد شهر، طلب نقله إلى القوقاز^[40]. قصة كأنها رواية من الخيال. وانتهى به المطاف إلى أن قُتل في القرم؛ وكان أخوه ستيفان فورجوفسكي قد اشتهر في ذلك الأوان قائداً متفوقاً لإحدى كتائب الجيش.

لا أنكر أنني ظللت خلال سنين طويلة أعاني من عذاب الضمير: لماذا طعنته تلك الطعنة؟ ولقد كان يمكن أن يهون الأمر في نفسي لو أنني كنت هائماً مثله بحب أنفيسا ألكسيفنا. ولكن الأمر ليس كذلك، وإنما كان «شطارة» مني أو «شيطنة» لا أكثر. ومن يدري؟ فلولا أنني سلبت الفتى باقية الزهر تلك، لجاز أن يكون إلى الآن حياً، سعيداً، بل مغموراً بسعادة طافحة، ولما خطر بباله أن يمضي إلى مقاتلة الأتراك».

أنهى آتاناзи إيفانوفتش سرد قصته وقوراً رصيناً كما بدأها. ولاحظ الحضور أن عيني ناستاسيا فيليبوفنا قد قدحتا شرراً، وأن شفّتها قد اختلجتا حين ختم آتاناзи إيفانوفتش كلامه. فأصبحتا محطّ الأنظار المستطلعة. هتف فردشتينكو يقول بصوت داعم، إذ أدرك أنه أصبح يحسن بل يجب أن يقول كلمته:

– ضحكوا على فردشتينكو! خدعوه! غشوه! ذلك هو ما يسمي خداعاً وغشاً!

– لم يجبرك أحد على شيء! كان عليك أن تفهم اللعبة فهماً أصحّ. كان عليك أن تتعلمها من أناس أذكاء.

أن داريا ألكسيفنا هي منذ مدة طويلة الصديقة الوفية والشريكة الدائمة للسيد

توتسكي.

قالت ناستاسيا فيليبوفنا بإهمال وفتور:

- أنت على حق يا آتاناзи إيفانوفتش. أن هذه اللعبة مضجرة مملة تبعث السأم في النفس، وقد أن لنا أن ننتهي منها. سأقص عليكم الآن ما وعدتكم به، ثم ننتقل جميعاً إلي اللعب بالورق.

قال الجنرال مؤيداً بحرارة:

- ولكن يجب أن نسمع القصة التي وعدتنا بها قبل كل شيء!

قالت ناستاسيا فيليبوفنا بصوت واضح دون أن تتحرك، قالت تخاطب الأمير:

- يا أمير، أن صديقي العزيزين، الجنرال وآتاناзи إيفانوفتش، يصران كثيراً على أن أتزوج. فقل لي رأيك: أيجب أن أتزوج أم لا؟ سوف أقرر لنفسي ما تقرره أنت لي. اصفرّ وجه آتاناзи إيفانوفتش، وجمد الجنرال، والتفتت جميع الرؤوس نحو الأمير، وحدّقت إليه جميع الأعين. وتجمّد جانبا في مكانه.

سألها الأمير بصوت يضاعف وينطفئ:

- تتزوجين... من؟

فأجابته ناستاسيا فيليبوفنا بذلك الصوت نفسه، الثابت القاطع الواضح:

- جبريل آرداليونتش إيفولجين.

ساد الصمت بضع لحظات. كان الأمير كمن يجهد أن ينطق بكلمة واحدة دون أن يستطيع ذلك، وكأنّ حملاً ثقيلاً كان يجثم على صدره فيسحقه سحقاً. ثم همس يقول أخيراً وقد استردّ أنفاسه بكثير من المشقة والعناء:

- ل... لا... لا تتزوجيه!

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا تخاطب جبريل آرداليونتش بصوت فيه سلطة واضحة وفيه شيء من أبهة:

- ذلك ما سيكون. هل سمعت قرار الأمير؟ إنه يتضمن جوابي أنا أيضاً. فلنفرغ من هذه القضية دفعة واحدة إلى الأبد!

تمتم آتاناзи إيفانوفتش يقول بصوت مرتجف:

- ناستاسيا فيليبوفنا!

وأضاف الجنرال بصوت مؤثر لكنه قلق:

- ناستاسيا فيليبوفنا!

وسرت في الحضور همهمة، وظهرت بينهم حركات انفعال.

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا وهي تتفرس في وجوه ضيوفها مدهوشة:

- ماذا أيها السادة؟ علام هذا الانفعال؟ وفيم استطالت وجوهكم هذه الاستطالة؟

ثأناً توتسكي متلعثماً متعثراً في الكلام:

- ولكن... تذكر يا ناستاسيا فيليبوفنا أنك وعدت... من تلقاء نفسك... دون

ضغط أو إكراه... وكان في وسعك... إلى حد ما.. أن تداري وتراعي... لا أكاد

أستطيع أن... ربما كنت مضطرباً... لكن... على كل حال... الخلاصة: الآن... في

لحظة كهذه اللحظة، وأمام هذا الحفل كله من الناس، وبهذه الطريقة... نختم بهذه

«اللعبة الصغيرة» قضية هي على هذا الجانب العظيم كله من خطورة الشأن، قضية هي

قضية شرف وقلب... قضية يتوقف عليها...

- حقاً لا أفهمك يا آتانا زي إيفانوفتش. إنك تخبط في كلامك خبط عشواء!

أولاً: ما معنى قولك هذا: «أمام هذا الحفل كله من الناس»؟ ألسنا هنا أصحاباً

حميمين؟ وما اعتراضك على هذه «اللعبة الصغيرة»؟ لقد نويت حقاً أن أروي حكاية.

وهأنا ذا فعلت. أليست حكايتي جميلة؟ ما الذي يجردّها في نظرك من الجد. ويضفي

عليها طابع اللعب؟ ألم تسمعي أقول للأمير: «سأقرر لنفسي ما تقرر أنت إلي؟ فلو قد

قال: «نعم» لوافق فوراً، أما وأنه قال: «لا»، فقد رفضت. فكيف تستطيع أن تصف

ذلك بأنه خال من الجد، بينما كان مصيري كله مرهوناً بكلمة واحدة. هل يمكن أن

يكون هناك جد أكبر من هذا الجد؟

دمدم الجنرال يقول وهو لا يستطيع أن يكظم غيظه من هذه السلطة المهيمنة التي

منحت للأمير:

- ولكن لماذا الأمير؟ ثم، ما مجيء الأمير إلى هنا؟ ماذا جاء يعمل؟

- أنا إنما استشرت الأمير، لأنه أول شخص آمنت بأنه مخلص لي إخلاصاً تاماً

كاملاً. لقد آمن بي منذ أول نظرة ألقاها علي، وأنا أو من به أيضاً.

وأخيراً نطق جانينا فقال بصوت مرتجف وقد شحب لونه وانعقف فمه بجعدة عجيبة:

- لم يبق لي إلا أن أشكر لئاستاسيا فيليبوفنا ما عمدت إليه من لطف عظيم ورهافة قصوى... في حقي. طبعاً كان لا بد أن تجري الأمور هذا المجرى. ولكن... الأمير... في هذه القضية... إنما...

-... يسعى إلى الحصول على الخمسة وسبعين ألف روبل، أليس كذلك؟

بهذا قطعت لئاستاسيا فيليبوفنا كلام جانينا فجأة. وتابعت تقول:

- أهذا ما كنت تريد أن تقوله؟ لا تدافع عن نفسك! هذا ما كنت تريد أن تقوله حتماً! يا آتانايزي إيفانوفتش، لقد نسيت نسياناً تاماً أن أضيف ما يلي: استردّ الخمسة وسبعين ألف روبل، واعلم أنني أعتقك مجاناً! يكفي هذا! أنت أيضاً محتاج إلى أن تتنفس! تسع سنين وثلاثة أشهر! غداً تبدأ الحياة الجديدة! أما اليوم فنحتفل بعيد ميلادي، وهذه أول مرة أستقل فيها بنفسي، وأتحرر من غيري! يا جنرال، استردّ أنت أيضاً لائتك، واهدها إلى زوجتك! إليك اللائئ! خذها! وسوف أترك هذه الشقة منذ غد، فلا سهرات بعد اليوم أيها السادة!

قالت هذا الكلام ونهضت كأنما لتخرج.

فارتفعت أصوات من كل صوب تناديها:

- لئاستاسيا فيليبوفنا! لئاستاسيا فيليبوفنا!

واضطرب الجميع، وبارحوا أماكنهم، وأحاطوا بها، وأخذوا يصغون في قلق شديد إلى أقوالها المتقطعة المحمومة الهاذية. كانوا يشعرون جميعاً بأن هذا نوعاً من اختلال، أو من جنون، دون أن يفهموه، أو أن يستطيعوا تعليله لأنفسهم.

وفي تلك اللحظة ونّ جرس الباب على حين فجأة دقة قوية تشبه من جميع النواحي الرنة التي ترجعت في بيت جانينا بعد الظهر من ذلك اليوم.

فهتفت لئاستاسيا فيليبوفنا تقول:

- ها... جاءت الخاتمة! أخيراً! الساعة هي الحادية عشرة والنصف. أرجوكم أن تجلسوا أيها السادة. لقد حان موعد الخاتمة!

قالت ذلك وعادت تجلس. وكانت تنبض على شفيتها ضحكة غريبة. وصمتت تنتظر انتظاراً محموماً وهي تنظر إلى الباب.

دمدم بتتسين يقول لنفسه:

– لا شك في أنه روجويين قد جاء بالمائة ألف روبل!

الفصل الخامس عشر

دخلت الخادمة كاتيا^[41] مرتاعة أشد الارتياح، وقالت:

- حدث ما لا يعلمه إلا الله يا ناستاسيا فيليبوفنا! هناك نحو عشرة أشخاص اجتاحوا حجرة المدخل سُكاري يطلبون الدخول. وقد سألوني أن أبلغ عن وصول روجويين، وزعموا أنك على علم بالأمر.

صحيح يا كاتيا، أدخلهم فوراً!

- حقاً؟ أدخلهم جميعاً... يا ناستاسيا فيليبوفنا؟ أن حالتهم فظيعة، أنهم مخيفون!

- جميعاً، أدخلهم جميعاً يا كاتيا، لا تخشي شيئاً، أدخلهم حتى آخرهم، وإلا دخلوا دون أن تأذني لهم بالدخول. هل تسمعين الضجة التي يحدثونها منذ الآن؟ إنها عين الضجة التي أحدثوها بعد الظهر من هذا اليوم!

ثم قالت ناستاسيا فيليبوفنا ملتفتة إلى ضيوفها:

- أيها السادة، ربما أزعجكم أن أستقبل عصابة كهذه العصابة بحضوركم. أنا آسفة. سامحوني. ولكن لا بد من ذلك. إنني أرغب كثيراً في أن توافقوا على أن تكونوا شهودي في هذه الخاتمة، ولكن لكم ما تشاؤون طبعاً!

استمر الحضور في دهشتهم يتهامسون ويتبادلون النظرات. لقد أصبح واضحاً كل الوضوح أن ذلك كله كان محسوباً مرتباً مهياً، وأنه بات من المستحيل إكراه ناستاسيا فيليبوفنا على ترك فكرتها، رغم أنها قد جنت طبعاً! وكان حب الاطلاع قد استبد بهم جميعاً، ولم يكن هناك ما يدعو أحداً منهم إلى أن يرتاع ارتياحاً شديداً على كل حال. لم يكن بين الحضور إلا سيدتان اثنتان: داريا ألكسيفنا، وهي امرأة محنكة سبق أن رأت في حياتها أموراً كثيرة، وليس ترويعها بالأمر السهل. تلك هي السيدة الأولى. أما الثانية فهي تلك المرأة المجهولة الصموت التي كانت على جانب عظيم من الجمال. لكن المجهولة البكماء، كانت في أغلب الظن عاجزة عن أن تفهم أي شيء. إنها ألمانية كانت مارةً ببطرسبرج، وهي تجهل الروسية. ورغم أنها لم تصل إلا منذ مدة

قصيرة، فقد جرت العادة أن تُدعى إلى بعض الحفلات. إنها ترتدي ثياباً جميلة فاخرة. وتصفّف شعرها كأنها متأهبة لدخول مسابقة، فالتاس يدعونها إلى الحفلات كصورة فتانة تزيّن السهرة، تماماً كما يُزين البيت بلوحة أو أنية خزف أو تمثال أو قطعة أثاث ثمينة تُستعار من الأصدقاء في المناسبات.

وأما عن الرجال فإن بتتسين، مثلاً، صديق للفتى روجويين. وفردشتينكو يشعر بأنه أشبه بسمكة في الماء. وجانيا الذي لم يستطع بعد أن يثوب إلى رشده، كان يشعر شعوراً لا يقاوم، رغم أنه شعور مبهم، بحاجة إلى أن يبقى حتى النهاية مسمراً في مكانه أمام الناس. ومعلم المدرسة العجوز الذي لم يفهم شيئاً كثيراً مما كان يحدث، قد أوشك أن يجهش باكياً، وكان يرتجف من الخوف ارتجافاً، لشعوره بجو القلق والخشية حول ناستاسيا فيليبوفنا التي يحبها كما يحب حفيدته؛ ولكنه يؤثر أن يموت على أن يترك ناستاسيا فيليبوفنا في لحظة كهذه اللحظة. وفيما يتعلق بآتانازي إيفانوفتش، فإنه كان لا يستطيع طبعاً أن يعرض نفسه لأحداث من هذا النوع تسيء إليه وإلى سمعته، ولكنه كان مرتبطاً بهذه القضية ارتباطاً شخصياً قوياً، فهو مشدود إليها لا يستطيع منها فكاكاً، رغم المجرى الجنوني الذي أخذت تجري فيه! لذلك قرر أن يبقى حتى النهاية، صامتاً مع ذلك، مكتفياً بالمشاهدة كما يقتضي وقاره، وكما تقتضي كرامته ومهابته! والجنرال إيبانتشين الذي سبق أن أهين قبل لحظات كان الوحيد الذي يحق له أن يزداد غضبه لما يراه من هذه الأنواع الجديدة من الشذوذ، كظهور روجويين مثلاً. أن من كان في مثل رتبته، حسب تساهلاً وتنازلاً أن يرضى المشاركة في سهرة تضم أشخاصاً مثل بتتسين أو فردشتينكو. لقد غلبه الهوى على أمره، فسقط تلك السقطة. ولكن الشعور بالواجب واعتبار الرتبة والمركز، واحترام الذات، قد انتصرت أخيراً، فأصبح لا يطيق وجود روجويين وعصبته. لذلك التفت نحو ناستاسيا فيليبوفنا يريد أن يعبر لها عن ذلك، ولكن ما أن فتح فمه وهم بالكلام حتى قاطعته تقول:

- ... جنرال... لقد نسيتك. ولكن ثق أنني قد تنبأت باعتراضك. فإذا كنت متضايقاً، فإنني لا ألع عليك ولا أحب أن أحتجرك، رغم أنك أنت من أرغب أقوى رغبة في أن يكون بقربي هذه اللحظة. مهما يكن من أمر، فأنا أشكر لك المتعة التي هيأتها لي معرفتي بك، وأشكر لك التفاتاتك الكريمة التي أعتز بها، ولكن إذا كنت تخشى أن...

فهتف الجنرال يقول وقد استولت عليه نوبة من روح الفروسية السمحة السخية:

- عفوك يا ناستاسيا فيليبوفنا! لمن تقولين هذا الكلام؟ لأبقيّن بقربك ولو لمجرد

الإخلاص لك والتفاني في سبيلك، فإذا وُجد خطر من الأخطار مثلاً... ثم إنني متعجب أشد التعجب، أعترف لك بذلك. أريد أن أقول: أن من الممكن أن يفسدوا السجاد، حتى لقد يكسرون شيئاً من الأشياء... فالحق أنه ما ينبغي أن يُسمح لهم بالدخول أبداً يا ناستاسيا فيليبوفنا!

قال فردشتينكو معلناً:

– هذا روجويين بشخصه!

وهمس الجنرال يسأل آتانا زي إيفانوفتش مسرعاً:

– ما رأيك؟ ألا تظن أنها جُنّت؟ لا أقصد بالجنون معناه المجازي بل معناه الطبي، الطبي..

فأجابه توتسكي قائلاً بشيء من المكر والخبث:

– قلت لك منذ زمان طويل أن بها استعداداً للجنون...

– تضاف إلى ذلك الآن حالة الحمى هذه..

كانت عصابة روجويين تتألف تقريباً من أولئك الأفراد أنفسهم الذين كانت تتألف منهم بعد الظهر من ذلك اليوم؛ وإنما أضيف إليها الآن شيخ ضئيل فاسق كان في زمانه مديراً لصحيفة حقيرة من الصحف التي تقدم إليها الرشوات خوفاً من التشهير ويُروى عنه أنه رهن أسنانه الذهبية ليشرب بثمانها خمراً؛ وقد أضيف إلى العصابة أيضاً ملازم ثان محال على التقاعد، يشبه ذلك الذي رأيناه بعد الظهر متميزاً بقبضتي يديه القويتين؛ وهو في الحق ندّ له ومنافس، بالمهنة والوظيفة معاً! إن جميع أفراد عصابة روجويين كانوا لا يعرفونه، ولكنهم التقطوه في الطريق على رصيف شارع نفسكي، الذي تغمره أشعة الشمس، حيث كان يستوقف المارة ليطلب منهم مساعدة، بأسلوب يشبه أسلوب مارلنسكي^[42]، زاعماً لهم أنه «كان هو نفسه في الماضي يهب لكل سائل من السائلين عشرة روبلات أو خمسة عشر روبلاً». ولم يلبث الندّان المتنافسان أن شعرا بعداوة متبادلة، فالسيد ذو القبضتين يرى أنه قد أهين إهانة مباشرة حين ضمّ هذا «السائل» إلى الجماعة، ولكنه بحكم طبعه الصموت كان لا يزيد على أن يصدر همهمات كهمهمات دب، ويقابل بأشد الاحتقار محاولات التودد الكثيرة، والانحناءات اللطيفة التي كان يقوم بها «السائل» إظهاراً لأدبه ورقيه. كان واضحاً أن الملازم الثاني هو من أولئك الذين يؤثرون، من أجل أن يشقوا لأنفسهم طريقاً، يؤثرون حسن التصرف

وبراعة التدبير على استعمال القوة والعنف؛ هذا إلى أن قامته أقل ضخامة من قامة السيد ذي القبضتين القويتين. وقد أشار عدة مرات، بطريقة مرهفة، دون أن يثير نقاشاً صريحاً، ولكن بشيء من التفاخر والتباهي، إلى أفضلية الملاكمة الإنجليزية (البوكس)، مفصلاً بذلك عن أنه رجل غربي المذهب والاعتقاد. فكان السيد ذو القبضتين الضخمتين، حين يسمع كلمة «البوكس»، لا يزيد على أن يبتسم ابتسامة تهكم وغضب، وكان لاحتقاره كل مجادلة، يقتصر بين الفينة والفينة، في صمت وبما يشبه المصادفة، على أن يظهر أو يمدّ إلى أمام ذلك الشيء الوطني جداً، الروسي جداً: قبضة ضخمة نامية العضلات كثيرة العقد مغطاة بشعر أحمر. فكان يتضح للجميع حينذاك أن هذا الشيء الوطني جداً إذا هو هوى على هدفه بإحكام، استطاع أن يهشمه تهشيماً.

وكما لوحظ بعد الظهر من ذلك اليوم، لم يكن أحد من عصابة روجويين سكران سكرأً شديداً، وذلك بفضل جهود روجويين الذي ظل طوال النهار لا تغيب عن فكره زيارة ناستاسيا فيليبوفنا في بيتها. وقد اتسع وقته هو نفسه لأن يصحو من السكر صحوأً شبه كامل. ولكنه في مقابل ذلك، بعد جميع تلك المشاعر التي عاناها في ذلك اليوم العجيب، والتي لا تشبه في شيء كل ما سبق أن عرفه طوال حياته، كان مرهقاً مخبولاً. أن شيئاً واحداً قد ظل ماثلاً في ذهنه وفي ذاكرته وفي قلبه بغير انقطاع. ومن أجل ذلك كان قد قضى وقته كله. منذ الساعة الخامسة بعد الظهر حتى الساعة الحادية عشرة من المساء، وهو في حالة هم وغم وقلق لا حدود لها، قضى وقته كله ساعياً هنا وهناك عند أمثال كندر وأمثال بيسكوب اللذين شارفا على الجنون هما أيضاً من كثرة ما تحركا في سبيل قضاء حاجته وتدبير أمره. المهم على كل حال أن المائة ألف روبل، عدأً ونقداً، التي ألمعت إليها ناستاسيا فيليبوفنا الماعأً خاطفاً ساخرأً، وغامضاً كل الغموض، قد أمكن جمعها قروضاً بفوائد باهظة تبلغ من الفداحة أن بيسكوب نفسه كان يستحي أن يتحدث فيها مع كندر إلا همساً.

وكما حدث بعد الظهر من ذلك اليوم، كان روجويين يتقدم عصبته ويسير في طليعتها، وكان رجاله يمشون وراءه، مدركين لتفوقهم، شاعرين مع ذلك بشيء من الخشية. وكانت ناستاسيا فيليبوفنا هي التي يخشونها خاصة، لا يدري إلا الله لماذا! حتى لقد كان بعضهم يتصور أنهم «سوف يُرمون إلى أسفل السلم». وكان زاليوجيف، المغوي الأنيق، واحداً من هؤلاء. غير أن بينهم رجالاً آخرين، ولا سيما صاحب القبضتين الجبارتين، كانوا في قرارة أنفسهم يحتقرون ناستاسيا فيليبوفنا احتقاراً مطلقاً، بل وكانوا يكرهونها كرهاً شديداً، وكانوا يشعرون أنهم إنما ذهبوا إلى بيتها ذهابهم إلى

مدينة محاصرة. ومع ذلك فإن الترف العظيم الذي رأوه في الحجرتين الأوليين، وجميع هذه الأشياء التي لم يتح لهم طوال حياتهم حتى أن يحلموا بمثلها، والأثاث النادر واللوحات الجميلة وتمثال فينوس الكبير، كل هذا قد أحدث في نفوسهم احتراماً لا سبيل إلى مغالبتة، بل وأحدث في نفوسهم ما يشبه الخوف. على أن هذا لم يمنعهم طبعاً من أن يتسللوا إلى الصالون وراء روجويين قليلاً قليلاً، بفضول وقح، رغم ما شعروا به من خوف. ولكن حين رأى صاحب القبضتين الضخمتين و«السائل» وبضعة أشخاص آخرين، حين رأوا الجنرال إيبانتشين بين المدعوين، خارت قواهم حتى هموا أن ينسحبوا إلى الغرفة المجاورة، إلا واحداً منهم هو لبيديف الذي لم يتزعزع، حتى لقد كان يمشي مع روجويين جنباً إلى جنب تقريباً، لإدراكه قيمة مبلغ هو مليون وأربعمائة ألف روبل يحمل روجويين بيده منه مليوناً كاملاً. يحسن أن نلاحظ مع ذلك أن الجميع، ومنهم لبيديف العارف بالقانون، كانوا لا يدركون حدود سلطتهم على وجه الدقة، ولا يعلمون هل كل شيء مباح لهم الآن حقاً أم هو غير مباح. ففي بعض اللحظات كان لبيديف مستعداً لأن يحلف أن كل شيء مباح، وفي لحظات أخرى كان ينتابه قلق ويشعر بالحاجة إلى أن يتذكر بعض مواد القانون - استعداداً للطوارئ - ولا سيما المواد التي تشجع وتطمئن.

أما الأثر الذي أحدثه صالون ناستاسيا فيليبوفنا في نفس روجويين فكان مختلفاً عن الأثر الذي أحدثه في نفوس أصحابه كل الاختلاف. فإنه ما أن أزيلت الستارة أمامه، فأبصر ناستاسيا فيليبوفنا، حتى أصبح كل ما عداها لا وجود له في عالمه، كما حدث له هذا بعد الظهر، غير أنه حدث الآن على نحو أتم وأكمل. واصفر وجهه وتوقف لحظة من الوقت. إن المرء يستطيع أن يتصور شدة خفقان قلبه. حدّق إلى ناستاسيا فيليبوفنا بضع لحظات، وجل الهيئة زائغ العقل، لا يحول عنها بصره. ثم اقترب من المائدة فجأة كمن فقد عقله وهو يكاد يترنح، فاصطدم أثناء خطوه بكرسي بتتسين وداس بحذاءيه الوسخين شريط الدانتيل الذي يزين حافة الثوب الأزرق المترف الباذخ الذي ترتديه الألمانية الصموت الرائعة الجمال. فلم يعتذر عن ذلك، بل ولم يلاحظه. فلما دنا من المائدة وضع عليها شيئاً غريباً كان قد دخل به ممسكاً إياه بيديه كليهما. هو حزمة سميكة من ورق، يبلغ علوها نحو اثني عشر سنتيمتراً ويبلغ طولها نحو ستة عشر؛ قد لُفّت بعدد من أعداد جريدة «أنباء البورصة»^[43]، وأحكم ربطها بخيط متين. وضع روجويين الحزمة على المائدة، ووقف، ولبت على هذه الحال متهدل الذراعين لا ينطق بكلمة واحدة، كالمتهم الذي ينتظر صدور حكم المحكمة. لم تتغير ثيابه التي كان يرتديها بعد الظهر، فيما عدا منديل من حرير أخضر وأحمر معقود حول عنقه بدبوس

ضخم من ألماس على شكل فراشة، وفيما عدا خاتم كبير له فص ضخّم من ماس تزدان به أصبع متسخة من أصابع يده اليمني.

وكان ليبيديف قد توقف على مسافة بضع خطوات من المائدة. أما الآخرون فكانوا، كما سبق أن ذكرنا ذلك، يتسللون إلى الصالون قليلاً قليلاً. وقد هرعت كاتيا وباشا^[44]، خادمتا ناستاسيا فيليبوفنا، هرعتا هما أيضاً، وأخذتا تلقيان من وراء الستارة نظرات مبهوتة قلقة.

قالت ناستاسيا فيليبوفنا تسأل روجويين بعد أن تفرست فيه محدقة مستطلعة، قالت تسأله وهي تومئ بعينها إلى «الشيء»:

– ما هذا؟

فأجاب روجويين يقول بما يشبه أن يكون زفرة:

– مائة ألف!

– وفي بوعده مع ذلك... هل رأيتم؟ اجلس من فضلك. هنا، على هذا الكرسي. سأقول لك شيئاً بعد قليل. من هؤلاء الذين جئت بهم؟ كل العصابة التي كانت معك بعد الظهر؟ طيب، فليدخلوا. يستطيعون أن يجلسوا على ذلك الديوان هناك، وعلى هذا الديوان الآخر، وعلى هذين المقعدين... ماذا ينتظرون؟ ما بالهم لا يدخلون؟ ألا يريدون أن يدخلوا؟

كان بعضهم قد شعروا بالوجل فعلاً، فانسحبوا إلى الغرفة المجاورة واستقروا بها ينتظرون الأحداث، ولكن بعضاً آخر بقوا فجلسوا حيث دعوا إلى الجلوس، مؤثرين مع ذلك أن يظلوا بعيدين عن المائدة، ولا سيما في الأركان، فمنهم من لا يزال يرغب في الإمحاء فعلاً، ومنهم من كان يسترد جرأته بسرعة تفوق الحد الطبيعي.

وجلس روجويين على الكرسي الذي عينته له هو أيضاً، لكنه لم يبق جالساً مدة طويلة، فما لبث أن عاد ينهض ولم يجلس بعد ذلك. وشيئاً فشيئاً أخذ يميز المدعوين ويتصفح وجوههم. فلما رأى جانبا ابتسم ابتسامة مسمومة ودمدم يقول بينه وبين نفسه: «هه!». ولاحظ وجود الجنرال ووجود آتانازي إيفانوفتش فلم يضطرب أي اضطراب، بل ولم يشعر بأي استغراب. ولكنه حين أبصر الأمير إلى جانب ناستاسيا فيليبوفنا لبث مدة طويلة لا يستطيع أن يحولّ عنه نظراته المدهوشة، وكأنه عاجز عن أن يعلل لنفسه هذا اللقاء. إن من يراه يحسن في بعض اللحظات أنه يعاني نوبة هذيان

حقاً. فهو، عدا الانفعالات التي كابدها طوال هذا اليوم، كان قد قضى الليلة الماضية كلها في القطار، ولم يكن قد نام خلال ثمان وأربعين ساعة تقريباً.

قالت ناستاسيا فيليبوفنا وهي تلتفت نحو ضيوفها وقد ظهر في وجهها تحدٍ زاهرٌ بتململ محموم:

- يا سادة، هذه مائة ألف روبل! هنا، في هذه الحزمة القذرة: أن هذا الرجل الذي ترون. قد صرخ يقول كالمجنون بعد الظهر من هذا اليوم إنه سيجيئني في المساء بمائة ألف روبل، وقد انتظرتُه. إنه يجيئني بالمال ليشتريني. بدأ بثمانية عشر ألف، ثم ارتفع بوثة واحدة إلى أربعين ألفاً، ثم ارتفع أخيراً إلى المائة ألف التي ترون. لقد وفى بوعده على كل حال! هيه.. ما أشد اصفرار وجهه!.. حدث هذا كله منذ مدة قصيرة في بيت جانيتشكا. ذهبت إلى الأسرة التي كانت ستصير أسرتي، ذهبت أزور أمه، فإذا بأخته تصرخ في وجهي قائلة: «هل يمكن ألا يكون هناك أحد يُخرج هذه الوقحة؟». ورمت وجه أخيها ببصقة في الوقت نفسه. قوية الشكيمة!

قال الجنرال بلهجة العتب، وقد أخذ يفهم القضية قليلاً على طريقته:

- ناستاسيا فيليبوفنا!

فقالت ناستاسيا:

- ماذا يا جنرال؟ أتراك تعدّ كلامي هذا غير لائق؟ كفاني تمثيلاً! لقد ظللت سنين، في شرفتي من «المسرح الفرنسي»، أعرض نفسي مثلاً للفضيلة التي لا سبيل إلى الاقتراب منها، وظللت أفرُّ كالمتوحشة من جميع أولئك الذين كانوا يلاحقونني ويطاردونني، وظللت اصطنع هيئة البراءة المتكبرة المتعالية، فما كان ذلك كله إلا سخافة وجنونا! انظر... لقد جاء رغم ذلك، رغم تلك السنين الخمس التي قضيتها متمسكةً بأهداب الفضيلة، جاء يضع المائة ألف روبل على المائدة؛ ولا شك في أنهم أعدوا عربات الترويك، وأن العربات تنتظرني. لقد قدر لي سعراً هو مائة ألف روبل! يا جانيتشكا، أرى أنك ما تزال غاضباً مني. ولكن هل صحيح أنك أردت أن تدخلني في أسرتك، أنا التي «أصلح لأمثال روجويين»! ألم تسمع ما قاله الأمير منذ قليل؟

تمتم الأمير بصوت مختلج:

- أنا لم أقل: إنك تصلحين لروجويين؛ أنت لم تُخلقي لمثل روجويين.

انفجرت داريا ألكسيفنا تقول فجأة:

- ناستاسيا فيليبوفنا! كفى يا عزيزتي! كفى يا يمامتي! إذا صحّ أنك أصبحت لا تطيقينهم، فما الذي يحملك على مداراتهم؟ ولكن هل من الممكن أن تقبلي الرحيل مع هذا الرجل، ولو في سبيل مائة ألف روبل؟ صحيح أن مائة ألف روبل ليست شيئاً يسيراً! ولكن ما عليك إلا أن تأخذها، هذه المائة ألف روبل، ثم تتخلصي من الرجل الذي قدمها إليك. ذلك ما يجب فعله مع أمثال هؤلاء الناس. لو كنت في مكانك لعرفت كيف أسيرهم جميعاً...

كانت داريا ألكسيفنا قد بلغت حدّ الغضب. إنها امرأة طيبة القلب، سريعة التأثر.

قالت لها ناستاسيا فيليبوفنا مبتسمة:

- لا تغضبي يا داريا ألكسيفنا! لقد كلمت جانبا دون غضب. هل وجهت إليه أي لوم؟ صحيح أنني لا أستطيع أن أفهم الآن كيف أمكن أن أبلغ من الغباء حدّ الطمع في الدخول إلى أسرة كريمة شريفة. لقد رأيت أمه، وقبلت يدها. أما عن سلوكي في بيتك يا جانيتشكا فقد تعمدته تعمداً، من أجل أن أدرك، مرة أخيرة، المدى الذي يمكن أن تمضي إليه: وإني لأعترف لك بأنك أثرت دهشتي. كنت أتوقع أشياء كثيرة. لكنني لم أتوقع هذا! كيف تريد أن تتزوجني وأنت تعلم أنه قدّم إليّ لآئى كتلك اللآئى عشية زواجك تقريباً، وإني قبلت أخذها؟ وروجويين؟ إنه في بيتك نفسه، أمام أمك وأختك، إنما ساوم عليّ. ورغم ذلك جئت تطلبني للزواج، حتى لتكاد تصطحب أختك. أصبح إذاً ما قاله عنك روجويين من أنك مستعد في سبيل ثلاثة روبلات أن تزحف منبطحاً على بطنك حتى جزيرة فاسيلفسكي^[45]؟

قال روجويين فجأة بصوت خافت، ولكن بلهجة فيها اقتناع كامل:

- إنه مستعد أن يفعل ذلك!

وتابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها تقول:

- لو كنت تموت جوعاً لعذرتك. ولكن يظهر أنك تقبض رواتب طيبة! ثم إنك، عدا العار، لا ترفض أن تتزوج امرأة تكرها «ذلك أنك تكرهني، فأنا أعرف ذلك حق المعرفة». لا، لا، إني مستعدة لأن أصدّق الآن أن رجلاً مثلك يمكن أن يقتل في سبيل أن يحصل على مال! هذا شأن جميع الناس الآن. أنهم ظامئون إلى المال ظمأً يأخذون سكيناً فيلفونها بحريز، ويتسللون بهدوء ورفق وراء رفيق لهم ليزبحوه كما يُذبح خروف^[46]. قرأت عن هذا حديثاً. يمكن أن توصف بأنك رجل لا حياء له. وأنا أيضاً

امرأة بغير حياء، ولكنك أسوأ مني. أما صاحب باقة الأزهار، فلا أتكلم عنه الآن...

هتف الجنرال يقول آسفاً أشد الأسف:

- أأنت من أسمع يا ناستاسيا فيليبوفنا؟ أتقولين مثل هذا الكلام، أنت ذات الشعور الرقيق، والفكر المرهف؟ ما هذه اللغة؟ ما هذه التعابير؟

أخذت ناستاسيا فيليبوفنا تضحك قائلة:

- أنا الآن سكرى يا جنرال، أحب أن ألهو وأقصص! إن هذا اليوم يومي، هو يوم ميلادي، هو يوم فرحي الذي انتظرتة طويلاً! يا داريا ألكسيفنا، إنك ترينه، ذلك السيد، «صاحب أزهار الكاميليا»، الذي يضحك هناك، الذي يضحك منا...

- أنا لا أضحك يا ناستاسيا فيليبوفنا. أنا لا أزيد على أن أصغي بأكبر انتباه.

كذلك ردّ توتسكي على ناستاسيا فيليبوفنا بوقار وورصانة. وتابعت ناستاسيا كلامها تقول:

- إنك ترينه. لماذا عذبتة طوال خمس سنين دون أن أردّ إليه حريته؟ هل كان يستحق مني ذلك العناء كله؟ إنه ما يجب أن يكون، لا أكثر من ذلك ولا أقل... ولسوف يحكم عليّ بأنني أنا المذنبة في حقه. لقد ضمن لي تنشئة راقية وتربية عالية... وعالني كما تُعال كونتيسة، وما أكثر ما أنفق في سبيلي من مال! حتى لقد عثر لي هناك علي رجل شريف ليتزوجني، وعثر لي هنا على جانيتشكا. وفوق ذلك كله، هل تصدقين أنني لم أعاشره خلال تلك السنين الخمس كلها، وإنما كنت آخذ ماله وأظنني صاحبة حق فيه؟ إلى هذا الحد اختلطت في عقلي الأمور! تقولين لي: إن عليّ أن آخذ المائة ألف روبل وأن أطرده هذا الشاب الذي يهديها إليّ إذا كنت أשמئز منه. الحق أنني أשמئز... لقد كان في وسعي أن أتزوج، منذ زمن طويل... وكان في وسعي أن أتزوج رجلاً خيراً من جانيا، ولكن ذلك أيضاً كان يثير اشمئزازي. لماذا قضيت إذن هذه السنين الخمس أشحن كرهى وأغذي بغضى؟ هل تصدقين أنني بلغت حد التساؤل أحياناً منذ أربع سنين: «لماذا لا أتزوج صاحبي آتانازي إيفانوفتش؟». كان ذلك يخطر ببالي من قبيل الحقد والشر. الله يعلم ما الذي كان يجول في فكري حينذاك! وكنت أستطيع طبعاً أن أجبره على أن يتزوجني! هو نفسه كان لا يرجو خيراً من ذلك، هل تصدقين؟ صحيح أنه كان يكذب ولكنه كان ملتهباً فلا يطيق صبراً. أحمد الله على أنني قد أتيح لي أن أفكر فانتهيت إلى أنه لا يستحق مني كل ذلك الكره! فبلغت عندئذ من شدة الاشمئزاز منه أنني لو طلب أن يتزوجني لرفضت. واستمر

ذلك التمثيل خمس سنين! لا، لا، من الأفضل أن أنزل إلى الشارع، فهناك مكاني! أو أن ألهو وأقصف مع روجويين، أو أن أعمل غسالة منذ الغد! ذلك أن كل ما أحمله ليس ملكي، فإذا انصرفت رميت له كل شيء، كل شيء، حتى آخر خرقة، ومن ذا الذي يمكن أن يريدني بعد ذلك، بعد أن أصبح فقيرة معدمة؟ أسألي جانيا هل يريدني بعد أن أفعل هذا؟ حتى فردشتينكو لن يقبل!...

قاطعها فردشتينكو قائلاً:

- جائز ألا يرغب فيك فردشتينكو! إنني رجل صريح! ولكن في مقابل ذلك، يمكن أن يتزوجك الأمير في هذه الحالة. إنك الآن تشتكين، فهلاً نظرت إلى الأمير! أنني أراقبه منذ مدة طويلة...

التفت ناستاسيا فيليبوفنا إلى الأمير مستطلعة. وسألته:

- أهذا صحيح؟

فقال الأمير لاهثاً:

- صحيح.

- أئتزوجني كما أنا، بدون شيء؟

- نعم يا ناستاسيا فيليبوفنا...

دمدم الجنرال يقول:

- وهذا شيء جديد!... كان يمكن أن نتوقع ذلك!

وحدّق الأمير بنظرة قاسية أليمة نافذة إلى وجه ناستاسيا التي ما تزال تتفرس فيه.

قالت وهي تلتفت نحو داريا ألكسييفنا من جديد:

- هذا شخص آخر يتقدم! وإنه ليفعل راضياً، أنا أعرف ذلك. لقد وجدت محسناً،

وإن يكن صحيحاً في أغلب الظن ما يقال من أنه... قليلاً! ولكن بأي مورد تقدّر أن تعيش يا أمير إذا بلغ بك الحب مبلغ اتخاذي زوجةً لك، أنا التي أصلح لمثل روجويين؟...

قال الأمير:

- أنا أعدك امرأة صالحة شريفة يا ناستاسيا فيليبوفنا، وأنت لا تصلحين لروجويين

ولا خلقت لمثله.

- أنا؟ أنا امرأة صالحة شريفة؟ أنا؟

- نعم أنت.

- أوه!... هذا كلام خيالي مستمد من الروايات!.. هذه حكايات قديمة يا أمير، يا صديقي. لقد أصبح الناس في هذه الأيام أعظم ذكاء وأشد فطنة، وما ذلك كله إلا سفساف وترهات! ثم.. أي زوج عساك تكون أنت الذي ما تزال في حاجة إلى مربية تُعنى بأمرك؟

نهض الأمير وقال بصوت مختلج وجل، ولكنه بلهجة تعبر في الوقت نفسه عن اقتناع عميق:

- أنا لا أعرف شيئاً يا ناستاسيا فيليبوفنا... أنا لم أر شيئاً... إنك على حق... ولكنني... أعتقد أنك أنت التي تسبغين عليّ شرفاً إذا ارتضيتني زوجاً. أنا لست شيئاً. أما أنت فأنت قد تألمت، وأنت قد خرجت ظاهرة نقية من جحيم كهذا الجحيم. وذلك شيء كثير، لماذا تشعرين بالعار وتريدين أن ترحلي مع روجويين؟ إنها الحمى... لقد رددت إلى السيد توتسكي السبعين ألف روبل، وأنت تقولين: إنك ستتركين له كل شيء، كل ما هو موجود في هذا المكان. ما من أحد هنا قادر على أن يفعل ما تفعلين. إنني... يا ناستاسيا فيليبوفنا... إنني أحبك. أنا مستعد لأن أموت في سبيلك يا ناستاسيا فيليبوفنا. لن أسمح لأحد أن يقول فيك كلمة سوء يا ناستاسيا فيليبوفنا... وإذا كنا فقيرين، فلسوف أعمل يا ناستاسيا فيليبوفنا...

هنا سُمع صوت فردشتينكو وليبيديف يضحكان ساخرين. واستاء الجنرال نفسه فأصدر هذا الصوت «هم»! ولم يستطع بتتسين وتوتسكي أن يمتنعا عن التبسم، ولكنهما لم يلبثا أن كبحا ابتسامتهما. أما سائر الحضور فكانوا فاغري الأفواه من الدهشة.

وتابع الأمير يقول بذلك الصوت الوجل نفسه:

- ولكن من الجائز ألا نكون فقيرين البتة، بل غنيين جداً يا ناستاسيا فيليبوفنا. على أنني لست متأكداً من شيء. يؤسفني إنني لم أستطع حتى الآن أن أعرف شيئاً طوال هذا اليوم، ولكنني تلقيت وأنا بسويسرا رسالة من موسكو بعث بها إليّ رجل اسمه السيد سالازكين، وفيها يبلغني أن عليّ أن أطالب بحقي في ميراث يظهر أنه ضخم جداً.. إليك الرسالة...

وأخرج الأمير من جيبيه رسالةً بالفعل.

دمدم الجنرال يقول:

– أليس هذا هدياناً؟ أترانا في مستشفى مجانيين؟

وخيم الصمت لحظة.

سأل بتتسين:

– هل قلت: أن الرسالة قد بعثها إليك سالازكين يا أمير؟ هذا رجل معروف جداً في بيئتنا، هو رجل مشهور من رجال الأعمال، فإذا صحَّ أنه هو الذي بعث إليك بهذه الرسالة، فإن في وسعك أن تثق به كل الثقة، وأن تطمئن إليه كل الاطمئنان. من حسن الحظ أنني أعرف توقيعه، فقد كان لي عمل معه في الآونة الأخيرة. فإذا سمحت لي أن ألقي على الرسالة نظرة فقد أضى لك الأمر.

مدَّ الأمير إليه الظرف صامتاً، بيدٍ مرتعشة.

وانتفض الجنرال قائلاً وهو يلقي على الحضور نظرة مبهوتة:

– ماذا؟ ماذا؟ أميراتٌ حقاً؟

وانصبت جميع الأنظار على بتتسين بينما هو يقرأ الرسالة. لقد ألهمت الرسالة فضول الحاضرين بنار جديدة. أصبح فردشتينكو لا يستطيع الاستقرار في مكانه. وصعق روجويين فهو يلقي نظرات حائرة مضطربة قلقة على الأمير تارةً وعلى بتتسين تارةً أخرى، وينقل بصره بينهما بغير توقف. وأصبحت داريا ألكسيفنا أثناء هذا الانتظار كالجالسة على إبر. ونفذ صبر ليبيديف نفسه فترك ركنه، وحنى جسمه نصفين يحاول أن يقرأ الرسالة من فوق كتف بتتسين، وكأنه يتوقع أن يُصفع صفعه قوية من لحظة إلى أخرى معاقبةً له على فضوله.

الفصل السادس عشر

أعلن بتتسين أخيراً وهو يطوي الرسالة ويردها إلى الأمير، أعلن يقول:

– هذه قضية مؤكدة. سوف تراث، دون القيام بأي مسعى خاص، ثروة طائلة جداً، آلت إليك من خالتك في وصية لا مجال للطعن فيها على الإطلاق.

صاح الجنرال يقول:

– غير معقول!

وكان انطلاق صيحته أشبه بدوي انفجار.

ولبت الآخرون فاغري الأفواه من التعجب.

عندئذ أخذ بتتسين يشرح الأمر، مخاطباً إيضان فيدوروفتش خاصة، فقال: إن للأمير خالة ماتت منذ خمسة أشهر، هي الأخت الكبرى لأمه، ولكن الأمير لا يعرفها معرفة شخصية ولم يرها في يوم من الأيام؛ وهي من أسرة بابوشين، وكان أبوها تاجراً من الطبقة الثالثة بموسكو، أفلس ثم مات فقيراً معوزاً؛ لكن الأخ الأكبر لهذا الرجل، وقد مات منذ مدة قصيرة، كان يحتل مكاناً عالياً في عالم التجارة. فلما مات ابنه منذ سنة في غضون شهر واحد، مرض من شدة الحزن مرضاً شديداً ومات. وكان أرمل، وليس له إلا وريث واحد هو ابنة أخيه، خالة الأمير، التي كانت امرأة فقيرة جداً تعيش في بيت أناس غرباء. وحين آل إليها هذا الميراث كانت مصابة بداء الاستسقاء وكانت تُحتضر. لكنها أسرعَت تكلف سالا زكين بأن يبحث عن الأمير، حتى لقد اتسع وقتها لأن تكتب وصيتها. ويبدو أنه لا الأمير ولا الطبيب الذي كان ضيفاً عليه بسويسرا أرادا أن ينتظرا الإبلاغ الرسمي أو أن يعمدا إلى التثبيت من الأمر: وإنما وضع الأمير الرسالة في جيبه وقرر أن يجيء إلى روسيا...

وختم بتتسين كلامه مخاطباً الأمير فقال:

– الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أقوله لك هو أن هذا الأمر كله لا بد أن يكون ثابتاً لا جدال فيه لا من جهة الواقع ولا من جهة الحق، وإن في إمكانك أن تعد أقوال

سالا زكين في هذا الموضوع بمثابة مال في جيبك. أهنتك يا أمير. من الجائز أن تنال أنت أيضاً مليوناً ونصف مليون، أن لم يكن أكثر من ذلك. لقد كان بابوشكين واسع الثراء.

جار فردشتينكو يقول:

- مرحى لآخر رجل من سلالة الأمراء ميشكين.

وأعول ليبيديف يقول بصوت مخمور أبج:

- مرحى!

وقال الجنرال مصعوقاً من الدهشة:

- وأنا الذي أقرضته خمسة وعشرين روبلاً كما يُقرض رجل بائس!... هاهاها!...
أمر أغرب من الخيال!... طيب!... تهاني يا عزيزي، تهاني!...

قال الجنرال ذلك ونهض متجهاً نحو الأمير ليقبله، واقتدى به آخرون فأسرعوا يحدقون جميعاً بالأمير. وحتى أولئك الذين كانوا قد انسحبوا إلى الغرفة المجاورة أخذوا يظهرن في الصالون من جديد. وقامت ضوضاء مضطربة، فمن أحاديث مبهمة، إلى صيحات تعجب، بل وإلى صرخات نداء تطالب بشامبانيا. وأخذ الحضور يتزاحمون ويصدم بعضهم بعضاً كأنما أصابتهم جميعاً حمى. حتى لقد كادوا ينسون ناستاسيا فيليوفنا خلال برهة من الوقت، وكادوا ينسون أنها سيدة في بيتها رغم كل شيء. ولكنهم تذكرن شيئاً بعد شيء، في وقت واحد على وجه التقريب، أن الأمير قد عرض عليها منذ هنيهة أن يتزوجها. فإذا بهذا التذكر يفاقم الحالة ويجعل الوضع أشد إمعاناً في الجنون. وقد دُهِش توتسكي أعرق الدهشة، لكنه كان لا يزيد على أن يرفع كتفيه، حتى ليكاد يكون الشخص الوحيد الذي ظل جالساً. أما الآخرون فقد كانوا جميعاً يحتشدون حول المائدة متسببين بفوضى. ولقد أكدوا فيما بعد أن ناستاسيا فيليوفنا إنما فقدت عقلها في تلك البرهة.

كانت ناستاسيا فيليوفنا قد لبثت جالسةً، وظلت بعض الوقت تجيل على الحضور نظرة غريبة مدهوشة، كأنها لم تفهم ما حدث، فهي تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن تفهم. ثم التفتت إلى الأمير فجأةً، فحدقت إليه بانتباه، عابسة مهددة. ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة قصيرة. فلعلها قد ظنت أن الأمر لم يكن إلا مزاحاً أو سخرية، حتى إذا رأت الأمير تخلصت من ذلك الوهم بسرعة، وعادت إلى الوجوم والتفكير؛ وها هي ذي الآن

تبتسم وكأنها لا تعرف كثير لماذا تبتسم...

ودمدت تقول بلهجة ساخرة:

- إذا سأصبح أميرة حقاً!

وألقت نظرةً على داريا ألكسييفا دون إرادة منها، ثم انفجرت تضحك. وتابعت كلامها فقالت:

- هذه خاتمة لم تكن في الحسبان... ليس... هذا ما كنت أتوقعه... هيه أيها السادة! ما بالكم تظنون واقفين، هلاً تفضلتم فجلستم وهنأتمونا أنا والأمير! يخيل إليّ أن أحداً قد طلب شامبانيا. هلاً أصدرت أوامرك يا فردشتينكو؟ يا كاتيا، ويا باشا (هكذا نادت خادمتيها حين لمحتهما فجأة على الباب) تقدّما إليّ! سوف أتزوِّج، هل سمعتما؟ سوف أتزوج الأمير، إنه يملك مليوناً ونصف مليون؛ هو الأمير ميشكين، وسوف يتزوجني!

هتفت داريا ألكسييفا تقول وقد هزتها هذه الأحداث هزاً عميقاً:

وليكن الله معك! لقد أن الأوان...

تابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها:

- طيب يا أمير... اجلس بقربي، هنا، وإليك الشمبانيا. وهياً يا سادة، اشربوا نخب صحتنا!

أعولت أصوات كثيرة تهاتف:

- مرحى!

واحتشد عدد كبير من الحضور حول زجاجات الشمبانيا، واحتشد حولها خاصة جميع أفراد عصابة روجويين على وجه التقريب. غير أن كثيراً من الحضور قد أحسوا، رغم صراخهم، ورغم استعدادهم لمزيد من الصراخ، أن الجو قد أخذ يتغير، على ما كان في الأحداث من غموض وإبهام؛ واضطرب بعضهم فبدأ ينتظر التتمة مرتباً قلقاً؛ وتهامس بعضهم يقول: إن الحالة عادية جداً، والأمراء كثيراً ما يتزوج أحدهم أية امرأة، حتى لقد يتزوج فتاة غجرية يختطفها اختطافاً.

أما روجويين فقد كان جامداً ساكناً يراقب المشهد وقد انعقف وجهه بتجعيدة حيرى.

وجاء الجنرال إلى الأمير خلصة من جانب، وهمس يقول له مرتعّباً وهو يشده من

كمه:

- يا أمير، يا عزيزي، ثب إلى رشدك!

فرأته ناستاسيا فيليبوفنا وسمعت كلماته، فإذا هي تنفجر ضاحكة ضحكاً مجلجلاً،
وتقول:

- لا يا جنرال، أنا نفسي الآن أميرة، سمعت ذلك بأذنيك، ولن يسمح الأمير الآن
بأن أهان. يا آتانا زي إيفانوفتش، أنت على الأقل هنئي. سوف أستطيع بعد الآن أن أجلس
في كل مكان إلى جانب زوجتك. ما رأيك؟ أليس لمثل هذا الزوج نفع؟ مليون ونصف
مليون... وهو عدا ذلك أمير... وفوق هذا كله يقال: إنه أبله... فهل هناك ما هو خير
من ذلك؟ الآن إنما ستبدأ الحياة حقاً! فات الأوان يا روجويين، جئت متأخراً! خذ
حزمتك. سوف أتزوج الأمير. أنا أغنى منك.

لكن روجويين كان قد أدرك أخيراً ما يجري. فارتسمت على وجهه علامات ألم لا
سبيل إلى مغالبتها، وضمّ يديه إحداهما إلى الأخرى متضرعاً، وأفلتت من صدره أنه
توقع، ثم هاتف يقول للأمير:

- تنازل عن طلبك!

فأخذ الحضور يضحكون من حوله.

وانبرت داريا ألكسيفنا تجيب منتصرة:

- يتنازل لك أنت طبعاً، أليس كذلك؟ انظروا إلى هذا الفلاح الذي يلقي ماله على
المائدة! إن الأمير يتخذها زوجة له، أما أنت فتجيء لفضيحة!

- أنا أيضاً أتزوجها. فوراً. في هذه اللحظة. وسوف أدفع كل شيء...

قالت داريا ألكسيفنا مستاءة:

- انظروا إلى هذا السكران الخارج من الخمارة! يجب أن يُطرد!

واشتد الضحك.

فقالت ناستاسيا فيليبوفنا وهي تلتفت نحو الأمير:

- هل تسمع يا أمير؟ انظر كيف يساوم فلاح ليشتري خطيبته!

قال الأمير:

- إنه سكران، وهو يحبك كثيراً.

- أَلن تخجل من أن خطيبتك قد أوشكت أن تهرب مع روجويين؟

- كنت تعانين من حمى وما تزالين، فكأنك كنت تهدين.

- أَلن تخجل أيضاً حين يقال لك في المستقبل: أن زوجتك كان يعولها توتسكي خلية له؟

- لا، لن أخجل!... أن ذلك لم يحدث بإرادتك!

- أَلن تأخذ عليّ هذا الأمر في يوم من الأيام؟

- أبداً!

- انتبه! لا تورط نفسك على مدى الحياة!

قال الأمير برفق وهدوء، وبعاطفة تشبه أن تكون شفقة:

- ناستاسيا فيليبوفنا، لقد قلت لك منذ لحظة: أنني أعد موافقتك شرفاً لي، وإنك أنت التي تشرفيني، لا العكس! وقد ابتسمت أنت لأقوالي هذه، وسمعتُ من حولي ضحكات. جائزٌ أن تعبيري كان مضحكاً جداً، وأني كنت أنا نفسي مضحكاً جداً، لكني أعتقد بأنني أفهم أين هو الشرف، وأنا على يقين من أنني قلت الحقيقة. منذ قليل، كنت تريد أن تضيعي نفسك تضيعاً لا عودة منه ولا رجعة عنه، لأنك لو فعلت لما غفرت لنفسك ذلك السلوك في يوم من الأيام. وأنت مع ذلك لم تأثمي في شيء. يستحيل أن تكون حياتك قد ضاعت ضياعاً تاماً. ما قيمة أن يكون روجويين قد سعى إليك، وما قيمة أن يكون جبريل آرداليونتش قد حاول أن يخدعك؟ علام العودة إلى هذا بغير انقطاع؟ أن ما فعلته أنت لا يقدر عليه إلا قليل من الناس، أكرر لك هذا. أما الرحيل مع روجويين فقد اتخذت فيه قرارات وأنت مريضة. وإنك ما تزالين مريضة إلى الآن. وما تزالين تعانين من حمى، وخير ما يمكن أن تفعله في هذه اللحظة هو أن تمضي إلى فراشك فتنامي. ولو قد تبعت روجويين لتركته منذ الغداة ومضيت تعملين غسالة. إنك ذات كبرياء وشمم يا ناستاسيا فيليبوفنا؛ ولسوف أعطني بك وأسهر عليك. في هذا الصباح، حين رأيت صورتك، أحسست أنني أرى وجهاً أعرفه. لقد شعرت فوراً بأنك قد سبق أن ناديتني... سوف... سوف أحترمك كثيراً يا ناستاسيا فيليبوفنا.

بهذا ختم الأمير كلامه بغتة على غير توقع، واحمرّ وجهه حين تذكر نوع الناس الذين كان يتكلم أمامهم.

وكان بتتسين قد خفض رأسه حياء، وأطرق إلى الأرض. وقال توتسكي بينه وبين نفسه: «هو أبله، نعم، لكنه يعرف أن لا شيء يساوي المديح. يعرف هذا بالفضرة!». ولاحظ الأمير أيضاً ما كان من شرر في نظرة جانبا الذي كان يحدجه من ركنه حانقاً كأنه يريد أن يحيله رماداً.

وهتفت داريا ألكسيفنا تقول وقد فاضت نفسها عاطفة وحناناً:

– هذا ما يسمى قلباً طيباً!

ودمدم الجنرال يقول بصوت خافت:

– رجل مثقف، لكنه ضائع!

وقالت ناستاسيا فيليبوفنا:

– شكراً يا أمير؛ ما من أحد قال لي مثل هذا الكلام حتى الآن. كانوا يضعون لي سعراً ويحددون لي ثمناً، ولكن ما من رجل شريف طلبني للزواج في يوم من الأيام. هل سمعته يا آتاناخي إيفانوفتش؟ ما هو الأثر الذي أحدثته في نفسك كلمات الأمير؟ أغلب الظن أنك تجد هذا كله يكاد يكون بعيداً عن اللياقة والحشمة؟.. يا روجويين، انتظر لحظة! على كل حال، لا أرى أنك تنوي الانصراف. ما يزال من الجائز أن أرحل معك. إلى أين كنت تريد أن تأخذني؟

فقال لبيديف من الركن الذي هو فيه:

– إلى إيكاتيرنهوف^[47].

بينما لم يزد روجويين على أن ارتعش، وكان ينظر بكل عينيه وكأنه لا يصدق أذنيه. كان مصعوقاً كمن ضرب على رأسه بغتة.

وهتفت داريا ألكسيفنا تقول مروعة:

– ما هذا الذي تقولينه يا عزيزتي؟ أتراك جُننت؟

فصاحت ناستاسيا فيليبوفنا تقول وقد انفجرت ضاحكة ونهضت واثبة:

– هل أخذت كلامي مأخذ الجد إذن؟ أنا أَرْضَى أن أضيع حياة بريء؟ ذلك أمر خليك بأن يفعلهُ آتاناخي إيفانوفتش. فهو أمرؤ يحب أن يفسد على الأبرياء حياتهم. هلمَّ نرحل يا روجويين. هيئ حزمة الأوراق المالية! ليس أمراً هاماً أن تريد أن تتزوجني.

حسبك أن تدفع مالا. ومن الجائز ألا أقبل أن أتزوجك. هل تصورت أن تقدم لي الزواج وأن تحتفظ لنفسك بالمال؟ لست غبيةً إلى هذا الحد. أنا أيضاً قليلة الحياء خالعة العذار! لقد كنت خليله توتسكي أعاشره سفاحاً!.. يا أمير، أنت الآن في حاجة إلى أجاليا إيبانتشين لا إلى ناستاسيا فيليبوفنا. ولو ارتكبت هذه الحماقة لأصبحت مضغةً في الأفواه، ولأشار إليك بأصبعه حتى رجلٌ مثل فردشتينكو! أنت لا تخشى ذلك؟ ولكنني أنا أخاف أن أكون سبب ضياعك، وأخاف أن تلومني على هذا في المستقبل. أما ما تقوله عن الشرف الذي أسبغه عليك إذا أن تزوجتك. فإن توتسكي يعرف من أمر هذا الشرف ما يجب أن يعرف! أما أنت يا جانيتشكا فقد خسرت أجاليا إيبانتشين. هل تعلم ذلك؟ لولا أنك ساومت معها، لتزوجتك حتماً. هكذا أنتم جميعاً. ينبغي لكم أن تختاروا بين المرأة الشريفة والغانية البغي، وليس ثمة خيار آخر! فإن لم تفعلوا ذلك تحيرتم وارتبكتم واختلطت أموركم... انظروا إلى الجنرال كيف ما يزال فاعراً فاه!

قال الجنرال مردداً وهو يرفع منكبيه:

— هذه مدينة سدوم، هذه مدينة سدوم! [48]...

كان الجنرال قد نهض هو أيضاً. وكان جميع الحضور قد وقفوا على كل حال. وكانت ناستاسيا فيليبوفنا كمن جن جنونها.

قال الأمير في أنين وهو يلوي يديه حسرة ولوعة:

— أهذا ممكن؟

فردت ناستاسيا فيليبوفنا تقول:

— أكنت تظنه مستحيلاً؟ قد أكون أنا نفسي ذات كبرياء وشمم، مهما أكن قليلة الحياء خالعة العذار! لقد قلت منذ هنيهة: إنني امرأة كاملة. يا لهذه المرأة الكاملة التي تلقي بنفسها في الوحل لا لشيء إلا أن تفخر بأنها ركلت بالقدمين مليوناً ولقب أمير! أنا أصلح لك زوجة بعد هذا؟ يا آتانازي إيفانوفتش، لقد رميتُ المليون من النافذة فعلاً، فكيف أمكنك أن تتصور أنني سأعد نفسي سعيدة بأن أتزوج جانيتشكا مدفوعةً إلى ذلك بإغراء الخمسة وسبعين ألف روبل التي تدفعها؟ خذها، خذ روبلاتك البالغة خمسة وسبعين ألفاً يا آتانازي إيفانوفتش (إنك لم توصلها حتى إلى مائة ألف، فتفوق عليك روجويين). أما جانيتشكا فسوف أتولي مواساته بنفسه. لقد خطرت ببالي فكرة. والآن أريد أن ألهو وأقصف. ألسنت من بنات الشوارع؟ قضيت عشر سنين في سجن. وقد أن لي

أن أصبح سعيدة. هلم يا روجويين، هياء نفسك! لنرحل!

فزأر روجويين يقول وقد كاد يُجنّ فرحاً:

- لنرحل! هيه! أنتم... نريد خمراً! أف!..

- هيه خمراً. سوف أشرب. وهل سنسمع موسيقا؟

- نعم، سنسمع موسيقا، سنسمع موسيقا...

كذلك أجاب روجويين، فلما رأى داريا ألكسيفنا تتقدم نحو ناستاسيا فيليبوفنا،
جار يتابع كلامه قائلاً:

- لا تقتربي! لا تقتربي! إنها لي أنا! كل شيء لي أنا! هي ملكتي! انتهي الأمر!

كان يختنق فرحاً. وكان يدور حول ناستاسيا فيليبوفنا صارخاً يقول لكل واحد:
«لا تقترب!». وقد تجمعت عصبته كلها في الصالون. فبعضهم يشرب، وبعضهم يصرخ
ويضحك ضحكاً صاخباً، وجميعهم مهتاج يشعر بفرح غامر. وكان فردشتينكو يحاول
منذ ذلك الحين أن يجد له مكاناً بينهم.

وتحرك الجنرال وتوتسكي مرةً أخرى يريدان أن ينسحبا. وكان جانبا قد حمل
قبعته بيده هو أيضاً، لكنه ظل أخرس لا ينطق بحرف، وظل جامداً لا يتحرك، كأنه
عاجز عن انتزاع نفسه من المشهد الذي يجري أمامه.

- لا تقترب!

كذلك كان يجأر روجويين.

فانفجرت ناستاسيا تضحك وتقول له:

- ما بالك تعول هذا الأعوال؟ أنا ما زلت في داري سيدة نفسي. تكفي إشارة واحدة
مني حتى تُطرد شر طردة. أنا لما أخذ مالك بعد. ما يزال المال في مكانه. هاته إلى
هنا. أعطني الحزمة كلها. أهذه الحزمة هي التي تضم مائة ألف روبل؟ فظاعة! ولكن
ماذا بك يا داريا ألكسيفنا؟ أكان يجب على حقاً أن أفسد حياته؟ (سألت هذا السؤال وهي
تومئ إلى الأمير). كيف يمكنه أن يتزوج وهو ما يزال في حاجة إلى مربية أطفال؟
سوف ينوب الجنرال عن مربية أطفال، سوف يقوم له بهذا الدور. انظري كيف يحوم
حوله ويدلله! انظر يا أمير: إن خطيبتك قد أخذت المال لأنها مومس، وأنت كنت تريد
أن تتزوجها! ولكن ما بالك تبكي؟ أتجد في هذا مرارة شديدة؟ أضحك مثلي...

كذلك تابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها وقد تألأت على خديها، هي أيضاً، دمعتان كبيرتان. وواصلت تقول:

- اتكل على الزمن. سوف ينقضي كل شيء. لأن يغير المرء رأيه الآن خير من أن يغيره في المستقبل... ولكن ما بالكم تبكون جميعاً هذه كاتيا تذرف الدموع هي أيضاً. لماذا تبكين يا كاتيا، يا صغيرتي؟ سوف أترك لكما أنت وباشا أشياء كثيرة. لقد اتخذت لهذا الأمر ما يجب اتخاذه من تدابير. والآن، وداعاً! أنت الفتاة الشريفة، كنت أجبرك على أن تخدميني أنا العاهرة! هذا أفضل يا أمير! حقاً هذا أفضل! وإلا فسوف تحتقرني في النهاية، فلا تتحقق لنا سعادة. لا تحلف الأيمان المغلظة، فلن أصدقك. ما كان أسخف أن أوافق على أن نتزوج!... لا يا أمير، إن الأفضل أن نفترق على صداقة، لأنني أنا أيضاً حالمة، فلو تزوجنا لما كان في ذلك أي خير! ألم أحلم بك أنا أيضاً؟ إنك على حق: لقد حلمت بك زمناً طويلاً، منذ أن كنت بالريف، عنده. قضيت هناك خمس سنين، وحيدة تماماً. فكنت أنتقل من خواطر إلى خواطر، ومن أحلام إلى أحلام، حتى وصلت إلى تصور رجل مثلك، طيب، شريف، رقيق، غبي بعضي الغباء أيضاً، يأتيني على حين فجأة فيقول لي: «ما أنت بأثمة يا ناستاسيا فيليبوفنا. إنني أحبك وأعبدك!». نعم كنت أسترسل في الأحلام أحياناً إلى درجة الجنون! فإذا بهذا الرجل يصل، ليقضي شهراً أو شهرين كل عام، ثم يتركني مهانة ملطخة الشرف بالعار مهتاجة مدنسة. أردت ألف مرة أن ألقى بنفسي في الغدير، لكنني كنت جبانة، فأعوزتني الشجاعة... والآن، أنت مستعد يا روجويين؟

- كل شيء مهياً!

ورددت عدة أصوات تقول:

- كل شيء مهياً!

- وعربات الترويكات تنتظر تحت، مع أجراسها.

تناولت ناستاسيا فيليبوفنا حزمة الأوراق المالية بيديها. وقالت:

- يا جانيا، خطرت ببالي فكرة. أريد أن أعوض عليك خسارتك لماذا ينبغي أن تفقد كل شيء؟ يا روجويين، هل تعتقد أنه مستعد أن يزحف منبطحاً حتى فاسيلفسكي في سبيل ثلاثة روبلات؟

- نعم، إنه مستعد أن يزحف منبطحاً.

- فاسمع إذاً يا جانبا. أريد أن أتأمل نفسك مرةً أخيرة. لقد عذبتني طوال ثلاثة أشهر. وجاء الآن دوري أنا. هل ترى هذه الحزمة؟ إنها تضم مائة ألف روبل! سوف أرميها في الموقد، على مراري من جميع الحضور، ليكونوا كلهم شهوداً. فمتى أمسكت النار بها من كل جهة، فأسرع أنت إلى الموقد، ولكن بدون قفازين، بل عاري اليدين، واشمر كمك واستلّ الحزمة من النار. فإذا أفلحت في ذلك كانت المائة ألف روبل لك أنت! لن يكون عليك إلا أن تتحرق أصابعك قليلاً، ولكن المكافأة مائة ألف روبل، فكّر في الأمر! هل يستغرق استئلاها وقتاً طويلاً؟ لا... وفي أثناء ذلك سيتاح لي أن أعجب بنبل نفسك وعلو همتك، بينما أنت تنشل مالي من النار! الجميع شهود على أن المال سيكون مالك أنت! أما إذا لم تنشل أنت الحزمة من النار فسوف تحترق الحزمة. لن أسمح لأحد بأن ينتشلها. ابتعدوا جميعاً إلى وراء، إلى وراء! المال مالي أنا! هو ثمن ليلتي مع روجويين! هل هذا المال مالي يا روجويين؟

- لك أنت يا فرحتي، لك أنت يا ملكتي!

- فابتعدوا إذن إلى وراء، ابتعدوا كلكم، أنا أفعل ما أشاء، لا تضايقوني! يا فردشتينكو، حرّك النار لتشتعل جيداً!

فأجابها فردشتينكو يقول مصعوقاً:

- لا تطاوعني يداي يا ناستاسيا فيليبوفنا!

فهمت ناستاسيا فيليبوفنا تقول:

- طيب، طيب

وأمسكت الملقط، فحرّكت الجمر، حتى إذا ارتفعت ألسنة اللهب، رمت الحزمة في الموقد.

صرخ الجميع، حتى أن كثيرين منهم رسموا على أنفسهم إشارة الصليب. وارتفع من جميع الجهات صياح يهتف:

- مجنونة، مجنونة!

وهمس الجنرال في أذن بتتسين قائلاً:

- أليس الأفضل أن نوثقها بالحبال؟ أو أن نستدعي... هي مجنونة، أليس كذلك؟
مجنونة حقاً؟

فأجابه بتتسين بصوت خافت، شاحب الوجه مرتعش الجسم عاجزاً عن تحويل بصره عن الحزمة التي أخذت النار تمسك بها:

– ل... لا! ليس هذا بالجنون تماماً.

فاتجه الجنرال عندئذ إلى توتسكي يسأله:

– مجنونة، أليست مجنونة؟

فدمدم إيفانوفتش يقول شاحب الوجه هو أيضاً:

– ألم أقل لك: إنها امرأة «طريفة»؟

– مائة ألف روبل!

وسمعت من جميع الجهات صيحات تقول:

– يا لطيف يا رب!

احتشد الحضور جميعاً قرب الموقد، يحاولون جميعاً أن يروا، ويطلقون جميعاً صيحات الدهشة... حتى لقد اعتلى بعضهم كراسي وراح ينظر من فوق رؤوس الآخرين. وكانت داريا ألكسيفنا قد أسرعت إلى الغرفة المجاورة مروعة الهيئة توشوش كاتيا وباشا. وكانت الألمانية الجميلة قد ولّت هاربة.

جار ليبديف قائلاً وهو يزحف على ركبتيه أمام ناستاسيا فيليبوفنا، ويمد ذراعيه نحو الموقد:

– ماتوشكا! أيتها الملكة القادرة على كل شيء. هذه مائة ألف روبل! مائة ألف! رأيتها بعيني، حُزمت أمامي! ماتوشكا الرحيمة! مريني فأرمني جسمي كله في الموقد، وأضع في النار رأسي الأشيب!... أن عندي امرأة مريضة... فاقدة الساقين... وثلاثة عشر طفلاً هم جميعاً يتامى. لقد دفنت أبي في الأسبوع الماضي. أنهم يتضورون جوعاً. ناستاسيا فيليبوفنا!

كذلك زأراً ليبديف، وأخذ يزحف نحو الموقد.

فصرخت ناستاسيا فيليبوفنا تقول وهي تدفعه:

– إلى وراء! ابتعدوا جميعاً، ماذا تنظر يا جانيا؟ لا تستح! هلم! هذه فرصتك!

لكن جانيا كان قد تحمل كثيراً خلال ذلك النهار وتلك الليلة، ولم يكن قد تهيأ

لهذا الامتحان الأخير الذي لا يُتوقع! انشطر الحشد أمامه شطرين، فإذا جانبا يصبح قبالة ناستاسيا فيليبوفنا وجهاً لوجه، على مسافة ثلاث خطوات. كانت واقفة عند الموقد تنتظر، دون أن تحوّل عنه نظرتها الملتهبة الثابتة. أن جانبا يقف الآن برداء «الفراك»، حاملاً قبعته بيديه، صامتاً لا يجيب ولا يتحرك، عاقداً ذراعيه على صدره، يتأمل اللهب.

وكانت ابتسامة تائهة تطوف بوجهه الشاحب شحوباً شديداً.

صحيح أنه كان لا يستطيع أن يحول عينيه عن النار، وعن الحزمة التي أخذت تسودّ، غير أن شيئاً جديداً كان يبدو أنه اجتاح نفسه واستولى عليها. لكأنه حلف ليحتمل التعذيب حتى النهاية، فهو لا يبدي حراكاً؛ حتى أصبح واضحاً للجميع بعد بضع لحظات أنه لن ينتشل الحزمة من النار، أنه لا يريد ذلك.

وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تصرخ قائلة له:

– ستحترق الحزمة، فتكون أنت الملوم؛ ولتشنقن نفسك حزناً وكمداً بعد ذلك. لست أمزح!

إن النار التي نبعت في أول مرة من بين حطبتين خامدتين قد بدا عليها بعد ذلك أنها أخذت تنطفئ تحت وطأة الحزمة. غير أن لهباً رقيقاً أزرق ما يزال عالقاً بطرف من الحطبة. وأخيراً جاءت شرارة دقيقة طويلة تمس الحزمة، ثم تجري على طوال الورقة التي تلفها حتى زواياها، ثم إذا بالنار تمسك الحزمة كلها فجأة، فيخرج منها لهب ساطع. وإذا بالحضور جميعاً يصيحون!

عاد ليبيد يف يعول قائلاً وهو يتجه نحو الموقد من جديد:

– ماتوشكا!

ولكن روجويين أمسكه ودفعه.

ولم يكن روجويين نفسه إلا نظرة جامدة. كان لا يستطيع أن يحول بصره عن ناستاسيا فيليبوفنا. وكان يشعر من ذلك بنشوة وسكر. كان في السماء السابعة.

كان يهتف قائلاً وقد جنّ جنونه ثملاً:

– هذه ملكة حقاً! هذه من بلدنا فعلاً! من منكم، يا عصابة من أوغاد، يستطيع أن يفعل مثل الذي تفعل؟

وكان الأمير يراقب المشهد حزينا صامتاً.

قال فردشتينكو مقترحاً:

– أنشلها بأسناني إذا كوفئت بورقة واحدة قيمتها ألف روبل.

فجأراً الرجل ذو القبضتين الضخمتين الذي كان واقفاً وراء الجميع، جأراً يقول وقد اعترته نوبة كرب هائلة:

– أنا مستعد أن أنتشلها بأسناني أيضاً.

ثم صاح يقول وقد رأي اللهب:

– إنها تحترق! سوف يحترق كل شيء!

وهتف الجميع بصوت واحد:

– أخذت تحترق! أخذت تحترق!

واندفع الجميع تقريباً نحو الموقد. قالت ناستاسيا:

– جانيا! لا داعي إلى التحرج! لا تستح! أقول لك هذا آخر مرة!

أعول فردشتينكو قائلاً وهو يهجم على جانيا كالمسعود ويشده من كفه.

– هلمّ أيها المتبجح! سوف يحترق المال! أوه! نحس!

تصدى جانيا لفردشتينكو فدفعه عنه بكل قواه، واستدار، ومشى نحو الباب، لكنه ما

أن خطا خطوتين حتى ترنح وسقط على الأرض. فصاح الحضور يقولون:

– إغماء!

وعاد ليبيديف يزعم ضارعاً:

– ماتوشكا! سوف تحترق!

وزأر الحشد من كل جهة:

– سوف تحترق بلا سبب!

وصرخت ناستاسيا فيليبوفنا منادية:

– يا كاتيا، يا باشا، جيئاه بماء، وجيئاه بخمرة!

ثم أمسكت الملقط، وانتشلت الحزمة. كانت الورقة التي تلف الحزمة قد احترقت

كلها تقريباً وهلكت، ولكن أمكن أن يُرى فوراً أن ما بداخلها لم يمسه أذى. كانت الحزمة ملفوفة بثلاث صحائف من ورق الجرائد، وكان المال سليماً. تنفس الجميع الصعداء.

قال ليديف بحنان:

- لعل ورقة واحدة بألف روبل قد فسدت، ذلك في أكثر تقدير. أما الباقي فسلم
لم يمسه سوء.

هتفت ناستاسيا معلنة وهي تضع الحزمة قرب جانيا:

- هذه الأموال كلها له! الحزمة كلها له! هل تسمعون كلامي يا سادة؟ لقد ملك من القوة ما أتاح له ألا يأخذها. لقد صمد! هذا دليل على أن كبريائه ما تزال أكبر من جشعه. لا تقلقوا، سوف يفيق من إغمائه! ولولا أنه قد أغمي عليه لكان من الممكن أن يقتلني!... هه، ها هو ذا يفيق منذ الآن! يا جنرال، يا إيفان فيدوروفتش، يا داريا ألكسيفنا، يا كاتيا، يا باشا، يا روجويين، هل سمعتموني؟ أن الحزمة كلها له، له هو، لجانيا! أهديها إليه وأملكه إياها، تعويضاً له... عما لا أدري! قولوا له ذلك! فلتبق الحزمة بقربه. يا روجويين هلم، سرّاً وداعاً يا أمير، هذه أول مرة أرى فيها كائناً إنسانياً! وداعاً، آتانا زي إيفانوفتش! و«شكراً».

وسارت عصبية روجويين كلها نحو باب الخروج بضجة وصخب وضوضاء وصراخ يدوي في البيت كله، سارت تتبع روجويين وناستاسيا فيليبوفنا.

وفي القاعة ألبستها كاتيا وباشا معطفها؛ وهرعت الطباخة مارتا من مطبخها. فقبلتهن ناستاسيا فيليبوفنا جميعاً. سألتها وهن يبكين ويقبلن يديها:

- هل يمكن يا ماتوشكا أن تتركيني حقاً؟ ولي أين عساك تذهبين؟ وفي يوم عيد ميلادك، في يوم كهذا اليوم؟

- أذهب إلى الشارع يا كاتيا، سمعت ذلك. هناك مكاني. إلا أن أعمل غسالة. سئمت آتانا زي إيفانوفتش. أبلغنه سلامي، ولا تُظننّ بي سوءاً...

وهرع الأمير نحو باب الخروج. كان الجميع قد أخذوا يستقرون في عربات الترويكات الأربع التي كانت أجراسها تتحرك بغير انقطاع. واستطاع الجنرال أن يدركه في السلم. قال له وهو يمسك ذراعه:

- ما هذا يا أمير؟ شب إلى عقلك. اتركها! لقد رأيت كيف هي، أقول لك هذا

قولة أب... .

نظر إليه الأمير ولكن دون أن يقول كلمة واحدة. ثم انتزع ذراعه منه، وهبط السلم راكضاً.

واستطاع الجنرال وهو واقف على درجات المدخل الذي بارحته عربات الترويكما منذ هنيهة، استطاع أن يرى الأمير يثب إلى أول مركبة ويصبح مهيباً بالحوذي: «إلى ايكاتر نهوف! اتبع عربات الترويكما!». ثم وقفت مركبة الجنرال الفخمة أمام درجات المدخل، فركبها، ومضى إلى منزله بآمال جديدة وحسابات جديدة، وبعقد اللأئ الذي حاذر أن ينساه! وفي وسط تلك الحسابات، تراءت له صورة ناستاسيا فيلييوفنا الفتاة الأخاذة مرةً أو مرتين فتنهّد يقول: «خسارة، خسارة حقاً! امرأة ضائعة! مجنونة! نعم... ولكن ما أصبح الأمير يحتاج إليه الآن ليس امرأة مثل ناستاسيا فيلييوفنا... فلعل من الخير أن جرت الأمور هذا المجرى».

إن أقوالاً فيها عبر كهذه العبر تقريباً قد نطق بها شخصان آخران من ضيوف ناستاسيا فيلييوفنا قررا أن يسيرا معاً بضع خطوات. فقد قال إيفان فيدوروفتش بتتسين يخاطب آتانازي إيفانوفتش:

- هل تعلم يا آتانازي إيفانوفتش؟ يظهر أن في بلاد اليابان تقاليد من هذا النوع: يذهب الشخص المهان إلى الشخص الذي أهانه فيقوله له: «أنت أهنتني فلذلك جئتكم الآن أبقر بطني أمامك»^[49]، ثم يبقر بطنه على مرأى من الشخص الذي أهانه، ولعله يشعر بارتياح كبير ورضى عظيم كأنه انتقم لنفسه فعلاً. ما أكثر الطبائع العجيبة في هذا العالم يا آتانازي إيفانوفتش!

فأجابه آتانازي إيفانوفتش مبتسماً:

- فأنت ترى إذاً أن شيئاً من هذا القبيل هو ما حدث الآن. هم.. أمر فكه على كل حال... وتشبيهه بديع! ولكنك رأيت بنفسك يا صديقي العزيز جدا إيفان فيدوروفتش إنني قد فعلت من جهتي كل ما كان في وسعي أن أفعله. لا يمكنني أن أفعل المستحيل على كل حال! يجب أن توافقني على هذا. ولكن يجب أن توافقني أيضاً على أن هذه المرأة كانت لها مواهب رفيعة، وميزات ساطعة! لو استطعت، منذ قليل، أن أجزى لنفسي، وسط مدينة سدوم تلك، أن أفصح عما يدور في خاطري، لوددت أن أجيبها بقولي: إنها هي نفسها أكبر مبرر وأعظم مسوغ لي تجاه جميع تلك التهم! من ذا الذي يمكنه ألا تغويه هذه المرأة في بعض الأحيان إلى حد يفقد معه عقله... وسائر ما عدا ذلك! انظر

إلى ذلك الجلف روجويين الذي أتاها بمائة ألف روبل! هَبْ كل ما حدث هناك منذ قليل عرضاً طارئاً، واندفاعاً رومانسياً لا داعي إليه، لكنه في مقابل ذلك غني بالألوان، طريف أعظم الطرافة! عليك أن تعترف بهذا! آه... حين أفكر فيما كان يمكن أن يخرج من اجتماع طبع كهذا الطبع وجمال كهذا الجمال!... لكن كل شيء ضاع، رغم جميع جهودي، بل ورغم كل ما هيأته لها من أسباب التربية والثقافة! هي ماسة لم يمكن صقلها. قلتُ ذلك غير مرة.

قال آتانا زي إيفانوفتش ذلك، وزفر زفرة عميقة.

الجزء الثاني

الفصل الأول

بعد يومين اثنين من أحداث السهرة التي شهدناها في بيت ناستاسيا وختمنا بها الجزء الأول من قصتنا، أسرع الأمير ميشكين يسافر إلى موسكو ليعني بأمر الميراث المفاجئ الذي آل إليه على غير توقع. وقد زعم بعضهم في ذلك الأوان أن هناك أسباباً دعت الأمير إلى الإسراع في السفر. ولكننا لا نستطيع في ما يتعلق بهذا الأمر، وكذلك في ما يتعلق بجميع الأحداث التي وقعت للأمير بموسكو، أو التي وقعت له طوال مدة غيابه عن بطرسبرج عامة، لا نستطيع أن نقدم إلا معلومات قليلة. لقد دام غياب الأمير ستة أشهر تماماً. ومع ذلك فحتى الذين كانت تحضهم أسباب معينة على أن يهتموا بمصيره، لم يستطيعوا أن يعلموا عنه إلا أشياء قليلة جداً طوال تلك المدة. صحيح أن هناك شائعات كانت تصل إلى مسامع بعضهم في أحيان نادرة، ولكن تلك الشائعات كان أكثرها غريباً عجيباً، وكانت متناقضة في جميع الأحيان على وجه التقريب. وكان أفراد أسرة إيبانتشين التي لم يتسع وقت الأمير حتى لتوديعها قبل سفره، أكثر الناس اهتماماً به وتقصياً لأنبائه. ثم إن الجنرال قد التقى به أثناء تلك الفترة، حتى أنهما تناقشا نقاشاً جاداً مرتين أو ثلاث مرات. غير أن الجنرال لم يذكر لأسرته شيئاً عن لقائه بالأمير. والواقع أن السكوت عن ذكر الأمير في الآونة الأولى التي أعقبت سفره، أي خلال شهر كامل تقريباً، كان قاعدة في منزل الجنرال إيبانتشين. الجنرالة إليزابيت بروكوفيتزنا وحدها أعلنت في البداية أنها «قد أخطأت فيه خطأ قاسياً». ثم أضافت بعد شهرين أو ثلاثة أشهر قولها: «إن أبرز سمة في حياتها هي أنها تُخدع في أمر الناس دائماً» ولكنها في هذه المرة لم تذكر اسم الأمير، وأطلقت حكمها غامضاً مبهماً. واغتاضت من بناتها بعد عشرة أيام فختمت كلامها بهذه العبارة: «كفاني أخطاء! لا خطأ بعد الآن!».

لا نستطيع إلا أن نذكر في هذه المناسبة أنه قد ساد المنزل خلال مدة طويلة نوع من اعتكار المزاج، شيء من الثقل والتوتر، جو مليء بأمور غير معلنة يمكن أن يثير الشقاق في كل لحظة. كان جميع من بالمنزل مكتئباً مظلم النفس. والجنرال مشغول بمساعيه وأعماله ليلاً ونهاراً: إنه ما شُهد في حياته كلها أكثر انهماكاً بالعمل وأكثر جداً ونشاطاً منه في هذه الفترة، ولا سيما في وظيفته. إن ذويه لا يكادون

يرونه. أما الآنسات إيبانتشين فكنّ لا يعبرن عما يدور في أذهانهن بصوت عالٍ. ولعلهن كنّ لا يتحدثن فيما بينهن إلا قليلاً. أنهن فتيات فيهنّ كبرياء وأنفة، بل فيهن أيضاً حياء وخضر حتى حين يخلو بعضهن إلى بعض؛ ولكن هذا لا ينفي طبعاً أنهن يفهم بعضهن عن بعض لا من أول كلمة فحسب، بل من أول نظرة أيضاً. فلا يكون ثمة داع إلى كلام كثير في بعض الأحيان.

الشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يلاحظه ملاحظ غريب عن البيت، لو أمكنه أن يوجد فيه، هو أن الأمير، كما تدل على ذلك بعض العلامات، وهي قليلة على كل حال، وقد أشرنا إليها من قبل، أن الأمير قد استطاع أن يحدث في أسرة إيبانتشين انطباعاتاً خاصاً، رغم أن الأمير لم يظهر في منزل هذه الأسرة إلا مرة واحدة كانت من جهة أخرى طارئة عارضة. قد لا يكون ذلك الانطباع إلا حب اطلاع، تعلله وتفسره ما وقع للأمير من أحداث غريبة، وما عرف في حياته من مغامرات عجيبة. غير أن ذلك الانطباع قد بقي في نفوس أفراد الأسرة.

وشيئاً فشيئاً، غابت الشائعات التي انتشرت في المدينة أول الأمر، غابت هي نفسها في ظلام المجهول. صحيح أن بعض الناس كانوا يتحدثون عن أمير صغير ساذج (لم يكن يستطيع أحد أن يعين اسمه على وجه الدقة) قد ورث ثروة طائلة على حين فجأة، وتزوج امرأة فرنسية كانت مارةً بالبلاد مروراً عابراً، فهي راقصة معروفة من فرقة «الكانكان الفرنسي» التي تعمل في «قصر الأزهار» بباريس. غير أن ناساً آخرين كانوا يؤكدون أن الذي ورث تلك الثروة الطائلة إنما هو جنرال، وأن تاجراً روسياً شاباً، ثرياً ثراء لا يُحصى، هو الذي تزوج راقصة الكانكان الفرنسية؛ وأن هذا الشاب قد أحرق على لهب شمعة - لا لسبب غير التباهي - سبعين ألف روبل من الأوراق المالية على وجه التمام والكمال.

ولكن انتشار الشائعات سرعان ما انقطع بفضل بعض الظروف. لقد لبث روجويين مع أفراد عصبته أسبوعاً في محطة إيكاترنهوف، غارقين في مجون رهيب يوماً بعد يوم، وهو مجون شاركت فيه ناستاسيا فيليبوفنا. حتى إذا انتهى الأسبوع سافر روجويين على رأس أفراد عصبته إلى موسكو (ولعل بين هؤلاء من كان يمكن أن يروي شيئاً)؛ وعلم العدد القليل من الناس الذين يمكن أن يهتموا بهذا الأمر، علموا من شائعات أخرى، أن ناستاسيا فيليبوفنا قد هربت واختفت غداة يوم الرحيل إلى إيكاترنهوف، وأمكن أن يُعرف أنها سافرت إلى موسكو. فأدرك الناس أن هناك صلة بين هروبها وبين سفر روجويين.

وسرت شائعات أيضاً عن جبريل آرداليونتش إيفولجين الذي كان معروفاً في بيئته

هو أيضاً. غير أن حادثاً وقع له سرعان ما برّد حرارة ألسنة السوء، بل انتهى إلى وقف جميع الأقاويل السيئة في حقه وقفاً تاماً: لقد مرض مرضاً شديداً، وانقطع عن الظهور في المجتمع، وغاب حتى من مكتبه، ثم أبلّ من مرضه بعد شهر، غير أنه لسبب من الأسباب ترك عمله في شركة الأسهم، وحل محله موظف آخر. ولم يظهر كذلك في منزل أسرة إيبانتشين، واضطر الجنرال، هو أيضاً، أن يتخذ لنفسه سكرتيراً آخر. ولقد كان في وسع أعداء جبريل أرداليوننتش أن يفترضوا أنه قد بلغ من الشعور بالعار مما حدث له أنه أصبح يستحي أن يظهر في الشارع. ولكن الحقيقة هي أنه كان مريضاً حقاً: كانت تعثره نوبات وسواس، وكان كثير الوجوم، شديد السوداوية، سريع الالتهاب.

وفي ذلك الشتاء نفسه تم زواج باربارا أرداليونوفنا وبتتسين. فرأى جميع الذين يعرفونهما أن هناك علاقة مباشرة بين هذا الزواج وبين تصميم جانيا على ألا يعود إلى عمله، فهو الآن ليس عاجزاً عن مساعدة أسرته فحسب، بل هو نفسه أصبح في حاجة إلى مساعدة، بل يكاد يحتاج إلى أنواع خاصة من العناية.

ولنذكر، مستطردين، أن اسم جبريل أرداليوننتش أصبح هو أيضاً لا يُلفظ أبداً في منزل أسرة إيبانتشين، فكأن جبريل أرداليوننتش لم يوجد في يوم من الأيام، لا في هذا المنزل ولا في العالم. ومع ذلك عرف جميع أفراد الأسرة (بل عرفوا ذلك بسرعة كبيرة) أمراً هاماً يتعلق به: ففي تلك الليلة التي كانت ليلة حاسمة في حياته، بعد الحادث الأليم الذي وقع له في بيت ناستاسيا فيليبوفنا، لم ينم جانيا حين عاد إلى بيته، بل ظل ينتظر عودة الأمير كالمحموم من نضاد الصبر. وكان الأمير قد سافر إلى إيكاترنهوف هو أيضاً، فلم يعد منها إلا بعد الساعة الخامسة من الصباح. فدخل عليه جانيا عندئذ غرفته، ووضع أمامه على المائدة حزمة الأوراق المالية التي تجففت أطرافها من نار الموقد، والتي كانت ناستاسيا فيليبوفنا قد وهبتها له أثناء أغمائه. ورجا الأمير ملحاً أن يتولى ردّ هذه الهدية إلى ناستاسيا فيليبوفنا في أول مناسبة. ولقد كان جانيا، حين دخل على الأمير، في حالة نفسية عدائية ساخطة. ولكن يظهر أن الرجلين قد تبادلوا أقوالاً مكث بعدها جانيا عند الأمير ساعتين كاملتين لم ينقطع في أثنائهما عن البكاء نشيجاً مريراً. وافترقا أخيراً على مودة وصدقة.

هذا النبأ الذي وصل إلى جميع أفراد أسرة إيبانتشين كان صحيحاً كل الصحة، كما ثبت ذلك فيما بعد. إنه لعجيب طبعاً أن يمكن وصول هذا النوع من الأنباء إلى علم أناس آخرين بمثل تلك السرعة الشديدة. من ذلك مثلاً أن كل ما حدث في بيت

ناستاسيا فيليبوفنا قد عُرِف في منزل أسرة إيبانتشين في اليوم التالي بتفاصيل كثيرة. وفيما يتعلق بالأنباء الخاصة بجبريل آرداليوننتش كان يمكن أن نفترض أن باربارا آرداليونوفنا هي التي نقلتها إلى أفراد أسرة إيبانتشين، لأنها جاءت إلى الآنسات إيبانتشين فسرعان ما قامت بينها وبينهن صلوات عميقة، وهذا أمر أثار أشد الدهشة في إليزابت بروكوفيفنا. ولكن باربارا آرداليونوفنا رغم أنها وجدت أن من الضروري - لا ندري لماذا؟ - أن تعقد تلك الصلوات الوثيقة بأسرة إيبانتشين، لم تحدث الآنسات عن أخيها حتماً. فإنها هي أيضاً امرأة ذات كبرياء، على طريقتها الخاصة، وإن تكن قد قبلت أن تربطها صداقة بأولئك اللواتي طردن أخاها طرداً على وجه التقريب. في الماضي، رغم أنها قد عرفت الآنسات إيبانتشين، كانت لا تراهن إلا نادراً. وهي حتى الآن، على كل حال، لا تكاد تظهر في الصالون قط، وإنما تأتي من مدخل الخدمة كأنها عابرة عبوراً. إن إليزابت بروكوفيفنا لم تُظهر لها في يوم من الأيام بشاشة أو ترحيباً، لا في الماضي ولا في الحاضر، وإن تكن تحمل لأمها نينا ألكسندروفنا كثيراً من الاعتبار، وتقديرها قدرأ كبيراً. فكانت تُدهش وتغضب، وتعزو تلك العلاقات الجديدة التي قامت بينهن وبين فاريا إلى النزوة وحدها، وإلى استبداد بناتها اللواتي أصبحن على حد تعبيرها «لا يعرفن حقاً ماذا يخرعن من أساليب لمضايقتها». ولكن ذلك كله لم يمنع باربارا آرداليونوفنا من مواصلة زياراتها، سواء قبل زواجها أو بعد زواجها.

بعد سفر الأمير بشهر أو يزيد قليلاً، تلقت الجنرالة إيبانتشين رسالة من الأميرة العجوز بيلوكونسكايا التي سافرت قبل خمسة عشر يوماً إلى موسكو لزيارة ابنتها الكبرى المتزوجة هناك. فأحدثت تلك الرسالة في نفس الجنرالة بعض الأثر؛ ورغم أنها لم تنقل من مضمون هذه الرسالة شيئاً إلى بناتها أو إلى زوجها، فقد أدرك ذووها من علامات كثيرة أن في نفسها غلياناً بل واضطراباً. إنها تُجري مع بناتها أحاديث غريبة، في موضوعات غير مألوفة. كان واضحاً أنها تريد أن تفضي بما في نفسها، لكنها تلجم لسانها لسبب من الأسباب. إنها، يوم تلقت الرسالة، قد أظهرت للجميع عاطفة رقيقة، حتى إنها قبلت آجلايا وآديلايد، واعترفت أمامهما بأخطائهما وعيوبهما فلم تعرف البناتان ماذا كانت تلك الأخطاء ولا ما هي طبيعة تلك العيوب. وقد أصبحت العجوز متسامحة متساهلة على حين فجأة حتى في معاملة إيفان فيدوروفتش الذي ظلت غاضبة منه ساخطة عليه مدة شهر كامل. ولكن العجوز عادت منذ الغد تندم على الرقة والحنان اللذين أظهرتهما بالأمس، ووجدت السبيل إلى مشاجرة الجميع حتى قبل أن يحين موعد العشاء. ثم عاد الجو يصفو في المساء من جديد، فبقيت الجنرالة هادئة المزاج طوال أسبوع، وذلك أمر لم يحدث لها منذ زمن بعيد.

ولكن الجنرالة تلقت رسالة أخرى من الأميرة بيلوكونسكايا بعد أسبوع، فقررت في هذه المرة أن تتكلم. فأعلنت أن «العجوز بيلوكونسكايا» (كانت الجنرالة لا تسمي الأميرة أثناء غيابها إلا بهذا الاسم) قد بعثت إليها بمعلومات مطمئنة جداً عن ذلك «الشاب الغريب الأطوار.. الأمير». لقد استطاعت العجوز أن تهتدي إلى الأمير بموسكو، وحصلت على معلومات عنه، حتى لقد اطلعت على أشياء حسنة جداً في حقه. وقد زارها الأمير، فأحدث في نفسها أثراً يكاد يكون خارقاً. «ذلك أمر يراه المرء من مجرد أنها دعت أن يزورها كل يوم ساعة أو ساعتين، وأنه يزورها فعلاً بانتظام، وأنها لم تضجر منه حتى الآن». بهذا ختمت الجنرالة كلامها وأضافت أن الأمير أصبح بفضل «العجوز» يُستقبل في أسرتين أو ثلاث من أرقى الأسر. «حسنٌ أنه لا يبقى معتكفاً في بيته كناسك، وأنه لا يظهر خجولاً كغبي».

حين أطلعت الأم بناتها على هذه الأمور، لاحظن أنها أخفت عنهن مع ذلك كثيراً من فقرات الرسالة. ولعلهن عرفن هذا من باربارا آرداليونوفنا التي تستطيع أن تعرف بل تعرف حتى كل ما يعرفه بتتسين عن الأمير بموسكو؛ وبتتسين لا بد أن يعرف أكثر مما يمكن أن يعرف أي شخص آخر. لكنه رجل متكتم أشد التكتم في شؤون الأعمال، وإن يكن يُطلع فاريا على بعض الأمور طبعاً. هكذا سرعان ما تفاقم شعور العداوة الذي تحمله الجنرالة لباربارا آرداليونوفنا.

ومهما يكن من أمر، فقد تكسّر الجليد وأصبح يمكن التحدث عن الأمير جهاراً على حين فجأة.

وعدا ذلك تأكد تأكداً واضحاً، مرةً جديدة، أن مرور الأمير بمنزل أسرة إيبانتشين قد أحدث انطباعاً خارقاً وولّد اهتماماً شديداً. حتى الجنرالة أدهشها الأثر الذي خلّفته في بناتها أبناء موسكو. أما البنات فقد أدهشهن أن أمهن التي سبق أن أعلنت لهن جهاراً أن «أبرز سمة في حياتها هي أنها تخدع في أمر الناس دائماً»، لم يمنعها ذلك من أن تعهد بالأمير في موسكو إلى حسن رعاية العجوز بيلوكونسكايا «ذات السلطة الكبيرة»، لا سيما وأنها قد اضطرت حتماً أن تتضرع إليها، لأن «العجوز» امرأة ليس إقناعها بالأمر السهل.

ولكن ما أن تكسّر الجليد، وما أن دارت الريح حتى أسرع الجنرال، هو أيضاً، يذكر ما كان يعلم. ولكنه اقتصر على «جانب الأعمال من الأمر»، اقتصر على هذا الجانب وحده دون غيره. فاتضح أنه، في سبيل مصلحة الأمير، قد كلف شخصين من موسكو، هما أهل الثقة ومن أصحاب النفوذ الكبير في الوقت نفسه، بأن يسهرا على الأمير، وأن

يسهرا خاصةً على وكيله سالازكين. أن كل ما قيل عن الميراث أو قل عن «أن هناك ميراثاً» قد اتضح أنه صحيح، لكن مقدار الميراث أصبح في الحساب الأخير أقل كثيراً مما ظن في بداية الأمر. فلقد كانت التركة مضطربة متشابكة، وكانت مثقلة بالديون، كما أن ورثةً أدياء تقدموا يطالبون بحقوقهم في الميراث؛ والأمير نفسه تصرف تصرفاً بعيداً عن تصرف رجل من رجال الأعمال، رغم جميع النصائح التي أسديت إليه. «كان الله في عون، طبعاً». لقد أصبح الجنرال، بعد أن انكسر جليد الصمت، يسعده أن يقول هذا الكلام بإخلاص كامل، ذلك أن هذا الشاب «رغم أنه... قليلاً» يستحق كل خير. لكنه قد ارتكب بعض حماقات. من ذلك مثلاً أن الذين ادعوا أن لهم على التاجر المتوفى ديوناً قد أبرزوا للمطالبة بحقوقهم مستندات يمكن إنكارها أو إهمالها^[50]، حتى أن بعضهم لم يبرزوا أية وثائق على الإطلاق، لأنهم أدركوا حقيقة الأمير وحزروا طبيعته. فهل تصدقون ماذا حدث؟ لقد أَرْضاهم الأمير كلهم تقريباً، رغم ملاحظات أصدقائه الذين برهنوا له على أن هؤلاء الناس ليس لهم أي حق شرعي. ولكنه فعل ذلك لأنه ظهر أن بعضهم قد أصابه ضرر بالفعل.

وقد أكدت الجنرالة أن الأميرة بيلوكونسكايا قد كتبت إليها شيئاً بهذا المعنى، وأن ذلك «غباء طبعاً، غباء شديد، ولكن لا سبيل إلى شفاء رجل أبله». هذا ما أضافته الجنرالة بلهجة قاطعة، وإن يكن وجهها قد فضح رضاها عن سلوك «الأبله» المزعوم، وارتياحها له. الخلاصة أن الجنرال لاحظ أن امرأته مهتمة بالأمير حتى لكأنه ابنها، وأنها من جهة أخرى تبدي لابنتها آجاليا عاطفة كبيرة وحناناً عظيماً. فلما رأى ذلك اتخذ الوضع الذي يليق اتخاذه في الأمور الهامة، إلى حين.

لكن هذه الحالة النفسية الحسنة لم يطل عمرها أيضاً. فما أن انقضت خمسة عشر يوماً حتى حدث تغير مفاجئ آخر. فأظلم وجه الجنرالة من جديد، أما الجنرال فإنه بعد أن هزَّ منكبيه مرتين أو ثلاثاً عاد يرضخ «لجليد الصمت». وجليه الأمر أن الجنرال كان قد تلقى قبل أسبوعين خبراً سرياً مقتضباً لكنه مؤكد، يقول: أن ناستاسيا فيليوفنا التي كانت قد اختفت في موسكو ثم عثر عليها روجويين، قد اختفت مرة أخرى ثم اهتدى إليها روجويين مرة ثانية فوعده أن تتزوج. وها هو ذا الجنرال يعلم بعد ذلك بأقل من أسبوعين أن ناستاسيا فيليوفنا قد هربت مرة ثالثة، قبيل مثولها مع روجويين أمام الكاهن في الكنيسة للزواج، وأنها الآن مختبئة بمكان ما في الأقاليم؛ وان الأمير ميشكين قد اختفى هو أيضاً، تاركاً جميع شؤونه لوكيله سالازكين، «فإما أنه سافر معها وإما أنه مضى يلاحقها، فذلك أمر مجهول، ولكن لا بد

أن هناك شيئاً». ذلك ما استنتجه الجنرال. وقد تلقت إليزابت بروكوفيفنا، هي أيضاً، أنباء مزعجة. الخلاصة أن الناس بمدينة بطرسبرج أصبحوا بعد سفر الأمير بشهرين لا يجيئون على ذكره إلا لمأماً، أما أسرة إيبانتشين فإن جليد الصمت، لم يتكسر فيها بعد ذلك. ولكن باربارا آرداليونوفنا واصلت زياراتها للأنسات.

وإذا تركنا الآن جميع تلك الشائعات وجميع تلك الأنباء، وجب علينا أن نذكر أن سلسلة من التغيرات قد حدثت في أسرة إيبانتشين عند اقتراب فصل الربيع، وهي تغيرات لم تسمح للأسرة كثيراً أن تفكر في الأمير، لا سيما وأن الأمير لم يدلّ على وجوده، ولعله لم يشأ أن يدلّ على وجوده. ففي أثناء الشتاء تقرر شيئاً فشيئاً أن تسافر الأسرة لقضاء الصيف في الخارج، أعني أن تسافر إليزابت بروكوفيفنا وبناتها، لأن الجنرال لا يستطيع طبعاً أن يجيز لنفسه تضييع وقته في «تسليات لا طائل فيها ولا جدوى منها». وقد تم اتخاذ هذا القرار بعد إلحاح شديد وإصرار مستمر من قبل الأخوات الثلاث اللواتي كن على يقين من أن أبويهما إذا لم يوافقا على قيامهن برحلة إلى الخارج، فإنما يكون مرد ذلك إلى اهتمامهما الدائم بتزويجهن والبحث لهن عن عرسان.

ولعل الأبوين قد اقتنعا من جهتهما بأن العرسان يمكن أن يتقدموا في الخارج أيضاً، وبأن رحلة يقمن بها في الصيف لا تعطل شيئاً، حتى ربما «تسهّل الأمور».

ويحسن أن نذكر هنا أن الزواج الذي كان مزماً أن يتم بين آتانازي إيفانوفتش توتسكي وكبري بنات إيبانتشين قد انفسخ من تلقاء نفسه، وأن توتسكي لم يتقدم بأي طلب رسمي لخطبة الفتاة. ولقد تم ذلك على نحو طبيعي جداً، دون مناقشات كثيرة، ودون أي صراع في داخل الأسرة؛ كل ما هنالك أن أحداً أصبح لا يجيء على ذكر هذا الموضوع بعد سفر الأمير، لا من هذا الطرف ولا من ذاك. ولا شك أن هذا كان أحد أسباب الجو الثقيل الذي خيم على منزل أسرة إيبانتشين، وإن تكن الجنرالة قد أعلنت منذ تلك اللحظة أنها مستعدة أن «ترسم إشارة الصليب بكلتا يديها حمداً لله وشكراً». أما الجنرال فإنه رغم اعترافه بأنه مخطئ مذنب، قد ظل معتكر المزاج متجهم النفس مدة طويلة، لأنه كان أسفاً على آتانازي إيفانوفنا حقاً: «الثروة طائلة كهذه الثروة، ورجل بارع هذه البراعة!». وعلم الجنرال بعد ذلك بمدة قصيرة أن آتانازي إيفانوفتش قد أغوته امرأة فرنسية من المجتمع الراقي كانت مارة بالبلاد، وهي مركيزة من أنصار الشرعية، وأن الزواج قد حُدّ موعده، وأن المركيزة ستأخذ آتانازي إيفانوفتش إلى باريس أولاً، ثم إلى مكان بمقاطعة بروتانيا بعد ذلك. قال الجنرال: «يتزوج فرنسية؟ لقد ضاع إذًا!».

كان آل إيبانتشين يهيئن إذا رحلة الصيف. غير أن حدثاً جديداً جاء يغيّر كل شيء على حين فجأة، فيتأجل السفر مرة أخرى، ويفرح الجنرال وزوجته من ذلك فرحاً كبيراً. أن أميراً اسمه «شتش-...»^[51]، وهو شخصية معروفة، معروفة بأحسن الصفات، قد وصل إلى بطرسبرج قادماً من موسكو. إنه واحد من أولئك الرجال المثقفين ثقافة حديثة، الفعالين النشيطين، الشرفاء المستقيمين، المتواضعين الذين يريدون أن يكونوا نافعين بكل صدق وإخلاص، والذين يعملون بغير انقطاع، ويتميزون بذلك الاستعداد النادر الثمين لأن يستعملوا نشاطهم دائماً. إنه لا يحاول أبداً أن يضع نفسه في مقدمة الناس ويتحاشى ما يقوم بين الأحزاب من اضطراب عقيم وبلاغة لا طائل تحتها؛ ولا يعد نفسه بين رجال الصف الأول، ولكنه كان مع ذلك يدرك دلالة الأحداث الجارية والتبدلات القائمة إدراكاً سليماً. كان في أول الأمر موظفاً بالدولة، ثم شارك في جهاز الحكم المحلي (زمتوف)^[52]. وكان إلى ذلك عضواً مراسلاً في عدة جمعيات علمية روسية، وكان له في هذا المجال شأن محترم. وقد ساهم، متعاوناً مع مهندس من أصدقائه، في رسم مسار سليم لواحد من أهم خطوط سككنا الحديدية التي كان تنفيذها مزمماً في ذلك الحين. إن عمره خمسة وثلاثون عاماً. وهو ينتمي إلى أرقى طبقة في المجتمع، ويملك ثروة «ممتازة، متينة، لا يمكن جحودها» على حد تعبير الجنرال نفسه الذي أتيج له بمناسبة عمل من الأعمال الهامة أن يلتقي بالأمير عند الكونت، رئيسه في سلم الوظيفة.

ومن غرائب طبع الأمير أنه كان لا يتحاشى أبداً أن تكون له اتصالات «برجال الأعمال» الروس. وقد اتفق أن تعرف أيضاً إلى أسرة الجنرال. فأحدثت فيه أدبلايد إيفانوفنا، البنت الوسطى من بنات الجنرال، أثراً قوياً. فلما كان مطلع الربيع أعلن رغبته في زواجها. وقد أعجبت به إليزابت بروكوفينا ورضيت عنه. وكان طبيعياً أن تأجلت الرحلة. وعين للزواج موعد في الربيع.

وكان يمكن أن تتم الرحلة في وسط الصيف أو في نهايته، ولو اقتصر الأمر على نزهة تقوم بها الأم إليزابت بروكوفينا وابنتاها اللتان تبقيان لها، لولا أن شيئاً جديداً آخر قد حدث. ففي نهاية الربيع (وكان زواج أدبلايد قد تأخر وتأجل إلى منتصف الصيف). أدخل الأمير «شتش-...» إلى منزل أسرة إيبانتشين شاباً يمت إليه بقرابة بعيدة، لكن بينهما معرفة قوية. هو شاب يوجين بافلوفتش ر...^[53]، في نحو الثامنة والعشرين من العمر، ضابط من ضباط الإمبراطور^[54]، يتمتع بحظ كبير من الجمال، ينتمي إلى «سلالة شهيرة»، وينعم عدا ذلك بأنه مرهف الفكر، مرح الطبع، لامع،

«عصري»، «مثقّف ثقافة نادرة»، ويملك ثروة طائلة. ولكن الجنرال ريّاب دائماً فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة. لذلك راح يستطلع حقيقة الأمر، فانتهى «إلى أن الشاي غني حقاً فيما يظهر، ولكن لا بد من مزيد من التحقق والتثبت». وعدا ذلك فإن هذا الضابط الذي يُنتظر له «مستقبل عظيم» قد كتبت العجوز بيلوكونسكايا من موسكو توصي به خيراً، وتكيل له مديحاً كبيراً. كل ما هنالك أن سمعته كانت تشوبها شوائب صغيرة: علاقات غرامية و«غزوات»، قام بها الشاب فحطّم بعض القلوب الحساسة، على ما يقال.

فحين رأى الشاب آجلایا أصبح يلزم منزل آل إيبانتشين ملازمة شديدة. ولئن لم يقل شيئاً حتى الآن، ولو في صورة تلميح، فإن الأبوين أصبحا يعتقدان أنه لا مجال للتفكير في السفر إلى الخارج هذا الصيف. أما آجلایا، فلعلها كانت ترى رأياً آخر.

ذلك كله حدث قبيل عودة بطل قصتنا إلى المسرح. كانت الظواهر الخارجية تدل على أن الأمير المسكين ميشكين كان قد نسيه أهل بطرسبرج في تلك الفترة نسياناً يكاد يكون تاماً، فلو خطر بباله أن يعود إلى الظهور بين أولئك الذين كانوا يعرفونه، لبدا كالهابط من السماء.

بقي علينا مع ذلك أن نروي واقعة من الوقائع قبل أن نفرغ من هذه المقدمة.

بعد سفر الأمير، بقي كوتلیا إيفولجين يعيش كما كان يعيش في الماضي، فهو يذهب إلى المدرسة، ويتردد على صديقه هيوليت، ويعتني بأبيه، ويساعد فاریا في الأعمال البيت فيشتري لها ما يجب شراؤه من السوق. غير أن المستأجرين قد تبعثروا بسرعة: فردشتينكو ترك المنزل بعد أحداث سهرة ناستاسيا فيليوفنا بثلاثة أيام، وسرعان ما غاب عن الأعین، فليس يراه أحد، وليس يُسمع عنه أحد شيئاً. كل ما هنالك أنه كان يقال عنه، ولكن بغير جزم أو قطع، أنه كان يسكر في مكان ما. وبرحيل الأمير رحل عن البيت آخر مستأجر. فلما تزوجت فاریا بعد ذلك مضت نینا ألكسندروفنا ومضى جانيا يسكنان عندها في منزل بتتسين بحي اسماعيلوفسكي^[55]. أما الجنرال إيفولجين فقد حدث له في تلك الفترة نفسها تقريباً حادث لم يكن في حسبانها قط: لقد أودع السجن بسبب ديون عليه. ذلك أن صديقه أرملة الكابتن طالبت بسداد سندات تصل قيمتها إلى ما يقرب من ألفي روبل، وهي سندات كان الجنرال قد وقّعها لها في فترات مختلفة. وقد دهش الجنرال من ذلك دهشة هائلة. لا شك أن الجنرال المسكين قد وقع «ضحية إيمانه العظيم بنبل القلب الإنساني». لقد ألف تلك العادة المطمئنة، وهي أن يوقع سندات كيفما اتفق، فلم يخطر بباله أن في الإمكان أن تُستعمل

هذه السندات في يوم من الأيام. كان يظن أن الأمور تقف عند حدود توقيع السندات. ولكن هذا الحادث خيب آماله وبدد أوهامه. فكان يهتف قائلاً وقد جلس إلى مائدة مع أصدقاء جدد في سجن تاراسوف أمام زجاجة خمر وهو يحدثهم عن حصار كارس، وعن قصة الجندي الذي بُعث من الموت حياً، كان يهاتف قائلاً: «فكيف يثق المرء بالناس يعد هذا، كيف يحضهم ثقته النبيلة؟».

والحق أنه كان يعيش في السجن حياة مريحة ممتعة جداً. حتى لقد كان بتتسين وفاريا يقولان: انه وجد هنالك مكانه الملائم له، وكان جانبا يشاطرهما هذا الرأي تماماً. إن المسكينة نينا ألكسندروفنا وحدها كانت تبكي بكاء مرأً على غير مرأى من أحد (وكان ذلك يثير دهشة أفراد أسرتها)، وكانت رغم مرضها المستمر تجرّ نفسها كلما أمكنها ذلك، فتخرج من حي اسماعيلوفسكي، وتمضي تزور زوجها.

ولكن منذ «حادثة الجنرال» (على حد تعبير كوليا)، أو منذ زواج فاريا على وجه العموم، أفلت كوليا من سلطة أسرته إفلاتاً يكاد يكون تاماً، حتى لقد بلغ من ذلك أنه أصبح لا يعود إلى البيت للمبيت إلا نادراً. كان يقال: إنه قد عقد صلات جديدة كثيرة، وأنه عدا ذلك اكتسب شهرة كبيرة في سجن المدنيين. فكانت نينا ألكسندروفنا لا تستطيع الاستغناء عنه أثناء زياراتها لزوجها في السجن. وكف أهله في البيت عن مساءلته؟ ولو من باب حب الاطلاع. أن فاريا التي كانت من قبل قاسية في معاملته أشد القسوة، أصبحت لا تلقي الآن أي سؤال عن سبب غيابه. أما جانبا فكان في بعض الأحيان (وهذا ما أثار دهشة ذويه) يثرثر معه بمودة كبيرة، رغم كآبته وسوداويته، وذلك أمر لم يسبق أن حدث في الماضي قط، لأن جانبا المعتز بعمره البالغ سبعة وعشرين عاماً كان لا ينتبه أي انتباه بشوش إلى أخيه الذي لا تتجاوز سنه الخامسة عشرة، بل كان يعامله معاملة خشنة، ولا يطلب من الأسرة كلها إلا أن تكون قاسية معه، ولا يفتأ يهدد بأنه «سيشدّ له أذنيه»، فكان هذا يخرج كوليا عن «حدود قدرة الإنسان على الصبر والاحتمال». أما الآن ففي وسعنا أن نقول: أن كوليا يكاد يكون في بعض الأحيان حاجة ماسة لأخيه لا غني له عنها. وكان كوليا قد فوجئ بأن جانبا ردّ المال، وكان لذلك مستعداً لأن يغفر له أشياء كثيرة.

بعد سفر الأمير بثلاثة أشهر، عرفت أسرة إيفولجين أن كوليا قد تعرّف على أسرة إيبانتشين، بل أن الأنسات كنّ يحسنّ استقباله كثيراً. لقد علمت فاريا النبأ بسرعة، رغم أن كوليا لم يعتمد على وساطتها للتعرف على أسرة إيبانتشين وإنما تولى تقديم نفسه بنفسه. وشيئاً فشيئاً أحبته الأنسات إيبانتشين. ونظرت إليه الجنرالة في أول الأمر نظرة

شزراء، لكنها أخذت تحبه هي أيضاً حين عرفت «أنه صريح وأنه لا يداهن ولا يتملق». فأما أن كوليا كان لا يحاول أن يتملق أحداً فذلك أمر صحيح كل الصحة. وقد عرف كيف يضع نفسه في موضع الند، وفي موضع المستقل؛ ولئن كان يقوم أحياناً بقراءة بعض الروايات أو المجلات للجنرالة، فما ذلك إلا لأنه كان فتي خدوماً على الدوام. على أنه قد تشاجر مع إليزابيت بروكوفيفنا تشاجراً قاسياً، مرة أو مرتين، فنعتها بأنها مستبدة طاغية، وأعلن لها أنه لن يضع قدمه في منزلها بعد الآن. فأما المرة الأولى فكانت بسبب «قضية المرأة»، وأما المرة الثانية فكانت بمناسبة هذه المشكلة: أي الفصول أنسب لاصطياد البلابل. ومهما يبدو لكم الأمر غريباً، فإن الجنرالة قد أرسلت إليه غداً غداً خادماً يحمل إليه منها رسالة ترجوه فيها أن لا يتخلف عن المجيء إليها. فلم يعاند كوليا، وجاء إليها في الحال. كانت آجاليا وحدها لا يسرها وجوده كثيراً - لا يدري أحد لماذا؟ - وكانت تنظر إليه من عل. ومع ذلك كان مكتوباً عليها أن تحدث لها على يديه هو مفاجأة. ففي ذات يوم - وكان ذلك في أسبوع عيد الفصح - انتهز كوليا فرصة اختلاؤه بها لحظة، فمد إليها رسالة كان قد طُلب منه أن ينقلها إليها بنفسه دون واسطة، فتسلمتها منه بيدها ذاتها. ألقت آجاليا نظرة تهديد على هذا «الوقح»، ولكن كوليا خرج دون أن ينتظر حدوث شيء آخر غير ذلك. وفضت الفتاة الرسالة فقرأت ما يلي:

«لقد أوليتني شرفاً عظيماً في ذات يوم، حين وثقت بي واطمأنت إليّ. ولعلك نسيته الآن نسياناً تاماً. فلا أدري كيف تجرأت على أن أكتب إليك هذه الكلمة. لكنني أحسست برغبة لا تقاوم في أن أذكرك بي، أن أذكرك أنت خاصة. مراراً كثيرة كان يمكن أن تنفعيني كثيراً أنت وأختاك، لكنك كنت أنت الوحيدة التي أراها بخيالي منكن. إنني في حاجة ماسة إليك. أنت لي ضرورة لازمة، لازمة جداً. ليس هناك ما أطلبه منك، ولا ما أرويه لك عني. وليس هذا ما كان يمكن أن يحضني على الكتابة إليك. ولكن أقوى رغبة تجيش في نفسي هي أن أعلم أنك سعيدة، فهل أنت سعيدة؟ ذلك هو كل ما أردت أن أقوله لك.»

ابن عمك: الأمير ل. ميشكين

بعد أن قرأت آجاليا هذه الرسالة القصيرة المضطربة الخالية من الانسجام، احمرت فجأة، ولبثت مطرقة تفكر. يصعب علينا أن نتابع مجرى خواطرها. لقد طرحت على نفسها هذا السؤال، فيما طرحت من أسئلة أخرى: هل أطلع أحداً على هذه الرسالة! وأخيراً رمت الرسالة في درج منضدتها، بينما انفرجت شفتاها عن ابتسامة ملغزة

ساخرة.

وفي الغد تناولت الرسالة ودستها في كتاب ضخّم مجلد تجليداً سميّاً. هذا ما كانت تفعله دائماً بالأوراق التي تحب أن تهدي إليها بسرعة. وانقضى أسبوع قبل أن يخطر ببالها أن تنظر في عنوان الكتاب: «دون كيشوت دولامانش»^[56]. لا ندري لماذا جعلها هذا العنوان تنفجر ضاحكة. لا ولا ندري هل أطلعت أختاً من أختيها على الرسالة.

ولكنها حين أعادت قراءة الرسالة ومَض في ذهنها سؤال: هل يُعقل أن يختار الأمير هذا الصبي الوقح المتغطرس رسولاً، وربما رسولاً وحيداً؟ وسألت كوليا عن هذا الأمر، مع استمرارها على مخاطبته بتعالٍ وخيلاء. ولكن «الصبي»، على سرعة تأذيه في العادة، لم يلق بالاً إلى هيئة الاحتقار التي ظهرت على آجلايا. وشرح لها باختصار، وبشيء من الجفاف أو الخشونة، أنه قد أعطى الأمير عنوانه استعداداً للمصادفات، وأنه عرض عليه خدماته، وذلك قبل أن يغادر الأمير بطرسبرج، ولكن هذه المهمة جاءت بتكليف من الأمير، وأن هذه الرسالة هي الرسالة الأولى التي تلقاها منه. ومن أجل أن يبرهن كوليا على صحة قوله، أظهرها على الرسالة التي وجهها الأمير إليه شخصياً. فلم تتحرج آجلايا أي تحرج من قراءة تلك الرسالة التي كان نصها ما يلي:

«عزيزي كوليا، أرجو أن تسلم آجلايا إيفانوفنا الرسالة المختومة المرفقة. وأتمنى لك صحة جيدة».

مع أخلص العاطفة من صديقك:

الأمير ل. ميشكين

قالت آجلايا بلهجة الأسف وهي تردّ الرسالة إلى كوليا:

– إنه لشيء مضحك مع ذلك أن يمنح مثل هذا الصبي كلّ هذه الثقة.

ثم ابتعدت وقد لاحت في وجهها علامات احتقار.

كان ذلك أكثر مما يستطيع أن يطيق كوليا الذي استعار لهذه المناسبة من جانبا منديله الأخضر الجديد دون أن يشرح له السبب. فأحس بالإهانة إحساساً قاسياً.

الفصل الثاني

نحن الآن في مطلع حزيران (يونيه): الجو في بطرسبرج رائع منذ أسبوعين. إن أسرة إيبانتشين تملك في بافلوفسك^[57] فيلا مترفة أنيقة. آخذت إليزابت بروكوفينا تتحرك وتسعى بكل قوة على حين فجأة لتذهب إلى هناك. فما انقضى يومان إلا وقد تم الانتقال.

وبعد هذا السفر بيوم أو يومين وصل الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين من موسكو بقطار الصباح. لم يجي إلى المحطة أحد لانتظاره واستقباله، لكنه حين نزل من حافلة خيل له فجأة أنه يميز في الجمهور المحتشد حول المسافرين عينين ملتفتين كانتا تتفرسان فيه تفرساً غريباً. حاول أن يعرف مصدر تلك النظرة، لكنه لم يميز بعدئذ شيئاً. لعل ذلك لم يكن إلا وهماً، لكن هذا الوهم قد ترك في نفسه أثراً مزعجاً، ولم يكن الأمير في حاجة إلى هذا ليكون حزيناً مهموماً مغموماً. كان ثمة شيء يبدو أنه يشغل باله ويقلق نفسه.

ركب عربة أقلته إلى فندق غير بعيد عن شارع ليتانيايا. فاستأجر في ذلك الفندق الذي لم يكن باهر المنظر، استأجر غرفتين صغيرتين معتمتين أثاثهما سيئ. وأسرع يغسل يديه ووجهه، ويبدل ثيابه دون أن يطلب شيئاً، وخرج متعجلاً كمن يخشى أن يضيع وقتاً أو أن تفوته زيارة.

لو أن شخصاً من الأشخاص الذين عرفوه قبل ستة أشهر، يوم وصوله إلى بطرسبرج، لو أن شخصاً من أولئك الأشخاص رآه في تلك البرهة، للاحظ تحسناً ملحوظاً واضحاً في مظهر الأمير. ولكن ذلك لم يكن من الأمر إلا ظاهره فحسب. إن ملابسه وحدها قد تغيرت تغيراً كاملاً: إن ردائه الآن قد أعده له خياط من أحسن الخياطين بموسكو. ومع ذلك كان يعيب هذا الرداء أنه مسرف في الانقياد للموضة (ذلك دائماً شأن الخياطين الذين يملكون من حسن الإرادة أكثر مما يملكون من رهافة الذوق)، ولا سيما بالنسبة إلى شخص لا يفهم من أمور الزينة شيئاً. فلو رآه ملاحظ ميّال إلى السخرية لاستطاع إذا هو أنعم النظر في الأمير أن يجد فيه ما يبعث على الضحك والاستهزاء. ولكن ما أكثر الأشياء التي يمكن أن تبعث على الضحك والاستهزاء!

ركب الأمير عربة وأمر الحوذي بأن يقوده إلى حي «الرمال»^[58]. وسرعان ما اهتدى هنالك في أحد شوارع مجموعة رودجستفنسكي إلى العنوان الذي كان يبحث عنه ويسعى إليه: إنه بيت صغير من خشب، بيت لطيف المظهر، أدهشته نظافته والعناية به. تحيط به حديقة مزروعة أزهاراً، نوافذه المطلة على الشارع مفتوحة، ومن خلالها يسمع صوت حاد يكاد يكون صارخا هو صوت رجل يبدو أنه يقرأ كتاباً أو يلقي خطاباً. والصوت تقطّعه انفجارات ضحك من حين إلى حين. دخل الأمير فناء البيت، وصعد درجات المدخل، ودق الباب، ففتح له، فسأل عن «السيد ليبيديف».

قالت طبّاخة مشمورة الأكمام إلى الكوعين، وهي تومئ بيدها إلى مدخل الصالون:

– هو ذا!

إن هذا الصالون، المغطاة جدرانه بورق أزرق قاتم، كان معتنى بنظافته، بل كان فيه شيء من أسراف في التأنق: يتألف أثاثه من مائدة مستديرة؛ وديوان؛ وساعة برونزية ذات نواس، تحت غطاء من زجاج؛ ومرآة ضيقة مثبتة في الحائط؛ وثرىا صغيرة قديمة تتدلى فيها قطع الكريستال، معلقة بالسقف بسلسلة من برونز.

في وسط تلك الغرفة كان يقف السيد ليبيديف بنفسه، مديراً ظهره إلى الباب الذي دخل منه الأمير، مرتدياً قميصاً بغير سترة من شدة الحر، متدفقاً في حديث مسهب بلهجة عاطفية وهو يلطم صدره. وكان سامعوه: فتى في الخامسة عشرة من عمره يقظ الهيئة فطناً ذكياً، قد أمسك بيده كتاباً؛ وفتاة في نحو العشرين من عمرها ترتدي ملابس الحداد وعلى ذراعها طفل صغير؛ وبنية في الثالثة عشرة ترتدي ثياب الحداد أيضاً وتضحك ملء حلقها؛ ثم شخصية غريبة مستلقية على الديوان: إنه فتى في نحو العشرين من عمره، حسن الهيئة وسيم الطلعة أسمر اللون طويل الشعر كثيفه، واسع العينين أسودهما، وعلى وجهه زغب خفيف بمثابة لحية وعارضين. وكان يبدو على هذا الفتى أنه ما ينفك يقاطع خطاب ليبيديف ليعارضه، وعن ذلك إنما كانت تنشأ نوبات الضحك لدى جمهور المستمعين في أغلب الظن.

– لوكيان تيموفنتش! لوكيان تيموفنتش! عجيب أمرك! هلاً نظرت من هنا!... آه... على كل حال، افعل ما يحلو لك!...

وخرجت الطبّاخة محمّرة الوجه غضباً، وهي تحرك ذراعيها بحركة العجز.

والتفت ليبيديف، فلما رأى الأمير، ظل مبهوراً خلال بضع لحظات، ثم أسرع نحوه مبتسماً ابتسامة ذليلة، لكنه توقف عند العتبة من جديد، متجمداً من الدهشة، وتمتم

يقول:

- صا.. صاحب السمو الأمير! [59].

وفجأة، وكأنه ما يزال عاجزاً عن السيطرة على نفسه وامتلاك زمام إرادته، استدأ على عقبه واندفع نحو الفتاة التي ترتدي ملابس الحداد وتحمل على ذراعيها طفلاً صغيراً، اندفع نحوها بلا سبب ظاهر، فتقهقرت الفتاة إلى وراء، أمام هذه الهجمة التي لم تكن في الحسبان. لكنه سرعان ما تحول عنها، وأخذ يتهجم على البنية التي عمرها ثلاثة عشر عاماً، والتي ما تزال عاجزة عن أن تسيطر على ضحكها أو أن تلجمه؛ فلم تملك أن تحتل صراخه ففرت إلى المطبخ بوثة واحدة. وخبط لبيديف الأرض بقدمه ليروعها مزيداً من الترويع، ولكنه حين التقت نظرتة بنظرة الأمير الذي كان خجلاً أشد الخجل، قال شارحاً:

- ذلك.. للاحترام! هـ هـ هـ!...

فبدأ الأمير يقول:

- إنك لتخطئ جداً إذ..

لكن لبيديف لم يمهله لإتمام كلامه، بل قاطعه يقول:

- حالا، حالا...، بسرعة الريح...

وغاب لبيديف من الغرفة مسرعاً.

أخذ الأمير يتأمل الفتاة والصبي والشخصية المضطجعة على الديوان مدهوشاً. لقد كانوا جميعاً يضحكون. فأخذ يضحك مثلهم.

قال الفتى:

- ذهب يرتدي «الفراك».

قال الأمير:

- ما أكثر ما يضايقني هذا كله!... لقد كنت أعول على... ولكن قل لي: أهو مثلاً...

- سكران؟ تريد أن تسأل أهو سكران؟ لا، ما هو بالسكران البتة! كل ما في الأمر أنه شرب ثلاث كؤوس، أو أربعاً، وربما خمساً، حتى لا يخل بالقاعدة لا أكثر!

كذلك صاح صوت انطلق من على الديوان.

وقد همّ الأمير أن يجيب المتكلم، ولكن سبقتة الفتاة التي كان وجهها الحلو الجميل يعبر عن أكبر الصراحة. قالت:

- إنه لا يشرب كثيراً في الصباح قط. فإذا أردت أن تكلمه في أعمال، فافعل. هذا هو الوقت المناسب. أما حين يعود إلى البيت مساء، فإنه يكون ثملاً في بعض الأحيان. وقد أصبح يتفق له الآن، ولا سيما في الليل، أن يطفق يبيكي، ثم يأخذ يقرأ لنا في الكتاب المقدس بصوت عال، لأن أمنا ماتت منذ خمسة أسابيع.

قال الفتى الراقد على الديوان:

- لئن هرب فلأنه يصعب عليه أن يجيبك. أراهن أنه الآن يحاول أن يخدعك ويضللك، وهو الآن بسبيل اجتراح الضربة التي يهيئها لك.

- منذ خمسة أسابيع ماتت، منذ خمسة أسابيع فقط...

كذلك صاح يقول ليبيديف وقد عاد إلى الصالون مرتدياً «الفراك»؛ وطرفت عيناه، وأخرج من جيبه منديلاً يجفف به دموعه. وأردف يقول:

- يتامى! إنهم يتامى!

قالت الفتاة:

- ما هذا يا بابا؟ لماذا ارتديت رداء مهترئاً مثقباً؟ أن عندك هناك، وراء الباب، ردنجوتاً جديداً. أما رأيتَه إذا؟

- اسكتي يا جرادة! أهذه أنت؟

قال ليبيديف ذلك وخبط الأرض بقدمه ليخيفها، لكنها في هذه المرة لم تزد على أن ضحكت، وقالت:

- لماذا تحاول أن تخيفني؟ أنا لست تانيا^[60]. لن أهرب. اسمع. سوف توقظ ليوبوتشكا^[61]، وسوف تعاودها تشنجات. علام هذا الصراخ؟

صاح ليبيديف يقول بحركة رعب مفاجئة:

- دعي لسانك ملتصقا بسقف حلقك، فلا تحركيه!

ثم أسرع نحو الطفلة التي كانت نائمة على ذراعي الفتاة، فرسم عليها إشارة

الصليب عدة مرات وهو زائغ الهيئة. وقال:

– احفظها يا رب! صنّها يا رب! احمّها يا رب!

ثم أضاف يقول متوجّهاً إلى الأمير:

– هذه الطفلة هي ليوبوف، ابنتي أنا ولدت لي بزواج شرعي جداً من امرأتي هيلينا التي ماتت أثناء الوضع. وهذه الطائر اللقلق هي ابنتي فيرا، ترتدي ملابس الحداد.. أما هذا.. أما هذا.. أوه.. فهذا..

– لماذا تقطع كلامك؟ أكمل! لا تضطرب!

هتف ليبيديف قائلاً بحماسة:

– يا صاحب السمو، هل تابعت في الجرائد أنباء قاتل أسرة جيرامين^[62]؟

فأجابه الأمير مدهوشاً:

– نعم.

– هذا هو قاتل أسرة جيرامين بنفسه! هذا هو بعينه!

قال الأمير:

– ما معنى هذا الكلام؟

فأجاب ليبيديف:

– لننتفهم: أنا أتكلم بطريق الرمز والكناية. أريد أن أقول: إنه هو القاتل المقبل لأسرة جيرامين أخرى، إذا وجدت أسرة جيرامين أخرى. إنه يستعد لهذه الجريمة.

أخذ الجميع يضحكون، وخطر ببال الأمير أن ليبيديف لعله كان يسترسل في هذه التهريجات لأنه كان يتنبأ بأسئلة يلقيها عليه الأمير فلا يعرف بماذا يجيب عنها، فهو إذاً يريد إرجاء الأمر وكسب الوقت.

صرخ ليبيديف يقول بلهجة رجل أصبح لا يسيطر على نفسه:

– إن هذا الفتى ثائر متمرد مدبر مؤامرات. هل في وسعي أنا أن أعدّ لسان الأفعى هذا، أن أعدّ هذا الزاني، أن أعدّ هذا الشيطان الرجيم، ابناً لأختي آنيسيا؟ ابناً وحيداً لأختي آنيسيا؟

- اخرس أيها السكير! هل تصدق يا أمير أنه قد وضع في رأسه الآن أن يصبح محامياً. إنه يريد أن يتعلم مهنة المماحكة، ويتمرن على البلاغة والفصاحة، حتى إذا كلم أولاده كلمهم بلهجة الخطابة! منذ خمسة أيام ترافع في محكمة الصلح^[63]. ترافع لمصلحة من؟ إن امرأة عجوزاً كانت قد ناشدته أن يحامى عنها ضدّ مراب نذل سلبها خمسمائة روبل هي كل ما تملك. فهل دافع عن المرأة العجوز؟ لا... وإنما ترافع لمصلحة المرابي، وهو يهودي اسمه سايدر، لأن هذا المرابي وعده بخمسين روبلاً...

صحّ ليبيديف كلام ابن أخته قائلاً بصوت تبدل الآن تبدلاً تاماً، فكأنه لم يصرخ منذ هنيهة:

- خمسين روبلاً إذا ربحت القضية؛ أما إذا خسرتها فخمسة روبلات فحسب!

- وقد أخفق طبعاً! فالقضاء اليوم غير ما كان بالأمس. أنهم لم يزدوا على أن ضحكوا منه. هذا لا ينفي أنها ظل معتزلاً بمرافعته اعتزازاً كبيراً. اسمع ماذا قال في المرافعة: (سادتي القضاة النزيهين، تصوروا أن موكلي، وهو شيخ مسكين كسيح يعيش من عمل شريف، تصوروا أن موكلي هذا هو الآن بسبيل أن يفقد آخر لقمة خبز. تذكروا الأقوال الحكيمة التي قالها المشرّع: «واحكموا بين الناس بالرحمة»^[64]) فهل تتصور أنه يلقي على مسامعنا هذه المرافعة في كل صباح كما ألقاها هناك؟ إننا نسمعها اليوم خامس مرة. كان يرددها لحظة وصولك منذ برهة. فإلى هذه الدرجة هو مفتون بها. يتلوها ويتلمظ. وهو يستعد الآن للدفاع عن موكل آخر من هذه الطينة نفسها. أنت الأمير ميشكين، فيما أظن، ألسنت الأمير ميشكين؟ لقد حدثني عنك كولينيا كثيراً، وقال: إنه لم يرَ في حياته رجلاً أذكى منك.

فقال ليبيديف مؤيداً:

- نعم نعم، ليس في العالم رجل أذكى منه!

- هذا كاذب. كولينيا يحبك صادقاً، أما هذا فهو يمسح ظهره لئنا لحظوتك. وأنا لا أنوي البتة أن أتملّكك، تستطيع أن تصدّقني. ولكنك لا يعوزك الحس السليم: فاحكم بيني وبينه.

واتجه الشاب المستلقي على الديوان إلى خاله يسأله:

- هه... ما رأيك في أن يفصل في قضيتنا الأمير؟ لقد أراحني جداً أنك جئت يا أمير!

قال ليبيديف بلهجة قاطعة، وهو يلقي نظرة بغير إرادة منه على «الجمهور» الذي عاد يتحلق حوله.

– بكل سرور

قال الأمير مقطباً حاجبيه:

– ما المسألة؟

لقد كان الأمير مصاباً بصداغ فعلاً، ولكنه كان عدا ذلك يزداد اقتناعاً، لحظة بعد لحظة، بأن ليبيديف يخادعه ويسعى إلى مهرب ويحاول التملص.

قال ابن الأخت:

– هأنا ذا أعرض لك المسألة. أنا ابن أخته. ففي هذه النقطة، خلافاً لعادته، لم يكذب. وأنا لم أتمم دراستي، لكنني أريد إتمامها، وسوف أتمها لأنني أملك قوة الإرادة. وبانتظار ذلك أريد، لأعيش أن أعيّن موظفاً في مصلحة السكة الحديد براتب قدره خمسة وعشرون روبلاً. إنني أعترف، على كل حال، بأنه ساعدني مرتين أو ثلاثاً. ولقد كان معي عشرون روبلاً، فخسرتها في القمار، نعم يا أمير! هل يمكنك أن تصدّق ذلك؟ لقد بلغت من الحطة والدناءة والصغار إنني خسرتها في القمار!

صاح ليبيديف يقول:

– خسرتها مع رجل نذل، رجل نذل كان ينبغي لك أن لا تدفع له شيئاً!

تابع الشاب كلامه فقال:

– أما أنه نذل فهذا صحيح، ولكن كان من واجبي أن أدفع. وأما أنه وغد حقير، فهذا ما أُسَلِّم به، ولكن ليس لأن الرجل قد ضربك ضرباً مبرحاً فحسب، بل لأسباب أخرى كثيرة أيضاً، يا أمير، الرجل ضابط مطرود من الجيش، ملازم محال على التقاعد، كان أحد أفراد عصبة روجويين، وكان يعطي دروساً في الملاكمة. إن جميع أفراد تلك العصبة هائمون الآن على وجوههم منذ تخلص منهم روجويين. على أن أنكى ما في الأمر إنني كنت أعلم أنه وغد دنيء، وحقير، وتافه لا يصلح لشيء، ومع ذلك غامرت بآخر روبلات أملكها مقامراً معه (لعبنا لعبة البالكي)^[65] قلت لنفسني: إذا خسرت ذهبت إلى الخال لوكيان، فما زلت أثقل عليه حتى يساعدني. تلك هي الدناءة، ذلك هو الصغار! الصغار المحض! لقد كان ذلك حقارة واعية!

قال ليبيديف مؤيداً:

- نعم، حقارة واعية!

أجاب ابن الأخت يقول بحرارة وهمّة:

- لا تسرع إلى التباهي بالانتصار! إنه يتعجل كثيراً في الابتهاج! وقد جئت إلى خالي - يا أمير - واعترفت له بكل شيء. تصرفت تصرفاً نبيلاً، لم أدار نفسي ولا دافعت عن خطئي. بالعكس: اتهمت سلوكي أقسى الاتهام، ونعته بأبشع النعوت، وأدنته أشد الإدانة. الجميع هنا يشهدون بذلك. ومن أجل أن أدخل الوظيفة التي أهدف إلى دخولها، لا بد لي حتماً من الارتفاع بمستوى ملابسي، ذلك أنني أرتدي اسماً بالية وخرقاً رثة. بل انظر إلى حذاءي! إنني لا أستطيع أن أتقدم إلى وظيفتي الجديدة بهذه الثياب. وإذا أنا لم أتقدم خلال المهلة المحددة، فسيُعين للوظيفة شخص آخر، فأبقى عندئذ عاطلاً عن العمل، ولا يدري إلا الله متى أجد وظيفة أخرى! أنا الآن لا أطلب منه أكثر من خمسة عشر روبلاً. وله عليّ عهد أن لا ألجأ إليه بعد اليوم قط، وأن أردّ إليه آخر قرش له عليّ في غضون ثلاثة أشهر. ولسوف أفي بوعدتي. أنا أعرف ما هو العيش على الخبز و«الكفاس»^[66] طعاماً وشراباً خلال أشهر بكاملها، ولكنني قوي الإرادة قادر على الاحتمال. في غضون ثلاثة أشهر أكون قد كسبت خمسة وسبعين روبلاً. فإذا أضفنا إلى القرض الذي أطلبه منه الآن ما سبق أن أقرضني من مبالغ أخرى يكون مجموع الدين الذي له عليّ خمسة وثلاثين روبلاً. فسأملك إذن من المال ما أبرئ ببعضه ذمتي. أما الفوائد فليطلب من الفوائد ما يشاء، وليأخذه الشيطان! أهو لا يعرفني؟ أسأله يا أمير: أرددتُ إليه المال الذي ساعدني به أم لا؟ هو غاضب عليّ لأنني دفعت لذلك الملازم. ليس هناك سبب آخر. ذلك هو شأنه: لا شيء له، إذن لا شيء لغيره!

صاح ليبيديف يقول:

- وهو لا ينصرف! إنه مضطجع هنا حيث تراه، لا يريد أن يتحرك!

- سبق أن قلت لك: لن أنصرف قبل أن تعطيني ما أطلبه منك. لماذا يبدو عليك التبسم يا أمير؟ كأنك لا تستحسن فعلي.

قال الأمير كأنما على مضض:

- لست أبتسم، ولكنني أرى أنك مخطئ قليلاً.

- بل قل صراحة إنني: مخطئ تماماً. لا توارب. لماذا كلمة «قليلاً» هذه؟

- إذا شئت: إنك لمضحك حقاً!

- أظن أنني لا أدرك أن طريقتي هذه خالية من الكياسة؟ أنا أعلم أن المال ماله، وأنه يستطيع التصرف فيه كما يشاء، وأنني أبدو كمن يريد أن يسلبه إياه. ولكنك لا تعرف الحياة... أنت يا أمير! إذا لم يلقن المرء أمثال هؤلاء الناس درساً فلا ينتظر منهم شيئاً. ولا بد من تلقينهم درساً. إن ضميري طاهر نقي: أقول لك ذلك صادقاً كل الصدق، مخلصاً كل الإخلاص؛ لن ألحق به أي ضرر، لن أصيبه بأي آذى، سأرد إليه ماله، مع الفوائد أيضاً فماذا يريد أكثر من ذلك؟ لأي شيء يصلح إذا لم يقدم خدمة؟ بل انظر كيف يتصرف هو نفسه. أسأله عن سلوكه مع الآخرين وعن فنه في خداع الناس. بأية وسائل أصبح مالكا لهذا المنزل؟ إنني مستعد لأن أقطع رأسي إذا ثبت أنه لم يغششك حتى الآن، وأنه ليس بسبيل التفكير في أسلوب يخدعك به مزيداً من الخداع. أتبتسم؟ ألا تصدق ما أقول؟

قال الأمير:

- يخیل إليّ أن هذا كله ليس له كبير صلة بقضيتك.

- أنا مضطجع هنا منذ ثلاثة أيام، فما أكثر ما رأيت خلال هذه المدة!

بهذا هتف الشاب دون أن يصغي إلى كلام الأمير؛ وتابع يقول:

- هل تتصور أن عنده شكوكاً وشبهات حول هذه الملاك، حول هذه الفتاة التي أصبحت اليوم يتيمة، حول ابنة خالتي التي هي بنته؟ إنه يبحث في كل ليلة عن عشيق لعلها خبأته في غرفتها، ويتسلل إلى هنا بخطى كخطى الذئب ينظر تحت ديواني الذي أرقد عليه عسى أن يجد شيئاً. لقد أطاش الشك صوابه. إنه يرى لصوصاً في جميع الزوايا والأركان. يثب عن سريره في الليل كل لحظة، ويمضي يتثبت من أن الأبواب والنوافذ قد أحكم إغلاقها، حتى إنه يذهب إلى الموقد يفتشه. ويتكرر ذلك في ليلة واحدة سبع مرات أحياناً. في المحكمة يتراجع عن أوغاد وأوباش. وهنا ينهض في كل ليلة ثلاث مرات أيضاً ليصلي وليتجه إلى الله بدعائه. يجثو على ركبتيه في الصالون ويظل يلطم جبهته بالأرض ويرتل ويتضرع مدة نصف ساعة. لا شك أن هذا ثمرة السكر. لقد صلى على روح كونتيسة باري^[67]. سمعته بأذنيّ هاتين. وسمعه كوليّاً أيضاً. الخلاصة: لقد فقد العقل تماماً!

قال ليبيديف وقد احمر وجهه احمراراً شديداً وغضب غضباً قوياً:

- هل رأيت يا أمير، هل سمعت كيف يتهكم عليّ ويستهزئ بي. قد أكون سكّيراً، وقد أكون زير نساء، وقد أكون لصاً، وقد أكون إنساناً مسيئاً من جميع النواحي، غير أن هناك شيئاً لا يعرفه هذا الرجل الذي يحقّرني الآن، وهذا الشيء هو أنني أنا الذي كنت أقمّطه وأنظفه حين كان طفلاً في المهد. كنت أقضي ليالي بكاملها ساهراً عليه مع أمه، أختي آنيسيا، التي توفي عنها زوجها وهوت إلى حضيض الفقر والبؤس. رغم أنني كنت لا أقلّ عنهما فقراً وبؤساً، فقد كنت أعتني بهما إذا مرضا، وأمضي أسرق حطباً من عند البواب؛ وكان بطني خاوياً في أكثر الأحيان، لكنني كنت أغني وأصفق بأصابعي لينام الطفل. لقد دلتته وأسرفت في تدليله، ثم ها هو ذا الآن يضحك عليّ ويسخر مني. ثم أي ضير يلحق بك أنت، إذا أنا رسمت إشارة الصليب مصلياً على روح كونتيسة باري؟ يا أمير، منذ ثلاثة أيام، قرأت سيرة حياتها لأول مرة في موسوعة الموسوعات. ولكن هل تعلم أنت من هي كونتيسة باري؟ تكلم: أتعلم أم لا؟

دمدم الشاب بلهجة ساخرة:

- لكأنك الإنسان الوحيد الذي يعلم ذلك!

قال ليبيديف يجيبه:

- هي كونتيسة خرجت من حمأة العار فأصبحت شبه ملكة، حتى أن إمبراطورة كبيرة خاطبتها بقولها: «يا بنة عمي»^[68] في رسالة كتبتها بخط يدها. وعند تنصيب الملك (هل تعرف ما هو تنصيب الملك؟) تطوّع كاردينال هو سفير البابا ليلبسها جوربها الحريري؛ كان يعد ذلك شرفاً له، رغم علو مقامه، وقداسة منصبه! هل تعلم ذلك؟ أرى في وجهك أنك تجهل هذا. فكيف ماتت هذه الكونتيسة؟ أجب إن كنت تعلم!

- دعني وشأني! إنك تضجرني!

- اسمع كيف ماتت. بعد جميع تلك الأمجاد، وبعد تلك المكانة التي جعلتها نصف ملكة، جرّها الجلاّد سامسون إلى المقصلة، رغم أنها كانت بريئة، وذلك ليدخل المسرة والبهجة إلى نفوس العاميات من نساء باريس. وقد بلغت من الذعر والرعب أنها لم تفهم شيئاً مما كان يُراد أن يُفعل بها، فلما أحست أن الجلاّد يحني رقبتها ليضعها تحت سكين المقصلة، ويدفعها إلى أمام ركلاً بقدميه، بينما الناس من حولها يضحكون مقهقهين، أخذت تصرخ قائلة: «لحظة واحدة أخرى يا سيدي الجلاّد، لحظة واحدة أخرى!»^[69]. إذن لعل تلك اللحظة هي التي ستشفع لها عند الله فيغفر لها، ذلك أنه لا يمكن أن

يتخيل المرء عذاباً للنفس الإنسانية أكبر من ذلك العذاب! هل تعلم ماذا تعني كلمة «عذاب»؟^[70] إنها تعني تلك اللحظة بعينها! حين قرأت الفقرة التي تذكر صرخة الكونتيسة ضارعة أن تُمهّل لحظة واحدة، انقبض قلبي كأنما أمسك بها فكاً كماشة. أي ضير يصيبك أنت، أيها التافه، إذا أنا خطر ببالي أن أدعو الله لتلك الخاطئة الكبيرة أثناء صلواتي قبيل الرقادة؟ لئن فعلت ذلك، فربما لأن أحداً لم يدر في خلدته حتى الآن أن يصلي على روحها أو أن يدعو لها أو حتى أن يرسم من أجلها إشارة الصليب. لسوف يبهج قلبها حتماً، في الحياة الآخرة، أن تحسّ أنه قد وُجد على هذه الأرض خاطئ مثلها صلى على روحها ولو مرة واحدة! ما بالك تضحك ساخراً؟ ألسنت تؤمن بهذا أيها الملحد؟ وما مدى علمك بهذه الأشياء أنت؟ ثم إنك قد سمعت كلامي فنقلته محرّفاً أو ناقصاً: أنا لم أصل على روح كونتيسة باري فحسب، وإنما قلت: «اللهم هب راحة النفس للخاطئة الكبيرة الكونتيسة باري، ولجميع أولئك اللواتي يشبهنها!». وهذا يختلف كثيراً عما نقلته أنت، ذلك أن في العالم الآخر كثيراً من الخاطئات الكبيرات اللواتي عرفن تقلب الحظ، وقاسين من ظروف الحياة، وتوجعن من عذاب الاحتضار والانتظار. ولقد دعوت أيضاً لك ولأمثالك، أمثالك من الوقحين الذين طلقوا الحياء وخلعوا ثوب الحشمة! هكذا صليت أنا، ما دمت تقحم نفسك في التنصت على صلواتي!

قاطع ابن الأخت خاله قائلاً:

– طيب طيب... كفى هذا! صلّ كما تشاء، وليأخذك الشيطان! لا حاجة إلى الصراخ...

ثم التفت إلى الأمير فأضاف يقول بلهجة اصطنع فيها السخرية:

– ويجب أن نقول لك: يا أمير أن عندنا عالماً هو خالي هذا! أكنت لا تعرف ذلك؟ إنه يقضي وقته الآن عاكفاً على قراءة جميع أنواع الكتب والمذكرات التي من هذا النوع!

قال الأمير وقد بدأ يشعر نحو الشاب بكرهه:

– مهما يكن من أمر، فإن خالك رجل لا يخلو... من قلب!

قال الشاب:

– أماديحك هذه ستصعد إلى رأسه، فتطيش عقله. انظر كيف يتلذذ بمذاقها منذ الآن، واضعاً يده على صدره، مضيقاً فتحة فمه! صحيح أنه ليس خالياً من الإحساس!

لكنه رجل خدّاع، وهو فوق ذلك سكّير، وهنا البلية! لقد اختل عقله كسائر أولئك الذين أدمنوا على السكر زمناً طويلاً. لذلك ترى كل ما فيه يتفكك. أنا أسلمّ بأنه يحب أولاده، وأنه كان يعامل المرحومة معاملة فيها احترام... بل إنه يحبني أنا أيضاً، والحمد لله على أنه لم ينسني في وصيته.

- لن أورثك شيئاً!

قال الأمير بصوت جازم وهو يتحول عن الشاب:

- اسمع يا ليبيديف، إنني أعرف بالتجربة أنك رجل جد في شؤون الأعمال متى شئت... ولست أملك من الوقت إلا قليلاً جداً... فإذا كنت... معذرة... نسيت اسمك واسم نسبتيك إلى أبيك، فهلاً ذكرتني بهما؟

- تي... تي... تيموفئي.

- ثم؟

- لوكيانوفتش.

فانفجر الجميع ضاحكين من جديد. وهتف ابن الأخت يقول:

- لقد كذب! كذب حتى في ذكر اسمه. يا أمير، ليس اسمه تيموفئي لوكيانوفتش بل لوكيان تيموفئتش! قل لنا لماذا كذبت؟ لوكيان أو تيموفئي، ألا يستوي الأمران؟ وأي فرق بالنسبة إلى الأمير أن يكون اسمك لوكيان أو تيموفئي؟ يميناً أنه يكذب للكذب... لأنه تعود أن يكذب!

سأل الأمير وقد نفذ صبره:

- هل صحيح ما يقول؟

- صحيح. اسمي لوكيان تيموفئتش.

بهذا اعترف ليبيديف ذليلاً خافضاً عينيه طائعاً واضعاً يده على قلبه منا جديد.

- ولكن لماذا كذبت إذا؟ يا رب السماء!

تمتم ليبيديف يقول وهو يخفض رأسه مزيداً من الخفض:

- من المذلة!

- لا أرى أين المذلة في هذه الكذبة! آه... ليتني أعرف فقط أين أجد كوليا.

أضاف الأمير هذه الجملة الأخيرة وقد بدا عليه أنه يهمل أن ينصرف. فقال الشاب:

- سأقول لك أين كوليا.

فأسرع ليبيديف يقاطعه قائلاً:

- لا، لا!

وتابع الشاب كلامه فقال:

- بات كوليا الليلة عندنا، ومضى في الصباح يبحث عن الجنرال الذي أخرجته أنت من سجن الديون يا أمير، لا يعلم إلا الله لماذا! أمس وعد الجنرال أن يأتي إلى هنا ليبيت، ولكنه لم يظهر. ولعله ذهب يسكن على بعد خطوتين من هذا المكان في «فندق الميزان». فلا بد إذاً أن يكون كوليا هناك. إلا أن يكون قد ذهب إلى بافلوفسك يزور أسرة إيبانتشين. كان يريد أن يذهب إليهم منذ أمس، إذ كان معه مال. ستجده إذا إما في «فندق الميزان» وإما في بافلوفسك.

هتف ليبيديف يقول:

- في بافلوفسك، في بافلوفسك! أما الآن فلنذهب إلى الحديقة، من أجل أن... نشرب هناك القهوة...

قال ليبيديف ذلك وأمسك الأمير من ذراعه فجره إلى الخارج، إلى فناء يفضي إلى الحديقة من باب صغير.

الحديقة صغيرة، لكنها جميلة. وبفضل حسن الجو كانت الأشجار جميعها في تفتح كامل.

أجلس ليبيديف الأمير على دكة من خشب مدهون بلون أخضر، أمام مائدة مثبتة في الأرض، خضراء اللون هي أيضاً. وجلس أمامه. وجيء بالقهوة بعد لحظة، فلم يرفضها الأمير. وظل ليبيديف يحدق إلى عيني الأمير بشراهة، مضطراً في الإكرام والمراعاة.

قال الأمير وهيئته هيئة إنسان يفكر في شيء آخر لا صلة له بما يقول البتة:

- لم أكن أعرف أن لك ملكاً.

قال ليبيديف كأنما ليستأنف شكواه:

- يتامى!

ولكنه سرعان ما كفت عن ذلك.

كان الأمير ينظر إلى أمام، ذاهلاً، فلا شك أنه قد نسي العبارة التي قالها منذ لحظة عن ملك ليبديف. وانقضت دقيقة. إن ليبديف ما يزال يحدّق إلى محدّثه منتظراً شرحاً أوسع.

قال الأمير وكأنه عاد إلى شعوره:

– طيب، ماذا؟ ها... نعم... أنت تعلم الأمر حق العلم يا ليبديف. لقد جئتُ اليوم عقب الرسالة التي تلقيتها منك. فتكلم!

اضطرب ليبديف، وأراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يزد على أن نطق بأصوات غير مفهومة. فكان الأمير يصبر عليه، ويبتسم ابتسامة حزينة.

– يخيل إليّ أنني أفهمك جيداً يا لوكيان تيموفتتش. كنتَ لا تتوقع مجيئي طبعاً. كنت تقدرُ أنني لن أترك عزلتي عند تلقي أول رسالة لم تبعثها إليّ إلا من باب تبرئة الذمة. ولكنها أنت ترى أنني جئت. هلم... لا تحاول أن تخدعني. انقطع عن خدمة اثنين في آن واحد. لا يجب أن يكون لك سيدان. إن روجويين موجود هنا منذ ثلاثة أسابيع. أنا أعرف كل شيء. هل استطعت أن تبيعه هذه المرأة كما فعلت في المرة الماضية؟ قل الحقيقة.

– بل اكتشفها بنفسه، هذا الشيطان الخبيث!

– لا تشتمه: يظهر أنه أساء معاملتك.

– قال ليبديف مهتاجاً:

– أشبعني ضرباً، نعم، أشبعني ضرباً. وفي قلب موسكو حرّض عليّ كلبه الفظيع، كلبه السلوقي الرهيب، فظل الكلب يطاردني من أول الشارع إلى آخره.

– إنك تعدني طفلاً يا ليبديف. قل لي: أهي تركته جادةً حين تركته بموسكو منذ مدة قصيرة؟

– جادة، جادة، بل إنها قد تركته هذه المرة قبيل الاحتفال بالزواج... كان يعدّ الدقائق بانتظار أن يحين موعد الاحتفال بالزواج. هربت من موسكو إلى بطرسبرج، فجاءت إليّ رأساً تقول: «أنقذني، هيئ لي عندك مأوى يا لوكيان، ولا تذكر للأمير شيئاً». إنها تخشاك أكثر مما تخشاه أيضاً يا أمير، وذلك هو السر!

قال ليبيديف ذلك وحمل أصبعه إلى جبينه متخابثاً. سأله الأمير:

– والآن، هل قرّبت بينهما من جديد؟

– يا سمو الأمير العظيم... هل كان يمكنني أن أعارض هذا التقارب بينهما؟

– طيب. سأستطلع الأمر بنفسي. ولكن قل لي: أين هي الآن؟ عنده؟

– لا، لا. إنها ما تزال تعيش وحدها. وهي تقول: «أنا حرة». اعلم يا أمير إنها تلح كثيراً على هذه النقطة. إنها ما تنفك تكرر: «ما أزال أملك حريتي كاملة». ما تزال تقيم في شارع بطرسبرجسكايا، عند زوجة أخي، كما ذكرت لث هذا في رسالتي.

– أهي الآن هناك؟

– نعم. اللهم إلا أن تكون في بافلوفسك، فلعلها انتهزت فرصة جمال الجو، فمضت تصطاف عند داريا ألكسيفنا. إنها تكرر دائماً قولها: «أنا أملك حريتي كاملة». أمس تباهت باستقلالها أمام نيقولا آرداليونوفتش^[71] (كوليا). هذه علامة سيئة.

وأخذ ليبيديف يبتسم.

– هل يزورها كوليا في أحيان كثيرة؟

– صبي طائش، صبي لا أفهمه، عاجز عن المحافظة على سر.

– هل كان ذهابك إليها منذ مدة طويلة؟

– إنني أذهب إليها كل يوم، بلا تخلف!

– إذن ذهبت إليها أمس؟

– لا. منذ ثلاثة أيام لم أرها.

– خسارة أنك سكران قليلاً يا ليبيديف! ولولا ذلك لألقيت عليك سؤالاً آخر.

أجاب ليبيديف وهو يمسك أذنه:

– لا، لا، لم أشرب شيئاً البتة.

– قل لي: على أي حال تركتها؟

– هم... تركتها على حال امرأة تبحث.

– امرأة تبحث؟

– نعم، امرأة تبحث بغير انقطاع، كأنما هي فقدت شيئاً. أما زواجها المرتقب، فإن مجرد تفكيرها فيه يثير اشمئزازها، وهي تغضب إذا حدثت فيه. وقد أصبحت لا تعباً «بصاحبنا» أكثر مما تعباً بقشرة برتقالة، بل قال: إنه أصبح لا يوقظ في نفسها إلا شعوراً بالهول. إنها تمنع أي إنسان من أن يأتي على ذكره... وهما لا يلتقيان إلا في حالات الضرورة القصوى... وهو يدرك ذلك حق الإدراك. ولكن لا بد لها من الإذعان أخيراً، فلن تفلت منه!.. إنها قلقة، ساخرة، ملتبسة، سريعة الاهتياج!

– ملتبسة سريعة الاهتياج؟

– نعم، سريعة الاهتياج. من ذلك أنها أوشكت أن تشد شعري أثناء حديث بسيط قام بيني وبينها في زيارتي الأخيرة لها.

سأله الأمير وقد قدر أنه لم يسمع كلام ليبيديف سماعاً واضحاً:

– كيف؟

– سأقول لك. لقد حدث هذا بينما كنت أقرأ لها رؤيا القديس يوحنا. إن للسيدة خيلاً مضطرباً قلقاً. هيء هيء! وقد لاحظتُ لديها، عدا ذلك، ميلاً بارزاً إلى المناقشات الجدية والموضوعات الخارقة. إنها تؤثر هذه الموضوعات، وترى أن محادثتها فيها دليل على احترامها. هذا هو الواقع. وأنا متمكن جداً من تأويل رؤيا القديس يوحنا التي أدرسها منذ خمس عشرة سنة، وقد وافقتني على رأيي حين قلت لها: إننا وصلنا إلى العهد الذي يمثله الحصان الثالث، الحصان الأسود الذي يمسك راكبه ميزاناً بيده. ذلك أن كل شيء في عصرنا هذا يُزان بميزان وينظم بعقد، وليس لأحد من هم إلا أن يبحث عن حقه ويسعى إليه. «ثمينة قمح بدينار»، و«ثلاث ثمنيات شعير بدينار»^[72]. وهم فوق ذلك يريدون جميعاً أن يحتفظوا بحرية الفكر وطهارة القلب، وصحة الجسم، وجميع ما وهب الله. لكنهم لن يصلوا إلى هذا بطرق الحق وحدها. لأن الحصان الشاحب لونه سيظهر هو وراكبه الذي اسمه «الموت» والذي يتبعه «الجحيم». هذه هي الموضوعات التي نعالجها حين نلتقي، فتتأثر بها تأثراً قوياً.

سأله الأمير وهو ينظر إليه مدهوشاً:

– هل تؤمن أنت نفسك بهذا كله؟

– أؤمن وأؤوّل. إنني، وأنا الفقير العاري، لست إلا ذرة في الزوبعة الإنسانية. من ذا

الذي يحترم ليبيديف؟ أن كل واحد يجرب مكره فيه، ويكاد يركله برجليه أن صح التعبير. ولكنني في مجال التأويل أساوي أكبر سيد من السادة. تلك هي ميزة الذكاء. إن فكري المتوقع قد أفزع عظيمًا من العظماء ذات يوم فأخذ يرتعش على مقعده. حدث ذلك منذ سنتين، قبيل أعياد الفصح، أن صاحب السعادة نيل ألكسيفتش، حين سمع عني أيام كنت تحت أمرته في الوزارة، استدعاني إلى مكتبه خصيصاً، وسألني: «هل صحيح أنك أستاذ في تأويل النبوءات الخاصة بالأعور الدجال؟»، فلم أكتمه أن هذا حق، وأخذت أقرأ عليه وأشرح له النص المقدس. ولم أحاول أن ألطف ما يشتمل عليه النص من تهديد بأخطار رهيبة، بل توسعت في شرح الرموز وغصت إلى أعماق معنى الأرقام. وقد أخذ يضحك في أول الأمر، ولكنه أزاء دقة الأرقام ووضوح المقارنات، لم يلبث أن أخذ يرتعش، ثم رجاني أن أطوي الكتاب وأن أنصرف. وأمر لي في عيد الفصح بمكافأة. ولم ينقض على ذلك أسبوع حتى فاضت روحه وذهبت إلى بارئها.

– ما هذا الذي تقوله يا ليبيديف؟

– هو الحقيقة بعينها، فقد سقط من مركبته بعد العشاء، فاصطدم صدغه بحجر حائط فمات على الفور. إن سجلات وظيفته تدل على أن عمره كان ثلاثة وسبعين عاماً. وهو رجل يضرب لونه إلى حمرة، أبيض الشعر، معطر دائماً، مبتسم بغير انقطاع، كطفل. وقد تذكر بطرس زاخارتش عندئذ زيارتي له فقال: «تنبأت أنت بما حدث له».

نهض الأمير لينصرف. فدهش ليبيديف، حتى لقد آلمه أن يراه متعجلاً هذا التعجل. فجازف وقال له بلهجة فيها كثير من الإكرام والمداراة والمراعاة:

– أرى أنك أصبحت لا تكثر!

فأجاب الأمير يقول منزعجاً:

– الحق أن صحتي سيئة. إنني أشعر بثقل في رأسي. قد يكون مردُّ هذا إلى مشقة السفر.

قال ليبيديف على وجل واستحياء:

– تحسن صنعاً إذا مضيت ترتاح وتستجم في الريف.

فضل الأمير واقفاً واجماً. وتابع ليبيديف كلامه يقول:

– أنا مثلاً، سأذهب إلى الريف مع جميع أفراد الأسرة بعد يومين أو ثلاثة أيام. هذا

أمر لا غنى عنه لصحة الطفل الوليد؛ وسيتيح لي السفر إجراء جميع الإصلاحات اللازمة هنا. وإلى بافلوفسك إنما سأذهب أنا أيضاً.

قال الأمير يسأله فجأة:

- وأنت أيضاً ستذهب إلى بافلوفسك؟ ها... إذن يذهب جميع الناس هنا إلى بافلوفسك! وتقول: إن لك هناك منزلاً ريفياً، أليس كذلك؟

- لا، يذهب جميع الناس إلى بافلوفسك. ولكن إيفان بتروفتش بتتسين قد تنازل لي عن إحدى الفيلات التي حصل عليها هناك بثمن بخس. المكان جميل، مميز، مخضوضر. وتكاليف المعيشة غير باهظة، والمجتمع راق، وسوف نستمتع هناك بالموسيقى^[73]. ذلك هو السبب في أن بافلوفسك يرتادها الناس كثيراً. على أنني سوف أكتفي بجناح صغير، أما الفيلا...

- هل أجرتها؟

- ل... لا... لم أؤجرها تماماً.

قال الأمير يقترح عليه فجأة:

- أنا أستأجرها.

واضح أن ما كان ليبيديف يريد أن يصل إليه إنما هو هذا الطلب. إن هذه الفكرة تدور في ذهنه منذ ثلاث دقائق. ولم يكن مع ذلك يبحث عن مستأجر، فإن هناك شخصاً أعلن له أنه «قد» يستأجر الفيلا. وكان هو يعلم أن كلمة «قد» هذه تعدل اليقين. لكنه تصور فجأة النفع التي سيجنه من تأجير الفيلا للأمير، فسمح لنفسه بهذا على أساس أن المستأجر الآخر لم يثبت وعده بالاستئجار. قال يخاطب نفسه: «هذا نزاع جديد يلوح في الأفق، وهذه هي الأمور تجري مجرى جديداً كل الجدة!». لذلك استقبل اقتراح الأمير بنوع من الحماسة، فلما سأله الأمير عن الكراء رفع يديه بحركة تعني أنه لا يكثر بالكراء، وأنه لا يطمع في منفعة.

قال الأمير:

- طيب. سأدفع لك ما يرضيك. سوف أسأل عن السعر، فلا تخسر شيئاً.

وكانا على وشك أن يخرجوا من الحديقة. فإذا بليبيديف يدندن قائلاً، وهو يتواشج حول الأمير فرحاً:

- في وسعي يا أمير، في وسعي يا أمير، إذا أنت شئت ذلك، أن أبلغك أمراً هاماً جداً
عن المسألة التي تهمنا...

توقف الأمير. وتابع ليبيديف كلامه:

- إن داريا ألكسيفنا تملك، هي أيضاً، فيلا في بافلوفسك...

- وبعد؟

- إن الشخصية التي يعيننا أمرها هي صديقتها، ويظهر أنها تنوي أن تتردد عليها
كثيراً في بافلوفسك. أن لها هدفاً.

- أي هدف؟

- آجل يا إيفانوفنا...

- هو! كفي يا ليبيديف!

لذلك قاطع الأمير ليبيديف ممتعاً امتعاض إنسانٍ مُست فيه نقطة موجهة.
وأضاف:

- ليس هذا هو الأمر. الأفضل أن تقول لي: متى تنوي أن تسافر. واعلم أن الإسراع
في السفر يناسبني أكثر مما يناسبني الإبطاء، لأنني أقيم في الفندق...

كان الرجلان قد اجتازا الحديقة وهما يتحدثان. ولم يرجعا إلى المنزل، بل عبرا
الفناء متجهين نحو باب الخروج.

قال ليبيديف بعد لحظة تفكير:

- أرى أن من الخير أن تترك الفندق في هذا اليوم نفسه، فتأتي تقيم هنا، ثم تسافر
معا إلى بافلوفسك بعد غد.

قال الأمير شارد الذهن، وهو يصل إلى الشارع:

- سوف آري.

تابعه ليبيديف بنظره. وقد أدهشه هذا الشرود المفاجئ في الأمير الذي نسي أن
يودّعه حين خرج، بل غفل حتى عن تحيته. أن هذا النسيان لا يتفق وما عهده ليبيديف في
الأمير من حسن الآداب وبشاشة المعاملة ولطف السلوك.

الفصل الثالث

الساعة تقارب الثانية عشرة ظهراً. كان الأمير يعرف أنه لن يجد في المدينة من آل إيبانتشين إلا الجنرال الذي تمنعه أعماله من مغادرة المدينة، حتى أن هذا نفسه ليس مؤكداً.

خطر ببال الأمير أن الجنرال قد يستعجل أخذه إلى بافلوفسك؛ ولكن الأمير يحرص كثيراً على زيارة يجب أن يقوم بها قبل أن يذهب إلى بافلوفسك. فقرر أن يبحث عن المنزل الذي كان لا بد أن تقوده إليه تلك الزيارة، ولو ترتب على ذلك أن يصل إلى دار آل إيبانتشين متأخراً، وأن يؤجل رحلة بافلوفسك إلى الغد.

والمسعى الذي سيقوم به الأمير يشتمل على بعض المخاطر من بعض النواحي، ولذا كان ارتبأكه وكان تردده. وكان يعلم أن المنزل الذي يجب أن يهتدي إليه يقع في شارع «الباسلاء» الذي لا يبعد عن شارع «الحدائق». فقرر أن يتجه إليه من هذه الجهة آملاً أن يعزم أمره أثناء الطريق على قرار حاسم.

فلما اقترب من تقاطع شارعين أدهشه الاضطراب الشديد الخارق الذي اجتاحه واستولى عليه. لم يكن يتوقع أن يحسّ بقلبه يخفق هذا الخفقان القوي. ولفت نظره أحد المنازل من بعيد. أغلب الظن أن غرابة مظهر هذا المنزل هي التي لفتت نظره. وقد تذكر بعد ذلك أنه قال عندئذ لنفسه: «لا شك أن المنزل الذي أبحث عنه هو هذا». وتقدم مدفوعاً بفضول شديد ليتحقق من صدق تخمينه، مع شعوره سلفاً بأنه سيزعجه أن يصدق ظنه. المنزل عمارة كبيرة مظلمة ذات ثلاثة طوابق، ليست بذات طراز، واجهتها خضراء اللون وسخة. إن عدداً قليلاً جداً من المباني التي من هذا النوع والذي يرجع عهدها إلى نهاية القرن الماضي ما يزال قائماً في هذا الحي من بطرسبرج (حيث يتغير كل شيء بسرعة). إنها مباني متينة، سميقة الجدران، واسعة النوافذ جداً، تُحصن شبابيكها أحياناً بقضبان حديدية في الطابق الأرضي الذي تشغله دكان صراف (من ملّة الخصيان^[74]). إن المخصي الذي يملك الدكان يسكن عامة في الطابق الذي يعلوها. وإن ظاهر هذه المنازل كباطنها جفوةً وعبوساً: فكل شيء يبدو للمرء فيها بارداً، مُصدّاً، سرّياً، دون أن يستطيع المرء مع ذلك أن يحلل بواعث هذا الشعور بسهولة. لا

شك أن التزاوج بين الخطوط المعمارية في هذه المنازل يشتمل على شيء يُشعر بالسرية والخفاء. ويندر أن يسكن هذه المنازل إلا تجار.

اقترب الأمير من باب الضياء، وقرأ على لوحة معدنية: «منزل روجويين، بورجوازي فخري وراثي^[75]». وتغلب على تردده فدفع باباً ذا زجاج ودخل، فانغلق الباب وراءه محدثاً ضجة. وصعد إلى الطابق الأول على السلم الكبير. إن السلم مبني بأحجار غليظة، غائب في الظل بين جدران مدهونة بلون أحمر. كان الأمير يعرف أن روجويين يحتل مع أمه وأخيه كل الطابق الأول من هذا المبنى الكئيب. فتح له الخادم الباب؛ ودون أن يخبر بوصوله، قاده خلال سلسلة من الغرف: دخلاً أولاً إلى قاعة عرض، جدرانها تحاكي المرمر، وأرضها من خشب السنديان، وأثاثها الثقيل الغليظ من طراز عام 1820؛ ثم ولجاً سلسلة من حجرات صغيرة يقطعها المرء بلف ودوران وتعرج. ثم صعدا درجتين أو ثلاث درجات، ثم هبطا درجتين أو ثلاث درجات، وفي النهاية قرعاً باباً، ففتح لهما بارفيون سيميونوفتش روجويين بنفسه. فلما رأى روجويين الأمير جمد في مكانه ذاهلاً، واصفرّ لونه، حتى صار يشبه، خلال بضع لحظات، تمثالاً من حجر. إن نظراته المحدقة الثابتة تعبر عن ذعر ورعب، وإن فمه تقلصه ابتسامة مبهوتة. لقد بدا له حضور الأمير حادثاً لا يتصوره العقل، بل حادثاً يكاد يكون معجزة. ودُهِش الزائر من هذا، رغم أنه كان يتوقع أن يحدث حضوره أثراً من هذا النوع.

قال الأمير وهو يشعر بالحرَج:

– ربّما كان مجيئي مزعجاً يا بارفيون، فلذا صحّ هذا فسوف أنصرف.

فقال بارفيون وقد تاب إلى رشده:

– لا، أبداً! تفضل ادخل!

كان الرجلان يتخاطبان بصيغة المفرد. لقد أُتيح لهما أن يلتقيا بموسكو كثيراً وطويلاً، حتى لقد اشتملت لقاءاتهما على لحظات تركت في نفس كل منهما أثراً لا يُمحى. ولم يلتقيا بعد ذلك منذ أكثر كم ثلاثة أشهر.

ما يزال وجه روجويين شاحباً، وما تزال تشنجات خفيفة خاطفة تقلص هذا الوجه. ورغم أنه أدخل الزائر فإنه ما يزال يشعر باضطراب لا حيلة له في دفعه. ودعا الأمير إلى الجلوس على مقعد قرب المائدة، ولكن الأمير حين التفت إلى روجويين مصادفة، تجمد في مكانه تحت نظرة غريبة غريبة هائلة كان يلقيها عليه روجويين، حتى لكانها تخترقه اختراقاً؛ وعادت إلى ذهنه في الوقت نفسه ذكرى حديثة، أليمة، مبهمة؛ فبدلاً

من أن يجلس، لبث واقفاً، ساكناً سكوناً كاملاً، محدّقاً إلى عيني رجويين بنظرة ثابتة خلال لحظات. فأخذت عينا رجويين تسطعان ببريق فيه مزيد من القوة، وابتسم رجويين أخيراً ولكن ابتسامته كانت تشي باضطرابه وحزنه.

وتمتم يقول للأمير:

– لماذا تنظر إليّ هذه النظرة الثابتة؟ اجلس.

فجلس الأمير، وقال:

– بارفيون، كلّمني بصراحة، أكنت تعلم أنني سأصل إلى بطرسبرج اليوم؟

أجاب رجويين وهو يبتسم ابتسامةً مرّة:

– كنتُ أقدرُ أنك قد تجيء، وها أنت ذا ترى أنني لم يُخطئ تقديري، ولكن كيف

كان يمكنني أن أحزر أن وصولك سيكون في هذا اليوم نفسه؟

كان العنف والحنق في لهجة هذا السؤال الذي ألقاه رجويين والذي كان في الوقت

نفسه جواباً، باعثاً جديداً للأمير على الدهشة.

فقال الأمير:

– وهبّك عرفت أنني سأصل «في هذا اليوم نفسه» فلماذا تغضب هذا الغضب؟

– وأنت، لماذا تُلقني عليّ هذا السؤال؟

– لأنني هذا الصباح، بينما كنت أنزل من القطار، لاحظت في زحمة الجمهور عينا

تشبهان كلّ الشبه العينين اللتين تحدّق بهما إليّ من ورائي منذ برهة.

فجمجم رجويين يقول مرتاباً:

– غريب! ترى، هما عينا من؟

ولكن خيّل إلى الأمير أنّ رجويين قد ارتعش.

قال الأمير:

– لا أدري، كان ذلك في زحمة الجمهور، ومن الجائز على كل حال أن أكون قد

توهّمت. أصبحت تنتابني أوهام كثيرة من هذا النوع في الآونة الأخيرة، لقد صرت، يا

عزيزي بارفيون، في حالة قريبة من الحالة التي كنت عليها قبل خمس سنين، أيام

كانت تعتريني نوبات.

دمدم بارفيون قائلاً:

- جائر أنك كنت فريسة وهم، لا أدري!

وتغيّرت ابتسامة التلطف التي كانت مرتسمة على شفّتيه في تلك اللحظة؛ وظهرت ابتسامةٌ جديدة تعبر عن مشاعر متفرّقة وعواطف شتى، كان عاجزاً عن أن يؤلف بينها.

قال يسأل:

- أأنت مسافر إلى الخارج مرة أخرى؟

ثم أضاف فجأة:

- هل تتذكر كيف التقينا في الخريف الماضي في قطار بسكوف - بطرسبورج...
هل تتذكر معطفك ولبادتي حذاءيك؟

وأخذ رجويين في هذه المرة يضحك بخبث صريح ومكر واضح، سره أن يطلق لهما العنان.

سأله الأمير وهو يلقي نظرة على الحجرة:

- هل استقرّ بك المقام هنا تماماً؟

- نعم، أنا هنا في بيتي، أين تريد لي أن أذهب؟

- نحن لم نلتق منذ مدة طويلة. وقد سمعت عنك أشياء يصعب عليّ أن أصدّقها.

أجاب رجويين بجفاف:

- ما أكثر ما يقوله الناس!

- ولكنك طردت عُصبتك كلها، ولجأت إلى منزل أهلك، وأصبحت لا تهرب منه،
هذا شيء حسن. هل المنزل لك أنت؟ أم هو مشترك بين الأسرة كلها؟

- هو لأمي، وشقتها تقع في الجهة الأخرى من الممرّ.

- وأين يسكن أخوك؟

- أخي سيميون سيميوفيتش يسكن في جناح.

- أهو متزوج؟

- هو أرمل. ما حاجتك إلى معرفة هذا؟

نظر إليه الأمير دون أن يجيب. لقد أصبح واجماً شارد الذهن، فكأنه لم يسمع السؤال. ولم بلِّح روجويين، بل سكت ينتظر.

ولبت الاثنان صامتين برهة من الوقت.

قال الأمير:

– تعرّفتُ منزلك من أول نظرة، من على مسافة مائة متر!

– كيف هذا؟

– لا أدري كيف أعبر لك. إن لمنزلك هيئةً هي هيئة أسرتك كلها، وهيئة طراز حياتك. ولكن إذا سألتني أن أشرح لك مصدر هذا الشعور عندي، لم أستطع أن أفعل. أغلب الظن أن هذا نوع من الهذيان، حتى أنني أرتعب حين أرى مدّي تأثري بهذه الأمور. لم تكن في ذهني أية فكرة عن المنزل الذي تسكنه، ولكن ما أن رأيته حتى قلت لنفسني: «هذا بعينه نوع المنزل الذي لا بدّ أن يسكنه!»

قال روجويين وقد ارتسمت على شفّتيه ابتسامة غامضة، دون أن يفلح في إدراك الفكرة المبهمة التي قالها الأمير:

– حقاً! وإنّ جدّي هو الذي بنى هذا المنزل، وقد سكنه دائماً أناس من ملة «الخصيان»، هم آل خلودياكوف، ولا يزالون يستأجرونه حتى اليوم.

قال الأمير وهو ينظر حواليه:

– ظلام حالك! إنّك تعيش في غرفة معتمة جداً.

كانت الحجرة غرفة واسعة، عالياً سقفها، لا يدخلها ضوء، مزدحمة بأشتات من الأثاث: مناضد، مكاتب، خزائن مملأة بالسجلات والقراطيس. وكان هناك ديوان عريض منجدّ بجلد أحمر لا شك في أن روجويين يستعمله سريراً. ولاحظ الأمير على المائدة التي كان روجويين قد أجلسه بقربها، لاحظ كتابين أو ثلاثة كان أحدها، وهو «كتاب التاريخ» الذي ألفه سولوفييف^[76]، مفتوحاً على صفحة محدّدة بشريطة. وقد علّقت بالجدران بضع لوحات زيتية ذات أطُر مزخرفة، وقد بلغت من القتامة والتشحرّ أن المرء لا يكاد يميز فيها شيئاً البتة. غير أن هناك صورة رجل بالحجم الطبيعي لفتت نظر الأمير، هو رجل في نحو الخمسين من العمر، يرتدي ردنجوتاً أجنبيّ التفصيلة ولكنه طويل الحواف، ويتدلّى على عنقه وسامان، وله لحية متناثرة قصيرة شائبة، ووجه مجعد أصفر، ونظرة متجهمة عابسة.

سأل الأمير:

- أليس هو أباك؟ فأجاب روجويين يقول مبتسماً ابتسامة سيئة كأنما هو يتأهب لأن يقذف بمزحة ثقيلة في حق أبيه:

- نعم، هو بعينه!

- هل كان ينتمي إلى ملّة «المؤمنين القدامى»؟

- لا! كان يذهب إلى الكنيسة. ولكنه كان يزعم فعلاً أن الشعائر القديمة كانت أقرب إلى الحق. وكان عدا ذلك يحترم «ملّة الخصيان». وكانت حجرة مكتبه هي هذه الحجرة التي نحن فيها الآن. لماذا سألتني هل كان ينتمي إلى المؤمنين القدامى؟

- هل ستحتفلون بالعرس هنا؟

- ها... هنا...

كذلك أجاب روجويين الذي أوشك أن يرتجف عند سماع هذا السؤال المفاجئ غير المتوقع.

- هل سيتمّ الزواج في القريب؟

- أنت تعلم أن هذا لا يتوقّف عليّ أنا.

- بارفيون، أنا لست عدوك، ولست أنوي أن أعرقل أيّ أمر من أمورك، أو أن أقف عقبة في طريقك. أكرّر لك هذا الآن كما سبق أن أعلنته لك ذات مرّة، في لحظة شبيهة بهذه اللحظة، إنك لتعلم أنني لست الذي منع زواجك حين كان على وشك أن يتمّ بموسكو. ففي المرّة الأولى «هي» التي هرعت لي لحظة زفافكما تقريباً لترجوني أن أنقذها منك. هذه كلماتها، أكرّرها لك بنصّها. ثم هربت مني أنا أيضاً، فاهتديت أنت إليها وقُدّتها إلى الكنيسة مرّة أخرى للزواج. والآن يقال لي أنها فرّت منك من جديد وجاءت تلوذ ببطرسبرج، هل هذا صحيح؟ إن ليبيديف هو الذي أبلغني النبأ، وبسبب ذلك إنما جئت، ولقد علمت أمس، في القطار، من فم أحد أصدقائك القدامى - وهو زاليوجيف، إذا أردت أن تعرف من هو- علمت أنكما عدتما فترابطتما. إن رجعتي إلى بطرسبرج ليس لها إلا هدف واحد: هو أن أقنعها أخيراً بأن تسافر إلى الخارج لتستردّ صحتّها، فهي في رأيي مريضة جسماً وروحاً. رأسها، خاصة، مريض؛ وحالتها تتطلب عناية كبيرة، ولا أنوي أن أصحبها، وإنما أريد أن أرتّب سفرها دون أن أشارك فيه. أقول لك الحقيقة خالصة، ولكن إذا صدق أنكما رتبتما أموركما من جديد، فلن أظهر

أمام عينيها قط، ولن أضع قدمي في بيتك. أنت تعلم أنني لا أخدمك، لأنني كنت صادقاً معك على الدوام، لم أكتفك رأيي في هذا الأمر يوماً؛ قلت لك دائماً إنني أعتقد بأنها ستضيع حتماً إذا هي ارتبطت بك، وسوف تضيع أنت أيضاً... بل قد يكون ضياعك محتوماً أكثر من ضياعها. إذا انفصلتما من جديد، سرنى ذلك كثيراً، لكنني لن أساعد في تحقيق هذه القطيعة بينكما. فاطمئن إذن، ولا يخالجنك في ريب، ولا تساورنك شبهة. إنك تعلم حقيقة الأمر: أنا لم أكن منافساً حقيقياً، لك في يوم من الأيام، حتى حين لجأت إلي ولذت بي. ها أنت ذا تضحك: إنني أعرف سبب ضحكك. نعم لقد عشنا هناك، أنا وهي، منفصلين؛ بل لقد عاش كل واحد منا في فيلا مستقلة: «أنت على علم تام بهذا». ألم أشرح لك قبل الآن «أنني أحبها لا حباً بل شفقة». أعتقد أن التعريف صادق. ولقد صرحت لي حينذاك بأنك تفهم ما أريد أن أقول. فهل هذا صحيح؟ هل فهمت حقاً؟ ما أشد هذا الكره الذي في نظرتك! إنما أنا أتيت لأهدى بالك بارفيون، أقول هذا وأرحل ثم لا أرجع قط. وداعاً.

نهض الأمير، فقال له بارفيون برقة ورفق، ولم يكن قد نهض، وإنما هو ما يزال مسنداً رأسه إلى يده اليمنى:

– ابق معي قليلاً، فإنني ما رأيته منذ مدة طويلة.

فعاد الأمير يجلس، وساد صمت، ثم قال روجويين:

– حين لا تكون أمامي يا ليون نيقولايفتش، فإنني سرعان ما أشعر بكره شديد لك، وحقد قوي عليك، إنني في خلال هذه الأشهر الثلاثة التي لم أرك أثناءها كنت أبغضك في كل لحظة من اللحظات، فلو استطعت لسرّني أن أقتلك بالسمّ حتماً... يميناً لو استطعت لفعلت ذلك!... هذه هي الحقيقة. ولكن كرهى لك زال خلال ربع الساعة هذا الذي قضيناه معاً، فإذا أنت عزيز في نفسي كما كنت عزيزاً فيها من قبل. ابق معي قليلاً...

أجابه الأمير بمودة وصدقة، محاولاً أن يخفي عواطفه تحت ستار ابتسامة خفيفة:

– حين أكون بقربك فإنك تثق بي، حتى إذا ابتعدت عنك بارحتك ثقتك وعدت ترتاب في من جديد. إنك تشبه أباك!

– أثق بك حين أسمع صوتك. أنا أدرك حق الإدراك وأفهم كل الفهم أنني لا يمكن اعتباري مساوياً لك، لا يمكن اعتباري نداً لك...

قال الأمير وهو ينظر إلى روجويين مدهوشاً:

- لماذا أضفت هذه الجملة الأخيرة؟ ها أنت ذا تغضب من جديد!

- نحن هنا، يا صديقي، لا نُسأل رأينا، وإنما تُرتّب الأمور دون استشارتنا!

وصمت روجويين برهة ثم أردف يقول بصوت خافت:

- كل واحد منا يحب بطريقته الخاصة، أي أننا مختلفان في كل شيء. فأنت مثلاً تقول إنك تحبها شفقة؛ أما أنا فلا أشعر نحوها في الواقع بأية شفقة. ثم أنها تكرهني كرهاً عميقاً كاملاً. إنني أراها الآن في أحلامي كل ليلة: أراها مع شخص آخر، وأراها تسخر مني. وهذا بعينه ما يحدث في الواقع يا عزيزي. إنها ستتزوجني أنا، ولكنها لا تفكر في أكثر مما تفكر في حذاءين أبدلتها منذ لحظة. هل تصدقني إذا قلت لك إنني لم أراها منذ خمسة أيام، خوفاً من أن أذهب إليها؟ فلو ذهبت إليها لسألتني لماذا جئت... لشدّ ما غمرتني بالخزي والعار منذ الآن!.

- بالخزي والعار؟ ماذا تقصد؟

- كأنك لا تعرف! لماذا هربت من الكنيسة حين كنا على وشك الزفاف؟ ألم تهرب من أجل أن تفرّ معك؟ أنت نفسك سلمت بهذا منذ برهة.

- عجيب. ألا تصدقني حين أقول لك إن...

- ألم تجلّلني بالخزي والعار حين قامت في موسكو بمغامرة مع ضابط من الضباط اسمه زمتيوجنيكوف؟ أنا أعرف هذه الحقيقة الآن معرفة اليقين، وقد حدث الأمر يعد أن حدّدت هي نفسها يوم العرس!

هتف الأمير يقول:

- مستحيل!

فقال روجويين باقتناع:

- أنا على يقين من هذا. قد تزعم لي أنت أنها ليست كذلك. قل هذا الكلام لغيري يا عزيزي! قد تتصرف معك أنت تصرفاً آخر، حتى لقد يُشعرها مثل هذا الفعل عندئذ بهول رهيب. أُسلم لك بذلك. ولكنها معي لا يزعها وازع كهذا، ولا يساورها تورّع من هذا النوع! هذه هي الحقيقة. إنها لا تعدّني شيئاً مذكوراً، إنها لا تقيم لي أي وزن! إنني أعلم علم اليقين أن علاقة نشأت بينها وبين ذلك الضابط كيلر الذي كان يمارس

الملاكمة، لا لشيء إلا لتجعلني هزأة! إنك لا تعرف مدى ما لقيت منها بموسكو من عذاب، ولا تعرف ما أنفقت بسببها من مال!...

سأله الأمير مروّعا:

- فلماذا تفكر في تزوجها الآن؟

لم يُجب روجويين بشيء في أول الأمر، وحج الأمير بنظرة ثابتة ثاقبة، ثم قال بعد برهة صمت:

- لم أذهب إليها مرة واحدة منذ خمسة أيام. إنني أخشى دائما أن تطردني. إنها ما تنفك تكرر قولها: «ما زلت حرة التصرف بنفسي. فإذا شئت طردتك طرداً تاماً وسافرت إلى الخارج».

وأضاف روجويين يقول كالمستطرد، وهو يلقي على الأمير نظرة ثابتة ملحة:

- سبق أن حدثتني هي عن هذا. صحيح أنها تتكلم أحيانا بغير قصد إلا أن تخيفني، إنها تجد في دائما ما يمكن أن تتخذه موضوعا للتندر والضحك. وفي أحيان أخرى تقطب حاجبيها ويكتسي وجهها طابع الهم والغام، وتسكن فلا تناطق بحرف: وذلك هو ما أخشاه أكثر من أي شيء آخر. قلت لنفسي في يوم من الأيام: لن أذهب إليها فارغ اليدين، فماذا حدث؟ لأن الهدايا التي حملتها إليها لم تزد على أن حرّضتها مزيداً من التحريض على السخرية بل وعلى الغضب، حتى لقد أعطت خادمتها كاتيا شالاً رائعاً أهديته إليها، شالاً لعلها ما رأت مثله في حياتها قط، رغم الترف الذي كانت تعيش فيه. وأما أن أسألتها تحديد يوم الزواج فذلك أمر لن أجازف فأفعاها. ما أحلى وضع الخطيب الذي لا يجرو حتى أم يزور من ستكون زوجته! لهذا تراني أقبع في بيتي! حتى إذا نفذ صبري، ونضبت مقاومتي، مضيت خلصة أحوم حول منزلها أو أختبئ في ركن من الشارع. وفي ذات مرة بقيت واقفاً أمام باب منزلها كالحارس إلى مطلع الصبح تقريبا. كان قد تراءى لي أنني ألاحظ شيئاً ما. ولا شك أنها رأيتني من النافذة، فما هي ذي تصرخ قائلة: «ما عساك تستطيع أن تفعل بي إذا رأيت أنني أخونك؟» وإذ لم أُطق صبراً أجبتها قائلاً: «أنت تعرفين».

سأله الأمير:

- ما الذي تعرفه؟

- أنت لي أن أعلم!

قال روجويين ذلك وهو يضحك ضحكة ساخرة. وواصل كلامه فقال:

- لم أستطع، بموسكو، أن أفاجئها مع أحد، رغم أنني تجسّست عليها مدة طويلة. فأخذتها مرةً وقلت لها: «لقد وعدتني بأن تتزوجيني. وستدخلين أسرة محترمة. هل تعرفين ماذا أنت؟ انظري ماذا أنت!»

- أقلت لها هذا؟

- نعم.

- فماذا قالت؟

- قالت: «أنا لا أوافق على أن أكون زوجتك؛ وربما كنت لا أَرْضاك خادماً!». فأجبتها:

- وأنا لن أتحرّك من هذا المكان.

فقالت:

- وأنا سأنادي كيلر ليضعك خارج الباب.

فهجمت عليها، فما زلت أضربها حتى تغطّى جسمها ببقع زرقاء.

صاح الأمير:

- هذا مستحيل!

فقال روجويين مؤكداً بصوت خافت، ولكن عينيه كانتا تلتمعان:

- بل هذه هي الحقيقة أقولها لك خالصة. وظللت يوماً ونصف يوم على وجه الدقة لا أنام ولا أشرب ولا أكل ولا أغادر الغرفة. ظللت راكعاً على ركبتي أمامها أقول لها:

«سأفطس، لكنني لن أخرج ما لم تكوني قد غفرت لي، وإذا وضعتني على الباب مطروداً، مضيت أنتحر غرقاً، إذ ما عساي أصبح بدونك؟». وظلت هي طول النهار كالمجنونة، فتارةً تبكي، وتارةً تريد أن تقتلاني بسكين، وتارةً تشتمني، واستدعت زاليوجيف وكيلر وزممتيوجنيكوف وسائر الآخرين، لتريهم حالي ولتدّلني أمامهم، وقالت:

- هلموا نذهب إلى المسرح هذا المساء عصبة واحدة، وليبقَ هو هنا إذا لم يشأ أن ينصرف، فلست مضطرة أن أقبع بالبيت لأحرسه.. سيقدم إليك الشاي دون أن أكون

حاضرة يا بارفيون سيميونوفتش؛ لا بد أنك اليوم جائع.

ورجعت من المسرح وحيدة وقالت لي:

«أنهم جبنا رعيديون... أنهم يخافون منك، ويريدون أن يخيفوني أنا أيضاً منك. قالوا لي: «إنه لن ينصرف هكذا... إنه لا يتورّع عن قتلك، ولكنني، أنا، حين سأمضي إلى غرفتي للنوم بعد قليل، لن أقفل الباب بالمفتاح، فانظر إلى أي حد أخاف منك! أريد أن تعرف هذا وأن تراه. هل شربت شايًا؟»

- لا، ولن أشرب.

- تريد أن تظهر أنفة وكبرياء، ولكن هذا لا يناسبك كثيراً.

وفعلت ما قالت. لم تقفل الباب بالمفتاح. وحين خرجت في الصباح من غرفتها أخذت تضحك، قالت:

- أتراك جنت؟ أتريد أن تموت من الجوع حقاً؟

قلت لها:

- اغفري لي!

- لا أريد أن أغفر لك. ولقد أنبأتك بأنني لن أتزوجك. هل لبثت على هذا المقعد طوال الليل بدون أن تنام؟

- نعم، لم أنم لحظة واحدة.

- ما أعظم هذا المكر!. أئن تحتسي شيئاً من الشاي؟ أئن تتعشى أيضاً؟

- قلت لك. لا أريد إلا أن تغفري لي.

- ليتك تعلم إلى أي حد لا يناسبك هذا الوضع إنه لا يناسبك أكثر مما يناسب البقرة أن يوضع على ظهرها سرج^[27]. أتراك تتصور أنك بهذا تخيفني؟ ولكن فيم يهمني أنا أن يكون بطنك خاوياً؟ هه!...

« غضبت، لكن غضبها لم يدم طويلاً، وعادت إلى التهكم علي. أدهشني أن يزول غضبها بمثل تلك السرعة، مع ما يتصف به طبعها من حقد وميل إلى الانتقام. عندئذ خطر ببالي أنني في نظرها أهون شأنًا من أن تحقد علي مدة طويلة. وكان ما خطر ببالي حقاً. فقد سألتني:

- هل تعرف ما البابا في روما؟

فأجبتها:

- سمعت عنه.

قالت:

- هل درست التاريخ العام يوماً يا بارفيون سيمونتش؟

- لم أدرس شيئاً.

- إذا سأعطيك كتاباً تقرأ فيه غضب بابا من إمبراطور^[78]، فاضطر أن يظل ثلاثة أيام لا يشرب ولا يأكل، جاثياً على ركبتيه، حافي القدمين، عند مدخل قصره، إلى أن تفضل فعفا عنه وغفر له. هل تتصور ما قد دار في ذهن الإمبراطور الراكع من أفكار خلال تلك الأيام الثلاثة، وما قد حلف بينه وبين نفسه من أيمان؟ ولكن انتظر: سأقرأ عليك هذا بنفسى.

«وركضت تجيء بالكتاب، وقالت لي: «هي أشعار». وأخذت تقرأ عليّ فقرة يدور الكلام فيها على مشاريع الانتقام التي آلى ذلك الإمبراطور على نفسه لينفذنها، بينما كان راكعاً مذلاً خلال تلك الأيام الثلاثة. وأضافت تسألني: «هل يمكن أن لا يعجبك هذا يا بارفيون سيميونوفتش؟».

قلت لها:

- أن كل ما قرأته صحيح.

- ها... إنك ترى هذا صحيحاً. وإذن فلعلك أنت أيضاً تقول لنفسك: «حين تصبح زوجتي، فالأذكرنّها بهذا اليوم، ولأنتقمّن لنفسى!».

- لا أدري! ذلك ممكن!

- كيف لا تدري؟

- لا أدري. ليس هذا ما أفكر فيه الآن.

- في أي شيء تفكر إذاً؟

- إليك ما أفكر فيه: حين تنهضين، وتمرّين بقربي، فإنني أنظر إليك، وأتابعك بعيني، وأسمع حفيف ثوبك، فيسقط قلبي؛ وحين تغادرين الغرفة، أتذكر كل كلمة

من كلماتك بلهجتها؛ وطوال الليل لم أفكر في شيء، وإنما كنت أصغي إلى أنفاسك، ولاحظت أنك تحرّكت في سريرك مرتين...

قالت ضاحكة:

- ولعلك نسيت الكلمات التي هويت بها عليّ أيضاً؟

- ربما كنت أفكر فيها، لا أدري

- فماذا إذا لم أغفر لك ولم أتزوجك؟

- سبق أن قلت لك: أُلقي بنفسي في الماء فأموت غرقاً.

قالت وقد شرد فكرها:

- وقد تقتلني قبل أن تلقي بنفسك في الماء؟

ثم غضبت وخرجت. وبعد ساعة عادت فقالت لي عابسة:

- سوف أتزوجك يا بارفيون سيمونوفتش، لا لأنني أخشاك، فانه ليستوي عندي أن أهلك بهذه الطريقة أو بتلك. لكنني لا أجد مخرجاً أفضل من هذا المخرج، اجلس. سوف تؤثّر بعشائك، وإذا تزوّجتك فسأكون امرأة وفيّة، فلا يراودنك شك في هذا، ولا تقلق.

وأضافت تقول بعد برهة صمت:

- كنتُ أعدك من قبل خادماً حقيقياً، لكنني كنت مخطئة.

وهنا حدّدت موعد زواجنا. غير أنها هربت منّي بعد أسبوع ولجأت إلى ليبيديف، ولما وصلتُ إلى بطرسبرج قالت لي: «أنا لم أعدل عن زواجك، لكنني أريد أن أتمهل، فما زلت حرة التصرف بنفسي، فانتظر أنت أيضاً، إذا شئت أن تنتظر». إلى هذه المرحلة وصلنا الآن... ما رأيك في هذا كله يا ليون نيقولايفتش؟»

فأجاب الأمير وهو ينظر إلى روجويين بحزن:

- ما رأيك أنت؟

فهتف روجويين قائلاً:

- هل لي أنا من رأي؟

وأراد أن يضيف شيئاً، لكنه أمسك عن الكلام، وقد آلم به كرب شديد.

نهض الأمير من جديد لينصرف. وقال بصوت خافت ولهجة حاملة، كأنما هو يجيب عن سؤال خفي يطرحه هو نفسه على نفسه:

- على كل حال، لن أخلق لك أي صعوبة، ولن أضع أمامك أي عثرة.

قال روجويين وقد انتعش وسطعت عيناه:

- هل تعرف ما سأقوله لك؟ إنني لا أفهم أن تتنازل لي عنها هذا التنازل. أتكون قد كففت عن حبها تماماً؟ كنت في السابق حزيناً مغموماً. لاحظت أنا هذا بوضوح. ولماذا جئت إلى هنا مسرعاً ذلك الإسراع كله؟ أمن باب الشفقة؟

قال روجويين ذلك وقد تقلصت شفتاه بابتسامة ساخرة. فسأله الأمير:

- أظن أنني أكذب عليك وأخدعك؟

- لا. إنني أثق بك. لكنني لا أفهم موقفك. لا بد أن شفقتك أعنف من حبي.

والتمع في عيني روجويين كره تعجز الكلمات عن التعبير عنه.

قال الأمير مبتسماً:

- إن حبك القوي يشبه الكره الشديد. حتى ليكادان يختلطان. وإذا انقضت هذه العاطفة يوماً فسيكون الأمر عندئذ أنكى وأدهى، يا عزيزي المسكين بارفيون، أنا الذي أقول لك هذا...

- ماذا؟ أعتقد أنني سأذبحها؟

ارتعش الأمير. وقال:

- ستكرهها يوماً من الأيام كرهاً رهيباً، بسبب هيامك بها الآن، وبسبب ما تتحمّله اليوم من آلام. أمّا أنها يمكن أن تفكر في تزوّجك، فهذا شيء لا أفهمه حقاً، فحين أنبتت به لم أكد أصدقه، وشعرت منه بحزن. لقد سبق أن غيرت رأيها مرتين فتركتك قبل الاحتفال بالزفاف. معنى هذا أنها كانت تُوجس شيئاً... فما الذي يمكن أن يردّها الآن نحوك؟ أهو مالك؟ من السخف أن نفترض هذا الافتراض، لا سيما وأنك قد بددت منذ الآن جزءاً كبيراً من ثروتك. فهل يكون السبب هو الرغبة في الزواج لا أكثر من ذلك؟ ولكن في وسعها أن تجد زوجاً آخر غيرك. وأي زوج آخر خير لها منك، لأنك أنت قد تذبحها، ولعلها توجس هي ذلك وتتنبأ به. أياكون جموح هواك، أو عنف هيامك

هو الذي يجذبها إليك؟ قد يكون الأمر كذلك... لقد سمعت أن هناك نساءً يعشقن هذا النوع من العشق... ولكن...

وأمسك الأمير عن الكلام وشرّد فكره.

سأله روجويين الذي كان يرصد أيسر حركة من حركات وجهه:

- لماذا تبسّمت حين نظرت إلى صورة أبي؟

- لماذا تبسّمت؟ تبسّمت لفكرة خطرت ببالي، هي أنك لولا هذا الهيام الذي يعذبك، لأصبحت تشبه أباك خلال فترة وجيزة من الزمن: تحبس نفسك في هذا المنزل مع زوجة مطيعة بكماء ولا يسمع منك أحد إلا كلاماً قليلاً قاسياً، ولا تصدّق إنساناً بل ولا تشعر بالحاجة إلى أن تثق بإنسان، وتكتفي بأن تجمع المال في الظل والصمت. وفي أكثر تقدير، تهتمّ عند نهاية العمر بالكتب القديمة، وترسم إشارة الصليب بإصبعين.. [79]

- اسخر مني! لقد قالت لي هذا الكلام نفسه منذ مدة غير طويلة، حين نظرت إلى هذه الصورة. ما أغرب التقاء رأيكما هذا الالتقاء!

سأله الأمير متحيراً:

- ماذا؟ هل جاءت إلى بيتك؟

- نعم، وتأمّلت الصورة طويلاً وسألتني عن المرحوم، وختمت كلامها قائلة: «ذلك ما كنت ستصير إليه بمضي الزمن، إن لك أهواء عنيفة عارمة يا بارفيون سيميونتش، أهواء تبلغ من العنف والعرامة أنها يمكن أن تؤدّي بك إلى سيبيريا، إلى السجن، لولا أنك ذكي، ذلك أنك ذكي جداً (تلك كانت كلماتها بنصّها، صدّق أو لا تصدّق. وكانت هذه أول مرّة تقول لي فيها ذلك). وأضافت تقول: «كان يمكن أن تترك جميع السخافات التي تتعلق بها اليوم؛ وإذ أنك محروم من الثقافة، فإنك كنت ستنصرف عن كل شيء إلا جمع المال. كنت ستبقى في بيتك، كأبيك، مع أصحاب ملتك «الخصيان»، حتى لقد ينتهي بك الأمر إلى اعتناق ملتهم. إنك تحب المال حباً يبلغ من القوّة أنك قد تجمع لا مليونين بل ربما عشرة ملايين، ولو اقتضى ذلك أن تموت جوعاً فوق أكياس الذهب التي تملكها، لأنك تفعل كل شيء بهوى شديد وولع عنيف، ولا يقود خطاك إلا الهوى الشديد والولع العنيف!». ذلك ما قالته لي بنصّه، كلمة كلمة على وجه التقريب. لم تكن قد كلمتني بهذه اللغة في يوم من الأيام. إنها لا تحدّثني عادةً إلا في سفاسف وتُرّهات، أو هي تأخذ تسخر مني وتتهكم عليّ. وفي تلك

المرّة بدأت بالاستهزاء، ثم تجهّم وجهها وأظلم، واستعرضت المنزل كله كأنها كانت تشعر بخوف من شيء ما. قلت لها: «سوف أغيّر هذا كله، وأعيد ترتيبه، أو سوف أشتري منزلاً آخر لزواجنا. فأجابتنى قائلة: «لا، لا، ما ينبغي تغيير شيء هنا. سنعيش على هذا النسق نفسه. أريد أن أقيم بقرب أمك حين أصبح زوجتك». وعرفتُها بأمي. فأظهرت لها احتراماً كاحترام البنت لأُمّها. إن أُمّي مريضة منذ سنتين، وقد أصبحت لا تملك قواها العقلية كاملة؛ ولا سيما بعد أن مات أبي، فكانها ارتدّت إلى الطفولة منذ ذلك الحين. ساقاها مشلولتان، وهي لا تتكلم، ولا تزيد على أن تحرّك رأسها بإشارة لمن يقصدونها. إذا لم تؤت بطعامها فقد تظل يومين أو ثلاثة لا تطلب شيئاً. وقد تناولتُ يد أُمّي اليمنى، فضممت أصابعها لرسم إشارة الصليب، وقلت لها: «باركها يا أُمّي، فسوف تكون زوجتي». وعندئذ قبلت يد أُمّي بحرارة وقالت: «أنا على يقين من أن أمك تألّمت كثيراً». وحين لمحت هذا الكتاب الذي تراه سألتني: «أأخذت تقرّأ تاريخ روسيا إذن؟» (هي التي قالت لي ذات يوم بموسكو: «يجب عليك أن تتثقف قليلاً، فتقرّأ «تاريخ روسيا، مثلاً - تأليف سولوفيف - لأنك لا تعرف شيئاً البتة!»). وأضافت تقول: «أحسنت. استمرّ! سأضع لك بنفسي قائمة بالكتب التي يجب عليك أن تقرّأها قبل كل شيء، هل تريد؟». لم تكن قد كلمتني بهذه اللهجة في يوم من الأيام، أبداً. دُهِشت دهشة شديدة.. ذهلت... شُدهت... ولأول مرّة تنفست كما يتنفس إنسان عادت إليه الحياة.

قال الأمير بصدق:

- يسُرّني هذا كثيراً يا بارفيون، يسُرّني كل السرور، من يدري؟ قد يشاء الله أن يجمع بينكما.

فصاح روجويين يقول مندفعاً:

- لن يكون هذا أبداً!

- اسمع يا بارفيون: إذا كنت تحبها هذا الحب كله، فهل يُعقل أن لا تحرص على أن تستحق اعتبارها واحترامها؟ وإذا كنت تحرص على ذلك، فهل يُعقل أن تيّأس من الوصول إليه؟ لقد قلت لك منذ قليل إنني لا أفهم كيف قبلت أن تتزوجك. ولكن لا بد أن يكون لقبولها هذا سبب، وإن كنت لا أدركه، لا يمكن أن يشك المرء في هذا. إنها مقتنعة بحبك، ولكنها مقتنعة أيضاً بأنّ لك مزايا معيّنة. لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك، وما ذكرته لي الآن يأتي مؤيداً ومصدّقاً لاعتقادي هذا. أنت نفسك تقول إنها استطاعت أن تخاطبك وأن تعاملك بطريقة مختلفة كل الاختلاف عن الطريقة التي كانت تعمد إليها من قبل في مخاطبتك وفي معاملتك. أنت كثير الشك شديد الغيرة،

وذلك هو السبب في أن خيالك ضخم الشر الذي لاحظته فيها. مما لا شك فيه أن رأيها فيك ليس سيئاً إلى الحد الذي يصوره لك وهمك، ويعبر عنه لسانك، وإلا كان علينا أن نسلّم بأنها إذا تزوّجتك فإنها تحكم على نفسها، عامدة متعمّدة، بأن تهلك غرقى أو مذبوحة، هل هذا معقول؟ من ذا الذي يمضي إلى الموت بإرادته واعيا بصيرا؟ كان بارفيون يُصغي إلى كلمات الأمير المختلجة المرتعشة، وهو يبتسم، ولم يسع الأمير إلا يقول له مغموماً:

- ما هذه النظرة العابسة المشؤومة التي تلقيها علي يا بارفيون؟

فهتف روجويين يقول أخيراً:

- أن تهلك غرقى أو مذبوحة! هيه... صحيح... إذا تزوّجتني فمن أجل أن تُدبّح بيدي حتماً! لا... هل يُعقل يا أمير أن لا تكون قد فهمت حقيقة الأمر في هذه القضية كلها بعد؟

- لا أدرك ماذا تعني.

- جائز أن لا تفهمني على كل حال!... يزعم بعضهم فعلاً أنك على شيء من...! إنها تحب رجلاً آخر. هل فهمت؟ إنها تحب الآن رجلاً آخر كما أحبها أنا. وهذا الرجل الآخر، هل تعلم من هو؟ إنه «أنت»! ماذا؟ ألم تكن تعرف هذا؟

- أنا!

- نعم، أنت. لقد بدأت تحبّك منذ حفلة عيد ميلادها. لكنها تقدّر أنه يستحيل عليها أن تتزوّجك، لأنها لو تزوّجتك لجلّلتك بالعار، ولأفسدت مستقبلك. هي تقول: «الناس تعلم من أنا». إنها تؤكد هذا الكلام، ولم تتحرّج أن تعلنه جهاراً. هي تخشى عليك أنت أن تضيعك وأن تلتطخ شرفك بالعار. أمّا أنا ففي وسعها أن تتزوّجني، فليس في هذا ضير. تلك هي قيمتي عندها، وذلك هو قدري في نظرها. احفظ هذا.

- ولكن كيف أمكن أن تهرب منك وأن تلجأ إليّ ثم تهرب مني..

- لتعود إليّ؟ هه... هل يستطيع المرء أن يعرف ماذا يدور في رأسها، وماذا يجول في خاطرها؟ هي الآن في حالة من حمّى! يوماً تصيح قائلة لي: «إنني أتزوجك كما يلقي المرء نفسه في الماء، فلنتزوج بأقصى سرعة!»، وتمضي تتعجل الاستعدادات بنفسها، وتحدد يوم الزفاف... حتى إذا اقترب ذلك اليوم خافت أو راودتها أفكار أخرى أو ساورتها خواطر أخرى لا يدري ما هي إلا الله! لقد رأيته بعينيك: إنها تبكي،

وتضحك، وتتخبط هنا وهناك كالمحمومة. فأَيَّ غرابة في أنها هربت منك أنت أيضاً؟ لقد هربت منك لأنها أدركت عنف الهوى الجارف الذي تحمله لك، كان بقاؤها بقربك فوق طاقتها. زعمت منذ قليل أنني اهدت إليك أو عثرت عليها بموسكو. ليس هذا صحيحاً. إنها هي التي سارعت إلى هاربة منك، وقالت لي: «حدد يوماً للزواج، أنا مستعدة! أحضر شمبانيا وهلم نسمع الغجريات!». وكانت تصرخ. لولاي لألقت نفسها في الماء منذ مدة طويلة. أؤكد لك. وإذا كانت لا تلقي بنفسها في الماء حتى الآن، فربما كان ذلك يرجع إلى أنها تراني أفضع من الموت غرقاً، إنها تتزوجني حنقاً وغيظاً.

هتف الأمير يقول:

- ولكن كيف ترضي أنت أن... كيف...

ولكنه لم يكمل كلامه. وكان ينظر إلى روجويين مروّعاً، فسأله روجويين وهو يضحك ضحكاً ساخراً:

- لماذا لا تكمل سؤالك؟ هل تريد أن أقول لك في أي شيء تفكر في هذه اللحظة؟ إنك تسأل نفسك: «كيف يمكن أن تتزوجه الآن؟ كيف يمكن قبول مثل هذا الزواج والسكوت عنه». ذلك هو شعورك وتلك هي عاطفتك حتماً...

- أعود فأكرر لك يا روجويين إنني لم أجد إليك لهذا الغرض، وإن الفكرة التي كانت في ذهني ليست هذه الفكرة.

- جائز أن لا تكون قد جئت لهذا الغرض، وأن لا تكون الفكرة التي كانت قائمة في ذهنك أول الأمر هي هذه الفكرة، ولكن لا شك في أن هذا هو ما تفكر فيه الآن. دعك من المماحكة! لماذا اضطربت هذا الاضطراب كله؟ هل كنت لا تعرف شيئاً من ذلك حقاً؟ إنك لتدهشني!

تمتم الأمير يقول وقد بلغ ذروة الانفعال:

- ذلك كله غيرة يا روجويين! هذا مرض. إنك تفقد الاعتدال والقصد... إنك تغالي وتبالغ... ولكن ما هذا الذي عندك؟

فأسرع بارفيون ينتزع من يدي الأمير سكيناً صغيرة تناولها الأمير من على المائدة بقرب الكتاب دون وعي، وقال له وهو يعيد السكين إلى مكانها:

- دعها!

وواصل الأمير كلامه فقال:

- لكأنني كنت أوجس هذا كله حين وصلت إلى بطرسبرج... لم أكن أحب أن أجيء... كنت أريد أن أنسى كل ما يربطني بهذه المدينة ويشدني إليها، وأن أستأصله من قلبي استئصالاً! هياً... أستودعك الله!...

- ولكن ما هذا الذي عندك؟

كان الأمير، أثناء الكلام، قد تناول السكين مرة أخرى ذاهلاً. فانتزع روجويين السكين من يده، ورمأها على المائدة. السكين ذات شكل بسيط شائع، قبضتها من قرن وعل، ونصلها يبلغ طوله نحو خمسة عشر سنتيمتراً، وعرضها يناسب هذا الطول.

فحين لاحظ روجويين دهشة الأمير من انتزاع السكين من يديه مرتين، تناول السكين غاضباً ودسها في الكتاب ثم رمي الكتاب على مائدة أخرى.

سأله الأمير ذاهلاً مستغرقاً في تفكيره:

- أأنت تستعمل قطاعة ورق!

- نعم...

- لكنها سكين حديقة.

- وهل يستحيل قطع صحائف الورق بسكين حديقة؟

- لكنها... جديدة تماماً.

- أي ضير في هذا؟ ألا أستطيع أن أشتري سكيناً جديدة؟

كذلك صاح روجويين وقد انتابه حنق شديد. وكان غضبه يزداد عند كل كلمة يقولها الأمير.

ارتعش الأمير وحق إلى روجويين، ثم قال ضاحكاً وقد تاب إليه وعيه كاملاً:

- ما دهانا؟ اعذرني يا عزيزي، فإنني حين يثقل رأسي ويعاودني مرضي كما حدث لي الآن... أصبح ذاهلاً ذهولاً مضحكاً. ليس ذلك هو السؤال الذي كنت أريد أن ألقيه عليك... نسيت ما الذي كنت أريد أن أسألك عنه. أستودعك الله.

قال روجين:

- ليس هذا هو الطريق.

– نسيٲ!

– من هنا! سأريؑ الطريق!

الفصل الرابع

اجتازا الحجرات نفسها التي سبق أن قطعها الأمير. كان روجويين يتقدمه قليلاً. ودخلا الصالون الكبير الذي كانت معلقة بجدرانه لوحات هي جميعها صور أساقفة ومناظر طبيعية لا يميز المرء فيها شيئاً. إن فوق الباب المفضي إلى الغرفة المجاورة لوحة شكلها غريب، فطولها يبلغ مترين وعلوُّها لا يزيد على ثلاثين سنتيمتراً. إنها تمثل يسوع المسيح، المخلص، لحظة نزوله عن الصليب.

ألقى الأمير على الصورة نظرة سريعة وكأنه تذكر شيئاً ما، لكنه لم يتوقف. وهم أن يتخطى العتبة. كان يشعر بانقباض في صدره وثقل في قلبه، ويتعجل مغادرة هذا المنزل. لكن روجويين توقف فجأة أمام اللوحة، وقال:

- جميع هذه اللوحات التي تراها هنا إنما اشترى المرحوم أبي كل واحدة منها بروبيل أو روبلين في مبيعات عامة. كانت له هذه الهواية، وقد فحص اللوحات رجل خبير، فوصفها جميعها بأنها غير ذات قيمة، إلا هذه التي تراها فوق الباب والتي اشتراها أبي بروبلين أيضاً... فقد وصفها بأنها ليست غير ذات قيمة. وقبل وفاة أبي، وُجد من عرض عليه أن يشتريها منه بثلاثمائة وخمسين روبلاً؛ حتى أن سافليف، إيفان دمترتش سافليف، وهو تاجر ثري من كبار هواة الصور، قد عرض عليه أربعمائة روبل ثمناً لها. وفي الأسبوع الماضي عرض على أخي سيمون سيمونوفتش خمسمائة روبل؛ ولكنني رفضت واحتفظت بها لنفسي.

قال الأمير وقد اتسع وقته للتدقيق في اللوحة، وإنعام النظر إليها:

- ولكن.. ولكن هذه اللوحة منسوخة عن لوحة أوهانس هولباين^[80]. ويخيل إليّ أنها نسخة ممتازة، رغم أنني لست على جانب كبير من الخبرة والدراية في هذا المجال. لقد رأيت هذه اللوحة في الخارج، ولا أستطيع أن أنساها. ولكن ماذا... ماذا بك؟

كان روجويين قد ترك اللوحة فجأة، واستأنف السير، صحيح أن ما كان قد اعتري روجويين من ذهول واهتياج يمكن أن يعلل تقلبات مزاجه هذه. غير أن الانقطاع المباغت

عن حديث لم يكن الأمير هو الذي بدأه قد أثار دهشة الأمير؛ كما أن امتناع روجويين عن الرد على سؤاله بدا له غريباً كذلك.

وها هو روجويين يسأل الأمير علي حين فجأة بعد بضع خطوات:

- قل لي يا ليون نيقولايفتش... كنت أريد منذ مدة طويلة أن ألقى عليك هذا السؤال: - أنت تؤمن بالله أم لا؟

قال الأمير على غير إرادة منه:

- ما أغرب سؤالك... وما أغرب نظرتك!...

ودمدم روجويين يقول بعد صمت، كأنه قد نسي سؤاله مرة أخرى:

- إنني أحب أن أنظر إلى هذه الصورة!

فهتف الأمير يقول وقد ساورته فكرة مباغته:

- هذه الصورة! أن هذه الصورة يمكن أن تفقد بعض الناس إيمانهم!

فقال روجويين مؤكداً كلام الأمير على غير توقع:

- حقاً... إنها تفقد المرء إيمانه!...

وكانا قد بلغا باب الخروج، فقال الأمير وهو يتوقف فجأة:

- كيف؟ أنا قلت كلامي من باب المزاح تقريباً، وأنت تأخذه مأخذ الجد! لماذا سألتني منذ لحظة هل تؤمن بالله؟

- لا شيء... هكذا... وكنت أريد أن ألقى عليك هذا السؤال من قبل. أن في هذه الأيام أناساً كثيرين لا يؤمنون بالله. لقد عشت في الخارج، فهل صحيح ما كان يقوله لي أحد السكيرين من أن الذين لا يؤمنون بالله هم في بلادنا، روسيا، أكبر عدداً منهم في أي بلد آخر؟ لقد قال لي ذلك السكير: «الإلحاد أسهل علينا منه على الآخرين، لأننا سرنا شوطاً أبعد...».

وابتسم روجويين ابتسامة مَرَّة. إنه حين ألقى سؤاله كان قد فتح الباب فجأة، وانتظر خروج الأمير واضعاً يده على قبضة الباب. ودُهِش الأمير، لكنه تخطى العتبة، وتبعه روجويين إلى فسحة السلم مغلقاً الباب وراءه نصف إغلاق. وبقي الرجلان واقفين وجهاً لوجه، وكأنهما لا يعرفان إلى أين وصلا من أمرهما ولا ما الذي يجب عليهما أن

يفعللاه.

قال الأمير وهو يمدّ إلى روجويين يده:

- طيب... أستودعك الله!

فدمدم روجويين وهو يشدّ على اليد الممدودة إليه شداً قوياً، ولكن على نحوٍ آليٍّ تماماً.

- أستودعك الله.

وهبط الأمير درجةً ثم التفت يستأنف الكلام مع روجويين. كان واضحاً أنه لا يريد أن يتركه على تلك الحالة، قال له مبتسماً، وقد شحذت همته، عدا ذلك، ذكرى مباغته:

- فيما يتعلق بالإيمان، أذكر أنني في الأسبوع الماضي قد حدثت لي أربع مقابلات في غضون يومين، ففي ذات صباح، أثناء سفري على خط جديد من خطوط السكة الحديدية، ظللت أثرثر مدةً أربع ساعات مع رجل اسمه س...^[81]، كنتُ تعرّفتُ إليه حينذاك. كنت قد سمعت عن هذا الرجل كثيراً قبل ذلك، فعرفت فيما عرفت أنه ملحد. إنه رجل واسع الثقافة، غزير الاطلاع، قد سرّني أن أتاحت لي فرصة المنافسة مع عالم يبلغ ما يبلغه هذا الرجل من وفرة الاطلاع. وكان فوق ذلك إنساناً جمّ التهذيب، فكان يكلمني كما يكلم قريناً قرينه، أو كما يكلم نداً له في سعة العلم وسداد الرأي. إنه لا يؤمن بالله، غير أن هناك شيئاً خطف انتباهي في مناقشته هو أنه طوال مدة حديثنا لم يُبدِ أنه يواجه الموضوع الحقيقي، أو يعالج المسألة الحقيقية. ومما فاقم دهشتي أنني قبل ذلك، كلما التقيت بزنادقة أو قرأت كتباً تذهب هذا المذهب، كان يبدو لي دائماً أن هؤلاء الناس لا يتكلمون عن المسألة الحقيقية، وإن كانوا يتكلمون عنها في ظاهر الأمر. وقد عرضت على الرجل شعوري هذا، ولكن لعلني عرضته عليه عرضاً مضطرباً مبهماً أو لعلني لم أحسن الإفصاح ولم أحسن التعبير، لأن الرجل لم يفهم من كلامي شيئاً البتة... وفي المساء حللت بنزُل للمبيت، وكانت جميع المناقشات، عند وصولي، تدور على جريمة ارتكبت في الليلة السابقة، خلاصتها أن اثنين من الفلاحين ليسا شابيين ولا كانا سكرانين، وهما صديقان منذ مدة طويلة، قد قرّرا بعد احتساء الشاي أن يستأجرا غرفة يبيتان فيها. ولكن أحدهما كان قد لاحظ منذ يومين أن رفيقه يملك ساعة من فضة معلقة بحبل أصفر ومزدانة بلألئ من زجاج، ولم يكن الرفيق قد رأى هذه الساعة في حوزة رفيقه من قبل. ليس الرجل لصاً، بل كان أميناً مستقيماً؛ لا

ولا كان فقيراً إذا قيس بغيره من الفلاحين. غير أن هذه الساعة قد أعجبته وأغرته إلى حدٍّ أصبح لا يستطيع معه أن يقاوم وان يصمد. فلماً رأى رفيقه ينكفئ إلى الجهة الأخرى، استلّ سكّينه، وتسلّل من وراء محاذراً، وحسب ضربته، ورسم إشارة الصليب رافعاً عينيه إلى السماء، وتمتم يدعو الله بلهجة مرة: «اغفر لي يا رب، باسم يسوع المسيح!»، ثم ذبح رفيقه بضربة واحدة، كما يُذبح خروف، وأخذ منه ساعته.

انفجر روجويين يضحك ضحكاً شديداً كمن اعترته نوبة عصبية. فكان الضحك يثير الدهشة بعد المزاج القاتم الذي كان يستبدّ به منذ قليل، وأخذ روجويين يصرخ في تشنّج، والضحك يخنقه:

– هذا ما يعجبني! هذا أجمل من كل شيء! الأول لا يؤمن بالله البتّة، والثاني يؤمن به إيماناً يبلغ من القوّة أنه يذبح الناس وهو يتلو دعاءه... لا يا أمير، لا يا أخي، هذا شيء لا يمكن اختراعه اختراعاً. آ...آ...! لا، لا، هذا أجمل من كل شيء حقاً!...

وما أن هدأ روجويين قليلاً، وإن كان الضحك ما يزال يُرعرع شفّتيه على تشنّج، حتى استأنف الأمير كلامه فقال:

– وفي صباح اليوم التالي خرجت أتجول بالمدينة قليلاً، فرأيت جندياً سكران، قد اختلّت ثيابه تماماً، وراح يمشي على الرصيف الخشبيّ مترنحاً. وها هو ذا يقترب مني ويقول لي «اشترِ منّي هذا الصليب يا سيدي، إنه من فضة، وأنا أبيعك إياه بعشرين كوبكاً». رأيت في يده صليباً مربوطاً بشريط أزرق مهترئ لا بدّ أنه انتزعه من عنقه منذ قليل. ولكن الصليب من قصدير صرف، ذلك أمر تراه العين من أول نظرة، هو صليب كبير الأبعاد، من الطراز البيزنطي، ذو ثمانية أفرع. أخرجت من جيبي عشرين كوبكاً، وأعطيتها للسكران، ولم ألبث أن علقت الصليب بعنقي. ما كان أعظم فرحه بأنه استطاع أن يغش مارداً ساذجاً! وانطلق على الفور يشرب بثمرن صليبه خمراً، لا شك في ذلك البتّة! كان كل ما ألاحظه في روسيا يحدث في نفسي تأثيراً قوياً. كنت في الماضي لا أفهم من أمر بلدي شيئاً، كنت جاهلاً جهلاً مطبقاً. وفي البلاد الأجنبية، أثناء السنين الخمس التي عشتها فيها، لم أكن قد احتفظت عن روسيا إلا بذكرى خيالية. تابعت سيرتي وأنا أقول لنفسني: «لا، سأنتظر مدة أخرى قبل أن أدين هذا الخائن. الله وحده يعلم ما يحدث في قلوب السكارى الضعيفة!»، وبعد ساعة، بينما كنت عائداً إلى النّزل، صادفت امرأة طيبة تحمل رضيعاً. إن المرأة ما تزال شابة، ولعل الطفل في الأسبوع السادس من عمره. لقد ابتسم لأمه لأول مرة منذ ولادته، ابتسم لها منذ لحظة، فإذا هي ترسم على نفسها إشارة الصليب بكثير من التّقى. سألتها (وكنت أسأل الناس

دائماً): «لماذا رسمت إشارة الصليب أيتها الشابة؟». فأجابتنى قائلة: «كفرحة الأم التي ترى أول ابتسامة في ثغر ابنها هي فرحة الرب حين يرى من علياء سمائه مذنبا يدعو دعاء صادقاً من أعماق قلبه». إنها فلاحه بسيطة تلك التي عبرت لي، بهذه الألفاظ نفسها تقريباً، عن فكرة تبلغ هذا المبلغ من الرهافة، فكرة تنتسب هذا الانتساب الصادق إلى المسيحية، فكرة تعبر دفعة واحدة عن روح الديانة المسيحية كلها، وهي أن الرب أبونا جميعاً، وأن فرحة الرب بالإنسان كفرحة الأب بابنه! هذه فكرة أساسية من أفكار المسيح! هي أم، طبعاً... ومن يدري؟ فلربما كانت زوجة ذلك الجندي. اسمع يا بارفيون، لقد سألتني عن هذا الأمر منذ قليل، فأليك جوابي: إن جوهر العاطفة الدينية مستقل عن جميع البراهين، وجميع الأفعال السيئة وجميع الجرائم وجميع مذاهب الإلحاد. إن في هذه العاطفة شيئاً لا يمكن أن تدركه ولا يمكن أن تناله أدلة الملحد في يوم من الأيام. وسيظل الأمر على هذا النحو أبد الدهر. غير أن أهم شيء هو أن هذا يلاحظ في النفس الروسية أسرع ما تكون الملاحظة، وأوضح ما تكون الملاحظة، وتلك هي النتيجة التي أخلص إليها. هذه قناعة من أولى القناعات التي تكونت في نفسي عن بلادنا روسيا. هناك أمور كثيرة يجب أن تعمل يا بارفيون، أمور كثيرة يجب أن تعمل في عالمنا الروسي، صدقني! تذكر لقاءاتنا وأحاديثنا بموسكو... لم أكن أرغب أية رغبة في أن أعود الآن إلى هنا. ولم أكن أتصور أن أجذك على هذه الحال أبداً. وكفى هذا!... أستودعك الله... إلى اللقاء! أسأل الله أن يكون معك!...

قال الأمير ذلك ثم استدار وأخذ يهبط السلم. فلما وصل إلى الفسحة الأولى، صرخ بارفيون يسأله من فوق:

- ليون نيقولايفتش! ذلك الصليب الذي اشتريته من الجندي، هل هو معك الآن؟

فأجابه الأمير وقد توقف من جديد:

- نعم، هو معي.

- أرنيه.

هذه غرابة أخرى! تردّد الأمير، ثم صعد درجات السلم، وأخرج الصليب من قميصه دون أن ينزعه عن عنقه. فقال روجويين:

- هب لي هذا الصليب.

- لماذا؟ هل أنت...

- احمله وأعطيك صليبي فتحمله...

- تريد أن نتبادل صليبينا^[82]؟ ليكن فلاك يا بارفيون لذا شنت!

- سوف يسعدني هذا. فلنكن أخوين.

انتزع الأمير صليبه القصديري، وانتزع بارفيون صليبه الذهبي، وتبادلا الصليبين. كان بارفيون صامتا لا يتكلم، ولشد ما كانت مؤلمة الدهشة التي شعر بها الأمير حين لاحظ أن الريبة والابتسامة المرأة التي تكاد تكون ساخرة ما برحتا ظاهرتين في وجه أخيه في الصليب، أو قل على الأقل أنهما تظهران ظهوراً واضحاً في بعض اللحظات. وأخيراً تناول روجويين يد الأمير صامتاً، ولبت جامداً لا يتحرك خلال برهة كأنما هو عاجز عن اتخاذ قرار، ثم جرّ الأمير في النهاية وراءه قائلاً له في دمدمة خافتة لا تكاد تُسمع: «تعال». فاجتازا فسحة الطابق الأول، وقرعاً جرس الباب المقابل، فسرعان ما فتحت الباب امرأة عجوز محدودة الظهر ترتدي سواداً وتضع على رأسها منديلاً، فلما رأت روجويين انحنت أمامه انحناء شديداً دون أن تتكلم. فسألها روجويين عن أمر من الأمور مسرعاً، واقتاد الأمير يدخله البيت دون أن ينتظر جوابها. واجتازا مرة أخرى حجرات كثيرة مظلمة، نظيفة نظافة خارقة، أثاثها قديم بارد متقشف مكسو بأغطية بيضاء؛ ودون أن يطلب روجويين الإبلاغ عن حضوره، أدخل الأمير رأساً في غرفة صغيرة لها مظهر صالون، يقطعها حاجز من خشب الأكاجو الملمع، وفي طرفي الحاجز بابان صغيران، ووراءه غرفة النوم في أغلب الظن. في ركن من الصالون، على مقعد قرب المدفأة، كانت تجلس امرأة عجوز صغيرة، لا يبدو أنها طاعنة في السن كثيراً، لكن شعرها قد ابيض تماماً، وعقلها قد ارتد إلى الطفولة (يقتنع المرء بذلك منذ أول نظرة). إنها ترتدي ثوباً من صوف أسود، وتلف عنقها بمنديل كبير أسود، وتضع على رأسها طاقية ناصعة البياض مزدانة بأشرطة سوداء. وكانت قدماها موضوعتين على دكة صغيرة. وبقربها تجلس عجوز أخرى، أكبر منها سناً، شديدة النظافة، مرتدية ثياب الحداد أيضاً، وعلى رأسها طاقية بيضاء هي الأخرى. لا شك أنها قريبة فقيرة من قريبات العجوز الأولى. وكانت الثانية تحيك بالإبرة جورباً. لا بدّ أنهما تبقيان على هذه الحال طوال الوقت لا تتكلمان. فحين رأت العجوز الأولى روجويين والأمير ابتسمت لهما، وحتت رأسها عدة مرات بإشارات تعبر عن العاطفة والرضى.

قال لها روجويين بعد أن قبل يدها:

- أماه، هذا صديقي الكبير الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين. لقد تبادلنا صليبينا.

وكان لي بمثابة الأخ في فترة ما بموسكو، وله عليّ أفضال كثيرة. باركيه يا أماء،
كما لو كان ابنك. انتظري يا أماء، سأساعدك في ضم أصابعك...

ولكن العجوز رفعت يدها اليمنى قبل أن يتسع وقت روجويين لأن يلمسها، فضمت
ثلاثاً من أصابعها، ورسمت إشارة الصليب فوق رأس الأمير ثلاث مرات بكثير من التقى
والخشوع، ثم حنت له رأسها من جديد بإشارة ودود حنون.

قال بارفيون:

– تعال الآن يا ليون نيقولايفتش. فمن أجل هذا وحده إنما جئت بك إلى هنا...

وأضاف يقول للأمير حين بلغا السلم:

– إنها لا تفهم شيئاً مما يقال لها، ولم تفهم شيئاً من كلامي، ومع ذلك باركتك.
معنى هذا أنها أرادت ذلك من تلقاء نفسها... طيب... أستودعك الله... لقد آن الأوان لنا
كلينا.

قال روجويين ذلك وفتح الباب. فهتف الأمير قائلاً وهو ينظر إليه نظرة فيها عتب
رقيق:

– دعني أعانقك على الأقل قبل أن أنصرف!

وأراد الأمير أن يحتضنه بذراعيه. ولكن بارفيون ما كاد يهم أن يرفع ذراعيه حتى
عاد يسبلهما. إنه لم يستطع أن يعزم أمره. وأشاح وجهه حتى لا يرى الأمير. وجمجم
يقول بصوت مبهم وهو يضحك ضحكة غريبة:

– لا تخف! لن أقتلك من أجل ساعة، وإن كنت قد أخذت صليبك!

لكن وجهه انقلب فجأة، فإذا هو يشحب شحوباً رهيباً، وإذا شفاته تأخذان بالارتجاف،
وإذا عيناه تسطعان. ورفع ذراعيه، وعانق الأمير عناقاً قوياً، وقال بصوت لاهث:

– خذها ما دام هذا هو القدر هي لك! إنني أتنازل لك عنها!.. تذكر روجويين!

ثم ترك الأمير دون أن يلقي عليه نظرة، وعاد يدخل مسرعاً ويغلق الباب وراءه
بقرعة شديدة.

الفصل الخامس

الوقت متأخر، فالساعة قاربت الثانية والنصف. لم يجد الأمير الجنرال إيبانتشين في بيته. فوضع بطاقته، وقرر أن يمضي إلى فندق «الميزان» عسى أن يجد فيه كوليا، أو يترك له كلمة إذا لم يجده. فقبل له في الفندق أن نيقولا آرداليونتش قد خرج في الضحى، وطلب أن يذكر لمن يسأل عنه «أنه قد يعود في نحو الساعة الثالثة، فإذا بلغت الساعة الثالثة والنصف قبل أن يعود فيكون معنى ذلك أنه سافر بالقطار إلى بافلوفسك ليزور الجنرال إيبانتشين، وأنه سيتغدى هناك». بقي الأمير في الفندق ينتظر، وانتهاز الفرصة فأمر لنفسه بغداء.

ولكن كوليا لم يظهر لا في الساعة الثالثة والنصف، ولا في الساعة الرابعة. فخرج الأمير من الفندق وأخذ يمشي على غير هدى. إن بطرسبرج تعرف عند بداية الصيف في بعض الأحيان أياماً لذيذة مضيئة دافئة. ولقد كان ذلك اليوم واحداً من تلك الأيام النادرة، كأنما على عمد. ظل الأمير يطوف في المدينة زمناً من دون هدف أو غاية. إنه لا يعرف المدينة معرفة جيدة. وكان يتوقف أحياناً عند مفارق الطرق أمام بعض المباني، أو يتلبث في الميادين والساحات، أو يقف على بعض الجسور. وفي لحظة من اللحظات داخل مطعم حلوى ليستريح قليلاً. لقد كان ينعم النظر في المارة باستطلاع قوي وفضول شديد أحياناً، ولكنه في أكثر الأحيان لا يلاحظ المارة، ولا يعرف أين هو. إنه الآن في حالة قلق عميق وتوتر أليم، وهو في الوقت نفسه يشعر بحاجة قصوى إلى العزلة. إنه يريد أن يخلو إلى نفسه وحيداً، وأن يستسلم لألم ذلك التوتر استسلاماً سلبياً، فلا يسعى إلى أي مخرج منه؛ وهو يدفع سيل الأسئلة التي كانت تغزو قلبه ونفسه، يدفعها عنه مشمئزاً؛ ويجمع قائلاً لنفسه من دون أن يشعر تقريباً: «أنا مسؤول عن هذا كله؟».

وفي نحو الساعة السادسة وجد نفسه على رصيف خط السكة الحديد الذي يصل بين تسارسكوي وسيلو. إن العزلة قد أصبحت ثقيلة الوطأة على نفسه فهو لا يطيقها ولا يحتملها. إن اندفاعاً جديدة قد استولت على قلبه بقوة وحرارة، وإن ضياء ساطعاً قد أثار الظلمات التي كانت تملأ نفسه بالغم والقلق. اشترى تذكرة سفر إلى بافلوفسك،

متعجلاً أن ينطلق بأقصى سرعة. غير أن هناك شيئاً كان يلاحقه ويطارده ولا شك، شيئاً واقعياً لا خيالياً كما لعله كان يظن. فما أن همّ أن يركب القطار، حتى رمى تذكرة السفر على الأرض، وغادر المحطة واجماً مفكراً مضطرباً. وبعد قليل، حين صار في الشارع، بدا كأنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة، كأنه أدرك شيئاً غريباً جداً كان يقلقه منذ مدة طويلة. لقد باغت نفسه مشغولاً بأمر ما برح يلزمه منذ زمن، لكنه لم يكن قد لاحظته حتى ذلك الحين، إنه منذ كان في فندق «الميزان»، وربما قبل ذلك، قد أخذ فجأة يبحث عن شيء من حوله بين الفينة والفينة. إنه كان ينسى هذا الشيء أحياناً، حتى لقد كان ينساه مدة طويلة، مدة نصف ساعة، لكنه ما يلبث أن يلتفت بغتة من جديد، ليعود يبحث من حوله قلقاً.

ولكنه ما أن لاحظ في نفسه هذه الاندفاع المَرَضِيَّة التي كانت حتى ذلك الحين غير شعورية والتي كانت قد استولت على نفسه منذ مدة طويلة، حتى انبجست أمامه على حين فجأة ذكرى أخرى اهتم بها اهتماماً قوياً. تذكر أنه حين لاحظ أنه ما انفك يبحث عن شيء ما حوله، إنما كان واقفاً على الرصيف أمام الواجهة الزجاجية لإحدى الدكاكين، وأنه كان يُنعم النظر بكثير من الاستطلاع والاهتمام في الأشياء المعروضة داخل الواجهة. فأصرّ عندئذ على أن يتحقق من أنه قد وقف أمام تلك الدكان فعلاً، منذ ما لا يزيد عن خمس دقائق تقريباً. فإذا لم يكن وهماً من أوهام الخيال لا أكثر، أفلا يكون من الجائز أنه خلط بين الأمور؟ هل لتلك الدكان وتلك الأشياء المعروضة في واجهتها وجودٌ حقاً؟ ذلك أنه كان يحسن فعلاً، منذ مطلع النهار، أنه في حالة مرضية تكاد تكون نفس الحالة التي كان يحسّها في الماضي عند بداية نوبات مرضه القديم. كان يعلم أنه يصبح في تلك الفترات ذاهلاً إلى أبعد حدود الذهول، وأنه يتفق له عندئذ أن تختلط عليه الأشياء وتتشابه عليه الوجوه، إذا هو لم ينتبه إليها انتباهاً خاصاً مشدوداً. غير أن هناك سبباً خاصاً كان يدفعه إلى التحقق من أنه وقف أمام تلك الدكان فعلاً حينذاك. لقد كان بين الأشياء المرتبة في الواجهة الزجاجية شيء نظر إليه حتى لقد قدر له ثمناً هو ستون كوبكاً. إنه يتذكر هذا الأمر رغم شروده ورغم اضطرابه. فإذا كانت تلك الدكان موجودة، وإذا كان ذلك الشيء موجوداً في الواجهة بالفعل، فإنما يكون قد توقف هناك بسبب ذلك الشيء. ويترتب على هذا أن هذا الشيء قد همّه في ذاته إلى درجة بعيدة فلفت انتباهه حتى في حالة الاختلاط الأليمة تلك التي كان عليها حين خرج من المحطة. مشى الأمير وهو ينظر إلى اليمين بما يشبه أن يكون خوفاً، وقلبه يخفق من شدة القلق وفرط نفاذ الصبر. ولكن ها هي ذي الدكان. لقد وجدها أخيراً! كان قد ابتعد عنها قرابة خمسمائة خطوة حين قرر أن يقفل راجعاً. وها

هو ذا الشيء الذي قدر له ثمناً هو ستون كوبكاً. قال الأمير مؤكداً تقديره: «نعم، ستون كوبكاً، إنه لا يساوي أكثر من ذلك!». وضحك. لكن ضحكه كان هستيرياً. وشعر بثقل في قلبه، وانقباض في صدره! وهو يتذكر الآن تذكرًا واضحاً أنه منذ قليل، في هذا المكان نفسه، أمام هذه الواجهة ذاتها، قد التفت بقوة، كما التفت في الصباح حين فاجأ نظرة يلقيها عليه روجويين. فلما تأكد أنه لم يخطئ الظن (وذلك أمر كان موقناً به يقيناً مطلقاً حتى قبل أن يتحقق منه)، ترال الدكان وبتعد مسرعاً. إن عليه أن يفكر في هذا كله بأقصى سرعة. لقد وضع الآن أن ما حدث في المحطة لم يكن وهماً كذلك، وأن شيئاً واقعياً لا شك أنه ذو صلة بكل قلقه السابق قد حدث له فعلاً. إلا أن نوعاً من نفوز داخلي لا يقاوم قد تغلب عليه أيضاً، فلم يشأ أن يفكر. لقد عدل عن التفكير عدولاً تاماً، وها هو ذا يفكر في أمور أخرى.

تذكر، فيما تذكر، أن نوبات الصرع التي كان يعانيتها، كانت تشتمل على لحظة تسبق النوبة بزمان قصير جداً (وذلك حين توافيه النوبة أثناء اليقظة لا أثناء النوم)، لحظة يضطرم فيها ذهنه فجأة وسط الحزن وظلمات النفس والاختناق، وتستعر فيها جميع قواه الحيوية دفعة واحدة، فيتضاعف إحساسه بالحياة، ويشتد وعيه لذاته. إن الفكر والقلب يشرقان عندئذ بضياء ساطع، فإذا باضطرابه وشكوكه وقلقه ومخاوفه تهدأ على الفور، وتصير إلى نوع من طمأنينة عليا زاهرة بوعي لعللة العلل وغاية الغايات. غير أن تلك اللحظات أو الومضات ليست، بعد، إلا استشرافاً للنهاية الأخيرة، للثانية الأخيرة التي تبدأ بها النوبة. هي ثانية لا تطاق طبعاً. ولقد كان إذا فكر في هذا بعد أن تعود إليه صحته، كان يقول لنفسه: ما هذه الومضات وهذه الإشراقات التي نظن أنها ومضات وإشراقات «وعي أعلى، ومن ثم حياة عليا»، ما هي إذاً إلا مرض، ما هي إلا فساد الحالة السليمة، فإذا كان الأمر كذلك لم يكن ثمة حياة عليا، بل حالة يجب أن تعد من أدنى الحالات!... ومع ذلك قاده هذا إلى استنتاج مفارق غريب إلى أبعد حدود المفارقة والغرابة فقال يحسم الأمر: «أي ضير في أن تكون هذه الحالة مرضاً، أي ضير في أن تكون هذه الحالة حالة توتر غير سوي، ما دامت النتيجة، أي ما دامت تلك اللحظة التي يتذكرها المرء ويتأملها حين تعود إليه صحته تبدو له أعلى درجة من درجات الاتساق والانسجام والجمال، وما دامت تحدث له عاطفة لا عهد له بها ولا خطرت بباله، هي عاطفة التمام والامتلاء، والقصد والاعتدال، والسكينة والطمأنينة، والاندماج بالصلاة في أعلى مركب للحياة؟» كانت هذه التعبيرات الضبابية تبدو له مفهومة تماماً، رغم أنها ما تزال ضعيفة غير قوية. أما أن ثمة «جمالاً وتواصلًا بالصلاة» و«مركباً أعلى للحياة» في حقيقة الأمر، فذلك ما لم يكن يراوده فيه ريب ولا يمكن

أن يقبل فيه أي شك. ذلك أن ما يحسه في تلك اللحظات ليس أخيلة سراب أو رؤى أحلام مرضية باطلة، كتلك التي تنشأ عن الحشيش أو الأفيون أو الخمر، مما ينحدر بالعقل ويفسد النفس. إن في إمكانه أن يحكم في هذا حكماً سليماً عند الخروج من حالته المرضية. لا، لا، أن تلك اللحظات إنما هي جهد خارق في سبيل الوعي - إذا كان لا بد من وصف تلك الحالة بكلمة - وهو في الوقت نفسه التعبير المباشر عن الوعي ذاته. وإذا كان يتفق له أن يقول لنفسه بوضوح وجلاء في تلك الثانية، أعني في تلك اللحظة الأخيرة التي تسبق الغيبوبة: «نعم، إن المرء مستعد لأن يهب حياته كلها في سبيل هذه اللحظة»، فإنه كان واثقاً كل الثقة بأن هذه اللحظة تساوي حياةً بكاملها حقاً. على أنه كان يحرص حرصاً شديداً على الجانب الجدلي المنطقي من استنتاجه، فإن خبال العقل واضطراب النفس وبلاهة الذهن كانت تبدو له نتيجة واضحة لتلك «اللحظات العليا»، فلو أراد أحد أن يشرع في مناقشة جادة معه حول هذا الموضوع لرفض المناقشة. لا شك أن استنتاجه، أعني تقديره لتلك الثانية، كان يشتمل على خطأ، ولكن واقعية الإحساس ذاته كانت تفرض نفسها عليه وتقلقه. كيف يمكنه أن لا يقيم وزناً للواقع، كيف يستطيع أن لا يعبأ بالواقع؟ ذلك أن ما حدث له قد حدث له حقاً، في الواقع؛ ولقد قال لنفسه فعلاً أثناء تلك الثانية أن هذه الثانية بما تحمله إليه من سعادة غير ذات حدود، يمكن أن تساوي حياةً بكاملها.

لقد قال ذات يوم لروجويين أثناء لقاءتهما بموسكو: «في تلك اللحظة يصبح ما جاء في رؤيا يوحنا مفهوماً عندي، وهو قوله الخارق: «لن يكون يومئذ زمان»^[83]. وقد أضاف الأمير يقول حينئذ مبتسماً: «لعل هذه اللحظة هي تلك اللحظة نفسها التي لم تتسع لأن ينسكب خلالها على الأرض ماء الجرة التي قلبها النبي محمد حين وافته غيبوبته، لكنه استطاع خلالها أن يرى وأن يتأمل جميع السماوات».

نعم، كان يتفق له بموسكو أن يلقي روجويين في أحيان كثيرة، وكانت تجري بينهما أحاديث في موضوعات أخرى أيضاً.

«لقد قال لي روجويين منذ قليل إنني كنت له بمثابة أخ. إن روجويين يتكلم بهذه اللغة اليوم لأول مرة». هذا ما خطر ببال الأمير. خطر بباله وهو جالس على دكة تحت شجرة في «حديقة الصيف». كانت الساعة في نحو السابعة من المساء. الحديقة خالية. وهذه سحابة دكناء تحجب الشمس عند غروبها. الهواء خائق كأنما توشك أن تهب زوبعة. والأمير مرتاح إلى حالة التأمل هذه. كان بذكرياته وفكره يتعلق بأي شيء يقع عليه بصره. إن هذا يسره ويرضيه. وكان ما ينفك يشعر برغبة في نسيان

شيء ما، شيء راهن، شيء أساسي. ولكنه ما أن ينظر حواليه حتى تعود إليه الفكرة المحاصرة التي كان يود أن يتخلص منها. لقد تذكر، في لحظة من اللحظات، الحديث الذي جرى بينه وبين خادم المطعم عن جريمة القتل الغريبة كل الغرابة، التي وقعت منذ مدة قصيرة، وأثارت كثيراً من الصخب والمناقشات. ولكنه ما كاد يتذكر هذا حتى حدث له شيء غريب أيضاً.

إن رغبة ذات قوة خارقة لا تغالب، رغبة توشك أن تكون غواية، قد سلبته إرادته. فنهض عن الدكة التي كان جالساً عليها، وخرج من الحديقة، ومضى قدماً نحو الضفة اليمنى. إنه منذ قليل، حين كان على أرصفة نهر نيفا، قد سأل أحد المارة عن ذلك الحي من أحياء بطرسبرج، الذي يقع وراء النهر، فدلّه الرجل عليه، لكن الأمير لم يذهب إلى ذلك الحي حينذاك. ولم يكن يفيد أنه يذهب إليه اليوم على كل حال. لقد حصل على العنوان منذ مدة طويلة، وكان سهلاً عليه أن يهتدي إلى منزل قريبة لبديف لكنه كان على شبه يقين من أنه لن يجدها في بيتها. «لا شك أنها سافرت إلى بافلوفسك، وإلا لكان كوليا قد ترك كلمة في فندق «الميزان»، كما اتفق على ذلك». فإذا كان يتجه الآن إلى منزل قريبة لبديف، فإنه لا يفعل ذلك من أجل أن يراها. إن هناك شيئاً آخر يغريه بالذهاب إلى هناك، شيئاً هو فضول مظلم أليم. إن فكرة جديدة مفاجئة قد ومضت في ذهنه...

ولكن كان يكفي الآن أن يسير وأن يعرف إلى أين هو يسير حتى يأخذ يمشي من جديد دون أن يلاحظ إلى أين هو يسير. وأصبح ينفر أشد النفرة من الإيغال في تحليل «فكرته المبالغية»، بل لقد أصبح يستحيل عليه ذلك.

وأخذ يُنعم النظر في كل ما يقع عليه بصره، مركزاً انتباهه تركيزاً أليماً... أخذ ينظر إلى السماء وإلى نهر نيفا. حتى لقد حاول أن يشرع في حديث مع طفل التقى به. لعل حالته المرضية كانت تتفاقم. إن العاصفة تقترب، ولو ببطء. إن رعداً يُسمع منذ الآن في بعيد. وأصبح الهواء خائفاً جداً.

وبدون سبب من الأسباب، استيقظت في ذهن الأمير ذكرى ابن أخت لبديف، الذي رآه منذ ساعات، وأخذت تفرض نفسها عليه بغير انقطاع، كما تفرض نفسها على المرء جملة موسيقية تحاصره فيظل يرددها وقد ضاق بها أشد الضيق. شيء غريب: أن ابن أخت لبديف يتراءى له الآن بملامح القاتل الذي جاء لبديف نفسه على ذكره حين عرفه بابن أخته، والذي كان الأمير قد قرأ قصته منذ مدة قصيرة. كان الأمير، منذ وصوله إلى روسيا قد قرأ كثيراً وسمع كثيراً عن أمثال هذه القصص؛ وكان يتابع

هذه المسائل باهتمام شديد وإصرار عنيد. حتى إنه أثناء حديثه مع خادم المطعم قد أظهر اهتماماً قوياً بتلك الجريمة نفسها التي كانت أسرة جيرامين ضحيتها. وهو يتذكر الآن أن الخادم الفتى ليس بالغبيّ البتة، فيه رصانة ووقار، وفيه روية وتعقل، «ولكن الله وحده يعلم ما حقيقته. إن من الصعب على المرء أن ينفذ إلى أعماق أناس جدّد في بلد جديد». وبدأ الأمير مع ذلك يؤمن بالنفس الروسية إيماناً قوياً حاراً. ألم يلاحظ، خلال هذه الأشهر الستة، أشياء كثيرة، جديدة عليه، لا عهد له بها من قبل، ولم تخطر له ببال، ولا كان يتوقعها بحال من الأحوال؟ ولكن نفس الآخر ظلمات، والنفس الروسية ظلمات، ظلمات فوق ظلمات، أمام كثير من الناس. ها هو ذا قد ارتبط بروجويين، منذ مدة طويلة، ارتباطاً وثيقاً، ارتباطاً «أخوياً»، ولكن هل هو يعرف روجويين؟ ثم إن هذا كله يشتمل في بعض الأحيان على كثير من الغموض والفوضى والاضطراب والاختلاط والصغار! وابن أخت ليبيديف ذاك... يا له من فتى دعيّ دنيء كرية! «فعلاً، بماذا أسأت إليه؟ (كذلك تساءل الأمير) أهو الذي قتل أولئك الأشخاص الستة؟ يبدو أنني أخلط... شيء غريب!... إنني أشعر بدوار... ولكن ما أجمل وألطف محياً ابنة ليبيديف الكبرى... تلك التي كانت تحمل الطفل بين ذراعيها!... وما كان أصفى تعبير وجهها، وما كان أروع ضحكتها التي تكاد تكون ضحكة طفلة صغيرة!». غريب أن ينسى ذلك الوجه وأن لا يتذكره إلا الآن! إن ليبيديف الذي يقرع الأرض بقدميه ليروّعهم، لعله يحبهم جميعاً أعظم الحب، لعله يعبدهم عبادة. والأمر الثابت الذي لا شك فيه ولا يقل يقيناً عن أن اثنين زائد اثنين تساوي أربعة، هو أن ليبيديف يحب ابن أخته كذلك حباً عظيماً.

ثم كيف أمكنه أن يتولى إصدار حكم مبرم عليهم، هو الذي وصل منذ مدة قصيرة؟ كيف يحق له أن يصدر أحكاماً من هذا النوع؟ هذا ليبيديف نفسه: ألم يظهر اليوم أنه لغز؟ أنه مشكلة؟ هل كان يتوقع أن يجد ليبيديف هكذا؟ هل عرفه حتى اليوم في هذه الصورة؟ ليبيديف وكونتيسة باري... رباه! إذا قُتل روجويين فإنه لن يُقتل على هذا النحو المشوّش على الأقل. لن يكون هناك فوضى كهذه الفوضى. سلاح يُطلب صنعه وفقاً لرسم معين، وستة أشخاص يُذبحون دفعة واحدة^[84] في نوبة هذيان وجنون! لا، إن روجويين لا يطلب صنع سلاح وفقاً لرسم معين... ولكن هل ثابت إذاً أن روجويين سيقتل؟ ارتعش الأمير، وهتف يخاطب نفسه وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة من الشعور بالخجل والعار: «أليست جريمة، أليست حطةً مني أن أفترض هذا الافتراض بمثل هذه الصراحة السفهية؟».

وتسمرّ في مكانه مذهولاً. لقد تذكر فجأة محطة بافلوفسك التي كان فيها منذ حين، ومحطة نيقولا، والسؤال المباشر الذي ألقاه عليه روجويين عن «النظرة»، وصليب روجويين الذي يحمله هو الآن معلقاً بعنقه، ومباركة أم روجويين التي قاده إليها روجويين من تلقاء نفسه، والمعانقة التشنجية الأخيرة، وتنازل روجويين له عن حبيبته تنازلاً نهائياً أعلنه روجويين منذ قليل وهو على سلّم البيت. وبعد ذلك يفاجئ نفسه باحثاً متصلاً عن ما حوله... وتلك الدكان... وذلك الشيء المعروف في الواجهة الزجاجية، الذي قدر له ثمناً هو ستون كوبكاً... يا للحظة والصغار!... وها هو ذا الآن يسير إلى «هدف خاص» تدفعه إليه تلك «الفكرة المبالغية». كان الكمد والألم قد استوليا على نفسه استيلاءً تاماً. وأراد الأمير أن يعود إلى الفندق رأساً. حتى لقد استدار وأخذ يمشي في اتجاه الفندق، لكنه لم يلبث أن وقف بعد دقيقة واحدة، ففكر وعاد يسير في اتجاهه الأول.

وكان قد بلغ الضفة اليمنى وأصبح غير بعيد من المنزل. قال لنفسه مبرراً: لا شك أنه لا يذهب الآن إلى هناك لتحقيق ذلك الغرض نفسه، ولا من أجل تلك «الفكرة الخاصة» ذاتها. كيف أمكن أن يخطر بباله هذا؟ نعم، لقد عاوده مرضه، ذلك أمرٌ لا ريب فيه: ولعل نوبةً ستوافيه في هذا اليوم نفسه. فمن اقتراب النوبة إنما تنشأ هذه الظلمات جميعها، والنوبة هي التي حملت إليه تلك «الفكرة». ولكن الظلمات تبددت، والشيطان ولى هارباً، ولم يبق هنالك شكوك... أن قلبه يفيض الآن فرحاً! وإنه منذ زمن طويل لم يرها «هي»، وهو في حاجة إلى أن يراها، و... نعم... إنه يودّ لو يرى روجويين. فلو رآه لأمسك يده وذهباً إليها معاً. إن قلبه طاهر نقي... أهو منافس لروجويين؟ ليذهبن إلى روجويين منذ اليوم التالي ليقول له إنه رآها. ألم يهرع إلى هنا، كما قال ذلك روجويين منذ قليل، لسبب واحد هو أنه يريد أن يراها؟ لعله سيجدها مع ذلك في بيتها، فهو ليس متأكداً من أنها سافرت إلى بافلوفسك.

نعم، ينبغي الآن توضيح كل شيء، حتى يستطيع هؤلاء وأولئك من الناس أن يقرأ بعضهم ما في قلوب بعض بغير التباس أو اشتباه. فلا يكون بعد اليوم تنازلات ظلماء محمومة كتنازل روجويين، بل أفعال يقبلها المرء بحرية ووضوح. هل يعجز روجويين عن تحمّل الوضوح؟ لقد ادّعى أنه يحب هذه المرأة حباً لا يشتمل لا على عطف ولا على شفقة أو رأفة. صحيح أنه أضاف إلى ذلك قوله: «لعل شفقتك أكبر من حبي». ولكنه قد تقول على نفسه. هم!... أن يأخذ روجويين في قراءة كتاب، أليس هذا وحده فعلاً يشتمل على عطف أو على بداية عطف؟ أليس وجود هذا الكتاب بين يديه دليلاً على أنه أدرك إدراكاً كاملاً ما يجب أن يكون عليه موقفه إزاء هذه المرأة؟ لا، إن في نفسه

شيئاً أعمق من الولّيه. وهل وجه هذه المرأة لا يوقظ في النفس الولّيه؟ وهل يمكن أن يوقظ وجهها ولّها في هذه الآونة؟ إن وجهها لا يأسر النفس كلها إلا بالألم والعذاب اللذين يعبر عنهما، إنه...».

هنا أحسّ الأمير بذكرى كاوية أليمة تلسع قلبه. نعم، ذكرى أليمة. تذكر العذاب الذي سبق أن عاناه حين لاحظ فيها علائم جنون لأول مرة. إن ذلك الاكتشاف قد رماه في هوة اليأس حينذاك. كيف أمكنه أن يتركها حين هربت منه إلى روجويين؟ كان ينبغي له أن يندفع في ملاحقته ومطاردتها بدلاً من أن ينتظر أنباءها وأخبارها.

ولكن... هل يمكن أن لا يكون روجويين قد لاحظ أعراض جنونها حتى الآن؟ «هم... إن روجويين ينسب كل ما تفعله إلى دوافع أخرى هي دوافع الهوى! إن غيرته خطأ وضلال. ماذا أراد أن يقول بافتراضه ذاك الذي أفصح عنه منذ قليل؟». (واحمرّ الأمير فجأة وأحسّ في قلبه بما يشبه أن يكون ارتجافاً).

ولكن ما فائدة العودة إلى هذه الذكريات؟ إن هناك جنوناً في الطرفين كليهما. أمّا فيما يتعلق به هو، فقد كان الأمير يرى أن من غير المعقول أن يحب الإنسان هذه المرأة حب غرام، بل لقد كان يرى أن ذلك أمر قاسي وغير إنساني. قال الأمير يحدث نفسه: «نعم، أن روجويين قد تقول على نفسه ظالماً. أن له قلباً يزخر بالعاطفة، وهو قادر على أن يتألم وعلى أن يشعر بالشفقة. وحين سيعرف الحقيقة كلها، حين سيقنع بأن هذه المرأة مخلوقة بئسة مختلة العقل شبه مجنونة، فلن يسعه إلا أن يغفر لها كل الماضي، وكل آلامها. ولسوف يصبح لها عندئذ خادماً وأخاً وصديقاً ومعيناً. سوف يردّه العطف إلى الطريق القويم، وسوف تكون هي له معلماً من التعاليم، لأنها القانون الأساسي وربما القانون الوحيد الذي يحكم الوجود الإنساني». ما أشدّ ندم الأمير الآن على السلوك الذي سلّكه مع روجويين، وهو في نظره سلوك غير شريف، سلوك لا يغتفر، لا، ليست النفس الروسية هي الظلمات، ليست هي اللغز، وإنما اللغز نفسه هو، لأنه أمكن أن يتخيّل تلك الشناعة. إن روجويين قد وصفه بأنه أخ، لا شيء غير بضع كلمات فيها حرارة ومودة قالها له بموسكو، فما باله هو... ولكن ذلك كله لم يكن إلا مرضاً، لم يكن إلا هذياناً... سوف ينقضي كل هذا. ما أغرب تلك الهيئة المتجهمّة التي بدت على روجويين حين قال له منذ قليل إنه «بسبيل فقد إيمانه»! لا بدّ أن الرجل يعاني ألماً رهيباً. هو يدّعي أنه «يحب أن ينظر إلى لوحة هولباين»: ليست المسألة أنه يحب أن ينظر إليها، بل المسألة أنه يشعر بحاجة إلى ذلك. إن روجويين ليس ذا طبيعة ملتعبة فحسب، بل هو كذلك ذو مزاج مناضل: إنه يريد استرداد الإيمان الذي فقده،

يريد استرداده بأي ثمن، مهما يكلفه ذلك من عناء. إنه يشعر الآن بضرورة ذلك، وهو من هذا في ألم شديد... نعم، الإيمان بشيء، الإيمان بأحد! ولكن ما أغرب تلك اللوحة، لوحة هولباين!...آ... هذا هو الشارع، وربما هذا هو المنزل الذي أبحث عنه... نعم، هذا هو المنزل: رقم 16، «دار زوجة الموظف فليسوف». هذه هي الدار.

قرع الجرس، وطلب ناستاسيا فيليبوفنا.

فأجابته صاحبة الدار بنفسها قائلة إن ناستاسيا فيليبوفنا قد سافرت منذ الصباح إلى بافلوفسك، وإنها نزلت ضيفة على داريا ألكسيفنا، «وإنها قد تمكث عندها بضعة أيام». إن السيدة فليسوفا امرأة قصيرة في نحو الأربعين من العمر مدببة الوجه حادة العينين، لها نظرة مأكرة فاحصة. سألت الزائر عن اسمه وقد لاح في وجهها شيء من معنى السرّ. فأراد الأمير في أول الأمر أن لا يجيب عن سؤالها، لكنه ما لبث أن عدل عن رأيه، فعاد ليرجوها ملحاً أن تنقل اسمه إلى ناستاسيا فيليبوفنا. فسجلت السيدة هذه التوصية بكثير من العناية والاهتمام، مصطنعة لهجة خاصة هي لهجة المسارة فكانها تريد أن تقول: «لا تخف. لقد فهمت!». يظهر أن اسم الزائر قد أحدث في نفسها أثراً قوياً. ألقى الأمير عليها نظرة ذاهلة، واستدار على عقبيه، وعاد يسير في الطريق المؤدية إلى فندقه. لكن حالته الآن لا تشبه الحالة التي كان عليها حين قرع جرس باب السيدة فليسوفا. لقد تغير مظهره كله في طرفة عين: فهو الآن يسير شاحب الهيئة، واهن العزم، معذب النفس، قلقاً مضطرباً؛ ركبتاه تترنحان، ابتسامة حائرة تلم بشفتيه المزرقتين: إن «فكرته المباغثة» قد جاء الآن ما يؤكد فكرته وبررّها. وأحسن الأمير مرة أخرى أن الشيطان سيطر عليه. فما الذي حدث فأكد فكرته وبررّها؟ لماذا يعتريه مرة أخرى هذا الارتجاف، وهذا العرق البارد، وهذه الظلمات الكثيفة في النفس؟ لأنه رأى «تينك العينين» من جديد؟ ولكن ألم يتعمد أن يترك «حديقة الصيف» لغرض واحد هو أن يراهما؟ تلك كانت «فكرته المباغثة». لقد شعر برغبة قوية عنيفة في أن يرى «تينك العينين» اللتين رآهما منذ قليل ليقتنع اقتناعاً نهائياً بأنه سيجدهما لا محالة هناك، قرب تلك الدار. فإذا كان قد رغب في رؤيتهما تلك الرغبة القوية الحارة كلها، فلماذا أُرهِق هذا الإرهاق كله واضطرب ذلك الاضطراب كله حين رآهما، كأنه أمام حادث لم يكن في حسابه؟ نعم، إنهما نفس «تينك العينين» (لا مجال للشك في هذا الآن) اللتين رشقتاه بنيرانهما صباحاً في محطة نيقولا^[85] وسط الجمهور حين نزل من القطار. وهما نفس «تينك العينين» (تماماً) اللتين شعر بثقلهما على كتفيه، بعد الظهر، في منزل روجويين، حين كان يهْمُ أن يجلس، لقد أنكر روجويين ذلك. حتى

لقد سأل وهو يتسم ابتسامة متقلصة باردة كالصقيع: «هما عينا من؟». وهاتان العينان نفسيهما، رآهما الأمير مرةً أخرى، مرةً ثالثة في ذلك اليوم نفسه، قبل برهة قصيرة، في محطة خط تسارسكوي^[86]، عندما همّ أن يركب القطار مسافراً لرؤية أجلايا. لقد راودته عندئذ رغبة محمومة مسعورة في أن يقترب من روجويين وأن يقول له «هما عينا من؟». ولكنه خرج من المحطة مسرعاً، ثم لم يثب إليّ وعيه إلا أمام دكان بائع سكاكين، فقدّر لشيء رآه في الواجهة الزجاجية، شيء له نصاب من قرن الوعل، قدرّ له ثمناً هو ستون كوبكاً.

إن شيطاناً عجيباً رهيباً قد استولى عليه استيلاءً نهائياً، وأصبح لا يريد أن يتركه. فذلك الشيطان هو الذي أوحى إليه أثناء تأملّه جالساً تحت شجرة زيزفون في «حديقة الصيف»، أن روجويين يلاحق كل خطوة من خطواته منذ الصباح، حتى إذا عرف أن الأمير لن يسافر إلى بافلوفسك (وهذا وحده نبأ رهيب عنده) قرّر أن يذهب «إلى هناك»، إلى حي بطرسبرج القديمة، ليتربّب ما حول الدار وحول ذلك الرجل الذي عاهده في ذلك اليوم نفسه «على أن لا يزورها»، وقال له: «إنه لم يأت إلى بطرسبرج لهذا الغرض».

حينئذ هرع الأمير إلى تلك الدار باندفاعه مباغتة. فأى غرابة إذن في أن يلقي هنالك روجويين؟ إنه لم يرَ إلا رجلاً شقياً بائساً تعذبه خواطر مظلمة لكنها مفهومة. ثم إن ذلك الرجل السيئ الحظ لم يحاول أن يختبئ، نعم، لا شك أن روجويين قد كذب حين أنكر أثناء الحديث الذي جرى بينهما بعد الظهر. لكنه في محطة تسارسكوي قد ظهر دون اختباء تقريباً. وإذا كان قد اختبأ أحد فإن الأمير هو الذي اختبأ لا روجويين الذي يقف الآن قرب الدار. لقد وقف روجويين منتظراً على الرصيف المقابل، على مسافة خمسين متراً، عاقداً ذراعيه فوق صدره. واضح أنه لا يحاول الاختباء، حتى لكأنه يرغب في أن يُرى. إن موقفه هو موقف المتهم، هو موقف القاضي، لا موقف ال... موقف من... فعلاً؟

ولكن الأمير، بدلاً من أن يقترب منه، مضى مبتعداً كأنه لم يلمحه، مع أن أعينهما قد التقت، فلماذا؟ (نعم، لقد التقت أعينهما، وتبادلا نظرة). ألم يكن ينوي قبل ذلك هو نفسه أن يمسك يده وأن يذهب إلى هناك، في صحبته؟ ألم يكن ينوي أن يمرّ به في اليوم التالي ليقول له إنه ذاهب إليها؟ ومنذ قليل، في منتصف طريقه إلى الدار، ألم يتحرّر من شيطانه حين غمرت نفسه فرحة مفاجئة؟ أم تُرى كان في شخص روجويين أو قل في الوضع العام لهذا الرجل، «طوال ذلك اليوم»، أي في مجموع أقواله

وحركاته وأفعاله ونظراته، شيء يمكن أن يبرّر توجّسات الأمير الرهيبة وإيحاءات شيطانه المثيرة؟

ذلك كله كان يشتمل على ملاحظات تخطف البصر، ولكن يصعب تحليلها وترتيبها، ويستحيل كذلك أن يُنسب إليها أساس منطقي. ومع ذلك، رغم هذه الصعوبة، ورغم هذه الاستحالة، كانت تُحدث انطباعاً إجمالياً لا يمكن التخلص منه، انطباعاً يتحوّل من تلقاء نفسه إلى اقتناع مطلق.

اقتناع، ولكن بماذا؟ آه... لشدّ ما كان السخف العجيب و«الدناءة المنحطة في هذا الاقتناع» والصغار الشديد في «هذا التوجّس»، لشدّ ما كان هذا كله يعذب الأمير؛ وما أعنف اللوم والتقريع اللذين كان الأمير يأخذ بهما نفسه لهذا كله! كان الأمير يقول لنفسه مكرراً معنفاً بلهجة الاتهام والتحدي: «أفصح عن ذلك الاقتناع بصراحة على الأقل، إن كنت لا تجرؤ! عبّر عن فكرتك بوضوح، بدقة، بغير مواربة ومداورة! آوه! أنا إنسان غير مستقيم، غير شريف! (هذا ما كان يضيفه وقد اعترته نوبة استياء وتخضب وجهه بحمرة شديدة). بأي عين سأجرؤ أن أرى هذا الرجل بعد الآن طوال حياتي؟ آه... يا لهذا اليوم! يا رب! ما هذا الكابوس الثقيل!...»

وفي ختام هذه العودة الطويلة الشاقة من حيّ بطرسبرج القديمة، جاءت دقيقة استبدّت بالأمير خلالها رغبة قوية لا تقاوم في أن يذهب إلى روجويين فوراً، وأن يعانقه ساكباً دموع الندامة، وأن يقول له كل شيء، فيفرغ من هذه القضية دفعة واحدة. ولكنه كان قد وصل إلى الفندق..

إن الفندق، والممرات التي فيه، والغرفة التي نزلها الأمير، والمبنى نفسه، إن ذلك كله قد أثار انزعاج الأمير إلى أقصى حدّ، منذ أول وهلة. وقد شعر عدة مرات خلال ذلك النهار بنفور خاص واشمئزاز شديد حين كان يتصور أن عليه أن يعود إلى ذلك الفندق. وها هو ذا الأمير يقول مخاطباً نفسه: «ولكن ماذا أصابني؟ إنني أشبه امرأة مريضة... فأنا أوّمن اليوم بجميع أنواع التوجّسات ومشاعر التنبؤ!». قال الأمير ذلك لنفسه بلهجة فيها غضب وسخرية. وحين وافته هذه الفكرة، توقف أمام الباب الكبير. إن حادثاً واحداً من بين جميع أحداث النهار يحتكر في هذه اللحظة فكره، لكن الأمير يواجهه الآن «بهذوء وبرود»، «مالكاً كامل عقله»، «لا من خلال كابوس ثقيل». لقد تذكر السكين التي كانت على مائدة روجويين. وها هو ذا يتساءل مستغرباً فكرته نفسها: «ولكن أي غرابة في أن يكون على مائدة روجويين ما يشاء من سكاكين؟». وتضاعف استغرابه حين تذكر، على حين فجأة، توقفه بعد الظهر أمام دكان بائع

السكاكين. وها هو ذا يهتف قائلاً: «ولكن! عجيب!.. أي علاقة يمكن أن تكون بين..». ولم يكمل جملته. إن نوبة جديدة من الشعور بالخجل والخزي، بل ومن الشعور بالكمد واليأس تقريباً، قد سمّرتَه في مكان أمام الباب. ولبت جامداً برهة من الوقت لا يتحرّك. إنها لظاهرة تحدث كثيراً، أن تستيقظ في ذهن المرء ذكرى لا تطاق، ذكرى رهيبه، فإذا هي تشلّه عن الحركة بضع ثوانٍ. قال الأمير يكرّر لنفسه متجهماً الوجه مظلم الهيئة: «نعم، أنا إنسان بلا قلب، أنا رجل جبان!»، وتحرك إلى أمام ليدخل، ولكنه... توقف من جديد.

إن مدخل الفندق، وهو في العادة قليل الضوء، كان عندئذ مظلماً ظلاماً حالكاً، بسبب اقتراب هبوب العاصفة التي أتمت نهاية ذلك النهار. وقد هبّت العاصفة في اللحظة التي عاد فيها الأمير، وأخذت تهطل أمطار غزيرة كالسيول. فلما همّ الأمير أن يدخل بعد وقفة قصيرة عند عتبة الباب الخارجية، لمح في الداخل على حين فجأة، رجلاً واقفاً في الظلام على أول السلم. كان يبدو على هذا الرجل أنه ينتظر شيئاً، لكنه سرعان ما غاب في مثل لمح البصر سرعة. وإذا لم يميّز الأمير قسماً وجهه، فإنه لا يستطيع أن يقول جازماً من هو على وجه الدقة لا سيما أن بشراً كثيرين يمرون هناك، ففي كل فندق حركة لا تنقطع، والناس بين داخل وخارج وسائر في الممرات. غير أن الأمير قد اقتنع على الفور اقتناعاً تاماً لا يتزعزع بأنه قد تعرّف ذلك الرجل وأن ذلك الرجل لا يمكن أن يكون أحداً آخر غير روجويين. وها هو ذا يسرع مقتفياً أثره مطارداً خطاه على السلم. إنه محطم القلب. وقال لنفسه واثقاً: «سيتضح الآن كل شيء!».

إن السلم الذي اندفع فيه الأمير يفضي إلى ممرات الطابق الأول والطابق الثاني. إنه سلم من حجر، كسلا لم جميع المباني القديمة، وهو مظلم ضيق، يصعد ملتفاً حول عمود ضخّم. وقد جعلت في هذا العمود عند الفسحة الأولى فجوة لا يزيد طولها عن قدم ولا يزيد عرضها عن نصف قدم عمقاً، فيستطيع رجل أن يقف فيها. فلما وصل الأمير إلى هذه الفسحة لاحظ على الفور، رغم الظلام، أن أحداً كان مختبئاً في الفجوة، فأراد في أول الأمر أن لا يكثرث بالأمر وأن يتخطى الفسحة دون أن ينظر إلى يمين ولكنه لم يكّد يتقدّم خطوة واحدة حتى أصبح لا يستطيع أن يسيطر على نفسه فالتفت.

عندئذ التقت بعينه العينان اللتان التقتا بهما بعد الظهر، «العينان نفسيهما»، التقتا بعينه فجأة. إن الرجل الذي كان مختبئاً في الفجوة قد تقدّم خطوة ليخرج منها. وبقي الرجلان واقفين وجهاً لوجه، متلامسين تقريباً، خلال ثانية. ثم أمسك الأمير الرجل من كتفيه وجره في السلم نحو الضوء ليتفرّس فيه مزيداً من التفرّس.

سطعت عينا روجويين، وتقلّصت شفتاه بابتسامة حنق. ورفع يده اليمنى التي كانت تشهر أداة من الأدوات. لم يخطر ببال الأمير أن يصدّه. ولكن الأمير تذكر، فيما بعد، أنّه صرخ يقول:

- روجويين! لا أصدق هذا!

لقد بدا للأمير عندئذ أن شيئاً ما يفغر أمامه على حين فجأة. إن ضياء «داخلياً» ذا سطوع خارق قد أثار نفسه. لعل الأمر لم يدم إلّا نصف ثانية. ولكن الأمير احتفظ بذكرى واضحة واعية عن النبذة الأولى للصرخة الفظيعة التي انطلقت من صدره والتي تعجز جميع قواه عن كبحها. ثم انطفأ شعوره في لحظة، وغاب في الظلمات.

لقد اعترته نوبة صرع، وذلك أمر لم يحدث له منذ زمن طويل جداً. تعلمون أن هذه النوبات تباغت المريض مباغتةً، فيتشوّه عندئذ وجهه وتشوّه نظرتّه تشوّهاً سريعاً لا يُصدّق. إن تشنجات وتقبّضات تقلّص جسمه كله وقسمات وجهه جميعها. وإنّ أناتٍ رهيبة لا يتصوّرها الخيال ولا يمكن أن تشبّه بشيء، تخرج عندئذ من صدره. هي أناتٌ ليس فيها ما يذكر بالإنسان؛ ويصعب بل ويستحيل أن يتخيّل المرء حين يسمعها أن هذا المسكين هو الذي يطلقها، وإنما يميل به الظنّ إلى الاعتقاد بأنها صادرة عن كائن آخر مختبئ في داخل المريض. هذا، على الأقل، ما يقوله كثير من الأشخاص حين يريدون أن يصفوا شعورهم إزاء تلك الأنات. إن منظر المريض الذي اعترته نوبة الصرع يحدث في نفوس كثير من الناس رعباً لا سبيل إلى مغالبتة.

لعل روجويين قد شعر بمثل ذلك الرعب المفاجئ. ولعل هذا الرعب المفاجئ حين أضيف إلى انفعالات أخرى هو الذي جمّده في مكانه فأنقذ الأمير من طعنة السكين التي كانت ستقتله لا محالة. لم يتسع وقت روجويين لأن يدرك النوبة التي جندلت خصمه. ولكنه حين رأى خصمه يترنح ويسقط منقلباً على السلم فجأة، مصطدماً برأسه على إحدى الدرجات، أسرع يهبط الدرجات أربعاً أربعاً، متحاشياً الجسم المتمدّد، وولّى هارباً من الفندق كالمجنون.

وكان من شأن التشنجات والتقبّضات أن دحرجت الجسم درجة درجة (وكان عدد الدرجات لا يزيد على خمس عشرة) حتى أسفل السلم، ولم تمض خمس دقائق حتى اكتُشف فاحتشد الناس من حوله. وكانت بركة من الدم تحيط برأسه فأثار ذلك شكوكاً وشبهات: أحادثة طارئة أم جريمة مقترفة؟ غير أن عدداً من الأشخاص لم يلبثوا أن أدركوا أن الأمر أمر نوبة صرع. وتعرّف خادم الفندق الأمير، فقال إنه نزيل من نزلاء الفندق قدم في هذا الصباح. ثم تبدّدت الشكوك والشبهات تبدّداً تاماً بفضل مصادفة

سعيدة جاءت في أوانها.

إن كوليا إيفولجين الذي كان قد وعد بأن يأتي إلى فندق «الميزان» قبل الساعة الرابعة ثم عدل عن رأيه فسافر إلى بافلوفسك، قد رفض، لسبب لم يكن في الحسبان، أن يتغدى عند الجنرال إيبانتشين؛ وعاد إلى بطرسبرج، وأسرع إلى «فندق الميزان» فوصله في الساعة السابعة من المساء. فلماً وجد الرسالة التي تبلغه أن الأمير بالمدينة، هرع إلى العنوان المشار إليه في الرسالة. فقليل له في الفندق أن الأمير قد خرج. فنزل إلى قاعة الطعام ينتظره وهو يحتسي الشاي ويصغي إلى أنغام الأرغن الآلي. وشاءت المصادفة أن يسمع النبوءة أن الرجل قد يكون هو الأمير، فأسرع إلى مكان الحادث فتعرّف الأمير فعلاً. وسرعان ما اتُخذت الإجراءات اللازمة فأصعد الأمير إلى غرفته. وقد ثاب إلى الأمير بعض شعوره، لكنه لم يستردّ وعيه كاملاً إل بعد مدة طويلة. وقال الطبيب الذي استُدعي لفحص جروح الرأس إن الإصابات بسيطة ليس فيها خطر، ونصح للرضوض بكمادات. وبعد ساعة من الزمن كان الأمير قد عاد يعي كل ما يحيط به وعياً كاملاً. وعندئذ نقله كوليا بالعربة من الفندق إلى دار ليبيديف. فاستقبله استقبالاً فيه كثير من الاهتمام والرعاية والاحترام. حتى لقد قدّم ليبيديف في سبيله موعد السفر إلى الريف، فبعد ثلاثة أيام كان الجميع في بافلوفسك.

الفصل السادس

إن منزل ليبيديف في الريف فيلا صغيرة لكنها مريحة بل وجميلة. والجزء المُعدّ للتأجير منها قد أُولى عناية خاصة. ففي الشرفة الواسعة المُطلّة على الشارع عند مدخل الدار وضعت أحواض كبيرة من خشب مدهون باللون الأخضر، فيها شجيرات برتقال وليمون وياسمين صُفّت صفاً لا بدّ أن يكون له أجمل الأثر، في تقدير ليبيديف وفي حسابه. إن عدداً من هذه الشجيرات قد اشترى مع العقار نفسه؛ وبلغ ليبيديف من إعجابه وافتنانه باصطفافها على الشرفة أنه انتهز فرصة بيع بالمزاد فاشترى عدداً آخر من نوعها؛ فلما نقلت الشجيرات كلها إلى الفيلا ووضعت في مكانها، أصبح ليبيديف يهبط درجات الشرفة عدة مرات كل يوم ليتأمل منظرها من الشارع، حاسباً في كل مرة الزيادة التي سيطلبها من المستأجر.

أعجب الأمير بالفيلا كثيراً، وكان ما يزال واهن الجسم، خائر القوة، محطّم البدن. الواقع أنه منذ وصوله إلى بافلوفسك، أي في اليوم الثالث الذي انقضى على نوبة الصرع، كان قد استردّ مظهر الصحة والعافية، ولكنه لمّا يشعر بأنه أبلّ إبلاً تاماً. وقد أسعده أن يرى من حوله ناساً خلال تلك الأيام الثلاثة: كوليا الذي لا يكاد يتركه، وأسرة ليبيديف (باستثناء ابن الأخت الذي رحل لا يُعرف إلى أين)، وليبيديف نفسه. حتى لقد سرّه أن زاره الجنرال إي فولجين ببطرسبرج قبل سفره.

وفي ذلك المساء الذي وصل فيه إلى بافلوفسك، اجتمع حوله على الشرفة عدد من معارفه، رغم أن الوقت متأخر: جاء جانبا أول من جاءوا، فلم يكد يتعرّفه الأمير من شدة تغييره وفرط نحوله وهزاله؛ ثم جاءت فاريا ومعها بتتسين، وكانا يصطافان في بافلوفسك أيضاً. وكان الجنرال إي فولجين يلبث عند ليبيديف طوال الوقت تقريباً، وكأنه انتقل معه، وكان ليبيديف يبذل قصاراه ليقبّيه بقربه وليمنعه من مقاربة الأمير. وكان يعامله معاملة الصديق للصديق، ويبدو على الرجلين كليهما أنهما صديقان منذ عهد بعيد. وقد رآهما الأمير عدة مرات في أثناء تلك الأيام الثلاثة يندفعان في محادثات طويلة، فكانا يصيحان حتى ليبدو عليهما أنهما يتناقشان في مسائل علمية، وذلك أمر كان واضحاً أنه يلقي هوّ في نفس ليبيديف. فمن رآهما قال إن ليبيديف

أصبح لا يستطيع الاستغناء عن الجنرال.

وكان ليبيديف يتخذ هذه الاحتياطات إزاء أسرته أيضاً، مداراة للأمير ومراعاةً له، منذ إقامتهم في الفيلا. فكان بحجة عدم إزعاج الأمير لا يدع لأحد أن يدنو منه، فمتى أظهر أولاده أنهم ماضون إلى الشُرْفة التي يجلس فيها الأمير، قرع الأرض بقدمه وركض وراءهم، رغم أن الأمير قد رجا أن لا يُبعدوا عنه. وكانت فيرا نفسها، التي تحمل الطفل بذراعيها، لا تنجو من حركاته هذه، وكان يردّ على اعتراضات الأمير قائلاً:

- إن رفع التكليف هذا لا بدّ أن يؤدّي إلى قلة الاحترام، إذا نحن أجزناه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ ذلك يكون من جانبهم مجافاةً للياقة والكياسة...

فكان الأمير يعترض قائلاً:

- لماذا؟ أؤكد لك أن رقابتك وقسوتك لا تزيدان على أن تحزناني. قلت لك مراراً إنني أشعر بسأم وضجر من الوحدة، وإنك تضاعف هواجسي ومخاوفي حين أراك ما تنفك تحرك يديك بإشارات وإيماءات، وتسير على رؤوس الأصابع.

كان الأمير يلمح بذلك إلى العادة التي ألفها ليبيديف خلال هذه الأيام الثلاثة وهي أن يدخل عليه في كل لحظة، فيطرد جلساءه بحجة توفير الهدوء والسكينة للمريض. كان ليبيديف يبدأ بأن يشق الباب، فيدخل منه رأسه، ويتفحص الغرفة كأنما ليتحقق من وجود الأمير فيها، ومن أنه لم يهرب؛ ثم يدنو من المقعد خلسة على رؤوس الأصابع، فيروع الأمير أحياناً بظهوره المفاجئ غير المتوقع، ويسأله بغتة أهو في حاجة إلى شيء؟ فإذا رجاه الأمير أخيراً أن يدعه وشأنه خرج طائعا دون أن يقول كلمة واحدة، سائراً على رؤوس الأصابع أيضاً، محرّكاً بيديه بإشارات وإيماءات كذلك، كأنما ليوهم بأنه لم يدخل إلا عابراً، وأنه لم يبق ثمة ما يضيفه، وأنه خارج ولن يعود. ولكن ذلك لا يمنعه من أن يظهر مرّة أخرى بعد ربع ساعة، إن لم يكن بعد عشر دقائق.

وكان كوتليا الذي يُسمح له أن يلقي الأمير في كل لحظة بغير حظر وأن يبقى معه ما شاء أن يبقى، يثير غيرة ليبيديف الذي كان يقف وراء الباب في بعض الأحيان نصف ساعة يتجسس على حديثه مع الأمير، ولم يغب عن بال كوتليا طبعاً أن ينبه الأمير إلى ذلك. قال الأمير يحتج على ليبيديف:

- إنك تحجر عليّ كأنك وليّ أمري. وأنا أفهم أن يكون الأمر على غير هذه الحال، على الأقل هنا في الريف. فاعلم أنني سأستقبل من أريد استقباله، وأنني سأذهب

إلى حيث يحلو لي أن أذهب.

فأجابه ليبيديف محرّكاً ذراعيه:

– طبعاً، بدون أدنى شك!

فنظر إليه الأمير من الرأس إلى القدمين:

– قل لي يا كوليان تيموفتفتش: هل نقلت إليّ هنا الخزانة الصغيرة التي كانت

عندك في بطرسبرج، فوق سريرك؟

– لا، لم أنقلها!

– كيف؟ أتركها هناك؟

– لا سبيل إلى نقلها. فلو أردت نقلها لوجب انتزاعها من الجدار. إنها مثبتة في

الجدار تثبيتاً قوياً متيناً.

– قد يكون ثقة خزانة مثلها هنا؟

– نعم، بل ثمة خزانة أفضل منها. وهذا أحد الأسباب التي دفعتني إلى شراء هذه

الفيلا.

– آ... ومن هو ذلك الشخص الذي حجبت عنه الوصول إلى غرفتي منذ ساعة؟

– هو... هو الجنرال. نعم، صحيح، لم أسمح له أن يدخل. ليس هذا المكان مكانه. يا

أمير، إنني أحترم هذا الرجل احتراماً عميقاً. إنه... إنه رجل عظيم، ألا تصدّقني؟ طيب...
السوف ترى!... ومع ذلك فإنّ الأفضل يا سموّ الأمير أن لا تستقبله في بيتك.

– هلاًّ سمحت لي أن أسألك لماذا يجب أن لا أستقبله في بيتي؟ ولماذا أراك الآن، يا

ليبيديف، تقف على رؤوس الأصابع وتظل تدنو مني دنوّ من يريد أن يفضي إليّ بسرّ
همساً في الأذن؟

أجاب ليبيديف فجأة، وهو يلطم صدره بيده، قائلاً بلهجة مؤثرة:

– من حطتي وصغاري! إنني أحسّ ذلك. هذا حطة وصغار! ولكن ألا يمكن أن يكون

الجنرال مضيافاً إلى حدّ الغلوّ، بالنسبة إليك؟

– مضيافاً إلى حدّ الغلوّ؟ ماذا تريد أن تقول بهذا الكلام؟

– نعم، مضيافاً إلى حدّ الغلوّ! هو أولاً يهيئ نفسه لأن يستقرّ في منزلي ساكناً

مقيماً. هبنا قبلنا هذا على كل حال. ولكن المهم أنه لا يشعر بحرج، فسرعان ما يحشر نفسه في الأسرة. لقد سبق أن درسنا معاً روابط القرابة التي تجمعنا، فلاحظنا أننا أقرباء بالمصاهرة. وأنت أيضاً تمتُ إليه بقربى من جهة أمك. شرح لي ذلك أمس. فإذا كنت أنت قريبه، فنحن إذن قريبان يا سمو الأمير. على كل حال، هذه مسألة بسيطة... لا تعدو أن تكون نقطة ضعف يسيرة في الجنرال وليس لها نتائج ذات بال. لكنه قد أكد لي قبل لحظة أنه طوال حياته، منذ حصل على رتبة مرشح إلى اليوم الحادي عشر من شهر حزيران (يونيه) من العام الماضي، لم يقل عدد الضيوف في بيته كل يوم عن مائتي شخص، فالمائدة لا تخلو في لحظة من اللحظات: فمن إفطار إلى غداء إلى شاي إلى عشاء خلال خمس عشرة ساعة متصلة غير منقطعة. وقد قال إن هذه الحال دامت ثلاثين عاماً بلا انقطاع، فلا يكاد يتسع الوقت أثناء ذلك لتجديد غطاء المائدة؛ وما أن ينهض ضيف لينصرف حتى يجيء ضيف آخر فيحل محله. وفي أيام الأعياد، ولا سيما أعياد الأسرة الإمبراطورية، كان عدد ضيوف الجنرال يبلغ ثلاثمائة. وقد بلغ عددهم سبعمائة عند الاحتفال بالذكرى الألفية لروسيا^[87]. شيء رهيب. إن قصة كهذه القصة لا تبشر بخير، وإنه لمن الخطر أن يستقبل المرء في بيته أناساً يبلغون هذا المبلغ من كرم الضيافة. لذلك تساءلت ألا يمكن أن يكون الجنرال مضيافاً إلى حد الغلو، بالنسبة إليك، وبالنسبة إليّ أيضاً.

– ولكنني لاحظت أنكما كنتما على أتم وفاق، فهل كان ظني خطأ؟

– إنني أحمل هذره على محمل المزاح، بروح الأخوة، فأن نكون قريبين بالمصاهرة فهذا لا يضيرني، بل هو شرف لي. إنني أعد الجنرال شخصاً ممتازاً رغم ضيوفه المائتين ورغم الحفلة الألفية. أعلن هذا صادقاً كل الصدق، مخلصاً كل الإخلاص. لقد قلت لي منذ هنيهة يا أمير أنني أدنو منك دُنُوٍّ مَنْ يريد أن يفضي إليك بسرٍ يملكه. فاعلم أن لديّ سرّاً أريد أن أفضي به إليك: هناك إنسانة أعلمتني منذ برهة أنها تتمنى كثيراً أن تلقاك خفيةً.

– لماذا خفية؟ مستحيل. سأذهب إليها بنفسى، اليوم إذا لزم الأمر.

عاد ليبيد يف قول وهو يجري إشارات كبيرة.

– لا، لا. ليست مخاوفها هي ما تظنّ أنت. بالمناسبة. إن الشيطان يأتي كل يوم سائلاً عن صحتك.

– أنت تصفه دائماً بأنه شيطان. وأرى أن هذا يوجب الشبهة والشك!

أجاب ليبيديف مسرعاً:

- لا مجال لشبهات وشكوك. وإنما أردت أن أقول إنه ليس هو من تخشاه تلك الإنسانية. إن مخاوفها ترجع إلى غير هذا!

سأله الأمير منزعجاً من اصطناعه هيئة السر:

- إلى ماذا ترجع مخاوفها؟ قل بسرعة!

فأجاب ليبيديف ضاحكاً:

- ذلك هو السر!

- سرٌّ من؟

- سرٌّ. لقد منعني أنت نفسك يا سمو الأمير أن أتكلم أمامك..

بهذا تمتم ليبيديف. وإذا لاحظ مغتبطاً مبتهجاً أنه استطاع أن يثير حب الاستطلاع عند محدّثه، أضاف يقول:

- إن تلك الإنسانية خائفة من أجاليا إيفانوفنا.

فقطّب الأمير حاجبيه ثم قال بعد دقيقة صمت

- يميناً لأتركّن منزلك يا ليبيديف! أين جبريل آرداليونتش وأسرة بتتسين؟ عندك؟ هل جئت بهم إلى هنا أيضاً؟

- سيأتون، سيأتون. وسيأتي الجنرال أيضاً بعدهم. سأفتح أبوابي كلها، وسأنادي بناتي جميعهن، جميعهن في هذه اللحظة نفسها.

بهذا همس ليبيديف مدعوراً وهو يحرك يديه ويركض من باب إلى باب.

وفي تلك اللحظة ظهر كوتيا في الشرفة آتياً من الشارع، فأعلن أن زائرات هن اليزابت بروكوفينا وبناتها الثلاث واصلات وراءه.

فقال ليبيديف يسأل مضطرباً لهذا النبأ أشدّ الاضطراب:

- أوجب أن أدخل أسرة بتتسين وجبريل آرداليونتش أم لا؟ أوجب أن أسمح للجنرال بالمجيء؟

قال الأمير ضاحكاً:

– لمَ لا؟ فليدخل مَنْ يشاء أن يدخل. أوكد لك يا ليبيديف أنك فهمت علاقاتي فهماً خطأ منذ أول يوم. أنت في ضلال متصل مستمر. ليس هناك أي سبب يدعوني إلى أن أختبئ عن أحد.

فحين رآه ليبيديف ضاحكاً اعتقد أن من واجبه أن يقلده، فأخذ يضحك هو أيضاً. كان واضحاً أنه مسرور أشد السرور رغم اضطرابه الشديد.

كان النبأ الذي أعلنه كوليا صحيحاً: لم يكن كوليا يتقدم أفراد أسرة إيبانتشين إلا بضع خطوات، ليبلغ عن قدومهن. وهكذا دخل زوار من جهتين في آن واحد: فأفراد أسرة إيبانتشين جئن من جهة الشرفة، بينما جاء بتتسين وجانيا والجنرال إيڤولجين من شقة ليبيديف.

إن كوليا هو الذي أعلم أسرة إيبانتشين بمرض الأمير وبوصوله إلى بافلوفسك. وكانت الجنرالة حتى ذلك الحين في حيرة أليمة. كان زوجها قد نقل إلى الأسرة، أمس الأول، بطاقة الأمير، فاستنتجت إليزابت بروكوفيفنا بدون أي تردد أن الأمير لن يتأخر عن المجيء إلى بافلوفسك لزيارتهم. وعبثاً حاولت الأنسات أن يعترضن على استنتاجها بأن الأمير الذي لبث ستة أشهر لا يكتب إليهن قد لا يستعجل زيارتهن، فربما كانت له ببطرسبرج مشاغل أخرى – من ذا يعرف شؤونهن؟ وقد ضاقت الجنرالة بهذه الاعتراضات وانزعجت منها، وأعلنت أنها مستعدة لأن تراهن على أن الأمير سيجيء في اليوم التالي كأقصى حد. وانتظرته في اليوم التالي طوال الصباح، ثم انتظرته على الغداء، ثم انتظرته أخيراً في السهرة. فلما هبط الليل اعتكر مزاجها واشتدت شرستها، فصارت تشاجر الجميع، ولكن دون أن تقحم اسم الأمير في مشاجراتها طبعاً. ولم تُشر إليه في اليوم التالي كذلك. ولكن أجاليا أفلتت منها هذه الملاحظة أثناء العشاء، قالت: «إن ماما غضبي لأن الأمير لم يجئ إلينا»، فأسرعت الجنرالة تقول: «ليس هذا خطأه»، ونهضت غاضبة وغادرت المائدة!

ووصل كوليا أخيراً في المساء، فأبلغهن أنباء الأمير، وحكى لهن كل ما عرفه عما وقع له. فكان هذا فرحة انتصار لأليزابت بروكوفيفنا؛ ومع ذلك طفقت تؤاخذ كوليا، فقالت معرصة به: «يقضي هنا أياماً بكاملها فلا نعرف كيف نتخلص منه، حتى إذا احتجناً إليه غاب فكأنه مات!». أو شك كوليا أن يغضب حين سمع قولها: «فلا نعرف كيف نتخلص منه»، لكنه كبج شعوره وأرجأ غضبه. ولقد كان يمكنه أن يغفر كل الغفران في الواقع لولا أن التعبير يبلغ هذا المبلغ من جرح الإحساس وإيذاء الكرامة، نعم كان يمكنه أن يغفر كل الغفران، لشدة اغتباطه بما ظهر على إليزابت بروكوفيفنا

من انفعال واضح وقلق بين حين علمت بمرض الأمير. وألحت الجنرالة طويلاً على ضرورة إيفاد رسول إلى بطرسبرج ليجيء بطبيب شهير يعتني بالأمير المريض، فثنتها بناتها عن ذلك، ولكنهن لم يشأن أن يقصرن عن أمهن حين أعلنت فجأة أنها تريد أن تزور المريض.

قالت وهي تتحرك هنا وهناك:

– ما ينبغي أن تشنينا أو تصدنا قواعد البروتوكول إذا كان الفتى على فراش الموت! أهو صديق للأسرة أم لا؟

قالت أجاليا:

– ولكن «لا تنزل الماء ما لم تضمن المخرج!»^[88].

– طيب. لا تذهبي أنت. وذلك أفضل. لأن أوجين بافلوفتش سيحيي، فلا بد أن يكون أحداً في استقباله.

وقد أسرع أجاليا، بعد هذا الحوار، تنضم إلى أمها وأختها طبعاً؛ وكانت تلك نيتها منذ البداية على كل حال. ووافق الأمير «شتش...» الذي كان يصحب أدليايد، على أن يرافق السيدات تلبية لطلب الفتاة. وكان منذ مدة طويلة، منذ أن صارت له علاقات بأسرة إيبانتشين، قد اهتم اهتماماً شديداً بسماع كلامهن عن الأمير. وكان يعرف الأمير، فقد التقى به قبل نحو ثلاثة أشهر في مدينة صغيرة بالريف، وقضى معه خمسة عشر يوماً؛ وقص أموراً عن هذا الشاب الذي كان يحمل له أجمل المحبة وأطيب المودة. لذلك رضي، مبتهجاً ابتهاجاً صادقاً، أن يشارك في زيارة صاحبه القديم. ولم يكن الجنرال إيفان فيدوروفتش بالمنزل ذلك اليوم، ولا كان أوجين بافلوفتش قد وصل.

لا تزيد المسافة بين فيلا أسرة إيبانتشين وفيلا ليبيديف على ثلاثمائة خطوة.

وحين دخلت الجنرالة على الأمير كان أول شعور مزعج أحست به هو أنها وجدت حوله جمهرة كبيرة من الناس، لا سيما وأن شخصين أو ثلاثة أشخاص منهم كانوا ممن تكرههم. يضاف إلى ذلك أنها دهشت كثيراً حين تقدم إليها الأمير فرأت شاباً يدل ظاهره على أن صحته جيدة، ويرتدي ثياباً أنيقة، ويبدو عليه المرح والبشر، بدلاً من أن ترى الفتى العليل الذي كانت تتوقع أن تراه؛ فوقفت لا تصدق عينيها، فما كان أشد فرح كوليا الذي كان في وسعه أن يطلعها على حقيقة الأمر قبل أن تخرج من دارها،

ولكنه حرص على أن لا يفعل، لأنه تنبأ ماکراً بالغضب المضحك الذي لا بدّ أن تُظهره حين ترى صديقها العزيز في صحّة جيدة!

حتى لقد مضى كوليا في الوقاحة إلى أبعد من ذلك، فأعلن انتصاره وتباهى بنجاحه، ليجعل اليزابث بركوفيفنا تبلغ من الغضب اقصى ذروة. لقد كان كوليا يخز الجنرالة دائماً، وكانت وخزاته في بعض الأحيان جارحة جداً، رغم ما بينهما من صداقة.

ردّت عليه الجنرالة قائلة وهي تجلس على المقعد الذي قدّمه لها الأمير:

– صبرك يا عزيزي، لا تتعجلّ هذا التعجّل كله! لا تفسد انتصارك!

وأسرع ليبيدиф وبتتسين والجنرال إيفولجين يقدّمون مقاعد للآنسات. قدّم الجنرال كرسياً لآجلايا. وقرب ليبيديف كرسياً آخر للأمير «شتش...» وهو ينحني أمامه انحناء شديداً باحترام عظيم. وحيّت فاريا الآنسات بكثير من الحرارة والتودّد على عاداتها، وأخذت تتهامس معهنّ.

قالت الجنرالة:

– صحيح يا أمير أنني كنت أقدر أن أجذك في السرير، من فرط ما ضخمت مخاوفي الأمور؛ وإنني لأعترف لك، حتى لا أكذب، بأنني تضايقت كثيراً حين رأيتهك طلق المحيا منذ قليل، ولكنني أحلف لك أن هذا التضايق لم يدم إلاّ دقيقة واحدة هي المدة التي كان لا بد منها للتفكير. إنني حين أفكر يصبح سلوكي أسلم وكلامي أعقل وأرشد. أظنّ أن هذه حالتك أنت أيضاً. يجب أن أقول لك إنني لو كان لي ابن مريض لما سُررت بشفاؤه أكثر من سروري بشفاؤك. فإذا لم تصدّق كلامي كان هذا عاراً عليك لا علي. ولكن هذا الولد الخبيث يسمح لنفسه بأن يدبر لي مكائد أنكى كثيراً من هذه المكيدة. يظهر أنك ترعاه وتحميه. فاعلم إذاً أنني في ذات يوم قريب سأحرّم نفسي من متعة وشرف صحبتته، صدّقني...

صاح كوليا يقول:

– ولكن ما هو الذنب الذي ارتكبته؟ لو قد أكدت لك أن الأمير أبلّ من مرضه تقريباً لما ارتضيت أن تصدّقيني. لقد كنت تريد أن تتصوريه راقداً على فراش الموت. تلك صورة تشوّك أكثر...

قالت إيزابث بروكوفيفنا تسال الأمير:

– أأنت باقٍ هنا مدة طويلة؟

- الصيف كله، وقد أزيد.

- أنت وحيد؟ ألم تتزوج؟

أجاب الأمير مبتسماً من سذاجة الجنرالة في إلقاء هذا السؤال:

- لا، لم أتزوج.

- لا تبتسم! ذلك يمكن أن يحدث. لكنني أفكر في الاصطياف: لماذا لم تنزل عندنا؟

إن في دارنا جناحاً بكامله لا يشغله أحد. على كل حال، هذا شأنك أنت.

ثم أضافت تسأل بصوت خافت وهي تومئ بعينها إلى ليبيديف:

- أأنت مستأجر عند هذا الشخص؟ ما باله يتلوّى طول الوقت؟

وفي تلك اللحظة ظهرت فيرا في الشرفة خارجة من شقة ليبيديف. إنها على عادتها تحمل الطفل في ذراعيها. وكان ليبيديف يدور حول الكراسي لا يعرف ماذا يعمل بنفسه ولكنه لا يعزم أمره على أن ينصرف، وها هو ذا يهجم فجأة على ابنته ويأخذ يحرك يديه بإشارات كثيرة ليبعدها، حتى لقد نسي نفسه ففرع الأرض بقدمه.

أسرعت الجنرالة تسأل:

- أهو مجنون؟

- لا، ولكنه...

- فلعله ذا سكران؟...

ثم أضافت تقول بعد أن ألقت نظرة على سائر الزوار:

- لست تُغبط على هؤلاء الذين يحيطون بك ويصحبونك. على كل حال، هذه فتاة

لطيفة، فمن تكون هذه الفتاة؟

- هي فيرا لوكيانوفنا، ابنة ليبيديف هذا.

- آ... هي لطيفة حلوة حقاً... أريد أن أتعرف إليها.

ولكن ليبيديف الذي سمع أقوال المديح هذه تزجها إليزابيت بروكوفيفنا، كان قد

أخذ يقود ابنته نحوها ليقدمها إليها.

قال في أنين وهو يقترب باحترام وإجلال:

- يتامى! إنهم يتامى. والطفل الذي تحمله بذراعيها يتيم أيضا. هذه أخته ليوبوف، ابنتي التي وُلدت لي من زواجي الشرعي جداً بزواجتي إيلينا التي توفاه الله أثناء الوضع منذ ستة أسابيع... نعم... هي للطفل بمثابة أم، رغم أنها ليست إلا أخته، ليست إلا أخته، ليست إلا أخته فحسب....

- وأنت أيها الرجل لست إلا غيباً فحسب. اغفر لي صراحتي. وكفى الآن هذا!

ثم أضافت تقول وقد اعترتها نوبة استياء مفاجئة:

- أحسب أنك تدرك ذلك بنفسك!

فأجاب ليبيديف وهو ينحني باحترام عميق:

- هذه هي الحقيقة بعينها!

سألته آجلايا:

- قل لي يا سيد ليبيديف: يدّعي بعضهم أنك تفسر رؤيا يوحنا، فهل هذا صحيح؟

- هذه هي الحقيقة بعينها! ما برحت أفسرها منذ خمسة عشر عاماً.

- سمعت عنك، بل أظن أن الجرائد جاءت على ذكرك.

- قال ليبيديف وقد أخذ يشعر بفرح:

- لا. الجرائد تكلمت عن شارح آخر مات فحللت محله.

- هلاً سررتني، ما دمنا جيراناً، فجئت إليّ ذات يوم لتفسّر لي بعض فقرات من رؤيا يوحنا. إنني لا أفهم منها شيئاً.

وكان الجنرال إيڤولجين جالساً إلى جانب آجلايا يحرقه العذاب من أنه لا يستطيع التدخل في الحديث، فإذا هو يقول الآن فجأة:

- لا أستطيع أن أعفي نفسي من واجب تنبيهك يا آجلايا إيفانوفنا إلى أن هذا كله ليس إلا تدجيلاً منه، صدّقيني...

وتابع الجنرال إيڤولجين كلامه يقول:

- صحيح أن للحياة في الريف حقوقها، كما أن لها مسراتها. ولأن يستقبل المرء في بيته رجالاً دخيلاً من أجل أن يشرح له رؤيا يوحنا فهذه نزوةٌ كغيرها من النزوات، ولعلها نزوةٌ بارعة الذكاء، لكنني... مالك تنظرين إليّ مدهوشة؟ اسمحي لي أن أقدم

لك نفسي: أنا الجنرال إيفولجين. لقد حملتك على ذراعي يا آجلايا إيفانوفنا.

دمدمت آجلايا تقول وهي تبذل جهوداً من أجل أن لا تنفجر ضاحكة:

- سعيدة بمعرفتك. أنني أعرف باربارا آرداليونوفنا ونينا ألكسندروفنا.

غضبت اليزابت بروكوفينا حتى احمرت أشد الاحمرار، إن الغضب الذي كظمته في قلبها مدةً طويلة كان في حاجة إلى أن ينطلق. وكانت لا تطيق احتمال الجنرال إيفولجين الذي سبق أن عرفته في الماضي منذ زمن بعيد، فقالت له باندفاع:

- أنت تكذب، يا عزيزي، على عادتك! أنت لم تحمل ابنتي على ذراعيك في يوم من الأيام!

فانبرت آجلايا تؤيد كلام الجنرال فجأة فتقول:

- بلي يا ماما، أنت نسيت. لقد حملني على ذراعيه فعلاً، كان ذلك في مدينة تفير التي كنا نقيم بها أيامئذ. كان عمري ست سنين، ما زلت أتذكر هذا. وقد صنع لي قوساً وسهماً وعلمني الرماية فاصطدت حمامة. ألا تتذكر أننا اصطدنا معاً حمامة؟

وهتفت آديلائيذ تقول:

- وأعطاني خوذة من كرتون وسيفاً من خشب. أنا أيضاً أتذكر.

وزادت ألكسندرا فقالت:

- أنا أيضاً أتذكر. حتى لقد تشاجرتما على الحمامة الجريحة، فوضعت كل واحدة منكما في ركن. واضطرت آديلائيذ أن تتسمر في مكانها مع خودتها وسيفها.

حين ذكر الجنرال آجلايا بأنه حملها على ذراعيه، فإنه لم يكن يبغي إلا أن يقول شيئاً ما ليجري معها حديثاً، كما يفعل كلما أراد أن يتعرف إلى شبان أو شبابات.

ولكن شاءت المصادفة، بما يشبه العمد، أن يكون كلامه في هذه المرة صحيحاً، لأنه ذكر بواقعة صادقة كان قد نسيها هو نفسه، فلما قالت آجلايا على غير توقع أنهما اصطادا حمامة معاً، عادت إليه ذاكرته دفعة واحدة، فتذكر كل شيء بأدق تفاصيله، كما يحدث ذلك في أحيان كثيرة للشيوخ حين يتذكرون ماضياً بعيداً. إنه ليصعب علينا أن نقول ما هو الشيء الذي أثار انفعال الجنرال المسكين من تلك الذكرى (وكان ثملاً على عاداته)، ولكن مما لا شك فيه أنه قد انفعّل انفعلاً قوياً وتأثر تأثراً شديداً. فصاح يقول:

- أتذكر، نعم أتذكر كل شيء! كنت عندئذ كابتن. وكنت أنت صغيرة جداً، لطيفة حلوة!... يا نينا ألكسندروفنا!... يا جانيا!... كان ذلك في الزمن الذي استقبلت فيه عندكم...

قالت الجنرالة:

- فانظر إلى أين صرت الآن! على أن الشراب لم يخلق فيك العواطف النبيلة، ما دمت تتأثر هذا التأثير من تلك الذكرى. ولكنك عذبت امرأتك عذاب الشهداء. وبدلاً من أن تكون قدوة ومثالاً لأولادك أخذت تستدين وتستدين إلى أن وضعت في السجن. اذهب من هنا يا صاحبي! انسحب إلى أي مكان، إلى ما وراء الباب، إلى ركن من الأركان، لتبكي براءتك القديمة الذاهبة، فلعل الله أن يغفر لك ويتوب عليك! هيا، اذهب! إنني أكلّمك جادة لا هازلة. لا شيء ينفع في إصلاح المرء كما تنفعه ذكرى ماضيه نادماً!

لم يكن ثمة داع إلى مزيد من الكلام: لقد كان الجنرال يملك الحساسية المفرطة التي يملكها المدمنون عادةً، وكان يؤلمه كما يؤلم سائر الساقطين أن يتذكر أيامه السعيدة. فها هو ذا ينهض ويتجه نحو الباب طائعاً صاعراً، فسرعان ما أشفقت عليه اليزابت بروكوفيفنا، فصاحت تناديه قائلة:

- آرداليون ألكسندروفتش، صديقي، انتظر دقيقة! نحن جميعاً خطاة آثمون. فمتى شعرت بأن ضميرك قد هدأ بعض الهدوء واسترد شيئاً من السكينة والطمأنينة، فتعال إليّ زائراً لتتحدث لحظة عن الماضي. من ذا الذي يستطيع أن يؤكد أنني لم أرتكب من الذنوب أضعاف ما ارتكبت أنت؟ ولكن أستودعك الله الآن، اذهب، انصرف، فليس لك هنا شأن...

أضافت تقول هذه العبارة الأخيرة فجأةً وقد روعها أن رآته عائداً. همّ كوليّا أن يلحق بأبيه، ولكن الأمير قال له:

- الأفضل أن لا تتبعه الآن. وإلا اعتكر مزاجه وفسد ما ينعم به من صفاء وسعادة!

فقالت اليزابت بروكوفيفنا:

- صحيح! دعه! ستلحق به بعد نصف ساعة.

وجازف ليبيديف فقال:

- هذا تأثير قول الحقيقة للإنسان مرةً في حياته: لقد تأثر حتى الدموع.

فأسرعت أليزابيث بروكوفيفنا ترده إلى مكانه قائلة له:

- وأنت أيضاً يا صاحبي، لا بدّ أنك سيّد مدهش إذا صدق ما سمعته عنك!

أخذ وضع كل واحد من الزوّار المجتمعين على الشرفة يتضح شيئاً بعد شيء. واستطاع الأمير أن يدرك دلائل عاطفة المودّة التي تحملها له الأميرة وبناتها. فقال لهنّ بلهجة صادقة أنه قبل زيارتهنّ كان قد عقد النية على أن يذهب إليهن في ذلك اليوم نفسه رغم سوء حالته الصحية، ورغم أن الوقت متأخر. فأجابته إليزابيث بروكوفيفنا، وهي تلقي على الزوّار نظرة ازدراء، إن إنفاذ تلك النية ما يزال ممكناً. فلم يلبث بتتسين، وهو رجل مهذب مسافر، أن نهض على الفور وانسحب إلى شقة ليبيديف. وقد أراد أن يقتاد ليبيديف، ولكنه لم يحصل منه إلا على وعد بأنه سيدركه في الحال. وكانت فاريا تتحدّث مع الفتيات فلم تتحرّك. وقد سرّت هي وجانيا من انصراف الجنرال. وانصرف جانيا بعد بتتسين بقليل. إنه خلال الدقائق القليلة التي قضاها على الشرفة بحضور أسرة إيبانتشين قد حافظ على موقف متواضع رصين، ولم يضطرب بتأثير نظرة السيطرة التي ألقتها عليه أليزابيث بروكوفيفنا مرتين من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. أن الذين عرفوه من قبل لا بدّ أن يبدو لهم الآن أنه تغيرّ تغيراً كبيراً، وقد أحدث وضعه أثراً حسناً جداً في نفس أجلايا.

- أظن أن جبريل أرداليونوفتش هو الذي خرج الآن، أليس كذلك؟

هكذا سألت أجلايا فجأة، على عاداتها في الميل إلى مقاطعة حديث الآخرين أحياناً على حين بغتة، دون أن توجه الكلام إلى أحد بعينه.

فأجاب الأمير بقوله:

- نعم هو.

قالت أجلايا:

- كدت أنكره فما أعرفه. لقد تغيرّ كثيراً... لقد تحسّن!

قال الأمير:

- سرّني تغييره هذا أعظم السرور.

وأضافت فاريا تقول بلهجة تعبر عن شفقة ويخالطها فرح خفيّ:

- كان مريضاً جداً.

وسألت اليزابت بروكوفينا بنبرة فيها غضب ويكاد يكون فيها ذعر:

- في أي شيء تحسّن؟ من أين جئت بهذا؟ إنني لا أرى فيه شيئاً تحسّن؟ ما الذي تجدينه أنت؟

صاح كوليا يقول فجأة وكان ما يزال واقفاً قرب كرسيّ أليزابت بروكوفينا:

- لا شيء أحسن من «فارس فقير»^[89].

قال الأمير «شتش...» وهو يضحك:

- هذا رأيي أيضاً.

وأعلنت أديلائيد قائلة:

- وهو رأيي كذلك.

فسألت الجنرالة وهي تحدّق إليهما بنظرة فيها حيرة وغضب:

- أي «فارس فقير»؟

ثم أضافت تقول غاضبة حين رأت أن آجلايا احمرّ وجهها:

- لا بدّ أنها سخافة من السخافات إما «الفارس الفقير»^[90] هذا؟

قالت آجلايا بلهجة فيها غطرسة شديدة:

- أهذه أول مرة يشوّه فيها هذا الصبي، الأثير عندك، أقوال الآخرين؟

كانت آجلايا تعترّيها نوبات غضب في كثير من الأحيان، ولكن انقيادها لنوبات الغضب يصحبه دائماً شيء يبلغ من سذاجة الطفولة وخرافة التصرف أن المرء لا يملك أحياناً إلا أن يضحك حين يراها. وكان هذا الضحك يخرجها عن طورها لأنها لا تستطيع أن تجد له تفسيراً، وكانت تتساءل كيف يستطيع هؤلاء الناس وكيف يجسرون على أن يضحكوا من سلوكها.

وحين قالت آجلايا عبارتها الأخيرة في حق كوليا ضحكت أختها وضحك الأمير «شتش...». حتى أن الأمير ليون نيقولايفتش نفسه لم يستطع أن يحبس ابتسامته، وإن يكن وجهه قد احمرّ لا ندري لماذا! أمّا كوليا فقد انتصر وطفق يضحك ملء حلقه. فغضبت آجلايا، فزادها ذلك جمالاً. إن الاضطراب والغضب اللذين شعرت بهما قد ضاعفا فتنتها الأخاذة.

وعادت تكلم فقالت:

- ألم يسبق لهذا الصبي أن شوّه أقوالك نفسها في أحيان كثيرة؟

قال كرثيا:

- أنا لم أزد على أن كررت صيحة من صيحات الإعجاب التي تطلقينها، فمنذ شهر، حينما كنت تقرئين «دون كيشوت»، قلت إنه لا شيء أحسن من «فارس فقير». لم أكن أعرف من ذا الذي كنت تقصدين حينذاك: أهو دون كيشوت، أم أوجين بافلتش، أم شخص آخر؟ وإنما المهم أن أقوالك كانت تعني أحداً ما. وقد جرى حول هذا حديث طويل طويل...

قالت إليزابت بروكوفينا بلهجة حادة:

- أرى يا صديقي أنك تسمح لنفسك بالإسراف قليلاً في ما تمضى إليه من افتراضات...

فتابع كوليا كلامه ممحكاً:

- أنا الوحيد؟ لقد تكلم الجميع في هذا وما زالوا يتكلمون: فمنذ لحظة واحدة قال الأمير «شتش-...». وأديلايد إيفانوفنا والآخرون أنهم من أنصار «الفارس الفقير». فهذا الفارس موجود إذاً بالفعل، وفي رأيي أننا كان في وسعنا جميعاً أن نعرف من هو، لولا أديلايد إيفانوفنا.

سألت أديلايد ضاحكة:

- ما ذنبي أنا؟

- ذنبك أنك لم تقبلي أن ترسمي لنا صورة وجهه! إن أجاليا إيفانوفنا قد رجتك أن تفعلي حتى لقد أمدتكم بجميع تفاصيل اللوحة كما تتصورها هي، ألا تتذكرين؟ ولكنك لم تشائي...

- ولكن كيف كان في وسعي أن أفعل، ومن ذا الذي كان يمكنني أن أصوره؟ إن «الفارس الفقير» هو كما وُصف لي رجل لم يرفع أمام أحد حافة خوذته الفولاذية، فما هو الوجه الذي يجب أن أهبه له؟ ماذا أصور؟ أصور حافة خوذته؟ أصور وجهاً ليس وجه أحد؟

صاحت الجنرالة تقول منزعة:

- لست أفهم شيئاً؟ ما حافة الخوذة هذه التي تتكلمون عنها؟

وكانت الجنرالة في الواقع قد بدأت تحدّد شخصية صاحب هذا اللقب (الذي لعله قد تمّ تخيله منذ مدة طويلة)، أعني لقب «الفارس الفقير».

غير أن الأمر الذي أثار استياءها خاصة، إنما هو ما رآته في هيئة الأمير ليون نيقولايفتش من اضطراب كاضطراب طفل في العاشرة من عمره. فهتفت تقول:

- أما لهذه السخافات من آخر؟ هلاًّ شرحتم لي أخيراً قصة «الفارس الفقير» هذه؟ أهذا سرّ كبير لا يجوز الاقتراب منه؟

ولكن الجميع لم يزدوا على أن استمروا في الضحك.

فتدخل الأمير «شتش-...» أخيراً فقال ليحوّل الحديث عن مجراه:

- الأمر أمر قصيدة روسية غريبة بعض الغرابة، لا أكثر من ذلك. هي أبيات من قصيدة لا ذنب لها ولا رأس، تصوّر فارساً فقيراً. فمنذ نحو شهر، في ذات مساء بعد العشاء، كنا قد ضحكنا كثيراً ونحن نبحث على عادتنا عن موضوع للوحة الجديدة التي سترسمها آديلائيد إيفانوفنا. إنك لا تجهلين أن هذا البحث عن موضوع للوحات آديلائيد إيفانوفنا قد أصبح واجباً من واجبات الأسرة منذ زمن طويل. وفيما نحن نبحث، وقعنا على موضوع «الفارسي الفقير».. ولست أدري من ذا الذي خطرت بباله فكرته قبل الآخرين.

صاح كوتيا يقول:

- هذه فكرة أجاليا إيفانوفنا!

وتابع الأمير «شتش-...» كلامه فقال:

- جائز جداً. ولكنني لا أذكر، فبعضهم ضحك من الموضوع، وبعضهم أكد أنه ليس ثمة موضوع أرفع منه ولا أسمى، ولكن لا بدّ على كل حال من أن نخلع على «الفارس الفقير» وجهاً. فأخذنا نبحت عن وجه بين وجوه جميع الناس الذين نعرفهم، ولكن أحداً منهم لم يقع عليه الاختيار، ووقف الأمر عند ذلك الحدّ. هذا كل شيء، ولا أدري لماذا خطر ببال نيقولا آرداليونوفتش أن يعيد هذا الأمر إلى الأذهان. فإنّ ما كان مسلياً ومناسباً منذ شهر قد أصبح اليوم غير ذي قيمة.

قالت إليزابت بروكوفيونا بلهجة قاطعة:

- لأنّ ثمة غمزاً مضمراً، غمزاً جارحاً مؤذياً.

قالت آجلايا:

- لا شيء من ذلك البتة، وليس ثمة إلا التعبير عن احترام عميق.

نطقت آجلايا تلك الكلمات بلهجة فيها رصانة شديدة غير متوقّعة. فهي لا تسيطر على أعصابها سيطرة تامّة كاملة فحسب، بل يبدو عليها أيضاً من بعض القرائن أنها الآن مسرورة باتساع نطاق المزاح. وقد حدث هذا الانقلاب في نفسها حين لوحظ أن اضطراب الأمير قد أخذ يشتدّ مزيداً من الاشتداد.

- يضحكون كالمجانين، ثم إذا بهم يتحدثون فجأة عن احترامهم العميق! جنون مطبق! لماذا الاحترام؟ أجيبيني فوراً: من أين جاءك هذا الاحترام العميق بغتة بلا سبب ظاهر؟

فقالت آجلايا تجيب عن السؤال الذي ألغته عليها أمّها ثائرة، قالت تجيب بتلك اللهجة الرصينة الوقورة نفسها:

- تكلمت عن احترام عميق، لأن تلك الأشعار في القصيدة تتحدّث عن رجل قادر على أن يكون له مثل أعلى، وقادر متى حدّد لنفسه ذلك المثل الأعلى أن يؤمن به إيماناً أعمى، وعلى أن ينذر له حياته كلها. وهذا أمر ليس شائعاً في زماننا الحاضر. إن القصيدة لا تعيّن لنا المثل الأعلى الذي يؤمن به «الفارس الفقير»، ولكننا نرى بوضوح أن ذلك المثل الأعلى نوع من صورة مضيئة هي «آية الجمال الطاهر النقي»؛ حتى إن الفارس العاشق يلف عنقه بمسبحة بدلاً من أن يلفعه بمنديل. صحيح أن هناك أيضاً شعاراً غامضاً مبهماً ملغزاً تعبّر عنه هذه الأحرف الثلاثة «آ.م.ب» التي رسمها على ترسه.

فانبرى كوليا يصحّ قائلاً:

- هل «آ.م.د».

فردّت آجلايا غاضبة:

- بل «آ.م.ب.»، ولا أتراجع. من الواضح على كل حال أن الفارس الفقير كان لا يقيم أي وزن لما هي عليه سيّدته، ولا لما كانت تفعله. حسبه أنه اختارها وآمن «بجمالها الطاهر النقي» حتى ينحني أمامها إلى الأبد. وميزته أنه، ولو أصبحت بعد ذلك لصة، يظل يؤمن بها ويظل مستعداً لأن يدافع عن جمالها الطاهر النقي. يبدو أن

القصيدية أرادت أن تجسّد في صورة استثنائية فذة قوة فكرة الحب الفروسي طبعاً. ولكنّ هذا المثل الأعلى يصل في «الفارس الفقير» إلى أعلى درجاته، ويبلغ حدّ التقشّف والنسك والزهد. يجب أن نعتزّ بأنّ القدرة على الشعور بمثل هذه العاطفة، التي تقتضي بذاتها شكيمة قوية وطبعاً صلباً وإرادة عنيدة، هي شيء لا يُستهان به، وهي شيء محمود جداً من جهة ما، بصرف النظر عن دون كيشوت هنا. إنّ «الفارس الفقير» هو دون كيشوت، هو دون كيشوت جدّي لا هزلي. إنّني لم أفهمه في البداية، حتى لقد ضحكت منه وتندّرت عليه، أما الآن فإنني أحب «الفارس الفقير»، وأحترم جسارته وإقدامه خاصة.

صمتت أجاليا، إنه ليصعب على المرء حين ينظر إليها أن يعرف أكانت جادة فيما قالته أم كانت هازلة.

- فاعلمي أن هذا «الفارس الفقير» رجل غبي رغم كل ما وصفته به من جسارة وإقدام. وأنت يا صغيرتي قد تدفّقت تلقينينا درساً كاملاً، فصدّقيني إذا قلت لك أن هذا لا يناسبك. وهو على كل حال لا يطاق. ما هي أشعار تلك القصيدة؟ أنشديني أبياتها، لا بدّ أنك تحفظينها. إنني أحرص على سماعها أشدّ الحرص، أنا لم أطق الشعر في حياتي، فلعلّ ذلك كان مني إحساساً أشبه بالنبوءة. تجملّ بالصبر يا أمير، ناشدتك الله، واضح أن الصبر خير ما يمكن أن نتذرّع به أنا وأنت.

أضافت الجنرالة قولها هذا تخاطب الأمير. وكان واضحاً أنها مستاءة أشدّ الاستياء، ممتعة أكبر الامتعاض.

أراد الأمير أن يقول شيئاً، ولكنه كان قد بلغ من الاضطراب أنه لم يستطع أن ينطق بكلمة. أجاليا وحدها التي أجازت لنفسها هذه الجرأة كلها في «تلقين درسها»، كانت لا تُظهر أي اضطراب، بل وكانت تبدو راضية عن نفسها، مغتبطة بما قالته. وها هي ذي تنهض على الفور بمثل ذلك الوقار نفسه وبمثل تلك الأبهة نفسها، كأنها كانت متهيئة لإنشاد تلك الأشعار، فهي لا تنتظر إلا أن يدعوها أحد إلى ذلك. وها هي ذي تتقدم إلى وسط الشرفة، وتقف قبالة الأمير الذي ما يزال جالساً على كرسيه.

نظر الجميع إليها بشيء من الدهشة، كان الأمير «شتش...»، وأختها، وأمها، وجميع الحضور تقريباً، يشعرون بحرج وضيق إزاء هذا الاندفاع الطفولي الذي يقدرّون أنه سيتجاوز حدود القصد والاعتدال. ولكن كان واضحاً أن أجاليا مفتتنة أشدّ الافتتان بهذه الطريقة في التمهيد لإنشاد القصيدة. وهمّت إليزابيت بروكوفينا أن تحملها على العودة إلى الجلوس مكانها؛ ولكن في اللحظة التي أوشكت فيها الفتاة أن تنشد قصيدتها،

صعد من الشارع إلى الشرفة زائران جديان آخذان في الحديث بصوت عالي. أنهما
الجنرال إيفان فيدوروفتش إيبانتشين وفتى يتبعه. فأحدث ظهورهما دهشة.

الفصل السابع

إن الشاب الذي يصحب الجنرال في نحو الثامنة والعشرين من عمره، طويل القامة، حسن التكوين، له وجه وسيم ذكي، وعينان واسعتان تفيضان نشاطاً ومكراً. أبت آجلايا حتى أن تلتفت إليه واستمرت تنشد قصيدتها متظاهراً بأنها لا تنظر إلا إلى الأمير، ولا تتجه إلى أحد غيره. فأدرك الأمير أنها تخفي وراء ذلك نية، غير أن مجيء الزائرين الجديدين خفف ارتبائه قليلاً على كل حال. فما لأن رآهما حتى نهض نصف نهوض، وحرّك رأسه من بعيد يحيي الجنرال تحية فيها مودة، وأوصى بإشارة من يده أن لا يُقطع إنشاد القصيدة. ثم مضى يقف وراء كرسيه، مستنداً بكوعه الأيسر على ظهر المقعد، ليسمع تنمة القصيدة وهو في وضع أكثر طلاقة وأقل إضحاكاً من وضع رجل غاطس في مقعد. وانبرت اليزابت بروكوفينا من جهتها تهيب بالزائرين أن يتوقفوا، وذلك بحركة من يدها قامت بها مرتين.

اهتمّ الأمير اهتماماً شديداً بالشاب الذي يصحب الجنرال. وأحسّ أنه قد يكون أوجين بافلوفتش رادومسكي الذي سمع عنه كثيراً، وفكر فيه غير مرة. غير أن اللباس المدني الذي كان يرتديه هذا الشاب قد حيرَه، ذلك أنه قد سمع أن أوجين بافلوفتش عسكري لا مدني^[91]. وكانت ابتسامة ساخرة تطوف بشفتي الزائر الجديد طوال مدة إنشاد القصيدة. فكأن الشاب كان يعرف، هو أيضاً، قصة «الفارس الفقير».

قال الأمير يخاطب نفسه: «لعله هو الذي اخترع هذا».

أما آجلايا فكانت حالتها النفسية مختلفة كل الاختلاف، إن التصنع والافتعال اللذين بدأت بهما إلقاء القصيدة قد حلت محلّهما عاطفة رزينة ملأى بمعنى الأشعار التي كانت تُلقِيها. وكانت تنطق كل كلمة من الكلمات نطقاً يبلغ من قوّة التعبير وجمال البساطة أنها في آخر إنشادها لم تأسر انتباه السامعين فحسب، بل برّرت كذلك، بإبراز قوّة الوحي وعمق الإلهام في هذه القصيدة، برّرت الأبهة التي اصطنعتها منذ قليل حين نصبت قامتها في وسط الشُرْفَة. إن في وسع المرء أن لا يرى الآن في ذلك التصنع إلا علامة احترام بالغ ذكي غير محدود تحمله الفتاة للقصيدة التي تولت إلقاءها. كانت عيناها تسطعان؛ وسرت في وجهها الجميل، مرتين، رعدة حماسة لا تكاد تدرك.

والىكم ما أنشدته:
فقيراً كان الفارس
وصموتاً وبسيطاً،
ومظلماً كان وجهه وشاحباً،
وكانت نفسه جسورة وصريحة.
لاحت له رؤيا
حضرت في قلبه
أثراً عميقاً
التهبت نفسه منذ ذلك اليوم.
حوّل عينيه عن النساء،
فألى أن ووري التراب،
لم يخاطب امرأة بكلمة.
لا بمنديل لفعها،
ولم يرفع أمام أحد
حافة خوذته الفولاذية.
بحب طاهر امتلأ قلبه
ظل وفيّاً لرؤياه،
وبدمه على ترسه
كتب: نون. فاء. باء.
وفي صحارى فلسطين
بينما الفرسان بين الصخور
يهبّون إلى القتال

ذاكرين أسماء سيداتهم

كان يصيح بحماسة عاتية قائلاً:

يا ضياء السماء، أيتها الوردة المقدسة!

ومنقضاً كالصاعقة،

كان يجندل الأعداء.

وحين عاد إلى قلعته البعيدة

عاش فيها معتزلاً ناسكاً،

وظل صامتاً، وحزيناً،

ومات كمجنون.

حين تذكر الأمير تلك اللحظات فيما بعد، عذبت فكره مسألة لا يجد إلى حلها سبيلاً: كيف أمكنهم أن يجمعوا بين عاطفة صادقة هذا الصدق، جميلة هذا الجمال، وبين سخرية سافرة غير محجبة، سخرية سيئة ذلك السوء كله؟ لم يراوده شك في أن ثمة سخرية. السخرية واضحة لها ما يؤكد لها: أن أجاليا قد سمحت لنفسها أثناء الإلقاء أن تبدل الأحرف «ألف، ميم، باء» بالأحرف: «نون، فاء، باء». هو واثق بأنه لم يخطئ السمع (وذلك ما جاء البرهان عليه فيما بعد). وكيف كان الأمر فإن مزحة أجاليا - ذلك أن المسألة لا تعدو أن تكون مزحة مهما تكن جارحة ومهما تتضمن من خفة وطيش - إنما كانت مبيتة مقصودة. فالجميع ما برحوا منذ شهرين يتكلمون عن «الفارس الفقير» ويضحكون.

على أن الأمير حين رجع إلى هذه الذكريات فيما بعد، اقتنع بأن أجاليا قد نطقت هذه الأحرف «نون، فاء، باء» دون أن تضيف عليها لهجة مزاح أو تهكم، ودون أن تبرزها إبرازاً يظهر معناها الخبيء. بالعكس؛ لقد نطقها برصانة تبلغ من الهدوء، وبساطة تبلغ من البراءة والسذاجة أن المرء يمكن أن يظن أن هذه الحروف موجودة فعلاً في نص القصيدة المطبوع.

ومهما يكن من أمر، فإن الأمير لم يلبث أن شعر بعد سماع القصيدة بضيق شديد وألم قاس. أن إليزابت بروكوفيفنا لم تلاحظ تبديل الأحرف وما يختبئ وراء هذا التبديل من تلميح. وكل ما أدركه الجنرال إيفان فيدوروفتش هو أن هناك أشعاراً

تُنشد. أمّا السامعون الآخرون فقد أدرك كثيرون منهم قصد آجلها فأدهشتهم جسارتها هذه ولكنهم صمتوا فكأن شيئاً لم يكن. وأمّا أوجين بافلوفتش فإنه لم يدرك فحسب (وهذا ما برهن عليه الأمير)، بل حاول أن يفصح أيضاً عن أنه أدرك، فزاد مقدار السخرية في ابتسامته.

هتفت الجنرالة تقول في اندفاعة إعجاب صادق، منذ انتهى إنشاد القصيدة:

– رائع! لمن هذه الأشعار؟

فصاحت آديلايد تقول:

– هي لبوشكين يا ماما... لا تُشعرينا بالخزي والعار! كيف يمكن أن يجهل أحد أنها لبوشكين؟

فقالت إليزابيت بروكوفينا بلهجة مُرّة:

– أن المرء يمكن أن يصبح من معاشرتك أشدّ غباوة وأكثر جهلاً! هذا معيب! عليك أن تأتينني بقصيدة بوشكين هذه متي رجعنا إلى البيت!

– أظن أننا ليس في بيتنا شيء من شعر بوشكين.

قالت ألكسندرا:

– بلى! عندنا مجلدان مهترئان ملقيان في البيت منذ عهد بعيد!

– يجب إرسال أحد إلى المدينة فوراً لشراء كتب بوشكين. فليذهب فيدور أو ألكسي في أول قطار. والأفضل أن يذهب ألكسي. آجلها، تعالي! قبليني! لقد أحسنت إلقاء القصيدة إيماً إحسان!

ثم هتفت تهمس في أذنها قائلة:

– ولكن إذا كانت نبرتك في إلقاء القصيدة صادقة، فإنني أرثي لحالك. وإذا كنت قد أردت أن تسخري منه فإنني لا أؤيد شعورك. وفي الحالين كان الأفضل أن لا تُلقي هذه القصيدة. هل تفهميني؟ اذهبي الآن يا آنسة، سنعاود الكلام فيما بعد، لقد طال مكوثنا هنا.

في أثناء ذلك الكلام كان الأمير قد سلم على الجنرال إيفان فيدوروفتش إيبانتشين الذي قدّم إليه أوجين بافلوفتش رادومسكي.

- لقد أدركته في الطريق. ذهب من القطار إلى البيت رأساً فقيل له إنني جئت إلى هنا ألتحق بسائر الأسرة...

قال أوجين بافلوفتش مقاطعاً:

- وقد علمت أيضاً أنك هنا؛ وإذ كنت أرغب منذ مدة طويلة لا في التعرف إليك فحسب، بل وفي التماس صداقتك أيضاً، فإنني لم أشأ أن أضيع وقتاً... أنت مريض؟ إنني لم أعرف هذا إلا منذ لحظة...

أجاب ليون نيقولايفتش وهو يمدّ إليه يده:

- شُفيت شفاء تاماً، ويسعدني أن أتعرف إليك، لقد سمعت عنك كثيراً، حتى إنني تحدثت في أمرك مع الأمير «شتش-...».

تصافح الرجلان بعد تبادل هذه الأقوال المهدبة، ثم حدّق كل منهما إلى عيني الآخر. وسرعان ما أصبح الحديث عاماً. ولاحظ الأمير، الذي أصبح الآن يلاحظ بسرعة ويقظة، حتى لقد يرى أشياء لا وجود لها، لاحظ أن الجميع قد أدهشهم أن يروا أوجين بافلوفتش مرتدياً ثياباً مدنية لا عسكرية. وقد بلغت دهشتهم من القوة أنها محت سائر ما عداها من مشاعر. لا بدّ أن تغيير الثياب هذا يدل على وقوع حادث هام. وتحيرت آديلايد وألكسندرا فبادرتا إلى سؤال صاحب الشأن عن الأمر. وبدأ على الأمير «شتش-...»، وهو قريب الشاب، قلق شديد. وكان الجنرال منفِعلاً انفعالاً يكاد يخالط صوته. آجاليا وحدها كانت هادئة كل الهدوء، فألقت على أوجين بافلوفتش نظرة فضول وكأنها تتساءل هل تناسبه الثياب المدنية أكثر مما تناسبه البزة العسكرية، وما هي إلا لحظة حتى أشاحت بوجهها عنه ثم لم تهتم به قط. وامتنعت إليزابيت بروكوفينا عن سؤاله كذلك، رغم أنها لعلها شعرت ببعض القلق هي أيضاً. وأحسّ الأمير أن هناك شيئاً من الفتور تشعر به الجنرالة نحو أوجين بافلوفتش.

ردّ إيفان فيدوروفتش يقول مجيباً عن جميع الأسئلة:

- دُهِشت أشدّ الدهشة... لم أصدّق عينيّ حين رأيته بثياب مدنية لا عسكرية ببطرسبرج. ما هذا التغيير المفاجئ؟ ذلك هو اللغز! إنه هو نفسه أول المنادين بأن على المرء أن لا يحطم الكراسي^[92].

وخرج من الحديث الذي دار حول هذا الموضوع أن أوجين بافلوفتش كان منذ زمن طويل قد أفصح عن نيّته في ترك الخدمة العسكرية. ولكنه كان، كلما أثار هذا

الموضوع، يتكلم بلهجة تبلغ من قلة الجد أن أحداً لم يصدّقه. ذلك عدا أنه اعتاد أن يخلع على الأمور الهامة الخطيرة صفة الهزل، فلا يعرف أحد أصدقه أم لا يصدقه، ولا سيما حين يتعمّد هو نفسه أن يحير الناس وأن يضلهم في شعاب الظنون!

قال رادومسكي مرحاً:

- لكنني لا أدع الخدمة العسكرية إلا إلى حين، لا أدعها إلا بضعة أشهر، أو سنة في أكثر تقدير.

فقال الجنرال بحرارة وهمّة:

- لكنني لا أرى ضرورة هذا، في حدود معرفتي بشؤونك وأعمالك على الأقل.

- ألا يجب عليّ أن أزور أطياني؟ ألم تنصحنني أنت نفسك بذلك؟ ثم إنني أودّ أن أقوم برحلة إلى الخارج...

وسرعان ما انحرف الحديث، ولكن القلق ظل ظاهراً، فاعتقد الأمير أن أمراً خطيراً يختبئ تحت هذا التبدّل.

قال أوجين بافلوفتش سائلاً وهو يدنو من آجاليا:

- هل عاد «الفارس الفقير» إذاً إلى بساط البحث؟

فما كان أشدّ دهشة الأمير حين ردّت عليه الفتاة بنظرة مشدوّهة مستفهمة، كأنما لتفهمه بأن «الفارس الفقير» لم يكن موضع بحث بينهما في يوم من الأيام حتى أنها لم تفهم ماذا يريد أن يقول؟

Tuvitter: @ketab_n 457

وكان كوليا ما يزال في جدال مع إليزابت بروكوفيفنا، فهو ما يفتأ يردد قائلاً:

- فات الأوان، فات الأوان، لا يمكن إرسال أحد إلى المدينة في هذه الساعة ليجيء بكتب بوشكين. سأظل أكرّر هذا ثلاثة آلاف مرة إذا لزم الأمر: فات الأوان!

قال أوجين بافلوفتش وهو يبتعد عن آجاليا مسرعاً:

- فعلاً... فات الأوان... الوقت متأخر الآن... أظنّ أن المتاجر ستغلق أبوابها ببطرسبرج بعد قليل، فالساعة قاربت التاسعة.

قال ذلك وهو ينظر في ساعته.

وقالت آديلائيڊ:

- انتظرنا حتى الآن، ففي وسعنا أن ننتظر إلى غد.

وأضاف كوليا:

- لا سيّما وأنه لا يليق بأبناء المجتمع الراقى أن يهتموا بالأدب كثيراً. أسألي أوجين بافلوفتش. لأن يملك المرء عربة ذات مقاعد صفراء وعجلات حمراء، فذلك أرقى وأميز.

قالت آديلائيڊ:

- لقد اقتبست هذا أيضاً من كتاب يا كوليا!

فقال أوجين بافلوفتش معقّباً:

- صحيح أن كل ما يقوله من قراءات، فهو قادر علي أن يتلو عليكم صفحات بكاملها مستمدّة من مجلات نقدية، وقد سعدت بمعرفة حديث نيقولا آرداليونتش منذ زمن طويل؛ ولكنه في هذه المرة لا يردّد جملة قرأها، وإنما هو يلمح إلى عربتي ذات المقاعد الصفراء، التي تجري على عجلات حمراء فعلاً. ولكنني أحب أن أقول لك إنني أبدلت عربتي تلك، فجاء كلامك متأخراً عن الوقت المناسب.

أصغى الأمير إلى كلام رادومسكي... فلاحظ أن الشاب يسلك سلوكاً لا مأخذ عليه، وأنه متواضع مرح. وأعجبه فيه خاصّة أنه يعامل كوليا معاملة فيها مودة النّدّ للنّدّ، حتى حين يناكده كوليا.

- ما هذا الذي تجيئني به؟

كذلك قالت إليزابت بروكوفينا تسال فيرا، بنت ليبيديف، التي وقفت أمامها فجأة، مثقلة الذراعين بعدّة كتب كبيرة الحجم أنيقة التجليد تكاد تكون جديدة.

قالت فيرا:

- هذا بوشكين! هذا شاعرنا بوشكين! أمرني بابا بأن أهدي إليك كتبه.

فقالت إليزابت بروكوفينا مدهوشة:

- كيف؟ أهذا معقول؟

- لا، لا، ما هذا بهديّة! ما هذا بهديّة! ما كان لي أن أجز لنفسي ذلك!

هكذا قال ليبيديف محتجاً وقد ظهر وراء ابنته على حين فجأة. وتابع كلامه يقول:

- وإنما أتنازل لك عن هذه الكتب بيعاً بسعر الشراء. إنها نسخة أسرتنا من مؤلفات بوشكين، طبعة آنكوف^[93]، التي أصبح العثور عليها الآن مستحيلاً. أتنازل عنها بيعاً بسعر الشراء. إنني يا صاحب السعادة أقدمها إليك باحترام، على نيّة أن تبيعها إياها فتشبع بذلك نهمها النبيل إلى المباحج الأدبية.

- إذا كنت تبيعها فأنا أشكر لك ذلك. لا تخف، لن تخسر شيئاً. ولكن كفاك تلويّاً وتعقفاً، أرجوك!.. سمعت عنك أنك غزير الاطلاع جمّ المعرفة، فسنتحدث معاً في يوم من الأيام. هل تتولى حمل الكتب إليّ بنفسك؟

قال ليبيديف وهو يظهر سروره ورضاه بحركات شتى من التلوي والتعقف.

- بكل احترام وإجلال...

وانتزع الكتب من يدي ابنته.

- حسن. ائمني بها. إنني أعفيك من الاحترام والإجلال، ولكن لا تضيع الكتب!

ثم أضافت تقول وهي تحدّق إلى عينيه:

- ولكنني أشرت أن لا تتخطى عتبة باب بيتي، فإنني لا أنوي أن أستقبلك هذا اليوم. غير أن في وسعك أن ترسل إليّ ابنتك فيرا حالا إذا شئت. لقد أعجبتني كثيراً.

قالت فيرا لأبيها بلهجة تدل على نفاذ الصبر:

- لماذا لا تقول شيئاً عن أولئك الذين ينتظرون هناك؟ إذا لم تدخلهم فسوف يقتحمون الباب. لقد بدأوا بإحداث صخب وضجة.

ثم أضافت تخاطب الأمير الذي كان قد تناول قبعته:

- يا ليون نيقولايفتش، إن في بيتك أربعة أفراد ينتظرونك منذ مدة طويلة، ويحدثون جلبة لأن أبي لا يسمح لهم بأن يدخلوا عليك.

سألها الأمير:

- من هم هؤلاء الزوّار؟

- يدعون أنهم يجيئون إليك لعمل من الأعمال، لكنهم أناس لا يتورعون أن يستوقفوك في الشارع إذا لم يُسمح لهم بالدخول. فالأفضل يا ليون نيقولايفتش أن تدخلهم وتخلص منهم. عبثاً حاول جبريل آرداليونوفتش وبتتسين أن يفاوضوهم، أنهم لا يريدون أن يسمعوا شيئاً البته!

قال ليبيديف وهو يحرك يديه بإشارات كثيرة:

- هذا ابن بافلشتشيف! ابن بافلشتشيف. لا داعي إلى استقباله، لا داعي.. أن هؤلاء الناس لا يستحقون أن تصغي إليهم وتسمع كلامهم، بل إنه لا يليق بك يا سمو الأمير أن تزعج نفسك من أجلهم. نعم، لا يستحقون...

هاتف الأمير بانفعال عميق:

- ابن بافلشتشيف؟ أه!... أنا أعلم أن... ولكنني عهدت إلى جبريل آرداليونوفتش أن يهتم بهذه القضية. هو نفسه قال لي منذ لحظة إن...

هنا ظهر جبريل آرداليونوفتش في الشرفة خارجاً من شقة الأمير. وظهر بعده بتتسين. إن ثمة ضجة تُسمع من الغرفة المجاورة. وإن صوت الجنرال إيغولجين المدوّي يحاول أن يطغى على أصوات عدة أشخاص آخرين. هرع كوتيا يستطلع بواعث الجلبة.

قال أوجين بافلوفتش:

- شيء شائق جداً!

فحدث الأمير نفسه بقوله: «هو إذاً على علم بالأمر».

وقال الجنرال إيغان فيدوروفتش متحيراً وهو يسأل بنظره جميع الوجوه، كأنما يدهشه أن يكون الوحيد الذي يجهل هذه الحكاية الجديدة:

- ابن بافلشتشيف؟ هل يمكن أن يكون هناك شخص هو ابن بافلشتشيف؟

أيقظ الأمر اهتمام الجميع، وشحن انتباههم. فما كان أشد دهشة الأمير حين رأى أن قضية شخصية لا تتعلق بأحد غيره قد أثارت هذا الاهتمام كله لدى جميع الحضور.

قالت أجاليا وهي تقترب من الأمير برصانة ووقار:

- الأفضل أن تسوّي هذه القضية فوراً، وأن تسوّيها «بنفسك». اسمح لنا بأن نكون جميعاً شهوداً لك. إنهم يريدون أن يلطخوك يا أمير. فعليك أن تبرئ نفسك تبرئة

ساطعة باهرة. إنني لأبتهج سلفاً حين أتصور أنك فاعل ذلك.

وهتفت الجنرالة تقول:

- أنا أيضاً أتمنى أن يوضع حدّ لهذا الادّعاء الدنيء! لئنهم درساً قاسياً يا أمير، لا ترأف بهم، لقد صدّعوا رأسي بهذه القضية، ما أكثر ما زعلت لأجلك. إنه لمن الشائق أن تراهم. ادعهم إلى المجيء. سنبقى هنا. فكرة آجاليا فكرة حسنة.

ثم قالت الجنرالة تسأل الأمير «شتش...»:

- هل سمعت عن هذه القضية يا أمير؟

- نعم، سمعت عنها، بل سمعت عنها في بيتكم أنتم، إنني أحب كثيراً أن أرى هؤلاء الشبان.

- هم عدميون^[94]، أليس كذلك؟

قال ليبيديف وهو يتقدم خطوة ويكاد يرتجف، من شدة الانفعال:

- لا، ليسوا عدميين بمعنى الكلمة، هم فئة أخرى، من نوع على حدة! ابن أختي يزعم أنهم أكثر غلواً من عدميين. تخطئ يا صاحب السعادة إذا ظننت أنك بحضورك ستربكهم وتخيفهم. هؤلاء فتية لا يهابون أحداً. إن بين عدميين أناساً مثقفين على الأقل، حتى لقد تجد بينهم علماء. أما هؤلاء فهم يفوقون عدميين لأنهم أناس عمليون. صحيح أنهم منحدرون من عدميين، ولكنهم منحدرون منهم على نحو غير مباشر، بطريقة مواربة. أنهم لا يعبرون عن أنفسهم بمقالات في الجرائد، بل يمشون إلى الوقائع رأساً. لا يعنيه مثلاً أن يبرهنوا على أن بوشكين لا نفع فيه ولا جدوى منه^[95]، ولا يعنيه أن يبرهنوا على أن الواجب تقسيم روسيا وتجزئتها. لا، هذه أمور لا تهمهم. وإنما يرون أن من حقهم، متى رغبوا في شيء من الأشياء، أن لا يصدّهم عنه أي عائق وأن لا تعترضهم أية عقبة، فإذا اقتضى الأمر أن يقتلوا ثمانية أشخاص فعلوا دون تردد. إنني أنصحك يا أمير بأن لا...

لكن الأمير كان قد مضى يفتح الباب للزوّار. وقال وهو يبتسم:

- إنك تتجنى عليهم يا ليبيديف. صحيح أن ابن أختك قد سبب لك متاعب كثيرة.

لا تصدّقيه يا إليزابت بروكوفيفنا. أوكد لك أن أمثال جورسكي وأمثال دانييلوف^[96] ليسوا إلا حالات فردية استثنائية. أما هؤلاء الشبان... فأنهم مخطئون لا أكثر!... على

أنني أؤثر أن لا أتحدث معهم هنا أمام الجميع. معذرة يا إليزابيث بروكوفيفنا: سوف يدخلون، فأقدمهم إليكم وأعرفكم بهم، ثم أخرج معهم. ادخلوا أيها السادة، تفضلوا...

والحق أن الأمير كانت تشغل باله وتعذبه فكرة أخرى. كان يتساءل أليست هذه مكيدة مدبرة لهذه الساعة بعينها ولهذا الاجتماع نفسه، لا من أجل أن تتاح له فرصة الانتصار، بل من أجل أن تهيأ له أسباب التلطيخ بالخزي والعار؟ ومع ذلك كان يأخذ على نفسه انقياده لمثل هذا «الشك الشاذ الخبيث!»، ويشعر من ذلك بحزن شديد، حتى لكانه يمكن أن يموت من الشعور بالخزي والعار على الفور لو استطاع أحد أن يكتشف أن فكرة كهذه الفكرة قد خطرت بباله أو دارت في خلدته!

وحين ظهر الزوار كان مستعداً أصدق الاستعداد لأن يعدّ نفسه أحط الناس قاطبة من الناحية الأخلاقية بين هؤلاء الذين يحيطون به.

دخل خمسة أشخاص: أربعة قادمين جدد، ووراءهم الجنرال إي فولجين الذي كان يبدو منفعلاً أشدّ الانفعال، وكان يبدو أن نوبة فصاحة وبلاغة قد استولت عليه واستبدت به. قال الأمير يحدث نفسه مبتسماً: «لا شك في أن هذا معي!». وكان كوتيا قد تسلسل إلى الجماعة، فهو يتحدث بحرارة إلى هيبوليت، أحد أفراد العصابة، وكان هيبوليت يصغي إلى كلامه مبتسماً ابتسامة عدم التصديق.

أجلس الأمير القادمين. أنهم شبّان في غضارة العمر، يكادون أن يكونوا مراهقين، حتى ليستغرب المرء أن يُستقبلوا بهذا الاحتفال كله وهم في هذه السن. وحين رأى إيفان فيدوروفتش هؤلاء الصبيان الأغرار - وكان يجهل كل شيء عن هذه «القضية الجديدة» ولا يفهم منها شيئاً البتة - استاء استياء شديداً، حتى لقد كان يمكن أن يعترض ويحتج لولا أن صده عن ذلك ما لاحظته لدى امرأته من اهتمام عنيف بشؤون الأمير الشخصية، وهو اهتمام كان يبدو له في الوقت نفسه غريباً عجيباً. على أنه بقي ولم ينسحب، مدفوعاً إلى ذلك بحب الاطلاع من جهة، وبحب فعل الخير من جهة أخرى، فلعله يمكن أن يكون نافعاً، ولعله يستطيع أن يفرض مهابته بما له من سلطة. ولكن التحية التي حيّاه بها الجنرال إي فولجين من بعيد حين دخل، قد أضرمت استيائه من جديد، فاكفهر وجهه وقرر أن يلوذ بالصمت فما ينطق بحرف.

بين الزوار الشبان الأربعة كان واحد منهم على الأقل في نحو الثلاثين من عمره. إنه ذلك الملاك الليوتنان المتقاعد الذي كان أحد أفراد عصابة روجويين، والذي كان يتباهى بأنه أعطى في الماضي صدقة قدرها خمسة عشر روبلاً. في وسع المرء أن يقدر أنه قد انضم إلى الآخرين رقيقاً يشد أزهرهم ويثبت عزيمتهم ويهب على مساعدتهم إذا

اقتضى الأمر. وبين صحبه الثلاثة، كانت المنزلة الأولى وكان الدور الأكبر لذلك الذي يسمّى «ابن بافلشتشيف»، رغم أنه كان هو نفسه يعرف نفسه للناس باسم أنتيب بوردوفسكي. إنه فتى أشقر؛ في وجهه بثور؛ ثيابه فقيرة قذرة؛ يبلغ رदनجوته من الاتساح أن كُمّيه يلمعان؛ تدل صدرته الوسخة المعقودة أضرارها حتى النحر أنه لا يلبس تحتها قميصاً؛ يلفع عنقه منديل من حرير أسود ملطخ متلفف كحبل؛ يده غير مغسولتين؛ نظرتة تعبر عن مزيج من سذاجة ووقار؛ نحيل الجسم أميل إلى الطول؛ يبدو في نحو الثانية والعشرين من العمر، لا يكشف وجهه لا عن أي سخرية ولا عن أي تفكير، لا يقرأ المرء في هذا الوجه إلا امتلاء غيباً بليداً بما يظن أنه حقه، وألا حاجة غريبة مستمرة في الوقت نفسه إلى الشعور بأنه مساء إليه مهان؛ يتكلم بلهجة فيها انفعال؛ وفي كلامه المتدفق السريع المتردد الذي يضيع جزءاً من الألفاظ ما قد يوهم بأنه ثأثاء أو بأنه أجنبيّ مع أنه روسي صرف.

وكان يصحبه ابن أخت ليبيديف الذي سبق أن عرفه القارئ، وكان يصحبه كذلك هيبوليت. إن هيبوليت فتى في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر. ينم حيّاه عن ذكاء، لكن وجهه دائم التقلص، يحمل طابع المرض الرهيب الذي يأكله أكلاً. إنه نحيل أشدّ النحول، حتى وكأنه هيكل من عظم؛ وهو شاحب اللون، كالشمع اصفراراً؛ له عينان ساطعتان متقدتان، وعلى خديه بقعتان حمراوان؛ وهو لا ينفك يسعل بغير انقطاع؛ وكل كلمة من كلماته، وكل زفرة من زفراته تصحبها حشجة تقريباً. واضح أنه بلغ المرحلة الأخيرة من مرض السل، فإذا رآه المرء قدر أنه لن يعيش أكثر من أسبوعين أو ثلاثة. كان يبدو مرهقاً، فما كاد يدخل حتى تهالك على كرسيّ قبل أن يجلس الآخرون.

وقد دخل رفاقه وهم يفتعلون شيئاً من الأبهة والاحتفال. كان يبدو عليهم أنهم مرتبكون بعض الارتباك، لكنهم يصطنعون خطورة الشأن كأنهم يخشون أن يعرضوا مهابتهم للضياع. وذلك وضع يتعارض تعارضاً غريباً مع ما اشتهروا به من أنهم أناس يستخفون بالسفاسف الاجتماعية ولا يعبأون بالآداب السخيفة التافهة، وأنهم لا يعرفون إلا قانوناً واحداً هو مصلحتهم.

دمدم «ابن بافلشتشيف» يقول معرفاً بنفسه:

— أنتيب بوردوفسكي.

وقال ابن أخت ليبيديف معرفاً بنفسه، ناطقاً اسمه بوضوح وتمييز كأنما هو يعتز

به:

- فلاديمير دوكتورنكو.

وتمتم الليوتنان القديم قائلاً في التعريف بنفسه:

- كيللر.

وصاح الزائر الأخير يقول بنبرة غير متوقعة:

- هيبوليت تيرنتيف.

جلس هؤلاء كلهم صفّاً واحداً أمام الأمير. حتى إذا فرغوا من تقديم أنفسهم وذكر أسمائهم عبسوا وقطبوا، وأخذوا ينقلون طاقياتهم من يدٍ إلى يدٍ، زيادة في إظهار قوة البأس. كان كلٌّ منهم متأهباً لأن يتكلم، لكنه يلتزم الصمت، ويتخذ وضع الانتظار والاستفزاز ولسان حاله يقول: «لا يا صاحبي، لن نخدعنا وتغرر بنا!». أن المرء ليحسّ أنهم متى قيلت الكلمة الأولى التي تحطّم الجليد فسوف يندفعون في الكلام جميعاً في آن واحد ويقاطع كل منهم الآخر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

الفصل الثامن

بدأ الأمير الكلام فقال:

- لم أكن أتوقع أن أرى أحداً منكم يا سادة. ولقد كنت أنا نفسي مريضاً حتى هذا اليوم. أما قضيتك (قال الأمير ذلك متجهاً بالكلام إلى أنتيب بوردوفسكي)، فإنني قد عهدت بها منذ شهر إلى جبريل آرداليونوفتش، كما أنبأتك بذلك في حينه. ثم إنني لا أرفض أن أبحث معكم الأمر بنفسي. ولكن لا بدّ أنكم توافقونني على بحث هذا الأمر الآن... فإذا كنتم تقدرون أن البحث لن يطول فإنني أقترح عليكم أن تنتقلوا معي إلى غرفة أخرى... إن عندي في هذه اللحظة أصدقاء، وأرجوكم أن تصدقوا أن...

فقاطعه ابن أخت ليبيديف قائلاً بلهجة فيها شدة وتسلط، دون أن يرفع صوته مع ذلك:

- أصدقاء... ليكن عندك ما شئت من أصدقاء... ولكن اسمح لنا أن نعلن أنك كان في وسعك أن تسلك معنا سلوكاً أقرب إلى الأدب والتهذيب، وأن لا تجعلنا ننتظر في حجرة المدخل ساعتين.

فما أن قال ابن أخت ليبيديف هذا الكلام حتى اندفع أنتيب بوردوفسكي يقول فجأةً وقد بلغ ذروة الانفعال:

- طبعاً... طبعاً... وأنا أيضاً... انظروا كيف يتصرف الأمراء!.. أنا لست خادمك! ولكنني... ولكنني...

كانت شفاته تختلجان وكان صوته يرتجف من فرط الغيظ، وكان الزبد يخرج من فمه فقاعات تتفجر، وكان تدفقه في الكلام يبلغ من السرعة أنه أصبح بعد عشر كلمات لا يفهم البتة.

وقال هيبوليت بصوت صارخ:

- نعم هذه أساليب الأمراء!

ودمدم الملاك قائلاً:

- لو كان هذا السلوك موجّهاً إليّ، أعني لو أن هذا الأسلوب استعمل معي لا مع بوردوفسكي، لكنت...

قال الأمير:

- صدّقوا يا سادة أنني لم أعلم بوجودكم هنا إلا منذ دقيقة واحدة.

وعاد ابن أخت لبيديف يقول:

- لسنا نخشى أصدقاءك مهما يكن شأنهم يا أمير، لأننا على حق.

واستأنف هيبوليت زعيقه فقال وقد ازدادت حرارته ازدياداً واضحاً:

- من ذا الذي أجاز لك - اسمح لي أن ألقى عليك هذا السؤال - من ذا الذي أجاز لك أن تعرض قضية بوردوفسكي لحكم أصدقاءك؟ قد لا نكون مستعدين لأن نقبل هذا الحكم. إننا نعرف ما عسى أن تكون قيمة هذا الحكم؟

ارتبك الأمير من هذا الاستهلال أشدّ الارتباك، فلم يعرف كيف يدسن في زحمة هذا الكلام جواباً. قال:

- لكنني سبق أن قلت يا سيد بوردوفسكي أن في وسعنا، لذا أنت لم تشأ أن تشرح الأمر هنا، في وسعنا أن ننتقل، إلى غرفة أخرى على الفور. وأعود فأقول لك إنني لم أعلم بحضوركم إلا في هذه البرهة.

وعاد بوردوفسكي يغمغم وهو يلقي حوله نظرة ريب وشك، ويزداد اندفاعاً على قدر شعوره بقلّة الثقة:

- ولكن لا يحق لك، لا يحق لك، لا... لا يحق لك.. أن أصدقاءك... هه! لا يحق لك...

ثم توقف عن الكلام فجأة كأن شيئاً قد تحطم فيه؛ ومال بجسمه إلى أمام، ثم حدّق إلى الأمير، كما لو كان يريد أن يسأله، حدّق إليه بعينيه الحسيرتين اللتين تخدّهما أوردّة صغيرة حمراء.

فبلغ الأمير من الدهشة في هذه المرة أنه لم يجد كلمة يقولها، ونظر هو أيضاً إلى بوردوفسكي محملاً.

وفجأة نادته إليزابيت بروكوفيتسا قائلة له:

- اقرأ هذا في هذه الجلسة نفسها يا ليون نيقولايفتش، فإنّ له علاقة مباشرة بقضيتك.

وأسرعت تمدّ إليه جريدة أسبوعية ساخرة^[97]، ودلته بإصبعها على مقالة في الجريدة. إن ليبيديف الذي كان يريد أن تنظر إليه الجنرالة نظرة حسنة كان قد استل تلك الجريدة من جيبه لحظة دخول الزوّار، فوضعها تحت بصر الجنرالة مشيراً لها إلى عمود مؤشر عليه بالقلم الرصاص. فإذا بالأسطر القليلة التي اتسع وقتها لأن تقرأها تحدث في نفسها أعمق الاضطراب.

تمتم الأمير يقول خجلاً أشدّ الخجل:

- لعل الأفضل أن لا تكون القراءة جهاراً، سأطلع على المقالة وحدي... فيما بعد...

فما كان من إليزابيت بروكوفينا إلا أن انتزعت الجريدة من يدي الأمير بحركة تمللم وتذمّر، قبل أن يستطيع الأمير أن يلقي على المقالة غير نظرة سريعة، ثم مدّت الجريدة إلى كوليا وقالت له:

- طيّب... اقرأ أنت... اقرأ على الفور... واقرأ بصوت عالي... اقرأ جهاراً... هل سمعت؟ جهاراً، جهاراً!...

إن إليزابيت بروكوفينا امرأة شديدة الاندفاع، حتى لقد ترفع في بعض الأحيان جميع المراسي دون تفكير ناضج، وتقلع في عرض البحر رغم العواصف. شعر إيفان فيدوروفتش بقلق. وبينما كان الحضور حائرين مرتبكين منتظرين، فض كوليا الجريدة وأخذ يقرأ، بصوت عال، المقالة التي أسرع ليبيديف يدله عليها:

كادحون وأحفاد أمراء

قصة سرقة وقعت اليوم وتقع كل يوم

تقدّم! إصلاح! عدالة!...

«تحدث أمور غريبة في هذه البلاد التي يسمونها روسيا المقدّسة، في هذا الزمان، زمان الإصلاحات والمشروعات الرأسمالية الكبرى والروح القومية ونزوح الملايين إلى البلاد الأجنبية في كل عام وتشجيع الصناعة واضطهاد العاملين، الخ، الخ، وإذ إنّنا لن نخرج من هذا التعداد أيها السادة فلننتقل إلى الواقع:

«إنّ حدثاً غريباً قد وقع لواحد من أبناء أرستقراطيتنا الإقطاعية المتوفاة رحمها

الله!... أن أسلاف هؤلاء الأبناء قد خسروا كل شيء في القمار بالروليت. ووجد آباؤهم أنفسهم مضطرين أن يخدموا في الجيش مرشحين أو ملازمين، ثم ماتوا على وجه العموم تحت وطأة ملاحقات قضائية لمخالفات «بريئة» ارتكبوها في حق أموال اتتمنوا عليها وعينوا لها محاسبين.

«ويشب أولادهم، كبطل قصتنا، كما يشب أولاد بلهاء، أو يقبض عليهم لجرائم اقترفوها فيبرئهم القضاء لتيح لهم فرصة إصلاح حالهم، أو يسببون فضيحة من تلك الفضائح التي تدهش الرأي العام ويجللون بعار جديد هذا العصر الذي أصبح يجلله العار بما فيه الكفاية منذ الآن.

«لقد عاد صاحبنا ابن سلالة الأمراء، عاد إلى روسيا من سويسرا منذ ستة أشهر، بعد أن اتبع هنالك علاجاً لشفائه من البلاهة (كذا)، وهو يرتجف برداً تحت معطف ليس له حتى بطانة. يجب أن نعترف بأنه كان أمرواً ذا... بصرف النظر هنا عن المرض اللطيف الذي سافر إلى سويسرا لمعالجته (معالجة البلاهة، تصوروا هذا!)، فإن أمره يأتي مصداقاً للمثل الروسي القائل: «لا حظ إلا لفئة من الناس»^[98]. وسنعرض عليكم الوقائع فاقضوا في المسألة بأنفسكم: لقد أصبح هذا الشاب يتيماً في طفولته منذ نعومة أظفاره، لأن أباه مات، فيما يقال، حين كان سيمثل أمام المجلس الحربي لتبديده في القمار أموال ساريته كضابط ملازم، وربما أيضاً لأنه جلد بكثير من السخاء واحداً من مرؤوسيه (تذكروا الزمان القديم أيها السادة!). وحين مات أبوه كفه ورباه ملاك روسي محسن غني جداً. أن ذلك الملاك - ولنطلق عليه اسم «ب...» - كان يملك في ذلك العصر الذهبي أربعة آلاف نفس، أربعة آلاف من الأبقان (الأبقان! هل تفهمون معنى كلمة الأبقان هذه أيها السادة؟ أما أنا فإنني لا أفهمها ولا بد لي من الرجوع إلى معجم لأدرك معنى هذه الكلمة. فالمرء لا يكاد يصدق هذا الأمر رغم أنه قريب العهد^[99]). أغلب الظن أنه كان واحداً من أولئك الروس الكسالى الطفيليين الذين يقضون حياتهم الخالية العاطلة في الخارج، ففي الصيف يذهبون إلى مناطق المياه المعدنية وفي الشتاء ينتقلون إلى قصر الأزهار» بباريس، فينفقون هنالك مبالغ خرافية! نستطيع أن نؤكد أن ثلث الأتاوات التي كان الفلاحون في عهد القنانة يدفعونها لأسيادهم إنما كانت تنتقل إلى يدي مالك القصر الأزهار» (الرجل السعيد!).

«مهما يكن من أمر، فإن ذلك الرجل اللاهي قد نشأ اليتيم كما ينشأ أمير، فعين له مربين ومربيات (جميلات طبعاً!) كان يأتي بهن من باريس. ولكن هذا الابن الأخير من أبناء تلك السلالة الشهيرة كان أبله. فرغم كل الجهود التي بذلتها المربيات اللواتي

تمَّ إغراؤهنَّ في القصر الأزهار»، فإن تلميذنا قد بلغ العشرين من عمره دون أن يستطيع تعلم أية لغة أجنبية، وحتى دون أن يستطيع تعلم اللغة الروسية. على أن جهل اللغة الروسية أمر يفتقر! وأخيراً نبتت فكرة سخيضة في ذهن ذلك السيد «ب...»، الذي كان يؤمن بالعبودية، فاعتقد أن في الإمكان أن يكتسب الأهل ذكاء في سويسرا. على أن هذه الفكرة لا تخلو من منطق: فإن هذا الطفيلي، هذا الملاك، كان لا بدَّ أن يتصور أن أي شيء يمكن أن يُشترى بالمال كسائر الأشياء، ولا سيما في سويسرا. وهكذا وقفت خمس سنين لمعالجة سليل الأمراء في تلك البلاد تحت إشراف أستاذ شهير، وأنفقت في ذلك آلاف الروبلات. ولم يصبح الأبله رجلاً ذكياً بطبيعة الحال، ولكن يزعم بعضهم أنه أخذ يشبه الإنسان بعض الشبه.

«هنا مات «ب...» فجأة. ولم يترك أي وصية طبعاً. وكانت أعماله وشؤونه المالية فوضى، مضطربة أشدَّ الاضطراب. وورثه جمهور من الورثة الطامعين الشرهين الذين لا يكثر أحد منهم بأن يعول أبناء سلالة نبيلة وأن يساعدهم من باب الإحسان على الشفاء في سويسرا من بلاهة وُلدوا بها. ولكنَّ سليل أسرة الأمراء الذي نتحدث عنه حاول أن يخدع البروفسور الذي يعالجه، فأخفى عنه نبأ موت الرجل المحسن إليه، واستطاع بذلك أن يحمله على أن يعالجه بالمجان سنتين أخريين. ولكن البروفسور نفسه كان دجالاً بارعاً: فإنه إذ أقلقه أخيراً أن لا يقبض شيئاً من مريض يلتهم الطعام بشهوة ابن الخامسة والعشرين من العمر، ألبس قدميه لبّادتي حذاءيه، وخلع على كتفيه معطفاً مهترئاً، وركله على نفقته إلى روسيا في الدرجة الثالثة من القطار ليخلص منه سويسرا.

«ويمكن أن يُظنَّ أن الحظ قد أدار ظهره لبطلنا. ولكن الحقيقة ليست هذه: أن الحظ الذي يحلو له أن يبيد بالمجاعة أقاليم بأكملها قد أغدق جميع نعمه على هذا الأرستقراطي الصغير دفعة واحدة، مثله في ذلك كمثل تلك السحابة التي تحدثنا عنها حكاية كريلوف^[100]، تلك السحابة التي مرَّت فوق حقول يابسة من الظمأ، ثم مضت تهطل مطراً غزيراً فوق البحر المحيط. ففي اللحظة التي كان فيها صاحبنا سليل الأمراء عائداً من سويسرا إلى بطرسبرج مات رجل من أقرباء أمه (سليل أسرة من التجار طبعاً)، هو تاجر عجوز ذو لحية لم يخلف أولاداً وكان ينتمي إلى ملة «الراسكولنيك»^[101]. وقد ترك ميراثاً لا يماري فيه أحد، يقدر ببضعة ملايين عدداً ونقداً (شيء يمكن أن يسوي قضيتنا، أليس كذلك أيها القارئ العزيز؟). ترك هذا الميراث لصاحبنا سليل أسرة الأمراء، لصاحبنا البارون الذي كان يعالج في سويسرا من

البلاهة!

«عندئذ تغيرت الموسيقى. إن صاحبنا البارون الواضع على حذاءيه لبأنتين، رأى نفسه بعد أن غازل امرأة مغناًجاً شهيرة، رأى نفسه محاطاً بجمهور من الأصدقاء والأصحاب. لقد اكتشف لنفسه أقرباء. أكثر من ذلك أن آنسات نبيلات كثيرات أصبحن يحترقن رغبة في أن يتزوجنه زواجاً شرعياً، إذ هل يمكنهن أن يجدن عريساً أفضل من شاب أرستقراطي، صاحب ملايين، أبله؟ عريساً اجتمعت فيه كافة المزايا في آن واحد؟ ما كان لهن أن يعثرن على عريس مماثل، ولو بحثن عنه في ضوء قنديل، أو أوصين عليه وفقاً لمقاييس!...

صاح إيفان فيدوروفتش يقول وقد بلغ ذروة الاستياء:

– هذا... أصبحت لا أفهمه!

ودوّت صيحات تعجب في كل جهة من الجهات.

قالت إليزابت بروكوفيفنا امرأة:

– فليقرأ، فليقرأ مهما كلف الأمر. يا أمير، إذا كفت عن القراءة فسوف نزع!

وكان واضحاً أن إليزابت بروكوفيفنا كانت أقلهن سيطرة على نفسها وكبحاً لجماحها!

لم يكن ثمة مفرّ. تابع كوليّا قراءته مختلج الصوت محمراً أشدّ الاحمرار من فرط الانفعال:

«وبينما صاحبنا المليونير الجديد يشعر أنه انتقل إلى السماء السابعة إن صحّ التعبير، حدث ما لم يكن متوقعاً قط. ففي ذات صباح جاء إليه زائر ذو وجه هادئ قاسٍ، يرتدي ثياباً بسيطة لكنها محترمة. وأخذ هذا الرجل الذي تميّز لفته بأنها مهذّبة رضية معقولة في آن واحد، والذي يدل تفكيره، على أنه ليبراليّ الاتجاه، أخذ يشرح له الغرض من زيارته بإيجاز. هو محام مشهور جاء من قبل شاب وكلّه عنه في تولي شؤونه. وليس ذلك الشاب إلا ابن المرحوم «ب...»، رغم أنه يحمل اسماً آخر. إن المرحوم «ب...» الذي كان في شبابه رجلاً داعراً فاسقاً قد أغوى فتاة فقيرة شريفة كانت رغم حالة العبودية التي هي فيها قد تربت تربية أوروبية (واضح أنه استعمل ما كانت تجيزه القنانة للسلادة من حقوق). فلماً لاحظ ما ستنبه هذه العلاقة من ثمرة قريبة لا مفرّ منها أسرع يزوّج الفتاة لرجل نبيل الخلق كان له عمل صغير بل وكانت له

وظيفة رسمية، وكان يحب الفتاة منذ عهد بعيد. وقد ساعد العروسين في أول الأمر، ولكن الزوج لم يلبث أن رفض مساعداته أنفةً وشمماً وكبرياء. فما انقضى بعض الوقت حتى كان «ب...» قد نسي شيئاً فشيئاً صديقته القديمة والطفل الذي وُلد له منها. ثم مات، كما ذكرنا، دون أن يكتب وصية.

«فهذا الابن الذي وُلد لصاحبنا «ب...» بعد زواج أمه، والذي تبناه الرجل الطيب القلب فحمل الولد اسمه، أصبح بغير مورد بعد وفاة الرجل الطيب زوج أمه، وأصبح مسؤولاً عن أمه المريضة الكسيحة. كانت أمه تعيش في إقليم ناء من الأقاليم. وقد استقرّ هو في العاصمة، فكان يجني رزقه شريفاً بإعطاء دروس خاصة في بيوت أسر من التجار، فاستطاع بذلك أن يقيم أودّه وأن يعول نفسه خلال مدة دراسته في المدرسة الثانوية، ثم استطاع بعد ذلك أن يتابع دراسة عليا بغية التهيؤ لمركز في المستقبل. ولكن ما الذي يمكن أن تدرّه لك دروس خاصة تعطيتها في بيوت أسر من التجار الروس الذين يدفعون أجر الساعة عشر كوكبات، ولا سيما حين يكون عليك أن تساعد أمّاً مريضة كسيحة؟ وقد ماتت أمه في الإقليم النائي بعد ذلك، فلم يكد يخرجها هذا مما هو فيه من عسر وضيق.

«والآن يطرح سؤال: ما عسى يكون تفكير صاحبنا سليل الأمراء في هذا الأمر إذا هو أراد العدل والإنصاف؟ أغلب الظن أنك تقدّر أيها القارئ العزيز أنه قال لنفسه: أن «ب...» قد غمرني بفضلته ونعمه طوال حياته. وقد أنفق عشرات الألوف من الروبلات على تعليمي ومربياتي وعلاجي بسويسرا، وأنا اليوم مليونير، بينما أرى ابنه النبيل ذاك، البريء من أخطاء أب طائش نساء، يرهق نفسه في إعطاء دروس خاصة. أن كل ما أنفقه عليّ أبوه إنما كان ينبغي أن يعود إليه شرعاً وإنصافاً! إن جميع تلك المبالغ الضخمة التي ضحّى بها أبوه في سبيلي ليست ملكي في حقيقة الأمر. فلولا خطأ ارتكبه الحظ الأعمى لكان ينبغي أن تؤوّل إلى ابن «ب...»، وأن ينتفع هو بها لا أنا، لأن «ب...» لم يقفها عليّ إلا من باب النزوة أو الخفة أو النسيان. فلذا كنت رجلاً شريفاً كل الشرف، مرهف الشعور تماماً، عادلاً كل العدل، لوجب أن أهب لابن ذلك الرجل الذي أحسن إليّ وأنعم عليّ نصف ميراثي. ولكن لما كنت رجلاً مقتصداً قبل كل شيء، وكنت أعلم حق العلم أن مطالبته لا تستند إلى أي أساس قانوني فسوف أمتنع عن مقاسمته ملايني. على أنني إذا لم أرد إليه الآن، على الأقل، عشرات الألوف من الروبلات التي أنفقها عليّ أبوه لشفاي من بلاهتي، فإنني أرتكب عملاً دنيئاً كل الدناءة، حقيراً كل الحقارة (نسي أن يضيف إلى ذلك أن عمله يكون عندئذ «مفتقراً إلى بُعد النظر وحسن التبصر بالعواقب»). أن المسألة لا تعدو أن تكون مسألة ضمير وعدل وإنصاف. إذ ما الذي كان

يمكن أن يصير إليه لو أن «ب...» لم يكفلني ولم يتولّ تربيتي، وانصرف باهتمامه إلى ابنه لا إليّ؟».

«ولكن لا، أيها السادة! إن أبناء سلاطات الأمراء لا يفكرون في الأمور هذا التفكير! هل تصدّقون أن صاحبنا سليل أسرة الأمراء هذا الذي نشأ في سويسرا لم يستجب أي استجابة للحجج الدامغة والأدلة القوية التي ساقها له المحامي (يجب أن نذكر هنا أن المحامي حين قبل أن يتولّى شؤون مصالح الشاب إنما فعل ذلك من باب الصداقة، ورغم إرادة الشاب تقريباً) مُوضّحاً ما توجبه قواعد الشرف وأخلاق الكرم ومبادئ العدل، بل ويوجبه أبسط إحساس بالمصلحة ذاتها.

«ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان وأمكن احتماله. ولكن إليكم ما حدث مما لا يمكن غفرانه ولا يمكن أن يُلتَمَس له عذر بأي مرض من الأمراض. إن هذا المليونير الذي لم يخلع لبّادتي البروفسور عن حذاءيه إلا منذ برهة قصيرة، لم يستطع حتى أن يفهم أن هذا الشاب النبيل الذي كان يضني جسمه في العمل حتى لكأنه يقتل نفسه به قتلاً لم يتجه إليه طالباً الرأفة به والتصدّق عليه، وإنما هو يطالبه بدين صريح، وهذا الذين إذا كانت تعوزه المؤيّدات القانونية فهو التزام يوجبه الحق. ذلك عدا أن الشاب لم يطلب شيئاً بنفسه، لأن أصدقاء له هم الذين كانوا يتدخلون في الأمر نيابة عنه. وهذا هو صاحبنا سليل أسرة الأمراء يصطنع هيئة التعاضم، ويستل من جيبه ورقة نقدية قدرها خمسون روبلاً، فيقدّمها إلى الشاب النبيل صدقة وقحة، وهو يشعر بكل ما يشعر به من كبر وخيلاء، مليونير يعتقد أن كل شيء مباح. ألا تصدّقون أيها السادة؟ إنكم مستاوون ثائرون! إنكم تطلقون صيحات استنكار! ومع ذلك فإنّ هذا هو ما حدث! طبيعي أن المبلغ قد ردّ إليه فوراً، بل ألقى في وجهه إلقاء إن صحّ التعبير!

«ما عسى تكون نتيجة هذه القضية؟ لمّا كانت هذه القضية تفتقر إلى أساس قانوني، فإنه لم يبق إلا أن تُعرض على الرأي العام. فنحن لذلك ننقل هذه القصة إلى قرائنا مؤكدين لهم صحتها وصدقها. وقد نظم أحد شعرائنا الساخرين المشهورين بهذه المناسبة أبياتاً جميلة تستحق أن يكون لها مكان في وصف أخلاقنا وعاداتنا لا بالأقاليم وحدها بل في العاصمة أيضاً. فإليكم هذه الأبيات:

ظل ليوفا أعواماً خمسة^[102]

يختال بمعطف شنايدر^[103]

يقضي وقته على عادته

في أنواع السفساف والترهات.

حتى إذا عاد وعلى حذاءيه لبادتان ضيقتان.

ورث مليون روبل.

إنه يرتل صلواته بالروسية.

لكنه يسرق الطلاب.

حين انتهى كوليا من القراءة أسرع يناول الأمير الجريدة، ومضى يعتصم بركن من الأركان دون أن يقول كلمة واحدة، دافئاً وجهه في يديه. كان يشعر بخزي لا يطاق، وكانت نفس الطفل التي هي نفسه لما تأنف بعد حقايرات الحياة ودناءتها، فهو مضطرب الآن اضطراباً يفوق كل وصف. كل يخيل إليه أن شيئاً خارقاً للعادة قد حدث، شيئاً سيعقبه انهيار كل شيء من حوله دفعة واحدة، وأنه سبب هذه الكارثة كلها بمعنى من المعاني، لأنه قرأ هذه المقالة بصوتٍ عالي جهاًراً.

واتفق أن جميع الحضور قد راودهم شعور من هذا النوع.

أحست الفتيات بضيق وحياء. وكبحت إليزابت بروكوفيونا غضبها الذي بلغ أقصى حد. ولعلها كانت تشعر بندم مرّ على إقحامها نفسها في الأمر. فهي الآن صامتة لا تتكلم.

أمّا الأمير فكان يعاني المشاعر التي يعانيها الأفراد الخجولون جداً في مثل هذه الحالات: كان يحسّ بعار هذه الأفعال التي يقوم بها هؤلاء الزوّار إحساساً بلغ من القوة أنه لبث لحظة من الوقت لا يجرؤ أن ينظر إلى أحد. وكان بتتسين وفاريا وجانيا وحتى ليبيديف، كانوا جميعاً يشعرون بخجل شديد واضطراب قوي. وأغرب ما في الأمر أن هيبوليت و«ابن بافلشتشيف» كان يبدو عليهما، هما أيضاً، أنهما مدهوشان. وكان ابن أخت ليبيديف يصطنع هيئة عدم الرضى وقلة الارتياح. واحتفظ الملاكم وحده بهدوء كامل، فكان يرفع شاربيه بوقار ويغض عينيه لا حرجاً بل تواضعاً كريماً، وشعوراً بانتصار صريح، كان واضحاً أنه معجب بالمقالة إعجاباً شديداً.

دمدم إيفان فيدوروفتش يقول:

– الشيطان وحده يعلم مصدر هذه الدناءة! لكأنّ خمسين حقيراً اشتركوا في تلفيق

حكاية تبلغ هذا المبلغ من الخسة!

قال هيبوليت وهو يرتجف أشد الارتجاف من فرط الغضب:

- اسمح لي أن أسألك، يا سيدي العزيز: بأي حق تفترض هذه الافتراضات الجارحة؟

وجمجم الملاكم يقول وقد ارتعش فجأة وأخذ يعقف شاربيه بينما أخذت كتفاه وجسمه تهتز بارتعادات:

- هذه، هذه، هذه إهانة، يا جنرال، بالنسبة إلى سيد نبيل، بالنسبة إلى رجل يجب أن تسلم بأنه سيد نبيل.

قال الجنرال بلهجة قاسية وقد أغضبه هذا الكلام أشد الغضب:

- أولاً أنا لست «سيدك العزيز»؛ وثانياً ليس عندي ما أوضحه لك أو أعتذر به إليك.

ثم نهض وتحرك حركة من يريد أن ينزل من الشرفة دون أن يضيف كلمة واحدة، ولكنه لبث واقفاً على الدرجة العليا، مديراً للحضور ظهره. لقد أزعجه أن يرى إليزابيت بروكوفينا لا يخطر ببالها أن تنصرف، حتى في هذه اللحظة.

هتف الأمير يقول وقد امتلأ غماً وانفعلاً:

- أيها السادة، أيها السادة، دعوا لي أن أشرح لكم أمري، وأن أبسط لكم عذري. أرجوكم: دعونا نتكلم على نحو يتيح لنا أن يفهم بعضنا عن بعض. ليس لدي ما أعقب به على هذه المقالة، فلا تعودن إليها. ولكن اعلموا أيها السادة أن ما حوته باطل كل البطلان. أقول لكم ذلك لأنكم تعلمونه كما أعلمه. ألا إن هذا عار. لسوف يدهشني أشد الدهشة أن أعرف أن واحداً منكم هو الذي كتب هذه المقالة.

قال هيبوليت:

- حتى هذه اللحظة لم أكن أعرف عن هذه المقالة شيئاً. ولست أؤيدها أو أحبها.

وأضاف ابن أخت ليبيديف إلى ذلك قوله:

- أما أنا فكنت أعلم بوجودها... لكنني لو استشرت لما نصحت بنشرها. إن نشرها سابق لأوانه.

فتمتم ابن «بافلشتشيف» يقول:

- وأنا كنت على علم بأمرها، ولكن هذا حقي... إنني...

فسأله الأمير وهو يتفرّس فيه مستطلعاً مستغرباً:

– ماذا؟ أنت الذي لقت هذا كله؟ مستحيل...

قال ابن أخت ليبيديف:

– ليس من حقك أن تلقي أسئلة كهذه الأسئلة.

– أنا لم أزد على أن عبّرت عن دهشتي من أن يكون السيّد بوردوفسكي قد استطاع أن... ولكن... على كل حال أريد أن أقول لكم ما يلي: ما دمت قد نشرتم هذه القضية في الجرائد، فإنني لا أرى السبب الذي أغضبكم منذ قليل حين أردت أن أتكلّم فيها أمام أصدقائي.

دمدمت إليزابت بروكوفيونا تقول مستاءة:

– أخيراً!...

ونفذ صبر ليبيديف فانسَل فجأة بين الكراسي وهو يكاد يكون محموماً، وقال:

– هناك شيء نسيت أن تضيفه يا أمير: هو أنك إذا كنت قد استقبلت هؤلاء الناس وأصغيت إلى كلامهم، فإنما فعلت ذلك مدفوعاً بنبل نفسك وطيب قلبك. لم يكن من حقهم أن يطالبوا بذلك، لا سيّما وأنك عهدت بالقضية إلى جبريل آرداليونوفتش. فهذا دليل جديد على فرط طيب قلبك. وأنك لتنسى أيضاً يا سمو الأمير أنك الآن في صحبة أصدقاء مختارين مصطفىين لا تستطيع أن تضحّي بهم في سبيل هؤلاء السادة. فأنت وحدك تملك أن تطرد هؤلاء، وتلك مهمة يسرّني أنا كثيراً، بصفتي صاحب البيت، أن...

نادى الجنرال إيڤولجين يقول من آخر الغرفة بصوت قويّ:

– هذا صحيح كل الصحة.

وبدأ الأمير يتكلّم فقال:

– كفى يا ليبيديف، كفى...

غير أن صيحات استياء واستنكار تفجّرت من كل جهة فغطت على كلمات الأمير...

وصرخ ابن أخت ليبيديف صرخة غلب صوتها سائر الأصوات، فقال:

– لا يا أمير، معذرة؛ أصبح هذا غير كافٍ. يجب الآن أن توضع النقاط على

الحروف، إذ لا يبدو أن هناك رغبة في فهمنا. إن بين الحضور هنا من يدلي بحجج قانونية فيهددنا بالطرد. ولكن هل تظن يا أمير أننا نبلغ من حماقة حداً يجعلنا لا ندرك نحن أنفسنا أن قضيتنا خالية من أي أساس قانوني وأن القانون لا يجيز لنا أن نطالبك بروبل واحد؟ إنما لكوننا ندرك هذه الحقيقة إنما نقف على أرض الحق الإنساني، الحق الطبيعي، الحق الذي يمليه الحسّ السليم والضمير الصادق. ليس أمراً ذا بال أن لا يكون الحق مكتوباً في نص قانوني بالٍ عتيق، لأن الإنسان الذي يملك عواطف نبيلة ومشاعر شريفة، أعني الإنسان الذي يملك سداد الرأي وسلامة الحكم، من حقه أن يبقى وفيّاً لتلك العواطف والمشاعر، حتي في الحالات التي تغفلها نصوص القانون المكتوب ولا تتكلم عنها. وإذا كنا قد جئنا إلى هنا دون أن نخشى الطرد (الذي هددتنا به منذ لحظة) بسبب مطالبتنا - ذلك أننا «نطالب» ولا «نرجو» - وبسبب أن مجيئنا قد تم في ساعة غير مناسبة (والحق أن مجيئنا لم يتم في ساعة متأخرة، وإنما أنت حجزتنا في حجرة المدخل)، فإننا لم نفضل ذلك إلا لأننا قدرنا أن نجد فيك إنساناً سديد الرأي سليم الحكم أي إنساناً ذا شرف وضمير.

«نعم، هذه هي الحقيقة، فنحن لم نأتك أدلاء نستجدي نعمك وآلاءك كطفيليين، وإنما دخلنا رافعين رؤوسنا، أحراراً لا يقدمون رجاء بل يبلّغون إنذاراً (هل سمعت؟ إنذاراً لا رجاء. لاحظ هذا). إنما نلقي عليك هذا السؤال جهاراً دون لف أو دوران: أتعقد أنك على حق أم على باطل في قضية بوردوفسكي؟ هل تعترف أن بافلشتشيف قد أحسن إليك وأنعم عليك، وبأنك ربما كنت مديناً له بحياتك؟ وإذا كنت تعتقد بهذه الحقيقة الواضحة فهل تنتوي وهل تجد أن من الإنصاف والعدل، بعد أن أصبحت مليونيراً، أن تعوّض ابن بافلشتشيف الذي يعيش الآن حياة بؤس، دون أن يصدك عن ذلك أنه يحمل الآن اسم بوردوفسكي؟ أنعم أم لا؟

«فإذا قلت «نعم»، أي إذا كنت تملك ما تسمونه بلغتكم شرفاً وضميراً، وما نسميه نحن سلامة الحكم - وهذه تسمية أصدق - فما عليك إلا أن تبادر إلى إرضائنا ثم لا نعودن إلى الكلام في هذا الأمر أبداً؛ ما عليك إلا أن تسوّي القضية دون أن تنتظر منا لا رجاء ولا شكراً، لأن ما ستفعله لن تفعله من أجلنا بل من أجل العدل.

«أما إذا رفضت إرضائنا، أي إذا قلت «لا»، فسننصرف فوراً، فتقف القضية عند هذا الحد. لكننا نحرص على أن نقول لك دون تهيب، أمام هؤلاء الناس جميعاً، إنك إنسان غليظ الفكر منحط الثقافة، وإنك لن يحق لك بعد الآن أن تعدّ نفسك رجلاً ذا شرف وضمير. إنما نطالب، ولا نستجدي!...».

وتوقف ابن أخت ليبيديف عن الكلام. لقد تكلم مهتاجاً أشدّ الاهتياج.

وتمتم بوردوفسكي يقول وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً.

- إننا نطالب، نطالب، نطالب، ولكننا لا نستجدي!...

بعد الخطبة التي ألقاها ابن أخت ليبيديف سرت في الجمع حركة شاملة، وسمعت دمدومات متصلة، رغم أن كل واحد كان يميل ميلاً واضحاً أن يتحاشى إقحام نفسه في هذه القضية، إلا ليبيديف الذي كان مهتاجاً مضطرباً. (شيء غريب: إن ليبيديف، على كونه مناصراً للأمير، كان يبدو عليه نوع من الاعتزاز العائلي أثناء كلام ابن أخته؛ فكان يجيل على الحضور نظرات يتجلى فيها رضى خاص ومسرّة واضحة).

بدأ الأمير يتكلم فقال بصوت خافت بعض الخفوت:

- في رأيي أن في كلامك نصف حق يا سيد دوكتورنكو، بل إنني لأسلم بأن فيه أكثر من نصف حق، وكان يمكن أن أوافقك كل الموافقة لولا أنك أغفلت في حديثك أمراً من الأمور. وهذا الأمر لا أملك أن أقوله لك على وجه الدقة... المهم أن أقوالك يُعوزها شيء ما حتى تكون صحيحة كل الصحة. ولكن فلنتكلم في القضية نفسها أيها السادة، فهذا أولى. قولوا لي: لماذا نشرتم تلك المقالة؟ ألا تعتقدون أن فيها من التمايم بقدر ما فيها من ألفاظ؟ رأيي أيها السادة أنكم ارتكبتم عملاً منحطاً.

- اسمح لي...

- يا عزيزي...

- آه... هذا... هذا...

كذلك صاح الزائرون معاً في آن واحد وقد ظهرت عليهم علائم الاهتياج.

وأجاب هيبوليت بصوته الحاد:

- أمّا عن المقالة فقد سبق أن قلت لك إنني لا أؤيدها ولا أحبذها، لا أنا ولا غيري. إن كاتبها هو هذا (قال هيبوليت ذلك وهو يومئ إلى الملاك الجالس قربه). أقرّ لك بأنها مقالة غير لائقة، كتبها رجل غير مثقف، بأسلوب هو أسلوب أمثاله من العسكريين المحالين على التقاعد. إنه رجل أحقق، وإنه فوق ذلك غشاش، أوافقك على هذا. وأنا أكرر هذا الكلام على مسامعه كل يوم. ولكنني أضيف إلى ذلك أنه كان على بعض الحق: إن النشر حق يملكه جميع الناس شرعاً، ويملكه إذا بوردوفسكي. وإذا تضمنت

المقالة سخافات فهو مسؤول عنها. أمّا الاعتراض الذي أعلنته منذ قليل باسمنا جميعاً، وهو الاعتراض الخاص بحضور أصدقائك، فإنني أعتقد أن من الضروري أن أعلمكم أيها السادة أن ذلك الاعتراض لم يكن له هدف إلا تأكيد حقنا. فالواقع أننا كنا نريد أن يكون ثمة شهود، حتى لقد اتفقنا نحن الأربعة على هذا قبل أن ندخل، نقبل الشهود أياً كانوا، ولو كانوا أصدقاءك، إذ ما داموا لا يستطيعون أن يجحدوا حق بوردوفسكي (وهو حق بديهي كالرياضيات) فمن الأفضل أن يكونوا أصدقاءك، لأن ذلك يظهر الحقيقة بوضوح أكبر وجلاء أعظم.

قال ابن أخت ليبيديف مؤيداً:

- نعم لقد اتفق رأينا على ذلك.

فاعترض الأمير يقول مدهوشاً:

- إذا كانت هذه نيّتكم، فلماذا أحدثتم تلك الجلبة كلها وذلك الشغب كله منذ الكلمات الأولى من الحديث بيننا؟

كان الملاك يحترق رغبة في أن يقول كلمة، فتدخل يقول بلهجة فيها تودّد (نستطيع أن نخمّن أن وجود السيدات قد أثر في نفسه تأثيراً قوياً):

- فيما يتعلق بالمقالة يا أمير، أعترف لك بأنني كاتبها فعلاً، رغم أن صديقي الممرض قد نقدها نقداً لاذعاً، وذلك أمر أغضبه له كما أغضّر له ما عداه بسبب حالة الضعف التي هو فيها. ولكن كتبته ونشرتها على شكل رسالة صحفية في جريدة واحد من أصدقائي الخُلص. الأشعار وحدها ليست لي، وإنما نظمها شاعر ساخر مشهور. وقد قرأت المقالة لبوردوفسكي، حتى أنني لم أقرأها كلها، فأسرع يأذن لي بنشرها. لاحظ أنني لم أكن في حاجة إلى موافقته لنشرها. فالنشر حق عام، نبيل، مفيد؛ وإنني لأرجو يا أمير أن تكون أنت نفسك أكثر ليبرالية من أن تنكر حق النشر...

- لست أنكر حق النشر، ولكن لا بدّ لك أن تعترف بأنّ مقالتك تتضمن...

- تتضمن أشياء قاسية بعض القسوة... أهذا ما تريد أن تقول؟ ولكن هذه الأشياء لها ما يسوغها من اعتبارات المصلحة الاجتماعية بمعنى من المعاني. عليك أن تعترف أنت نفسك بذلك. ثم هل يستطيع المرء أن يفوت فرصة كهذه الفرصة؟ نحن لا يهمننا الجُناة، فمصلحة المجتمع فوق كلّ مصلحة! أمّا فيما يتعلق بما ورد في المقالة من أمور ليست صحيحة صخة تامة، أقصد بعض المبالغات في التعبير، فيجب عليك أن

تعترف أيضاً أن العبرة بالغاية المنشودة والنية المعقودة، والهدف المقصود. فإنما المهم أن نقدم مثلاً مفيداً، ثم يتسع وقتنا بعد ذلك للمناقشة في حالات خاصة. وأما فيما يتعلق بالأسلوب أخيراً، فهو الفكاهة الساخرة طبعاً، والناس جميعاً يكتبون بهذا الأسلوب؛ عليك أن تعترف أنت نفسك بذلك، ها ها ها!...

صاح الأمير يقول:

- لكنكم ضللتكم الطريق أيها السادة، أؤكد لكم ذلك. لقد نشرتم المقالة وأنتم تتصورون أنني لا أريد أن أصنع شيئاً البتة للسيد بوردوفسكي، فحاولتم على أساس هذا الافتراض أن تخيفوني وأن تنتقموا مني. ولكن ما أدراكم؟ لعلني أنوي إرضاء السيد بوردوفسكي. وها أناذا أعلن لكم الآن بقول قاطع على رؤوس الأشهاد أن تلك هي نيتي...

صاح الملاكم يقول:

- أخيراً! هذا قول حكيم نبيل يصدر عن إنسان حكيم نبيل!

وتنهذات إليزابيت بروكوفينا وهي تقول على غير إرادة منها:

- رباه!

ودمدم الجنرال قائلاً:

- هذا لا يطاق!

وتضرع الأمير يقول:

- اسمحوا لي يا سادة، دعوني أبسط لكم القضية! منذ نحو خمس أسابيع، زارني في «ز»، يا سيد بوردوفسكي، زارني مندوبك رجل الأعمال تشيباروف. لقد رسمت له في مقالتيك صورة أخاذة جداً، يا سيد كيلر (أضاف الأمير ذلك ضاحكاً وهو يلتفت نحو الملاكم)، غير أن هذا الشخص لم يعجبني البتة في الواقع. لقد أدركت منذ أول لحظة أن تشيباروف هذا هو المحرّض في القضية كلها، وأنه هو الذي ورطك يا سيد بوردوفسكي، مستغلاً بساطتك... أقول لك هذا بكل صراحة.

ثأثاً بوردوفسكي يقول وقد بلغ الغيظ منه كل مبلغ:

- لا يحق لك... إنني... أنا... أنا لست بسيطاً...

وقال ابن أخت ليبيديف بلهجة الواعظ الناصح:

- لا يحق لك أن تفترض مثل هذه الافتراضات!

وصات هيبوليت يقول بصوته الحاد:

- هذا شيء رهيب فظيع! هذا افتراض جرح كاذب مهين، وليس له بالقضية أية علاقة!

أسرع الأمير يبرئ نفسه قائلاً:

- عفوكم عفوكم يا سادة! اعذروني، أرجوكم. لقد قدّرت أن الأفضل أن يتكلم الطرفان كلاهما بصراحة تامة. ولكن لكم ما تشاؤون. أجبته تشيباروف بأنني لغيابي ببطرسبرج قد أسرعت أرجو صديقاً لي بأن يتابع هذه القضية، وقلت لتشيباروف إنني سأنقل النتيجة إليك أنت يا سيد بوردوفسكي. ولا أكتممكم أيها السادة أن تدخل تشيباروف هو الذي جعلني أحسّ بأن في الأمر غشاً. آه... لا تزعلوا يا سادة، ناشد تكم الله! لا تزعلوا!

كذلك هتف الأمير مرتاعاً حين رأى بوردوفسكي يعود إلى الاهتياج، وحين رأى أصحابه يهبون إلى الاعتراض والاحتجاج. وتابع كلامه فقال:

- حين أقول أن المطالبة بدت لي محاولة غش ونصب، فإن قولي لا يمكن أن يتناولكم أنتم. لا تنسوا أنني كنت لا أعرف حينئذ أي واحد منكم. حتى لقد كنت أجهل أسماءكم، إنني لم أحكم على الأمر إلا من خلال تشيباروف. إنني أتكلم بصورة عامة... ليتكم تعلمون كم خدعت منذ آل إليّ هذا الميراث!

قال ابن أخت ليبيديف بلهجة السخرية:

- أنت ساذج سذاجة رهيبة يا أمير!

وزاد هيبوليت على ذلك فقال:

- وأنت عدا ذلك أمير ومليونيرٍ فرغم ما قد تملك من طيبة النفس وبساطة القلب، لا يمكنك أن تخرج على القانون العام.

فقال الأمير يجيب بسرعة:

- جائز، جائز جداً، وإن كنت لا أفهم عن أي قانون عام تتكلم. ولكنني أتابع كلامي، فأرجوكم أن لا تهتاجوا في غير داع إلى اهتياج، لأنني - أقسم لكم - لا أنتوي أن أسيء إلى شعوركم البتة! ما هذا يا سادة؟ ألا يستطيع المرء أن يقول كلمة صدق دون أن

تثوروا؟

«لقد ذهلت حين علمت بوجود شابٍ يقال له «ابن بافلشتشيف»، وحين علمت بحالة البؤس التي ذكر لي تشيباروف أنه يعيش فيها. إن بافلشتشيف كان المحسن إليّ وكان صديق أبي (آه يا سيد كيلر، لماذا كتبت في مقالتك عن أبي أشياء تبلغ هذا المبلغ من البعد عن الحقيقة؟ إنه لم يسلب أموال سريته في يوم من الأيام، لا ولا أساء معاملة أحد مرؤوسيه قط. إنني أؤمن بهذا كل الإيمان. كيف استطاعت يدك أن تخط نميمة كهذه النميمة؟). وإن ما قلته عن بافلشتشيف لا يمكن قبوله البتة. أنت تزعم أن هذا الإنسان النبيل كان داعراً فاسقاً، وأنه كان خفيفاً طائشاً. وأنت تقول هذا الكلام بثقة كاملة كأنما أنت تذكر الحقيقة. والواقع خلاف هذا تماماً. لقد كان بافلشتشيف أعفّ إنسان في العالم! وكان عدا ذلك عالماً مرموقاً؛ كان يرسل عدداً من الشخصيات العلمية، وقد وهب أموالاً كثيرة في سبيل تقدّم العلم. أمّا عن شهامته وأعماله الخيرة فقد كنت على حق حين كتبت أنني كنت في ذلك الحين شبه معتوه أو أبله أو أهبل. وأنني كنت لا أستطيع أن أدرك من ذلك شيئاً البتة (ومع هذا كنت أتكلم الروسية وأفهمها). ولكنني الآن قادر على أن أقضي برأيي في كل ما أتذكره...

صرخ هيبوليت يقول:

- اسمح لي... دعك من العاطفيات. ما نحن بأطفال. لقد كنت تريد أن تمضي إلى جوهر القضية. والساعة الآن قد تجاوزت التاسعة. لا تنس هذا!

فأسرع الأمير يوافق قائلاً:

- ليكن يا سادة، أريد ذلك حقاً. هأنذا أعود إلى القضية. قلت لنفسى بعد شيء من الشك والارتياب: لعلي مخطئ، ولعل بافلشتشيف أن يكون له ابن. غير أن الشيء الذي كان يبدو لي صعب التصديق هو أن يعتمد ذلك الابن، بمثل هذه الخفة كلها ومثل هذا الطيش كله، أن يفضح سرّ ولادته وأن يلطخ شرف أمه علانية، للناس قاطبة. ذلك أن تشيباروف كان قد هدّني بإذاعة الفضيحة ونشرها...

هتف ابن أخت ليبيديف يقول:

- يا للحماقة!

وصاح بوردوفسكي قائلاً:

- لا حق لك، لا يحق لك!...

وانبري هيبوليت يقول بصوته الحادّ وقد احتاج احتياجاً شديداً:

- ليس الابن مسؤولاً عن فجور أبيه، وليست الأم مذنبه!

فقال الأمير خجلاً:

- فهذا في رأيي أدعى إلى مداراة الأم والامتناع عن التشهير بها.

قال ابن أخت ليبيديف وهو يضحك ضحكة ساخرة:

- لست ساذجاً فحسب يا أمير، فلعلك تتجاوز حدود البساطة..

وسأله هيبوليت بصوت لم يبق فيه شيء طبيعي:

- وأي حق كان لك أنت؟

- لم يكن لي أي حق، لم يكن لي أي حق...

كذلك أسرع الأمير يضيف إلى كلامه. ثم تابع فقال:

- أنت هنا على صواب، أعترف لك بذلك. لكنني لم أستطع أن أمتنع عن ذلك التفكير. ثم سرعان ما قدّرت أن انطباعي الشخصي يجب أن لا يكون له في القضية أي تأثير. فمتى كان من واجبي أن أرضي السيد بوردوفسكي عرفاناً بجميل بافلشتشيف وتحية لذكراه، فسيان أن أحترم السيد بوردوفسكي وأن لا أحترمه... وإذا كنت قد حدثكم عن ترددي أيها السادة، فإنني لم أفعل ذلك إلا لأنه كان قد بدا لي أنه من غير الطبيعي أن يكشف عن سرّ أمه للناس كافة... الخلاصة: إن هذا الدليل خاصة هو الذي أقنعني بأن تشيباروف لا بدّ أن يكون وغداً ورط السيد بوردوفسكي في هذا الغش باحتيالات محسوبة.

صاح الزوّار يقولون:

- آه... هذا كلام يتجاوز جميع الحدود!

حتى إن بعضهم اندفع ينهض.

- أيها السادة! إن هذا الدليل نفسه هو الذي جعلني أحمّن أن السيد بوردوفسكي المسكين التعيس هذا لا بدّ أن يكون متخلّف العقل محدود الذكاء، فهو لا يحسن أن يدفع عنه مكر الماكربين وأن يحمي نفسه من أحابيل الغشاشين، فزادني ذلك شعوراً بواجب مساعدته ما دام «ابن بافلشتشيف»، ذلك بثلاث طرق: أن أدرا عنه تأثير تشيباروف أولاً،

وأن أوجهه وأرشده بإخلاص ومحبة ثانياً، وأن أدفع له عشرة آلاف روبل ثالثاً، وهو المبلغ الذي يساوي في حسابي ما أنفقه عليّ بافلشتشيف.

صاح هيبوليت يسأل:

– ماذا؟ عشرة آلاف روبل فقط؟

وهتف ابن أخت ليبيديف:

– هيا يا أمير، لست قديراً في علم الحساب، أو قل إنك قدير في علم الحساب أكثر مما يجب، رغم ما تصطنعه من بساطة.

وأعلن بوردوفسكي قائلاً:

– لا أقبل هذه العشرة آلاف روبل!

فهمس الملاكم يقول له بسرعة وهو يميل عليه من وراء كرسي هيبوليت:

– اقبل يا أنتيب!

وزار هيبوليت يقول:

– أعتذر يا سيد مشكين! عليك أن تفهم أننا لسنا أغبياء. نحن لسنا أولئك الأغبياء المفرطين في الغباوة الذين يفترضهم ضيوفك فيما يبدو، لسنا أولئك الأغبياء الذين تتصورهم هاته السيدات اللواتي ينظرن إلينا وهنّ يبتسمن ابتسامة احتقار، أو يتصورهم خاصة هذا السيد الذي ينتمي إلى المجتمع الراقي (قال ذلك وهو يشير إلى أوجين بافلوفتش)، هذا السيد الذي لم أتشرف بمعرفته طبعاً، ولكنني سمعت عنه أشياء كثيرة...

قال الأمير بحرارة مضطربة:

– اسمحوا لي، اسمحوا لي أيها السادة. لقد أخطأتم فهمي مرة أخرى. يجب أن أذكر أولاً أنك يا سيد كيلر قد قدّرت ثروتي تقديراً بعيداً عن الصحة كل البعد: فأنا لم أقبض ملايين، ولعل ما أملكه لا يزيد على ثمن أو عشر ما تظنون. ثم أن ما أنفق عليّ بسويسرا ليس عشرات ألوف الروبلات: لقد كان شنايدر يتلقى ستمائة روبل في السنة؛ وهذا المبلغ نفسه لم يُدفع إلا في السنين الثلاث الأولى. أما عن المربيات الجميلات، فإنّ بافلشتشيف لم يأت بمربية من باريس في يوم من الأيام. فهذه أيضاً نميمة. أعتقد أن المبالغ التي أنفقت عليّ تقل كثيراً عن عشرة آلاف روبل، لكنني وافقت على ذلك

الرقم. لا بدّ لكم من التسليم بأنني كنت أردّ ديناً فلا أستطيع أن أقدمّ للسيد بوردوفسكي مبلغاً أكبر من ذلك الدّين، مهما تكن عاطفة المحبة التي أحملها له. ذلك أن الشعور بأبسط قاعدة من قواعد الذوق يمنعني من أن أظهر بمظهر من يتصدّق عليه، في حين أنني أردّ إليه ديناً. لا أدري أيها السادة كيف يمكن أن تفهموا عني هذا الأمر. ولكنني أردت أن أفعل أكثر من ذلك، فأهبط للسيد بوردوفسكي هذا العاثر الحظ، صداقتي ودعمي. لقد لاحظت أنه خدع وأنه غرّر به، فلولا ذلك لما رضي عن دناءة كدناءة نشر ذلك المقال الذي كتبه السيد كيلر مشهراً فيه بأمله. ولكن ما بالكم تغضبون من جديد أيها السادة؟ لسوف ينتهي بنا الأمر إلى أن لا نفهم شيئاً البتة.

وختم الأمير كلامه قائلاً:

- صدق ظني إذن! لقد اقتنعت الآن اقتناع المشاهدة والعيان بأن تخميني كان صحيحاً صادقاً....

قال الأمير ذلك منتعشاً، دون أن يلاحظ أن سامعيه كانوا أثناء محاولته تهدئتهم يزدادون غضباً وغيظاً.

سألوه حانقين:

- ماذا؟ بماذا اقتنعت؟

أجاب الأمير:

- استطاعت أن أرى السيد بوردوفسكي على مهل، فعرفت حقيقته بنفسه... إنه رجل بريء، ولكن الجميع يخدعونه ويغترون به. هذا إنسان لا يملك عن نفسه دفاعاً، فيجب عليّ إذن أن أحميه. ثم أن جبريل آرداليونوفتش الذي كلفته بمتابعة هذه القضية ثم لم تصلني أنباؤه منذ مدة طويلة بسبب سفري وبسبب مرضي أثناء الأيام الثلاثة التي قضيتها ببطرسبرج، أقول أن جبريل آرداليونوفتش هذا قد أطلعني على نتائج تحرياته منذ ساعة، في أول لقاء بيننا، فأبلغني أنه كشف النقاب عن جميع مرامي تشيباروف وأهدافه، وأنه يملك البرهان القاطع على أن جميع افتراضاتي عن هذا الرجل صحيحة. أنا أعلم تماماً أيها السادة أن كثيراً من الناس يعدّونني أبله. فلما سمع تشيباروف أنني إنسان مبسوط الكفّ، وأن انتزاع المال مني أمر يسير. قدّر بأن في وسعه أن يخدعني بسهولة، مستغلاً ما أحمله للمرحوم بافلشتشيف من شعور الشكر والامتنان ومن عاطفة العرفان بالجميل. غير أن الأمر الأساسي... ما بالكم أيها السادة؟ أرجو أن تصغوا إلى كلامي حتى النهاية... أقول أن الشيء الأساسي هو أنه ثبت الآن بالدليل القاطع أن

السيد بوردوفسكي ليس ابن بافلشتشيف! لقد أبلغني جبريل آرداليونوفتش هذا الاكتشاف منذ هنيهة، مؤكداً أن ثمة أدلة ثابتة وبراهين قاطعة. فما قولكم؟ إنه ليصعب على المرء أن يصدق هذا الكلام بعد جميع ما عوملت به من إهانة وإذلال! واسمعوني جيداً: إن ثمة أدلة ثابتة وبراهين قاطعة. أنا نفسي لما أصدقها بعد. أؤكد لكم أنني لا أستطيع تصديقها. ما زلت أشك في صحتها، لأن جبريل آرداليونوفتش لم يتسع وقته لأن يذكر لي جميع التفاصيل. غير أن هناك واقعة أصبحت ثابتة لا مجال للشك فيها، هي أن تشيباروف وغد، فهو لم يقتصر على أنه أضل السيد بوردوفسكي المسكين، وإنما أضلكم أنتم جميعاً أيها السادة، أنتم الذين جئتم إلى هنا على نية نبيلة وغاية شريفة هي أن تدعموا صديقكم وأن تسندوه (ذلك أنه في حاجة إلى الدعم والسند، فهذا أمر أفهمه حق فهمه). لقد ورطكم تشيباروف، ورطكم جميعاً في قضية غش ونصب واحتيال، لأن هذه القضية ليست إلا غشاً ونصباً واحتيالاً.

هتف الجميع يقولون من كل جهة:

– كيف؟ غش ونصب واحتيال؟ كيف هذا؟ ليس هو «ابن بافلشتشيف»؟ كيف يمكن أن يكون هذا؟

أصبحت عصبية بوردوفسكي كلها في حالة انصعاق!

قال الأمير:

– هي قضية غش ونصب واحتيال طبعاً! إذا ثبت الآن أن السيد بوردوفسكي ليس ابن «بافلشتشيف»، فإن مطالبته تصبح غشاً ونصباً واحتيالاً لا أكثر (هذا إذا كان يعرف الحقيقة طبعاً). ولكن الواقع أنه خُدع وغرر به. إنني ألحّ على هذه النقطة لأبرئه من الجرم، وأزعم أن بساطته تجعله جديراً بالشفقة عاجزاً عن الاستغناء عن سند يدعمه. وإلا كان يمكن أن يُعدّ شريكاً في الغش والنصب والاحتيال في هذه القضية. لكنني مقتنع منذ الآن أنه لا يفهم من الأمر شيئاً؛ ولقد كنت أنا نفسي على هذه الحال إلى حين سفري إلى سويسرا. كنت أتمتم بأقوال غير مترابطة... كنت أريد أن أعبر فما توافيني الكلمات... إنني أدرك هذا! وأنا أشفق عليه وأرثي لحاله وأتعاطف معه، لأنني كنت في مثل وضعه تقريباً. فمن حقي إذاً أن أتكلم عن هذا الأمر. وإني لأعلن لكم في الختام، رغم أنه لا وجود الآن لأحد هو «ابن بافلشتشيف»، أعلن لكم أنني ما زلت متمسكاً بقراري، ما زلت مستعداً لأن أدفع للسيد بوردوفسكي مبلغ عشرة آلاف روبل، تحيةً لذكرى «بافلشتشيف». لقد كنت أنوي، قبل السيد بوردوفسكي، أن أقف هذا المبلغ على إنشاء مدرسة، تمجيداً لذكرى بافلشتشيف. ولكن أصبح يستوي الآن عندي

أن أقف هذا المبلغ على إنشاء مدرسة أو أن أهبه للسيد بوردوفسكي، لأنه إن لم يكن «ابن بافلشتشيف» فهو قريب من ذلك، ما دام قد اعتقد صادقاً بأنه ابن بافلشتشيف، نتيجة للتضليل والخداع الذي كان ضحيته. استمعوا إلى جبريل آرداليونوفتش أيها السادة. فلنفرغ من هذا الأمر دفعةً واحدة. لا تغضبوا، ولا تضطربوا! اجلسوا! سيشرح لكم جبريل آرداليونوفتش القضية كلها؛ وإني لأعترف بأنني أحترق شوقاً إلى معرفة التفاصيل. هو يقول انه ذهب إلى بسكوف يا سيد بوردوفسكي، وقابل أمك التي لم تمت كما زعمت المقالة... اجلسوا أيها السادة! اجلسوا!»!

جلس الأمير هو نفسه، واستطاع أن يجلس أصدقاء السيد بوردوفسكي الذين كانوا يضطربون ويتحركون ولا يستقرون على حال. لقد ظل ربع ساعة يتكلم بعاطفة حارة، وصوت قوي، وتدفق سريع، واندفاع شديد، محاولاً أن يسيطر على صيحات التعجب وصرخات الاستنكار! وهو الآن نادم نداماً مراً على أن أفلتت منه تعبيرات وأقوال كان يتمنى أن لا تفلت. فلولا أنه استثير وأخرج عن طوره إن صحّ التعبير لما أجاز لنفسه أن يفصح بمثل هذا الوضوح وهذه القسوة عن بعض تخميناته، ولما أجاز لنفسه أن ينساق هذا الانسياق في صراحة زائدة لا داعي إليها ولا محل لها. فما أن جلس حتى أحسّ بندامة أليمة تقبض قلبه: إنه لا يكتفي الآن بمؤاخذة نفسه على أنه «أهان» بوردوفسكي إذ وصفه على رؤوس الأشهاد بأنه مصاب بالمرض الذي ذهب هو إلى سويسرا لمعالجته، بل يزيد على ذلك فيلوم نفسه على أنه عامله معاملة فظة خالية من اللطف والذوق إذ عرض عليه العشرة آلاف روبل الموقوفة على إنشاء مدرسة، عرضها عليه صدقة أمام جميع الناس. قال الأمير يخاطب نفسه: «كان ينبغي لي أن أنتظر فأقدمها إليه غداً في خلوة بيني وبينه. هذه خرافة لا سبيل إلى إصلاح ما أفسدته! نعم، إنني أبله، أبله حقاً!». بهذا ختم الأمير كلامه لنفسه وهو يشعر بأشدّ الخجل والخزي والعار!

بعد ذلك، تلبية لدعوة الأمير، تقدّم جبريل آرداليونوفتش الذي ظل متنحياً حتى ذلك الحين ولم ينطق بكلمة واحدة، تقدّم نحو الأمير وجلس إلى جانبه وأخذ يشرح، بصوت واضح رصين، المهمة التي عهد بها إليه، فانقطعت الأحاديث فجأة، وأخذ جميع الحضور، ولا سيما بوردوفسكي، يسيخون السمع باهتمام قوي وفضول شديد.

الفصل التاسع

اتّجه جبريل آرداليونوفتش بالكلام في أول الأمر إلى بوردوفسكي الذي كان مضطرباً اضطراباً واضحاً وكان يحدّق إليه منتبهاً أشدّ الانتباه، وقد امتلأت نظرتة دهشة. قال له جبريل آرداليونوفتش:

- لا شك في أنك لن تنكر ولن تجحد، جاداً، أنك ولدت بعد انقضاء عامين على الزواج الشرعي بين أمك المحترمة وأبيك الموظف بوردوفسكي. إنه لمن السهل جدا تحديد تاريخ ميلادك بواسطة وثائق ثابتة وسجلات دقيقة. أمّا تزوير هذا التاريخ في مقالة السيد كيلر، ذلك التزوير الذي يهين كرامة أمك ويهين كرامتك في آن واحد، فإن تفسيره الوحيد هو خيال السيد كيلر الذي كان يظن أنه يخدم بذلك مصلحتك إذ يجعل حقك أوضح. لقد صرّح السيد كيلر بأنه قرأ لك المقالة قبل نشرها، ولكنه لم يقرأها كاملة... فمما لا شك فيه أنه أسقط من قراءته تلك الفقرة...

قاطع الملاككم يقول:

- فعلاً، لم أقرأ له تلك الفقرة. ولكن جميع الوقائع إنما نقلها إليّ شخص مطلع، وأنا...

قال جبريل آرداليونوفتش:

- معذرة يا سيد كيلر، دعني أكمل كلامي. أعدك بأننا سنتكلم عن مقالتك في الوقت المناسب، فتقدّم إلينا عندئذ ما لديك من تفسيرات. أمّا الآن فالأفضل أن نتبع تسلسل العرض. لقد حصلت، بمصادفة محض وبمعاونة أختي باربارا آرداليونوفتش بتسينا، حصلت من صديقتها الحميمة فيرا ألكسيفنا زوبكوف، وهي أرملة صاحبة أملاك، على رسالة كان المرحوم نيقولاي أندريفتش بافلشتشيف قد كتبها إليها منذ أربعة وعشرين عاماً حين كان في الخارج. وبعد أن اتصلت بفيرا ألكسيفنا اتجهت، عملاً بإشارتها، إلى كولونيل محال على التقاعد اسمه تيموني فيدوروفتش فيازوفكين، وهو واحد من أقرباء المرحوم كان صديقاً حميماً له. فاستطعت أن أحصل منه على رسالتين

آخرين من نيقولاى أندريفتش مكتوبتين من الخارج هما أيضاً. إن المقابلة بين التواريخ والوقائع المذكورة في هذه الوثائق الثلاث تثبت بدقة رياضية لا تدع مجالاً لأيّ اعتراض أو أي شك، أن نيقولاى أندريفتش عاش في ذلك الأوان بالخارج خلال ثلاث سنين، وأنّ سفره إلى الخارج إنما تمّ قبل ولادتك بسنة ونصف سنة على وجه الدقة يا سيد بوردوفسكي. وأنت تعلم أن أمك لم تخرج من روسيا طوال حياتها... ولن أقرأ لك الآن تلك الرسائل لأننا في ساعة متأخرة، ولكنني أقرر الواقعة فحسب. فإذا شئت يا سيد بوردوفسكي أن نلتقي غداً عندي، بحضور شهودك (وليكن عددهم ما شئت!) وأن تجيء بخبراء في الخطوط، فلسوف تضطر إلى التسليم بالحقيقة البديهية التي أذكرها لك. إني من هذا العلي يقين. ومتى سلمت بهذه الحقيقة، سقطت القضية كلها من تلقاء نفسها طبعاً.

استولت على جميع الحضور، من جديد، حركة انفعال عميق. ونهض بوردوفسكي عن كرسيه فجأة. وقال:

- إذا كان الأمر كذلك فقد خُذعت إذاً، نعم خُذعت، ولكن ليس تشيباروف هو الذي خدعني، ويرجع هذا إلى زمن بعيد، بعيد جداً! لا أريد خبراء في الخطوط، ولن أجيء إليك. إنني أصدقك. وأتنازل عن دعواي... وأرفض العشرة آلاف روبل... أستودعكم الله!.

قال بوردوفسكي ذلك وهو يتناول قبعته، ويدفع كرسيه، ويهم أن يخرج.

فقال له جبريل آرداليونوفتش بلهجة تصطنع الرقة والعذوبة:

- ابق قليلاً، ولو خمس دقائق، إذا كنت تستطيع ذلك، يا سيد بوردوفسكي. أن هذه القضية تكشف أيضاً عن أمور خطيرة الشأن جداً، ولا سيما بالنسبة إليك، وهي على كل حال أمور تبلغ غاية الطرافة. وفي رأيي أنك لا تستطيع أن تستغني عن معرفة هذه الأمور، وقد تغبط نفسك على أنك جلوت المسألة كلها وأخرجتها إلى النور...

جلس بوردوفسكي دون أن يقول كلمة واحدة، جلس مائلاً برأسه إلى الأمام، على وضع إنسان مستغرق في التفكير أعمق الاستغراق. وجلس أيضاً ابن أخت ليبيديف الذي كان قد قام ليخرج معه. لقد كان يبدو عليه الاضطراب والتشوش، وإن لم يفقد هدوء الأعصاب ولا هيئة الوقاحة. وكان هيبوليت مظلم الوجه حزين النفس، مصعوقاً بعض الشيء، هذا إلى نوبة من سعال قد استبدت به في تلك اللحظة وبلغت من القوة أن منديله تلتطخ بالدم. وبدأت على الملاكم أمارات الانشده، وهتف يقول مخاطباً

بوردوفسكي بلهجة فيها مرارة:

- ... ألم أقل لك يا أنتيب... منذ مدة... أمس الأول... أن من الجائز فعلاً أن لا تكون ابن بافلشتشيف!

فاستقبل هذا الاعتراف بضحكات مخنوقة. وعجز اثنان أو ثلاثة عن كظم شعورهم فانفجروا يضحكون في قهقهة مجلجلة.

تابع جبريل أرداليونوفتش كلامه فقال:

- أن لهذا الأمر اليسير الذي كشفت لنا عنه الآن يا سيد كيلر لقيمة كبيرة. وفي وسعي أن أؤكد مع ذلك، بناءً على أدق المعلومات، أن السيد بوردوفسكي، على علمه الكامل بتاريخ ميلاده، كان يجهل أن بافلشتشيف كان مقيماً في تلك الآونة بالخارج، حيث قضى الشطر الأكبر من حياته دون أن يعود إلى روسيا إلا فترات قصيرة. ثم إن تلك السفارة كانت أهون شأناً في ذاتها من أن تحفظها، بعد انقضاء أكثر من عشرين عاماً عليها، ذاكرة أقرب المقربين إلى بافلشتشيف من أصدقائه، ناهيك عن أن ذاكرة السيد بوردوفسكي الذي لم يكن قد وُلد في ذلك الأوان. صحيح أن تقصّي أمر تلك الرحلة إلى الخارج لا يبدو متعذراً أو مستحيلاً، ولكن يجب أن أعترف أن جهود التقصي التي بذلتها أنا كان يمكن أن تؤدي إلى نتيجة، وأن المصادفة هي التي يسرت لي جمع ما جمعته من معلومات، بحيث كان يمكن أن لا تثمر مثل تلك الجهود، وأن لا يكون لها أي حظ من النجاح، لو قام بها السيد بوردوفسكي، أو حتى تشيباروف، هذا إذا خطر ببالهما أن يفعل ذلك. ولكن من الجائز أن ذلك لم يخطر لهما ببال...

قاطع هيبوليت يقول في غضب:

- اسمح لي يا سيد إيڤولجين، علام هذا اللغو الطويل كله؟ (معذرة!). لقد أصبحت القضية واضحة وعرفنا جوهر الأمر. فلماذا هذا الإلحاح المؤلم الجارح؟ أم تُراك تريد الافتخار ببراعتك فيما قمت به من بحوث، وتريد أن تُظهر الأمير وتظهرنا على ما تملك من مواهب الباحث المتقضي والمحقق المتحري؟ أم أنت تريد أن تعذر بوردوفسكي وأن تبرئه بالبرهنة على أن الجهل هو الذي قاده إلى هذه الحالة؟ ولكن هذه وقاحة أيها السيد العزيز! إن بوردوفسكي ليس في حاجة إلى أن تتفضل عليه بالتبرئة، فاعلم ذلك! هذه إهانة له، ما أغناه عن هذا وهو فيما هو فيه الآن من وضع مؤلم محرج. كان عليك أن تدرك هذا، وأن تفهمه...

قال جبريل أرداليونوفتش مقاطعاً:

- طيب يا سيد تيرنتيف! كفى! هدئي من روعك! لا تندفع كثيراً! أعتقد أنك مريض جداً، أليس كذلك؟ إنني أشاطرك ألمك. لقد أنهيت كلامي، إذا كنت تريد ذلك! أو قل إنني مستعد لأن أختصر الوقائع التي كان لا يخلو من فائدة، في رأيي، أن تُعرف كاملة...

أضاف إيفولجين ذلك وقد لاحظ في الحضور حركة تشبه أن تكون رغبة في الاستماع إليه. وتابع كلامه فقال:

- فمن أجل أن أنير الأشخاص الذين يهتمون بهذه القضية إنما أحرص على أن أبين، والبراهين في يدي، أن أمك يا سيد بوردوفسكي قد حظيت من بافلشتشيف بأنواع من الرعاية والعناية لأنها كانت أخت خادمة شابة من بلد نيقولاي أندريفتش، خادمة أحبها في شبابه الأول وكان يمكن أن يتزوجها حتماً لولا أنها ماتت فجأة. إنني أملك براهين ثابتة على هذه الواقعة التي لا تُعرف إلا قليلاً بل قل نسيت نسياناً تاماً. هذا وأستطيع أن أشرح لك كيف كفل السيد بافلشتشيف أمك حين لم يكن عمرها إلا عشر سنين فأنفق على تعليمها ووقف لها مهراً كبيراً. إن علامات التعلق هذه قد ولدت بعض المخاوف لدى أقرباء السيد بافلشتشيف، وهم كثيرون جداً، حتى ظن بعضهم أن الرجل سيتزوج الفتاة التي كفلها. ولكن أمك حين بلغت العشرين من عمرها تزوجت موظفاً بمصلحة المساحة اسمه بوردوفسكي، زواجاً قائماً على الميل، وهذا كله أستطيع أن آتي ببراهين عليه. وقد جمعت كذلك بيانات دقيقة توضح أن أباك، السيد بوردوفسكي، الذي لم يكن يملك أي موهبة تمكنه من النجاح في الأعمال الحرة، قد بادر إلى ترك الوظيفة بعد قبض مهر أمك، وهو خمسة عشر ألف روبل، واندفع في مشروعات تجارية، فخدع وفقد رأس ماله، ثم لم يستطع تحمل هذه الضربة فأخذ يشرب، فدمر بذلك صحته ومات قبل الأوان، بعد زواجه بسبع سنين أو ثماني سنين. وقد شهدت أمك نفسها أنها عاشت في أعقاب موت أبيك حياة فقر مدقع وعوز شديد، حتى لقد كان يمكن أن تضيع لولا المساعدة السخية الكريمة المتصلة التي قدمها إليها بافلشتشيف إذ خصها بإيراد سنوي بلغ ستمائة روبل. وهناك شهادات لا حصر لها تدل على أن بافلشتشيف قد محضك منذ طفولتك أشد العطف وأكبر الحنان. ويُسَدَّل من تلك الشهادات، وقد أيدتها أمك، على أن سبب ذلك العطف وذلك الحنان هو في الدرجة الأولى أنك كنت في طفولتك الأولى عي اللسان ضعيف الجسم هزياً نحيلاً، وكان بافلشتشيف طوال حياته - وأنا أملك البرهان على ذلك - يشعر بعطف خاص على أولئك الذين أساءت الأقدار أو أساءت الطبيعة معاملتهم، ولا سيما إذا كانوا أطفالاً، وفي رأيي أن لهذه الخاصة شأنها الكبير في القضية التي تهمننا الآن. وأستطيع أخيراً أن أتباهى بأنني حققت

اكتشافاً رئيسياً هو الاكتشاف التالي: إن العاطفة القوية التي كان يحملها لك بافلشتشيف (والتي بفضلها دخلت المدرسة وتابعت تعليمك بإشراف إدارة خاصة) قد جعلت أقرباءه وأصدقاءه يتصورون شيئاً فشيئاً أنك قد تكون ابنه، وأن أباك الشرعي قد لا يكون إلاً زوجاً خائنه امرأته، غير أن من الضروري أن نضيف إلى ذلك أن التصور لم يبلغ من القوة حدّ الاقتناع الكامل الشامل إلا في السنين الأخيرة من حياة بافلشتشيف، حين أخذ المحيطون به يخشون أن يكتب وصيته بينما كانت الوقائع الأولى قد نسيت وبينما كانت التحريات قد أصبحت مستحيلة. ولعل هذا الظن قد وصل إلى مسامعك يا سيد بوردوفسكي ولعله استولى على فكرك. وكانت أمك، التي تشرفت بمعرفتها شخصياً، على علم بهذه الشائعة أيضاً، ولكنها ما تزال تجهل أنك صدقت هذه الشائعة أنت ابنها (أخفيت أنا عنها ذلك). يا سيد بوردوفسكي، لقد وجدت أمك المحترمة، في بسفوك، مريضة معوزة أشد العوز بعد وفاة بافلشتشيف. وقد أعلمتني، ودموع الاعتراف بالجميل تملأ عينيها، أنها إذا كانت ما تزال تعيش، فإنما هي تعيش بفضلك وبفضل مساعدتك. وهي تعقد على مستقبلك آمالاً كباراً، وتؤمن إيماناً حاراً بأنك ستنجح...».

نفذ صبر ابن أخت ليبيديف فصاح يقول:

– هذا يتجاوز كل حدٍّ أخيراً! ما فائدة هذه القصة الروائية كلها؟

وتحمّس هيبوليت فقال:

– هذه وقاحة مثيرة!

ولكن بوردوفسكي لم يقل كلمة، بل لم يتحرك.

وردّ جبريل آرداليونوفتش وهو يبتسم ابتسامة مأكرة ويتهياً لخاتمة قارصة، فقال:

– ما فائدة هذا؟ فائدته أولاً أن يستطيع السيد بوردوفسكي الآن أن يقتنع بأن بافلشتشيف قد أحبه مدفوعاً لا بغريزة الأبوة بل بعظمة النفس. فهذه الواقعة وحدها كانت تتطلب أن تقرّر ما دام السيد بوردوفسكي قد أكد وأيد منذ قليل، بعد قراءة المقالة، مزاعم السيد كيلر. أقول هذا لأنني أعدك رجلاً مهذباً يا سيد بوردوفسكي. وفائدة ذلك ثانياً أنه قد اتضح الآن أن نية النصب والاحتيال لم تكن لها وجود حتى عند تشيباروف. إنني أحرص على الإلحاح على هذه النقطة، ذلك أن الأمير قد قال منذ لحظة، أثناء احتدام المناقشة، إنني أشاطره شعوره بأن في هذه القضية المشؤومة محاولة غش ونصب واحتيال. بالعكس: إن الجميع هنا كانوا صادقين. قد يكون

تشيباروف محتالاً كبيراً، ولكنه في الحالة الراهنة لم يكن إلا رجلاً بارعاً ومحامياً محترفاً ومشاكساً لجوجاً. كان يأمل أن يربح مالا كثيراً من حيث هو محام، وكان حسابه لا يتصف بالبراعة فحسب، بل يتصف كذلك بأنه يقوم على أساس قوي: لقد كان يعتمد على ما يتميز به الأمير من أنه رجل سهل العطاء، ومن أنه يقدس ذكرى المرحوم بافلشتشيف، ومن أنه أخيراً (وخاصةً) يفهم واجبات الشرف والتزامات الضمير فهماً فروسياً. أما السيد بوردوفسكي فيمكن أن نقول عنه إنه بسبب بعض اقتناعاته، قد انقاد لتأثير تشيباروف وتأثير المحيطين به انقياداً جعله يتورط في هذا الأمر بدون أية منفعة شخصية تقريباً، وإنما لخدمة قضية الحقيقة والتقدم والإنسانية بمعنى من المعاني. أما وقد انجلت الآن جميع الوقائع، فمن الواضح أن السيد بوردوفسكي رجل صادق رغم جميع المظاهر، ففي وسع الأمير أن يعرض عليه مساعدته الودية ومعونته الفعلية التي عرضها عليه منذ قليل بمناسبة كلامه عن المدارس وعن بافلشتشيف، بل في وسعه أن يعرضها عليه الآن بمزيد من طيب خاطر وطوع الإرادة.

صاح الأمير يقول بلهجة فيها ذعر صادق:

– قف يا جبريل أرداليونوفتش! اسكت!

ولكن الأوان كان قد فات، فها هو ذا بوردوفسكي يصرخ قائلاً في حنق شديد:

– قلت... قلت ثلاث مرات أنني أرفض هذا المال. لا... لن أخذه... لماذا أخذه؟ أنا لا أريده! إنني ذاهب...

قال ذلك وركض إلى الشرفة، فأدركه ابن أخت ليبيديف وأمسكه من ذراعه وهمس له ببعض الكلام. فعاد عندئذ مسرعاً، فاستل من جيبه ظرفاً كبيراً غير مفضوض ورماه على منضدة صغيرة كانت بقرب الأمير، قائلاً:

– إليك المال!... ما كان ينبغي لك أن تجرؤ على أن تقدمه إلي! إليك المال!...

وقال دكتورنكو شارحاً:

– هي الروبلات المائتان والخمسون التي أبحت لنفسك أن ترسلها إليه صدقةً بواسطة تشيباروف.

قال كوليا متعجباً:

– المقالة لا تشير إلا إلى خمسين روبلاً!

قال الأمير وهو يقترب من بوردوفسكي:

- أنا آثم في حقك، أنا آثم جداً في حقك يا بوردوفسكي، ولكنني لم أرسل إليك هذا المبلغ صدقة. صدّقني. وما زلت آثماً في حقك حتى الآن... أثمت في حقك منذ قليل (كان الأمير مشوشاً مضطرباً؛ كان يبدو متعباً موهناً، وكانت أقواله مفككة). لقد تكلمت عن غش ونصب واحتيال... ولكن ذلك لا يتناولك أنت. إنني أخطأت. قلت أنك مريض مثلي... مثلي، ولكن لا، ما أنت مثلي. أنت تعطي دروساً، وأنت تساعد أمك. ولقد قلت أنك لطخت شرف أمك، والحقيقة أنك تحبها. هي نفسها تقول ذلك... لم أكن أعلم... لم يحدثني جبريل آرداليونوفتش عن هذا كله من قبل. إنني أخطأت. وقد تجرأت فعرضت عليك عشرة آلاف روبل، فكان هذا مني إساءة. كان ينبغي لي أن أتدبر الأمر بطريقة أخرى... وقد أصبح هذا مستحيلاً الآن، لأنك تحتقرني...

قالت إليزابت بروكوفيفنا:

- هذا مستشفى مجاني!

فقالت آجاليا مؤيدة وقد أصبحت لا تستطيع السيطرة على نفسها وكبح جماح غضبها:

- هو حتماً مستشفى مجاني!

ولكن كلماتها ضاعت في خضم لغط شامل وجلبة كاملة. الجميع يتكلمون الآن ويتناقشون بصوت عالي. فبعضهم يتشاجرون، وبعضهم يضحكون. وكان إيفان فيدوروفتش إيبانتشين ساخطاً حانقاً، ينتظر إليزابت بروكوفيفنا انتظار رجل أسيء إلى مهابته وأهينت كرامته. وأراد ابن أخت ليبيديف أن يدس كلمة أخيرة، فقال:

- طيب يا أمير! يجب أن ننصفك فنعترف لك بأنك تحسن الاستفادة... من مرضك (إذا أردنا أن نستعمل كلمة مهذبة). لقد بلغت من الحذق والبراعة في عرض صداقتك ومالك أنه أصبح يستحيل على رجل شريف أن يقبلهما في أية صورة من الصور، وعلى أي شكل من الأشكال... هذا إفراط في السداجة أو إفراط في المكر... أنت أدري بذلك من أي إنسان على كل حال.

هاتف جبريل آرداليونوفتش يقول، وكان في أثناء ذلك الوقت قد فض الظرف الذي يضم المال:

- اسمحوا لي يا سادة: ليس في الظرف مائتان وخمسون روبلاً، بل مائة روبل

فحسب. إنني أذكر هذا يا أمير تحاشياً لكل التباس قد يؤدي إلى سوء تفاهم!

قال الأمير لجبريل آرداليونوفتش وهو يحرك يده بإشارة تململ:

- دع هذا! دع هذا! فأسرع ابن أخت ليبيديف يردّ بقوله:

- لا، لا تدع هذا! أن قولك «دع هذا» فيه إهانة لنا يا أمير! إننا لا نتخفى، إننا نتكاشف صراحة: نعم، ليس في الظرف إلا مائة روبل لا مائتان وخمسون. ولكن الأمرين واحد. أليس الأمران واحد؟

أجاب جبريل آرداليونوفتش بلهجة فيها دهشة ساذجة:

- لا، ليس الأمران واحداً!

فصرخ ابن أخت ليبيديف يقول غاضباً حانقاً:

- لا تقاطعني. لسنا أغبياء إلى الحد الذي تظنّ يا سيادة المحامي. واضح أن مائة روبل ليست مائتين وخمسين روبلاً. لكن الشيء الهامّ هنا إنما هو المبدأ. أمّا أن ينقص المبلغ مائة وخمسين روبلاً فذلك أمر تفصيلي. أن الشيء الأساسي هو أن بوردوفسكي لا يقبل صدقتك وأنه يرميها في وجهك أيها الأمير العظيم! فمن هذه الناحية، وعلى هذا الأساس يستوي أن يردّ مائة وأن يردّ مائتين وخمسين. لقد رأيت بنفسك منذ قليل أنه رفض عشرة آلاف. ولولا أنه رجل شريف لما ردّ حتى هذه المائة روبل! إن المائة وخمسين روبلاً الناقصة إنما دُفعت لتشيباروف لقاء نفقات سفره حين مضى يلقي الأمير. لك أن تسخر من خراقتنا ومن جهلنا في شؤون الأعمال. وقد بذلت قصارك لتتندرّ بنا وتضحك علينا في كل حال. ولكن لا تسمحنّ لنفسك بأن تقول أننا أناس غير شرفاء! أيها السيد العزيز، نحن مسؤولون جميعاً عن دفع المائة وخمسين روبلاً للأمير، نعم، سوف نردّ إليه المبلغ كاملاً مع الفوائد ولو اضطررنا أن نردّه روبلاً روبلاً. إن بوردوفسكي فقير. ما هو بالمليونير. وقد قدم إليه تشيباروف فاتورة الحساب بعد رحلته. وكنا نأمل أن نربح... من ذا الذي يمكن أن لا يفعل الذي فعل، لو كان في مكانه؟

صاح الأمير «شتش...» يقول:

- يا له من سؤال!

وهتفت إليزابت بروكوفيتنا:

- أمور تدفع المرء إلى الجنون!

وقال أوجين بافلوفتش ضاحكاً، وكان قد ظل يلاحظ المشهد مدة طويلة دون أن يتحرك:

- هذا يذكر بالمرافعة التي ألقاها في الآونة الأخيرة محام شهير كان موكله قد قتل ستة أشخاص ليسرقهم. لقد أشار المحامي إلى الفقر ليبرر الجريمة، وختم كلامه بهذه الكلمات تقريباً: «واضح أن الفقر هو الذي أثبت في ذهن موكلي فكرة قتل أولئك الأشخاص الستة. من ذا الذي يمكن أن لا تنبت هذه الفكرة في ذهنه لو كان في مكانه؟». لقد قال المحامي كلاماً من هذا النوع. ومهما يكن من أمر فقد كان استدلاله في منتهى الطرافة والفكاهة!

قالت إليزابت بروكوفيفنا فجأة وهي ترتعش أشد الارتعاش من فرط الغضب:

- كفى كفى! آن لنا أن نضع حداً لهذا اللغو السخيف والهدر التافه!

كانت إليزابت بروكوفيفنا في حالة احتياج رهيب. وها هي ذي، وقد ردت رأسها إلى الوراء ولاحت في وجهها علائم التهديد، ترشق الحضور جميعهم بنظرة تحد واستفزاز، لا تميز فيهم بين أصدقاء وأعداء. إن حنقها الذي طال كظمه ينفجر أخيراً وينطلق عارماً قوياً. كانت في حاجة إلى أن تقا تل وتعارك، كانت في حاجة إلى أن تهوي على أي مخلوق بأقصى سرعة. فسرعان ما أدرك الذين يعرفونها أن شيئاً خارقاً يحدث الآن في نفسها. لقد قال إيفان فيدوروفتش في الغد للأمير «شتش...» أن هذه النوبات تعترئها أحياناً، ولكنها قلما تكون على مثل هذه الدرجة من العنف - فلعلها لا تبلغ هذا الحد من القوة إلا مرة كل ثلاث سنين!

صاحت إليزابت بروكوفيفنا تقول:

- كفى يا إيفان فيدوروفتش! دعني! لماذا تقدم إليّ ذراعك الآن؟ إنك لم تخرجني من هذا المكان قبل هذه اللحظة، وأنت الزوج ورب الأسرة فكان ينبغي لك أن تجرني من أذني لو بلغت من حماقة حد الامتناع عن طاعتك وأتباعك. كان ينبغي لك أن تفكر في بناتك على الأقل! لأهتدين إلى طريقي الآن بدونك، بعد هذه المهانة التي سأظل أحمرّ خجلاً منها طوال سنة بكاملها!.. انتظر، عليّ أن أشكر الأمير أيضاً!.. شكراً يا أمير على هذه البهجة العظيمة التي هيأتها لنا! كيف ارتضيت لنفسي أن أبقى هنا لأصغي إلى كلام هؤلاء الشبان؟ يا لها من حطة! يا لها من حطة!... فوضى، فضيحة، جرسة، لا يرى المرء مثلها حتى في كابوس! هل هناك أناس كثيرون من هذا

النوع؟... اسكتي يا آجلايا! اسكتي يا الكسندرا! ليس هذا شأنكما!... لا تدُر حولي هذا الدوران يا أوجين بافلوفتش، إنك تثير أعصابي!...

وعادت تخاطب الأمير فتقول:

- أهكذا إذاً يا عزيزي؟ أنت الذي تستغفرهم؟ لا تؤاخذني على أنني سمحت لنفسي أن أهدي إليكم ثروة... هكذا يقول لهم!...

والتفتت إلى ابن أخت ليبيديف فقالت فجأة:

- وأنت أيها الوقح ما الذي يضحكك؟ هذا يقول: «نحن نرفض المبلغ المعروض، إننا نطالب ولا نستجدي!» كأنه لا يعلم أن هذا الأبله سيمضي يعرض عليهم صداقته وماله منذ الغدا أليس هذا ما ستفعله يا أمير؟

أجاب الأمير بصوت رقيق مغلوب:

- نعم!

فعادت تهاتف قائلة لدكتورنكو:

- هل سمعته؟ ذلك بعينه هو ما تعولّ عليه. لكأنّ هذا المال في جيبك منذ الآن. فإذا كنت تتظاهر بالشمم والعظمة، فإنك لا تفعل ذلك إلا لتخدعنا... لا يا عزيزي، اخدع غيري أن استطعت، أمّا أنا فإن لي عينين تبصران... إنني أرى لعبتك!

هتف الأمير:

- إليزابت بروكوفيفنا!

فاقترح الأمير «شتش...» قائلاً وهو يبتسم ويصطنع أكبر الهدوء:

- فلننصرف يا إليزابت بروكوفيفنا! أن الأوان وأكثر! ولنأخذ الأمير معنا.

كانت الأنسات منحنيات حتى لكانهن مروّعات. أمّا الجنرال فكان مروّعاً بالفعل. وكانت الدهشة تُقرأ في جميع الوجوه. وكان بعض الذين بقوا في الخلف يضحكون خفية ويتهامسون. وكانت هيئة ليبيديف تعبر عن أقصى الوجد والنشوة.

قال ابن أخت ليبيديف، وهو يشعر مع ذلك بغير قليل من الحرج:

- الفوضى والفضائح يا سيدتي موجودة في كل مكان!

فأجابت إليزابت بروكوفيفنا تقول بحلق متشنج:

- ليس إلى هذا الحدّ، ليس إلى هذا الحد!

وأضافت تقول للذين حاولوا أن يهدّثوها:

- هلاً تركتموني وشأني! دعوني وشأني!

واتجهت إلى أوجين بافلوفتش فقالت:

- إذا استطاع محام أن يعلن في المحكمة، كما ذكرت أنت نفسك منذ هنيهة يا أوجين بافلوفتش، أنه يرى أن من الطبيعي جداً أن يقتل أمرؤ ستة أشخاص بدافع الفقر، فهذا دليل على اقتراب الساعة. لم أسمع في حياتي شيئاً من هذا القبيل. الآن أصبح كل شيء واضحاً لي. انظروا إلى هذا الثأثاء مثلاً (قالت ذلك وهي تشير إلى بوردوفسكي الذي كان ينظر إليها مشدوهاً): أهو يتورّع عن أن يقتل؟ أراهن على أنه سيقتل أحداً. قد لا يأخذ العشرة آلاف روبل، قد يرفضها بشرف وإباء. ولكنه ما يلبث أن يعود في الليل، فيذبحك ويسرق المال من صندوقك بشرف وإباء أيضاً! لن يعدّ ذلك عملاً إجرامياً. سوف يعدّه «نوبة يأس نبيل»، أو يعدّه بادرة إنكار ورفض، أو ما لا أدري أيضاً!.. هه... العالم مقلوب، الناس يسرون على رؤوسهم لا على أقدامهم. إن فتاة تربت في منزل أبيها تقفز اليوم إلى الشارع قائلة لأُمها: «يا ماما، تزوّجت بالأمس فلاناً، كارلتش أو إيفانتش، فأستودعكم الله!». هل ترون هذا حسناً؟ هل تعدّونه أمراً لاثقاً؟ هل تجدونه شيئاً طبيعياً؟ أهذه قضية المرأة؟ انظروا إلى هذا الصبي (قالت ذلك مشيرة إلى كوتيا) لقد زعم لي منذ مدة أن قضية المرأة هي ذلك بعينه. هب أمك غبية حمقاء! أن هذا لا ينفي أن عليك أن تعاملها معاملة إنسانية!... لماذا دخلتم منذ قليل بتحدّ واستفزاز كأنكم تقولون: «إننا نتقدّم، فلا تتحرّكوا! أعطونا جميع الحقوق ولكن إياكم أن تقولوا بحضورنا كلمة واحدة. أحيطونا بجميع أنواع الرعاية والمدارة، ما تعرفون منها وما لا تعرفون. ولكننا سنعاملكم نحن كما يعامل أحقر خادم!...». إنهم يسعون إلى الحقيقة، ويستندون إلى الحق، ولكن ذلك لا يمنعهم من أن يفتروا على الأمير في مقالتهم افتراء الكفرة. «ونحن نطالب ولا نستجدي. لن تنالوا منا أية كلمة تعبر عن الشكر، لأن ما تفعلونه إنما تفعلونه لراحة ضميركم أنتم!» يا لها من أخلاق رائعة! كيف لا تدرك أنك حين تعفي نفسك من أي شكر فإنما تتيح للأمير أن يجيبك من جهته بأنه غير مضطر أن يشعر بأي امتنان نحو بافلشتشيف، لأن بافلشتشيف لم يفعل ما فعله، هو أيضاً، إلا لراحة ضميره. فكيف تعولّ إذاً على شعور الأمير بالامتنان نحو بافلشتشيف؟ إن الأمير لم يقترض منك مالاً، فهو غير مدين لك بشيء. فعلى أي شيء اعتمدت إذا لم تكن قد اعتمدت على ذلك الشعور بالامتنان؟ ولماذا

ترفض إذاً ذلك الشعور؟ ألا أن هذا لضلال! هؤلاء أناس يتهمون المجتمع بالقسوة والتجرد من الإنسانية لأنه يجلل بالعار فتاة أُغويَتْ؛ وهم حين يفعلون ذلك يعترفون بأن الفتاة المسكينة تتألم من المجتمع. فكيف يجيزون لأنفسهم، والحالة هذه، أن يذيعوا خطيئتها بواسطة الجرائد على أشرار الناس وأن يدعوا أنها تتألم من هذا التشهير بها؟ ألا إن ذلك لجنون! ألا إن ذلك لتبجح وادّعاء! إنهم لا يؤمنون بالله ولا بالمسيح. ولكن الغرور والصلف يأكلان نفوسهم أكلاً، ولينتهين بهم الأمر إلى أن يلتهم بعضهم بعضاً. أنا أقول لكم ذلك. أنا أتنبأ لكم به! أليس هذا جنوناً وفوضى وجرصة؟ وانظروا من بعد إلى هذا الرجل الذي لا حياء له، إلى هذا الرجل الذي يستغفرهم! هل يوجد أناس كثيرون من أمثالكم؟ أتضحكون ساخريين؟ الأنني أدلت نفسي بالتورط في الكلام معكم؟ نعم، لقد أدلت نفسي بذلك حقاً، ولا سبيل إلى إصلاح الأمر... أما أنت، أيها التافه الذي لا يصلح لشيء (وجهت هذا الكلام إلى هيبوليت)، فإنني أنهاك عن الضحك مني! إنه لا يكاد يستطيع التنفس، ولكنه يفسد الآخرين. لقد أفسدت لي هذا الصبي (قالت ذلك مشيرة إلى كوليا من جديد). فهو لا يحلم إلا بك. إنك تلقنه الإلحاد. أنت لا تؤمن بالله، مع أنك ما تزال، أيها السيد الصغير، في سن يجوز فيها جلدك!.. على كل حال، اذهبوا جميعاً إلى جهنم! يا ليون نيقولايفتش، أصبح أنك ستذهب إليهم غداً؟ أذهب إليهم فعلاً؟

أقلت على الأمير هذا السؤال وهي تكاد تختنق غيظاً. فأجابها الأمير بقوله:

– نعم، سأذهب.

– إذا صدق هذا فلا أريد أن أعرفك بعد اليوم!

وهمّت بالانصراف فجأة، ولكنها لم تلبث أن التفتت تسأله وهي تشير إلى هيبوليت:

– أذهب إلى هذا الملحد أيضاً؟

وأضافت صائحة تقول بصوت غير معهود فيها، وقد هجمت على هيبوليت الذي أخرجتها ضحكته الساخرة عن طورها:

– ما لي أراك كمن يسخر مني؟

فصاحت أصوات تناديهما من كل جهة:

إليزابت بروكوفيفنا! إليزابت بروكوفيفنا!

وهتفت أجاليا تقول بصوت قوي:

- ماما!... هذا عيب!...

كانت إليزابيث بروكوفينا قد وثبتت على هيبوليت فأمسكت ذراعه تشدّها شداً قوياً بحركة مندفعة، وتتفرّس في وجهه بنظرة تفيض حنقاً وسخطاً.

قال هيبوليت بهدوء ورصانة:

- لا تجزعي يا آجلايا إيفانوفنا. لسوف تدرك أمك أن المرء لا يهجم على مريض يُحتضر... وإني لمستعدّ على كل حال لأن أشرح لها لماذا كنت أضحك... سوف يريحني كثيراً أن أفصح في أن...

غير أن نوبة سعال رهيب قد اعترته فجأة ولم يستطع أن يكبحها.

هتفت إليزابيث بروكوفينا تقول وهي تترك ذراع هيبوليت وتنظر إليه مذعورة بعض الذعر، حين رآته يمسح الدم الذي طفر إلى شفثيه:

- محتضر لا يكف عن إلقاء خُطب! ماذا تريد أن تقول؟ أولى بك أن تمضي إلى فراشك فترقد...

أجابها هيبوليت قائلاً بصوت ضعيف محجوب يشبه أن يكون همساً:

- ذلك ما سأفعله. فما أن أصل إلى البيت حتى أرقد في فراشي. سأموت بعد خمسة عشر يوماً، أنا أعرف ذلك. إن الدكتور «ب.ب.» نفسه قد أعلن لي هذا في الأسبوع الماضي. لذلك سأودعكم بكلمتين، إذا أذنت لي.

صاحت إليزابيث بروكوفينا تقول مروّعة:

- أحسب أنك فقدت عقلك! ما هذه الحماسة! عليك أن تعالج نفسك. ليس الوقت وقت أحاديث وخطب. امض امض إلى سريرك!..

قال هيبوليت مبتسماً:

- سأرقد في سريرتي... وسأرقد رقاداً لا قيام بعده. أمس أردت أن أرقد منتظراً الموت، ثم أمهلت نفسي يومين ما دامت ساقي تستطيعان أن تحملاني... بغية أن أجيء معهم اليوم إلى هنا... ولكنني تعبت حقاً...

قالت له إليزابيث بروكوفينا وهي تقدم إليه بنفسها كرسي:

- فاجلس إذا! اجلس! لماذا تبقى واقفاً؟

قال هيبوليت بصوت منطفيء:

- شكراً. اجلسي أمامي ولنتحدث... يجب أن نتحدثَ حتماً يا اليزابت بروكوفيفنا...
إنني أصرُ على هذا الآن... (أضاف ذلك مبتسماً من جديد). لاحظي أن هذا اليوم هو
آخر يوم أقضيه في الهواء الطلق بين الناس. وبعد خمسة عشر يوماً سأكون تحت
التراب حتماً. فهذا إذا وداع للبشر وللطبيعة بمعنى من المعاني. إنه ليسرني جداً، رغم
أنني لست عاطفياً كثيراً - هل تصدّقين؟ - أن يتمّ هذا في بافلوفسك؛ فهذا أرى
الخضرة والأشجار على الأقل...

قالت اليزابت بروكوفيفنا وكان ارتياحها يزداد دقيقة بعد دقيقة:

- أهذا أوان الإكثار من الكلام؟ إنك تعاني حمّى شديدة. منذ قليل كنت تصيح
صياحاً قوياً، كنت تعول إعوالاً شديداً. وها أنت ذا الآن لا تكاد تستطيع أن تتنفس.
- لن أتأخر عن الخلود إلى الراحة. لماذا لا تريدين أن تستجيبى لرغبتى القصوى؟..
هل تعلمين أنني أحلم منذ مدة طويلة بأن ألقاك يا اليزابت بروكوفيفنا؟ لقد سمعتا
عنك كثيراً... من كوليا... الذي هو الشخص الوحيد الذي لم يهجرني... الشخص
الوحيد تقريباً... أنت امرأة أميل إلى الطرافة والغرابة والتفرد... أدركت هذا الآن...
هل تعلمين أنني أحببتك بعض الحب؟...

- ربه! ما كان أغباني حين أوشكت أن أضربه!

- إن أجاليا إيفانوفنا، إذا لم يخطئ ظني، هي التي نهتك عن ذلك! أليست هي
ابنتك أجاليا إيفانوفنا؟ إنها تبلغ من الجمال أنني ما أن أبصرتها هنا حتى عرفتُها، رغم
أنني لم أكن قد رأيتها قبل اليوم قط.

وأردف هيبوليت يقول وهو يبتسم ابتسامة خرقاء مرتبكة:

- دعي لي على الأقل أن أتأمل الجمال لآخر مرة في حياتي! أنت هنا مع الأمير،
ومع زوجك، ومع حفل بكامله. فلماذا ترفضين أن تلبي آخر رغبة لي؟

صاحت اليزابت بروكوفيفنا تقول:

- أعطوني كرسيّاً!

ولكنها لم تنتظر أن يعطيها أحد كرسيّاً، بل تناولت بنفسها مقعداً من المقاعد
وجلست قبالة هيبوليت. ثم قالت تأمر كوليا:

- كوليا، اصحبه إلى البيت في الحال؛ وغداً لن يفوتني أنا نفسي أن...

- إذا أذنت لي، طلبتُ من الأمير فنجان شاي. إنني أشعر بتعب شديد. ألم تكوني تريدين، يا اليزابت بروكوفينا، أن تصطحبي الأمير إلى بيتك لاحتساء الشاي؟ فابقوا إذاً هنا، ولنقض لحظة معاً. لا شك أن الأمير سيأمر لنا جميعاً بشاي. اغفري لي تصرفي هذا... ولكنني أعلم أنك طيبة القلب نبيلة النفس. وكذلك الأمير... نحن جميعاً طيبون إلى درجة تبعث على الضحك...

تحرك الأمير. وخرج ليبيديف من الشرفة راكضاً، وأسرعت فيرا تتبعه.

قالت الجنرالة فجأة:

- أنت على حق. تكلم، ولكن في رفق وهدوء، ولا تدع للهيجان سبيلاً إلى نفسك. لقد أثرت حناني... يا أمير، ما كنت لتستحق أن أشرب الشاي في بيتك، ولكنني أبقى مع ذلك، دون أن أعتذر لأحد. نعم، دون أن أعتذر لأحد! وإلا كان ذلك مني سخفاً! على كل حال، إذا كنت قد أسأت معاملتك يا أمير، فإنني أعتذر إليك وأطلب مغفرتك، إذا أنت أردت طبعاً!

ثم أضافت تقول لزوجها وبناتها بلهجة حانقة كل الحنق كأنها حاقدة عليهم من إساءة كبيرة ألحقوها بها:

- ولست أجبر أحداً أن يبقى معي، فإنني أستطيع أن أرجع إلى البيت وحدي...

ولكنهم لم يدعواها تتم كلامها، بل أسرعوا يقتربون منها، ويحيطون بها، ويسعون إليها. وما لبث الأمير أن رجا الجميع أن يبقوا لاحتساء الشاي، واعتذر عن أنه لم يبادر إلى هذا من قبل. حتى الجنرال إيبيانتشين هشّ وبشّ فقال بضع كلمات تطيب الخواطر وتهدي النفوس، وسأل إليزابيت بروكوفينا أليست تشعر في الشرفة بشيء من البرد، حتى لقد هم أن يسأل هيبوليت منذ متى التحق بالجامعة، ولكنه أمسك. وامتلأ أوجين بافلوفتش والأمير «شتش...» مرحاً وفرحاً على حين فجأة. وعبر وجهها آديلايد وألكسندرا عن السرور والرضى رغم احتفاظهما بمعنى الدهشة والتعجب. الخلاصة أن الجميع قد أسعدهم إسعاداً واضحاً أن نوبة الغضب التي اعترت إليزابيت بروكوفينا قد انقضت بسلام، إلا أجاليا وحدها، فقد ظلت عابسة الوجه صامتة متنحية. وبقي الجميع، لم يشأ أحد منهم أن ينصرف، حتى الجنرال إي فولجين. ولكن ليبيديف همس يقول له شيئاً لا بد أنه لم يرضه، فغاب في ركن من الأركان.

واقترب الأمير من بوردوفسكي وصحبه يدعوهم إلى احتساء الشاي دون أن يستثني أحداً. فجمعوا يقولون بصوت أجش أنهم سوف ينتظرون هيبوليت، ثم أسرعوا ينسحبون إلى زاوية من الشرفة حيث جلسوا جنباً إلى جنب.

لا بد أن ليبيديف كان قد أمر بإعداد الشاي لأصحابه منذ مدة طويلة، لأن الشاي قد قُدمت فوراً.

ودقت الساعة الحادية عشرة.

الفصل العاشر

بلل هيبوليت شفّتيه بفنجان الشاي الذي قدّمته إليه فيرا ليبيديفا، ثم وضع الفنجان على منضدة صغيرة، ثم ألقى على ما حوله نظرة محرّجة مرتبكة تكاد تكون زائغة. وقال متدفّقاً:

- انظري إلى هذه الفناجين يا إليزابت بروكوفيفنا. إنها من خزف، بل هي من أجمل الخزف فيما أظنّ. إن ليبيديف يحتفظ بها دائماً في خزانة صغيرة وراء زجاج... ولا يستعملها قط... لا شك في أنها كانت جزءاً من مهر زوجته... وقد أخرجها اليوم تكريماً لك من غير شك.. فإلى هذا الحدّ وصل سروره واغتيباطه...

أراد هيبوليت أن يضيف شيئاً آخر، لكن الكلمات لم تُوافه.

فهمس أوجين بافلوفتش يقول في أذن الأمير:

- ها هو ذا يضطرب ويرتبك... لقد كنت أتوقع ذلك. هذا خطر، أليس صحيحاً؟ تلك علامة ثابتة على أن خبث نفسه وسوء سريرته سيوحيان إليه تصرفاً يبلغ من الشذوذ أن اليزابت بروكوفيفنا نفسها لن تطيق احتماله.

ألقى عليه الأمير نظرة سائلة مستفهمة. فتابع أوجين بافلوفتش كلامه فقال:

- ألا تخشى التصرفات الشاذة؟ أنا أيضاً لا أخشاها... حتى أنني أتمناها، على الأقل عقاباً لصاحبتنا الطيبة إليزابت بروكوفيفنا. يجب أن تنال هذا العقاب في هذا اليوم نفسه. لا أريد أن أنصرف قبل ذلك. أتراك مصاب بحمّى؟

أجاب الأمير متململاً:

- سأجيبك فيما بعد. لا تمنعني من الإصغاء.

كان الأمير قد سمع اسمه يُذكر. إن هيبوليت يتحدث عنه. فهو يقول ضاحكاً ضحكاً عصبياً:

- ألا تصدّقين هذا؟ كنت أتوقع أن لا تصدّقيه. أمّا الأمير فسوف يصدّقني دفعة

واحدة، ولن يُدهش البتة.

قالت إليزابيث بروكوفينا وهي تلتفت إليه:

– أسمعته يا أمير؟ أسمعته؟

وكان الجميع يضحكون من حولهم. وكان ليبيديف يصطنع هيئة القلق ويدور أمام الجنرالة.

– هو يدعي أن هذا المهرج مؤجّر قد راجع مقالة هذا السيد، أعني المقالة التي قرئت لك هذا المساء والتي تتناولك.

نظر الأمير إلى ليبيديف مدهوشاً.

واستأنفت إليزابيث بروكوفينا كلامها وهي تضرب الأرض بقدمها قائلة:

– ما بالك تصمت؟

فدمدم الأمير يقول وهو ما يزال يحدّق إلى ليبيديف:

– إنني لأرى أنه قد راجع المقالة حقاً.

فالتفتت إليزابيث بروكوفينا نحو ليبيديف بقوة وسألته:

– أهذا صحيح؟

فقال ليبيديف بثقة تامة وهو يضع يده على قلبه:

– هذه هي الحقيقة بعينها يا صاحب السموّ.

فصاحت الجنرالة تقول وقد وثبت على كرسيها:

– لكأنه يتباهى بهذا!

فتمتم ليبيديف قائلاً وقد أخذ يلطم صدره ويحني رأسه شيئاً بعد شيء:

– أنا رجل منحط أنا رجل منحط!

– لا يعني أن تقول إنك منحط! هو يظنّ أنه يكفيه أن يقول «إنه منحط»، حتى

يخرج من المأزق وحتى يبرّئ ذمته. يا أمير، مرّة أخرى أسألك: ألا تستحي أن تعاشر أمثال هؤلاء الناس؟ أنني لن أغفر لك هذا أبداً.

قال ليبيديف بلهجة فيها اقتناع وعاطفة:

- سيسامحني الأمير!

وأسرع كيللر يقترب من اليزابت بروكوفيفنا، فيقف أمامها، ويقول بصوت منفجر:

- من باب الكرم وحده يا سيدتي، ومن أجل أن لا أفضح صديقاً معرضاً للأذى، إنما سكتُ منذ قليل عن مراجعته لمقالاتي فلم أجيء على ذكرها ولا أشرت إليها، رغم أنه اقترح رمينا إلى أسفل السلم كما سمعت ذلك بأذنيك. ففي سبيل أن أقرر الحقيقة أعترف الآن بأنني استعنت به في ذلك فعلاً ونقدته ستة روبلات أجراً. ثم أطلب إليه أن ينقح الأسلوب، وإنما طلبت إليه أن يكشف لي، بصفته مصدراً مطلعاً، على وقائع كنت أجهل أكثرها. فكل ما ورد ذكره في المقالة عن لبادتي الحذاءين اللذين كان ينتعلهما الأمير، وعن إشباع الأمير نهمه على نفقة البروفسور السويسري، وعن الخمسين روبلاً التي ذكرت بدلاً عن المائتين وخمسين المدفوعة فعلاً، كل هذه المعلومات كان هو مصدرها. وقد نقدته ستة روبلات أجراً على هذا لا على تصحيح اللغة وتنقيح الأسلوب.

قاطع ليبيديف كلام كيللر فقال نافد الصبر بصوت يزحف من ذله زحفاً أن صحّ التعبير، بينما كانت الضحكات تتضاعف من حوله:

- يجب أن ألقت النظر إلى أنني لم أراجع من المقالة إلا الجزء الأول. فإننا حين وصلنا إلى الجزء الثاني اختلفت آراؤنا حتى لقد تشاجرنا بصدد فكرة جئت بها، فعدلت عن تصحيح الجزء الثاني من المقالة. فلا يمكن إذاً أن أعدّ مسؤولاً عما تضمنه من أخطاء كثيرة وأقاويل كاذبة.

- ذلك ما يشغل باله!

كذلك هتفت اليزابت بروكوفيفنا.

قال أوجين بافلوفتش يسأل كيللر:

- هل تسمح لي أن أسألك متى تمت مراجعة المقالة؟

فأجابه كيللر طائعاً:

- صباح أمس. اجتمعنا اجتماعاً تعاهدنا فيه على أن يبقى الأمر بيننا سراً مكتوماً لا نطلع عليه أحداً.

قالت اليزابت بروكوفيفنا:

- ذلك بينما كان يزحف أمامك معلناً لك ولاءه وإخلاصه. يا لهؤلاء البشر! في وسعك أن تحتفظ ببوشكين، ولا تظهرن بنتك عندي قط!

وأرادت اليزابت بروكوفينا أن تنهض، لكنها وقد رأت هيبوليت يضحك، حوّلت غضبها إليه قائلةً:

- ماذا يا عزيزي؟ هل آليت على نفسك أن تتخذني هنا هزواً؟

فأجاب هيبوليت وهو يبتسم ابتسامة خرقاء:

- معاذ الله! لكنك يا اليزابت بروكوفينا قد خطفت انتباهي بما تتصفين به خاصة من غرابة لا يصدقها العقل! أعترف لك بأنني تعمّدت أن أثير موضوع ليبيديف. كنت أتوقع الأثر القوي الذي لا بدّ أن يحدثه فيك هذا الموضوع، فيك أنت وحدك، لأن الأمير سيغفر له حتماً، بل لا شك في أنه قد غفر له منذ الآن؛ ولعله قد وجد لفعلته عذراً. أليس هذا صحيحاً يا أمير؟

كان هيبوليت يلهث، وكان انفعاله الغريب يقوّى عند كل كلمة يقولها.

قالت إيزابت بروكوفينا غاضبة وقد فاجأتها لهجة صوته:

- هيه، وماذا؟

فتابع هيبوليت كلامه قائلاً:

- سبق أن سمعت عنك أشياء كثيرة من هذا النوع... بفرح شديد... لقد تعلمت أن أحترمك أعظم الاحترام.

كان يتكلم وفي هيئته ما يدل على أنه يريد أن يعبر عن شيء آخر يختلف كل الاختلاف عما كان يقوله. وكان حديثه المتدفق يكشف في الوقت نفسه عن رغبة في السخرية وعن اضطراب مشوّش. إنه يلقي حواليه نظرات شك وريب، ويرتبك ويتيه عند كل كلمة جديدة. وكانت هيئته التي هي هيئة مريض بالسُّل، وعيناه الملتمعتان، ونظرته المتحمّسة، كان ذلك كله أكثر مما يحتاج إليه الحاضرون جميعاً لينصرفوا بانتباههم إليه انصرافاً تاماً.

وتابع كلامه يقول:

- رغم أنني لا أعرف من آداب المجتمع شيئاً (وذلك ما أعترف به)، كان يمكن أن يدهشني أن أراك تمكثين في جمع كجمعنا هذا الذي تعدّينه غير لائق، وكان سيدهشني

أن أراك تتركين... لهاته الفتيات أن يسمعن قضية شائكة فاضحة، رغم أن قراءة الروايات قد سبق أن علمتهن كل شيء. ومهما يكن من أمر، فمن الجائز أنني أعلم... لأن أفكاري تضطرب وخواطري تختلط. ولكن مما لا شك فيه على كل حال أن أحداً غيرك ما كان ليرضى أن يبقى... تلبية لطلب صبي (نعم، صبي، إنني أعترف بهذا أيضاً) فيقضي السهرة معه، ويشارك في كل شيء، وإن احمرّ خجلاً من ذلك في الغد... (على أنني أقرُّ بأنني أخبط في التعبير خبط عشواء). ذلك كله يبدو لي خليقاً بأن يُحمد، ويبدو لي جديراً بأن يُحترم كل الاحترام، رغم أن وجهه زوجك يعبر تعبيراً واضحاً عن مدى انزعاج سيادته مما يجري هنا... هيء هيء!...

أخذ هيبوليت يقهقه، واضطرب فجأة، ثم هزته نوبة سعال شديدة حالت بينه وبين الاستمرار في الكلام مدة دقيقتين.

قالت إليزابيث بروكوفيفنا بلهجة باردة جافة، وهي تلقي عليه نظرة استطلاع خالية من التعاطف:

– ها هو ذا يختنق! كفي يا صغيري! كفي! حسبك هذا!

وتدخل إيفان فيدوروفتش غاضباً فقال وقد نفذ صبره:

– دعني أنبّهك إلى شيء أيها السيد الصغير. إن زوجتي هي هنا عند الأمير ليون نيقولايفتش، جارنا وصديقنا المشترك. فلست أنت، أيها الفتى، في أي حال من الأحوال، من يحق له أن يحكم على أفعال إليزابيث بروكوفيفنا، ولا أن يعبر جهاراً، بحضوري، عما تظن أنك تقرأه في وجهي. مفهوم؟

ثم تابع كلامه وهو يزداد اندفاعاً وحماسة:

– ولئن بقيت هنا، فإنما بقيت، أيها السيد، مدفوعاً بعامل المفاجأة وحب الاطلاع، وذلك حين رأيت هؤلاء الشباب الذين يثيرون حب الاطلاع بغرابتهم فعلاً. ولقد بقيت أنا أيضاً كما أبقى أحياناً في الشارع حين أرى شيئاً يمكن أن يعد... أن يعد...
قال أوجين بافلوفتش محاولاً إسعاف صاحبه:

– أن يعد شيئاً غريباً نادراً.

فأسرع الجنرال يقول وقد تورط في البحث عن تشبيه:

– نعم، هذه هي الكلمة. مهما يكن من أمر فإن ما يبدو لي باعثاً على الدهشة ومثيراً

للحزن إن صحّ التعبير هو أنك أيها الفتى لم تستطع حتى أن تدرك أن إليزابيت بروكوفيفنا لم تمكث الآن معك إلا لأنك مريض ولأنها أيقنت أنك مشارف على الموت، فكانت الشفقة هي التي ألهمتها سلوكها إذ سمعت أقوالك التي تثير الرحمة والرأفة. فما من لطخة أيها السيد يمكن أن تنال من اسمها أو مزاياها أو منزلتها الاجتماعية...

ثم ختم كلامه بقوله وقد احمز وجهه غضباً:

– إليزابيت بروكوفيفنا، إذا كنت تريدين الانصراف فلنودّع صاحبنا الأمير الطيب ول....

فقاطعه هيبوليت بلهجة فيها رصانة غير متوقعة، وكان يحدّق إلى إيفان فيدوروفتش بنظرة حاملة:

– أشكر لك هذا الدرس يا جنرال.

قالت آجلايا وهي تنهض، بلهجة تدل على الغضب ونفاد الصبر:

– هلمّي ننصرف يا ماما، فإنّ هذا الأمر يمكن أن يطول كثيراً.

قالت إليزابيت بروكوفيفنا بوقار وهي تلتفت نحو زوجها:

– دقيقتين أخريين من فضلك يا عزيزي إيفان فيدوروفتش. أظن أنه مصاب بنوبة حمّى، وأنه يهذي لا أكثر. أرى هذا في عينيه. لا يمكن أن نتركه وهو على هذه الحال. يا ليون نيقولايفتش، أليس في وسعه أن يبيت عندك، حتى لا يكون ثمة اضطراب إلى نقله إلى بطرسبرج-

ثم أضافت تقول مخاطبة الأمير «تشتش...»:

– هل سئمت أو ضجرت أيها الأمير العزيز؟

ثم قالت تخاطب ألكسندرا:

– تعالي يا ألكسندرا، رتّبي شعرك قليلاً يا عزيزتي.

وراحت إليزابيت بروكوفيفنا ترتّب شعر ابنتها، مع أنه لم يكن يُعوّزه أي ترتيب، ثم قبلتها، والواقع أن هذه القبلة كان هي الغرض من مناداة الفتاة إليها.

عاد هيبوليت يقول وقد خرج من أحلامه:

- كنت أظنك قادراً على شيء من التطور الفكري... نعم، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك (أضاف ذلك مرتاحاً ارتياح إنسان تذكر شيئاً منسياً). انظر إلى بوردوفسكي: هو يريد صادقاً أن يدافع عن أمه، أليس كذلك؟ ولكنه في نهاية الأمر لطخ شرفها بالعار. انظر إلى الأمير: إنه يرغب في أن يساعد بوردوفسكي، وهو إذ يمحضه أرق العاطفة وينفحه المال إنما يصدر عن أحسن نية وأكرم شعور، ولعله بيننا الإنسان الوحيد الذي لا يكرهه ولا ينفر منه. وها هما مع ذلك يقفان أحدهما من الآخر موقف العدو! ها ها ها!... أنتم جميعاً تكرهون بوردوفسكي لأنه يتصرف مع أمه تصرفاً ليس فيه لباقة وأناقة فيما ترون، أليس كذلك؟ هو كذلك؟ هو كذلك، هه؟ إنكم جميعاً متعلقون تعلقاً مسعوراً بجمال الأشكال ولطف الآداب في السلوك (كنت أقدر منذ زمن طويل أنكم لا تحفلون إلا بهذا)، فاعلموا أن أحداً منكم لعله لم يحبب أمه كما أحب بوردوفسكي أمه. أنا أعلم أنك أرسلت إلى هذه المرأة مالاً بواسطة جانيا دون أن يعلم بذلك أحد. ألا أنني لمستعد أن أراهن على أن بوردوفسكي سيتهمك الآن بقلة اللباقة وعدم المداراة تجاه أمه. نعم، حقاً، ها ها ها!...

وهذه نوبة جديدة من الاختناق والسعال تقطع تلك الضحة التشنجية التي صاحبت كلماته الأخيرة.

قالت إليزابيث بروكوفينا نافذة الصبر وكانت لا تحول عنه نظرتها القلقة:

- أهذا كل شيء؟ هل قلت كل ما تريد أن تقوله؟ فاذهب الآن إذاً إلى سريرك. إن بك حمي، آه... رباه!.. ها هو ذا يستأنف..

اتجه هيبوليت بالكلام إلى أوجين بافلوفتش فجأة، وقال له بلهجة حانقة:

- أتضحك؟ لماذا تضحك دائماً مني؟ لقد لاحظت ذلك واضحاً!

وكان أوجين بافلوفتش يضحك فعلاً.

- إنما أردت أن أسألك يا سيد... هيبوليت... معذرة... نسيت اسم أسرتك...

قال الأمير:

- السيد تيرنييف.

- آ... نعم... شكراً يا أمير. لقد ذكر لي اسمه منذ قليل، لكن هذا الاسم بارح ذاكرتي... أردت أن أسألك يا سيد تيرنييف هل ما قيل لي عنك صحيح؟ لقد قيل إنك تعتقد أنه يكفيك أن تخطب في الشعب، من نافذة بيتك، خلال ربع ساعة، حتى يقتنع

الجمهور بأرائك فوراً، فيتبعك، هل هذا صحيح؟

أجاب هيبوليت محاولاً أن يستجمع ذكرياته:

- يجوز جداً أن أكون قد قلت هذا الكلام.

ثم أضاف فجأة وقد اندفع من جديد وحجج أوجين بافلوفتش بنظرة ثابتة:

- نعم، قلت ذلك الكلام حتماً، فماذا تستنتج من ذلك؟

- لا شيء البتة. فإنما ألقيت هذا السؤال من باب حب الاطلاع.

وصمت أوجين بافلوفتش. وظل هيبوليت يحدّق إليه وكأنه ينتظر التتمة قلقاً.

قالت إليزابت بروكوفينا تسأل أوجين بافلوفتش:

- هيه؟ هل أنهيت كلامك؟ انه بسرعة يا صديقي، فقد أن له أن يمضي إلى النوم.

أم تراك لا تدري كيف تُنهيهِ؟

كانت إليزابت بروكوفينا منزعة انزعاجاً شديداً.

فاستأنف أوجين بافلوفتش كلامه فقال مبتسماً:

- لعلي أميل إلى أن أضيف ما يلي: إن كل ما سمعته من رفاقك يا سيد تيرنييف،

وكل ما قلته أنت نفسك بموهبة لا مجال لنكرانها يرتدّ في رأيي إلى النظرية التي

تطمع في جعل الحق منتصراً على كل شيء، قائماً فوق كل شيء، بل مبعداً عن كل

شيء، ربما دون سعي في أول الأمر إلى معرفة هذا الحق. لعلي كنت مخطئاً.

- أنت مخطئ حتماً. حتى إنني لا أفهمك عنك... ثم ماذا؟

وصعدت من زاوية بالشرفة دمدمة. كان ابن أخت ليبيديف يهمهم متكلماً بصوت

خافت.

واستأنف أوجين بافلوفتش كلامه فقال:

- لم يبقَ عندي ما أقوله تقريباً. وإنما أردت أن ألفت النظر إلى أن هذه النظرية

ليس بينها وبين النظرية القائلة بأنّ الحق للأقوى، أي بأنّ الحق لقبضة اليد وتحكّم

الفرد، وتلك هي الطريقة التي سُوّيت بها الأمور في أكثر الأحيان، أقول ليس بين

هاتين النظريتين إلا خطوة واحدة. لقد تلبّث برودون على نظرية القوة هذه التي تخلق

الحق. وفي أثناء حرب الانفصال رأينا كثيراً من الليبراليين، بل كثيراً من الليبراليين

المتطرفين، ينحازون إلى صفّ المزارعين بحجة أن الزنوج، من حيث هم زنوج، يجب أن يُعدّوا أدنى منزلة من البيض، وأن للبيض حق الأقوى...

- ثم...؟

- أرى أنك لا تجد حق الأقوى.

- ثم؟

- أنت لا تتناقض على الأقل. لقد أردت أن ألقت النظر إلى أن المسافة ليست بعيدة بين حق الأقوى وحق النمرور والتماسيح، وحتى حق أمثال دانييلوف وجورسكي.

- لا أدري... ثم؟

كان هيبوليت لا يصغي إلى أوجين بافلوفتش إلا بأذن واحدة. كان لا يقول: «ثم؟» إلا انسياقاً مع الحديث، دون أن يُولي هذه الكلمة أي اهتمام، أو أن يودعها أي معنى.

- لم يبق عندي ما أضيفه... ذلك كل ما أردت أن أقوله.

قال هيبوليت يختم الكلام على نحو لم يكن متوقعاً:

- الواقع أنني لا أغضب منك ولا أحقد عليك.

وعلى غير شعور تقريباً، ابتسم ومدّ يده إلى أوجين بافلوفتش.

دُهِش أوجين بافلوفتش، ثم اصطنع هيئة فيها كثير من الجِدّ ليلمس اليد التي مدّها إليه هيبوليت، كأنه هو يقبل صفحه وعفوه. وأضاف يقول بلهجة فيها ذلك الاحترام نفسه، ولكن فيها التباساً كذلك:

- لا أملك إلا أن أشكر لك تلطفك معي إذ تركت لي أن أتكلم، فقد لاحظت في أحيان كثيرة أن أصحابنا الليبراليين لا يدعون للآخرين أن يكون لهم رأي شخصي، وأنهم يردّون على معارضيتهم فوراً بإهانات أو بحجج أدعى إلى الأسف من الإهانات نفسها...

قال الجنرال إيفان فيدوروفتش:

- هذا صحيح كل الصحة.

ثم انسحب إلى أقصى الشرفة من جهة المخرج جاعلاً يديه وراء ظهره، وأخذ يتثاءب برماً متملماً.

قالت إليزابيث بروكوفينا فجأة تخاطب أوجين بافلوفتش:

- هيا... كفالي يا صديقي... لقد أضجرتني!

وقال هيبوليت وهو ينهض مسرعاً ويرسم بيده حركة تعبر عن الحيرة والارتباك، ويلقي حواليه نظرة زائغة خائفة:

- آن الأوان... لقد احتجرتكم... أردت أن أقول لكم كل شيء... كنت أقدر أنكم جميعاً... هذه آخر مرة... كان ذلك مني نزوة خيال...

واضح أنه كان ينتعش ويتحمس نوبات نوبات، ويخرج في الفينة بعد الفينة من حالة تشبه الهذيان، حتى إذا عاد إليه وعيه كاملاً، كان يستجمع ذكرياته ويعرض في أكثر الأحيان شذرات أفكار لعله كان منذ زمن طويل قد أنضحها وحفظها على ظهر القلب أثناء الساعات الطويلة الفارغة التي كان يقضيها في السرير منعزلاً مؤرقاً!

وأضاف يقول بلهجة جافة:

- طيب... وداعاً! هل تظنون أن من السهل عليّ أن أقول لكم: «وداعاً»؟ ها ها ها!...

ضحك ضحكة ساخرة متحسرة لأنه فكر في خراقة سؤاله، وإذ ألمه أنه لم يستطع التعبير عن كل ما كان يريد أن يقوله صرخ يقول بلهجة غاضبة:

- يا صاحب السعادة، يشرفني أن أدعوك إلى حضور جنازتي، هذا إذا رضيت أن تتنازل فتبلي الدعوة، وإنني... أدعوكم جميعاً أيها السادة، أدعوكم أن تنضموا إلى الجنرال!...

وأخذ يضحك، لكن ضحكه كان ضحك إنسان فقد عقله. صُعقت إليزابيث بروكوفينا، فتقدمت نحوه خطوة، وأمسكت ذراعه. فحدّق إليها بنظرة ثابتة، وهو ما يزال يضحك ذلك الضحك نفسه الذي تجمّد على وجهه إن صحّ التعبير.

- هل تعلمون أنني جئت إلى هنا لأرى الأشجار؟ هذه هي الأشجار... (أشار إلى أشجار الحديقة بحركة من يده). ليس في هذا ما يبعث على الضحك والاستهزاء، أليس كذلك؟

ثم أضاف يقول بلهجة رصينة، مخاطباً إليزابيث بروكوفينا:

- يخيل إليّ أن هذا ليس فيه ما يبعث على الضحك والاستهزاء.

وعاد حالماً على حين فجأة من جديد، ثم رفع رأسه بعد لحظة وأخذ يتفحّص

الحضور باحثاً عن واحد منهم. كان يبحث عن أوجين بافلوفتش الذي كان قريباً منه كل القرب، على يمينه، والذي لم يتحرك من مكانه. ولكن هيبوليت كان قد نسي ذلك فهو يستكشف ما حوله باحثاً عن الرجل. فلماً أبصره أخيراً هتف يقول متعجباً:

- ها... لم تنصرف! لقد ضحكت ضحكاً طويلاً منذ قليل، حين تصورت أنني أريد أن ألقى من نافذة بيتي خطاباً يدوم ربع ساعة! ألا فليكن ماثلاً في ذهنك أنني لم أبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، وأنني لبثت راقداً على فراشي واضعاً رأسي على وسادتي زمناً طويلاً أنظر من تلك النافذة وأفكر... في جميع الأشياء... التي... إنك تعلم أن الموتى لا أعمار لهم. لقد عاودتني هذه الفكرة في الأسبوع الماضي أثناء ليلة أرق... هل تريد أن أقول لك ما الذي تخشونه أكثر مما تخشون أي شخص آخر؟ إنكم تخشون صدقنا رغم ما تحملونه لنا من احتقار! هذه أيضاً فكرة وافتني في الليل بينما كان رأسي على الوسادة... أتظنين أنني أردت أن أتهكم عليك منذ قليل يا إليزابيت بروكوفيفنا؟ لا لم تكن هذه نيتي. أنا لم أكن أبغي إلا أن أمدحك... لقد قال لي كوليا أن الأمير عاملك معاملة طفلة..... هذا صحيح... ولكن ماذا؟ لقد كنت أريد أن أضيف شيئاً آخر...

قال ذلك وخبأ وجهه في يديه وفكر لحظة.

- ها... نعم... تذكرت: حين تهيأت منذ قليل للانصراف خطر ببالي فجأة ما يلي: هؤلاء أناس لن أراهم مرة أخرى بعد اليوم أبداً، أبداً. لا ولن أرى الأشجار مرة أخرى. ولن يقع بصري بعد الآن إلا على جدار الآجر الأحمر من منزل ماير... أمام نافذتي... فقلت لنفسي: اشرح لهم هذا كله... حاول أن تفهمهم. هذه حسناء رائعة الجمال... وأنت رجل ميت... فقدّم نفسك بهذه الصفة... قل لهم «إن في وسيع ميت أن يتكلم بغير تحفظ»... وإن الأميرة ماريا ألكسيفنا لن تقول عن هذا شيئاً^[104]... ها ها ها... ألا تضحكون؟ (ألقى هذا السؤال وهو يجيل بصره حواليه مرتاباً). سأقول لكم إنني أثناء رقاد رأسي على الوسادة كانت توافيني خواطر كثيرة. فاقتنعت، في ما اقتنعت به، بأن الطبيعة ساخرة جداً... لقد قلت منذ قليل أنني ملحد، ولكن هل تعلمون أن الطبيعة.. لماذا عدتم تضحكون؟ ألا إنكم لقساء عتاة!

قال ذلك فجأة وهو يثبت على مستمعيه نظرة حزن واستياء. ثم ختم كلامه قائلاً بلهجة مختلفة كل الاختلاف، لهجة فيها رصانة واقتناع، كأن ذكرى أخرى قد ومضت في ذهنه:

- أنا لم أفسد كوليا.

قالت إليزابيث بروكوفيفنا معذبةً:

- لا أحد يسخر منك، لا أحد... السوف نستدعي لك في الغد طبيباً آخر. إن الطبيب الأول قد أخطأ. ولكن اجلس! إنك لا تقوى على الوقوف! وأنت تهذي...
ثم صرخت إليزابيث بروكوفيفنا تقول مضطربة أشد الاضطراب وهي تجلسه على مقعد:

- آه... ماذا نفعل له الآن؟

والتمعت على خدها دمعة صغيرة.

فلبث هيبوليت مذهولاً خلال لحظة من الزمن، ثم رفع يده، ومدّها خجلاً وجلاً فلمس تلك الدمعة الصغيرة، وطافت بوجهه ابتسامة طفل.

قال فرحاً:

- إنك لا تعلمين مدى ما أشعر به نحوك من... إن كوتيا يحدثني عنك دائماً بحماسة عظيمة... إنني أحب حماسته. أنا لم أفسده! هو الوحيد الذي أودعه خواطري وأفكاري. لكم تمنيت أن يشارك الجميع في هذا الميراث، ولكن لم يكن ثمّة أحد، لم يكن ثمّة أحد... ولقد تمنيت كذلك أن أكون رجلاً فعلاً. ذلك من حقي... وما أكثر الأشياء التي كان يمكن أن أتمناها أيضاً! أما الآن فقد أصبحت لا أرغب في شيء، وأصبحت لا أريد أن أرغب في شيء. لقد آليت على نفسي أن لا أتمنى بعد اليوم شيئاً، فليبحث الآخرون بعدي عن الحقيقة! نعم، إن الطبيعة ساخرة!

وأضاف يقول بحرارة:

- لماذا تخلق الطبيعة أفضل الناس لتسخر منهم بعد ذلك؟ هذا ما تعتمد إليه الطبيعة: حين أظهرت البشر على الإنسان الوحيد الذي عدّ الإنسان الكامل في هذا العالم، عهدت إليه برسالة أن ينطق بأقوال كانت سبباً في سفح دماء بلغت من الغزارة أنها لو سُفحت مرة واحدة لخنقت الإنسانية! إنها لسعادة أن أموت! ذلك أنني إذا لم أمت فقد يطلق لساني كذبة رهيبة بدافع من الطبيعة!... أنا لم أفسد أحداً... لقد أردت أن أحيا لسعادة الناس جميعاً... أردت أن أحيا لاكتشاف الحقيقة ونشرها... كنت أنظر من نافذتي إلى جدار منزل البشر، نعم، جميع البشر! وهأنذا يتاح لي، مرة واحدة طوال حياتي، أن أجد نفسي على صلة لا بجميع البشر، بل بكم وحدكم، فماذا كانت النتيجة؟ لا شيء! كانت النتيجة أنكم تحتقرونني. هذا دليل على أنني غبي أحمق، على أنني أمرؤ

لا خير فيه ولا فائدة منه، وعلى أنني قد أن أزل! وحين أزل، فلن أخلف ورائي أية ذكرى: لن أترك أي صدى، لن أترك أي أثر، لن أترك أي عمل! لم أنشر أي رأي، لم أذع أية قناعة! لا تضحكوا من غبي أحرق! انسوه! انسوا كل شيء! أرجوكم أن تنسوا! لا تكونوا قساة! هل تعلمون أنني لو لم يصبني مرض الشلل لانتحرت؟!...

كان يبدو عليه أنه يريد أن يفيض في الكلام مزيداً من الإفاضة، وأن يتحدث مدة طويلة أيضاً، ولكنه لم يستطع أن يستمر، فتهوى في مقعده، وغطى وجهه بيديه، وأخذ يبكي كطفل صغير.

عادت اليزابت بروكوفينا تكرر سؤالها:

– ماذا فعل له الآن؟ هلأ قلت؟

وهرعت إليه فتناولت رأسه وشدته إلى صدرها شداً قوياً. كان هيبوليت ينشج نشيجاً عنيفاً. قالت تخاطبه:

– كفى كفى! لا تبك، كفى بكاء! إنك لطفل طيب! سيغفر الله لك بسبب جهلك. هيا! كفى! كن رجلاً!... وإلا شعرت بعد ذلك بخزي وعار...

قال هيبوليت وهو يحاول أن يرفع رأسه:

– لي هناك أخ وأخوات، صغار مساكين أبرياء... ستفسد هي أخلاقهم! إنك أنت قديسة... أنت نفسك طفلة، فأنقذهم! انتزعهم منها... إنها... هي... عار... آه... ساعديهم، أنجديهم! سوف يرد الله إليك الحسنه أضعافاً مضاعفة! أنجديهم حباً بالله، حباً بيسوع!

صاحت تقول في غضب:

– هلأ قلت لي ما الذي يجب علينا أن نفعله الآن يا إيفان فيدوروفتش! هلأ تفضلت فخرجت عن صمتك الوقور المهيّب! إذا لم تتخذ قراراً فالأقضيّن الليلة كلها هنا! لقد سئمت النزول على مشيئتك، والخضوع لاستبدادك!

كانت تتكلم بحماسة شديدة واندفاع قوي، وتطالب بجواب على الفور. وفي مثل هذه الظروف يلتزم الحضور الصمت ولو كانوا كُثراً، ولا يزيدون على الاهتمام السلبي والاستطلاع. أنهم يتحاشون الإفصاح عن شعورهم وإعلان رأيهم، وإن كانوا يُبدون ذلك كله بعد مدة طويلة ولقد كان بين الحضور حينذاك أناس قد يبقون إلى مطلع الصبح دون أن ينطقوا بكلمة واحدة. فهذه كانت باربارا أرداليونوفا التي ظلت منتحية طوال

السهرة، دون أن تفتح فاهها بكلمة واحدة، ولكنها كانت في الوقت نفسه منتبهة أشد الانتباه إلى كل ما كان يقال - ولعل هناك أسباباً كانت تدعوها إلى ذلك وتحضها عليه.

قال الجنرال:

- يا صديقتي العزيزة، رأيي أن ممرضة تسهر عليه خير له من كل هذا الاضطراب الذي تضطربينه؛ ومن المفيد أن يقضي الليل هنا رجل هادئ المزاج أهل للثقة. على كل حال، يجب أن نطلب إلى الأمير أن يصدر أوامره... ثم نترك المريض فوراً ليرتاح. ويمكن أن نعود إلى الاهتمام به في الغد.

قال دكتورنكو يسأل الأمير بلهجة حانقة لاذعة:

- أوشك الليل أن ينتصف. ونحن منصرفون. فهل يأتي معنا أم يبقى عندك؟

قال الأمير: - تستطيعون أن تبقوا معه إذا شئتم.

فانبري كيلر ينادي الجنرال بحماسة:

- يا صاحب السعادة، إذا كان ينبغي أن يقضي الليل هنا رجل أهل للثقة، فإنني يسرني أن أضحي في سبيل صديقي... هذا إنسان ذو نفس كبيرة لطالما عدته رجلاً عظيماً يا صاحب السعادة! صحيح أنني أنا بغير ثقافة، ولكنه هو، حين يتكلم، تتساقط من فمه لآئ، لآئ، يا صاحب السعادة!

أشاح الجنرال وجهه متململاً برماً.

وقال الأمير يجيب عن الأسئلة الحانقة التي ألقته عليه أليزابت بروكوفينا:

- سوف يسرني أن يبقى. إن من الصعب عليه طبعاً أن ينصرف.

- أظن أنك تنام؟ إذا كنت لا تريد أن تتولى أمره فسأنقله إلى بيتي. أه... يا رب!... أرى أن الأمير نفسه لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه. أتراك مريضاً يا أمير؟

إن إليزابت بروكوفينا كانت قد توقعت بعد الظهر أن ترى الأمير راقداً على فراش الموت. فلما رآته قائماً بالغت في تقدير إبلاله من مرضه. إن نوبته الأخيرة، والذكريات الكاوية التي ترتبط بها، والمتاعب والانفعالات التي عاناها في هذه السهرة بسبب موضوع «ابن بافلشتشيف» أولاً، وبسبب حالة هيبوليت بعد ذلك، إن هذا كله قد أهاج ما يتصف به من حساسية مريضة وانفعالية شديدة فإذا هو يصير إلى حالة تقارب

الحمى. ثم أن همّاً جديداً، بل قل خشية جديدة أخذت تُقرأ الآن في عينيه: لقد كان ينظر إليّ هيبوليت في قلق كأنما هو يتوقع منه انفجاراً جديداً.

ونفض هيبوليت على حين فجأة شاحب الوجه شحوباً رهيباً. إن سحنته المنقلبة تعبّر عن شعور فظيع بالعار، شعور مرهق يتجلى خاصة في النظرة المبغضة الكارهة المذعورة التي كان يجيّلها على الحضور، ويتجلى في الابتسامة التائهة الزائغة الماكرة الساخرة التي كانت تقلص شفّتيه المرتعشتين، ثم خفض عينيه، وجرّ نفسه بخطى مترنحة نحو بوردوفسكي ودكتورنكو اللذين كانا ينتظرانه عند مخرج الشرفة، وهو ما يزال يبتسم تلك الابتسامة نفسها. كان يريد أن ينصرف معهم.

هتف الأمير يقول:

- ذلك بعينه ما كنت أخشاه! كان لا بد أن يحدث هذا!

فالتفت هيبوليت نحوه فجأة وقد اعترته نوبة حنق مسعورة ترعش جميع قسمات وجهه، وقال يخاطبه:

- ... ذلك ما كنت تخشاه؟ كان لا بد أن يحدث هذا؟ ألا فاعلم إذاً أنه إذا كان هنا شخص أكرهه (زأر يقول هذا الكلام بصوت حادّ صافر يصاحبه رشاش لعاب) - وأنا أكرههم جميعاً جميعاً - فإنّ ذلك الشخص هو أنت، أنت، أنت! أنت أيها اليسوعي المنافق المرائي، المعتوه الأبله، المليونير المحسن. إنني أكرهك أكثر مما أكره أي إنسان وأي شيء في هذا العالم. لقد أدركت حقيقةك منذ زمن طويل فأخذت أكرهك. إنني منذ اليوم الذي سمعت فيه عنك نفرت منك وأبغضتك من أعماق قلبي... أنت الذي استدرجتني إلى هذا الفخ! أنت الذي أطلقت من نفسي نوبة الهذيان هذه، لقد دفعت رجلاً محتضراً إلى أن يجلّل نفسه بالخزي والعار. أنت أنت المسؤول عن حظتي وضغاري ودناءتي! لو علمت أنني سأعيش لقتلتك! ما أنا في حاجة إلى إحسانك. لا أريد أن يُحسن إليّ أحد. هل تسمعي؟ لا أريد إحسان أحد! لقد أصابتني نوبة هذيان. فليس من حَقك أن تستمد من هذا انتصاراً!... إنني ألعنكم جميعاً، ألعنكم جميعاً إلى الأبد...

دمدم ليبيديف يقول لإليزابيت بروكوفيفنا:

- لقد أخجله وأخزاه أنه بكى. «كان لا بد أن يحدث هذا».

ما أعجب الأمير! لقد قرأ قرارة نفسه وأعماق ضميره!

لكن إليزابيت بروكوفيفنا لم تتنازل أن تنظر إليه. كانت منتصبّة بشموخ وكبرياء،

مرفوعة الرأس، تتصفح وجوه هؤلاء «الناس التافهين»، بفضول يسوده احتقار. وحين أنهى هيبوليت كلامه، هز الجنرال منكبيه، فرمقته عندئذ بنظرة غاضبة، شملته من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، كأنها تحاسبه على هذه الحركة وتطلب منه تفسيراً لها، ثم لم تلبث أن أسرعت تلتفت إلى الأمير فتقول له:

- شكراً يا أمير، يا صديق أسرتنا الغريب الأطوار، شكراً على هذه السهرة الممتعة التي ندين بها لك. أحسب أنك الآن فرح بأنك استطعت أن تشركنا نحن أيضاً في أعمالك الجنونية! كفى هذا! يا صديقي، لا أقلّ من أن نشكر لك أنك أتحت لنا أن نعرفك حق معرفتك!....

وبحركات حانقة غاضبة أخذت ترتّب خمارها بانتظار أن ينصرف «هؤلاء الناس». وفي هذه الأثناء وصلت عربية تقلّهم، أتى بها ابن ليبيديف، الطالب في الكلية، الذي كان دكتورنكو قد أوفده منذ ربع ساعة ليجيء بمركبة. وسرعان ما اعتقد الجنرال أن من واجبه أن يضيف كلمة صغيرة إلى الأقوال التي نطقت بها امرأته، فقال:

- الحق يا أمير أنني... أنا نفسي... لم أكن أتوقع أن... بعد كل شيء، بعد كل علاقات الصداقة التي تجمعنا!... وأخيراً يا أليزابت بروكوفينا...

صاحت أديلايد تقول وهي تسرع نحو الأمير وتمدّ يدها إليه:

- ما هذا الذي تقولون؟ كيف يمكنكم أن تعاملوه هذه المعاملة؟

فابتسم لها الأمير ابتسامة تائهة. إلا أن وشوشة متعجّلة لم تلبث أن تسعت أذنه لسع النار. أن آجاليا هي التي دمدمت تقول له هامسة:

- إذا لم تطرد هؤلاء الناس الأذنياء فوراً، فلأكرهنّك طوال حياتي، طوال حياتي، ولأكرهنّك وحدك!

كانت تبدو خارجة عن طورها، ولكنها أشاحت عن الأمير من قبل أن يتسع وقته لأن ينظر إليها.

على أن الشرفة كانت قد خلت من كلّ من يمكن طرده: كانوا قد استطاعوا أن يضعوا المريض في العربّة كيفما اتفق، وكانت العربّة قد تحركت منصرفة.

- هل تعتقد أن هذا سيدوم مدة طويلة يا إيفان فيدوروفتش؟ ما رأيك؟ هل تظنّ أن سيكون عليّ أن أحتمل هؤلاء الصبية الأشرار المسيئين زمناً طويلاً؟

- ولكن يا صديقتي... أنا من جهتي مستعدّ طبعاً... والأمير...

ومدّ إيفان فيدوروفتش يده إلى الأمير مع ذلك، ولكنه قبل أن يتسع وقت الأمير لمصافحته، أسرع يجري وراء اليزابت بروكوفيفنا التي كانت تهبط درجات الشرفّة مظهرةً غضبها في صخب. أمّا آديلائيّد وخطيبها وألكسندرا فقد ودّعوا الأمير بمودّة صادقة. وكان أوجين بافلوفتش معهم، وهو الشخص الوحيد الذي كان مشرق المزاج منشراح النفس. وقد دمدم يقول بابتسامة فيها أكبر التلطف:

- حدث ما كنت أتوقعه! ولكن من المؤسف يا صديقي المسكين أنك قد أصابك من ذلك ألم وعذاب.

وخرجت آجاليا دون أن تودّع الأمير.

على أن هذه السهرة كانت تهيئ مفاجأة جديدة. لقد كان على أليزابت بروكوفيفنا أن تقع لها مقابلة ما يمكن أن تدور في خلد أحد. فقبل أن تصل إلى أسفل السلم المفضي إلى الطريق (الذي يدور حول الحديقة) كانت تجري أمام فيلا الأمير مركبة باهرة هي عربة فخمة يجرها حصانان أبلجان، وفيها سيدتان ترتديان أجمل حلّة، فما أن صارت العربة على مسافة عشرة أمتار من الفيلا حتى وقفت فجأة، والتفتت إحدى السيدتين بحركة سريعة كأنها لمحت شخصاً تعرفه هي في حاجة ملحة إلى أن تراه بسرعة.

وصاحت السيدة تقول بصوت واضح متناغم:

- أوجين بافلتش! أهذا أنت؟

فارتعش الأمير لهذه الصرخة، ولعل أحداً آخر قد ارتعش أيضاً. وتابعت السيدة كلامها تقول:

- ما أسعدني بالعثور عليك أخيراً! لقد أوفدت إلى المدينة رسولين ظلا يبحثان عنك طوال النهار فلم يظفرا بطائل.

تسمّر أوجين بافلوفتش في وسط السلم كأن صاعقة قد نزلت عليه. وتوقفت اليزابت بروكوفيفنا في مكانها أيضاً، ولكن دون أن يظهر عليها ما ظهر عليه هو من علائم الدهول. ورمقت السيدة الوقحة بنظرة فيها ذلك التعالي الشديد نفسه وذلك الازدراء الكبير نفسه الذي اشتملت عليه نظرتها إلى أولئك «التافهين» منذ قليل، ثم سرعان ما حولت بصرها إلى أوجين بافلوفتش متفحصة مستفهمة!

تابع ذلك الصوت نفسه يقول:

- لديّ نبأ يجب أن أرفّه إليك. لا تُقلقنّك سندات كوبفر^[105]. لقد لبّى روجويين طلبتي فاشتراها بفائدة ثلاثين في المائة. فتستطيع أن تطمئن خلال ثلاثة أشهر على الأقل. أمّا بيسكوب وسائر أولئك الأوباش فسننتفك معهم آخر الأمر على حل بغير خصام. معنى ذلك أن الأمور كلها تجري على ما يرام. فابتهج وافرح! إلى اللقاء غداً! واستأنفت العربّة جريها ولم تلبث أن غابت.

هتف أوجين بافلوفتش يقول وقد احمر وجهه استياء وأخذ يلقي على ما حوله نظرات دهشة وذهول:

- هذه مجنونة! إني لأجهل كل الجهل ماذا أرادت أن تقول. ما تلك السندات التي تكلمت عنها؟ من هي هذه المرأة؟

حدّقت إليزابيت بروكوفيفنا إليه ثانيتين أخريين، ثم استدارت واتجهت نحو منزلها يتبعها ذووها. وعاد أوجين بافلوفتش إلى الأمير في الشُرْفة بعد دقيقة. وكان الأمير في حالة انفعال شديد واضطراب قوي.

- ألا تدري حقاً ماذا كان معنى ذلك يا أمير؟

فأجابه الأمير متأثراً هو نفسه متأثراً مؤلماً:

- لا أدري!

- لا؟

- لا!

قال أوجين بافلوفتش وهو ينفجر ضاحكاً:

- أنا أيضاً لا أدري! إنّ قصة السندات هذه لا تخصّني ولا شأن لي بها، أقسم لك على ذلك. ولكن ماذا بك؟ كأنني بك تتهاوى...

- لا... لا... أؤكد لك أن لا...

الفصل الحادي عشر

انقضت ثلاثة أيام قبل أن يهدأ حنق آل إيبانتشين هدوءً كاملاً. وكان الأمير، على عادته، ينسب إلى نفسه كثيراً من الأخطاء وينتظر صادقاً أن يعاقب. ومع ذلك كان قد اقتنع هذه المرة، منذ البداية، أن اليزابت بروكوفينا لا يمكن أن تكون قد غضبت منه هو، وإنما غضبت من نفسها. لذلك احتار أشد الحيرة وحزن أكبر الحزن حين رأى أنهم ظلوا حاقدين عليه ثلاثة أيام. وهناك أحداث أخرى عديدة غدت قلقه في أثناء ذلك. وكان أحد تلك الأحداث خاصة هو الذي أهاج مزاجه الشكّك وطبعه الرّياب شيئاً بعد شيء خلال هذه الأيام الثلاثة (كان الأمير يؤاخذ نفسه في الآونة الأخيرة على أنه يترجح بين حدّين أقصيين، فهو تارةً «واثق ثقة سخيضة في غير محلها»، وهو تارةً «شديد الشك والحذر والرّيب إلى درجة مظلمة دنيئة»). المهم أنه في نهاية اليوم الثالث كانت حادثة السيدة الغربية الأطوار التي أطلت من عربتها الفخمة ونادت أوجين بافلوفتش، كانت هذه الحادثة قد تضخمت في نفسه واتخذت أبعاداً مخيفة محيرة ملغزة. وكان اللغز يطرح في ذهنه (ناهيك عن وجوهه الأخرى) السؤال التالي: أتقع تبعة هذا «العمل الشاذ» الجديد على عاتقه هو أم تقع تبعته على عاتق..؟ لكنه كان لا يمضي إلى حدّ النطق باسم. أمّا الأحرف الأولى من الاسم، وهي: ن، ف، ب، فلم تكن في اعتقاده إلا مزحة بريئة من مزاحات الأطفال لا يستطيع المرء أن يتوقف عندها إذا هو لم يشأ أن يقع في الخزي والعار.

على أن الأمير قد سعد، في غداة تلك السهرة الفاضحة التي كان يعدّ نفسه «سببها» الرئيسي، قد سعد بزيارة الأمير «شتش...» وأديلائد اللذين كانا عائدين من نزهة في الصباح، فمرّاً به قائلين «أنهما يريدان «خاصة» أن يستطلعا أخبار صحته». وقد لاحظت أديلائد أثناء دخولها في الحديقة شجرة قديمة رائعة كثيفة مجوّفة الجذع كثيرة التشقّق تحمل أغصانها الطويلة ذات العقد أوراقاً فتية نضرة، فأصرت إصراراً شديداً على أن ترسمها، ولم تكد تتكلم أثناء الزيارة التي دامت نصف ساعة إلا عن هذه الشجرة. وأبدى الأمير «شتش...» كثيراً من التحبب والتودّد وكان كيساً لبقاً على عادته. سأل الأمير عن الماضي وأيقظ ذكرى الأحداث التي يرجع عهدها إلى أولى العلاقات التي قامت بينهما، حتى انه لم يكد يتكلم عما جرى في الليلة البارحة.

ونفذ صبر آديلائيد أخيراً فاعترفت مبتسمة بأنهما جاءا خفية، ولم تزد على ذلك شيئاً، غير أن هذا الاعتراف كان كافياً لإفهام الأمير أن أبويها، ولا سيما إليزابيت بروكوفيفنا ليسا راضيين عنه. ومع ذلك لم ينبس الأمير «شتش...»، ولا نبست آديلائيد، أثناء زيارتهما، بكلمة واحدة عن الجنرالة، ولا عن أجلايا، حتى ولا عن إيفان فيدوروفتش.

وحين انصرفا لإتمام نزاهتهما لم يدعوا الأمير إلى اصطحابهما. أما أن يدعواه إلى زيارتهما فذلك أمر لم يكن محل بحث أصلاً. وقد أفلتت من آديلائيد بهذه المناسبة عبارة ذات دلالة، فإنها إذ تكلمت عن لوحة من لوحاتها المرسومة بالألوان المائية وأظهرت رغبتها فجأة في أن يراها الأمير، قالت: «ما السبيل إلى أن أستطيع أن أريك الصورة في وقت أقرب؟ اسمع!... سأرسلها إليك هذا اليوم نفسه مع كوتيا إذا جاء إلى دارنا، أو أجيئك بها أنا نفسي غداً أثناء نزعتي مع الأمير.» وقد أسعدها، حين أوحى بهذه الفكرة، أن تكون قد وفقت إلى حل المسألة حلاً حاسماً يرضي الجميع.

وفي لحظة التوديع تقريباً بدا على الأمير «شتش...» أنه تذكر شيئاً ما على حين فجأة. قال يسأل الأمير:

– بالمناسبة، ألا تعرف يا عزيزي ليون نيقولايفتش، من تلك السيدة التي نادى أوجين بافلوفتش أمس من عربتها؟

قال الأمير:

– هي ناستاسيا فيليبوفنا؟ ألم تتعرفها؟ لكنني لا أدري مع من كانت!

قال الأمير «اشتشد...» بحرارة:

– أعرفها لأنني سمعت عنها؟ ولكن بماذا صاحت؟ أعترف لك بأن ما قالتها كان في نظري لغزاً... في نظري أنا وفي نظر الآخرين.

أجابه الأمير بكثير من البساطة:

– تكلمت عن سندات على أوجين بافلوفتش لا أدري ما هي؛ وقالت إن هذه السندات قد انتقلت تلبية لطلبها من يدي مُراب إلى يي روجويين الذي سيمهل أوجين بافلوفتش فترة من الوقت.

– ذلك ما سمعته يا عزيزي الأمير، لكنه ليس معقولاً! إن أوجين بافلوفتش لا يمكن أن يكون قد وقع أي سند! إنه غني جداً... صحيح أن هذا حدث له في الماضي بسبب

خفّته وطيشه... أمّا أن يكون رجل له ثروة طائلة كثروته، قد وقع سندات لمُراب من المرابين وأصبح قلقاً لاقتراب موعد دفعها، فذلك شيء مستحيل. ثم إنه شيء مستحيل أيضاً أن تكون العلاقة بينه وبين ناستاسيا فيليبوفنا حميمة إلى هذا الحدّ، وأن تُرفع بينهما الكلفة فإذا هي تخاطبه بصيغة المفرد دون تحرّج. ذلك هو اللغز الرئيسي. إنه يحلف بأغلظ الأيمان أنه لا يفهم من ذلك شيئاً البتة، وإنّني لأصدّقه كل التصديق. لذلك رغبت أن أسألك يا عزيزي الأمير هل تعرف عن هذا الأمر شيئاً. أقصد: هل وصلت إلى مسامعك شائعة من الشائعات مثلاً؟

- لا، لا أعرف عن هذه القضية شيئاً، وأؤكد لك أنني لا شأن لي بها.

- ما أغربك اليوم يا أمير، حقاً إنني أنكرُك ولا أعرفك! هل يمكن أن يكون قد خطر ببالي أن لك مشاركة ما في قضية كهذه القضية؟ دعك... أنت اليوم في غير حالتك الطبيعية.

قال ذلك ثم عانقه وقبله.

قال ليون نيقولايفتش:

- مشاركة ما في «قضية كهذه القضية»؟ ولكنني لا أرى هنا أية قضية.

أجاب الأمير «شتش...» بلهجة جافة:

- ليس هناك أي شك في أن هذه المرأة قد أرادت الإساءة إلى أوجين بافلوفتش، بطريقة من الطرق، مسندة إليه، أمام شهود، أعمالاً ليست أعماله ولا يمكن أن تكون أعماله.

بدا الاضطراب على الأمير ليون نيقولايفتش، لكنه ظل يحدّق إلى محدّثه بنظرة مستفهمة. وظل محدّثه صامتاً لا يتكلم.

فدمدم الأمير يقول أخيراً بلهجة فيها شيء من نفاد الصبر:

- ولكن أليست المسألة مسألة سندات فحسب؟ ألم يكن مدار الكلام أمس على سندات لا أكثر؟

- غريب. إنني أقول لك الأمر وما عليك إلا أن تحكم بنفسك: ما عسى أن يكون هنالك من شيء مشترك بين أوجين بافلوفتش وبين تلك... أو بينه وبين روجويين أيضاً؟ أعود فأقول لك إنه يملك ثروة طائلة. أنا أعرف هذا من مصدر مطلع موثوق

به. وهو عدا ذلك متأكد أنه سيرث من عمه. كل ما في الأمر أن ناستاسيا فيليبوفنا... قطع الأمير «شتش...» كلامه من جديد: كان واضحاً أنه لا يريد أن يقول عن المرأة الشابة أكثر مما قال.

فسأله ليون نيقولايفتش فجأة بعد لحظة صمت:

- ألا يبرهن هذا على أنه يعرفها، على كل حال؟

- جائز جداً. هو رجل متنقل الهوى مولع بالمباهج! مهما يكن من أمر، فهما إذا كانا قد تعارفا فإنما تعارفا في الماضي. لا بد أن تعارفهما يرجع عهده إلى سنتين أو ثلاث سنين. كان في ذلك الأوان ما يزال على صلة بتوتسكي. أما الآن فلا يمكن أن يجمعهما شيء. وكيف كان الأمر فإن الصلة بينهما لم تكن في يوم من الأيام حميمة إلى الحد الذي يسمح لهما بأن يتخاطبا بصيغة المفرد. أنت نفسك تعلم أنها كانت غائبة إلى هذه الآونة الأخيرة، وأنها ظلت مختفية لا يعثر عليها أحد. وما يزال كثير من الناس يجهلون أنها عادت. لم ألاحظ عربتها إلا منذ ثلاثة أيام.

قالت أديلائيد:

- عربية فخمة!

- نعم فخمة!

وانصرف الزائران وهما يظهران للأمير أرق العواطف، حتى لكانه أخوهما.

خرجت للأمير من هذه الزيارة إشارة هامة. صحيح أنه اشتبه في الأمر اشتباهاً قوياً منذ الليلة البارحة (وربما قبل ذلك)، لكنه لم يكن قد جرؤ حتى الآن أن يرى أن مخاوفه في محلها. أما الآن فقد اتضحت له الأمور: إن الأمير «شتش...»، على تأويله الحادث تأويلاً خطأ، يقارب الحقيقة مع ذلك، ويحذر على كل حال أن ثمة «مكيدة». (قال الأمير يحدث نفسه: ولعله يدرك الأمر إدراكاً صحيحاً بينه وبين نفسه، ولكنه لا يريد إعلان إدراكه ويتعمد تأويل الحادث تأويلاً خطأ). هناك شيء يخطف الانتباه خاصة: هو أنهما جاءا (ولا سيما الأمير «شتش...») آمليين أن يحصلوا على إيضاح ما؛ وهذا يعني أنهما يعدّان الأمير ضالعين في «المكيدة». ثم إذا كانت القضية هي هذه، وكانت تحمل كل هذا الخطر كله، فذلك دليل على أن تلك «المرأة»، تسعى إلى هدف رهيب. ولكن ما هو ذلك الهدف؟ سؤال فظيع! «وكيف يمكن صرفها عنه؟ أن من المستحيل إيقافها عن بلوغ غاياتها وتحقيق أهدافها». ذلك أمر يعرفه الأمير بالتجربة.

«هي مجنونة! مجنونة».

ولكن ما أكثر هذه الأسرار التي تتزاحم في تلك الصبيحة من اليوم! إنها تقتضي أن توضح كلها على الفور، وذلك ما أغرق الأمير في ذهول عميق.

وجاءت فيرا ليبيديفا حاملة ليوبوتشكا بين ذراعيها، فسرى عنه ذلك قليلاً. وظلت تثرثر بعض الوقت مرحةً، ثم جاءت أختها الصغرى فلبثت فاعرة الضم من الدهشة، ووصل أخيراً ابن ليبيديف، الطالب في المدرسة الثانوية، فأكد له أن «كوكب الأفسنتين» الذي تذكر رؤيا يوحنا أنه سقط من السماء على الأرض عند ينبوع المياه إنما هو في رأي أبيه تنبؤ بشبكة خطوط السكة الحديدية التي تمتد اليوم على أرض أوروبا. لم يشأ الأمير أن يؤيد هذا الزعم، واتفق على أن يسأل ليبيديف نفسه في هذا الأمر لدى أول مناسبة.

روت فيرا ليبيديفا للأمير أن كيللر قد أقام عندهم منذ أمس، وأضافت أن جميع الظواهر تدلّ على أنه لن يغادرهم قريباً، لأنه وجد ههنا مجتمعا يناسبه، وانعقدت صداقة بينه وبين الجنرال إي فولجين. وقد أعلن أنه لا يمكن أن يكمل تعليمه ويحسن ثقافته.

أخذ الأمير، على وجه العموم، يزداد سروراً بصحبة أولاد ليبيديف يوماً بعد يوم.

ولم يظهر كوتليا في ذلك النهار: فقد ذهب إلى بطرسبرج في ساعة مبكرة من الصباح. (وكان ليبيديف قد سافر منذ الفجر هو أيضاً لأعمال شخصية).

غير أن الزيارة التي كان الأمير ينتظرها نافذ الصبر إنما هي زيارة جبريل آرداليونوفتش الذي كان لا بد أن يجيء في أثناء النهار. وقد وصل بين الساعة السادسة والساعة السابعة، بعد العشاء فوراً. فلما رآه أخيراً اعتقد أنه أمام شخص لا بد أن يعرف جميع خفايا الأمر حق معرفتها. وكيف يمكن أن لا يعرف جانبا جميع خفايا الأمر وهو الذي يملك مساعدين مثل باربارا آرداليونوفنا وزوجها؟ غير أن العلاقات بينه وبين الأمير كانت تتسم بطابع خاص بعض الشيء. صحيح أن الأمير قد كلفه بقضية بوردوفسكي ورجاه ملحاً أن يهتم بها. ولكن رغم علامة الثقة هذه، ورغم ما جرى بينهما قبل ذلك، تبقى هنالك موضوعات يتحاشيان التحدث فيها ويتجنبان الكلام عنها، وذلك بنوع من اتفاق صامت. كان الأمير يحسن في بعض الأحيان أن جبريل آرداليونوفتش يتمنى من جهته لو تنعقد بينهما صداقة وتقوم بينهما صراحة بغير حدود. وفي هذا الصباح مثلاً، حين رآه داخلاً، شعر بأن جانبا يعتقد أنه قد آن الأوان

لتحطيم الجليد وتحقيق التفاهم في جميع الأمور (كان الزائر مع ذلك متعجلاً، فلقد كانت أخته تنتظره عند ليبيديف لشأن ملح يجب أن يسويه بينهما).

ولكن لئن توقع جانبا حقاً أن يلقي عليه الأمير وابلاً من أسئلة متعجّلة، وأن يكشف له عن أمور كثيرة على غير إرادة منه، وأن يفضي إليه بما يعتلج في قرارة نفسه، فقد أخطأ خطأ كبيراً. لقد ظل الأمير طول مدة الزيارة التي دامت عشرين دقيقة، ظل غارقاً في خواطره، حتى ليكاد يكون ذاهلاً. ولم يُلَقَّ الأسئلة المتوقعة، أو قل لم يُلَقَّ السؤال الهام الذي كان ينتظره جانبا. لذلك ارتأى جانبا أن من المناسب أن يتحفظ هو أيضاً فلا يسترسل. صحيح أنه ظل طلق اللسان كثير الكلام، ولكنه في ثرثرته الخفيفة المتوددة اللطيفة، تحاشى أن يلامس النقطة الأساسية.

روى فيما روى أن ناستاسيا فيليبوفنا لم تصل إلى بافلوفسك إلا منذ أربعة أيام، وأنها قد جذبت أنظار الناس وأثارت انتباههم. وذكر أنها تقيم عند داريا ألكسيفنا، في منزل صغير مريح بشارع «البحارة»، ولكن مركبتها تكاد تكون أفخم مركبة في بافلوفسك. وقد احتشد حولها منذ الآن جمهور من المؤلّمين، فيهم الشباب وفيهم الشيوخ؛ وثمة فرسان يواكبون مركبتها في بعض الأحيان. وهي على عادتها شديدة التدقيق في اختيار معارفها، فلا ترضى أن يكون بقربها إلا صفوة منتقاة. غير أن هذا لا ينفي أنها محاطة بما يشبه أن يكون فصيلة من الحرس مستعدة للدفاع عنها أتم الاستعداد متى مست الحاجة إلى ذلك. وبسببها فسح خطوبته رجل من المزارعين في بافلوفسك، وكاد جنرال عجوز أن يلعن ابنه. وهي تصطحب أثناء نزهاتها بالمركبة، وفي كثير من الأحيان فتاة بارعة الجمال في السادسة عشرة من عمرها تمت بقربى بعيدة إلى داريا ألكسيفنا. والفتاة موهوبة في الغناء، فصولها يجتذب انتباه أهل الحي إلى منزلهم في المساء. هذا وإن ناستاسيا فيليبوفنا تعنى بهندامها أشد العناية. فملابسها بسيطة، لكنها في غاية الذوق والأناقة، فإذا أضفنا إلى ذلك جمالها ومركبتها أدركنا لماذا تثير غيرة جميع السيدات.

وأفلت لسان جانبا فقال: أمّا حادث الأمس السخيف فلا شك في أنه مدبر، ولا يمكن أن تكون هي المسؤولة عنه، فيجب أن يُعرف الجاني، وإلا تجنى الناس عليها وقالوا فيها سوءاً، وذلك ما سيحدث قريباً على كل حال.

كان يتوقع أن يسأله الأمير لماذا يرى أن حادث الأمس مدبر، ولماذا يعتقد أن الناس لن يلبثوا أن يقولوا في ناستاسيا سوءاً.

ولكن الأمير لم يُلَقَّ أي سؤال عن هاتين النقطتين.

وذكر جانبا بعد ذلك معلومات مفصلة عن أوجين بافلوفتش، دون أن يكون الأمير قد سألته عن شيء من ذلك أيضاً. وإن كلام جانبا عن أوجين بافلوفتش لأمر غريب، لا سيما وأنه كان يُقحم في الحديث إقحاماً. قال جانبا فيما قال: إنه يعتقد أن أوجين بافلوفتش لم تكن بينه وبين ناستاسيا فيليبوفنا علاقات في يوم من الأيام؛ وأنه حتى في الوقت الحاضر لا يكاد يعرفها، فقد قُدّمت إليه مرة واحدة منذ ثلاثة أيام أو أربعة أثناء النزهة. ومن المشكوك فيه أن يكون قد زارها في بيتها مرة واحدة ولو بصحبة أشخاص آخرين.

أمّا مسألة السندات فمن الجائز أن تكون صحيحة (حتى أن جانبا يعدّها مكيدة). صحيح أن أوجين بافلوفتش يملك ثروة كبيرة، غير أن «شيئاً من الفوضى يسيطر على إدارة أملاكه»...

وانقطع جانبا عن الكلام في هذا الموضوع الغريب، ثم لم يزد شيئاً عن فعلة ناستاسيا فيليبوفنا بالأمس، عدا الإشارة التي ساقها من قبل.

وأخيراً جاءت باربارا آرداليونوفنا تبحث عن جانبا، لكنها لم تمكث عند الأمير إلا دقيقة واحدة استطاعت خلالها أن تبلغه (دون أن يسألها عن شيء أيضاً) أن أوجين بافلوفتش يقضي هذا اليوم ببطرسبرج وقد يقضي هناك الغد أيضاً، وأن زوجها (إيفان بتروفتش بتتسين) هو الآن ببطرسبرج فأغلب الظن أنه ذهب إلى هناك للاهتمام بشؤون أوجين بافلوفتش. واضح أن في الأمر شيئاً. وأضافت إلى هذا عند انصرافها أن إليزابيت بروكوفيضنا معتكرة المزاج في هذا اليوم فهي ترهق من حولها أشد الإرهاق، وأجاليا - وذلك شيء أغرب - قد تشاجرت مع الأسرة كلها، لا مع أبيها وأمها فحسب، بل مع أختيها أيضاً. «ليس ذلك بالأمر الحسن بتاتاً». حتى إذا فرغت من ذكر هذا النبأ ذكراً يشبه أن يكون عارضاً (وهو نبأ له في نظر الأمير شأن خطير كل الخطورة) انصرفت هي وأخواها. ولم يقل جانبا كلمة واحدة عن «ابن بافلشتشيف»، سواء من باب إظهار التواضع، أو بغية «مداواة عواطف الأمير». غير أن ذلك لم يمنع الأمير من أن يشكر له، مرة أخرى، ما تحمّله من مشقة وما تكلفه من عناء لإنهاء تلك القضية.

سُرّ الأمير أعظم السرور حين صار وحيداً، فهبط من على الشرفة، واجتاز الطريق إلى الحديقة. كان يريد أن يفكر، وكان هناك قرار يجب عليه أن يتخذه، وهو قرار من تلك القرارات التي لا يفكر المرء فيها، وإنما يعزم أمره عليها دفعة واحدة. وها هو ذا تستولي عليه رغبة مفاجئة رهيبة في أن يدع كل شيء في مكانه، فينصرف مسرعاً حتى دون أن يودّع أحداً، ويرجع إلى حيث كان في البعد والعزلة. كان يوجس أنه إذا بقي

في بافلوفسك ولو بضعة أيام أخرى، فسيغوص في هذه البيئة غوصاً لا مخرج له منه بعد ذلك قط. غير أنه لم يهب لنفسه عشر دقائق من التفكير، ولم يلبث أن أيقن أن الهروب «مستحيل»، وأنه يكاد يكون جُبناً وحقارة. أن من طبيعة المشكلات المطروحة عليه أنه لا يحق له أن لا يحلها أو على الأقل أن لا يقف جميع جهوده على إيجاد حل لها.

وعلى هذه الحال النفسية إنما عاد الأمير إلى بيته دون أن يتنزه أكثر من ربع ساعة. وشعر في تلك اللحظة أنه شقي أكبر الشقاء.

وكان ليبيديف غائباً فاستطاع كيللر أن يدخل على الأمير أثناء السهرة. لم يكن كيللر سكراناً، لكنه كان في حالة نفسية تحضه على البوح والمُساراة والنجوى. فسرعان ما أعلن للأمير أنه جاء ليقصّ عليه قصة حياته كاملة، فعلى هذه النية إنما بقي في بافلوفسك. ولو أراد الأمير أن يطرده لما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولرفض الرجل أن ينصرف كل الرفض. ولقد أراد أن يندفع في حديث طويل مفكك، ولكنه ما أن قال بضع كلمات حتى انتقل إلى الخاتمة فاعترف بأنه «أمرؤ لم يبق له ذرة من خلق» (وما ذلك إلا بسبب زوال اعتقاده بالله) حتى إنه بلغ من هذا حدّ الإقدام على السرقة. قال:

– هل تستطيع أن تتصور أمراً كهذا؟

قال الأمير:

– اسمع يا كيللر، لو كنت في مكانك لما اعترفت بهذا، إلا في حالة الضرورة المطلقة. ثم إن من الجائز جداً أن تكون الآن متجنباً على نفسك عن عمد...

– أنا لا أقول هذا إلا لك أنت، لك أنت وحدك، وليس لي من ذلك إلا هدف واحد هو أن أحاول الارتقاء بأخلاقي. لن أتحدث عن هذا لأحد، وسأحمل سرّي إلى قبري. ولكن ليتك تعلم يا أمير مدى صعوبة الحصول على مال في عصرنا هذا! أين لي بالمال؟ اسمح لي أن ألقى عليك ذلك السؤال. إن المرء لا يسمع إلا جواباً واحداً: «هات لنا ذهباً وماساً فنقرضك على رهن». والذهب والماس هما ما يُعوزني. هل تستطيع أن تتصور هذا؟ ولقد غضبت آخر الأمر فقلت بعد لحظة: «وهل تقرضونني مالاً برهان أحجار زمرد؟»، فقالوا: «نعم، نقرض مالاً برهن أحجار زمرد»، فقلت وأنا أتناول قبعتي لأخرج: «هذا حسن، شيطان يأخذكم، يا لكم من أوغاد!». أقسم لك!

– هل كنت تملك إذن أحجار زمرد؟

- أحجار زمرد؟ آه يا أمير! إنك ما تزال تنظر إلى الحياة نظرة فيها هدوء وبراءة وسذاجة يمكن أن توصف بأنها ريفية!

كان شعور الأمير بالخجل من سماع مسارات كيللر أكبر من شعوره بالشفقة عليه. وومضت في ذهنه فكرة. تساءل: «ألا يمكن أن يُصنع من هذا الإنسان شيء بإحداث تأثير حسن فيه؟». لكنه استبعد لأسباب شتى أن يكون هذا التأثير الحسن تأثيره هو، لا من باب التواضع بل بسبب طريقته الخاصة في مواجهة الأمور. وشيئاً فشيئاً استغرقا في الكلام وبلغا من الاهتمام بالتحادث معاً أنهما لم يخطر ببالهما أن يفترقا. وأسرع كيللر يعترف بأفعال يتراءى للمرء أن من المستحيل على أحد أن يعترف بها. وكان يؤكد عند كل اعتراف بأنه نادم ندماً صادقاً وبأن عينيهِ تفيضان دموعاً»، غير أن ذلك لم يمنعه من أن يعرض أخطائه بلهجة اعتزاز، وأن يعرضها في بعض الأحيان عرضاً فيه من قوة الهزل وشدة الإضحاك أنه والأمير قد انتھيا إلى الإغراق في الضحك كضحك المجانين. قال الأمير أخيراً:

- المهم أن فيك ثقة كثقة الأطفال وأن لك صراحة يندر مثلها. هل تعلم أن هذا كافٍ ليحمل المرء على أن يغفر لك أموراً كثيرة؟

فقال كيللر مؤيداً كلام الأمير وقد رق قلبه من التأثير:

- نفسي نبيلة، نبيلة وذات شهامة! ولكن المسألة يا أمير أن هذا النبل لا يوجد إلا وجوداً مثالياً، فوجوده وجود بالقوة لا بالفعل إن صحّ التعبير! إنه لا يتحقق في الواقع أبداً. ولم هذا؟ ذلك ما لا أفهمه.

- لا تيأس. يمكن أن نقول الآن على وجه اليقين أنك قد كشفت لي عن قرارة نفسك. يخيل إليّ على الأقل أنه يستحيل أن يُضاف أي شيء إلى ما كشفت لي عنه. أليس هذا صحيحاً؟

فصاح كيللر يقول بلهجة إشفاق ورحمة:

- يستحيل؟ آه يا أمير! إنك ما تزال تحكم على الناس بأفكار هي أفكار رجل سويسري...

قال الأمير متحيراً مدهوشاً:

- هل يمكن أن يكون ثمة أشياء تُضاف إلى ما ذكرته؟ ولكن هلأ قلت لي يا كيللر ما الذي تنتظره مني حين بُحت لي بهذه الأمور، ولماذا جئت إليّ؟

- ما الذي كنت أنتظره منك؟ أولاً: لبساطة نفسك سحرها وفتنتها، وإن المرء
ليجد متعة في الحديث معك برهة من الزمن. إنني أعرف على الأقل أن أمامي رجلاً
يمتاز بفضيلة لا سبيل إلى الشك فيها؛ وثانياً... ثانياً...

لم يكمل كيللر كلامه.

قال الأمير بلهجة فيها كثير من الجدّ وفيها صراحة يمازجها شيء من حياء:

- أعلك كنت تريد أن تقترض مني مالا؟

فارتعش كيللر. وحدّق إلى عيني الأمير مشدوهاً، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة
قوية وقال:

- هذه بعينها طريقتك في إفحام الناس! آه يا أمير! إن لك براءة وسذاجة لم
يعرف العصر الذهبي مثلها، ثم إنك بنفاذك السيכולوجي العميق تخترق المرء اختراق
السهم. ولكن اسمح لي يا أمير، هذا أمر يحتاج إلى تفسير... ذلك أنني مذهول حقاً!
صحيح أن نيتي كانت هي أن أقترض منك مالا، ولكن ألقيت عليّ السؤال وكأنك لا
تجد في هذا ما يستحق المؤاخذه فكأن الأمر طبيعي تماماً...

- نعم، هو منك طبيعي تماماً.

- وهذا لا يثيرك؟

- ولماذا يجب أن يثيرني؟

- أصغ إليّ يا أمير: لقد بقيت في بافلوفسك منذ مساء أمس، أولاً بسبب اعتباري
العظيم للأسقف الفرنسي بوردالو^[106] (لقد فُتحت زجاجات عند ليبيديف حتى الساعة
الثالثة من الصباح)، وثانياً وخاصة (أقسم لك بجميع الصليبان أنني أقول الحقيقة)
لأنني أردت أن أبوح لك بحقيقة أمري كاملة صادقة بغية الارتقاء بأخلاقي. وعلى هذه
الفكرة إنما نمت ممتلئ العينين بالدموع في نحو الساعة الرابعة من الصباح. هل تصدّق
الآن إنساناً زاهر النفس بالمشاعر السامية والعواطف النبيلة؟ إنني حين غفوت غارقاً
بالدموع في الداخل والخارج على السواء (ذلك أنني بكيت ناشجاً، فأنا أتذكر هذا) قد
هاجمتني فكرة جهنمية، فتساءلت: «ماذا لو اقترضت منه مالا بعد أن أعترف له؟. وعلى
هذا النحو إنما أعددت اعترافي طبقاً صغيراً من طعام أضع فيه حشائش مُشهيّة وأرشه
بدموع سخية، وأهيئه لإثارة عاطفتكم واقتراض مائة وخمسين روبلاً. ألا تجد في هذا
حطةً وصغاراً؟

- لا شك عندي في أن الأمور قد جرت على هذا النحو، ولا تعدو المسألة أن تكون تصادفاً. ففكرتان التقتا في ذهنك عَرَضاً. هذه حادثة شائعة جداً قد ألفتها وتعودتها أنا نفسي. وأعتقد أن هذا غير حسن. هل تعلم يا كيللر أن ذلك هو الشيء الذي أخذه على نفسي؟ أن ما قلته الآن عن نفسك، يمكن أن أقوله أنا عن نفسي.

وتابع الأمير كلامه يقول بلهجة إنسان تهمّه هذه المسألة كثيراً، فهو يفكر فيها تفكيراً عميقاً:

- حتى لقد اتفق لي أن قدّرت أن جميع الناس هم على هذه الشاكلة، وعددت ذلك دليلاً على براءتي مما اتّهم به نفسي، إذ لا شيء أصعب على المرء من مناهضة هذه الأفكار «المزدوجة». إنني أقول هذا عن خبرة وتجربة. لا يدري إلا الله من أين تجيء هذه الأفكار المزدوجة ولا من أين تنبجس! ولكن هأنت ذا تصف ذلك بأنه حطة وصغارٌ سيكون عليّ إذاً أن أعود إلى التخوّف من مثل هذه الظاهرة! على كل حال، لست أهلاً لأن أحكم عليك، مع ذلك لا أحسب أن كلمة الحطة أو الصّغار هي هنا في محلها. ما رأيك؟ لقد عمدت إلى المكر والحيلة محاولاً أن تبتز مني بدموعك مالا، ولكنك تحلف أنت نفسك أن اعترافك كان له هدف آخر، هدف نبيل منزه عن الغرض مبرراً من المنفعة. أمّا المال فقد كنت تريده لتقصّف وتلهو، أليس كذلك؟ وهذا، بعد اعتراف كالاعتراف الذي أقدمت عليه، هو سقوط أخلاقي طبعاً، ولكن أنى للمرء أن يتخلص من مجون أصبح فيه عادةً راسخة؟ ذلك مستحيل. وماذا إذاً أن من الأفضل أن يعتمد المرء في مثل هذا الأمر إلى حكم ضميره. ما رأيك؟

كان الأمير يحذق إلى كيللر بنظرة متحيرة إلى أقصى حدود التحير، كان واضحاً أن مسألة ازدواج الفكر تشغل باله منذ زمن طويل.

صاح كيللر يقول:

- بعد أقوال كهذه الأقوال التي أسمعها منك، أصبحت عاجزاً عن أن أفهم كيف أمكن أن يصفوك بأنك أبله.

فاصطبغ وجه الأمير بخمرة خفيفة.

- إن الواعظ بوردالو لم يراع صاحبه، أمّا أنت فقد راعيتني وحكمت عليّ حكماً إنسانياً. فمن أجل أن أعاقب نفسي، ومن أجل أن أبرهن لك على مدى تأثري، فإنني أعدّل عن المائة وخمسين روبلاً، وأكتفي بخمسة وعشرين، فهذا هو المبلغ الذي أحتاج إليه، مدّة أسبوعين على الأقل. لن أعود لأسألك مالاّ قبل انقضاء خمسة عشر يوماً. لقد

أردت أن أسرّ آجاشكا، ولكنها لا تستحق ذلك كثيراً. آه يا أميري العزيز! ألا فليبارك الله فيك!

هنا داخل ليبيديف عائداً من بطرسبرج، فلماً رأى ورقة بخمسة وعشرين روبلاً في يدي كيلر قطب حاجبيه. غير أن كيلر، وقد ملك المال، لم يلبث أن انصرف. فسرعان ما أخذ ليبيديف يكيل له الدم.

فقال له الأمير أخيراً:

- إنك تظلمه. لقد ندم ندماً صادقا.

- ولكن ما قيمة ندمه؟ هو كندمي بالأمس: «أنا منحط!». هذه كلمات!...

- ماذا؟ أكانت هذه كلمات لا أكثر؟ لقد ظننت أنا...

- اسمع. لك، لك وحدك سأقول الحقيقة، لأنك تنفذ إلى قرارة قلب الإنسان: أن الأقوال والأفعال، أن الأكاذيب والحقائق، تختلط عندي بصدق كامل. ففي الحقائق والأفعال إنما يتجلى ندمي وتتجلى توبتي، صدقني أو لا تصدقني... يميناً أن الأمر كذلك. أما الأقوال والأكاذيب فإنها تأتي من فكرة جهنمية (لا تبرح ذهني) بها أحس أنني مدفوع إلى خداع الناس والاستفادة حتى من دموع الندامة والتوبة! أحلف لك بشرفي أن الأمر كذلك! ما كان لي أن أقول هذا الكلام لشخص آخر غيرك، وإلا لضحك أو لبصق اشمئزاً! أما أنت يا أمير فسوف تحكم عليّ حكماً إنسانياً.

هتف الأمير يقول:

- هذا الكلام نفسه قد قاله لي الآخر؛ ويبدو عليكما أنكما تعتزان وتباهيان! لست أفهم. ولكن الآخر أصدق منك، أنت الذي تجعل الكذبة حرفة لك. هيا! كفى رياء وتصنعاً يا ليبيديف! لا تضع يدك على قلبك. أليس لديك ما تحب أن تقوله لي؟ إنك لم تأت إليّ بغير هدف...

أخذ ليبيديف يجعد وجهه ويلوي جسمه.

قال الأمير:

- لقد انتظرتك طوال النهار لألقي عليك سؤالاً. قل لي الحقيقة من أول كلمة، ولو مرة واحدة في حياتك: ألم تشارك مشاركة ما في حادثة المركبة أمس؟

أخذ ليبيديف يتلوّى من جديد، ثم طفق يضحك، ثم فرك يديه، ثم عطس. لكنه لم

يعزم أمره على أن ينطق بكلمة.

- أرى أنك شاركت في الأمر.

- لم أشارك إلا مشاركة غير مباشرة فحسب! أقول لك الحقيقة خالصة. كان دوري كله في القضية هو أن أبلغ شخصاً ما في الوقت المناسب أن في داري ناساً، وأن بين هؤلاء الناس فلاناً وفلاناً...

صاح الأمير يقول بلهجة تدل على نفاذ الصبر:

- أعرف أنك أرسلت إلى هناك ابنك. هو نفسه قال لي ذلك منذ قليل.

قال ليبيديف وهو يقوم بحركات إنكار:

- أنا لا شأن لي في الأمر. إن هذه المكيدة من تدبير أشخاص آخرين؛ بل إنها لنزوة أكثر مما هي مكيدة.

- ولكن ما المسألة؟ اشرح ما بنفسك، ناشدتك الله! هل يمكن أن لا تدرك أن هذه القضية تمسني مباشرة؟ ألا ترى أنهم يحاولون تلطيخ سمعة أوجين بافلوفتش؟

هتف ليبيديف يقول وقد عاد ينقبض:

- أيها الأمير، أيها الأمير العظيم، إنك لا تتيح لي أن أقول لك الحقيقة كلها. لقد حاولت غير مرة أن أبسطها لك، ولكنك لم تدع لي أن أكمل كلامي في لحظة من اللحظات...

صمت الأمير وفكر، ثم قال في مشقة وعناء، بلهجة تكشف عن أنه يعاني صراعاً نفسياً عنيفاً:

- طيب... قل لي الحقيقة.

فسرعان ما بدأ ليبيديف يقول:

- أن أجلايا إيفانوفنا...

ولكن الأمير صرخ يقول له مندفعاً:

- اسكت...

كان الأمير محمرّ الوجه من الغضب والاستياء وربما من الخجل والحياء. وتابع كلامه فقال:

- مستحيل. هذا كله سخف. هذا كله تلفيق منك أو من أناس مجانيين مثلك.
إنني أمنعك من أن تكلمني في هذا الأمر يوماً!

في وقت متأخر من الليل، في نحو الساعة الحادية عشرة، وصل كوليا مع حصاد أنباء بعضها من بطرسبرج وبعضها من بافلوفسك. فأوجز رواية الأنباء الآتية من بطرسبرج (وهي تتعلق بهيبوليت وحادثة أمس) مؤجلاً الحديث المفصل عنها إلى وقت آخر، متعجلاً الانتقال إلى الكلام عن أنباء بافلوفسك. كان قد رجع من بطرسبرج منذ ثلاث ساعات، وذهب إلى دار إيبانتشين رأساً، دون أن يعرّج على الأمير. «رهيب ما يحدث هناك». والسبب الأول للفضيحة هو حادثة المركبة طبعاً. ولكن لا شك أن حادثاً آخر قد وقع، حادثاً لا يعرفه لا هو ولا الأمير. «وقد تجنبت طبعاً أن أتجسس أو أن أسأل أحداً. ثم أنهم قد أحسنوا استقبالي حتى لقد أحسنوا استقبالي أكثر مما كنت أتوقع. ولكنهم لم يقولوا كلمة واحدة عنك يا أمير». وها هو ذا النبأ المثير: لقد تشاجرت أجاليا مع ذويها بشأن جانيا. لا يعرف أحد تفاصيل المشاجرة، ولكن من المعروف أن جانيا هو سببها، ولا شك في أن الباعث على المشاجرة كان هاماً خطيراً، لأن المشاجرة كانت قوية عنيفة. كان الجنرال قد رجع إلى البيت متأخراً، متجهماً الهيئة عابس الأسارير، يصحبه أوجين بافلوفتش الذي استقبل بكثير من الترحيب وكان باشاً مشرق المزاج كثير اللطف والتودد. وهذا نبأ ثان أهم شأنًا: أن اليزابت بروكوفينا قد استدعت باربارا آرداليونوفنا التي كانت مع بناتها، وحظرت عليها، دون ضجيج، أن تدوس قدمها أرض بيتها بعد الآن في يوم من الأيام؛ وقد أبلغتها هذا الحظر بكثير من الكياسة والتهذيب على كل حال. عرفت هذا من فاريا بنفسها». هذا ما أضافه كوليا. وحين خرجت فاريا من عند الجنرالة وودعت الآنسات كانت الآنسات لا يعرفن أن باب هذا المنزل قد أُغلق دونها إلى الأبد وأنها تتركنهن إلى غير رجعة.

قال الأمير متحيراً:

- مع ذلك جاءت إليّ باربارا آرداليونوفنا في الساعة السابعة.

- وفي الساعة الثامنة إنما أمرت بأن لا تعود. إنني متألم لفاريا وجانيا... صحيح أنهما لا ينفكان عن تدبير المكائد، فتلك عادة لا يملكان التخلص منها. أنا لم أستطع أن أعرف ماذا يدبران، ولست أحرص على أن أعرف ذلك. ولكنني أؤكد لك يا عزيزي الأمير الطيب أن جانيا له قلب نبيل. هذا رجل ضائع من نواح كثيرة، له مزايا تستحق أن تُعرف ولن أغضرن نفسي يوماً أنني لم أفهمه قبل هذه المدة. لا أدري ألا يزال عليّ أن أتردد على آل إيبانتشين بعد الذي حدث لفاريا. صحيح أنني منذ اليوم الأول قد احتفظت

باستقلالي كاملاً، وجعلت بيني وبينهم مسافة، ولكن الأمر يحتاج إلى تفكير مع ذلك.

قال الأمير:

- إنك لتخطي إذا أخذتك بأخيك شفقة. لئن وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه فلأن جبريل آرداليونوفتش أصبح خطراً في نظر اليزابت بروكوفينا. معني ذلك أن بعضي آماله قد تأكدت.

هتف كوليا يسأل مذهولاً:

- أي آمال؟ ماذا تعني؟ أتراك تتصور أن آجلًا... ذلك لا يمكن...

لزم الأمير الصمت.

وتابع كوليا بعد دقيقة أو دقيقتين من سكوت:

- أنت رياب شكاك إلى درجة رهيبة يا أمير. لقد لاحظتُ منذ بعض الوقت أنك تهوي إلى ريبة فيها غلو، حتى أخذت لا تصدق شيئاً، وحتى صارت تفترض كل شيء... ولكن هل تُراني استعملت كلمة «الريبة» في محلها؟

- أظن، رغم أنني لست واثقاً أنا نفسي كل الثقة.

صاح كوليا يقول فجأة:

- مع ذلك أسترده هذه الكلمة. لقد اهديت إلى كلمة تفصح عن فكرتي إفصاحاً أصدق. أنت لست ريباً، وإنما أنت غيور. إن جانبا يوقظ في نفسك غيرة جهنمية بسبب امرأة متكبرة.

قال كوليا ذلك ونهض عن مكانه واثباً، وأخذ يضحك ضحكاً لعله لم يضاحك ضحكاً مثله في حياته. وازداد ضحكه حين رأي الأمير يتخضب وجهه بالحمرة. لقد فتنه أن يتصور أن الأمير غيور بسبب آجلًا. ولكنه سكت منذ لاحظ أن ألم الأمير صادق. وأخذا يتكلمان منذئذ بكثير من الرصانة والجد، فدام حديثهما ساعة أخرى، أو ساعة ونصفاً.

في اليوم التالي سافر الأمير إلى بطرسبرج، واضطر أن يمكث هنالك إلى ما بعد الظهر لأمر ملحٍ مستعجل. فلماً عاد إلى بافلوفسك في نحو الساعة الخامسة صادف إيفان فيدوروفتش بالمحطة. فأمسكه هذا من ذراعه بقوة، وبعد أن ألقى نظرات خائفة

ذات اليمين وذات الشمال، أصدده إلى مركبة في الدرجة الأولى من القطار. لقد كان يحترق رغبة في أن يكلمه في مسألة هامة.

قال إيفان فيدوروفتش للأمير:

- أرجوك أولاً، يا أميري العزيز، أن لا تؤاخذني ولا تحقد عليّ. إذا كان ثمة ما تلومني عليه فإنني آمل أن تنساه. لقد أوشكت أن أجيء إليك بالأمس، لكنني لا أدري ما الذي كان يمكن أن تتصوره أليزابت بروكوفيفنا لو أنني فعلت... ذلك لي جحيم حقاً. لكأن مخلوقاً ملغزاً كأبي الهول قد سكن منزلنا. أنا لا أفهم من الأمر شيئاً. أما أنت فأنت في رأيي أقلنا ذنباً، رغم أنك سبب كثير من التعقيدات التي حدثت. حب الخير للبشر شيء ممتع يا أمير. ولكن ما ينبغي للمرء أن يسرف قط. لعلك عانيت هذه الحقيقة أنت نفسك بالتجربة. صحيح أنني أحب طيب القلب ونبل النفس وأقدر إليزابت بروكوفيفنا، لكن...

وظل الجنرال يتكلم على هذا المنوال مدة طويلة، ولكن كلامه كان مفككاً تفككاً شديداً. كان واضحاً أنه خائف مضطرب إلى أبعد حدود الخوف والاضطراب، من حادث لا سبيل إلى فهمه البتة.

قال أخيراً وهو يدخل في حديثه شيئاً من وضوح:

- لا شك عندي في أنك غريب عن الأمر، فلا شأن لك فيه. لكنني أرجوك رجاء الصديق أن تنقطع عن زيارتنا زمناً، إلى أن تدور الريح.

ثم هاتف يقول بحرارة:

- أما أوجين بافلوفتش فإن كل ما يُشاع عنه إنما هو أراجيف دنيئة ووشايات كاذبة! نحن إزاء محاولة تشهير وخطة تآمر. ثمة مكيدة يهدف منها إلى قلب كل شيء رأساً على عقب، وإلى إحداث الشقاق والخلاف بيننا. اسمع يا أمير، إنني أقول لك الحقيقة بصراحة. ما من كلمة نُطقت حتى الآن بيننا، نحن وأوجين بافلتش، هل تفهم؟ لا شيء يربطنا في الوقت الحاضر. غير أن تلك الكلمة يمكن أن تُنطق. وقد تُنطق في القريب، بل قد تُنطق من لحظة إلى أخرى. وذلك ما يُراد منعه. لماذا؟ ما الغرض من ذلك؟ ما هي النية المخفية وراءه؟ هذا ما لا أستطيع أن أدركه. أن هذه المرأة محيرة شاذة. إنني أخاف منها أشدّ الخوف؛ إن خوفي منها يؤرّقني ويحرمني من النوم. وانظر إلى تلك المركبة الفخمة، وتلك الخيول الصهباء... ذلك ما يُسميه الفرنسيون أناقة! من ذا الذي يهيئ لها هذا المستوى من العيش؟ يميناً لقد راودتني في يوم من الأيام هذه

الفكرة الآثمة، وهي أن أوجين بافلتش هو الذي يهيئ لها ذلك. ولكن من الواضح أن هذا الرأي لا يمكن أن يصمد للدحض. لماذا تحاول إذاً إحداث الشقاق بيننا؟ ذلك هو اللغز! أمن أجل أن تحتفظ إلى جانبها بأوجين بافلوفتش؟ لكنني أكرر لك وأحلف لك أنه لا يعرفها وأن الكلام الذي قالته اختراع وتلفيق. وما أشد تلك الوقاحة في أن تخاطبه بصيغة المفرد على ذلك النحو عبر الشارع! تلك مكيدة مدبرة لا أكثر! واضح أن علينا أن ننبد هذه المكيدة باحتقار وأن نضاعف احترامنا لأوجين بافلوفتش. ذلك ما أعلنته لإليزابت بروكوفيفنا. والآن أفضي إليك بالرأي الذي أكنه في قرارة نفسي: إنني مقنع اقتناعاً عميقاً بأنها تحاول أن تنتقم بهذا مني أنا، بسبب ما جرى من قبل، هل تتذكر؟ ومع ذلك فإنني لم أخطئ في حقها يوماً ولا أسأت إليها. إن وجهي ليحمرّ خجلاً كلما فكرت في ذلك الأمر. ها هي ذي تعود الآن إلى الظهور بعد أن ظننت أنها غابت إلى الأبد. أين ذهب روجويين؟ لقد كنت أحسب أنها أصبحت منذ مدة طويلة زوجة روجويين.

الخلاصة أن الجنرال كان حائراً أشدّ الحيرة. ولقد ظل طوال ما يقرب من ساعة، وهي المدة التي استغرقتها مسافة الطريق بالقطار، يجري الحديث مع نفسه، فهو الذي يلقي الأسئلة وهو الذي يجيب عنها، ضاغطاً على يدي الأمير، مفلحاً في إقناعه على الأقل بأنه لا يساوره ظل من شك فيه. وتلك هي النقطة الجوهرية بالنسبة إلى الأمير. وتكلم في آخر الأمر عن عمّ أوجين بافلوفتش الذي يشغل منصب رئيس لإحدى الإدارات ببطرسبرج. فقال إنه «رجل في نحو السبعين من عمره، ذو مركز مرموق، يحب مباحج الحياة ويقبل على ملذّات المائدة، أي أنه - باختصار - شيخ ما يزال نضر الرغبات... ها ها! وأنا أعلم أنه سمع عن ناستاسيا فيليبوفنا، حتى أنه التمس الحظوة بنعمها. وقد زرته منذ قليل. إنه لا يستقبل الآن بسبب سوء صحته، ولكنه غنيّ، غنيّ. وإنّ له نفوذاً وتأثيراً... أظال الله عمره! غير أن أوجين بافلتش سيرث ثروته كلها... نعم... لكنني مع ذلك خائف.. إن في الهواء نذير شرّ يحلق تحليق خفاش، فأنا خائف، خائف...».

الفصل الثاني عشر

في الساعة السابعة من المساء، كان الأمير يتهيأ للقيام بنزهاته في الحديقة، فإذا بأليزابيث بروكوفيفنا تظهر في الشرفة وحيدة، وتتجه نحوه.

قالت:

- أولاً، لا يذهبن بك الظنّ إلى أنني جئت أطلب منك الصفح. فتلک حماقة! أنت وحدك مرتكب جميع الأخطاء ومقترف جميع الذنوب!

لزم الأمير الصمت.

- أنت مذنب أم لا؟

- لا أكثر منك ولا أقل. على أننا لم نذنب عن عمد وقصد، لا أنا ولا أنت. منذ ثلاثة أيام اعتقدت أنني مذنب آثم. أما الآن فقد اقتنعت بعد التفكير بأن لا شيء من ذلك!

- أ... هكذا أنت طيب، اجلس واسمع، لأنني لا أنتوي أن أبقى واقفة.

جلس الاثنان.

قالت:

- ثانياً، لا داعي إلى كلمة واحدة عن أولئك الأشقياء! سأملك عشر دقائق للتحدث معك. لقد جئت أسألك عن أمر من الأمور (لا يعلم إلا الله إلى أي شيء ذهب ظنك)، فإن نطقت بكلمة واحدة عن أولئك الوقحين، فلأنهضنّ منصرفة على الفور، وليكوننّ ذلك فراقاً بيني وبينك.

قال الأمير:

- طيب.

- اسمح لي أن أُلقي عليك سؤالاً: هل بعثت برسالة إلى آجاليا منذ شهرين أو شهرين ونصف شهر، حوالي أعياد الفصح؟

- ن... نعم...

- بأي مناسبة؟ في أي موضوع؟ ماذا تضمّنته تلك الرسالة؟ أرني الرسالة!

كانت عينا اليزابت بروكوفينا تقدح شرراً، وكانت ترتعش من فرط نفاذ الصبر.
أجاب الأمير مدهوشاً مرتاعاً:

- ليست تلك الرسالة معي، وإذا كانت ما تزال موجودة فهي مع آجلايا إيفانوفنا...

- لا تراوغ! ماذا كتبت لها في تلك الرسالة؟

- لست أراوغ، وليس ثمة ما أخشاه. إنني لا أرى السبب الذي كان يمكن أن يمنعني من الكتابة إليها...

- اسكت. سنتكلم من بعد. ماذا تضمّنت تلك الرسالة؟ لماذا احمرّ وجهك؟
فكر الأمير لحظة.

- لا أعرف ماذا يدور في رأسك من خواطر يا أليزابت بروكوفينا. ولكنني أرى أن تلك الرسالة قد أورثتك كثيراً من الاستياء. لاحظني أن في وسعي أن لا أجيب عن سؤال كهذا السؤال الذي تلقين. لكنني من أجل أن أبرهن لك على أنه ليس ثمة ما أخشاه بصدد تلك الرسالة، وعلى أنني لست نادماً ولا خجلان من كتابتها (حين قال الأمير هذا الكلام تضاعفت حمرة وجهه)، فسأتلوها عليك، لأنني أحفظ مضمونها على ظهر قلب فيما أظن.

وأخذ الأمير يتلو نص الرسالة كلمة كلمة تقريباً.

قالت إليزابت بروكوفينا بعد أن أصغت بانتباه شديد، قالت بلهجة فظة شرسة:

- يا له من خلط! ما المعني الذي تقصده من هذه السخافات؟

أجابها الأمير:

- أنا نفسي لا أعرف حق المعرفة. أن ما أعلمه هو أن عاطفتي كانت صادقة. كانت تنتابني هنالك لحظات حياة عنيفة وآمال كبيرة.

- أي آمال؟

- يصعب عليّ أن أشرح هذا، ولكن تلك الآمال ليست ما يغلب على ظني أن تفكيرك ينصرف إليها الآن. إن تلك الآمال... تتصل بالمستقبل، وترتبط بفرحة التفكير في أنني

لعلني لم أكن «هنالك» أجنبياً. وقد غمرتني سعادة بالعودة إلى الوطن، فتناولت القلم في ذات صباح مشمس، وكتبت لها تلك الرسالة. لماذا كتبت الرسالة إليها هي؟ لا أدري. هناك لحظات يريد فيها المرء أن يكون بقربه صديق.

وأضاف الأمير يقول بعد صمت:

- فلفل ذلك الشعور هو الذي قادني ووجهني.

- أتراك محباً؟

- لا والله. لقد كتبت إليها كما يكتب أخ إلى أخته. حتى لقد ذيلت رسالتي بهذا التوقيع: «أخوك».

- هه! خيال بارع! فهمت!

- يشق على نفسي جداً أن أجيب عن أسئلة كهذه يا أليزابيث بروكوفينا.

- أعلم. غير أن هذا لا يعنيني البتة. اسمع، قل لي الحقيقة كما لو كنت تتكلم أمام الله: أكاذب أنت فيما تقول أم لا؟

- لست كاذباً.

- أأنت تقول الحقيقة حين تؤكد أنك لست محباً؟

- يخيل إليّ أن هذا صادق صدقاً مطلقاً.

- ... «يخيل إليك»! هل الصبي هو الذي حمل إليها الرسالة؟

- رجوت نيقولا آرداليونوفتش أن...

قاطعتة اليزابيث بروكوفينا في غضب:

- الصبي، الصبي! أنا لا أعرف نيقولا آرداليونوفتش. قل الصبي!

- نيقولا آرداليونوفتش...

- بل الصبي، قلت لك...

ردّ الأمير يقول بلهجة ثابتة، ولكن دون أن يرفع صوته:

- لا، ما هو بالصبي، إنه نيقولا آرداليونوفتش.

- طيب... طيب... سأجازيك على هذا بمثله...

كظمت أليزابث بروكوفيفنا انفعالها دقيقة لتسترد أنفاسها ثم سألته:

– وما معني «الفارس الفقير»؟

– لا أدري. حدث هذا في غيابي. لا شك في أنه مزاحاة من المزاحات.

– ما أحلى أن يعلم المرء هذا كله دفعة واحدة! ولكن هل يمكن أن تكون قد اهتمت بك؟ لقد وصفتك هي نفسها بأنك «طرح» وبأنك «أبله».

قال الأمير بلهجة العتب، ويكاد يكون همساً:

– كان في وسعك أن تعفيني من نقل هذا الكلام إليّ.

– لا تزعل. هذه فتاة مستبدة متسلطة، طائشة اللب؛ إنها طفلة أفسدها الدلال!... قد تفتتن بشخص من الأشخاص فإذا هي تهينه على رؤوس الأشهاد، وتضحك عليه أمام أنفه. أنا نفسي كنت هكذا. ولكنني أرجوك أن لا تتغنى بالانتصار، وأن لا تسكر بنشوة الظفر. هي ليست لك يا صغيري. إنني أرفض أن أصدق. لن يكون هذا في يوم من الأيام! أقول ذلك لتعزم أمرك منذ الآن. اسمع: أحلف لي أنك لم تتزوج «الأخرى».

قال الأمير وهو ينتفض دهشة:

– ما هذا الذي تقولينه يا أليزابث بروكوفيفنا؟

– ولكن ألم توشك أن تتزوجها؟

دمدم الأمير يقول خافضاً رأسه:

– أوشكت أن أتزوجها.

– فأنت إذاً تحبها «هي»؟ وأنت إنما جئت إلى هنا من أجلها «هي»، من أجل تلك

المرأة؟

أجاب الأمير:

– ما من أجل أن أتزوجها جئت.

– هل في العالم شيء مقدس عندك؟

– نعم.

– احلف أنك لم تجئ لتتزوج من «تلك المرأة».

- أحلف على ذلك بما تشائين.

- صدقتك، قبلني. هأنذا أتنفس أخيراً بحرية. ولكن اعلم أن أجاليا لا تحبك، ورتب أمورك على هذا الأساس. لن تصبح أجاليا زوجتك ما بقيت أنا على قيد الحياة. هل سمعت؟

- سمعت.

بلغ الأمير من شدة الاحمرار أنه أصبح لا يستطيع أن ينظر إلى اليزابت بروكوفينا وجهاً لوجه.

- ضع هذا في رأسك. لقد انتظرتك انتظار العناية الإلهية (وكنت لا تستحق ذلك)، وبللت وسادتي في الليل بالدموع - أوه! لا بسببك أنت يا صديقي، اطمئن! فإن لي حزناً آخر، حزناً لا يتغير مدى الدهر. ولكن إليك السبب الذي جعلني أنتظرك نافذة الصبر: إنني ما زلت أعتقد بأن الله هو الذي أرسلك إليّ صديقاً وأخاً. ليس لي أحد أشدّ به أذري، إلا العجوز بيلوكونسكايا، التي سافرت هي نفسها، ناهيك عن أنها كانت قد أصبحت من الشيخوخة غبية كشاة من الشياه! والآن ليس عليك إلا أن تجيبني بكلمة نعم أو بكلمة لا على هذا السؤال: هل تعلم لماذا قذفت «تلك المرأة» بتلك الصيحة من داخل مركبتها في ذلك اليوم؟

- أحلف لك أن لا شأن لي بالأمر، ولست أعرف شيئاً!

- يكفيني هذا! صدقتك. أن لي رأياً جديداً في هذا الموضوع، ولكنني في صباح أمس كنت ما أزال أعدّ أوجين بافلتش مسؤولاً عن كل ما حدث. لقد لازمتني هذه الفكرة طوال أمس الأول وطوال صباح أمس. أمّا الآن فقد انتهيت إلى الموافقة على رأيهم: واضح أنه قد سُخر منه واستهزئ به كمعتوه. كيف؟ لماذا؟ ما الغاية من ذلك؟ إن الحركة في ذاتها مشبوهة غير شريفة. على كل حال، لن يتزوج أجاليا. أنا أقول لك هذا! مهما يكن رجلاً ممتازاً، فلن أرضى أن يتزوجها. حتى قبل هذا الحادث كنت مترددة. أمّا الآن فقد اتخذت قراراً وعزمت أمري: «ضعني أولاً في تابوتي وادفني في قبوري، ثم زوج ابنتك»، ذلك ما قلته اليوم لإيفان فيدوروفتش مقطعةً كلماتي. ها أنت ذا ترى مدى ثقتي بك. هل تري ذلك؟

- أراء وأفهمه.

حدقت اليزابت بروكوفينا إلى الأمير بنظرة نافذة. لعلها كانت تحترق شوقاً إلى

معرفة الأثر الذي أحدثه في نفسه كلامها عن أوجين بافلتش.

- أنت لا تعرف شيئاً عن جبريل آرداليونوفتش إيفولجين؟

- ... أعرف أشياء كثيرة.

- هل تعرف أنه على صلات بآجلايا؟

قال الأمير مدهوشاً:

- أجهل هذا كل الجهل. ماذا؟ تقولين إن جبريل آرداليونوفتش على صلات بآجلايا إيفانوفنا؟ مستحيل!

- الأمر حديث العهد. إن أخته هي التي شقت له الطريق طوال فصل الشتاء.

عاد الأمير يكرر باقتناع بعد أن ظل شارد الذهن مضطرب النفس برهة من الوقت:

- لا أصدق شيئاً من هذا الكلام. لو صحّ ذلك لعرفته حتماً.

- أتظن أن جبريل آرداليونوفتش كان سيأتي معترفاً لك بسرّه باكياً فوق صدرك؟

يا لك من ساذج غرّ! ... إن جميع الناس يخدعونك ويضللونك مثل... مثل... أفلا تستحي أن تمحضه ثقتك؟ ألسنت ترى أنه يضحك عليك ويغرّر بك؟

قال الأمير بصوت خافت ولهجة لا تخلو من اشمئزاز:

- أعرف أنه يغشني أحياناً. وهو لا يجهل أنني أعرف ذلك...

ولم يكمل الأمير فكرته.

- هكذا إذا؟ تعلم أنه يغشك ثم تظل توليه ثقتك. لم يكن ينقص إلا هذا. على أن

ذلك هو ما يمكن أن يُنتظر منك. فعلام الاستغراب؟ رباه! لا يوجد في العالم كله رجال من نوعك. وهل تعلم أن جانبا هذا أو فاريا هذه قد جعلها على صلات بناستاسيا فيليبوفنا؟

صاح الأمير يسأل:

- من؟

- آجلايا.

- لا أصدق. هذا مستحيل. ما الغاية من ذلك؟

وكان قد نهض عن مكانه واثباً.

قالت إليزابت بروكوفيفنا:

- أنا أيضاً لا أصدق ذلك، رغم أن هناك أدلة وبراهين. إنها فتاة ذات نزوات، فتاة جامحة الخيال طائشة العقل فتاة شريرة، شريرة، شريرة! إنني مستعدة لأن أكرر لك ألف سنة أنها شريرة! وبناتي كلهن أصبحن الآن على هذه الشاكلة، حتى تلك الدجاجة المبتلة، ألكساندرا! ولكن آجاليا قد أفلتت من بين يدي وانتهى الأمر، ومع ذلك لست أصدق هذا أنا أيضاً.

ثم أضافت تقول لنفسها:

- ربما لأنني لا أريد أن أصدق.

ثم نادى الأمير فجأة تسأله:

- لماذا لم تجيء؟ لماذا لبثت ثلاثة أيام لا تجيء؟

كررت سؤالها نافذة الصبر.

فأخذ الأمير يعدد الأسباب التي حالت بينه وبين المجيء. لكنها قاطعته مرة أخرى وقالت له:

- جميع الناس يعدّونك غيباً ويغشونك! لقد كنت أمس بالمدينة، وإنني لأراهن أنك مضيت تجثو أمام ذلك الوغد ضارعاً إليه أن يقبل منك العشرة آلاف روبل.

- لا. لم يخطر ببالي أن أفعل. ولم أره. ثم إنه ليس وغداً. لقد تلقيت منه رسالة.

- أرنيتها.

سحب الأمير من محفظة أوراقه رسالة مدها إلى إليزابت بروكوفيفنا. وهذه هي الرسالة:

«سيدي، ليس لي حتماً، في نظر الناس، أي حقّ في أن أظهر شيئاً من الشعور بالكرامة. فالناس يعدّونني أهون شأنًا وأحقّر قيمة من أن أفعل ذلك. ولكن نظرة الناس إلى الأمور ليست نظرتك أنت. إنني مقتنع أشدّ الاقتناع يا سيدي بأنك كنت أفضل من سائر الناس. لست أشاطر دوكتورنكو رأيه، بل أخالفه في هذه النقطة. لن أقبل منك كوبكاً واحداً في يوم من الأيام. ولكنك أنجدت أمي، فأنا محمول على أن أشكر لك صنيعك رغم أن هذا ضعف. على كل حال، لقد رجعت عن رأيي فيك، واعتقدت أن من

واجبي أن أبلغك ذلك. وإني لأتنبأ بأننا لن نقوم بينا أية علاقة بعد الآن».

آنتيب بوردوفسكي.

«حاشية: إن المال الناقص لإكمال مبلغ المائتي روبل الذي أدين لك به^[107] سيرد إليك مع الزمن حتماً».

قالت إليزابت بروكوفيفنا وهي تنهي قراءة الرسالة ثم ترميها:

- يا للسخف والحماقة! ما كان هذا الكلام ليستحق أن يُقرأ. ممّ تضحك؟

- اعترفي مع ذلك بأن قراءة هذه الرسالة قد سرّتك.

- كيف؟ تسُرّني قراءة هذا الهذر الدعيّ السخيف؟ ألسـت ترى إذن أن جميع هؤلاء

الناس قد أضلهم الزهو والعجب والغرور؟

- صحيح، ولكنه اعترف بأخطائه، وقطع صلته بدكتورنكو. وعلى قدر غروره

وزهوه كلّفه عمله هذا ثمناً باهظاً. ... يا لك من طفلة صغيرة يا إليزابت بروكوفيفنا.

- أترأك تودّ أن أصفعك على وجهك؟

- لا، لا أحرص على ذلك البتة! كلّ ما هنالك أنني ألاحظ أن قراءة هذه الرسالة

قد ملأت نفسك ارتياحاً، وأنت تخفين ذلك. فيم تخجلين من عواطفك؟ إنك هكذا في كل أمر.

صاحت إليزابت بروكوفيفنا تقول واثبة عن مكانها، شاحبة اللون من فرط الغضب:

- حذار أن تضع قدميك في بيتي بعد اليوم! إياك أن يظهر أنفك في عتبة بابي

بعد الآن!

- وبعد ثلاثة أيام تسعين أنت إليّ! ما هذا؟ ما بالك تحمريّين خجلاً من أنبل

عواطفك؟ لم هذا؟ إنك لا تزيدين بذلك على أن تعذّبي نفسك.

- لن أستدعيك ولو رقدتُ على فراش الموت. سأنسى اسمك. بل لقد نسيتـه.

قالت ذلك وأسـرعت تبتعد عن الأمير.

صرخ الأمير يقول لها:

- على كل حال، لقد حُظر عليّ أن أزورك.

- ماذا؟ من حضر عليك ذلك؟

- آجلًا إيفانوفنا هي التي تحظر عليّ أن...

- متى حدث هذا؟ تكلم، مالك لا تتكلم؟...

- في هذا الصباح، أرسلت تبليغي أن عليّ أن لا أدوس أرض داركم بعد اليوم قط...

شدهت اليزابت بروكوفيفنا. ومع ذلك أخذت تفكر.

ثم هتفت تقول فجأة:

- كيف؟ من أرسلت لإبلاغك ذلك؟ الصبي؟ بكلام؟

- بل برسالة.

- أين الرسالة؟ أعطنيها! فوراً!

فكر الأمير لحظة، ثم سل من جيب صدرته مزقة ورق كان مكتوباً عليها ما يلي:

«الأمير ليون نيقولايفتش، إذا كنت تنوي، بعد كل الذي حدث، أن تدهشني فتجيء تزورنا بدارنا، فثق أنني لن أكون من أولئك اللواتي ستسرهنّ زيارتك».

آجلًا إيفانوفنا.

لبثت إيزابت بروكوفيفنا شاردة الفكر لحظة، ثم أسرع إلى الأمير، فأمسكت يده، واقتادته صائحة وقد استولى عليها احتياج شديد واضطراب كبير:

- حالاً تعال! في هذه اللحظة نفسها!

- لكنك ستعرضيني ل-....

- أعرضك لأي شيء؟ ساذج! غبي! حتى لكأنك لست برجل! هيا! سأرى كل شيء

بنفسي، بعيني رأسي...

- اسمحي لي أن آخذ قبعتي على الأقل...

- هي ذي، قبعتك القدرة، هيا! إنك عاجز حتى عن اختيار قبعة فيها ذوق!...

ثم تمت اليزابت بروكوفيفنا تقول وهي تجرّ الأمير في أثرها دون أن ترخيه

لحظة واحدة:

- كتبت ذلك... كتبت ذلك بعد المشهد الذي جرى منذ قليل... كتبته في غمرة

الاندفاع...

ثم أضافت تخاطب الأمير:

- لقد تحيّزت لك منذ قليل. قلتُ صراحةً إنك غبيّ لأنك لا تجيء... ولولا ذلك لما كتبتُ إليك رسالة تبلغ هذا المبلغ من الحماسة، وتبلغ هذا المبلغ من قلة الاحتشام! أن هذا لهو قلة احتشام من جانب فتاة نبيلة المحتد، حسنة التربية، ذكية، نعم ذكية!

وتابعت تقول:

- هم... ولعلها مغتظة أيضاً من تغيّبك. ذلك جائز. ولكنها لا تُدرك أنه لا يكتب مثل هذا الكلام لرجل أبله يفهم الأمور فهماً حرفياً كما حدث ذلك فعلاً.

ولاحظت أنها أسرفت في القول، فصاحت تسأله:

- مالي أراك تمدّ أذنيك؟ إنها في حاجة إلى مهرج من نوعك. لقد حرّمت من مثلك منذ مدة طويلة. ذلك هو السبب في أنها تسعى إليك! أنا مفتتنة أعظم الافتتان، لأنها ستجعلك أضحوكة!... إنك لم تسرقها! إنها في هذه اللعبة بارعة! نعم بارعة... حاذقة!...

الجزء الثالث

الفصل الأول

يُشتكى عندنا دائماً من أننا يعوزنا أناس عمليون. فيقال مثلاً إن هناك وفرة في رجال السياسة، وإن هناك كثيراً من الجنرالات، وإننا إذا احتجنا إلى رؤساء للمشروعات، أياً كان العدد الذي نريده منهم، فسوف نجد ضالتنا من جميع أنواعهم فوراً. أما الناس العمليون فلا نقع عليهم، أو قل على الأقل إن جميع المملأ يتشكون من أنهم لا يقعون عليهم. حتى ليقال إن بعض الخطوط الحديدية لا وجود فيها لموظفين يحسنون القيام بأعمالهم البتة؛ ويزعم بعضهم أنه يستحيل كل الاستحالة على شركة من شركات الملاحة أن يتوفر لها موظفون فنيون ولو على درجة متوسطة من الكفاءة. فتارة يصل إلى علمنا أن عربات الركاب، على خط جديد من خطوط السكك الحديدية، قد تصادمت أو تهاوت مع جسر من الجسور. وتارة نقرأ أن قطاراً بقي متعطلاً وسط حقل من الثلج حتى أوشك أن يعجز عن استئناف المسير طوال فصل الشتاء فإذا بالمسافرين الذين كانوا يظنون أنهم لن يغيبوا إلا بضع ساعات، يلبثون في الثلج خمسة أيام. وتارة يروى أن ألوفاً كثيرة من أرطال البضائع قد فسدت لبقائها في مكانها شهرين أو ثلاثة أشهر بانتظار نقلها. وتارة يذكر (وهذا شيء لا يكاد يُصدق) أن واحداً من موظفي الإدارة، هو مراقب من المراقبين مثلاً، لم يجد ما يردّ به على طلب مندوب أحد التجار، الذي كان يستعجله شحن البضاعة، إلا أن يصفعه على وجهه، فلما سئل عن فعلته لم يزد على أن صرح بأنه «غضب». والمكاتب تبلغ من الكثرة في دوائر الدولة أن المرء يرتعش حين يفكر فيها. إن جميع الناس عملوا موظفين في الحكومة، أو يعملون موظفين أو يأملون أن يعملوا موظفين. هل يصدق العقل أننا لا نستطيع أن نعثر بين هذه الوفرة الهائلة من الناس على قلة قليلة تصلح لأن تعمل في شركة ملاحية؟

هذا سؤال يجيب عنه بعضهم إجابة مسرفة في البساطة، حتى لتبلغ من إسرافها في البساطة أن المرء يصعب عليه أن يقبلها. يقول هؤلاء: إن جميع الناس في بلادنا قد عملوا موظفين أو ما يزالون يعملون موظفين، فهذا يدوم في الواقع منذ مائتي عام، يتوارثه الناس أحفاداً عن أجداد، على غرار خير قدوة أخذناها عن الألمان. والذين يعملون في الوظائف هم أنفسهم أبعد الناس عن ما يزالان إلى عهد قريب يُعدّان بين الموظفين فضيلة بارزة ولقباً رفيعاً.

ولكن علام نتكلم عن الموظفين بينما كان غرضنا في الواقع أن نتحدث عن الناس العمليين عامة؟ هنا نستطيع أن نقول في غير شبهة إن الوجل وفقدان المبادرة الشخصية كانا يُعدّان دائماً في بلادنا خير علامة أساسية يُعرف بها الإنسان العملي. وحتى في زماننا هذا ما يزال الناس يرون هذا الرأي. ولكن لماذا نتهم أنفسنا، هذا إذا صحّ أن في هذا الرأي اتهاماً؟ إن فقدان التفرد والأصالة قد غدّ في جميع البلاد وفي جميع الأزمان ميزة أولى ومدخلاً مضموناً لشخص قادر على النجاح في الأعمال وعلى امتلاك الحسّ العملي، أو قل إن تسعة وتسعين في المائة من الناس (على الأقل) كانوا يرون هذا الرأي دائماً، وإن واحداً في المائة منهم (على الأكثر) كان دائماً وما يزال لا يرى ذلك الرأي.

إن المخترعين والعباقرة قد نظر إليهم المجتمع في جميع الأزمان تقريباً نظرتهم إلى أناس حمقى، وذلك في بداية حياتهم (وإلى آخرها في كثير من الأحيان). هذه ملاحظة معروفة شائعة حتى لتكاد تكون مبدولة. فطوال عشرات السنين مثلاً ظل الناس يودعون أموالهم في مصرف لومبارد^[1] مختزنين المليارات بفائدة 4%، فلما توقف مصرف لومبارد عن العمل، فصار كل إنسان متروكاً لمبادرته الشخصية، كان لا بدّ أن نرى أكثر تلك الملايين تتبخر بين أيدي محتالين في غمرة حمّى من المضاربات، فتلك هي النهاية المنطقية للأداب الاجتماعية والأخلاق الحسنة، وإنما أقول «الأخلاق الحسنة»، لأنه إذا كان الخجل المناسب والابتعاد المحتشم عن التفرد والأصالة قد عدّهما مجتمعنا في رأي جميع الناس ميزة ملازمة لكل إنسان جاد محترم، فإن تغيير المرء طريقة سلوكه وأسلوب حياته فجأة لا بدّ أن يشتمل، إذا هو حدث، على تناقض قوي واضطراب شديد وتفكك كبير، بل لا بدّ أن يكون فيه شيء من مجافاة اللياقة وقلة الأدب.

من هي، على سبيل المثال، الأم التي لا يجعلها حبها لأولادها وحنانها عليهم تخاف خوفاً قد يهوي بها إلى المرض إذا هي رأت ابناً أو ابنتاً يبتعدان ولو قليلاً عن السكة المرسومة والطريق الممهّد؟ إنها تقول لنفسها: «لا، لا، لا نريد تفرداً وأصالة! إنني لأوثر له السعادة والعيش في يسر». إن كل أم تفكر هذا التفكير وهي تدلّ ولدها. أما المربيات عندنا فإنهن من قديم الزمان يهددن أولادنا في مهودهم بأغنيتهن الأبدية: «الذهب سيحوطك، وجنرالاً سوف تصبح». هكذا نرى أن مربيات أولادنا أنفسهن قد نظرن دائماً إلى لقب الجنرال على أنه المقياس الأسمى للسعادة الروسية. معنى ذلك أن هذه الرتبة تعدّ هي المثل الأعلى الذي يحظى باحترام الناس كافة، وتعدّ الرمز إلى

هناة فاتنة هادئة. وفي الواقع، أي رجل في روسيا لم يكن متأكداً من أنه بالغ رتبة جنرال في يوم من الأيام، وصائرٌ إلى اختزان مبلغ من المال في مصرف لومبارد، متى استطاع أن ينجح في الامتحانات المطلوبة، امتحان وراء امتحان، ومتى خدم الدولة خمسة وثلاثين عاماً؟ على هذا النحو إنما كان الروسي يحصل آخر الأمر، من دون جهد تقريباً، على سمعة أنه رجل قادر عملي. والواقع أنه ليس في روسيا إلا أفراد فئة واحدة لا يستطيعون أن يصلوا إلى رتبة جنرال: أولئك هم ذوو الأفكار المتفرّدة الأصيلة، أعني أهل القلق الذين لا يستقرون على حال. قد يشتمل كلامي هذا على سوء فهم. ولكن هذه الملاحظة تبدو صحيحة صادقة، ولقد كان المجتمع الروسي مبنيًا على تعريف مثله الأعلى في الإنسان العملي هذا النحو من التعريف.

لكن ها نحن أولاء قد نأينا كثيراً عن موضوعنا، وهو أن نقدم بضع إيضاحات عن أسرة إيبانتشين.

إن أفراد إيبانتشين، أو المياليين منهم إلى التأمل أكثر من الباقين، يعانون من خصلة مشتركة بينهم جميعاً هي نقيض تلك الميزات التي تحدثنا عنها منذ قليل. ولقد كانوا يشبهون أحياناً في أن الأمور عندهم لا تجري كما تجري عند سائر الناس، دون أن يدركوا ذلك إدراكاً تاماً (وهو أمر صعب إدراكه على كل حال). إن الطريق المستوية الممهدة بالنسبة إلى الآخرين هي بالنسبة إليهم وعرة ملأى بالحجارة. الناس ينزلون على السكة انزلاقاً سهلاً ليناً، أما هم فينزلون عنها في كل لحظة. لدى الآخرين يسيطر وجل شديد وخوف حفيف، أما لديهم فلا شيء من ذلك. صحيح أن إليزابيت بروكوفينا كانت تنتابها مخاوف فيها غلو، ولكن تلك المخاوف لا تشبه في شيء ذلك الوجع اللائق وذلك الخجل المفيد اللذين كان يحزن أفراد أسرة إيبانتشين حرمانهم منهما. ولعل إليزابيت بروكوفينا كانت الوحيدة التي يحزنها ذلك على كل حال. لقد كانت الأنسات، رغم صغر سنهن، ينعمن منذ الآن بفكر نقاد ساخر فيه تحد، وفيه ذكاء وفطنة ونباهة. أما الجنرال فكان ينفذ إلى غور الأشياء (ولو بشيء من البطء)، لكنه في الحالات المربكة لا يزيد على أن يههم قائلاً «هم»، ثم ينتهي به الأمر إلى الاعتماد على إليزابيت بروكوفينا اعتماداً كاملاً بحيث تقع التبعة كلها عليها وتكون وحدها المسؤولة.

لا يمكن أن نقول مع ذلك إن هذه الأسرة تتميز إلى درجة بعيدة بروح المبادرة الخاصة ولا إنها تبيع لنفسها أن تنقاد لميل واع إلى التفرد والأصالة، وإلا كان ذلك شذوذاً غير لائق. لا، لا، لم يكن ثمة شيء من هذا في حقيقة الأمر، لم يكن ثمة شيء

يشتمل من جهتها على سابق قصد وعمد. ومع هذا لم تكن هذه الأسرة، مهما نقل إنها أسرة محترمة، لم تكن في الحساب الأخير ما ينبغي لها أن تكون على وجه الدقة والتمام حتى يصدق عليها التعريف الشائع للأسرة المحترمة. وقد اعتقدت إليزابيث بروكوفينا في الآونة الأخيرة أنها وحدها، بما تتصف به من طبع «شقي»، هي سبب هذا الشذوذ في الأسرة، فما كان من هذا الاعتقاد إلا أن زاد آلامها وضاعف تباريحها. فكانت تؤاخذ نفسها في كل لحظة على «جموحها الطائش غير اللائق»، حتى لقد أخذت تفقد صوابها مغمومة مهمومة خائفة مرتابة. فلا تجد مخرجاً من أيسر التعقيدات ولا تجد حلاً لأبسط المشكلات، وما تنفك تمضي بالأمور من سيئ إلى أسوأ.

لقد قلنا منذ بداية قصتنا إن أسرة إيبانتشين كانت تحظى بتقدير ينعقد عليه إجماع الناس حقاً. فالجنرال إيفان فيدوروفتش نفسه، رغم أنه مغمور الأصل، كان يستقبل في كل مكان بتعظيم لا مرأى فيه. ولقد كان يستحق هذا التعظيم على كل حال، أولاً لأنه ليس «أي شخص»، ولأنه رجل طائل الثراء؛ وثانياً لأنه رفيع التهذيب رقيق الحاشية، فليس يضيره أن يكون محدود المواهب. غير أن شيئاً من ثقل الفكر وكثافة الذهن ميزة تكاد تكون ضرورية فيما يظهر، فإن لم تكن ضرورية لكل رجل منخرط في الأعمال، فهي ضرورية على الأقل لكل رجل حريص على الانتفاع ساع إلى الفائدة. ثم إنه كان راقياً الآداب والسلوك. كان متواضعاً، وكان يعرف كيف يصمت، دون أن يتيح لأحد مع ذلك أن يدوس على قدميه، لا بسبب رتبته فحسب، بل لأنه رجل يحترم نفسه ويحترمه غيره. وهو فوق ذلك كله رجل له سند قوي يحميه.

أما إليزابيث بروكوفينا فهي تنحدر من أسرة طيبة كما سبق أن قلنا. والمحتد لا يكون له وزن كبير في بلادنا إن لم تشفعه علاقات وصلات لا بد منها. وقد حصلت إليزابيث بروكوفينا هذه العلاقات والصلات آخر الأمر، فكانت تحترم وتُقدّر، حتى لقد ظفرت بمودة أناس كان لا بد للجميع أن يقتدوا بهم فيعظموها ويستقبلوها. ومما لا شك فيه أن أحزانها العائلية لم يكن لها أسباب تسوُّغها، أو هي ترجع إلى أسباب تافهة يضحكها خيالها تضخيماً مضحكاً. ولكن يكفي أن يكون للمرء ثؤلول في أنفه أو جبينه حتى يتخيل أن جميع الناس لا يفكرون إلا في النظر إلى هذا الثؤلول، وفي الضحك منه، وفي نقد صاحبه، ولو كان صاحبه هذا هو مكتشف أمريكا. ومما لا شك فيه أيضاً أن إليزابيث بروكوفينا كانت تُعدّ في المجتمع «شاذة» بعض الشذوذ، دون أن يقلل هذا من الاحترام الذي كانت تحاط به. لكنها أصبحت تشك في هذا الاحترام آخر الأمر، فكان هذا هو شقاءها كله. فهي حين تنظر إلى بناتها تتخيل متألمة أن طبعها المضحك، غير اللائق، الذي لا يطاق، يؤدي حالة بناتها ويسبب إلى مستقبلهن، ومع ذلك كان هذا

نفسه هو ما تتهم به بناتها وتأخذه عليهن وتأخذه على إيفان فيدوروفتش، فهي تشاجرهن وتشاجره أياماً بكاملها، دون أن تكف رغم ذلك عن أن تحبهم جميعاً حبا يمضي إلى حد التضحية بالنفس، ويبلغ درجة الهوى العارم.

وكان يعذبها خاصة أن تتصور أن بناتها قد أخذن يصبحن «شاذات»، مثلها هن أيضاً، وأنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد على وجه الأرض فتيات من نوعهن. كانت ما تنفك تردد على نفسها قولها: «لسوف يصبحن من أنصار المذهب العدمي». وقد أخذت هذه الفكرة الحزينة ترسخ في ذهنها مزيداً من الترسخ العميق منذ سنة. وكانت تتساءل: «فأولاً: لماذا لا يتزوجن؟ إنهن وجدن لتعذيب أمهن. ذلك هو هدف وجودهن. ولا غرابة في هذا على كل حال. فهو ثمرة الأفكار الجديدة، وهو خاصة ثمرة تلك القضية اللعينة، قضية المرأة! ألم تتخيل آجاليا منذ ستة أشهر أن تقص شعرها الرائع؟ يا رب! ألا إن شعري أنا لم يكن جميلاً هذا الجمال في غضارة صباي! لقد أمسكت المقص بيدها، وأوشكت أن تفعل فعلتها لولا أن تضرعتُ إليها جاثية على ركبتي.. ولنسلم أن آجاليا إنما تظاهرت تظاهراً بأنها تريد أن تقص شعرها، لا شيء إلا أن تشير حنق أمها، فهي فتاة شريرة، طاغية، مدللة، شريرة خاصة، نعم شريرة!... ولكن ما قولنا بالكسندرا الكبيرة؟ ألم توشك أن تقلدها فتقص شعرها؟ لم يكن الأمر عند الكسندرا مكرراً أو نزوة، بل كان عن بساطة تامة. لقد أدخلت آجاليا في روع تلك الحمقاء أنها إذا حلقت رأسها فسوف تنام نوماً أهدأ وسوف تتخلص من الصداق الذي يصيبها! وما أكثر الرجال اللائقين الذين تقدموا يخطبونها منذ خمس سنين إلى الآن! إن بينهم رجالاً كانوا ممتازين حقاً، بل رائعين!! وماذا ينتظرنا؟ لماذا لا يتزوجن إذا لم يكن هدفهن إلا أن يغضبن أمهن؟ لا شك أن السبب الوحيد هو هذا!..»

ولكن هذا يوم جميل يسطع أخيراً أمام قلبها، قلب الأم. إن إحدى بناتها، آديلائيدي على الأقل، تهم أن تتزوج. «هذه واحدة تنزل عن ذراعي!» كذلك قالت الأم حين أتيح لها أن تعبر عن ذات نفسها بصوت عال (ولكنها كانت في قرارة قلبها تجد ألفاظاً أملاً بالعاطفة والحنو): «ولقد تم الأمر على أحسن نحو، وأليق صورة! فحتى في المجتمع الراقى تحدث الناس عن الخطوبة بتقدير واحترام. إن الخطيب رجل معروف. إنه أمير. وهو ثري. وهو حسن الطبع. وقد حظي فوق ذلك باستلطافها. هل يرغب المرء في أكثر من ذلك؟ على أن مستقبل آديلائيدي كان دائماً لا يثير في نفس الأم من المخاوف مثل الذي يثيره مستقبل أختيها، رغم أن الميول الفنية لدى هذه البنت الوسطى قد ألفت اضطراباً عميقاً في قلب الأم الذي كان يعذبه شك متصل لا ينقطع»، ولكن الأم قد انتهت إلى القول من باب تعزية نفسها: «إن للفتاة طبعاً مرحاً في مقابل ذلك، وإن لها

فوق هذا كثيراً من سداد الرأي وسلامة الحس».

وكانت الأم تخاف على أجاليا خاصة. أما عن ألكسندرا فكانت الأم لا تدري هي نفسها في حقيقة الأمر أينبغي لها أن تقلق عليها أم لا. كان يخيل إليها أحياناً أن هذه البنت «لم يبق لها مستقبل». إنها في الخامسة والعشرين من عمرها. فأغلب الظن أنها ستبقى عانساً. «وما أجملها مع ذلك!». وكانت الأم تبلغ من الحزن عندئذ أنها تروح تبكي ليالي بكاملها مفكرة في ألكسندرا، بينما تكون ألكسندرا في تلك الليالي نفسها غارقة في نوم هادئ هادئ!. «ما حقيقة أمر هذه البنت؟ أهى من أنصار المذهب العدمي، أم هي غبية حمقاء لا أكثر من ذلك؟». أما أنها ليست غبية حمقاء، فذلك أمر كانت تعرفه إليزابيث بروكوفينا حق المعرفة، حتى لقد كانت تحترم آراء ألكسندرا احتراماً كبيراً، وكان يسرها أن تستشيرها. ولكن لا شك في أن ألكسندرا (دجاجة مبتلة): «إنها تبلغ من فرط الهدوء أن لا سبيل إلى تعكير صفوها. آه!... إنهن يفقدنني صوابي!» كانت تحس نحو ألكسندرا بحب رقيق وحنان شديد لعله أقوى من شعور الحنان الذي تحسه نحو أجاليا، مع أن أجاليا هي معبودتها. غير أن تلك الاندفاعات الغاضبة (التي كانت المظهر الرئيسي لما يضطرم في نفسها من عطف الأم وحنوها وحدها) وكذلك تلك الاستفزات وتلك الألقاب، كقولها «دجاجة مبتلة» لم تكن تزيد على أن تثير في ألكسندرا الابتسام.

وكانت أتفه الأمور تخرجها في بعض الأحيان عن طورها. من ذلك، على سبيل المثال، أن ألكسندرا كانت تحب أن تنام مدة طويلة، وكانت ترى في العادة أحلاماً كثيرة. ولكن تلك الأحلام كانت تتميز دائماً بتفاهة نادرة، وكانت بريئة براءة أحلام طفل في السابعة من عمره. فكانت هذه البراءة نفسها تغيظ الأم وتحققها، لا يدري أحد لماذا. من ذلك أن الفتاة رأت في حلمها ذات ليلة تسعة دجاجات، فما كان أعنف الشجار الذي قام بينها وبين أمها بسبب ذلك الحلم! لماذا! إنه يصعب على المرء أن يجيب عن هذا السؤال. وفي مرة من المرات، في مرة واحدة، اتفق لها أن رأت حلماً فيه شيء من الطرافة: رأت راهباً معتكفاً في نوع من غرفة مظلمة خافت أن تدخلها. فلما قصت حلمها على أختها انفجرتا تضحكان، وأسرعتا إلى إليزابيث بروكوفينا منتصرتين تقصان عليها ذلك الحلم. فغضبت الأم من جديد ووصفتهم جميعاً بأنهن «بلهاوات». وقالت تحدث نفسها «هم... إنها متبلدة الإحساس كبهيمه. هي «دجاجة مبتلة» تماماً. لا سبيل إلى إخراجها من تخدر الشعور. ثم إنها حزينة. إن نظرتها تتجلل أحياناً بأسى وكآبة. ما مصدر حزنها؟». وكانت إليزابيث بروكوفينا تلقي هذا السؤال أحياناً على إيفان فيدروفيتش، تلقيه متجهمة الهيئة بلهجة مهددة تطلب جواباً على الفور. فكان الجنرال

يجمعهم ويهمهم «هم...هم...» ويقطّب حاجبيه، ويرفع كتفيه، ثم يعلن أخيراً وهو يبعد ذراعيه:

- هي في حاجة إلى زوج!

فيذا بإليزابت بروكوفيفنا تنفجر انفجار قنبلة، وتصرخ قائلة:

- أسأل الله، على الأقل، أن لا يكون ذلك الزوج مثلك. إنني آمل أن لا يشبهك لا في آرائك ولا في أحكامك يا إيفان فيدوروفتش! آمل أن لا يكون فظا غليظ القلب مثلك يا إيفان فيدوروفتش!..

فكان الجنرال يوئي هاربا، فتهدأ إليزابت بروكوفيفنا بعد «انفجارها». ثم لا يفوتها، طبعاً، في مساء ذلك اليوم نفسه أن تبدي بشاشة عظيمة ولطافة غير معهودة، فهي تظهر رقة وعدوبة ولطفا وتحبباً واحتراماً وتوقيراً لزوجها «الفظ الغليظ القلب» إيفان فيدوروفتش، لزوجها الطيب العزيز الحبيب المعبود إيفان فيدوروفتش. ذلك أنها قد أحبته طوال حياتها، أحبته حباً قوياً صادقاً، وذلك ما كان إيفان فيدوروفتش نفسه يعلمه حق العلم، ويكافئ عليه إليزابت بروكوفيفنا بتقدير لا حدود له.

ولكن العذاب الأساسي، العذاب الدائم المقيم في قلب إليزابت بروكوفيفنا إنما كان ابنتها آجلايا. كانت الأم تقول لنفسها: «إنها مثلي تماماً. هي صورتني من جميع النواحي: شيطان مستبد صغير! عدمية، شاذة، طائشة، شريرة، شريرة! أه... يا رب! ما أكثر ما ستلقى في حياتها من شقاء!!...».

غير أن الشمس كانت قد طلعت فأنارت ولطّفت كل شيء، فترة قصيرة على الأقل. لقد عاشت إليزابت بروكوفيفنا قرابة شهر، متحررة من جميع أنواع القلق والغم التي كانت تستبد بها. أخذ الناس في المجتمع الراقى، بمناسبة زواج آديلايد القريب، يتكلمون أيضاً عن آجلايا. وكانت آجلايا تتصرف في كل مكان تصرفاً لطيفاً كيساً! كانت لبقة السلوك متوقدة الذهن في آن واحد. وكانت هيئتها الأسرة، التي يمازجها شيء من كبرياء، تناسبها كثيراً! وهي منذ شهر كامل تعامل أمها معاملة فيها أكبر الملاطفة وأعظم البشاشة! («صحيح أنه ما يزال ينبغي أن يُدرس أوجين بافلوفتش هذا دراسة جيدة، وأن تُعرف حقيقته معرفة صحيحة. ثم إن آجلايا نفسها لا تظهر له من المودة أكثر مما تظهر للآخرين على كل حال»). ولكن آجلايا قد أصبحت فتاة بارعة الفتنة رائعة الجمال على حين فجأة! رباه رباه! ما أجملها! وإنها لتزداد جمالاً في كل يوم!

ولكن...

ولكن ما إن ظهر هذا الأمير الصغير الوغد، ما إن ظهر هذا الأبله المعتوه، حتى انقلب كل شيء رأساً على عقب من جديد، وانقلب البيت عاليه سافله! فماذا حدث؟

الحق أنه لم يحدث شيء إلا في نظر إليزابيت بروكوفيفنا. ولكن إليزابيت بروكوفيفنا إنما كانت تتميز بأن ترابط وتسلسل حوادث عادية جداً كانا يحدثان في نفسها القلقة مخاوف أليمة يغذيها الخيال ولا يمكن أن يفسرها عقل، حتى لقد كانت تسقط بسبب ذلك مريضة في بعض الأحيان. ففي وسعكم أن تتصوروا ما لا بد أن تكون قد عانتها من ألم حين انبثق في وسط عدد كبير من الهواجس السخيفة الوهمية حادث بدا أن له خطورة حقيقية فكأنه يسوِّغ القلق والاضطراب والشك والريب.

قالت إليزابيت بروكوفيفنا محدثة نفسها طوال الطريق بينما كانت تقود الأمير، ثم في دارها حين أجلسته إلى المائدة المستديرة التي كانت تتحلق حولها الأسرة كلها: «كيف تجرؤوا أن يكتبوا إليّ تلك الرسالة المنحوسة الغفل التي تدعى أن لهذا «المخلوق» علاقات بأجلايا؟... بل كيف أمكن أن تخطر هذه الفكرة على بال إنسان؟ لسوف أموت من شعوري بالعار لو صدقت كلمة واحدة منها، أو أظهرت أجلايا على الرسالة! أيسخرون هذا السخر منا نحن آل إيبانتشين! وذلك كله بسبب إيفان فيدوروفتش. ذلك كله بسببك أنت يا إيفان فيدوروفتش! آه... لماذا لم نذهب إلى جزيرة يالاجين فنسكن الفيلا التي نملكها هناك^[2]؟ لقد قلت إن علينا أن نذهب إلى يالاجين! ربما كانت فاريا هي التي كتبت تلك الرسالة! نعم، أنا أعلم ذلك؛ أو ربما كان.. آه.. ذلك كله ذنب إيفان فيدوروفتش! لقد تخيلت تلك المخلوقة أن تدبر له مثل هذه المكيدة تذكرها بعلاقات قديمة لتجعله في وضع مضحك. هذا يذكر بالزمان الذي كان يحمل إليها فيه لآلئ بينما كانت هي تضحك عليه وتشده من طرف أنفه كمعتوه!... ولكن ها نحن أولاء قد تعرّضت سمعتنا للسوء نحن أيضاً. نعم يا إيفان فيدوروفتش، لقد تعرّضت سمعة بناتك للسوء، بناتك اللواتي هن أوانس أرقى مجتمع، وفتيات على أهبة الزواج. لقد كن حاضرات؛ بقين هناك، فسمعن كل شيء، حتى لقد أقحمن في تلك الأمور السيئة. هل سررت الآن؟ هناك أيضاً كن حاضرات وسمعن الكلام. لن أغفر لهذا الأمير الصغير الشقي في يوم من الأيام. لا، لن أغفر له في يوم من الأيام! ولماذا أرى أجلايا مهتاجة الأعصاب إلى هذا الحد منذ ثلاثة أيام؟ لماذا أراها فيما يشبه الشجار مع أختيها، حتى مع ألكسندرا التي كانت من شدة احترامها لها تقبل يدها كأمر؟ ما بالها تلقي على جميع الناس ألغازاً وأحاجي؟ وما مجيء جبريل إيفولجين إلى

هنا؟ لماذا أخذت تكيل له المديح أمس واليوم، ثم انفجرت باكية منتحبة؟ لماذا تتكلم تلك الرسالة اللعينة عن هذا «الفارس الفقير» بينما لم تطلع آجاليا أختيها على رسالة الأمير؟ ولماذا... أسرعتُ إليه كالمجنونة واقتدته بنفسي إلى هنا؟ يا إلهي! لقد فقدت صوابي. ما هذا الذي صنعتُه؟ كيف أمكنني أن أتكلم مع شاب عن أسرار ابنتي، لا سيما... حين تكون هذه الأسرار متعلقة به أو تكاد؟ رباه! الحمد لله على أنه أبله... وأنه... وأنه.. صديق الأسرة. ولكن هل يمكن أن تفتتن آجاليا بمثل هذا الطرح؟ ما هذا الذي أقوله؟ آه... إننا شاذون... يحسن أن نوضع في قفص ليتفرج الناس علينا بعشرة كوبكات... ولا سيما أنا! لن أغفر لك هذا يوماً يا إيفان فيدوروفتش، لن أغفره لك في يوم من الأيام! ولماذا لا تسيء هي معاملته؟ لقد وعدت بأن تسيء معاملته. ثم هي لا تفعل من ذلك شيئاً! انظروا! إنها تلتهمه بعينيها التهاماً، وتبقى صامتة ولا تعزم أمرها على الابتعاد. وهي التي حظرت عليه مع ذلك أن يعود!... أما هو فإنه شاحب الوجه شحوباً شديداً! وما القول في هذا الثرثار إزاء هذا السيل المتدفق من ثرثرته، أن يدس كلمة واحدة. في وسعي أن أخرج كل شيء إلى النور لو أمكنني أن أدير دفّة الحديث...».

كان الأمير جالساً إلى المائدة المستديرة، شاحب الوجه حقاً. كان يلوح عليه أن هلعاً شديداً يسيطر عليه، هلعاً يخالطه في بعض اللحظات نوع من نشوة يغزو قلبه ولا يستطيع هو نفسه أن يفهمه. لشدّ ما كان يخشى أن يختلس نظرة مواربة إلى ذلك الركن الذي تحدّق إليه منه عينان سوداوان يعرفهما حق المعرفة! ومع ذلك ما كان أعظم السعادة التي كانت تغمره حين يتصوّر أنه يجد نفسه مرة أخرى في هذه الأسرة، ويسمع ذلك الصوت المألوف، وذلك بعد الذي كتبته إليه!... «ما عساها تقول الآن يا رب!». لم يكن قد فتح فاه بعد، وكان يصيح بسمعه إلى أحاديث أوجين بافلوفتش الذي كان يتدفق في الكلام تدفقاً غزيراً، وكان يعاني في ذلك المساء نوبة قوية من الرضى عن النفس والرغبة في الكلام. أصاخ إليه الأمير بسمعه دون أن يفهم شيئاً مما كان يقوله. وكانت الأسرة كلها حاضرة، إلا إيفان فيدوروفتش الذي لم يكن قد رجع من بطرسبرج بعد. وكان الأمير «شتش...» أحد الحضور، وكان واضحاً أن هؤلاء كانوا ينتوون أن ينصرفوا بعد قليل، قبل موعد الشاي، ليذهبوا إلى سماع الموسيقى^[3].

كان الحديث يدور على موضوع يبدو أنه طُرح على مائدة البحث قبل وصول الأمير. ولم يلبث أن ظهر كوتيا على الشرفة، لا يدري أحد من أين انبجس! قال الأمير يحدث نفسه: «عجيب! ما زال يُستقبل إذن كما كان يستقبل في الماضي!». ».

إن مسكن آل إيبانتشين فيلا فخمة مبنية على طراز الشاليهات السويسرية، قد أحسنت العناية بها، وأحيطت بأزهار وخضرة تتألف منها مربعات إن كانت صغيرة الأبعاد فإنها رائعة الجمال. وكان الحفل كله مجتمعاً على الشرفة، كما في بيت الأمير، لكن الشرفة هنا أفسح قليلاً وألطف ترتيباً.

ولم يكن يبدو أن موضوع الحديث يناسب ذوق جميع الحضور، ويلقى من نفوسهم كلهم هوى. وأغلب الظن أنه بدأ بمناقشة حامية، وكان يمكن حتماً أن ينحرف إلى شيء آخر لولا أوجين بافلوفتش قد تظاهر بالعناد حول المسألة التي دارت عليها المناقشة، دون أن يحفل بالأثر الذي يحدثه في النفوس. وكأن ظهور الأمير أثاره مزيداً من الإثارة وحرّضه مزيداً من التحريض. وقد عبست إليزابيت بروكوفينا وتجهمت سحنتها واربد وجهها دون أن تفهم كل ما كان يُقال. ولم تنصرف آجاليا بل ظلت في مكانها، متنحية، تصغي إلى الكلام وتلتزم صمتاً عنيداً فلا تفتح فمها بكلمة واحدة.

أجاب أوجين بافلوفتش قائلاً بحرارة:

– اسمحي لي، أنا لا أعترض على الليبرالية أي اعتراض. ليست الليبرالية شراً. إنها جزء متمم من مجموع كلي لا بد أن يتحلل وأن يزول إذا هي لم توجد. إن حق الليبرالية في الوجود لا يختلف عن حق أي مذهب من المذاهب المتطرفة في المحافظة. لكنني أنتقد الليبرالية الروسية. وأعود فأكرر لكم أنني إذا كنت أحاربها فلأن الليبرالي الروسي ليبرالي ليس «روسياً» في شيء. أروني ليبرالياً روسياً، فأعانقه أمامكم على الفور.

قالت ألكسندرا إيفانوفنا التي كانت ثائرة الأعصاب، وكان خداهما أشد احمراراً منهما في العادة:

– هذا إذا رضي هو أن يعانقك!

فحدثت إليزابيت نفسها تقول: «هذه واحدة لا يهزّها شيء ولا يحركها شيء، ولا تفكر إلا في النوم والطعام، ثم إذا هي تندفع – مرة كل عام – اندفاعات تحيرك!». «

ولاحظ الأمير عرضاً أن ألكسندرا إيفانوفنا كانت تبدو مستاءة من رؤية أوجين بافلوفتش يتكلم بلهجة تبلغ هذا المبلغ من التفاهة في معالجة موضوع يبلغ هذا المبلغ من الجد، ويصطنع الاندفاع والمزاح في آن واحد.

تابع أوجين بافلوفتش كلامه قائلاً:

- كنت أقول قبل وصولك يا أمير إننا لم نعرف حتى الآن في روسيا إلا فريقين من الليبراليين تحدّر بعضهم من طبقة مالكي الأَطِيان القدامى (وهذه طبقة أُلغيت) وتحدّر بعضهم الآخر من طبقة طلاب اللاهوت. وإذ إن هاتين الطبقتين قد استحالتا في النهاية إلى فئتين منعزلتين انعزالاً تاماً عن الأمة، وإذ إن انعزالهما يشتدّ ويقوى جيلاً بعد جيل، فإنه ينتج عن ذلك أن جميع ما فعله أو يفعله هؤلاء الليبراليون لا يمثل أي طابع قومي...

ردّ الأمير «شتش...» يقول:

- كيف هذا؟ هل كل ما فعلوه ليس فيه شيء روسي؟

- ليس فيه شيء قومي على كل حال. فحتى لو كان عملهم روسياً فإنه ليس قومياً. على أن الليبراليين عندنا ليس فيهم شيء روسي، إطلاقاً... أبداً... تستطيع أن تكون على يقين من أن الأمة لن تتعرّف لا الآن ولا في المستقبل ما يكون قد فعله هؤلاء الناس من قدامى مالكي الأَطِيان وطلاب اللاهوت...

قال الأمير «شتش...» محتجاً بحرارة:

- عجيب! كيف يمكنك أن ترى مثل هذا الرأي الغريب المضارق، إذا كنت جاداً فيما تقول؟ لا أستطيع أن أسمح بمثل هذا التهجّم على قدامى مالكي الأَطِيان الروس. أأست أنت نفسك واحداً من قدامى مالكي الأَطِيان الروس؟...

ألقى عليه الأمير «شتش...» هذا السؤال وقد ازداد حماسة واندفاعاً. فأجاب أوجين بافلوفتش قائلاً:

- ولكنني لا أتكلم عن مالِك الأَطِيان الروسي القديم بالمعنى الذي يبدو إنك تفهمه. هذه طبقة محترمة مجيدة، على الأقل لأنني واحد من أبنائها، ولا سيما الآن، بعد أن لم يبق لها وجود...

قاطعتة ألكسندرا إيفانوفنا سائلة:

- هل صحيح أننا، حتى في الأدب، لم يكن لدينا أي شيء قومي؟

- لست متبحراً في الأدب، ولكنني أعتقد أن الأدب الروسي نفسه ليس فيه شيء روسي، ربما باستثناء لومونوسوف، وبوشكين، وغوغول.

قالت أديلائيد ضاحكة:

- طيب. هذا وحده كاف. ثم إذا كان أحد هؤلاء من أبناء الشعب فإن الاثنين الآخرين هما من طبقة مالكي الأتليان القدماء.

- صحيح. ومع ذلك لا تتعجلي الفوز والانتصار. إن هؤلاء الثلاثة هم حتى الآن الوحيدون الذين استطاعوا أن يقولوا شيئاً لم يكن مستعاراً بل كان مستمداً من نفوسهم^[4]. إن الروسي الذي يقول أو يكتب أو يفعل شيئاً متصفاً بأنه روسي حقاً، شيئاً مستمداً من ذاته فليس هو بالمحاكاة أو الاستعارة، إن هذا الروسي يصبح قومياً بالضرورة، حتى ولو كانت لغته الروسية رديئة. تلك عندي من المسلمات البديهية. على أن ما بدأنا الحديث عنه والكلام عليه ليس هو الأدب بل هو الاشتراكيون. فبصدد الاشتراكيين إنما انخرطنا في المناقشة. وقد زعمت أنه لم يوجد عندنا ولا يوجد عندنا اشتراكي واحد روسي. لماذا؟ لأن جميع الاشتراكيين عندنا إنما انحدروا هم أيضاً من طبقة قدامى مالكي الأتليان أو من طبقة طلاب اللاهوت. إن جميع اشتراكيينا وجميع أولئك الذين يعلنون عن أنفسهم أنهم اشتراكيون، سواء في داخل البلاد أو في الخارج، ليسوا إلا ليبراليين خرجوا من صفوف قدامى مالكي الأتليان في عهد القنانة. لماذا تضحكين؟ أريني كتبهم، أريني مذهبهم ورسائلهم، فأتعهد لك، دون أن أكون ناقداً محترفاً، بأن أكتب أصدق الآراء الأدبية مبيناً بوضوح كوضوح النهار أن كل صفحة من صفحات كتبهم وكراساتهم ورسائلهم إنما هي قبل كل شيء من صنع مالك سابق من قدامى مالكي الأتليان الروس. إن غضبهم، واستيائهم، وحتى سخرهم الفكه، إن ذلك كله تفوح منه رائحة مالك الأتليان القديم (حتى إن مالك الأتليان القديم هذا هو من نموذج عتيق بال كنموذج فاموسوف^[5]). قد تكون صادقة، ولكنها حماسات ودموع رجل من قدامى مالكي الأتليان، أو طلاب اللاهوت. أما تزالين تضحكين؟ أتضحك أنت أيضاً يا أمير؟ ألسنت توافقني إذن على رأي؟

الحق أن الضحك كان عاماً شاملاً. وكان الأمير نفسه يبتسم.

قال الأمير وقد انقطع عن الابتسام بغتة، وانتفض انتفاضة تلميذ فوجئ مذنباً:

- لا أستطيع بعد أن أقول جازماً أنا أوافقك على رأيك أم لا، ولكني أؤكد لك أنني أجد في الإصغاء إلى كلامك لذة قصوى...

نطق الأمير بهذه الكلمات وكأنه يختنق اختناقاً. وكان عرق بارد يغشى جبينه كحبات اللؤلؤ. هذه هي الكلمات الأولى التي نطق بها منذ وصوله. وأغراه أن يلقي نظرة حوالية، لكنه لم يجسر، ولاحظ أوجين بافلوفتش حركته فابتسم، ثم تابع كلامه

قائلاً بتلك اللهجة نفسها من الاندفاع المفتعل والحرارة المصطنعة التي يستشف المرء فيها رغبته في الضحك حتى من أقواله:

- سأذكر لكم واقعة أيها السادة، واقعة أعتقد أنه قد كان لي فضل اكتشافها وملاحظتها، فما من أحد، على الأقل، سبق أن تكلم عليها أو كتب عنها حتى الآن. إن هذه الواقعة تحدّد كل ماهية الليبرالية الروسية التي أوضحها. وما هي الليبرالية على وجه العموم أولاً؟ أليست هي الميل إلى تسفيه النظام القائم؟ (خطأ أو صواباً، تلك مسألة أخرى) أليست الليبرالية هي هذا؟ فإليكم الآن الواقعة التي لاحظتها: إن الليبرالية الروسية لا تهاجم نظاماً قائماً. إن ما تستهدفه هو جوهر الحياة القومية، هو هذه الحياة نفسها لا المؤسسات، هو روسيا لا التنظيم الروسي. إن الليبرالي الذي أحدثكم عنه يمضي إلى حد جحود روسيا نفسها، أي إنه يبغض ويضرب أمه التي ولدته. إن كل شقاء يلم بروسيا، وكل إخفاق تُمنى به روسيا، يحمله على الضحك ويبعث في نفسه الفرح أو ما يشبه الفرح. إنه يشمئز من العادات الشعبية ويكره تاريخ روسيا ويبغض كل شيء. وعذره الوحيد، إذا كان له عذر، هو أنه لا يدرك ما يفعل، ويظن أن هذا الكره الذي يحمله لروسيا هو الليبرالية الخصبة. ما أكثر الليبراليين الذين نصادفهم في بلادنا ويصفق لهم الناس، وهم في حقيقة أمرهم وربما على غير علم منهم، أشد المحافظين غباء وأكثرهم عتوا! لقد كان كره روسيا هو الحب الحقيقي للوطن في نظر بعض الليبراليين الذين كانوا يفاخرون بأنهم يدركون حقيقة حب الوطن إدراكاً أوضح من إدراك غيرهم له. ثم صارت الأمور مع الزمن أصرح، فإذا نحن نرى أن تعبير «حب الوطن» أصبح يعدّ غير لائق، وإذا بالفكرة التي تقابل هذا التعبير أصبحت توهم بأنها ضارة، وتوصف بأنها جوفاء خالية من المعنى. تكلم واقعة أكيدة محققة. ينبغي أن نعزم أمرنا على ذكر الحقيقة بكل بساطة وصدق. نحن هنا إزاء ظاهرة لم يسبق لها مثيل في أي زمان ولا في أي مكان. ما من قرن من القرون، وما من شعب من الشعوب، بدت فيه هذه الظاهرة. وهذا يدل على أنها عارضة وأنها قد تكون زائلة. ذلك أمر لا أنفيه. ولكن المرء لا يستطيع أن يرى في أي مكان غير روسيا ليبرالياً يكره وطنه. فكيف نفسّر ظهور هذه الحالة في بلادنا إن لم نفسرها بالسبب الذي ذكرته منذ قليل وهو أن الليبرالي الروسي ليس روسياً في شيء؟ إنني لا أرى تعليلاً أصح من هذا التعليل.

ردّ الأمير «شتش...» قائلاً برصانة:

- إنني أعدّ كل ما قلته الآن مزاحاً يا أوجين بافلوفتش..

قالت ألكسندرا إيفانوفنا:

- أنا لم أر جميع الليبراليين، ولكنني استأثرت أثناء سماعي كلامك. فإنك قد بدأت من حالة خاصة فعممتها فوقع في التجني.

أجاب أوجين بافلوفتش:

- حالة خاصة؟ ... هذه بعينها الكلمة التي كنت أنتظرها! أهى حالة خاصة أم لا؟

وأضاف يسأل الأمير:

- ما رأيك يا أمير؟ أهذه حالة خاصة أم لا؟

قال الأمير:

- يجب أن أعترف أنا أيضاً أن خبرتي ضئيلة وإنني لم أعاشر.. الليبراليين كثيراً. ولكن يبدو لي إنك قد تكون على صواب، وأن تلك الليبرالية الروسية التي تحدثت عنها ميالة في الواقع إلى إغراض روسيا لنفسها لا للنظام السائد فيها. طبعاً، ليس هذا صادقاً إلا بعض الصدق، فنحن لا نستطيع أن نأخذ هذا المأخذ على جميع الليبراليين بغير استثناء إذا نحن أردنا الإنصاف...

وقطع الأمير كلامه فجأة. وكان رغم انفعاله كله قد تابع الحديث باهتمام شديد. إن من سماته المميزة أن وجهه يكتسي هيئة السذاجة العميقة في إصغائه إلى الحديث عن الموضوعات التي تثير انتباهه. وهذه السذاجة نلاحظ في أجوبته التي يجيب بها أولئك الذين يسألونه عن هذه الموضوعات نفسها؛ وهي تظهر في سحنته وتظهر حتى في إشاراته، وتكشف في هذه وتلك عن إيمان هو في حمى من إصابات السخرية والتهكم. ولقد اعتاد أوجين بافلوفتش منذ زمن طويل أن لا يخاطبه إلا وعلى شفثيه ابتسامة صغيرة خاصة، أما الآن فإنه حين سمع إجابته نظر إليه مبهوتاً، بكثير من الجذ والرصانة، ثم ججم يقول:

- هكذا!... إنك لتدهشني حقاً. هل كنت في إجابتك جاداً يا أمير؟

فسأله الأمير مستغرباً:

- ألم يكن سؤالك أنت جاداً؟

فاستقبل الحضور هذه الكلمات بضحك شامل.

قالت آديلايد:

- ألا امحضوه ثقتكم! إن أوجين بافلوفتش لا يحب شيئاً كما يحب التضليل والمخادعة! ليتكم تعرفون ما يستطيع أن يفعله من مناقشات، متظاهراً بأكبر الجدا!

وقالت ألكسندرا بلهجة قاطعة:

- في رأيي أن هذا الحديث شاق متعب، وأنه كان من الأفضل أن لا نخرط فيه. لقد كنا ننتوي القيام بنزهة...

فهتف أوجين بافلوفتش يقول:

- هلموا بنا! الأمسية رائعة! لكنني أحرص على أن أبرهن أنني، في هذه المرة، قد تكلمت جاداً كل الجدا. أريد خاصة أن أبين هذا للأمير. (لقد أثرت اهتمامي إثارة قوية يا أمير، وإنني لأحلف لك صادقاً أنني أقل عبثاً وخفة مما يبدو علي، رغم أن العبث والخفة من عيوبي في حقيقة الأمر). لذلك سألقي على الأمير، بعد استئذان الحضور، سؤالاً أخيراً لإشباع حب الاطلاع في نفسي شخصياً، ثم أقف عند هذا الحد مكتفياً به فلا أتعداه. إن هذا السؤال قد خطر بالي، بمصادفة تشبه العمد، منذ ساعتين (هأنت ذا ترى يا أمير أنه يتفق لي أيضاً أن أفكر في أمور جدية). ولقد اهتمت إلى حل لذلك السؤال، لكنني أريد أن أعرف رأي الأمير. لقد كنا نتحدث منذ لحظة عما يسمى «حالة خاصة». إن لهذا التعبير دوراً كبيراً في مجتمعنا، وإن مجتمعنا يحب استعمال هذا التعبير. في الآونة الأخيرة وقعت حادثة اغتيال رهيبة أثارت اهتمام الصحافة والرأي العام، هي حادثة مصرع ستة أشخاص بيد شاب قتلهم جميعاً. ولقد تحدث الناس عندئذ كثيراً عن تلك المرافعة الغريبة التي قام بها المحامي، إذ أعلن أن فكرة قتل هؤلاء الأشخاص الستة كان «طبيعياً» أن تخطر ببال القاتل لأنه كان في حالة فقر شديد. ليست هذه هي الكلمات التي استعملت، ولكنني أعتقد أن المعنى هو هذا. وأحسب أن المحامي حين أصدر ذلك الرأي الغريب وصاغ تلك الفكرة العجيبة إنما كان يؤمن صادقاً بأنه يستلهم أسمى مفاهيم عصرنا فيما يتصل بالليبرالية والإنسانية والتقدم. فما رأيكم؟ أوجب أن نرى في مثل هذا الفساد الذي أصاب العقل والضمير، وفي مثل هذا الانحراف والانحطاط اللذين صار إليهما الرأي، أوجب أن نرى وهنا حالة خاصة أم ظاهرة عامة؟

انفجر الجميع يضحكون.

قالت ألكسندرا واديلائيد ضاحكتين:

- بل هذه حالة خاصة طبعاً.

وقال الأمير «شتش...»:

- اسمح لي أن أذكرك يا أوجين بافلوفتش أن مزحاتك قد أخذت تفقد طرافتها!
- لم يسمع أوجين بافلوفتش هذه الملاحظة، وكان يحسّ بثقل نظرة الأمير ليون نيقولايفتش الرصينة المتفحّصة، فتابع كلامه سائلاً:
- ما رأيك يا أمير؟ ماذا تعتقد؟ أهي حالة خاصة أم ظاهرة عامة؟ اعترف لك بأنني وضعت هذا السؤال لإلقائه عليك أنت.

قال الأمير برفق وهدوء، ولكن بثبات وصلابة:

- لا، ما هذه حالة خاصة.

صاح الأمير «شتش...» قائلاً في شيء من غضب:

- هيه يا ليون نيقولايفتش، ألا ترى أنه يمد لك شباكاً، ألا ترى أنه ينصب لك فخاً؟ واضح أنه يسخر، وأنه أراد أن تكون أنت مدار سخريته.

قال الأمير وقد احمر وجهه:

- كنت أظن أنه يتكلم جاداً.

واستأنف الأمير «شتش...» كلامه فقال:

- يا عزيزي الأمير، هلاً تذكرت الحديث الذي جرى بيننا منذ ثلاثة أشهر! لقد لاحظنا، بحق، أن محاكمنا الفتية، رغم أن نشوءها حديث، قد أبرزت محامين ممتازين يملكون أعظم المواهب. وما أكثر الأحكام التي صدرت عن محاكم الجنايات والتي تستحق أكبر الشاء والمديح! لقد أسعدني كثيراً حينذاك أن أراك تغتبط بهذا التقدم... واتفقنا على أن من حقنا أن نعتز وأن نفخر... فما تلك المرافعة الحمقاء وتلك الحجة العجيبة إذن إلا حادث عارض، إلا حالة من ألف.

فكر الأمير ليون نيقولايفتش لحظة، ثم أجاب بلهجة تدل على أكبر الاقتناع، ولكن دون أن يرفع نبرته، حتى لقد كان في صوته شيء من خجل:

- كل ما أردت أن أقوله هو أن هذا الفساد والتدهور في الأفكار والعقل (إذا نحن شئنا أن نستعمل تعبير أوجين بافلوفتش) يصادفان في أحيان كثيرة جداً، فهما - وأسفاه - أقرب إلى أن يكونا ظاهرة عامة منهما إلى أن يعدّ حالة خاصة. فلولا أنهما شائعان هذا الشيوع كله فلعلنا كنا لا نرى جرائم كهذه الجرائم التي لا يتصورها

الخيال...

- جرائم لا يتصورها الخيال؟ؤكد لك أن الجرائم في الماضي كانت لا تقل فظاعة وشناعة، ولعلها كانت أقسى وأبشع. هذه الجرائم قد عرفتتها جميع الأزمان، لا في بلادنا وحدها بل في كل مكان، وأعتقد أنها ستظل تُرتكب زمناً طويلاً. كل ما هنالك من فرق هو أننا لم نكن نملك في الماضي أدوات لنشر الأخبار واسعة هذا الاتساع كله في حين أن الصحافة والجمهور سرعان ما يلمان بأنبائها في هذا الزمان. فذلك هو مصدر شعورنا بأننا إزاء ظاهرة جديدة. هذا هو خطؤك يا أمير، هذا هو خطؤك الساذج البريء. صدّقني.

بهذا ختم الأمير «شتش...» كلامه وهو يبتسم ابتسامة ساخرة. قال الأمير:

- أعرف تماماً أن الجرائم كانت في الماضي لا تقل عدداً ولا تقل هولاً. لقد زرت سجوناً منذ زمن غير طويل، فأتيح لي أن أعرف عدداً من المحكوم عليهم. إن بينهم مجرمين أفظع من أولئك الذين جرى عليهم حديثنا. إن منهم أناساً لا يشعر أحدهم بشيء من عذاب الضمير بعد أن يكون قد قتل «دسته» أشخاص. ولكن إليك ما لاحظته: إن أعتى أولئك المجرمين وأكثرهم خلواً من عذاب الضمير يحس مع ذلك أنه «مجرم»، أي أنه في شعوره ووعيه يدرك أنه أذنب وإن كان لا يحس بأي ندم. تلك كانت حالة جميع أولئك السجناء. لكن المجرمين الذين يتكلم عنهم أوجين بافلوفتش أصبحوا لا يريدون أن يعدوا أنفسهم مجرمين. فهم في قرارة أنفسهم يعتقدون أنهم على حق وأنهم أحسنوا صنعا، أو يعتقدون بشيء من هذا القبيل. هذا في رأيي فارق كبير. ولاحظ أن هؤلاء جميعاً شبان، أي أن سنهم هي السن التي يكون فيها الإنسان أعجز ما يكون عن مقاومة تأثير الأفكار المنحرفة.

كان الأمير «شتش...» قد كفت عن الضحك فهو يصغى إلى الأمير وقد لاح في وجهه الارتباك. وكانت ألكسندرا إيفانوفنا تريد منذ مدة طويلة أن تبدي ملاحظة لكنها لزمّت الصمت كأن سبباً معيناً صدّها عن ذلك. أما أوجين بافلوفتش فكان ينظر إلى الأمير بدهشة واضحة، وبدون أية سخرية في هذه المرة.

وتدخلت إليزابت بروكوفيفنا فجأة تقول:

- ما بالك، أيها السيد العزيز، تحدّق إليه هذا التحديق، مشدوه الهيئة؟ أكنت تظنه أغبى منك، وعاجزاً عن التفكير على غرارك؟

قال أوجين بافلوفتش:

- لا يا سيدتي، لم أكن أظن ذلك، غير أن هناك شيئاً يثير دهشتي يا أمير (اغفر لي سؤالي): إذا كنت ترى الأمور هذه الرؤية الواضحة، فكيف أمكنك (معذرة مرة أخرى)... كيف أمكنك... في تلك القضية الغريبة... القضية التي حدثت ذلك اليوم... بشأن ذلك الرجل... بوردوفسكي فيما أظن.. كيف أمكنك أن لا تلاحظ هذا الفساد نفسه وهذا التردّي نفسه في الأفكار والأخلاق؟ لقد كان الأمر أمر هذا الفساد نفسه وذلك التردّي ذاته مع ذلك. لقد تراءى لي حينذاك إنك لم تدرك هذا البتة.

انبرت إليزابت بروكوفيفنا تقول متحمسة:

- أيها السيد العزيز، إذا كنا نحن، جميع الحاضرين هنا، قد أدركنا ذلك واستنتجنا من سداد رأينا وبراعة إدراكنا شعوراً بالتفوّق على الأمير، فإن الأمير هو الذي تلقى اليوم رسالة من أحد رفاق بوردوفسكي، من أبرزهم، من ذلك الذي كان مبثور الوجه، هل تتذكرينه يا ألكسندرا؟ وفي هذه الرسالة يستغفر الشاب الأمير - بطريقته طبعاً - ويعلن له أنه قطع صلته بالرفيق الذي حرّضه في ذلك اليوم. هل تتذكرين يا ألكسندرا؟ وهو يضيف إلى هذا أنه بعد الآن لا يثق بأحد كما يثق بالأمير. ما من أحد منا تلقى رسالة كهذه الرسالة حتى الآن، وإن كنا قد ألفنا أن نعامل الشخص الذي وصلته هذه الرسالة معاملة تعال.

صاح كوليا قائلاً:

- وهيبوليت أيضاً ترك بيته وجاء يقيم عندنا.

فقال الأمير سائلاً بشيء من القلق:

- كيف؟ أهو هنا الآن؟

- وصل فور انصرافك مع إليزابت بروكوفيفنا. أنا أحضرته بعربة.

فما أن سمعت إليزابت بروكوفيفنا هذا الكلام حتى غلت وفارت، ناسيةً أنها قد مدحت الأمير منذ هنيهة، وقالت:

- أراهن على أنه قد مضى أمس إلى المسكن الحقير الذي يقيم فيه هذا الولد الفاسد، فركع أمامه طالباً غفرانه، راجياً منه أن يجيء فيقيم هنا. لقد اعترفت أنت نفسك بذلك منذ قليل. أذهبت إليه أم لا؟ أركعت أمامه أم لا؟

هتف كوليا يقول:

- إنه لم يركع. بالعكس تماماً. هيبوليت هو الذي تناول بالأمس يد الأمير فقبلها مرتين. رأيت المشهد بعيني. على هذا اقتصر العتاب بينهما. وإذ أضاف الأمير أن صحة هيبوليت ستتحسن في الفيلا، أجاب هيبوليت فوراً أنه سيجيئ للإقامة بها متى شعر ببعض التخفف من آلامه.

قال الأمير وهو ينهض ويتناول قبعته:

- أخطأت يا كوليا. لماذا تقص هذا؟ إنني...

فسأله إليزابيث بروكوفينا وهي تستوقفه:

- إلى أين تذهب؟

واستأنف كوليا كلامه فقال بحرارة:

- لا تعذب نفسك يا أمير. لا تذهب إليه فتفسد عليه راحته. لقد نام بعد متاعب الرحلة. وهو مغتبط سعيد. أؤكد لك بصراحة يا أمير أنني أعتقد بأن من الأفضل كثيراً أن لا تلتقيا اليوم. أرجئ لقاءه إلى غد حتى لا تخرجه مرة أخرى. لقد قال في هذا الصباح إنه منذ ستة أشهر لم يشعر بمثل ما يشعر به اليوم من ارتياح وقوة. حتى إن سعاله قل إلى الثلث.

لاحظ الأمير أن أجاليا قد غيرت مكانها فجأة لتقترب من المائدة. كان لا يجرؤ أن ينظر إليها، لكنه كان بكل كيانه يشعر أن عيني الفتاة السوداوين كانتا في تلك اللحظة تحدّقان إليه وتتفرسان فيه. لا شك أن هاتين العينين كانتا تعبران عن الاستياء، وربما كانتا تعبران عن تهديد. لا شك أن وجه أجاليا قد تخضب بحمرة شديدة.

قال أوجين بافلوفتش:

- يخيل إليّ يا نيقولا آرداليونوفتش أنك قد أسأت صنعاً إذ جئت به إلى هنا، إذا كان هو ذلك الفتى المصدور الذي انفجر في ذلك اليوم باكياً بدموع غزيرة، ودعا الحضور إلى الاحتفال بدفنه. لقد تكلم عن الجدار الذي ينتصب أمام بيته، تكلم عنه ببلاغة تبلغ من القوة أنه سيندم على فراق ذلك الجدار. صدّقني.

- لا أصدق هذا الكلام. لسوف يشاجرك، ولسوف يصل به الأمر إلى حد الاقتتال معك، ثم ينصرف. هذا أكيد.

قالت إليزابيث بروكوفينا ذلك، ثم شدّت إليها سلّة حياكتها بحركة تنم عن الاستياء، ناسيةً أن الجميع كانوا قد نهضوا عن أماكنهم قاصدين القيام بنزهة.

واستأنف أوجين بافلوفتش كلامه فقال:

- إنني أتذكر حماسته في الكلام على ذلك الجدار. لقد قال إنه بدون ذلك الجدار لن يستطيع أن يموت ميتة فيها بلاغة. وهو يحرص على أن يموت ميتة فيها بلاغة.

دمدم الأمير قائلاً:

- وماذا بعد ذلك؟ إذا لم تشأ أن تغفر له فسوف يستغني عن غفرانك ويموت على كل حال... إنه من أجل الأشجار إنما جاء يقيم هنا.

- هه! أنا من جهتي أغفر له كل شيء. تستطيع أن تبلغه هذا.

قال الأمير برفق وكأنه يتكلم على مضض، وما زالت عيناه مطرقتين إلى نقطة ثابتة في الأرض:

- ما هكذا يجب أن يفهم الأمر. يجب أن توافق أنت على قبول غفرانه لك.

- لماذا؟ أي ذنبٍ جنيتُ في حقّه؟

- إذا كنت لا تفهم، فلن ألح... ولكنك تفهم حق الفهم. لقد كانت رغبته حينذاك... هي أن يباركنا جميعاً وأن يتلقى مباركتنا له. ذلك هو الأمر كله.

تبادل الأمير «شتش...» نظرة سريعة مع بعض الحضور. ثم قال بشيء من الحرارة، ولكنه كان يزن كلماته:

- يا عزيزي الأمير الطيب، ليست إقامة الجنة على الأرض بالأمر السهل كثيراً؛ وما تسعى إليه أنت إنما هو الجنة. الأمر صعب يا أمير، أصعب كثيراً ممّا يَصوّر لك قلبك الطيب. وحسبنا هذا، صدقني. وإلا اضطرب أمرنا من جديد، وعندئذ...

قالت إليزابيث بروكوفينا بلهجة أمرة:

- هيا نمضي إلى سماع الموسيقى.

ثم نهضت عن مكانها بحركة فيها غضب.

وحاكاها الجميع.

الفصل الثاني

اقترب الأمير من أوجين بافلوفتش فجأة وأمسك يده، وقال له بلهجة فيها حمياً غريبة:

– أوجين بافلوفتش، ثق أنني أقدرك رغم كل شيء، لأنني أعدك رجلاً نبيل القلب وأعدك أحسن الناس. أحلف لك على هذا.

دُهِش أوجين بافلوفتش، وبلغ من الدهشة أنه تراجع خطوة إلى وراء. وخلال لحظة من الوقت، كظم رغبة عنيفة قوية في الضحك. لكنه حين أنعم النظر في الأمير تبين له أن الأمير ليس في حالة طبيعية أو هو على الأقل في حالة غير مألوفة. وهتف يقول:

– أراهن يا أمير أن هذا ليس ما كنت تنوي أن تقوله لي، بل ربما كنت تريد أن توجه هذه الكلمات إلى غيري لا إليّ أنا!... ولكن ماذا بك؟ أتراك مريضاً؟

– جائز، جائز جداً. لقد برهنت على أنك تملك كثيراً من دقة الملاحظة ولطافة الإدراك إذ قلت إنني ربما كنت أريد أن أوجه أقوالي تلك إلى غيرك لا إليك أنت. قال الأمير ذلك وابتسم ابتسامة خاصة يمكن أن توصف بأنها مضحكة. ثم بدت عليه الحماسة والحرارة فجأة فقال صائحاً:

– لا تذكرني بسلوكي الذي سلكته قبل ثلاثة أيام.. إنني ما برحت أشعر بالخجل والخزي والعار منذ ذلك الوقت... أنا أعلم أنني أخطأت.

– ولكن... ما هو الشيء الرهيب الذي فعلته، ما هو الذنب الهائل الذي اقترفته؟

– أرى أنك ربما كنت تشعر بالخجل لي أكثر من الآخرين جميعاً. إن وجهك يحمر، وهذه علامة نبل القلب. سأنصرف فوراً. ثق بهذا.

اتجهت إليزابيت بروكوفيفنا بالكلام إلى كوليا فسألته مروعة الهيئة:

– ماذا دهاه؟ هل نوباته تبدأ هكذا؟

– لا تكثرثي يا إليزابيت بروكوفيفنا. ليس عندي نوبة، وسأنصرف بعد قليل. أنا أعلم أنني... إنسان حرمة الطبيعة. لقد لبثت مريضاً طوال أربع وعشرين سنة، أو قولوا

إلى السنة الرابعة والعشرين من عمري. فاحسبوا إنني ما أزال مريضاً. سأنصرف فوراً، فوراً، ثقي بهذا. ليس يحمرّ وجهي خجلاً، فإنه ليكون شيئاً غريباً - أليس كذلك؟ - أن يحمرّ وجهي خجلاً من مرضي هذا. لكن وجودي في المجتمع زيادة يتعبني. لا أبدي هذه الملاحظة من باب الشعور بالكرامة. لقد فكرت ملياً خلال هذه الأيام الثلاثة فانتهيت إلى أن من واجبي أن أنبئكم بذلك صادقاً عند أول مناسبة. ثمة أفكار معينة، أفكار رفيعة سوف أمسك عن الكلام عنها حتى لا أضحك جميع الناس... لقد ألع الأمير «شتش...» إلى هذا منذ قليل. ما من حركة من حركاتي تخلو من شذوذ. إنني لا أعرف القصد والاعتدال. لغتي لا تناسب المعاني التي في ذهني، فهي لذلك تغض من قيمتها وتفسدها. لذلك لا يحق لي أن... ثم إنني شديد الاشتباه والارتياب. صحيح أنني... أنني مقتنع بأن أحداً لا يمكن أن يهينني في هذا المنزل، وأنا محبوب فيه أكثر مما أستحق. ولكني أعلم (علماً لا مجال للشك فيه) أن أربعة وعشرين عاماً من المرض لا يمكن إلا أن تخلف آثاراً، وأن من المستحيل أن لا يسخر الناس مني ويتهكموا علي... من حين إلى حين... أليس هذا صحيحاً؟

قال الأمير ذلك وأدار بصره على الحضور كأنه ينتظر جواباً أو قراراً. كان الجميع قد دُهِشوا من هذه الاندفاعة المرضية التي لم يتوقعها أحد، والتي لم يكن ثمة ما يدعو إليها ويبعث عليها، فكانت سبباً لوقوع حادث غريب هو أن آجاليا صاحت فجأة تسأل الأمير:

- لماذا تقول هذا هنا؟ لماذا تقول هذا لهم «هم»... لهؤلاء الناس؟

كانت تبدو في ذروة الاستياء والامتعاض. وكانت عيناها تسطعان.

لبث الأمير أمامها صامتاً كالأخرس، واجتاحت وجهه صفرة مفاجئة. وانفجرت آجاليا تقول:

- ليس هنا شخص واحد يستحق أن يسمع هذه الكلمات! إنهم جميعاً لا يساوون خنصر يدك، لا فكراً ولا قلباً! أنت أشرف منهم قاطبة. أنت تفوقهم نبلاً وطيبة وذكاء! هنا أناس لا يستحقون أن يشيلوا المنديل الذي سقط من يديك الآن على الأرض... فلماذا تذلل كبريائك وتضع نفسك تحتهم؟ لماذا قلبت كل شيء في نفسك رأساً على عقب؟ لماذا لا تكون لك عزة وأنفة؟

قالت إليزابيث بروكوفينا وهي تضمّ يديها إحداها إلى الأخرى:

- رباه! من كان يمكن أن يصدّق هذا؟

وصاح كوليا يقول متحمساً:

- مرحى! الفارس الفقير!...

فقالت له آجلانيا:

- اسكت!

وأضافت تقول لأمها وقد استبد بها انفجار من انفجارات الاهتياج التي لا تعرف حدوداً ولا عقبات، قالت بقسوة وخشونة:

- كيف يجرؤ أحد أن يهينني هنا في دارك؟ لماذا يضطهدونني هنا جميعاً من أولهم إلى آخرهم؟ لماذا يرهقونني منذ ثلاثة أيام بسببك يا أمير؟ لن أتزوجك في يوم من الأيام بحال من الأحوال! اعلم أنني لن أفعل هذا في يوم من الأيام بحال من الأحوال! ضع هذا في رأسك! هل تتزوج فتاة إنساناً مضحكاً مثلك! انظر إلى وجهك في المرأة لترى كيف هو في هذه اللحظة! لماذا يناكدونني زاعمين أنني سأتزوجك؟ يجب عليك أن تعرف هذا! لا شك أنك متواطئ معهم! لا شك أنك شريكهم في المؤامرة!

تمتت آديلايد تقول مذعورة:

- لم يناكدها أحد في وقت من الأوقات!

وهتفت ألكسندرا إيفانوفنا تضيف قائلة:

- لم يخطر ببال أحد أن يناكدها في لحظة من اللحظات!

وقالت إليزابت بروكوفينا تسأل جميع الحضور وهي ترتعش

- من ناكدها؟ متى ناكدها أحد؟ من ذا تجرأ أن يقول لها كلاماً كذلك الكلام؟

أهي تهذي أم هي مالكة رشدها محتفظة بعقلها؟

فأجابت آجلانيا بلهجة تمزق القلب ألماً:

- هم جميعاً قالوا هذا الكلام! هم جميعاً صدّعوا أذني به خلال هذه الأيام الثلاثة! لا

أستثني منهم أحداً.

ثم انفجرت تبكي بدموع غزيرة، وأخفت وجهها بمنديلها وتهاكت على الكرسي.

- ولكنه حتى الآن لم يخطب....

قال الأمير كمن يتكلم بغير إرادة:

- أنا لم أخطبك يا آجلايا إيفانوفنا.

فصاحت إليزابت بروكوفينا تقول بلهجة تمتزج فيها الدهشة بالاستياء بالهلع:

- ماذا؟ ما معنى هذا؟

كانت لا تستطيع أن تصدق أذنيها، فأخذ الأمير يقول بكلمات متقطعة:

- قصدت... قصدت... أردت أن أقول... أردت أن أشرح لآجلايا إيفانوفنا.. بل أردت أن أتشرف بأن أشرح لها إنني لم أنتو... أن أتشرف بخطبتها... وحتى في المستقبل!... ليس لي في هذا الأمر أي ذنب أوأخذ عليه يا آجلايا إيفانوفنا، الله يشهد إنني ليس لي في هذا الأمر أي ذنب أوأخذ عليه!! أنا لم أنتو أن أخطبك في يوم من الأيام، حتى إن هذه الفكرة لم تخطر على بالي قط، ولن تخطر على بالي أبداً؛ لسوف ترين هذا! لا تشكي في صدق ما أقول! لا بد أن شخصاً شريراً سيئ النية وشى بي إليك متجنبياً. ولكن في وسعك أن تهدئي نفساً وأن تطمئني بالا!

كان وهو يتكلم قد اقترب من آجلايا. فأزاحت المنديل الذي كان يغطي وجهها وألقت على الأمير نظرة سريعة. فرأت سحنته المنقلبة وهيئته المروعة، فأدركت معنى أقواله، فانفجرت ضاحكة مقهقهة أمام أنفه. وقد بلغت ضحكتها من قوة الصراحة وشدة السخرية أنها انتقلت إلى آديلايد، فاحتضنت آديلايد أختها بكلتا يديها وانطلقت تضحك معها ذلك الضحك نفسه، ذلك الضحك الطفولي الذي لا يقاوم ولا يغالب. فلما رآهما الأمير على هذه الحال أخذ يبتسم هو نفسه، وراح يقول معبراً عن الفرح والسعادة:

- آه... الحمد لله... الحمد لله!...

ولم تستطع ألكسندرا نفسها عندئذ أن تقاوم، فأخذت تضحك هي أيضاً من أعماق قلبها. وطال ضحك الأخوات الثلاث حتى لكانه لا يريد أن ينتهي.

قالت إليزابت بروكوفينا مدممة:

- إنهن لمجنونات، فتارة يروعنك، وتارة...

ولكن عدوى الضحك كانت قد سرت إلى الأمير «شتش...»، وإلى أوجين بافلوفتش، وحتى إلى كوتيا الذي أصبح لا يسيطر على نفسه، وراح ينقل بصره بين هؤلاء وأولئك. فأخذ الأمير يضحك مثلما يضحكون!

هتفت آديلائيذ تقول:

- هلموا نتنزّه! ليأت الجميع، ولينضم إلينا الأمير! ليس هناك أي سبب يدعو إلى انسحابك يا أمير وأنت على ما أنت عليه من لطف وتهذيب. أليس لطيفاً مهذباً يا آجلايا؟ أليس هذا صحيحاً يا ماما؟ وفوق ذلك، يجب عليّ حتماً أن أقبله... تقديراً للتوضيح الذي قدّمه بين يدي آجلايا. يجب عليّ أن أقبله. ماما، عزيزتي ماما، هل تأذنين لي أن أقبله؟ وأنت يا آجلايا، اسمحي لي أن أقبل «أميرك»!

بهذا هتفت الفتاة الماكرة...

وقرنت القول بالعمل فاندفعت إلى الأمير وقبلته على جبينه. فتناول الأمير يديها، وشدّ عليهما شداً بلغ من القوة أن آديلائيذ كادت تصرخ من الألم؛ ونظر إليها بفرح لا نهاية له، ثم حمل يد الفتاة إلى شفّتيه فجأة فقبلها ثلاث مرات.

قالت آجلايا:

- هلموا، فلنمش! يا أمير، ستكون أنت مرافقي. هل تأذنين يا ماما؟ أليس الأمير خطيباً رفض خطبتي منذ هنيهة؟ ألم تعدل عني إلى الأبد يا أمير؟ ولكن ما هكذا يمد رجل ذراعه إلى سيدة لتتناولها؟ ألا تعرف كيف تُمدّ الذراع لتتناولها سيدة؟ حسن، الآن مددتها مدّاً صحيحاً. هلم نسرّ، ولنكن في المقدمة. هل تقبل أن نسير في طليعة السائرين، وأن نكون «وحيدين»^[6]؟

كانت تتكلم دون توقف وما تبرح تضحك فجأة من حين إلى حين.

وكانت إليزابت بروكوفينا تقول مرّدة، دون أن تعرف على وجه الدقة ما الذي كان يبهجها ومم كانت تغتبط:

- الحمد لله! الحمد لله!

وحدّث الأمير «شتش...» نفسه قائلاً: «هؤلاء أناس عجيب أمرهم». لقد قال هذه العبارة ربما للمرة المائة منذ أن أصبح يختلف إليهم، ولكنه... كان يحب هؤلاء الناس الذين يرى أن أمرهم عجيب! لعله كان لا يحس هذا الشعور نفسه تماماً تجاه الأمير. وحين خرجوا للنزهة اربد وجهه واكتست هيئته معنى الهم.

إن أوجين بافلوفتش هو الذي كان يبدو أكثرهم ارتياحاً. ولقد ظل طوال الطريق إلى الفوكسهول يسلي ألكسندرا وآديلائيذ. فكانت هاتان تضحكان ضحكاً فيه من المجاملة والمسايرة لمزاحه إلى حدّ أنه انتهى إلى الاشتباه في أنهما ربما كانتا لا

تصغيان إلى كلامه، فإذا هو، دون أن يستطيع تفسير ذلك لنفسه، ينفجر ضاحكاً ضحكاً فيه من الصراحة مثل ما فيه من الانطلاق الذي لا تكلف فيه ولا اصطناع (ذلك كان طبعه!). كانت الأختان مشرقتي المزاج، لا تبرحان تنظران إلى أختهما الصغرى التي كانت تسير مع الأمير في طبيعة السائرين. كان واضحاً أن وضع آجلانيا يبدو لهما لغزاً لا تفهمانه، أو أحجية لا سبيل إلى حلها. وكان الأمير «شتش...» ما ينفك يجهد في التحدث إلى إليزابيت بروكوفينا عن أمور لا قيمة لها، فلعله كان يريد أن يصرفها عن أفكارها وخواطرها، لكنه لم يستطع إلا أن يبيت في نفسها سأمًا شديدًا وضجراً رهيباً. كان يبدو أنها في حالة غير طبيعية. فهي تجيب خبط عشواء، أو هي لا تجيب البتة.

على أن آجلانيا إيفانوفنا لم تكن قد فرغت من بث الحيرة في نفوس من كانوا حولها ذلك المساء. وقد احتفظت للأمير بآخر لغز تحيره به دون سواه. فحين أصبحت على مسافة مائة خطوة من الفيلا أسرعته همس في إذن مرافقها الذي ما برح صامتاً صمتاً عنيداً، فتقول له:

– انظر يمنية.

فأطاعها الأمير ونظر يمنية.

– انظر بمزيد من الانتباه، هل ترى دكةً، في الحديقة، هناك، قرب تلك الشجرات الثلاث.. دكةٌ خضراء؟

فأجاب الأمير بأنه يرى الدكة. فسألته:

– هل يعجبك ذلك المكان؟ إنني في بعض الأحيان أجيء مبكرة، في نحو الساعة السابعة، حين يكون الجميع ما يزالون نائمين، فأجلس هنالك وحيدة. وافقها الأمير متمتماً على أن المكان رائع.

قالت له:

– والآن ابتعد! لا أريد الآن أن أسير متأبطة ذراعك؛ بل هات ذراعك، ولكن لا تقل لي الآن كلمة واحدة. أريد أن أدخلو إلى أفكاري...

الحق أن هذا الطلب كان نافلاً. فالأمير ما كان له أن ينطق بكلمة واحدة أثناء النزهة ولو لم تأمره هي بالصمت. خفق قلبه خفقاناً شديداً عنيفاً حين سمع كلامها المتعلق بالدكة. ولكنه غير رأيه بعد دقيقة، وخجل من نفسه طارداً الفكرة التي خطرت بباليه.

يعرف الناس، أو يؤكد جميع الناس، أن الجمهور الذي يرتاد الفوكسهول بمدينة بافلوفسك هو في غير أيام الأحد «أرقى» منه في أيام الأحد أو في أيام الأعياد، أي الأيام التي يتوافد فيها إليه من بطرسبرج «أنواع شتى» من الناس. ولئن لم تكن الثياب التي يرتديها الجمهور في تلك الأيام هي ثياب يوم الأحد، فإنها أكثر أناقة وأرفع ذوقاً من الثياب التي يرتديها جمهور يوم الأحد. إن من العادات الراقية أن تأتي الصفوة إلى هذا المكان تسمع الموسيقى. ولعل الأوركسترا هنا أحسن من جميع الأوركسترات التي تعزف في الحدائق العامة عندنا، ومن المعروف أن معزوفاتها تتضمن طرائف جديدة. وإن ما يسيطر على هذه الاجتماعات من جو عائلي بل ومن تعارف حميم لا ينفي أن يلتزم أصحابها أعلى آداب اللباقة وأقصى أصول التعامل. ولأن الجمهور يكاد يخلو إلا من الأسر المصطافة في بافلوفسك، فإن الجميع يجيئون إلى هذا المكان ليلتقي بعضهم البعض. إن أناساً كثيرين يجدون متعة كبرى في هذا النوع من تزجية الوقت لا يدفعهم إلى المجيء إلا هذا الباعث وحده، غير أن هناك أناساً آخرين إنما يجيئون من أجل الموسيقى وفي سبيلها. والفضائح نادرة هنا أشد الندرة، ولكن لا يخلو أن تقع فضيحة من حين إلى حين، حتى في غير أيام الأحد. ذلك أمر لا يمكن تحاشيه.

كان المساء في ذلك اليوم رائعاً، وكان الجمهور كبيراً. إن جميع الأماكن المجاورة للأوركسترا مشغولة، فجلس أفراد جماعتنا على كراسي بعيدة بعض البعد، قرب باب الخروج الأيسر. إن جمهرة الناس وألحان الموسيقى قد سرت عن إليزابت بروكوفينا قليلاً، وروحت عن بناتها وسلتهن. وقد تبادلت البنات بعض النظرات مع عدد من معارفهن، وهززن رؤوسهن بتحيات صغيرة لطيفة أرسلنها إلى الآخرين. وقد اتسع وقتهن كذلك لأن يدققن النظر في ثياب الحضور وزيناتهن وأن يلاحظن بعض أنواع الشذوذ والغرابة فيها فعلقن عليها بابتسامات ساخرة. وقد أغدق أوجين بافلوفتش تحيات كثيرة هو أيضاً. كما لوحظ أن أجاليا والأمير كانا معاً. وسرعان ما اقترب من الأم والبنات شباب من معارفهن. وبقي منهم اثنان أو ثلاثة يثرثرون. إنهم أصدقاء أوجين بافلوفتش. أحدهما ضابط شاب هو فتى وسيم جميل زاخر نشاطاً وحماسة، سرعان ما عقد حديثاً بينه وبين أجاليا، وبذل كل جهوده ليأسر انتباه الفتاة التي أظهرت له كثيراً من اللطف والمرح. وقد طلب أوجين بافلوفتش من الأمير أن يأذن له بتعريفه بهذا الصديق، فلم يدرك الأمير ما طلب منه إلا نصف إدراك، ولكن التعارف تم، فحيا الرجلان كل منهما الآخر وتصافحا. وألقى صديق أوجين بافلوفتش على الأمير سؤالاً لم يجب عنه الأمير، أو قل إنه أجاب عنه بجمجمة بلغت من الغرابة أن الضابط حدّق إلى عينيه ثم نظر إلى أوجين بافلوفتش. فلما أدرك عندئذ لماذا عرفه صاحبه

بالأمير ابتسم ابتسامة خفيفة لا تكاد تلاحظ والتفت نحو آجلايا من جديد. فكان أوجين بافلوفتش الشخص الوحيد الذي لاحظ عندئذ أن آجلايا احمرت في تلك اللحظة فجأة.

أما الأمير فإنه لم يلاحظ حتى وجود آخرين يحدثون آجلايا ويلاطفونها ويتوددون إليها. أكثر من ذلك أن هناك لحظات كان يبدو عليه أثناءها أنه ناسي وجود آجلايا إلى جانبه. وفي بعض الأحيان كانت تستولي عليه رغبة في أن ينصرف ذاهباً إلى أي مكان، وأن يغيب غياباً تاماً وأن يختفي اختفاء كاملاً. كان يتمنى أن يلجأ إلى ملاذ مظلم معتم يخلو فيه إلى أفكاره ولا يستطيع أحد أن يهتدي إليه. أو كان على الأقل يتمنى أن يكون في داره، على الشرفة، شريطة أن لا يكون إلى جانبه أحد، لا ليبيد ولا أولاده. كان يتمنى أن يجد نفسه هناك، فيرتمي على الديوان دافئاً رأسه في الوسادة، فلو أتيح له هذا إذن لبقى على تلك الحال يوماً فليلاً فيوماً آخر. وكان في لحظات أخرى يحلم بالجبال، ولا سيما بموقع على جبال الألب كان يحب كثيراً أن يستحضر ذكره، وهو المكان الذي كان يقوم فيه بنزاهته المفضلة عنده الأثيرة لديه حين كان يعيش هناك. فمن ذلك المكان يرى المرء القرية في حوض الوادي، ويستشف تساقط مياه الشلال الصغير التي تمازجها الثلوج، ويبصر السحب البيضاء، ويلمح قصراً قديماً مهجوراً. لشد ما يتمنى أن يجد نفسه الآن هناك، وأن يكون رأسه خالياً إلا من فكرة واحدة... فكرة واحدة طوال حياته، ولو دامت حياته ألف سنة! لا يهمه في الواقع أن ينسى هنا نسياناً تاماً. بل إن هذا لضروري. ولعله كان من الأفضل أن لا يُعرف هنا قط، وأن لا تكون جميع الصور التي مرت أمام عينيه إلا حلماً! ومهما يكن من أمر، ألم يكن الحلم والواقع شيئاً واحداً؟

ثم أخذ الأمير يلاحظ آجلايا على حين فجأة، ولبت خمس دقائق لا يحول بصره عن وجه الفتاة، لكن نظرته كانت غريبة غير مألوفة: فكأنه كان يحدق إلى شيء يقع منه على مسافة فرسخين، أو كأنه كان ينظر إلى صورة لا إلى الشخص نفسه.

قالت آجلايا تسأله وقد توقفت عن الكلام والضحك مع من حولها فجأة:

- ما بالك تتفرّس فيّ هكذا يا أمير؟ إنك لتخيفني. يتراءى لي في كل لحظة إنك تريد أن تمد يدك لتلمس وجهي وتحسه. ما رأيك يا أوجين بافلوفتش؟ أليس هذا ما يحسه المرء حين يرى نظرته؟

أصغى الأمير إلى كلماتها، وكأنما أدهشه أن يراها تخاطبه هو. بدا عليه أنه أدرك معنى أقوالها ولو إدراكاً ناقصاً في أغلب الظن. ولم يجب بحرف واحد، لكنه إذ لاحظ أن آجلايا تضحك وأن الجميع يضحكون معها، انفرج فمه وأخذ يفعل مثلهم. وتضاعف

الضحك من حوله حينذاك. أما الضابط الذي كان بطبعه شديد المرح فيما يبدو فقد أخذ يقهقه قهقهة شديدة. ودمدمت أجاليا تقول لنفسها وقد استبد بها غضب شديد مفاجئ:

– أبله!

قدمدمت إليزابت بروكوفيفنا تقول حانقة:

– كيف يمكن، يا رب، أن تختار مثل هذا ال... أتراها فقدت عقلها تماماً؟

فقالت ألكسندرا تهمس في إذن أمها واثقة مطمئنة:

– هذه مزحة. هذا تكرار لمزحتها في ذلك اليوم مع «الفارس الفقير»، لا أكثر من ذلك. لقد عادت تناكده بطريقتها. ولكن هذه المزحة تفوق وتتجاوز حدود القصد. فيجب أن تضع لها نهاية يا أمي! منذ قليل أخذت تتلاعب بحركات وجهها كممثلة، فارتعنا من ذلك أشد الارتياح.

دمدمت إليزابت بروكوفيفنا تقول وقد خففت عنها ملاحظة ابنتها رغم كل شيء:

– من حسن الحظ أن من تعامله هذه المعاملة أبله كهذا الأبله.

وكان الأمير قد سمع أنه يوصف بأنه أبله، وها هو ذا يرتعش، لكنه لم يرتعش بسبب هذا النعت الذي سرعان ما نسيه فوراً. وإنما ارتعش لأنه لمح بين الجمهور، غير بعيد من المكان الذي كان جالساً فيه، لمح من جانب (وهو لا يستطيع أن يحدد على وجه الدقة لا الموضع ولا الاتجاه)، لمح وجهاً شاحباً، له شعر أدكن مضفور، وله ابتسامة ونظرة يعرفها حق المعرفة. إن هذا الوجه لم يزد على أن ظهر ظهوراً خاطفاً. ربما كانت هذه الرؤية ثمرة خياله. لم يبق من هذه الرؤية في ذاكرته إلا ابتسامة مصعرة، وعينان، ورباط عنق أخضر فاتح يدل على طموح إلى الأناقة لدى الشخص الذي ظهر ذلك الظهور الخاطف. ترى هل اندس الشخص في الجمهور فغاب فيه أم هو تسلل في الفوكسهول؟ ذلك ما لا يستطيع الأمير أن يحدده.

لكنه أخذ يتفحص الأمكنة القريبة، قلقاً مهموماً مغموماً، بعد لحظة، على حين فجأة. إن ظهور ذلك الشخص الأول يمكن أن ينذر أو أن ينبئ بظهور شخص آخر. بل إن هذا لأكد لا شك فيه. كيف نسي إمكان حدوث مثل هذا اللقاء حين ساروا متجهين إلى الفوكسهول؟ صحيح أنه لم يدرك عندئذ إلى أين كان ذاهباً، وذلك بسبب ما كان عليه من حالة نفسية خاصة. ولو استطاع أن يكون أكثر انتباهاً ويقظة للاحظ أن أجاليا

كانت منذ أكثر من ربع ساعة تتلفت قلقة من حين إلى حين وكأنها تبحث بعينها عن شيء ما حولها. أما وقد أصبح هو نفسه متوتر الأعصاب مزيداً من التوتر، فإن انفعال آجلها واضطرابها قد اشتدا وتفاقما، فكلما نظر هو إلى وراء أسرعت تقوم هي بهذه الحركة نفسها. وما لبثت هذه المخاوف أن وجدت ما يبررها.

فهذه عصابة يبلغ عدد أفرادها عشرة أشخاص على الأقل تلج المدخل الجانبي الذي كان الأمير وآل إيبانتشين قد اتخذوا أماكنهم على مقربة منه؛ وفي مقدمة هذه العصابة تسير ثلاث نساء كانت اثنتان منهن جميلتين جمالا ساحراً لا يستغرب المرء أن يجر وراءه هذا العدد الكبير كله من العباد. ولكن هؤلاء العباد، وشأنهم في ذلك شأن أولئك النساء أنفسهن، كانت لهم هيئة خاصة تميزهم عن الجمهور المجتمع حول الموسيقى. وقد لاحظهم جميع الحضور تقريباً منذ دخلوا، ولكن أكثر الناس تظاهروا بأنهم لم يهتموا لحضورهم، إلا عدداً من الشباب ابتسموا وتبادلوا بعض الملاحظات بصوت خافت. وكان من المستحيل على كل حال أن لا يرى المرء هؤلاء القادمين، لأنهم دخلوا يعرضون أنفسهم ويتكلمون في صخب، ويضحكون ضحكاً مجلجلاً. من الجائز أن يكون بينهم أفراد سكارى، رغم أن كثيرين منهم كانوا يرتدون ثياباً فيها كثير من الأناقة والذوق. ولكن الناظر إليهم يلاحظ بينهم كذلك أفراداً يلفتون الانتباه بغرابة سلوكهم وثيابهم معاً، كما أن وجوههم تبدو ملتعبة التهاباً شديداً. وكان بين أفراد هذه العصابة أخيراً بضعة عسكريين، بل كان بينهم أيضاً أناس متقدمون في السن. كان بعضهم يرتدي ملابس متأنقة فضفاضة على آخر زي، ويضعون في أصابعهم خواتم، ويزينون عرى أكمامهم بأزرار فخمة؛ وعلى رؤوسهم ووجناتهم شعر مستعار فاحم السواد. وهم يصطنعون مظهر النبالة، ولكن هيئاتهم تعبر عن التعالي المفتعل. إنهم من أولئك الناس الذين يضر منهم الآخرون، في المجتمع الراقى، فرارهم من الطاعون. طبعي أن في مراكز التجمع التي تقع قرب المدن ببلادنا، محلات تتميز بحرص شديد على حسن المعاملة، وتتمتع بشهرة طيبة وسمعة عطرة. ولكن أشد الناس حذراً وأكثرهم حيطة لا يضمن أن لا تسقط على رأسه في أي لحظة من لحظات حياته قرميدة من سطح المنزل المجاور. إن هذه القرميدة هي التي ستقع على رأس الجمهور المصطفى المتجمع حول الموسيقى.

للانتقال من الكازينو إلى الأرض الممهدة التي تستقر فيها الأوركسترا، يجب هبوط درجات ثلاث. وقد وقفت العصابة أمام هذه الدرجات مترددة أن تهبط. غير أن إحدى السيدات تقدمت، فلم يجرو أن يتبعها من صاحبها إلا رجلان. فأما الأول فهو رجل متوسط العمر متواضع الهيئة حسن المظهر من جميع النواحي، ولكن الناظر إليه يدرك

أنه من أولئك الناس الذين ليس لهم جذور، فلا يعرفون أحداً ولا يعرفهم أحد. وأما الثاني فهو رجل سيئ الهمام مشبوه الهيئة. ولم يصحب السيدة الغربية الأطوار أحد غير هذين الرجلين. ثم إن السيدة، حين هبطت الدرجات الثلاث، لم تشأ حتى أن تلتفت إلى وراء، فهي لا تبالي أن يتبعها أحد أم لا. وما برحت تضحك ضحكاً صاخباً مجلجلاً. إن عيب أناقتها القصوى وثيابها الفاخرة وزينتها الثرية أنها مسرفة في خطف الأبصار وشد الانتباه. ومرت أمام الأوركسترا لتنتقل إلى الجهة الأخرى من الأرض الممهدة التي يستقر عليها العازفون، حيث توجد مركبة فخمة ترابط عند حافة الطريق ويبدو أنها تنتظر أحداً.

إن الأمير لم يرها منذ أكثر من ثلاثة أشهر. إنه منذ أن عاد إلى بطرسبرج لم ينقض عليه يوم واحد إلا انتوى أن يزورها. لكن لعل توجساً خفياً كان يصده عن ذلك. وهو لم يستطع، على الأقل، أن يدرك الشعور الذي يمكن أن يحسه إذا هو لقيها، رغم أنه حاول، مع غير قليل من الخوف، أن يتصور بخياله ذلك اللقاء. إن الشيء الوحيد الذي كان يبدو له واضحاً هو أن اللقاء سيكون شاقاً أليماً. لقد استحضر عدة مرات خلال هذه الأشهر الستة الإحساس الأول الذي أيقظه في نفسه وجه هذه المرأة. فحتى حين لم يكن تحت بصره إلا صورة ذلك الوجه، كان إحساسه إحساساً موجعاً جداً. إنه يتذكر هذا. والشهر الذي قضاه بالأقاليم، وكان يلقاها أثناءه كل يوم تقريباً، قد أحدث في نفسه من المخاوف ما جعله يطرد من ذهنه في بعض الأحيان حتى ذكرى ذلك الماضي القريب. لقد كان في وجه تلك المرأة دائماً شيء يعذب نفسه عذاباً مبرحاً. انه في حديث جرى بينه وبين روجويين قد وصف شعوره بأنه «عاطفة شفقة لا نهاية لها». وهذه هي الحقيقة: إن مجرد النظر إلى صورة هذه المرأة الشابة يوقظ في نفسه جميع آلام الشفقة. إن عاطفة الشفقة هذه التي بلغت حد الألم لم تبارحه في يوم من الأيام، وما تزال مستبدة به إلى الآن، بل إنها لتشتد مزيداً من الاشتداد يوماً بعد يوم.

ومع ذلك كان التفسير الذي قدمه لروجويين لا يكفيه. فالآن فقط يكشف له ظهورها المبالغ، بحس مباشر، عن نقص ذلك التفسير، وهو نقص لا يمكن أن تملأه إلا كلمات يمكن أن تعبر عن ذعره، نعم عن ذعره!! لقد كانت هنالك أسباب تدعوه إلى الاقتناع الكامل المطلق بأنها مجنونة. تصوروا رجلاً يحب امرأة أكثر مما يحب أي شيء في هذا العالم، أو يحس، بما يشبه النبوءة، أنه يحبها هذا الحب، ثم إذا هو يتصور هذه المرأة مكبله بالسلاسل وراء قضبان حديدية على حين فجأة، يشهر عليها العصا حارس يهيم أن يهوي بها فوقها: تلکم هي على وجه التقريب طبيعة الانفعال الذي نشب في نفس الأمير.

هامست آجلایا تسألہ بسرعة وهي تنظر إليه وتشده من يده بسداجة:

- ماذا بك؟

فالتفت إليها وتفرس فيها ورأى في عينيها السوداوين التماع شعلة لم يفهمها حينذاك. وجهد أن يبتسم للفتاة، لكنه لم يلبث أن نسيها وحول عنها بصره يمنة وقد بهرته رؤية خارقة من جديد.

ففي تلك اللحظة كانت ناستاسيا فيليبوفنا تمر قرب الكراسي التي تشغلها الآنسات. وكان أوجين بافلوفتش يقص على ألكسندرا إيفانوفنا حكاية لا بد أنها كانت شائقة ومضحكة جداً فلقد كان يرويها بكثير من الحرارة والنشاط. لقد تذكر الأمير فيما بعد أن آجلایا قالت عندئذ بصوت خافت: «آه... ما أروع...» ثم أمسكت فجأة عن الكلام ولم تكمل جملتها. غير أن ما قالتها كان كافياً. وكانت ناستاسيا فيليبوفنا تمر مرور من لا ترى أحداً، ثم إذا هي تلتفت نحوهما فجأة، وتظاهر بأنها تكتشف وجود أوجين بافلوفتش على غير توقع، فتصيح وهي تتوقف عن السير حالاً:

- ها... تارة يعجز المرء عن لقائه بأية طريقة من الطرق، ولو بعث إليه الرسل، وتارة يعثر به حين لا يتوقع أن يراه... كنت أظن أنك هناك... عند عمك!...
احمرّ وجه أوجين بافلوفتش احمراراً شديداً، ورشق ناستاسيا فيليبوفنا بنظرة زاحرة بالغضب والحنق، ثم أشاح بوجهه إلى جهة أخرى.

- ماذا؟ ألا تعلم؟ إنه لم يعرف شيئاً بعد! هل تصدقون هذا؟ لقد انتحر عمك! أطلق في رأسه رصاصة هذا الصباح! علمت بذلك منذ قليل، في الساعة الثانية. ونصف سكان المدينة يعرفون النبأ الآن. لقد اختلس ثلاثمائة وخمسين ألف روبل من خزينة الدولة. بعضهم يقول إنه اختلس خمسمائة ألف. هه! وأنا كنت أعول على أنه سيورثك ثروة طائلة! لقد أكل كل شيء، ذلك الشيخ الفاجر الداعر. الخلاصة: وداعاً، «أتمنى لك التوفيق»^[2]! ألن تذهب حقاً لقد عرفت كيف تقدّم استقالتك في الوقت المناسب. إنك لماكر صاحب حيلة! ولكن ما هذا الذي أقوله؟ لا شك إنك كنت تعرف كل شيء، لا شك إنك كنت تعرف كل شيء سلفاً. ربما كنت على علم بالأمر منذ أمس...

واضح أن ناستاسيا فيليبوفنا، إذ اتخذت لهجة الاستفزاز الوقحة هذه، وإذ أعلنت بهذا الأسلوب عن وجود صلة حميمة وهمية بينها وبين من تخاطبه، إنما كانت ترمى إلى غاية وتسعى إلى الهدف. لم يكن في الإمكان أن يبقى ثمة ظل من شك. وقد ظن أوجين بافلوفتش أن في وسعه أن يخرج من المأزق دون فضيحة إذا هو تظاهر بأنه لا يولي

المرأة المستفزة أي انتباه. لكن أقوال ناستاسيا فيليبوفنا سقطت على رأسه؛ فحين ذكرت أن عمه مات صار وجهه كالأبيض من فرط اصفراره، والتفت نحو المرأة الوقحة. فما كان من إليزابيت بروكوفيفنا إلا أن أسرعته تنهض وتنصرف بما يشبه الركض، مقتادة كل عالمها، إلا ليون نيقولايفتش وأوجين بافلوفتش اللذين تلبثا برهة: فأما الأول فكان يبدو مرتبكاً متحيراً، وأما الثاني فكان ما يزال منفعلاً مضطرباً. ولكن ما كاد آل إيبانتشين يقطعون عشرين خطوة حتى وقعت فضيحة رهيبة.

إن الضابط الذي كان يحدث أجاليا، وهو صديق أوجين بافلوفتش الحميم، قد استاء استياء شديداً وامتعص امتعاضاً قوياً، فما هو ذا يقول بصوت يكاد يكون عالياً:

- إنما نحن في حاجة هنا إلى سوط. فما من وسيلة أخرى يمكن أن تهدئ هذه المخلوقة!

(واضح أن أوجين بافلوفتش كان يطلعه على شؤونه، ويبوح له بأموره).

فما إن سمعت ناستاسيا فيليبوفنا هذا الكلام من الضابط حتى أسرعته إليه متقدمة العينين. ثم انتزعت من يدي شاب كان جالساً على مسافة خطوتين وكانت هي لا تعرفه، انتزعت من يديه عصا دقيقة من خيزران فهوت بها على وجه الضابط الذي أهانها، بكل ما أوتيت من قوة. وقد حدث هذا المشهد كله بسرعة كسرعة البرق. وخرج الضابط عن طوره فهجم على المرأة الشابة التي سرعان ما تركها تابعها: فأما الأول، وهو الرجل المتوسط العمر، فقد اختفى اختفاء تاماً، وأما الثاني فقد انتحى جانباً وأخذ يضحك ملء حلقه. لا شك في أن الشرطة كانت ستتدخل بعد دقيقة، ولكن ناستاسيا فيليبوفنا كان يمكن أن تلقى أثناء تلك الدقيقة شراً كبيراً لولا أن جاءتها نجدة لم تكن في الحسبان: إن الأمير، وكان على مسافة خطوتين منها أيضاً، قد استطاع أن يمسك يدي الضابط من وراء. وقد خلص الضابط يديه منه، ولطمه على صدره لطمه بلغت من القوة أن الأمير مضى يسقط بعد ثلاث خطوات فوق كرسي. ولكن ناستاسيا فيليبوفنا كان قد أصبح إلى جانبها الآن مدافعان آخران. فأمام الضابط المهاجم كان قد وقف صاحبنا الملاك - كاتب المقالة التي يعرف القارئ من أمرها ما يعرف، وأحد الأعضاء العاملين القدامى في عصبة روجويين؛ وها هو ذا يتقدم من الضابط برصانة وثقل ويقول له:

- اسمي كيلر، ليوتنان متقاعد! فإذا كنت يا كابتن، تريد استعمال الأيدي وتقبلني مدافعاً عن الجنس الضعيف فأنا تحت أمرك ورهن إشارتك! إنني قوي من الطراز الأول في الملاكمة الإنجليزية. لا تدفعني يا كابتن؛ إنني أشاركك ألمك من الإهانة

«الدامية» التي تلقيتها، ولكنني لا أستطيع أن اسمح باستعمال قبضات الأيدي ضد امرأة على مرأى من الناس. فإذا شئت أن تسوي الأمر بطريقة أخرى، كما يليق ذلك برجل مهندس... مهذب، فإن عليك طبعاً أن تفهمني، يا كابتن...

ولكن الكابتن كان قد ثاب على نفسه، وأصبح لا يصغي إلى كلام كيلر.

وفي تلك اللحظة خرج روجويين من بين الجمهور فأمسك ذراع ناستاسيا فيليبوفنا بسرعة، واقتادها. كان يبدو منفعلاً أشد الانفعال هو أيضاً: كان شاحب الوجه وكان يرتجف. وأتيح له وهو يقتاد المرأة أن يقهقه أمام أنف الضابط، وأن يقول بلهجة بائع منتصر:

– هه! ماذا أخذ من ذلك؟ دماً في بوزه!

سيطر الضابط على نفسه سيطرة تامة، وأدرك نوع هؤلاء الناس الذين يواجههم، فلم يزد على أن غطى وجهه بمنديله ثم التفت بأدب نحو الأمير الذي كان قد قام من سقطته، وقال له:

– أنت الأمير ميشكين؟

– إنها مجنونة! إنها ملتثة العقل! أؤكد لك!

كذلك أجابه الأمير بصوت متقطع وهو يمد إليه يديه المرتعشتين مدّاً آلياً.

قال الضابط:

– لا شك في أنك أعلم مني بالأمر. ولكن يهمني أن أعرف اسمك.

ثم حياً بحركة من رأسه وانصرف، فما هي إلا خمس ثوان حتى كانت الشرطة قد وصلت فعلاً، ولكن بعد أن كان أواخر ممثلي المشهد قد غابوا عن المسرح. ولم تدم الفضيحة أكثر من دقيقتين على كل حال.

وقد قام جزء من الجمهور وانصرف. واكتفى عدد من الأشخاص بأن غيروا أماكنهم. وسرَّ بعض الناس بالحادث سروراً عظيماً. ووجد فيه آخرون موضوعاً مثيراً تدور عليه أحاديثهم. الخلاصة أن الأمر انتهى كما تنتهي أمثاله عادة. واستأنفت الأوركسترا عزفها.

تبع الأمير أسرة إيبانتشين. ولو أنه، بعد أن ضربه الرجل على صدره فسقط على كرسي، ولو أنه خطر بباله أن ينظر إلى يساره أو اتسع وقته لأن ينظر إلى يساره، لكان

رأى آجلايا واقفة على بعد عشرين خطوة منه ترقب المشهد رغم نداءات أمها وأخواتها اللواتي كان قد قطعن مسافة طويلة. وقد هرع إليها الأمير «شتش...»، واستطاع أن يحملها على الانصراف بأقصى سرعة. فأدركت الركب (إن إليزابت بروكوفينا قد تذكرت هذا فيما بعد) وهي في حالة من الاضطراب تبعث على الاعتقاد بأنها لم تكن قد سمعت نداءاتهن. ولكنها بعد دقيقتين، عند دخول الحديقة، قالت بلهجة تحمل معنى الاستخفاف، وهي لهجة معهودة فيها:

– إنما أردت أن أعرف كيف يمكن أن تنتهي المهزلة!

الفصل الثالث

إن الحادث الذي وقع في الفوكسهول قد صعق الأم والبنات صعقا إن صح التعبير. فكانت إليزابيث بروكوفيفنا، وهي تحت وطأة الاضطراب والانفعال والقلق، تقتاد بناتها هاربة بما يشبه الركض على طول الطريق المؤدي من المحطة إلى الدار. وكان في رأيها أن أموراً كثيرة قد انكشفت أثناء ذلك الحادث؛ حتى لقد أخذت تنبت في ذهنها، رغم الاضطراب والذعر، أفكار معينة حاسمة. وأدرك الجميع على كل حال أن شيئاً شاذاً غير عادي قد وقع، وأن هناك سراً خارقاً لعله أخذ ينكشف. إن أوجين بافلوفتش، رغم التأكيدات والشروح السابقة التي قدمها الأمير «شتش...» قد «سقط القناع عن وجهه» و«ظهر على حقيقته»، و«ثبت ثبوتاً قاطعاً أن له علاقة بتلك المخلوقة». ذلك كان رأي إليزابيث بروكوفيفنا، وحتى أن هذا كان رأي ابنتيها الكبيرين أيضاً. غير أن هذا الاستنتاج لم يزد على أن ضاعف الألغاز والأحجيات. إن الأنستين، في قرارة نفسيهما، قد ساءهما ذلك الذعر الرهيب وذلك الفرار الفاضح من جهة أمهما. ولكنهما لم تشاء في غمرة اضطراب اللحظة الأولى، أن تروعاها مزيداً من الترويع بأسئلتهما. لقد كانتا تحسان أن أختهما الصغرى، آجلايا إيفانوفنا، ربما كانت تعلم من أمر هذه القضية ما لا تعلمان وما لا تعلم أمهما. أما الأمير «شتش...»، فكان مكفهر الهيئة مظلم الوجه، غارقاً في تأملاته هو أيضاً. لم توجه إليه إليزابيث بروكوفيفنا، طوال الطريق، كلمة واحدة؛ ولكن لم يبد عليه أنه انتبه إلى صمتها هذا. وقد ألقت عليه أدبلائيدي مراراً هذا السؤال: «من هو ذلك العم؟ وما الذي حدث ببطرسبرج؟»، فكان لا يزيد على أن يجمع بلهجة مريرة، مجيباً إجابة غامضة، قائلاً إن هناك معلومات يجب السؤال عنها، وإن المسألة كلها عجيبة مستحيلة على كل حال. فقالت أدبلائيدي تجيبه وقد عدلت عن الإلحاح في السؤال: «لا شك في هذا». وأظهرت آجلايا هدوء خارقاً. كل ما هنالك أنها أثناء الطريق نبهت إلى أن سيرهم سريع مسرف في السرعة. وفي لحظة من اللحظات نظرت وراءها فلمحت الأمير محاولاً اللحاق بهم. فابتسمت ابتسامة فيها شيء من السخرية، ثم لم تلتفت بعد ذلك إلى جهته قط.

وعند عتبة الفيلا تقريباً، التقوا بإيفان فيدوروفتش الذي كان قد وصل من بطرسبرج منذ برهة فهب الآن إلى لقاءهم. وكانت الكلمة الأولى التي قالها هي أنه سأل

عن أوجين بافلوفتش. ولكن زوجته مرت بقربه متوحشة الهيئة ضارية السحنة، دون أن تجيبه بل ودون أن تنظر إليه. وسرعان ما قرأ في أعين بناته وفي عيني الأمير «شتش...» أن عاصفة قد ألمت بالمنزل. وعلى كل حال فقد كان وجهه، حتى قبل أن يدرك ذلك، يعبر هو نفسه عن قلق غير مألوف. لم يلبث أن أمسك ذراع الأمير «شتش...»، فأوقفه أمام الفيلا، وتبادل معه بضع كلمات بصوت خافت. فلما صعدا إلى الشرفة بعد ذلك للحاق بإليزابت بروكوفيفنا كان الناظر إليهما يستطيع أن يعرف مر رؤية وجهيهما أنهما قد اطلعا على نبأ خارق.

والتأم الجمع كله أخيراً في أعلى، بجناح إليزابت بروكوفيفنا؛ ولم يبق إلا الأمير، جلس في ركن كأنه ينتظر شيئاً ما. كان هو نفسه لا يعلم لماذا بقاؤه هنالك، ولم يخطر بباله أن ينصرف وهو يرى هذا الاضطراب الذي شمل المنزل. لكأنه قد نسي الكون بأسره، وكأنه مستعد لأن يبقى مسمراً سنتين متواصلتين في المكان الذي يمكن أن تضعه فيه. وكانت تصل إلى مسامعه من فوق، بين الضينة والضينة، أصداء مناقشة حامية الوطيس. لا يدري كم قضى من الوقت جالساً في ذلك الركن. ولكن المساء قد جاء، وأخذ الظلام يعم. وفجأة ظهرت آجلايا على الشرفة. كانت تبدو هادئة، ولكنها شاحبة الوجه قليلاً. وابتسمت ابتسامة يخالطها شيء من الدهشة حين رأت الأمير الذي كانت لا تتوقع طبعاً أن تراه هنالك جالساً على كرسي.

سألته وهي تدنو منه:

— ماذا تفعل هنا؟

فتمتم الأمير ببضع كلمات مضطرباً، وأسرع ينهض. ولكن آجلايا لم تلبث أن جلست قربه فعاد يجلس. تفرست فيه بنظرة سريعة لكنها متفحصة، ثم سرحت بصرها من خلال النافذة دون أن تكون لها نية معينة ظاهرة، وعادت تحقق إلى الأمير وتتفرس فيه.

قال الأمير يحدث نفسه: «أتراها تريد أن تأخذ في الضحك؟ لا، لو كانت تريد ذلك لما أمسكت عنه!».

قالت بعد صمت:

— هل تريد قليلاً من الشاي؟ إن شئت أمرت لك بشاي.

— لا... لا أدري...

- كيف لا تدري أتريد أن تشرب شيئاً من الشاي أم لا تريد؟ ... بالمناسبة: إذا دعاك أحد إلى مبارزة فما عساك تفعل؟ هذا سؤال كنت أريد أن ألقيه عليك.
- ولكن من ذا الذي... لا يمكن أن ينتوي أحد دعوتي إلى مبارزة!
- هب ذلك حديث، فهل تخاف؟
- أعتقد إنني سأخاف... سأرتاع ارتياعاً شديداً!
- حقاً؟ أنت إذن جبان؟
- ل... لا، قد لا أكون جباناً. فمن خاف ولم يهرب فليس جباناً.
- كذلك قال الأمير وهو يبتسم بعد لحظة تفكير. فسألته آجاليا:
- وأنت؟ ألا تهرب؟
- فقال وهو يضحك أخيراً لهذه الأسئلة:
- قد لا أهرب.
- فقالت بشيء من غضب:
- أما أنا فلا أهرب بحال من الأحوال، رغم إنني امرأة. ثم إنك تسخر مني، وتتلاعب تلاعبك المعهود، لتزيد الاهتمام بك. قل لي: هل جرت العادة بأن يتم إطلاق النار في المبارزات على مسافة اثنتي عشرة خطوة؟ بل وعلى مسافة عشر خطوات أحياناً؟ إذا صدق هذا كان مؤكداً أن يُقتل المتبارز أو أن يجرح!
- ينذر أن لا تطيش الطلقة في المبارزات.
- كيف؟ لقد قُتل بوشكين.
- ربما كان ذلك مصادفة.
- لا: كانت المبارزة مبارزة موت، وقتل!
- لا شك أن الرصاصة أصابته في موضع أدنى من النقطة التي صوّب إليها دانتيس، وهي الصدر أو الرأس. ما من أحد يصوّب إلى النقطة التي يصيبها. ولقد كان جرح بوشكين إذن نتيجة مصادفة، وثمره خطأ في التسديد. إن أناساً متخصصين هم الذين قالوا لي هذا الكلام^[8].

- وأنا كلمت في الأمر جندياً ذكر لي أن النظام يوجب على الجنود أن يصوبوا إلى منتصف الجسم حين يصوبون. ذلك هو التعبير الوارد في النظام: (منتصف الجسم). فالتسديد لا يكون إذن لا إلى الصدر ولا إلى الرأس، وإنما يكون إلى وسط الجسم. وحين سألت أحد الضباط بعد ذلك في هذا الموضوع أكد لي صحة هذا الزعيم.

- هذا يصدق على التصويب من مسافة بعيدة.

- وهل تحسن أنت التصويب؟

- لم أطلق رصاصة في حياتي.

- هل يمكن أن يكون صحيحاً أنك لا تعرف حتى كيف تحشو مسدساً؟

- بل أعرف الطريقة لكنني لم أحاول أن أمارسها بنفسي.

- معنى هذا إنك لا تعرف. فهذه عملية تقتضي ممارسة عملية! أصغ إليّ واحفظ ما أقوله لك: تشتري في أول الأمر بارود مسدّس. يجب أن لا يكون البارود رطباً بل جافاً جداً (يبدو أن هذا ضرورة لا غنى عنها). ويجب أن يكون مسحوقاً دقيقاً ناعماً. اطلب هذا النوع من البارود، وإياك أن تشتري باروداً من بارود المدفع. أما الرصاصات فيظهر أن على المرء أن يتولى صبها بنفسه. هل عندك مسدسات؟

أجاب الأمير وهو يضحك فجأة:

- لا، ولا حاجة بي إليها!

- آه... يا للحماقة! لا تنس أن تشتري مسدسات، مسدسات جيدة! اختر منها نوعاً فرنسياً أو إنجليزياً. يقال إن المسدسات الفرنسية والإنجليزية هي خير المسدسات. وخذ بعد ذلك مقداراً من البارود، مقداراً يكفي لملء كستبان خياطة، أو كستبانين اثنين؛ وأفرغ البارود في ماسورة المسدس؛ ولأن يكون مقدار البارود أكثر من اللازم خير من أن يكون أقل. ثم احش الماسورة لباداً (يظهر أن اللباد لا غنى عنه، لا أدري لماذا). في وسعك أن تحصل على اللباد من أي مكان، في وسعك أن تأخذه من فراش مثلاً، أو من أبازيم الباب. وبعد أن تدس الحشوة تدخل الرصاصة. هل فهمت؟ البارود أولاً والرصاصة بعد ذلك. وإلا لن تخرج الطلقة. لماذا تضحك؟ أريد أن تتمرن على إطلاق النار كل يوم عدة مرات، وأن تتعلم كيف تسدّد إلى هدف فتصيبه. هل ستفعل؟

كان الأمير ما يزال يضحك. فقرعت آجاليا الأرض بقدمها غاضبة. تحير الأمير من كل هذا الجد في حديث كهذا الحديث. كان يحس إحساساً غامضاً بأن عليه أن

يستعلمها بعض النقاط، وأن يلقي عليها بعض الأسئلة عن موضوعات هي أخطر شأنًا من طريقة حشو المسدسات على كل حال. ولكنه نسي. لم يبق لديه إلا إحساس واحد هو أنه يراها جالسة أمامه وحيدة وأنه ينظر إليها. أما ما قد تحدثه عنه وتكلمه عليه في تلك اللحظة فأمر لا يكاد يعنيه.

وأخيراً نزل إيفان فيدوروفتش نفسه من الطابق الأعلى وظهر على الشرفة. كان يهم أن يخرج، وكان كالح الهيئة متجههم الوجه مشغول البال ثابت العزم. فلما رأى الأمير هتف يسأله، رغم أن الأمير لم تبد عليه أية حركة تدل على أنه يريد الانصراف. - آه... ليون نيقولايفتش... هذا أنت... إلى أين أنت ذاهب الآن؟ تعال... هناك كلمة أريد أن أقولها لك...

قالت أجاليا وهي تمد يدها للأمير:

- إلى اللقاء يا أمير!

كانت الشرفة قد خيم عليها الظلام بحيث إن الأمير لم يستطع في تلك اللحظة أن يميز قسمات الفتاة تمييزاً واضحاً. وبعد دقيقة، بينما كان هو والجنرال قد خرجا من الفيلا، احمرّ احمراراً رهيباً على حين فجأة وقلص يده اليمنى تقليصاً قوياً.

واتفق أن كان على إيفان فيدوروفتش أن يسير في طريق الأمير ذاته. إنه، رغم تأخر الوقت، يريد الذهاب إلى شخص من الأشخاص بسرعة لإبرام صفقة. فأخذ أثناء الطريق يحدث الأمير بلهجة متعجلة وكلام مضطرب مفكك. كان اسم إليزابت بروكوفينا يتردد ذكره على لسانه كثيراً. فلو كان الأمير أقدر على الانتباه في تلك اللحظة، فلربما استطاع أن يدرك أن محدثه كان يحاول أن يستمد منه بعض المعلومات، أو قل أن يلقي عليه سؤالاً معيناً، ولكن دون أن يستطيع مواجهة النقطة الأساسية. يجب أن نذكر أن الأمير كان من الاضطراب والبلبل والذهول بحيث لم يسمع بداية الكلام الذي قاله له الجنرال، فلما تسمّر الجنرال أمامه ليلقي عليه سؤالاً حاداً، اضطر أن يعترف بأنه لم يفهم شيئاً.

فما كان من الجنرال إلا أن رفع كتفيه. ثم استأنف كلامه فعاد يقول متدفقاً:

- ما أعجبكم كلكم. من جميع النواحي! أقول لك إنني لا أفهم شيئاً البتة من خواطر إليزابت بروكوفينا وأنواع الجزع والهلع التي تقول إننا احتقرنا وازدرينا، وإن سمعنا ساءت وكرامتنا أهينت وشرفنا تلطخ. من فعل بنا هذا؟ كيف تم؟ مع من

جری؟ متى حدث؟ لماذا وقع؟ إنني اعترف بأن لي عيوباً فادحة وأخطاء كبيرة، ولكن طيش تلك المرأة المضطربة (التي تسلك فوق ذلك سلوكاً شائناً) أمر يمكن أن تضع له الشرطة حداً. إنني أنوي منذ اليوم أن أذهب إلى أحد وأن أتخذ إجراءات. وكل شيء يمكن أن يسوى بهدوء وسكينة ورفق، بل وبمداواة ومراعاة، ودون أية فضيحة أو جرسية، وذلك بالاعتماد على بعض العلاقات. وإنني لأعترف أيضاً بأن المستقبل يحمل أحداثاً كبيرة، وأن أموراً كثيرة تحتاج إلى إيضاح. نحن بصدد مؤامرة. ولكن إذا كان لا يوجد هنا أحد يعرف شيئاً، وإذا كان لا يوجد هناك أحد يعرف شيئاً كذلك؛ إذا كنت أنا لم أسمع بشيء، وإذا كنت أنت لم تسمع بشيء، وإذا لم يكن ثالث ولا رابع ولا خامس قد سمع بشيء أيضاً، فإني لأسألك: فمن نرى يكون على علم بالأمر؟ كيف تعلل أنت هذا؟ اللهم إلا أن نسلم أننا إزاء سراب أو شبه سراب، وأننا إزاء ظاهرة لا تمت إلى الواقع بسبب، كضوء القمر أو طيوف الأشباح؟

تمتم الأمير يقول وقد تذكر فجأة، على ألم شديد، كل ما جرى في النهار:

— «هي» مجنونة!

— لتسلم بهذا، إذا كنت عن تلك المرأة تتكلم! لقد فكرت أنا في الأمر مثل تفكيرك تقريباً، وارتحت إلى هذا الرأي. لكنني ألاحظ أن تفكيرهم هم كان أسلم، وأصبحت لا أعتقد بأنها مجنونة. صحيح أن هذه المرأة يعوزها الحس السليم، ولكنها ليست مجنونة. إن اندفاعها في الكلام اليوم بصدد كابيتون ألكسيفتش يدل على ذلك دلالة قاطعة. إنها تتصرف تصرف وغد حقير، أو تصرف يسوعي ماهر لتبلغ هدفاً معيناً.

— من كابيتون ألكسيفتش؟

— آه... ليون نيقولايفتش! إنك إذن لا تصغي إليّ البتة! لقد كانت بداية كلامي إليك عن كابيتون ألكسيفتش. لقد بلغت من الاضطراب لهذا الأمر أن ذراعي وساقاي ما تزال ترتعد. وذلك هو السبب في أنني رجعت اليوم من المدينة متأخراً هذا التأخر كله. كابيتون ألكسيفتش رادومسكي، عم أوجين بافلوفتش...

هتف الأمير:

— ماذا؟

— أطلق النار في رأسه هذا الصباح، عند الفجر، الساعة السابعة. كان شيخاً محترماً في نحو السبعين من عمره، أبيقورياً. وكما قالت هي تماماً، اختلس من مال الدولة،

اختلس مبلغاً ضخماً!

- من أين استطاعت أن...

- أن تعرف هذا؟ ها ها... لقد تكونت لها «أركان عامة» بكاملها. هل تعرف أية شخصيات تختلف إليها الآن أو تلتمس «شرف التعرف بها»؟ فلا عجب أن يكون بعض زوارها الذين وصلوا من المدينة قد أطلعوها على شيء ما، لأن بطرسبرج كلها تعرف النبأ الآن، كما يعرفه على كل حال نصف سكان بافلوفسك أو ربما جميعهم. ولكن ما أمكر الملاحظة التي قالتها، على ما رُوي لي، عن وظيفة أوجين بافلوفتش، أي عن حسن اختياره الوقت المناسب للاستقالة! يا لها من غمزة جهنمية! لا، لا، إن هذا لا يدل على جنون! طبعاً أنا أرفض أن أصدق أن أوجين بافلوفتش قد أمكنه أن يتنبأ بالكارثة، أي أن يعلم أنها ستحدث يوم كذا، ساعة كذا من الصباح، الخ. ولكن لعله أوجس هذا قبل حدوثه. هه! حين أتذكر كيف أن الأمير «شتش...»، وأنا، ونحن جميعاً، كنا مقتنعين بأنه سيرث عمه... هه!... شيء فظيع، فظيع! على كل حال، افهم مني ما أقول: إنني لا أتهم أوجين بافلوفتش أي اتهام. ها أنا ذا أسارع إلى إعلان ذلك لك. غير أن في الأمر شيئاً مشبوهاً. هذا لا شك فيه. إن الأمير «شتش...» قد بلغ ذروة التعجب والذهول. لقد جرت الأمور كلها مجرى غريباً لا حد لغرابته!...

- ولكن ما هو الشيء المشبوه في سلوك أوجين بافلوفتش؟

لا شيء البتة. لقد تصرف تصرفاً سليماً لا غبار عليه. ثم إنني لم أغمز أي غمز يقدر فيه. أظن إن ثروته الشخصية لا مرأى فيها. إن إليزابت بروكوفيتسا لا تطيق طبعاً حتى أن تسمع ذكر اسمه... ولكن الأمر الأخطر هو الكوارث المنزلية كلها أو قل هذه الهموم العائلية... أوه... أصبحت لا أعرف كيف اسميها!... إنك أنت يا ليون نيقولايفتش صديق للأسرة حقاً. فإليك إذن ما عرفناه منذ قليل (رغم أن الأمر ليس مؤكداً محققاً بعد): لقد عرفنا أن أوجين بافلوفتش قد صارح آجاليا منذ أكثر من شهر، وأنه فيما يظهر قد تلقى منها رفضاً قاطعاً!

هتف الأمير قائلاً بحرارة:

- غير ممكن!

قال الجنرال وهو يرتعش دهشة ويقف متسماً في مكانه:

- ولكن هل أنت على علم بشيء؟ لعلمي يا صديقي العزيز قد أخطأت وجافيت

الكياسة واللباقة حين حدثتك عن هذا... ولكني إنما فعلت لأنك... لأنك شخص... قد يكون مثله على علم بشيء. أتراك تعرف شيئاً ما؟

دمدم الأمير يقول:

- لا أعرف شيئاً... عن أوجين بافلوفتش.

- ولا أنا! أنا... يا صديقي العزيز قد حلفوا ليدفنني، ليقبرنني. إنهم لا يريدون أن يدركوا أن هذا يشق على نفس رجل، وإنني لن أحتمله. منذ قليل قام مشهد رهيب! إنني أكلمك كما يكلم أب ابنه. أقسى ما في الأمر أن أجاليا تشبه أن تسخر من أمها وتهزأ بها. أما الرفض الذي لعلها قابلت به أوجين بافلوفتش منذ شهر، وأما المصارحة القاطعة التي لعلها تمت بينهما، فهذه تخمينات أختها.. وهي تخمينات قد تكون صحيحة على كل حال. لكن أجاليا إنسانة متسلطة مستبدة غريبة الأطوار ذات نزوات، إلى حد لا يستطيع المرء أن يتصوره. صحيح أنها تملك جميع اندفاعات الروح النبيلة، وجميع مزايا القلب والفكر اللامعة. إنني أسلم بهذا. لكنها ذات تصرفات عجيبية، وسخرية مسرفة. إن لها طبعاً شيطانياً، وإن لها شطحات شاذة! منذ قليل، تهكمت صراحة على أمها، وعلى أختها، وعلى الأمير اشتش...»؛ ناهيك عني أنا، أنا الذي قلماً أنجو من سخرياتها... ولكن من أنا؟ أنت تعلم مدى ما أحمله لها من حب حتى في سخرياتها. ويخيل إلي أن هذا هو السبب في أن هذه الشيطانة الصغيرة تحبني حباً خاصاً، أعني أنها تحبني أكثر من سائر الآخرين. أراهن أنها قد أتيح لها أن تمارس سخريتها عليك أنت أيضاً. لقد رأيتكما منذ قليل منهما في الحديث بعد الزوبعة التي قامت فوق. كانت جالسة إلى جانبك كأن شيئاً لم يحدث.

احمرّ الأمير احمراراً رهيباً، وقلص يده، لكنه لم ينطق بكلمة.

قال الجنرال فجأة، بحرارة وتدفق:

- يا عزيزي الطبيب ليون نيقولايفتش!... أنا، وحتى إليزابيت بروكوفينا (التي عادت تحمل عليك وتقول فيك السوء، وتعاملني هذه المعاملة نفسها أنا أيضاً بسببك، لا أدري لماذا!)، نحن نحبك مع ذلك، نحبك حباً صادقاً ونقدرك رغم كل شيء، أعني رغم المظاهر. ولكن اعترف أنت نفسك يا صديقي العزيز، اعترف أنت نفسك أنه لغز مفاجئ ونبأ فظيع أن نسمع هذه الشيطانة الصغيرة (وكانت عندئذ واقفة أمام أمها هناك، متسمة، تصطنع أعماق الاحتقار لجميع أسئلتنا، ولا سيما الأسئلة التي كنت ألقياها عليها أنا.. ذلك أنني قد ارتكبت حماقة فتكلمت باللهجة القاسية التي ينبغي أن

يتكلم بها رب أسرة! تباً لي! لقد كنت أحمق غيباً) أقول أن نسمع هذه الشيطانة الصغيرة تذكر تفسيراً لا يدور بخلد أحد، تذكره بلهجة باردة وهيئة ساخرة، فتقول: «إن تلك المجنونة» (تلك هي الكلمة التي استعملتها، وقد أدهشني أن أسمعك تكرر جملتها نفسها) -... كيف لم تستطيعوا أن تلاحظوا ذلك من قبل؟ - إن تلك «المجنونة» قد وضعت في رأسها أن تجعلني أتزوج الأمير ليون نيقولايفتش مهما كلف الأمر، وذلكم هو السبب في أنها تحاول إجلاء أوجين بافلوفتش عن بيتنا». ذلك هو كل ما قالت. ثم انفجرت ضاحكة ضحكاً مجلجلاً قبل أن تضيف أية شروح أخرى. ففغرت أفواهنا من شدة الدهول، وخرجت هي صافقة باب الغرفة صفقاً قوياً. ثم روي لي الحادث الذي وقع اليوم بينها وبينك، و... و... اسمع يا صديقي العزيز، ما أنت بالرجل الذي يتأذى بسرعة، بل أنت رجل عاقل رصين كما لاحظت أنا ذلك، ولكن لا تزعل إذا قلت لك إنها تضحك عليك. يميناً إنها تضحك عليك! تضحك عليك ضحك طفلة، فما ينبغي لك أن تؤاخذها وأن تحمل لها موجدةً وضغناً. ولكن الأمر هو كذلك. لا يذهبن بك الخيال بعيداً. إنها تتسلى بك كما تتسلى بنا نحن أيضاً، تزجيةً للوقت وملئاً للفراغ لا أكثر. هيا، إلى اللقاء! إنك تعرف عواطفنا نحوك. وتعرف مدى صدقها. وهي ثابتة لن يغيرها شيء... ولكن يجب عليّ أن أدخل هنا. ندر أن كنت في حياتي معتكراً المزاج (أهذا هو التعبير المستعمل؟) كما كنت اليوم. يا له من اصطيف!

بقي الأمير وحده في المنعطف، ثم ألقى نظرة حوالية، وأسرع يقطع شارعاً فيقترب من نافذة مضاءة بإحدى الفيلات، فيفضّ هنالك ورقة صغيرة ظل قابضاً عليها قبضاً قوياً بيده اليمنى طوال مدة الحديث الذي جرى بينه وبين إيغان فيدوروفتش؛ فيقرأ عليها في الضوء الضعيف الخارج من تلك النافذة، ما يلي:

«غداً، في الساعة السابعة من الصباح، سأكون على الدكة الخضراء في الحديقة، وسأنتظرك. لقد قررت أن أحدثك في أمر هام جداً، يتعلق بك مباشرة».

«حاشية: آمل أن لا تطلع على هذه الرسالة أحداً. لقد شعرت بشيء من تأنيب الضمير وأنا أسطر لك هذه التوصية بالكتمان، ولكن إذا فكرنا في الأمر ملياً وجدنا أنك تستحقها. وحين أضفتها تصورت طبعك المضحك، فاحمر وجهي شعوراً بالخجل.

(حاشية ثانية: هي تلك الدكة نفسها التي أريتك إيها منذ قليل. لا بد أن تشعر بالخزي من اضطراري إلى التوضيح والتحديد مرة أخرى».

كانت الرسالة قد كتبت على عجل، وطويت بإهمال، قبل نزول آجلانيا إلى الشرفة بلحظة قصيرة في أغلب الظن.

شعر الأمير بانفعال عازم عنيف لا يغالب، انفعال يشبه أن يكون جزءاً؛ ثم قبض على الورقة الصغيرة بيده قبضاً قوياً من جديد، وابتعد عن النافذة المضاءة متعجلاً تعجل لص فاجأه أحد. ولكن هذه الحركة المبالغتة ألقته إلى سيد كان وراءه تماماً.

قال هذا السيد:

- إنني أرقبك وأرصدك يا أمير.

فهتف الأمير يقول مدهوشاً:

- أهذا أنت يا كيلر؟

- كنت أبحث عنك يا أمير. انتظرتك عند حواف فيلا أسرة إيبانتشين، التي لا أستطيع دخولها طبعاً. وتابعتك خطوة خطوة أثناء سيرك مع الجنرال. أنا رهن أوامرك يا أمير. لك أن تتصرف بي كما تشاء. إنني مستعد أن أضحي بنفسي، بل وأن أموت إذا لزم الأمر.

- ولكن... لماذا؟

- لأن مبارزة ستحدث حتماً! إن هذا اللبوتان مولوفستوف، وأنا أعرفه... لا معرفة شخصية... لن يبلغ الإهانة. وهو ينظر إلى أمثال روجويين وأمثالي نظرتة إلى أوغاد طبعاً، ولعله في هذا على حق؛ فستكون أنت المسؤول تجاهه إذن. لا بد من دفع الثمن يا أمير. وقد سمعت أنه استعلم عنك، ولا بد أن يجيئك في الغد أحد من أصدقائه، هذا إذا لم يكن في انتظارك بمنزلك منذ الآن. فإذا شرفتنني باختياري شاهداً، فاني مستعد حتى لتحمل خطر السجن. من أجل أن أقول لك هذا إنما بحثت عنك يا أمير.

صاح الأمير يقول وهو ينفجر مقهقهاً، على دهشة شديدة من كيلر:

- أأنت أيضاً تجئ تحدثني عن مبارزة؟

وبلغ من شدة الضحك أنه أمسك أضلاع صدره. أما كيلر الذي بدا عليه أنه كان كالواقف على رؤوس الأبر ما لم يقم بواجبه فيعرض على الأمير أن يختاره شاهداً، فإنه يكاد يشعر بأنه يهان بهذا الضحك الغزير من الأمير.

- تذكر يا أمير إنك قد قبضت على ذراعيه في أصيل هذا اليوم؟ ما من رجل شريف يمكن أن يحتمل هذا، ولا سيما إذا حدث على مرأى من الناس.

صاح الأمير يقول وهو ما يزال يضحك:

- ولكنه لكماني في صدري لكمة قوية. ولا داعي إلى أن نقتتل، فسأعتذر له فينتهي كل شيء. وإذا كان لا بد من الاقتتال فسوف نقتتل! ألا فيلجأ إلى السلاح. أنا لا أطلب خيراً من هذا. ها ها! إنني أعرف الآن كيف أحشو مسدساً. تصور أنني علمت هذا منذ برهة! هل تجيد حشو مسدس يا كيللر؟ يجب أولاً شراء بارود من بارود المسدسات، أي بارود لا يكون رطباً بل جافاً، ولا يكون خشناً كالبارود الذي يستعمل في حشو المدافع. فإذا اشتريت البارود وضعته في ماسورة المسدس قبل كل شيء، ثم انتزعت لباداً من إبزيم أحد الأبواب، ثم وضعت الرصاصة بعد اللباد. حذار أن تضع الرصاصة قبل البارود، لأن الرصاصة لن تنطلق عندئذ. هل فهمت يا كيللر؟ الرصاصة لن تنطلق... ها ها!... أليس هذا سبباً رائعاً يا صديقي كيللر؟!... كيللر، هل تعلم أنني سأقبلك فوراً؟ ها ها ها! كيف تصرفت حتى استطعت أن تصل إليه فتقف أمامه فجأة؟ تعال اشرب عندي شمبانيا متى استطعت. سنسكر بشمبانيا! هل تعلم أن عندي اثنتي عشرة زجاجة في قبو ليبيديف؟ لقد عرضها عليّ أمس الأول بسعر قال انه «فرصة»، فاشتريتها منه كلها. حدث هذا غداة وصولي. لسوف أجمع حفلاً بكامله! قل لي: هل ستنام هذه الليلة؟

- كالعادة يا أمير.

- أتمنى لك إذن أحلاماً جميلة! ها ها!..

وقطع الأمير الشارع، وغاب في الحديقة، تاركاً كيللر في حيرة وبلبله وشيء من خيبة الأمل. إن كيللر لم يسبق له أن رأى الأمير في حالة نفسية كهذه الحالة غريبة، لا ولا كان في وسعه أن يتخيله في هذه الصورة!

قال كيللر يحدث نفسه: «لعله مصاب بحمى، فإنه رجل عصبي قد أثرت فيه هذه الأحداث كلها، ولكنه لم يخف حتماً! يا إلهي! إن أمثال هذا الإنسان لا يهابون. هم... شمبانيا! هذا خبر شائق. اثنتا عشرة زجاجة! ستة زجاجات؛ مؤونة محترمة. أراهن أن ليبيديف قد أخذها من أحد الذين يقترضون منه مالاً على رهن. هم... الحق أنه لطيف، هذا الأمير. يميناً إنه نوع الرجل الذي يعجبني. على كل حال، ليس هذا أوان التردد... فإذا كان هناك شمبانيا، فيجب انتهاز الفرصة...».

لقد كان صحيحاً في الواقع أن الأمير كان في حالة قريبة من الحمى.

ظل يطوف مدة طويلة في ظلمات الحديقة، واكتشف أخيراً أنه يذرع ممراً من ممرات الحديقة بين الأشجار. شعر أنه قد قطع هذا الممر ثلاثين أو أربعين مرة بين الدكة وبين شجرة قديمة مرتفعة يسهل تعرفها تقع على بعد مائة خطوة. أما أن

يتذكر فيم كان يفكر أثناء هذا التجوال الذي دام ساعة على الأقل، فلقد كان يستحيل عليه ذلك ولو أراد. ثم إنه قد اهتدى إلى فكرة سرعان ما جعلته ينفجر ضاحكاً على حين فجأة. ولم يكن في الفكرة ما يضحك مع ذلك، غير أن كل شيء كان يثير فيه الضحك الشديد. خطر ببالي أن افترض نشوب مبارزة ربما نبتت في رؤوس أخرى غير رأس كيلر، وأن الدرس الذي ألقى عليه في طريقة حشو المسدس لم يكن إذن ثمرة مصادفة. قال يحدث نفسه فجأة وهو يتوقف كأنما باغتته فكرة أخرى: «عجيب!! منذ قليل، حين نزلت إلى الشرفة ووجدتني في ذلك الركن أذهلها أن تراني هناك. وابتسمت... وكلمتني عن الشاي. ولكن الرسالة كانت مع ذلك في يدها. هذا دليل قاطع على أنها لم تكن تشك في أنني هناك، على الشرفة. فما الذي أدهشها إذن؟ ها ها ها...!ها

واستل الرسالة من جيبه فقبلها، ولكنه سرعان ما توقف وشرذ فكره ثانية وقال يحدث نفسه بعد دقيقة بلهجة فيها ألم: «أمر غريب جداً، نعم، غريب جداً». إنه في لحظات الفرح الشديد يشعر دائماً بالحزن يجتاح قلبه، لا يدري هو نفسه لماذا!

وألقى حواليه نظرة متحيرة، وأدهشه أن يكون قد جاء إلى هذا المكان. وشعر بتعب شديد وإعياء قوي، فاقترب من الدكة وجلس عليها. كان يرين على الجو حوله صمت عميق. إن الموسيقى قد انقطعت في الفوكسهول. ولعل الحديقة كلها خلت من أي إنسان. الليل ساج هادئ رطب مضيء. هي ليلة من ليالي بطرسبرج في شهر حزيران (يونيه). غير أن الحديقة الكثيفة الظليلة في ممر الأشجار الذي كان هو فيه، كانت تامة الظلمة تقريباً.

لو قال له أحد في تلك اللحظة إنه عاشق، وإنه موته، لرفض هذه الفكرة مذهولاً مشدوهاً، وربما مستنكراً مستاء. ولو أضاف أحد إلى ذلك أن الرسالة الصغيرة التي كتبتها له أجاليا هي رسالة غرام ودعوة إلى لقاء غرامي، لاحمر خجلاً عن صاحب مثل هذا الافتراض، وربما دعاه إلى مبارزة. كان صادقاً في هذا كل الصدق، وإنه لم يراوده فيه شك واحد يوماً من الأيام، ولا ساوره أي لبس في أن تحبه هذه الفتاة بل وفي أن يحبها هو نفسه. فلو خطرت بباليه فكرة كهذه الفكرة لمألته شعوراً بالخزي: لقد كان يرى أن احتمال أن تحب فتاة رجلاً مثله شيء شاذ غريب. وكل ما يمكن أن تشتمل عليه هذه القضية من واقع لا يعدو أن يكون شيطنة، من الفتاة، وهي «شيطنة» كان الأمير يقبلها غير مكترث ولا عابئ، لأنه كان يراها من طبيعة الأمور فما ينبغي أن يهتز لها أو أن تثير فيه أي انفعال. وكانت مشاغله وهمومه منصبه على موضوع آخر

مختلف كل الاختلاف. لقد صدّق الجنرال تصديقاً كاملاً حين كشف له الجنرال أقواله عرضاً أثناء الانفعال أنها تضحك على الجميع، وتضحك عليه هو خاصة، الأمير. لم يجرح شعوره هذا الكلام ولم يؤلمه أي إيلام. كان في رأيه أن الأمر لا يمكن أن يكون غير هذا. الشيء الأساسي في نظره الآن هو أنه في الصباح الباكر من الغد سوف يراها إلى جانبه على هذه الدكة الخضراء، وسوف يتأملها مصغياً إلى ما ستقوله عن طريقة تعبئة المسدسات. ولم يكن في حاجة إلى أكثر من هذا. مرة أو مرتين تساءل عن الموضوع الذي تريد أن تكلمه فيه، وعن تلك المسألة الهامة التي تعنيه مباشرة ما عساها تكون؟ على أنه لم يراوده في لحظة من اللحظات أي شك في حقيقة هذه القضية «الهامة» التي ضربت له موعداً من أجلها. ولكنه لا يكاد يفكر الآن في هذا الأمر، ولا كان يغريه أن يتلبث عليه بذهنه.

وهذا وقع خطو بطيء على الرمل في الممر بين الأشجار يجعله يرفع رأسه. وهذا رجل يصعب تمييز قسّمات وجهه في الظلام يقترب منه ويجلس إلى جانبه.

مال الأمير على الرجل، حتى يكاد يلمسه، فإذا هو يرى وجه روجويين أصفر شاحباً.

جمجم روجويين يقول من بين أسنانه:

— قدّرت إنك تحوم ههنا في مكان ما.

هذه أول مرة يلتقيان فيها منذ لقائهما الأخير في دهلير الفندق. وقد بلغ الأمير من الدهشة لظهور روجويين المباغت الذي لم يكن في البال أنه لبث مدة من الوقت شارد اللب لا يستطيع أن يثوب إلى رشده. إن إحساساً كاوياً قد شب في قلبه. وأدرك روجويين الأثر الذي أحدثه في الأمير. ورغم أنه بدا في أول الأمر مضطرباً، فقد تكلم بيسر كأنه مصطنع، لكن الأمير لم يلبث أن لاحظ أن الأمر ليس اضطراباً ولا اصطناعاً. ولئن كان في حركاته وفي حديثه خراقة، فإن ذلك ليس إلا مظهرًا، أما في قرارة نفسه فإن هذا الرجل لا يمكن أن يكون قد تغير.

سأله الأمير ليقول شيئاً ما:

— كيف أمكنك أن تكتشفني... هنا؟

— أعلمني كيلر قائلاً: «ذهب إلى الحديقة» (مررت ببيتك)، فقلت لنفسي: هذا حسن. نلت المطلوب.

— ماذا تعنى بقولك: «نلت المطلوب»؟

كذلك سأله الأمير في قلق.

فابتسم روجويين ابتسامة مأكرة، وتهرب من الشرح، قائلاً:

- تلقيت رسالتك يا ليون نيقولايفتش. لا فائدة من تكليف نفسك هذا العذاب كله... في غير طائل. أنا الآن آت إليك رسولاً منها. إنها تطلب منك أن تذهب إليها حتماً. هناك شيء مستعجل تريد أن تقوله لك. حتى إنها تنتظرك في هذا اليوم نفسه.

- سأذهب إليها غداً. أنا الآن عائد إلى البيت فوراً. هل تجيء... معي؟

- علام أجيء معك؟ لقد قلت لك كل شيء. استودعك الله.

سأله الأمير في رفق:

- أئن تجئ إذن؟

- إنك لرجل عجيب يا ليون نيقولايفتش. لا يملك المرء إلا أن يجدهك باعثاً على الدهشة والاستغراب.

قال روجويين ذلك وابتسم ابتسامة مأكرة.

سأله الأمير بحرارة، ولكن بشيء من الحزن أيضاً:

- لماذا هذا الكلام؟ من أين جاءت هذه العداوة لي الآن؟ لماذا تبغضني هذا البغض كله؟ هأنت ذا ترى أن جميع تخميناتك كانت لا تقوم على أساس. على أنني كنت أقدر أن كرهك لي لم ينقض، وهل تدري لماذا؟ لأنك حاولت قتلي. ذلك هو السبب في أن مقتك باق لا يزول. أما أنا فأقول لك أنني لا أعرف إلا بارفيون روجويين واحداً، هو ذلك الذي تأخيت معه في ذلك اليوم حين تبادلنا صليبينا. لقد كتبت لك هذا في الرسالة التي بعثتها إليك أمس من أجل أن تنسى حتى لحظة الهذيان تلك، فما تكلمني عنها بعد الآن قط. لماذا تبتعد عني؟ لماذا تخبئ يدك؟ أكرر لك أنني أرى أن ما حدث في المرة الماضية لم يكن إلا لحظة جنون وهذيان. أنني أقرأ في نفسك الآن كل ما جرى ذلك اليوم كأنني أقرأ في ذات نفسي. إن ما تخيلته لم يوجد ولا كان يمكن أن يوجد. فلماذا العداوة بيننا إذن؟

قال روجويين ضاحكاً ساخراً من جديد، في الجواب على الكلمات الحارة التي انطلقت من الأمير عفو الخاطر بلا تصنع:

- ولكن أأنت قادر على أن يكون في نفسك عداوة؟

وكان روجويين يقف على بعد خطوتين من الأمير، مخفياً يديه حقاً. وأضاف يقول، ختاماً للحديث، بلهجة بطيئة رصينة:

- أصبح يستحيل عليّ استحالة تامة بعد الآن أن اختلف إليك يا ليون نيقولايفتش.

- أتكرهني إذن إلى هذا الحد؟

- لا أحبك يا ليون نيقولايفتش. فعلام اختلف إليك؟ هيه يا أمير... إن لك من الطفل كل صفاته. إذا أراد لعبة أرادها فوراً، ولكنه لا يفهم من أمرها شيئاً. إن كل ما تقوله لي الآن قد كتبتّه أمس في رسالتك كما هو، ولكن أنا لا أصدقك؟ بلى! إنني أصدق كل كلمة من كلماتك. إنني أعلم أنك لم تخدعني في يوم من الأيام، وأنتك لن تخدعني أبداً. ومع ذلك لا أحبك. لقد كتبت لي أنك نسيت كل شيء، وأنتك تتذكر روجويين الذي بادلته صليبك، لا روجويين الذي أشهر عليك خنجراً. ولكن من أين تعرف عواظفي؟ (قال ذلك وضحك ضحكة ساخرة من جديد) لعلني منذ ذلك اليوم لم أشعر بالندم على فعلتي مرة واحدة، بينما أنت أرسلت إليّ غفرانك الأخوي. ولعلني في مساء ذلك اليوم نفسه قد انصرف فكري إلى شيء آخر تماماً و...

- نسيت ذلك الأمر...

بهذا أكمل له الأمير جملته وأردف يقول:

- أقدر هذا! بل إنني لأراهن على أنك ذهبت توأاً إلى المحطة فركبت القطار إلى بافلوفسك، وجئت تسمع الموسيقى، وتبعتها وتجلست عليها في الجمهور، كما فعلت اليوم. أظن أنك أدهشتني؟ ولكن لولا أنك كنت عندئذ في حالة نفسية لا تسمح لك إن تفكر إلا في شيء واحد، لكان من الجائز أن لا تشهر عليّ خنجرك... لقد أوجست ما ستقدم عليه من فعلة منذ الصباح، حين رأيت وجهك؟ أتعرف ما الذي كان يلوح في هيئتك؟ لعل هذه الفكرة قد ومضت في ذهني لحظة تبادلنا فيها صليبينا. لماذا أخذتني في تلك اللحظة إلى أمك العجوز؟ هل كنت تأمل أن توقف بذلك ذراعك؟ لا، لا يمكن أن يكون هذا ما خطر بالك. إنك مثلي قد أحسست إحساساً فحسب... لقد أحسنا إحساساً واحداً. لولا أنك أشهرت عليّ يدك (والله هو الذي حولها) أكان يمكنني أن أحتمل اليوم نظرتك؟ لقد اشتبهت فيك، ومعنى ذلك أننا ارتكبنا كلانا إثم الريبة (لا تقطب حاجبيك! لماذا تضحك؟). تقول إنك لم تندم. ألا إنك ما كنت لتستطيع أن تندم ولو أردت، لأنك لا تحبني، زيادة على ذلك! حتى لو كنت إزاءك بريئاً كملاك، لما أمكنك أن تطيق احتمالي، وستبقى على هذه الحال ما ظللت تظن أنها لا تحبك أنت

بل تحبني أنا. هذا غيرة. ولكن إليك الفكرة التي شغلت ذهني في خلال هذا الأسبوع والتي أحرص على أن أطلعك عليها يا بارفيون: هل تعلم أنها تحبك الآن أكثر مما تحب أي إنسان آخر، وأن حبها من نوع يجعلها تحبك مزيداً من الحب كلما عذبتك مزيداً من التعذيب. لن تقول هي هذا في يوم من الأيام، ولكن يجب على المرء أن يعرف كيف يفهمه. لماذا تريد أن تتزوجك رغم كل شيء؟ سوف تكشف لك عن هذا في ذات يوم. إن بين النساء من يردن أن يحبهن الرجل هذا النوع من الحب. وهي واحدة من هاته النساء. لا شك في أن طبعك وحبك قد فتنها. هل تعلم أن في وسع امرأة أن تعذب رجلاً تعديباً قاسياً، وأن تتخذة أضحوكة وتجعله موضع سخرية وتهكم، دون أن يشعر ضميرها من ذلك بأي عذاب؟ ذلك أنها، كلما رأتك، تقول لنفسها: «سوف أعذبه الآن تعديباً قاتلاً، ولكنني سأعوضه عن هذا في المستقبل حباً...».

أصغى روجويين إلى كلام الأمير حتى النهاية، ثم إذا هو ينفجر ضاحكاً، ويسأله:

– قل لي يا أمير، أترأك وقعت أنت نفسك على امرأة من هذا النوع؟ هل ما سمعته عنك صحيح؟

فارتعش الأمير باختلاجة مفاجئة. وسأله:

– ماذا؟ ماذا سمعت عني؟

ووقف وقد استبد به اضطراب هائل.

ظل روجويين يضحك. كان قد أصغى إلى كلام الأمير بشيء من حب الاطلاع وربما بشيء من التلذذ: إن ما كان يبدو في الأمير من مزاج مشرق وحماسة حارة قد أثر فيه تأثيراً قوياً وسرى عنه كثيراً.

قال:

– لم أسمع عنك فقط، وإنما اقتنع الآن وأنا أراك أن ما سمعته هو الحقيقة. هل تكلمت في لحظة من اللحظات كما تكلمت في هذه اللحظة؟ لكأن رجلاً آخر كان يتكلم الآن بلسانك. لولا أنني سمعت عنك شيئاً من هذا القبيل لما جئت إلى هنا ساعياً إليك في الحديقة وقد انتصف الليل.

– لا أفهم البتة يا بارفيون سيميونتش!

– لقد شرحتُ لي أمرك منذ مدة طويلة، واستطعت أن أتأكد من صدق شروحاتها حين رأيت، في هذا اليوم، المرأة التي كنت جالساً إلى جانبها أثناء سماع الموسيقى. لقد

حلفت لي أمس واليوم إنك موثّ به حبّ آجلايا إيبانتشين. وهذا أمر لا يعنيني كثيرا يا أمير، ولا علاقة له بشأني. فلئن أصبحت أنت لا تحبها فإنها هي ما تزال تحبك. هل تعلم أنها تريد أن تزوّجك الأخرى مهما كلف الأمر؟ لقد حلفت لتفعلن ذلك! هي! قالت لي: «لن أتزوجك ما لم يتحقق هذا. ويوم يذهبان هما إلى الكنيسة نذهب نحن أيضاً». هذا شيء لا أفهمه ولا استطعت أن أفهمه يوماً: فإما أنها تحبك حباً لا حدود له وإما... ولكن إذا كانت تحبك فكيف يمكن أن تريد تزويجك امرأة أخرى؟... وهي تقول أيضاً: «أريد أن أراه سعيداً». إذن فهي تحبك.

قال الأمير وقد أصغى إلى روجويين متألماً:

- قلت لك وكتبت إنها لا تملك عقلها كاملاً...

- الله أعلم!! قد تكون مخطئاً في هذا!... على كل حال، حين اصطحبتها اليوم عاندين من سماع الموسيقى، حدّدت لي اليوم قائلة: «سنزوّج حتماً بعد ثلاثة أسابيع، وربما أقل من ذلك». حلفت على ذلك أمام الأيقونة وقبلتها. هكذا يكون الأمر الآن مرهوناً بك متوقفاً عليك يا أمير. هي! هي!...

- هذا كله هذيان! إن ما تتنبأ لي به لن يحدث أبداً، لن يحدث أبداً. سوف أجيء إليك غداً...

قال روجويين:

- كيف تستطيع أن تقول إنها مجنونة؟ لماذا تكون سليمة العقل في نظر جميع الناس، وتكون مختلة في نظرك وحدك؟ كيف كان يمكنها أن تكتب رسائل إلى هناك؟ ولو كانت مجنونة للوحظ ذلك من قراءة رسائلها؟

سأله الأمير مرتاعاً:

- أية رسائل؟

- إنها تكتب رسائل إلى هناك، إلى «الأخرى»، وهذه تقرأ رسائلها. ألا تعرف هذا؟ سوف تعرفه إذن. ستريك الرسائل هي نفسها حتماً.

هاتف الأمير قائلاً:

- مستحيل تصديق هذا!

- هيه! أرى يا ليون نيقولايفتش إنك ما زلت في بداية الطريق. انتظر قليلاً:

لسوف تصل من الأمر إلى حيث يصبح لك شرطة خاصة تكلفها بالتجسس، وإلى حيث تتولى الحراسة بنفسك نهائياً ولبلاً، فتعرف كل خطوة تتم، متى...

صاح الأمير يقول:

- كفى! ولا تكلمني في هذا مرة أخرى أبداً. اسمع يا بارفيون: قبل وصولك بلحظة، كنت أطوف هنا. وفجأة أخذت أضحك، دون أن أعرف لماذا! تذكرت أن غداً عيد ميلادي. والليل يوشك الآن أن ينتصف. فتعال انتظر معي صبح هذا اليوم. عندي خمرة، سوف نشرب. وسوف تتمنى لي ما لا أملك أن أتمناه لنفسي في هذه اللحظة. عنك أنت إنما يجب أن يصدر هذا التمني لي. أما أنا فسوف أتمنى لك السعادة الكاملة. إذا لم تقبل أن تجئ معي فهات صليبي رده إلي! إنك لم ترجعه إلي في اليوم التالي. أأنت تحمله الآن؟

أجاب روجويين:

- نعم أحمله.

- إذن تعال! لا أريد أن أدخل حياة جديدة بدونك، وان حياة جديدة لتبدأ بالنسبة إلي! ألا تعلم يا بارفيون أن حياتي الجديدة قد بدأت اليوم؟

- الآن أرى وأعرف بنفسي أنها بدأت. وسوف أبلغها «هي» ذلك. لست في حالتك الطبيعية يا ليون نيقولايفتش.

الفصل الرابع

حين اقترب الأمير بصحبة روجويين من منزله، أدهشه أشد الدهشة أن يرى شرفته تسطع بضياء قوي ويملؤها حفل كبير صاخب. كان الحفل يزخر نشاطا وحماسة، ويضحك مقهقهأً، ويتدفق في الكلام تدفقاً قوياً، ويتناقش بصرخات عالية. إن المرء ليدرك من أول لحظة أن الحشد يقضي وقتاً مرحاً. فلما صعد الأمير إلى الشرفة تحقق تقديره، إذ وجد الجميع يشربون، بل وجدهم يشربون شمبانيا. ولا بد أن تكون هذه الحفلة قد بدأت منذ وقت غير قصير، لأن كثيراً من الحضور كان قد أتيح لهم حتى تلك اللحظة أن ينالوا قسطاً كبيراً من الانشراح. وكانوا جميعاً من معارف الأمير، ولكن الغريب في الأمر هو أن يراهم مجتمعين اجتماع من دعوا دعوة، مع أنه لم يوجه أية دعوة، فهو لم يتذكر عيد ميلاده إلا عرضاً منذ برهة قصيرة.

دمدم روجويين يقول للأمير وهو يتبعه على الشرفة:

- لا بد أنك ذكرت لأحد إنك ستقدم شمبانيا، فهرعوا على هذا النحو.

ثم أضاف يقول بلهجة فيها حنق ومرارة، لأنه تذكر ماضياً غير بعيد في أغلب الظن:

- نحن نعرف هذا! يكفي أن تصفر لهم...

أسرع الجمع كله يحيط بالأمير بعد أن استقبله بصيحات وتمنيات. وكان بعض الضيوف مسرفين في الصخب، وكان بعضهم الآخر أهدأ كثيراً. ولكن ما إن عُرف أن اليوم عيد ميلاد الأمير حتى اقتربوا منه يهتئون واحد بعد واحد بكثير من الحرارة. وقد تعجب الأمير من حضور بعض الأشخاص، من حضور بوردوفسكي مثلاً. غير أن ما أدهشه أكثر من أي شخص آخر هو أن يجد أوجين بافلوفتش في صحبة مثل هذا الحشد. حتى إنه لم يكذب يصدق عينيه، وانتابه ما يشبه الذعر حين تعرفه.

وفي هذه الأثناء، هرع ليبيديف، وكان شديد احمرار الوجه بل قل كان مشتعل الوجه، هرع يشرح الأمور، وكان قد سكر بعض السكر. فقال إن هذا المأكل كله قد اجتمع شمله على نحو طبيعي تماماً، بل وبمصادفة. فكان هيبوليت أول الوافدين، لأنه

وصل في بداية المساء. إنه وقد شعر بتحسن كبير في صحته، وإذ أراد أن ينتظر الأمير في الشرفة، قد اضطجع على ديوان. ثم التحق به ليبيديف الذي لم يلبث أن تبعته أسرته كلها أو قل بناته والجنرال إيڤولجين. أما بوردوفسكي فقد وصل مع هيبوليت وكان يصحبه. ومرت جانبا مع بتتسين بالفيلا فدخلا، منذ مدة قصيرة فيما يبدو، (دخلا في الوقت الذي كان يقع فيه حادث الفوكسهول..). وبعد ذلك ظهر كيلر، فأعلن أن اليوم عيد ميلاد الأمير، وطالب بشمبانيا. أما أوجين بافلوفتش فإنه لم يحضر إلا منذ نصف ساعة. وقد ألح كوليا، بكل ما أوتي من قوة، على ضرورة تقديم الشمبانيا وإقامة احتفال. فأسرع ليبيديف يأتي بالخمرة.

قال ليبيديف يخاطب الأمير:

- ولكن هذه خمرتي أنا. أنا أتحمل النفقات، لأحتفل بعيد ميلادك ولأهنئك. وستولم كذلك وليمة صغيرة، سنقدم عشاء بارداً. إن بنتي تهيئ العشاء. آ... يا أمير... ليتك تعرف الموضوع الذي كنا نتناقش فيه. هل تتذكر جملة هاملت هذه: «نكون أو لا نكون»؟ إنه لموضوع عصري، عصري جداً! أسئلة وأجوبة... والسيد تيرنتيف ممتلئ بالنشاط زاهر بالحماسة... لا يريد أن يرقد! على أنه لم يشرب إلا جرعة شمبانيا واحدة، جرعة واحدة، هذا لا يمكن أن يؤذيه... اقترب يا أمير، واحسم المناقشة! إن الجميع ينتظرونك، إن الجميع ينتظرونك، إن الجميع يعتمدون على ثاقب بصرك، وسديد رأيك...

ولاحظ الأمير النظرة العذبة الملائمة التي كانت تلقىها عليه فيرا ليبيديف وهي تشق لنفسها طريقاً من أجل أن تصل إليه. فكانت أول من مد الأمير إليه يده. فاحمرت سروراً وهنأته بعيد ميلاده متمنية له حياة سعيدة (منذ هذا اليوم). ثم أسرعتمضي إلى المطبخ حيث كانت تهيئ وجبة الطعام الخفيفة. ولكنها كانت، حتى قبل عودة الأمير، تجيء إلى الشرفة، متى سنحت لها أول فرصة للتحرر من انشغالها بتهيئة الطعام، وذلك لتصغي بكل سمعها إلى المناقشات الحامية التي تدور بين الضيوف إلى غير نهاية بعد أن أهاجتهم الخمرة، والتي كانت تتناول مسائل مجردة إلى أبعد حدود التجريد، غريبة عن الفتاة إلى أقصى درجات الغرابة. وكانت أختها الصغرى قد نامت في الغرفة المجاورة، فاعرة الفم جالسة على صندوق. أما الصبي ابن ليبيديف، فقد بقي قرب موليا وهيبوليت. فإذا رأى الرائي وجهه أدرك أن الصبي مستعد لأن يبقى جالساً في مكانه دون حراك، عشر ساعات متتالية، مستمتعاً بالحديث.

قال هيبوليت للأمير حين تناول الأمير يده بعد مصافحة فيرا فوراً:

- كنت أنتظرك على أحرّ من الجمر، ويسرني جداً أن أراك سعيداً هذه السعادة كلها.

- وكيف عرفت إنني «سعيد»؟

- يرى المرء هذا في وجهك. سلّم على هؤلاء السادة ثم تعال اجلس هنا، قريباً منا، بسرعة.

وكرر يقول، ضاغطاً على هذه الجملة ضغطاً ذا دلالة:

- انتظرتك على أحر من الجمر!

سأله الأمير أليس خطراً على صحته أن يسهر إلى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، فأجابه بأنه يستغرب هو نفسه أنه لم يشعر يوماً بمثل ما يشعر به في هذا المساء من تحسن في صحته، بينما كان منذ ثلاثة أيام على شفا الموت.

نهض بوردوفسكي فجأة، فغمغم يقول إنه جاء «هكذا»، «مصطحباً» هيبوليت. وإنه سعيد برؤية الأمير. وإنه كتب في رسالته «سخافات وحماقات» ولكن يسعده الآن حقاً أن... لكنه لم يكمل جملته، وشدّ على يد الأمير مصافحاً بقوة، ثم جلس.

حتى إذا فرغ الأمير من تحية الجميع، اقترب من أوجين بافلوفتش، فسرعان ما أمسكه هذا من ذراعه وقال له هامساً:

- أريد أن أقول لك كلمتين... كلمتين لا أكثر. الأمر أمر حادث هام جداً. فلننفرّد دقيقة.

وهمس في الأذن الأخرى من أذني الأمير صوت آخر، بينما أمسكته يد ثانية من ذراعه الثانية:

- أريد أن أقول لك كلمتين.

فما كان أشد دهشة الأمير حين التفت فرأى أمامه وجهاً مشعثاً، أحمر، ضاحكاً، مكشراً، سرعان ما عرفه الأمير: إنه فردشتينكو، لا يدري أحد من أين انبجس!

سأله فردشتينكو:

- هل تتذكر فردشتينكو؟

وصاح كيلر الذي أسرع يقترب منهما، صاح يقول:

- إنه نادم. لقد كان مختبئاً لأنه لم يشأ أن يظهر أمامك. كان مختبئاً هناك، في ركن. إنه نادم يا أمير. يشعر بأنه مذنب.

- ولكن ما ذنبه؟

- أنا لقيته يا أمير، فجئت به فوراً. إنه من خيرة أصدقائي. لكنه نادم.

قال الأمير أخيراً ليتخلص منهما:

- تشرفت بحضوركما يا سيدي! اتخذنا لكما مكاناً بين الحفل.

كان الأمير يستعجل التحدث مع أوجين بافلوفتش.

قال أوجين بافلوفتش:

- يبتهج المرء في بيتك. لقد قضيت في انتظارك نصف ساعة، فكان وقتاً ممتعاً. إليك المسألة يا صديقي العزيز جداً ليون نيقولايفتش. لقد رتبت كل شيء مع كورمشيف، فجئت أطمئنك وأهدى بالك. لا تقلق. لقد نظر إلى الأمر نظرة فيها كثير من التعقل. لا سيما وأنه، في رأيي، كان هو المخطئ.

- من هو كورمشيف هذا؟

- عجيب... هو ذلك الذي أمسكت ذراعيه من خلف في الحديقة العامة... لقد بلغ من الغضب أنه كان يريد أن يرسل إليك في الغد شهوده يطلبون منك الاستعداد للمبارزة.

- هيا... دعك من هذه السخافة!...

- هي سخافة طبعاً... ولا شك أن الأمر كان سينتهي نهاية سيئة... غير أن بلادنا فيها أناس من هذا النوع...

- أتراك قد أتيت لغرض آخر يا أوجين بافلوفتش؟

قال أوجين بافلوفتش ضاحكاً:

- آ... طبعاً! هناك غرض آخر. غداً يا عزيزي الأمير، عند مطلع الصبح، سأسافر إلى بطرسبرج بسبب تلك الحكاية المشؤومة (قضية عمي، هل تتذكر؟). تصور أن كل ما قيل صحيح فعلاً، وأن جميع الناس كانوا يعرفونه إلا أنا. وقد بلغت من الاضطراب للأمر أنني لم يتسع وقتي حتى للذهاب إلى «هناك» (إلى أسرة إيبانتشين)، لا ولن

أستطيع ذلك غداً، لأنني سأكون غداً ببطرسبرج. هل تفهم؟ وقد لا أعود من بطرسبرج إلا بعد ثلاثة أيام. لا أريد أن أبالغ في تقدير خطورة الحادث ولا أن أضخم شأنه، ومع ذلك رأيت أن عليّ أن أصارحك في الأمر صادقاً دون مزيد من الإرجاء والتأجيل، أي أن أصارحك في الأمر قبل سفري. إذا سمحت لي فسأبقى الآن هنا أنتظر انصراف الناس. وليس هناك شيء يفضل هذا الانتظار عندي، لأنني مضطرب اضطراباً شديداً فلا سبيل لي إلى النوم. الخلاصة أنني، رغم ما يشتمل عليه هذا التشبث بأحد الناس من مجافاة للياقة والكياسة والأدب، أقول لك بصراحة إنني إنما جئت إليك ملتمساً صداقتك يا عزيزي الأمير. إنك إنسان لا نظير له، بمعنى أنك لا تكذب في كل لحظة وربما كنت لا تكذب في أية لحظة. هناك قضية أحتاج فيها إلى صديق صادق وناصح أمين، فأنا الآن في عداد الأشقياء فعلاً...

وأخذ يضحك من جديد

قال الأمير بعد دقيقة من تفكير:

- ليس هناك إلا مزعج واحد: إنك تريد انتظار انصرافهم، ولكن لا يعلم إلا الله متى ينصرفون! أفليس الأفضل أن نمضي الآن إلى الحديقة العامة؟ سوف ينتظرونني حتماً، فأعذر لهم.

- لا، لا، هناك أسباب تجعلني أحب أن لا ينتبهوا إلى أنني أبغي إجراء حديث غير عادي معك. إن بين هؤلاء الناس أفراداً يهتمون بالعلاقات بيننا اهتماماً شديداً، ألا تعرف ذلك يا أمير؟ فالأفضل كثيراً أن يلاحظوا أن علاقتنا هي أطيّب العلاقات لا في الظروف الاستثنائية فحسب، بل في الحياة العادية أيضاً، هل فهمت؟ سوف ينصرفون بعد نحو ساعتين. وسأشغل من وقتك قرابة عشرين دقيقة، أو نصف ساعة في أكثر تقدير...

- عفوك عفوك! إنني سعيد بك جداً. ما كنت في حاجة إلى مثل هذا الاعتذار. ثم إنني أحرص على أن أشكر لك أحر الشكر كلمتك عن علاقات الصداقة بيننا. هل تعلم أنني يستحيل عليّ استحالة مطلقة في هذه اللحظة أن أركز انتباهي؟

دمدم أوجين بافلوفتش يقول وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

- هذا واضح! هذا واضح!

كان أوجين بافلوفتش مرح المزاج جداً في ذلك المساء.

سأله الأمير مرتعشا:

– ماذا بك؟

فتابع أوجين بافلوفتش كلامه دون أن يجيب عن السؤال إجابة مباشرة، وهو ما يزال يبتسم:

– أتراك لا تشتبه، يا عزيزي الأمير، في أن لا يكون لزيارتي هذه من هدف إلا أن أحاصرك وأن استخرج منك بعض المعلومات دول أن يبدو علي ذلك، هه؟
قال الأمير وقد أخذ يضحك هو أيضاً:

– أما أنك جئت لتحملني على الكلام فذلك أمر لا ريب فيه البتة؛ بل لعلك آليت على نفسك لتسرفن في استغلال سذاجتي. لكنني في الواقع لا أخشاك. ثم إنني في هذه اللحظة لا يهمني هذا الأمر، هل تصدق؟ ثم... لما كنت قبل كل شيء مقتنعاً بأنك إنسان ممتاز فسوف ننتهي دائماً، في آخر الأمر، إلى أن تصبح صديقين! لقد أعجبتني كثيراً يا أوجين بافلوفتش. لأنك... في رأيي... رجل محترم جداً... جداً!...
قال أوجين بافلوفتش يختم الحديث:

– هيا... إن التعامل معك ممتع على كل حال، أيا كان الباعث إليه. سوف أشرب كأساً نخب صحتك. إنني سعيد جداً بلقائك...
وقطع كلامه ليسأله فجأة:

– ... هل أقام هذا السيد هيبوليت عندك؟
– نعم.

– أظن أنه لن يموت الآن، أليس كذلك؟
– لماذا هذا السؤال؟

– لا شيء! لقد قضيت في صحبته نصف ساعة...

إن هيبوليت، الذي كان ينتظر الأمير، لم يحول عينيه، طوال مدة الحديث الذي جرى بين الرجلين، لم يحول عينيه لا عن الأمير ولا عن أوجين بافلوفتش. فلما عادا نحو المائدة انتعش محموماً. لقد كان قلقاً، مهتماً اهتماماً شديداً. وكان العرق يلتصق على جبينه كحبات اللؤلؤ، وكانت عيناه المتقدتين الزائغتين تعبران عن خوف متصل لا ينقطع، وعن نوع من نفاذ الصبر لا يمكن تحديده. كانت نظرتة تنتقل دون هدف من شيء إلى آخر، ومن شخص إلى شخص، دون أن تثبت على أي موضوع. ورغم أنه كان

حتى ذلك الحين قد شارك مشاركة فعالة في الحديث الصاخب والمناقشة الحامية التي كانت تدور من حوله، فلقد كانت حماسته حماسة حمى لا أكثر. وحقيقة الأمر أنه لم يكن منصرفاً إلى تلك المناقشة. كان تفكيره متقطعاً مفككاً، وكان يعبر عن آرائه بلهجة فيها سخر وإهمال ومفارقة. كان لا يكمل جملة، وينقطع عن الكلام فجأة في منتصف المناقشة التي يكون قد أثارها هو نفسه بحرارة قبل ذلك بدقيقة واحدة. وقد شعر الأمير بدهشة وأسف حين علم أنهم أباحوا له في ذلك المساء أن يشرب كأسين من الشمبانيا. فالكأس التي توجد على المائدة أمامه والتي تجرّع بعضها كانت هي الكأس الثالثة. ولكن الأمير لم يعلم بهذا إلا فيما بعد. أما الآن فإنه لم يكن قادراً على أن يلاحظ أي شيء.

صاح هيبوليت يقول:

– هل تعلم أنني سعيد جداً بأن يقع عيد ميلادك في هذا اليوم؟

– لماذا؟

– سوف ترى لماذا. اجلس بسرعة إلى المائدة. أولاً: لأن جميع أصحابك... حاضرون. لقد قدرت أنهم سيحيئون عدداً كبيراً، وصدق تقديري لأول مرة في حياتي؛ خسارة أنني لم أعلم بيوم عيد ميلادك من قبل... فلو علمت لحملت إليك هدية... ها ها! ولكن من يدري؟ قد تكون الهدية في جيبى؟ هل مطلع الصبح بعيد؟

قال بتتسين بعد أن نظر في ساعته:

– يطلع الفجر بعد ساعتين في أكثر تقدير.

قال أحدهم:

– ولكن ما شأننا والفجر إذا كان في وسعنا أن نستغني عنه الآن لنقرأ في الخارج

[9]

– ذلك أنني أريد أن أرى قليلاً من شمس. هل نستطيع أن نشرب نخب الشمس يا

أمير؟ ما رأيك؟

كان هيبوليت يلقي أسئلة بلهجة قاسية، مخاطباً جميع الناس مخاطبة فارس من الفرسان، كأنه يصدر أوامر. ولكن كان يبدو أنه هو نفسه لا يلاحظ ذلك ولا يشعر به.

- ليكن ما تشاء! فلنشرب! ولكن يجدر بك أن تسكن وتهدأ يا هيبوليت، أليس كذلك؟

- أنت تنصحنى دائماً بأن أمضي أنام يا أمير، فتعاملني كما تعامل الطفل مربيته. متى طلعت الشمس وأخذت «تسطع في قبة السماء» (من قائل هذا البيت من الشعر: «سطعت الشمس في قبة السماء»^[10]؟ ليس لهذا الكلام معنى، ولكنه جميل) فعندئذ سوف نرقد يا ليبيديف؟ هل الشمس ينبوع الحياة! ما معنى هاتين الكلمتين «ينبوع الحياة» في رؤيا القديس يوحنا؟ هل سمعت الكلام عن «الكوكب الأفسنتي» يا أمير؟

- قيل لي إن ليبيديف يرى أن الكوكب الأفسنتي هو شبكة سلك الحديد هذه في أوروبا.

فانتفض ليبيديف وصاح يقول ملوحاً بذراعيه كأنه كان يريد أن يلجم الضحك الذي انطلق من صدور الجميع:

- ها... لا... اسمحوا لي... اسمحوا لي!

ثم التفت نحو الأمير فجأة فقال له:

- مع هؤلاء السادة... مع هؤلاء السادة جميعهم.. هناك مسائل لا يمكن أن... إنهم لا يستحقون إلا هذا...

قال ذلك ونقر المائدة نقرتين، فما كان من هذا إلا ضاعف الضحك وفاقم الهرج والمرج.

كانت حالة ليبيديف في هذا المساء كحالته في كل مساء، ولكنه كان في هذه المرة أشد حرارة واندفاعاً مما يكون في العادة، وذلك بسبب تلك المناقشة الطويلة. «الفقيه» التي سبقت. إنه في مثل هذه الحال يبدي لمعارضيه ازدياداً لا حدود له.

- لا يُستحسن هذا أيها السادة! لقد اتفقنا منذ نصف ساعة على أن لا نقاطع ولا نضحك حين يكون أحدنا بسبيل الكلام، وأن نفسح لكل فرد مجال التعبير عن فكره واسعاً كاملاً. وللملحدين أنفسهم بعد ذلك أن يعلنوا اعتراضاتهم إذا حرصوا على ذلك. لقد أقمنا الجنرال رئيساً للمجادلات. فما الذي تعمدون إليه؟ إنكم بهذه الوسيلة تستطيعون أن تجعلوا أي إنسان يفقد تسلسل أفكاره مهما تكن رفيعة سامية عميقة!...

صاح الجميع يقولون بصوت واحد:

- ولكن تكلم، تكلم! ما من أحد سيمنعك من الكلام!

- تكلم، ولكن لا تهذر وتستطرد!

سأل أحدهم:

- ما «الكوكب الأفسنتي» هذا الذي أتيتم على ذكره؟

فقال الجنرال وقد عاد إلى مجلس الرئاسة وقور الهيئة مهيب المنظر:

- لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً البتة!

عندئذ تمتم كيلر يقول وهو يتزحزح على كرسيه بحركات قوية، وهيئة تنم عن
النشوة والشوق:

- إنني أحب هذه المناقشات وهذه المشاجرات حب العباد!

ثم التفت فجأة إلى أوجين بافلوفتش الذي كان جالساً بقربه، فقال له:

- موضوعات علمية سياسية. لشد ما يشوقني ما أقرؤه في الصحف من خلاصات عن
المجادلات والمناقشات التي تحدث في مجلس النواب البريطاني. ليس جوهر هذه
المجادلات هو الذي يفتنني (فما أنا سياسي، تعلم ذلك)، وإنما تفتنني الطريقة التي
يتعامل بها الخطباء، والأسلوب الذي يستعملونه في القيام بدورهم كسياسيين: «إن
الفيكونت النبيل الذي يتخذ مكانه قبالي..»، «إن الكونت النبيل الذي يشاطرنني
رأيي..»، «إن معارضي النبيل الذي أثار اقتراحه دهشة أوروبا..»: فهذه العبارات
الجميلة كلها، هذه الروح البرلمانية لدى شعب حر، هي ما يسحرني ويأخذ بلبّي! إنني
أتلذذ بهذا يا أمير! لقد كنت في قرارة نفسي فناناً على الدوام، أحلف لك يا أوجين
بافلوفتش!

صاح جانبا من مكانه قائلاً بلهجة هجومية:

- أنت تستنتج إذن أن طرق السكة الحديدية شرّ لعين، وأنها ستكون السبب في هلاك
الإنسانية، وأنها السم الذي سينزل على الأرض فيلوث «ينابيع الحياة»؟

كان جبريل أرداليونوفتش، ذلك المساء، منتعشاً انتعاشاً خاصاً، وكان فرح المزاج
حتى ليكاد يكون شاعراً بالانتصار والظفر فيما بدا للأمر. وواضح أن سؤاله لم يكن إلا
مزحة أراد بها استفزاز ليبيديف، ولكنه لم يلبث أن تحمس هو نفسه.

أجابه ليبيديف وقد شعر أنه أُخرج عن طوره وأنه في الوقت نفسه سكران لذة:

- لا، ليست طرق السكة الحديدية! إن هذه الطرق لا تستطيع بذاتها أن تلوّث ينبيع الحياة. وإنما الشر اللعين هو جملة الحال كله؛ هو هذه الروح العلمية العملية التي سيطرت ميولها في هذه القرون الأخيرة!

سأل أوجين بافلوفتش:

- هل اللعنة محققة أم هي ممكنة فحسب؟ لا بد لما من معرفة المقصود هنا على وجه الدقة.

قال ليبيديف مؤكداً باندفاع وحماسة:

- بل اللعنة محققة!

قال بتتسين مبتسماً:

- لا تندفع يا ليبيديف! إنك تكون في الصباح أحسن حالاً وأخلى بالاً!

قال ليبيديف يجيبه بحرارة وهو يلتفت إليه:

- نعم، ولكنني في المساء، أصرح مقالاً! أنا في المساء أكثر مودة، وأصدق صدقاً! أنا في المساء أبسط وأوضح وأشرف. ولعلني بهذا أتيح لكم أن تمطروني بانتقاداتكم. ولكنني أيها السادة لا أعبأ بهذه الانتقادات. واني لأتحداكم الآن جميعاً أيها الملاحظة كيف ستنقذون العالم؟ ما هي الطريقة السوية التي شققتموها له نحو السلامة أنتم أيضاً، يا أيها الصناعيون وأنصار نظام الاشتراك ونظام الأجور وما إلى ذلك؟ بأي شيء ستنقذون العالم؟ بالتسليف؟ ما التسليف؟ إلى أين سيؤدي بكم الاقتراض؟

قال أوجين بافلوفتش:

- إنك شديد الاهتمام بهذه المسائل!

- ورأيي أن من لا يهتم بهذه المسائل ليس إلا إنساناً تافهاً لا قيمة له! نعم يا سيدي!

قال بتتسين:

- التسليف يؤدي على الأقل إلى التضامن العام، وإلى توازن المصالح.

- ولكن لا أكثر من هذا! إن الأساس الأخلاقي الوحيد الذي تقيم عليه رأيك هو إرضاء الأنانية الفردية وإشباع الحاجات المادية. السلام الشامل، والسعادة الجماعية

الناشئة عن الحاجة! اسمح لي أن أسألك: أليس هذا هو ما يجب أن أفهمه من كلامك أيها السيد العزيز؟

قال جانبا وهو بدأ يتحمس فعلاً:

- ولكن الحاجة المشتركة بين جميع البشر إلى أن يعيشوا ويشربوا ويأكلوا، وكذلك الاقتناع المطلق العلمي بأن هذه الحاجات لا يمكن إرضاؤها إلا بالاشتراك الشامل وبالتكافل والتضامن في المصالح، ذلك فيما يبدو لي رأي قادر على أن يكون دعامة و«ينبوع حياة» للإنسانية في العصور المقبلة.

- ضرورة الشراب والطعام، أي غريزة البقاء وحدها..

- ولكن أليست هذه الغريزة شيئاً؟ إنها قانون الإنسانية الطبيعي السوي.

صاح أوجين بافلوفتش فجأة:

- من قال لك هذا؟ هي قانون، نعم، ولكن هذا القانون ليس سوياً أو طبيعياً أكثر من قانون التدمير، وحتى تدمير الذات. هل البقاء هو القانون الطبيعي السوي الوحيد الذي يحكم الإنسانية؟

هتف هيبوليت قائلاً وهو يلتفت بقوة إلى جهة أوجين بافلوفتش:

- هيه! هيه!!

وتفرّس فيه باهتمام قوي واستطلاع شديد، ولكنه حين لاحظ أنه يضحك، أخذ يضحك هو أيضاً، ثم لكز كوليا الذي كان جالساً إلى جانبه وعاد يسأله كم الساعة الآن، حتى لقد شدّ إليه ساعة الفتى الفضية ونظر في عقربها بشراهة. وتمدّد أخيراً على الديوان كأنما ليغيب في غياهب النسيان، جاعلاً يديه وراء رأسه، وأخذ يحدّق إلى السقف. ولكن ما إن انقضى نصف دقيقة حتى عاد يجلس إلى المائدة، منهضاً صدره، مصغياً إلى هذر ليبيديف الذي بلغ ذروة الحماسة.

قال ليبيديف وهو يتهمّ بعنف على الرأي المفارق الذي عبّر عنه أوجين بافلوفتش:

- هذه فكرة بارعة ساخرة، هذه فكرة مثيرة! ولكنها فكرة صحيحة صادقة، رغم أنك لم تقلها إلا في سبيل أن تضرّم المناقشة مزيداً من الإضرار. إن رجلاً ريبياً مثلك، رجلاً من أبناء المجتمع الراقى، ضابطاً من سلاح الفرسان (موهوباً على كل حال) لا يستطيع أن يدرك هو نفسه كل ما تشتمل عليه هذه الفكرة من عمق وصواب! نعم يا

سيدي! إن قانون تدمير الذات وقانون المحافظة على الذات لهما في هذا العالم قوة واحدة. وسيظل يستعملهما الشيطان كليهما للسيطرة على الإنسانية خلال زمن لا نعرف له حداً. أتضحون؟ ألا تؤمنون بوجود الشيطان؟ إن إنكار وجود الشيطان فكرة فرنسية، فكرة تافهة؟ هل تعرفون من هو الشيطان؟ هل تعرفون اسمه؟ إنكم وأنتم تجهلون حتى اسمه، تسخرون من صورته، على غرار فولتير. تضحكون من قدميه المشرومتين ومن ذنبه ومن قرنيه، وذلك كله من اختراع خيالكم أنتم، ذلك أن الروح الشريرة روح ضخمة هائلة لا شأن لها لا بالأقدام المشرومة ولا بالقرون التي تنسبون لها إليها. ولكن ليست الروح الشريرة موضوعنا الآن...

صاح هيبوليت يسأله وهو ينفجر فجأة في ضحك متشنج:

– ما يدريك؟ لعل الشيطان هو موضوعنا الآن!

قال ليبيديف مؤيداً:

– هذه ملاحظة سديدة موحية! لكنني أكرر أن الأمر ليس هو هذا الآن. وإنما المسألة هي أن نعلم ألم يضعف التطور «ينابيع الحياة»؟

هتف كوليا سائلاً:

– تقصد المواصلات بالسكك الحديدية.

– لا، ليس المواصلات بالسكك الحديدية، أيها الفتى المتهور الطائش، بل الاتجاه الذي يمكن أن نعد السكك الحديدية صورة له، أو تمثيلاً له، أو تجسيداً فنياً إن صح التعبير. إن الناس الآن في عجلة من أمرهم، يتحركون هنا وهناك، ويتخبطون ويضجون ويصرخون، ويتزاحمون ويتصادمون، ويحثون الخطى ويغذون السير، بدعوى العمل لسعادة الإنسانية! إن مفكراً معتزلاً لهذا العالم قد ندب حظ البشر فقال: «أصبحت الإنسانية مسرفة في الجلبة والضوضاء، مفرطة في الصناعة، على حطام الهدوء النفسي والغبطة الروحية». فأجابه مفكر آخر يطوف هنا وهناك ويشيح بوجهه عن الأول منتصراً متعالياً: «ليكن. ولكن ضجة العربات التي تحمل الخبز للبشر الجياع قد تكون أفضل من الهدوء النفسي والغبطة الروحية». أما أنا، أنا ليبيديف الحقير، فإنني لا أؤمن بالعربات التي تحمل الخبز للبشرية! لأن هذه العربات، إن لم تقدها فكرة أخلاقية روحية، يمكنها ببرود وهدوء أن تحرم من حق الخبز الذي تنقله جزءاً كبيراً من النوع الإنساني. وقد رأينا هذا فعلاً...

قال أحدهم معترضاً:

- هل العربات هي التي تستطيع بهدوء وبرود أن تحرم؟...

كرر ليبيديف كلامه قائلاً دون أن يتنازل فيولي السؤال أي انتباه:

- لقد رأينا هذا فعلاً. لقد كان مالتوس رجلاً من محبي البشر. لكن محب البشر هو من أكلة لحوم البشر إذا كان الأساس الأخلاقي الذي يقف عليه مهتزاً مترنحاً. ناهيك عن غروره... إنه ليكفي أن تجرح كبرياء أي واحد من محبي البشر هؤلاء الذين لا يحصى عددهم، حتى يكون مستعداً لأن يحرق على الفور أركان الأرض الأربعة إرضاء لحقده الصغير!... على أنني يجب أن أضيف، حتى أكون منصفاً غير متحيز، أن كل واحد منا، وأنا في الطليعة، مستعد لأن يفعل مثل هذا، فلعلني أكون أول من يحمل حزم الحطب لإضرام النار، ثم يولي هارباً... ولكنني أعود فأقول إن المسألة ليست هذه!

- ما هي المسألة إذن؟

- علق أحدهم:

- إنه يزعجنا حقاً!

- المسألة هي مسألة حكاية ترجع إلى القرون الماضية، ذلك أنني مضطر أن أحدثكم عن عهد بعيد. ففي عصرنا هذا، وفي وطننا الذي تحبونه، فيما أرجو، كما أحبه أنا... ذلك أنني من جهتي أيها السادة مستعد لأن أبذل في سبيله آخر قطرة من دمي...

- طيب طيب، وبعد؟

- نعم... في وطننا، كما في أوروبا، تنتاب الإنسانية مجاعات عامة شديدة مرة كل ربع قرن في أكثر تقدير، إذا صحت الحسابات وصدقت ذاكرتي، أي كل خمس وعشرين سنة. لست أناقش صحة الرقم، ولكن الواقع الذي أريد أن أقرره هو أن المجاعات نادرة نسبياً.

- نسبياً؟ تعني بالنسبة إلى ماذا؟

- بالنسبة إلى القرن الثاني عشر، وإلى القرون التي سبقت وأعقبته. ذلك أن المجاعات العامة، في ذلك العهد، كانت تجتاح الإنسانية كل سنتين أو كل ثلاث سنين، على الأقل - هذا ما يشهد به المؤرخون - حتى إن الإنسان في مثل تلك الظروف كان يعتمد إلى أكل لحم البشر، ولكن خفية. وقد روى طفيلي من ذلك الزمان، حين دلف

إلى الشيخوخة، روى من تلقاء نفسه، دون أي ضغط أو إكراه، أنه في أثناء حياته الطويلة التعيسة قد قتل وأكل في السر ستين راهباً وعدة أطفال، ستة في أكثر تقدير. وهو عدد ضئيل بالقياس إلى عدد رجال الدين الذين أكلهم. أما الكبار من غير رجال الدين فيظهر أنه لم يمسس أحداً منهم في يوم من الأيام.

هتف الرئيس نفسه يقول بلهجة فيها ما يشبه الاستياء:

- هذا غير ممكن. إنني كثيراً ما أناقشه وأجادله أيها السادة في موضوعات من هذا النوع دائماً. فإذا هو يطالعني بمثل هذه الأضاليل التي تقشعر لها الأبدان، وتُصمّ منها الآذان. أشياء لا يمكن أن يسلم بها العقل!

- يا جنرال، تذكر حصار كارس^[11]! وأنتم أيها السادة، اعلّموا أن حكايتي هي الحقيقة صافية. وأضيف من جهتي أن الواقع، رغم خضوعه لقوانين ثابتة لا تتغير، يكاد يكون دائماً صعب التصديق بعيداً عن المعقول. وفي بعض الأحيان نرى الحادث أبعد كلما كان ألصق بالواقع.

سأله السامعون ضاحكين:

- ولكن هل يستطيع امرؤ أن يأكل هكذا ستين راهباً؟

- إنه لم يأكلهم دفعة واحدة بطبيعة الحال. لعله أكلهم خلال خمس عشرة سنة أو عشرين. ففي هذه الحالة يكون الأمر مفهوماً وطبيعياً إلى أبعد الحدود...

- وطبيعياً أيضاً؟

- نعم، طبيعياً!

كذلك أجاب ليبيديف بعناد المدعي وإصرار المتفيق^[12]. وتابع يقول:

- ثم إن الراهب الكاثوليكي هو بطبيعته إنسان يحب التواصل بالكلام ويكثر من الاستطلاع، فلا أسهل من استدراجه إلى غابة أو إلى مكان ناءٍ، ليلقى هناك المصير الذي وصفته آنفاً. ولست أنكر مع ذلك أن عدد الأشخاص المأكولين فيه إسراف، وأنه يدل على الشراهة.

قال الأمير فجأة:

- ربما كان هذا صحيحاً أيها السادة.

كان قد لزم الصمت حتى ذلك الحين، وتابع المناقشة دون أن يتدخل فيها. وقد ضحك من كل قلبه مراراً حين أخذ الجميع يضحكون. كان واضحاً أنه افتتن بأن يرى نفسه محاطاً بهذا المرح، وبكل هذه الضوضاء، بل وأن يلاحظ أن الضيوف يشربون بهذا الاندفاع كله وهذه الحمياً كلها. كان يمكن أن لا يفتح فمه طوال السهرة، ولكن خطر بباله فجأة أن يقول كلمة، ففعل ذلك بجدٍّ ورصانة يبلغان من الشدة أن جميع الضيوف التفتوا نحوه وفي أعينهم نظرات حيرة وتعجب!

- أريد أن أوضح نقطة أيها السادة، هي كثرة تكرار المجاعات في الماضي. لقد سمعت عن هذا الأمر أنا أيضاً، وإن كنت لا أعرف التاريخ معرفة جيدة. يبدو لي أن هذا الأمر كان على هذا النحو حقاً. إنني أثناء إقامتي في جبال سويسرا قد أعجبت كثيراً بأطلال القصور الإقطاعية القديمة، القائمة في جنبات الجبال، فوق صخور وعرة، على ارتفاع لا يقل عن نصف فرسخ (أي عدة فراسخ سيراً في الطرقات المؤدية إليها). تعرفون ما القصر: إنه جبل من حجارة حقاً. إن بناءه يتطلب عملاً رهيباً، عملاً لا يتصوره الخيال، عملاً لا شك في أنه قام به جميع أولئك الفقراء الذين كانوا أقناناً. وكان على هؤلاء، بالإضافة إلى ذلك، أن يدفعوا أنواعاً من الأتاوات وأن يعيلوا رجال الكهنوت. كيف كانوا يجدون في وقتهم متسعاً لأن يقيموا أود أنفسهم وأن يزرعوا الأرض؟ لقد كان عددهم في ذلك الزمان أقل من أن يستطيعوا النهوض بتلك الأعباء كلها، وكان أكثرهم يموتون جوعاً، لأنهم لا يجدون ما يأكلونه فعلاً. حتى لقد اتفق لي أن تساءلت كيف لم يندثر أولئك السكان كافة، كيف قاوموا واستطاعوا أن يتحملوا تلك الحياة؟ فإذا قال ليبيديف إنه حدث في ذلك الزمان أن أكل بعض الناس لحوم بشر، فصدّقوه لأنه على حق حتماً. ولكني لا أدري لماذا أقحم الرهبان في هذه القضية، ولا أعلم ما الذي أراده.

قال جبريل آرداليونوفتش:

- لا شك أنه أراد أن يقول إن المرء في القرن الثاني عشر كان لا يستطيع أن يأكل من البشر إلا الرهبان، لأن الرهبان وحدهم كانت بهم سمّة.

فصاح ليبيديف يقول:

- هذه ملاحظة رائعة وصحيحة كل الصحة، ذلك أن صاحبنا لم يمسس أحداً من غير رجال الدين! لم يأكل رجلاً واحداً من غير. رجال الدين وأكل ستين عينةً من هؤلاء: هذه واقعة فظيعة، لها دلالة تاريخية وقيمة إحصائية. هي واقعة من الوقائع التي يستطيع بواسطتها رجل ذكي أن يتصور الماضي تصوراً صحيحاً، إذ يبرهن بدقة حسابية

على أن رجال الكهنوت كانوا في ذلك الزمان أكثر رخاء وأفضل تغذية من سائر البشر ستين مرة على الأقل، وربما كانوا أسمن من سائر البشر ستين مرة أيضاً.

صاح بعض الحاضرين يقول وسط انفجارات الضحك:

– ما أشدّ مبالغتك يا ليبيد، ما أشدّ مبالغتك!

عاد الأمير يقول سائلاً:

– أنا أسلم بأن لهذه الفكرة دلالة تاريخية، ولكن ما الذي تريد أن تخلص إليه؟

كان الأمير يتكلم بجدّ يبلغ من الشدة، ولهجة تبلغ من خلوها من السخرية أو التهكم على ليبيد الذي كان يتندّر به الحضور كافة، أن التناقض بين لهجته وبين لهجة الآخرين كان يخرج منه تأثير هزلي مضحك بدون قصد، حتى لقد أوشك أن يصبح الأمير نفسه محل ضحك واستهزاء، ولكن الأمير لم ينتبه إلى هذا.

همس أوجين بافلوفتش يسأل الأمير:

– ألا ترى يا أمير إنه مجنون؟ لقد قيل لي هنا منذ قليل إن الميل إلى مرافعات المحاماة وجلسات المحاكم قد فتن عقله وذهب بصوابه وإنه يريد أن يتقدّم إلى امتحان. إنني أتوقع محاكاة مضحكة لمرافعة يتولاها محام من المحامين!

تابع ليبيد كلامه قائلاً بصوت مدوّ:

– إنني أخلص إلى نتيجة ضخمة.. ولكن يجب أن نحلل قبل كل شيء الوضع السيכולوجي والقضائي لهذا المجرم. إننا نرى أن هذا المجرم (ولنسمه موكلي إن شئتم)، رغم استحالة عثوره على غذاء آخر، قد أبدى مراراً، طوال مدة حياته الغريبة، رغبة في التوبة وفي العدول عن لحم رجال الدين. وهذا يتجلى واضحاً في وقائع ثابتة: لقد أكل خمسة أطفال أو ستة كما قيل لنا. صحيح أن الرقم الأخير ضئيل تافه. ولكنه من وجهة نظر أخرى يحمل دلالة بليغة. واضح أن موكلي قد حاصرته نوبات رهيبة من عذاب الضمير (ذلك أنه كان رجلاً متديناً، رجلاً ذا وجدان، أستطيع أن أبرهن على ذلك): فلقد أراد أن يخفف ذنبه، في حدود الإمكان، فأحل محل النظام الغذائي القائم على أكل لحوم رجال الدين نظاماً غذائياً قائماً على أكل لحوم غير رجال الدين: فعل ذلك ست مرات على سبيل التجربة أو المحاولة. فأما أن ما فعله عندئذ كان تجارب أو محاولات، فذلك أيضاً أمر لا سبيل إلى جحوده. ذلك أنه لو كان لا يريد إلا أن يبذل قائمة طعامه من باب التنويع، لما كان لعدد الستة قيمة! لماذا كان العدد ستة ولم يكن

ثلاثين؟ (إنني هنا أقسم البشر الذين أكلهم نصفين: نصفاً من رجال الدين ونصفاً من غير رجال الدين). أما إذا كان الأمر تجربة أو محاولة لم يدفعه إليها إلا التألم والجزع من الاعتداء على الدين والإساءة إلى الكنيسة، فإن عدد الستة يكون عندئذ معقولاً بل أكثر من معقول. إن ست محاولات يقوم بها لتهدة ما يعانيه من عذاب الضمير لهي أكثر من كافية، إذ لا يمكن أن تؤدي إلى نتيجة مرضية. أولاً في رأيي لأن الطفل صغير جداً، أو قولوا هزيل جداً: فلو أكل موكلي أطفالاً بدلاً من أن يأكل رهباناً خلال مدة معينة لكان عليه أن يبتلع من الأطفال ثلاثة أضعاف بل خمسة أضعاف ما يبتلع من رهبان. وبذلك تكون جريمته قد خفت من جهة الكيف، ولكن ثقلت من جهة الكم. لاحظوا أيها السادة أنني إذ أفكر في الأمر على هذا النحو وأناقشه بهذه الطريقة، إنما أضيع ذاتي في الحالة النفسية التي كان عليها إنسان القرن الثاني عشر. أما أنا، رجل القرن التاسع عشر، فمن الممكن أن أفكر في الأمر تفكيراً آخر غير هذا التفكير. إنني ألفت نظركم إلى هذا يا سادتي حتى لا يبقى محل لسخركم مني وتهكمكم علي. أما أنت يا جنرال، فلقد أصبح موقفك غير لائق حقاً. ذلك أولاً، أما ثانياً فإن لحم الطفل - وهذا رأي شخصي لي - لا يشتمل على غذاء كثير، وربما كان مذاقه غير لذيذ، فلا يترك في من يأكله إلا عذاب الضمير.

«وإليك الآن، أيها السادة، النتيجة التي أخلص إليها، إليكم الخاتمة التي تحل لكم مشكلة من أكبر المشكلات في ذلك الزمان وفي هذا الزمان على السواء. إن المجرم قد انتهى به الأمر إلى الوشاية بنفسه للكهنة، والمثول بين أيدي السلطة. فلنتصور أنواع التعذيب التي كانت تنتظره في ذلك الزمان، لنتصور العجلات التي يربط بها ويشد إليها، لنتصور النيران التي يلقي فيها! فما الذي دفعه إلى الوشاية بنفسه والاعتراف بجريمته؟ لماذا، بعد أن وقف عند العدد ستين، لم يحتفظ بسرّه إلى آخر رمق من حياته؟ لماذا يقتصر على الاستغناء عن أكل لحم الرهبان، والتكفير عن نفسه بأن يعيش ناسكاً؟ لماذا لم يصبح راهباً هو نفسه؟ تلکم هي كلمة السر! كان هنالك إذن قوة فوق قوة نيران التعذيب، وفوق قوة العادة التي ترسخت طوال عشرين عاماً! كان هنالك فكرة أقوى من جميع الكوارث والمجاعات والتعذيب والطاعون والجذام وكل ذلك الجحيم الذي ما كان للإنسانية أن تحتمله لولا تلك الفكرة نفسها التي كانت تخضع القلوب وتوجهها، وتخصب ينباع الحياة! هيا أروني شيئاً يشبه تلك القوة، في هذا العصر الذي نعيش فيه، عصر الرذائل وسكك الحديد... كان ينبغي أن أقول: «عصر السفن البخارية وسكك الحديد»...^[13]، لأنني سكران، ولكني صادق أقول الحقيقة. أروني في زماننا هذا فكرة تؤثر في الإنسانية نصف التأثير الذي كانت تحدثه تلك

الفكرة في ذلك الزمان! هل تجرؤون أن تقولوا بعد هذا إن ينابيع الحياة لم تضعف، ولم تضطرب، تحت ذلك «الكوكب»، تحت هذه الشبكة التي التف بها البشر؟ لا تظنوا أنكم سترهبونني برخائكم وثرواتكم وندرة المجاعات وسرعة وسائل المواصلات! صحيح أن الثروات أوفر، ولكن القوى تنقص! لم يبق ثمة فكر يخلق رابطة بين البشر! نعم، إننا جميعاً، جميعاً، جميعاً فاسدون!.... ولكن كفى! ليس هذا هو المهم الآن. وإنما المهم أن نقدم العشاء الذي أعدّ لضيوفنا، أليس كذلك أيها الأمير المحترم جداً؟

أوشك ليبيديف أن يحدث في نفوس بعض سامعيه استياء حقيقياً (يجب أن نذكر أن الحضور استمروا يفتحون الزجاجات أثناء ذلك الوقت كله). لكنه أسقط في يد جميع خصومه فوراً بهذه الخاتمة غير المنتظرة، التي تزف بشرى وجبة الطعام، وهي خاتمة وصفها هو نفسه بأنها «حيلة بارعة يقوم بها محام حاذق لتغيير مجرى قضية». وتعالّت ضحكات فرحة من جديد، وعاد الحفل إلى نشاطه وحميائه. ونهض الجميع عن المائدة، وأخذوا يمشون ليحركوا أعضاءهم ويذهبوا عنها التخذر. وظل كيللر وحده مستاء من خطاب ليبيديف، وانفعل انفعالاً شديداً، واضطرب اضطراباً كبيراً، وأخذ يستوقف الضيوف، فيقول لهم بصوت عالٍ:

- إنه يهاجم الحضارة، ويمجد تعصب القرن الثاني عشر؛ وهذا كله تمثيل وتظاهر وتهريج. إن ليبيديف لا يملك من طهارة القلب ونظافة اليد أيسر اليسير. قولوا لي: بأي مال أصبح مالكاً لهذا المنزل؟

وقال الجنرال في الركن المقابل لأشخاص آخرين من الحفل موجهاً الكلام إلى بتتسين خاصة وهو يقبض على زر سترته:

- لقد عرفت شارحاً حقيقياً لرؤيا القديس يوحنا، هو المرحوم جريجور سيميونوفتش بورمستروف. كان هذا يُنفذ في القلوب ما يشبه أن يكون سهماً من نار. كان يبدأ أولاً بوضع نظاراته، ثم يفتح كتاباً كبيراً قديماً مجلداً بجلد أسود. كانت له لحية شائبة، وكان يزين صدره بوسامين فاز بهما لقيامه بأعمال برّ كثيرة. كان يأخذ يقرأ بلهجة شديدة قاسية. وكان الجنرالات ينحنون أمامه وكانت السيدات تقع مغشياً عليها. أما هذا فإنه يختم كلامه بالتبشير بعشاء بارد للضيوف! شيء عجيب!

كان بتتسين أثناء إصغائه إلى كلام الجنرال يبتسم محافظاً على هيئة من يريد أن يتناول قبعته وينصرف. ولكنه كان لا يعزم أمره عليه. وقبل النهوض عن المائدة كان جانبا قد انقطع عن الشراب فجأة، ودفع الكأس بعيداً عنه، وطاقفت بوجهه سحابة فأظلم. حتى إذا نهضوا عن المائدة اقترب من روجويين وجلس إلى جانبه. فلو رآهما راءٍ لاعتقد

أنهما على خير وفاق، وأن العلاقات بينهما أحسن ما تكون العلاقات. إن روجويين الذي أوشك في البداية أن ينصرف متسللاً بهدوء ورفق، عدة مرات، يجلس الآن ساكناً خافض الرأس. كأنه هو أيضاً قد نسي اعتزامه الانصراف متسللاً. إنه غارق في أفكاره. وهو يرفع عينيه في بعض اللحظات فيتفرس في جميع الحاضرين واحداً بعد واحد. إن وضعه الآن يحمل على الاعتقاد بأنه قد أرجأ انصرافه بانتظار شيء له عنده شأن خطير.

لم يكن الأمير قد شرب إلا كأسين أو ثلاثاً. فكان فرحاً لا أكثر. فلما نهض عن المائدة وقعت عيناه على عيني أوجين بافلوفتش، فتذكر أن هناك حديثاً يجب أن يجري بينهما فابتسم هاشاً. فأوماً له أوجين بافلوفتش فجأة بحركة من رأسه، مشيراً إلى هيبوليت الذي كان نائماً على الديوان والذي كان أوجين بافلوفتش يحدّق إليه في تلك اللحظة بنظرة فاحصة.

– قل لي يا أمير؟ لماذا اندسّ هذا الصبي في بيتك؟

ألقى أوجين بافلوفتش هذا السؤال على الأمير فجأة، وفي وجهه غضب ظاهر وبغض بين، فلم يسع الأمير إلا أن يدهش.

وأضاف أوجين بافلوفتش يقول:

– أراهن أن في رأسه نية مبيتةً وغرضاً سيئاً!

فقال له الأمير:

– لقد لاحظت يا أوجين بافلوفتش، أو خيل إليّ، أنك اهتممت به اليوم كثيراً، أهذا صحيح؟

– أضف إلى ذلك أنني في الظروف الخاصة التي تحيط بي يجب أن يكون رأسي ممتلئاً بمشاغل أخرى، لذلك فأنا أول المدهوشين من أنني لم أستطع طوال مدة السهرة أن أحول بصري عن هذه الهيئة المنفرة الكريهة.

– إن وجهه جميل...

صاح أوجين بافلوفتش يقول للأمير وهو يجره من ذراعه.

– انظر، انظر، انظر...

فألقى الأمير على محدّثه نظرة مشدوّهة من جديد.

الفصل الخامس

إن هيبوليت الذي كان قد نام على الديوان فجأة بعد خطاب ليبيديف استيقظ الآن منتفضاً، كأن أحداً لكزه في جنبه؛ ارتعش، وجلس متكئاً على أحد كوعيه، ونظر فيما حوله وشحب لونه. فلما رأى من يحيطون به عبر وجهه عن شيء من الجزع، بل عن ما يشبه الذعر والهول، فقال مغموماً وهو يمسك يد الأمير:

- ماذا؟ أينصرفون؟ انتهى؟ انقضى كل شيء؟ هل طلعت الشمس؟ كم الساعة الآن؟ قل لي كم الساعة الآن، ناشدتك الله! لقد نمت. هل نمت مدة طويلة؟

أضاف هذه الجملة الأخيرة بلهجة تعبر عما يكاد يكون ألماً كبيراً ويأساً شديداً فكأنه قد فاتته أثناء النوم أمرٌ يتوقف عليه ويرتبط به مصيره كله على أقل تقدير.

أجابه أوجين بافلوفتش:

- نمت سبع دقائق أو ثماني.

فنظر إليه هيبوليت بشراهة، وفكر بضع لحظات، ثم قال:

- آ... فقط!... إذن أنا...

وتنفس الهواء بقوة كأنه تخلص من حمل ثقيل وعبء هائل. لقد فهم أخيراً أنه «لم ينته كل شيء»، وأن الفجر لما يسطع بعد، وأن الحضور لم يقوموا عن المائدة إلا ليمضوا إلى تناول وجبة العشاء الخفيفة، وأن الشيء الوحيد الذي انقطع إنما هو ثرثرة ليبيديف. فابتسم وتخضبت وجنتاه ببقعيتين حمراوين تكشفان عما به من مرض السل. ثم لم يلبث أن قال بلهجة ساخرة:

- وأنت يا أوجين بافلوفتش، لقد عددت حتى الدقائق التي قضيتها أنا نائماً! إنك لم تحول بصرك عني طوال السهرة... لقد لاحظت ذلك..

وأردف يهمس في أذن الأمير، مقطباً حاجبيه، مشيراً بحركة رأسه إلى المكان الذين كان يجلس فيه بارفيون سيميونوفتش إلى المائدة:

- آ... روجويين! لقد رأيته الآن في الحلم...

وتابع كلامه يقول قافزاً من موضوع إلى موضوع فجأة:

- ... نعم.. أين الخطيب؟ أين ليبيديف؟ هل انتهى من إلقاء خطابه إذن؟ عمّ تحدث؟ هل صحيح يا أمير أنك قلت في ذات يوم إن «الجمال» يمكن أن ينقذ العالم؟

ثم صاح يقول مُشهداً جميع الحضور:

- اشهدوا أيها السادة أن الأمير يدّعي أن الجمال سوف ينقذ العالم؛ أما أنا فأقول: إذا كان للأمير آراء تبلغ هذا المبلغ من المرح فذلك دليل على أنه عاشق! أيها السادة، إن الأمير موته حباً! لقد أيقنت بهذا منذ دخل علينا قبل مدة قصيرة! لا تحمرّ خجلاً يا أمير، وإلا أخذتني بك شفقة! أي جمال سوف ينقذ العالم؟ إن كوليا هو الذي نقل إليّ حديثك هذا... هل أنت مسيحي قوي الإيمان؟ يقول كوليا إنك أنت الذي تنعت نفسك بأنك مسيحي.

تأمله الأمير ملياً ولم يجبه.

فأضاف هيبوليت يقول فجأة بلهجة خشنة كأن هذه الملاحظة قد فاتته:

- ألا تجيب؟ أتراك تظن أنني أحبك كثيراً؟

- لا، لا أظن ذلك. أنا أعلم أنك لا تحبني.

- كيف؟ حتى بعد ذلك الذي حدث أمس؟ لقد كنت صادقاً معك أمس.

- أمس أيضاً كنت أعلم أنك لا تحبني.

- هل تعني أن سبب ذلك هو أنني أحسدك، هو أنني أغار منك؟ إنك قد ظننت هذا دائماً، وما زلت تظنه، ولكن... لماذا أكلّمك في هذا؟ أريد أن أشرب مزيداً من الشمبانيا. يا كيللر، صب لي شمبانيا!

- ما ينبغي أن تشرب أكثر مما شربت يا هيبوليت. لن أدع لك أن تشرب...

قال له الأمير ذلك، وأبعد عنه الكأس.

فلم يلبث هيبوليت أن قال موافقاً وقد شرد ذهنه:

- صحيح... إذا شربت فلا بد أن يقولوا إنني... ولكن ما شأني بما قد يقولونه!... أليس كذلك؟ هه؟ ليقولوا في المستقبل ما شاء لهم هواهم أن يقولوا، أليس هذا صحيحاً يا أمير؟ أي ضرر يمكن أن يصيبنا، جميعاً، مما قد يقولونه «بعد»؟... على كل

حال، أنا الآن خارج من حلم. ألا ما كان أفضله حلمًا! في هذه اللحظة إنما أتذكره. لا أتمنى لك أحلاماً كهذا الحلم يا أمير، رغم أنني ربما كنت لا أحبك كثيراً. على كل حال، إذا كان امرؤ لا يحب شخصاً من الأشخاص فليس حتماً عليه أن يريد له الشر، وأن يتمنى له الضرر، أليس هذا صحيحاً؟ ولكن ما بالي ألقى هذه الأسئلة كلها؟ فيم هذه الأسئلة جميعها؟ ناولني يدك فأشدّ عليها شداً قوياً. نعم، هكذا... هأنت ذا قد مددت إليّ يدك رغم كل شيء. أنت تشعر إذن أنني أشدّ عليها صادقاً مخلصاً... طيب... لن أشرب أكثر مما شربت. كم الساعة الآن؟ ولكن لا داعي أن تقولوا لي كم الساعة الآن... أنا أعرف. لقد دقت الساعة. آن الأوان. أَرَفَ الوقت. ماذا؟ هل تقدمون وجبة العشاء في ذلك الركن. هل هذه المائدة خالية إذن؟ عظيم... أيها السادة، إنني... جميع هؤلاء الناس لا يريدون حتى أن يصغوا... إنني أريد أن أقرأ مقالة يا أمير. صحيح أن وجبة الطعام أهم شأناً وأجلّ قدراً، ولكن...

قال هيبوليت هذا ثم استل من جيبه الجانبي، بطريقة مفاجئة غير متوقعة، حزمة عريضة من قياس رسمي، مختومة بخاتم كبير أحمر، ووضعها على المائدة أمامه. أحدثت هذه الحركة المباغته أثرها في الحفل، الذي كان «متهيناً»، ولكن... لا للقراءة.

نهض أوجين بافلوفتش عن كرسيه منتفضاً. واقترب من المائدة بحركة سريعة، وتبعه روجويين، لكنه ارتبك مشمئز الهيئة متجهماً الوجه كمن يعرف ما مدار القضية وما حقيقة الأمر. وكان ليبيديف قريباً فتقدّم محمّل العينين وأخذ يتفحص الحزمة محاولاً أن يحزر ما تحويه.

سأله الأمير بلهجة قلقة:

– ما هذا الذي معك؟

صاح هيبوليت يقول:

– سأرقد متى طلعت أولى أشعة الشمس يا أمير. لقد قلت ذلك. يميناً. سوف ترى!

ثم أضاف وهو يلقي حوله نظرة تحدّ كأنه يواجه بها جميع الحضور بغير استثناء:

– ولكن... ولكن... هل تظنون أنني لا أقدر أن أفضّ هذه الحزمة؟

لاحظ الأمير أن هيبوليت كان يرتجف بكل جسمه. فتكلم باسم الجميع قائلاً:

- لم يدر هذا الخاطر في ذهن أحد منا، فلماذا تنسبها إلينا وتظن أننا... ثم ما أغرب هذه الفكرة التي تراودك، وهي أن تقرأ لنا مقالة؟ ماذا بك يا هيبوليت؟

وتساءل بعضهم من حوله:

- ما هذا؟ ماذا دهاه أيضاً؟

واقترب الجميع، وكان بعضهم قد بدأ يأكل. إن الحزمة وخاتمها الأحمر يجذبان الضيوف كالمغناطيس.

قال هيبوليت يخاطب الأمير:

- هذا ما كتبته بنفسى أمس، بعد أن قطعت لك عهداً بأن أجيء إليك لأقيم عندك يا أمير. قضيت في كتابته طوال النهار والليل، وأنهيته في هذا الصباح. لقد رأيت حلماً قبل مطلع الصبح...

قاطعه الأمير يقول في خجل ووجل:

- أليس الأفضل أن ترجئ القراءة إلى غد؟

فردّ عليه هيبوليت قائلاً وهو يضحك ضحكة ساخرة متشنجة:

- غداً «لا يكون قد بقي وقت» ولا تخف على كل حال، فإن القراءة ستستغرق أربعين دقيقة، أو ساعة في أكثر تقدير. انظر إلى اهتمام الجميع بالأمر: إن كل واحد يقترب، وإن كل واحد ينظر إلى حزمتي المختومة. لولا أنني وضعت المقالة في حزمة مختومة لما أثارت أي اهتمام، ولما أيقظت في نفس أحد أي فضول. ها ها! هذه جاذبية السر!...

ثم هاتف يقول ضاحكاً ضحكته الخاصة، طائفاً على الحضور بنظرات عينيه المتقدتين:

- أأفض أم لا أفض أيها السادة؟ سر! سر! هل تتذكر يا أمير من ذا الذي أعلن أنه «لن يكون قد بقي وقت»؟ إنه الملاك الكبير القوي الذي تحدثنا عنه رؤيا يوحنا.

هتف أوجين بافلوفتش فجأة يقول وقد ظهر عليه قلق بلغ من الشدة أنه خطف انتباه كثير من الأشخاص:

- الأفضل أن لا تقرأ!

وصاح الأمير يقول أيضاً وهو يضع يده على الحزمة:

— لا تقرأ!

وقال أحدهم:

— ماذا؟ الآن نقرأ؟ إننا نريد أن نتعشى!

وسأل آخر:

— مقالة؟ لا بدّ أنها مقالة لمجلة، هه؟

وسأل الآخرون:

— ولكن ما الأمر، ما المسألة؟

إن حركة التخوف التي بدرت من الأمير قد أرهبت حتى هيبوليت نفسه! فقال يسأل الأمير همساً، بلهجة خائفة، بينما كانت تلم بشفتيه المزرقتين ابتسامة متصعّرة:

— ألا أقرأ إذن؟...

ثم دمدم سائلاً وهو يتفحص حوله جميع الأعين وجميع الوجوه، محاولاً أن يشدّ إليه الناس، كما فعل منذ لحظة، شاعراً بحاجة شرهة إلى البوح والإفشاء:

— ألا أقرأ إذن؟

وعاد يلتفت نحو الأمير مرة أخرى ويسأله:

— أأنت... خائف؟

فأجابه الأمير وكانت سحنته تنقلب وتتغير من دقيقة إلى أخرى:

— مم أخاف؟

فما كان من هيبوليت إلا أن وثب من مكانه على حين فجأة، كأنه انتزع من كرسيه انتزاعاً، وصاح يسأل:

— هل يعطيني أحد قرشاً؟ هل مع أحد منكم قطعة نقد بعشرين كويكاً؟

فأسرع ليبيد يف يناوله قطعة النقد قائلاً:

— خذ!

لقد استولى على ذهن ليبيديف أن المريض فقد عقله وأصابه جنون.

وسرعان ما صاح هيبوليت منادياً:

- فيرا لوكيانوفا. أمسكي هذا القرش وارميه على المائدة، ثم انظري: هل سقط على وجهه أم على قفاه. فإن سقط على قفاه قرأت!

نظرت فيرا، مذعورة، إلى القرش فألى هيبوليت فألى أبيها، ثم رفعت رأسها لاعتقادها بأن عليها أن لا ترى القرش، ورمته على المائدة بحركة خرقاء. لقد سقط القرش على قفاه.

فدمدم هيبوليت يقول وكأن قرار الحظ هذا قد سحقه سحقا:

- يجب أن أقرأ.

ما كان لهيبوليت أن يصطبغ وجهه بهذه الصفرة الرهيبة ولو سمع قرار الحكم عليه بالإعدام.

هتف يقول مرتعشاً بعد نصف دقيقة من الصمت:

- ما معنى هذا على كل حال؟ كيف أمكن أن أقامر بمصيري؟

وألقى على الحضور نظرة دائرة تفصح عن تلك الرغبة نفسها في البوح والإفشاء، وفي التماس الانتباه والاهتمام. ثم التفت نحو الأمير فجأة وهتف يقول بلهجة فيها دهشة صادقة:

- هذه سمة غريبة من سمات النفس يا أمير...

وكرر يقول منتعشاً بلهجة إنسان ثاب إلى نفسه:

- سجلّ هذا وتذكره، ما دمت تجمع معلومات ومستندات عن الحكم بالإعدام، فيما قيل لي... لقد قيل لي هذا... ها ها!... هه... يا للسخف!...

وجلس على الديوان، وأسند كوعيه إلى المائدة، وأمسك رأسه بين يديه. وتابع يقول:

- بل.. ويا للعار!... ولكن ما يضيرني أن يكون في هذا عار!...

وسرعان ما رفع رأسه فقال كمن انصاع لقرار مفاجئ:

- أيها السادة، أيها السادة... إنني أفض حزمتي، و... و... لا أجبر أحداً على الإصغاء!

وبيدى مرتعشتين من شدة الانفعال فض الحزمة وأخرج منها ورقات من ورق الرسائل، مطرزة بكتابة صغيرة دقيقة، فوضعها أمامه وأخذ يفتحها.

دمدم عدد من الحاضرين يقولون عابسين:

— ما هذا؟ ماذا هنالك؟ ماذا يراد أن يقرأ علينا؟

ولزم آخرون الصمت، ولكن الجميع ظلوا جالسين يرقبون المشهد باهتمام واستطلاع. لعلهم كانوا ينتظرون وقوع حادث خارق فعلاً. وقد تشبثت فيرا بكرسي أبيها، وكانت تشعر بخوف يبلغ من الشدة أنها لا تكاد تستطيع أن تحبس دموعها. ولم يكن كوليا أقل ارتياحاً. أما ليبيديف الذي كان قد جلس، فإنه نهض فجأة، فتناول شموعاً وقربها من هيبوليت ليستطيع هيبوليت أن يقرأ بوضوح أكبر.

أضاف هيبوليت يقول، لا يدري المرء لماذا:

— أيها السادة، هذا... سوف ترون ما هذا فوراً..

ثم انتقل إلى القراءة رأساً بلا تمهيد، فقرأ: «شرح لا غنى عنه»، تصدير: «من بعدي الطوفان». لكنه لم يلبث أن قال بلهجة من شعر بنار تلسعه: أف... كيف أمكن أن أصدر مقالتي بقول يبلغ هذا المبلغ من الغباء والحمق؟... ثم اتجه إلى الحضور فقال لهم:

— اسمعوا أيها السادة!...ؤكد لكم أن هذا كله قد لا يكون في آخر حساب إلا تفاهات وترهات شنيعة!... ما هذه إلا خواطر جالت في رأسي أنا... فإذا كنتم تتوقعون شيئاً سرياً أو... محظوراً، أي...

فقاطعه جانباً قائلاً:

— الأفضل أن تقرأ بغير تمهيد..

وأضاف آخر يقول:

— إنه يلف ويدور.

وقال روجويين الذي ظل أخرس حتى ذلك الحين:

— هذا بعينه ما يسمى هذراً وثرثرة!

فنظر إليه هيبوليت فجأة. فما إن التقت نظراتهما حتى ابتسم روجويين ابتسامة مرّة

لاذعة، ثم نطق بهذه الأقوال الغريبة:

- ما هكذا يجب التصرف، في هذه القضية، أيها الصبي، لا...

ما من أحد فهم ما يعنيه روجويين طبعاً. ولكن جملته أحدثت في الحضور تأثيراً خاصاً: لكأن فكرة واحدة ساورت أذهانهم جميعاً. أما في هيبوليت فقد أحدثت هذه الجملة تأثيراً رهيباً: أخذ يرتجف ارتجافاً بلغ من القوة أن الأمير هم أن يمدّ نحوه يديه ليحميه من السقوط؛ وكان لا بدّ أن يصرخ حتماً لولا أن ظل صوته محبوساً في حلقة. ولبت دقيقة بكاملها لا يستطيع أن ينطق بكلمة. كان يتنفس بمشقة، ولا يحول عن روجويين بصره. فلما استطاع أخيراً أن يسترد أنفاسه بجهود كبيرة نطق يقول مجمماً:

- إذن أنت... الذي... أنت الذي...

- الذي ماذا؟

كذلك سأله روجويين بهيئة من لم يفهم.

ولكن هيبوليت احمرّ احمراراً شديداً، وصرخ يقول بصوت كاسر وحشي، يدفعه إليه نوع من حنق مسعور مفاجئ:

- «أنت» الذي جئت إليّ في الأسبوع الماضي، ليلاً، بعد الساعة الواحدة، غداة ذلك اليوم الذي زرتك فيه. هو «أنت»! اعترف بذلك: أنت أم لا؟

- الأسبوع الماضي؟ ليلاً؟ أتراك فقدت عقلك أيها الصبي؟

سكت «الصبي» لحظة أخرى، ثم رفع إبهامه إلى جبينه كمن يستجمع خواطره. ولكن تعبيراً عن المكر وحتى عن الفوز برز في وجهه فجأة من تحت ابتسامته الصفراء التي جمدها الخوف. وكرر يقول بصوت يكاد يكون همساً، ولكن بلهجة فيها اقتناع كامل مطلق:

- أنت! (أنت) جئت إليّ! لبثت جالساً على كرسي قرب النافذة ساعة بل أكثر من ساعة: كان ذلك بين منتصف الليل والساعة الثانية. وانصرفت قبل الساعة الثالثة... نعم، أنت أنت! لماذا أخفتني؟ لماذا جئت تعذبني؟ إنني لا أفهم هذا... ولكنك أنت الذي جئت إلي!

واشتعل في نظراته وميض بغض على حين فجأة، ولكنه ظل يرتعد هلعاً. وقال:

- فوراً أيها السادة، ستعلمون كل شيء... إنني... إنني... اصغوا إلي..

وأسرع يتناول أوراق مخطوطته التي كانت قد تحركت من مكانها وتبعثرت، فأخذ يحاول ترتيبها. وكانت الأوراق ترتعش بين أصابعه المرتجفة، فقضى في ترتيبها وقتاً.

غمغم روجويين يقول بصوت لا يكاد يفهم:

- إما أنه مجنون، وإما أنه يهذي...

وبدأت القراءة أخيراً. ففي الدقائق الخمس الأولى لقي كاتب «المقالة» التي لم تكن في الحسبان، لقي عناء كبيراً في استرداد أنفاسه، فكان يقرأ قراءة مفككة متفاوتة. لكن صوته ثبت وقوي شيئاً بعد شيء، فاستطاع أن يؤدي معنى ما كان يقرؤه أداء كاملاً. كل ما هنالك أن سعلاً شديداً كان يقطع القراءة من حين إلى حين؛ ولما وصل من القراءة إلى نصفها كان صوته قد أصيب ببحّة قوية. وكانت حماسه تشتدّ مزيداً من الاشتداد لحظة بعد لحظة حتى بلغت الذروة، وكان الإحساس الأليم الذي يحدثه في نفوس مستمعيه يقوى لحظة بعد لحظة بتلك السرعة نفسها. وإليك نص المقالة كاملاً:

«شرح لا غنى عنه»

«من بعدي الطوفان»

«في صباح أمس، جاءني الأمير. فاقترح علي، فيما اقترح، أن أقيم عنده في الفيلا. كنت أعلم أنه لن يفوته أن يلحّ علي هذه النقطة. كنت على يقين من أنه سيقول لي فوراً «إن الأفضل لي أن أموت محاطاً بالناس والأشجار». على حد تعبيره. لكنه في هذا اليوم لم يستعمل كلمة «أموت»، بل قال «إن الأفضل لي أن أعيش هناك»، والأمران في حالتي أمر واحد على كل حال. سألته ماذا يعني بكلمة «الأشجار» التي يكثر من استعمالها هذا الإكثار، ولماذا يصدّع أذنيّ بها دائماً. فما كان أشدّ دهشتي حين سمعته يجيبني بأنني أنا الذي صرحت في مساء فائت بأنني جئت إلى بافلوفسك لأرى الأشجار مرة أخيرة فذكرت له أنه يستوي عندي تماماً أن أموت تحت الأشجار أو أن أموت وأنا أنظر إلى حائط من الآجر أمام نافذتي. فلا حاجة بي إلى هذا العناء كله وإلى هذا الاحتفال كله في سبيل أسبوعين اثنين بقيا لي في هذه الحياة. فسرعان ما وافقني على هذا الرأي، لكنه قدرّ أن الخضرة والهواء الطلق سيؤثران في حالتي الجسميّة تأثيراً حسناً ولا ريب، وسيبدّلان «أحلامي» وسيغيّران نتائج فرط اهتياجي حتى لقد يجعلانها محتملة. فاعترضت عليه من جديد وقلت له ضاحكاً إنه يتكلم كما يتكلم رجل مادي

المذهب. فأجابني وهو يبتسم ابتسامته المألوفة بأنه كان دائماً مادي المذهب. وإذا إنه رجل لا يكذب، فلا شك أن قوله هذا ليس كلاماً جزافاً ألقاه في الهواء. إن ابتسامته طيبة. وقد أنعمت النظر فيه عندئذ بمزيد من الانتباه. لا أدري أنا الآن أحبه أم لا أحبه. ولا يتسع وقتي الآن لأن أصدع رأسي بمثل هذا السؤال. إن الكره الذي كنت أحمله له منذ خمسة أشهر - لاحظوا هذا - قد أخذ يهبط هبوطاً تاماً أثناء هذا الشهر الأخير. من يدري؟ لعلي لم أذهب إلى بافلوفسك إلا في سبيل أن أراه. ولكن... لماذا تركت غرفتي إذن؟ إن المحكوم عليه بالإعدام يجب أن لا يبارح الركن الذي هو فيه. فلو أنني لم آخذ قراراً حاسماً، لو أنني - على عكس ذلك - أذعنت لفكرة انتظار ساعتَي الأخيرة، إذن لما رضيت أن أجيء «أموت» عنده في بافلوفسك.

«يجب أن أسارع لأنهي هذا «الشرح» كله حتماً قبل الغد. معنى ذلك أنني لن أملك من الوقت ما يتيح لي إعادة قراءته ويسمح لي بتصحيحه وتنقيحه. سوف أعيد قراءته غداً حين أقرؤه على الأمير وعلى شاهدين أو ثلاثة شهود أمل أن أجدهم عنده. وإذا إن هذا الكلام لن يشتمل على كلمة واحدة ليست هي الحقيقة الصافية العليا الصريحة، فإنني ليهمني كثيراً أن أعرف الإحساس الذي سأشعر به أنا نفسي حين سأقرؤه عليهم. على أنني أخطأت إذ كتبت هذه الكلمات: «الحقيقة العليا الصريحة»، فإن حياة لن تدوم إلا خمسة عشر يوماً لا تستحق أن يحياها المرء (حاشية - هذه فكرة يجب أن لا تغيب عن البال: ألسنت مجنوناً في هذه اللحظة، أو قولوا في بعض اللحظات؟ لقد أكد لي بعضهم أن المرضي بداء السل، حين يصلون إلى آخر مرحلة من مراحل مرضهم، تختل عقولهم في بعض اللحظات. يجب التثبت من هذا غداً بالأثر الذي تخلفه في نفوس السامعين قراءة هذا الكلام. هذه مسألة يجب أن تُحل أدق حل مهما كلف الأمر. وبدون ذلك لا يستطيع المرء أن يشرع في شيء أو أن يعمل شيئاً».

«يخيل إليّ أنني قد كتبت الآن سخافة كبيرة. غير أن وقتي لا يتسع للتصحيح، كما سبق أن قلت ذلك من قبل. ثم إنني أتعهد لنفسي عامداً أن أترك هذه المخطوطة خالية من أي تصحيح، حتى ولو لاحظت أنني أناقض نفسي بنفسي كل خمسة أسطر. فإنما أريد أن أمتحن منطق تفكيري، وأن أتأكد من أنني ألاحظ أخطائي، غداً عند القراءة. فبذلك أعرف هل الأفكار التي أنضجتها في هذه الغرفة خلال هذه الأشهر الستة، حقيقة صادقة أم هذيان باطل.

«لو وجب علي، منذ شهرين، أن أهجر غرفتي هجراً تاماً، كما سأفعل الآن، وأن أودع حائط ماير، لكنت شعرت بحزن حتماً. أما الآن فقد أصبحت لا أشعر بشيء رغم أن

عليّ أن أترك هذه الغرفة وهذا الحائط «إلى الأبد»!. معنى هذا أن كياني يستحوذ عليه الآن اقتناع بأن حياة أسبوعين لا تستحق أن تمتلئ نفس المرء فيها بمشاعر الأسف والحسرة، وأن ينقاد المرء أثناءها لأي عاطفة من العواطف. ولعل جميع حواسي أصبحت تخضع لهذا الاقتناع منذ الآن. ولكن هل هذا صحيح حقاً؟ هل صحيح أن طبيعتي قد تم لي قهرها وتحققت لي السيطرة عليها؟ لو أنزل بي تعذيب في هذه اللحظة لأخذت أصرخ حتماً، ولما قلت إن المرء ما ينبغي له أن يصرخ ولا أن يشعر بالألم إذا لم يكن قد بقي له من الحياة إلا خمسة عشر يوماً.

«ومع ذلك، هل صحيح أنني لم يبق لي من الحياة إلا خمسة عشر يوماً لا أكثر؟ إن ما رويته في بافلوفسك كان كذباً: «إن ب...ن»^[14] لم يقل لي شيئاً البتة، حتى إنه لم يرني في يوم من الأيام. غير أنني قد جئ لي منذ أسبوعين بالطالب كيسلورودوف. إنه شاب مادي المذهب، ملحد، عدمي. ومن أجل هذا إنما طلبت أن يؤتى به إلي. كنت في حاجة إلى إنسان يقول لي أخيراً الحقيقة صافية صريحة بلا مداراة أو مراعاة، وبلا تصنع أو تكلف. وذلك ما فعله. ولم يفعله متعجلاً بغير لفّ ودوران فحسب، بل فعله وهو يشعر بلذّة ظاهرة واضحة أيضاً (لذّة جاوزت الحدود في رأيي). لقد أعلن لي بغلظة وقسوة إنني قد بقي لي من الحياة نحو شهر؛ وربما طال عمري أكثر من ذلك قليلاً إذا ساعدت الظروف، ولكن قد يكون ما بقي لي من عمر أقل كثيراً من شهر. وهو يرى أن من الجائز أن أموت على حين غرة، في غدٍ مثلاً. فهذا أمر حصل مثله. فأمس الأول كانت سيدة شابة مصابة بداء السل، وهي تقطن حي كولومنا وتشبه حالتها حالي، كانت تنتهي للذهاب إلى السوق من أجل أن تشتري مؤناً لها، فإذا هي تشعر فجأة بإعياء، فلما اضطجعت على أريكة لترتاح زفرت زفرة وأسلمت روحها. لقد روى لي كيسلورودوف هذه التفاصيل كلها وهو يتصنع نوعاً من عدم التأثر وقلة الاكتراث، كأنه يشرفني بأن يعدني، أنا أيضاً، رجلاً متفوقاً يذهب مذهب الجحود مثله، ولا يؤلمه البتة أن يبارح هذه الحياة. المهم أن هناك أمراً أصبح ثابتاً هو أن ما بقي لي من حياة لا يزيد عن شهراً فأنا مقتنع بأنه من هذه الناحية لم يخطئ.

«ولقد دهشت كثيراً حين حزر الأمير أنني أرى أحلاماً ثقيلة، وأنني أعاني أثناء النوم من كوابيس. فقال ما نصّه حرفاً حرفاً «إن نتائج فرط احتياجي وأحلامي ستتغير في بافلوفسك». لماذا تكلم عن أحلامي؟ نعم، إنه طيب، أو إنه يملك فكراً ذا نفاذ خارق قادر على أن يحزر أموراً كثيرة (وأما أنه رغم كل شيء أبله، فهذا لا مجال للشك فيه). والحق إنني قبل وصوله بقليل كنت قد رأيت حلماً جميلاً (من تلك الأحلام التي

أرى في هذه الآونة مئآت منها!). كنت قد نمت قبل زيارته بساعة فيما أظن، فرأيتني في غرفة ليست غرفتي. إنها أرحب من غرفتي سعة، وأعلى سقفاً، وأحسن أثاثاً، ويدخلها النور. الأثاث يتألف من خزانة للملابس، ومنضدة ذات أدراج، وديوان، وسرير. والسرير واسع عريض، له غطاء أخضر من حرير مضلّع. وإني لفي هذه الغرفة إذا أنا أرى حيواناً مرعباً لا عهد لي بمثله، فهو ليس من الحيوانات الطبيعية. إنه يشبه عقرباً، ولكنه ليس بعقرب. هو شيء أبشع من العقرب وأشنع وأدعى إلى النفور وأبعث على الاشمئزاز. واعتقدت أن ثمة سراً في عدم وجود حيوانات من هذا الجنس في الطبيعة، وفي أن واحداً منها قد ظهر عندي مع ذلك خصيصاً! تفحصت الحيوان ملياً: هو نوع من الزواحف: يكسوه درع كدرع السلحفاة داكن، يبلغ طوله نحو عشرين سنتيمتراً، ويبلغ سمك رأسه أصبعين، ولكن جسمه يستدق تدريجياً حتى الذنب فلا يكاد يبلغ سمك ذيله نصف سنتيمتر. وعلى بعد خمسة سنتيمترات من الرأس تخرج من جسمه قدمان يبلغ طول كل منهما عشرة سنتيمترات، وتنفرجان بزاوية قدرها خمس وأربعين درجة. فإذا نظرت من فوق، ظهر لك الحيوان كله في صورة من ذات ثلاثة أفرع. لم أر رأسه رؤية واضحة جداً، ولكنني لاحظت في الرأس مجستين قصيرين جداً، دكناوين هما أيضاً، يشبهان إبرتين ضخمتين. وفي آخر الذيل يرى مجستان مماثلان، وكذلك في نهاية كل قدم. فيكون مجموع المجسات ثمانين. وكان الحيوان يجري جرياً سريعاً جداً في أرجاء الغرفة كلها، مستعيناً بقدمه وذنبه؛ وفيما هو يجري، يتلوى جسمه وتتلوى أعضاؤه كحية من الحيات بسرعة خارقة، رغم الدرع الذي يكسو ظهره. منظر مروّع رهيب. خفت خوفاً فظيلاً من أن يلسعني هذا الحيوان، فقد قيل له إنه سام. غير أن ما كان يعذبني أكثر من أي شيء آخر هو أن أعرف من الذي أرسله إلى غرفتي، وما هي المكيدة التي تدبر لي، وماذا وراء هذا السر. وكان الحيوان يختبئ تحت المنضدة ذات الأدراج، وتحت خزانة الملابس، ويعتصم بأركان الغرفة. جلست على كرسي وثنيت ساقيّ تحتي. وأسرع الحيوان يقطع الغرفة على مسار مائل، ويختفي في مكان ما قرب الكرسي الذي أجلس عليه. بحثت عنه بعيني مرتاعاً، لكنني وقد جعلت ساقيّ تحتي جسمي، كنت أمل أن لا يتسلق الكرسي. فإذا أنا أسمع ورائي زفيراً خفيفاً قرب نقرتي. فالتفت فإذا أنا أرى الحيوان يتسلق الجدار. وكان قد وصل من تسلقه الجدار إلى مستوى رأسي، حتى لقد لامس شعري بذنبه الذي كان يتموج بخفة قصوى. فما كان مني إلا أن وثبت، فاختفى الحيوان الغريب. لم أجرو أن أضطجع على السرير، خشية أن يتسلل فيندس تحت المخدة. وعندئذ دخلت الغرفة أمني وامرأة أخرى من صاحباتها لا أعرفها. وأخذتا تطاردان الحيوان الزاحف. كانتا أهدأ مني، بل كان لا يظهر عليهما أي رعب، ولكنهما

لم تفهما من الأمر شيئاً. وفجأة ظهر الحيوان العجيب من جديد. فكان في هذه المرة يزحف بحركة بطيئة جداً كأنه يضم نية خاصة. إن تلوياته التي تنم عن قلة الاكتراث تزيد منظره الآن بشاعة، وتجعله أبعث على الاشمئزاز. وقطع الغرفة من أولها إلى آخرها كالمرة الأولى، متجهاً نحو العتبة. وفي تلك اللحظة فتحت أمي الباب، ونادت كلبتنا نورما. إن نورما كلبة سوداء جعداء الشعر، ماتت منذ خمس سنين. هرعت الكلبة إلى الغرفة ووقفت أمام الحيوان كالمتجمدة رعباً، وتوقف الحيوان هو أيضاً عن التقدم، لكنه ظل يتلوى ويضرب أرض الغرفة بقدميه وطرف ذيله. إن الحيوانات لا تستبد بها مخاوف غيبية فيما أظن. ولكن بدا لي في تلك اللحظة أن في ارتياح نورما شيئاً غريباً كل الغرابة، غيبياً إلى أبعد الحدود. فكأنها أدركت مثلي أن ظهور هذا الحيوان يشتمل على سر وينذر بشؤم. فتقهقرت ببطء بينما أخذ الحيوان يتقدم محاذراً بخطى محسوبة معدودة. كانت هيئته تدل على أنه يستعد للوثوب على الكلبة من أجل أن يلسعها. ولكن نورما، رغم ذعرها ورغم أن جميع أعضائها كانت ترتعش ارتعاشاً قوياً، حدقت إلى الحيوان بعينين تفيضان حنقاً. وأخذت في لحظة من اللحظات تكشف عن أنيابها المموجة الرهيبة شيئاً بعد شيء، ثم فتحت بوزها الضخم الأحمر، ووثبت إلى أمام، فانقضت على الحيوان بعزم شديد، وتلقفته بأسنانها. ويبدو أن الحيوان بذل جهداً كبيراً ليخلص نفسه، لأن نورما انقضت عليه ثانية وتلقفته بفيكيها مرتين كأنها تحاول أن تبلعه. وقرقع الدرع متكسراً تحت أسنانها، وظل ذيل الحيوان وقدماه في خارج فمها تتحركان تحركاً مرعباً. وفجأة صرخت نورما صرخة توجع وشكوى. فقد استطاع الحيوان أن يلسع لسانها رغم كل شيء... وانفجرت أنياب الكلبة وهي تنن من الألم، فرأيت الحيوان في فمها شبه مهشم وما يزال يتخبط؛ ومن جسمه المبتور يسيل على لسان الكلبة سائل أبيض غزير يشبه السائل الذي يخرج من خنفساء حين تُسحق... وفي تلك اللحظة إنما استيقظت من نومي ودخل علي الأمير».

هنا قطع هيبوليت قراءته فجأة وكأنه يشعر بخجل:

- إنني أيها السادة لم أراجع المقالة، ويخيل إلي أنني ضمننتها أشياء كثيرة لا داعي إليها ولا فائدة منها، أعترف بذلك!... إن هذا الحلم..

فأسرع جانبا يقول:

- اعترافك صحيح.

- إنني أسلم بأن وهنا إحساسات شخصية كثيرة مسرفة في الكثرة... أقصد: إحساسات لا علاقة لها إلا بشخصي...

حين قال هيبوليت ذلك كان يبدو عليه الإعياء والإرهاق، وكان يجفف عرق جبينه بمنديله.

قال ليبيديف بصوت صافر:

- صحيح أيها السيد! إنك مفرط في الاهتمام بنفسك!

- ولكنني أعود فأكرر أيها السادة أنني لا أجبر أحداً على الإصغاء فالذين لا يريدون أن يسمعوا يستطيعون أن ينسحبوا...

جمجم روجويين بصوت لا يكاد يُدرك:

- يطرد الناس... من بيت غيره!

وانبرى فردشتينكو يقول بعد أن لم يتجاسر أن يرفع صوته حتى ذلك الحين:

- فما قولك إذا نهضنا جميعاً لننصرف؟

فخفض هيبوليت عينيه وأمسك مخطوطته. ولكنه لم يلبث أن رفع رأسه فوراً. كانت حدقاته تسطعان، وكانت وجنتاه مصطبغتين ببقعتين حمراوين. حدّق إلى فردشتينكو وقال له:

- أنت لا تحبني البتة!

فانطلقت ضحكات، لكن أكثر الحضور لم يستجيبوا لها. واحمر هيبوليت احمراراً رهيباً.

قال الأمير:

- يا هيبوليت، لم أوراقك واعطنيها. واذهب إلى النوم، هنا في غرفتي. سنتحدث قبل أن ننام ونستأنف الحديث غداً، ولكن على شرط أن لا تعود إلى هذه الأوراق، هل تريد؟

قال هيبوليت وهو يلقي نظرة تعبر عن الدهشة حقاً:

- أهذا ممكن؟ "

وأضاف يقول صائحاً وقد استبدّت به نوبة جديدة من احتياج محموم:

- أيها السادة، لم يكن ما قرأته عليكم إلا جزءاً عرضياً تافهاً من قصتي، جزءاً لم أستطع أن أسيطر فيه على نفسي، وأتحكم بقلممي.. لن أقطع قراءتي بعد الآن. فمن أراد

أن يصغي فليصغ...

قال ذلك وأسرع يبلع جرعة ماء، ويضع كوعيه على المائدة ليتحاشى النظرات، واستأنف يقرأ في عناد. على أن خجله لم يلبث أن تبدد.

«إن الفكرة التي تذهب إلى أن الحياة التي لن تدوم إلا بضعة أسابيع لا تستحق من المرء أن يحيها، إنما أخذت تحاصرني منذ شهر فيما أظن، وذلك حين أصبحت أقدر أنني لم يبق لي من الحياة إلا أربعة أسابيع. لكنها لم تستحوذ عليّ استحواداً كاملاً إلا منذ ثلاثة أيام، في ذلك المساء الذي عدت فيه من بافلوفسك.

«لقد شعرت بنفاذ هذه الفكرة إلى أعماق أعماق نفسي أول مرة، يوم كنت جالساً على الشرفة في بيت الأمير فقررت أن أجرب الحياة تجربة أخيرة. كنت قد أردت أن أرى الناس والأشجار (لنسلم بأنني أنا الذي استعملت هذا التعبير). وكنت قد تحمست مدافعاً عن بودروفسكي «قريبى»، متوهماً أن جميع الحضور سيفتحون لي أذرعهم ويعانقونني، وأنهم سيسألونني الصفح والعفو، وأنني سأسألهم مثل ذلك أيضاً. باختصار: لقد انتهيت من كلامي غيباً بليداً بلا عبقرية. وعندئذ إنما انكشف في نفسي ذلك «اللاقتناع الكامل». وإني لأتساءل الآن كيف أمكن أن أعيش ستة أشهر بكاملها دون أن يتحقق لي ذلك «اللاقتناع»! لقد كنت أعلم علم اليقين أنني مصاب بسل لا شفاء منه؛ لم أكن مأخوذاً بوهم الصحة والعافية، بل كنت أرى حالتي رؤية واضحة لكنني كنت أزداد نهماً إلى الحياة على قدر ازدياد الوضوح في معرفة واقعي ورؤية حالتي. كنت أتشبث بالحياة مزيداً من التشبث، وكنت أريد أن أطيلها على أي نحو من الأنحاء. أعترف بأنني لعلني سخطت حينذاك على القدر الغاشم المظلم، الذي كان أعمى عن رؤية وضعي وكان أصم عن سماع صوتي، والذي قرر - لا أدري لماذا - أن يسحقني سحق ذبابة. ولكن لماذا لم أكتفي بالسخط وحده؟ لماذا «بدأت» أعيش فعلاً، مع أنني أعلم أن ذلك غير مباح لي؟ لماذا انقادت لتلك المحاولة وأنا أعرف أنها لن تثمر؟ ومع ذلك انتهى بي الأمر إلى أن أصبحت لا أستطيع أن أقرأ كتباً، وعدلت عن القراءة. علام أقرأ؟ علام أعلم ولم يبق من الحياة إلا ستة أشهر؟ إن هذه الفكرة قد جعلتني أرمي عدة مرات الكتاب الذي بدأت قراءته.

«نعم، إن حائط منزل ماير ذاك يستطيع أن يحدث طويلاً عن هذه الأمور. لقد طبعت عليه أشياء كثيرة. ليس على هذا الحائط القدر بقعة واحدة إلا حفظتها على ظهر القلب وصرت أعرفها بالذاكرة. يا للحائط النحس! ومع ذلك فهو أغلى في نفسي وأحب إلى قلبي من جميع أشجار بافلوفسك، أو قل لا بد أن يكون كذلك لولا أن

جميع الأمور أصبحت في نظري سواء!

«إنني أتذكر الآن شدة اهتمامي الشره النهم بمتابعة حياتهم (هم)، لم أشعر قبل ذلك بمثل ذلك الفضول في يوم من الأيام. حتى لقد كنت أنتظر عودة كوليا على أحرّ من الجمر من نفاذ الصبر وشدة الغضب في بعض الأحيان، أيام بلغ بي المرض حداً أقعدني عن الخروج فلا أستطيع أن أغادر غرفتي. وأخذت أتسقط التفاصيل الصغيرة تسقطاً يبلغ من الشراهة، وأهتم بالأقاويل التافهة اهتماماً يبلغ من القوة، إنني أصبحت فيما أعتقد كواحد من أولئك الذين يروجون الشائعات ويذيعون النائم. كنت لا أفهم مثلاً كيف لا يظفر الناس الذين يملكون كل ما يملكون من حياة، كيف لا يظفرون بالغنى والشراء (والحق أنني إلى الآن لا أفهم هذا). لقد عرفت رجلاً عجيباً مسكيناً قيل لي، فيما بعد، إنه مات من الجوع. إنني لأتذكر كيف أن هذا النبأ أثار غضبي وأخرجني عن طوري، فلو بُعث ذلك الشقي حياً لانقضضت أجهز عليه في أغلب ظني.

«كان يتفق لي في بعض الأحيان أن أشعر بتحسن في صحتي خلال أسابيع طويلة، فأستطيع أن أنزل إلى الشارع. غير أن الشارع أصبح يثير حنقي حتى صرت أقبع في بيتي بإرادتي أياماً كاملة. رغم أنني كان في وسعي أن أخرج كما يخرج سائر الناس. أصبحت لا أطيق أن أرى أولئك الخلق الذين يسعون ويضطربون من حولي على الأرصفة، ويغورون ويغلون، مهمومين مغمومين دائماً، متجهمين قلقين بغير انقطاع. علام يحزنون هذا الحزن السخيف المستمر، ويضطربون هذا الاضطراب الباطل المتصل، ويعبسون ذلك العبوس الحانق الذي لا يهدأ ولا يسكن (ذلك أنهم أشرار، أشرار)؟ من المذنب إذا هم كانوا أشقياء تعساء، وإذا هم كانوا لا يعرفون كيف يحيون، مع أن آفاق أملهم في الحياة تمتد ستين عاماً إلى أمام؟ لماذا رضي زارنتسين أن يموت جوعاً، مع أن أمامه ستين سنة يمكن أن يعيشها؟ وهكذا كل واحد يبدي أسماله الرثة ويظهر يديه الكنباوين^[15] فيغضب ويصيح متشكياً: «ها نحن أولاء نعمل كما تعمل الأبقار، ونتعب وننصب، ونجوع ونسغب كالكلاب، ونجر معنا البؤس جراً، بينما يوجد أناس آخرون لا يعملون، ولا يحملون أنفسهم أي عناء ثم هم أغنياء! (الأغنية الأبدية!)». وعلى موازاة هؤلاء، يسعى ويركض ويتحرك ويضطرب، من الصباح إلى المساء، كادح بائس، متغضن الوجه، لكنه «نبيل المحتد» هو إيفان فومتش سوريكوف القاطن في الطابق الذي يقع فوق طابقنا من المنزل. إن كوعي كمّيه مثقبان دائماً، وإن أزرار ملابسه مخلعة. وهو يتولى عن الناس شراء ما يحتاجونه، ويقوم بأعمال لا أدري ما هي، وينفق في ذلك يومه كله من الصباح إلى المساء. حاولوا أن تتحدثوا معه:

سوف يقول لكم إنه «فقير، بائس؛ وإن زوجته ماتت لأنه لم يجد ما يشتري لها به دواء، وإن ابنه الصغير مات في الشتاء متجمداً من البرد؛ وإن ابنته الكبرى تلتمس رزقها عند الرجال»... إنه يئن ويتوجع، ويشكو ويبكي بغير انقطاع. آه... إنني لم أشعر بأية شفقة، لا في ذلك الحين، ولا في هذا الوقت، نحو هؤلاء الأغبياء الحمقى... وأقول هذا فخوراً معتزلاً! لماذا لا يكون هذا الفرد رجلاً مثل روتشيلد؟ من المذنب إذا كان لا يملك ملايين مثل روتشيلد، إذا كان لا يملك جبلاً من الدنانير الإمبراطورية^[16] أو من الليرات الذهبية النابوليونية، جبلاً لا يقل ارتفاعه عن ارتفاع الجبل الذي نراه في المعرض أثناء الكرنفال؟ ما دام قادراً على أن يحيا، فإن كل شيء في طاقته. من المذنب إذا كان لا يفهم ذلك؟

«آه... لقد تساوت في نظري جميع الأمور الآن، ولم يبق في وقتي متسع لأن أغضب. أما في ذلك الحين، فقد كنت، كما سبق أن قلت ذلك، أعض على وسادتي حنقاً، وأمزق غطائي سخطاً وغيظاً. آه.. يا للحلم الذي كنت أحلمه حينذاك، ويا للأمنية التي كنت أتمناها! لقد كنت أتمنى راضياً مسروراً أن أرمى إلى الشارع فوراً، وأنا في الثامنة عشرة من عمري، أن أرمى شبه عار لا يكاد يسترني شيء، وأن أترك وحيداً وحدة مطلقة، بلا مسكن ولا عمل ولا لقمة عيش، ولا أهل ولا صاحب واحد، ولا أي إنسان أعرفه، في المدينة الكبيرة، جائعاً مضروباً (لا بأس!...)، ولكن صحيح الجسم غير مريض...

«ما الذي يمكنني أن أظهره في تلك الحالة؟».

«آه.. هل تتصورون أنني لا أعني مدى الانحطاط والإسفاف الذي بلغته قبل أن أقول هذا الكلام في «الشرح» الذي أقدمه؟ فمن ذا الذي لا يعدني والحالة هذه فتى ساذجاً غراً، غريباً عن الحياة، ناسياً أن عمري ليس ثماني عشرة سنة فحسب، لأن الذي يحيا كما حييت خلال هذه الأشهر الستة إنما يكون قد عاش إلى السن التي يشيب فيها الشعر؟ ولكن اسخروا إذا شاء لكم هواكم أن تسخروا، وانظروا إلى هذه الأشياء كلها نظرتكم إلى حكايات! وما هي في الواقع إلا حكايات حكيته لنفسي، فملأت بها ليالي بكاملها، وإنني لأتذكرها الآن جميعها.

«ولكن هل يجب عليّ أن أكررها الآن بعد أن انقضى عهد الحكايات حتى بالنسبة إلي؟ ولمن أكررها؟ لقد تلذذت بها حين رأيت بوضوح إنني ممنوع حتى عن دراسة قواعد النحو اليوناني التي خطر ببالي أن أدرسها؛ فحين قدرت إنني سوف أموت قبل أن أصل إلى تعلم الإعراب، توقفت عن القراءة منذ الصفحة الأولى ورميت الكتاب تحت

المائدة. وبقي الكتاب راقداً هناك. وحظرت على ماتريونا أن تشيله.

«إن من ستقع مقالتني هذه بين يديه، فيصبر على قراءتها حتى النهاية، قد يعدني مجنوناً، أو قد يظنني تلميذاً في المدرسة الثانوية، أو لعله يتصور أنني رجل محكوم عليه بالإعدام يتراءى له بحق أنه ما من إنسان غيره يقدر الحياة حق قدرها، وأن البشر يبعثرون الحياة ويبددونها بكثير من الخفة والطيش، وأنهم يستمتعون بها غير واعين، وغير مباليين أو مكثرئين، وأن الملاء جميعاً، من أولهم إلى آخرهم، ليسوا إذن جديرين بها، وليسوا يستحقونها، فماذا أقول؟ أنني أعلن أن هذا القارئ سيخطئ إذا هو انقاد لهذا الظن، فأرائي ليست متأثرة أي تأثر بكوني محكوماً عليّ بالموت! أسألهم، أسألهم فقط، أسألهم جميعاً بغير استثناء كيف هم يتصورون السعادة، كيف هم يفهمون السعادة؟ آه.. ثقوا أن كريستوف كولومبوس لم يكن سعيداً حين اكتشف أمريكا، بل حين أشرف على اكتشاف أمريكا، حين كان على وشك أن يكتشفها. كونوا على يقين من أن لحظة سعادته القصوى كانت قبل اكتشافه العالم الجديد بثلاثة أيام، أي حين استبدّ اليأس بصحبه فتمردوا وأوشكوا أن يرجعوا أدراجهم إلى أوروبا. لم يكن المقصود هو العالم الجديد. لقد مات كولومبوس وهو لمّا يكدر يراه؛ وهو لم يعرف في حقيقة الأمر ماذا اكتشف. فإنما الأمر المهم هو الحياة، الحياة وحدها... المهم هو البحث المتصل عن الحياة، هو السعي الأبدي إلى الحياة، وليس اكتشاف الحياة! ولكن علام هذا الهذر؟ أغلب ظني أن هذا الكلام له من مظهر الأمور المعروفة الشائعة المبدولة ما لعله يجعل القارئ يعتقد أن مثلي كمثلي تلميذ في الصفوف الدنيا من مدرسة ثانوية مكلف بكتابة موضوع إنشاء عنوانه «طلوع الشمس». سوف يقال إنني ربما أردت أن أعبر عن شيء ما، لكنني رغم كل رغبتني لم أظفر بأن «أشرح» ما بنفسني. ومع ذلك فإنني أضيف أن كل فكرة عبقرية، وأن كل رأي جديد بل وكل رأي جاد ينشأ في دماغ إنسان، أقول إن كل شيء من هذا القبيل، إنما يشتمل على بقية لا يمكن نقلها إلى الآخرين ولو وقف المرء على محاولة الإفصاح عنها كتباً بكاملها، أو ظل يقلّب الأمر على وجهه مدة خمسة وثلاثين عاماً. إن تلك البقية لن تخرج من رأسك بأي حال من الأحوال، بل ستظل باقية فيه أبد الأبدين. ستموت أنت قبل أن تستطيع نقلها إلى أحد. وربما كانت هي التي تشتمل على الشيء الجوهرى من تفكيرك. فإذا لم أستطع أنا أيضاً أن أجعلكم تشعرون الآن بكل ما قاسيته خلال الأشهر الستة، فلسوف تظهمون على الأقل أنني لعلني دفعت غالياً ثمن ذلك «اللاقتناع الكامل» الذي وصلت إليه الآن. ذلكم ما اعتقدت أن من الضروري أن أوضحه في هذا «الشرح» الذي أقدمه إليكم لغاية أعرفها.

«ولكن ها أنا ذا أعود إلى مجرى قصتي».

الفصل السادس

لا أريد أن أكذب. إن الواقع قد أمسكني عدة مرات في أثناء هذه الشهر، فجرفني جرفاً يبلغ من القوة أنه أنساني موتي المحتم، أو قل جعلني لا أريد أن أفكر فيه وجعلني أشرع في العمل. وسأصف الآن، في هذه المناسبة، ظروف حياتي حينذاك. منذ قرابة ثمانية أشهر، عندما تفاقم مرضي قطعت جميع علاقاتي وكففت عن رؤية رفاقي القدامى. وإذ كان مزاجي مظلماً حزينا على الدوام، فإن رفاقي أولئك لم يصعب عليهم أن ينسوني. وعلى كل حال، كان يمكن أن ينسوني ولو لم أتصف بذلك المزاج المظلم الحزين. أما حياتي في البيت، أي «مع الأسرة» فقد كانت حياة اعتزال وانزواء. لقد أغلقت على نفسي الباب منذ نحو خمسة أشهر، واعتزلت ذوي اعتزالاً كاملاً. وكانوا قد اعتادوا طاعة رغباتي والرضوخ لإرادتي، فكان لا يأذن أحد لنفسه بأن يدخل إلى غرفتي، إلا في ساعات محددة معينة لتنظيفها وترتيبها، ولإتياني بطعامي. كانت أُمي ترتعش أمام أوامري، ولا تجرؤ حتى أن تبكي وتدمع بحضوري إذا اتفق لي في بعض الأحيان أن قررت السماح لها بالدخول علي. وكانت تضرب الأولاد دائماً حتى لا يحدثوا ضجة فيزعجونني. نعم، هذه هي الحقيقة. كثيراً ما كنت أشتكى من صراخهم، إنني أتخيل مدى الحب الذي لا بد أنهم يضمرونه لي الآن! وأعتقد كذلك أنني عذبت كثيراً صاحبي «كوليا الأمين»، (هذا هو اللقب الذي خلعه عليه) ولقد ثار مني في الآونة الأخيرة فعذبني هو أيضاً: إن ذلك في طبيعة الأمور، فالناس إنما خلقوا ليعذب بعضهم بعضاً. ومع ذلك لاحظت أنه كان يتحمل مزاجي السيئ، كمن آلى على نفسه أن يداري مريضاً. وقد أحقنني ذلك بطبيعة الحال. وأحسست أيضاً أنه قد قرر أن يقلد عقيدة «المذلة المسيحية» التي يعتنقها الأمير، وكان لا بد أن يبدو هذا سخيلاً مضحكاً بعض الشيء. إن هذا الفتى تزخر نفسه بحماسة الشباب؛ فلعله يقلد كل ما يقع عليه بصره. ولكن بدا لي أحياناً أنه قد آن الأوان لأن يجعل من نفسه شخصية لها استقلالها، إنني أحبه كثيراً. وقد عذبت أيضاً سوريكوف، الذي يقطن فوق مسكننا، والذي يقضي يومه كله، من الصباح إلى المساء، في القيام بمهام يكلفه بها الناس! لقد أنفقت وقتاً طويلاً في محاولة إفهامه أن شقائه لا يرجع سببه إلا إليه وحده، فخاف في النهاية حتى أصبح لا يضع قدميه في غرفتي أبداً. إنه إنسان شديد المذلة. (حاشية: يزعم بعضهم أن المذلة

قوة هائلة. يجب أن أسأل الأمير توضيحاً لهذا الكلام، لأنه هو صاحب هذا التعبير). ولكن حين صعدت إليهم في شهر آذار (مارس) لأرى كيف تركوا ابنهم الصغير يموت «متجمداً» من البرد كما قالوا، ابتسمت أمام جثة الطفل بغير إرادة، وعدت أشرح لسوريكوف «أنه هو المذنب». عندئذ أخذت شفتا الرجل المسكين ترتعشان فجأة، ثم وضع يده على كتفي وأشار بيده الأخرى إلى الباب قائلاً: «اخرج يا سيدي!». قالها برفق وهدوء، بصوت يشبه أن يكون همساً. فخرجت. وأعجبني فعلتي كثيراً، أعجبني حتى بعد أن طُردت. ومع ذلك ظلت كلماته خلال مدة طويلة، تحدث في نفسي كلما تذكرتها أثراً غريباً أليماً، يشبه أن يكون شعوراً بشفقة مزدرية نحوه، وهو شعور كنت أتمنى أن لا أحسه. إن هذا الرجل كان عاجزاً عن الغضب حتى حين أهين تلك الإهانة (أنا أشعر فعلاً بأنني أهنته، دون أن أقصد ذلك أو أنتويه). وإذا كانت شفتاه قد أخذتا تختلجان فإن ذلك لم يحدث له بتأثير الغضب، أحلف لكم!... لقد أمسك ذراعي ونطق بجملته الرائعة دون أي غضب: «اخرج يا سيدي!» كان في تلك اللحظة زاخراً بالكرامة، حتى أن تلك الكرامة كانت تتعارض مع جملة هيئته (وكان في هذا ما يبعث على الضحك في الواقع) لكن نفسه لم تنطو عندئذ على أي غضب أو حنق. لعله شعر نحوي باحتقار مفاجئ. ولقد لقيته بعد ذلك مرتين أو ثلاث مرات على سلم المنزل. فكان يسارع إلى تحيتي برفع قبعته، وذلك ما لم يكن يفعله من قبل قط؛ ولكنه أصبح لا يقف لي كما كان يقف في الماضي، وإنما هو يمر بجانبني مسرعاً خجلاً مضطرباً. فهو إذا كان يحتقرني إنما يحتقرني على طريقته، أي يحتقرني بنوع من «المذلة». ولعله كان لا يرفع لي قبعته محيياً إلا من قبيل الخوف والخشية، لأنني ابن دائنته: فهو مدين لأمي دائماً بمبلغ من المال، وهو عاجز عجزاً مطلقاً عن سداد دينه. ربما كان هذا الافتراض أقرب إلى الصحة. وقد خطر ببالي أن أناقشه في الأمر. إني لعلّى يقين من أنه كان سيسألني العفو والمغفرة لو فعلت. لكنني فكرت فرأيت أن من الأفضل أن أدعه وشأنه.

«في تلك الفترة، أي في نحو منتصف شهر آذار (مارس)، حين ترك سوريكوف ابنه «يتجمداً» من البرد، شعرت أنا بتحسن كبير في صحتي، ودام هذا التحسن قرابة أسبوعين. فأخذت أخرج، عند هبوط الليل في أكثر الأحيان. إنني أحب ساعات الغسق في شهر آذار (مارس)، حين يبدأ التجلد ويشعل الغاز. وكنت أوغل في نزهاتي مسافات بعيدة أحياناً. ففي ذات يوم، مرّ أمامي في الظلام، بشارع «الدكاكين الستة»، شخص يبدو من هيئته أنه سيد، لكنني لم أتبين ملامحه تبيناً واضحاً. كان يحمل صرة ملفوفة بورق، وكان يرتدي معطفاً عتيقاً مهترئاً، عدا أنه معطف خفيف في مثل ذلك البرد

الذي كان يسود الجو. فلما وصل إلى قرب أحد مصابيح الشارع، رأيت شيئاً يسقط من جيبه. فأسرعت أتناول الشيء الذي سقط، أسرعت أتناوله في الوقت المناسب، ذلك أن شخصاً يرتدي قفطاناً طويلاً كان قد هرع يريد تناوله، فلما رأى أنه صار في حوزتي، لم يحاول أن ينافسني واكتفى بأن ألقى نظرة على يدي ثم مضى في سبيله. كان ذلك الشيء محفوظة أوراق من جلد، كبيرة الحجم قديمة الطراز، محشوة بأوراق كثيرة حتى لتكاد تنبعج؛ لكنني حذرت على الفور - لا أدري كيف! - إن المحفوظة قد تحتوي على كل شيء إلا المال. كان الرجل الذي سقطت منه المحفوظة قد أصبح على مسافة أربعين خطوة أمامي، فلن يلبث أن يغيب عني في زحمة الجمهور. فركضت وراءه أناديه. ولكن لما كنت لا أستطيع أن أناديه إلا بصرخة «هيه!»، فإنه لم يلتفت. وغار فجأة على اليسار في بوابة عمارة من العمارات. فلما وصلت إلى تلك البوابة التي كان يخيم فيها ظلام حالك، لم أجد هنالك أحداً. إن العمارة واحدة مر تلك المباني الضخمة التي يبنوها التجار جاعلين منها عدداً كبيراً من المساكن الصغيرة. حتى إن بينها مباني تضم الواحدة منها مائة مسكن.

«حين اجتزت بوابة العمارة خيل إليّ إنني أُلح في الزاوية اليمنى من قرارة فناء واسع رجلاً كان يبتعد، لكن الظلمات جعلتني لا أرى أكثر من ذلك. فركضت حتى بلغت تلك الزاوية، فاكشفت وجود مدخل لسلم ضيق قذر جداً، بغير إضاءة. وإذا سمعت أصوات وقع أقدام في أعلى، فأدركت أن شخصاً يرقى السلم اندفعت أصعداً آملاً أن أدرك أثره حين يُفتح له الباب. وذلك ما حدث. إن فسحات السلم، متقاربة جداً، ولكن عددها بدا لي بغير نهاية، حتى لقد تقطعت أنفاسي من شدة التعب بالركض. وسمعت صوت باب يُفتح ويغلق في الطابق الخامس. سمعت هذا حين كنت ما أزال تحت الطابق الخامس بثلاث فسحات. فقضيت بضع دقائق حتى بلغت الطابق الخامس واسترددت أنفاسي وبحثت عن جرس الباب. فجاءت تفتح لي امرأة كانت بسبيل إضرام النار في السماور بمطبخ صغير مفرط في الصغر. فاستمعت إلى أسئلتني صامتة، ولا شك أنها لم تفهم منها شيئاً، لكنها أدخلتني إلى غرفة مجاورة دون أن تفتح فمها بكلمة واحدة. هي غرفة صغيرة جداً، منخفض سقفها انخفاضاً شديداً، ولا يشتمل أثاثها الفقير إلا على الضروري الذي لا بد منه ولا غنى عنه.

«كان يرقد على سرير عريض ذي أسجاف، رجلٌ نادته المرأة باسم «تيرنتتش» وبدا لي ثملاً. وكان ثمة بقية من شمعة تشتعل قرب منضدة في شمعدان من حديد، إلى جانب قنينة من الفودكا توشك أن تكون فارغة. نطق تيرنتتش ببضعة أصوات غير جلية يخاطبني بها، ويومئ لي بيده إلى غرفة مجاورة، دون أن ينهض. كانت المرأة قد

غابت، فلم يبق لي إلا أن أدفع ذلك الباب. وذلك ما فعلته: فتحت الباب الذي دلّني عليه ودخلت إلى الغرفة الأخرى.

«إن هذه الغرفة الأخرى أقل سعة وأكثر ازدحاماً من الغرفة الأولى، حتى إنني لم أعرف كيف أستطيع التحرك فيها. كان في الزاوية سرير ضيق يكاد يملأ الغرفة كلها. أما باقي الأثاث فلا يعدو ثلاثة كراسي عادية تكدّست عليها أنواع شتى من الأسماك البالية والأطمار الخلقة، ومائدة غليظة من موائد المطابخ وضعت أمام ديوان عتيق مغطى بقماش مشمّع، وقد تقاربت هذه الأشياء كلها تقارباً يكاد يكون التصاقاً، فلا يدري المرء كيف يتسلل بين المائدة والسرير.

«وعلى المائدة كانت تشتعل شمعة في شمعدان من حديد يشبه شمعدان الغرفة الأخرى؛ وثمة طفل وليد لا يكاد يتجاوز من عمره ثلاثة أسابيع كان يصرخ راقداً على السرير، وبقربه امرأة مريضة شاحبة كانت تغير له «حفاظه» أو قل تعيد تقيميطه. إن المرء ليدرك أنها خارجة من فترة النفاس. أما الطفل فهو لا ينقطع عن الصراخ، بانتظار ثدي أمه الهزيل. وعلى الديوان كان ينام طفل آخر، هو بنت في السنة الثالثة من عمرها قد ألقي عليها رداء يوحي منظره بأنه «فراك». وقرب المائدة كان يقف رجل يرتدي ردنجوتاً مهترئاً متنسلاً (كان الرجل قد خلع معطفه ووضع على السرير)، وهو بسبيل فضّ صرة ملفوفة بورق أزرق فيها رطلان من خبز أسود وقطعتان صغيرتان من مقانق. وكان على المائدة أيضاً إبريق شاي ملآن، وبقايا خبز أسود. وتحت السرير يستطيع المرء أن يرى حقيبة مفتوحة ورزمتان محشوتان أسماًلاً.

«الخلاصة: فوضى رهيبة! وقد أوحى إليّ السيد والسيدة منذ النظرة الأولى أنهما شخصان محترمان، ولكن الفقر المدقع هو الذي هوى بهما إلى هذه الحالة من التردّي التي تصبح الفوضى فيها أمراً مفروضاً يكف المرء عن مقاومته ثم يألفه ويعتاده، وينتهي به الأمر لا إلى العجز عن الاستغناء عنه فحسب، بل كذلك إلى أن يجد في تزايد يومياً بعد يوم لذة مريرة من لذائذ الانتقام لا أدري ما هي!

«كان السيد حين دخلت بعيد دخوله يفضل حزمة ما اشتراه من طعام ويتحدث إلى امرأته بلهجة فيها كثير من احتياج الأعصاب. ولم تكن السيدة قد فرغت من تقيميط الوليد، وكانت قد أخذت عيناها تدمعان بكاء. من الجائز أن الأنباء التي حملها إليها زوجها كانت سيئة كالعادة. وظهر لي السيد رجلاً محترماً يُطمأن إليه بل ويؤنس به. إنه في نحو الثامنة والعشرين من عمره، أسمر اللون، جاف البشرة، محلوّق شعر الذقن، إلى لحيتين صغيرتين في العارضين. كان مكفهر الوجه عابس النظرة، ولكن على شيء

من كبرياء مرضية يسهل أن تثور. ولقد أحدث وصولي مشهداً غريباً.

«إن من الناس من يجدون في احتياجاتهم لذة عظيمة ولا سيما حين يبلغ هذا الاهتياج أعلى ذروة له (وهذا ما يحدث لهم بسرعة)؛ حتى ليتمكن أن يُقال إن إيذاءهم وإهانتهم في مثل تلك اللحظة أحب إليهم من أن لا يلحق بهم أذى ولا تُنزل فيهم إهانة. لكن هؤلاء الأشخاص الغضوبيين يشعرون بعد ذلك بالآلام الندامة، هذا إذا كانوا أذكاء طبعاً وكانوا قادرين على أن يدركوا أنهم اندفعوا اندفاعاً أقوى عشر مرات من الاندفاع الذي يقبله العقل.

«نظر إليّ الرجل خلال لحظة مذهولاً، بينما كان وجه امرأته يعبر عن الفزع، كأن ظهور كائن إنساني في غرفتهم حادث رهيب!! ولكنه لم يلبث فجأة، قبل أن يتسع وقتي لأن أقول كلمتين، لم يلبث أن هجم عليّ بنوع من الحنق المسعور. لقد جرح شعوره كثيراً أن يرى رجلاً حسن الثياب لائق الهدام يسمح لنفسه بأن يدخل إلى مسكنه الحقيقير بغير كلفة أو تحرج، فيأخذ يتأمل بنظراته هذا البيت الحقيقير الذي يشعر هو نفسه منه بخجل وعار. ولا شك أن هذه الفرصة التي أتاحت له، وهي أن يصب على شخص من الأشخاص ما كان يعتمل في نفسه من غضب سببه ضروب الإخفاق التي يمني بها، أقول لا شك أن هذه الفرصة قد أحدثت له لذة؛ حتى لقد اعتقدت ففي لحظة من اللحظات أنه سوف يضربني. شحب وجهه كشحوب وجه امرأة أصابتها نوبة هستيريا، فارتاعت زوجته من ذلك ارتياحاً شديداً.

«صرخ يقول مرتجفا مرتعشا حتى ليكاد يعجز عن النطق بكلماته:

- كيف تجاسرت أن تدخل هكذا! اخرج!

ولكنه سرعان ما رأى محفظته في يديّ.

قلت بلهجة فيها أكثر ما يمكن من هدوء وجفاف (وتلك هي اللهجة المناسبة في هذا المقام على كل حال):

- أحسب أن هذه المحفظة قد سقطت منك.

«ظل الرجل واقفاً أمامي بعض الوقت مروّعاً مذعوراً كأنه لا يفهم شيئاً. ثم تلمس جيبه بحركة سريعة، وفتح فمه مشدوهاً، والطم جبينه، وقال:

- عثرت عليها؟ كيف عثرت عليها؟

فشرحت له بكلمات قليلة وبلهجة أكثر جفافاً كيف التقطت المحفظة بعد سقوطها

منه، وكيف ركضت وراءه منادياً إياه بغير طائل، وكيف تعقبته صاعداً درجات السلم أربعاً أربعاً، على غير هدى وبدون يقين، وإنما بنوع من الظن والتخمين.

«صاح يقول متجهاً إلى امرأته:

– هذه أوراقى! هذه آخر ما أملك من وسائل! هي كل ما بقي لى!

»وأضاف يقول لى:

– آه يا سيدى!!... هل تعلم ما أسديت لى من جميل؟ لولا أنك عثرت لى على هذه الأوراق لضعت وهلكت!...

«فى أثناء ذلك كنت قد أمسكت زر الباب لأخرج دون أن أجيب، لكننى شعرت باختناق وألمت بى نوبة سعال مفاجئة بلغت من القوة والشدة أننى أصبحت لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمى! ورأيت السيد يلتفت إلى كل جهة ليجد لى كرسيًا خالياً. ثم يعمد إلى أحد المقاعد فينزع كل ما كان ملقى عليه من أطمار ويرميها إلى الأرض ويجلسنى على الكرسي بسرعة ولكن على حذر. وطال سعالى ثلاث دقائق أخرى على الأقل. فلما ثبت إلى نفسى كان جالساً بجانبى على كرسي آخر لا شك أنه أخلاه هو أيضاً مما كان عليه من أسمال، وكان ينظر لى محققاً.

«قال لى باللهجة التى يتكلم بها الأطباء عادة حين يواجهون مرضاهم:

– ظاهر عليك أنك... مريض... إننى... طبيب. (لم يستعمل كلمة «دكتور»).

«قال ذلك وأشار لى إلى الغرفة كأنما ليحتج على ما هو فيه من ظرف خاص ووضع شاذ. وأضاف:

– أرى أنك...

فقلت موجزاً وأنا أنهض:

– أنا مريض بالسل...

«فنهض هو أيضاً بوثبة. وقال:

– لعلك تبالغ... إنك إذا عالجت مرضك..

«لقد كان مضطرباً أشد الاضطراب فلا يستطيع أن يثوب إلى نفسه. وكان يحمل المحفظة بيده اليسرى.

قاطعته من جديد، وأنا أمسك زر الباب:

- لا تقلق... لقد فحصني الدكتور «ب....ين» في الأسبوع الماضي، ومسألتي واضحة (هنا أيضاً ذكرت اسم «ب....ين») معذرة!

«وأردت أن أفتح الباب فأخرج تاركاً الطبيب خجلان ممتناً يسحقه الشعور بالعار، لكن سعالي اللعين رجع يمسك بخناق في تلك اللحظة نفسها. فعاد الدكتور يجلسني وألح عليّ أن أرتاح. والتفت نحو امرأته فوجهت إليّ امرأته بضع كلمات لطيفة عبرت بها عن الشكر والامتنان، دون أن تتحرك من مكانها. وقد بلغت من الاضطراب أثناء ذلك أن خديها الجافين الحائل لونهما تخضباً بحمرة شديدة. وبقيت لكن هيئتي كانت هيئة من يريد أن يظهر في كل لحظة بمظهر من يخاف أن يكون وجوده مزعجاً (تلك هي الهيئة المناسبة اللائقة). ولاحظت أن الندم قد أخذ يعذب صاحبي الدكتور آخر الأمر.

«بدأ يتكلم فقال وهو يقاطع نفسه في كل لحظة قافزاً من جملة إلى جملة قفزاً:

- لو أنني... أنا أشكر لك جميلك أجزل الشكر... وقد أسأت إليك إساءة بالغة...
إنني... أنت ترى... (أراني الغرفة من جديد)... إنني الآن... في وضع...

قلت:

- كل شيء واضح. لا جديد في الأمر. لعلك فقدت وظيفتك فجئت إلى العاصمة
تشرح أمرك وتلتمس وظيفة أخرى، أليس كذلك؟

سألني مدهوشاً:

- من أين.. عرفت هذا؟

قلت بلهجة ساخرة غير مقصودة:

- هذا يرى من أول نظرة. كثير من الناس يصلون من الأقاليم بآمال كهذه الآمال.
يبذلون جهوداً ويقومون بمساع، ويعيشون حياتهم هكذا، يوماً بيوم...

«فأخذ يتكلم بحرارة مفاجئة، وكانت شفاته تخرجان. يجب أن أقول إن شكاواه وقصته قد أثرت في نفسي. مكثت عنده قرابة ساعة. قص على حكايته، وهي لا تحوي شيئاً خارقاً على كل حال. إنه موظف بالأقاليم في خدمة الدولة، وقع ضحية دسائس ومكائد أقحم فيها حتى اسم زوجته. ثارت كبرياؤه وتمردت أنفته وعيل صبره. وحدثت عندئذ تنقلات في أعضاء هيئة الموظفين تناسب خصومه، فأخذ خصومه يدسون الدسائس

ويدبرون المكائد. وقدّمت في حقه شكوى. واضطر أن يترك وظيفته وأن يمضي بآخر ما يملك من مال إلى بطرسبرج ليشرح أمره، ويبرهن على براءته. وطال مكوثه بطرسبرج قبل أن يظفر بمقابلة المسؤول. ثم أصغي إليه، وصُرف بخشونة، بعد أن بُذلت له وعود؛ لقد عومل بقسوة، ثم أمر بأن يعرض قضيته كتابة، ثم رُفض استلام عريضته المكتوبة، ثم طلب منه أن يقدم التماساً، إلخ إلخ. الخلاصة أنه ظل يركض خمسة أشهر أكل خلالها كل ما كان يملك من بقية مال، حتى إنه رهن أثواب زوجته إلى آخر واحد منها. وفي تلك الآونة إنما ولد لهما ولد! و... و... «اليوم أُبلغت رفض التماسي رفضاً حاسماً. لم يبق لي خبز إن صح التعبير، لم يبق لي شيء البتة، وامرأتي ناهضة من نفاسها. إنني.. إنني...».

وانتصب واقفاً على حين فجأة، وأشاح وجهه. كانت امرأته تبكي في أحد الأركان. وعاد يصرخ. ففتحت دفتري الصغير وأخذت أدون فيه بضع كلمات. فلما فرغت من ذلك ونهضت، رأيته مغروساً أمامي ينظر إليّ باستطلاع خائف. قلت له:

- لقد دوّنت اسمك وسائر الأمور: المكان الذي كنت تعمل فيه، واسم حاكم الإقليم، والتواريخ والأشهر. إن بين رفاقي في المدرسة شاباً اسمه باخموتوف، وعمّه مستشار دولة ومدير قسم، هو بيتر ماتفئفتش باخموتوف...

هتف الطبيب يقول بنوع من الارتجاف:

- بطرس ماتفئفتش باخموتوف؟... إن القضية كلها متوقفة عليه مرهونة به!...

«الحق أن كل شيء في قصة هذا الطبيب والنهاية التي اختتمت بها، وهي نهاية شاركت أنا فيها على هذا النحو الذي لا يخطر بالبال، إن كل شيء قد تسلسل وترتب كما تتسلسل الأمور وترتب في رواية من الروايات وفقاً لخطة موضوعة.

«طلبت من هذين المسكينين أن لا يبنيا أي أمل على كلامي، لأنني لست أنا نفسي إلا تلميذاً فقيراً في المدرسة الثانوية (تعمّدت أن أضخم وضاعة شأني، والحق أنني كنت قد أنهيت دراستي في المدرسة الثانوية منذ مدة طويلة). وأضفت أنهما ليسا في حاجة إلى أن يعرفا اسمي، ولكنني ذاهب فوراً إلى فاسيلفسكي أوستروف لأرى رفيقي باخموتوف؛ وأنا واثق أن عمه، مستشار الدولة، وهو رجل متقدم في السن ولكنه لم يتزوج وليس له أولاد، يحب ابن أخيه حباً عظيماً يبلغ درجة الوله، لأنه يعدّه آخر نسل الأسرة. وقلت أختام كلامي إن هذا الرفيق سوف يستطيع أن يساعدكما بالتأثير في عمه، إرضاء لي.

«هتف الطبيب يقول مرتجفاً كأن به حمى، بينما كانت عيناه تلتمعان:

«لا أريد إلا أن يُسمح لي بشرح أمري أمام صاحب السعادة! ليتني أظفر بأن أستطيع الحصول على شرف عرض ظلامتي وبسط شكواي له!

«نعم، هذا هو التعبير الذي استعمله: «ليتني أظفر بأن أستطيع الحصول على شرف...»، وبعد أن كررت مرة أخرى أن المسعى قد يخفق حتماً، وأن جميع جهودنا قد تظل عقيمة، أضفت أعلن أن عليهما، إذا لم أجد إليهم في صباح غد، أن يفهما أن المسعى لم يثمر، فلا يتوقعا شيئاً. لن أنسى، ما حييت، تعبير وجهيهما حينذاك. وركبت عربة ومضيت إلى فاسيلفسكي أوستروف رأساً.

«كنا قد عشنا في عداوة متصلة، أنا وباخموتوف هذا، خلال. عدة سنين بالمدرسة. كان يُعدّ عندنا أرسقراطياً؛ أو هذا على الأقل ما وصفته أنا به. كان دائماً حسن الهندام أنيق الملبس، يصل إلى المدرسة بمركبته الخاصة. لم يكن متكبراً أو متعجرفاً. كان رفيقاً ممتازاً، مشرق المزاج حلو المعاشرة دائماً، فكه الحديث مرح النكتة حاضر البديهة أحياناً، دون أن يكون ذا ذكاء عظيم ونباهة كبيرة. ومع ذلك كان هو الأول ترتيباً في الصف على الدوام؛ ولم أحصل أنا على الدرجة الأولى في أي شيء يوماً. وكان جميع زملائه يحبونه، إلا أنا. وقد حاول التودد إليّ مراراً خلال السنين التي قضيناها في المدرسة معاً، لكنني كنت في كل مرة أشيح وجهي عنه متجهماً حانقاً.

«إنني لم أراه منذ نحو سنة. هو الآن في الجامعة، فلما دخلت عليه في نحو الساعة التاسعة من المساء (ولم أدخل عليه بدون رسميات، فإن الخدم قد هبوا إليه يبلغونه حضوري)، استقبلني في البداية مدهوشاً، بل استقبلني بغير كبير بشاشة لكنه لم يلبث أن استردّ مرحه المعهود فيه، وانطلق يضحك فجأة وهو ينظر إليّ. ثم هتف يسألني بطريقته المألوفة التي تمتاز برفع الكلفة وروح المودة:

– ماذا أصابك حتى خطر بالك أن تزورني؟

«إن في لهجته شيئاً من الجسارة وقلة التحرج دائماً، لكنها لا تكون مهينة أو مؤذية في وقت من الأوقات. تلك سمة من سماته كنت أحبها فيه، وكانت مع ذلك سبب كرهى له. وصاح يسألني مذعوراً:

– ولكن ماذا بك؟ أنت مريض إلى هذه الدرجة؟

«كان السعال قد استبدّ بي، فتهاكت على كرسي، ولم أستطع أن استردّ تنفسي إلا

بكثير من العناء.

«قلت له:

- لا تقلق! إنني مريض بالسل. لي عندك رجاء.

«جلس مدهوشاً، وأخذت أقص عليه حكاية الطبيب كاملة، وقلت له إنه قد يستطيع أن يصنع لهذا المسكين شيئاً، وذلك لما له على عمه من نفوذ. قال:

- سأفعل، سأفعل حتماً! سأتوسط لدى عمي منذ الغد. بل إنني لمغتبط جداً؛ ما كان أحلى أسلوبك في سرد القصة كلها. ولكن كيف راودتك فكرة الاعتماد عليّ رغم كل شيء يا تيرنتيف؟

- إن كل شيء في هذه القضية متوقف على إرادة عمّك ومرتهن بمشيئته. إننا يا باخموتوف قد كنا عدوين دائماً، لكنني لما أعرفه من نبل قلبك وشهامة طبعك قدّرت أنك لن ترفض رجاء لعدو.

«كذلك أضفت أقول بلهجة فيها قليل من سخرية. فهتف يقول وهو ينفجر ضاحكاً:

- مثل نابليون الذي اعتمد على كرم إنجلترا!..

«وإذ رأيته أنهض جاداً الهيئة قاسي الوجه، أسرع يضيف قوله:

- سأفعل اللازم، سأفعل اللازم! بل سأذهب الآن فوراً إذا أمكن!

«وبالفعل، سوّيت القضية على نحو لم يكن في الحسبان قط، سوّيت تسوية نالت رضانا كاملاً. فما هي إلا ستة أسابيع حتى حصل صاحبنا الطبيب على وظيفة جديدة في إقليم آخر، مع دفع نفقات الانتقال، بل وتقديم مساعدة مالية. وأظن أن باخموتوف قد حمل الطبيب على أن يقبل منه سلفة على سبيل الاقتراض. وأخذ يزوره كثيراً (بينما قطعت أنا زياراتي عامداً. وكنت، إذا اتفق أن زارني الطبيب مصادفة، أستقبله استقبالاً يكاد يكون جافاً). وقد لقيت باخموتوف أثناء تلك الأسابيع الستة مرة أو مرتين، ثم التقينا مرة ثالثة حين احتفلنا بسفر الدكتور. لقد دعا باخموتوف صاحبنا الطبيب إلى عشاء وداع مع شمبانيا. وحضرت زوجة الطبيب العشاء، لكنها تركتنا في ساعة مبكرة لتمضي إلى العناية بالطفل. كان ذلك في بداية شهر أيار (مايو). المساء جميل، قرص الشمس الضخم يغيب في الخليج. أوصلني باخموتوف إلى بيتي عائداً. مررنا بجسر نيقولا، وكنا ثملين بعض الثمل كلانا. حدثني عن ابتهاجه العظيم بالنهاية التي انتهت

إليها قضية الطبيب. شكر لي لا أدري ماذا. وصف لي الارتياح الذي يحسه بعد أن صنع خيراً، وقال إن الفضل في هذا كله يرجع إلي. أعرب عن اعتقاده بخطأ أولئك الكثيرين الذين يذهبون في هذه الأيام إلى أن صنع الخير الفردي لا قيمة له.

«فاستولت عليّ أنا أيضاً رغبة في الكلام لا سبيل إلى مقاومتها. فبدأت أتكلم فقلت:

- إن من يأخذ على عاتقه أن يقوم بعمل بر فردي، يسيء إلى طبيعة الإنسان ويهين الكرامة الشخصية لمن أحسن إليه. على أن تنظيم «الإحسان الاجتماعي» ومسألة الحرية الفردية أمران مستقلان، لا ينفي أحدهما الآخر. إن أعمال البر الفردية تظل باقية لأنها تقابل حاجة لدى الإنسان هي حاجة حية إلى أن يكون لفرد تأثير مباشر في فرد آخر. كان يعيش بموسكو جنرال عجوز، أقصد «مستشار دولة» اسمه اسم ألماني. لقد قضى حياته يزور السجون والمجرمين. حتى صارت كل مجموعة من المحكوم عليهم بالسجن الذين يستعدون للترحيل إلى سيبيريا، تعرف مقدماً أن هذا الشيخ الطبيب سيزورها في «جبل العصافير»^[17]. وكان الرجل يقوم بمهمته تلك في كثير من الجدد والتقوى. يصل إلى المكان فيستعرض جميع السجناء المصطفين حوله، يقف أمام كل واحد منهم، ويسألهم عن حاجاتهم، ولا يحاول أن يلقي عليهم دروساً في الأخلاق ناصحاً أو واعظاً، ويناديهم جميعاً بقوله: «يا أصدقائي»؛ ويوزع عليهم مالاً، ويرسل إليهم أمتعة مما لا غنى عنه: جوارب تدفئ أرجلهم وشيئاً من قماش، ويأتيهم في بعض الأحيان بكتب دينية صغيرة يسلمها للذين يعرفون القراءة، مقتنعاً اقتناعاً عميقاً بأنهم سيقرونها أثناء الطريق وسينقلون مضمونها للذين لا يعرفون القراءة.... وكان يندر أن يسألهم عن الجرائم التي ارتكبوها. وإنما هو يصغي، في أكثر تقدير، لكلام أولئك الذين كانوا يحبون من تلقاء أنفسهم أن يسروا إليه بأمرهم.. وكان لا يفرق بين المجرمين أي تفريق، بل يساوي بينهم مساواة تامة. وكان يكلمهم كما يكلم أخوة؛ وكانوا ينتهون هم أنفسهم إلى أن يعدّوه أباً. فإذا لاحظ في جماعة امرأةً تحمل على ذراعيها طفلاً اقترب منها فلاعب الطفل وصفق له بأصابعه كي يضحكه. هكذا قضى حياته الطويلة إلى أن مات. وظفر بأن يكون معروفاً في روسيا وفي سيبيريا كلها، لدى السجناء على الأقل. وقد حدثني رجل كان في سيبيريا فوصف لي كيف كان أعتى المجرمين يتذكرون هذا الجنرال، مع أن هذا الجنرال كان حين يزور فرن المرحّلين يندر أن يستطيع إعطاء كل واحد منهم أكثر من عشرين كويكاً. صحيح أن هؤلاء الأفراد كانوا لا يتحدثون عن الجنرال بألفاظ فيها كثير من الحماسة والحرارة، حتى ولو بلهجة فيها كثير من الجدد. كان واحد من هؤلاء «الأشقياء»، وهو مجرم فظيع لعله

قتل دسته رجال أو ذبح ستة أطفال لا لسبب غير حب التلذذ بالقتل (يقال إن هناك أوغادا من هذا النوع) كان يتنهد من حين إلى حين ويهتف متسائلاً: «تُرى ماذا الذي صار إليه ذلك الجنرال الطيب؟ من يدري أما يزال حياً أم مات؟!...». كان هذا الخاطر يدور برأسه دون أي سبب ظاهر، ربما مرة واحدة خلال عشرين سنة، وربما مع ابتسامة تطوف بشفتيه أيضاً، ثم لا شيء غير ذلك! ولكن من كان يدري أن «الشيخ الطيب» قد زرع في هذه النفس بذرة ستبقى فيها إلى الأبد، وسيحتفظ الرجل بذكرها عشرين عاماً؟ هل تستطيع أن تعرف يا باخموتوف ما يحدثه هذا التواصل بين إنسان وإنسان من تأثير في مصير الآخر؟ إن وهنا حياة بكاملها، وعدداً لا نهاية له من التفرعات تغيب عنا ولا تبدو لأبصارنا. إن أمهر لاعب من لاعبي الشطرنج وأبعد واحد منهم نظراً لا يستطيع أن يتنبأ إلا بعدد محدود من الضربات التي سيجيئ بها خصمه. لقد حدثونا عن لاعب فرنسي كان يستطيع أن يحسب عشر ضربات سلفاً، فكان حديثهم عنه يشبه أن يكون حديثاً عن معجزة خارقة. فما أكثر الضربات والتركيبات التي تغيب عنا فلا تظهر لأبصارنا في الحالة التي نحن بصدد الكلام عليها الآن! إنك حين تزرع البذرة، حين تقوم بعمل «البر والإحسان» في أي صورة، حين تقوم بفعل الخير الذي تقوم به، إنما تهب جزءاً من شخصيتك وتأخذ جزءاً من شخصية الآخر. فيكون بين وجودكما تواصل. ويكفي أن تنتبه قليلاً حتى تكافأ عن ذلك بالمعرفة، تكافأ باكتشافات لم تدر في خلدك قط. ولا بد أن تنتهي في الختام حتماً إلى أن تعد عملك الطيب علماً، فهو يسيطر على كل حياتك وربما ملأها تماماً.

«ثم إن جميع أفكارك وجميع البذور التي زرعتها ولعلك نسيتهما سوف تمتد لها في الأرض جذور، وسوف تنمو وتكبر. إن من أخذها عنك سينقلها إلى غيرك. من ذا الذي يعرف أي نصيب ستنال من حل المشكلات التي يتوقف عليها مصير الإنسانية؟ وإذا استطاعت معرفتك وحياة كاملة موقوفة على هذا النوع من العمل أن ترفعك أخيراً إلى ذرى تستطيع وأنت فيها أن تبذر بذوراً كثيرة وأن تورث الكون فكرة كبيرة، فلسوف... إلخ إلخ، تكلمت كثيراً في ذلك اليوم.

«هتف باخموتوف يقول كمن يوجه لوما عارماً إلى شخص ثالث:

– ثم تظن بعد ذلك أن الحياة ممنوعة عنك محظورة عليك!

«كنا في تلك اللحظة متكئين بكوعينا على إفريز الجسر، وكنا ننظر إلى نهر نيفا. فقلت وأنا أميل مزيداً من الميل فوق الدرابزين:

– أتعرف ماذا خطر ببالي:

«فصاح باخموتوف يقول شبه مذعور:

- أن تلقي بنفسك في الماء؟

«لعله كان قد قرأ هذا الخاطر في وجهي. قلت:

- لا. إنني الآن أكتفي بالتفكير على النحو التالي: لقد بقي لي من الحياة شهران أو ثلاثة أشهر، وربما أربعة. ولكن فلننظر، مثلاً، إلى اللحظة التي لا يكون قد بقي لي فيها إلا شهران، ولنفرض أنني في تلك اللحظة أردت أن أقوم بفعل خير يتطلب مني جهداً، ويقتضي أن أذهب وأجيء مرات ومرات، ويسبب لي متاعب من نوع المتاعب التي سببتها لي قضية صاحبنا الدكتور. سوف يكون عليّ في هذه الحالة أن أعدل عن القيام بذلك العمل الطيب لضيق الوقت، وأن أسعى إلى عمل طيب آخر يكون أقل شأناً ويكون في طاقتي أن أعمله (هذا إذا كان هو القيام بأعمال الخير قد استبدّ بي إلى هذا الحد). فكرة مسلية، أليس كذلك؟

«كان باخموتوف المسكين شديد القلق عليّ. فأوصلني إلى مسكني، وكان لبناً فلم يعتقد أن عليه أن يعزيني ويواسيني، بل لزم الصمت طول الوقت تقريباً. وحين ودعني شدّ على يدي بحرارة واستأذني في أن يزورني. فأجبتُه بأن مجيئه إليّ، إذا كان يريد أن يجيء إليّ «مواسياً ومعزياً» (ذلك أن زيارته، وإن كانت صامتة، سيكون هدفها المواساة والعزاء، وقد شرحت له هذا) لن يكون في نظري أكثر من تذكير بالموت الوشيك. فهزّ كتفيه، ولكنه وافقني على صواب رأيي. وافترقنا على بشاشة ومجاملة، وذلك ما لم أكن أتوقعه.

«في أثناء ذلك المساء، وفي خلال الليلة التي أعقبته، إنما نبت في نفسي «اقتناعي الأخير». تشبّثت تشبّثاً نهماً بتلك الفكرة الجديدة، وأخذت أحللها بحرارة وحماسة، وأقلّبها على جميع وجوهها، وأنعقبها في جميع انعطافاتها (لم أنم في تلك الليلة). فكلما تعمّقتها مزيداً من التعمّق، وكلما نفذت إليّ مزيداً من النفاذ، امتلأت من ذلك بمزيد من الجزع. ثم استولى عليّ ذعر فظيع لزممني ولم يبارحني طوال الأيام التالية. إنني في بعض الأحيان، ما إن أتذكر ذلك الذعر حتى ينتابني هلع جديد يجمّديني تجميداً. وخلصت من ذلك إلى أن «اقتناعي الأخير» قد ترسخ في نفسي ترسخاً يبلغ من القوة أنه يستحيل أن لا يصل بي إلى خاتمة. ولكنني لم أملك من الجرأة ما يكفيني لأعزم أمري وأتخذ قراراً. وبعد ذلك بثلاثة أسابيع كانت تلك التعللات والتهرّبات قد انقطعت، ورجعت إلى جرأتي، ولكن ذلك إنما حدث في أعقاب ظرف غريب كل الغرابة.

«إنني أذكر هنا، في هذا الشرح، جميع هذه الأرقام وجميع هذه التواريخ. ولا شك أن ذلك لن يعينني فيما بعد، أما «الآن» (وربما في هذه اللحظة وحدها)، فإنني أريد من أولئك الذين سيحكمون على عملي أن يتصوروا تصوراً واضحاً تسلسل الاستنتاجات المنطقية التي بها وصلت إلى «اقتناعي الأخير».

«قلت إنني اكتسبت الجرأة الحاسمة التي كانت تعوزني لأضيع ذلك «الاقتناع الأخير» موضع التنفيذ، اكتسبتها لا بطريق الاستنتاج المنطقي فيما أعتقد بل في أعقاب صدمة غير متوقعة، على أثر حادث غير عادي كان يمكن أن لا يكون له أي صلة بمجرى القضية.

«فمنذ نحو عشرة أيام زارني روجويين بمناسبة تتعلق به ولا مجال للحديث عنها هنا. لم أكن قد رأيته قبل ذلك في يوم من الأيام، ولكنني كنت قد سمعت عنه كلاماً كثيراً. أعطيته جميع المعلومات التي كان في حاجة إليها، فلم يلبث أن انصرف. وإذا إن ذلك كان هو الهدف الوحيد من مسعاه، فقد كان يمكن أن تقف الأمور بيننا عند هذا الحد. لكن الرجل أثار اهتمامي إثارة قوية، فظللت طوال النهار فريسة خواطر وأفكار بلغت من الغرابة إنني قررت أن أزوره في الغد. فلما دخلت عليه لم يخف استيائه من رؤيتي، وأفهمني «بكياسة ولباقة» أن علاقتنا يجب أن لا تطول. ومع ذلك قضيت عنده ساعة كانت شائقة لي وله على السواء فيما أظن. إن التعارض بيننا يبلغ من القوة أننا لم نستطع لا أنا ولا هو إلا أن نلاحظ ذلك، وقد لاحظته أنا خاصة. أنا إنسان أيامه معدودة، وهو رجل زاخر بحياة مندفعة، مستسلم استسلاماً تاماً لهوى اللحظة الحاضرة، لا تهمه الاستنتاجات «الأخيرة» أو الأرقام أو أي شيء، ولا يعنيه أمر مما... مما... مما لا شأن له بموضوع هواه وجنونه. فليغفر لي السيد روجويين هذا التعبير وليرجعه إلى الخراقة لدى كاتب ضعيف في الإفصاح عما يجول في فكره. لقد أحسست أثناء لقائي بالسيد روجويين، رغم قلة بشاشته وتودده، أنه رجل ذكي، قادر على أن يفهم أموراً كثيرة، وإن كان لا يعنيه شيء مما لا يتصل به مباشرة. ثم أشر أمامه أية إشارة إلى «اقتناعي الأخير»، لكنني أدركت من بعض العلاقات أنه قد كفاه أن يسمع كلامي حتى يحزره. لقد كان ساكتاً لا يتكلم. إن هذا الرجل صموت صمتاً هائلاً. وقلت له عند انصرافه إنه هو نفسه، رغم الفروق التي بيننا ورغم التعارض الذي يفصلنا - الأطراف القصوى تلتقي كما يقول الفرنسيون - (ترجمت له هذا التعبير الفرنسي إلى الروسية)، أقول إنه رغم ذلك قد لا يكون بعيداً عن هذا «الاقتناع الأخير» إلى الحد الذي يُظن، فلم يجبني إلا بتصعيرة في وجهه زاخرة بالمرارة، ثم نهض ومضى يأتيني بقبعتي متظاهراً بالاعتقاد أنني أنهى لانصراف. وبحجة أنه يوصلني إلى الباب أدباً ولباقة، لم

يزد في الواقع على أن طردني من بيته المتجههم طرداً. ولقد عجبت لبيته هذا فعلاً: «لأنه مقبرة. ولكنني أظن أنه يعجبه ويرضيه. وهذا شيء يفهمه المرء بسهولة: فإن روجويين يعيش حياة أزخر بالعنف وأقوى اتصالاً بالأمور المباشرة من أن يشعر بحاجة إلى جو في البيت أبهج وألطف.

«أرهقتني زيارتي تلك لروجويين. ثم إنني كنت أشعر بتعب منذ الصباح. حتى إذا كان المساء أحسست بإعياء شديد وضعف كبير فتمددت على سريري. كانت حمى عنيفة تنتابني في بعض اللحظات حتى لتجعلني أهذي. ولبت كوليا بقربي حتى الساعة الحادية عشرة. وأنا أتذكر مع ذلك كل ما قاله لي وكل الأمور التي تكلمنا عنها. ولكن حين كانت تطبق أجفاني من حين إلى حين فأغفو قليلاً، فإن صورة إيفان فومتش كانت تعود إليّ دائماً، فأراه في الحلم وقد أصبح مليونيراً، وأراه لا يدري ماذا يصنع بملايينه، فهو لا يبرح يحضر في رأسه باحثاً لها عن مكان، ثم يخطر بباله أن من الممكن أن تُسرق فيرتجف خوفاً وينتهي به الأمر إلى أن يقرر دفنها. فأنصح به بأن يصهر هذه الثروة بدلاً من أن يدفنها في غير طائل، ثم يصنع منها تابوتا ذهبيا صغيرا للطفل الذي تركه يموت «متجمدا» من البرد، وذلك بعد أن يخرج رفاته من القبر؛ فيستقبل سوريكوف هذه النصيحة الساخرة بدموع شكر وعرفان، ويسرع يضعها موضع التنفيذ. فأبصق على الأرض تعبيراً عن الشعور بأنه امرؤ لا سبيل إلى إصلاحه، وأدعه حيث هو وأمضى. وقد أكد لي كوليا، حين استرددت وعيي استرداداً كاملاً، أنني لم أنم البتة، وأنني ما انفكت أكلمه عن سوريكوف طوال الوقت. ومرّت لحظات اجتاحتني فيها نوبات غم رهيب واضطراب فظيع، لذلك تركني كوليا وهو يشعر بقلق. ونهضت أغلق الباب وراءه بالمفتاح، فتذكرت في تلك اللحظة، على حين فجأة، لوحة كنت رأيته في ذلك الصباح عند روجويين، في إحدى الصالات المعتمدة المظلمة من منزله فوق باب من الأبواب. لقد أرائها هو نفسه حين مررنا بها، فلبثت واقفاً قرابة خمس دقائق - فيما أذكر - أمام تلك اللوحة التي ألقنتني إلى حالات اضطراب عنيف رغم خلوها من أية قيمة فنية.

«كانت اللوحة تمثل المسيح لحظة إنزاله عن الصليب. إن الرسامين، إذا لم يخطئ ظني، إنما اعتادوا أن يصوروا المسيح إما على الصليب وإما بعد نزوله عنه، مع وميض جمال في وجهه يفوق الطبيعة. إنهم يحرصون على أن يحتفظوا له بذلك الجمال حتى في وسط أشد أنواع العذاب قسوة. أما اللوحة التي رأيته عند روجويين فلم يكن فيها شيء من هذا. إنها تصوير كامل لجثمان إنساني يعبر عن جميع العذابات التي لا حدود لها مما احتمله المسيح حتى قبل صلبه. ففيها آثار الجروح وآثار اللطمات والضربات

التي أمطره بها حراسه والناس حين كان يحمل صليبه ويسقط على الأرض تحت وطأة ثقله؛ وفيها أخيراً آثار الصلب خلال ست ساعات (إذا صدق حسابي أنا على الأقل). هذا حقاً وجه إنساني أنزل عن الصليب «منذ برهة». إنه ما يزال يحتفظ بكثير من الحياة والحرارة. ولم يكن التجمد قد فعل فعله بعد، فكان وجه الميت ما يزال يصور الألم كأنه ما انضك يعانيه (لقد أدرك الفنان هذا إدراكاً قوياً). زد على ذلك أن الوجه كان يعبر عن الحقيقة صارمة لا تراعي ولا تداري: فكل شيء فيه طبيعي. إنه حقاً وجه أي إنسان عانى تعذيباً كذلك التعذيب.

«أنا أعرف أن الكنيسة المسيحية قد ذهبت، منذ القرون الأولى، إلى أن آلام المسيح لم تكن رمزية بل واقعية، وأن جسمه كان يخضع وهو على الصليب لجميع قوانين الطبيعة بدون أي تحديد أو تضيق. فكانت اللوحة إذن تمثل وجهاً شوّهته الضربات تشويهاً فظيلاً، فتورّم وتنفخ، وامتلاً خدوشاً وجروحاً نازفة رهيبية، وحملت عيناه، وانقلبت حدقتاهما، واتسع بياضهما الذي يلتمع التماعاً زجاجياً يعكس الموت. غير أن أغرب ما في الأمر هو هذا السؤال العجيب الذي يوحيه منظر جثمان ذلك الإنسان الذي عذب هذا التعذيب: إذا كان جميع مريديه، إذا كان جميع الذين سيصبحون حواريين، إذا كانت النساء اللواتي تبعنه وتعلقن بأسفل الصليب، إذا كان الذين آمنوا به وعبدوه، إذا كان جميع هؤلاء قد رأوا أمام أبصارهم جثة كتلك الجثة (ولا بد أن الجثة كانت على الصورة التي وصفناها) فكيف أمكنهم أن يصدقوا وهم يرون هذه الرؤية أن الشهيد سيبعث حياً ويقوم؟ إن المرء ليقول لنفسه رغم أنفه: إذا كان الموت أمراً فظيلاً إلى هذا الحد، إذا كانت قوانين الطبيعة قوية هذه القوة، فكيف يمكن الانتصار عليها؟ كيف يمكن تذليلها في حين أنها لم تلق حتى أمام ذلك «الذي» أخضع الطبيعة أثناء حياته، وجعلها تنصاع له، وقال: «قومي طليثاً»^[18] فإذا الصبية تقوم، وقال «اخرج لعازر»^[19] فإذا الميت يخرج من القبر. حين يتأمل المرء هذه اللوحة فإنه يتخيل الطبيعة في صورة وحش ضخم حاقد أخرس. أو قل، مهما يكن التشبيه غريباً غير متوقع، إن من الأصح كثيراً أن تشبه الطبيعة هنا بألة حديثة من آلات البناء الضخمة، صماء لا تحس، بلهاء لا تفهم، تلففت ثم طحنت ثم ابتلعت «كائنات» لا يعادله كائن، يساوي وحده كل الطبيعة وكل القوانين التي تحكم الطبيعة، وكل الأرض التي لعلها لم تُخلق إلا ليظهر ذلك «الكائن».

«لقد بدا لي أن تلك اللوحة إنما تعبر عن فكرة وجود قوة غامضة غاشمة أبدية يخضع لها كل شيء، وتحكمكم رغم أنوفكم. إن الناس الذين كانوا يحيطون بالميت،

رغم أن اللوحة لم تصور أي واحد منهم، لا بد أنهم شعروا بغمٍ فظيع وانصعاق رهيب في ذلك المساء الذي حطم، دفعة واحدة، جميع آمالهم، وكاد يحطم إيمانهم. لا بد أنهم افترقوا على هلع هائل ملاً جوانب أنفسهم، رغم أن كل واحد منهم حمل في قرارة نفسه فكرة كبيرة ترسخت في أعماقه فلا سبيل إلى انتزاعها منها بعد ذلك قط. سؤال آخر: ترى لو استطاع «المعلم» أن يرى صورة نفسه عشية تعذيبه، أفكان يمشي إلى الصليب وإلى الموت كما مشى إليهما؟ ذلكم سؤال آخر يخطر ببالكم على غير إرادة منكم حين تنظرون إلى تلك الصورة.

«حاصرت هذه الخواطر فكري بعد انصراف كوليا خلال ساعة ونصف ساعة. وكانت مفككة، وأغلب الظن أنها كانت تشتمل على هذيان، لكنها كذلك تكتسي في بعض الأحيان مظهراً محسوساً. هل يستطيع الخيال أن يضفي شكلاً معيناً على ما ليس له في الواقع شكل؟ كان يخيل إليّ في بعض اللحظات أنني أرى تلك القوة التي لا نهاية لها، أرى ذلك الكائن الأصم المظلم الأخرس يتجسّد تجسّداً مادياً على نحو غريب لا سبيل إلى وصفه. أذكر أنني أحسست بأن أحداً حاملاً شمعة قد أمسك يدي فأراني عنكبوتة ضخمة كريهة، مؤكداً لي أن هذه العنكبوتة الضخمة هي بعينها ذلك الكائن المظلم الأصم القادر على كل شيء، ضاحكاً من الاستياء التي أظهرته.

«يضيء غرفتي في الليل دائماً مصباحٌ صغير أمام الأيقونة. ورغم أن ضوء هذا المصباح كامد مهتز فإنه يتيح تمييز الأشياء، حتى ليستطيع المرء أن يقرأ إذا هو دنا من الضياء. أظن أن الوقت كان بعد منتصف الليل بقليل. لم أكن نائماً البتة، وكنت مضطجعاً مفتوح العينين. وفيما أنا كذلك إذا بباب غرفتي يُشق فجأة فيدخل روجوبين.

«دخل وأغلق الباب ثانية، ونظر إليّ دون أن يقول كلمة، واتجه متمهلاً نحو الكرسي الذي يوجد في زاوية الغرفة تحت المصباح تقريباً. دُهِشت أشد الدهشة، وأخذت أرقبه منتظراً ما سوف يفعله. وضع كوعيه على منضدة صغيرة، وحدّق إليّ بنظرة ثابتة صامتة. انقضت ثانيتان أو ثلاث ثوان على هذه الحال. وأذكر أن صمته قد أهانني كثيراً وأثار حنقي. لماذا لا يحزم أمره فيتكلم؟ وقد استغربت طبعاً أن يجيء في ساعة متأخرة هذا التأخر كله. ولكنني لا أذكر أن هذا شذهني وأذهلني كثيراً في حد ذاته. بالعكس: صحيح أنني لم أعرب له في الصباح عن فكريتي إعراباً واضحاً، لكنني كنت أعلم أنه حزرها وأدركها. ولقد كانت تلك الفكرة تستحق فعلاً أن يجيء لمعاودة الكلام فيها، ولو في ساعة متأخرة جداً. لذلك قررت أنه إنما جاء لهذا الغرض. كنا قد افترقنا في الصباح على غير وفاق ووثام، حتى أنني أذكر أنه رشقني مرة أو مرتين بنظرة فيها

كثير من السخرية والاستهزاء. وهذا التعبير نفسه عن السخرية والاستهزاء هو ما أقرؤه الآن في نظرتي، وهو ما أشعر أنه يجرح شعوري ويهين كرامتي. أما أنني كنت أرى أمامي روجويين نفسه فعلاً، وأنني لا أرى حلم نوم أو أشباح هذيان فذلك ما لم يراودني فيه أيسر شك في أول الأمر، حتى أن هذه الفكرة لم تخطر ببالي أصلاً.

«ويظل روجويين جالساً، ويظل ينظر إليّ مبتسماً ابتسامته الساخرة تلك. انقلبت على سريري غاضباً، ووضعت كوعي على وسادتي وقررت أن أقلد صمته، ولو طال هذا الصمت إلى غير نهاية. لا أدري لماذا أردت أن يكون هو البادئ بالكلام حتماً. أظن أن نحو عشرين دقيقة انقضت على هذه الحال. وفجأة ومضت في ذهني فكرة: من يدري؟ قد لا يكون هذا روجويين، بل شبحاً لا أكثر!

«لم يكن قد تراءى لي أي شبح لا أثناء مرضي ولا قبل مرضي. وأنا منذ طفولتي حتى هذه اللحظة، أي حتى الآونة الأخيرة، رغم أنني لم أومن قط بأشباح تظهر، كان يبدو لي دائماً أنني سأموت فوراً إذا اتفق أن يظهر لي شبح مرة. ومع ذلك أذكر أنني حين خطر ببالي أن هذا ليس روجويين بل هو شبح، لم أشعر من ذلك بأي رعب. وأكثر من هذا أنني شعرت بغضب. أمر غريب: إن التساؤل عما أراه أمامي أهو شبح أم هو روجويين بشخصه لم يشغلني ولا أقلقني، كما كان طبيعياً أن يحدث ذلك. ويبدو لي أن فكري كان منصرفاً إلى غير هذا. من ذلك مثلاً أنني كنت على أحرّ من الجمر رغبة في أن أعرف لماذا كان روجويين يرتدي الآن رداء «فراك»، وصديرة بيضاء، وربطة عنق بيضاء بينما كان في الصباح يلبس ثوباً للمنزل وينتعل خفين. وقلت لنفسني: إذا كان ما أراه شبحاً فإنني غير خائف منه. فلماذا لا أنهض فاقترب منه لأتحقق بنفسني ما هو؟ أتراني مع ذلك خائفاً لا أجسر أن أفعل؟ ولكن ما إن خطر ببالي أنني خائف حتى شعرت بصقيع في جسمي كله، وسرت في ظهري رعدة، وأخذت ركبتاي تصطكان ارتجافاً. وكأن روجويين أدرك رعبي، فإذا هو، في تلك اللحظة نفسها، يسحب ذراعه التي كان متكئاً على كوعها، وينتصب قائماً، ويفتح فمه يهم أن يضحك. وكان يحدّق إليّ في إصرار وعناد. فاجتاحني حنق بلغ من القوة أنني أردت أن أهجم عليه. لكنني وقد آليت على نفسي أن لا أكون البادئ بقطع الصمت، لم أتحرك عن سريري. ثم إنني لم أكن واثقاً مم أن ما أراه هو روجويين بشخصه، وليس طيفاً أو شبحاً.

«لا أذكر كم طال هذا المشهد. لا ولا أستطيع أن أقول هل كنت أغفو أثناء ذلك من حين إلى حين. ونهض روجويين أخيراً، فتأملني بهدوء وانتباه، كما فعل حين دخل، ولكن دون ضحك ساخر في هذه المرة، ثم اتجه بخطى لا تكاد تلمس الأرض، على

رؤوس الأصابع تقريباً، اتجه نحو الباب ففتحه وخرج وأغلق وراءه. لم أنهض من مكاني. ولا أذكر كم من الوقت ظللت على هذه الحال مضطجعاً، مفتاح العينين، غارقاً في أفكاري، مستسلماً لخواطري. ماذا كانت تلك الأفكار والخواطر؟ الله أعلم! ولست أذكر أيضاً كيف غفوت.

«استيقظت في الغد بعد الساعة التاسعة، حين سمعت قرعاً على بابي. إن من المتفق عليه في بيتنا أن تقرر ما تريونا بابي إذا لم أفتحه من تلقاء نفسي بعد الساعة التاسعة ولم أنادي أحداً لإتياني بالشاي. فلما فتحت الباب لماتريونا أسرعاً أتساءل: كيف أمكنه أن يدخل إذا كان هذا الباب مغلقاً. واستطلعت الأمر فأيقنت أنه ما كان لزوجيين أن يستطيع دخول غرفتي لأن جميع أبوابنا تكون في الليل مقفلة بالمفتاح.

«إن هذا الحادث الذي وصفته لكم بجميع هذه التفاصيل الكثيرة هو الذي حضني على أن أتخذ «قراري» نهائياً. إن هذا القرار لا يصدر إذن عن منطق الاستدلال العقلي بل عن شعور الاشمئزاز العاطفي. إنني لا أستطيع أن أبقى في حياة تكتسي أشكالاً غريبة وجارحة إلى هذا الحد. إن ذلك الشبح قد تركني تحت وطأة إحساس بالذل. إنني لا أشعر بأنني أرضى الخضوع لقوة تستعير مظاهر عنكبوت ضخمة. أنا لم أحس بشيء من التخفف إلا حين رأيتني أخيراً، عند الغسق، أمام قرار كامل نهائي. ومع ذلك لم يكن هذا إلا مرحلة أولى: وكنت سأجتاز المرحلة الثانية في بافلوفسك، ولكن هذا قد سبق أن شرحتة شرحاً كافياً».

الفصل السابع

كان عندي مسدس صغير للجيب، حصلت عليه حين كنت طفلاً، في تلك السن المضحكة التي يأخذ فيها الطفل بالتحمس لقصص المبارزات وهجمات قطاع الطرق. كنت أحلم بأن أدعى إلى مبارزة، فأقف أمام مسدس خصمي رابط الجأش ثابت الجنان. وقد فحصت هذا المسدس منذ شهر وسلحته. ففي اللعبة التي كانت تضمه وجدت رصاصتين ووعاء صغيراً يحتوي على بارود يكفي لطلقتين أو ثلاث. إن المسدس رديء لا قيمة له، فهو ينحرف ولا يتجاوز مداه خمس عشرة خطوة، لكنه إذا وضع على الصدغ رأساً فلا شك أنه يكفي لتحطيم الجمجمة.

«قررت أن أموت في بافلوفسك، عند طلوع الشمس، بعد أن أنزل إلى الحديقة العامة حتى لا أحدث اضطراباً في الفيلا. إن «الشرح» الذي أتركه بعد موتي سيكون كافياً لتوجيه التحقيق الذي ستقوم به الشرطة. وسوف يستطيع عشاق علم النفس والمهتمون بالأمر أن يستخلصوا من ذلك كل ما يحلو لهم أن يستخلصوه... ومع ذلك لا أحب أن تُنشر هذه المخطوطة في الصحف. إنني أرجو الأمير أن يحتفظ بنسخة عنده وأن يوصل النسخة الأخرى إلى آجلايا إيفانوفنا إيبانتشيننا. هذه إرادتي. وأنا أوصي بهيكلي العظمي لأكاديمية الطب خدمة للعلم.

«لا أعترف لأحد بحق الحكم عليّ، وأعلم أنني الآن في منجى من كل قضاء. منذ مدة قصيرة راودتني فكرة مضحكة. تساءلت: لو بدا لي فجأة أن أقتل أحد الناس، أو أن أذبح عشرة أشخاص مرة واحدة، أو أن أقترف أية جريمة فظيعة، أن أرتكب أفظع جريمة يمكن أن يتحدث عن هولها الناس، فما أشد الارتباك الذي سأضع فيه المحكمة وأنا لم يبق لي من الحياة إلا أسبوعان أو ثلاثة، وقد ألغى الاستجواب والتعذيب؟ لو فعلت هذا لأتيح لي أن أموت مرفهاً مدلاً في المستشفى، محاطاً بعناية الأطباء، وقد يتوفر لي من الراحة والدفع هناك أكثر كثيراً مما يتوفر لي في بيتي. لا أفهم كيف لا تخطر هذه الفكرة ببال الناس الذين يكونون في مثل حالتي، ولو من قبيل المزاح. لعل الفكرة خطرت ببالهم فعلاً، فليس الفكهون هم الذين ينقصوننا أو ينقصون غيرنا.

«ولكن إذا كنت لا أعترف بقضاة يحكمون عليّ، فهذا لا ينفي أنني أعرف أن الناس

سيحكمون عليّ، حتى حين أكون قد أصبحت متهماً أصم أبكم. لذلك لا أريد أن أمضي قبل أن أترك رداً حراً بغير إكراه، لا لأبرر نفسي، لا، لا! فما أنا في حاجة إلى أن أطلب غفراناً من أحد، بل لأنني أحب أن أترك رداً، ولأنني أجد في ذلك لذة.

«إليكم أولاً هذه الفكرة الغريبة: من ذا الذي يستطيع - وبأي حق ولأي سبب؟ - أن ينكر عليّ حرية التصرف في حياتي خلال هذين الأسبوعين أو هذه الأسابيع الثلاثة؟ أية محكمة يمكن أن تكون جهة الاختصاص في هذا؟ وما عسى أن تكون الفائدة لا من أن أكون مقضياً عليّ بالموت فحسب، بل كذلك من أن أحتمل المدة الباقية لتنفيذ الحكم بالموت مذعناً عاقلاً؟ هل يمكن أن ينتفع أحد بهذا حقاً؟ هل تستفيد قضية الأخلاق من هذا فعلاً؟ كان يمكن أن أقبل هذا الكلام لو كنت أنتظر، وأنا في تمام العافية وفي كمال القوة، أن يأتي حينٌ «أكون فيه نافعاً لأخي الإنسان» إلخ... إلخ... إن الأخلاق تستطيع عندئذ أن تتهمني، منقادة لروتين عتيق بالي، بأنني تصرفت في حياتي دون استئذان، أو أن تتهمني باقتراف ذنب آخر من هذا النوع!... أما الآن وقد أبلغت موعد موتي، فبماذا يمكن أن أتهم؟ ما هي تلك الأخلاق التي تطلب منك بالإضافة إلى حياتك، تلك الحشرة الأخيرة التي تلفظ أثناءها آخر ذرة من روحك، سامعاً تلك الكلمات المواسية المعزية التي لن يفوت الأمير أن يقولها لك وأن يصل منها إلى براهين مسيحية على أن من الأفضل لك حقاً أن تموت؟ (إن أمثاله من المسيحيين يصلون دائماً إلى تلك الفكرة، فهي موضوع هوسهم!). ما الذي يريدونه من حديثهم المضحك عن «أشجار بافلوفسك»؟ أيريدون أن يجعلوا ساعتى الأخيرة أرفق وألطف؟ أهم لا يدركون إذن أنني على قدر ما أنسى نفسي فأنقاد لغواية هذا الشبح الأخير من الحياة والمحبة الذين يأملون أن يخفوا به عن بصري حائط منزل ماير وكل ما هو مسجل عليه بصراحة كبيرة وسذاجة تامة، أنني على قدر ذلك يزداد شقائي وتتفاقم تعاستي؟ فيم تهمني الطبيعة الجميلة وحديقة بافلوفسك العامة، وفيم يهمني شروق الشمس وغروبها، والسماء الزرقاء والوجوه الرضوية الرخية، إذا كنت الشخص الوحيد الذي يُعدّ غير مفيد، وإذا كنت الشخص الوحيد الذي أبعد عن هذه الوليمة منذ البداية؟ ما حاجتي إلى كل ذلك السناء وكل تلك الروعة إذا كان يجب عليّ في كل دقيقة، وفي كل ثانية، أن أعلم مجبراً أن تلك الذبابة الصغيرة التي تدندن الآن حولي في شعاع شمس، يحق لها أن تشارك في تلك الوليمة وأن تشارك في جوقة الطبيعة هذه. إنها تعرف المكان المحفوظ لها، وهي تحبه وهي سعيدة به. أما أنا فإنني وحدي المنبوذ؛ ولم يمنعني عن فهم ذلك حتى الآن إلا الجبن.

«إنني أعلم أن الأمير وسائر الآخرين يريدون أن يحملوني على العدول عن هذه

التعابير «الحاقدة الكارهة»، ويودّون لو يسمعونني أنشد، باسم انتصار الأخلاق، تلك الأبيات الشعرية الكلاسيكية الشهيرة التي أنشدها ميلفوي إذ قال:

ألا فليرَ جمالك المقدس

أصدقاء كثيرون، صُمّت آذانهم عن سماع وداعي!

ولتطلّ أعمارهم، ولتُذرف لموتهم الدموع

ولتطبق أجفانهم يدا صديق.

«ولكن صدّقوا أيها البسطاء، صدّقوا كل التصديق، أن في هذه الأبيات الواعظة وفي هذه المباركة الأكاديمية للعالم بشعر فرنسي، كثيرا من المرارة الخبيثة، وكثيرا من البغضاء التي لا يشفى لها غليل، البغضاء التي تتلذذ بنفسها؛ وأن تلك المرارة وهذه البغضاء بلغتا من القوة والشدة أن الشاعر نفسه يمكن أن يكون قد انطلى عليه الأمر فحسب الكره والحقد دموع حنان وعبرات عاطفة. ولا شك أن الشاعر مات وهو على ذلك الوهم. رحمه الله! اعلّموا أن هناك حداً للغم والقهر والنكد الذي يحدثه في نفس الإنسان شعوره بأنه لا شيء، وبأنه عاجز، فإذا تجاوز الإنسان ذلك الحد غرق في لذة خارقة.

«صحيح أن المذلة هي بهذا المعنى قوة ضخمة. إنني أسلم بهذا. ولكن هذه القوة ليست القوة التي يجدها فيها الفن.

«آه... الدين! إنني أسلم بالحياة الأبدية. ولعلني كنت أسلم بها دائماً. أحب فعلاً أن أعتقد أن الشعور شعلة أوقدتها إرادة قوة عليا، وأنه يعكس في ذاته الوجود، وأنه يقول: «أنا موجود». وأحب أن أؤمن أيضاً بأن هذه القوة العليا نفسها تأمره دفعة واحدة بأن ينطفئ، لحكمة بعيدة غامضة، وبدون أي تفسير. ليكن. إنني أسلم بهذا كله. ولكن يبقى السؤال الأبدي: لماذا يجب عليّ أن أضيف إلى هذا الإجبار إذعاني وذلي؟ ألا يكفي أن أُلْتهم فحسب، دون أن أتغنى بمدح ذلك الذي يلتهمني؟ هل يمكن أن يوجد هناك في المألى الأعلى أحد يسيء إليه حقاً ويؤذيه فعلاً أن لا أريد انتظار ساعتى أسبوعين؟ لا، لا أصدق هذا! بل افترض - وذلك أقرب كثيراً إلى الصحة - أن تكون حياتي المسكينة التي هي حياة ذرة، قد وُجدت حاجة إلى زوالها لإكمال انسجام كلي شامل، لتحقيق زيادة معينة أو نقص معين، لإيجاد نوع من تضاد أو تعارض أو شيء من هذا القبيل، كما توجد حاجة إلى التوضيح كل يوم بملايين الكائنات التي لا يمكن أن يبقى العالم ما لم تمت (لاحظوا أن هذه الفكرة ليست سمحة في ذاتها). ولكن فلننتقل من هذا.

لنسلم بأنه إذا لم يأكل البشر بعضهم بعضاً، يستحيل بناء العالم؛ بل ولأرتض أن لا أفهم من هذا البناء شيئاً. ولكن إليكم ما أعلمه حتماً: إذا كنت قد أوتيت أن أدرك أنني «أوجد»، فهل أنا مسؤول عن كون هذا العالم قد بُني مقلوباً وأنه لا يمكن أن يوجد إلا بهذه الطريقة وعلى هذا النحو؟ من ذا سيحكم عليّ بعد هذا، وإلى أي شيء سيستند ليحكم عليّ؟ فكروا في الأمر ما شئتم أن تفكروا، فلن تستطيعوا أن تنكروا أن هذا كله يستحيل تصوّره، وأنه كله ظلم لا عدل.

«على أنني لم أستطع في يوم من الأيام، رغم كل رغبتني في ذلك، أن أتصوّر أن الحياة الآخرة والعناية الإلهية لا وجود لهما. فأغلب الظن أن ذلك كله موجود، ولكننا لا نفهم شيئاً لا عن الحياة الآخرة ولا عن القوانين التي تحكمها. ولكن إذا كان هذا يصعب بل يستحيل فهمه، فهل أحاسب أنا على عجزني عن إدراك ما لا يمكن تصوّره؟ صحيح أنهم يدعون - وهذا رأي الأمير قطعاً - أن من الواجب علينا هنا أن نخضع ونطيع دون تفكير، بداعي الحس الأخلاقي وحده؛ وهم يضيفون إلى ذلك أن طواعيتي ستجد في الحياة الآخرة مكافأتها. إلا أننا نخفض قيمة العناية الإلهية كثيراً فأكرر قولني بأن الإنسان إذا عجز عن فهم العناية الإلهية فمن الصعب أن يتحمّل تبعة عجز عن الفهم فرض عليه فرضاً وجُعِلَ له قانوناً. وإذا كان الأمر كذلك فكيف يحكم عليّ لأنني لم أستطع أن أفهم إرادة العناية الإلهية وأن أدرك قوانينها؟ لا! الأولى أن ندع الدين جانباً.

«وكفى هذا، على كل حال! حين سأصل إلى هذه الأسطر ستكون الشمس قد طلعت، وستأخذ «تترجّع في السماوات» مغدقةً على الكون كله قوى واسعة لا تعدّ ولا تحصى! لتكن مشيئة الله! سوف أموت متأملاً وجه ينبوع القوة والحياة هذا، ينبوع هذه الحياة التي لن أريدها بعد اليوم. لو كانت ولادتي مرهونة بإرادتي، لرفضت الوجود في ظل ظروف ساخرة إلى هذا الحد. ولكنني ما أزال أقدر أن أموت، وإن كنت لا أملك إلا بقية حياة أصبحت أيامها منذ الآن معدودة. هذه قدرة ضئيلة؛ وليس تمردي أقل ضائلة منها.

«شرح أخير: إذا مت فإن ذلك لا يرجع إلى أنني لا أملك الشجاعة اللازمة لاحتمال هذه الأسابيع الثلاثة. إن في وسعي حتماً أن أجِد القوة الضرورية لاحتمالها؛ ولو شئت لكان في إمكاني أن أستمّد عزاء كافياً من الشعور بالإهانة التي ألحقت بي. لكنني لست شاعراً فرنسياً، ولا أحرص على هذا النوع من العزاء. ثم إن هناك إغراء: إن الطبيعة حين قضت بأن لا أعيش إلا ثلاثة أسابيع قد بلغت من تضيق ساحة عملي أن

الانتحار ربما كان الآن هو الفعل الوحيد الذي أستطيع أن أقوم به وأن أنقذه بإرادتي الحرة. فلماذا لا أستغل هذه الإمكانيّة الأخيرة التي تتاح لي من أجل أن «أعمل»؟ ربّ احتجاج له قيمته في بعض الأحيان...».

أنهى هيبوليت أخيراً قراءة «الشرح»، فوقف...

إن الإنسان العصبي، إذا غضب غضباً شديداً وخرج عن طوره، يمكن في حالات قصوى أن يمضي في الصراحة إلى درجة الاستخفاف والاستهتار. فلا يخشى بعدئذ شيئاً، ويكون مستعداً لإثارة أية فضيحة، حتى لقد يفتنه هذا ويخلب لبه. إنه يهجم على الناس وقد عقد النية بصورة غامضة لكنها حاسمة على أن يلقي بنفسه بعد دقيقة واحدة من أعلى برج ناقوس، فيصفيّ بذلك، دفعة واحدة، جميع الارباقات والمشكلات التي يكون قد خلقها سلوكه. وهذه الحالة يسبقها في العادة وينذر بها إنهاك يعتري القوى الجسميّة شيئاً بعد شيء. إن التوتر الشديد، غير السوي، الذي سند هيبوليت حتى ذلك الحين، كان قد بلغ تلك المرحلة. فجسم هذا المراهق الذي يبلغ الثامنة عشرة من عمره، والذي هدّه المرض، كان يبدو ضعيفاً ضعف ورقة مرتجفة انتزعت من الشجرة. لكنه ما إن نظر إلى سامعيه - لأول مرة منذ ساعة- حتى عبرت نظرتة وابتسامته فوراً، عن أكبر اشمئزاز متعال، وعن أشدّ احتقار جارح. لقد كان يتعجل أن يتحداهم، لكن هؤلاء قد امتلؤوا استياء وانزعاجاً. فنهضوا عن المائدة يضجون غضباً. إن التعب والخمرة وتوتر الأعصاب، إن ذلك كله قد فاقم الفوضى وزاد عكر المشاعر في هذا الاجتماع.

نهض هيبوليت عن كرسيه بوثبة، نهض نهوضاً مفاجئاً كأنما هو انتزع انتزاعاً. فلما رأى ذرى الأشجار تسطع بالنور هتف يقول للأمرير وهو يشير إليها، كما لو كان ذلك معجزة من المعجزات:

- طلعت الشمس! طلعت الشمس!

قال فردشتينكو:

- أترأى كنت تظن أنها لن تطلع؟

ودمدم جانبا يقول معبراً عن الضجر وقلة الاكتراث، متناولاً قبعته بيده، متمطياً ومتثائباً:

- الجو يؤذن بنهار آخر محرق. هل أمامنا شهر آخر من جفاف؟... أننصرف أم نبقى يا بتتسين؟

أصغى هيبوليت إلى هذه الكلمات بدهش يشبه أن يكون انشداها. وشحب لونه على حين فجأة شحوباً فظيماً، وأخذت أعضاؤه كلها ترتعش.

قال لجانيا وهو يحدق إلى بياض عينيه:

- تتصنع قلة الاكتراث لتهينني! أنت رجل تافه!

قال فردشتينكو:

- يا سلام! ما هذا الانطلاق في الكلام بغير تحرّج؟ يا للاسترسال الهائل الذي لا يعرف الكلفة!

قال جانيا:

- ما هو إلا شاب غبي لا أكثر!

استرد هيبوليت شيئاً من سيطرته على نفسه وكظم غيظه، وبدأ يتكلم فقال وهو ما يزال يرتعش ويقاطع نفسه في كل لحظة:

- إنني أفهم أيها السادة أن أكون جديراً بحقدكم الشخصي، و... يؤسفني أنني أزعجتكم بقراءة هذا الهديان لكم (قال ذلك وهو يشير إلى مخطوطته). ولكن يؤسفني من جهة أخرى أنني لم أضايقكم مزيداً من المضايقة (قال هذا وابتسم ابتسامة بلهاء). أليس صحيحاً يا أوجين بافلوفتش أنني كنت مزعجاً مضجراً؟ أكنت مضجراً أم لا؟ تكلم!

أجاب أوجين بافلوفتش:

- كانت المقالة طويلة بعض الطول، ولكن.. على كل حال...

فقاطعه هيبوليت وهو ما يزال يرتجف:

- قل فكرتك كلها، لا تكذب؟ مرة واحدة في حياتك على الأقل...

قال أوجين بافلوفتش وهو يشيخ بوجهه مشمئزاً:

- أوه!! يستوي عندي تماماً... دعني وشأني، أرجوك.

قال بتتسين وهو يقترب من المضيف:

- طابت ليلتك يا أمير.

وهتفت فيرا تقول مسرعة نحو هيبوليت:

- لكنه سيطلق النار في رأسه، ما بالكم؛ انظروا إليه! قال إنه سينتحر عند طلوع الشمس، ماذا تفعلون؟

كانت فيرا في ذروة الذعر حتى لقد أمسكت يديه.

فدمدمت عدة أصوات، منها صوت فانيا، تقول بلهجة كارهة:

- لن ينتحر!

صاح كوليا وقد أمسك يد هيبوليت هو أيضاً:

- حذار أيها السادة؛ انظروا إليه! أمير، أمير، كيف تبقى غير مكترث؟

تجمع حول هيبوليت كل من فيرا وكوليا وكيللر وبوردوفسكي، وتشبث الأربعة به.

تمتم بوردوفسكي يقول:

- هذا من حقه، هذا من حقه!...

ولكن بوردوفسكي كان يبدو عليه أنه فاقد عقله تماماً.

وقال ليبيديف للأمير يسأله:

- اسمح لي يا أمير؛ ما هي الإجراءات التي تنوي اتخاذها؟

كان ليبيديف مخموراً، وكان اندفاعه يتحول إلى وقاحة.

سأله الأمير:

- أية إجراءات تعني؟

- لا، اسمح لي! أنا هنا سيد الدار، وإن كنت لا أريد أن أقلل ما أحمله لك من

اعتبار!... إنني أسلم بأن هذا البيت بيتك أيضاً... ولكنني لا أريد مشاكل من هذا النوع تحت سقفي... لا... لا أريد!...

وصاح الجنرال إيفولجين يقول فجأة بلهجة فيها ثقة وامتنعاض على قدر سواء:

- لن ينتحر.. هذا الصبي مهرج!

فصاح فردشتينكو يقول مجدداً:

- مرحى يا جنرال!

قال ليبيديف:

- أنا أعرف أنه لن ينتحر يا جنرال.. أيها الجنرال المحترم جداً... ولكنني مع ذلك... أنا هنا سيد الدار.

ودّع بتتسين الأمير، ومدّ يده إلى هيبوليت. وقال له بغتة:

- اسمع يا سيد تيرنتيف: ورد في كتابك ذكرٌ لهيكلك العظمي فيما أظن، وورد أنك تورثه أكاديمية الطب، أليس كذلك؟ فهل تقصد هيكلك العظمي أنت؟ أعظامك تورث؟

- نعم، عظامي...

- آ.. طيب. ذلك أن من الممكن أن يحدث سوء فهم. يظهر أن شيئاً من هذا سبق أن وقع.

تدخل الأمير فجأة يسأل بتتسين:

- لماذا تغيظه؟

وأضاف فردشنشكو قائلاً:

- لقد أبكيتَه!

لكن هيبوليت لم يكن يبكي البتة. وقد همّ أن يفلت، لكن الأشخاص الأربعة الذين كانوا يحيطون به، لم يلبثوا أن قبضوا عليه. وانطلقت ضحكات.

قال روجويين:

- كان يأمل أن نوثق يديه لنصده عن الانتحار، لذلك قرأ لنا دفتره. استودعك الله يا أمير. لقد طال جلوسنا حتى أصبحنا نحسّ بألم في عظامنا.

وقال أوجين بافلوفتش ضاحكاً:

- لو كنت في مكانك يا تيرنتيف، وكان في نيّتي أن أنتحر فعلاً، لعدلت عن الانتحار بعد هذه الأماديح التي كالوها جزافاً، ولو لأغاضتهم على الأقل!

فقدفه هيبوليت بقوله وكأنه يريد أن ينقضّ عليه من فرط غضبه:

- إنهم يتمنون أن يروني أنتحر!

قال أوجين بافلوفتش:

- إنهم ليغيظهم كثيراً أن لا يروا هذا المنظر!

- أنت أيضاً تظن إذن أنهم لن يروه؟

فأجاب أوجين بافلوفتش بلهجة بطيئة يصطنع فيها مظهر الحماية له:

- لا أريد أن أحضك عليه. بالعكس: أنا أعتقد أنك قادر على أن تنتحر، لكنني

أرجوك خاصة أن لا تغضب...

قال هيبوليت وهو ينظر إلى أوجين بافلوفتش بلهجة تبلغ من الثقة المفاجئة أنه

كان كمن يطلب نصيحة من صديق:

- لم أدرك إلا الآن الخطأ الضخم الذي ارتكبته إذ قرأت عليهم دفترتي!

فأجابه أوجين بافلوفتش قائلاً وهو يبتسم:

- وضعك عجيب مضحك!... بصراحة: لا أدري ما هي النصيحة التي يمكن أن

أسديها إليك!

فحدّق إليه هيبوليت صامتاً، بنظرة وحشية عنيدة. كان يبدو كمن يفقد إدراك ما

يجري حوله من حين إلى حين.

قال ليبيديف:

- آ... لا... اسمحوا لي يا سادة! ما هذه طريقة في التصرف. هو يصرخ بأنه

«سيطلق النار في رأسه بالحديقة العامة حتى لا يزعج أحداً»، فهل يعتقد إذن بأنه لن

يزعج أحداً إذا هو انتحر في الحديقة على بعد ثلاث خطوات من هنا؟

وأراد الأمير أن يتكلم فقال:

- أيها السادة...

ولكن ليبيديف قاطعه غاضباً يقول:

- لا، اسمح لي! أيها الأمير الجليل! إنك لتري بنفسك أن هذا ليس مزاحاً. إن

نصف ضيوفك على الأقل يتشاركون في الاقتناع بأن الشرف يوجب عليه، بعد الذي

سمعناه من كلام، أن يبادر إلى الانتحار. ولما كنت أنا رب المنزل، فإنني أطلب

معونتك وأناشدك أن تهب إلى مساعدتي أمام شهود.

- ما الذي يجب أن نعمله يا ليبيديف؟ أنا مستعد لمساعدتك؟

- إليك ما يجب أن نفعله: يجب أولاً أن يسلمنا المسدس الذي افتخر بأنه يحمله، وأن يسلمنا ذخيرته. فإذا وافق على ذلك، وافقت أنا على أن يقضي الليلة هنا، مراعاة لمرضه، ولكن على شرط أن أراقبه؛ ثم يكون عليه أن يمضي في الغد إلى حيث يشاء أن يمضي. معذرة يا أمير! إذا لم يسلم سلاحه، فسأقبض أنا على إحدى ذراعيه، ويقبض الجنرال على ذراعه الأخرى، ونرسل في طلب الشرطة حالاً، فتتولى هي الأمر وتمسك بزمام القضية. وسيتولى السيد فردشتينكو إبلاغ الشرطة بصفته صديقاً.

وقامت جلبة: ليبيديف يتحمس ويتعدى حدود القصد والاعتدال؛ وفردشتينكو يتهياً للذهاب إلى الشرطة؛ وجانيا يكرر مصراً ملحاً أن هيبوليت لن يحاول الانتحار. أما أوجين بافلوفتش فقد لزم الصمت.

قال هيبوليت يسأل الأمير بصوت خافت:

- هل اتفق لك يا أمير أن سقطت يوماً من أعلى برج ناقوس؟

فأجابه الأمير بسداجة:

- ل...لا!

وعاد هيبوليت، الذي كانت عيناه تلتمعان، عاد يهمس من جديد قائلاً:

- أظن أنني لم أتنبأ بهذه الكراهية كلها؟

ثم صاح يقول على حين فجأة، مخاطباً الجمع كافة:

- كفى! لقد أخطأت... أكثر من أي شخص آخر! يا ليبيديف، إليك المفتاح (قال ذلك واستل من محفظته حلقة من الفولاذ تتدلى منها ثلاثة مفاتيح صغيرة أو أربعة)، أقصد هذا المفتاح... الذي هو قبل الأخير... سيريك كوليا... يا كوليا!! أين كوليا (كذلك صاح ينادي وهو ينظر إلى كوليا دون أن يراه....) آ... نعم!... طيب! هو الذي سيريك... لقد ساعدني منذ قليل في ترتيب حقيبتى.. اذهب معه يا كوليا في حجرة الأمير، تحت المنضدة... ستجد حقيبتى. وبواسطة هذا المفتاح ستجد في الصندوق الصغير الموجود في قاع الحقيبة... مسدسي ووعاء البارود. إن كوليا نفسه هو الذي رتب لي الحقيبة منذ قليل. سيريك كل شيء يا سيد ليبيديف. ولكنني أشرت

أن تردّ إليّ المسدس في صباح الغد، حين أسافر. هل تسمع؟ إنني لا أفعل هذا إرضاء لك أنت، بل إرضاء للأمير.

قال ليبيديف وهو يمسك المفتاح:

– فهذا أفضل!

قال ليبيديف ذلك وركض إلى الغرفة المجاورة وهو يبتسم ابتسامة مسمومة. ووقف كوليا كمن يريد أن يعترض، لكن ليبيديف جرّه معه.

رأى هيبوليت الضيوف يضحكون. ولاحظ الأمير أن أسنانه كانت تصطك كأنما هو يعاني حمى شديدة.

ودمدم هيبوليت يقول في أذن الأمير من جديد بلهجة غاضبة:

– ما أحقر هؤلاء الناس جميعاً!

كان من أجل أن يكلم الأمير، يميل عليه دائماً، ويخاطبه بصوت خافت، همسا.

قال له الأمير:

– دعهم وشأنهم! إنك ضعيف جداً...

– فوراً، فوراً، سأمضي فوراً...

قال هيبوليت ذلك وقبل الأمير فجأة. وأضاف وهو ينظر إليه ضاحكاً ضحكة خاصة:

– لعلك تظن أنني مجنون، أليس كذلك؟

– لا، ولكنك...

– فوراً، فوراً، اسكت. لا تقل شيئاً... انتظر... أريد أن أنظر إلى عينيك... ابق كما أنت، حتى أستطيع أن أنظر إليك. إنني أودّع إنسانا.

وتوقف عن الكلام وتأمل الأمير ساكناً صامتاً خلال عشر ثوان. كان شديد الاصفرار، وكان العرق يتقاطر في صدغيه، وكانت يده متشبثة بالأمير تشبثاً عجيباً كأنه يخاف أن يفلت الأمير منه.

صاح الأمير يسأله:

- هيبوليت! هيبوليت! ماذا بك؟

- فوراً، حالاً... سوف أنام... أريد أن أشرب كأساً، نخب الشمس... أريد هذا.. أريد هذا.. دعني أفعل!

ومن مكانه، أمسك الكأس بسرعة، ثم رفعها ومضى بوثة واحدة إلى مدخل الشرفة... وهمّ الأمير أن يركض ورائه. ولكن شاءت المصادفة، بما شبه العمدة، أن مدّ إليه أوجين بافلوفتش يده في تلك اللحظة نفسها مودّعاً. فما انقضت دقيقة واحدة، حتى كان يدوي في الشرفة صراخ عام على حين فجأة، أعقبه اضطراب شديد.

إليكم ما حدث:

حين وصل هيبوليت إلى مهبط الشرفة، توقف عن السير ممسكاً الكأس بيده اليسرى، وأدخل يده الأخرى في الجيب الأيسر من معطفه. وقد أكد كيلر فيما بعد أن يده كانت في تلك الجيب منذ أن كان يتحدث مع الأمير ممسكاً كتفه وتلابيه باليد اليسرى. حتى إن حركته هذه باليد اليسرى هي التي أثارت فيه، هو كيلر، أول اشتباه. ومهما يكن من أمر فإن كيلر قد اندفع يلاحق هيبوليت، يحضه على ذلك نوع من التخوف. لكنه هو أيضاً لم يدركه في الوقت المناسب. كل ما هنالك أنه أبصر شيئاً يلتمع في يد هيبوليت اليمنى؛ ثم رأى فوهة مسدس صغير للجيب تطبق على صدغ المريض. وقد هرع إليه ليمسك ذراعه، لكن هيبوليت كان قد ضغط على الزناد في تلك اللحظة نفسها؛ فسُمعت قرعة كلب المسدس، لكن الطلقة لم تخرج. وهجم كيلر على هيبوليت. واستسلم هيبوليت للسقوط كمن أُغمي عليه، ولعله كان يظن أنه مات فعلاً. وأصبح المسدس في يدي كيلر، واستولى الآخرون على هيبوليت وقربوا إليه كرسيّاً أجلسوه عليه، وتحلقوا جميعاً حوله يصرخون ويسألون. إنهم بعد أن سمعوا قرعة الزناد، رأوا الرجل حياً سليماً حتى من أي خدش. وكان هيبوليت جالساً لا يعرف ماذا يجري، ويُجبل على ما حوله نظرة زائغة. وفي تلك اللحظة دخل ليبيديف وكوليا مسرعين كهبوب الريح.

كان الحضور يسألون من هنا ومن هناك:

- هل خابت الطلقة؟

وقال بعضهم:

- لعل المسدس لم يكن محشواً منذ البداية!

فصاح كيللر يقول بعد أن فتش السلاح:

- بل المسدس محشو. لكن...

- فكيف أمكن أن تخيب الطلقة؟

قال كيللر:

- لم يكن ثمة كبسولة.

يصعب على المرء أن يصف المشهد الأليم الذي أعقب ذلك.

إن الذعر العام الذي سيطر في اللحظة الأولى لم يلبث أن حلّ محله مرح شامل. حتى إن بعض الأشخاص ضجّوا بالضحك صاخبين، ووجدوا في الموقف مجالاً لتندر خبيث وتفكّه ماهر. كان هيبوليت يبكي ناشجاً، ويعقف ذراعيه متألماً، كأنما اعترته نوبة عصبية، ويرتمي على جميع الناس حتى على فردشتينكو معانقاً إياه بكلتا يديه حالفاً بأغلظ الأيمان أنه نسي وضع الكبسولة نسياناً «عرضياً طارئاً بغير إرادة»، مضيفاً أن جميع الكبسولات، وعددها ست، موضوعة هنا في جيب صديرتة، لكنه تركها في مكانها مخافة أن تنطلق الطلقة من المسدس مصادفة في الجيب، على أساس أن في وسعه أن يضع الكبسولة في الوقت الذي يشاء، غير أنه نسي فجأة أن يفعل! كان هيبوليت يتجه بكلامه إلى الأمير وإلى أوجين بافلوفتش واحداً بعد واحد، ويضرع إلى كيللر أن يردّ إليه المسدس ليستطيع أن يبرهن فوراً على أن «شرفه... نعم.. شرفه...»... لكن شرفه «قد تلتخ الآن إلى الأبد!...»

ثم تهاوى مغشياً عليه بالفعل. فنُقل إلى حجرة الأمير. وكان ليبيديف قد زائله سكره تماماً فأرسل في طلب طبيب على الفور، وبقي هو وابنته وابنه وبوردوفسكي والجنرال حول سرير المريض.

حين نُقل هيبوليت إلى حجرة الأمير مغشياً عليه، وقف كيللر في وسط الغرفة وصاح يقول على رؤوس الأشهاد، بلهجة جازمة قاطعة، مفصلاً كل كلمة من كلماته:

- أيها السادة، إذا أعلن أحد منكم مرة أخرى، بحضوري، الافتراض القائل بأن هيبوليت تعمّد أن ينسى الكبسولة؛ إذا ادعى أحد منكم أن الشاب الشقي المسكين كان يمثل تمثيلاً، فليكونن له معي شأن!...

لم يجبه أحد. وكان الضيوف قد تفرقوا أخيراً جماعات، وانصرفوا مسرعين. ومضى بتتسين وجانيا وروجويين معاً.

أدهش الأمير أن يرى أوجين بافلوفتش يغير رأيه ويمضي قبل أن يتحدث إليه كما طلب. فسأله:

- ألم تكن تريد أن تتحدث معي قبل انفضاض الحفل؟

فأجابه أوجين بافلوفتش وهو يجلس فجأة ويجلس الأمير إلى جانبه:

- صحيح. لكنني غيرت رأيي الآن. أعترف لك بأنني منفعلي، وأعرف أنك منفعلي أنت أيضاً. أفكاري مشتتة مضطربة. ثم إن المسألة التي كنت أريد أن أكشفك فيها تهمني إلى أبعد الحدود، وتهمك إلى أبعد الحدود. لقد أردت يا أمير أن أقوم، ولو مرة واحدة في حياتي، بعمل شريف كل الشرف، أعني بعمل خالي من كل غموض، مبراً من أية فكرة مبيتة! وإذ أنني لا أملك الآن، في هذه الدقيقة، أن أكون قادراً على ذلك كل القدرة؛ وإذ أنك قد تكون أنت أيضاً في مثل حالتي... ف... ف... فلنرجئ تلك المكاشفة إلى وقت آخر. من الجائز أن تتضح الأمور لي ولك على السواء، إذا تركنا الأمر يومين أو ثلاثة، وهذه هي المدة التي أنوي أن أقضيها في بطرسبرج.

قال أوجين بافلوفتش ذلك ونهض عن كرسيه من جديد، فلا يفهم المرء لماذا جلس قبل ذلك. أحس الأمير أنه كان مستاء غاضباً، ولاحث له في نظرتة عداوة لم تعبر عنها من قبل. وسأل الأمير فجأة:

- بالمناسبة، أنت ذاهب إلى المريض الآن؟

فقال الأمير:

- نعم.. أنا خائف عليه!

- لا تخف! سيعيش ستة أسابيع أخرى، حتى لقد يشفى هنا. ولكن الأفضل أن تطرده منذ الغد.

- لعلي قد حرّضته أنا أيضاً بصمتي دون أن أشعر... لعله ظن أنني كنت أنا أيضاً أشك في صدق عزمه على الانتحار. ما رأيك يا أوجين بافلوفتش؟

- لا، بتاتاً! إنك تسرف في طيبة القلب إذا ظللت تكثرت بهذا الأمر! لقد سمعت من يقول، دون أن تتاح لي فرصة التحقق من هذا الرأي في يوم من الأيام، إن الإنسان قد ينتحر خصباً ليجذب إليه مدح الآخرين له، أو لأنه غاضب من أن أحداً لم يمدحه. وما كان لي أن أصدق خاصة أن المرء يمكن أن يبدي ضعفه إبداءً يبلغ هذا المبلغ من الصراحة. ولكن مهما يكن من أمر، يجب عليك أن تطرده منذ الغد!

- هل تعتقد أنه سيكرر محاولة الانتحار؟

- لا، لن يكررها. ولكن يجب عليك أن تحذر الروسي الذي ينتمي إلى نوع «لا سنير»! أعود فأقول لك: إن الجريمة هي الملاذ المألوف الذي يلجأ إليه أمثال هؤلاء التافهين العاجزين الذين يحرقهم نفاذ الصبر ويأكلهم الحسد أكلاً!

- أهو إذن من نوع «لا سنير»؟

- الجوهر واحد، ولكن ربما كان الظرف مختلفاً. لسوف ترى هل يتورع هذا السيد عن ذبح عشرة أشخاص، ولو لمجرد أن «يدبر مقلباً»، على حد التعبير الذي استعمله حين قرأ دفتره^[20]. إن أقواله ستحرمني الآن النوم.

- لعلك تغالي في مخاوفك.

- إن أمرك لعجيب يا أمير. ألا تصدّق أنه لا يتورع عن أن يقتل «الآن» عشرة أشخاص؟

- أخشى أن أجيبك. هذا كله عجيب. ولكن، ولكن...

ختم أوجين بافلوفتش الكلام قائلاً بلهجة ساخطة:

- طيب. لك ما تشاء! ثم إنك رجل شجاع! ولكن حاول أن لا تكون أنت نفسك إحدى ضحاياه!

قال الأمير وهو ينظر إلى أوجين بافلوفتش شارد الذهن:

- الأرجح أنه لن يقتل أحداً.

فضحك أوجين بافلوفتش ضحكة ساخرة مأكرة. وقال:

- إلى اللقاء. آن الأوان. بالمناسبة: هل لاحظت أنه يورث آجلایا إيفانوفنا نسخة من اعترافه؟

- نعم، لاحظت ذلك... و... ودعاني هذا إلى التفكير.

قال أوجين بافلوفتش وهو يضحك ساخراً من جديد:

- ذلك ما يؤدي بنا إلى الضحايا العشر.

ثم خرج.

بعد ساعة، بين الثالثة والرابعة من الصباح، نزل الأمير إلى الحديقة العامة. كان قد حاول أن ينام في بيته، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً بسبب دقات قلبه الشديدة العنف. ثم إن كل شيء في بيته قد عاد إلى النظام والهدوء، نام المريض، وأعلن الطبيب الذي جاء يعود أنه غير معرض لأي خطر مباشر. وقد نام ليبيدوف وكوليا وبوردوفسكي في غرفته ليتناوبوا السهر عليه. فلا خوف إذن على شيء.

ومع ذلك كان قلق الأمير يزداد دقيقة بعد دقيقة. ضرب في الحديقة على غير هدى، ملقياً حوالبه نظرات ذاهلة، ثم توقف مدهوشاً حين وصل من غابة الحديقة إلى البقعة الجرداء التي تقع أمام الفوكسهول، فرأى صفوف المقاعد الخالية ومساند دفاتر الأوركسترا. خطف بصره منظر هذا المكان إذ وجده قبيحاً قبحاً رهيباً، لا يدري لماذا! فعاد أدراجه، وسار في الطريق الذي كان قد اتبعه أمس مع أسرة إيبانتشين للذهاب إلى الفوكسهول. فلما وصل إلى الدكة الخضراء، مكان الموعد المضروب، جلس وانفجر يضحك ضحكة مفاجئة صاخبة سرعان ما لام نفسه عليها مستاء أشد الاستياء. لكم يبارحه غمه وقلقه. ودّ لو يضرب في الأرض على غير هدى... أن يذهب إلى أي مكان بغير هدف، وغرد على الشجرة فوقه عصفور صغير. فأخذ يبحث عنه بعينه بين أوراق الأغصان، وطار العصفور صافقاً جناحيه على حين فجأة. فذكره رأساً بتلك «الذبابة الصغيرة المدندنة في شعاع من الشمس محرق»، التي كتب هيوليت بصدها «أنه يعرف مكانه في جوقة الطبيعة هذه» حيث لا يوجد دخيل غيره، هو هيوليت. إن تلك الجملة التي سبق أن خطفت انتباهه حينذاك، تعود الآن إلى فكره. واستيقظت في نفسه ذكرى نائمة منذ زمن بعيد، فإذا هي تشرق في هذه اللحظة بضياء مفاجئ.

كان ذلك بسويسرا، أثناء السنة الأولى بل أثناء الأشهر الأولى من معالجة مرضه. كان يُعدّ في ذلك الحين أبله تماماً. كان لا يستطيع حتى أن يعبر عما يريد التعبير عنه، بلغة سليمة، وكان في بعض الأحيان لا يفهم ما يُطلب منه أو يسأل عنه. ومضى ذات يوم إلى الجبل، وكان النهار واضحاً وكانت الشمس متلألئة. ظل مدة طويلة يطوف على غير هدى، تعذبه فكرة أليمة كاوية لكنه لا يتوصل إلى صياغتها بكلام. كان يرى أمامه سماء ساطعة، ويرى تحت قدميه بحيرة رائعة، ويرى من حوله أفقاً نيراً مضيئاً يبلغ من السعة أنه يبدو بغير حدود. تأمل هذا المنظر مدة طويلة مهصور القلب غماً وهماً. إنه يتذكر الآن أنه مدّ يديه إلى ذلك الأوقيانوس من الضياء واللازورد، وأنه ذرف دموعاً غزيرة. كان يعذبه أن يتصور أنه غريب عن هذا كله. ما هذه الوليمة، ما هذه الحفلة التي لا نهاية لها، والتي كان يحس أنه منجذب إليها منذ الأزل، منذ طفولته، دون أن يستطيع المشاركة فيها قط. الشمس تطلع مشرقة في كل صباح. وفي

كل صباح يرتسم قوس قزح فوق الشلال. حتى إذا غابت الشمس، التهبت بنار كالأرجوان، في كل مساء، عند الأفق، الذروة المغطاة بالثلج من أعلى جبل حول هذه الأراضي. إن كل «ذبابة صغيرة تنددن حوله في شعاع محرق من شمس، فتشارك في جوقة الطبيعة هذه: إنها تعرف مكانها، وتحبه، وهي سعيدة به». كل عشبة تنمو وتسعد! لكل كائن طريقه الذي يعرفه. يصل ويرحل مغنياً! أما هو، فهو الوحيد الذي لا يعرف شيئاً، ولا يفهم شيئاً، لا البشر، ولا أصوات الطبيعة، لأنه غريب أجني في كل مكان، ولأنه في كل مكان دخيل منبوذ. صحيح أنه كان في ذلك الحين لا يستطيع أن يعبر عن شعوره بهذه الألفاظ، ولا أن يصوغ سؤاله بهذه العبارات. كان ألمه أصم أبكم. ولكنه يتخيل الآن أنه في ذلك الحين كان يقول هذا كله بهذه العبارات نفسها. وخيل إليه أن كلام هيبوليت عن «الذبابة الصغيرة»، إنما هو مأخوذ عنه ومستمد من الدموع التي كان يذرفها في تلك الأيام. إنه مقتنع بهذا، لا يدري لماذا؛ وكانت هذه الفكرة تجعل قلبه يخفق.

وغفا على الدكة، لكن اضطرابه لاحقه حتى في النوم. تذكر، حين نام، ما افترضه أوجين بافلوفتش من أن هيبوليت يمكن أن يقتل عشرة أشخاص، فابتسم لهذه الفكرة المستحيلة السخيفة. وكان يرين حوله صمت مضيء جليل. وكان حفيف أوراق الشجر يقوي الهدوء والعزلة. ورأى الأمير أحلاماً كثيرة كانت كلها مقلقة تبعث على الغم، وتُجري في الجسم رعدات لا تنقطع. وأخيراً اقتربت منه امرأة. إنه يعرفها، يعرفها إلى حد الألم. إنه ما يزال يستطيع أن يسميها، أن يعينها، ولكن الشيء الغريب هو أن لها الآن وجهاً آخر مختلفاً كل الاختلاف عن الوجه الذي رآه فيها دائماً. شعر بنفور أليم من رؤيتها في هذه الملامح الجديدة. إن الوجه يعبر عن الندم والذعر تعبيراً يبلغ من القوة أن المرء يمكن أن يشعر أن هذه المرأة مجرمة رهيبة، وأنها آتية الآن من اقتراف جرم فظيع. كانت ترتجف على وجهها الشاب عبرة. نادته بحركة من يدها ووضعت أصبعها على شفيتها، كأنما هي تدعوه أن يتبعها بغير ضجة. انهار قلبه. كان لا يريد أن يرى فيها مجرمة، بأية من الأحوال، ولكنه أحس أن حادثاً هائلاً يوشك أن يقع، وأن هذا الحادث سيؤثر في مجرى حياته كلها. كان يبدو أنها تريد أن تريه شيئاً ما، في مكان غير بعيد، بالحديقة العامة. نهض ليتبعها، ولكن ضحكة رائقة نضيرة رنت فجأة قربها؛ وإذ يد تصير في يده على حين بغتة. أمسك اليد بقوة، واستيقظ من نومه.

كانت آجاليا تضحك مقهقهة.

الفصل الثامن

كانت تضحك، ولكنها كانت مستاءة في الوقت نفسه.

صاحت تقول بلهجة الدهشة والازدراء:

– إنه نائم. أكنت نائماً؟

فتمتم الأمير يقول قبل أن يسترد وعيه، وقد تعرفها مدهوشاً:

– هذا أنت؟ ها... نعم... بيننا موعد مضروب... لقد نمت هنا!

– لاحظتُ ذلك طبعاً!

– ألم يوقظني أحد غيرك؟ ألم يجئ إلى هنا أحد سواك؟ ظننت أن قد كانت هنا...

امرأة أخرى.

– امرأة أخرى هنا؟

واستردَّ الأمير وعيه كاملاً آخر الأمر. فقال شارد الذهن:

– لم يكن ذلك إلا حلمًا. ولكنه حلم غريب، في هذه اللحظة. اجلسي.

وشدّها من يدها وأجلسها على الدكة، وجلس هو إلى جانبها، وغرق في أفكاره

وخواطره. لم تقطع أجاليا الصمت واكتفت بأن تحدّق إليه. وكان ينظر إليها هو أيضاً،

ولكنه ينظر إليها في بعض الأحيان وكأنه لا يراها أمامه. أخذ وجهها يحمرّ.

قال الأمير مرتعشاً:

– أطلق هيبوليت في صدغه طلقة مسدس.

فسأله دون أن تظهر عليها دهشة شديدة:

– متى؟ عندك؟ أمس مساءً، كان ما يزال حياً فيما أظن!

ثم أضافت تقول بحرارة:

- كيف أمكنك أن تجيء وتنام هنا بعد حادث كهذا الحادث؟

قال الأمير:

- لكنه لم يمت. لم تنطلق الطلقة.

وظفق الأمير، تلبية لرجاء آجاليا، يقص عليها فوراً، بتفاصيل كثيرة، كل ما جرى في الليلة الماضية. فكانت تستعجله سرد التتمة بغير انقطاع، ولكنها تقاطعه هي نفسها بإلقاء أسئلة كثيرة متصلة لا تكاد تتعلق بالموضوع. وقد اهتمت اهتماماً خاصاً بما قاله أوجين بافلوفتش، حتى لقد سألت الأمير مراراً حول هذا. فلما انتهى من سرد القصة قالت:

- كفى هذا! يجب أن أسرع! ليس أمامنا إلا ساعة واحدة نقضيها هنا، ويجب أن أكون بالمنزل في الساعة الثامنة قطعاً، حتى لا يعلموا أنني جئت إلى هذا المكان. وأنا إنما جئت هنا لأمر. ثمة أشياء كثيرة يجب أن أنقلها إليك. لكنك قطعت عليّ تسلسل فكري. ففيما يتعلق بهيوليت أعتقد أن مسدسه ما كان يمكن إلا أن يخيب. فهذا يتفق وطبيعة الشخص. ولكن أنت موقن أنه أراد أن ينتحر حقاً، وأن ذلك لم يكن تمثيلاً؟

- لا، لم يكن ذلك تمثيلاً!

- هذا هو الأرجح فعلاً. وقد أوصى، كتابةً، بأن عليك أن تحمل إليّ «اعترافه»؟ فلماذا لم تجئني به؟

- ألم أقل لك إنه لم يمت؟ سأطلبه منه.

- جئني به حتماً، ولا تطلب منه شيئاً. أنا أعلم أن ذلك لا يمكن إلا أن يسره، ولعله لم يشأ أن ينتحر إلا لأقرأ أنا بعد ذلك اعترافه. أرجوك يا ليون نيقولايفتش، لا تضحك مما أقوله لك: إن هذا التفسير قد يكون هو التفسير الصحيح.

- لست أضحك، فأنا نفسي أعد هذا التفسير جائزاً جداً.

- أنت أيضاً؟ أيمن أن تكون قد ساورتك هذه الفكرة نفسها؟

كذلك سألته آجاليا بدهشة مفاجئة.

كانت تسأله متعجلة، وتتكلم بسرعة، ويظهر عليها الاضطراب في بعض الأحيان، وكثيراً ما تسكت قبل أن تتم جملتها. وهي في كل لحظة تبادر إلى إبلاغه هذا الأمر أو تحذيره من ذلك. فكان اضطرابها شديداً على وجه العموم، رغم أن نظرتها واثقة بل

ومتحدية، ولعلها كانت في قرارة نفسها وجلة.

إنها جالسة في أقصى الدكة، تكسوها ثياب بسيطة، فهي ترتدي ثوباً مما يلبس كل يوم، لكنه يناسبها كثيراً. وقد ارتعشت واحمرت مراراً. وقد دهشها أعماق الدهشة أن تسمع الأمير يؤكد أن هيبوليت إنما أطلق على رأسه النار من أجل أن تقرأ هي اعترافه.

قال الأمير شارحاً:

- ولا شك أنه كان يريد، بغض النظر عنك أنت، أن نغدق عليه. المديح...

- المديح؟ كيف؟

- أقصد... كيف أشرح لك هذا؟ إن التعبير عن هذا الأمر صعب جداً. لا شك أنه كان يرغب في أن يرى جميع الناس يسرعون إليه فيحتشدون حوله ويعربون له عن عواطف المحبة والتقدير، ويضرعون إليه أن لا يقتل نفسه. جائز جداً أنه فكر فيك أكثر مما فكر في الآخرين، فإنه في لحظة كتلك اللحظات قد سمّك أنت.. وإن يكن من المحتمل أنه لم يدرك هو نفسه أنه كان يفكر فيك.

- أصبحت لا أفهم شيئاً: يفكر في دون أن يدرك أنه يفكر في! بلى، بلى! فهمت؛ أظن أنني فهمت. هل تعلم أنني أنا نفسي، حين كنت بنية في الثالثة عشرة من العمر، قد خطر ببالي ثلاثين مرة أن أتجرع سمّاً، وأن اشرح كل شيء في رسالة أكتبها لأبوي!؟ كنت أتصور نفسي مسجاة في التابوت، وأتصور جميع أهلي سيكون من حولي، ويلومون أنفسهم على أنهم كانوا قساة تلك القسوة كلها معي..

ثم أضافت تقول بقوة وهي تقطّب حاجبيها تقطيباً شديداً:

- لماذا تبتسم أيضاً؟ في أي شيء تفكر أنت إذن حين تخلو إلى نفسك وتخلد إلى العزلة في أحلامك؟ أتراك تتصور نفسك مارشالاً يقاتل نابليون؟

فأجاب الأمير ضاحكاً:

- يميناً أن هذا بعينه هو ما أفكر فيه، ولا سيما حين أنام. ولكنني لا أقاتل نابليون بل أقاتل النمساويين.

- إنني لا أمازحك البتة يا ليون نيقولايفتش. سوف أرى هيبوليت بنفسه، فأرجوك أن تبلغه رغبتني هذه. أما أنت فإنني أرى أن نظرتك إلى نفس فتى مثل هيبوليت وحكمك عليها تشتملان على شرّ قبيح، لأن فيهما فظاظة وغلظة. إنك امرؤ خال من

عاطفة الحنان، إنك لا ترى إلا الحقيقة وحدها، فأنت لهذا ظالم.

أخذ الأمير يفكر. ثم قال:

- بل أنت الظالمة في حكمك عليّ، فأنا لا أرى أي بأس في أن تكون تلك الفكرة قد خطرت ببالي. إن جميع الناس يجنحون إلى أن تراودهم هذه الفكرة. ثم إن من الجائز أن لا تكون تلك الفكرة قد ملكت عليه نفسه، وإنما هي خاطرة ومضت في ذهنه لا أكثر! لقد أراد أن يوجد في المجتمع مرة أخيرة، وأن يستحق اعتبار الناس، وأن يكون جديراً بمحبتهم. وتلك عواطف عظيمة رائعة. لكن ذلك كله لم يتهياً له. ومرد هذا إلى المرض، وإلى ما لا أدري أيضاً!... إن هناك أناساً يظفرون بما يريدون، وأناساً يضلون السبيل إلى ما يشتهون، فيخفق كل ما يحاولون...

قالت آجاليا:

- لا شك أنك فكرت في نفسك وأنت تقول هذا الكلام!

فتابع الأمير كلامه دون أن ينتبه إلى ما اشتملت عليه ملاحظة آجاليا من مكر:

- نعم.

- على كل حال، لو كنت أنا في مكانك لما نمت. أما أنت فتستسلم للنوم حيثما توجد. وليس بالمستحسن أن يصدر هذا عنك.

- ولكنني ظللت سهران طول الليل، ثم مضيت أطوف هنا وهناك، وذهبت إلى مكان الموسيقى...

- أي موسيقى؟

- المكان الذي كانت تُعزف فيه الموسيقى مساء أمس؛ ثم جئت إلى هنا، وجلست، وفكرت طويلاً، ثم غفوت...

- ها... حقاً هذا يغير الأمر بحيث يشرفك ولا يضيرك... ولكن لماذا ذهبت إلى مكان الموسيقى؟

- لا أدري... ذلك ما حدث...

- طيب طيب، سنتحدث عن هذا فيما بعد. إنك تقاطعني دائماً. فيم يهمني أن تكون قد ذهبت إلى مكان الموسيقى؟ قل لي: من هي هذه المرأة التي رأيتها في الحلم؟

- إنها... إنها... لقد رأيته أنت...

- فهمت... فهمت... إنك تحمل لها كثيراً من... على أية حال رأيته! في أي صورة ظهرت لك؟

ثم أضافت تقول بشيء من غضب مفاجئ:

- على كل حال، لا أريد أن أعرف عن هذا شيئاً. إنك تقاطعني دائماً. لا تقاطعني. وتوقفت عن الكلام لحظة كأنما لتسترد أنفاسها أو لتحاول كظم غضب شبّ في نفسها. ثم أضافت تقول شبه حائقة:

- إليك الأمر الذي من أجله طلبت منك أن تجيء: أريد أن أعرض عليك أن تكون صديقي. ثم أضافت: ما بالك تنظر إليّ هكذا؟

كان الأمير، في تلك اللحظة، ينظر إليها فعلاً بكثير من الانتباه، لأنه لاحظ أنها عادت تحمرّ احمراراً شديداً. وهي في مثل هذه الحالة يزداد غضبها من نفسها على قدر ازدياد احمرارها، فذلك يُقرأ في التماعات عينيها؛ حتى إذا انقضت دقيقة صبّت غضبها على محدثها في العادة، سواء أكان مذنباً أم غير مذنب، فهي تأخذ تناكده باحثة عن أي وسيلة لمشاجرتة. إنها لمعرفتها بطبعها المتوحش وبحيائها قلما تتدخل في الحديث، فهي صموت أكثر من أختيها، حتى إن عيبها هو الإفراط في الصمت. حتى إذا كانت في ظرف حرج دقيق، كالظرف الذي توجد فيه الآن ولا تستطيع أن تستغني فيه عن الكلام، فإنها تتكلم بتعال مفتعل وتكبر مصطنع وهيئة فيها شيء من التحدي. وهي تتنبأ دائماً باللمحة التي ستحمر فيها أو ستأخذ فيها بالاحمرار.

قالت للأمير وهي ترشقه بنظرة متغطرسية:

- أتراك لا تريد قبول ما أعرضه عليك؟

فقال الأمير خجلان مضطرباً:

- بالعكس، أريد جداً. ولكن... ولكن هذا لم يكن ضرورياً البتة... أقصد إنني لم أكن أتصور أن من الضروري أن يُصاغ هذا العرض بالكلام.

- فماذا كنت تظن إذن؟ ما عسى يكون السبب الذي دعاني أن أطلب منك المجيء إلى هنا؟ لعلك تنظر إليّ نظرتك إلى صغيرة. حمقاء، كما يفعل الجميع في بيتنا؟

- لم أكن أعلم أنهم ينظرون إليك نظرتهم إلى حمقاء.. أنا... أنا لا أنظر إليك

هذه النظرة.

- أنت لا تنظر إليّ هذه النظرة؟ هذا يدل على ذكاء كبير من جانبك. وقد قلت كلامك بكثير من براعة الفكاهة على كل حال!

تابع الأمير كلامه فقال:

- بل قد تكونين على قدر كبير من عمق الفهم وسداد الفكر أحياناً. من ذلك أنك قلت كلمة ملأى بالحكمة منذ قليل: «أنت لا ترى إلا الحقيقة وحدها، فأنت إذن ظالم» سأظل أذكر هذه الملاحظة وأأمل فيها.

احمرّت آجاليا لذة ونشوة على حين فجأة. كانت هذه التغيرات كلها تحدث في نفسها بسرعة خارقة وانطلاق كامل. وسرّ الأمير هو أيضاً، وأخذ يضحك فرحاً وهو ينظر إليها.

وعادت تتكلم فقالت:

- اسمع. لقد انتظرتك طويلاً لأروي لك هذا كله. انتظرتك منذ اللحظة التي كتبت إليّ فيها رسالتك من هناك، بل وقبل ذلك... ولقد سمعت في مساء أمس نصف ما كان عليّ أن أقوله لك: إنني أعدك أشرف إنسان وأصدق إنسان. وإذا قيل عنك إن في عقلك.. إن في عقلك مرضاً، فهذا ظلم. إنني مقتنعة بما أقول، وقد دافعت عن اقتناعي هذا. ولئن كان في عقلك مرض حقاً (لا تؤاخذني إن قلت هذا، فأنا أفهم هذه الكلمة من وجهة نظر سامية)، فأنت تملك من الذكاء الأساسي ما لا يملكه أي واحد منهم، بل إنك تملك من هذا الذكاء قدراً يعجزون حتى عن تصوّره. ذلك أن الذكاء ذكاءان: ذكاء أساسي وذكاء ثانوي. أليس كذلك؟ أليس هذا حقاً؟

تمتم الأمير يقول بصوت خافت لا يكاد يُسمع:

- قد يكون الأمر كما تقولين.

وكان قلبه يدق دقاً قوياً، ويخفق خفقاناً عنيفاً.

وتابعت هي كلامها فقالت بلهجة جليلة:

- كنت على يقين من أنك ستفهمني. إن الأمير «شتش...» وأوجين بافلوفتش لا يفهمان شيئاً من هذا التمييز بين الذكاءين. وكذلك ألكسندرا. ولكن هل تتصور أن ماما قد فهمته؟

قال الأمير:

- إنك تشبهين إيزابت ألكسندروفنا كثيراً.

فسأله أجاليا مدهوشة:

- كيف؟ حقا؟

- أؤكد لك.

قالت بعد لحظة من تفكير:

- أشكرك. يسعدني كثيراً أن أشبه «ماما».

ثم أضافت تسأله دون أن تدرك سذاجة سؤالها:

- فأنت تقدرها إذن كثيراً؟

- كثيراً. وإني لسعيد أن أرى أنك قد فهمت ذلك حالاً.

- أنا أيضاً سعيدة؛ ذلك أنني لاحظت أنهم... في بعض الأحيان... يسخرون منها، ولكن اسمع: إن الأمر الجوهري هو أنني فكرت ملياً قبل أن يقع اختياري عليك. لا أريد أن يسخروا مني في البيت، ولا أن يعاملوني فيه معاملة بنت صغيرة طائشة العقل. لا أريد أن يناكدونني ويغيظوني.... لقد فهمتُ هذا كله دفعة واحدة؛ ورفضتُ أوجين بافلوفتش رفضاً قاطعاً لأنني لا أريد أن يكون همهم الدائم أن يزوجوني! أريد... أريد... نعم.. أريد أن أهرب من البيت! وقد اخترتك أنت لتساعدني في الهروب.

هتف الأمير يسألها:

- تهربين من البيت؟

فصاحت تقول له بحركة عنيفة مفاجئة من غضب:

- نعم، نعم، ثم نعم... لا أريد بعد الآن، لا أريد بعد الآن أن يجعلوني احمرّ خجلاً بغير انقطاع. لا أريد أن أحمر لا أمامهم، ولا أمام الأمير «شتش...»، ولا أمام أوجين بافلوفتش، ولا أمام أي إنسان؛ ولذلك وقع اختياري عليك. معك أستطيع أن أتكلم في كل شيء. في كل شيء، حتى في أخطر الأمور شأنًا إذا حلا لي ذلك. وعليك أنت، من جهتك، أن لا تخفي عني شيئاً في يوم من الأيام. أريد أن يكون هناك إنسان، على الأقل، أستطيع أن أكلمه في كل شيء كأنني أكلم نفسي. لقد أخذوا يقولون فجأة إنني

أنتظرك وإنني أحبك. بدأ هذا قبل وصولك، ولم أكن قد أريتهم رسالتك. وهم الآن يرددون جميعاً هذه النغمة. أريد أن أكون جسورة فلا أخشى شيئاً. لا أريد أن أذهب إلى حفلات الرقص التي يقودوني إليها. أريد أن أكون نافعة. منذ مدة طويلة أريد أن أرحل. ها قد حبسوني عشرين عاماً كاملة، ثم أصبحوا لا يفكرون إلا في تزويجي، لم يكن عمري إلا أربعة عشر عاماً حين أخذت أحلم بالهروب. كنت ما أزال صبية حمقاء. والآن رتبت كل شيء، وانتظرتك لأحصل منك على جميع المعلومات عن الحياة في الخارج. لم أر في حياتي كاتدرائية قوطية. أريد أن أذهب إلى روما، أن أزور مراكز علمية. أريد أن أدرس بباريس. لقد أعددت نفسي لهذا فعملت طوال السنة الماضية. قرأت عدداً كبيراً من الكتب، بينها جميع الكتب المحظورة. إن ألكسندرا وآديلايد تستطيعان أن تقرأ كل شيء. ذلك مسموح لهما به؛ أما أنا فهذا محظور علي؛ وهم يراقبونني. لا أريد أن أختصم مع أختي، ولكنني أعلنت لأمي وأبي منذ مدة طويلة أنني أنوي تغيير حياتي تغييراً جذرياً. لقد قررت أن أعنى بالتربية، وإنني لأعتمد عليك، فقد قلت لي إنك تحب الأطفال. هل تعتقد أن في وسعنا أن نَعنى معاً بالتربية، إن لم يكن الآن ففي المستقبل على الأقل؟ سنقوم معاً بجهد مفيد وعمل نافع. لا أريد أن أكون بنت جنرال... قل لي: أنت رجل غزير العلم واسع الثقافة؟

- لا، بتاتا.

- خسارة. كنت أنا أظن... كيف تخيلت هذا؟ لا ضير، ستوجهني وسترشدني، على كل حال، ما دام اختياري قد وقع

- هذا مستحيل يا آجلايا إيفانوفنا.

صاحت آجلايا تقول وقد أخذت عيناها تتقدان من جديد:

- أريد، أريد أن أهرب من البيت! فإذا لم توافق أنت، فسأتزوج جبريل آرداليونوفتش. لا أريد أن تنظر إليّ أسرتي نظرتها إلى فتاة شريرة، وأن تتهمني بما لا أدري من تهم!

هتف الأمير وهو يكاد يثب من مكانه:

- أنت تملكين عقلك أم لا؟ بماذا يتهمونك، ومن ذا يتهمك؟

- جميع من بالبيت: أمي، أختاي، أبي، الأمير «شتش...»، وحتى صاحبك السيئ كوليا! وإذا كانوا لا يقولون لي شيئاً أمام وجهي، فهذا لا ينفي أنهم في دخائل أنفسهم

يفكرون في ذلك.

لقد صارحتهم جميعاً بهذا. وصارحت به أمي. فمرضت أمي من ذلك طوال النهار، وفي الغداة قالت لي ألكسندرا، هي وأبي، إنني لا أدرك حتى معنى هذا الهذر السخيف وهذه الكلمات التي استعملها. فرددت عليهما قائلة بلهجة القطع والجزم إنني الآن أدرك كل شيء، وأدرك معاني جميع الكلمات، وإنني لست الآن بنية صغيرة، وإنني قرأت منذ سنتين روايتين من تأليف بول دي كوك، قرأتها خصباً لأطلع على كل شيء، وأعرف كل شيء. فحين سمعت أمي هذا الكلام أوشكت أن يغمى عليها.

ومضت في ذهن الأمير فكرة غريبة. حدّق إلى آجلايا وابتسم. كان يصعب عليه أن يصدّق أن أمامه تلك الفتاة المتعالية نفسها التي قرأت له في الماضي، بكثير من الكبرياء المستفزة، رسالة جبريل أرداليونوفتش. لم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن تنكشف في فتاة جميلة لها ذلك الطبع المتغطرس المتوحش، كيف يمكن أن تنكشف فيها على حين فجأة طفلة لعلها لا تدرك حقاً معنى «جميع الكلمات التي تستعملها».

سألها:

- هل قضيت حياتك كلها في البيت يا آجلايا إيفانوفنا؟... أقصد.. ألم تذهبي إلى المدرسة؟ ألم تلتحي بمدرسة داخلية.

- لا، لم أذهب في حياتي إلى أي مكان. حبست دائماً في البيت حتى لكأنني حبست في زجاجة، ولن أخرج من البيت إلا لأتزوج. لماذا تظل تبسم هذه الابتسامة الساخرة؟ ألاحظ أنك أنت أيضاً تسخر مني وتتحيزّ لهم...

أضافت آجلايا هذه الجملة الأخيرة وقد قطبت حاجبيها وظهرت في هيئتها علائم التهديد. وتابعت كلامها فقالت:

- لا تحنقني. أنا نفسي لا أعلم ماذا يحدث في نفسي. إنني لواققة بأنك جئت إلى هنا مقتنعاً كل الاقتناع بأنني أهواك وأنني ضربت لك موعداً...

أضافت هذه العبارة بلهجة غضب.

فقال الأمير معترفاً بسداجة، وكان يشعر بانفعال شديد:

- حقاً لقد كنت بالأمس خائفاً من هذا. أما اليوم فأنا مقتنع بأنك..

صاحت آجلايا تقول وقد أخذت شفتها السفلى تختلج على حين فجأة:

- ماذا؟ كنت خائفاً من أن... هل تجرأت أن تظن أنني... رباه! لعلك كنت تفترض أنني دعوتك إلى هنا ليفاجئونا فتكون مضطراً أن تتزوجني...

- آجل يا إيفانوفنا! كيف لا تخجلين من قول هذا الكلام؟ كيف يمكن أن تنبت في قلبك الطاهر البريء فكرة تبلغ هذا المبلغ من الحطة؟ أراهن أنك أنت نفسك لا تصدقين كلمة واحدة مما قلته... بل وأنت لا تعرفين معنى هذه الأقوال التي تخرج من فمك!...

ظلت آجل يا خافضة رأسها، ساكنة لا تتحرك، كأنها مروعة مما قالتها. ثم تمتمت تقول:

- لا، لا أخجل البتة! ثم من أين عرفت أن لي قلباً بريئاً؟ وكيف، والحالة هذه، تجرأت أن تبعث إليّ رسالة حب؟

- رسالة حب؟ رسالتي رسالة حب؟ لقد كانت تلك الرسالة تعبيراً عن أعمق الاحترام. وقد خرجت من قرارة قلبي في لحظة من أصعب لحظات حياتي. فكرت فيك حينذاك كما يفكر المرء في ضياء.. إنني...

قاطعتها آجل يا فجأة، ولكن بلهجة أخرى تختلف عن لهجتها الأولى كل الاختلاف، لهجة تكشف عن ندم عميق يشبه أن يكون روعاً:

- طيب... طيب... كفى!...

حتى لقد مالت عليه، وأجرت بيدها حركة كأنها تريد أن تلمس كتفه لتدعوه بأحسن طريقة مقنعة أن لا يزعل، مع استمرارها على غض بصرها حتى لا تنظر إليه. وعادت تكرر قائلة باضطراب شديد:

- طيب، طيب... أحس بأنني استعملت تعبيراً فيه غباء. وإنما قصدت من ذلك أن... أن أمتحنك. افرض أنني لم أقل شيئاً. إذا كنت قد آذيت شعورك فاغفر لي. أرجوك: لا تنظر إليّ محدقاً في عيني. أشح وجهك عني. لقد صرحت منذ لحظة بأنها فكرة منحطة. وأنا إنما عبرت عنها عامدة لأسعك. يتفق لي أحياناً أن أخاف مما أحب أن أقوله، ثم إذا هو يفلت من لساني فجأة. وقد أضفت أنك كتبت إليّ تلك الرسالة في لحظة من أصعب لحظات حياتك.

ثم قالت وهي تخفض صوتها وتعود تطرق إلى الأرض:

- إنني أعرف ما هي تلك اللحظة التي عنيت.

- ليتك تعرفين كل شيء!

- أعرف كل شيء!

كذلك صاحت تقول في نوبة انفعال جديدة. وتابعت كلامها فقالت:

- في ذلك العهد كانت تشاركك بيتك تلك المرأة السيئة التي هربت معها...

حين نطقت آجلايا بهذه الكلمات زابت وجهها حمرة، وشحب لونها شحوباً شديداً. ونهضت فجأة كأنما حركتها اندفاعه قوية بغير شعور منها، ولكنها سرعان ما ثابت إلى وعيها وسيطرت على نفسها فعاتت تجلس. ظلت شفتها تختلج مدة طويلة. وشده الأمير من هذه الاندفاعه التي لم يكن يتوقعها، ولا عرف إلى ماذا يعزوها.

قالت فجأة بلهجة قاطعة:

- أنا لا أحبك البتة!

فلم يجب الأمير. وساد الصمت دقيقة من جديد.

قالت بصوت متعجل لا يكاد يفهم وهي تخفض رأسها مزيداً من الخفض:

- أنا أحب جبريل أرداليونوفتش...

قال الأمير يردّ عليها بما يشبه الهمس:

- غير صحيح.

- أأنا أكذب؟ تلك هي الحقيقة بعينها. وقد قطعتُ له عهداً، على هذه الدّكة نفسها، أمس الأول.

دُعر الأمير وبقي شارد الذهن لحظة، ثم قال بلهجة قاطعة:

- هذا غير صحيح. لقد لفقت هذه القصة تلفيقاً.

- إنك لعلّ أدب جمّ وتهذيب عظيم! أريد أن تعلم أنّ جبريل أرداليونوفتش قد

تغير وتحسن. إنه يحبني أكثر من حياته. وقد حرق يده أمامي لا لشيء إلا لكي يبرهن إلى على ذلك.

- حرق يده؟

- نعم، يده! ويستوي عندي أن تصدّق وأن لا تصدّق!

صَمَتَ الأمير. لم تكن آجلايا مازحة. إنها الآن غاضبة.

- غريب! أياكون قد أتى إلى هنا بشمعة ليحرق يده؟ لست أرى وسيلة أخرى يمكن أن يحرق بها يده...

- نعم، أتى بشمعة. أي غرابة في هذا؟ أهذا غير معقول؟

- أشمعة كاملة أم عقب شمعة في شمعدان؟

- نعم... لا... نصف شمعة.. عقب شمعة.. شمعة كاملة. لا فرق. لا تلح! حتى لقد أتى بعيدان كبريت، وأبقى إصبعه فوق اللهب نصف ساعة. أبدو لك هذا مستحيلاً؟

- لقد رأيته أمس، فلم يكن في أصابعه أي أثر من آثار حرق.

انطلقت آجلايا تضحك ضحك طفلة. ثم التفتت نحو الأمير بخفة، وفي وجهها ثقة كثقة الأطفال، بينما ارتسمت على شفتيها ابتسامة. وقالت:

- هل تعلم لماذا قصصتُ عليك هذه الكذبة؟ لأنني لاحظتُ أن أحسن طريقة يعتمد إليها المرء من أجل أن يجعل كذبه معقولاً بعد أن يكون قد أخذ يكذب، هي أن يدخل في كذوبته، على نحو بارع، عنصراً يخرج عن المألوف، عنصراً شاذاً، عنصراً نادراً، بل عنصراً لم يسمع أحد بمثله. ولكنني لم أنجح، لأنني لم أعرف كيف...

واكفهر وجهها فجأة كأن ذكرى قد ومضت في ذهنها. ثم استأنفت كلامها فقالت له وهي تُلقي عليه نظرة رصينة بل وحزينة:

- لقد أنشدتك في يوم من الأيام قصيدة «الفارس الفقير»، وكنت أهدف من ذلك إلى... إلى مدحك، ولكنني كنت أهدف في الوقت نفسه إلى أن أفصح سلوكك وأن أبين لك أنني على علم بكل شيء...

- إنك يا آجلايا تظلميني كثيراً... وتظلمين تلك الإنسانية الشقية التي وصفتها منذ لحظة بكلماتٍ قاسية شديدة القسوة...

- أنا إنما عبّرتُ عن رأيي بتلك الألفاظ، لأنني أعرف كل شيء، كل شيء! أعرف أنك عرضت عليها الزواج على رؤوس الأشهاد، منذ ستة أشهر. لا تقاطعني: أنت ترى أنني أروي وقائع ولكنني لا أعلق عليها. وبعد ذلك إنما هربتُ مع روجويين. ثم عشتُ معها في قرية من القرى أو ضاحية من الضواحي. ثم هجرتك والتحقت برجل آخر. (هنا احمرّت آجلايا احمراراً رهيباً). وبعد ذلك عادت إلى روجويين الذي يُحبّها...

يُحبّها حب جنون! ثم هأنت ذا تصل إلى هنا وراءها، زحفاً، منذ علّمت أنها عادت إلى بطرسبرج، كما يليق برجل بارع الذكاء! وفي مساء أمس، انبريت تدافع عنها وتحميها؛ ومنذ لحظة كنت تراها في الحلم... رأيت أنني أعرف كل شيء؟ من أجلها، من أجلها إنما رجعت إلى هنا، أليس كذلك؟

حنى الأمير رأسه حزيناً مفكراً، دون أن يدور بخلده أن أجاليا كانت ترشقهُ بنظرة ملتهبة. وقال بصوب خافت:

- نعم من أجلها، من أجلها، ولكن لكي أعلم أن.. أنا لا أعتقد بأنها يمكن أن تسعد مع روجويين، رغم أنا... الخلاصة: إنني لا أرى ماذا أستطيع أن أفعل في سبيلها، ولكنني جئت...

قالت أجاليا أخيراً:

- إذا كنت قد جئت دون أن تعرف لماذا جئت، فهذا دليل على أنك تحبها كثيراً. فردّ عليها الأمير قائلاً:

- لا، لا، أنا لا أحبّها! ليتك تعرفين مدى الهول الذي أعانيه حين أتذكر الزمن الذي قضيته معها!

وما إن قال هذه الكلمات حتى سرت في جسمه رعدة. أجابته أجاليا:

- قل لي كل شيء.

- ليس في القصة كلها ما لا يمكنك أن تسمعيه. لا أدري لماذا كنت أنت، أنت بعينك، الشخص الوحيد الذي أردت أن أقص عليه الحكاية كاملة. ربما كان مردّ ذلك إلى أنني أحمل لك في الواقع كثيراً من العاطفة. إن تلك المرأة الشقية مقتنعة اقتناعاً عميقاً بأنها أسقطت إنسانة وأفسد مخلوقة على وجه الأرض. لا تنعيتها بالعار، لا ترميها بحجر!

حسبها ما تلقى هي نفسها من عذاب الشعور بحطّة تصف بها نفسها ظلاماً! ما ذنبها يا رب؟ هي في نوبات حماسها تصيح قائلة إنها لا تعرف لنفسها أية خطيئة أو ذنب، وأنها ضحية الرجال، ضحية رجل داعر وغد حقير! ولكن عليك أن تعلمي، مهما تعلن لك من رأي، أنها أوّل من لا يصدّق ما تقول. بالعكس: إنها لا تتهم أحداً غير نفسها... إنها تتهم نفسها وحدها، واعية كل الوعي. وحين كنت أحاول أن أبدد من نفسها هذه الظلمات كانت تشعر بالآلام وتباريح تبلغ من القوة والشدة أن قلبي لن يُشفى يوماً، ما ظل

محتفظاً بذكرى تلك اللحظات الأليمة. إنني أحسّ أن قلبي قد طُعنَ إلى الأبد. لقد هربت مني، فهل تعلمين لماذا هربت؟ إنها لم تهرب إلا لتبرهن لي على خسّتها ودناءتها. على أن أفضع ما في الأمر أنها هي نفسها ربما كانت تجهل أن الدافع الذي كان يحركها إنما هو تقديم هذا البرهان لي وحدي. لقد كانت تظن أنها كانت تهرب خضوعاً لرغبة عارمة لا تقاوم في أن تقارف عملاً مشيناً يتيح لها أن تقول لنفسها بعد ذلك: «وهذه خسة جديدة تُدينُك. ألا إنك لمخلوقة دنيئة منحطة!».

لعلّك لا تفهمين هذا يا أجلايا! هل تعلمين أن شعورها الدائم ذاك بخسّتها ربما كان يخفي وراءه لذة فظيعة مخالفة للطبيعة هي لذة إشباع نوع من الانتقام من أحد الناس؟ كنتُ أنجح أحياناً في أن أردّها إلى رؤية الضياء من حولها، لكنّها سرعان ما كانت تتمرد، وتمضي في ذلك إلى حدّ اتهامي بأنني أريد الارتفاع فوقها والعلوّ عليها (وكان هذا في الواقع بعيداً عن ذهني كل البعد)؛ ثم تعلن لي أخيراً بغير لفّ أو دوران، حين أعرض عليها الزواج، أنها لا تطلب من أحد لا شفقة عليها ولا رافة بها ولا معونة لها، وأنها ترفض أن يحاول أحد «رفعها إليه». لقد رأيتها أنتِ بالأمس. هل تظنين أنها سعيدة بصحبة هؤلاء الناس، وأنّ تلك البيئة هي البيئة التي تناسبها؟ إنك لا تعرفين مدى سعة ثقافتها، ورحابة فكرها! لطالما أدهشني هذا فيها!

- هل كنتَ تلقى عليها هناك... مواعظ كالتي تلقيها عليّ الآن؟

تابع الأمير كلامه دون أن ينتبه إلى لهجة السؤال:

- لا. كنتُ أصمّت طوال الوقت تقريباً. كنتُ أريد في كثير من الأحيان أن أتكلّم، ولكنني لا أجد في الواقع شيئاً أقوله. هل تعلمين أن خير ما يفعله المرء أحياناً هو أن يصمت؟ نعم... كنتُ أحبّها.. كنتُ أحبها كثيراً... ولكن... بعد ذلك... بعد ذلك... بعد ذلك... حزرتَ هي كل شيء.

- حزرتَ ماذا؟

- حزرتَ أنني لا أضمر لها إلا الشفقة... أنني أصبحت لا أحبها!

- ما يدريك؟ لعلها أحبّت فعلاً ذلك... ذلك المالك الذي هربت معه؟

- لا، أنا أعرف كل شيء. إنها لم تزدد على أن ضحكت عليه؟

- وعليك أنت، ألم تضحك قط؟

- لا! أقصد... أحياناً... كانت تسخر مني... تخابثاً ومكراً! كانت في تلك

اللحظات ترهقني بملاحظات حانقة، وكانت هي نفسها تتألم! ولكنّها، بعد ذلك.. آه... لا توقظني هذه الذكريات في نفسي، لا تذكريني بهذه الأشياء!

قال الأمير ذلك وأخفى وجهه بيديه.

سألته أجاليا:

- وهل تعلم أنها تكتب إليّ كل يوم تقريباً؟

فهتف الأمير يقول مضطرباً أشد الاضطراب:

- أهذا صحيح إذن؟ لقد ذكر لي أنها تكتب إليك، ولكنني أبيت أن أصدق.

فسألته أجاليا خائفة:

- من ذكر لك ذلك؟

- روجويين. إن روجويين هو الذي حدّثني في هذا أمس، ولكن بكلمات غامضة.

- أمس؟ أمس صباحاً؟ في أي وقت من النهار؟ أقبل الموسيقى أم بعدها؟

- بعد الموسيقى. في السهرة، بين الحادية عشرة ومنتصف الليل.

- آ... طيب... ما دام هو روجويين... ولكن هل تعرف عمّ تكلمني في تلك

الرسائل؟

- لا أستغرب شيئاً. إنها مجنونة!

- إليك الرسائل (استلت أجاليا من جيبها ثلاث رسائل مغلقة وألققتها أمام الأمير).

إنها، منذ أسبوع كامل، تتوسّل إليّ، تضرع إليّ، تبتهل إليّ أن أتزوّجك. إنها... نعم... ذكية، وإن تكن مجنونة. أنت على صواب حين تقول إنها أذكى كثيراً مني. تقول لي في رسائلها إنها تهواني، وإنها تبحث كل يوم عن فرصة تراني فيها ولو من بعيد، وهي تؤكد لي أنك تحبني، وأنها تعلم ذلك علم اليقين، وأنها لاحظته منذ زمن طويل، وأنها حدّثتها عني حين كنتما هناك. إنها تريد أن تراك سعيداً، وتوقن أنني أستطيع وحدي أن أسعدك!... وهي تكتب بطريقة غريبة... غريبة جداً. لم أطلع أحداً على رسائلها. كنت أنتظرك. هل تدري ماذا يعني كلامها؟ ألا تدرك ماذا يعني كلامها؟

- هو جنون. كلامها يدل على أنها فقدت عقلها.

كذلك قال الأمير وقد أخذت شفتاه تخرجان. سألته:

- أأست تبكي؟

فأجاب:

- لا آجاليا! لست أبكي!

- ما الذي يجب علي أن أفعله؟ بماذا تنضحني؟ إنني لا أستطيع أن أستمر في تلقي هذه الرسائل.

هتف الأمير يقول:

- دعيها، أرجوك! ماذا تستطيعين أن تفعلي في هذه الظلمات؟ سأحاول أن أجعلها لا تكتب إليك بعد الآن!

صاحت آجاليا قائلة:

- إذا كنت تقول هذا الكلام، فمعنى ذلك أنك رجل لا قلب له. أأست ترى أنها لا تهواني أنا، وإنما هي تهواك أنت. إنك أنت الذي تحبه! كيف يمكن أن تكون قد لاحظت فيها كل شيء إلا هذا؟ هل تعلم ماذا وراء كلامها؟ هل تدرك عمّ تكشف رسائلها؟ إنها تكشف عن الغيرة، بل تكشف عما هو شرّ من الغيرة!.. إنها... أتظن أنها ستتزوج روجويين فعلاً كما تزعم ذلك في رسائلها؟ لسوف تنتحر غداً زواجنا إذا نحن تزوجنا!

ارتعش الأمير وانهد قلبه. ونظر إلى آجاليا مدهوشاً: لقد شعر بإحساس غريب حين لاحظ أن هذه الطفلة قد غدت امرأة منذ مدة طويلة.

- شهد الله يا آجاليا أنني مستعدّ لأن أضحي بحياتي في سبيل أن أدخل إلى نفسها الراحة والسلام والطمأنينة والسعادة. ولكنني... لا أستطيع بعد اليوم أن أحبها، وهي تعرف ذلك!

- طيب... ضحّ بحياتك ما دام هذا يناسبك كثيراً! إنك محسن عظيم. ولا تنادني باسم «آجاليا». أنت منذ لحظة قلت «آجاليا» فحسب!... يجب عليك أن تحاول بعثها بعثاً جديداً. أنت مضطرّ أن تفعل هذا. الواجب يملّي عليك أن تسافر معها ثانية، لكي تدخل الهدوء والسكينة إلى قلبها. ثم إنك تحبها هي!

- لا أستطيع أن أضحيّ بنفسي، رغم أن هذه النية قد قامت في فكري، ولعلها ما زالت قائمة في فكري!.. ولكنني أعلم علماً «لا سبيل إلى الشك فيه» أنها إن بقيت معي

ضاعت وهلكت!... وذلك هو السبب الذي يدفعني إلى الابتعاد عنها. ينبغي أن أراها اليوم في الساعة السابعة. ولكن قد لا أذهب إليها. إن كبرياءها لن تغفر لي حبي في يوم من الأيام، وسيكون في هذا ضياعها وضياعي إذا نحن بقينا معاً! ليس هذا طبيعياً، غير أن كل شيء هنا مخالف للطبيعة. تقولين إنها تحبني. ولكن هل هذا حب؟ هل يمكن أن يكون ثمة عاطفة كهذه العاطفة بعد كل الذي عانيت وقاسيت؟ لا، ليس هذا حباً. هو شيء آخر غير الحب!

قالت أجاليا بارتياح مفاجئ:

– ما أشدّ هذا الشحوب الذي اعتراك!

– ما ذلك بشيء. إنني لم أنتم كثيراً. أشعر بأنني ضعيف. تلك هي الحقيقة. لقد تحدثنا عنك حينذاك يا أجاليا...

– ذلك حتى إذن؟ هل تحدثت «عني معها» فعلاً؟ ... كيف أمكن أن تحبني بعد أن لم ترني إلا مرة واحدة؟

– لا أدري. في الظلمات التي كانت تحفّ بي حينذاك، رأيت ما يشبه أن يكون حلماً.. لعل فجراً جديداً قد أشرق أمام عيني. لا أدري لماذا انصرف فكري إليك أنت أول ما انصرف. لم أكذب عليك حين كتبت إليك قائلاً إنني أجهل كيف حدث الأمر. لم يكن ذلك إلا حلماً هربت إليه من ذكري حينذاك... وبعدئذ، أخذت أدرس... وكان في نيتي أن لا أعود قبل ثلاث سنين...

– أومن أجلها إذن عدت؟

– نعم، من أجلها.

انقضت دقيقتان في صمت. ثم نهضت أجاليا. وقالت بصوت متردد:

– إذا كنت تقول، إذا كنت تعتقد أنت نفسك أن هذه... أن صاحبك هذه مجنونة، فإن ما تأتية من أعمال شاذة لا يعنيني ولا يهمني في شيء. أرجوك يا ليون نيقولايفتش أن تأخذ مني هذه الرسائل الثلاث فترميها في وجهها نيابةً عني!

ثم صاحت أجاليا تقول بخشونة:

– وقل لها إنني، إذا سمحت لنفسها بأن تكتب لي مرة أخرى سطرًا واحداً، سأشكوها إلى أبي الذي سيعرف كيف يودعها في مأوى للمجانين...

انتفض الأمير، ونظر مرتاعاً إلى هذا الغضب الشديد الذي اجتاح آجلايا على غير توقع. ثم سقط أمام عينيه نوع من ضباب، على حين فجأة وتمتم يقول لها:

- لا، لا يمكن أن تحملي عواطف كهذه العواطف... لا... ليس حقاً ما تقولين!

- بل هو حق، هو الحقيقة بعينها!...

كذلك صرخت آجلايا كالخارجة عن طورها.

فإذا بصوتٍ مذعور يسألها على مقربة منها:

- أي شيء هو على حق؟ عن أية حقيقة تتكلمين؟

كانت إليزابت بروكوفينا أمامهما.

اندفعت آجلايا تجيب أمها قائلة:

- عن حقيقة أنني قررت أن أتزوج جبريل آرداليونوفتش، وأني أحبه، وأني سأهرب معه غداً من البيت. هل سمعت؟ هل ارتوى فضولك الآن؟ هل يكفيك هذا؟

وركضت عائدة إلى البيت.

قالت إليزابت بروكوفينا وهي توقف الأمير:

- لا يا صديقي الطيب، لن تنصرف الآن. هلاً تفضلت فصحبتي حتى تشرح لي تصرفك. أه... ما هذا العذاب يا رب! وكل ذلك بعد ليلة لم يغمض لي فيها جفن!...

تبعها الأمير.

الفصل التاسع

حين وصلت إليزابيث بروكوفيفنا إلى الدار توقفت في الحجرة الأولى. وإذ لم تقوَ على المضي إلى أبعد من ذلك، تهافتت على ديوان منهكةً منهدةً، حتى لقد نسيت أن تدعو الأمير إلى الجلوس. هي قاعة كبيرة ذات مدفأة، وفي وسطها مائدة مستديرة. إن أزهاراً كثيرة تتكدّس على رفوف فيها تحت النافذة. وفي آخر القاعة باب ذو زجاج، يفضي إلى الحديقة.

وسرعان ما ظهرت آديلايد وألكسندرا تنظران إلى الأمير وإلى أمهما مدهوشة سائلة مستطلعة.

لقد اعتادت الأنسات أن يستيقظن في المصيف في نحو الساعة التاسعة؛ لكن أجلايا أصبحت منذ يومين أو ثلاثة أيام تستيقظ قبل التاسعة بقليل، وتمضي تتنزه في الحديقة، لا في الساعة السابعة على كل حال، بل في الثامنة وحتى بعد الثامنة.

حقاً لم تعرف إليزابيث بروكوفيفنا سبيلاً إلى النوم طوال الليل من كثرة الهموم التي كانت تملأ رأسها. وقد نهضت في الساعة الثامنة لتذهب إلى الحديقة وتلحق بأجلايا التي كانت إليزابيث بروكوفيفنا تعتقد أنها صحت من نومها وقامت من فراشها. لكنها لم تجدها لا في الحديقة ولا في غرفة نومها. فشعرت بروح شديد وأيقظت ابنتيها الأخريين.

وقالت الخادمة إن أجلايا إيفانوفنا قد ذهبت إلى الحديقة العامة قبل الساعة السابعة. فضحكت الأختين ضحكاً مأكراً حين علمتا بأمر هذه النزوة الجديدة التي بدت لأختيهما الصغرى ذات الخيال الجامح، ولفتتا نظر أمهما إلى أن أجلايا يمكن أن تغضب إذا مضى أحد يبحث عنها في الحديقة العامة؛ وقالتا إنها لا بد أن تكون الآن جالسة إلى كتاب بيدها على الدكة الخضراء التي تكلمت عنها منذ ثلاثة أيام وأوشكت أن تشتجر في شأنها مع الأمير «شتش...»، الذي زعم أنه لا يجد في المكان الذي تقع فيه تلك الدكة أي جمال خاص.

فلما وقعت إليزابيث بروكوفيفنا على ابنتها متواعدة مع الأمير، وفاجأتها تنطق

بتلك الأقوال الغريبة، شعرت برعب شديد له في الواقع أسباب كثيرة تبرره وتسوّغه. ولكنها بعد أن جرّت الأمير معها، خشيت نتائج مبادرتها، إذ تساءلت: «لماذا لا يجوز أن تلتقي آجلايا بالأمير في الحديقة وأن يجري بينهما حديث، ولو على سابق موعد؟».

قالت أخيراً وهي تحاول أن تسيطر على نفسها:

- لا يذهبن بك الظن، يا عزيزي الأمير، أنني جئت بك إلى هنا لكي أستجوبك... ولعلني، يا صديقي الطيب، كنت أؤثر، بعد الذي جرى في مساء أمس، أن لا أراك مرة أخرى، خلال مدة طويلة.

وانقطعت عن الكلام لحظة. فبادرها الأمير بقوله:

- لكنني أقدر أنك تحبين أن تعرفي كيف التقينا اليوم أنا و آجلايا إيفانوفنا...

فأجابته إليزابيت بروكوفيفنا باندفاع:

- طبعاً أحب أن أعرف ذلك. أنا لا أخشى أن أقابل بالحقيقة. إنني لا أسئ إلى أحد، ولم أشأ أن أسئ إلى أحد...

- طبعاً.. إن الرغبة في معرفة ذلك لا تشتمل على إساءة إلى أحد. لقد التقينا اليوم، أنا و آجلايا إيفانوفنا، قرب الدكة الخضراء، في الساعة السابعة تماماً، على موعد ضربته لي أمس. لقد أعطتني في مساء أمس رسالة تقول فيها إنها تريد أن تراني وأن تكلمني في أمر هام. فالتقينا وتكلمنا خلال ساعة في شؤون لا تتعلق إلا بها وحدها. ذلك كل شيء.

قالت إليزابيت بروكوفيفنا بلهجة رصينة:

- طبعاً هذا كل شيء يا صديقي. لا يساورني أي شك في أن هذا كل شيء.

قالت آجلايا وهي تدخل الغرفة فجأة:

- أحسنت جداً يا أمير. أشكر لك من أعماق قلبي أنك اعتبرتني عاجزة عن الانحدار إلى حيث أُلحق كذبة. أنت راضية الآن يا ماما، أم تراك تريدين أن تمضي في الاستجواب إلى أبعد ذلك؟

ردّت عليها إليزابيت بروكوفيفنا بلهجة من يُلقي درساً:

- تعلمين حق العلم أنني لم يتفق لي في يوم من الأيام أن احمرّ وجهي أمامك... رغم أن ذلك كان يمكن أن يحدث لك لذة.

ثم التفتت تقول للأمير:

- أستودعك الله يا أمير! اغفر لي إزعاجي لك.. أمل أن تظل مقتنعاً بأن تقديري لك ثابت لا يتغير.

وسرعان ما حياً الأمير أم الفتاة ثم انسل صامتاً لم لا ينبس بكلمة. وارتسمت ابتسامة على شفتي كل من آديلايد وألكسندرا، وأخذتا تتهاامسان. فألقت عليهما إليزابت بروكوفيفنا نظرة قاسية.

قالت آديلايد ضاحكة:

- إن ما يحملنا على الابتسام هو أن نرى الأمير يُلقي تحيته بهذا الجلال وهذه الفخامة! إنه في العادة، من فرط خراقتة، أشبه بكيس، ثم إذا هو يصطنع الآن آداباً وحركات فكأنه أوجين بافلوفتش.

قالت إليزابت بروكوفيفنا بوقار:

- رفعة الذوق ورهافة الحسّ والشعور بالكرامة أمور تنبع من القلب ولا يعلمها أساتذة الرقص.

وصعدت إلى غرفتها حتى دون أن تلقي نظرة على آجلايا.

وحين عاد الأمير إلى بيته في نحو الساعة التاسعة وجد على الشرفة فيرا لوكيانوفا وخادمة. كانتا قد رتبتا المكان وكنّستا الأرض بعد سهرة البارحة الصاخبة.

قالت فيرا مرحة:

- الحمد لله! انتهينا من العمل قبل عودتك.

- صباح الخير. إن بي بعض صداع. لم أنم نوماً مريحاً. أودّ لو أرقد قليلاً.

- هل تحبّ أن ترتاح هنا، على الشرفة، كأمس؟ هذا حسن. سأقول للجميع أن لا يوقظوك. بابا خرج.

انصرفت الخادمة. وتظاهرت فيرا بأنها تتبعها، لكنها عدلت عن ذلك، واقتربت من الأمير مهمومة وقالت له:

- أمير أشفق على هذا... البائس. لا تطرده اليوم.

قال الأمير:

- لن أطرده بحال من الأحوال، سيفعل ما يحلو له أن يفعل.

- الآن لن يفعل شيئاً... لا تكن قاسياً معه!!

- طبعاً لن أكون قاسياً معه، علام أكون قاسياً؟

- ثم... لا تضحك عليه... لا تستهزئ به... ذلك هو الأمر الأساسي.

- حتماً لن أفعل.

قالت فيرا وقد احمرّ وجهها:

- سخفٌ مني أن أقول هذا الكلام لرجلٍ مثلكَ.

ثم أضافت تقول ضاحكةً وقد استدارت نصف استدارة نحو الباب:

- رغم أنك متعب مكدود، فإن عينيك في هذه اللحظة تعبران عن أبلغ الطيبة وأعظم السعادة...

سألها الأمير بحرارة:

- أهما تعبران عن سعادة عظيمة حقاً؟

وانطلق يضحك ضحكة صريحة واضحة.

ولكن فيرا التي تتصف بالبساطة، وتتصف برفع الكلفة وعدم التحرج كأنها صبي، سرعان ما خجلت خجلاً كبيراً واضطربت اضطراباً شديداً وازداد احمرار وجهها كثيراً؛ ثم إذا هي تخرج فجأة دون أن تنقطع عن الضحك.

قال الأمير يحدث نفسه: «يا لها... من فتاة رائعة...»، ثم سرعان ما نسيها. وانسحب إلى ركن من الشرفة فيه السرير، وجلس قبالة مائدة صغيرة، وغطى وجهه بيديه، ولَبِثَ على هذا الوضع زهاء عشر دقائق. وفجأة، دسّ يده في جيبه الجانبي قلقاً، فأخرج منه ثلاث رسائل.

لكن الباب فُتِحَ من جديد، ودخل كوليا، فشعر الأمير بما يشبه الضحك لهذه الفرصة التي تتيح له أن يعيد الرسائل إلى جيبه، وأن يُرجى قراءتها.

جلس كوليا على السرير.

ولم يلبث أن انبرى يدخل في الموضوع دفعة واحدة، بما هو معهود في أمثاله من انطلاق:

- يا له من حادث! ما رأيك الآن في هيوليت؟ هل فقد اعتبارك؟

- علام يفقد اعتباري؟... ولكنني متعب... يا كوليا... ثم إن العودة إلى هذا الموضوع أليمة. كيف حاله الآن مع ذلك؟

- إنه نائم. وأغلب الظن أنه لن يستيقظ قبل ساعتين. أنا فاهم: أنت لم تبتِ ليلتك بالدار، بل ذهبت إلى الحديقة العامة. شيء طبيعي... لأنك كنت متأثراً مضطرباً!... لا أقل من هذا!

- كيف عرفت أنني ذهبتُ إلى الحديقة العامة، وأني لم أبت ليلتي بالدار؟

- قالت لي فيرا منذ لحظة. وقد أوصتني بأن لا أدخل. لكنني لم أطق صبراً. أردتُ أن أراك، ولو دقيقة! لقد قضيتُ هاتين الساعتين قائماً على المريض. والآن يقوم عليه كوسيتا ليبيديف. أما بوردوفسكي فقد مضى. الخلاصة: أرقُد يا أمير، أتمنى لك ليلة... بل يوماً سعيداً! ولكن... هل تعلم؟ أنا مشدوه مذهول!

- لا غرابة في ذلك، بعد كل الذي...

- لا يا أمير، لا. إن ما يدهشني ويذهلني هو «الاعتراف»؛ ولا سيما الجزء الذي يتحدث فيه عن العناية الإلهية والحياة الآخرة. وهنا فكرة ضخ...-مة!...

نظر الأمير إلى كوليا بعاطفة وحنان. لا شك في أن كوليا إنما جاء ليتحدث مع الأمير في تلك الفكرة الضخمة.

قال كوليا:

- لكن الشيء الأساسي، الشيء الأساسي، ليس الفكرة ذاتها بل الظروف التي نبتت هذه الفكرة في ظلها. فلو أن الذي عبر عن هذه الفكرة فولتير أو روسو أو برودون، لقرأتها ولاحظتها دون أن تدهشني إلى ذلك الحد من الإدهاش. أما أن يقول هذا الكلام إنسان موقن من أنه لم يبق له أن يحيا على وجه هذه الأرض إلا عشر دقائق، فذلك مثال رهيب على الكبرياء والجبروت! إن هذا أسمى مظهر من مظاهر الاستقلال والكرامة الشخصية! إن هذا اقتحام جسور... بل هو قوة نفسية ضخمة! فإذا قيل بعد هذا أنه تعمد أن ينسى الكبسولة تعمدًا، كان ذلك حطة وخسة، بل كان سخفاً واستحالة! ولكن هل تعلم؟ لقد خدعنا هيوليت أمس. إنه ماكر. أنا لم أشاركه في ترتيب حقيبتة، لا ولا رأيت مسدسه في يوم من الأيام، انه هو الذي حزم كل شيء. لذلك دُهِشت وتحيّرت حين سمعته يزعم ذلك الزعم. تقول فيرا إنك ستبقيه هنا. أوكد لك أن لا خطر

البتة، لا سيما وأننا نراقبه مراقبة دقيقة في كل لحظة.

- من الذي سهر عليه هذه الليلة؟

- كوستيا ليبيديف، وبوردوفسكي، وأنا. وقد جاء كيلر، لكنه لم يلبث أن ذهب ينام عند ليبيديف، إذ لم يكن في غرفتنا مكان يرقد فيه. وهناك إنما بات فردشتينكو كذلك، ثم خرج في الساعة السابعة. وما يزال الجنرال في بيت ليبيديف. والان خرج هو أيضاً... أظن أن ليبيديف ينوي أن يجيء إليك بعد هنيهة. لقد بحث عنك - لا أدري لماذا! - وسأل مرتين أين أنت؟ أيجب أن نسمح له بالدخول، أم يجب أن نطلب منه الانتظار، إذ كنت تريد أن ترتاح؟ أنا نفسي سوف أمضي أنا. ها... نعم... يجب أن لا أنسى أن أذكر لك ما يلي: لقد شهدت، منذ قليل، عملاً غريباً من أعمال الجنرال. أيقظني بوردوفسكي قبيل الساعة السادسة، بل في الساعة السادسة تماماً، لأبشر نوبتي في القيام على المريض. فخرجت دقيقة. فما كان أشد دهشتي حين التقيت بالجنرال وقد بلغ من السكر أنه لم يعرفني، ولبث جامداً أمامي كأنه وتد مغروس في الأرض، ثم تاب إلى رشده، فانبرى يسألني: «هيه!! كيف حال المريض؟ لقد جئت أسأل عن صحته!». فذكرت له كيت وكيت. فأضاف يقول: «هذا كله حسن!! ولكنني إنما نهضت من فراشي وجئت خاصة لأنبهك. هناك أسباب تدعوني إلى الاعتقاد بأن من غير الممكن أن يقال كل شيء بحضور فردشتينكو.. وأن من الواجب أن يكون المرء على حذر منه..» أتفهم يا أمير؟

- هل هذا ممكن؟ على كل حال... نحن لا يهمنا ذلك ولا يعيننا.

- طبعاً لا يهمنا ولا يعيننا، فنحن لسنا من «الماسونيين الأحرار»! حتى لقد أدهشني أن يكون الجنرال قد أراد أن يوقظني هذه الليلة ليقول لي هذا الكلام.

- تقول أن فردشتينكو خرج؟

- في الساعة السابعة. جاء إليّ وأنا قائم على المريض، فذكر لي أنه سينهي ليلته عند فلكين - إنه سكير مشهور، فليكن هذا! هيا! أنا منصرف! ولكن هذا هو لوكيان تيموفيتش... إن الأمير يريد أن ينام يا لوكيان تيموفيتش، فارجع من حيث أتيت!

فأجاب ليبيديف وهو يحيي بكثير من الاحتفال:

- لا أكثر من دقيقة واحدة أيها الأمير المعظم. إن الأمر أمر قضية لها عندي شأن

هام.

كان ليبيديف يتكلم بصوت خافت ولهجة رصينة، ولكن صوته ممتلئ بخطورة القضية التي جاء يتحدث فيها. لقد رجع الآن إلى البيت، حتى إنه لم يذهب إلى غرفته بعد، فما يزال ممسكاً قبعته بيده. كان وجهه مهموماً، وكانت هيئته تعبر عن خطورة الأمر تعبيراً قوياً.

رجاه الأمير أن يجلس.

- هل سألت عني مرتين؟ أتراك ما تزال قلقاً بسبب حوادث البارحة؟

- أنت تعني موضوع فتى الليلة الماضية يا أمير؟ لا، لا: لقد كانت أفكارى مضطربة أمس. أما اليوم فلست أريد أن أعاكس نواياك في أي شيء...

- أعاك... ماذا قلت؟

- قلت: أعاكس. هذه كلمة فرنسية كغيرها من الكلمات الفرنسية الكثيرة التي دخلت على لغتنا الروسية، ولكنني لا أحرص عليها حرصاً كبيراً.

قال الأمير وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

- ماذا أصابك اليوم يا ليبيديف حتى صرت شديد الرصانة كثير الاحتفال إلى هذه الدرجة؟ أراك تتمهل في الكلام مقطعاً كلماتك وازناً ألفاظك.

فاتجه ليبيديف إلى كوليا وقال له بلهجة يكاد يكون فيها حنان:

- نيقولا ي آر داليونوفتش! عليّ أن أبلغ الأمير قضية تتعلق خاصة بـ...

- طيب... فهمت!... قضية لا تتعلق بي. إلى اللقاء يا أمير!

كذلك قال كوليا وانصرف فوراً.

قال ليبيديف وهو يتابعه بنظره:

- أحب هذا الصبي حقاً، فهو حاد الذكاء سريع الفهم؛ وهو يقظ نشيط، وأن يكن مزعجاً بكثرة إلحاحه. لقد حلّت بي مصيبة كبيرة أيها الأمير المعظم، حلّت بي مساء أمس أو هذا الصباح في وضوح النهار.. لا أستطيع أن أحدّد الوقت تحديداً دقيقاً بعد.

- ماذا حدث؟

- أربعمائة روبل اختفت من الجيب الداخلي من ردائي.

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة مرة:

- خدعت أيها الأمير المعظم!

- فقدت أربعمائة روبل؟ خسارة...

- لا سيما بالنسبة إلى رجل فقير يعيش من عمله بشرف ونبل.

- طبعاً طبعاً. كيف وقع الأمر؟

- الذنب ذنب الخمرة. إنني أتجه إليك اتجاهي إلى العناية الإلهية أيها الأمير المعظم. إن مبلغ الأربعمائة روبل هذا قد رده إليّ مدينٌ في الساعة الخامسة من مساء أمس. وعدتُ إلى هنا بالقطار. وكانت محفظة أوراق في جيبِي. فلما خلعتُ بزتي لأرتدي ردنجوتي وضعتُ المال في جيب الردنجوت حرصاً مني على الاحتفاظ بالمال معي. كنتُ أنوي أن أسلم المال في السهرة لرجل من رجال الأعمال كان قد طلبه مني. وكنتُ أنتظر ذلك الرجل...

- بالمناسبة يا لوكيان تيموفتش: هل صحيح أنك نشرت في الجرائد إعلاناً أنك تقرض مالاً برهن أشياء ذهبية أو فضية؟

- هذا الإعلان قد تم إرساله بواسطة رجل من رجال الأعمال. فهو لا يحمل اسمي أو عنواني. وأنا امرؤ لا أملك إلا رأس مال صغير، وقد ازداد عدد أفراد أسرتي، فأظن أنك توافق على أن فائدة شريفة...

- طبعاً، طبعاً! أنا لم ألقِ عليك هذا السؤال إلا من باب العلم بالشيء!... اغضري لي إنني قاطعتك.

- لم يأت رجل الأعمال الذي كنتُ أنتظره. ثم جيء إلى هنا بذلك البائس الشقي. وبعد العشاء كنت قد انتعشت. ثم جاء زوارنا. فشربنا... شايًا... و... من سوء حظي أنني أفرطتُ في المرح. فلما وصل كيلر في ساعة متأخرة من السهرة فأعلن لنا أن اليوم عيد ميلادك وأن علينا أن نقدم شمبانيا، اعتقدت يا عزيزي الأمير المعظم، اعتقدت أنا الذي أملك قلباً لا أقول إنه عاطفي ولكنني أقول معتزلاً إنه قلب يعترف بالجميل (وأغلب ظني أنك لاحظت ذلك، لأنني أستحق أن تلاحظه)، نعم... اعتقدت أن من واجبي أن أخلع ثيابي القديمة البالية وأن أعود أرتدي بزتي الرسمية انتظارا للحظة التي أعبر لك فيها عن تهنئتي، وأحتفل فيها بعيد ميلادك بمزيد من المهابة والفضامة. ذلك ما فعلته يا أمير، ولا بد أنك لاحظت أنني لبثتُ مرتدياً بزتي الرسمية طوال السهرة. ولكنني حين بدلت ثيابي نسيت المحفظة في جيب ردنجوتي. صدق من قال: إذا

أراد الله أن يعاقب أحداً جرّده من عقله أولاً. وفي هذا الصباح، في الساعة السابعة والنصف، حين استيقظت من نومي، وثبتُ نحو ردنجوتي كالمجنون. فإذا أنا أجد الجيب خالياً. فلا أثر للمحفظة.

- آه... هذا مزعج!

- هذه هي الكلمة: مزعج.

كذلك قال ليبيديف ثم أضاف بشيء من المكر:

- إنك بما تملك من كياسة تتميز بها قد وجدت التعبير المناسب فوراً.

قال الأمير قلقاً بعد لحظة من تفكير:

- ولكن... مع ذلك... كيف... هذا خطير!

- تلك هي الكلمة: خطير! لقد جئت، يا أمير، مرة أخرى، بالتعبير الموفق الذي يحدّد ال....

- أوه... لو كيان تيموفنتش! ما لنا وللكلمات الآن! ليست الكلمات هي الأمر المهم. هل تعتقد أن من الجائز أن تكون المحفظة قد سقطت من جيبيك دون أن تنتبه أنت إلى ذلك بسبب سُكرِكَ؟

- جائز. كل شيء في السّكر جائز، على حدّ التعبير الذي استعملته بكثير من الصراحة أيها الأمير المعظم. ولكن أحكم في الأمر بنفسك: لو أنني أسقطتُ محفظتي من جيبي حين خلعتُ ردنجوتي لكان يجب العثور على المحفظة في أرض الغرفة.. فأين هي المحفظة؟

- ألا يجوز أن تكون قد دسستها في درج منضدة؟

- نبشتُ كل شيء. بحثتُ في كل موضع. ثم إنني لم أضعها في أي مكان، ولم أفتح أي درج. أتذكر هذا تذكّاراً تاماً.

- هل بحثت في الخزانة الصغيرة؟

- ذلك أوّل شيء فعلته، حتى لقد بحث فيها عدة مرّات هذا الصباح... ثم ما الذي كان يمكن أن يدفعني إلى دسّ المحفظة في الخزانة الصغيرة أيها الأمير المعظم؟

- أعترفُ لك يا ليبيديف أن الأمر يُقلقني كثيراً. أ يكون أحد قد عثر بها إذن على

الأرض؟

- أو أستلّها من جيبِي! ليس هناك تفسير آخر.

- هذا يُقلّقني قلقاً شديداً! من ذا الذي يمكنه أن يفعل هذا؟.. ذلك هو السؤال!

- لا شك أن ذلك هو السؤال الأساسي. إنك أيها الأمير المعظم توفّق توفيقاً مدهشاً مُحكماً إلى الكلمات والأفكار والتعاريف التي تُصوّر الوضع...

- آه... لوكيان تيموفتتش... كفى سخرية! هنا...

صاح ليبيديف وهو يرفع ذراعيه قائلاً:

- سخرية؟

- هيا... هيا... طيّب.. لست أزعل... إن اهتمامي منصرف إلى غير هذا تماماً.. أنني أخشى أن أرى أناساً يتّهمون. فيمن تشّبه؟

- السؤال محرج جداً... و... معقد جداً! لا أستطيع أن أتّهم الخادمة، فقد لبّثت في مطبخها طول الوقت. ولا يمكن الشك في أولادي أيضاً...

- طبعاً.

- يَنْتُج عن ذلك أن الفاعل لا يمكن أن يكون إلا أحد الزوار.

- ولكن هل هذا ممكن؟

- هذا مستحيل استحالة مطلقة كاملة، ولكن لا يمكن أن يكون قد حدث غير هذا. وإنني لأسّلم مع ذلك، بل إنني لمقتنع أيضاً بأن السرقة - إنما حدثت لا في السهرة، حين كان الزوّار مجتمعين، بل في ساعة متأخرة من الليل، أو حتى عند مطلع الصبح، وأن الشخص الذي ارتكبها هو أحد الذين باتوا ليلتهم هنا.

- آه... رباه!...

- أنا لا أشك طبعاً في بوردوفسكي ولا في نيقولاي آرداليونوفتتش؛ وهما لم يدخلوا علي، في كل حال.

- هذا بديهي، حتى ولو دخلا عليك! من بات ليلته عندك؟

- نحن أربعة بتنا في غرفتين متلاصقتين: الجنرال، كيلر، السيد فردشتينكو، وأنا. فالفاعل لا بدّ إذن أن يكون أحدنا.

- تقصد أنه لا بدّ أن يكون أحد الثلاثة. ولكن من هو؟

- لقد عددت نفسي بين المعدودين، لأكون عادلاً، ولأضع الأمور في نصابها. ولكنك توافقني يا أمير على أنني لا يمكن أن أسرق نفسي بنفسي، وإن تكن هذه الحالة قد سبق أن شوهد مثلها في هذا العالم...

صاح الأمير يقول وقد نفذ صبره:

- آه.. ليبيديف... ثرثرتك مضجرة جداً. انتقل إلى الوقائع. لماذا هذه المواردات؟...

- بقي إذن ثلاثة أشخاص. فلنبداً أولاً بالسيد كيلر، وهو رجل متقلب لا يعرف الاستقرار، وهو رجل سكير مدمن على الشراب، وهو في بعض الأحوال يوصف بأنه ليبرالي، فيما يتعلق بمسألة الجيوب هذه على الأقل. والأولى على كل حال أن يوصف بأن طبعه يشبه طبع فارس من العصر القديم أكثر مما يشبه طبع ليبرالي من الزمان الحاضر. لقد قضى النصف الأول من الليل معنا في غرفة المريض ثم لم يبارحنا إلا في ساعة متأخرة بحجة أنه لا يستطيع أن ينام على الأرض.

- هل تشبه فيه؟

- اشتبهت فيه، وحين وثبت عن فراشي كالمجنون بعد الساعة السابعة ولطمت جبيني، مضيت على الفور أوقف الجنرال الذي كان ينام نوماً هادئاً بريئاً. فلما تأملنا أنا والجنرال في أمر اختفاء فردشتينكو ذلك الاختفاء الغريب، وهذا أمر خليق وحده بأن يثير فينا الشبهات والشكوك، قرّرنا كلانا أن نفتش كيلر الذي كان راقداً مثل... مثل... مثل مسمار تقريباً. نبشنا جيوبه نبشاً دقيقاً فلم نجد قرشاً واحداً، حتى إن جميع جيوبه كانت مثقوبة لا يُستثنى منها جيب واحد. وعثرنا في أحد الجيوب على منديل من قطن أزرق ذي مربعات يأنف المرء من أن يشيله بملقط. ووجدنا رسالة غرام من خادمة ما، فيها مطالبة بمال وفيها تهديد. ووجدنا صفحات من المقالة التي تعلم من أمرها ما تعلم. ذلك كل ما وجدناه فقرّر الجنرال أن كيلر بريء. ومن أجل أن نزيد الأمر وضوحاً، أيقظنا الرجل من نومه، ولقينا في إيقاظه بعض العناء، فلما بسطنا له القضية لم يكذب فهم عمّ نتكلم: كان أمامنا فاغر الفم، ثمل الهيئة، غبي الوجه، بريء النظرة. ليس هو الفاعل إذن!

صاح الأمير يقول وهو يتنفس الصعداء فرحاً:

- آه... ما أعظم سروري! كنت خائفاً عليه!

قال ليبيديف غامزاً بمكر:

- كنت خائفاً عليه؟ أكان هناك إذن أسباب تدعوك إلى الخوف عليه؟

فأجابه الأمير:

- لا، لا... وإنما أنا قلتُ هذا بغير تفكير. لقد عبّرتُ عن تفكيري تعبيراً أحقق أخرق حين قلتُ إنني كنتُ خائفاً عليه. أرجوك يا ليبيديف أن لا تنقل كلامي هذا إلى أحد.

- أمير! أميراً سوف يبقى كلامك مدفوناً في قلبي، في القاع من قلبي. هو من قلبي في قبر.

كذلك قال ليبيديف بمهابة وجلال، ضاغظاً بقبعته على صدره.

سأله الأمير:

- طيّب... طيّب... هل الفاعل إذن هو فردشتينكو؟ أقصد. هل تشبهه في فردشتينكو؟

فأجاب ليبيديف خافضاً صوته محدقاً إلى الأمير:

- هل هناك من يمكن أن أشبهه فيه غيره؟

- نعم... طبعاً... من يمكن الاشتباه فيه غيره؟ ولكن أين الأدلة؟

- الأدلة موجودة. أولاً: اختفاؤه في الساعة السابعة أو حتى قبل الساعة السابعة من الصباح.

- أعلم: لقد حكى لي كوليا أن فردشتينكو قد دخل عليه ليبلغه أنه سوف ينهي ليلته عند... نسيت الاسم... المهم: عند أحد أصدقائه.

- فيلكين. إذن سبق أن حدثك نيقولاي آرداليونوفتش عن هذا الأمر؟

- لم يقل لي عن السرقة شيئاً.

- هو لا يعلم بها، لأنني أكتُم الأمر الآن. إذن ذهب فردشتينكو إلى عند فيلكين: لا غرابة في أن يذهب سكير إلى سكير، حتى في مطلع الصبح، بدون أي داع، أليس كذلك؟ ولكن هنا يرتسم مسار يمكن اقتفاؤه. إن فردشتينكو، حين انصرف، قد ذكر المكان الذي كان ذاهباً إليه. اصغ إلي يا أمير، وتابع سير تفكيري. لماذا فعل فردشتينكو ذلك؟ لماذا تعمّد أن يدخل على نيقولاي آرداليونوفتش، رغم أن الطريق إليه فيه دورة طويلة، ليبلغه أنه سيختم ليلته عند فيلكين؟ من ذا الذي يهمله أن يعرف أنه خارج، وأنه ذاهب

خاصة إلى فيلكين؟ لماذا الإبلاغ عن هذا؟ لا، لا، إن ذلك شطارة، شطارة لص! ذلك معناه: «انظروا، إنني لم أحاول إخفاء أثري، فكيف يمكن بعد ذلك أن تنصب عليّ شبهة سرقة؟ هل يدل سارق على المكان الذي يذهب إليه؟». هذه زيادة في الاحتياط والحذر لتحويل الأنظار وصرف الشبهات، ومحو آثار الخطوات على الرمل إن صحّ التعبير... هل فهمت عني يا أميري المعظم؟

- فهمت، فهمت جيداً، ولكن هذا دليل واهن كل الوهن.

- إليك دليلاً آخر: لقد ظهر أن المسار كاذب، وأن العنوان الذي تركه فردشتينكو غير صحيح. فلقد ذهبتُ أقرع باب فيلكين بعد ساعة، أي في الساعة الثامنة. إنه يسكن هنا، في «الشارع الخامس» وأنا أعرفه على كل حال. لم أجد عنده فردشتينكو. صحيح أنني استطعت أن أعلم من خادمة صماء كأنها جرّة ماء، أن أحداً قد جاء منذ ساعة فعلاً، وأنه بذل جهوداً كبيرة ليدخل حتى لقد خلع الجرس، ولكن الخادمة لم تفتح الباب إما لأنها لم تشأ أن توقظ فيلكين، وإما لأنها لم تستطع أن تنهض عن سريرها. هذا واضح.

- أهذه براهينك كلها؟ إنها قليلة.

- حول من يمكن أن تحوم شبهاتي يا أميري؟

هكذا ختم ليبيديف كلامه بلهجة فيها مراعاة شديدة، وبصوت يوشك أن يكون دامعاً، ولكن على ابتسامة لا تخلو من بعض المكر.

قال الأمير مهموم الهيئة بعد لحظة من تفكير:

- يجب عليك أن تفتش الغرف والأدراج تفتيشاً جديداً.

فقال ليبيديف متنهداً، معبراً بوجهه عن مزيد من التأثر:

- فعلت!

فهتف الأمير يقول وهو يضرب المائدة غضباً:

- هم... ولكن لماذا، لماذا خلعت ردنجوتك؟

قال ليبيديف:

- هذا سؤال مستمدّ من مسرحية هزلية قديمة. ولكنني أرى أيها الأمير المعظم المبجل أنك تُسرف في التألم لمصيبتي! أنا لا أستحق كل هذا. أقصد: أنا لا أستحق هذا، وحدي! على أنني أرى أنك تتألم للجاني أيضاً... لذلك الرجل التافه الذي يُسمّى

فردشتينكو!

فقاطعه الأمير يقول ذاهلاً مستاء:

- نعم... فعلاً... لقد ملأت نفسي همًا. الخلاصة: ماذا تنوي أن تفعل.. إذا كنت مقتنعاً هذا الاقتناع كله بأن فردشتينكو هو الجاني؟

قال ليبيديف وهو يتلوّ ويتعطف ويصطنع لهجة ما تنفك تزداد امتلاء بالتأثر والعاطفة:

- يا أمير، أيها الأمير المعظم، من ذا الذي يمكن أن أتهمه سواه؟ يستحيل أن ينصرف التفكير إلى شخص آخر، واستحالة الاشتباه في أي إنسان عدا فردشتينكو هي ذاتها قرينة أخرى تشير إلى أنه هو الجاني. ذلك دليل ثالث؛ ذلك أنني أكرّر هذا السؤال: من ذا الذي يمكن اتهامه عداه؟ إنني لا أستطيع الاشتباه في السيد بوردوفسكي، هي هي؟

- دعك من هذا السخف!

- لا ولا الجنرال، هي هي؟

- هذه أيضاً حماقة!

قال الأمير هذه الجملة الأخيرة بلهجة تكاد تشتمل على غضب، وانقلب على مضجعه إلى الجهة الأخرى متململاً نافد الصبر.

- هي حماقة طبعاً! هي هي هي! ما أغرب شأن هذا الجنرال! لشدّ ما أضحكني! لقد ذهبنا قبل قليل، نبحت عن فردشتينكو عند فيلكين.. يجب أن أقول لك إنه كان أشدّ دهشة مني حين مضيتُ أوقفه بعد أن تبين لي ضياع المال؛ فسرعان ما انقلبت سحنته. وتبدّل وجهه، فاحمر ثم اصفر، واستبدت به آخر الأمر نوبة نبيلة من الاستياء والغضب بلغت من الشدة والعنف حدّاً لم أكن أتوقع مثله البتة! إن له طبعاً من أنبل الطبائع. صحيح أنه لا ينفك يكذب، ضعفاً، ولكنه إنسان رفيع العواطف سامي المشاعر؛ وهو إلى ذلك يبلغ من الغباء والبراءة ما يجعل المرء يحضه ثقة كاملة لا تشوبها شائبة من شك. سبق أن قلتُ لك، أيها الأمير المعظم، إنني لا أستلطفه فحسب، بل أحمل له عاطفة طيبة ومحبة كبيرة. لقد وقف في وسط الشارع على حين فجأة، وفتح رداءه، وكشف لي عن صدره قائلاً: «فتّشني! لقد فتشت كيلر، فلماذا لا تفتّشني؟ إن العدل يوجب ذلك!». وكانت ذراعاه وساقاه ترتجف، وكان وجهه شديد الشحوب حتى ليشعر الناظر إليه بخوف. أخذتُ أضحك وقلتُ له:

«اسمع يا جنرال، لو قال هذا الكلام أحد عنك، لبادرتُ أقطع رأسه بيدي، ثم أضعه على طبق كبير وأمضي أعرضه بنفسي على جميع أولئك الذين يمكن أن يشتبهوا فيك، قائلاً لهم: «هل ترون هذا الرأس؟ أنني مستعدٌ لأن أقدمه رهناً على أن الجنرال صادق لا يكذب، بل إنني مستعدٌ لأن ألقى بنفسي إلى النار في سبيله!». فما كان من الجنرال إلا أن ارتدى بين ذراعي، ونحن ما نزال في وسط الشارع، نذرف بضع عبرات، وبلغ من قوة شدي إلى صدره معانقاً أنني كدتُ أختنق من نوبة سعال. قال لي: «أنت الصديق الوحيد الذي بقي لي فيما أنا فيه من شقاء». إنه إنسان حساس جداً! وقد انتهر الفرصة طبعاً ليقص عليّ أثناء الطريق حكاية تتفق وهذه المناسبة، فقال إنه قد اتهم ذات يوم أثناء شبابه بأنه سرق خمسمائة ألف روبل. لكنه في غداة ذلك اليوم نفسه رمى نفسه في لهب منزل يحترق، فأنقذ الكونت الذي كان قد اتهمه، وأنقذ في الوقت نفسه نينا ألكسندروفنا التي كانت في ذلك الأوان فتاة لم تتزوج. وقد عانقه الكونت وقبله؛ وفي أعقاب هذا الحادث إنما تزوج نينا ألكسندروفنا. أما المال المفقود فقد اكتُشف في اليوم التالي بين أنقاض المنزل المحترق، داخل علبة حديدية كان مودعاً فيها. إن تلك العلبة الحديدية، وهي صناعة إنجليزية ذات قفل خفي، كانت قد اندست تحت أرض الغرفة - لا يدري أحد كيف! - فلم يمكن العثور عليها إلا بعد الحريق. القصة ملفقة طبعاً، ولكن هذا لا ينفي أن عينيه قد دمعتا حين جاء على ذكر نينا ألكسندروفنا. إنها لامرأة محترمة جداً، نينا ألكسندروفنا هذه، رغم أنها غاضبة مني حاقدة علي.

- أليس لك بها صلوات؟

- تقريباً. ولكنني أتمنى أن تكون لي بها صلة، ولو لأبرئ نفسي في نظرها. إن نينا ألكسندروفنا حانقة عليّ لأنها تظن أنني أدفع زوجها الآن إلى الإدمان على السكر. والحق أنني لا أحضه على الفساد بل أصدّه عنه، ولعلني أقيه من رفاق السوء، وأجنبه مزلق بيئة خطيرة. هذا وإنني أعدّه صديقاً، وأعترف لك بأنني لن أهجره بعد اليوم أبداً، ولأذهب إلى حيث يذهب، لأنه لا سبيل إلى التأثير فيه إلا بالعاطفة. لقد انقطع الآن عن التردد إلى صاحبه «الكابتينه» انقطاعاً تاماً، وإن يكن في سرّه يحترق شوقاً إلى الذهاب إليها، حتى إنه في بعض الأحيان يتنهد تنقداً قوياً بل يئن أنيناً حين يفكر فيها، ولا سيما في الصباح، حين يقوم من فراشه ويضع قدميه في حذاءيه. لا أدري لماذا يستبد به هذا الأمر في تلك اللحظة بعينها. والبلية أنه لا يملك قرشاً واحداً، وهو لا يستطيع أن يذهب إليها بغير مال. ألم يسألك أن تنفحه بعض المال، أيها الأمير المعظم؟

- لا، لم يسألني شيئاً.

- إنه متحرّج. كان يريد أن يطلب منك مالاً. حتى لقد اعترف لي بأنه ينوي مضايقتك بهذا الأمر. ولكنه لم يجرؤ، لأنك أقرضته منذ مدة قصيرة، فقدّر أنك ربما رفضت إقراضه ثانية. لقد أفضى إليّ بهذا إفشاء صديق يبوح لصديقه بما في نفسه.

- وأنت، ألا تعطيه مالاً؟

- يا أمير، أيها الأمير المعظم، أنا مستعدّ لأن أعطي هذا الرجل لا مالاً فحسب، بل حياتي أيضاً إن صحّ التعبير... حين أقول حياتي فإنني أبالغ. ولكنني مستعدّ في سبيله لأن أتحمّل الحمى، أو أن أتحمّل دملاً أو زكاماً، هذا طبعاً إذا كان ثمة حاجة مطلقة إلى ذلك. أنني أعدّه رجلاً عظيماً لكنه انحدر وهوى. هذا رأيي؛ فمن باب أولى، إذا كان الأمر أمر مال...!

- إذن فأنت تعطيه مالاً!

- لا، لا أعطيه مالاً. لم أعطه مالاً، وهو يعرف أنني لن أعطيه. ولكنني لا أُمْنَعُ عنه المال إلا لهدف واحد هو أن أحمله على الاعتدال، وأن أصلح ما فسد من شأنه. إن الفكرة الثابتة التي تستبدّ به الآن هي أن يصحبني إلى بطرسبرج في رحلتي التي ألاحق فيها السيد فردشتينكو، لاعتقادي بأنه هناك حتماً. فالجنرال يغلي ويفور الآن، لكنني أتنبأ بأنه متى وصل إلى بطرسبرج سيتركني ليمضي إلى صاحبتة أرملة الكابتن. أعترف لك بأنني ساعد له عامداً أن ينصرف، وبأننا متفقان على أن نفترق متى وصلنا بطرسبرج ليكون حظنا من النجاح في التقاط فردشتينكو بطرق مختلفة ووسائل شتى، أكبر. ساعد له إذن له أن ينصرف، ثم أسقط عليه عند أرملة الكابتن على حين فجأة، متلبساً بالجرم المشهود، لأنني أنتوي خاصة أن أخجله من نفسه، مذكراً إياه بواجباته كرجل أسرة، وبكرامته كإنسان عامة.

قال الأمير بصوت خافت وقد استولى عليه قلق شديد:

- ولكن لا تُحدث ضجة يا ليبيديف، لا تُحدث ضجة، ناشدتك الله!...

- لا، لا، أنني لا أقصد إلا أن أخجله، وأن أرى كيف يكون وجهه حينذاك، لأن الوجه يمكن أن يكشف عن أشياء كثيرة، أيها الأمير المعظم، ولا سيما في رجل مثله! آه يا أمير! مهما تكن مصيبتني الآن كبيرة، فإنني لا أستطيع، حتى في هذه اللحظة، أن أمتنع عن التفكير فيه وفي إصلاحه. لي رجاء كبير أريد أن أتقدّم به إليك أيها الأمير المعظم؛ حتى إنني أعترف لك بأن هذا هو السبب الذي حضّني على المجيء إليك. إنك تعرف أسرة الجنرال، حتى لقد أقمتُ عندهم، فليتك تقبل، أيها الأمير المعظم، أن تيسّر

لي عملي وتسهل عليّ مهمتي في سبيل مصلحة الجنرال وسعادته. لا أكثر...

قال ليبيديف ذلك وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى على وضع الضراعة والابتهال.

قال الأمير:

– ما الأمر؟ في أي شيء أستطيع أن أساعدك؟ ثق أنني أتمنى جداً أن أفهم فكرتك وأن أدرك ما يدور في ذهنك يا ليبيديف...

– إن ثقتي هذه وحدها هي التي قادتني إليك! إن في إمكاننا أن نعمل بواسطة نينا ألكسندروفنا لنحيط صاحب السعادة الجنرال برقابة محكمة متصلة في منزله نفسه. يُؤسفني أنني لست على صلة... ثم إن نيقولا ي آرداليونوفتش، الذي يُحبك حبا يبلغ العبادة إن صحّ التعبير، ويتعلق بك تعلقاً فيه كل ما في سنّه الشابة من حرارة وحمياً، يستطيع أن يساعدنا ولا شك...

– لا!... لا!... أنقحم نينا ألكسندروفنا في هذا الأمر؟ وقانا الله شرّ ذلك!... لا ولا نُقحم فيه كوليّا.. ولكن... لعليّ لمّا أنفذ إلى فكرتك بعد يا ليبيديف.

صاح ليبيديف قائلاً وهو يشب عن كرسیه:

– لا شيء يحتاج إلى نفاذ!... ما نحن في حاجة إلى أكثر من العطف عليه والرقّة في معاملته! ذلك هو كل الدواء اللازم لمريضنا. هل تسمح لي، يا أمير، أن أعدّه مريضاً؟

– هذا يدل على طيب قلبك وسداد رأيك.

– سأستعين على شرح رأيي بمثال مستمدّ من المشاهدة، التماساً لمزيد من الوضوح. إنك ترى أي إنسان هو هذا الرجل: إن ضعفه الوحيد الآن هو ذلك التعلق الشديد بأرملة الكابتن التي لا يمكنه أن يذهب إليها بغير مال، والتي آمل أن أفاجئه عندها هذا اليوم نفسه في سبيل خيره. بل فلنترض أنه لا يوصم بهذا الضعف وحده، وإنما هو متهم بارتكاب جريمة أو بمقارفة فعل منافي للشرف (مع أنه لا يمكن أن يفعل شيئاً من ذلك البته): أنا أقول، حتى في هذه الحالة، إن في إمكاننا أن نصل به إلى كل ما نبغيه له من خير، لأننا نستطيع أن نناشد فيه مشاعر الحنان النبيل وعواطف الرقة الرفيعة، فهو إنسان حساس إلى أبعد الحدود. صدّقني إذا قلت لك إنه لن يصمد خمسة أيام، ثم إذا هو يأخذ يتكلم ويعترف بكل شيء ذارفاً أحرّ الدموع؛ ولا سيّما إذا خاطبناه بمهارة ونبل في

آن واحد، وإذا استطعتم، أنت وأفراد أسرته، أن تراقبوا خطاه إن صحّ التعبير، وأن ترصدوا جميع حركاته وسكناته.

ثم قال ليبيديف منتفضاً عن كرسيه كأنما هبط عليه وحي مفاجئ:

- أنا لا أجزم طبعاً أنه هو بغير شك... وما أزال مستعداً لأن أسفح في سبيله كل دمّي على الفور... ولكن لا شك في أنك توافقني على أن الفجور والسكر وأرملة الكابتن، أن ذلك كله مجتمعاً يمكن أن يمضي به إلى بعيد جداً...

قال الأمير وهو ينهض:

- ما زلتُ مستعداً لأن أساعدك في هذه القضية بطبيعة الحال. لكنني أعترف لك يا ليبيديف أن في نفسي خشية رهيبة. عجيب أمرك: إنك لا تزال تقدّر أن... أقصد... إنك تقول أنت نفسك إن اشتباهك ينصرف إلى السيد فردشتينكو، أليس كذلك؟

- ففيمن أشتبّه إذا لم أشتبّه فيه، أيها الأمير المخلص الصادق؟ فيمن أشتبّه إذا؟ كذلك عاد يقول ليبيديف مبتسماً ابتسامة عذبة ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى برقة وملاطفة.

فاكفهر وجه الأمير ونهض. ثم قال:

- إنك لتعرف يا لوكيان تيموفيفتش أن الظن الخطأ في مثل هذه الأحوال شيء فظيع. إن فردشتينكو هذا... أنا لا أريد أن أقول فيه سوءاً... ولكن... ولكن فردشتينكو هذا... من يدري؟ ربما كان هو الفاعل... أقصد... ربما كان أقدر من غيره على فعل هذا الأمر دون تورّع.

حملق ليبيديف بعينه وأرهف السمع بأذنيه. وكان الأمير يزداد وجهه اربداداً، وكان يذرع الغرفة طولاً وعرضاً، محاولاً أن لا ينظر إلى محدّثه. ثم قال وقد تفاقم ارتباكّه:

- هل تعلم؟... لقد قيل لي عن السيد فردشتينكو أنه، عدا ذلك، قد يكون رجلاً ينبغي للمرء أن يحذره فلا يقول بحضوره شيئاً... أكثر مما يجب أن يقال. هل فهمت؟ أنا أنقل إليك هذا الكلام لأن السيد فردشتينكو قد يكون، بالفعل، أقدر من غيره على أن... فأنا أنقل إليك هذا الكلام إتقاء لارتكاب خطأ... ذلك أن هذا هو الشيء الأساسي، فهمت؟

قال ليبيديف سائلاً باهتمام قوي:

- ولكن من ذا الذي ذكر لك هذه الملاحظة عن السيد فردشتينكو؟

- همس لي أحدهم بها عرضاً. وأنا على كل حال لا أصدق من ذلك شيئاً... وإنه ليسوءني أنني وجدت نفسي مضطراً إلى أن أنقل إليك ذلك الحديث. أوكد لك أنني لا أولي هذا الكلام أي ثقة... فهو لا يعدو أن يكون من باب الأقاويل السخيفة... آه... ما كان أغباني حين نقلته!...

قال ليبيديف وهو يرتجف من شدة الانفعال:

- هذا أمر هام جداً يا أمير، هام جداً الآن، لا فيما يخص السيد فردشتينكو، بل من جهة المصدر الذي وصل منه هذا الأمر إلى علمك..

كان ليبيديف، وهو يقول هذا الكلام، يركض حول الأمير، جاهداً أن يوفق بين خطوة وخطوة.

وتابع يقول:

- إليك يا أمير ما يجب على أن أطلعك عليه الآن: في هذا الصباح، بينما كنا ذاهبين معاً، أنا والجنرال، إلى ذلك الرجل الذي يسمى فيلكين أخذ الجنرال، بعد أن حكى لنا قصة الحريق تلك، أخذ يُطلق، على حين فجأة، غمزات في حق السيد فردشتينكو، وكان ما يزال يرتعش استياء بطبيعة الحال. لكن الكلام الذي قاله في حق فردشتينكو قد بلغ من التفكك والاضطراب أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من إلقاء بعض الأسئلة عليه. فأقنعتني أجوبته بأن جميع تلك المعلومات التي أوردها صاحب السعادة الجنرال إنما لفقها واخترعها هو نفسه... تلك ثمرة من ثمرات حبه للكلام والإفضاء والبوح. فهو إذاً كاذب، لا يكذب إلا لأنه لا يستطيع أن يكظم ميله إلى الإفصاح عما يعتل في قلبه. واني لألقي عليك الآن هذا السؤال طالِباً أن تقضي في الأمر بنفسك: إذا كان الجنرال قد كذب، وهذا ما أنا مقتنع به، فكيف أمكن أن تصل كذوبته إلى مسمعك؟ لاحظ، يا أمير، أن ذلك الحديث إنما كان ابن لحظته، إنما كان من وحي تلك اللحظة، فمن ذا الذي أمكنه أن يُطلعك عليه؟ هذه نقطة هامة... إنها، إن صح التعبير...

- كوليا هو الذي نقل إليّ ذلك الكلام؛ والملاحظة ذكرها له أبوه الذي صادفه في حجرة المدخل بين الساعة السادسة والساعة السابعة، بينما كان خارجاً لا يدري أحد لماذا...

قال ليبيديف وهو يفرك يديه سروراً ويضحك ضحكاً صامتاً:

- ... هذا ما يصح أن يسمى أثراً يجب اقتفائه... ذلك ما كنت أقدره! معنى ذلك أن صاحب السعادة الجنرال، في الساعة السادسة من الصباح، قد قطع نومه البريء، خصيصاً، ليمضي يوقظ ابنه الحبيب ويبلغه أن صُحبة السيد فردشتينكو تُعرض المرء لخطر خارق!

فما أكبر خطر فردشتينكو بعد ذلك في نظر الابن، وما أعظم العناية الأبوية التي يُظهرها صاحب السعادة! هي هي هي!.

قال الأمير قلقاً أشدّ القلق:

- اسمع يا ليبيديف، اسمع: يجب أن تعمل برفق وهدوء. لا تحدث ضجة! أرجوك يا ليبيديف، أضرع إليك... فإذا تقيدت بهذا الشرط، فيميناً لأساعدنك. ولكن يجب أن لا يعرف شيئاً أي إنسان، أي إنسان!

هتف ليبيديف يقول بإلهام حاسم ونشوة كبرى:

- ثِق أيها الأمير المخلص الكريم أن هذا كلة سيدفن في قلبي النبيل دفناً. يجب أن نسير متكاتفين بخطى لا يُسمع لها صوت! نعم، متكاتفين بخطى لا يُسمع لها صوت! إنني مستعد لأن أهب دمي كله.. أيها الأمير المعظم. إن لي نفساً خسيصة وفكراً منحطاً. ولكن اسأل أي إنسان منحط، بل اسأل أي وغد حقير أهو يُفضل أن يتعامل مع وغد من نوعه أم هو يؤثر أن يتعامل مع إنسان مثلك يتمتع بكمال النفس وعظمة القلب، أيها الأمير المخلص؟ لسوف يُجيبك بأنه يفضل الثانية.

هنا إنما تنتصر الفضيلة! أستودعك الله أيها الأمير المبجل! بخطى ليس لها صوت... بخطى ليس لها صوت... متكاتفين!

الفصل العاشر

أدرك الأمير أخيراً لماذا يتجمّد كلما مدّ يده إلى تلك الرسائل الثلاث، ولماذا كان يُرجئ قراءتها إلى المساء. في الصباح، حين استلقى على مضجعه دون أن يستطيع أن يعزم أمره على فض أي ظرف من ظروف الرسائل الثلاثة، كان قد نام نوماً ثقيلاً مضطرباً، ووافاه حلم آخر مزعج أليم رأى فيه تلك «المجرمة نفسها»، مُقبلة عليه، مُتقدّمة نحوه. كانت تنظر إليه والدموع تلتمع على أهدابها الطويلة، وكانت تدعوه من جديد أن يتبعها، وكما حدث له في الليلة الماضية، استيقظ على ذكرى ذلك الوجه الأليم، فأراد أن يذهب «إليها» فوراً، ولكنه لم يقو على ذلك؛ وانتهى به الأمر بعد أن استولى عليه ما يشبه أن يكون يأساً، إلى أن يفضّ الرسائل ويأخذ في قراءتها.

إن تلك الرسائل تشبه، هي أيضاً، أن تكون حلماً. إن المرء يرى في بعض الأحيان أحلاماً غريبة، لا تخطر في البال ولا يتصوّرُها الخيال، أحلاماً تخالف الطبيعة؛ فإذا استيقظ تذكرها واضحة جلية، فاستغرب أمرها كل الاستغراب. إنك تتذكر خاصّةً أن عقلك لم يُبارحُك في أية لحظة من لحظات الحلم، بل إنك لتتذكر أنك تصرّفت بكثير من براعة المكر وحسن الحيلة وسلامة المنطق، خلال مدة طويلة، بينما كان القتلة يحدّقون بك ويمدّون لك الفخاخ، ويدبرون المكائد، ويخضون أهدافهم؛ حتى لقد يتودّدون إليك، على حين أن أسلحتهم مؤهّبة، وأنهم لا ينتظرون إلا إشارة لينقضوا عليك. وإنك لتتذكر ما عمدت إليه من براعة المكر، لتخدعهم عن أنفسهم، وتتواري عن أبصارهم؛ ولكنك تحزر بعد ذلك أنهم يعرفون حيلتك، فهم يتظاهرون بجهل مخبئك تظاهراً؛ فتلجأ عندئذ إلى مخادعة أخرى، وتظفر بتضليلهم مرة ثانية. ذلك كلّهُ تتذكره تذكرًا واضحاً. ولكن كيف تتصوّر أن عقلك، خلال تلك الفترة من الوقت، قد أمكنه أن يسلم بسخافات واستحالات تبلغ من وضوح سخفها واستحالتها ما تبلغه تلك الأمور التي يزخر بها حلمك؟ إن واحداً من القتلة قد تحوّل إلى امرأة على مرأى منك، ثم تحوّلت هذه المرأة إلى قزم ماكر كرية أمام عينيك، فسرعان ما سلمت أنت بها كل تسليمك بواقع، دون أي اندهاش تقريباً، بينما كان عقلك في الوقت نفسه يبذل جهداً قوياً وطاقة عظيمة فيحسن المكر، ويجيد الفهم، ويدرك تسلسل الأحداث ومنطق الأمور؟

ولماذا أيضاً، حين تستيقظ من النوم وتعود إلى الاندماج في الحياة الواقعية، في جميع الأحوال تقريباً، وبقوة خارقة أحياناً، أنك بخروجك من ميدان الحلم قد خلّفت وراءك لغزاً لم يحل؟ إنك تبتسم استهزاء بسخافة حلمك واستحالته، ولكنك تحسّ في الوقت نفسه ذلك الركّام من الأباطيل المتداخلة المتشابكة ينطوي على نوع من فكرة... واقعية تنتمي إلى حياتك الراهنة، ينطوي على شيء يوجد في قلبك وقد وجد دائماً في قلبك؟ فكأن كشفاً من كشوف النبوة قد تنزل عليك في حلمك وكنت تنتظره! إنك تحتفظ منه بانفعال قويّ، انفعال فرح أو انفعال ألم، ولكنك لا تستطيع أن تفهمه، ولا أن تتذكر تذكرًا واضحاً ماذا كان!

ذلك هو على وجه التقريب ما جرى في فكر الأمير بعد قراءة تلك الرسائل الثلاث. ولكنه حتى قبل أن يفضها، كان قد شعر بأن وجودها وحده، بأن إمكان وجودها وحده، هو في ذاته أشبه بأن يكون حلماً ثقيلاً، كابوساً أليماً قال يسأل نفسه وهو يتجول في المساء وحيداً (دون أن يتذكر أين، في بعض الأحيان): كيف «هي» قررت أن تكتب «إليها»؟ كيف أمكنها أن تكتب «في هذا الموضوع»، كيف أمكن أن ينبت في رأسها حلم يبلغ هذا المبلغ من الطيش والجنون؟ ولكن هذا الحلم كان قد صار إلى حقيقة واقعة؛ والأمر الذي أدهش الأمير أكثر من ذلك أيضاً، أثناء قراءة الرسائل، أنه هو نفسه لم يكن بعيداً عن الاعتقاد بأن هذا الحلم ممكن وبأنه مشروع. نعم، لا شك في أن هذا حلم، في أنه كابوس، في أنه جنون. غير أن ثمة كذلك شيئاً مؤلماً - الواقعية، شديد الصحة والصدق، يسوّغ الحلم والكابوس والجنون، ويجعلها كلها مشروعة.

ولبت الأمير عدة ساعات في حالة قريبة من الهذيان، وهو يتذكر ما قرأ. إنه يتذكر بعض العبارات بغير انقطاع، فيقف عليها فكرة ويمضي يتأملها ملياً. حتى لقد كان يهّم أن يقول لنفسه في بعض الأحيان إنه أوجس هذا كله من قبل وإنه تنبأ به. كان يخیل إليه أنه سبق له أن قرأ هذه الرسائل في ماضٍ بعيد، وأن هذه الرسائل هي بذور كل ما عانى منذ ذلك الحين من أنواع القلق وفنون العذاب وألوان المخاوف.

كانت الرسائل الأولى تبدأ هكذا:

«حين ستفضّين هذه الرسالة، ابحتي أولاً عن التوقيع الذي يذيلها. إن هذا التوقيع سيقول لك كل شيء، وسيفهمك كل شيء، فلا أكون في حاجة إلى أن أبرر نفسي، ولا أن أعتذر عن عملي، فلو كنتُ أساويك أقلّ مساواة لكان في وسعك أن تستائي من جرأتي، ولكن ما أنا بالقياس إليك؟ أين أنا منك؟ إننا لنبلغ من شدة التعارض، وإنني لأبلغ من فرط الصغر بالنسبة إليك، أنني لا أستطيع أن أؤدي كرامتك ولو نويتُ أن

أفعل».

وهي تكتب بعد ذلك قائلة:

«لا تري في أقوالي حماسة مرضية تصدر عن فكر مختل إذا أنا قلت لك إنني أرى فيك الكمال كله مجسداً. لقد رأيته، وأني لأراك في كل يوم. لاحظي أنني لا أقضي فيك برأي. فليس التفكير هو الذي يقودني إلى اعتبارك كاملة، وإنما يقودني إلى ذلك إيمان بسيط. ولكنني مخطئة في حقك: إنني أحبك. وما ينبغي للمرء أن يحب الكمال؛ وإنما حسبه من الكمال أن يعرف أنه كمال وكفى، أليس هذا صحيحاً؟ ومع ذلك أشعر نحوك بحب. صحيح أن الحب ينشئ مساواة بين الناس. ولكن لا تقلقي: فإنني حتى في أخفى خفايا تفكيري لم أنزلك إلى مستوي، ولا قارنت نفسي بك في يوم من الأيام. قلت الآن: «لا تقلقي» ولكن هل يمكن أن تشعرني أنت بقلق؟.. لو أمكن ذلك لقبّلت الأرض التي تدوسها قدماءك. آه... إنني لا أعد نفسي نداً لك بحال من الأحوال. انظري إلى التوقيع الذي أذيل به هذه الرسالة، أسرعني فانظري إليه!».

وهي تكتب في رسالة أخرى:

«ألاحظ مع ذلك أنني أجمع بينكما دون أن أكون قد ألقيت على نفسي في يوم من الأيام هذا السؤال: هل تحبينه؟ لقد أحبك هو، يوم لم يكن قد رآك إلا مرة واحدة. فكانت صورتك في خياله صورة «الضيء». ذلك هو التعبير الذي أستعمله. سمعت هذا التعبير من فمه. على أنني لم أكن في حاجة إلى هذا لأدرك أنك الضياء في نظره. لقد عشت بقربه شهراً كاملاً؛ وفي تلك الأثناء إنما فهمت أنك تحبينه أيضاً. فأنتما في نظري واحد لا اثنان».

«ما معنى هذا؟ مررت أمس بقربك، فترأى لي أنك تحمرين؟ مستحيل. لا يمكن أن يكون هذا إلا إحساساً خطأ. أنت لو أخذوك إلى أحط المواخير، وأروك الرذيلة عارية كل العري لما أمكن أن تحمري: أنت لا يمكن أن تغضبي من إساءة أو إهانة. لأنك أنت لا تستطيع أحد أن يجرح كرامتك أو أن يؤذي شعورك. حتى إنني أحس - هل تعلمين؟ - أنك لا بد أن تحبيني. أنت في نظري ما أنت في نظره: روح من ضياء. والملاك لا يمكن أن يبغض، بل ولا يملك أن يحب. هل يستطيع المرء أن يحب جميع أقرانه البشر بغير استثناء؟ ذلك سؤال طرحته كثيراً على نفسي. فكان جوابي لا، حتماً! حتى إن ذلك ينافي الطبيعة، وما حب الإنسانية إلا معنى مجرد، من خلاله لا يحب المرء إلا نفسه. ولكن إذا كان هذا الحب يستحيل علينا نحن، فليس يستحيل عليك أنت. إذ كيف يمكن أن لا تحبي جميع البشر، ما دمت فوق جميع البشر، فما من أحد يرقى إلى

مستواك، وما من إهانة يمكن أن تنالكَ، وما من استياء يمكن أن يساور نفسك! أنت وحدك تستطيعين أن تحبي بغير أنانية. أنت وحدك تستطيعين أن تحبي لا من أجل نفسك بل من أجل من تحبينه. آه... لسوف يؤلمني أقصى الألم أن أعلم أنك بسببي تشعرين بخجل أو غضب!! فلو حدث هذا لكان فيه ضياعك، لأنك تهبطين عندئذ إلى مستواي!...

«أمس، بعد أن لقيتك عدتُ إلى منزلي وتخيلتُ لوحة. إن الفنانين يرسمون المسيح دائماً على أساس المعلومات الواردة في الإنجيل. أما أنا فلو كان عليّ أن أرسم المسيح لصورته غير هذا التصوير. لو كان عليّ أن أرسم المسيح لصورته وحيداً (لقد كان يريدوه يتركونه وحيداً في بعض الأحيان على كل حال)، ولما وضعتُ بقربه إلا طفلاً صغيراً. والطفل يلعب من حوله. ولعل الطفل قد قصَّ عليه بلغته الساذجة شيئاً من الأشياء، فأصغى إليه المسيح في أوّل الأمر، لكنه الآن يتأمل، وما تزال يده مستريحة على الشعر الوضيء من رأس الصبي بحركة نسيان لم يقصدها. وهو ينظر إلى بعيد، إلى الأفق. وفي عينيه تنعكس فكرة رحيبة رحابة الكون. ووجهه حزين. لقد صمتَ الطفل. إنه واضع كوعيه على ركبتي المسيح، مُسندٌ خده إلى يده الصغيرة، رافع رأسه يحدّق إلى المسيح بنظرة ثابتة، وقد لاح على وجهه ذلك التفكير الذي يلاحظ أحيانا في وجوه الصغار. والشمس تغرب. تلك هي اللوحة التي كان يمكن أن أرسمها. إنك نقية، وكمالك كله في نقائك. آه... تذكرني هذا وحده! لا يهمنك هيامي بك! أنت بعد اليوم لي، وسأبقى قريبة منك طول حياتي. سوف أموت وشيكاً».

وكتبت في الرسالة الأخيرة تقول:

«لا تسيئي الظنَّ فيّ، ناشدتك الله! لا ولا تحسبي أنني أذلُّ نفسي بالكتابة إليك على هذا النحو لأنني من أولئك البشر الذين يجدون في خفض أنفسهم لذة بل ويلتمسون فيه عجباً وزهواً. لا. إن لي ما يعزّيني. ولكن يصعب عليّ أن أشرحه لك؛ بل لقد يصعب عليّ أن أدركه أنا نفسي إدراكاً واضحاً، رغم أن هذا يعذبني. لكنني أعلم أنني لا يمكن أن أذل نفسي حتى بدافع فرط العجب والزهو. أما المذلة التي تنشأ عن نقاء القلب فأنا عاجزة عنها. معنى ذلك أنني لا أذل نفسي لا بهذه الصورة ولا بتلك.

«لماذا أريد أن أجمع بينكما. أمن أجلكما أم من أجلي؟ من أجلي طبعاً. كل شيء يترد إلى هذا فيما يتعلق بي، قلتُ ذلك لنفسي منذ مدة طويلة. لقد علمتُ أن أختك آديلايد قالت في ذات يوم، وهي تنظر إلى صورتني، إن المرء يستطيع بجمال كهذا الجمال أن يحدث في العالم ثورة. ولكنني عدلتُ عن العالم. عزفتُ عن العالم. لا بدّ أن

يبدو لك مضحكاً أن أكتب هذا الكلام بينما أنت تصادفينني مكسوةً بالملابس المخرّمة، مُزدانةً بالحلي الثمينة، في صحبة سَكِيرين وأوغاد، أليس كذلك؟ لا تلقي بالاً إلى هذا. أنا منذ الآن لا وجود لي تقريباً، وإني لأعرفُ ذلك ولا أجهله. الله يعلم من ذا الذي احتل في ذاتي مكان شخصي. إنني أقرأ مصيري كل يوم في الأعين الرهيبة المحدقة إليّ دائماً، حتى حين لا تكون أمامي. إن تلك الأعين «تصمت» الآن (تصمت دائماً)، لكنني أعرف سرها. إن منزله قائم كالح من الضجر. إن هذا المنزل يخفي سرّاً. أنا مقتنعة أنّ عنده، في دُرج من الأدراج، سكيناً قد لُفّ نصلها بالحرير كسكين ذلك القاتل من موسكو، الذي كان يعيش هو أيضاً مع أمّه ويفكر في ذبح عنق. لقد ظللتُ أحسّ، طوال الوقت الذي قضيته في منزلهم، أنه لا بدّ أن تكون مخبأةً، في مكان ما، تحت الأرض، جثةٌ لعل أباه خبأها هناك ملفوفة بقماش مشمّع، كتلك الجثة التي اكتُشفت بموسكو، وأحيطت كذلك بقوارير من إكسير جدانوف؛ بل إنني لأستطيع أن أدلّك على الركن الذي لا بدّ أن تكون الجثة مخبأة فيه، إنه يصمت دائماً، ولكنني أعلم حق العلم أن تولّيه بي يبلغ من القوة أنه لا يمكن إلا أن يستحيل إلى كره. سيتم زواجكما وزواجنا في يوم واحد. هذا ما تم عليه الاتفاق بيننا. وليس لدي سرٌّ بالنسبة إليه. إنني قد أقتله من شدة الخوف... لكنه سيقتلني قبل أن أعزم أمري على ذلك... لقد ضحك الآن حين رأيّ أكتب هذا الكلام؛ وهو يزعم أنني أهدر. وهو يعلم أنني إليك أكتب.»

لقد ضمّت الرسائل أفكاراً أخرى هاذية كثيرة. وكانت إحدى هذه الرسائل الثلاث - وهي الثانية - تملأ بكتابة دقيقة جداً أربع صفحات كبيرة. خرج الأمير أخيراً من ظلمة الحديقة التي طوّف فيها مدّة طويلة كما فعل البارحة. بدا له الليل الشاحب الشفاف أوضح مما يكون في العادة. قال يسأل نفسه: «هل يمكن أن لا يكون قد انقضى من الوقت زمن طويل؟» (كان الأمير قد نسي أن يحمل ساعته). وخيّل إليه أنه يسمع موسيقى بعيدة. فقال يحدث نفسه مرّة أخرى: «لعلّها في الفوكسهول. لا شك أنهم لم يذهبوا اليوم إلى هناك». وإنه ليقول لنفسه هذا الكلام، إذا هو يلاحظ أنه أمام منزلهم. لقد كان يُقدّر حقاً أن الطواف كان سينتهي به أخيراً إلى هناك. واجتاز الشرفة منهار القلب.

الشرفة خالية. لم يأت للقاءه أحد. انتظر لحظة، ثم فتح الباب الذي يفضي إلى الصالة. أسرع يقول لنفسه: «هذا الباب لا يغلق أبداً». الصالة خالية. يكاد يكون الظلام فيها كاملاً. وقف الأمير في وسط الغرفة متردداً. وفيما هو كذلك، إذا بباب يُفتح فتدخل ألكسندرا إيفانوفنا حاملة بيدها شمعة. فلما رأت الأمير بدرت منها حركة استغراب ودهشة، وتوقفت توقف من يسأل ويستفهم. طبعاً، لم تكن تريد ألكسندرا إلا أن

تجتاز الصالة من باب إلى باب، ولم تكن تتوقع أن تجد أحداً.

قالت أخيراً:

- ما جاء بك إلى هنا؟

- دخلتُ عابراً.

- ماما مُتعبة، وكذلك آجلايا. وآديلايد تُوشك أن ترقد على سريرها، وذلك ما سأفعله أنا أيضاً. لقد بقينا بالمنزل وحدنا طول السهرة. بابا والأمير «شتش...» في بطرسبرج.

- أتيتُ إليكن... أتيتُ إليكن... الآن...

- هل تعلم كم الساعة الآن؟

- لا...

- هي الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل. ونحن ننام دائماً في الساعة الواحدة.

- ها... وأنا الذي كنتُ أظن أن الساعة هي التاسعة والنصف.

قالت ضاحكة:

- لا ضير! ولكن لماذا لم تجئ قبل هذا الوقت؟ أظن أنك كنت تنتظر.

تمتم يقول وهو ينصرف:

- كنت... أقدر... كنت... أظن...

- إلى اللقاء؛ سيضحك الجميع من هذا في الغد.

رجع الأمير إلى بيته سالكاً الطريق الذي يدور حول الحديقة. كان قلبه يخفق، وكانت أفكاره مضطربة مشوشة، وكان كل شيء يكتسي في نظره مظهر الحلم. وفجأة، ظهرت لعينيه تلك الرؤيا نفسها التي سبق أن ظهرت له مرتين حين كان يستيقظ من النوم. تلك المرأة نفسها خرجت من الحديقة، ووقفت جامدة أمامه، كأنما كانت مرابطة في ذلك المكان تنتظره. ارتعش ووقف. تناولت يده، وشدّت عليها شداً قوياً. «لا، ليست هذه رؤيا! ليس هذا طيفاً!».

ها هي ذي معه أخيراً، وجهاً لوجه، لأول مرة بعد افتراقهما. إنها تكلمه، ولكنه ينظر

إليها صامتاً. إنه يشعر بالألم في قلبه الطافح. لن ينسى هذا اللقاء في يوم من الأيام، وسيظل يشعر بذلك الألم نفسه كلما تذكر هذا اللقاء. ركعت على ركبتيه أمامه في وسط الطريق كمجنونة. تراجع مدعوراً إلى وراء، بينما هي تحاول أن تُمسك يده لتُقبلها. وكما سبق أن رأى ذلك قبل اليوم في الحلم، هل هي ذي دموع تتلألأ على أهدابها الطويلة.

همس يقول لها خائفاً وهو يُحاول إنهاضها:

- قومي، قومي، قومي بسرعة!

فقالَت تسأله:

- هل أنت سعيد؟ هل أنت سعيد؟ قل لي كلمة واحدة: هل أنت سعيد الآن؟ اليوم؟ في هذه اللحظة؟ هل ذهبت إليها؟ ماذا قالت لك؟

لم تنهض ولم تُصغ إليه. كانت تسأله مُرتجفة محمومة، وكانت تتكلم بلهجة سريعة متعجلة، كأن أحداً يلاحقها ويطاردها. تابعت تقول:

- سأسافر غداً، كما أمرت. ولن أظهر بعد اليوم أبداً... أراك الآن آخر مرة، آخر مرة! هي الآن آخر مرة فعلاً!

قال الأمير بلهجة تدل على غاية الكرب:

- هدئي نفسك؟ قومي! انهضي!

وكانت تتأمل بهشاشة وتعانق يديه. وقالت أخيراً:

- وداعاً!

ونهضت، وابتعدت بسرعة تكاد تركض ركضاً. ورأى الأمير روجويين ينبجس إلى جانبها فجأة، فيُمسك يدها ويقتادها.

وصاح روجويين يقول للأمير:

- انتظرني يا أمير، سأرجع بعد خمس دقائق.

وعاد بعد خمس دقائق فعلاً، وكان الأمير ينتظره في ذلك المكان نفسه.

قال روجويين:

- أركبتها العربية. العربية تنتظرها هناك، في ناصية الطريق، منذ الساعة العاشرة.

كانت تقدّر أنك لا بدّ أن تقضي السهرة كلها عند الأخرى. لقد أبلغتها ما كتبتّه إليّ منذ قليل، بدقة. فلن تبعث إليها بعد اليوم رسائل. هذا وعد. وستنفذ رغبتك فتغادر بافلوفسك غداً. أرادت أن تراك مرة أخيرة، رغم علمها بأنك سترفض لقاءها إذا هي طلبت ذلك، فانتظرنك هنا، على هذه الدكة التي كان عليك أن تمرّ بها في طريق عودتك إلى بيتك.

سأله الأمير:

– أهي التي جاءت بك؟

فأجاب روجويين:

– لم لا؟ إن ما رأيته هنا لم يُطلّني على جديد. ألم تقرأ إذن رسائلها؟

فسأله الأمير وقد بغتته هذه الفكرة:

– وأنت، هل قرأتها حقاً؟

– هي نفسها أطلّعتني عليها كلها. هل تتذكر الإشارة إلى السكين؟ هيّ هيّ!..

صاح الأمير يقول وهو يعقف يديه أسفاً:

– إنها مجنونة!

فدمدم روجويين يقول بصوت خافت، كأنه يخاطب نفسه على حدة.

– من يدري؟ قد لا تكون مجنونة.

فلم يُجب الأمير.

قال روجويين:

– هيا! وداعاً! أنا أيضاً مسافر في الغد. لا تحمل ذكرى سيئة عني!

– قصة أضاف قائلاً وهو يستدير على حين فجأة:

– ولكن قل لي يا عزيزي: لماذا لم تُجب عن سؤالها؟ أأنت سعيد أم لا!

فصاح الأمير يقول معبراً عن لوعة كبيرة:

– كلا، ثم كلا، ثم كلا!

فقال روجويين وهو يضحك ساخراً:

– لا ينقص إلا أن تقول لي «نعم»!
وانصرف دون أن يلتفت إلى الوراء.

الجزء الرابع

الفصل الأول

انقضى زهاء أسبوع على اللقاء الذي تم بين بطلي قصتنا عند الدكة الخضراء.

وفي ذات صباح مشرق، خرجت باربرا ألكسندروفنا بتتسينا تقوم بزيارة بعض صاحباتها، ثم رجعت إلى منزلها كاسفة البال حزينة النفس في نحو الساعة العاشرة والنصف من النهار.

هناك أناس يصعب على المرء أن يقول فيهم شيئاً يصفهم ويصورهم دفعة واحدة في أبرز ما يخصهم وأوضح ما يميزهم. أولئك هم الذين اصطلح على تسميتهم باسم «العاديين» وهم أكثرية المجتمع في الواقع. إن الأدباء يجهدون في رواياتهم وأقاصيصهم، أن يختاروا نماذج اجتماعية وأن يرسموا هذه النماذج الاجتماعية في أقوى صورة جذابة وأجمل أداء فني. وهذه النماذج لا توجد في الحياة كاملة ذلك الكمال إلا استثناء، غير أن هذا لا ينفي أن الأفراد الذين يصورون هذا التصوير هم أقرب إلى الواقع من الواقع نفسه إن صح التعبير. إن شخصية بودكوليوسين^[21] قد تشتمل على مبالغة من حيث هي نموذج، ولكنها ليست وهماً صنعه الخيال. ما أكثر الأذكى الذين ما إن عرفوا شخصية بودكوليوسين التي صورها جوجول في مسرحيته حتى وجدوا بين أصدقائهم ومعارفهم عشرات بل مئات من الأفراد يشبهون هذه الشخصية كما تشبه قطرة من الماء قطرة من الماء! بل إن هؤلاء الأذكى كانوا، حتى قبل قراءة جوجول، يعرفون أن أصدقاءهم يشبهون بودكوليوسين. وإنما كان الشيء الذي يجهلونه هو الاسم الذي يجب أن يسمى به هذا النموذج. في الواقع، يندر أن يهرب خطيب من النافذة لحظة الزواج، ذلك أن هذه الحركة لا يستطيعها كل فرد من الناس، في بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. ومع ذلك ما أكثر العرسان من أناس يستحقون التقدير ولا يعوزهم الذكاء، الذين أحسوا لحظة زواجهم بالحالة النفسية التي أحسها بودكوليوسين. كذلك لا يصرخ جميع الأزواج في كل مناسبة قائلين: «لقد أردتها يا جورج داندان»^[22]. ومع ذلك ما أكثر ملايين وملايين المرات التي كرر فيها أزواج الكون بأسره تلك الصيحة الصادرة عن القلب، بعد انقضاء شهر العسل أو حتى غداة يوم الزفاف!

لا حاجة بنا إلى الإفاضة في الكلام على هذه المسألة، وحسبنا أن نقرر أن الخصائص البارزة المميزة التي تتصف بها هذه الشخصيات تكون في الحياة الواقعية أقل نتوءاً، ولكن جميع أمثال جورج داندان وجميع أشباه بودكوليوسين موجودون في الواقع: يضطربون من حولنا ويسعون أمام أعيننا، ولكن بسمات مخففة وملامح مطيفة. ويجب أن نضيف إلى ذلك، لنختم هذه القضية ونستنفذ هذا الموضوع، أن النموذج الكامل لجورج داندان، على نحو ما خلقه موليير، يمكن أن يصادف في الحياة فعلاً، ولكن نادراً. ولنختم هذا الكلام الذي يوشك أن يصير إلى مقال في النقد الأدبي.

غير أن هناك سؤال يطرح نفسه علينا دائماً: ما الذي يجب أن يفعله كاتب الرواية الذي يقدم لقرائه أشخاصاً عاديين تماماً، في سبيل أن يثير اهتمام هؤلاء القراء بهم ولو قليلاً؟ إنه ليستحيل على كاتب الرواية أن يحذفهم من قصته، لأن هؤلاء الناس العاديين هم في كل لحظة وفي أكثر الأحوال النسيج الذي لا غنى عنه، والذي عليه تسلسل وقائع الحياة وأحداث الأيام، فإذا حذفناهم كنا نجرد الرواية من صفة الصدق ونحرّمها من ميزة الانطباق على الحقيقة. هذا عدا أن ملء الروايات بنماذج أو حتى بشخصيات غريبة خارقة إنما يبعدها عن الواقع فلا تحظى بتصديق القارئ وقد لا تثير شوقه. وفي رأينا أن الكاتب يجب عليه أن يحاول اكتشاف ألوان طفيفة فيها إثارة للاهتمام وفيه إحياء وإلهام، حتى لدى الأشخاص العاديين. ولكن حين يحدث مثلاً أن تكون الصفة الأساسية لبعض الأشخاص العاديين هي أنهم عاديون على نحو ثابت دائم مستمر، أو أنهم رغم جميع جهودهم التي يبذلونها للخروج من العادية والعامية ما ينفكون يرجعون إلى العادية والعامية رجوعاً لا براء منه، فإن هؤلاء الأشخاص العاديين يكتسبون بذلك صفة النموذج، تريد أن تبقي ما هي عليه، وإنما تهدف إلى بلوغ الأصالة بأي ثمن، وتسعى إلى تحصيل الاستقلال مهما كلف الأمر دون أن تملك للوصول إلى ذلك أية وسيلة من الوسائل.

فإلى هذه الفئة من الناس «العاميين» أو «العاديين» ينتمي بعض أشخاص قصتنا هذه، الذين أعترف بأنه لم يتم توضيحهم للقارئ حتى الآن. أولئك هم على وجه الخصوص باربارا آرداليونوفنا بتتسينا، وزوجها السيد بتتسين، وأخوها جبريل آرداليونوفتش.

لا شيء أدعى إلى انزعاج المرء، مثلاً، من أن يكون غنياً، وابن أسرة كريمة، وحسن الهيئة، وعلى جانب من ثقافة وغير غبي، بل وطيباً، ولكنه لا يملك أية موهبة، ولا ينفرد بأية سمة شخصية، حتى ولا بأية صفة مميزة، وأن لا يكون له أي تفكير خاص،

أي يكون شخصياً «كسائر الأشخاص» تماماً: فهو غني ولكنه ليس مثل روتشيلد، وهو ذو اسم محترم لكنه لم يتميز في يوم من الأيام بشيء يجعله مرموقاً؛ وهو حسن الهيئة لكنه لا يحدث في من يراه أثراً كبيراً، وهو قد نال حظاً مناسباً من التعليم لكن هذا التعليم لا يجديه نفعاً في شيء؛ وهو لا يخلو من ذكاء لكنه لا يملك أفكاراً شخصية؛ وهو صاحب قلب حساس لكنه لا يتمتع بنفس كبيرة عظيمة، وهكذا دواليك من جميع النواحي.

وبين الناس عدد كبير من هذا النوع من الأفراد، أكبر كثيراً مما يمكن أن نتصور. وهم ينقسمون كسائر البشر إلى فئتين أساسيتين: فأمّا الأولى فهي فئة الأفراد المحدودين وأمّا الفئة الثانية فأفرادها «أكثر ذكاء». إن أفراد الفئة الأولى أسعد من أفراد الفئة الثانية. إن الإنسان «العادي» المحدود الذكاء يستطيع بسهولة أن يظن أنه فذّ وأنه أصيل، ويمكن أن يطمئن إلى هذا الظن ويسعد به. لقد كفى بعض أناسنا أن يقصصن شعرهن، وأن يضعن على أعينهن نظارات زرقاء، وأن يعلن أنهن من أنصار المذهب العدمي، حتى يقتنعن فوراً بأن هذه النظارات الزرقاء تهب لهن «آراء» شخصية، و«اعتقادات» خاصة. وكفى فلاناً من الناس أن يكتشف في قلبه ذرة عاطفة إنسانية وطيبة حتى يتأكد فوراً من أنه لا أحد يشعر بمثل هذه العاطفة وأنه رائد من رواد التقدم الإنساني. وكفى فلاناً الآخر أن يتمثل فكرة سمعها من أحد الناس أو قرأها في أحد الكتب دون أن تكون لها بداية أو نهاية، حتى يتخيل أن هذه الفكرة خاصة به، نابعة منه، قد نبتت في فكره وخرجت من رأسه. هذه حالة مدهشة يمكن أن نصفها بأنها وقاحة السذاجة إن صحّ التعبير. ونحن نصادفها دائماً، رغم ما قد يبدو من أنها لا يصدق وجودها في الواقع. إن هذا النوع من الإيمان الساذج المتكبر الذي يلاحظ لدى رجل أحقق لا يساوره شك في نفسه ولا في موهبته، قد وصفه جوجول وصفاً رائعاً في نموذج المدهش، نموذج الليوتنان بيروجوف^[23]. إن بيروجوف لا يراوده شك في أنه عبقرى بل أكثر من عبقرى. وهو يبلغ من قلة شكه في هذا أنه لا يطرح على نفسه هذا السؤال أصلاً؛ عدا أنه لا شك لديه البتة. وقد رأى الكاتب الكبير نفسه مضطراً، آخر الأمر، إلى أن يؤدبه بعقوبة الجلد، إرضاء للشعور الأخلاقي لدى القارئ. ولكنه لاحظ أن بطله لم تؤثر فيه العقوبة كبير تأثير، ولم يزد بعدها على أن نفّض جسمه، وأخذ يأكل فطيرة صغيرة استرداداً لقواه، لذلك لم يملك الكاتب إلا أن يهز كتفيه ويترك قراءه حيث هم. لطالما أسفأت على أن جوجول جعل رتبة بطله بيروجوف رتبة منخفضة، ذلك أن هذا الشخص يبلغ من امتلائه بنفسه أنه لا شيء يمنعه من أن يظن نفسه قائداً عظيماً على قدر تضخم الشارات على كتفيه بحكم القدم في الخدمة

والارتقاء في الوظيفة.

ماذا قلت؟ أقلت يظن نفسه؟ ألا أنه كان سيؤمن بذلك أيماناً لا يراوده فيك أي شك: فما الذي ينقصه، إذا هو سمّي جنرالاً، من أن يكون قائداً عظيماً؟ وما أكثر الذين يخفقون بعد ذلك إخفاقاً رهيباً في ساحات المعركة؟ وما أكثر أمثال بيروجوف الذين وُجدوا مر الأدباء والعلماء وأصحاب الدعوات منا! وُجدوا؟ بل وما زالوا يوجدون حتماً...

إن جبريل آرداليونوفتش إيفولجين، وهو أحد أبطال روايتنا هذه، ينتمي إلى الفئة الثانية من العاديين، فئة العاديين الذين أوتوا «ذكاء أكبر»، وإن يكن قد ظل من أخصم قدميه إلى قمة رأسه يحترق رغبة لأن يكون رجلاً ذا أصالة وتفرد. لقد ذكرنا من قبل إن أفراد هذه الفئة الثانية أشقى كثيراً من أفراد الفئة الأولى. ومرد ذلك إلى أن الإنسان «العادي» الذي يملك «ذكاء» حتى وإن ظن نفسه في بعض الظروف (بل وطوال حياته) إنساناً أوتي عبقرية وأصالة، يظل محتفظاً في قرارة قلبه بدودة شك تظل تأكله إلى أن ترميه أحياناً في هوة اليأس الكامل. وحتى لو أذعن، فهو يذعن مع ذلك متسماً بعاطفة الغرور المكبوح المكظوم.

على أننا أخذنا هنا حالة قصوى. أما في أغلب الأوقات فإن مصير هذه الفئة «الذكية» من الرجال العاديين لا يكون فاجعاً إلى هذا الحد. وكل ما يحدث لهم في أكثر تقدير هو أن يصابوا بمرض في الكبد بعد عدد من السنين فإلى هذا يصير عذابهم كله. ومع ذلك فإنهم قبل أن يهدؤوا وأن يذعنوا يظلون، خلال مدة طويلة، منذ سن الشباب إلى سن النضج، يرتكبون حماقات تلو حماقات، لا يدفعهم إلى ذلك شيء غير الرغبة في التفرد والبحث عن الأصالة.

حتى لنرى حالات غريبة. فرب أناس منهم يتصفون بالشهامة ولكنهم يتوقون إلى الأصالة، فإذا هم لا يتورعون أحياناً عن ارتكاب حقارة من الحقارات. هذا واحد من هؤلاء الأصدقاء يمكن أن يعدّ رجلاً شريفاً بل وطيباً، وهو عند أسرته أشبه بالعبادة الإلهية، يعول بعمله وحده لا ذويه فحسب، بل أناساً غرباء أيضاً. فماذا يحدث له؟ إنه لا يهدأ له بال ولا تطمئن له نفس طوال حياته! فشعوره بأنه قام بواجباته على أكمل نحو لا يصل به إلى راحة القلب وسكينة الضمير. بالعكس: فهو حين يفكر في ذلك يغضب ويسخط. إنه يقول لنفسه: «ذلك ما ضيعت حياتي في سبيله! ذلك ما حال بيني وبين أن اخترع البارود أو أن أكتشف أمريكا. لا أدري ما الذي كان في وسعي أن أكتشفه، ولكنني كنت سأكتشف شيئاً من الأشياء قطعاً!».

إن أبرز ما يميز هؤلاء الناس هو أنهم يقضون حياتهم فعلاً دون أن يتوصلوا إلى

معرفة ما يجب عليهم أن يكتشفوه معرفة دقيقة، وأنهم يظلون ينتظرون أن يكتشفوا شيئاً في الغد: البارود أو أمريكا! غير أن حنينهم المعبذب إلى تحقيق هذا الاكتشاف يمكن أن يكون في الحقيقة كافياً لرجل مثل كولومبوس أو مثل جاليليو.

كان جبريل آرداليونوفتش قد دخل في هذا الطريق، ولكنه لم يسر فيه إلّا الخطوات الأولى في يوم من الأيام. كان يمتدّ أمامه أفق بعيد من الآمال ممتلئ بالأشياء المتعارضة المتناقضة. وهو منذ طفولته تقريباً كان قلبه قد قرّحه شعورٌ عميق مستمرّ بأنه إنسان عادي، مع رغبة قوية عارمة في أن يُقنع نفسه بأنّ له استقلالاً تاماً. كان فتى حسوداً، عنيف الرغبات، وكأنه خلق عصبياً نزقاً. وكان يحسب عرامة اندفاعاته قوةً وطاقة. وكان طمعه المسعور في أن يتميز وأن يكون شخصاً مرموقاً يدفعه أحياناً إلى التفكير في القيام بأعمال طائشة، ولكنه ما إن يهّم أن يثب حتى ينتصر العقل ويتغلب الذكاء دائماً. كان هذا يقتله. ولعلّه كان يمكن إذا سنحت الفرصة أن يقرّر اقتراف أخط الحقارات والدنئات لتحقيق هذا الحلم أو ذاك من أحلامه. لكنه كان متى اقتربت اللحظة الحاسمة يمتنع عن اجترار مثل تلك السفالة لأن الشعور بالشرف كان ينتصر في نفسه (ومع ذلك كانت الأفعال الدنيئة الصغيرة تلقى منه قبولاً دائماً في الواقع). وكان الفقر والهوان اللذين هوت إليهما أسرته يُوقضان في نفسه الاشمئزاز والكره. فكان يصطنع التعالي والاحتقار حتى إزاء أمّه، رغم شعوره الكامل بأن ما تتمتع به أمّه من سمعة طيبة وما تنعم به من طبع قوي هو الآن سنده الأول ودعامته الأساسية في حياته وعمله. وما إن دخل في خدمة أسرة إيبانتشين حتى قال لنفسه: «ما دامت الأعمال الحقيمة لا بدّ منها، فلنرتكبها إلى آخرها، شريطة أن أجنى منها نفعاً!». ولكنه كان لا يرتكب تلك الأعمال الدنيئة إلى آخرها أبداً. ثم: لماذا رسخ في رأسه أن عليه أن يقوم بأعمال سافلة حتماً؟ إن أجاليا لم تزد برفضها على أن أخافته. ولكنه ما يزال يطمع في الفتاة، وما يزال ينتظر فرصة من الفرص صابراً، دون أن يعتقد جاداً مع ذلك بأنها يمكن أن تتنازل فتقبل تقربه منها وتودّده إليها.

ثم ارتأى فجأة، أثناء قصّته مع ناستاسيا فيليبوفنا، أن المال هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى «كل شيء». وفي ذلك الأوان كان لا ينقضي يوم دون أن يردّد على نفسه قوله: «إذا كان لا بدّ من اقتراف دناءة، فلتقتربها!». وكان إذ يستعمل هذه اللغة يشعر برضى يُداخله شيء من خوف. فكان لا ينفك يكرّر في كل لحظة من أجل أن يتشجّع: «إذا لزمّت دناءة فلتمضِ الدنائة إلى آخرها. إن الروتين يتردّد في مثل هذه الحالة، أما نحن فلن نتردّد!».

وإذ أخفق مع آجلايا وأرهقته الظروف، فقد كل شجاعة، وحمل إلى الأمير المال الذي رمته إليه امرأة مجنونة بعد أن أخذته من رجل لا يقل عنها جنوناً. وقد ندم بعد ذلك ألف مرة على أنه ردّ المال، لكنه لم يكفّ عن الشعور من ذلك بافتخار واعتزاز. لقد ظل يبكي فعلاً خلال الأيام الثلاثة التي قضاها الأمير بطرسبرج. ولكنه خلال هذه المدة أيضاً إنما نضج كرهه للأمير وحقده عليه. إنه لن يغفر للأمير أنه نظر إليه مشفقاً حين رآه «يقوم بعمل لا يجروء كثير من الناس على أن يقوموا به»، ألا وهو ردّ مبلغ ضخم كهذا المبلغ. وكان يعترف لنفسه بصدق ونبل أن السبب الوحيد لكل ما يعاينيه من قلق وغم هو هذا التمزق المتصل المستمر في غروره، فكان هذا الشعور يعذبه عذاباً أليماً. ولم يستطع إلا بعد مدة طويلة أن يدرك وأن يقتنع بأن أموره كانت ستجري مجرى خطيراً مع إنسانة تبلغ ما تبلغه آجلايا من براءة وطهارة وغرابة، فأخذ الندم عندئذ يهدّه هدأً، فترك العمل وسقط في هوة الكآبة والانهيال.

إنه يعيش الآن عند بتتسين الذي يعوله كما يعول أباه وأمه. وهو يُظهر الاحتقار لصهره بتتسين، ولكنه يتبع نصائحه، بل ويملك من التعقل والحكمة ما يحضه على التماس هذه النصائح منه دائماً. كان ثمة شيء يغضبه بين الأشياء الأخرى التي تُغضبه، وهو أن يرى أن بتتسين لا يعنيه أن يصبح رجلاً مثل روتشيلد، ولا يضع لطموحه هذا الهدف. «ما دمتَ مرابطاً، فكن مرابطاً إلى النهاية؛ اعتصر الناس اعتصاراً، اسلبهم مالهم، كن قوي الشكيمة؛ صرّ ملكاً في إسرائيل».

وكان بتتسين رجلاً متواضعاً مسالماً موادعاً: فكان يكتفي بالتبسم. ومع ذلك رأى في ذات يوم أن من الضروري أن يُصارع جانباً وأن يناقشه مناقشة جادة، ففعل ذلك بشيء من الرصانة والوقار، مبيناً له أنه لا يأتي عملاً غير شريف، فلا داعي إلى وصفه بأنه يهودي؛ وأنه إذا كانت نسبة الفائدة عالية فلا شأن له هو في ذلك؛ وأن طريقته في المعاملة سليمة صادقة شريفة؛ وأنه على وجه الإجمال ليس إلا وسيطاً في هذا النوع من الأعمال، وأنه بفضل تقيده بالمواعيد وصدقه في المعاملة قد أخذ يتمتع بشهرة ممتازة لدى أناس محترمين مرموقين، وأن ميدان أعماله قد أخذ بسبب ذلك يتسع ويتسع. وأضاف يقول مبتسماً: «لن أصبح مثل روتشيلد، ولا حاجة بي إلى أن أصبح مثل روتشيلد، ولكنني سأملك منزلاً وربما منزلين في ليتانيا، وحسبي هذا!». وكان يقول بينه وبين نفسه: «ومن يدري قد أملك ثلاثة منازل»، لكنه كان لا يفصح عن هذا الحلم، بل يحتفظ به سراً مكتوماً في قرارة نفسه. إن الطبيعة تحبّ هذا النوع من الناس وتدللّه، ولسوف تكافئ بتتسين لا بثلاثة منازل بل بأربعة، لأنه منذ طفولته أدرك أنه لن يصبح مثل روتشيلد. ولكن الطبيعة في مقابل ذلك لن تمضي في الإغداق على بتتسين

إلى أبعد من هذا الحد، وهو امتلاك أربعة منازل، وستكون هذه المنازل الأربعة كل ثروته.

أمّا أخت جبريل آرداليونوفتش فقد كان لها طبع يختلف عن هذا الطبع كل الاختلاف. إنها هي أيضاً ذات رغبات مصطخبة عنيفة، ولكن رغباتها تتصف بالعناد والثبات أكثر ممّا تتصف بالجموح والعرامة. كانت باربارا آرداليونوفتش تملك كثيراً من سلامة الحسّ وسداد الرأي في قيادة عمل من الأعمال، ولا تهجر هذا العمل حين يُشارف على نهايته. الحق أنها كانت، هي أيضاً، من أولئك الناس «العاديين» الذين يحلمون بالتفرد والأصالة. ولكنها، في مقابل ذلك، لم تلبث أن أدركت أنها لا تملك شيئاً من أصالة، ولم يحزنها هذا حزناً بالغاً يُجاوز الحدود. ومن يدري؟ لعل ذلك كان ثمرة شعور خاص بالكبرياء والزهو. لقد خطت خطواتها الأولى في الحياة العملية بكثير من العزم والحزم فتزوّجت السيد بتتسين. لكنها لم تقل لنفسها في هذه المناسبة: «ما دامت الأعمال الدنيئة ضرورية، فلنمض فيها إلى النهاية، شريطة أن أنال بغيتي وأن أحقق هدفي»، كما كان لا بدّ أن يقول مثل هذا في مثل هذه الحالة أخوها جبريل آرداليونوفتش (إن هذه الكلمات هي تقريباً الكلمات التي قالها لأخته حين وافق، كأخ أكبر، على أن تتزوّج بتتسين). أكثر من ذلك أن باربارا آرداليونوفنا إنما تزوجت بعد أن تأكّدت من أن زوجها المُقبل رجل متواضع، مريح، مثقف تقريباً، عاجز عن اقتراف حقارة ضخمة بحال من الأحوال. أما الحقارات الصغيرة فلا ضير فيها ولا خوف منها، فهي سفاست وترهات، ومن المُبرّر منها على كل حال؟ إن المرء لا يستطيع أن يطمع في المثل الأعلى! وكانت باربارا آرداليونوفنا تعلم، عدا ذلك، أنها بزواجها تضمن مأوى لأمها وأبيها وأخوتها. فهي حين رأت أخاها شقياً أرادت أن تساعد، رغم كل ما حدث في الأسرة قبل ذلك من أنواع سوء التفاهم. وكان بتتسين يحضّ فانيا، بمودة وصداقة طبعاً، على أن يلتبس وظيفة في الحكومة. وكان يقول له في بعض الأحيان بلهجة المزاح: «أنت تحتقر الجنرالات ورتبة الجنرال. ولكن أنعم النظر: «إنهم جميعاً ينتهون إلى أن يُصبحوا هم أيضاً جنرالات». لسوف ترى إذا عشت!». فكان جانياً يسأل نفسه ساخراً: «ولكن من أين جاءهم أنني أحتقر الجنرالات ورتبة الجنرال؟».

ومن أجل أن تستطيع مساعدة أخيها، قررت باربارا آرداليونوفنا أن تُوسّع ساحة تأثيرها. فتسللت إلى أسرة إيبانتشين، معتمدة في الدرجة الأولى على ذكريات طفولة. لقد لعبا، هي وأخوها، مع الآنسات إيبانتشين حين كانا في سن الطفولة. يجب أن نلاحظ هنا أنها لو كانت تلاحق وهماً من الأوهام أو حلماً من الأحلام حين سعت إلى أن تُستقبل في منزل آل إيبانتشين، لكان يمكن أن تخرج من الفئة التي انتسبت هي نفسها إليها

والتحقت بها.. ولكن الواقع أن باربارا لم تكن تلاحق وهماً أو حلماء. وإنما كان يقود خطأها حساب معقول كانت تُقيمه على أساس معرفتها بطبيعة هذه الأسرة وطريقة حياتها. لقد ظلت تدرس طبع آجالها بغير توقف، ثم أخذت على عاتقها مهمة أن تجمع بين اثنين، أخيها وآجالها. ولعلها حصلت على بعض النتائج. ولعلها أيضاً قد ارتكبت خطأ الإسراف في الاعتماد على جانيا، فانتظرت منه ما لم يكن في وسعه أن يفعله في أي وقت ولا على أي شكل. ولكنها، على كل حال، قد أحسنت الحيلة والتدبير لدى آل إيبانتشين: قضت أسابيع طويلة لا تذكر أمامهم اسم أخيها ولا تُشير إليه؛ أظهرت استقامة تامة وصدقاً كاملاً في جميع الأحيان؛ وكان وضعها يتسم بالبساطة لكنه يتصف كذلك بالرصانة والكرامة. وكانت باربارا آرداليونوفنا لا تخشى أن تنبش قرارة ضميرها، إذ ليس فيه ما يمكن أن تلوم عليه نفسها، فكان ذلك يهب لها مزيداً من القوة. كل ما هنالك أنها كانت تكتشف أحياناً أن بها هي أيضاً شيئاً من الميل إلى الغضب، وأنها هي أيضاً تزخر بالكبرياء الجريئة، وربما بالغرور. كانت تلاحظ هذا في بعض الأحيان خاصة، ومن تلك الأحيان، اللحظات التي تخرج فيها من عند آل إيبانتشين. ها هي ذي، في هذه المرة أيضاً، تعود من عندهم مُعتكرة المزاج حزينة النفس، كما قلنا، غير أن سُخريّة مُرة تُخالط الآن ذلك المزاج الحزين.

كان بتتسين يُقيم ببافلوفسك في منزل خشبي حقير المظهر لكنه رحب السعة، يطل على شارع كثير التراب. إن هذا المنزل ستؤول ملكيته إلى بتتسين بعد قليل، حتى إنه قد شرع منذ الآن في بيعه لشخص ثالث.

حين اجتازت باربارا آرداليونوفنا درجات المدخل، سمعت صخباً شديداً، في الطابق الأعلى. لقد كان أبوها وأخوها يتصايحان. فلماً دخلت الصالة رأت جانيا يركض في الغرفة من طرف إلى طرف، أصفر اللون من شدة الغضب، يكاد ينزع شعر رأسه شداً. فاكفهر وجهها حين رأت هذا المشهد وتهالكت على ديوان متعبة الهيئة مهدودة القوى، دون أن تخلع قبعتها. وكانت تعلم أنها إذا صمتت دقيقة واحدة أخرى ولم تسأل عن هذا الاضطراب، ستغضب أخاها حتماً؛ لذلك أسرعَت تسأله قائلة:

– أهي الحكاية نفسها؟

فصاح جانياً يقول:

– الحكاية نفسها؟ لا... ليست هي الحكاية نفسها. الأمر الآن أمر آخر! العجوز أصبح مسعوراً، والأم لا تكف عن البكاء. أرجوك يا فاريا، فكري كما تشائين، ولكنني سأرميه وراء الباب...

ولكن لعله لاحظ أن المرء لا يجوز له أن يطرد أحداً من بيت غير بيته، فأضاف يقول مستدركاً:

- أو... أترككم أنا...

دمدمت فاريا تقول:

- يجب على المرء أن يتصف بالتسامح.

ردّ جانيا يقول مشتتلاً بالغضب:

- التسامح في ماذا؟ التسامح مع من؟ التسامح تجاه نذالاته؟ لا، لا، لك أن تقولي ما تشائين... هذا مستحيل، مستحيل، مستحيل! ويا لها من أساليب!... الذنب كله ذنبه، ثم هو يصرخ: «لا أريد الدخول من الباب... هدم الحاجز!». ولكن ما بك يا فاريا؟ إن وجهك منقلب مرعب!

أجابت فاريا غاضبة:

- ليس في وجهي شيء خارق.

فتفرد فيها جانيا بمزيد من إنعام النظر ثم سألتها فجأة:

- هل كنت هناك؟

- نعم.

- انتظري لحظة. استؤنف الصراخ. يا للعار! وفي مثل هذه اللحظة أيضاً!

- في مثل هذه اللحظة؟ لا تتميز هذه اللحظة بأي شيء خاص.

حذق جانيا إلى أخته بنظرة فيها مزيد من النفاذ. وسألتها:

- هل علمت شيئاً؟

- لم أعلم شيئاً غير منتظر. علمت أن كل ما كان يُفترض صحيح. لقد كان زوجي أبصر منا كلينا. إن ما تنبأ به منذ البداية قد تحقق الآن. أين هو؟ -

خرج. ما الذي تحقق؟

- أصبح الأمير خطيباً رسمياً. انتهى الأمر. الأختان الكبيرتان قالتا ذلك لي. وافقت آجاليا. حتى إن الأمر لم يبق سراً مكتوماً (قبل الآن كان كل شيء هناك يُحاط بجوٍّ

السرّ). وقد أُرِجىّ زواج آديلائيدي حتى يتم زفاف العروسين معا في يوم واحد. يا له من شعراً! هذه قصيدة حقاً! أوثر لك أن تنظم قصيدة تهنئة بالعرس على أن تركض في الغرفة دون طائل. سيستقبلون في مساء هذا اليوم بيلوكونسكايا. لقد وصلت في الوقت المناسب. سيكون هناك مدعوون. وسوف يُقدّم الأمير إلى الأميرة بيلوكونسكايا، وإن كانت تعرفه من قبل، يظهر أنهم سيعلمون نبأ الخطبة في هذه المناسبة. لكنهم يخشون عليه إذا هو دخل الصالون الذي يحفل بالمدعوين أن يسقط على الأرض شيئاً أو أن يكسر أنية، أو أن ينبطح هو نفسه على الأرض. لا يُستغرب ذلك من مثله!

أصغى جانبا باهتمام شديد، ولكن ما كان أشدّ دهشة أخته حين لاحظت أن هذا النبأ الذي كان ينبغي أن يصعقه صعباً لم يلقَ منه انشداها خارقاً.

قال بعد لحظة تفكير:

– نعم... كان ذلك واضحاً...

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة غريبة ويرمق أخته بنظرة مأكرة وهو ما يزال يذرع أرض الغرفة طولاً وعرضاً، ولو باضطراب أقل:

– إذن انتهى كل شيء!

قالت فاريا:

– يسعدني أن أراك تستقبل الأمر كما يستقبله فيلسوف. حقاً إن هذا ليريحني كثيراً.

– نعم، تخلص المرء من هذا الموضوع؛ أنتِ على الأقل...

– أظن أنني خدمتُك صادقة مُخلصة، دون أن أناقشك، ودون أن أزعجك، أنا لم أسألك ما هي السعادة التي كنت تعولّ على أن تجدها مع آجلايا.

– ولكن هل أنا... نشدتُ السعادة مع آجلايا؟

– دعك من هذا الكلام، أرجوك، لا تمثل دور الفيلسوف! لا شك في أن الأمر كان كذلك. ولكن حسابنا صُفّي: خدعنا. أعترف لك أنني لم أنظر إلى هذا الزواج في يوم من الأيام على أنه جدّ. ولكن شُغلتُ به فلقد فعلتُ ذلك من باب «تجريب الحظ»، معتمدة على طبع آجلايا الغريب الشاذ. وإنما أردتُ خاصة أن أسرك. كان نصيب هذا المشروع من الإخفاق تسعين في المائة. وما زلتُ حتى الآن لا أعلم أنا نفسي ماذا كنت

تنتظر منه أو تتوقع له؟

- الآن ستحضاني أنت وزوجك على التماس عمل والسعي إلى وظيفة؛ سأسمع خطباً ومواعظ عن فائدة الدأب وقوة الإرادة وضرورة الاكتفاء بالقليل، وهلم جرا... حفظت هذا الكلام على ظهر قلب!...

كذلك قال جانبا وهو ينفجر ضاحكاً.

قالت فاريا تُخاطب نفسها: «إن في رأسه فكرة جديدة!».

وسألها جانبا فجأة يقول:

- والأبوان هناك، كيف ينظران إلى الأمر؟ أهما مسروران؟

- لا يبدو عليهما السرور كثيراً. على كل حال، تستطيع أن تحكم في ذلك بنفسك. إذا كان إيفان فيدوروفتش راضياً، فإن الأم تراودها مخاوف. ولقد قالت من قبل. لا تحب أن ترى في الأمير خطيباً لابنتها. ذلك معروف.

- ليس هذا ما يهمني. إن الأمير خطيب مستحيل، خطيب لا يتصور الخيال أن يكون خطيباً. هذا واضح. لكنني أتكلم عن الوضع الحالي: إلى أين وصلاً؟ هل أبدت موافقتها القطعية؟

- حتى الآن لم تفل «لا». ذلك كل شيء. لكن الأمر لا يمكن أن يجري معها غير هذا المجرى. أنت تعلم أنواع الأعمال العجيبة التي دفعها إليها خجلها وحيائها حتى الآن! كانت في طفولتها تحبس نفسها في الخزائن فتظلّ لاطيةً فيها ساعتين أو ثلاثة، لا شيء إلا لرغبتها في تحاشي الظهور للناس. وقد كبر بعد ذلك جسمها، لكن طبعها لم يتغير. هل تعلم؟ يُخَيَّل إليّ أنه لا بدّ أن يكون ثمة شيء خطير هناك، حتى من جهتها «هي». يبدو عليها أنها تسخر من الأمير ما استطاعت أن تسخر، من الصباح إلى المساء، حتى لا تظهر أنها تجد السبيل حتماً إلى أن تقول له كل يوم بضع كلمات خفية؛ ذلك أنه يبدو مشرقاً وضاءً كمن يتنزه في السماء!... يُقال إنه مضحك! منهنّ إنما سمعتُ هذا الكلام. ولقد ظهر لي أيضاً أنّ الأختين الكبيرتين تسخران مني صراحةً.

أخيراً أخذ وجه جانبا يكفه، لعل فاريا قد تعمّدت الإفاضة في هذا الموضوع لتسبر فكر أخيها، وتعرف ما يدور فيه من خواطر. ولكن العياط والزياط استؤنفا في الطابق الأعلى. زأر جانبا يقول وكأنما سرّه أن يجد متنفساً لغضبه:

- سأطرده من الدار.

- فيمضي يستأنف الشكوى منا والتشهير بنا والإساءة إلى سمعتنا في كل مكان،
كما فعل أمس؟

سألها جانبا مرتاعاً من جديد:

- كيف أمس؟ ما معنى هذا؟ هل...

فأجابت فاريا:

- ها... أنت لا تعلم؟

فصاح جانبا يقول وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً من الشعور بالغضب:

- كيف؟... إذن... ذهب إلى هناك؟ رباة!... ولكن أنت التي ترجعين الآن من عندهم،
هل علمت شيئاً؟ هل ذهب العجوز إليهم؟ أذهب أم لا؟

قال ذلك وأسرع نحو الباب. فاندفعت فاريا وراءه، وأمسكته من يديه، وقالت له:

- ماذا؟ إلى أين تذهب؟ إذا طردته في هذه اللحظة، فلسوف يفعل أسوأ مما فعل.
سيمضي يفضحنا لدى جميع الناس!.

- ماذا فعل هناك؟ ماذا قال؟

- لم يستطعن أن يُكررن لي ما قاله بوضوح، لأنهن لم يفهمنه. ولكنني أعلم أنه
أخافهن جميعاً. كان آتياً إلى إيفان فيدوروفتش، ولكن هذا كان غائباً عن البيت. فطلب
أن يرى إليزابيت بروكوفيفنا. فلما لقيها بدأ يرجوها أن تجد له عملاً، أن تبحث له عن
وظيفة في الحكومة؛ ثم أخذ يشكونا إليها، يشكوني أنا، ويشكو زوجي، ويشكوك أنت
خاصة... قال كلاماً كثيراً.

سألها جانبا وقد هزته ارتعاشة متشنجة:

- ألم تستطعي أن تعرفي ماذا قال؟

- ليس هذا بالأمر السهل. أغلب الظن أنه لم يكن يفهم ماذا يقول ولعلهن لم
يقصصن عليّ كل شيء.

أمسك جانبا رأسه بيديه، وركض نحو نافذة. وجلست فاريا قرب النافذة الأخرى.

قالت فاريا فجأة:

- مضحكةً أجاليا هذه! لقد استوقفتني لتقول لي: «انقلي إلى أبويك أصدق مشاعر

الاعتبار مني. ولن يفوتني أن أنتهز فرصةً لرؤية أبيك في يوم من الأيام القليلة القادمة». وقد نطقت ذلك بلهجة فيها كثير من الجدا غريب جدا...

- ألم يكن ذلك سخرية؟ أنت واثقة بأن ذلك لم يكن سخرية؟

- لا، لم يكن ذلك سُخرية، وهذا وجه الغرابة.

- أهي على علم بقصة العجوز أم لا؟ ما رأيك؟

- القصة مجهولة هناك. ذلك أمر لا أشك فيه. ولكنك تجعلني أقدر الآن أن أجاليا قد تكون على علم بالقضية، قد تكون وحدها على علم، لأن أختيها دُهِشتا هما أيضاً حين سمعتها تُحمَلني تحية إلى أביنا، جادة في ذلك الجد كله؛ ولولا أنها على علم، فما الذي يمكن أن يحضها على إرسال تحية إليه هو؟ وإذا كانت على علم بالقضية، فإن الأمير يكون هو الذي رواها لها.

- لا يحتاج المرء إلى كثير من المكر حتى يعرف من الذي رواها لها! لص! سارق! لم يكن ينقصنا إلا هذا! لص في أسرتنا، لص هو «رب أسرتنا»!

هتفت فاريا تقول غاضبة:

- دعك من هذه السخافات لا يعدو الأمر أن يكون حكاية سكير! ومن الذي اخترعها؟ ليبيد، الأمير... يا للشخصيات العظيمة، يا للأذكاء العباقرة!... إنني لا أقيم لهذا الحادث أي وزن!

تابع جانبا كلامه يقول بمرارة:

- أبونا لص، وسكير؛ وأنا متسول شحاذ وزوج أختي مراب. إن لدينا ما نغري به أجاليا: أسرة عظيمة حقاً.

- إن زوج أختك هذا، إن هذا المرابي ي-....

- يطعمني، أليس كذلك؟ لا تتحرّجي من قول ما تريدين قوله، أرجوك!

قالت فاريا وقد ثابت إلى صوابها، وسيطرت على نفسها:

- لماذا تزعلي؟ إنك لا تفهم شيئاً. أنت تلميذ مدرسة حقاً! أتظن أن هذا كله قد أساء إليك في نظر أجاليا؟ إنك لا تعرف طبعها. إنها لا تتورّع عن أن تدير ظهرها لأحسن الخاطبين في سبيل أن تهرب إلى طالب من الطلاب مغتبطة، وأن تموت معه جوعاً في غرفة تحت السطح؛ ذلك هو حلمها! إنك لم تستطع أن تفهم في يوم من الأيام

مدى ما كان يُمكن أن تثيره فيها من الاهتمام بك والانجذاب إليك لو أنك عرفت كيف تتحمل وضعنا بصلاية وكبرياء. إن الأمير لم يصطدها إلا لأنه من جهة أولى لم يُحاول قط أن يستولي عليها، ولأنه من جهة ثانية يُعدّ أبله في نظر جميع الناس. يكفيها أن تقلب حال الأسرة عاليها سافلها مبتهجة! هيه! إنكم معشر الرجال لا تفهمون من هذه الأمور شيئاً البتة!

دمدم جانيا يقول بهيئة مُلغزة:

- طيّب. سنرى هل نحن نفهم أم نحن لا نفهم. ولكنني كنتُ أود مع ذلك أن لا تعرف عن قصة العجوز شيئاً. لقد ظننت أن الأمير سيصون لسانه فلا يُذيع شيئاً. لقد استطاع أن يتمتع ليبيد عن التحدّث في الأمر. ولم يرض أن يقول لي، أنا نفسي، كل شيء، رغم إلحاحي..

- ها أنت ذا ترى إذن بنفسك أن كل شيء قد علّم بدون أن يتدخل. ولكن ما بالك تهتم هذا الاهتمام كله الآن؟ ماذا تأمل؟ وإذا بقي لك أمل، فلن يهب لك هذا في نظرها إلا هالة شهيد!

- دعك من هذا الكلام. فإنها، رغم كل هذه الرومانسية، كان يمكن أن تخاف من الفضيحة. إن لكل شيء حدوداً؛ إن لكل امرئٍ حدوداً لا يتجاوزها. أنتنّ جميعاً كذلك.

- آجل يا تخاف؟

كذلك صاحت فاريا مندهشة وهي ترشق أخاها بنظرة احتقار. ثم

- إنّ نفسك لنديفة حقاً! لا أحد منكم خير من أحد. أنتم جميعاً سواء. أن تعدّوا آجل يا شاذة غريبة الأطوار، فهذا جائز. ولكنها في مُقابل ذلك أنبل طبعاً وأسمى نفساً منا جميعاً!

فدمدم جانيا قائلاً بلهجة الاكتفاء مرة أخرى:

- طيّب. لا بأس. لا تزعلي!

وتابعت فاريا كلامها فقالت:

- لكنني أرثي لحالِ أُمي. إنني أخشى أن تكون قصة أبي قد بلغت مسمعها. أنني خائفة حقاً!

-: قال جانيا

- لا شك في أنها تعرفها!

كانت فاريا قد نهضت لتتصعد إلى الطابق الأعلى، عند نينا ألكسندروفنا. فلما سمعت ما قاله أخوها توقفت ونظرت إليه متحيرة، وسألته:

- من ذا يمكن أن يكون قد حكى لها القصة؟

- لعله هيبوليت. إنني أقدر أنه منذ أقام عندنا لم يكن له من هم مستعجل إلى أن يروي لأمنا الحكاية.

- ولكن قل لي أرجوك، كيف يمكنه أن يعلم بهذه القضية؟ إن ليبيديف والأمير قد اتفقا على أن لا يتحدثا عنها إلى أحد؛ كما أن كوليا نفسه يجهلها...

- هيبوليت؟ لقد عرف هذا كله بنفسه. لا تستطيعين أن تتصورى مدى ما يتصف به هذا المخلوق من مكر وخبث وميل إلى الوشاية والنميمة؛ ولا تستطيعين أن تتخيلي مدى ما يتمتع به من قوة حاسمة الشم التي تمكنه من أن يكتشف بنفسه جميع الحكايات السيئة، وجميع ما له طابع الفضيحة! لك أن تُصدّقي وأن لا تُصدّقي، لكنني أعتقد أنه استطاع أن يقبض على ناصية آجلایا بيديه. وإذا لم يكن هذا قد حدث فسوف يحدث. حتى روجويين أصبح على علاقة به. كيف لا يلاحظ الأمير هذا؟ وما أشدّ ما يضطرم في نفس هيبوليت الآن من رغبة قوية في أن يدبر لي مكيدة! إنه يعدّني عدواً شخصياً. لقد أدركتُ ذلك منذ زمن طويل. ولكنني أتساءل ما الفائدة التي يجنيها من هذا إنسان أصبح في مرحلة الاحتضار؟ ذلك ما لا أفهمه. ولكنك سترين: إنني سأنتصر عليه. لن تكون الكلمة الأخيرة له بل لي.

- لماذا أتيت به إلى هنا، إذا كنت تكرهه هذا الكره كله؟ وهل يستحق الأمر أن تنتصر عليه؟

- أنت نصحتني أن آتي به إلى هنا.

- كنتُ أقدر أن ينفعنا. ولكن هل تعلم أنه هو نفسه مؤلّه بحُب آجلایا، وأنه كتب إليها؟ لقد سئلت في هذا الموضوع... وكاد يكتب إلى إليزابت بروكوفينا.

قال جانیا وهو يضحك ضحكاً ساخراً فيه مكر:

- من هذه الناحية، ليس خطراً. ثم إن الأمر لا بدّ أن يكون غير هذا. أن يقع في غرام آجلایا، فهذا جائز، لأنه صبي! ولكنه... لن يبعث رسائل غير موقعة إلى العجوز. إنه فتى حقير تافه شرير، ومغرور بنفسه أشدّ الغرور!... إنني لعلی ثقة، إنني على يقين

من أنه صورني لها شاباً محتالاً متآمراً. بهذا إنما بدأ. أعترف بأنني كنتُ غيباً أشدّ الغباء حين أطلقتُ لساني حراً معه. كنتُ أظن أنه سيخدم مصالحني، ولو انتقاماً من الأمير على الأقل. إنه شخص ماهر. كشفتُ خبيئة نفسه! أما مسألة السرقة تلك فقد عرفها من أمّه، أرملة الكابتن. من أجل تلك المرأة إنما قرّر أبونا أن يفعل فعلته. لقد أعلمني هيبوليت فجأة، بدون أي سبب، أن «الجنرال» وعد أمه بأربعمائة روبل. أعلمني هذا من تلقاء نفسه، بدون مبالاة، بدون تحرج. عندئذٍ فهمتُ كل شيء. كان يُحدّق إلى عينيّ متلذذاً. ولا شك أنه قال هذا الكلام نفسه لأمناء، لا لشيء إلا التلذذ بتمزيق قلبها. ولماذا لا يموت؟ هلّا قلتُ لي هذا، من فضلك؟ ألم يتعهد بأن يموت في غضون ثلاثة أسابيع؟ لقد سمن منذ أن أقام عندنا. وأخذ سُعاله يهدأ. حتى لقد قال في مساء أمس أنه أصبح منذ يومين لا يبصق دماً.

قالت فاريا:

– اطرده.

فأجاب جانبا متعالياً:

– إنني لا أكرهه، بل أحتقره!

ثم لم يلبث أن صاح يقول فجأة وقد استولى عليه غضب قوي:

– ثم... نعم... إنني أكرهه... أكرهه! لأقولنّ هذا في وجهه، ولو كان يلفظ أنفاسه الأخيرة! ليتك استطعت أن تقرئي اعترافه! ما أغربها من وقاحة ساذجة! إنه الليونان بيروجوف، إنه نوزدريوف^[24] على مأساة! وهو خاصةً صبي! ما أعظم اللذة التي يمكن أن أشعر بها لو ضربته على قفاه حينذاك، لا لشيء إلا أن أدهشه! إنه يريد الآن أن ينتقم من الجميع لإخفاقه في ذلك اليوم!... ولكن ماذا يجري هناك؟ إن الجلبة قد اشتدت فوق! وبعده؟ أما لهذا من آخر؟ ما معنى هذه الضوضاء؟ لن أسمح بهذا!

صاح بهذه الجملة الأخيرة مخاطباً بتتسين الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة. وتابع كلامه يقول:

– ماذا يحدث في بيتنا؟ إلى أين نمضي أيضاً؟ هذا... هذا...

ولكن الضجة كانت تقترب بسرعة. وفُتح الباب فجأة، ودخل العجوز إيفولجين طافح الغضب محتقن الوجه مضطرب النفس خارجاً عن طوره، واندفع هو أيضاً نحو بتتسين. ووراءه دخلت نينا ألكسندروفنا، ودخل كوليا، ثم دخل أخيراً هيبوليت.

الفصل الثاني

كان هيبوليت قد أقام في منزل بتتسين منذ خمسة أيام. وقد تم الفراق بينه وبين الأمير على نحو طبيعي دون خصام أو نقاش أو شجار أو شقاق بل كأنهما افترقا وهما على أحسن حال من المودة والصداقة. وقد ذهب جبريل أرداليونوفتش الذي عادى هيبوليت كل تلك المعادة أثناء السهرة، التي سبق الحديث عنها، ذهب يزوره في بيته بعد الحادث بيومين، فأغلب الظن أنه إنما ذهب يزوره تنفيذاً لخطّة مبيتة كانت قد راودته على غير توقع. كما أن روجويين أخذ يتردد إلى المريض، لا يدري أحد ما الذي يحضه على ذلك. وقد قدر الأمير في البداية أن «الفتى المسكين» قد يجد من تلقاء نفسه أن انتقاله من عنده فيه خير له. ولكن هيبوليت ذكر للأمير حين غادر المنزل أنه سيقوم عند بتتسين الذي «تكرم فعرض عليه أن يؤويه». وكأنه تعمد أن لا يقول أنه سيسكن عند جانبا، مع أن جانبا هو الذي ألح على إيوائه في المنزل. وقد لاحظ جانبا ذلك، فبقيت هذه الإهانة تنخر في قلبه.

كان جانبا على حق حين قال لأخته إن المريض تتحسن صحته. لقد كانت صحّة هيبوليت تتحسن فعلاً، وكان في وسع المرء أن يلاحظ ذلك من أول نظرة.

دخل هيبوليت إلى الغرفة غير متعجل، وراء الآخرين، وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة ساخرة خبيثة، وكانت هيئة نينا ألكسندروفنا تدل على أنها مذعورة ذعراً قوياً (لقد تغيرت تغيراً كبيراً وهزلت هزلاً شديداً أثناء هذه الأشهر الستة الأخيرة. إنها منذ أن زوّجت ابنتها وجاءت تسكن عندها أصبح يبدو عليها أنها لا تتدخل في شؤون أولادها). وكان كوليا مهموم البال، قلقاً مرتبكاً متحيراً. إن أشياء كثيرة من هذا «الجنون الذي أصاب الجنرال» تفوته فلا يفهمها، على حدّ تعبيره، لأنه كان يجهل، بطبيعة الحال، الأسباب الحقيقية لهذه البلبلة الجديدة التي اجتاحت المنزل. لكنه وهو يرى أباه ميالاً إلى المشاجرة في كل لحظة وكل مناسبة، قد اتضح له أن أباه اعتراه تغير مفاجئ فكأنه شخص آخر. وكان مجرد انقطاع العجوز عن الخمرة منذ ثلاثة أيام انقطاعاً كاملاً يُذكي قلقه ويفاقمه. لقد علم أن أباه قطع الصلة بينه وبين ليبيديف، وقطع الصلة بينه وبين الأمير، حتى إنه تشاجر معهما. وها هو ذا كوليا قد وصل إلى المنزل

حاملًا نصف زجاجة فودكا، اشتراها بقروش يملكها، وقال لأمه حين كان الجميع ما يزالون في الطابق الأعلى:

- أوكد لك يا أمي أنه من الأفضل أن يشرب. إنه منذ ثلاثة أيام لم يشرب شيئاً. وذلك هو سبب اعتكار مزاجه، واسوداد نفسه. حقا إن من الأفضل أن يشرب. لقد كنتُ أحمل إليه خمرة حتى حين كان في السجن بسبب الديون...

فتح الجنرال الباب واسعا ووقف على العتبة. كان يرتعش استياء وغضبا. صرخ يقول لصهره بتتسين بصوت مرعد:

- أيها السيد العزيز، إذا كان حقا أنك قرّرت أن تُضحّي في سبيل هذا الولد الغرّ وهذا الملحد الزنديق بأبيك الشيخ المحترم، أو قل بوالد زوجتك الذي خدم إمبراطوره مُخلصاً، فاعلم أنني منذ هذه اللحظة لن تطأ قدماي أرض مسكنك. فاختر أيها السيد، اختر في هذه اللحظة نفسها: فإما أنا وإما هذا... المسمار!.. نعم.. هذا المسمار! خطر ببالي هذا الاسم مُصادفةً... لكن الصبي مسمار حقاً... لأنه يثقب قلبي كمسمار فعلاً... بدون أية مداراة أو مراعاة... كمسمار تماماً!...

قال هيبوليت:

- لماذا لا تسمّيني فتّاحة قناني؟

- لا، لست فتّاحة قناني، لأنني لستُ قنينة بل جنرالاً. أنا أحمل أوسمة وأملك ألقاب شرف، أما أنت فليس لك شيء. إما هو وإما أنا! قرر أيها السيد، قرر حالا!

كذلك صرخ الجنرال من جديد، مهدداً بتتسين بلهجة نزفة.

فأدنى منه كوليا كرسياً، فتهالك الجنرال على الكرسي خائر القوى.

جمجم بتتسين يقول مصعوقاً:

- الحق أن الأفضل أن تنام قليلاً...

وهمس جانبا قائلاً لأخته:

- وما يزال يجرؤ أن يُهدد...

صاح الجنرال قائلاً:

- أناام قليلاً؟ أنا لستُ سكران يا سيدي العزيز، وأنت تهينني وتشتمني.

ثم تابع صياحه قائلاً وهو ينهض:

- أرى أن كل شيء وكل إنسان هنا يُناصبني العداء! كفى! لقد سئمت! أنا ذاهب...
ولكن ألا فلتعلم أيها السيد العزيز، ألا فلتعلم...

لكن الجنرال أجلس قبل أن يكمل جملته، وضرع إليه أن يهدئ نفسه.
وانسل جانبا إلى ركن من الأركان غاضباً حانقاً. وكانت نينا ألكسندروفنا ترتجف
وتنحب.

قال هيبوليت كاشفاً عن أسنانه بلهجة ساخرة:

- ولكن ماذا صنعتُ به؟ مم يشتكي؟

فتدخلت نينا ألكسندروفنا فجأة تقول:

- أتدعي أنك لم تفعل به شيئاً؟ أنت الذي يجب عليك أن تشعر بالخجل والعار...
إنها لقسوة أن يُعذب المرء شيخاً... ولا سيما حين يكون في وضع مثل وضعك...

- فما هو وضعي أولاً يا سيدتي؟ إنني أحمل لك احتراماً عظيماً، لك أنت خاصة،
لك أنت شخصياً، ولكن...

هتف الجنرال يقول:

- إنه مسمار! إنه يثقب روحي وقلبي! إنه يريد أن يلحقني بمذهب الإلحاد! ألا
فلتعلم أيها الولد الغرّ أنني كنت غارقاً في الأمجاد حين لم تكن أنت قد ولدت!... ما
أنت إلا دودة يأكلها الحسد، دودة مشطورة شطرين، دودة تسعل... وتموت بغضاً
وزندقة... لماذا أتى بك جانبا إلى هنا؟ الجميع يُعادونني، من الغرباء إلى ابني فلذة
كبدتي...

صرخ جانبا يقول:

- كفى تمثيلاً. لقد كان الأولى بك أن لا تلطخ شرفنا وأن لا تجلّلنا بالخزي
والعار في المدينة كلها...

- كيف؟ أنا ألطخ شرفك أيها الولد؟ ألطخ شرفك أنت؟ أنا أشرفك، لا ألطخ
شرفك...

كان الجنرال قد وثب وهو يقول هذا الكلام. أصبح لا يمكن صده. ولكن كان

واضحاً أنّ جبريل آرداليونوفتش قد جاوز الحدود هو أيضاً.

صاح جبريل آرداليونوفتش يقول بمكر وخبث:

– ولا يستحي أن يتكلم عن الشرف!

فقال الجنرال يسأله بصوت مرعد وقد اصفر وجهه غضباً وتقدّم إلى الأمام خطوة:

– ماذا قلت؟

فأجاب جانبا فجأة بقوله:

– قلتُ يكفي أن أفتح فمي حتى...

ولكنه لم يكمل جملته.

هما الآن يقفان أحدهما أمام الآخر، وجهاً لوجه، وقد استولى على كل منهما أشدّ الغضب، ولاسيما جانبا.

صاحت نينا ألكسندروفنا قائلة وهي تندفع لتصدّ ابنها: جانبا، ماذا تفعل؟

وهتفت فاريا تقول مستاءة ممتعة:

– ما هذه إلا سخافات من الطرفين كليهما. هيا يا أماه! هدّئي روعك!

وتشبّثت بأמהا.

قال جانبا مخاطباً أباه بلهجة الفاجعة:

– إذا كنتُ أترفق بك، فإنني لا أفعل ذلك إلا مراعاة لأمي.

فزأر الجنرال قائلاً وقد بلغ ذروة الغضب:

– تكلم! تكلم وإلا حلت عليك لعنة أبيك... تكلم!...

– هه! ألا إني لا أخاف لعنتك حقاً! من الذنب إذا كنت قد أصبحت منذ ثمانية أيام

كالمجنون؟ أقول: منذ ثمانية أيام. هل سمعت؟ إنني أعرف اليوم... فلا تخرجني عن طوري، فتدفعني دفعاً إلى أن أقول كل شيء. لماذا جررت نفسك أمس إلى بيت آل إيبانتشين؟ أفتودّ بعد ذلك أن يحترم أحد شيخوختك وشعرك الأثيب وكرامتك كرب أسرة؟ كلام جميل!...

– أسكت يا جانبا! أسكت يا أحمق!

وعاد هيبوليت يسأل ملحاً بلهجة ما تزال تقارب الوقاحة:

- بأي شيء أسأت إليه؟ لماذا يصفني بأنني مسمار. هل سمعتموه؟ إنه هو الذي يتشبث بي ويصدع رأسي: لقد أتاني منذ قليل يُحدّثني عن قصة رجل برتبة كابتن اسمه ياروبياجوف. إنني لا أحرص أي حرص على صحبة مجتمعك يا جنرال. وأنت نفسك تعلم أنني كنتُ أتحاشاها. فيما يعني الكابتن ياروبياجوف. ثم إنني لم أزد على أنني أعربت عن رأيي صراحة في أن هذا الكابتن ياروبياجوف لعله لم يوجد في يوم من الأيام. عندئذ ثار غضبه.

قال جانبا بلهجة قاطعة:

- لا شك في ذلك: إن هذا الكابتن لم يوجد في يوم من الأيام.

ألقى الجنرال على ما حوله نظرات مبهوتة. إن كلمات ابنه قد جمده ما تشتمل عليه من تأكيد قاطع وثقة قاسية. لم يسعفه فكره بكلمة واحدة يرد بها. غير أن ملاحظة جانبا جعلت هيبوليت ينفجر ضاحكاً.

قال هيبوليت:

- هل سمعت؟ إن ابنك نفسه يقول إنه لم يوجد في يوم من الأيام كابتن اسمه ياروبياجوف.

- أنا تكلمتُ عن كابيتون ياروبياجوف، لا عن كابتن... إنه كابيتون... هو ليوتنان كولونيل محال على التقاعد... ياروبياجوف.. كابيتون.

فعاد جانبا يقول خارجاً عن طوره:

- لا ولا وُجد أحد اسمه كابيتون!

فتمتم الجنرال يسأل وقد أخذ وجهه يصطبغ بالحمرة:

- كيف... لماذا لم يوجد؟

فتدخل بتتسين وفاريا قائلين:

- طيب... هدئي نفسك.

وصرخ كوليا يقول من جديد:

- أسكت يا جانبا!

ولكن هذه التدخلات ردت إلى الجنرال ثبات جأشه، فقذف ابنه بهذا السؤال أطلقه مهدداً:

- كيف لم يوجد؟ ولماذا يمتنع أن يكون قد وجد؟

- لأنه لم يوجد! هذا كل شيء! إنه لم يوجد. ذلك مستحيل كل الاستحالة. أقول لك هذا، فلا تُصرّ، ولا تلجّ.

- ثم أعدّه ابني... ابني الذي آه.. يا رب! .. هو ابني، ويجرؤ أن يزعم أن ياروبياجوف، أن ياروشكا^[25] ياروبياجوف لم يوجد!

قال هيبوليت:

- طيّب طيّب. منذ قليل كان اسمه كابيتوشكا^[26]. والآن أصبح اسمه ياروشكا!

- أنا أقصد كابيتوشكا، يا عزيزي السيد الصغير، لا ياروشكا! أقصد كابيتون، كابيتان ألكسيفتش، أعني كابيتان... الليوتنان كولونيل... المحال على التقاعد... الذي تزوج ماريا.. ماريا بتروفنا سو.. سو.. أقصد صديقي ورفيقي سوتوجوف.. لقد كنا معاً في المدرسة العسكرية. أهرقتُ من أجله دمّاً... حميته بجسمي... لكنه قُتل. كيف يجرؤ أحد أن يقول إنه لم يوجد أحد اسمه كابيتوشكا ياروبياجوف؟

كان الجنرال يُطلق هذا الكلام حانقاً أشدّ الحنق، ولكن المرء يحسّ أن انفعاله نابع من غير المسألة المختلف فيها والمتنازع عليها. الحق أنه كان يمكن أن يتحمّل افتراضاً أقسى وقعاً في النفس وأعمق جرحاً للشعور من افتراض أن كابيتون ياروبياجوف لم يوجد. كان يمكن لولا ذلك أن يصرخ وأن يثير فضيحة وأن يندفع اندفاعاً قوياً، ثم ما يلبث أن يصعد إلى الطابق الأعلى لينام. أما في هذه المرة فإن الكيل قد طُفح عنده - ألا ما أغرب قلب الإنسان! - طُفح من مجرد أن وجود ياروبياجوف قد وُضع موضع الشك، رغم أن هذه الإساءة طفيفة تافهة لا قيمة لها البتة! لقد اصطُبع وجه الشيخ بحمرة شديدة كلون الأرجوان، ورفع ذراعيه نحو السماء، وأعول يقول هاتفاً:

- كفى! لعنتي عليكم... أنا خارج من هذه الدار! يا نيقولا، خذ حقيبة سفري...
إني راحل.

قال ذلك وهرع يخرج بالغاً ذروة الغضب. فاندفعت وراءه نينا ألكسندروفنا وكوليا وبتتسين.

قالت فاريا لأخيها:

- ماذا فعلت؟ قد يرجع الآن إلى هناك! يا للعار! يا للعار!

فصرخ جانبا قائلاً وهو يكاد يختنق من شدة الغيظ والحنق:

- لم يكن عليه إلا أن لا يسرق.

والتقت نظرتة فجأة بنظرة هيبوليت، فاجتاحه نوع من الارتعاش فجأة. وصاح

يقول:

- أما أنت أيها السيد العزيز، فلقد كان ينبغي لك أن تتذكر أنك تُقيم تحت سقف

غيرك على كل حال، وأنتك إذ تتمتع بحسن الضيافة لست من ينبغي له أن يغيظ شيخاً أصبح من الواضح أنه فقد عقله وصار مجنوناً.

أوشك هيبوليت أن يندفع هو أيضاً، ولكنه سرعان ما سيطر على نفسه، فقال بهدوء:

- لا أشاركك الرأي في اعتبار أبيك مجنوناً. هذه دعوى باطلة. حتى إنني أرى أنه

الآن أعقل مما كان في الآونة الأخيرة. يميناً إن هذا هو شعوري. ألا تُصدقني؟ لقد أصبح أكثر تعقلاً وحذراً. إنه يرصد كل ما يُقال ويزن كل كلمة تصدر منه. وحين كلمني عن كابيتوشكا إنما كان يرمي إلى هدف معين: تصوّر أنه كان يريد أن يحملني على الكلام عن...

- عن الشيطان... لا يهمني أن أعرف ما الذي كان يريد أن يحملك عليه! وأرجوك

أن لا تحاول المكر والمواربة معي، أيها السيد.

كذلك قال جانبا بصوت صارخ. وتابع كلامه يقول:

- إذا كنت تعرف أنت أيضاً السبب الحقيقي الذي يجعل هذا الشيخ في مثل هذه

الحالة (ولقد أحسنت التجسس عندي خلال هذه الأيام الخمسة، فلا بد أنك استطعت أن تعرف ذلك السبب)، فإن عليك أن تمتنع امتناعاً صارماً عن إثارة حنق هذا... الشقي، وعن تعذيب أُمّي بتضخيم قضية ليس لها شيء من خطورة الشأن، فما هي إلا قضية سكيرين لا أكثر. فضلاً عن أنها لم يثبت صدقها ولم يقم دليل على صحتها، ولست أوليها أي اهتمام... ولكنك امرؤ لا تستطيع إلا أن تفسد كل شيء، ولا يمكنك إلا أن تتجسس، لأنك... لأنك...

- لأنني مسمار.

بهذا أكمل هيبوليت جملة جانيا وهو يضحك ساخراً. وتابع جانيا كلامه فقال:

- لأنك إنسان شرير. لقد عذبت الناس خلال نصف ساعة، وحاولت أن تفقدهم صوابهم متظاهراً بمحاولة الانتحار بمسدس كان خالياً. لقد مثلت مسرحية مخجلة مخزية. يا مُدَّعي الانتحار... يا كيس حقدٍ فوق ساقين! لقد استضفتك في هذا البيت، فتحسنت صحتك: سممت وزايلك السعال، فانظر كيف تعترف بالجميل، وانظر كيف...

- اسمح لي بكلمتين، أرجوك. أنا هنا ضيف باربارا آرداليونوفنا، لا ضيفك أنت. أنت لم تتفضل عليّ بأية ضيافة، بل أظن أنك أنت نفسك تتمتع بضيافة السيد بتتسين. ولقد رجوت أمني منذ أربعة أيام أن تبحث لي عن مسكن في بافلوفسك، وأن تجيء تقيم هي نفسها في بافلوفسك، لأن صحتي تتحسن هنا فعلاً، وإن لم أسمن ولا انقطع سعالي. فأعلمتني أمني مساء أمس أن المسكن قد تهيأ. لذلك أبادر فأبلغك أنا أيضاً أنني سأنتقل إليه في هذا اليوم نفسه بعد أن أشكر أمك وأختك. لقد اتخذت قراري هذا منذ مساء أمس. اغفر لي أنني قاطعتك. فإنك، إذا لم يُخطئ ظني، كنت تريد أن تقول أشياء أخرى كثيرة.

قال جانيا مرتعشاً:

- إذا كان الأمر كذلك...

فقاطعه هيبوليت بقوله:

- إذا كان الأمر كذلك، فاسمح لي أن أجلس، لأنني مريض على كل حال.

قال هيبوليت هذا وهو يحتل، بهدوء، الكرسي الذي كان يشغله الجنرال. ثم أضاف:

- الآن أصبحتُ مستعداً لأن أصغي إلى كلامك، لا سيما وأن هذا الحديث بيننا قد يكون آخر حديث، وقد يكون هذا اللقاء آخر لقاء.

شعر جانيا فجأة بخزي. وقال:

- صدق أنني لن أخفض قدرتي إلى حيث أجري معك تصفية حساب، وإذا كنت...

فقاطعه هيبوليت قائلاً:

- تخطئ إذا تعاليت هذا التعالي. أنا من جهتي قد آليتُ على نفسي منذ اليوم الذي وصلت فيه إلى هنا، أن لا أحرم نفسي من لذة صفعك متى وجب أن نفرق. وهذا أوان

تنفيذ هذا المشروع، بعد أن تنهي كلامك طبعاً...

- وأنا من جهتي أرجوك أن تخرج من هذه الغرفة.

- الأفضل أن تتكلم، وإلا فقد تندم بعدئذ على أنك لم تقل كل ما كان يعتمل في قلبك ويثقل صدرك!...

قالت فاريا:

- كفى يا هيبوليت! هذا كله مخجل مخز. كفى، من فضلك!

فنهض هيبوليت، وقال ضاحكاً:

- إذا كفتُ فإنما أكفُ احتراماً لسيدة. لك ما تشائين يا باربارا آرداليونوفنا. في سبيلك لا مانع عندي من اختصار هذا الحديث، ولكن من اختصاره فحسب. ذلك أن المكاشفة بيني وبين أخيك قد أصبحت ضرورية، ولن أقبل بأية حال من الأحوال أن أخرج قبل إزالة ما نتج عن كلامه من سوء فهم.

هتف جانيا يقول:

- بل قل إنك نمام، فلا تستطيع أن تعزم أمرك على الانصراف قبل أن تقذف من فمك ما يمتلئ به من أقوال خبيثة.

قال هيبوليت ببرود:

- ها أنت ذا ترى أنك فقدت سيطرتك على نفسك. بصراحة: سوف تشعر بندامات كثيرة إذا لم تفصح عن كل ما تريد الإفصاح عنه. أعود فأقول لك: إنني أتنازل لك عن دوري في الكلام. وسأتكلم بعدك.

لم يجب جبريل آرداليونوفتش، ونظر إلى هيبوليت باحتقار.

فقال هيبوليت:

- لا تريد أن تتكلم! تفضل أن تبرهن على الصلابة والقوة حتى النهاية! لك ما تشاء. على كل حال، سأكون من جهتي موجزاً أكبر الإيجاز. لقد سمعتُ اليوم مرتين أو ثلاث مرات لوماً وتقريعاً على الضيافة التي قُدمت لي. هذا ظلم. إنك حين دعوتني إلى السكن هنا، كانت نيتُك أن تصطادني بشباكك. كنت تفترض أنني أريد الانتقام من الأمير. وقد سمعت عدا ذلك أن أجلايا إيفانوفنا أظهرت مودة لي وأنها قرأت اعترافي. فخطر ببالك حينذاك أنني سأقف نفسي على تحقيق مصالحك. لعلك أملت

أن تتخذني مساعداً لك. لا أقول أكثر من هذا. لا ولا أطلب منك اعترافاً بصحته أو تأييداً لصدقه. يكفيني أن أعرف أنني أضعك أمام ضميرك، وأننا نتفاهم الآن تفاهماً تاماً.

هتفت فاريا تقول:

- إنك تصنع قصة كبيرة من أمر بسيط...

فقال جانيا:

- هو كما قلتُ لك: «صبي ونمّام».

- اسمحي يا باربارا آرداليونوفنا: إنني أكمل كلامي. طبعاً، أنا لا يمكن أن أحب الأمير ولا أن أحترمه. ولكنه إنسان طيّب حقاً، وإن يكن.. غريب الأطوار مضحكاً... فليس هناك إذن أي سبب يُحملني على أن أكرهه، ومع ذلك لم أظهر لأخيك أنه كان يُحرّضني على الأمير. كنتُ أنتظر الخاتمة ليتاح لي أن أضحك. كنتُ أعلم أن أخاك لن يلبث أن يكشف عن حقيقة نفسه وأن يرتكب أكبر الخطأ في حقي فأضعه في موضع سيئ مضحك. وذلك ما حدث. إنني مستعد لأن أترفق به الآن، ولكنني لا أفعل ذلك إلا مراعاة لك يا باربارا آرداليونوفنا. ومع ذلك فإنني بعد أن استبان لك أن إيقاعي في الفخ ليس بالأمر السهل إلى تلك الدرجة، أريد أيضاً أن أشرح لك السبب الذي يحدوني إلى وضع أخيك في موضع مضحك حرج إزائي. ألا فاعلمي إنني فعلتُ ذلك عن كره وبغض، أعترف بذلك صادقاً. لقد قدّرتُ أنني حين أموت (وسوف أموت على كل حال، رغم أنني سمّنتُ كما تدعون)، سوف أذهب إلى الجنة بهدوء أعظم وطمأنينة أكبر إذا استطعت أن أضع في موضع الهزء والسخرية شخصاً واحداً على الأقل يمثل أفراد تلك الفئة الكبيرة من الناس الذين اضطهدوني طوال حياتي، والذين كرهتهم وأبغضتهم طوال حياتي. إن أخاك المدهش هو الصورة الواضحة لهذا النوع من الناس. إنني أكرهك يا جبريل آرداليونوفتش؛ وقد يدهشك أن تعرف إنني لا أكرهك إلا لأنك النموذج التام، أو التجسيد الكامل، أو التشخيص الصادق للعادية التافهة الوقحة الصلابة البشعة الكريهة المنفرة! أنت العادية المنتفخة، التي لا يساورها شك في شيء والتي تنعم بسكينة بليدة. أنت الروتين؛ أنت روتين الروتين! لن تنبت في فكرك أو قلبك أية فكرة شخصية ولم يومض فيهما أي معنى أصيل في يوم من الأيام. ولكن حسدك لا حدود له. أنك مقتنع اقتناعاً قاطعاً جازماً بأنك عبقرى من الطراز الأول. ومع ذلك فإن الشك يستولي عليك ويحاصر نفسك في لحظات الكآبة، فتشعر عندئذ بنوبات قوية من الغضب والحسد. آه... وإن نقطاً سوداً تلوح في الأفق الذي ينبسط أمام

عينيك، نقطاً سوداً لن تغيب إلا يوم تصبح غيباً غباوة كاملة، وذلك ما ستصير إليه في مستقبل غير بعيد. على أنك ستحيا حياة طويلة متنوعة. لست أزعم أنها ستكون حياة فرحة. ويسرني أن لا تكون كذلك. وأقول لك قبل كل شيء آخر: إنك لن تحظى بيد الإنسانية التي تطمع فيها.

صاحت فاريا تقول:

– هذا لا يُحتمل. هلاً انتهيت أيها الشّتام الدنيء؟

وكان جانيا ملتزماً الصمت، وقد اصفر وجهه وارتعش جسمه. وسكت هيبوليت، وحدّق إليه بنظرة ثابتة، مبتهجاً بارتباك، ثم نقل عينيه إلى فاريا وابتسم، ثم حياً وخرج دون أن يضيف كلمة واحدة.

كان من حق جبريل آرداليونوفتش أن يشكو قدره وأن يتبرّم من سوء حظه.

ولبثت فاريا بضع لحظات لا تجرؤ أن تخاطبه بكلمة. حتى إنها لم تنظر إليه بينما كان يذرع الغرفة أمامها بخطى واسعة. وأخيراً اقترب من النافذة وأدار ظهره لأخته. خطر ببال فاريا المثل الروسي: «لكل عصا طرفان». وسُمعت جلبة في الطابق الأعلى من جديد.

قال جانيا لأخته فجأة حين رآها تنهض:

– أتذهبين؟ انتظري: انظري إلى هذا!

وتقدّم نحوها ورمى على الكرسي أمامها ورقة صغيرة مطوية كما تطوى رسالة.

صاحت فاريا تقول وهي ترفع ذراعها:

– رباه!

وكانت الرسالة مؤلفة من سبعة أسطر تماماً:

«جبريل آرداليونوفتش، إنني وقد اقتنعت بعواطفك الطيبة نحوي، قرّرتُ أن أستشيرك طالبة نصحك في قضية تهمّني. فأتمنى أن ألقاك غداً في الساعة السابعة تماماً عند الدكة الخضراء. ليس المكان بعيداً عن منزلنا. إن باربارا آرداليونوفنا التي يجب أن تصحبك حتماً تعرفه جيداً. آ. آ.).

قالت باربارا آرداليونوفنا وهي تعبر عن دهشتها بمباعدة يديها:

- فافهمها بعد هذا إذا كنت تستطيع أن تفهم.

ورغم أن جانيا لم يكن مهياً لأن يتخذ هيئة الانتصار فإنه لم يستطع أن يخفي شعوره بالظفر، ولا سيما بعد التنبؤات القاتلة التي قالها هيبوليت. وها هي ذي ابتسامة صادقة تعبر عن رضا الغرور تضيء وجهه. وكانت فاريا نفسها مشرقة المحيا من الفرح. قالت:

- ويحدث هذا في اليوم الذي يُعلنون فيه خطبتها عندهم! فحاول أن تعرف ما الذي تريده إن استطعت إلى ذلك سبيلاً!...

سألها جانيا:

- في رأيك، عم تريد أن تكلمني غداً؟

- ليس هذا بالأمر الهام. فإنما الأمر الهام أنها لأول مرة منذ ستة أشهر تعرب عن رغبة في أن تراك. اسمع يا جانيا: أياً كان الأمر، وكيفما تمت هذه المقابلة، فيجب عليك أن تتذكر أن هذا شيء «هام»، هام إلى أبعد الحدود. فلا ترتبك هذه المرة. لا تقترف خطيئة، ولكن لا تكن خجولاً أيضاً. افتح عينيك! هل يمكن أن لا تكون قد أدركت الهدف الذي سعيته أنا إليه بالتردد إليهم خلال هذه الأشهر الستة؟ تصور أنها لم تقل لي اليوم كلمة واحدة عن هذه المقابلة! لم تظهر شيئاً البتة! يجب أن أذكر لك إنني كنت قد دخلتُ خلسة. كانت العجوز لا تعلم بوجودي. ولولا ذلك لكان يمكن أن تطردني. من أجلك إنما جازفتُ. كنتُ أريد أن أعرف بأي ثمن...

تعالى الصياح والضجيج في الطابق الأعلى من جديد. وهؤلاء عدّة أشخاص يهبطون السلم.

هتفت فاريا تقول مرتاعة متقطعة الأنفاس:

- لا يجوز أن نسمح الآن بهذا مهما يكن من أمر. يجب أن لا تحدث أية فضيحة! امض إليه، وأطلب منه الصفح!

لكن رب الأسرة كان قد بلغ الشارع. وكان كوليا يسير وراءه حاملاً له الحقيبة. وكانت نينا ألكسندروفنا واقفة على درجات سلم الباب تبكي ناشجة منتحبة. إنها تودّ لو تركض وراء زوجها، لكن بتتسين ممسك بها يمنعها من ذلك، قائلاً لها:

- سوف تزيدين احتياجه. وليس له مكان يذهب إليه. فسنعديه بعد نصف ساعة. لقد تحدثتُ في ذلك مع كوليا. دعيه يفعل ما تشاء له نزواته المجنونة.

صرخ جانبا يقول له من النافذة:

- ما هذه الحذلقات؟ إلى أين عساك تذهب؟ إنك لا تدري حتى إلى أين تمضي!

وصاحت فاريا تقول:

- ارجع يا أبت! إن الجيران يسمعون!

توقف الجنرال، والتفت إلى وراء، وبسط يده وقال بتأثر:

- ألا فلتنصب لعنتي على هذا المنزل!

فجمجم جانبا قائلاً وهو يغلق النافذة بقرقعة:

- لا بدّ له أيضاً من أن يقول هذا الكلام بلهجة مسرحية!.

وكان الجيران يرقبون ويرصدون ما يجري فعلاً. وخرجت فاريا من الغرفة

مسرعة.

فلما انصرفت تناول جانبا الرسالة من على المائدة، وحملها إلى شفتيه، وتلمّظ، وهم

أن يثب عن الأرض كمن يرقص.

الفصل الثالث

كان يمكن أن لا يكون للفضيحة التي أثارها الجنرال أية نتيجة في وقت غير هذا الوقت. ولقد سبق أن كان بطل حوادث شاذة مفاجئة من هذا النوع، ولو في أحوال نادرة، ذلك أنه في الواقع إنسان مسالم مواعيد جداً، يغلب على ميوله أنها طيبة. ولعله حاول مائة مرة أن يكافح عادات التحلل التي اعتادها خلال السنين الأخيرة. كان يتذكر على حين فجأة أنه رب أسرة، يُصالح امرأته ويذرف دموعاً صادقة. إنه يحمل لزوجته نينا ألكسندروفنا احتراماً يبلغ حد العبادة، لأنها تغفر له أشياء كثيرة دون أن تقول كلمة واحدة، وتظل تحنو عليه رغم الانحلال التي سقطت فيه، ورغم ما صار إليه من حال تبعث على السخرية والضحك! غير أن ذلك الكفاح العظيم الذي كان يخوض غماره ضد اضطراب حياته وفوضى سلوكه كان لا يدوم مدة طويلة. إنه هو أيضاً، في نوعه، أشد اندفاعاً وأقوى عرامة من أن يستطيع احتمال حياة التوبة والفراغ التي يحياها في أسرته، فكان ما يلبث أن يتمرد. وكانت تنتابه في تلك الأحيان نوبات غضب حائق لعله يلوم نفسه عليها في نفس اللحظة، ولكنه لا يملك القوة اللازمة للتغلب عليها. كان في تلك الأحوال يسعى إلى مشاجرة ذويه، ويأخذ يفيض في الكلام والخطابة بحماسة تدعي البلاغة والفصاحة، يُطالب بأن يُحترم احتراماً يتجاوز الحدود ولا يمكن تخيله، ثم يختفي آخر الأمر، حتى ليبقى غائباً عن البيت في بعض الأحيان زمناً طويلاً. وقد أصبح منذ سنتين لا يملك إلا فكرة غامضة عما يجري في البيت، أو لا يطلع على ما يجري في البيت إلا عن طريق السماع لا العيان. لقد انقطع عن الدخول في هذه التفاصيل التي أصبح لا يوليها أي اهتمام.

ولكن الفضيحة اكتست في هذه المرة شكلاً غير معهود. كأن حادثاً قد وقع، فالجميع على علم به ولكن ما من واحد يجرؤ على أن يتكلم عنه. إن الجنرال لم يرجع إلى الأسرة «رسمياً» إلا منذ ثلاثة أيام، أعني لم يرجع إلى نينا ألكسندروفنا! ولكنه بدلاً من أن يُظهر المذلة والندامة كما كان يفعل في «رجعاته» السابقة، فقد ظهرت عليه في هذه المرة علامات احتياج شديد، وحنق سريع خارق. كان كثير الكلام مضطرباً، يتجه إلى كل قادم بخطب ملتهبة، حتى كان يهجم على محدثيه هجوماً، ولكنه يتحدث في مسائل تبلغ من التنوع ومن الغرابة التي لا يتوقعها المرء أنه كان

يستحيل على السامع أن يكتشف الموضوع الحقيقي الذي هو مدار قلقه ومحل اضطرابه. وإذا استثنينا لحظات من فرح ومرح كانت توافيه من حين إلى حين، فقد كان في أكثر الأوقات شارد اللب حتى ليجهل هو نفسه ما الذي يستغرق فكره. كان يأخذ مثلاً في سرد حكاية عن أسرة أيبانتشين، وعن الأمير، وعن ليبيديف، ثم إذا هو يقطع حديثه فجأة، ويتوقف عن الكلام توقفاً تاماً. ويردّ بابتسامة بلهاء طويلة على أولئك الذين يسألونه عن تنمة القصة، وكأنه لا يلاحظ أن أحداً يلقي عليه سؤالاً. لقد قضى الليلة الأخيرة في تنهد وأنين، وأرهق نينا ألكسندروفنا إرهاقاً شديداً، فكانت لا تني تسخّن له لصقاته؛ حتى إذا طلع الصباح غفا على حين فجأة، ولكن استيقاظه من النوم بعد أربع ساعات قد أعقبته تلك النوبة الشديدة المضطربة من الوسواس التي أدّت إلى تشاجره مع هيبوليت، وانتهت بصبيّه «اللعنة على ذلك المنزل».

وقد لوحظ أيضاً خلال تلك الأيام الثلاثة أنه هوى إلى حالة متصلة من الزهو والغرور تعبر عن نفسها بشدة التأذي وسرعة الاستياء. وقد أكد كوليا لأمه ملحاً أن هذا المزاج الحزين الذي يعاني منه أبوه إنما يرجع إلى حرمانه من الشراب، وربما كان يرجع أيضاً إلى غياب ليبيديف الذي كان الجنرال قد ارتبط به ارتباطاً حميماً في الآونة الأخيرة. فقد حدث بين الرجلين منذ ثلاثة أيام شقاق لم يكن متوقعاً، شقاق ألقى الجنرال إلى غضب شديد. حتى إن نوعاً من شجار وقع بينه وبين الأمير. وقد توسّل كوليا إلى الأمير أن يشرح له سبب ما وقع، فأدرك أخيراً أن الأمير يكتّم عنه أمراً من الأمور هو أيضاً. وفي وسعنا أن نفترض أن هذا صحيح، وأن حديثاً خاصاً قد جرى بين هيبوليت ونينا ألكسندروفنا. ولكن يبدو غريباً عندئذ أن يكون هذا الشخص الشرير الذي نعتّه جانياً صراحة بأنه نمام، لم يمنع نفسه بلذة إطلاع كوليا على الأمر. من الجائز جداً أن لا يكون هيبوليت ذلك الصبي السيئ الذي صوّره جانياً في حديثه إلى أخته، وأن يكون الشرّ الذي في نفسه شراً من نوع آخر. ومن جهة أخرى، إذا كان هيبوليت قد أطلع نينا ألكسندروفنا على شيء، فلعله لم يفعل ذلك منتوياً «تمزيق قلبها» فحسب. يجب أن لا ننسى أن دوافع أعمال الإنسان هي في العادة أشدّ تعقيداً وأكثر تنوعاً مما نتصوّر حين نريد تحليلها. إنه لمن النادر أن نستطيع الإحاطة بها إحاطة دقيقة. وأفضل ما يفعله القصّاص في بعض الأحيان أن يقتصر على عرض الأحداث وسرد الوقائع. وذلك ما سنفعله في إيضاحاتنا المقبلة عن النازلة التي ألّمت بالجنرال فقلبت حياته رأساً على عقب، لأننا نجد أنفسنا الآن مضطرين اضطراباً مطلقاً إلى أن نوّلي هذه الشخصية الثانوية من الاهتمام والمكان أكثر مما أوليناها في قصتنا هذه حتى الآن.

لقد تعاقبت الأحداث متسلسلة على النظام التالي:

إن ليبيديف، بعد جولته في بطرسبرج سعيًا وراء العثور على فردشتينكو، قد رجع إلى بافلوفسك مع الجنرال في ذلك اليوم نفسه. ولم يُطلع الأمير على أي شيء خاص. فلولا أن الأمير كان ذاهلاً هو أيضاً في ذلك الوقت، وكان غارقاً في مشاكل تهمته أكبر الاهتمام، للاحظ أن ليبيديف، فضلاً عن أنه لم يزوده بأي إيضاح خلال اليومين اللذين أعقبا عودته، كان يتحاشى أيضاً لقاءه. فلما لاحظ الأمير ذلك أخيراً، تذكر على دهشة منه، أنه رأى ليبيديف، خلال هذين اليومين، حين كان يلقيه عرضاً، رآه مُشرق المزاج منبسط الأسارير، وأنه في صحبة الجنرال دائماً. كان الصديقان لا يفترقان أبداً. وكان الأمير يسمع في بعض الأحيان أحاديث صاخبة حامية تدور فوق غرفته، ويسمع مناقشات مرحة تقطعها انفجارات ضحك. حتى إنه في ذات مرة، في ساعة متأخرة جداً من السهرة، وصلت إلى مسمعه أصداء أغنية غير متوقعة، من الأغاني التي يغنيها الجنود حين يشربون الخمر؛ فتعرّف صوت الجنرال الخفيض المبحوح، ولكن الأغنية انقطعت فجأة وأعقبها صمت. ثم قامت مناقشة حارة بلهجة مخمورة، واستمرت المناقشة حامية خلال قرابة ساعة. وكان لا يعجز السامع عن أن يحزر أن الصديقين اللذين يسمران فوق قد تعانقا بعد قليل، وأن أحدهما أخذ يبكي آخر الأمر. ثم لم تلبث أن نشبت مشاجرة عنيفة على حين فجأة، ثم هدأت المشاجرة بعد برهة وجيزة.

في أثناء تلك الآونة كلها، كان كوليا في حالة همّ شديد. وكان الأمير لا يكاد يملك في البيت لحظة أثناء النهار، وكان في بعض الأحيان لا يعود إلا في ساعة متأخرة جداً من الليل. فكان يُقال له عندئذ، إن كوليا ظل يسعى إليه ويسأل عنه طوال اليوم. ولكن الفتى كان إذا لقي الأمير لا يبدو عليه أن لديه شيئاً خاصاً يريد أن يفضي به إليه، اللهم إلا أن يقول له إنه «مستاء» من الجنرال ومن سلوكه الحالي أشد الاستياء، «فإنهما لا ينفكان يمشيان في الطريق، ويسكران في حانة قريبة، ويتعانقان في وسط الشارع، ويتشاثمان على مرأى ومسمع من الناس، ويهيج كل منهما صاحبه، ولا يستطيعان أن يفترقا». فلما قال له الأمير إن ذلك ليس إلا تكراراً لما كان يجري قبل ذلك كل يوم تقريباً، لم يعرف كوليا بماذا يُجيب، وعجز أخيراً عن تحديد موضوع قلقه الراهن.

وفي غداة الليلة التي سمع فيها الأغنية والمشاجرة، كان الأمير يتهيأ للخروج في نحو الساعة الحادية عشرة، فإذا بالجنرال يظهر أمامه بغتة، وهو في حالة انفعال شديد حتى ليكاد يرتجف ارتجافاً.

- إنني منذ مدة طويلة أترقب فرصة الحصول على شرف لقائك يا ليون

نيقولايفتش الميجل. نعم، منذ مدة طويلة، طويلة جداً، طويلة جداً...

بهذا جمجم الجنرال وهو يضغط على يد الأمير ضغطاً يوشك أن يكون موجعاً.
فدعاه الأمير أن يجلس.

- لا، لن أجلس، ثم إنني لا أريد أن أمنعك من الخروج... سأجيئ في مرة أخرى.
أظن إنني أستطيع أن أهئك... بتحقيق... أمنيات قلبك.

- أمنيات قلبي؟

اضطرب الأمير. لقد كان يبدو له، كما يحدث هذا لأكثر الذين يكونون في مثل حالته، أن أحداً لا يرى ولا يحزر ولا يفهم شيئاً.

قال الجنرال:

- اطمئن بالاً! لا أحب أن أضايقك في ألطف مشاعرك وأرهف عواطفك. لقد مررتُ أنا في مثل هذه الحالة، وأعرف أنه ما ينبغي لغريب أن يدسّ أنفه... إن صحّ التعبير.. على حد قول المثل... حيث لا يجب أن يدسّه! هذه حقيقة أعانيها كل صباح. وإنما أنا جئتُ إليك لشأن آخر، شأن هام، هام جداً يا أمير.

رجاه الأمير مرةً أخرى أن يجلس، وسبقه إلى الجلوس ليحمله على الاقتداء به.

قال الجنرال:

- لا بأس. لحظة قصيرة... لقد جئتُ أسألك نصيحة. لا شك في أن حياتي تنقصها أهداف عملية، ولكنني، احتراماً مني لِنفسي، وبوجه عام... اهتماماً مني بتلك الروح العملية التي حُرِّمَ منه الروسي حرماناً شديداً.. أود أن أهَيِّ لِنفسي، ولزوجتي، ولأولادي... وضعاً يمكننا... الخلاصة: جثتُ ألتمس منك نصحاً يا أمير...

فهنَّاهُ الأمير تهنئة حارة على هذه النية وهذا العزم.

وأسرع الجنرال يضيف قائلاً:

- غير أن هذا كله لا قيمة له. وإنما أنا جئتُ لأمر أخطر شأنًا. لقد قرَّرتُ أن أفتح لك قلبي يا ليون نيقولايفتش، كما أفتح قلبي لإنسان تبلغ ثقتي بصدقه وكرمه أن... أن... ألا تدهشك أقوالي يا أمير؟

لكن لم يكن الأمير مدهوشاً دهشة عظيمة، فلقد كان يلاحظ ضيفه مع ذلك بكثير من الانتباه والاستطلاع. كان الشيخ شاحبا بعض الشحوب، وكانت تلم بشفتيه رعشة

خفيفة في بعض اللحظات، وكانت يدها ترتجفان بغير انقطاع. لقد جلس منذ بضع دقائق، ولكنه نهض أثناء ذلك فجأة مرتين، ثم أسرع يجلس ثانية، دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ ما هو فيه من اضطراب. وكان على المائدة كتب، فتناول واحداً منها أثناء كلامه، وفتحه، وألقى نظرة عليه، ثم عاد يطويه فوراً ويرده إلى مكانه. ثم تناول كتاباً آخر لم يفتحه لكنه ظل قابضاً عليه بيده اليمنى طوال الوقت، يهزه بغير انقطاع.

وهتف فجأة يقول:

- حسبي هذا! أرى أنني أزعجتك كثيراً.

- لا، أبداً، لم تزعجني... أرجوك... أكمل كلامك! بالعكس: إنني أصغي إليك باهتمام، وأحاول أن أدرك...

- يا أمير، أريد أن يكون لي مركز يفرض الاحترام... أريد أن أحصل على احترام نفسي... وحقوقى...

- إن من يرغب هذه الرغبة فهو جدير بكل احترام منذ الآن.

نطق الأمير بهذه الجملة المستعارة الشائعة معتقداً اعتقاداً جازماً بأنها ستحدث في نفس الجنرال أثراً حسناً. كان، يحس، بغريزته، أن جملة من هذا النوع، جوفاء وسارة في آن واحد، تستطيع إذا هي قيلت في الوقت المناسب، أن تدخل الهدوء والطمأنينة إلى نفس إنسان مثل الجنرال، ولا سيما في الحالة التي هو عليها. ومهما يكن من أمر، فما كان يجوز استئذان زائر كهذا الزائر بالانصراف إلا بعد التخفيف عنه، ومواساته. تلك هي المسألة.

أعجب الجنرال بالجملة كثيراً، ووجد فيها مديحاً وعدّها مؤثرة؛ فرق قلبه، واهتزت عاطفته، وسرعان ما غير لهجته وانطلق يقدّم شروحاتاً طويلة مستفيضة تشتعل حماساً. لكن الأمير لم يفهم من كلامه شيئاً رغم ما بذل من جهود الإصغاء التام والانتباه الشديد. لقد تكلم الجنرال قرابة عشر دقائق، بتدفق سريع وتعجل عظيم، كما يفعل إنسان لا يتسع وقته لأن يعبر عن الخواطر التي تزدهم في رأسه ازدحاماً قوياً؛ حتى لقد أخذت تترقرق في عينيه دموع آخر الأمر. ولكن جميع العبارات التي نطق بها كانت لا رأس لها ولا ذنب، كانت أقوالاً عجيبة غير متوقعة، وخواطر متناثرة مفككة تتصادم وتتضارب في حديثه المضطرب المشوش.

وختم الجنرال كلامه فجأةً بقوله وهو ينهض:

- هذا يكفي! لقد فهمت عني فأنا الآن أشعر براحة وطمأنينة وهدوء. إن قلباً كقلبك لا يمكن إلا أن يفهم إنساناً يتألم. يا أمير، إنك تملك نبل المثل الأعلى. ما الآخرون إذا قيسوا بك؟ ولكنك شاب، فهأنا أهب لك بركتي. الخلاصة إنني جئتُ إليك ألتمس أن تحدد لي ساعة لحديث هام: فعلى هذا الحديث إنما أعقد الأمل وأعلق الرجاء. إنني لا أنشد إلا صداقة وقلباً يا أمير. أنا لم أستطع أن أسيطر على مطالب قلبي في يوم من الأيام.

قال الأمير يسأله:

- ولكن لماذا لا نجري الحديث الآن؟ إنني مستعد لأن أصغي إليك...

فقاطعه الجنرال بقوة وعنف:

- لا يا أمير، لا! لا الآن!! أنا الآن في حلم! إن القضية خطيرة الشأن جليلة القدر! إن الساعة التي سنجري فيها ذلك الحديث ستقرر مصيري. إن تلك الساعة ستكون لي «أنا»، ولا أحب في لحظة مقدسة كتلك اللحظة، أن نتعرض لأن يقطع علينا حديثنا أحد، لا أحب أن يقطع علينا حديثنا أول قادم وقح.

وهنا مال الجنرال على الأمير فهمس في أذنه يقول بلهجة السرّ وبما يشبه الرعب:

- وقح لا يساوي نعل... نعل قدمك... يا حبيبي الأمير! لست أقول قدمي أنا. لاحظ جيداً أن الأمر ليس أمر قدمي أنا، لأنني أشدّ احتراماً لنفسي من أن أتحدث عن قدمي أنا رأساً بغير موارد وبغير لف ودوران! ولكنك وحدك قادر على أن تفهم أنني إذ أمتنع في مثل هذه الحالة عن ذكر نعل قدمي ربما كنت أبرهن على عزة شديدة وكبرياء عظيمة. ما من أحد غيرك يستطيع أن يفهم هذا؛ و«هو»، «خاصة»، أعجز من غيره على فهم ذلك. «هو» لا يفهم شيئاً يا أمير. إنه عاجز عن الفهم عجزاً مطلقاً! لا بدّ للمرء من قلب حتى يمكن أن يفهم!

شعر الأمير أخيراً بضيق يشبه أن يكون خوفاً. فضرب للجنرال موعداً هو مثل هذه الساعة من الغد. وخرج الجنرال قوياً منتعشاً قد سرّي عنه وكاد يهدأ بالاً. وفي المساء، بين الساعة السادسة والساعة السابعة، أرسل الأمير يرجو لبديف أن يجيء إليه لحظة.

فهرع لبديف إلى الأمير مسرعاً أشدّ الإسراع، وقال وهو يدخل «إنه لشرف عظيم» له أن يلبي طلب الأمير وأن يمثل بين يديه. كان كمن أصبح لا يتذكر أنه اختبأ عن الأمير خلال ثلاثة أيام، وأنه تحاشى لقاءه عامداً.

جلس ليبيديف على حافة كرسي وهو يتكَلَّف التبسُّم، ويصطنع وجهه حركات تودِّد، وتفتعل عيناه المتفرَّستان تعبيراً عن الضحك، ويفرك يديه، ويظهر بمظهر إنسان ساذج كل السذاجة يتهياً لأن يسمع نبأ هاماً انتظره زمناً طويلاً، وأحس به جميع الناس منذ مدة.

انزعج الأمير من هذا الوضع الذي يتخذه ليبيديف. لقد أصبح واضحاً له أن جميع من حوله قد أخذوا يأملون منه شيئاً على حين فجأة، أصبحوا ينظرون إليه على نية أن يزجوا إليه التهنئة بحادث عليه تدور تلك التلميحات والابتسامات والغمزات. لقد مر به كيلر ثلاث مرات، هو أيضاً، مسرعاً متعجلاً، راغباً رغبة واضحة في أن يزجي إليه التهنئة، فكان في كل مرة يندفع مسترسلاً في كلام متحمس غامض ثم يقطع حديثه فجأة وينصرف قبل أن ينهيه. (لقد أصبح كيلر في الأيام الأخيرة يفرط في الشراب مزيداً من الإفراط، والناس يرونه في قاعة من قاعات البلياردو يحدث ضجيجاً ويثير جلبه شديدة). وكوليا نفسه، رغم حزنه، قد اندفع، مرتين أو ثلاث مرات، يلمح في حديثه مع الأمير على نحو ملغز.

اتجه الأمير إلى ليبيديف يسأله بلهجة قاطعة وبشيء من الحنق عن رأيه في الحالة التي آل إليها الجنرال، وفي مصدر القلق الذي يعاني منه الجنرال الآن. ووصف له بكلمات مقتضبة المشهد الذي جرى بينهما.

فأجاب ليبيديف يقول بلهجة جافة:

- لكل امرئ همومه يا أمير! ولا سيما في عصر عجيب معذب كهذا العصر الذي نعيش فيه. هذه هي المسألة!

قال ليبيديف ذلك ثم صمت كما يسكت رجل أسىء إليه وخاب ظنه في ما كان ينتظره خيبة قاسية.

قال الأمير مبتسماً:

- يا لها من فلسفة!...

- الفلسفة قد تكون لازمة، قد تكون لازمة جداً لعصرنا هذا من الناحية العملية، ولكن الناس يهملونها. هذا واقع! أما أنا، أيها الأمير المبجل، فقد أوليتني ثقتك في حالة تعرفها، ولكنك قصرت هذه الثقة على حد معين، وقصرتها على الوقائع الملحقة بهذه الحالة... إنني أفهم هذا ولا أشتكى منه البتة!

قال الأمير:

- لكأن هناك شيئاً قد أغضبك يا ليبيديف، هه؟

فهتف ليبيديف يقول بحماسة وهو يضع يده على قلبه:

- لا، أبداً، بالعكس: لقد أدركت فوراً أنني كنت لا أستحق أن تشرفني بثقتك السامية التي كنت أتطلع إليها، كنت لا أستحقها لا بحكم وضعي في المجتمع، ولا بحكم ذكائي وأخلاقي، ولا بحكم ثرائي، ولا بحكم ماضي، ولا بحكم معارفي. وإذا أمكنني أن أخدمك فإنما أنا أخدمك كما يخدم عبد أو منتفع، لا أكثر من ذلك. أنا لست زعلان، بل حزين.

- دعك من هذا يا لوكيان تيموفتتش!

- لا أكثر من ذلك! وهذا هو شأني الآن، في الحالة الراهنة. لقد كنت أقول لنفسي حين ألقاك، وحين أتبعك بقلبي وفكري: «أنا لا أستحق أن يفضى إليّ بما يفضي به صديق إلى صديقه، ولكنني، بصفتي صاحب الدار، قد أتلقى منه، في اللحظة المناسبة، في تاريخ محدد إن صحّ التعبير، أمراً من الأوامر، أو قد أتلقى منه على الأقل رأياً من الآراء بشأن بعض التبديلات الوشيكة المتوقعة..».

كان ليبيديف، وهو ينطق بهذه الكلمات، ما ينفك يحدّق بعينه الصغيرتين الثاقبتين، إلى الأمير الذي كان يتأمله مدهوشاً. لم يكن قد فقد أمله في إشباع فضوله.

هتف الأمير يقول بلهجة توشك أن تكون غضباً:

- لا أفهم شيئاً البتة... وإنك لأفزع من رأيت في حياتي من أصحاب الدسائس والمكائد..

قال الأمير هذه الجملة الأخيرة وهو ينفجر ضاحكاً ضحكاً صريحاً على حين فجأة.

فأسرع ليبيديف يشاركه الضحك. وكان واضحاً من نظراته المشرقة أن آماله قد قويت بل وازدادت. قال الأمير:

- هل تعلم ماذا سأقول لك يا لوكيان تيموفتتش؟ لا تزعل: إنني مدهوش من سذاجتك وسذاجة أشخاص آخرين أيضاً! إن ما تظهرونه من سذاجة في توقع أن أكشف لكم عن أمر من الأمور، في هذه اللحظة، في هذه الدقيقة، يبلغ من الشدة حداً يجعلني أشعر بحرج وخجل حين ألاحظ أن ليس هنالك شيء أبلغكم إياه فأرضيكم.

ومع ذلك أحلف لك أن ليس ثمة أي أمر أفضي به إليك. تستطيع أن تكون على ثقة بهذا.

وعاد الأمير يضحك.

واصطنع ليبيديف هيئة الجد والرصانة والوقار. صحيح أن فضوله يتصف أحياناً بفرط السذاجة وقلة التكتّم، ولكن هذا لا ينفي أنه كان رجلاً مأكراً يحسن اللفّ والدوران والتعرج، حتى إنه قادر في بعض الأحيان على أن يلتزم صمتاً يبلغ غاية المكر. وقد حمله الأمير بردوده الفظة المستمرة على أن يعتبره أشبه بعدو. ولكن لئن كان الأمير يخاشنه، فإنه لم يكن يفعل ذلك احتقاراً له، بل لأن فضول ليبيديف ينصب على موضوع حرج دقيق. لقد كان الأمير، قبل بضعة أيام، ينظر إلى بعض أحلامه نظرتة إلى جريمة، بينما كان لوكيان تيموفتتش لا يرى في رفضه الكلام إلا دليلاً على كرهه له وشك فيه، فكان ينصرف مقروح القلب حاقداً، وكان يحسد كوليا وكيلر بل ويحسد أيضاً ابنته نفسها، فيرا لوكيانوفنا. ولعله كان في هذه اللحظة نفسها يرغب رغبة صادقة في أن ينقل إلى الأمير نبأً لعله يحظى من الأمير بأكبر الاهتمام، لكنه انطوى على نفسه ولزم صمتاً كاملاً واحتفظ بأسراره لنفسه.

قال ليبيديف أخيراً بعد صمت:

- في أي شيء يمكن أن أخدمك أيها الأمير المعظم، ما دمتك أنت الذي... استدعيتني؟

ظل الأمير شارد الذهن برهة من الزمن هو أيضاً. ثم قال:

- كنت أريد أن أتكلم عن الجنرال، وعن... تلك السرقة التي كلمتني عنها...

- أية سرقة؟

- عجيب أمرك. لكأنك أصبحت الآن لا تفهم! حقاً إنك لإنسان غريب يا لوكيان تيموفتتش! ما هذا التمثيل الذي تعمد إليه وتحرص عليه دائماً؟ إنني أقصد المال... المال... الأربعمئة روبل التي فقدتها منذ أيام مع المحفظة، وجئت تحدثني عنها هنا في الصباح، قبل أن تذهب إلى بطرسبرج. هل فهمت ما أردته أخيراً؟

فقال ليبيديف عندئذ بصوت بطيء كأنه لم يدرك ما يُسأل عنه إلا في هذه اللحظة:

- آ... تقصد تلك الأربعمئة روبل! أشكرك، يا أمير، على اهتمامك الصادق هذا بي. إن هذا الاهتمام ليسعدني ويشرفني، ولكنني... وجدتُ المبلغ منذ مدة طويلة!

- وجدته؟ ... الحمد لله!

- إن حمدك هذا يصدر عن قلب نبيل، لأن الأربعمئة روبل ليست أمراً هيناً بالنسبة إلى إنسان شقي لقي عناء كبيراً في جني رزقه ورزق أيتامه...

قال الأمير مصححاً:

- ما عن هذا أكلمك! يسرني طبعاً أن تكون قد وجدت مالك، ولكن... ولكن كيف وجدته؟

- على أيسر نحو: وجدته تحت الكرسي الذي كان ردنجوتي معلقاً عليه. فلا شك أن المحافظة انزلت من جيب الردنجوت وسقطت هنالك.

- تحت الكرسي؟ مستحيل.. لقد قلت لي إنك بحثت عن المحافظة في كل مكان. فكيف لم ترها في الموضع الذي هو أبرز موضع يمكن أن تسقط فيه؟

- لقد نظرتُ في ذلك الموضع فعلاً. أتذكر أنني أمعنتُ النظر. جثوت حتى صرتُ أمشي على أربع، ثم لم أتكلم على عيني وحدهما بل أزحتُ الكرسي وتلمست المكان بيدي. فلم أجد إلا فراغاً كراحة يدي، وظللتُ مع ذلك ألتتمس. إن هذه الترددات تستولي دائماً على فكر من يبحث عن شيء ويصرُّ أن يعثر عليه... حين يكون الشيء المفقود هاماً أو حين يكون فقدته مدعاة حزن له: فهو يرى أن ليست ثمة شيء في المكان الذي يبحث فيه عن الشيء، ومع ذلك ينظر في المكان نفسه خمس عشرة مرة.

دمدم الأمير يقول متحيراً:

- طيب... ولكن كيف أمكن أن يحدث هذا؟... لقد قلت في البداية إن المال لم يكن هناك، ثم إذا أنت تجده هناك في ذلك المكان نفسه فجأة! فكيف يمكن هذا؟

- نعم، وجدته هناك فجأة!

حدّق الأمير إلى ليبيديف بنظرة غريبة، ثم سأله على حين بغتة:

- والجنرال؟

فأجاب ليبيديف وهو يصطنع من جديد هيئة من لا يفهم:

- الجنرال؟

- غريب أمرك. إنني أسألك ماذا قال الجنرال حين عثرت على محفظتك تحت

الكرسي؟ ألم تقوما بالبحث في أول الأمر معاً؟

- نعم، في أول الأمر. ولكنني في هذه المرة لم أقل له شيئاً، أعترف لك بذلك. آثرتُ أن يبقى جاهلاً بأنني عثرتُ على محفظتي وحدي.

- ولكن... لم هذا؟.. وهل كان المال تاماً لم ينقص منه شيء؟

- عددتُ ما كان في المحفظة فلم أفتقد شيئاً. لم ينقص من المال روبلاً واحداً.

قال الأمير شارد الذهن:

- كان في وسعك أن تخبرني بهذا على الأقل.

- خشيتُ أن أزعجك يا أمير، فإن لك من مشاغلِك الشخصية وهمومك الخاصة ما قد يكون خارقاً إذا جاز لي أن أقول هذا. ثم لقد تظاهرتُ أنا نفسي بأنني لم أعثر على شيء؛ فبعد أن فتحتُ المحفظة وعددتُ المال الذي كان فيها فتحقتُ من تمامه طويتها ثانية وأرجعتها إلى مكانها تحت الكرسي.

- لماذا؟

قال ليبيديف وهو يضحك ضحكاً ساخراً على حين فجأة ويفرك يديه سروراً:

- هي فكرة ساورتني. كان يشوقني أن أرى ما قد يحدث بعد ذلك.

- فهل المحفظة ما تزال تحت الكرسي منذ يومين؟

- لا. لم تبق تحت الكرسي إلا أربعاً وعشرين ساعة. كانت رغبتني هي أن يعثر عليها الجنرال هو أيضاً. قلتُ لنفسي: ما دمتُ قد وجدتها، فلا يمكن إلا أن يلاحظ الجنرال، هو أيضاً، شيئاً ظاهراً للعيان إلى هذا الحد، شيئاً يشب إلى البصر من تحت الكرسي وثباً إن صحّ التعبير. وقد نقلتُ الكرسي وغيّرتُ موضعه مراراً بحيث يصبح المرء مضطراً إلى رؤية المحفظة اضطراراً، ومكرهاً على الانتباه إليها إكراهاً، ولكن الجنرال لم يبصر شيئاً. دام ذلك أربعاً وعشرين ساعة. إنه كان في هذه الآونة ذاهل شديد الذهول. أمر لا يمكن فهمه: إنه يتكلم، ويروي قصصاً، ويضحك، ويقهقه قهقهة شديدة في بعض الأحيان، ثم إذا هو ينتابه غضب عنيف مني على حين فجأة، لا أدري لماذا! خرجنا أخيراً من الغرفة، ولكنني تعمّدتُ أن أترك الباب مفتوحاً. فرأيتُ الجنرال يتردد لحظة وكأنه يريد أن يقول لي شيئاً. فأغلب الظن أنه قد روعه أن تترك هنالك محفظة فيها مبلغ ضخم كذلك المبلغ. ولكنه بدلاً من أن يشير إلى هذا، غضب على حين فجأة، واحمر

وجهه احمراراً شديداً. فما إن صرنا في الشارع وقطعنا بضع خطوات حتى تركني ومضى في اتجاه آخر. ثم لم نلتق بعد ذلك إلا مساء في الحانة.

- ولكن هل سحبت المحفظة من تحت الكرسي أخيراً؟

- لا، أبداً. وإنما هي اختفت من ذلك المكان في الليل.

- وأين هي الآن؟

- هي ذي... لقد وجدتها هنا فجأة، في حافة رندجوتي، أنظر... جسّها إذا أردت أن تتأكد من الأمر بنفسك.

بهذا هتف ليبيديف فجأة وهو ينهض قائماً وينظر إلى الأمير متودداً.

كانت الحافة اليسرى من الرندجوت منتفخة من الأمام انتفاخاً يلفت النظر حقاً. فإذا جسّ المرء ذلك الموضع أدرك فوراً وجود محفظة من الجلد انزلقت تحت البطانة من ثقب في الجيب.

قال ليبيديف:

- لقد أخرجتها لأدقق النظر فيها، فرأيتُ المال كاملاً لم ينقص منه شيء، فعدتُ أدسّها في موضعها نفسه؛ وهكذا تراني أحملها منذ صباح أمس. حتى إنها تلطم ساقي.

- وتتظاهر بأنك لم تلاحظ ذلك؟

- أنا لا ألاحظ شيئاً، هيّ هيّ! واعلم، أيها الأمير المبجل، اعلم... رغم أن هذا الموضوع لا يستحق أن يلفت انتباهك، اعلم أن جيوبي تكون في حالة حسنة دائماً. فما هي إلا ليلة واحدة حتى كانت إحداها مثقوبة! لقد أنعمتُ النظر في الثقب متعمداً، فرأيت أنه يشبه أن يكون خرقاً أحدث بسكين. أمر لا يصدق العقل، أليس كذلك؟

- ... الجنرال؟

- ظل غاضباً طول النهار، أمس واليوم. إن استيائه رهيب. على أن نشوة الخمرة تجعله شديد المراعاة والمجاملة أحياناً، ثم إذا هو يصبح رقيق العاطفة حتى لتسيل دموعه على خديه، ثم إذا هو يثور على حين فجأة ثورة عارمة تبث الرعب في قلبي، والحق يقال!... ذلك أنني، يا أمير، لست رجل قتال وحرب. أمس، بينما كنا معاً في الحانة، وقعت حافة رندجوتي تحت نظره بما يشبه المصادفة، وكانت ترسم حذبة ظاهرة كل الظهور، فرمقها الجنرال بطرف عينه، واجتاحه الغضب. لقد أصبح منذ مدة

طويلة لا ينظر إليّ وجهاً لوجه، إلا حين يكون في نشوة سكر أو يقظة عاطفة. ولكنه نظر إليّ أمس مرتين فكان في عينيه من الشرر ما أجرى في ظهري رعدة. على كل حال، أنا أنوي أن أعثر على المحفظة غداً، ولكنني إلى أن أفعل ذلك أحب أن أتسلى به ليلة أخرى.

صاح الأمير يقول متعجباً:

— لماذا تعذبه هذا التعذيب؟

فأجاب ليبيديف يقول بحرارة:

— أنا أعذبه يا أمير؟ لا! إنني أحبه حباً صادقاً مخلصاً، و... أحترمه. لك أن تصدّق أو لا تصدّق: لقد أصبح الآن أغلى في قلبي وأعز في نفسي مما كان. أصبحت أكنّ له مزيداً من الاعتبار.

قال ليبيديف هذه الكلمات وهو يصطنع هيئة فيها من فرط الجد والإخلاص ما أثار استياء الأمير. فقال يسأل ليبيديف:

— أتحبه ثم تعذبه هذا التعذيب؟ اسمع: إنه منذ أعاد المحفظة المفقودة إلى مكان بارز: تحت الكرسي أولاً وفي حافة ردنجوتك ثانياً، قد برهن على أنه لا يريد أن يمكر معك، وبرهن على أنه يسألك الصفح والعفو. هل سمعت؟ إنه يطلب منك أن تصفح عنه! معنى هذا أنه يعتمد على رهاقة عواطفك، وأنه يثق بصداقتك له. فكيف تجيز لنفسك بعد هذا أن تذلل إنساناً... شريفاً إلى هذا الحد؟

قال ليبيديف وقد التمتعت عيناه:

— أيها الأمير الشريف، أيها الأمير الشريف جداً. أنت وحدك أيها الأمير النبيل، استطعت أن تقول كلاماً صادقاً هذا الصدق كله، عادلاً هذا العدل كله، لذلك تراني مخلصاً لك متفانياً في سبيلك إلى حد العبادة، رغم كل عفونة الرذائل التي تعشش في نفسي! لقد اتخذت قراري. سوف أكشف المحفظة الآن، في هذه اللحظة نفسها، لا أنتظر الغد. أنظر: هأنذا أخرجها أمام بصرك. هي ذي. هذا هو المبلغ كاملاً، خذه أيها الأمير النبيل واحتفظ به إلى غد. سوف أسترده منك غداً أو بعد غد. ولكن هل تعلم يا أمير أن هذا المال لا بدّ أن يكون قد قضى الليلة الأولى في مكان ما تحت شجرة بحديقتنا الصغيرة؟ ما رأيك في هذا؟

— لا تقل له دفعة واحدة أنك عثرت على المحفظة. دعه يلاحظ أن حافة ردنجوتك

قد خلت من المحفظة، فيفهم بنفسه.

- هل هذه فكرة حسنة؟ أليس الأفضل أن أبلغه أنني وجدت المحفظة، متظاهراً بأنني قبل ذلك لم يخطر ببالي شيء؟

أجاب الأمير واجماً مفكراً:

- لا أظن ذلك. لا. فات الأوان. هذا أشد خطراً. حقاً إن الأفضل أن لا تقول شيئاً! كن رقيقاً لطيفاً في معاملته، ولكن... يجب أن لا يظهر عليك أنك... تمثل دوراً محفوظاً... و..... أنت تعلم...

- أعلم يا أمير، أعلم. أقصد... أعلم أنني لن أفعل شيئاً من ذلك، إذ لا بد أن يكون للمرء قلب كقلبك حتى يتصرف هذا التصرف. ثم إنه قد أصبح هو نفسه سريع الاحتياج سيئ الطبع. هو الآن يشغلني في بعض الأحيان من رأسي إلى قدمي، تارة ينتحب ويقبلني، وتارة يأخذ يدي ويهينني ويعاملني باحتقار على حين فجأة. ففي لحظة من تلك اللحظات سأبرز له حافة رندجوتي عامداً ليراها... هي هي!.. إلى اللقاء يا أمير... أظن أنني حبستك عن الخروج، وأني أعكر عليك أهم عواطفك، إذا جاز لي أن أقول...

- ولكن احفظ السر، ناشدتك الله، كما فعلت من قبل.

- بخطي لا وقع لها، بخطي كخطي الذئب!...

رغم أن الأمر انتهى، فقد بقي الأمير مهموماً ربما أكثر مما كان مهموماً من قبل. إنه ينتظر، نافذ الصبر، اللقاء الذي يجب أن يتم غداً بينه وبين الجنرال.

الفصل الرابع

كان موعد اللقاء بين الساعة الحادية عشرة والساعة الثانية عشرة. ولكن الأمير أخره عنه ظرف طارئ لم يكن في الحسبان. فلما وصل إلى البيت كان الجنرال ينتظره. وقد لاحظ من النظرة الأولى أن الجنرال كان مستاء، ولعله كان مستاء من هذا الانتظار نفسه.

اعتذر الأمير عن التأخر وأسرع يجلس، لكنه كان يشعر بوجل غريب فكأن الزائر خفف يخشى عليه الأمير أن ينكسر في كل لحظة. إنه لم يشعر قبل ذلك في يوم من الأيام بوجل كهذا الوجل إزاء الجنرال، بل ولا كان يمكن أن تخطر بباله فكرة كهذه الفكرة. ولم يلبث أن لاحظ أن أمامه الآن رجلاً يختلف كل الاختلاف عن رجل الأمس: فالخجل والذهول قد حلت محلهما الآن لدى الجنرال رصانة خارقة، فكأنه قد اتخذ قراراً قاطعاً لا سبيل عن الرجوع عنه. ورغم أن هدوء الأعصاب هذا كان ظاهرياً أكثر مما كان واقعياً، فإن ذلك لا ينفي أن وضع الجنرال كان فيه نبل وحرية وانطلاق، على شيء من الشعور بكرامة مكبوتة ووقار مكظوم؛ حتى لقد بدأ يكلم الأمير بلهجة فيها شيء من التنازل والتواضع كاللهجة التي يصطنعها أولئك الذين يخالط انطلاقيهم الحر شعور بإساءة ألحقت بهم ظلماً. وكان يتحدث بنبرة لطيفة ودود، على شيء من الممرارة في صوته.

قال بوقار وهو يومئ بيده إلى المائدة:

– إليك المجلة التي أخذتها منك في ذلك اليوم. شكراً.

– آ... نعم.. هل قرأت تلك المقالة يا جنرال؟ كيف وجدتها؟ ما رأيك فيها؟ شيقة

هه؟

كذلك قال الأمير مسرعاً إلى انتهاز هذه الفرصة للتحدث في موضوع كهذا الموضوع لا يثير النفس، ولا يهز العاطفة.

فأجاب الجنرال بقوله:

– قد تكون المقالة شيقة، لكنها كُتبت كتابة رديئة، وهي باطلة حتماً، حتى ليتمكن

أن يقال إنها محشوة بالأكاذيب.

كان الجنرال يتكلم بلهجة فيها سلطة، وفيها شيء من بطء مقصود.

قال الأمير:

- نعم، هي قصة ساذجة جداً: إن كاتبها جندي قديم شهد احتلال الفرنسيين لموسكو وإقامتهم بها، فروى أموراً شائعة. ثم إن مذكرات شهود العيان ثمينة دائماً، مهما تكن شخصية الكاتب. أليس كذلك؟

- لو كنتُ في مكان رئيس التحرير، لما نشرتُ هذا الكلام. أما عن مذكرات العيان بوجه عام فإن الناس أميل إلى تصديق كاذب متبجح لكنه مشوق مسلٍ منهم إلى تصديق رجل له قيمته ومزاياه. إنني أعرف مذكرات عن عام 1812 هي... يا أمير، لقد عذمت أمري واتخذت قراراً: إنني مغادر هذا المنزل، منزل السيد ليبديف.

قال الجنرال ذلك، وألقى على الأمير نظرة مهيبة.

فانبرى الأمير يقول على غير هدى وهو لا يعرف بماذا يجيب:

- إن لك مسكنك في بافلوفسك عند... عند ابنتك.

وتذكر في تلك اللحظة أن الجنرال إنما جاء ليستشيريه في أمر يتوقف عليه مصيره.

قال الجنرال:

- بل عند زوجتي، أي في بيتي وبيت ابنتي.

- معذرة: إنني...

- إنني مغادر منزل ليبديف يا عزيزي الأمير، لأنني قطعتُ علاقتي بهذا الرجل. قطعتها في مساء أمس، أسفاً على أنني لم أفعل ذلك قبل هذا الوقت. إنني أطلب الاحترام يا أمير، وأرغب في الاحترام حتى من الأشخاص الذين أهب لهم قلبي إن صحَّ التعبير. يا أمير، إنني كثيراً ما أهب قلبي، فأخذع في جميع الأحيان تقريباً. إن هذا الرجل لم يكن جديراً بصداقتي.

فقال الأمير بتحفظ:

- إنه يتصف بشيء من الفوضى فعلاً، وإن له كذلك بعض الخصال التي... ولكن له

قلباً رقيقاً، كما أن له فكراً ماكراً، وهو خفيف الظل أحياناً.

إن هذه التعابير المنتقاة المختارة التي استعملها الأمير، وتلك اللهجة التي تدل منه على تقدير وتوقير، قد أرضت غرور الجنرال، رغم أن ومضات من ريب ما تزال تلتمع في عينيه. ولكن نبرة الأمير كان فيها من الانطلاق الطبيعي الواضح ما لم يبق معه مجال لشك.

قال الجنرال مستأنفاً كلامه:

– أما أن له مزايه أيضاً، فلقد كنتُ أول من اعترف بذلك حين أوشكتُ أن أهب صداقتي لهذا الإنسان. ذلك أنني في غير حاجة لا إلى بيته ولا إلى ضيافته، لأن لي أسرتي أنا أيضاً. لست أحاول أن أبرى نفسي من عيوبي. أنا امرؤ مضطرب لا يعرف الاعتدال. ولقد شربت معه خمراً، فيا ليتني لم أرتكب ذلك الخطأ! ولكن الخمرة لم تكن الشيء الوحيد الذي ربطني به وشدني إليه (اغفر فجاجة اللغة عند إنسان مقروح القلب يا أمير!) وإنما أغرتني به تلك المزايه نفسها التي أشرت إليها. غير أن لكل شيء حداً، حتى المزايه. فحين تبلغ به الجرأة حد الادعاء فجأة بأنه سنة 1812، أيام طفولته، قد فقد ساقه اليسرى ودفنها في مقبرة فاجانكوفو^[27] بموسكو، فإن كلامه هذا يتجاوز الحدود، ويدل على استهتار، ويبرهن على وقاحة.

– لعل ذلك لم يكن منه إلا مزاحاً أو حكاية يهدف منها إلى الإضحاك!

– أنا أفهم هذا. إن حكاية بريئة يخترعها صاحبها للإضحاك، حتى ولو كانت فظة غليظة، لا تجرح قلب الإنسان. حتى لقد يرى المرء أناساً يكذبون عن شعور بالصدقة إن صحّ التعبير، وذلك ليُسروا محدثيهم. ولكن إذا اشتهل ذلك على قلة احترام، وإذا كان المقصود من قلة الاحترام هذه أن يقال لك بالتلميح إن صداقتك أصبحت ثقيلة على الصدر، فليس يبقى لرجل نبيل في مثل هذه الحالة إلا أن يشيح بوجهه، وأن يقطع جميع العلاقات، وأن يرد الشخص الذي صدرت منه الإساءة المهينة إلى مكانه يوقفه عند حدوده.

وكان الجنرال قد احمرّ وهو يتكلم، فقال الأمير:

– ثم إن ليبيديف لا يمكن أن يكون قد وُجد بموسكو سنة 1812، فهو أصغر سناً من أن يكون ذلك صحيحاً. دعوى مضحكة!

– ذلك من جهة أولى. ولكن هب أنه كان في ذلك الزمان قد وُلد منذ مدة. فكيف

يستطيع أن يزعم لك جهاراً أن جندياً فرنسياً من جنود المدفعية قد صوّب إليه مدفعه، فقطع بقنبلة إحدى ساقيه ليتسلى بذلك؛ فما كان منه إلا أن التقط ساقه المقطوعة فنقلها إلى بيته ثم دفنها في مقبرة فاجانكوفو. وهو يقول فوق ذلك إنه بنى لها ضريحاً كتب على أحد جانبيه ما يلي: «هنا ترقد ساق الموظف لبيديف»، وكتب على الجانب الآخر: «استرح أيها الرفات الغالي إلى أن يطلع الصباح المشرق الوضاء»؛ ويقول أخيراً إنه يقيم قداساً على روح ساقه (وهذا وحده تجديد)، ويسافر إلى موسكو لهذه الغاية كل عام. وهو يدعوني، تأييداً لكلامه ودعماً لدعواه، أن أصحبه إلى موسكو ليريني الضريح، وليريني، في الكرملين، ذلك المدفع الفرنسي نفسه الذي أخذ من العدو، مؤكداً أنه المدفع الحادي عشر بعد الباب، وأنه مدفع صغير من طراز عريق.

قال الأمير وهو ينفجر ضاحكاً:

- وما يزال مع ذلك بساقين واضحتين. أؤكد لك أنها مزاحة بريئة، فلا تغضب منها...

- ولكن اسمح لي أن يكون لي أنا أيضاً رأي: فلأن يظهر أن له ساقين اثنتين فهذا لا يقطع بأن قصته لا يمكن أن تطابق الواقع. فهو يؤكد أن له ساقاً صناعية من عند تشرنوسفيتوف.

- صحيح: يظهر أن في إمكان المرء أن يرقص بساق من عند تشرنوسفيتوف.

- أعرف هذا، لأن تشرنوسفيتوف حين اخترع ساقه الصناعية قد هرع يرينيها على الفور. ولكن هذا الاختراع أحدث كثيراً من ذلك التاريخ... ثم إن لبيديف يؤكد أن زوجته المرحومة لم تعرف في يوم من الأيام، أثناء زواجها، أن له ساقاً من خشب. وقد أوضحت له جميع ما تشتمل عليه قصته هذه من وجوه الاستحالة والسخف. فأجابني بقوله: «إذا ادعيت أنك كنت وصيف نابليون سنة 1812، فاسمح لي أنا أيضاً بأن أكون قد دفنت ساق في مقبرة فاجانكوفو».

قال الأمير وقد وقف متحيراً:

- كيف؟ هل أنت...

فظهر الاضطراب على الجنرال أيضاً، لكنه سرعان ما سيطر على نفسه، ونظر إلى الأمير بتعالي يخالطه شيء من سخر، وقال له بصوت قاطع:

- أكمل فكرتك يا أمير، أكملها، إنني متسامح. قل كل شيء: إنه ليببدو لك أمراً

مضحكاً أن ترى أمامك إنساناً سقط إلى هذا الحضيض من الذل و... العقم، وأن تعلم أن هذا الإنسان كان هو نفسه شاهد أحداث كبرى. ألم يعتمد «هو» إلى الوشاية بي والنميمة عليّ لديك حتى الآن؟

- لا، لم يقل لي ليديف شيئاً، إذا كان ليديف هو من تقصد...

- هم.. كنتُ أظن غير هذا. والحق أن حديثنا قد بدأ بالكلام على تلك... المقالة الغريبة التي ظهرت في مجلة «الأرشيف»^[28]. لقد أشرت أنا إلى بطلان تلك المقالة، لأنني شهدتُ بنفسني الأحداث التي ترويها. أرى أنك تبتسم وتتفرّس في يا أمير، هه؟

- لا، أبداً... إنني...

تابع الجنرال حديثه بلهجة بطيئة جداً:

- إنني أبدو صغير السن، ولكنني أكبر سنّاً مما أبدو. في سنة 1812 كنت في العاشرة أو الحادية عشر من عمري. أنا لا أعرف سني على وجه الدقة. لقد صغروه في سجل الخدمة، وارتضيتُ أنا لنفسني، عن ضعف مني، أن أنقص منه سنوات.

- أوكد لك يا جنرال أنني لا أرى أية غرابة في أن تكون قد وُجدت بموسكو سنة 1812، و... طبيعي أن تكون لك ذكريات تستطيع أن ترويها... كسائر أولئك الذين وجدوا في ذلك العهد. إن أحد الذين سجلوا ذكريات حياتهم قد افتتح كتابه بذكر أنه كان سنة 1812 طفلاً رضيعاً وأن الجنود الفرنسيين أطعموه خبزاً بموسكو.

قال الجنرال متنازلاً متسامحاً:

- هأنت ذا ترى يا أمير أن قضتي، وإن لم تكن استثناء، فهي تخرج عن نطاق المؤلف مع ذلك. إنه ليحدث كثيراً أن تبدو الحقيقة بعيدة عن الواقع صعبة التصديق. وصيف الإمبراطور. ذلك يلوح غريباً كل الغرابة طبعاً. غير أن حادثاً خارقاً يقع لطفل في العاشرة من عمره ربما كان يفسره أنه إنما كان طفلاً. ما كان لهذا الحادث أن يقع لي في الخامسة عشرة من عمري؛ وذلك لسبب بسيط هو أنني في الخامسة عشرة من عمري ما كان لي أن أهرب من منزلنا الخشبي في شارع «باسمانيا القديمة»، يوم دخول نابليون إلى موسكو. ما كان لي أن أتمرد على سلطة أُمي التي فاجأها دخول الفرنسيين فكانت ترتعد خوفاً. فلو كنتُ في الخامسة عشرة من عمري لشاركتها رعبها. أما في العاشرة فقد كنتُ لا أخشى شيئاً، فتسللتُ بين الجمهور حتى بلغتُ درجات مدخل القصر، لحظة كان نابليون ينزل عن حصانه.

قال الأمير يؤيد كلامه خجلاً:

- فعلاً، لقد أصبت حين لاحظت أن سن العاشرة هي السن التي يكون فيها المرء أشد ما يكون جرأة وتهوراً...

وكان يعذب الأمير أن يتصور أنه سيحمر وجهه. قال الجنرال:

- طبعاً... ولقد جرى كل شيء على نحو بسيط طبيعي لا يوجد مثله إلا في الحياة الواقعية. فلو كتب هذه القصة روائي لخرجت من بين يديه ترهات باطلة وأموراً لا يصدق العقل أنها يمكن أن تطابق الواقع.

هتف الأمير يقول:

- حقاً! لقد خطفت هذه الفكرة انتباهي أنا أيضاً، ومنذ مدة قصيرة. إنني أعرف قضية واقعية عن جريمة قتل كان الدافع إليها سرقة ساعة. وقد تحدثت الجرائد عن هذه الجريمة منذ وقعت. فلو أن روائياً تخيل هذه الجريمة، لانبهرى الناس الذين يعرفون حياة الشعب يصيحون قائلين مع النقاد: هذا لا يمكن أن يكون واقعاً. ولكنك حين تقرأ حكاية هذا الحادث في الجرائد تحس أنه واحد من تلك الحوادث التي تعلمك حقائق الحياة الروسية.

وختم الأمير كلامه قائلاً بحرارة وقد سرّه إنه لم يظهر عليه احمرار الوجه:

- إنك قد أجدت ملاحظة هذه الظاهرة يا جنرال!

فهتف الجنرال يقول وقد سطعت عيناه سروراً:

- أليس كذلك؟ هذا طفل، هذا صبي لا يشعر بالخطر، يتسلل خلال الجمهور ليرى بهاء الكوكب وسناء البزات العسكرية وليرى الرجل العظيم الذي طالما سمع الناس يتحدثون عنه؛ ذلك أن العالم كان قد أصبح منذ عدة سنين لا يتكلم إلا عن نابليون. لقد مأل اسم الدنيا وشغل الناس، حتى ليتمكنني أن أقول إنني رضعت اسمه مع حليب أمي. ويمرّ نابليون على بعد خطوتين مني، فإذا ببصره يقع عليّ مصادفة. كنت أرتدي ثياب طفل من أبناء النبلاء. كان أهلي يكسونني بأجمل الملابس. وكنت بين ذلك الحشد الكبير، الشخص الوحيد الذي يرتدي ثياباً من هذا المستوى، فتصور أنت نفسك ما عسى يكون أثر ذلك في نفسه...

- لا شك أن ذلك خطف بصره وبرهن له على أن الناس لم ينفضوا جميعاً، حتى إن أفراداً من النبلاء قد لبثوا في موسكو مع أولادهم.

- تماماً! كانت هذه هي فكرته: أن يجتذب إليه النبلاء! فحين حدّق إليّ بنظرته التي تشبه نظرة النسر، فلا بد أنه رأى جواباً يسطع في عيني. قال: «هذا صبي يقظ. من أبوك؟» (بالفرنسية) فأجبتته فوراً بصوت يكاد يخنقه الانفعال: «جنرال قضى في ساحة الشرف مدافعاً عن وطنه». قال: «ابن نبيل، نبيل وشجاع فوق ذلك! أحب النبلاء! هل تحبني يا صغير؟» (بالفرنسية). كان السؤال سريعاً، ولكن جوابي لم يكن أقل سرعة، فإنني لم ألبث أن قلت له: «إن قلب الروسي يقدر أن يعرف الرجل العظيم ولو كان عدو وطنه!». الحق أنني لا أتذكر هل كان جوابي بهذه الكلمات حرفاً حرفاً... لقد كنت طفلاً.. ولكن لا شك أن هذا كان هو المعنى الذي عبرت عنه أقوالي.

«أخذ نابليون. وفكّر لحظة ثم قال لرجال حاشيته: «أحب كبرياء هذا الفتى! ولكن إذا كان تفكير جميع الروس هو هذا التفكير، فإن...». ولم يكمل جملته ودخل القصر. وأسرعت أختلط بحاشيته وأركض وراءه. فكان رجال الموكب يفسحون لي طريقاً منذ ذلك الوقت، لأنهم أصبحوا يعدونني أثيراً عنده، محبباً إلى قلبه. حدث هذا كله في طرفة عين... ولكنني أتذكر أن الإمبراطور، حين بلغ القاعة الأولى، توقف فجأة أمام صورة الإمبراطورة كاترين، فتأملها ملياً شارد الذهن حالم الهيئة، وهتف يقول أخيراً: «كانت امرأة عظيمة!». ثم مضى في طريقه.

«ما انقضى يومان إلا كان كل من في القصر وفي الكرملن يعرفونني. وكانوا يلقبونني «النبيل الصغير» (بالفرنسية). وكنت لا أرجع إلى البيت إلا لقضاء الليل. وكاد أهلي أن يجنوا من ذلك. وغداة غدٍ مات وصيف نابليون، البارون بازانكور، مرهقا من المشاق التي عاناها أثناء الحملة. فتذكرني نابليون، فجاءوا يبحثون عني ويأخذونني دون أي شرح أو تفسير. ألبسوني بزة المتوفى الذي كان فتى في الثانية عشرة من العمر، وأدخلوني على الإمبراطور مرتدياً تلك البزة. فأوماً برأسه، فأبلغوني عندئذ أنني فزت برضى الإمبراطور عن تسميتي وصيفاً لصاحب الجلالة. شعرت بسعادة، لأنني كنت أحس منذ زمن طويل بعاطفة قوية نحوه... ثم... لا شك أنك تقدّر ما في البزة اللامعة من قوة الإغراء لطفل. أصبحت أرتدي فراكاً أخضر قاتم الخضرة، تزيينه أزرار مذهبة، مع ذيول ضيقة طويلة وأكمام ذات حواش حمراء؛ وكانت تطريزات الذهب تغطي الحواف والأكمام والياقة، وكانت الياقة عالية مستقيمة مفتوحة. أما السروال فملتصق بالجسم، أبيض اللون، مصنوع من جلد الشاموا؛ وفوق السروال صديرة من حرير أبيض؛ والجوربان من حرير أيضاً، وللحذاءين عرى وأزرار... فإذا قام الإمبراطور بنزهة على الحصان وكنت أنا في حاشيته، ألبست حذاءين لهما ساقان عاليان على طريقة الفرسان. ورغم أن الحالة لم تكن حسنة، ورغم أن كوارث ضخمة كانت

متوقعة، فقد كانت قواعد الآداب تراعى مراعاةً صارمةً في حدود الإمكان، حتى لقد كانت الدقة في مراعاتها على قدر قوة الإحساس بأن الكوارث قريبة.

تمتم الأمير يقول بلهجة تكاد تكون يائسة:

- نعم، طبعاً... لا شك أن مذكراتك سيكون لها شأن.

أغلب الظن أن الجنرال كان يردد على مسامع الأمير ما قاله أمس لصاحبه ليبيديف. فذلك كانت أقواله تسيل غزيرة. لكنه في تلك اللحظة ألقى على الأمير نظرة جديدة فيها ارتياب. ثم استأنف كلامه يقول بمزيد من الكبرياء:

- مذكراتي؟ تكلمني عن تدوين مذكراتي؟ إن هذا لم يغرنى يا أمير! أو قل إن شئت إنها مدونة منذ الآن، ولكنني أخفيها مقفلاً عليها بالمفتاح. فلتُنشر بعد أن يغطي التراب عيني. ولسوف تترجم عندئذ إلى عدة لغات حتماً، لا لقيمتها الأدبية طبعاً، بل لخطورة الأحداث الضخمة التي كنت شاهد عيان لها، رغم أنني طفل. بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك: إن صغر سني هو الذي أتاح لي أن أنفذ إلى أن أخفى خفايا ما يجري في غرفة «الرجل العظيم»! كنت في الليل أسمع أنات ذلك «العملاق في الشقاء». لم يكن ثمة سبب يدعو به إلى إخفاء أناته ودموعه عن طفل، رغم أنني قد أدركت إن سبب عذابه هو صمت الإمبراطور ألكسندر.

قال الأمير خجلاً:

- صحيح. لقد كتب إليه رسائل... ليعرض عليه الصلح.

- الواقع أننا لا نعرف ماذا تضمنت رسائله من عروض، ولكنه كان يكتب كل يوم، في كل ساعة، رسالة تلو رسالة! كان مضطرباً اضطراباً رهيباً. وكنا وحيدين في ذات ليلة من الليالي فأسرعت إليه مخضلاً العينين بالدموع (آه... كما كنت أحبه!) وقلت له صارخاً: «اطلب المغفرة من الإمبراطور ألكسندر، اطلب عفوه». كان يجب عليّ طبعاً أن أقول: «أعقد صلحاً مع الإمبراطور ألكسندر»، لكنني طفل، فكنت أعبر عن تفكيري كله بسذاجة. أجابني وهو يذرع الغرفة طولاً وعرضاً: «آه يا بني! آه يا بني! أنا مستعد لأن ألتزم قدمي الإمبراطور ألكسندر، (لأنه نسي أنني لا أبلغ من العمر إلا عشرة أعوام، حتى لقد كان يجد لذة في محادثتي) ولكنني في مقابل ذلك قد نذرت كرهاً ومقتاً أبدياً لملك بروسيا وإمبراطور النمسا، و... على كل حال.. أنت لا تفهم من أمور السياسة شيئاً». لكأنه تذكر فجأة أنه يخاطب طفلاً، فصمت، ولكن عينيه ظلت ترسلان شرراً خلال مدة طويلة. فتصور الآن، تصور أنني أدون هذه الوقائع كلها، أنا الذي

شهدت أضخم الأحداث، وأنشرها: وتصور عندئذ أنواع النقد وصنوف الغرور الأدبي، وألوان الحسد، وروح التحيز، و... آه... لا... لا.. أشكرك جزيل الشكر!».

أجاب الأمير برقة ولطف بعد لحظة تفكير:

- فيما يتعلق بروح التحيز، فإنك على حق تماماً، وأنا أؤيد قولك كل التأكيد. من ذلك أنني قرأت في الآونة الأخيرة كتاب شاراس^[29] عن معركة واترلو. إن الكتاب جاد لا ريب. والاختصاصيون يقطعون بأن كاتبه مطلع اطلاعاً واسعاً. ولكنك تلاحظ في كل صفحة من صفحاته تلذذاً بخفض قيمة نابليون. حتى لكأن المؤلف كان يمكن أن يسره أعظم السرور أن ينكر على نابليون أي ظل لموهبة، حتى في المعارك الأخرى. فلا شك أن هذا التحيز لا يليق بكتاب جاد إلى هذا الحد. هل كان وقتك كله مشغولاً بالعمل قرب.. الإمبراطور؟

طار الجنرال فرحاً. إن ملاحظة الأمير هذه قد بددت بما فيها من رصانة وبساطة آخر ما كان يساوره من شكوك.

- شاراس! آه... أنا أيضاً، أثار استيائي، حتى لقد كتبت إليه عندئذ، ولكنني لا أتذكر الآن على وجه الدقة... أتسألني هل كان عملي يستغرق كل وقتي؟ لا، لقد سُميت وصيفاً للإمبراطور، لكنني منذ ذلك الحين لم آخذ الأمر مأخذ الجد؛ ثم إن نابليون لم يلبث أن فقد كل أمل في تقارب بينه وبين الروس؛ وكان لا بد له والحالة هذه أن ينساني، لأنه لم يجتذبنني إليه في الأصل إلا لأغراض سياسية، هذا إذا لم يكن قد تعلق بي تعلقاً عاطفياً شخصياً مع ذلك... الآن أقول هذا صراحة. أما أنا فإن القلب هو الذي كان يدفعني إليه. ولم أكن أطالب بعمل. كل ما هنالك إنني كان عليّ أن أجيء إلى القصر من حين إلى حين، وأن أصحاب الإمبراطور في نزواته على الحصان. ذلك كل شيء. كنت أجيد ركوب الخيل. وقد اعتاد أن يخرج إلى النزهة قبل العشاء. وكانت حاشيته تتألف من دافو، والمملوك رستان، وأنا...

أضاف الأمير على غير شعور منه تقريباً:

- وكونستان أيضاً.

فقال الجنرال:

- لا، لم يكن كونستان من الحاشية. كان قد ذهب يحمل رسالة... إلى الإمبراطورة جوزفين. فحل محله ضابط من ضباط الحرس، وبضعة فرسان بولنديين. تلك كانت

حاشيته كلها، بالإضافة - طبعاً - إلى الجنرالات والمارشالات الذين كان نابليون يصطحبهم لدراسة الأرض وتوزيع الجيوش، ولاستشارتهم. وإذا صدقت ذكرياتي الآن، فإن دافو هو الذي يصحبه أكثر من أي شخص آخر: كان دافو ضخّم الجسم بديناً، وكان هادئ الطبع بارد الأعصاب، وكان يضع على عينيه نظارتين، وكانت له نظرة غريبة... فمع دافو إنما كان الجنرال يحب أن يتشاور أكثر مما كان يحب أن يتشاور مع أي شخص آخر. كان يحترم آراءه. أذكر أنهما في ظرف من الظروف ظلا يبحثان معاً خلال عدة أيام متتالية. كان دافو يأتي صباحاً ومساءً، وكانت تجري بينهما مناقشات كثيرة. وأخيراً بدا أن نابليون أصبح على أهبة أن يسلم. كانا في المكتب معاً. وكنت أنا ثالثهما، ولكنهما كانا لا ينتبهان إليّ؛ ووقع بصر نابليون عليّ مصادفة على حين فجأة، فانعكست في عينيه فكرة غريبة. فقال يسألني بغتة: «ما رأيك أيها الصبي؟ أإذا اعتنقت الديانة الأرثوذكسية وحررت أقنانكم، يتبعني الروس؟» فهتفت أقول له مستاء: «لن يتبعوك في يوم من الأيام!». «شده نابليون من جوابي. قال: «في وميض الوطنية الذي التمع في عيني هذا الصبي، قرأت الآن رأي الشعب الروسي كله. كفى يا دافو! ما هذا كله إلا خيال! أرني مشروعك الآخر!».

قال الأمير مهتماً اهتماماً قوياً:

- لكن ذلك المشروع الذي عدل عنه يشتمل على فكرة عظيمة. هل تعتقد أن ذلك المشروع كان من صنع دافو؟

- اتفقاً عليه في أقل تقدير. لا شك أن الفكرة جاءت من نابليون. إنها فكرة نسر. ولكن المشروع الثاني كان يشتمل أيضاً على فكرة.. إنه مشروع «مجلس الأسد»^[30] المشهور، كما سمى نابليون ذلك المشروع فيما بعد؛ وهو أن يعتصم بالكرملين مع الجيش كله، وأن يقيم فيه أبنية من خشب، ومتاريس قوية، وأن تتخندق فيه سريات مدفعية، وأن يذبح أكبر عدد من الخيول ليصنع من لحومها قديداً، ثم أن يغتصب من السكان جميع ما لديهم من غلال ليستطيع الصمود حتى الربيع. فإذا طلع الربيع حاول أن يشق طريقاً بين الروس. ولقد فُتن نابليون بهذه الخطة. فكنا نقوم كل يوم بجولات على صهوات الخيل حول الكرملين، فيشير نابليون إلى الأماكن التي يجب فيها الهدم، وإلى المواضع التي ينبغي فيها البناء، وإلى حيث يجب وضع نظارة، أو إلى حيث يجب تعزيز تحصين أو إلى حيث يجب إقامة أبراج. ما كان أسرع خاطره وأثبت بصره وأحزم قراره! وسوّي أخيراً كل شيء. وكان دافو يلحّ على أن يصدر إليه الأمر الحاسم النهائي. وعادا يجتمعان في خلوة لا يشاركما فيها ثالث غيري. وعاد نابليون يذرع

الغرفة جيئة وذهاباً، عاقداً ذراعيه على صدره. فكنت لا أستطيع أن أحول عيني عن وجهه، وكان قلبي يخفق خفقاناً قوياً. قال دافو: «أنا ماض أباشر العمل». فسأله نابليون: «إلى أين؟»، فأجاب دافو: «أمر بتمليح القديد». فارتجف نابليون. كان المصير يتقرر. سألتني نابليون فجأة: «ما رأيك في خطتنا يا فتى؟». طبعي أنه وجه إليّ هذا السؤال كما يعتمد عقل عظيم في آخر لحظة إلى استعمال طريقة «الانصيب». فبدلاً من أن أجيب نابليون التفتت نحو دافو وقلت له بما يشبه الوحي أو الإلهام: «سافروا إلى بلادكم بسرعة يا جنرال». تهدم المشروع. هزّ دافو كتفيه وخرج مدمماً: «أمر عجيب. أصبح يؤمن بالخرافات»^[31]. الغداة صدر الأمر بالانسحاب.

قال الأمير بصوت خافت جداً:

– هذا كله شائق جداً... إذا كانت الأمور قد جرت هنا على هذا النحو...

ثم أسرع يقول مصححاً بقوة:

– بل قل.. أقصد...

كان الجنرال قد بلغ من النشوة بالقصة التي رواها إنه أصبح لا يستطيع أن يحجم عن التورط في أي تهوّر. وها هو ذا يهتف قائلاً:

– آه... يا أمير... إنك تقول: «إذا كانت الأمور قد جرت هنا. على هذا النحو...».

ولكنني أقسم لك صادقاً لا حائثاً أن ما قصصته عليك هو أقل من الواقع، أقل من الواقع، أقل كثيراً من الواقع! إن كل ما رويته لك لا يتصل إلا بأمور سياسية يسيرة الشأن. غير أنني أكرر أنني قد شهدت الدموع يسكبها في الليل ذلك الرجل العظيم، وسمعت الأنات تخرج من صدره في جوف الظلام. ما من أحد يستطيع أن يروي ما أروي وأن يصف ما أصف. صحيح أنه أصبح في نهاية الأمر لا يبكي، فقد نضبت دموعه، وأصبح لا يزيد على أن يئن من حين إلى حين. وكان وجهه يزداد عبوساً وجهامة، واكفهراراً وتقطيباً. لكن الأبدية قد مدتّ جناحها عليه منذ ذلك الحين. وكنا في بعض الأحيان نقضي في الليل ساعات بكاملها وحيدين صامتين، بينما المملوك روستان يغط بالغرفة المجاورة في نوم عميق. ألا ما كان أعرق نوم ذلك الرجل! وكان نابليون يقول إذا تحدث عنه: «لكنه في مقابل ذلك مخلص لي وفي لعرشي!».

«في يوم من الأيام كنت مثقل القلب، فرأى الإمبراطور دموعاً في عيني. فنظر إليّ

بحنان وقال متعجباً: «تشاركني أحزاني؟ لعلك الولد الوحيد الذي يشاطرنى ألمي، عدا

ابني، ملك روما^[32]. أما الآخرون فإنهم جميعاً يكرهونني. حتى أخوتي سيكونون أول من يخونونني أمام أعدائي». فأخذت أبكي ناشجاً وهرعت إليه، فأصبح لا يستطيع كظم ما في نفسه، فتعانقنا وامتزجت دموعنا. قلت له باكياً: «أكتب رسالة إلى الإمبراطورة جوزفين». فارتعش نابليون، وفكر لحظة، ثم قال يجيبي: (القل ذكرتي بالقلب الثالث الذي يحبني. شكراً يا صديقي!). وكتب على الفور رسالة إلى جوزفين حملها كونستان في الغداة.

قال الأمير:

- أحسنت جداً. فإنك، في وسط الأفكار السيئة التي كانت تغزوه وتحاصر نفسه قد أيقظت في قلبه عاطفة جميلة نبيلة.

هتف الجنرال يقول متحمساً:

- تماماً! ما أحسن تعبيرك عن هذا وأنت تستسلم لاندفاعات قلبك!

والأمر الغريب أن دموعاً قد انبجست من عينيه حقاً حينذاك. وتابع كلامه يقول:

- نعم يا أمير، كانت لذلك المشهد عظمتة. هل تعلم أنني أوشكت أن أصحبه إلى باريس؟ ولو فعلت ذلك لتبعته حتماً إلى «منفاه في الجزيرة المدارية»^[33]. ولكن مصيرينا كانا مفترقين، وا أسفاه! فانفصلنا، فأما هو فرحل إلى تلك الجزيرة المدارية التي لعله تذكر فيها، أثناء لحظة من لحظات حزن قاس وألم ممض، دموع ذلك الفتى المسكين الذي عانقه وسامحه بموسكو؛ وأما أنا فأرسلت إلى مدرسة الضباط الفتيان حيث لم أجد إلا نظاماً قاسياً ورفاقاً غلاظاً... وا أسفاه!... وانهار كل شيء بعد ذلك!...

«لقد قال لي نابليون في يوم الانسحاب: «لا أريد أن أنتزعك من أمك لأصطحبك. لكنني أتمنى أن أفعل شيئاً لك». وكان قد امتطى صهوة جواده. فقلت له خجلان: «اكتب لي كلمة في ألبوم أختي للذكرى»؛ ذلك أنه كان مظلم الوجه شديد الاضطراب. فعاد أدراجه، وطلب مني قلماً، وتناول الألبوم، وقال يسألني ممسكاً بالقلم: «كم عمر أختك؟» فأجبته: «ثلاث سنين» فقال: «هي إذن بنت صغيرة»^[34]. وكتب على الألبوم:

إياك والكذاب^[35]

صديقك المخلص، نابوليون.

أرأيت يا أمير؟ نصيحة كهذه النصيحة، في لحظة كتلك اللحظة... ما رأيك؟

قال الأمير:

- نعم... لهذا دلالتة البليغة!..

- وقد وضعنا تلك الورقة في الألبوم وراء زجاج في إطار. واحتفظت بها أختي طوال حياتها في صالونها، معلقة إياها في أكرم مكان من منزلها. وماتت أختي أثناء ولادة... ومنذ ذلك الحين لا أدري ماذا حل بتلك الورقة... ولا أين صارت!... ياه!... الساعة الآن هي الثانية!... لقد احتجزتك مدة طويلة يا أمير! ذلك أمر لا يُغتفر.

تمتم الأمير يقول:

- بالعكس... لقد أسرت لبي... و... وإن لما رويته لقيمة كبيرة، فأنا ممتنّ أشد الامتنان.

مرة أخرى شدّ الجنرال على يد الأمير شدّاً قوياً إلى حد الإيلام. وحدّق إليه بعينين ساطعتين ووجه إنسان ثاب إلى نفسه فجأة وومضت في رأسه فكرة مباغتة. قال:

- يا أمير، إنك تبلغ من طيبة القلب وبساطة العقل أنني أشفق عليك في بعض الأحيان. أنني أتأملك بعاطفة وحنان. أسأل الله أن يباركك! إنني أتمنى لك أن تبدأ حياتك أخيراً وأن تزدهر.. في الحب. أما حياتي أنا فقد انتهت!... أه... مغفرة! مغفرة. وأسرع يخرج مخفياً وجهه في يديه.

لم يستطع الأمير أن يشك في صدق انفعال الجنرال. وقد أدرك أيضاً أن الشيخ انصرف منتشياً بما حقق من نجاح. ولكنه كان يحس إحساساً غامضاً بأنه إزاء واحد من أولئك المتشدّقين الذين يبلغون من تلذّذهم بكذبهم أنهم ينسون أنفسهم ولكنهم يظلون مع ذلك في أشد حالات نشوتهم يشعرون شعوراً صميماً بأن الناس لا يصدقونهم ولا يمكن أن يصدقوهم. لقد كان الشيخ، وهو في مثل تلك الحالة النفسية، يمكن أن يعود إلى نفسه وأن يثوب إلى رشده بعد تلك النوبة من نوبات الكذب الذي لا حياء فيه، فيشعر بأنه قد أُهين إذا هو تصور أن الأمير أحسن نحوه بشفقة شديدة. لذلك تساءل الأمير قلقاً: «ألم أرتكب خطأ حين تركت له أن يتحمّس ذلك التحمّس وأن يندفع ذلك الاندفاع؟». وما هي إلا لحظة حتى انطلق الأمير يضحك على حين فجأة ضحكاً استمر عشر دقائق. وأوشك بعد ذلك أن يلوم نفسه على ذلك المرح الشديد والضحك

القوي، لكنه عدل عن رأيه وأدرك أنه ما ينبغي له أن يؤاخذ نفسه على شيء، ما دام يحمل للجنرال ذلك العطف كله وتلك الشفقة كلها.

وقد صدقت تنبؤاته. ففي ذلك المساء تلقى من الجنرال بطاقة غريبة هي رسالة مقتضبة لكنها جازمة، فيها يعلن له الجنرال أنه يقطع صلته به إلى الأبد، فهو ما يزال يضرر له الاعتبار والشكر، ولكنه يرفض من جهته أن يقبل «تلك الشفقة التي تقتل كرامة إنسان عانى حتى الآن من صنوف الخطوب وأنواع المحن ما يكفيه».

حين علم الأمير أن الجنرال أصبح يعيش معتكفاً عند نينا ألكسندروفنا زال قلقه عليه تقريباً. ولكن الجنرال، كما أسلفنا، مضى يثير جُرْصة عند إليزابت بروكوفيفنا. إننا لا نستطيع أن نروي هنا تفاصيل ما وقع وحسبنا أن نشير بكلمتين إلى موضوع الحديث الذي جرى بينهما. إن إليزابت بروكوفيفنا، بعد أن روعتها ثمرات الجنرال التي تشبه أن تكون هدياناً، قد استبد بها استياء قوي حين سمعته يبدي آراء شديدة المرارة في حق جانيا. فلم يكن منها إلا أن أمرت بإخراجه من البيت مطروداً مجللاً بالعار. لذلك قضى الليل كله والصباح مهتاجاً اهتياجاً بلغ من الشدة أنه فقد كل سيطرة على نفسه فإذا هو يندفع في الشارع أخيراً كأنما أصابه جنون.

كان كوليا لا يدرك ما يجري إلا بعض الإدراك، وكان لا يزال يأمل أن يؤثر في أبيه فيجعله يخجل. قال له:

- هيه! أين سنطوف الآن؟ ما رأيك يا جنرال؟ ألا تريد أن تذهب إلى الأمير؟ لقد حدث شقاق بينك وبين ليبيديف. وليس معك مال وأنا لا يكون معي مال أبداً. وها نحن في وسط الشارع نخبط خبط عشواء!

قال الجنرال مدمماً:

- لأن يكون المرء مع نساء، خير من أن يخبط هنا وهناك خبط عشواء. لقد كفلت لي هذه القافية^[36] نجاحاً قوياً... في نادي الضباط سنة 44... نعم سنة ألف وثمانمائة.. وأربع أربعين!.. أصبحت لا أتذكر على وجه الدقة... أه.. أنني لا أتذكر.. لا أتذكر.. لا تحدثني في هذا الأمر... «أين شبابي؟ أين شبابي؟ أين نضارتي؟» كما كان يهتف... من الذي كان يهتف بهذا يا كوليا؟

- نعم... هذه كلمات مستمدة من كتاب جوجول «النفوس الميتة» يا أبت.

بهذا أجاب كوليا وهو يرمق أباه بنظرة سريعة قلقة.

قال الجنرال:

- النفوس الميتة؟ آ... نعم.. الميتة!... حين ستدفنونني، اكتب على قبري: «هنا ترقد نفس ميتة!».

- «العار يلاحقني في كل مكان»، من قال هذا يا كوليا؟

- لا أعرف يا أبتاه!

- ياروبياجوف لم يوجد! ياروشكا روبياجوف!..

كذلك صاح يقول الجنرال بلهجة حانقة وهو يقف في وسط الشارع. وتابع كلامه قائلاً:

- إن ابني، ابني نفسه هو الذي يكذبني هذا التكذيب. ياروبياجوف الذي ظل لي أخاً حقاً خلال أحد عشر شهراً، والذي من أجله خضت تلك المباراة.. لقد قال له رئيسنا الأمير فيجورتسكي، ذات يوم، بينما كنا نشرب: «اسمع أنت يا جريشا!^[37] وددت لو أعرف من أين حصلت على صليبك، صليب القديسة أنا؟» فأجابه قائلاً: «من ساحات معارك وطني إنما حصلت عليه!». وهتفت أنا أقول: (مرحى يا جريشا!). فكان ذلك سبب مباراة. ثم تزوج.. ماريا بتروفتنا... سوتوجين، وقُتل بعد ذلك في ميدان القتال. لقد وثبت رصاصة عن الصليب الذي كنت أحمله على صدري، وثبت إلى جبينه فقتلته. وهتف قائلاً قبل أن يموت: «لن أنسى أبداً» ثم سقط ميتاً. إنني خدمت.. خدمت وطني بشرف يا كوليا، خدمت وطني بنبل وإخلاص.. ولكن «العار يطاردني في كل مكان!». ستأتين أنت وأمك إلى قبري... «نينا المسكينة»، كذلك كنت أسمىها في الماضي يا كوليا، منذ زمن طويل، في الآونة الأولى، وكان ذلك يسرها... نينا! نينا! ماذا صنعت بحياتك؟ كيف يمكنك أن تحبيني، أيتها النفس الصابرة المدعنة؟ إن أمك لها نفس ملاك يا كوليا. هل تسمعي؟ إن لها نفس ملاك!

- أعرف هذا يا بابا! حبيبي بابا! فلنعد إلى البيت، إلى ماما. لقد أرادت أن تركض وراءنا. لماذا تتردد؟ كأنك لا تدرك... كفى يا بابا! لماذا تبكي؟

وكان كوليا نفسه يبكي ويلثم يدي أبيه.

قال له أبوه:

- أتلثم يدي أنا؟

- نعم، يديك أنت، يديك أنت! أفي هذا ما يدهش؟ كفى، كفى! ما بالك تبكي في وسط الشارع، أنت الجنرال، أنت المقاتل، أنت رجل الحرب؟ تعال!

- بارك الله فيك يا بني الصغير، لأنك ما تزال تحترم أباك الشيخ الساقط، رغم العار، رغم العار الذي يجلبه! أسأل الله أن يجعل لك ولداً مثلك.. «ملك روما»^[38]... آه... «ألا فتحل لعنة الله على هذا المنزل!...».

صاح كوليا مندفعاً يقول:

- ولكن ماذا جرى؟ ماذا حدث؟ لماذا أصبحت لا تريد أن تعود إلى البيت؟ هل فقدت عقلك؟

- سوف أشرح لك، سوف أشرح لك... سوف أقول لك كل شيء.. لا تصرخ، وإلا سمعنا الناس... «ملك روما».. أواه! إنني أحس باشمئزاز وحزن.
«أين قبرك يا من أَرْضَعْتَنِي؟».

من قائل هذا يا كوليا؟

- لا أعرف من ذا الذي أمكن أن يقول هذا الكلام. فلنذهب فوراً إلى البيت، فوراً! لأقطعن جانبا إرباً إرباً إذا لزم الأمر... ولكن إلى أين تمضي أيضاً؟

كان الجنرال يجره نحو درجات مدخل منزل مجاور.

- إلى أين تذهب؟ ليس هذا البيت بيتنا!

كان الجنرال قد جلس على درجات المدخل جاذباً إليه كوليا من يده، ودمدم يقول له:

- انحن عليّ، انحن عليّ... سأقول لك كل شيء.. سأشرح لك عاري.. ملّ عليّ... اصغ بسمعك إليّ... سأقول لك ذلك في أذنك.

صاح كوليا يقول مرتاعاً، ولكنه يصيح بسمعه مع ذلك:

- ماذا أصابك؟ ما الذي حل بك؟

قال الجنرال مدمماً وهو يرتجف ارتجافاً شديداً:

- «ملك روما»...

- ما هذا الذي تقول؟ ماذا دهاك حتى أخذت تتحدث عن ملك روما طول الوقت؟..
ما معنى هذا؟

عاد الجنرال يتمتم قائلاً وهو يتشبث بكتف «صغيره» مزيداً من التشبث:

- أ... أ... أريد.. أريد أن أقول لك كل شيء.. ماريا.. ماريا... بتروفتنا.. سو..
سو.. سو.

تخلص كوليا من عناقه وأمسكه من كتفيه ونظر إليه مشدوهاً. كان العجوز قد
احمرّ وجهه احمراراً شديداً، وازرقت شفاته وأخذت تلم بوجهه تشنجات خفيفة. وتهاوى
فجأة متهاكاً على ذراعي كوليا برفق.

فأعول كوليا صارخاً في اتجاه الشارع:

- سكتة قلبية.

لقد أدرك الواقع أخيراً..

الفصل الخامس

الواقع أن باربارا أرداليونوفنا، حين حدثت أخاها، قد بالغت بعض المبالغة في ادعاء صحة ودقة المعلومات التي توافرت لديها عن خطبة الأمير وأجلالها إيبانتشين. من الجائز أيضاً أن تكون من شدة حسرتها على تبدد حلم ساورها (حلم لعلها لم تصدقه هي نفسها في يوم من الأيام) لم تستطع أن تمنع نفسها عن التمتع بتلك اللذة التي يستطيعها الطبع البشري وهي لذة تضخيم الشقاء الذي ألمّ والكارثة التي نزلت، وأن تسكب في قلب أخيها قطرة جديدة من مرارة. ومهما يكن من أمر، فإنها ما كانت لتستطيع أن تحصل من صديقاتها، الأنسات إيبانتشين، على معلومات تبلغ ذلك المبلغ من الوضوح والدقة. فإن الأمر قد اقتصر على إشارات، وجمل ناقصة لم تكتمل، ووقفات عن الكلام وصمت وألغاز وأسرار. من الجائز كذلك أن تكون أختا أجاليا قد اندفعتا متعمدتين في البوح ببعض الأمور بغية أن تستدرجا باربارا أرداليونوفنا إلى الكلام وأن تستخرجا منها شيئاً. وليس بالمستبعد على كل حال أن تكونا قد انقادتا لتلك اللذة التي يستطيعها طبع النساء فناكدتا صديقتهما قليلاً رغم أنها من صديقات طفولتهما حقاً. فلا بد أنهما قد أدركتا، بعد كل ذلك الوقت، الهدف الذي كانت تسعى إليه المرأة الشابة، أو بعض هذا الهدف على الأقل.

ومن جهة أخرى، فلعل الأمير قد أخطأ هو نفسه، ولو عن سلامة نية، حين زعم لبديف أنه ليس ثمة ما ينقله إليه أو يبلغه إياه وأن حياته لم يطرأ عليها أي شيء خاص. الواقع أن كل واحد كان إزاء ظاهرة غريبة. لا شيء حدث فعلاً، ولكن جميع الأمور تجري كما لو كان قد حدث أمر هام جداً. ذلك ما حذرته باربارا أرداليونوفنا بما تملك من غريزة المرأة وصدق حدسها الذي لا يخطئ.

من الصعب جداً مع ذلك أن نعرض عرضاً منطقياً كيف أدرك جميع أفراد أسرة إيبانتشين، في وقت واحد، أن حدثاً هاماً قد طرأ على حياة أجاليا، حدثاً سيقرر مصيرها. ولكنهم، منذ أن قامت هذه الفكرة في أذهانهم، قد أحسوا جميعاً، على الفور، أنهم كانوا قد توقعوا هذا الأمر بل تنبأوا تنبؤاً واضحاً بهذا الاحتمال الذي أصبح جلياً منذ حادثة «الفارس الفقير»، وربما قبل ذلك؛ غير أنهم كانوا يرفضون في ذلك الأوان أن

يصدقوا سخافة كهذه السخافة.

ذلك ما كانت تؤكده أختا آجلايا. وطبيعي أن إليزابت بروكوفيفنا كانت قد تنبأت بكل شيء وفهمت كل شيء قبل غيرها، «حتى أن قلبها شعر من ذلك بألم شديد»، ولكن سواء أكان ذلك الإدراك النافذ قد تأتي لها منذ مدة طويلة أم قصيرة، فإن الأمير قد أصبح لا يوقظ في ذهنها إلا فكرة منفرة غير محببة، لأنها فكرة تحير عقلها. كان هناك سؤال يقتضي حلاً على الفور. ولكن المسكينة إليزابت بروكوفيفنا لم تكن عاجزة عن حل هذا السؤال حلاً حاسماً فحسب بل كانت عاجزة كذلك حتى عن طرحه على نفسها طرحاً واضحاً. إن الأمر حرج دقيق: «هل الأمير زوج مناسب للفتاة أم لا؟ هل هذا حسن أم سيئ؟ وإذا كان سيئاً (وذلك ما كان يبدو ثابتاً لا سبيل إلى الشك فيه) فلماذا هو سيئ؟ وإذا كان حسناً (وهذا يبدو ممكناً كذلك) فما هو الأساس الذي يمكن بناء هذا الحكم عليه؟».

أما رب الأسرة، إيفان فيدوروفتش، فقد أظهر دهشته في أول الأمر طبعاً، ثم اعترف يقول إنه «في الحقيقة قد اشتبه هو أيضاً في المسألة وإنه كان يحس أن هناك شيئاً ما، طوال تلك المدة، ولو من حين إلى حين أو بين الفينة والفينة!». وإذ شعر بثقل نظرة قاسية كانت زوجته تلقيها عليه، سكت عن الكلام ولم يزد شيئاً. ولكن ذلك لم يدم إلا نهاراً، ذلك أنه إذا خلا إلى امرأته في المساء ورأى نفسه مضطراً إلى أن يتكلم، عزم على أن يشرح ما بنفسه، وتجراً فأبدى آراء لم تكن متوقعة. قال: «ما هو الأمر في الواقع؟... (برهة صمت)... لا شك أن هذا كله عجيب غريب إذا صح أنه صادق فعلاً.. (برهة صمت أخرى)... ومن جهة ثانية، إذا نظرنا إلى الأمور نظرة سليمة وواجهناها مواجهة صحيحة، رأينا أن الأمير فتى طيب جداً، والله!... ثم... ثم.. إنه يحمل اسماً ينتمي إلى أسرتنا. وذلك كله من شأنه... أن يعلي مقام اسمنا في المجتمع... من وجهة نظر المجتمع. طبعاً... لأن.. على كل حال. المجتمع هو المجتمع!... ثم إن الأمير، مهما يكن من أمر، يملك ثروة، وإن لم تكن ثروة طائلة... إنه... و... و...».

هنا نضبت بلاغة إيفان فيدوروفتش ونفدت فصاحته، فسكت عن الكلام.

وشارت ثائرة إليزابت بروكوفيفنا وخرجت عن طورها إذ رأت زوجها ينظر إلى الأمور هذه النظرة. كان رأيها أن كل ما جرى إنما هو «حماقة لا تغتفر، بل حماقة مجرمة، بل خيالات سخيفة دنيئة». فمن جهة أولى يجب أن نتذكر أن هذا «الأمير الصغير رجل مريض، رجل أبله. ويجب أن نتذكر من جهة ثانية أنه إنسان غبي لا يعرف المجتمع ولا يستطيع أن يكون له فيه مكان: لمن نقدمه؟ إلى أين ندخله؟ هذا

شخص ديموقراطي غير لائق، محروم من كل رتبة طبقية... ثم... ثم... ما عسى تقول بيلوكونسكايا؟ أهذا هو الزوج الذي حلمنا به لابنتا آجلايا؟».

وكانت هذه الحجة الأخيرة قاطعة دامغة بطبيعة الحال. لقد كان قلب الأم ينزف ويرتعث حين تخطر ببالها هذه الفكرة التي تستهطل دموع عينيها، غير أن ذلك القلب نفسه، كان يصعد منه، في اللحظة نفسها، صوت يسألها: «في أي شيء لا يستحق الأمير أن يكون الصهر المنشود؟» كانت اعتراضات ضميرها نفسه هي التي تبث في إليزابت بروكوفينا أكبر الهم وأشدّ القلق.

أما أختا آجلايا فكانتا لا تنظران إلى زواج آجلايا بالأمير نظرة سيئة، حتى لقد كانتا لا تريان فيه أية غرابة. الخلاصة أنهما كان يمكن أن تنحازا إلى تأييد هذا الزواج انحيازاً مبالغاً لولا أنهما عاهدتا نفسيهما على التزام الصمت. يجب أن نذكر أن المحيطين بإليزابت بروكوفينا كانوا قد لاحظوا منذ زمن طويل إنها على قدر إصرارها وعنادها وحماستها في محاربة مشروع من المشروعات العائلية التي يجري حولها نقاش، يكون اقتناعها في كثير من الأحيان بصواب هذا المشروع.

وكان لا يمكن إعفاء ألكسندرا إيفانوفنا من أن تقول شيئاً. لقد ألفت أمها منذ مدة طويلة أن تستشيرها وتستنصحتها، فها هي ذي ما تنفك تستوضحها رأيها، وتسألها عن ذكرياتها خاصة: «كيف جرت الأمور حتى وصلت إلى ما وصلت إليه؟ لماذا لم يلاحظ أحد ما شيئاً من قبل؟ كيف لم يجر كلام حول هذا الموضوع؟ ماذا كانت تعني تلك المزحة الدنيئة عن «الفارس الفقير»؟ لماذا قُضي عليها، هي إليزابت بروكوفينا، أن تنفرد بحمل الهم عن الجميع، أن تلاحظ كل شيء، وأن تدرك كل شيء، بينما لا يزيد الآخرون على أن ينظروا إلى الأمور بغير اكتراث؟». إلخ إلخ إلخ...

استمرت ألكسندرا إيفانوفنا على تحفظها في أول الأمر، واكتفت بأن ذكرت أنها توافق أباهما على رأيه في أن زواج أمير من أسرة ميشكين وأنسة من آل إيبانتشين أمر يمكن أن ينظر إليه المجتمع نظرة احترام كبير؛ ثم تشجعت شيئاً فشيئاً وتجاسرت فأضافت إلى ذلك أن الأمير ليس رجلاً «محدود العقل» ولا كان محدود العقل في يوم من الأيام، أما عن وضعه الاجتماعي فلا أحد يستطيع الآن أن يعرف الأسس التي قد يبني عليها المجتمع، بعد بضع سنين، رأيه في قيمة رجل من الرجال في روسيا، لا ولا يستطيع أحد أن يعرف هل ستقاس قيمة الرجل في المستقبل بما يحققه من نجاح في وظيفة رسمية أم هي ستقاس بمقياس آخر. فسرعان ما أجابت الأم غاضبة بأن ألكسندرا فتاة «تحررية»، وأن الذنب في ذلك كله إنما هو ذنب تلك القضية المشؤومة التي

يسمونها «قضية المرأة». وما انقضى نصف ساعة حتى مضت إليزابيث بروكوفيفنا إلى المدينة، ومنها ذهبت إلى كامني أوستروف^[39] لتري بيلوكونسكايا التي كانت قد وصلت إلى بطرسبرج منذ برهة وجيزة ولكنها لا تنوي أن تمكث فيها إلا وقتاً قصيراً. لقد كانت الأميرة بيلوكونسكايا عرابة آجلايا.

أصغت «السيدة العجوز» إلى جميع مسارات إليزابيث بروكوفيفنا، المحمومة اليائسة، ولكنها بدلاً من أن تؤثر فيها تلك الدموع السخينة التي ذرفت لها. الأم الحزينة، وتلك المخاوف الشديدة التي عبرت عنها الزائرة اليائسة، لم تزد على أن ألقت نظرة ساخرة مستهزئة. لقد كانت الأميرة بيلوكونسكايا تتصف باستبداد واضح وطغيان قوي. وكانت ترفض أن تساوى بينها وبين الأشخاص الذين تربطها بهم ولو صداقة قديمة. وكانت تعتمد أن تعامل إليزابيث بروكوفيفنا معاملتها لامرأة هي «حاميتها»، كما كانت تفعل ذلك قبل خمسة وثلاثين عاماً، ولا تستطيع أن تألف ما تبديه هذه من أوضاع فيها اندفاع واستقلال. وقد لاحظت، فيما لاحظت، أن «هاته السيدات يضحمن الأمور دائماً، فيجعلن من الذبابة فيلاً ويتصورن الحبة قبة». إن ما سمعته الآن من إليزابيث بروكوفيفنا لا يكفي لإقناعها بأن حادثاً هاماً خطير الشأن قد حدث فعلاً. أليس من الأفضل للمرء أن يصبر وينتظر فيرى ما يجيء به المستقبل؟ وكان من رأيها أن الأمير «شاب لائق، وإن يكن مريضاً وخيالياً وتافهاً إلى أقصى حدود التفاهة؛ وأنكى ما في الأمر أنه يعول خلية». أدركت أوجين بافلوفتش حق الإدراك أن الأميرة بيلوكونسكايا كانت متألّمة من الإخفاق الذي مُني به أوجين بافلوفتش رغم أنها زكته وأوصت به خيراً.

عادت إليزابيث بروكوفيفنا إلى بافلوفسك وهي أشد حنقاً وأقوى احتياجاً منها حين تركتها، وسرعان ما أظهرت ذلك لذويها حين قالت لهم: «إنهم قد فقدوا عقولهم»، وإن أحداً لا يسيّر أموره بهذه الطريقة، وإن ما تراه لا وجود له إلا في بيتها. «لماذا هذا التعجل! ماذا جرى؟ إنني، مهما أبحث، لا أجد أي سبب يدعو إلى أن نظن أن شيئاً قد وقع بالفعل! فاصبروا وانتظروا فتروا الأحداث بالأعين! إن أشياء كثيرة يمكن أن تخطر ببال إيفان فيدروفتش! هل يجب أن نجعل من الذبابة فيلاً وأن نتصور الحبة قبة؟» إلخ إلخ...

وكانت النتيجة هي أن عليهم أن يسكنوا وأن يواجهوا الموقف بهدوء وأن يصبروا. ولكن الهدوء لم يدم عشر دقائق، وا أسفاه! فإن قصة ما جرى في الليلة البارحة، بينما كانت الأم في كامني أوستروف، سببت أول إخلال بالقاعدة التي نصحت بها الأم وهي

هدوء الأعصاب. (إن زيارة إليزابيث بروكوفينا للأميرة بيلوكونسكايا قد تمت في الصباح. وفي العشية إنما كان الأمير قد جاء بعد نصف الليل ظاناً أن الساعة هي العاشرة). فحين سألت الأم ابنتيها محمومة عن هذا الموضوع، ذكرت لها أختا آجلانيا تفاصيل كثيرة. لقد قالتا في أول الأمر «ما من شيء حدث البتة» ثم مضتا تسردان ما وقع. قالتا إن الأمير جاء. فجعلته آجلانيا ينتظر نصف ساعة قبل أن تظهر له. ثم ما إن دخلت حتى اقترحت عليه أن يلعبا بالشطرنج. وكان الأمير لا يعرف هذه اللعبة فسرعان ما غلب. وفاضت نفس آجلانيا فرحاً بهذا الانتصار، فغيرته بجهله، وبلغت من الضحك عليه أن منظره أصبح يثير الشفقة. ثم اقترحت عليه أن يلعبا بالورق لعبة «المهبول»، غير أن ما حدث هذه المرة كان نقيض ما حدث قبل ذلك: فإن الأمير كان يجيد هذه اللعبة كما يجيدها.. أستاذ! كان فيها أستاذاً حقاً! وقد لجأت آجلانيا إلى الغش والاحتيال فكانت تبدل أوراقها خلسة، وكانت تسترق النظر إلى أوراقه، ورغم ذلك كله كانت تظل هي «المهبول»... وتكرر هذا خمس مرات أو ستاً. فغضبت آجلانيا غضباً شديداً حتى فقدت كل سيطرة لها على نفسها، وأخذت تصب على رأس الأمير ألفاظاً تبلغ من الغلظة والقباحة أنه كف عن الضحك، بل اصفر وجهه اصفراراً شديداً حين سمعها تقول «إنها لن تطأ قدمها هذه الغرفة طالما كان هو فيها، وإن مجيئه إليهن، في منتصف الليل، كان وقاحة منه بعد كل ما جرى» (بالفرنسية). وقد قالت آجلانيا هذا الكلام ثم خرجت من الغرفة صافقة وراءها الباب صفقاً أحدث قرقعة شديدة. فانصرف الأمير بوجه كوجه الموتى صفرة رغم كل ما بذلته الأختان من جهود لملاطفته ومواساته والتسرية عنه.

وبعد انصرافه بربع ساعة عادت آجلانيا تنزل من الطابق الأعلى إلى الشرفة فجأة، وقد بلغت من السرعة والعجلة في نزولها أنها لم يتسع وقتها حتى لمسح عينيها اللتين يرى فيهما الناظر آثار دموع. وإنما هرعت هابطة هذا الهبوط السريع لأن كوليا قد جاء ومعه قنفذ. فأخذت البنات جميعاً تنظر في الحيوان الصغير. وسألته عن القنفذ فقال إنه ليس له بل لرفيقه بالمدرسة كوستيا ليبيديف، وإنهما قد اشترياه من فلاح صادفاه، كما اشتريا من هذا الفلاح في الوقت نفسه فأساً. وقد بقي كوستيا في الشارع لأنه لم يجزؤ أن يدخل حاملاً فأسه. وكان الفلاح في أول الأمر لا يريد أن يبيع إلا القنفذ، وقد طلب خمسين كوبكاً ثمناً له، ولكنهما أقنعا بأن يبيع أيضاً فأسه التي يمكن أن تنفعهما والتي كانت فأساً جيدة كل الجودة على كل حال.

أخذت آجلانيا تضرع إلى كوليا أن يبيعهما القنفذ فوراً، وبلغت من إلحاحها أنها خاطبته بقولها: «عزيزي كوليا»، وقد قاوم الفتى مدة طويلة، لكنه لم يصمد طويلاً،

فنادى كوستيا ليبيديف، فصعد هذا حاملاً فأسه بيده، مرتكباً أشدّ الارتباك. وعُلم عندئذ على حين فجأة أن القنفذ ليس لهما، وإنما هو لرفيق ثالث من رفاق المدرسة اسمه بتروف عهد إليهما بمبلغ صغير من المال ليشتريا له به «تاريخ» شلوسر^[40] الذي كان رفيق رابع يحاول أن يبيعه بثمن بخس لحاجته إلى المال. فلما مضيا إلى شراء الكتاب استسلما للغواية أثناء الطريق، فاشتريا القنفذ، فهما الآن يأتیان بتروف بالحيوان والفأس بدلاً من أن يأتياه بكتاب التاريخ الذي ألفه شلوسر. لكن آجلایا بلغت من عنادها في الإصرار على أخذ القنفذ إن الصبيين لم يسعهما إلا ينصاعا لها فباعاها القنفذ. فما إن امتلكته حتى وضعته بمساعدة كوليا في سلة مضمفورة وغطّته بمنشفة وعهدت إلى تلميذ المدرسة بأن يحمله إلى الأمير على الفور راجية منه أن يقبله «هدية تعبر عن عميق تقديرها له». فقبل كوليا أن يقوم بهذه المهمة مسروراً، ووعد بأن يتولى إنفاذها على أحسن وجه، ولكنه أسرع يسأل آجلایا عما تعنيه هذه الهدية، وإلى أي شيء يرمز القنفذ؛ فأجابته آجلایا بأن هذا ليس من شأنه، فردّ قائلاً إن هدية كهذه الهدية لا بد أن يكون لها دلالة رمزية؛ فغضبت آجلایا وقالت له إنه صبي شقي مغتر، لا أكثر من ذلك. فأجابها قائلاً: لولا أنه يحترم فيها المرأة ولولا أن مبادئه تصده لأراها فوراً كيف يستطيع أن يردّ إهانة كهذه الإهانة. ولكن ذلك لم يمنعه أخيراً من أن يقوم بالمهمة متحمساً، فمضى يحمل القنفذ إلى الأمير ووراءه كوستيا ليبيديف. ولم تحقد عليه آجلایا. فحين رآته يهز السلة هزاً قوياً صاحت تقول له: «أرجوك يا عزيزي كوليا، حذار أن تسقط السلة من يدك!». وكذلك كان شأن كوليا، فإنه هو أيضاً قد نسي أنهما قد تشاجرا منذ قليل، وأسرع يقف ليجيئها متحمساً بقوله: لا، لن أدع السلة تسقط «من يدي يا آجلایا إيفانوفنا. اطمئني بالا!». ثم استأنف سيره بخطى واسعة. وانفجرت آجلایا تضحك، وعادت تصعد إلى غرفتها مشرقة الوجه منبسطة الأسارير، ولبثت على هذه الحال من انشراح المزاج طوال النهار.

هزّت هذه الأنباء إلیزابت بروكوفيفنا هزاً قوياً وبثت في نفسها اضطراباً شديداً. ولم يكن ثمة داع إلى ذلك فيما يبدو. ولكن حالتها النفسية كانت لا تتيح لها أن ترى الأمور رؤية أخرى. لقد بلغ قلقها ذروته. وكان القنفذ هو الذي يذكي هذا القلق خاصة. فوجهت إلى ابنتيها مجموعة أسئلة: ما معنى إرسال القنفذ إلى الأمير؟ أليس هذا إشارة متفقاً عليها؟ أليس اصطلاحاً يضمن معنى خبيثاً؟ فما هو معناه إذن؟ هل هذا نوع من البرقية؟ وقد حضر المسكين إيفان فيدروفتش جلسة مساءلة بنتيه، فلما أدلى بدلوه محاولاً الإجابة، أخرج إلیزابت بروكوفيفنا عن طورها فقد قال إن إرسال القنفذ لا يشتمل في رأيه على أية رسالة متفق عليها. ويمكننا أن نقول له إن «القنفذ قنفذ لا

أكثر، وقد يرمز إلى الصداقة، أو إلى نسيان الإساءات، أو إلى المصالحة، وليس إرساله، على كل حال، إلا دعاية بريئة».

يجب أن نذكر، عابرين، أن الجنرال كان على صواب. فالأمير قد عاد إلى بيته، بعد أن أهانتة آجاليا وطرده، مستسلماً لأعمق اليأس، فلما رأى كوليا على حين فجأة بعد نصف ساعة من حزن شديد وكرب مظلم، أضاءت السماء فوراً أمام عينيه، فكأنه بعث إلى الحياة بعثاً جديداً بعد موت. وأخذ يسائل كوليا متلقفاً كل كلمة تنفجر عنها شفتا الصبي، مكرراً السؤال الواحد عشر مرات، ضاحكاً كطفل، شاداً على يدي التلميذين في كل لحظة. وكان الصبيان يضحكان هما أيضاً، وينظران إليه فرحين كل الفرحة. إن هناك أمراً أصبح ثابتاً محققاً لا مراء فيه: هو أن آجاليا قد صفحت عنه وغفرت له فأصبح في وسعه أن يعود إليها في هذا المساء نفسه. كان هذا هو الأمر الأساسي في نظره، بل كان هذا أكثر من ذلك أيضاً، كان هذا عنده كل شيء!

وصاح يقول أخيراً وهو في ذروة الفرح والنشوة:

- كم نحن أطفال حتى الآن يا كوليا!... و... وما أحسن أن يكون المرء طفلاً!...

فأجابه كوليا بلهجة تعبر عن السلطة والسطوة وخطورة الشأن:

- إنها هائمة بحبك.. ذلك هو الأمر كله يا أمير!

فاحمرّ وجه الأمير، لكنه لم يجب هذه المرة بكلمة واحدة. وأخذ كوليا يضحك صافقاً يديه إحداهما بالأخرى. فما هي إلا لحظة حتى شاركه الأمير مرحه؛ وأخذ، منذ ذلك الحين حتى المساء، ينظر في ساعته كل خمس دقائق ليرى كم مضى من الزمن وكم من الوقت بقي عليه أن ينتظر.

ولنعد إلى إليزابت بروكوفينا. لقد تغلبت حالتها النفسية في تلك اللحظة على كل شيء. أصبحت لا تستطيع السيطرة على نفسها، وأوشكت أن تصيبها نوبة عصبية. وها هي ذي، رغم اعتراضات زوجها وبنتيها، ترسل في طلب آجاليا فوراً لتلقي عليها سؤالاً أخيراً ولتحصل منها على جواب واضح قاطع شاف. «يجب أن تفرغ من هذه القضية مرة واحدة، فلا نتكلم عنها بعد اليوم أبداً». قالت ذلك ثم أضافت: «وإلا فلن أظل حية إلى هذا المساء!». وعندئذ إنما أدرك الجميع مدى البلبلة التي بلغت الأمور. وقد استحال إنطاق آجاليا بكلمة واحدة؛ فإنها لم تزد على أن أظهرت دهشة عميقة، فاستياء شديداً، ثم انفجرت ضاحكة، وتهكمت على الأمير، واستهزأت بجميع الذين كانوا يسألونها.

ومضت إليزابيث بروكوفيفنا إلى سريرها لتضطجع قليلاً، ثم لم تعد إلى الظهور إلا ساعة الشاي، في اللحظة التي يفترض أن الأمير يصل فيها. فكانت ترتعش من شدة الانفعال بانتظار مجيء الأمير، حتى إذا وصل أوشت أن تصاب بنوبة عصبية.

أما الأمير فقد دخل خائفاً وجللاً، كمن يخطو ملتصقاً طريقه في الظلام. وكان يبتسم ابتسامة غريبة وهو ينظر إلى الحضور حتى وكأنه يسألهم لماذا لا يرى أجاليا في الغرفة. لقد دهش أشد الدهشة حين لاحظ منذ وصوله أن الفتاة غائبة. وكان الجمع لا يضم إلا أهل الدار فما من غريب بينهم. حتى الأمير «شتش...»، كانت قد احتجزته في بطرسبرج أمور نشأت عن وفاة عم أوجين بافلوفتش. وقد أسفت إليزابيث بروكوفيفنا على غيابها. «لو كان هنا لوجد شيئاً يقوله حتماً!». وكانت هيئة إيفان فيدروفتش تدل على هم عميق وغم شديد. وكانت أختا أجاليا رصينتين رزينتين تلتزمان الصمت كأنهما تعاهدتا على ذلك.

لم تعرف إليزابيث بروكوفيفنا من أي طرف تبدأ الحديث. وها هي ذي تفرغ غضبها فجأة بمناسبة الكلام على السكك الحديدية، وترشق الأمير بنظرة تحمل معنى التحدي.

وا أسفاه! إن أجاليا لم تجئ بعد، فما هو ذا الأمير يحس بأنه ضائع هالك! كان يشعر بارتباك شديد وحيرة بالغة، وحاول بتمتمة مضطربة أن يقول إن إصلاح شبكة السكك الحديدية يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة، ولكن آديلايد أخذت تضحك على حين فجأة، فإذا هو يرى نفسه أعزل مرة أخرى، فقد انتزع منه هذا الضحك كل سلاح. وفي تلك اللحظة دخلت أجاليا هادئة رصينة وقورة، فردت على تحية الأمير رداً فيه أبهة واحتفال. ومضت تجلس ببطء مهيب في أبرز مكان مرموق حول المائدة المستديرة. ثم ألفت على الأمير نظرة مستفهمة سائلة. فأدرك الجميع أن لحظة تبديد جميع أنواع سوء التفاهم قد حانت.

قالت أجاليا تسأل الأمير بلهجة واثقة توشك أن تشتمل على قسوة:

- هل وصلك قنفذي؟

فأجاب الأمير وقد احمر احمراراً شديداً وشعر بانھیار:

- نعم.

- فقل لنا على الفور ماذا ترى في هذا؟ ذلك أمر لا بد منه ولا غنى عنه حتى يهدأ

بال أمي، وحتى يهدأ بال أسرتنا كلها.

فهتف الجنرال فجأة يقول بقلق:

- آجلایا... ما هذا الكلام؟

وأردفت إلیزابت بروکوفینا تقول مرتاعة:

- هذا یتجاوز كل حد من الحدود!

فردت الفتاة على كلام أمها تقول بشيء من الشدة:

- لیست المسألة مسألة حدود یا ماما. لقد بعثت الیوم إلى الأمير قنضاً، فأرید الآن أن أعرف ما الذي یراه هو فی هذا من رأي. إنني مصغيةٌ إلیك یا أمیر.

قال الأمير یسألها:

- ماذا تقصدين بكلمة «الرأي» هنا یا آجلایا إیفانوفنا؟

- أقصد رأيك فی أمر إرسال القنض إلیك طبعاً!...

- أنا أقدرُ یا آجلایا إیفانوفنا... إنك تريدین أن تعرفي كيف استقبلت أنا فكرة إرسال القنض إلی... أي كيف نظرت إلى الأمر... أعنی كيف فهمت مسألة إرسال قنض... فإذا صدق ظني.. فإنني أفترض.. باختصار..
وانقطعت أنفاسه فصمت.

فاستأنفت آجلایا استجوابها قائلة له بعد خمس ثوان:

- هیه.. ما أراك قلت شيئاً ذا بال!.. طیب... أنا أوافق على أن ندع أمر القنض جانباً. ولكن یسرني ویریحني أن أستطیع أخيراً أن أضع حداً لجميع الالتباسات التي تجمعت حتى الآن وتراكم بعضها فوق بعض. فاسمح لی أن أعرف من فمك أنت تنوي أن تخطبني للزواج أم لا؟

صاحت إلیزابت بروکوفینا تقول:

- آه... رباه!...

وارتعش الأمير. وقام بحركة تهقر إلى الوراء. وتجمد إیفان فیدروفتش شدهاً. وقطبت الأختان حواجبهما.

- لا تكذب یا أمیر. قل الحقيقة! إنهم بسببك یصدعونني بأسئلة غريبة. فهل لاستفساراتهم وتحقیقاتهم هذه من أساس تقوم علیه؟ تكلم!

أجاب الأمير وهو يتحمس فجأة:

- أنا لم أطلبك للزواج يا أجلايا إيفانوفنا.. ولكنك... تعرفين بنفسك مدى حبي لك وثقتي بك.. حتى في هذه اللحظة..

قالت أجلايا:

- لقد طرحت عليك سؤالاً: أخطبني للزواج أم لا؟

فأجاب الأمير بصوت منطفيئ:

- بل أخطبك.

قال إيفان فيدروفتش وقد انضعل انفعالاً قوياً:

- ما هكذا تُعالج هذه الأمور يا صديقي العزيز!.. وأنت يا جلاشا^[41] إذا كان ما تريد الوصول إليه هو هذا، فأمرك غريب إذن!... معذرة يا أمير، معذرة يا صديقي العزيز.

ثم أضاف ينادي زوجته مستنجداً بها:

- إليزابت بروكوفيفنا... ينبغي... ينبغي أن نفهم...

فصاحت إليزابت بروكوفيفنا تقول بحركة إنكار:

- أنا أرفض.. أنا أرفض..

- اسمحي لي يا ماما أن أقول كلمتي أنا أيضاً. أعتقد أن لي حقاً في الإدلاء بصوتي في موضوع من هذا النوع: هذه لحظة حاسمة في حياتي (تلك هي الجملة التي قالتها أجلايا بهذه الألفاظ نفسها)، فأريد أن أعرف أنا نفسي أين موقعي؟ ويسرني عدا ذلك أن تكونوا كلكم شهوداً علي... فاسمح لي أن أسألك إذن، يا أمير، ما هي الوسائل التي تنوي أن تحقق لي بها سعادتي «ما دمت قد عقدت العزم على أن تخطبني»؟

قال الأمير:

- الحقيقة أنني لا أعرف بماذا أجيبك يا أجلايا إيفانوفنا!... ما هور الجواب الذي يمكن أن يُجاب به عن هذا السؤال؟ ثم.. أهذا ضروري حقاً؟

- إنك تبدو لي مضطرباً مختنق الأنفاس، فاسترح لحظة واسترد قواك: اشرب كأساً من الماء. وسأطلب لك الشاي حالاً.

- أحبك يا آجلال إيفانوفنا، أحبك كثيراً.. ولا أحب غيرك. لا تمزحي، أرجوك.
أنا أحبك كثيراً.

- ولكن القضية قضية هامة. نحن لسنا أطفالاً، ويجب أن ننظر إلى الأمر نظرة
وضعية.. هلّا تفضلت فذكرت لنا الآن مقدار الثروة التي تملكها!

تمتم إيفان فيدروفتش يقول مشدوهاً:

- كفى كفى يا آجلال! ماذا أصابك؟ ما هكذا.. لا... لا.. حقاً!...

وهمسات إليزابيت بروكوفينا تقول بصوت يمكن أن يُسمع:

- يا للعار!

وأضافت ألكسندرا تقول بتلك اللهجة نفسها:

- هي مجنونة.

وسألها الأمير مدهوشاً:

- ثروتي؟ تقصدين المال الذي أملكها؟

- نعم، تماماً.

تمتم الأمير يقول وقد احمر وجهه:

- أملك.. أملك الآن مائة وخمسة وثلاثين ألف روبل..

فقالت آجلال معبرة عن دهشتها بصراحة دون أن تحمرّ البتة:

- لا أكثر؟ على كل حال، ليس هذا بالأمر الهام كثيراً إذا عرف المرء كيف
يقتصد في نفقاته... هل تنوي الحصول على وظيفة؟

- كنت أريد أن أقدم امتحاناً لأصبح معلم أطفال.

- فكرة عظيمة. هذه وسيلة مضمونة لزيادة مواردنا. هل يمكنك أن تصبح من
رجال البلاط؟

- من رجال البلاط؟ لم أفكر في هذا من قبل قط، ولكن..

نفدت قدرة الأختين في هذه المرة على كظم ما في نفسيهما فانفجرتا تضحكان
ضحكاً تحاولان خنقه. كانت ألكسندرا قد لاحظت منذ مدة، تشنجاً في وجه آجلال،

وعلامات ضحك تحاول آجلالآ حبسه ولكن لن يلبث أن ينطلق انطلاقاً لا سبيل إلى مغالبته. وأرادت آجلالآ أن تصطنع هيئة تهديد إزاء ضحك أختيها ولكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها ثانية واحدة فاستسلمت لنوبة ضحك مجنون يوشك أن يكون هستيرياً. ثم نهضت في النهاية بوثة واحدة، وخرجت من الغرفة راكضة.

هتفت آديلائيذ تقول:

– كنت أعلم حق العلم أن ذلك كله سينتهي بانفجارات ضحك. لقد تنبأت بذلك منذ البداية، منذ حكاية القنفذ.

فصاحت إليزابث بروكوفيذا تقول وقد اعترتها نوبة غضب شديد:

– لا، هذا لن أسمح به، لن أسمح به.

واندفعت في أثر آجلالآ.

وتبعتها ابنتاها مسرعتين. ولم يبق في الغرفة إلا الأمير ورب الأسرة.

قال الجنرال بغتة، ولكن دون أن يبدو عليه أنه يعرف هو نفسه ماذا يريد أن يقول على وجه الدقة:

– اسمع يا ليون نيقولايفتش، هل كان يمكنك تصوّر شيء كهذا؟ لا، حقا لا... هه؟

أجاب الأمير حزينا:

– أرى أن آجلالآ إيفانوفنا قد سخرت مني وضحكت عليّ.

– انتظر يا صديقي، سأذهب إلى هناك. ابق أنت هنا.. لأن... قل لي أنت على الأقل يا ليون نيقولايفتش كيف وقع ذلك كله وما معنى هذا الأمر في جملة إن صحّ التعبير؟ عليك أن تعترف يا صديقي إنني أنا الأب. ومع ذلك، رغم إنني الأب، فإنني لا أفهم من الأمر شيئا البتة! فاشرح لي أنت على الأقل!

– إنني أحب آجلالآ إيفانوفنا؛ وهي تعرف ذلك.. تعرفه منذ زمن طويل فيما أظن.

رفع الجنرال منكبيه. وقال:

– غريب... غريب!... وهل تحبها كثيرا؟

– أحبها كثيرا.

– غريب. هذا كله يبدو لي غريبا. أقصد.. مفاجأة كهذه المفاجأة... حب مباغت

كهذا الحب... اسمع يا صديقي.. أنا ليست الثروة هي التي تهمني (رغم أنني كنت أقدر أن تكون ثروتك أكبر كثيراً من المبلغ الذي ذكرت)... ولكنني أفكر في مستقبل ابنتي... الخلاصة... هل أنت قادر، إن صح التعبير، على أن تحقق لها تلك.. السعادة؟ ثم... ما هو الأمر؟ أمزاحة منها أم تصريح صادق؟ عنك أنت لا أتكلم. ولكن ماذا من جهتها؟

في تلك اللحظة سُمع صوت ألكسندرا إيفانوفنا وراء الباب. كانت الفتاة تنادي أباه:

– انتظرنِي يا صديقي العزيز، انتظرنِي. انتظر وفكر، سأرجع حالا.

وركض يلبي نداء ألكسندرا شبه مذعور.

فوجد هنالك امرأته وابنته تذرفان دموعاً غزيرة وقد ارتمت كل منهما بين ذراعي الأخرى. كانت دموعهما دموع سعادة، وحنان، ومصالحة. وكانت آجلانيا تقبل يدي أمها وخديها وشفتيها. كانت المرأتان تحضن كل منهما الأخرى بحرارة.

قالت إليزابت بروكوفيونا تخاطب زوجها:

– هي ذي يا إيفان فيدروفتش، انظر إليها الآن، إنها هي، إنها هي بكاملها!

حوّلت آجلانيا وجهها عن صدر أمها. إنه مبلل بالدموع ولكنه مشرق بالسعادة. نظرت إلى أبيها، وانطلقت تضحك ضحكة رنانة، ثم اندفعت نحوه فاحتضنته بذراعيها احتضاناً شديداً وقبلته عدة مرات. ثم ارتمت على أمها من جديد، فدفنت وجهها في صدرها حتى لا يراها أحد، وعادت تبكي. فغطتها أمها بطرف شالها.

– هيه! ماذا؟ إنك لتذيقيننا ألواناً من العذاب أيتها البنت الصغيرة القاسية!

كذلك قالت الأم لابنتها، ولكنها قالت هذا الكلام في هذه المرة مع تعبير عن الفرح، حتى وكأنها تتنفس بحرية أكبر.

فصاحت آجلانيا تقول فجأة:

– قاسية! نعم، قاسية! أنا فتاة شريرة، طفلة أفسدها الدلال! قلني هذا الكلام لأبي!.. هه... هو ذا هنا. أنت هنا يا بابا؟ هل سمعت؟

بهذا خاطبت أباه ضاحكة من خلال الدموع.

فقال الجنرال وقد أسكرته النشوة وراح يلثم يد ابنته:

- عزيزتي.. معبودتي!! أنت تحبين إذن هذا.. الفتى؟

فصرخت أجاليا تقول فجأة وهى تنصب رأسها:

- كلا ثم كلا ثم كلا!.. أنا لا أطيقه.. فتاك هذا! لا أطيقه! وإذا تجرأت أن تقول إلى مرة أخرى يا بابا... اعرف إنني أكلّمك جادة لا هازلة. هل سمعت؟ إنني أتكلم جادة!

وكانت أجاليا تتكلم جادة بالفعل، حتى لقد كانت محمرةً أشد الاحمرار وكانت عيناها تقدحان شرراً.

صمت الأب مرتاعاً، ولكن إليزابت بروكوفينا أومأت له من وراء أجاليا، فأدرك أن تلك الإيماءة تعنى «أن عليه أن لا يسألها عن شيء».

قال:

- إذا كان الأمر كذلك يا ملاكي فليكن ما تشائين. افعلي ما يحلو لك. ولكنه ينتظر هناك وحيداً. أفلا يجب إفهامه بالحسنى واللفظ إنه لم يبق له إلا أن ينصرف؟ وأوماً الجنرال لامرأته، وهو أيضاً، بغمزة من عينيه.

قالت الفتاة:

- لا، لا، لا داعي إلى هذا. لا لزوم لاصطناع «اللفظ». امض إليه أنت. وسأجيئ بعدك فوراً، سوف أستغفر هذا.. الشاب، لأنني أسأت إليه.

قال إيفان فيدروفتش مزائداً بهيئة جادة رصينة:

- بل أسأت إليه إساءة بالغة.

- إذن.. فابقوا جميعاً هنا. أذهب إليه أنا أولاً، ثم تلحقون بي فوراً، هذا أفضل.

فما إن وصلت إلى الباب حتى استدارت فجأة وقالت لهم بلهجة حزينة:

- أحس أنني سوف أضحك. أحس أنني سوف لن أتمالك نفسي عن الضحك!

ولكنها لم تلبث أن عادت تسعى إلى الأمير راکضة.

سأل إيفان فيدروفتش امرأته متعجلاً:

- هيه؟ على أي شيء يدل هذا؟ ما رأيك؟

فأجابته إليزابت بروكوفيفنا بتلك اللهجة المتعجلة نفسها:

- أخاف أن أقول رأيي. الأمر في نظري واضح.

- وهو واضح في نظري أنا أيضاً. واضح كالنهار. إنها تحب.

- بل قل إنها موثّهة حباً! ولكن ألم يكن في وسعها أن تجد خيراً منه زوجها؟

كذلك قالت ألكسندرا إيفانوفنا.

قالت إليزابت بروكوفيفنا:

- إذا كان هذا هو قدرها فليباركها الله!

قال الجنرال مؤيداً:

- نعم، هذه هي الكلمة: إنه قدرها. ولا مضر للإنسان من قدره!!

وعاد الجميع إلى الصالون حيث كانت تنتظرهم مفاجأة جديدة.

إن آجلايا، حين لقيت الأمير، لم تضحك كما كان تخشى ذلك؛ حتى إنها خاطبته بلهجة تكاد تكون خجلى. قالت له:

- اغفر لفتاة حمقاء طائشة، لطفلة أفسدها الدلال (قالت له ذلك وتناولت يده)، وثق ثقة تامة بأننا جميعاً نحمل لك احتراماً كبيراً. فإذا كنت قد سمحت لنفسى بأن أجعل براءتك الطيبة وسذاجتك الكريمة محل استهزاء وتهكم، فاصفح عني ولا تعدّ ذلك مني إلا عبثاً من عبث الأطفال. اغفر لي أنني ألححت على أمر سخيّف لا يمكن أن يتحقق طبعاً.

قالت آجلايا هذه الكلمات الأخيرة بنبرة خاصة.

وقد دخل الأب والأم والأختان إلى الصالون في اللحظة المناسبة تماماً، فسمعوا تلك الجملة التي أذهلتهم: «أمر سخيّف لا يمكن أن يتحقق طبعاً...». وقد ذهّلوا خاصة من اللهجة الجادة التي قالت آجلايا بها تلك الجملة. فنظرت الأعين إلى الأعين يسأل بعضها بعضاً. ولكن الأمير لم يكن يبدو عليه أنه فهم، وكان مشرق الوجه متهلل الأسارير.

ودمدم يقول:

- لماذا تتكلمين هكذا؟ لماذا.. أنت... تستغفريني؟

حتى لقد أراد أن يضيف إنه ليس جديراً بأن يُستغفر. من يدري؟ لعله كان قد أدرك

معنى تلك الجملة: «أمر سخيـف لا يمكن أن يتحقق طبعاً». ولكن طبيعة فكره كانت خاصة جداً بحيث أن تلك الكلمات نفسها لعلها غمرته فرحاً. وما من شك في أنه قد بلغ ذروة السعادة منذ قدر أنه سيكون في وسعه أن يعود فيرى آجلـايا، وأنه سيسمح له بأن يكلمها، وأن يبقى إلى جانبها، وأن يتنزه في صحبتها. لعل هذا الأمل وحده كان يكفيه لحياته كلها! (ولقد كان يبدو على إليزابـت بروكوفـينا أنها تخشى بغريزتها ذلك الطبع المسـاير الذي أدركته فيه، فكانت تشعر بمخاوف صميمة ما كان لها أن تستطيع الإفصاح عنها).

يصعب على المرء أن يصف ما أظهره الأمير في ذلك المساء من حرارة وحماسة وتألق وسطوع. لقد بلغ من المرح أن مرّحه انتقل إلى أولئك الذين كانوا يرونه. هذا ما قالته أختـا آجلـايا فيما بعد. لقد كان متدفقاً في الكلام، وذلك أمر لم يحدث له منذ ستة أشهر، أي منذ ذلك الصباح الذي تعرّف فيه إلى آل إيبانتشين. ولقد كان واضحاً إنه منذ عودته إلى بطرسبرج قد قرر عامداً أن ينطوي على نفسه وأن يلتزم الصمت. حتى إنه قبل ذلك المساء بزمان قصير قد قال للأمير «شتش...» على مرأى ومسمع من الجميع إنه يعتقد أن عليه أن يلتزم الصمت، لأنه لا يحق له إفساد الفكر والخط من قدره بسوء أسلوبه في التعبير. أما في ذلك المساء فإنه كاد يكون الشخص الوحيد الذي تكلم. كان حاضر البديهة طلق اللسان يجيب عن جميع الأسئلة بوضوح كامل وانشراح تام وإفاضة مسهبة. ومن جهة أخرى، لم يشتمل حديثه على أي شيء يشف عن عواطف حبه. إنه في البداية لم يعبر إلا عن أفكار جدية وآراء رصينة كانت في بعض الأحيان عويصة. وأبدى كذلك ملاحظات شخصية ونظرات خاصة. ولقد كان يمكن أن يكون هذا كله محل هـزء وتهكم لولا أن الأمير كان يتكلم «بلغة منتقاة» ويعبر عن فكره بألفاظ مختارة، كما شهد له الحضور بذلك فيما بعد.

ولئن كان الجنرال يحب حديث المواضيع الجدية، فقد وجد هو وإليزابـت بروكوفـينا أن أحاديث الأمير مسرفة في الجد، حتى أن وجهيهما قد تجهما قبيل نهاية السهرة.

ولكن الأمير قد بلغ من الانتعاش والحمياً أنه أخذ يروي في النهاية حكايات فكهة ونوادير مضحكة كان هو أول من يضحك لها، فيأخذ الآخرون يضحكون لا لأن الحكايات والنوادير مضحكة فحسب، بل كذلك لأن عدوى المرح كانت تسري إليهم منه قوية لا تغالب.

أما آجلـايا فإنها لم يكـد يفتر ثغرها عن ابتسامة طوال السهرة. ولكنها في مقابل

ذلك لم تنقطع عن الإصغاء إلى الأمير لحظة واحدة وكانت تتأمل به بنهم ما ينفك يشتد ويقوى.

قالت إليزابيث بروكوفينا لزوجها:

- انظر كيف تتأمله! إنها لا تحوّل بصرها عنه لحظة. إنها تشرب كل كلمة من كلماته. إنها كالمفتونة أو كالمسحورة. فإذا قال لها أحد إنها تحبه قلبت الدنيا رأساً على عقب.

أجاب الجنرال قائلاً وهو يرفع منكبيه:

- ما العمل؟ هذا هو القدر!

وظل الجنرال مدة طويلة يكرر هذه الجملة التي كان يحب أن يرددتها.

يجب أن نضيف إلى هذا أن الجنرال، من حيث هو رجل أعمال، كان ينظر نظرة عدم الارتياح إلى كثير من جوانب الموقف الراهن، ولا سيما خلوه من الوضوح. ولكنه كان قد قرر أن يصمت، وأن يفكر في الأمور على نحو ما تفكر.. إليزابيث بروكوفينا.

لم تدم نشوة الأسرة إلا مدة قصيرة، ففي الغداة وقعت بين آجاليا وبين الأمير مشاجرة جديدة، وتكرر ذلك في كل يوم من الأيام التي تلت. فكانت آجاليا تظل تستهزئ بالأمير وتسخر منه حتى لتكاد تعامله كما يعامل مهرج.

صحيح أنهما كانا في بعض الأحيان يتنزهان في الحديقة تحت العريشة. ولكن لوحظ أن الأمير كان في مثل هذه الأحوال يقرأ لها جريدة أو كتاباً طول الوقت تقريباً.

وبينما كان يقرأ الجريدة ذات يوم، قاطعته قائلة:

- غريب! لقد لاحظت منذ مدة طويلة أن ثقافتك ناقصة نقصاً يدعو إلى الأسف الشديد حقاً؛ فإذا سئلت عن أمر من الأمور عجزت أن تقول ماذا فعلت الشخصية الفلانية، ومتى وقع الحادث الفلاني، وما هو موضوع الكتاب الفلاني. ذلك أمر يدعو إلى الشفقة عليك والثناء لك فعلاً.

فأجابها الأمير:

- قلت لك إن حظي من التعليم ضئيل.

- فماذا بقي لك إذن؟ أي اعتبار يمكن أن أحمله لك بعد هذا؟ هيا واصل القراءة، بل

كفى الآن، توقف عن القراءة.

وفي ذلك المساء نفسه أثارت أزمة جديدة سريعة بدت للجميع لغزاً لا يفهم. فحين عاد الأمير «شتش...»، أظهرت له كثيراً من المودة واللفظ، وسألته طويلاً عن أوجين بافلوفتش (لم يكن الأمير ليون نيقولايفتش قد وصل بعد). وفجأة أباح الأمير «شتش...» لنفسه أن يلمح إلى «تغير جديد قريب سيحدث في الأسرة»، ذكر فكرة كانت قد أفلتت من إليزابت بروكوفينا هي أنه ربما كان من الأفضل إرجاء زواج آديلايد قليلاً ليتم الاحتفال بالزفافين في آن واحد معاً. فلما سمعت آجاليا هذه الكلمات غضبت غضباً شديداً فظيلاً لا يتصوره الخيال، ووصفت هذا كله بأنه «افتراضات سخيفة»، بل مضت إلى أبعد من ذلك فقالت فيما قالت: «إنها لا تنتوي أن تحل محل خليلات أي إنسان».

فوجئ الجميع بهذه الكلمات، وفوجئ بها الأبوان خاصة. وألحت إليزابت بروكوفينا، أثناء اجتماع سري مع زوجها، على ضرورة أن يسأل الأمير إيضاحاً حاسماً في أمر ناستاسيا فيليبوفنا.

فحلف إيفان فيدروفتش على أن ما قالت آجاليا لم يكن إلا «اندفاع» أثارها فيها شعور الحياء و«الخضر»؛ وأن هذه الاندفاع ما كان لها أن تحدث لولا أن الأمير «شتش...» تكلم عن الزواج، لأن آجاليا تعرف هي نفسها حق المعرفة أن الكلام عن علاقة بين الأمير وناستاسيا فيليبوفنا ليس إلا نسيمة كاذبة، وأن ناستاسيا فيليبوفنا ستتزوج روجوبين. وأضاف الجنرال إلى ذلك أن الأمير لا شأن له في هذا الموضوع كله، وأن الصلة التي زعم بعضهم أنها قامت بينه وبين ناستاسيا لا وجود لها الآن، بل ولم يكن لها وجود في يوم من الأيام إذا أردنا أن نقول الحقيقة كلها.

أما الأمير فلم يفقد شيئاً من صفاء مزاجه وبهجة نفسه وظل يتمتع بهنائه وسعادته. صحيح أنه كان يلاحظ في بعض الأحيان تعبيراً عن الحزن وعن نفاد الصبر في عيني آجاليا، ولكنه كان يعزو هذا التعبير إلى بواعث أخرى، فكانت هذه السحابة تغيب عن بصره من تلقاء نفسها. كان قد اقتنع فلا يمكن أن يزعرع اقتناعه شيء. ولعله قد بالغ في هدوء البال وطمأنينة النفس؛ وهذا على الأقل ما يشعر به هيبوليت الذي لقيه ذات يوم في الحديقة العامة.

لقد استوقف هيبوليت الأمير يومئذ وبدأ كلامه بأن قال له:

– هيه! ألم أكن على حق يوم قلت لك إنك موته حياً؟

فمدَّ الأمير إليه يده وهنأه على أن وجهه يدل على تحسُّن صحته. وكان يبدو على المريض نفسه أنه استردَّ بعض أمله وشجاعته، وذلك ما يحدث للمصدورين في كثير من الأحيان.

ولقد كان هيبوليت ينتوي خاصة، حين اقترب من الأمير، أن يقول له كلاماً جارحاً عن هيئة السعادة التي تبدو عليه. ولكنه سرعان ما زایلته هذه الفكرة وأخذ يتكلم عن نفسه، فأفاض في إرسال الشكايات تلو الشكايات متكررة لا نهاية لها ولا اتساق بينها. وختم كلامه قائلاً:

– لا تستطيع أن تتصور مدى ما يتصفون به هناك من شدة النزق والصغار وسرعة الاحتياج وقوة الأثرة وحب الظهور وتفاهة النفوس. هل تصدق أنهم قبلوا إيوائي على شرط صريح هو أن أموت بأقصى سرعة ممكنة. لذلك تراهم الآن غاضبين غضباً شديداً لأنني لم ألفظ آخر أنفاسي بل تحسنت صحتي. يا للمهزلة! أراهن على أنك لا تصدق كلامي!

امتنع الأمير عن الإجابة.

وأضاف هيبوليت يقول بإهمال:

– حتى ليخطر ببالي أحياناً أن أعود أسكن عندك! أنت لا تصدق إذن أنهم لا يتورعون عن إيواء إنسان بشرط أن لا يتأخر موته، هه؟

قال الأمير:

– كنت أتصور أنهم حين دعوك إليهم كانوا يسعون إلى هدف آخر وينفذون خطة أخرى.

– هئ هئ! ما أنت بالبسيط إلى الحد الذي يحلو للناس أن يزعموه! لم يحن الحين بعد، وإلا لكشفت لك بعض الأمور عن جانبا الصغير هذا وعن الآمال التي تملأ رأسه. إنهم يحاولون نسفك يا أمير. وهم يبذلون في سبيل ذلك جهوداً كبيرة... لذلك يشفق عليك المرء ويرثي لحالك حين يراك تنام نوما هادئاً هذا الهدوء.. ولكن من المؤسف أنك لا تستطيع أن تكون غير هذا!

سأله الأمير ضاحكاً:

– أهذا ما يجعلك ترثي لحالي! هل ترى إذن أنني أكون أسعد حالاً إذا كنت أكثر قلقاً؟

- خير للإنسان أن يكون تقياً و«عارفاً»، من أن يكون سعيداً و... مخدوعاً. يبدو أنك لا تخشى منافسة من تلك الجهة، هه؟

- إن تلميحاتك إلى المنافسة فيها شيء من الاستهتار يا هيبوليت. يؤسفني أنني لا يحق لي أن أجيبك. أما جبريل آرداليونوفتش، فلا بد أن تسلّم لي بأنه يصعب عليه أن يحافظ على الهدوء بعد كل ما فقد، هذا إذا كنت تعرف شؤونه ولو بعض المعرفة. يخيل إليّ أن من الأفضل أن ينظر إلى الأمور من هذه الزاوية. ما يزال في وسعه أن يصلح نفسه. إن أمامه سنين طويلة، وإن الحياة غنية بالدروس غنى لا حدود له.. على أن... على أن...

هنا أخذ الأمير يتمتم متلعثماً وقد فقد تسلسل أفكاره فجأة، فقال:

-... أما مسألة نفسي... فإنني لا أفهم حتى ماذا تقصد. الأفضل ترك هذا الحديث يا هيبوليت.

- لنتركه الآن. لا سيما وأنت لا تستطيع أن تستغني عن إظهار كرمك والتدليل على سماحتك. نعم يا أمير، أنت لا بد لك من أن تلمس بيدك. وهبك لمست بيدك فإنك لن تصدق. ها ها!.. ولكن قل لي: ألا تحتقرنى الآن احتقاراً عميقاً؟

- لماذا؟ لأنك تألمت وتآلم أكثر منا جميعاً؟

- لا، بل لأنني غير جدير بالآمي.

- إن من أمكنه أن يتآلم أكثر من الآخرين هو بهذا نفسه جدير بتلك الزيادة من المحن. حين قرأت أجاليا إيفانوفنا اعترافك، تمتّ أن تراك، ولكن..

قاطعته هيبوليت، كأنما ليغير مجرى الحديث بأقصى سرعة، قاطعه قائلاً:

- إنها ترجئ... ذلك مستحيل عليها.. أفهم، أفهم!... بالمناسبة: يقال إنك أنت الذي قرأت لها، بصوت عال، كل تلك الثثرة المشوشة المضطربة. الحق أنني كتبت ما كتبت... وفعلت ما فعلت، في نوبة هذيان. إنني لا أتصور كيف يستطيع امرؤ أن يكون - لا أقول قاسياً (فلو قلت ذلك لكنت أذل نفسي) بل أقول صبياناً ومغترّاً وحقوقاً إلى الحد الذي يمكنه فيه أن يؤاخذني على هذا الاعتراف وأن يستعمله سلاحاً ضدي! لا تخف، فلست أتكلم عنك أنت...

- ولكن يؤسفني أن أراك تتبرأ من تلك الأوراق يا هيبوليت، فإن فيها نبرة صدق واضحة! حتى الفقرات السخيفة منها وهي كثيرة (هنا صعر هيبوليت وجهه)، إنما يكفر

عنها الألم، لأن الإدلاء بهذه الاعترافات قد أوجب هو نفسه مواجهة الألم أيضاً... ولعله كان فعلاً كبيراً من أفعال البسالة. لا شك أن الفكرة التي انقدت لها كانت تستوحي عاطفة نبيلة، مهما تكن المظاهر. كلما فكرت في هذا مزيداً من التفكير، اقتنعت به مزيداً من الاقتناع، أحلف لك. إنني لا أحكم عليك. إنني أقول لك رأيي؛ ويؤسفني إنني صمتُ حينذاك...

احمر وجه هيبوليت. وقد خطر بباله في لحظة من اللحظات أن الأمير يهزل، وأنه يمد له شباكاً أو ينصب له فخاً. ولكنه تأمل وجهه فلم يسعه إلا أن يؤمن بأنه صادق مخلص. فعاد الهدوء إلى أسارير وجهه. قال:

– ويجب أن أموت!

وأوشك أن يضيف إلى ذلك قوله: «كيف يجوز أن يموت رجل مثلي؟». لكنه أمسك، وتابع كلامه يقول:

– لا تستطيع أن تتخيل مدى القشعريرة التي يحدثها في نفسي صاحبك جانبا، لقد اعترض عليّ ذات يوم قائلاً إن الذين سمعوا اعترافي قد يكون بينهم ثلاثة أو أربعة سيموتون قبلي! يا لها من فكرة! هو يظن أن هذا يعزيني. ها ها!... هم أولاً لم يموتوا بعد. ثم هبهم نفقوا قبلي فعلاً، فلا شك أنك تسلم لي بأن ذلك لا يسري عني كثيراً. إنه يقيس الناس بنفسه. على أنه مضى إلى أبعد من ذلك أيضاً. لقد شتمني قائلاً ببساطة: إن على المرء في مثل هذه الحالة، إذا كان يحترم نفسه، أن يموت صامتاً، وأن هذه القضية كلها لا تشتمل من جانبي إلا على أنانية! لقد غلا قليلاً، هه؟ والحق أن الأنانية فيه هو! ما أنعم أنانية أمثال هؤلاء الناس، بل قل ما أكثف أنانية هؤلاء الناس الذين لا يشعرون مع ذلك بأنهم أنانيون!... هل قرأت، يا أمير، شيئاً عن موت رجل اسمه ستيفان جلييوف^[42] في القرن الثامن عشر؟ لقد وقع الخبر تحت بصري أمس مصادفة..

– من هو ستيفان جلييوف هذا؟

– هو رجل رفع على الخازوق في عهد بطرس الأكبر.

– آ... رباه! عرفت من هو! لقد ظل الخازوق خمس عشرة ساعة، في برد شديد، لا يغطيه إلا معطف على كتفيه، ثم مات صامداً بقوة نفسية خارقة. نعم قرأت هذا.. ولكن ما الذي تريد أن تقول؟

- أسأل الله أن يهب لبعض الناس ميتة كتلك الميتة! ولكن أن لا يهبها لنا نحن.
أتراك تظن مع ذلك أنني غير قادر على أن أموت كما مات جلييوف؟

قال الأمير مرتبكاً:

- لا، لا، أبداً... كل ما أردت أن أعبر عنه هو أنك.. بل قل إنني لم أرد أن أزعج
أنك لا تشبه جلييوف، وإنما أردت أن أشير إلى أنك... في ذلك الزمان يمكن أن...

- حذرت: تريد أن تقول إنني في ذلك الزمان يمكن أن أكون مثل أوسترمان^[43] لا
مثل جلييوف. أليس هذا ما تريد أن تقوله؟

سأله الأمير مدهوشاً:

- أي أوسترمان؟

فتمتم هيبوليت يقول متحيراً:

- أوسترمان، الدبلوماسي أوسترمان، الذي عاصر بطرس الأكبر.

وتبع ذلك صمت فيه ارتباك.

ثم قال الأمير بلهجة بطيئة بعد لحظة تأمل:

- لا، ليس ذلك ما أردت أن أقوله. ليس يخيّل إليّ إنه يمكن أن تكون مثل
أوسترمان...

اكفهر وجه هيبوليت.

فأسرع الأمير يضيف مستدركاً:

- على كل حال، سأقول لك الآن لماذا قامت في ذهني هذه الفكرة. إن أناس ذلك
الزمان (ويميناً أن هذا قد خطف انتباهي دائماً) كانوا يختلفون اختلافاً كبيراً عن أناس
الزمن الذي نعيش فيه. لكنهم كانوا من جنس آخر. نعم، حقاً، لكنهم ينتمون إلى نوع
إنساني غير النوع الذي ننتمي إليه نحن. في ذلك الزمان، كان الإنسان إنسان الفكرة
الواحدة إن صح التعبير. أما معاصرونا فلأن أعصابهم أكثر توتراً، ولأنهم أكثر تطوراً
وأشد حساسية فهم يستطيعون أن يتبعوا فكرتين أو ثلاثاً في آن واحد... إن الإنسان
الحديث أوسع وأرحب. وإنني أؤكد لك أن هذا هو ما يمنعه من أن يكون كتلة واحدة
متسقة الجوانب كما كان إنسان القرون الخوالي.. إنني... إنني لم أقل كلامي إلا بهذا

المعنى، وليس...

- إنك تحاول الآن أن تعزيني عن معارضتك إياي بتلك السذاجة. ها ها!... إنك لطفل تماماً يا أمير! على وجه العموم، ألاحظ أنكم جميعاً تعاملونني كما يعامل فنجان من خزف... لا بأس!... لست أزعل. على كل حال، لقد جرى حديثنا مجرى مضحكاً!... أنت في بعض الأحيان طفل حقاً يا أمير. واعلم من جهة أخرى يا أمير إنني كنت أطمع في أن أكون شيئاً أفضل من أوسترمان. لا يستحق العناء أن يُبعث المرء حياً من بين الأموات في سبيل أن يكون رجلاً مثل أوسترمان... وعلى كل حال يجب في رأيي أن أموت بأقصى سرعة ممكنة، وإلا لرأيتني أتمنى أنا نفسي أن.. دعني!... إلى اللقاء! ولكن قل لي: ما هي في رأيك أفضل ميتة؟ أقصد... ما أقرب ميتة إلى الفضيلة في نظرك؟ عجيب! لماذا لا تجيب؟

قال الأمير بصوت عذب:

- مرّ بقربنا وأنت تغفر لنا سعادتنا!

- ها ها ها! هذا بعينه ما كنت أفكر فيه! لقد توقّعت كلاماً من هذا النوع حتماً! ومع ذلك، فإنك.. فإنك. هيا... هيا... طيب! آه! يا للناس البلغاء! إلى اللقاء! إلى اللقاء!

الفصل السادس

إن النبا الذي نقلته باربارا آرداليونوفنا إلى أخيها كان صحيحاً كل الصحة: ستقام سهرة في فيلا آل إيبارنتشين، ومن المتوقع أن تحضرها الأميرة بيلوكونسكايا. لقد وجهت الدعوات لذلك المساء فعلاً. لكن باربارا تكلمت في الأمر، على عاداتها، بحرارة تزيد قليلاً عن الحدّ اللازم. صحيح أن السهرة قد تقررت بسرعة متعجلة، ووسط اضطراب شديد لا محل له. ولكن مردّ ذلك إلى أنه «لا شيء في هذه الأسرة يتم كما يتم في غيرها»؛ وكل شيء يُفسّر بنفاد الصبر لدى إليزابت بروكوفينا التي كانت «لا تريد أن تبقى في الشك»، كما يُفسّر بما يعانيه الأبوان من قلق وهمّ وخوف على سعادة ابنتهما الحبيبة.

ثم إن الأميرة بيلوكونسكايا كانت على وشك أن تسافر فعلاً؛ وإذ إن لحمايتها وزناً كبيراً في المجتمع، وإذ كان المأمول أن تهتم كثيراً بالأمير، فقد كان الأبوان يعولان على ما تنعم به تزكياه «السيدة العجوز» من قدرة كبيرة على فتح أبواب المجتمع الراقي أمام خطيب آجلایا. فإذا كان في هذا الزواج جانب غير طبيعي أو غير عادي كان في وسع الحماية التي تسبغها الأميرة بيلوكونسكايا عليه أن تخفي ذلك الجانب. ولقد كانت عقدة العقد لدى الأبوين إنهما كانا لا يستطيعان أن يفصلا في هذا السؤال: «هل يشتمل هذا الزواج على شيء غير طبيعي، وإلى أي حد؟ أم هو طبيعي جداً فلا غرابة فيه؟». لذلك فإن الرأي الصريح الصديق الذي يمكن أن يقدمه أشخاص لهم قيمتهم وكفاءتهم ووزنهم يمكن أن يكون موافقاً جداً في هذا الأوان الذي لم يُبرم فيه شيء حاسم بعد، بفضل موقف آجلایا.

وعلى كل حال كان لا بد من إدخال الأمير، عاجلاً أو آجلاً، إلى المجتمع الراقي الذي لا يعرف الأمير عنه شيئاً حتى الآن. ففي وسعك أن تقول بتعبير آخر إن المراد كان هو «عرض» الأمير. على أن ذلك لا ينفي أن السهرة ستحتفظ بطابع البساطة، وإنها لن تضم إلا «أصدقاء للأسرة» وعددهم محدود جداً. وإلى جانب الأميرة بيلوكونسكايا كان يؤمل حضور زوجة شخص مرموق هو رجل من كبار أصحاب المناصب العليا. أما بين الشبان فكان لا ينتظر إلا حضور أوجين بافلوفتش الذي كان

عليه عند حضوره أن يرافق الأميرة بيلوكونسكايا.

ولقد علم الأمير، قبل ثلاثة أيام، إن هذه السيدة ستجيئ، لكنه لم يسمع عن السهرة إلا قبل موعدها بيوم واحد. وقد لاحظ طبعاً ما كان يبدو على أفراد الأسرة من انشغال، وأدرك من بعض الإشارات أنهم ليسوا واثقين بأنه سيحدث في نفوس الناس أثراً حسناً. ولكن أفراد أسرة إيبانتشين جميعاً كانوا يعدّونه عاجزاً من شدة سذاجته وبساطته عن إدراك أنواع القلق التي يحدثها لهم، لذلك كانوا في قرارة أنفسهم ينظرون إليه شاعرين بغم وخوف.

أما هو فكان لا يكاد يهتم أي اهتمام بهذا الحديث، وكان ما يشغل باله غير هذا تماماً. إن آجاليا تزداد نزقاً وجهامة وتكثر نزواتها ساعة بعد ساعة. فكان ذلك يقتله قتلاً. ولما علم أن أوجين بافلوفتش سيحضر الاستقبال أيضاً، أظهر فرحاً شديداً وقال إنه يود أن يراه منذ مدة طويلة. فإذا بهذه الكلمات، لسبب لم يستطع أن يدركه، تسوء الجميع وتزعجهم. وإذا بآجاليا تخرج من الغرفة غاضبة. وفي وقت متأخر من الليل، بعد الساعة الحادية عشرة، بينما كان الأمير يهم بالانصراف، انتهزت آجاليا هذه الفرصة فأعادته لتقول له بضع كلمات في خلوة:

— أود أن لا تجيء إلينا غداً طوال النهار، وأن لا تظهر إلا في المساء، بعد أن يلتئم شمل جميع المدعوين. هل تعرف أننا نقيم استقبالا؟

قالت آجاليا هذه الكلمات بلهجة فيها تملل وقسوة. هذه أول مرة تشير فيها إلى «السهرة». كانت هي أيضاً تكره فكرة السهرة هذه ولا تكاد تطيقها. لقد لاحظ الجميع ذلك. ولعلها كانت تشعر برغبة مسعورة في أن تختلق مشاجرة مع أبويها في هذه المناسبة، غير أن شعوراً بالكبرياء والحياء صدها عن ذلك. وقد أدرك الأمير فوراً إنها توجس هي أيضاً بعض المخاوف في شأنه، لكنها لا تريد أن تعترف بالداعي إليها والباعث عليها. وأحس هو نفسه فجأة بنوع من الرعب. قال يجيبها:

— نعم، أعلم. إنني مدعو.

وأحست بحرج من المضي إلى أبعد من ذلك.

قالت له وهي تنفجر غاضبة، دون أن تدري لماذا، ولكن دون أن تستطيع السيطرة على نفسها:

— هل يستطيع المرء أن يكلمك جاداً ولو مرة واحدة في حياتك؟

- تستطيعين ذلك. إنني مصغٍ إليك. يسرني هذا.

كذلك تمتم الأمير.

فصمتت آجلايا لحظة، ثم قررت أن تتكلم، ولكن بنفور واضح لا يخفى. قالت:

- لم أشأ أن أناقشهم في هذا الأمر: هناك حالات لا يستطيع المرء فيها أن يسمعهم صوت العقل. لطالما كرهت بعض القواعد التي تحكم سلوك الناس في المجتمع الراقي والتي تخضع لها ماما بل تُستعبد لها استعباداً. أنا لا أتكلم عن بابا: فإن المرء لا يطالبه بشيء. ولا كذلك ماما، فإن لها خلقاً نبيلاً وطبعاً يتميز بالشهامة حتماً. حاول أن تطلب منها شيئاً دنيئاً فترى! ولكنها تنصاع مع ذلك لهذا المجتمع الدنيء الذي هو المجتمع الراقي!... لا أتكلم عن الأميرة بيلوكونسكايا: فهذه عجوز شريرة وطبيعتها سيئة رديئة؛ ولكنها تملك شكيمة قوية فتعرف كيف تمسكهم جميعاً بيديها. إن لها هذه الخصلة على الأقل!. آه! يا للحظة! والأمر مضحك حقاً: لقد كنا ننتمي دائماً إلى الطبقة المتوسطة، إلى الطبقة المتوسطة تماماً. فما بالنا نريد دفع أنفسنا إلى المجتمع الراقي؟ إن أختي تهويان هما أيضاً إلى هذه الآفة. لقد أفسد عقلهما الأمير «شتش...» لماذا سررت ذلك السرور كله حين عرفت أن أوجين بافلوفتش آت؟

قال الأمير:

- اسمعي يا آجلايا. يخيل إليّ أنك تخافين كثيراً أن «أتبهدل» غداً.. في ذلك المجتمع؟

قالت آجلايا وقد احمرت احمراراً شديداً:

- أخاف عليك؟ لماذا يجب أن أخاف عليك؟ هل يهمني أنا أن... تتجلجل أنت بالخزي؟ ما شأني أنا بهذا؟ ثم كيف يمكنك أن تستعمل مثل هذه التعابير؟ ما معنى كلمة «تبهدل»؟ هذا لفظ منحط عامي مبتذل؟

- كلمة من كلمات... التلاميذ.

- نعم.. كلمة من كلمات التلاميذ. كلمة بشعة. واضح أنك تنوي استعمال ألفاظ من هذا النوع في الحديث غداً. ما عليك إلا أن تبحث في المعجم، متى عدت إلى البيت، عن ألفاظ أخرى من هذا الطراز: إنك بذلك تضمن لنفسك أن تحدث في أثراً رائعاً!... خسارة أنك تجيد الدخول إلى صالون! أين تعلمت هذا؟ هل تستطيع كذلك أن تحسن احتساء فنجان من الشاي حين ينظر الجميع إليك ليروا كيف يمكن أن تفعل

ذلك؟

- أحسب أنني أستطيع.

- يؤسفني هذا: لأنه يفقدني فرصة التندر عليك والضحك منك. حطّم على الأقل إناء الخزف الصيني الموجود في الصالون. إنه غالي الثمن. هلّا سررتني فحطّمته؟ إنه هدية؛ حطّمه فتجنّ ماما وتطفق تبكي أمام الجميع من شدة تعلقها به وحرصها عليه. قام بحركة من تلك الحركات المعهودة فيك: اخبط الإناء واكسره. تعمد أن تجلس قربه.

- بالعكس. سأحاول أن أجلس بعيداً عنه إلى أقصى حد. شكراً على أنك نبّهتني إلى هذا.

- هذا أنت خائف منذ الآن من حركاتك وإشارات يديك الكثيرة! وأراهن على أنك ستختار «موضوعاً»، للحديث تسترسل فيه مطنباً مسهباً.. موضوعاً جدياً، رفيعاً، يتاح لك فيه أن تستعرض معارفك! ما أجمل ذلك!

- أعتقد أن هذا يكون غباءً.. إذا لم يكن في محله ولم يناسب المقام.

قالت أخيراً وقد نفذ صبرها:

- اسمع ما سأقوله لك الآن مرة واحدة إلى الأبد: إذا تكلمت في موضوع كموضوع عقوبة الإعدام أو الوضع الاقتصادي في روسيا، أو النظرية القائلة بأن «الجمال سينقذ كل شيء».. فسيسرني هذا، إنه يتيح لي أن أستهزئ وأضحك كثيراً، ولكنني أحذرك منذ الآن: إذا فعلت شيئاً من هذا فلا تظهرن أمامي بعدئذ قط! هل تسمعين؟ إنني أتكلم جادة لا هازلة، إنني أتكلم في هذه المرة جادة!

وقد قالت هذا التهديد بلهجة «الجد» فعلاً. حتى لقد كان في أقوالها وفي نظرتها تعبير غير معهود لم يسبق للأمير أن لاحظته فيها يوماً حتى ذلك الحين ولا يشبه رغبة في مزاح حتماً!

- أرى أنك تتصرفين تصرفاً سيجعلني أصاب قطعاً بنوبة «ثرثرة»... وقد أفسد إناء الخزف أيضاً. منذ قليل كنت غير خائف من شيء، أما الآن فقد أصبحت أخاف كل شيء. أنا الآن على يقين من أنني لن أحدث في نفوس الحضور أثراً حسناً.

- ما عليك إذن إلا أن تصمت. اجلس وابق ساكناً ساكتاً.

- مستحيل. إنني مقتنع بأن الخوف سيدفعني إلى الكلام وسيجعلني أكسر إناء الخزف. وقد تزلّ قدمي فأقع على الأرض أو أرتكب حماقة أخرى من هذا النوع، فقد سبق أن حدث لي ذلك. وسأظل أحلم بهذا طوال الليل. لماذا كلمتني في هذا الأمر؟

نظرت إليه آجلايا مظلمة الوجه.

فقال الأمير بلهجة قاطعة:

- هل تعلمين؟ إنني أفضل أن لا أجيء غداً. أستمض وكفى!

فضربت آجلايا الأرض بقدمها واصفر وجهها غضباً وقالت:

- رباه! هل رأى أحد شيئاً كهذا في يوم من الأيام؟ يقرر أن لا يجيء بينما السهرة مقامة من أجله هو! آه.. يا رب!... ما أعظمها سعادة أن يعامل المرء رجلاً مثل... أن يعامل المرء رجلاً يبلغ من البعد عن العقل ما يبلغه هذا الرجل..

قاطعها الأمير بقوة قائلاً:

- طيب.. طيب... سأجيء... سأجيء... لك عليّ عهد أن أجيء وأن لا أنطق بكلمة واحدة طوال السهرة. ذلك ما سأفعله.

- وسيكون هذا حسناً جداً. ولكنك قلت منذ برهة: «سأستمض»، فمن أين تجيئ بأمثال هذه التعابير؟ أنت تتعمدّ تعمداً أن تكلمني بهذه اللغة؟ إنك تقصد مضايقتي ومناكدتي، أليس كذلك؟

- عفوك. هذه أيضاً كلمة من كلمات التلاميذ! لن أستعملها بعد الآن. أنا أفهم حق الفهم أن تساورك مخاوف في شأني (لا... لا تزعلي)، وهذا يسرني سروراً عظيماً. إنك لا تستطيعين أن تتصوري مدى ما أشعر به الآن من خوف، ومدى ما تغمرني به كلماتك من فرح. ولكن ذلك الخوف كله لا قيمة له. أؤكد لك إنه سخف. شهد الله يا آجلايا أن الفرّح وحده سيبقى. إنني لأحب كثيراً أن أراك طفلة إلى هذا الحد، طفلة تبلغ هذا المبلغ من نبل النفس وطيب القلب! آه يا آجلايا... ما أروعك!

كانت آجلايا على وشك أن تغضب، غير أن عاطفة كانت هي نفسها لا تتوقعها قد اجتاحت كل روحها في تلك اللحظة على حين فجأة. فقالت تسأله بغتة:

- أئن تلومني ذات يوم... في المستقبل.. على هذه الأقوال الفظة التي خاطبتك بها

الآن؟

- دعك من هذا! ماذا تظنين؟ ولكن ما لي أرى وجهك يصطبغ بالحمرة من جديد؟ هذه نظرتك تعود إلى الإظلام! إنها مظلمة مسرفة في الإظلام أحياناً يا أجاليا! لم تكن لك هذه النظرة في الماضي. إنني أعرف مصدر هذا...

- اسكت.. اسكت..

- بل الأفضل أن أتكلم. إنني أريد أن أفاتحك في هذا الأمر منذ مدة طويلة. وقد سبق أن كلمتك فيه... ولكن ذلك لم يكفي، لأنك لم تصدقيني.. إن هناك شخصاً يقف بيننا...

- اسكت. اسكت. اسكت. اسكت!

هكذا قاطعته أجاليا بشدة، ممسكةً ذراعه إمساكاً قوياً عنيفاً، وقد اعترها نوع من الرعب.

ونوديت في تلك اللحظة، فتركته وولت هاربة، سعيدة بهذا المخرج.

أصيب الأمير بحمى طوال الليل. من الغريب أن الحمى أخذت تجتاحه كل ليلة منذ بعض الوقت. وفي هذه المرة وصل إلى حالة قريبة من الهذيان، فكانت تحاصره هذه الفكرة: ماذا لو أصابته نوبة صرع في الغد أمام جميع الضيوف؟ ألم يسبق أن أصيب بنوبات في حالة اليقظة؟ جمدته هذه الفكرة رعباً. وظل طول الليل يرى نفسه في سهرة مدهشة لا مثيل لها وسط أناس غرباء. إن الشيء الأساسي هو أنه أخذ يسهب في الثرثرة. كان يعرف أن عليه أن يصمت، ومع ذلك ظل يتكلم طول الوقت محاولاً إجبار سامعيه على شيء ما. وكان أوجين بافلوفتش وهيوليت بين المدعوين، وكان يبدو أن بينهما علاقة وثيقة حميمة.

واستيقظ بعد الساعة الثامنة على صداد وأفكار مشوشة ومشاعر غريبة. إن رغبة عارمة جامحة لا يعرف لها سبباً معقولاً تستبد الآن به، وهي أن يرى روجويين. لماذا؟ ليس يدري. ثم ها هو ذا يقرر أن يذهب إلى هيوليت دون أن يكون هنالك باعث واضح على ذلك. كان قلبه قد بلغ من الاضطراب إن جميع أحداث هذا الصباح، رغم أنها أحدثت في نفسه أثراً قوياً، لم تستطع أن تستنفذ كل انتباهه. ومن بين هذه الأحداث زيارة ليبيديف له.

لقد جاء ليبيديف في وقت مبكر، بعد الساعة التاسعة بقليل، وكان ثملاً بعض الشيء. كان الأمير قد لاحظ، رغم أنه أصبح في الآونة الأخيرة قليل الانتباه، أن ليبيديف صار

رث الشياب منذ غادر الجنرال إيفولجين بيته، أي منذ ثلاثة أيام. ذلك أمر يخطف البصر ولا يحتاج إلى ملاحظة قوية. إن ليبيديف شديد الوساعة والثرثرة الآن، فملابسه ملطخة بالبقع، ورباط عنقه مقلوب، وياقة ردنجوته فيها تمزقات. وهو يحدث في بيته كثيراً من الصخب والجلبة حتى ليسمع زعيقه من خلال فناء الدار. وقد جاءت فيرا إلى الأمير باكية في ذات يوم، فروت له أموراً شتى.

أخذ ليبيديف يتكلم أمام الأمير بلهجة غريبة كل الغرابة، لا طمأ صدره متهماً نفسه بفعله سيئة لا يدري السامع ما عسى تكون... وختم كلامه قائلاً بلهجة المأساة:

– لقد حصل.. وتلقيت جزاء خيانتى وحطّتي... تلقيت صفة!

قال الأمير:

– صفة؟ ممن؟.. وفى مثل هذه الساعة المبكرة؟

فأجاب ليبيديف وهو يتسم ابتسامة ساخرة:

– فى مثل هذه الساعة المبكرة؟ لا شأن للساعة فى الأمر.. حتى ولو كانت العقوبة عقوبة جسمية.. ولكنها عقوبة معنوية... عقوبة نفسية لا جسمية، تلك العقوبة التى تلقيتها!...

قال ليبيديف ذلك وجلس فجأة دون احتفال فى هذه المرة، وأخذ يروي قصته. وإذا كانت القصة مفككة جداً، فقد قطب الأمير حاجبيه وتهيأ للانصراف. غير أن بضع كلمات خطفت انتباهه على حين فجأة، فلبث فى مكانه كالمتجمد من الدهشة.. لقد كان السيد ليبيديف يروي أموراً غريبة.

يبدو أنه تكلم فى أول الأمر عن رسالة ما، ذكر بصدها اسم آجلایا إيفانوفنا. ثم أخذ، دون أي تمهيد، يتهم الأمير نفسه بألفاظ مرّة، ويفهمه أن الأمير قد أهانه، لأنه – أي الأمير – قد شرفه فى أول الأمر بأن محضه ثقته فى أمور تتعلق «بشخص» ما (يقصد ناستاسيا فيليبوفنا)، ثم قطع صلت به قطعاً كاملاً وأبعده إبعاداً مشيناً مهيناً، حتى لقد تملص تملصاً فظاً من الإجابة عن «سؤال بريء يتعلق باحتمال حدوث تغير قريب فى المنزل». واعترف ليبيديف وهو يذرف دموعاً من دموع السكارى أنه بعد تلك الإهانة أصبح لا يطيق الصبر على هذا الوضع، لا سيما وأنه كان يعرف... أشياء كثيرة، من روجويين، ومن ناستاسيا فيليبوفنا، ومن صديقة لها، ومن باربارا آرداليونوفنا... وحتى من.. من آجلایا إيفانوفنا نفسها. «تصور أن هذا حدث بواسطة فيرا، بواسطة

ابنتي الحبيبة فيرا، ابنتي الوحيدة.. نعم نعم. على أنها ليست وحيدة، ما دام لي ثلاث بنات. ولكن من ذا الذي كتب إلى إليزابيث بروكوفينا ليطلعها على الأمور في سرية تامة؟ هي هي؛ من أعلمها بجميع الوقائع والحركات... المتعلقة بناستاسيا فيليبوفنا؟ هي هي هي! من هو ذلك المراسل الذي لم يرسل اسمه، هه؟ هلأ قلت لي إن كنت تعرف!..».

صاح الأمير قائلاً:

- هل يمكن أن تكون أنت...؟

فأجابه ليبيدوف برصانة السكير وكبريائه:

- نعم أنا! وفي هذا اليوم نفسه، في الساعة الثامنة والنصف، أي منذ نصف ساعة... لا بل منذ ثلاثة أرباع الساعة، أبلغت تلك الأم النبيلة جداً أن هناك مغامرة.. ذات دلالة. أبلغتها ذلك ببطاقة نقلتها إليها الخادمة من باب الخدم. فاستقبلتني.

سأله الأمير وهو لا يصدق أذنيه:

- رأيت إليزابيث بروكوفينا منذ قليل؟

- رأيتها منذ برهة، وتلقيت منها صفقة.. صفقة معنوية طبعاً. فلقد ردت إليّ الرسالة بل لقد رمتها في وجهي دون أن تفضها ثم أمسكت تلايبي وأخرجتني من الغرفة.. معنوياً لا جسماً... على أنها أوشكت أن تفعل ذلك جسماً!

- ما هي تلك الرسالة التي رمتها في وجهك دون أن تفضها؟

- ولكن أنا لم.. هي هي هي! كيف لم أقل لك ذلك بعد؟ يبدو لي أنني ذكرت لك هذا من قبل.. المسألة هي أنني كنت قد استلمت رسالة لأوصلها إلى المرسلة إليه..

- رسالة ممن؟ إلى من؟

لقد كانت بعض «إيضاحات» ليبيدوف عسيرة الفهم إلى أبعد الحدود، وكان يصعب على المرء أن يستخرج منها أي شيء. كل ما استطاع الأمير أن يميزه هو أن الرسالة كانت قد استلمتها فيرا ليبيدوف من خادمة بغية أن توصلها فيرا إلى الشخص المرسلة إليه... «كما في السابق، كما في السابق، لتوصلها إلى شخص معين من الشخصية نفسها (إنني أطلق كلمة «الشخص» على إحدى المرأتين، وأطلق اسم الشخصية على المرأة الثانية إشارة إلى صغار الأولى، وإلى الفرق الكبير بين ابنة جنرال نبيلة جداً

وبين امرأة هي غادة كاميليا). المهم أن الرسالة قد كتبتها «واحدة» «يبدأ اسمها بحرف آ».

صاح الأمير قائلاً:

- أهذا ممكن؟ أتراها كتبت إلى ناستاسيا فيليبوفنا؟ ذلك مستحيل!...

- حصل. كل ما هنالك أن الرسائل لم تكن قد أرسلت إلى ناستاسيا فيليبوفنا فقد أرسلت على الأقل إلى روجويين، والأمران واحد... حتى أن هناك رسالة من تلك التي يبدأ اسمها بحرف «آ» قد بعثت إلى السيد تيرنتيف ليتولى إيصالها.

أضاف ليبيديف هذه الجملة الأخيرة وهو يغمز بعينه ويبتسم.

وإذ كان ليبيديف يقفز في كل لحظة من موضوع إلى موضوع وينسى ما كان بدأ يقوله، فقد صمت الأمير ليتيح له أن يفرغ جعبته. غير أن هناك نقطة ظلت غامضة جداً: أكانت الرسائل تبعث بواسطته أم بواسطة فيرا؟ إنه حين أكد أن الكتابة إلى روجويين والكتابة إلى ناستاسيا فيليبوفنا سيان، قد ترك للسامع أن يفهم إن هذه الرسائل، إذا كان ثمة رسائل، لا تُنقل بواسطته. فما يزال يصعب على المرء أن يعرف ما هي المصادفة التي جعلت من تلك الرسالة تقع في يديه. أغلب الظن أنه سرقها من فيرا بطريقة من الطرق. حتى إذا تم له الاستيلاء عليها بالاختلاس حملها إلى إليزابيت بروكوفينا وهو يضمرة نية ما. ذلك هو الافتراض الذي انتهى به الأمر إلى تصوّره.

صاح يقول وقد اعتراه اضطراب شديد:

- لقد فقدت عقلك!

فأجابه ليبيديف بشيء من المكر:

- لم أفقده تماماً أيها الأمير المعظم.. والحق أن الفكرة الأولى التي خطرت لي هي أن أعطيك أنت الرسالة، خدمة لك.. لكنني فكرت فرأيت أن هذه الخدمة أولى أن تُقدّم هناك، وأن من الأفضل أن أحمل كل شيء إلى تلك الأم التي هي أنبل الأمهات طراً... لا سيما وأنني سبق أن نبهتها مرة في كتاب لم أذيله بتوقيعي ولا ذكرت فيه اسمي. وفي البطاقة التي بعثتها إليها في الساعة الثامنة والنصف من هذا الصباح وقعت هذا التوقيع أيضاً: «مراسلك المجهول»، فسرعان ما قبلوا باهتمام شديد أن أدخل من سلم الخدم على الأم التي هي أنبل الأمهات طراً..

- ثم؟

- تعرف التتمة: لقد أوشكت أن تضربني، حتى أكاد أعدني مضروباً. أما الرسالة فقد رمتها في وجهي. صحيح أنها تساءلت لحظة هل تحتفظ بالرسالة، لكنني رأيت... أو لاحظت أنها عدلت عن هذه الفكرة، فرمت الرسالة قائلة: «ما دام قد كلف مثلك بإيصال الرسالة، فاهلماً أوصلها!..». حتى لقد شعرت بأنها مهانة. فلولا أنها شعرت بذلك لاستحت أن تقول مثل هذا الكلام أمامي. إنها امرأة شديدة الاندفاع.

- أين الرسالة الآن؟

- معي: هذه هي!

قال ليبيديف ذلك وأعطى الأمير رسالة أجاليا إلى جبريل أرداليونوفتش. إنها البطاقة التي كان على جبريل أرداليونوفتش أن يوصلها إلى أخته منتصراً بعد ساعتين.

قال الأمير:

- لا يجوز أن تبقى هذه الرسالة في حوزتك.

فقال ليبيديف بحرارة:

- إنني أعطيك إياها، أعطيك إياها. أنا أعود الآن إلى خدمتك مخلصاً، أنا الآن ملك يديك، رأساً وقلباً. أعود إلى خدمتك بعد خيانة طارئة عارضة! اطعن قلبي، ولكن دع لي اللحية، كما قال توماس موروس^[44] في إنجلترا وفي بريطانيا العظمى. هذا ذنبي^[45]، كما قال أبو روما، أي بابا روما، لكنني أسميه أنا دائماً «أبو روما».

قال الأمير ملحاً:

- يجب إيصال هذه الرسالة فوراً. أنا أتولى ذلك.

- أليس الأفضل، يا أيها الأمير اللطيف الإحساس، المرهف الشعور، المؤدب، أن...

قال ليبيديف ذلك وهو يجعد وجهه تجعيدة غريبة مزعجة، وتحرك على كرسيه كأن أحداً وخزه بإبرة فجأة، وغمز بعينه غمزة مأكرة، وأشار بيديه إلى شيء ما.

قال له الأمير بلهجة التهديد:

- ماذا تعني؟

فهمس ليبيديف يقول بلهجة المسارة والبوح:

- يجب فتح الرسالة أولاً.

فوثب الأمير وقد عبّر وجهه عن غضب يبلغ من القوة إن ليبيديف أوشك أن يوّلّى هارباً. ولكنه حين بلغ الباب، توقف ينتظر الصفح والعفو.

هتف الأمير يقول بلهجة تعبر عن حزن عميق:

- آه يا ليبيديف! هل يمكن حقاً أن يبلغ امرؤ من الفوضى والحطة ما بلغت أنت؟ استردت ملامح ليبيديف هدوءها. وسرعان ما اقترب من الأمير يقول لاطماً صدره، والدموع في عينيه:

- أنا منحط! أنا منحط!

- هذه دناءات.

- بالضبط: دناءات. هذه هي الكلمة المناسبة.

- علام هذا السلوك... العجيب؟ ما أنت في حقيقة الأمر إلا جاسوس! لماذا تكتب رسالة بغير توقيع، لتروع امرأة طيبة هذا الطيب نبيلة هذا النبل؟ ولماذا لا يكون من حق آجاليا أن تكتب إلى من تشاء الكتابة إليه؟ هل ذهبت اليوم إلى هناك لتتشكى؟ ماذا كنت تنتظر من هذه الخطوة التي قمت بها؟ ما الذي دفعك إلى هذه الوشاية؟
- الفضول هو الذي دفعني إليها وورطني فيها... وكذلك الرغبة في أن أخدم إنسانة نبيلة. نعم...

كذلك تمتم ليبيديف ثم أردف يقول:

- أما الآن فأنا لك وحدك، أنا ملك يمينك من جديد. اشنقني إذا شئت!

سأله الأمير باستطلاع يمازجه اشمئزاز:

- هل ذهبت إلى إليزابت بروكوفيتنا وأنت على هذه الحال؟

- لا، لا... كنت أنضر نفساً وأكثر انتعاشاً، بل كنت كذلك أسلم سلوكاً وأقوم أدباً. ولم أصبح على الحال التي تراني فيها الآن إلا بعد تلك المهانة التي نالتني وذلك الإذلال الذي أصابني.

- طيب، كفى، دعني!

ومع ذلك اضطر الأمير أن يكرر هذا الرجاء عدة مرات قبل أن يقرر زائره الانصراف. وحتى بعد أن فتح ليبيديف الباب عاد إلى وسط الغرفة سائراً على رؤوس

الأصابع، واستأنف تجعيد وجهه محاكيا الحركات الدالة على ضرورة فض الرسالة. ولكنه لم يجرؤ أن يقرن الإشارة بالقول، ثم خرج وعلى شفثيه ابتسامة وادعة ودود.

من كل ثرثرته التي يصعب فهمها كثيراً، تبرز واقعة رئيسية خارقة: هي أن آجلانيا تعاني أزمة شديدة من قلق وحيرة واضطراب. إن أمراً ما يعذبها عذاباً قوياً (همس الأمير يقول: «الغيرة»). وهناك ملاحظة أخرى تفرض نفسها هي أن أناساً سيثي النية لا بد أنهم يلقون الروع في نفسها؛ وإنه لغريب كل الغرابة أن تمحضهم كل هذه الثقة. لا ريب في أن أهدافاً خاصة، أهدافاً لعلها مشؤومة.. أهدافاً غريبة على كل حال قد نبتت في هذا الرأس الصغير الذي تعوزه الخبرة والتجربة ولكنه شديد الحمياً كثير الكبرياء...

هذه الاستنتاجات أغرقت الأمير في زعر رهيب، حتى بلغ من الاضطراب إنه أصبح لا يدري ماذا يقرر. كان يحس أنه إزاء احتمال يجب منعه بأي ثمن. ونظر مرة أخرى في عنوان الرسالة المختومة: آه.. إنه من جهته لا يساوره شك ولا يخامرهُ قلق، فإن ثقته تحميه من ذلك. وإنما يأتي الخوف الذي توقظه هذه الرسالة في نفسه من أنه لا يثق بجبريل آرداليونوفتش. ومع ذلك أوشك أن يقرر تسليم الرسالة بنفسه، حتى لقد خرج من بيته وقد نوى هذه النية، ولكنه عدل عن هذا الرأي في أثناء الطريق. وبمصادفة تشبه أن تكون عمداً اتفق أن لقي كوليا حين كاد يبلغ بيت بتتسين. فكلفه بأن يوصل الرسالة إلى أخيه كما لو كانت مرسله إليه من آجلانيا إيفانوفنا راساً. ولم يُلق كوليا أي سؤال، وحمل الرسالة إلى أخيه، فلم يخطر ببال جانبا أن الرسالة يمكن أن تكون قد تنقلت بين أيدي ذلك العدد كله من الوسطاء.

وحين عاد الأمير إلى البيت رجا فيرا لوكيانوفنا بأن تجيء إليه وقال لها ما كان يجب أن يقوله ليهدي روعها ويخفف اضطرابها، ذلك أنها كانت قد ظلت حتى ذلك الحين تبحث عن الرسالة باكية. وقد شُدهت حين علمت إن أباه سرقها منها. (وقد باحت له فيما بعد بأنها سبق أن توسّطت عدة مرات سراً بين روجويين وآجلانيا إيفانوفنا. لم يكن قد دار في خلد الفتاة أو خطر ببالها إن في ذلك شيئاً مخالفاً لمصالح الأمير...).

كان الأمير مبلبل الأفكار كثيراً. فلما هرعوا يقولون له نقلاً عن كوليا إن الجنرال مريض، لم يكذب يفهم ماذا يقصدون. ولكن انصرافه إلى هذا الحادث أحسن إليه إحساناً كبيراً. لقد قضى النهار كله، حتى المساء، في بيت نينا ألكسندروفنا (الذي نقل إليه المريض طبعاً). ولم يكن لحضوره أي فائدة تُذكر، غير أن هناك أناساً يحب المرء

أن يكونوا بقربه في بعض الظروف الشاقة الصعبة. لقد كان كوليا متأثراً أشد التأثر، وكان يبكي بكاءً من أصابته نوبة عصبية. ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون في عمل متصل طوال الوقت: فقد مضى يبحث عن طبيب، ووجد ثلاثة أطباء، وسعى راكضاً إلى الصيدلي وإلى الحلاق. وأنعش الجنرال، لكنه لم يسترد وعيه، وقال الأطباء «إنه في خطر على كل حال». لم تترك فاريا ونينا ألكسندروفنا المريض. وكان جانبا مضطرباً مصعوقاً، ولكنه لا يريد أن يصعد، حتى لقد كان يخاف أن يرى أباه. إنه يعقف يديه ألماً وحسرة، واستطاع في حديث مفكك جرى بينه وبين الأمير أن يقول إن «هذه مصيبة تنزل في مثل هذا الوقت بما يشبه العمد!» وتراءى للأمير أنه فهم التلميح التي تتضمنها هذه الكلمات.

كان هيبوليت قد ترك منزل بتتسين. ومع اقتراب المساء هرع ليبيديف. كان قد نام نوماً متصلاً منذ «الإيضاح» الذي تم في الصباح حتى هذا الوقت. وكان قد ذهب عنه سكره تقريبا، وكان يذرف على المريض دموعاً صادقة كأنه أخوه. وكان يتهم نفسه بصوت عال دون أن يحدد الخطأ الذي ارتكبه، وكان يتعب نينا ألكسندروفنا بما يكرره عليها في كل لحظة من أنه وحده سبب كل شيء ولا أحد سواه.. وأن سلوكه لم تدفعه إليه إلا لذة الفضول.. بل إن «المرحوم» (لا يدري المرء لماذا كان يصر على أن يصف الجنرال بهذا مع أن الجنرال ما يزال حياً) كان رجلاً عبقرياً! كان ليبيديف يلح على عبقرية الجنرال جداً جداً خاصاً، كأن لهذه الواقعة في اللحظة الراهنة شأنًا كبيراً وفائدة ضخمة. فقالت له نينا ألكسندروفنا أخيراً، وقد رأت صدق دموعه، قالت له بلهجة ودود دون أن يبدو عليها شيء من لوم: «طيب... أسأل الله لك العون! لا تبك! لا تبك! سيغفر الله لك!» فكان لهذه الكلمات واللهجة التي قيلت بها أثر كبير في ليبيديف، أثر بلغ من الشدة أنه لم يترك بعد ذلك نينا ألكسندروفنا طوال السهرة (وفي الأيام التالية، إلى أن مات الجنرال، ظل عندهم من الصباح إلى المساء تقريباً). وقد أوفدت إليزابيت فيدوروفنا من يسأل عن أنباء الشيخ مرتين أثناء ذلك النهار.

وفي الساعة التاسعة من المساء حين ظهر الأمير في صالون آل إيبانتشين الذي كان قد امتلأ بالمدعوين، أخذت إليزابيت بروكوفينا تسأل عن المريض فوراً باهتمام كبير، حريصة على معرفة التفاصيل. فلما سألتها الأميرة بيلوكونسكايا: «من هو هذا المريض؟ ومن هي نينا ألكسندروفنا؟» كان جوابها يشتمل على كثير من الجد والوقار. فأعجب الأمير بهذه المبادرة إعجاباً كبيراً. وكان هو نفسه، في الإيضاحات التي قدمها إلى إليزابيت بروكوفينا، يتكلم بطريقة «رائعة» كما عبرت أختا أجلايا عن ذلك فيما بعد: لقد تكلم «بتواضع، وهدوء، ورصانة، ووقار، دون أن يقول كلاماً زائداً

لا محل له ولا داعي إليه، ودون أن يحرك يديه بإشارات لا جدوى منها. وكان قد دخل الصالون دخولاً موفقاً كل التوفيق، ناجحاً كل النجاح، وكانت ثيابه لا مأخذ عليها البتة!». لم تتعثر قدمه فيسقط على الأرض، كما كان يخشى بالأمس!... حتى لقد أخذت في نفوس جميع الحضور أجمل تأثير.

وقد لاحظ من جهته فوراً، بعد أن جلس وتلفت ينظر فيما حوله، إن هذا الجمع لا يشبه في شيء، الأشباح التي أخافته منها آجاليا بالأمس ولا الكوابيس التي وافته في الليلة البارحة. هذه أول مرة في حياته يكتشف فيها زاوية مما يُطلق عليه هذا الاسم المروع: «المجتمع الراقي». لقد كان منذ مدة طويلة، بسبب ما انعقدت عليه نفسه من نيات ومشاريع وميول، يحترق شوقاً إلى دخول تلك الدائرة المسحورة؛ وكان لذلك يتساءل متحيراً أشد التحير عن الإحساس الأول الذي سوف يحسه في هذا المجتمع. وكان إحساسه فاتناً رائعاً. لقد بدا له في الوهلة الأولى أن هؤلاء الناس كافة إنما خلقوا ليجتمعوا، وأن آل إيبانتشين لا يقيمون «سهرة»، وإنه ليس إزاء مدعوين بل إزاء أصدقاء «حميمين»، وأنه هو نفسه في موقف رجل يعود بعد فراق قصير إلى أشخاص يحضهم الود ويشاركهم آراءهم. إن آداب سلوكهم التي تتميز بالفتنة والرقى، وبساطتهم وصدقهم الظاهري، إن ذلك كله قد أحدث في نفسه أثراً يشبه أن يكون سحرياً. لم يستطع حتى أن يخطر بباله أن هذه الطيبة وهذا النبل في آداب السلوك وهذا السمو في الفكر وهذا الشعور الرفيع بالكرامة، إن ذلك كله قد لا يكون إلا إخراجاً مسرحياً. والحق أن أكثر المدعوين كانوا رغم مهابتهم الظاهرية أناساً تافهين إلى حد بعيد، وكان غرورهم يمنعهم من جهة أخرى أن يدركوا أن عدداً من مزايهم ليس لهم فيه أي فضل لأنه غير شعوري أو لأنه مستعار أو لأنه موروث؛ بل إن الأمير، في غمرة افتتانه بالإحساس الأول، لم يُغره حتى أن يفترض هذا الافتراض. إنه، على سبيل المثال، يرى شيخاً من كبار موظفي الدولة (يمكن أن يكون في السن جداً له)، يقطع حديثه ليصغي إليه فحسب، بل يبدو عليه أيضاً أنه يحترم رأيه، فهو يظهر له كثيراً من الود واللفظ، وهو يبشّ له بشاشة فيها كثير من الصدق، رغم أنهما لا يعرف أحدهما الآخر، وإنما يلتقيان أول مرة. لعل هذا التهذيب الناعم الرقيق هو الذي أثر في طبيعة الأمير الحارة الحساسة. ولعله حين جاء كان في حالة نفسية تهيئه للتفاؤل.

والحقيقة هي أن الروابط التي كانت تصل بين جميع هؤلاء الأشخاص وبين أسرة إيبانتشين، كما تربطهم بعضهم ببعض، كانت أوهى وأقل كثيراً مما ظن الأمير حين قدّم إليهم وتعرّف بهم. إن بينهم أناساً ما كان لهم أبداً أن يعدّوا آل إيبانتشين أنداداً لهم بحال من الأحوال. بل إن بينهم أناساً يكره بعضهم بعضاً أعظم الكره. إن العجوز

بيلوكونسكايا كانت طوال حياتها «تزدري» امرأة ذلك الشيخ الذي هو من كبار موظفي الدولة. وكانت هذه الأخيرة من جهتها لا تحب إليزابت بروكوفيفنا.

إن «الموظف الكبير» الذي كان حامى الزوجين إيبانتشين منذ شبابهما والذي يحتل الآن في بيتهما مكانة الشرف، كان له في نظر الجنرال إيبانتشين شأن يبلغ من العلو والرفعة أن الجنرال إيبانتشين ما كان يستطيع بحال من الأحوال أن يشعر إزاءه بعاطفة غير عاطفة التقديس والرغبة؛ فلو ظن في لحظات أنه ند له فكف عن اعتباره إلهاً من آلهة الأولمب مثل جوبيتر، إذن لاحتقر نفسه صادقاً مخلصاً.

وكان بين الجمهور أيضاً أناس لم يتلق بعضهم ببعض منذ سنين، ولا يحمل بعضهم لبعض من عاطفة غير عدم الاكتراث، هذا إذا لم يحمل بعضهم لبعض عداوة. لكن هذا لا ينفي أنهم يلتقون الآن التقاء من كانوا بالأمس معاً، فهم في أشهى صحبة وأمتع مجالسة. ولم يكن عدد المجتمعين كبيراً على كل حال. هناك، عدا الأميرة بيلوكونسكايا، و«الشيخ الجليل» الذي كان في الواقع شخصية خطيرة الشأن، وزوجته، هناك رجل آخر يلتفت الانتباه، هو جنرال يحمل لقب بارون أو كونت، واسمه ألماني. إن هذا الرجل الصموت كان يشتهر بأنه يعرف شؤون الدولة معرفة معجزة، حتى لقد كان يُعدّ عالماً من العلماء إن صح التعبير. إنه واحد من أولئك الإداريين الفطاحل الذين يعرفون «كل شيء، إلا روسيا»، والذين يصدرون في كل خمسة أعوام «فكرة يهز الناس عمقها ويكون لها دوي كبير» والذين يذهب كلامهم مذهب الأمثال ويصل إلى مسامع أعلى الشخصيات مقاماً. إنه واحد من أولئك الموظفين الأعلين الذين يموتون في العادة بعد عمر في الوظيفة طويل جداً (بل طويل طويلاً عجباً)، والذين يكونون قد وصلوا إلى رتب عالية واحتلوا مناصب رائعة وملكوا ثروة ضخمة، دون أن يكونوا قد قاموا مع ذلك بأية أعمال ساطعة باهرة، حتى إنهم يظهرون بعض النفور من الأعمال الساطعة الباهرة.

إن هذا الجنرال هو، في الوظيفة، الرئيس المباشر لصاحبنا الجنرال إيفان فيدروفتش إيبانتشين الذي كان بعاطفة الشكر الحارة وبدافع حب الذات أيضاً يرى أن لرئيسه عليه أيادي بيضاء ويعتقد أنه مدين له بفضل كبير، رغم أن الآخر لم يكن يعدّ نفسه محسناً إلى إيفان فيدروفتش أو منعماً عليه، حتى لقد كان لا يكثر به كثيراً. وهو رغم رضاه عن الخدمات التي يقدمها إليه إيفان فيدروفتش، مستعد لأن يستبدل به شخصاً على الفور إذا ظهر أن له ثمة اعتبارات، ولو كانت ثانوية، تجعل الاستغناء عنه أمراً مناسباً.

وكان الحفل يضم شخصية أخرى خطيرة الشأن هي رجل متقدم في السن يبدو عليه أنه يمتّ بقربى إلى إليزابيث بروكوفيفنا، ولكنه في حقيقة الأمر لا تربطه بها أية قرابة. إن له رتبة ومركزاً يُحسد عليهما. هو رجل غني كريم المحتد، قوي البنية، موفور الصحة. وهو إلى ذلك محدث بارع. وقد اشتهر بأنه رجل مستاء (بالمعنى المقبول لهذه الكلمة)، بل إنه رجل ساخط (وتلك سمة كانت فيه ذات سحر وفتنة) وكانت آدابه في السلوك آداب رجل أرسطوقراطي إنجليزي، وكانت ميوله وأذواقه إنجليزية أيضاً (من ذلك أنه كان يحب أن يأكل الشواء دامياً، ويحب المركبات الفخمة، ويحب الخدم بأزيائهم الرسمية). وهو على علاقة حميمة بالشيخ الجليل، «الموظف الكبير»، يبذل في سبيل تسليته كل جهد. وكانت إليزابيث بروكوفيفنا، من جهة أخرى، تداعب خيالها فكرة غريبة هي أن هذا البارون (الذي كان لا يُعدّ من المتمسكين كثيراً بأهداف الفضيلة، وكان يعدّ من هواة الجنس اللطيف) قد يريد ذات يوم أن يحقق سعادة ألكسندرا بطلب يدها.

وتحت هؤلاء المدعوين الذين هم أعلى أفراد الحفل مقاماً وأكثرهم مهابة، تأتي فئة من المدعوين أصغر سناً، لكن أفرادها أناس مرموقون أيضاً. فمن هؤلاء الأمير «شتش...» وإيفان فيدروفتش، ومنهم الأمير «ن...» المعروف بما حقق من انتصارات مع النساء في أوروبا. إنه في نحو الخامسة والأربعين من العمر، فارح القامة ممشوق القد، يملك موهبة مدهشة في الحديث ويتمتع بقدرة عجيبة على سرد القصص ورواية الحكايات. وهو رغم أن ثروته تضاعفت قليلاً، ما يزال يؤثر أن يقضي أيامه في الخارج محتفظاً بهذه العادة.

وهناك أخيراً فئة ثالثة تضم أولئك الذين لا ينتمون إلى «الدائرة المغلقة» من المجتمع، ولكن يمكن أن نراهم فيها أحياناً، فمن هؤلاء مثلاً أسرة إيبانتشين نفسها. كان آل إيبانتشين، بما لهم من حسّ سليم ولباقة في سلوكهم، يحبون في المناسبات القليلة التي يقيمون فيها حفلات استقبال، أن يجمعوا بين أفراد المجتمع العالي وبين أفراد طبقة أدنى تمثل صفوة «المجتمع المتوسط». فكان الناس يحمدون لهم هذا الحساب ويصفونهم بأنهم يعرفون مكانهم ويحسنون التصرف، وذلك رأي كان آل إيبانتشين يعتزون به.

فإلى تلك الطبقة المتوسطة كان ينتمي أحد المدعوين وهو مهندس برتبة كولونيل، يتصف بالجد وتربطه بالأمير «شتش...» صداقة قوية، فالأمير «شتش...» هو الذي عرفه بأسرة إيبانتشين وأدخله إلى بيتهم. وكان الرجل قليل الكلام في

المجتمع، يزين إبهام يده اليمنى خاتم ضخّم أغلب الظن أنه هدية إمبراطورية.

وأخيراً فقد كان بين الحضور أديب شاعر أصله ألماني لكن أدبه روسي. إنه رجل في الثامنة الثلاثين من عمره، لائق المظهر فلا ضير في إدخاله إلى المجتمع العراقي. إن هيبته حسنة، رغم أن في وجهه شيئاً يبعث على النفور. وهو يعنى بهندامه عناية كاملة، وينتمي إلى أسرة ألمانية إن لم تكن بورجوازية فإنها تحظى باعتبار كبير. ولقد كان يحسن الاستفادة من الظروف وانتهاز الفرص ليندس تحت حماية شخصية من الشخصيات العالمية، وأن يحافظ على الحظوة لديها. وقد ترجم في الماضي عن اللغة الألمانية إلى اللغة الروسية كتاب شاعر جرمانى كبير، وصدر الكتاب المترجم بإهداء مفيد. وكان يحسن الانتفاع بعلاقات الصداقة مع شاعر روسي شهير توفي الآن (إن هناك فئة كبيرة من الكتاب يحلو لأفرادها أن يعرضوا ما كان بينهم وبين مؤلف مشهور من صداقة حميمة، متى مات ذلك المؤلف)، وقد أدخلته إلى أسرة إيبانتشين منذ مدة قصيرة زوجة «الشيخ الجليل، الموظف الكبير». كانت هذه السيدة تعد حامية الأدباء والعلماء. والحق أنها قد دبرت راتباً لكاتب أو كاتبين بواسطة أناس من أصحاب المناصب الرفيعة الذين كان لها عليهم نفوذ. ولقد كان لها في الواقع تأثير ووزن. إنها في الخامسة والأربعين من عمرها (فهي إذن شابة بالنسبة إلى زوجها الذي كان شيخاً)، ولقد كانت جميلة وكانت ما تزال تحب - وذلك ميل شائع في كثير من النساء اللواتي بلغن عمرها - أن ترتدي ملابس فيها كثير من البهرج. وكان ذكاؤها دون الوسط، وثقافتها الأدبية مشكوكاً فيها. ولكنها كانت مولعة أشد الولع بحماية الأدباء، كولعها بارتداء أحلى الملابس. وكانت تهدي إليها كتب كثيرة وترجمات كثيرة. وقد نشر كاتبان أو ثلاثة، بعد استئذانها، الرسائل التي كانوا قد كتبوها إليها في موضوعات هامة جداً.

ذلك هو المجتمع الذي حسبه الأمير فضةً خالصةً أو ذهباً نقياً بغير شائبة. وعدا هذا اتفق أن كان جميع هؤلاء في ذلك المساء، زاخرين بالتفاؤل مفتتين بأنفسهم. كان كل واحد منهم مقتنعاً بأن زيارته تغمر أسرة إيبانتشين فخراً وشرفاً. ولكن الأمير، وأأسفاه، لم يكن يدرك هذه اللطائف ولا كانت تخطر له على بال. لم يدر في خلده مثلاً أن آل إيبانتشين، وقد اتخذوا قراراً يبلغ من الخطورة مبلغ هذا القرار الذي يتوقف عليه مصير ابنتهم، ما كان لهم أن يتجرأوا على إعفاء أنفسهم من تقديمه، هو الأمير ليون نيقولايفتش، إلى هذا الموظف الكبير الشيخ، الذي يعد حامى أسرته؛ وأن هذا الشيخ الذي يمكن أن يحتفظ بأكمل هدوئه وأتم سكينته إذا علم أن كارثة كبيرة قد حلت بأسرة إيبانتشين، لا بد أن يستاء أشد الاستياء وأن يعد نفسه مهاناً إلى أبعد

حدود الإهانة لو زوّج الأبوان ابنتهما دون أن يستشيراه ودون أن يحصلوا على موافقته إن صح التعبير.. أما الأمير «ن...»، هذا الشاب الفتان، الذي لا شك في أنه يفيض مرحاً وصراحة، فقد كان مقتنعاً بأن ظهوره هذه الليلة في صالون أسرة إيبانتشين حادث يشبه شروق الشمس. إنه يضعهم في موضع أدنى منه بمائة قدم؛ ولا شك أن هذه الفكرة البريئة النبيلة هي التي كان يستمد منها طلاقته المحببة وبشاشته الودود في معاملتهم. كان يعلم أنه سيجب عليه في تلك السهرة أن يروي شيئاً ليبهج الحفل ويفتنه، فكان يستعد لهذا الأمر ويتهيأ للقيام بهذا الدور وقد توقدت قريحته ووافاه إلهامه. إن الأمير ليون نيقولايفتش حين أصغى بعد قليل إلى ما حكاه هذا الشاب قد أحسّ إنه ما سمع في يوم من أيام حياته شيئاً يمكن أن يقارن بهذه الفكاهة المتألقة، وهذا المرح المدهش وهذه السذاجة التي تكاد تكون مؤثرة في فم دون جوان مثل الأمير «ن...». ليته عرف إلى أي حد كانت هذه الحكاية قديمة عتيقة، ذابلة زاوية، معادة مكرورة. إن هذه القصة التي رواها الأمير «ن...» يمكن أن تعد عند آل إيبانتشين السذج البسطاء فكاهة جديدة وارتجالاً متألقاً يصدر صادقاً عفو الخاطر عن محدث بارع فتان فكه، ولكنها في أي صالون آخر لا بد أن يُحكم عليها بأنها باعثة على أكبر الضجر وأشد الملل والسأم. وحتى الشويعر الألماني، رغم كل ما اصطنعه من تودّد وتواضع، كان يميل كذلك إلى الاعتقاد بأن حضوره يشرف الدار.

ولكن الأمير لم يلاحظ من الموقف إلا وجهه الحسن، أما وجوهه الأخرى فهو لا يراها. ولم تكن آجاليا قد تنبأت بذلك كله. حتى إنها كانت هي نفسها في ذلك المساء رائعة الحسن باهرة الجمال. كانت الفتيات الثلاث يرتدين ثياباً أنيقة، ولكن بغير غلو وإسراف، وقد صففن شعورهن تصفيفاً جديداً غير مألوف لهن أو معهود فيهن.

جميع وكانت آجاليا جالسة قرب إيفان فيدروفتش تكلمه وتمازحه بلهجة حميمة جداً. وكان إيفان فيدروفتش أكثر رصانة مما عهد فيه، ولا شك أن ذلك كان مراعاة ومدارة للشخصيات المرموقة التي يضمها الحفل. على أنه رجل معروف في اجتماعات المجتمع الراقي منذ مدة طويلة، وكان يُنظر إليه على أنه واحد من أبناء ذلك المجتمع. وقد حضر في ذلك المساء وعلى قبعته شريط أسود، وهذا ما جلب له ثناء الأميرة بيلوكونسكايا: ففي ظروف كهذه الظروف ما كان لرجل آخر من أبناء المجتمع الراقي أن يفعل مثل هذا حداً على وفاة عم كذلك العام. وقد أظهرت إليزابيت بروكوفينا رضاها عن ذلك وارتياحها له أيضاً. ولكن كان يبدو عليها كثير من الهم وانشغال البال.

ولاحظ الأمير أن آجاليا نظرت إليه مرة أو مرتين بانتباه، وبدا عليها الرضى عنه. وشيئاً بعد شيء أحس بقلبه يتفتح سعادة. إن الخواطر «الخيالية» والمخاوف التي اجتاحتها من قبل (بعد حديثه مع ليبيديف) تبدو له الآن، من خلال تذكرها تذكرًا مفاجئًا ولكنه متكرر، أشبه بأحلام لا صلة بينها وبين الواقع، أحلام غير معقولة بل ومضحكة! (وقبل ذلك، طوال النهار، كانت أعز رغبة في قلبه، وإن تكن رغبة غير شعورية هي أن يبرهن لنفسه على أنه لم يكن ثمة مجال لتصديق تلك الأحلام). وكان يتكلم قليلاً، ويقتصر على الإجابة عن الأسئلة التي تلقى عليه. وفي النهاية لزم صمتاً كاملاً، وظل يصغي إلى الآخرين كأنسان بلغ قمة السعادة. وشيئاً فشيئاً، استولى عليه نوع من الإلهام مستعد لأن ينطلق في كل لحظة... ومع ذلك، لئن عاد يتكلم فهو إنما تكلم مصادفةً ليجيب عن سؤال، دون أية نية مبيتة فيما يبدو.

الفصل السابع

بينما كان الأمير يتأمل آجاليا وقد غمرته السعادة، متابعاً مع الأمير «ن...» وأوجين بافلوفتش حديثاً مرحاً، كان الرجل المسن، الذي يصطنع سلوكاً إنجليزياً، يتحدث في الطرف الآخر من الصالون مع «الموظف الكبير»، فإذا هو أثناء الاندفاع في الكلام ينطق باسم نيقولا أندريفتش بافلتشف فجأة. فالتفت إليهما الأمير على الفور وأخذ يتابع حوارهما.

كان الكلام يدور على الأنظمة الجديدة وعلى ما نشأ عنها من اضطرابات في توزيع أملاك كبار المالكين بمقاطعة «ز...». ولا بد أن القصة التي كان يرويها الرجل المشغوف بعبادات الإنجليز كانت في ذاتها باعثة على الضحك لأن «الموظف الكبير» قد أخذ يضحك أخيراً حين سمع صاحبه يعبر عما في نفسه من مرارة. كان الرجل المشغوف بعبادات الإنجليز يتكلم بسهولة ويسر، مصنعاً مطاً ألفاظه وتليين حروفه، وكان يروي كيف أن تلك النظم الجديدة قد أجبرته على أن يبيع بنصف الثمن أرضاً رائعة كان يملكها في تلك المقاطعة، رغم أنه لم يكن في حاجة إلى مال وكيف احتفظ في الوقت نفسه بأرض خراب يباب لا يجني منها إلا الخسارة، عدا اضطرابه إلى ملاحقة دعوى في شأنها لدى القضاء. «ومن أجل أن أتحاشى ملاحقة دعوى أخرى تتعلق بالأراضي التي خلفها بافلتشف، آثرت أن أزهد بالميراث أصلاً. يكفي أن يؤول إلي ميراث أو ميراثان من هذا النوع حتى تصير حالي إلى دمار. لاحظ أن نصيبي من ذلك الإرث كان يقدر بثلاثة آلاف هكتار، أطياناً ممتازة!».

لاحظ إيفان فيدروفتش الاهتمام الشديد الذي كان ينصرف به الأمير إلى ذلك الحديث، فاقترب منه فجأة وقال له بصوت خافت:

- اسمع... إن إيفان بتروفتش يمت بقراءة إلى المرحوم نيقولا أندريفتش بافلتشف. أظن أنك تبحث عن أقرباء له، أليس كذلك؟

كان إيفان فيدروفتش حتى ذلك الحين لا يتجه بنظره وعنايته إلى أحد غير رئيسه الجنرال. لكنه وقد لاحظ منذ برهة إن ليون نيقولايفتش مُهملاً إهمالاً تاماً، شعر من ذلك بشيء من القلق. لهذا حاول أن يشركه في الحديث بعض الإشراف بتقديمه

إلى «الشخصيات» مرة أخرى وبتزكيته لديها. فلما وقع بصره على إيفان بتروفتش قال:

– إن ليون نيقولايفتش إنما نشأ نيقولا أندريفتش بافلتشف، حين مات عنه أبواه.

فأجاب إيفان بتروفتش بقوله:

– ت... -شر.. فنا. وإني لأتذكرك تذكرًا واضحاً. لقد عرفتكَ وتذكرت حتى وجهك منذ تولّى إيفان فيدروفتش تعريف كل منا بالآخر. الحق أنك لم تتغير كثيراً، رغم أن عمرك لم يكن يتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة حين رأيته. حتى إن في ملامحك شيئاً رسخ في ذاكراتي..

سأله الأمير متعجباً:

– عرفتني طفلاً؟

فتح إيفان بتروفتش كلامه يقول:

– منذ زمن بعيد جداً!... كان ذلك في زلاتوفرخوفو، حيث تقيم عند قريباتي. كنت في ذلك العهد أكثر من الذهاب إلى هناك. ألا تتذكرني؟ لا عجب.. لقد كنت عندئذ في حالة مرضية لا أدري ما هي... حتى إنني أتذكر أن دهشة شديدة قد اعترتني حين رأيته.

قال الأمير مؤكداً بحرارة: في

– أنا لا أتذكر شيئاً!

وأضاف إيفان بتروفتش، بكثير من الرصانة والوقار، بضعة أقوال أخرى أدهشت الأمير وأثرت في نفسه. قال إن الأنستين العجوزين اللتين تمتّان بقربة إلى المرحوم بافلتشف وكانتا تعيشان في أراضي زلاتوفرخوفو، واللّتين عهد إليهما بتربية الأمير، هما في الوقت نفسه قريبتان له. وكسائر الناس، كان إيفان بتروفتش لا يكاد يعرف شيئاً عن البواعث التي خضع لها بافلتشف حين اهتم ذلك الاهتمام كله بالأمير الصغير الذي كفله بافلتشف وجعل نفسه وصياً عليه. «لم يخطر ببالي أن أسأل عن هذا الأمر في ذلك الوقت». كذلك قال إيفان بتروفتش. ولكنه برهن مع ذلك على أن له ذاكرة ممتازة، فهو لم ينسَ حتى إن كبرى قريبتيه، وهي مارتا نيكيتشينا، كانت شديدة القسوة على الأمير الذي عهد به إليها، وأضاف إيفان بتروفتش إلى ذلك قوله: «حتى لقد بلغت من قسوتها إنني شاجرتها مرة بسببك، لأنني كنت أشجب أسلوبها في

التربية، القائم على أن تلهب بالسياط جسم طفل مريض... وهذا.. كما تعلم..» لم تكن كذلك أختها الصغرى ناتاليا نيكيتشينا، فقد كانت نفسها «زاحرة بالحنان على الطفل المسكين...» لا بد أن تكونا الآن كلتاهما في مقاطعة «ز...»، حيث أورثهما بافلتشف أرضاً ممتازة (ولكن هل لا تزالان على قيد الحياة؟ لا أدري). أظن أن مارتا نيكيتشينا كانت تنتوي أن تدخل الدير. على أنني لا أؤكد ذلك. من الجائز أن أكون قد سمعت هذا الكلام عن امرأة أخرى... نعم... تذكرت... لقد قيل لي هذا عن زوجة طبيب.

- كان الأمير يصغي إلى هذه الأقوال وقد سطعت عيناه فرحاً ونشوة وحناناً. وأعلن من جهته بحرارة شديدة أنه لن يغفر لنفسه في يوم من الأيام أنه تنقل في داخل البلاد خلال هذه الأشهر الستة ثم لم يتح له أن يمضي إلى زيارة مربتيه. لقد كان في كل يوم ينوي أن يفعل ذلك، ثم تحول الظروف بينه وبين إنفاذ ما يعقد النية عليه... غير أنه في هذه المرة قد قرر جازماً أن يذهب إلى مقاطعة «ز...» وأضاف الأمير: «أنت تعرف إذن ناتاليا نيكيتشينا؟ يا لها من امرأة عظيمة، قديسة! وكذلك مارتا نيكيتشينا... معذرة... يخيل إلي أنك تخطئ الظن فيها قليلاً... صحيح أنها كانت قاسية، ولكن يجب أن تُعذر... كيف لا يفقدها صبرها طفل أبله تماماً في ذلك الأوان؟ (هئ هئ!). إنني كنت أبله كل البلاءة حينذاك. ألا تصدق؟ (ها هأ!). ثم... ثم إنك قد رأيتني في ذلك العهد، و... ألا تلاحظ أنني لا أتذكرك؟ ألا يدل هذا على أنني... آه... يا رب! أصحيح أنك قريب نيقولا أندريفتش بافلتشف حقاً؟

قال إيفان بتروفتش مبتسماً وهو يتفرس في الأمير:

- أ... و... كد لك ذلك!

- أرجوك... ما أردت أن أقول إنني أشك في صدق كلامك!.. ثم.. هل يمكن الشك في هذا (هئ هئ!)... ولو قليلاً؟ نعم، ولو قليلاً؟ (هئ هئ!). وإنما أردت أن أقول إن المرحوم نيقولا أندريفتش بافلتشف كان رجلاً رائعاً، كان إنساناً عظيماً! ما كان أكرمه! أحلف لك...

لا أقول إن الأمير كان يشعر باختناق، بل أقول إن «امتلاء قلبه بالسعادة قد سدّ حلقه» على حد التعبير الذي استعملته آديلايد في الغداة حين تحدثت مع خطيبها الأمير «شتش...».

قال إيفان بتروفتش ضاحكاً:

- ولكن لماذا يستحيل أن أمت بقرابة لرجل كريم كريماً ع... -ظيماً؟

اضطرب الأمير وشعر بخجل شديد فأسرع يقول بتعجل وحرارة ما ينفكان
يتزايدان:

- أنا.. أنا... هذه حماقة جديدة أرتكبتها... هذه سخافة جديدة أقولها.. لأنني...
لأنني... يميناً إن لساني قد خان فكري! ولكنني أعود فأسألك ما عسى تكون قيمة
شخصي أنا بالقياس إلى أمور كهذه الأمور، بالقياس إلى أمور ضخمة هذه الضخامة؟
بالقياس إلى رجل عظيم هذه العظمة! ذلك أنه - يشهد الله - كان أعظم الرجال...
أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

كانت أعضاء الأمير كلها ترتعش. أما من أين جاءه هذا التأثير المبالغت ولماذا
اجتاحته هذه العاطفة كلها فجأة، دون تناسب بينها وبين موضوع الحديث، فذلك أمر
يصعب تعليله. ولكننا نستطيع أن نقطع بأنه بلغ من الانفعال في تلك اللحظة أنه كان
يحس بشعور الشكر كاوياً محرقاً، دون أن يعرف ماذا يشكر ولا من يشكر، حتى لكأن
الشكر لإيفان بتروفتش نفسه ولسائر الحضور أيضاً. كان الأمير يطفح سعادة. نظر
إليه إيفان بتروفتش بمزيد من التفرس. وحدث إليه «الموظف الكبير» بكثير من
الانتباه كذلك. وألقت عليه الأميرة بيلوكونسكايا نظرات تفيض غضباً وحنقاً. وأخذت
تقرص شفتيها. وتوقف الأمير «ن...»، وأوجين بافلوفتش، والأمير «شتش...»،
والآنسات، وسائر الحاضرين، توقفوا جميعاً عن الكلام وأصاخوا بأسماعهم. وكانت
آجلايا تبدي إشارات رعب، وكانت إليزابيت بروكوفينا قد خرجت عن طورها حقاً.
عجيب أمر الأم وبناتها: إنهن هن اللواتي قررن وارتأين أن من الأفضل أن يبقى الأمير
صامتاً طوال السهرة، فلما رأيته منعزلاً كل الانعزال في ركن من الصالون راضياً عن
حظه مفتوناً به، أخذ يساورهن الخوف؛ حتى لقد خطر ببال آديلائيدي أن تقطع الغرفة
كلها مقتربة منه على حذر لتقوده إلى جماعتها التي تضم الأمير «ن...» قرب الأميرة
بيلوكونسكايا. حتى إذا اندفع الآن في الحديث تضاعف قلقهن وازدادت مخاوفهن.

قال إيفان بتروفتش بلهجة فخمة وقد كفّ عن التبسم:

- إنك لعلّى حق حين تصفه بأنه كان إنساناً رائعاً... نعم، لقد كان إنساناً ممتازاً.

وأضاف بعد صمت قصير:

- إنساناً ممتازاً وجديراً بالاعتبار.

وزاد على ذلك بعد برهة أخرى فقال:

- بل ويمكن القول إنه كان جديراً بكل احترام. ومما يثلج صدر المرء حقاً أن يرى أنك من جهتك..

قال «الموظف الكبير» وهو يحاول أن يستجمع ذكرياته:

- أليس بافلتشف هذا هو ذلك الرجل الذي كانت له حكاية... خاصة... مع قس.. مع القس.. نسيت اسمه.. ولكن أثارت حكايته في حينها لغطاً كثيراً؟

قال إيفان بتروفتش:

- القس جورو، رجل يسوعي. نعم، أولئك هم رجالنا الممتازون الجديرون بالاعتبار! ولكن بافلتشف كان نبيل المحتد ويملك ثروة، وكان موظفاً بالبلاط.. ولو بقي في الوظيفة لأمكن أن.. ولكنه ترك وظائفه وترك جميع علاقاته فجأة ليعتنق الديانة الكاثوليكية ويصبح يسوعياً حتى لقد فعل ذلك بما يشبه الحماسة. بصراحة: لقد مات في الوقت المناسب. نعم. جميع الناس قالوا هذا حين مات.

أصبح الأمير لا يستطيع كبج جماح نفسه، فصاح يقول بلهجة مروعة:

- بافلتشف... بافلتشف اعتنق الكاثوليكية؟ مستحيل!

قدمم إيفان بتروفتش بلهجة رصينة:

- كيف «مستحيل»؟ هذا كثير يا عزيزي الأمير. يجب أن توافق على أن... ولكنك تقدر المتوفى قدراً كبيراً والحق أنه كان إنساناً ذا قلب كبير، وذلك هو السبب الذي أعزو إليه خاصة كل ما حققه ذلك المحتال جورو من نجاح لديه. ولكن في وسعك أن تسألني أنا عن المتاعب والهموم التي أصابتني في أعقاب هذا الأمر... ولا سيما مع جورو ذاك نفسه!

وأضاف إيفان بتروفتش يقول ملتفتاً نحو الرجل العجوز مخاطباً إياه:

- تصور أنهم أرادوا حتى أن يدعوا حقوقاً في الميراث. فاضطرت أن أعمد إلى أشد الإجراءات لأسمعهم صوت العقل وأردهم إلى الصواب. ذلك أنهم يعرفون ما يفعلون. هؤلاء أناس مدهشون! ولكن.. الحمد لله! لقد حدث الأمر بموسكو، فاتجهت فوراً إلى الكونت وأرجعناهم إلى الرشاد.

هتف الأمير يقول من جديد:

- لا تستطيع أن تتصور مدى ما أحدثته في نفسي من ألم واضطراب!

- آسف. ولكن ذلك كله لم يكن في حقيقة الأمر إلا سفاسف، وكان يمكن أن ينتهي بسلام، كما يحدث عادةً. إنني مقتنع بذلك.

ثم أضاف يقول مخاطباً العجوز من جديد:

- في الصيف الماضي دخلت الكونتيسة «ك...ك» أحد الأديرة بالخارج، فيما يقال. إن مواطنينا لا يملكون أية قدرة على المقاومة حين يتسلط عليهم أولئك المحتالون، ولا سيما في الخارج.

- أظن أن مرد ذلك كله إلى أننا متعبون. ثم إن لأولئك الناس أسلوباً في التبشير يمتاز بكثير... بكثير من الرشاقة والأناقة، هذا عدا أن لهم شخصية قوية، فيعرفون كيف يخيفونك ويروعونك. لقد أخافوني أنا نفسي. أعترف لكم بذلك. حدث هذا سنة 1832 بمدينة فيينا. ولكنني لم أسقط بين أيديهم، بل ولّيت هارباً. ها ها! يميناً لقد ولّيت هارباً!...

هنا تدخلت الأميرة بيلوكونسكايا فجأة فقالت:

- لقد سمعت يا صديقي العزيز إنك في ذلك الوقت قد هربت من فيينا إلى باريس في صحبة امرأة جميلة هي الكونتيسة ليفيكي. فمن أجل تلك المرأة، لا تخلصاً من يسوعي، إنما تركت الخدمة.

أجاب العجوز مبتسماً لحلاوة تلك الذكرى الجميلة:

- طيب... ولكن هذا لا ينفي أن ذلك حدث بسبب يسوعي..

ثم أضاف يقول بلهجة لطيفة وبمودة، مخاطباً الأمير ليون نيقولايفتش الذي كان يصغي إلى الحديث فاغر الفم من الدهشة، وكان ما يزال يبدو مصعوقاً:

- يبدو عليك أن لك عواطف دينية قوية جداً، وذلك أمر يندر أن نراه الآن لدى الشباب.

كان واضحاً أن العجوز يرغب في معرفة الأمير معرفة أكمل، وأن هناك أسباباً تدفعه إلى الاهتمام به اهتماماً قوياً.

قال الأمير فجأة:

- كان بافلتشيف رجلاً صافي الذهن راجح العقل، وكان مسيحياً حقاً. فكيف يمكن أن يعتنق ديانة.. ليست مسيحية؟ ذلك أن الكاثوليكية دين ليس من المسيحية في شيء!

كانت عيناه تسطعان وكان يجيل بصره على من حوله كأنه يريد أن يشمل الحضور كافة بنظرة واحدة.

جمجم العجوز وهو يرشق إيفان بتروفتش بنظرة تنم على الدهشة:

- أظن أن في هذا بعض الغلو!

وانبرى إيفان بتروفتش يسأل الأمير قائلاً له وهو يستدير على كرسیه:

- أفليست الكاثوليكية ديانة مسيحية؟ فما هي إذن؟

استأنف الأمير كلامه قائلاً بانفعال شديد ولهجة قاطعة إلى أقصى الحدود:

- هي أولاً ديانة ليس فيها شيء من المسيحية. هذه نقطة أولى. أما النقطة الثانية فهي أن المسيحية الرومانية أسوأ من الإلحاد نفسه في رأيي! نعم، ذلك هو رأيي! إن الإلحاد يقتصر على المناداة بالعدم، أما الكاثوليكية الرومانية فهي تمضي إلى أبعد من ذلك: إنها تبشر بمسيح شوّهته وأفسدت صورته وسوّأت وجهه، إنها تبشر بمسيح هو نقيض الحقيقة. إنها تبشر بنقيض المسيح، أؤكد لكم! هذه قناعاتي الشخصية منذ زمن طويل، وما أكثر ما عذبتني أنا نفسي... إن الكاثوليكية الرومانية تؤمن بأن الكنيسة لا يمكن أن تبقى على الأرض ما لم تمارس سلطة سياسية شاملة، وتكتب: «لا نستطيع»^[46]! بل إن الكنيسة الرومانية في رأيي ليست ديانة. وإنما هي استمرار للإمبراطورية الرومانية الغربية. فكل شيء فيها خاضع لهذه الفكرة؛ حتى الإيمان. لقد استولى البابا على أرض، وأصبح له ملك زماني، وأشهر السيف. ثم لم يتغير شيء منذ ذلك الحين، اللهم إلا أن يكون السيف قد أضيف إليه الكذب والمكر والخديعة والتعصب والخرافة والسفالة. لقد عبثوا بأقدس عواطف الشعب وأنقاها وأكثرها سداجة وبراءة، وحماسة وحرارة. لقد باعوا كل شيء بالمال، كل شيء!... باعوا كل شيء بسلطة زمنية حقيرة. فكيف لا تكون هذه العقيدة نقيض المسيحية؟ وكيف يمكن أن لا تكون الكاثوليكية سبب الإلحاد؟ لقد خرج الإلحاد من الكاثوليكية الرومانية نفسها! وبأتباع الكاثوليكية إنما بدأ الإلحاد: هل كان يمكن أن يصدقوا أنفسهم؟ ثم قوي الإلحاد بالكره الذي حمله لهم الناس. إن الإلحاد ثمرة أكاذيبهم وعجزهم الأخلاقي. الإلحاد! ما يزال الإلحاد في بلادنا لا يرى إلا في بعض فئات المجتمع، لا يرى إلا لدى «المجتثة جذورهم» على حدّ التعبير الموفق الذي استعمله أوغليين بافلوفتش. أما هناك، في أوروبا، فإن جماهير كبيرة من الشعب قد بدأت تفقد الإيمان. كان عدم تدينها في الماضي ناشئاً عن الجهل والكذب. أما الآن فهو ناشئ عن التعصب وعن كره الكنيسة

والمسيحية!

توقف الأمير عن الكلام لاهثاً. لقد تكلم بتدفق شديد. هو الآن شاحب اللون مختنق الصدر. تبادل الحضور نظرات دهشة. وأخيراً أخذ الشيخ الصغير يضحك ضحكاً صريحاً. وأخرج الأمير «ن...» نظارته وأخذ يحدّق بها إلى الأمير ليون فيقول لايفتش. وترك الشويعر الألماني الركن الذي كان قد تلبث فيه حتى ذلك الحين فاقترّب من المائدة وعلى شفّتيه ابتسامة عداوة.

قال إيفان بتروفتش بصوت ممطوط، وقد لاح في وجهه الضجر بل والانزعاج:

— أن... ت.. تبا.. لغ... كثيراً! إن تلك الكنيسة يمثلها كذلك رجال يستحقون كل احترام، رجال فضلاء...

— أنا لم أتكلّم عن ممثلي الكنيسة كأفراد. وإنما تكلمت عن الكنيسة الرومانية في حقيقتها، أنا إنما تكلمت عن روما. هل يمكن أن تزول الكنيسة زوالاً تاماً؟ أنا لم أقل هذا قط!

— موافق. ولكن كل ما تقوله معروف فلا داعي إلى الكلام فيه. ثم... ثم إن هذا كله من اختصاص علم اللاهوت...

— لا، لا، ليس هذا من اختصاص علم اللاهوت وحده، أؤكد لك! هذا أمر يمسنّا كلّنا أقرب كثيراً مما تتصور. هنا إنما يكمن خطؤنا: ما يزال يصعب علينا أن نألف فكرة أن هذه المسألة ليست مسألة لاهوتية فحسب! لا تنسوا أن الاشتراكية هي أيضاً ثمرة الكاثوليكية. فالاشتراكية، كأخيها الإلحاد، إنما ولدت من اليأس. إنها ردّ على الكاثوليكية. إنها ترمي إلى امتلاك السلطة الروحية التي فقدتها الدين، تهدف إلى إرواء الظمأ الشديد الذي يحرق النفس الإنسانية؛ وهي تنشد السلام لا في المسيح بل في العنف! إننا نرى هنا، كما نرى في الكاثوليكية، أناساً يريدون تأمين الحرية بواسطة العنف، ويريدون تحقيق الإلحاد بالسيف والدم! «ممنوع الإيمان بالله. ممنوع التملّك. ممنوع أن يكون للمرء شخصية. الأخوة أو الموت، ولو قطع مليوناً رأس». وقديماً قيل: تعرفونهم من أعمالهم! ألا لا يذهبنّ بكم الظن إلى أن هذا كله لا أذى فيه، ولا خطر علينا منه! لا... يجب علينا أن نعمل، وأن نعمل بأقصى سرعة. ينبغي لمسيحنا، للمسيح الذي حافظنا عليه ولم يستطيعوا حتى أن يعرفوه، ينبغي لهذا المسيح أن يشرق ويتألق في مواجهة الغرب. علينا أن ننتصب أمامهم، لا لنعض صنارة اليسوعية فتصطادنا، بل لننفض فيهم حضارتنا الروسية. ولا يقل أحدٌ أنهم يعرفون كيف يبشرون بأناقة

ورشاقة، كما قال واحد منا منذ برهة...

أجاب إيفان بتروفتش قائلاً وقد لاح في وجهه قلق شديد، وأخذ يلقي على ما حوله نظرات دهشة، بل وطفق يظهر علامات رعب:

- ولكن اسمح لي، اسمح لي... لا شك أن آراءك آراء محمودة، ولا شك أنها تزخر وطنية، ولكن ذلك كله فيه غلوٌ كثير، فمن الخير أن نقف عند هذا الحد لا نتجاوزه.

- لا، ليس ثمة شيء من غلو، بل إن ما أقوله هو دون الحقيقة، لأنني عاجز عن التعبير عن فكري كله، ولكن...

- ... اس... -مح لي!

صمت الأمير جامداً على كرسيه، رافعاً رأسه، راشقاً إيفان بتروفتش بنظرة مشتعلة.

قال الشيخ الصغير بلهجة ودود دول أن يخرج عرن هدوئه:

- يبدو لي أنك أخذت فعلة صاحبك المحسن إليك مأخذ الفاجعة. إن أعصابك مهتاجة.. وربما كان مردّ ذلك إلى العزلة التي تعيش فيها. فلو عاشرت الناس (وأنا آمل أن يحسن المجتمع الراقي استقبال شاب ممتاز مثلك) لهدأت ثائرتك ولوجدت أن هذا كله أبسط كثيراً مما تتصور!... ثم إن هذه الحالات نادرة جداً.. وفي رأيي أن بعضها يرجع إلى شعبنا، وأن بعضها الآخر يرجع إلى... السأم..

صاح الأمير يقول:

- نعم.. هذا هو الأمر تماماً. هذه فكرة عظيمة! إنه «السأم»! إن «سأمننا» هو السبب. ليس الشعب هو السبب بل السأم! هنا جافيت أنا الصواب. فنحن أناس عطاش لم يرتوِ ظمؤنا، بل قل إن ظمأً محموماً يلتهمنا التهاماً!... لا تظنوا أن ذلك ظاهرة تبلغ من تفاهة الشأن أنها لا تستحق منا إلا الضحك.. معذرة، يجب على المرء أن يحسن الإحساس بالأمور قبل وقوعها، والتنبؤ بالأشياء قبل حدوثها. إن مواطنينا متى لمسوا الشاطئ، ومتى اطمأنوا إلى أنه هو الشاطئ فعلاً، بلغوا من السرور والحبور أنهم ما لبثوا أن يصلوا من ذلك إلى أقصى التطرف. لم هذا؟ إن حالة بافلتشف تدهشكم، فأنتم تتصورون أنه فقد عقله أو أنه هوى من فرط طيبته. وليس الأمر كذلك في الحقيقة. إن تحمس النفس الروسية في مثل هذه الظروف لا يثير دهشتنا نحن وحدنا، بل يثير دهشة أوروبا كلها. حين ينتقل روسي إلى الكاثوليكية فإنه لا بدّ أن يصبح يسوعياً، ولا بدّ أن يصبح من أكثر اليسوعيين تطرفاً وتعصباً. وإذا اعتنق الروسي مذهب الإلحاد،

فإنه لا يتردد في المطالبة باستئصال الإيمان بالله بحدّ السيف! فما سبب التعصّب المفاجئ؟ ألا تعرفون ذلك؟ سببه أن الروسي يعتقد أنه اكتشف وطناً جديداً، لأنه لم يدرك أن له وطناً هنا، فإذا هذا الاكتشاف يملؤه فرحاً. لقد وجد شاطئ الأمان، لقد وصل إلى البر. فها هو ذا يهرع إليه ويغمره بالقبلات! إنه لا يفعل ذلك من باب الغرور؛ إن الروس لا يصبحون ملاحدة أو يسوعيين لأن شعوراً مسكيناً بالزهو قد سيطر على أنفسهم. وإنما هم يصبحون ملاحدة أو يسوعيين بتأثير ظمأ نفسي، بتأثير حنين إلى عالم أرفع وأسمى، إلى أرض ثابتة وطيدة، إلى وطن يحل محل الوطن الذي كفوا عن الإيمان به لأنهم لم يعرفوه في يوم من الأيام! إن الشعب الروسي سهل الانتقال إلى الإلحاد، إنه أسهل انتقالاً إلى الإلحاد من أي شعب في العالم. ومواطنونا لا يصبحون ملاحدة فحسب، بل هم «يؤمنون» بهذا الإلحاد أيضاً، كأنه دين جديد، لا يلاحظون أنهم بذلك إنما يؤمنون بالعدم. فإلى هذا الحد نحن عطاش إلى الإيمان. «من لم يكن تحت قدميه أرض، لم يكن له إله أيضاً». ليست هذه الفكرة مني أنا. وإنما عبر لي عنها تاجر التقيت به في سفر. الحقيقة أنه لم يقل هذا الكلام بنصه، وإنما قال: «من يجحد وطنه يجحد إلهه أيضاً». تصوروا أنه قد وجد في روسيا أناس مثقفون ثقافة عالية انتموا إلى ملّة «الخليين»^[47].. والحق أنني أتساءل لماذا نعدّ هذه الملّة أسوأ من العدميين واليسوعيين والملحدين؟ ألا إن عقيدتهم قد تكون أعمق من عقيدة هؤلاء... ولكن ذلكم ما يمكن أن يؤدي إليه قلق النفس!... اجعلوا رفاق كريستوف كولومبس العطاش الملهبين، يرون شواطئ «العالم الجديد»؛ اكشفوا للإنسان الروسي عن «العالم» الروسي؛ أتيحوا له أن يجد ذلك الذهب، ذلك الكنز الذي تخفيه الأرض عن بصره؛ أظهروه على ما يستحق للإنسانية كلها من تجدد وانبعاث ربما بفضل الفكر الروسي والإله الروسي والمسيح الروسي؛ افعلوا ذلك كله تروا أي عملاق قوي عادل، حكيم حلیم، سينتصب قائماً أمام العالم المذهول المروع. ذلك أنهم لا يتوقعون منا إلا السيف، السيف والعنف، فهم إذ يقيسوننا بمقياس أنفسهم لا يستطيعون أن يتصوروا قوتنا في صور غير صور الهمجية. ذلك ما كان حتى الآن، ولسوف ينمو هذا الظن الخطأ مزيداً من النمو في المستقبل. و...

غير أن حادثاً وقع في تلك اللحظة فقطع كلام الخطيب على نحو لم يكن في الحسبان.

إن هذا الحديث الطويل المحموم كله، إن هذا السيل المتدفق من الكلام المضطرب المصطخب الذي يعبر عن فوضى من الأفكار المتحمسة المشوشة المتصادمة، إنما كان

إذن علامة استعداد عقلي لدى الشاب، استعداد خطر كل الخطر، راح يفور ويغلي الآن على حين فجأة دون سبب ظاهر.

وقد دُهِش من بين الحضور جميع أولئك الذين يعرفون الأمير (حتى لقد شعروا بخجل وخزي)، دهشوا من اندفاعته هذه التي لا تتفق وما عهدوا فيه من وضع متخبط بل خجول يتسم في جميع الظروف بكياسة نادرة ولباقة كاملة وشعور فطري بما يليق التزامه من آداب. ولم يفلحوا في فهم علة هذا الخروج عن عاداته المعهودة فيه، وهو خروج لا يمكن تعليله حتماً بما انكشف له من أمر بافلتشييف. أما في ركن السيدات فقد عدّ إنساناً فقد عقله وأصابه جنون. وقد اعترفت الأميرة بيلوكونسكايا فيما بعد أنها «كانت ستهرب لو دام ذلك المشهد برهة أخرى». وأما «الشيخان الصغيران» فقد كادا يفقدان سيطرتهم على نفسيهما منذ لحظة الشده الأولى. اصطنع الجنرال الموظف الكبير هيئة الاستياء والقسوة دون أن يتحرك عن كرسيه. ولزم الكولونيل هدوء ظل يبتسم ابتساماً زائفاً وهو ينظر فيما حوله ليرى كيف يتصرف الآخرون وبماذا عساهم يردون. وعلى كل حال، كان يمكن أن تنتهي هذه الفضيحة كلها على أبسط نحو طبيعي، وربما في دقيقة واحدة. حتى لقد قام إيفان فيدروفتش الذي أدهشه كل ذلك، ولكنه ثاب إلى نفسه واسترد هدوءه قبل الآخرين، قام بعدة محاولات لوقف الأمير، فلما لم يفلح اقترب منه بثبات وعزم. فلو انقضت دقيقة واحدة أخرى لكان من الممكن، إذا اقتضت الضرورة ذلك، أن يقرر إخراجه بلطف ومودة وصداقة، زاعماً له أنه مريض، وذلك زعم قد يكون صادقاً، وهو على كل حال زعم كان إيفان فيدروفتش من جهته مقتنعاً به كل الاقتناع فلا يخالجه فيه ريب... ولكن الأمور جرت مجرى آخر!...

كان الأمير، منذ دخل الصالون، قد مضى يجلس في أقصى مكان مبتعداً عن إناء الخزف الصيني التي خوفته آجالاً من كسره ذلك التخويف كله. شيء لا يكاد يصدق العقل: إن الأمير، بعد الذي قالت له آجالاً بالأمس، قد ترسخ في نفسه اقتناع لا سبيل إلى مغالبتة بأنه لن يستطيع تحاشي كسر هذا الإناء مهما يبذل من جهد لتفادي هذه المصيبة. ذلك توجس غريب لا يصدق. فإليكُم ما حدث: في أثناء السهرة كانت قد اجتاحت نفس الأمير مشاعر أخرى، قوية ممتعة في آن واحد، هي تلك المشاعر التي سبق أن تحدثنا عنها. وقد صرفته هذه المشاعر عن توجسه وأنسته إياه. فلما سمع أحداً ينطق باسم بافلتشييف، وقاده إيفان فيدروفتش إلى إيفان بتروفتش ليقدمه إليه ويعرفه به مرة أخرى، اقترب من المائدة وجلس على مقعد قرب إناء الخزف الصيني، الضخم الرائع، الموضوع فوق قاعدة في مستوى كوعه تقريباً، ووراءه قليلاً.

وحين نطق بالكلمات الأخيرة من خطابه نهض فجأة، وأجرى ذراعه بحركة واسعة طائشة، ولفت كتفيه على غير إرادة منه، فإذا... إذا بصرخة تدوي منطلقة من أفواه الحضور جميعاً! لقد ترنح الإناء، وترجّح في أول الأمر ولاح أنه يهيم أن يسقط على رأس أحد الشيخين الصغيرين، لكنه لم يلبث أن مال إلى الجهة الأخرى التي كان فيها الألماني، فلولا أن أسرع الألماني يثب من مكانه مرتاعاً لسقط عليه، لكنه وقد استطاع الألماني أن يفر منه بمثل لمح البصر سرعة، هوى على الأرض، فأحدث سقوطه قرقرة شديدة ردّ عليها الحضور بصيحات. وتناثر حطامه الثمين على السجادة هنا وهناك! استولى على الحفل زعر ودهشة. أما الأمير فمّن الصعب بل ومن نافل القول أن نصف عواطفه! لكننا لا نستطيع أن نعفي أنفسنا من الإشارة إلى أن إحساساً خاصاً قد اجتاحه في تلك اللحظة عينها وسرعان ما تميّز عن إحساسات أخرى غيره، أليمة أو مرعبة. إن الإحساس الذي شدهه وأسره أكثر من أي إحساس آخر، لم يكن هو الشعور بالخجل أو الفضيحة أو الرعب أو المفاجأة، بل هو الشعور بتحقيق النبوءة! لو سألته أن يعلل لك ما يشتمل عليه ذلك الشعور من قوة الأسر لما استطاع أن يجيبك ولكنه كان يحسّ أن هذا الشعور قد حاصر قلبه وملاً نفسه برهبة تكاد تكون غيبية. وانقضت لحظة: بدا له أن كل شيء يتسع من حوله وأن الرهبة تتبدّد أمام إحساس بالضياء والفرح والنشوة والوجد. انقطعت من ذلك أنفاسه... ولكن ذلك لم يدم إلا مدة قصيرة. الحمد لله! لم يكن الأمر ما كان يظن. استرد تنفسه، ونظر حوله.

لبث وهلة طويلة كمن لا يشعر بالاضطراب الذي يحيط به؛ بل قل إنه كان يفهم ويرى رؤية واضحة كل ما كان يجري، ولكنه كان يحسّ كأنه خارج الحادثة، كشخص خفي من شخوص الحكايات الخرافية، يرقب في حجرة تسلك إليها أناساً غرباء يهمهم أمرهم. رأى حطام الإناء يجمع، وسمع أحاديث سريعة، وأبصر أجالياً محدقة إليه: كان وجه أجالياً شاحباً وكانت هيئتها غريبة، غريبة جداً، ولكن نظرتها لا تعبر عن أي كره، ولا تعبر عن أي غضب. كانت تتأمله مرتاعة، غير أن عينيها زاخرتان بالعطف والمحبة، بينما هي تلقى على الآخرين نظرات ساطعة... فاجتاحت قلبه بهجة لذيذة على حين فجأة.

وفي النهاية لاحظ مبهوراً أن جميع الحضور قد جلسوا، حتى لقد كانوا يضحكون فكأن شيئاً لم يحدث! وانقضت دقيقة فاشتدّ الضحك. إنهم يضحكون الآن من انشدايه، ولكنهم يضحكون باشين مرحين، يضحكون بمودة ومحبة. وكان بينهم عدّة أشخاص يكلمونه بعبارات فيها كثير من الملاطفة، ولا سيما إليزابيت بروكوفينا التي راحت تتكلم ضاحكة وتقول كلمات رقيقة غاية الرقة. وها هو ذا يحس بإيفان فيدروفتش

يربت على كتفه فجأة بكثير من الصداقة. وكان إيفان بتروفتش يضحك هو أيضاً. ولكن الشيخ الصغير كان أكثر الحضور بشاشة ولطفاً ومحبة ومودة: إنه يتناول يد الأمير ويشدّ عليها برفق ويربت عليها بيده الأخرى، ويناشده أن يهدأ بالاً ويطيب نفساً، كما يفعل المرء مع طفل اعتراه خوف، فكان لذلك وقعٌ جميل في نفس الأمير. أخذ الأمير يتأمل وجه الشيخ مفتوناً، وبلغ من شدة الابتهاج أن أنفاسه تقطعت فهو لا يقوى على أن ينطق بكلمة واحدة.

وتتمم يقول أخيراً:

– كيف؟ صحيح حقاً أنكم تغفرون لي؟ ... أنت أيضاً يا إليزابت بروكوفيفنا؟ فاشتدّ الضحك، وترقرقت الدموع في عيني الأمير من التأثير. إنه لا يستطيع أن يصدق بهجة كهذه البهجة.

قال إيفان بتروفتش:

– لا شك في إنه كان إناء رائعاً. أنني أعرفه منذ خمس عشرة سنة ... نعم ... منذ خمسة عشرة سنة...

وقالت إليزابت بروكوفيفنا بصوتٍ عال:

– أهذه كارثة؟ إن الإنسان نفسه إلى زوال، فلا يتحسّر المرء على جرة من فخار!

ثم أضافت تقول وقد لاح في وجهها تعبير عن الخوف:

– صحيح أن الأمر أحدث فيك هذا الاضطراب كله يا ليون نيقولايفتش؟ هيا يا صديقي! كفاك كفاك! إنك لتخيفني حقاً!

سألها الأمير:

– وهل غفرتم لي «كل شيء»؟ لا كسر الإناء وحده، بل «كل شيء» أيضاً؟

وهمّ الأمير أن ينهض، ولكن الشيخ الصغير أمسك يده، وأبى أن يتركه.

همس يقول من فوق المائدة لصاحبه إيفان بتروفتش، ولكن صوته لم يكن من الخفوت بحيث لا يسمعه الأمير:

– «أمير غريب جداً وخطير جداً»!

قال الأمير:

- ألم أسئ إذن إلى أحد منكم؟ إنكم لا تستطيعون أن تتصوروا مدى السعادة التي تغمرني حين أتصور أنني لم أسئ إلى أحد منكم، ولم أجرح شعور أحد منكم! على أن الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك: فأنتى لمثلي أن يسئ إلى واحد مثلكم؟ إن مجرد افتراض هذا إهانة لكم!

- هدئ نفسك يا صديقي. إنك تبالغ. لا داعي إلى إظهار هذا الشكر كله، بل لا محل لهذا الشكر كله البتة. هي عاطفة جميلة، لكنها تتجاوز الحدود.

- أنا لست شاكرًا لكم فحسب، بل أنا معجب بكم أيضاً، وإني لسعيد بتأملكم. لعلي أعبر عن شعوري تعبيراً غيبياً، ولكن لا بد لي من الكلام، لا بد لي من الإفصاح عما يجول في خاطري، ولو من أجل نفسي.

كانت تعتري الأمير حركات اندفاعية تدل على الاضطراب والحمى. من الجائز جداً أن كلماته لم تعبر دائماً عما كان يود أن يقوله. كان يبدو عليه أن يريد أن يستأذن في الكلام. ووقع بصره على الأميرة بيلوكونسكايا.

قالت الأمير بيلوكونسكايا:

- لا تتحرّج يا عزيزي، لا تتحرّج. أكمل، أكمل، لا تلهث. وتكلم بغير خشية أو رهبة. إن هؤلاء السادة قد رأوا أناساً كثيرين أغرب منك وأعجب، فلن تدهشهم. يعلم الله أن فهمك أمر عسير، لكنك قد كسرت هذا الإناء فأخفت الجميع.

كان الأمير يصغي إليها مبتسماً، وفجأة سأل الشيخ الصغير قائلاً:

- أنت الذي أنقذت من النفي، منذ ثلاثة أشهر، الطالب بودكوموف والموظف شفابرين؟

فاحمر الشيخ قليلاً، وجمجم بكلام يدعوه فيه أن يهدئ نفسه. وأردف الأمير يقول مخاطباً إيفان بتروفتش:

- وعنك أنت سمعت أنك في مقاطعة «ن» قد وهبت أخشاب بناء لفلاحين يسكنون في أراضيكم حين امتحنوا بحريق، رغم أنهم بعد انعتاقهم كانوا قد أساءوا معاملتكم.

فدمدم إيفان بتروفتش يقول:

- أوه! هذه مبالغة!

على أن وجهه قد عبر عن ارتياح واعتزاز. والحق أنه لم يخطئ في هذه المرة حين

تحدث عن مبالغة، ذلك أن الأمر لم يكن إلا شائعة كاذبة وصلت إلى مسامع الأمير.

واستأنف الأمير كلامه ملتفتاً إلى الأميرة بيلوكونسكايا فقال لها وهو يبتسم ابتسامة مشرقة:

- وأنت يا أميرة، ألم تكرمي وفادتي وتعامليني معاملة الابن اعتماداً على رسالة توصية من إليزابيت بروكوفيفنا؟ ألم تسدي إليّ كذلك نصيحة لن أنساها ما حييت، كما تنصح أم ابنها؟

قالت الأميرة في غضب:

- ماذا أصابك؟ إنك لشاب طيب ولكنك مضحك. فإذا نفحك أحد قرشين أخذت تكيل له الشكر كأنه أنقذ حياتك؟ أتظن أن هذا حسن؟ الواقع أن هذا مستقبح مستهجن! وأوشكت الأميرة بيلوكونسكايا أن تغضب مزيداً من الغضب، ولكنها أخذت تضحك على حين فجأة، وكان في ضحكها هذه المرة بشاشة ومودة. فهدأ وجه إليزابيت بروكوفيفنا أيضاً، وأشرق محيا إيفان فيدروفتش.

تمتم الجنرال بلهجة الارتياح والفرح مردداً كلمات الأميرة بيلوكونسكايا التي أثرت فيه تأثيراً كبيراً:

- لقد قلت حقاً إن ليون نيقولايفتش رجل يبلغ من ال... رجل يمكن أن... على شرط أن لا يلهث ويختنق أثناء الكلام، كما نبّهت الأميرة إلى ذلك... وكانت أجلايا وحدها تبدو حزينة... ومع ذلك كان وجهها ما يزال مصطبغاً بحمرة، ربما من أثر الاستياء.

كرر الشيخ الصغير يقول لإيفان بتروفتش:

- حقاً إنه لطيف جداً.

كان الأمير في حالة اضطراب ما ينفك يزداد. وها هو ذا يستأنف الكلام فيقول بتدفق يتسارع أكثر فأكثر، تدفق غير عادي، تدفق مندفع حار محمود:

- لقد دخلت إلى هنا معذب القلب، و... وكنت خائفاً منكم، وكنت خائفاً من نفسي. كنت خائفاً من نفسي خاصة. حين عدت إلى بطرسبرج كنت قد آليت على نفسي لأعرفن أناس الطبقة الأولى مهما كلف الأمر، أولئك الذين ينتمون إلى أسر عريقة أنتمي أنا إلى واحدة منها بالوراثة. أنا الآن بين أمراء مثلي، أليس كذلك؟ كنت أريد

أن أتعرف إليكم.. كان ذلك أمراً لا بدّ منه، لا بدّ منه قطعاً! لقد طالما سمعت عنكم سوءاً كثيراً، لقد سمعت عنكم من السوء أكثر مما سمعت عنكم من الخير. حدثت عن ضيق فركم، عن فقر اهتمامكم، عن رجعية عقلكم، عن ضحالة ثقافتكم، عن سخافة عاداتكم. أه... ما أكثر ما يكتب عنكم من أمور! لذلك كنت زاهر النفس بحب الاطلاع وشدة القلق حين جئت إلى هنا اليوم. كان ينبغي لي أن أرى بعيني، وأن أفكر بعقلي، وأن أكون لنفسي اقتناعاً شخصياً عن السؤال التالي: هل صحيح أن الطبقة العليا من المجتمع الروسي تافهة لا تساوي شيئاً ولا تصلح لشيء وأن زمانها قد مضى، وأن حيويتها قد نضبت، وأنها أصبحت عاجزة عن أي شيء إلا أن تموت، وأنها رغم ذلك ما زال مصرة إصراراً عنيداً بدافع الغيرة الحغيرة على أن تحارب رجال.. رجال المستقبل، وأن تسدّ أمامهم الطريق، دون أن تدرك أنها هي نفسها تُحتضر وتلفظ أنفاسها الأخيرة؟ صحيح أنني كنت لا أصدق كثيراً هذه الآراء، لأن بلادنا روسيا لم تضم في يوم من الأيام طبقة أرستقراطية حقاً، اللهم إلا رجال البلاط الذين تميّزوا بزيهم الرسمي أو تميّزوا بمصادفة. ولكن تلك الطبقة قد زالت الآن زوالاً تاماً، أليس الأمر كذلك؟

قال إيفان بتروفتش وهو يضحك ساخراً بخبث ومكر:

- دعك من هذا الأمر! ليس الأمر كذلك!

قدمت الأميرة بيلوكونسكايا تقول نافذة الصبر:

- ها هو ذا يستأنف...

فقال الشيخ الصغير بصوت خافت:

- دعوه يتكلم! إن جسمه كله يرتجف!

كان الأمير قد خرج عن حالته الطبيعية قطعاً. وانطلق يقول:

- فماذا رأيت هنا؟ رأيت أناساً يفيضون لطافة فكر، وصراحة قول، وقوة ذكاء. رأيت شيخاً وقوراً ينتبه إلى صبي مثلي انتباهاً زاهراً بالعاطفة والمحبة، ويصغي إلى كلامه حتى النهاية. وأرى أناساً قادرين على أن يفهموا وأن يغضروا. وهؤلاء أناس روس طيبون لا يكادون يقلون طيبة وميلاً إلى المودة والصداقة عن أولئك الذين لقيتهم هناك؛ وهم لا يقلون عنهم قيمة على كل حال. فهل ثمة مفاجأة أحلى من هذه المفاجأة؟ أه... اسمحوا لي أن أفصح عن شعوري هذا! سمعت الناس كثيراً يقولون إن كل شيء في المجتمع الراقي لا يعدو أن يكون آداباً سطحية ومحافظة على الشكل بالية، أما نسغ

الحياة فقد جفّ. وكثيراً ما اعتقدت أنا بصدق هذا الكلام. ولكنني أرى الآن رؤية العين أن هذا لا يمكن أن يصدق على بلادنا. هل يمكن أن يصدق المرء أنكم الآن جميعاً يسوعيون ودجالون؟ منذ قليل سمعت قصة الأمير «ن»: أليست تشتمل على فكاهة زاحرة بالصدق والعفوية؟ أليست تشتمل على طيبة حقيقية؟ هل يمكن أن تخرج أقوال كهذه الأقوال من فم رجل... ميت، من فم رجل جفّ قلبه ويبيست موهبته؟ هل كان في وسع أموات أن يستقبلوني كما استقبلت؟ أليس هذا عنصر للمستقبل يجيز لنا أن نتصور أجمل الآمال؟ هل يمكن لأفراد مثلكم أن يكونوا قليلي الإدراك وأن يبقوا في خلف؟

قال «الموظف الكبير»، وهو يبتسم ابتسامة فيها قليل من السخر:

- أرجوك. هدئ نفسك يا صديقي العزيز. سنتكلم عن هذا كله في يوم آخر، وسيسرني كثيراً أن...

وتنحني إيفان بتروفتش والتفت على مقعده. وعاد إيفان فيدروفتش يضطرب ويتحرك. إن رئيسه الجنرال شغل بالحديث مع زوجة الموظف الكبير، وأصبح لا يولي الأمير أي انتباه. ولكن السيدة تصغي إلى الموظف الكبير بإحدى أذنيها، وكثيراً ما كانت تنقل بصرها إلى الأمير.

تابع الأمير كلامه يقول باندفاعة محمومة جديدة مخاطباً الشيخ الصغير بلهجة الثقة بل وبلهجة المسارة:

- لا، لا، إن الأفضل أن أتكلم! إن آجلايا إيفانوفنا قد حضرت عليّ بالأمس أن أتكلم، حتى لقد حددت لي مواضيع يجب أن لا أقاربها، فهي تعلم أنني أكون مضحكاً حين أعالج مثل تلك المواضيع. أنا في السنة السابعة والعشرين من عمري، ولكنني أدرك أن سلوكي سلوك طفل. لا يجوز لي أن أعبر عن فكري. قلت هذا منذ زمن طويل. لم أستطع أن أتكلم بصراحة، مفتوح القلب، إلا في موسكو، مع روجويين... قرأنا بوشكين معاً، قرأناه كاملاً. كان هو لا يعرفه؛ كان لا يعرف حتى اسم بوشكين. ما زلت أخشى أن تفسد هيئتي المضحكة فكري، وأن تحطّ من قدر «الفكرة الرئيسية». إن حركاتي وإشاراتي غير موفقة. إنها تجيء في غير محلها وأوانها، فتثير الضحك وتفسد الفكرة. ينقصني أيضاً حسن الاعتدال والقصد. وذلك أمر خطير، بل هو أخطر شيء... أنا أعلم أن خير ما أفعله هو أن أبقى ساكناً لا أتحرك، وصامتاً لا أتكلم. فحين أسكن وأصمت يمكن أن أبدو للناس عاقلاً بل عاقلاً جداً، ويتاح لي عدا ذلك أن أفكر. ولكن من الأفضل الآن أن أتكلم. إنكم تنظرون إليّ بترحيب كبير وبشاشة عظيمة، لذلك قررت أن أتكلم، إن في ملامح وجوهكم فتنة رائعة. لقد وعدت آجلايا إيفانوفنا بالأمس أن أصمت طوال

السهرة...

قال الشيخ الصغير وهو يبتسم:

- حقا؟

- غير أن هناك لحظات أقول فيها لنفسي إن هذا التفكير خطأ، فالصدق المخلص يساوي حركة موفقة. أليس كذلك؟ أليس هذا صحيحا؟

- أحيانا.

- أريد أن أشرح لكم كل شيء، كل شيء، كل شيء! آ... نعم!... أتظنون أنني امرؤ خيالي؟ مثالي؟ لا، لا؛ يميناً أن أفكاري كلها بسيطة كل البساطة... ألا تصدقونني؟ أتتسمون؟ اسمعوا.. أنا في بعض الأحيان جبان لأنني أفقد الإيمان بنفسي. منذ قليل، حين كنت آتياً إلى هنا، تساءلت: «كيف عساني أكلّمهم؟ ما هي العبارات التي أستهلّ بها الحديث حتى يفهموني عني ولو قليلاً؟» شعرت بخوف شديد، ومنكم أنتم إنما خفت. فهل كان من حقي أن أخاف؟ ألم يكن خوفي شيئاً مخجلاً معيباً؟ أي ضير في أن يوجد أمام إنسان تقدمي جمهور كبير من الرجعيين والشريرين؟ على أن فرحي الآن ناشئ عن اقتناعي بأن ذلك الجمهور لا وجود له في الواقع، وأن ليس ثمة إلا عناصر زاهرة بالحياة. ثم إنه ما ينبغي لنا أن يبت الاضطراب في نفوسنا أن نتصور أننا مضحكون، أليس كذلك؟ الحق أننا مضحكون. فنحن خفاف طائشون، ونحن ذوو عادات سخيفة مؤسفة، ونحن نضجر ونمل، لا نريد أن نرى ولا أن نفهم. نحن جميعاً هكذا، جميعاً، أنتم، وأنا، وهم أيضاً. آه... لا يزعلنكم أن تسمعونني أقول لكم وجهاً لوجه إنكم مضحكون؟ وإذا كان الأمر كذلك، أفلا يمكن أن تُعدّوا صنّاع تقدم؟ بل إنني لأقول لكم إن من الخير في بعض الأحيان أن يكون المرء مضحكاً، فيكون الناس أميل إلى الصفح والتواضع. إنه لم يوهب لنا أن نفهم كل شيء جملة واحدة؛ والإنسان لا يبلغ الكمال دفعة واحدة! فمن أجل الوصول إلى الكمال، يجب في أول الأمر أن لا يفهم المرء أشياء كثيرة. فمن يدرك بسرعة مضطرة يدرك إدراكاً فاسداً في أغلب الظن. إنني أقول هذا لكم، لكم أنتم الذين أمكن أن تفهموا أشياء كثيرة جداً... دون أن تفهموها. لقد أصبحت الآن لا أخشى من جانبكم شيئاً. فإنكم تصغون بغير غضب إلى صبي مثلي يكلمكم بهذه اللهجة، أليس كذلك؟ قطعاً! أوه.. لسوف تستطيعون أن تنسوا... لسوف تستطيعون أن تغفروا لأولئك الذين أساءوا إليكم، ولأولئك الذين لم يسيئوا إليكم، على حد سواء؛ والأصعب أن تغفروا للذين لم يسيئوا إليكم في شيء، وذلك لسبب بسيط هو أنهم لم يذنبوا في حقكم «البتة»، وأن شكاوكم منهم لا تقوم إذن على أساس. ذلكم ما كنت

أنتظره من أهل المجتمع الراقي، ذلكم ما كنت أتعجل أن أقوله لكم حين كنت آتياً إلى هنا دون أن أعرف العبارات التي يجب عليّ أن أستعملها في التعبير عنه... أتضحك يا إيفان بتروفتش؟ أنت تعتقد أنني ديموقراطي، أو داعية من دعاة المساواة، إنني هنا محام «عنهم»، وإنني «عليهم» خائف، أليس كذلك؟ (أضاف الأمير هذا وهو يطلق ضحكة تشنجية؛ ولقد كان في كل لحظة يطلق ضحكة صغيرة متقطعة متحمسة). فاعلم إذن إنني عليكم خائف، عليكم جميعاً، عليكم جميعاً في آن واحد. أنا نفسي أمير من سلالة قديمة أجلس الآن مع أمراء. إنني أتكلم عن سلامتنا المشتركة، عن خلاصنا المشترك، حتى لا تندثر طبقتنا وتغيب في الظلمات بغير نفع، لأنها لم تتنبأ بالمستقبل ولم تزد على أن تشاجرت وفقدت كل شيء. لماذا نزول ونخلي مكاننا للآخرين بينما نحن نستطيع أن نحفظ بمكاننا في الطبيعة على رأس المجتمع؟ لنكن تقديميين فنبقى نحن الأوائل. فلنصبح خداماً لنكون نحن الأعليين.

وهم فجأة أن ينهض عن مقعده، لكن الشيخ العجوز ظل ممسكاً به يحدّق إليه بعينين يزداد قلقهما لحظة بعد لحظة.

- اسمعوا! أنا أعرف أن الكلام لا ينفع. وأن الأفضل أن ندعو إلى الخير بالقدوة والعمل... ولقد بدأت.. و.. و... هل يمكن حقاً أن يكون المرء شقيماً؟ أوه!... ما قيمة حزني وشقائي إذا كنت أحس أنني أملك القدرة على أن أكون سعيداً؟ أعلموا أنني لا أفهم أن يمرّ امرؤ بشجرة دون أن يشعر لمرآها بالسعادة، أو أن يكلم إنساناً دون أن يسعد بحبه... أواه! إن الكلمات تعوزني للتعبير عن هذا... ولكن ما أكثر الأشياء الجميلة التي نراها عند كل خطوة نخطوها، والتي يحس بجمالها كل إنسان مهما كان متدنياً! انظروا إلى الطفل، انظروا إلى فجر الإله الخالق، انظروا إلى العشب الذي ينبت في الأرض، انظروا إلى الأعين التي تتأملكم وتحبكم...

في أثناء هذا الخطاب الطويل كان الأمير قد نهض وهو يتكلم. وكان الشيخ الصغير يتابعه بنظراته مرتاعاً. ولوّحت إليزابيت بروكوفيفنا بذراعيها وصاحت تقول: «آ.. رباه!...». كانت قد حزرت ما يجري، قبل سائر الحضور. وهرعت أجاليا نحو الأمير فأمكنها أن تصل إليه في اللحظة المناسبة لتتلقى سقوطه بذراعيها. كانت الفتاة مصعوقة من الرعب، منقلبة السحنة من الحزن، وقد سمعت العويل الوحشي «للروح التي رنّحت الشاب المسكين وطرحته أرضاً». إن الأمير يسجو الآن على السجادة وقد أسرع أحدهم فدسّ تحت رأسه وسادة.

لم يكن أحد يتوقع هذه الخاتمة. وحاول الأمير «ن» وأوجين بافلوفتش والشيخ

الصغير، بعد ربع ساعة، أن يعيدوا إلى السهرة حياتها ونشاطها، ولكن ما انقضى نصف ساعة حتى انفض المدعوون جميعاً دون أن يفوتهم طبعاً أن يعبروا عن مواساتهم وأسفهم ممزوجين بتعليقات على الحادث. قال إيفان بتروفتش فيما قال إن رأيه هو «أن الشاب متعصب للسلافية»^[48]، أو هو يدين بشيء من هذا القبيل، ولكن حالته ليست خطيرة». ولم ينطق الشيخ العجوز بكلمة واحدة. صحيح أن الجميع قد زعلوا كثيراً أو قليلاً في غد أو في غداة غد. حتى إن إيفان بتروفتش شعر بأن كرامته قد أهينت، ولو إهانة يسيرة. ورئيس إيفان فيدروفتش أظهر لمرؤوسيه شيئاً من الجفاء مدة من الوقت. و«الموظف الكبير»، «حامي» أسرة إيواننتشين أصدر هو أيضاً، من جهته، ملاحظات متفخمة عن رب الأسرة، ولكنه أضاف إليها بعبارات لطيفة أنه شديد الاهتمام بمصير آجلایا. الواقع أنه رجل لا يخلو من طيبة، ولكن من الأسباب التي أثارت اهتمامه بالأمير في ذلك المساء، ما كان قد سمعه عن قصة العلاقات السابقة التي قامت بين الأمير وبين ناستاسيا فيليبوفنا. إن الأشياء القليلة التي سمعها عن هذا الأمر قد حيرته حيرة شديدة، وكان يودّ لو يلقي أسئلة حول هذا الموضوع.

قالت الأميرة بيلوكونسكايا لإليزابت بروكوفينا بعد السهرة، لحظة الانصراف:

— ما عسى أقول لك؟ إنه حسن وإنه سيئ... وإذا أردت معرفة رأيي صريحاً قلت لك إنه إلى السوء أقرب. إنك لترين بنفسك ما نوعه رجلاً: إنه مريض!

قررت إليزابت بروكوفينا في قرارة نفسها أن الأمير «لا يمكن، أن يكون لابنتها خطيباً». وفي الليل حلفت لنفسها أنه «لن يتزوج آجلایا ما بقيت هي على قيد الحياة». وقد استيقظت في الصباح على هذه الحال نفسها وهذا العزم نفسه. ولكنها وقعت في تناقض واضح عند الغداء بعد الظهر بقليل.

ذلك أن آجلایا قد أجابت عن سؤال ألقته عليها أختها (بكثير من اللباقة والكياسة في الواقع)، فقالت بلهجة باردة لكنها متغطسة:

— أنا لم أقطع له عهداً قط، ولا عدته خطيبي في يوم من الأيام. إنني لا أكرث به أكثر مما أكرث بأي شخص.

فما كان من إليزابت بروكوفينا إلا أن انبرت تقول بلهجة حزن:

— لم أكن أتوقع منك لغة كهذه اللغة! أنا أعلم أنه لا يصلح لك زوجاً، والحمد لله على أن الأمر انتهى هذه النهاية! ولكنني ما كنت لأصدق أن يصدر عنك كلام مثل هذا الكلام! كانت فكرتي عنك مختلفة عما أراه الآن فيك كل الاختلاف. أنا من جهتي

كان يمكنني أن أطرّد جميع ضيوف الأمس ولا أحتفظ بأحد غيره. ذلك هو رأي فيه!...

قالت إليزابيث بروكوفينا ذلك وصمتت فجأة كالمرتاعة مما قالت. آه... لييتها علمت كم كانت ظالمةً لابنتها في تلك اللحظة! كان كل شيء قد تقرر في ذهن آجلايا. إن آجلايا أيضاً كانت تنتظر ساعتها، ساعتها الحاسمة؛ وكان كل تلميح طائش أو إلماع متهور يحدث في قلبها جرحاً عميقاً.

الفصل الثامن

كانت بداية ذلك الصباح متأثرة لدى الأمير أيضاً بإحساسات أليمة. ولقد كان يمكن تفسير تلك الإحساسات بحالته المرضية. غير أن حزنه كان يخالطه شيء يبلغ من صعوبة التحديد أن ذلك بعينه كان سبب عذابه. صحيح أنه كان إزاء وقائع محسوسة ملموسة، دقيقة دقة أليمة مشجية، لكن حزنه يمضي إلى أبعد من كل ما كان يتذكره أو يتخيله. وكان يدرك أنه لن يستطيع وحده أن يهدئ قلقه. وشيئاً فشيئاً ترسخ في نفسه انتظار حادث خارق حاسم سيقع له في ذلك اليوم ذاته. إن النوبة التي اعترته في الليلة البارحة أخرى أن تُعد نوبة بسيطة؛ حتى إنها لم تخلف من الاضطرابات غير نوع من السوידاء، وشيء من الثقل في الرأس، وآلام في الأعضاء. وكان ذهنه صافياً، رغم أن نفسه كانت متألّمة. لقد صحا من نومه في ساعة متأخرة، فسرعان ما عاودته ذكرى السهرة الماضية واضحة وضوحاً تاماً. حتى لقد وعى إنه نُقل إلى منزله بعد النوبة بنصف ساعة.

وعلم أن أسرة إيبانتشين أرسلت تسأل عن صحته. ثم أرسلت تسأل عن صحته مرة ثانية في الساعة الحادية عشرة والنصف. فأبهجه ذلك. وكانت فيرا ليبيديفا من أوائل الأشخاص الذين زاروه وقدموا له خدماتهم. لقد أجهشت تبكي فجأة منذ رأته. ولكنها أخذت تضحك حين هدأ الأمير روعها. وتأثر هو تأثراً قوياً بهذا العطف الذي أظهرته له الفتاة فتناول يدها وقبلها، فاحمرّت الفتاة وهتفت تقول مروعة وهي تسحب يدها بسرعة:

— آه... ماذا تفعل؟ ماذا تفعل؟

ولم تلبث أن غادرت الغرفة مضطربة اضطراباً خاصاً، ولكن وقتها قد اتسع لأن تروي للأمير أن أباها أسرع في الصباح المبكر إلى بيت «المتوفى» (بذلك سمّت الجنرال إيفولجين)، ليسأل هل مات في الليل. وأضافت أن الرأي مجمع على أن المريض لن يعيش مدة طويلة.

وحين عاد ليبيديف إلى داره قبل الظهر، جاء إلى الأمير بنفسه، قائلاً إنه «لن يمكث إلا دقيقة واحدة، وإنه لا يريد إلا أن يطمئن عن صحة الأمير «الغالية»، إلخ. هذا عدا

أنه يريد أن يزور «خزانته الصغيرة». وكان لا يتوقف عن الشكوى والأنين وإطلاق الصيحات تلو الصيحات، فلم يلبث الأمير أن طرده، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يتجراً فيلقى أسئلة عن النوبة التي اعترت الأمير في الليلة البارحة، رغم أنه كان واضحاً أنه يعرف الأمر بأدق تفاصيله.

وبعد ليبيديف وصل كوليا مسرعاً، وقال هو أيضاً إنه لا يريد أن يمكث إلا دقيقة واحدة. ولكن كوليا كان صادقاً حقاً، وكان يستبد به اضطراب عارم وقلق قاتم. وقد بدأ كلامه بأن سأل الأمير صريحاً جازماً ملحاً أن يوضح له كل ما كانوا يخفونه عنه، وأضاف أنهم قد أعلموه بالأمس كل شيء تقريباً، لقد كان انفعاله عنيفاً عميقاً.

أطلعته الأمير على حقيقة الأمر بكل ما يحمله قلبه من مودة ويضمّره من محبة. عرض عليه الوقائع بدقة تامة. فكان وقعها على الفتى المسكين كوقع الصاعقة، فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة، وطفق يبكي صامتاً. وأحس الأمير أن هذا انطباع من الانطباعات التي لا تمحى من النفس في يوم من الأيام، والتي لا بد أن تكون منعطفاً حاسماً في حياة مراهق. وأسرع يطلعه على الطريقة التي سيعالج بها الأمر، مضيفاً إلى قوله أن موت العجوز، في رأيه، ربما كان يرجع خاصة إلى الارتياح الذي خلفه في قلبه العمل السيئ الذي اقترفه، وأن هذا التأثير قد لا يقدر عليه سائر الناس.

سطعت عينا كوليا حين أنهى الأمير كلامه، وقال:

– ما أحقر جانبا وفاريا وبتتسين! لن أشاجرهم، لكن كلاً منا سيسير بعد اليوم في طريقه! آه يا أمير، لقد شعرت منذ أمس بعواطف جديدة كثيرة. هذا درس لي! إنني أرى الآن أن عليّ أن أكفل معيشة أُمي وأن أهَيئ لها ما تحتاج إليه. إنها على كونها في منجى من العوز عند فاريا، فليس...

وتذكر كوليا أنهم ينتظرونه فأسرع ينهض؛ ثم سأل الأمير عن صحته متعجلاً، فلما أجابه الأمير عن سؤاله قال له بحرارة:

– أليس هناك شيئاً آخر؟ لقد سمعت إنه بالأمس... (على أنني لا شأن لي أنا بهذا)... ولكن إذا احتجت في أي يوم من الأيام إلى خادم وفيّ مخلص، لأي أمر من الأمور، فإن هذا الخادم واقف الآن أمامك. يخيل إليّ أننا لسنا سعيدين، لا أنت ولا أنا، أليس كذلك؟ ولكن... ولكنني لا أسألك.. لا أسألك..

وحين انصرف كوليا غرق الأمير في أفكاره مزيداً من الغرق العميق. إن صحبه كافة يتنبؤون له بالشقاء؛ إنهم جميعاً قد خلصوا إلى نتائجهم؛ هم جميعاً يلوح عليهم

أنهم يعرفون شيئاً يجهله هو. ليبيد يف يلقي أسئلة مستخفية؛ كوليا يلمح تلميحات مباشرة، فيرا تبكي. وحرك الأمير يلفه أخيراً بإشارة غضب قائلاً لنفسه: «لعن الله سوء الظن. إنه مرض!».

وفى نحو الساعة الثانية، استردّ وجهه هدوءه حين رأى السيدات إيبانتشين يجئن إليه زائرات «مدة دقيقة واحدة». إن زيارة دقيقة واحدة هي التي جاءت بهن فعلاً. لقد أعلنت إليزابيت بروكوفيفنا بعد الغداء رأساً، إنهم سيخرجون لنزهة يشتركون فيها جميعاً. قالت ذلك بلهجة أمرّة، قاطعة، جافة، دون شرح أو تعليل. وخرج الجميع، أي الأم والآنسات والأمير «شتش...»، وسرعان ما سارت إليزابيت بروكوفيفنا في اتجاه عكس الاتجاه الذي يسرون فيه كل يوم. فأدرك الجميع ما تنتوي، لكنهم لموا الصمت مخافة أن يثيروا غضب ماما التي كانت تمشي في طليعتهم دون أن تلتفت، كأنها تريد أن تتحاشى اللوم أو الاعتراض. ونبهتها آديلائيّد أخيراً إلى أنه ليس من الضروري أن يركضوا هذا الركض كله للقيام بنزهة، وأنهم عاجزون عن مجاراتها في السير بهذه العجلة.

قالت إليزابيت بروكوفيفنا وهي تلتفت إلى وراء:

– بالمناسبة: نحن الآن قريبون من بيته. وهو قريبنا على كل حال، مهما كان رأي آجلايا، ومهما يحدث من بعد؛ لا سيما وأنه الآن شقي ومريض. أنا على الأقل سوف أزوره حتماً. فمن شاء صحبني، ومن شاء أكمل نزهاته.

دخل الجميع طبعاً. وبادر الأمير يعتذر مرة أخرى عن كسر الإناء الذي تهشم بالأمس.. وعن الفضيحة التي وقعت...

فأجابت إليزابيت ألكسندروفنا تقول:

– دعك من هذا. لم يحدث شيء ذو بال. ليس تحطم الإناء هو ما يؤلمني، وإنما تؤلمني حالتك أنت. إنك تعترف الآن إذن بأن فضيحة قد وقعت: لا يدرك المرء ما حدث إلا في الغداة!... على أن هذا نفسه لا قيمة له، لأن كل واحد يرى الآن أنك غير مسؤول. هيا، إلى اللقاء! إذا شعرت بقدرّة على القيام بنزهة فافعل، ثم نم قليلاً مرة أخرى. هذه نصيحتي لك. وإذا بدا لك أن تزورنا كما كنت تزورنا في الماضي فلا تحجم. عليك أن تثق إلى الأبد بأنك ستظل صديق أسرتنا أو صديقي أنا على الأقل، مهما يحدث من أمر، ومهما ينتج من نتائج. أنا أضمن نفسي على الأقل...

وبادر الجميع يشبتون عواطف إليزابيت بروكوفيفنا، ويشنون عليها. ثم خرجوا

ينصرفون. غير أنهم باستعجالهم الساذج في قول كلام يلاطف المسكين ويواسيه ويقوّي عزمته قد ارتكبوا قسوة لم تستطع إليزابيت بروكوفينا حتى أن تظن إليها. إن دعوته إلى أن يزورهم «كما كان يزورهم في الماضي»، وكذلك قصر صداقته عليها هي («صديقي أنا على الأقل»)، إن ذلك كان بمثابة تنبيه.

ولقد تذكر الأمير وضع أجاليا. صحيح أنها ابتسمت له ابتسامة أخاذة حين دخلت وحين خرجت، ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة، حتى حين أكد الآخرون صداقتهم. ومع ذلك ثبتت نظرها عليه مرتين. كان وجهها أشد شحوباً مما عهد فيه من شحوب، كأنها قضت ليلة مسهّدة. وقرر الأمير أن يزورهم حتماً في مساء ذلك اليوم نفسه «كما كان يزورهم في الماضي». ونظر إلى ساعته محموماً.

بعد خروج ال إيبانتشين بثلاث دقائق، دخلت فيرا. وقالت له:

– ليون نيقولايفتش، عهدت إليّ أجاليا إيفانوفنا منذ هنيهة بأن أنقل إليك رسالة سرية.

انفعل الأمير انفعالاً بلغ من القوة أنه أخذ يرتجف. وقال يسألها:

– رسالة مكتوبة؟

– لا، إن وقتها لم يكد يتسع لأن تحملني الكلمات التي أقولها لك: إنها ترجوك ملحةً أن لا تغيب عن بيتك طوال النهار دقيقة واحدة، إلى الساعة السابعة أو حتى الساعة التاسعة. إنني لم أسمع كلامها دقيقاً واضحاً في هذه النقطة.

– ولكن لم هذا؟ ما معناه؟

– لا أدري. لكنها كلّفتني أن أنقل إليك هذه الرسالة أمرة أمراً صارماً!

– أهي استعملت تعبير «الأمر الصارم»؟

– لا، لم يكن تعبيرها واضحاً هذا الوضوح كله. إن وقتها لم يكد يتسع لأن تكلمني ملتفتة. من حسن الحظ أنني دنوت منها. ولكن المرء يقرأ في وجهها أنها تأمر أمراً، سواء أكان الأمر صارماً أم لم يكن كذلك. لقد ألقت عليّ نظرة انخلع لها قلبي...

ألقي الأمير سؤالين أو ثلاثة أسئلة أخرى، لكنه لم يعلم أكثر مما علم. وفي مقابل ذلك اشتدّ قلقه. حتى إذا خلا إلى نفسه تمدد على الديوان وعاد إلى تخميناته: «قد يكون عندهم أحد قبل الساعة التاسعة، فهي تخشى أن أقارف شذوذاً آخر وأن أثير

فضيحة جديدة أمام الزوار، كذلك قال لنفسه أخيراً وعاد ينتظر حلول المساء نافذ الصبر ناظراً في ساعته.

لكن حل اللغز قد جاءه قبل حلول المساء بمدة طويلة، جاءه في صورة زيارة جديدة بل في صورة لغز ثانٍ لا يقل عن الأول إقلاقاً: فبعد انصراف آل إيوانتشين بنصف ساعة تماماً حضر إليه هيبوليت.

كان هيبوليت متعباً مرهقاً مهدّماً، فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة بل تهاوى على أحد المقاعد تهاوياً كمن أغمي عليه، واعترفته نوبة سعال رهيبة أخذت تهزه هزاً قوياً، وكان السعال مصحوباً ببصقات دم. إن عينيه تلتمعان، وأن بقعاً حمراً تظهر على خديه، دمدم له الأمير ببضع كلمات لم يجب عنها، مقتصراً أثناء مدة طويلة على تحريك يده بإشارة معناها أن يُترك مرتاحاً. حتى إذا استردّ شيئاً من قوته، قال بجهد ظاهر وصوت أبح:

– أنا ذاهب!

فقال الأمير ويسأله وهو ينهض:

– أتريد أن أصحبك؟...

لكنه توقف فجأة إذ تذكر أنه مُنع من الخروج منذ قليل.

فأخذ هيبوليت يضحك. وتابع يقول بذلك الصوت المحشرج المختنق نفسه:

– لست ذاهباً من عندك. بالعكس: لقد رأيت من اللازم أن أجيء إليك لأحدثك في أمر من الأمور... ولولا ذلك ما أزعجتك. أنا ذاهب مسرّ عندهم. وأحسب أن المسألة في هذه المرة جد لا هزل. انتهى كل شيء... لا أقول هذا التماساً للشفقة، أوكد لك... حتى لقد استلقيت هذا الصباح على فراشي مقررّاً أن لا أغادره قبل حلول «تلك اللحظة» لكنني عدلت عن ذلك الرأي ونهضت مرة أخرى لأجيء إليك. معنى ذلك أن مجيئي كان لا بدّ منه.

– منظرِك مؤلم. كان أحري بك أن تستدعيني لا أن تحمل نفسك عناء المجيء.

– طيب. كفى هذا الآن. لقد رثيت لحالي، فقامت بما توجبه آداب المجتمع، ومقتضيات الكياسة والذوق والتهذيب. ... نسيت: كيف صحتك أنت؟

– صحتي الآن حسنة. ولم تكن أمس كذلك... تماماً!

- أعرف. ذُكر لي هذا. وكان إناء الخزف الصيني هو الضحية. خسارة أنني لم أكن هناك! ولكن فلنصل إلى الأمر الذي أريد الكلام فيه. أولاً: لقد سعدت اليوم برؤية جبريل آرداليونوفتش يوافي أجلايا إيفانوفتش في موعد مضروب قرب الدكة الخضراء... وأعجبت أعظم الإعجاب بمدى ما يمكن أن يظهر في هيئة إنسان من حماقة وغباء.. وقد ذكرت هذه الملاحظة لأجلايا إيفانوفنا نفسها بعد انصراف جبريل آرداليونوفتش...

ثم أضاف هيبوليت يقول وهو ينظر مرتباً إلى وجه محدّثه الذي لم يكن يعبر عن شيء:

- أظن أنك أنت لا يدهشك شيء يا أمير. يقال إن من علامات قوة الفكر أن لا يدهش المرء شيء. أما أنا ففي رأيي أن ذلك يمكن أن يكون علامة غباء عميق أيضاً!... على كل حال، لست أعنيك أنت حين أقول هذا الكلام... معذرة... إنني اليوم غير موفق في اختيار تعابيري.

بدأ الأمير يتكلم فقال:

- كنت أعلم منذ أمس أن جبريل آرداليونوفتش... لكنه لم يلبث أن صمت فجأة وقد اضطرب اضطراباً واضحاً مع أن هيبوليت قد ساءته قلة انفعاله.

- كانت تعلم ذلك؟ هذا نبأ حقاً!... على كل حال، لا تكلف نفسك عناء أن تحكي لي... ألم تشهد لقاء اليوم أيضاً؟...

- لا بد أنك تعرف الجواب، ما دمت قد حضرت اللقاء!

- لعلك اختبأت وراء دغل. على كل حال، أنا مسرور لك طبعاً، لأنني كنت أظن في السابق أن جبريل آرداليونوفتش قد حل عندها محلّك.

- أرجوك أن لا تكلمني في هذا الأمر يا هيبوليت، خاصةً بهذه اللهجة.

- لا سيما وأنت تعرف كل شيء.

- أنت مخطئ. لم أطلع على شيء تقريباً، وإن أجلايا إيفانوفنا لتعلم حتماً أنني غير مطلع على شيء. كنت أجهل حتى أمر ذلك الموعد، نقول إن لقاء قد تم بينهما على موعد مضروب، أليس كذلك؟ طيب... دعنا من هذا...

- ولكن كيف يستطيع المرء أن يفهم عنك؟ تارة تقول إنك كنت تعلم، وتارة إنك لم تكن تعلم، ثم تضيف: «طيب... دعنا من هذا...». ولكن لا، حذار من فرط الثقة! لا سيما إذا كنت تعلم شيئاً. وإن فرط ثقتك إنما مردّه إلى أنك لا تعلم شيئاً. هل تعرف حسابات دينك الشخصين: الأخ وأخته؟... ربما كنت تشبهه فيها وتتصورها، هه؟

ولاحظ هيبوليت حركة تملل من الأمير فأسرع يضيف قوله:

- طيب، طيب... أنا إنما جئت إلى هنا لأمر شخصي أريد أن... أوضحه! شيطان يأخذني... رهيب عدد الإيضاحات التي يجب عليّ أن أقدمها! هل تريد أن تصغي إليّ؟
- تكلم، إني أصغي إليك.

- لكنني أغير رأيي مرة أخرى: سوف أبدأ مع ذلك بالكلام على جانبا. هل تتخيل هذا؟ لقد ضرب لي موعد قرب الدكة الخضراء، أنا أيضاً! على أنني لا أريد أن أكذب: يجب أن أذكر أنني أنا الذي ألححت على أن تحدد لي هذا الموعد واعداً بالكشف عن سر. لا أدري هل وصلت قبل الأوان (أظن أنني سبقت الساعة فعلاً)، ولكنني ما إن جلست إلى جانب أجلايا إيفانوفنا حتى رأيت جبريل آرداليونوفتش وفاريا آرداليونوفتش مقبلين وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر كأنهما يقومان بنزهة. فلما رأياني شُدها بل وارتبكا، لأنهما كانا لا يتوقعان أن أكون هناك. واحمرت أجلايا، بل صدقني إذا قلت لك إنها اضطربت وفقدت سيطرتها على نفسها قليلاً، سواء أكان ذلك لوجودي أنا أم لمجرد أنها رأت جبريل آرداليونوفتش الذي كان في غاية الجمال حقاً. المهم أنها احمرت احمراراً شديداً، وختمت الموقف بأن غمزت بعينها غمزة مضحكة، ونهضت نصف نهوض، وردّت على تحية جبريل آرداليونوفتش وعلى ابتسامة الملاطفة والمداواة التي ابتسمتها بارببا آرداليونوفنا، ثم قالت لهما بلهجة مفاجئة حاسمة: «إنما أردت أن أعبر لكما شخصياً عن سروري بصدق عواطفكما. فكونا على ثقة بأنني متى احتجت إلى هذه العواطف لن يفوتني أن ألجأ إليها وأعتمد عليها». قالت لهما ذلك ثم صرفتهما بإشارة من رأسها، فانصرفا لا أدري أمهزومين أم منتصرين... أما جانبا فلا شك أنه كان غيباً كل الغباء. إنه لم يفهم شيئاً، واصطبغ وجهه بحمرة قانية (إن سحنه تكتسي في بعض الأحيان تعبيراً غريباً). وأما بارببا آرداليونوفنا فأظن أنها أدركت أن عليها أن تنسل بأقصى سرعة وأن أجلايا لا يمكن أن يُطلب منها أكثر من ذلك. فاقتادت أخاها. إنها أعقل منه، وإني لمقتنع بأنها الآن تحقق انتصاراً. وأما أنا فقد جئت لأتفاهم مع أجلايا على موضوع لقائهما المزمع مع ناستاسيا فيليبوفنا.

صاح الأمير يسأل:

- مع ناستاسيا فيليبوفنا؟

- على مهلك، على مهلك! يبدو أنك فقدت هدوءك فبدأت تندesh، هه؟ يسرني أن أرى أنك تريد أن تشبه الرجال؟ ولسوف أسليكَ في مقابل ذلك. انظر كما يربح المرء حين يخدم ويعاون أنسات شابات نبيلات. لقد تلقيت منها اليوم صفقة!

- صفقة معنوية طبعاً؟

كذلك سأله الأمير بغير إرادة.

- نعم، صفقة معنوية لا مادية. أظن أنه ما من يدٍ يمكن أن ترتفع على إنسان في مثل حالتي، ولو كانت يد امرأة. حتى جانيا لا يمكن أن يضربني. ومع ذلك فقد اعتقدت أمس في لحظة من اللحظات إنه سيرتمي عليّ ليشبعني ضرباً.. آ... يميناً إنني أحزر الآن ما يجول في ذهنك. إنك لتقول لنفسك: «طيب. يجب أن لا يُضرب. ولكن من الممكن في مقابل ذلك بل ومن الواجب أن يُخنق أثناء نومه بوسادة أو بغطاء مبتل...». إنني أقرأ الآن هذا الخاطر في وجهك.

قال الأمير محتجاً بأشمئزاز:

- لا أدري... ولكنني حلمت هذه الليلة أن شخصاً يخنقني بغطاء مبتل... وسأقول لك من هو ذلك الشخص: تصور أنه روجويين! ما رأيك؟ هل يمكن خنق إنسان بغطاء مبتل؟

- لا أدري...

- سمعت أن الأمر ممكن.

- طيب. طيب. دعنا من هذا، ولا نتكلمن فيه. والآن أريد أن ألقى هذا السؤال: لماذا أعدُّ أنا نمّاماً؟ لماذا وصفتني هي اليوم بأنني نمّام؟ لاحظ أنها لم تفعل ذلك إلا بعد أن أصغت إلى كلامي حتى آخر كلمة، وبعد أن أَلقت عليّ أسئلة... كذلك هن النساء! من أجلها هي إنما كنت على علاقة بروجويين (وهو شخص طريف شائق على كل حال). ومن أجلها إنما هيأت لها لقاءً مع ناستاسيا فيليبوفنا. أتراني جرحت شعورها وأسأت إلى كبريائها حين أسمعته أنها تريد أن تستفيد من «بقايا» ناستاسيا فيليبوفنا؟ أنا لا أنكر هذه الحقيقة. وقد رددت لها ذلك الكلام مراراً. لكنني إنما فعلت ما فعلت من أجلها وفي سبيل مصلحتها. كتبت لها رسالتين بهذا المعنى وبهذه اللهجة، وعبرت عن رأيي بهذا

الأسلوب أثناء لقائنا اليوم أيضاً... وفي مرة أخيرة رأيت من واجبي أن أقول لها إن هذا يشتمل على مدلة لها. ثم إن كلمة «بقايا» هذه ليست اختراعاً مني، وإنما أنا استعرتها من غيري، نفسها ذلك. فلماذا وصفتني إذن بأنني نمّام؟ رأيتُ، رأيت: إن رغبة محمومة في الضحك عليّ تستعر بها الآن نفسك؟ وإني لأراهن أنك تطبق على حالتي هذه الأبيات السخيفة.

وفي يوم نهايتي الحزينة

قد يسطع الحب على شفتي

بابتسامة وداع^[49]

ها ها ها!

كذلك صاح يضحك ضحكاً تشنجياً أعقبته نوبة سعال.

ثم أضاف يقول بصوت محشرج:

– لاحظ مدى تناقض جانبا: إنه يتكلم عن بقايا؛ أفليس يسعى هو نفسه إلى الاستفادة من «بقايا»؟

لبث الأمير صامتاً برهة طويلة. كان مصعوقاً.

وتمتم أخيراً يقول:

– ذكرت لقاء مع ناستاسيا فيليبوفنا، أليس كذلك؟

– دعك من هذا الكلام، هل يمكن أن تجهل حقاً أن لقاء سيطم اليوم بين آجلايا إيفانوفنا وناستاسيا فيليبوفنا؟ بفضل المساعي التي قمت بها أنا، فقد تولى روجويين، تلبية لطلب من آجلايا إيفانوفنا، دعوة ناستاسيا فيليبوفنا إلى المجيء من بطرسبرج خصيصاً، وهي الآن في صحبة روجويين، بالقرب من مسكنك، في البيت الذي سبق أن أقامت فيه، عند داريا ألكسيفنا.. صديقتها ذات السمعة المشبوهة.. فإلى ذلك البيت المشبوه إنما ستذهب اليوم آجلايا إيفانوفنا لإجراء حديث ودي مع ناستاسيا فيليبوفنا، ولحل مشكلات مختلفة. إنهما تريدان أن تتكلما بلغة الرياضيات. أكنت لا تعرف هذا؟ بشرفك؟

– غير معقول؟

- هذا أحسن! ولكن أين لك أن تعرف بالأمر؟ ومع ذلك، في جحر كالجحر الذي نعيش فيه، لا يمكن أن تطير ذبابة إلا ويبلغ نبأ طيرانها جميع الناس! الخلاصة... لقد نبّهتك، وفي إمكانك أن تكون لي شاكراً ممتناً. هيا، إلى اللقاء! ربما في الحياة الآخرة! في العالم الثاني! كلمة أخرى: إذا كنت قد تصرفت معك تصرفاً وضيعاً دنيئاً، فذلك... لأنني ليس ثمة سبب يدعوني إلى أن أضحي في سبيلك بمصالحني. قل لي من فضلك: لماذا عساني أوثر مصالحك على مصالحني؟ إليها إنما أهديتُ أنا «اعترافي» (أكنت لا تعرف ذلك؟)، فسرعان ما قبلت هديتي راضية! هيء هيء! لكنني تصرفت معها هي تصرفاً لا وضاعة فيه ولا دناءة. لم أرتكب أي خطأ في حقّها. بل هي التي دبّرت لي «مقلباً» ووضعتني في موضع حرج.. على أنني لم أقترف ذنباً حتى في حقك أنت. ولئن أبحت لنفسي تجاهها أن ألمح ذلك التلميح إلى «البقايا» وإلى أشياء أخرى من هذا القبيل، فإنني في مقابل هذا أحدد لك يوم الموعد وساعته ومكانه، فأكشف لك الأوراق كلها!... صحيح أنني أفعل هذا عن غضب وحقد، لا عن نبل وشهامة. أستودعك الله! إنني ثرثار ثرثرة إنسان عيِّ اللسان أو مسلول الصدر. افتح عينيك، اتخذ إجراءاتك، تصرف بأقصى سرعة، إذا كنت جديراً بأن تسمى رجلاً. سيتم اللقاء هذا المساء. ذلك أمر مؤكد محقق.

اتجه هيبوليت نحو الباب، ولكنه وقد ناداه الأمير وقف في العتبة.

سأله الأمير:

- في اعتقادك إذن أن آجلانيا إيفانوفنا ستذهب اليوم إلى ناستاسيا فيليبوفنا بشخصها؟

كانت بقع حمر تصبغ خديّه وجبينه.

أجابه هيبوليت وهو يلقي نظرة وراءه:

- لا أعرف تماماً. ولكن ذلك جائز. على أن الأمر لا يمكن أن يكون غير هذا. فإن ناستاسيا فيليبوفنا لن تذهب إليها، أليس كذلك؟ والحديث لا يمكن أن يجري عند أهل جانيا حيث يحتضر الجنرال. ما قولك في الجنرال؟

قال الأمير معترضاً:

- اسمع. يكفي هذا السبب وحده حتى يكون الأمر مستحيلاً، كيف يمكنها أن تخرج ولو أرادت؟ إنك لا تعرف عادات... هذا المنزل؟ إنها لا تستطيع أن تذهب إلى ناستاسيا

فيلبيوفنا وحيدة. تلك مزحة!

- سأقول لك شيئاً يا أمير: لا أحد يقفز من النافذة. ولكن حين يشبّ حريق فإن أحسن رجل مهذب وأرقى سيدة مرموقة لا يترددان عن القفز من النافذة. إذا مسّت الحاجة فستكون آنستنا مضطرة أن تسلك هذا السبيل. وأن تذهب إلى ناستاسيا فيلييوفنا. ولكن قل لي: هل الأنسات إيانتشين لأ يسمح لهن في دارهن أن يذهبن إلى أي مكان؟

- ليس هذا ما أردت أن أقوله...

- طيب. إذا لم يكن الأمر كذلك، فسوف يكفيها أن تهبط درجات المدخل، وأن تسير قُدماً، ولو ترتب على ذلك أن لا تعود إلى الدار في يوم من الأيام. هناك ظروف يحرق فيها الإنسان سفنه ويمتنع حتى عن العودة إلى منزل أبويه. ليست الحياة وجبات غداء ووجبات عشاء وأمراء أسماؤهم «شتش....» فحسب!... يبدو لي أنك تنظر إلى آجلايا إيفانوفنا نظرتك إلى صبية صغيرة أو تلميذة في مدرسة داخلية. لقد قلت لها أنا هذا، وأحسب أنها وافقتني على رأي. انتظر الساعة السابعة أو الثامنة... لو كنت في مكانك لأوفدت لها شخصاً يرقبها فيعرف لحظة خروجها من الدار. في وسعك أن ترسل كوتيا على الأقل. ثق أنه سيسرّه أن يعمل جاسوساً، في سبيل مصلحتك طبعاً... هذه أمور نسبية جداً... ها ها!...

قال هيبوليت ذلك وخرج، لم يكن ثمة سبب يدعو الأمير إلى تكليف أي إنسان بأن يتجسس له، حتى ولو كان يرضى لنفسه استعمال مثل هذه الوسيلة. لقد أدرك الآن بعض الإدراك لماذا أمرته آجلايا بأن لا يغادر بيته. لعلها تنوي أن تجيء إليه؛ أو لعلها أرادت أن تحبسه في البيت حتى لا يجيء بينما هي على ميعاد. نعم ربما كان هذا هو الأمر.

شعر الأمير بدوار، وبدا له أنه يرى الغرفة كلها ترقص من حوله. استلقى على الديوان وأغمض عينيه.

إن القضية تجري مجرى حاسماً نهائياً، بطريقة أو بأخرى. لا، إنه لا ينظر إلى آجلايا نظرتة إلى صبية صغيرة أو إلى تلميذة في مدرسة داخلية. إنه يدرك الأمر الآن: لقد طالما شعر بخوف، وإن شيئاً من هذا النوع هو ما كان يخشاه فعلاً. ولكن لماذا تريد آجلايا أن تراه؟ سرت رعدة في جسمه كله. واعترتة حمى شديدة من جديد.

لا، إنه لا يعدّها طفلة! في الآونة الأخيرة، كانت لها آراء وأقوال روعته. وفي مرات

أخرى، كان يلوح له أنها تبذل جهداً فوق طاقة الإنسان في سبيل أن تسيطر على نفسها، في سبيل أن تكبح اندفاعاتها؛ وإنه ليتذكر الآن أن ذلك كان يملؤه رعباً. صحيح أنه جهد في هذه الأيام الأخيرة أن لا يوقظ تلك الذكريات، وأن يطرد الأفكار السوداء، ولكن ماذا كان يختفي في قرارة تلك النفس؟ هذا سؤال عذبه مدة طويلة، رغم كل ما كان يشعر به نحو آجلها من ثقة. على كل حال، سوف ينحل كل شيء ويتضح كل شيء في هذا المساء نفسه! فكرة فظيعة! مرة أخرى «تلك المرأة»! لماذا بدا له دائماً أن تلك المرأة سوف تظهر في آخر لحظة فتحطم مصيره كما يُقطع خيط مهترئ؟ أما أن هذا التوجس لم يبارحه في يوم من الأيام فذلك أمر لا يتردد اليوم في أن يؤكد حالفاً أغلظ الأيمان. لكن حاول أن ينساها في الآونة الأخيرة، فما ذلك إلا لأنه كان يخشاها. ماذا إذن؟ أهو يحبها أم هو يكرهها؟ إنه لم يلق على نفسه هذا السؤال مرة واحدة أثناء النهار. كان قلبه من هذه الناحية نقياً: كان يعرف من ذا يحب... ليس لقاءهما هو ما يخيفه، لا ولا وجه الغرابة في هذا الموعد، ولا الأسباب الداعية إليه، المجهولة لديه، ولا النهاية التي سينتهي إليها هذا الاجتماع أياً كانت تلك النهاية وإنما هو يخشى ناستاسيا فيليبوفنا نفسها. لقد تذكر بعد بضعة أيام إنه أثناء تلك الساعات من الحمى، كان يلوح له دائماً أنه يرى عينيها ونظرتها، وأنه يسمع صوتها، صوتها الذي يلفظ أقوالاً غريبة، ولكن لم يبق في ذاكرته إلا أشياء قليلة بعد تلك اللحظات من الحمى والقلق والخوف. لقد احتفظ بإحساس غامض بأن فيرا جاءت به بعشائه، وأنه أكل الطعام الذي جاءته به، ولكنه لا يتذكر أنام بعد ذلك أم لا. كل ما يعلمه أن وضوح الإدراكات لم يعادوه في ذلك المساء إلا حين ظهرت آجلها فجأة في الغرفة. فنهض عن ديوانه واثباً، وهب يستقبلها في وسط الغرفة. كانت الساعة هي السابعة والربع. لقد جاءت آجلها وحيدة. وهي تلبس ثياباً بسيطة كأنما ارتدتها متعجلة وخلعت عليها برنساً خفيفاً. وكان وجهها شاحباً شحوبه أثناء لقاءهما الأخير، ولكن عينيها تسطعان ببريق قوي بارد. إنه لم يلاحظ في نظرتها تعبيراً كهذا التعبير في يوم من الأيام.

تفرست فيه بانتباه. ثم قالت له بصوت خافت ولهجة تبدو هادئة:

- أنت متأهب كل التأهب، قد ارتديت ثيابك وحملت قبعتك بيدك. إنني أستنتج من ذلك أنك قد أبلغت. أعرف من الذي أبلغك: هو هيبوليت، أليس كذلك!

تمتم الأمير يقول وهو إلى الموت أقرب منه إلى الحياة:

- نعم... حدثني...

- طيب... فلنذهب: إنك لتعلم حق العلم أن عليك أن تصحبني حتماً. أظن أنك

تقوى على الخروج.

- أقوى... نعم... ولكن... هل هذا ممكن؟

وسكت فجأة، وأصبح لا يستطيع أن ينطق بكلمة واحدة. تلك هي المحاولة الوحيدة التي قام بها لصد هذه الطائشة وثنيها عن عزمها. ثم تبعها بعد ذلك كما يتبع عبدٌ سيده. إنه رغم كل ما كان عليه فكره من اضطراب وتشوش وبلبله قد أدرك إنها ستذهب إلى هناك، ولو لم يصحبها، فالأولى إذن أنها يصحبها. لقد أدرك قوة التصميم والعزم لدى الفتاة، وأحس أنه غير قادر على أن يوقف هذه الاندفاعة الوحشية..

سارا صامتتين، ولم يكادا يتبادلان كلمة واحدة طوال الطريق. ولكنه لاحظ أنها تعرف الطريق معرفة جيدة، فلما اقترح عليها أن يسلكا شارعاً صغيراً بعيداً بعض البعد لكنه غير مطروق كثيراً أصغت إلى كلامه وبدا عليها أن تزن ما للاقتراح وما عليه، ثم أجابت باقتضاب: «الأمران واحدا!».

حتى إذا صارا قرب منزل داريا ألكسيفنا (وهو مبنى كبير عتيق من خشب)، رأيا سيدة مرتدية ثياباً فخمة تخرج منه في صحبة فتاة، ورأيا المرأتين تركبان عربة رائعة كانت تنتظرهما أمام درجات المدخل. كانتا تضحكان وتحدثان في صخب، ولم تنظرا إلى القادمين الجديدين فكأنهما لم ترياهما. فما إن ابتعدت العربة حتى فُتح الباب من جديد، وظهر روجويين الذي كان ينتظرهما فأدخلهما ثم أغلق الباب وراءهما.

قال روجويين بصوت عال وهو يلقي على الأمير نظرة غريبة:

- ليس في الدار كلها الآن أحد غيرنا نحن الأربعة!

كانت ناستاسيا فيليبوفنا تنتظرهما في الحجرة الأولى. وكانت هي أيضاً تلبس ثياباً بسيطة جداً، سوداء جميعاً. ونهضت لتستقبلهما، لكنها لم تبسم ولم تمد يدها للأمير، وثبتت نظرتها القلقة على آجلايا نافدة الصبر. جلست المرأتان متناثيتين: فأما آجلايا فقد جلست على الديوان بركن من الغرفة وأما ناستاسيا فيليبوفنا فقد جلست قرب النافذة. ولبت الأمير وروجويين واقفين؛ وما دعاهما أحد إلى الجلوس على كل حال. ونظر الأمير إلى روجويين مرة أخرى بارتباك وحيرة يمازجهما ألم ويخالطهما عذاب، ولكن روجويين احتفظت شفتاه بابتسامة واحدة لم تتغير.

وأخيراً طافت بوجه ناستاسيا فيليبوفنا سحابة مشؤومة: إن نظرتها التي ما تزال محدقة إلى الزائرة ثابتة عليها قد اتخذت الآن تعبيراً عن عناد، وقسوة، وعن كره

وبغض تقريباً. وكانت آجاليا ظاهرة الاضطراب ولكن على غير تهيب أو رهبة. إنها حين دخلت لم تكن تلقي نظرة على منافستها، وكانت مُسبلةً جفنيها على وضع الانتظار كأنها تفكر. مرة أو مرتين أجالت بصرها على الغرفة، كأنما عرضاً بغير عمد، فعبر وجهها عندئذ عن الاشمئزاز كأنها تخشى أن تتسخ في مكان كهذا المكان. ليس مؤكداً أنها كانت شاعرةً بكل حركاتها، ولكن إذا كانت هذه الحركات قد صدرت عنها عفواً فذلك أدعى إلى إيذاء الشعور وجرح الكرامة. وأخيراً عزمت أمرها على أن تواجه بثبات وقوة تلك النظرة الساطعة التي كانت تلقيها عليها ناستاسيا فيليبوفنا والتي لم تلبث أن قرأت فيها كره المنافسة واضحاً جلياً على الفور. لقد فهمت المرأة المرأة. فارتعدت.

وقالت بعد لحظة، لكن بصوت خافت جداً، حتى إنها توقفت عن الكلام مرتين أثناء النطق بهذه الجملة القصيرة:

– لا شك أنك تعرفين السبب الذي حملني إلى استدعائك.

فأجابتها ناستاسيا فيليبوفنا بلهجة جافة قاطعة:

– لا، لا أعرفه.

فاحمرت آجاليا. لعلها قد بدا لها فجأة إن وجودها الآن قرب هذه المرأة، في بيت «تلك المخلوقة»، أمر مذهل لا يصدق العقل، ولعلها كانت تشعر بالحاجة إلى سماع جواب ناستاسيا فيليبوفنا. فما إن سمعت أولى نبرات صوت ناستاسيا فيليبوفنا حتى سرى في جسمها كله نوع من رعدة. ولاحظت «الأخرى» ذلك كله طبعاً، لم يفتها منه شيء.

قالت آجاليا بغتة وهي تطرق محدقة إلى الأرض بنظرة متجهمة كالحة، بصوت يكاد يكون خافتاً:

– أنت تفهمين كل شيء... ولكنك تتظاهرين بأنك لا تفهمين.

فأجابت ناستاسيا فيليبوفنا وهي تبتسم ابتسامة لا تكاد تُدرك:

– لماذا عساني أظاهر هذا التظاهر؟

قالت آجاليا بخراقة تكاد تكون مضحكة:

– تستغلين وضعي... لأنني في بيتك... تحت سقفك...

هتفت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بحدة وقوة:

- أنت المسئولة عن هذا الوضع، فأنا لم أستدعك، وإنما أنت التي دعوتني إلى هذا اللقاء الذي ما زلت أجهل سببه.

رفعت آجلايا رأسها في استعلاء وغطرسة. وقالت:

- صوني لسانك. أنا ما جئت هنا لأقاتلك بهذا السلاح الذي هو سلاحك..

- ها... إذن لقد جئت إلى هنا لتقاتلي على كل حال!... تصوري أنني كنت أتخيلك... أصفى روحاً!..

وتبادلت المرأتان نظرة لم تحاولا أن تخفيا ما فيها من بغض... ومع ذلك كانت إحدى هاتين المرأتين هي تلك المرأة نفسها التي بعثت إلى الأخرى برسائل تشتمل على ذلك التأثير كله وتلك العاطفة كلها. لقد تبددت تلك المودة كلها في أول لقاء، منذ أولى الكلمات. فكيف نفسر هذا؟ وكأن أحد الأشخاص الأربعة الموجودين في تلك الغرفة لم يخطر بباله أن يعجب لهذا الأمر. فالأمير الذي كان بالأمس لا يصدق أن يكون حدوث هذا المشهد ممكناً ولو في الحلم، يراه الآن وكأنه قد تنبأ به منذ زمن طويل. إن الحلم العجيب الشاذ قد اكتسى على حين فجأة صورة واقع محسوس ملموس. وكانت إحدى المرأتين في تلك اللحظة تشعر نحو غريمتها باحتقار يبلغ من القوة وبرغبة في إظهار هذا الاحتقار تبلغ من العنف (ولعلها لم تجئ إلا لهذا الغرض، كما زعم ذلك روجويين في الغد) أن الأخرى ما كان لها فيما يظهر أن تستطيع التزام أي موقف عقدت عليه عزمها من قبل أو أن تحافظ على أي فكرة انطوت عليها نفسها، رغم كل ما فيها من غرابة الطبع واضطراب الفكر ومرض النفس، ما دامت غريمتها تواجهها بهذا الاحتقار المسموم. وأيقن الأمير بأن ناستاسيا فيليبوفنا لن تكون هي البادئة في الإتيان على ذكر الرسائل. لقد أدرك من الشر الذي كان يخرج من عينيها إن أمر هذه الرسائل يؤلمها الآن أشد الإيلام. ولكنه كان مستعداً لأن يدفع نصف حياته ثمناً لإغفال آجلايا أمر الإلماح إلى هذه الرسائل أيضاً.

غير أن آجلايا بدا عليها فجأة أنها ثابت إلى رشدها واستردت سيطرتها على نفسها. قالت:

- لم تفهمي عني. أنا لم أجيء إلى هنا... لأشاجرك، رغم أنني لا أحبك كثيراً. وإنما جئت... لأكلمك بطريقة إنسانية. أنني حين دعوتك إلى هذا اللقاء، كنت قد حددت موضوعه، ولن أنثني عن عزمي ولو لم تفهميني البتة. وإذا لم تفهميني فذلك

يضيرك أنت ولا يضيرني أنا. لقد أردت أن أجيب عن مضمون الرسائل التي بعثت بها إليّ، وأن يكون جوابي كلاماً لا كتابة فذلك في رأيي أنسب. فاسمعي إذن جوابي على رسائلِك. لقد أخذتني بالأمير ليون نيقولايفتش شفقة منذ اليوم الأول الذي عرفته فيه، وقويت هذه العاطفة في نفسي حين علمت بكل ما جرى أثناء سهرتك. أخذتني به شفقة لأنه إنسان يبلغ من بساطة الفكر أنه ظن أن في وسعه أن يكون سعيداً... مع امرأة... لها مثل هذا الطبع وهذا الخلق. وقد وقع ما كنت أخشى منه عليه: لم تستطعي أن تحبيه، وسببت له عذاباً كثيراً، ثم هجرته. ولئن لم تستطعي أن تحبيه فإن مرد ذلك إلى فرط زهوك... لا... لقد أخطأت التعبير... فما ينبغي أن أقول الزهو.. بل الغرور.. وحتى كلمة الغرور ليست هي الكلمة المناسبة، فإنما الأخرى أن أقول الأنانية. إنك أنانية إلى حد... الجنون. وإن الرسائل التي بعثت بها إليّ تنهض دليلاً على ذلك. لم يكن في إمكانك أن تحبي إنساناً يبلغ مبلغه من البساطة. حتى إن من الجائز أن تكوني في قرارة نفسك قد احتقرته وهزئت به وضحكت عليه. كنت لا تستطيعين أن تحبي إلا عارك وإلا الفكرة الثابتة التي استبدت بنفسك وهي أنك قد دنت أو أهنت. فلو أنك لم تسقطي ذلك السقوط كله، أو لو أنك لم تسقطي البتة، لما زادك ذلك إلا شقاء...

نطقت آجاليا هذه الكلمات بنوع من التلذذ، وكانت تتدفق في الكلام تدفقاً سريعاً، ولكنها تستعمل تعابير سبق أن تصورتها واجترتها منذ أن كانت لا تصدق، حتى في الحلم، إمكان حدوث هذا اللقاء. وكانت تراقب بنظرة كارهة مبغضة ما تحدث أقوالها من أثر في وجه ناستاسيا فيليبوفنا الذي اضطرب وانقلب.

تابعت آجاليا كلامها تقول:

- هل تتذكرين رسالة كتبها إليّ وقال لي فيها إنك تعرفينها بل وإنك قرأتها؟
إنني حين قرأت تلك الرسالة إنما فهمت كل شيء، وأدركت كل شيء حق الإدراك. وقد أيد هو نفسه، في الآونة الأخيرة، كل كلمة من الكلمات التي أقولها لك الآن. وانتظرت بعد تلك الرسالة. حزرت أنك ستضطرين أن تجيئي إلى هنا، لأنك لن تستطعي الاستغناء عن بطرسبرج: إنك ما تزالين أصغر سناً وأبرع جمالاً من أن تطيقي الحياة في الأقاليم...

وأضافت تقول بينما كان وجهها يحمر احمراراً شديداً (ولم يفارق هذا الاحمرار وجهها طوال مدة كلامها بعد ذلك):

- ليست هذه الكلمات كلماتي أنا على كل حال!.. وحين التقيت بالأمير من جديد تألمت له ألماً قوياً وأحسست أنه أهين. لا تضحكي. وإذا ضحكت كان ذلك دليلاً على

أنك غير جديرة بأن تفهمي هذا...

ردت ناستاسيا فيليبوفنا تقول بلهجة حزينة قاسية:

- إنك لترين بعينيك أنني لا أضحك.

- لست أكثر ث على كل حال. اضحكي ما شئت أن تضحكي. وحين سألته بنفسه قال لي إنه أصبح لا يحبك منذ مدة طويلة حتى إن ذكراك وحدها أصبحت تؤلمه، ولكنه يرثي لحالك، وإذا فكر فيك شعر بأن قلبه قد طعن إلى الأبد. يجب أن أضيف أيضاً أنني لم ألاحظ طوال حياتي رجلاً يضارعه فيما تتصف به نفسه من بساطة نبيلة وفيما يزخر به قلبه من ثقة لا حدود لها. فبعد أن سمعت كلامه، أدركت أن في إمكان أي إنسان أن يخدعه إذا أراد، وأن من يخدعه يمكن أن يطمئن كل الاطمئنان إلى أنه سيغفر له ويصفح عنه. لذلك أحببته..

صمتت آجلانيا مصعوقة، وهي تتساءل كيف أمكنها أن تنطق هذه الكلمة. لكن كبرياء قوية سطعت في نظرتها في الوقت نفسه. وبدا عليها أنها لن تكثر بشيء بعد الآن، ولو أخذت «هذه المرأة» تضحك منها للاعتراف الذي أفلتت من لسانها. قالت:

- هذا كل شيء قد قلته لك؛ ولا شك أنك تدركين الآن ما أنتظره منك، هه؟

أجابت ناستاسيا فيليبوفنا بهدوء ورفق:

- ربما كنت أدركه. لكنني أحب أن أسمعه منك.

فاشتعل وجه آجلانيا غضباً، وقالت بلهجة جازمة وهي تقطع كلماتها:

- أردت أن أسألك بأي حق أجزت لنفسك أن تتدخل في عواطفه نحوي؟ بأي حق تجرأت أن تكتبي لي تلك الرسائل؟ بأي حق تصرحين له في كل لحظة، له ولي أنا، بأنك تحبينه، بعد أن هجرته وفررت منه ذلك الفرار المهين... والمشين أيضاً؟

أجابت ناستاسيا فيليبوفنا تقول مكدودة مجهدة:

- أنا لم أصرح بأنني أحبه، لا لك ولا له، ولكن... ولكنك على حق... لقد فررت منه.

وقد أضافت ناستاسيا فيليبوفنا هذه الجملة الأخيرة بصوت يكاد يكون منطفئاً.

صاحت آجلانيا تسألها:

- كيف؟ لم تصرّحي بأنك تحبينه، «لا لي ولا له»؟ ورسائلك؟ من ذا الذي رجاك أن تكوني سمسارة زواج، وأن تحضيني على تزوّجه؟ أليس هذا تصرّيحاً بحب؟ لماذا تضعين نفسك بيننا؟ لقد اعتقدت في أول الأمر إنك إنما تريدان أن تحميلي على كرهه والنفور منه بتدخلك في شؤوننا بغية أن أقطع صلتني به. ثم لم أفهم حقيقة تفكيرك إلا بعد ذلك: فأنت إنما تخيلت أن تحققي عملاً باهراً باللجوء إلى تلك الأساليب من الرياء والنفاق... أكنت قادرة على أن تحبيه، أنت يا من تحبين غرورك ذلك الحب كله لماذا لم ترحلي من هنا وكفى، بدلا من كتابة تلك الرسائل إلي؟ لماذا لا تتزوجين الآن هذا الرجل الشريف الذي يحبك كثيراً، والذي شرفك بأن قدّم إليك يده خاطباً؟ إن السبب واضح كل الوضوح: فلو تزوجت روجويين لما استطعت بعد ذلك أن تصطنعي دور المرأة المطعونة، ولما بقي لديك ما تسوغين به حقدك. بالعكس: إن تزوجك روجويين يمكن أن يكون لك مدعاة فخر! لقد قال عنك أوجين بافلوفتش إنك قد قرأت شعراً كثيراً؛ وإنك قد حصلت من الثقافة فوق ما يتناسب مع... وضعك؛ وإنك تؤثرين أن تقرئي على أن تعملني؛ فإذا أضفنا إلى هذا ما يعمل في نفسك من غرور أحصينا بذلك جميع البواعث والأسباب...

- وأنت، ألسنت عاطلة عن العمل أيضاً؟

كانت الأمور قد أسرعَت تجري مجرى غير متوقع، وتسير سيراً لم يكن في الحسابان. لم يكن في الحسابان، لأن ناستاسيا فيليبوفنا، حين جاءت إلى بافلوفسك، كانت ما تزال تراودها أحلام، وكانت ما تزال تعلق نفسها ببعض الأوهام، رغم أنها كانت تتوقع الشر أكثر مما تتوقع الخير طبعاً. ولكن أجاليا قد انجرفت فوراً كمن ينحدر من أعلى الجبل، ولم تستطع أن تقاوم ما في الانتقام من إغراء فظيع. حتى لقد دُهِشت ناستاسيا فيليبوفنا من رؤيتها على هذه الحال. فكانت وقد تحيرت وارتبكت منذ أول لحظة تنظر إليها ولا تصدق عينيها. أهي امرأة أسرفت في قراءة قصائد الشعر كما افترض أوجين بافلوفتش، أم هي امرأة فقدت صوابها وكفى، كما أيقن الأمير بذلك؟ مهما يكن من أمر فإن ناستاسيا فيليبوفنا رغم كل ما تحرص على إبدائه من استهتار وقح في بعض الأحيان، كانت أكثر حياء، وأكثر رقة، وأكثر ثقة مما يمكن أن يظن المرء.. صحيح أن نفسها كانت تنطوي على كثير من صور الخيال وتهاويل الوهم، ولكن المرء يجد فيها عواطف قوية عميقة إلى جانب ما يجد من حب النزوة والميل إلى الجموح. ولقد أدرك الأمير ذلك: إن تعبيراً عن ألم شديد يرتسم الآن في وجهها. ولاحظت أجاليا هذا فاختلفت كرهاً ومقتاً. وانبرت تقول بغطرسة لا توصف، جواباً على الملاحظة التي أبدتها ناستاسيا فيليبوفنا:

- كيف تجسرين أن تكلميني بهذه اللهجة؟

فأجابت ناستاسيا فيليبوفنا مدهوشة:

- لعلك لم تسمعي سماعاً واضحاً. ما اللهجة التي كلمتك بها؟

فإذا بأجاليا تقذفها فجأة بهذا الكلام:

- لو أنك أردت أن تكوني امرأة شريفة فلماذا لم تعمدي بكل بساطة إلى قطع صلتك بالرجل الذي أغواك، توتسكي، مستغنيةً عن هذه الأوضاع المسرحية كلها؟

فأجابتها ناستاسيا فيليبوفنا وقد أخذت ترتجف ارتجافاً شديداً، واصفر لونها اصفراراً رهيباً:

- ماذا تعلمين عن وضعي حتى تسمحني لنفسك بأن تحكمي علي؟

- أعلم أنك بدلاً من أن تلتمسي عملاً تجنين منه رزقك، قل هربت مع روجويين الثري الواسع الثراء، لتصطنعي بعد ذلك دور ملاك سقط. ليس يدهشني أن ينتحر بسبب هذا الملاك الساقط!

قالت ناستاسيا فيليبوفنا بلهجة الاشمئزاز والألم:

- حسبك! إنك تفهميني على نحو ما فهمتني خادمة داريا ألكسيفنا، التي ذهبت في هذه الأيام الأخيرة إلى محكمة الصلح تقاضي خطيبها. إن خادمة داريا ألكسيفنا قادرة على أن تفهمك أنت فهماً أصح...

- أظن أنها فتاة شريفة تعيش من عملها. لماذا تتكلمين عن خادمة بهذا الاحتقار؟

- أنا لا أحتقر الذين يعملون، وإنما أحتقرك أنت حين تتحدثين عن العمل!

- لو أنك أردت أن تكوني شريفة لعملت غسالة.

ونهضت المرأتان صاحبتين شحوباً شديداً، ورازت كل منهما الأخرى بنظرها ازدراءً.

صاح الأمير يقول مصعوقاً:

- هدئي نفسك يا أجاليا. هذا ظلم!

وكان روجويين قد كفّ عن الابتسام، لكنه كان يصغي زاماً شفتيه، عاقداً على صدره ذراعيه.

قالت ناستاسيا فيليبوفنا وهي ترتعش غضباً:

- انظر! انظر إليها! انظر إلى هذه الآنسة! ما كان أغباني! لقد كنت أتصورها ملاكاً! أجيئت إلى هنا دون أن تصطحبي مربيتك يا أجاليا إيفانوفنا؟... هل تريدان... هل تريدان... هل تريدان أن أقول لك على الفور، بصراحة، دون لفك أو دوران، لماذا جئت إلي؟ لقد كنت خائفة. ذلك هو سبب مجيئك؟

- خائفة منك أنت؟

كذلك سألتها أجاليا خارجة عن طورها، وقد شدها شدها ساذجاً وقحاً أن ترى غريمتها تجرؤ أن تقول لها هذا الكلام.

أجابت ناستاسيا فيليبوفنا:

- نعم، خائفة مني أنا! لئن جئت إلى هنا فلأنك كنت خائفة مني. المرء لا يحتقر من يخشاه. ما كان أضلني حين أمكنني أن أحترمك، حتى إلى هذه اللحظة؟ لقد أردت أن تعرفي بنفسك من منا يحبه أكثر مما يحب الأخرى. ذلك أنها غيورة غيرة فظيعة، رهيبة...

تمتت أجاليا تقول زافرة:

- سبق أن قال لي إنه يكرهك...

- جائز. جائز أن لا أكون جديرة به... لكنني أعتقد أنك كذبت! لا يمكن أن يكرهني، ولا يمكن أن يكون قد قال هذا الكلام! على أنني مستعدة لأن أغفر لك... مراعاة لوضعك... رغم أنني كنت أرى فيك رأياً أفضل!... كنت أظنك أذكى وأجمل! يميناً كنت أظن ذلك!... على كل حال، خذي كنزك... خذيه... انظري... إنه يتأملك مفتوناً غائباً عن نفسه.. خذيه، ولكن على شرط: اخرجي من هنا فوراً! اخرجي في هذه اللحظة نفسها!..

قالت ناستاسيا فيليبوفنا ذلك وتهالكت على مقعد وأجهشت باكية. لكن عينيها ما لبثتا أن سطعتا فجأة ببريق جديد، فها هي ذي تنظر إلى أجاليا محدقة، ثم تنهض قائلة لها:

- وهل تريدان أن أمره... في هذه اللحظة نفسها.. أن أمره... هل تسمعان.. أن أمره بأن يهجرك فوراً وأن يبقى معي إلى الأبد وأن يتزوجني؟ يكفي أن أمره بهذا حتى يذعن للأمر. أما أنت فترجعين إلى دارك راكضة وحيدة. هل تريدان أن أفعل هذا؟ هل

تريدين؟

كذلك قالت ناستاسيا فيليبوفنا صارخةً كالمجنونة، ربما دون أن تصدق أنها قادرة على النطق بمثل هذه الأقوال.

وكانت أجلايا قد اندفعت نحو الباب مذعورة، ولكنها توقفت في العتبة جامدة تصغي. وتابعت ناستاسيا فيليبوفنا كلامها تقول:

- هل تريدان أن اطرد روجويين؟ أكنتِ تظنين أنني سأتزوج روجويين إرضاء لك؟ لسوف أصرخ أمامك قائلة: «ارحل يا روجويين!»، وسوف أقول للأمير: «هل تذكر وعدك؟». رباه! لماذا هونت شأني وحقرت قيمتي في نظرهم؟ أنت يا أمير، ألم تؤكد لي أنك ستتبعني حيثما أذهب وأنتك لن تهجرني في يوم من الأيام مهما يحدث لي؟ ألم تؤكد لي أنك تحبني وأنتك سوف تغفر لي، وأنتك تحترمني... نعم... لقد قلت هذا أيضاً. وأنا التي فررت منك، لا لشيء إلا أن أدعك حراً طليقاً. ولكنني عدلت الآن عن هذا. لماذا عاملتني كما تعامل امرأة داعر؟ اسأل روجويين هل أنا امرأة داعر؟ اسأله فيقول لك!... أبعد أن جلدتني الآن بالعار، على مرأى منك ومسمع، تشيح وجهك عني وتمضي معها متأبطاً ذراعها؟ ألا فلتنصبّ عليك اللعنة إذا فعلت ذلك، لأنك الرجل الوحيد الذي محضته ثقتي.

ثم هتفت تقول باندفاعة جنون:

- اذهب يا روجويين!

كانت الكلمات تخرج من صدرها بكثير من المشقة والعناء، وقد تشوّهت ملامح وجهها ويبست شفاتها: واضح أنها كانت لا تصدق كلمة واحدة من هذا الكلام الذي أطلقتته في نوبة افتخار، ولكنها كانت تريد أن تطيل الوهم برهة أخرى. لقد بلغت النوبة من القوة والعنف إنها كان يمكن أن تميتها، في تقدير الأمير على الأقل.

وصرخت تقول لأجلايا أخيراً وهي تومئ إلى الأمير بإشارة من يدها:

- هذا هو. انظري إليه: إن لم يجئ إليّ فوراً، إن لم يرضَ أن يتركك من أجلي، فما عليك إلا أن تأخذه. أنني أتنازل عنه، فلا أريده بعد الآن!...

لبثت المرأتان ساكنتين جامدتين كأنما تنتظران جواب الأمير الذي كانتا تنتظران إليه زائغتي الهيئة. ولكن لعله، هو، لم يدرك كل ما كان في ذلك التحدي من عنف؛ بل إنه لم يدركه حتماً. فمن ينظر إليه يتحقق من ذلك. كان لا يميز أمامه إلا ذلك

الوجه الذي يلوح فيه اليأس والجنون والذي كان منظره «قد طعن قلبه إلى الأبد»، كما سبق أن قال ذلك يوماً لآجلانيا. ثم لم يطق احتمال رؤية المشهد أكثر من ذلك، فها هو ذا يلتفت إلى آجلانيا، فيسألها بلهجة الرجاء والعتب مشيراً إلى ناستاسيا فيليبوفنا:

- أهذا جائز؟ ألا ترين كم هي بائسة شقية؟

ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك. فإن نظرة ألقته عليه آجلانيا قد عقلت لسانه. ورأى في هذه النظرة ألماً يبلغ من الشدة، ورأى فيها كرهاً يبلغ من القوة أنه ضم يديه إحدهما إلى الأخرى، وأطلق صرخة، وهرع نحو الفتاة. ولكن كان قد فات الأوان. إنها لم تطق أن يتردد ولو ثانية واحدة. فغطت وجهها بيديها، وانطلقت تخرج من الغرفة صائحة: «آه... رباه!». وكان روجويين قد تبعها ليفتح لها الباب.

وهرع الأمير وراءها أيضاً، غير أن ذراعين قد احتضنتاه عند العتبة. كانت ناستاسيا فيليبوفنا تحديق فيه منقلبة السحنة مكفهرة الوجه، وتمتمت شفتاها المزرقّتان تقولان له:

- أتركض وراءها؟ وراءها؟

وسقطت في ذراعيه مغشياً عليها. فأنهضها وحملها إلى الغرفة ووضعها على مقعد من المقاعد، ولبت مائلاً عليها منتظراً مشدوهاً. وكان يوجد على مائدة صغيرة كأس ماء. فتناولته روجويين حين عاد، ورش شيئاً من مائه على وجه المرأة الشابة. ففتحت عينيها، وظلت خلال دقيقة لا تعي شيئاً، لكنها لم تلبث أن استردت شعورها فجأة، فارتعشت، وأسرعت إلى الأمير تصيح قائلة له:

- أنت لي، لي أنا! هل انصرفت الأنسة المتكبّرة؟ ها ها ها!

كذلك قهقهت في نوبة ضحك تشنجي، وتابعت ضحكها وكلامها:

- ها ها ها... كنت قد تنازلت عنه لتلك الأنسة! لماذا فعلت ذلك؟ لماذا؟ كنت مجنونة!... يا روجويين، امض في سبيلك. اذهب! ها ها ها!...

وبعد عشر دقائق كان الأمير جالساً قرب ناستاسيا فيليبوفنا يحضنها بعينه، ويمسح وجهها وشعرها بيديه في رفق كما يفعل المرء بطفل. وكان يضحك ضحكا مجلجلا حين يسمعها تضحك، وكان يوشك أن يجهش باكياً إذا رآها تبكي. وكان لا يقول شيئاً، وإنما ينتبه إلى تمتمتها المحمومة المفككة التي لا يفهم منها شيئاً البتة، ولكنه

يصغي إليها مبتسما ابتسامة رقيقة لطيفة. حتى إذا لاحظ بزوغ نوبة جديدة من الحزن والدموع واللوم والتشكي، عاد يلعب شعرها ويمسح خديها بحنان، ويحاول أن يواسيها وأن يعقلها كبنية صغيرة.

الفصل التاسع

انقضى أسبوعان على الأحداث التي رويناهما في الفصل السابق. وقد تغيرت أحوال شخصيات قصتنا أثناء تلك المدة تغيراً كبيراً جداً، حتى ليصعب أن نمضي في الطريق إلى آخره دون الدخول في بعض التفسيرات. ولكننا نشعر نحن أنفسنا بأن من العسير علينا في كثير من الحالات أن نعلل هذه الأحداث.

أغلب الظن أن مثل هذا التنبيه سيبدو للقارئ غريباً وغير مفهوم في آن واحد، فكيف يمكن للمرء أن يسرد للمرء أحداثاً ليس في ذهنه فكرة واضحة عنها، وليس له رأي شخصي فيها؟ فمن أجل أن لا نضع أنفسنا في موضع أدعى إلى شبهة الضلال والزيف أيضاً، سنحاول أن نوضح فكرتنا بمثال، أملين أن تجعل القارئ السمع يفهم المأزق الذي نجد أنفسنا أمامه، وسيكون لهذا مزية، هي أن المثال الذي اخترناه لن يكون استطراداً وخروجاً عن الموضوع، بل سيكون التتمة المباشرة للقصة.

فبعد خمسة عشر يوماً، أي في مطلع شهر تموز - يوليه (بل وأثناء هذين الأسبوعين)، اتخذت قصة بطلنا، ولا سيما حدثها الأخير، اتخذت في ألسن الناس صورة عجيبة كان يسليهم جداً أن يتناقلوها. قصة لا يكاد يصدقها العقل، ولكنها لا توضع موضع شك، انتشرت شيئاً فشيئاً في جميع الشوارع التي تجاوزت فيلات ليبيداف وبتتسين وداريا ألكسيفنا وآل إيبانتشين، أي في المدينة كلها تقريباً، بل وفيما حولها أيضاً. إن المجتمع كله، أو كله على وجه التقريب (أهل البلدة أو سكان الفيلات أو الوافدين من المدينة لسماع الموسيقى) قد أشاعوا القصة نفسها بألف شكل وشكل؛ ومن تلك الأشكال كلها يخرج أن أميراً قد قام بفضيحة في أسرة محترمة معروفة، فترك آنسة من تلك الأسرة رغم أنه قد أتم خطبته لها، ومضى يتشبث بأذيال امرأة خليعة. لقد قطع جميع صلاته، واستخف بجميع التهديدات، ولم يكثر أي اكتراث باستياء الناس وامتعاضهم، فأعلن - على خلاف ما توجبه أبسط مبادئ اللباقة الاجتماعية - أنه ينوي أن يتزوج تلك المرأة الضائعة، ببلدة بافلوفسك نفسها، على مرأى ومسمع من جميع الملأ، رافعاً رأسه، شامخاً بأنفه، محققاً إلى البشر في أعينهم بغير مبالاة.

لقد زينت هذه القصة بتفاصيل فاضحة كثيرة. وأقحم فيها أفراد معروفون

محترمون، وصُبغت بألوان تضيء عليها هالة من الخيال والسحر والسر، ودُعمت من جهة أخرى بوقائع ثابتة لا سبيل إلى جحودها، فلا غرابة أن أيقظت اهتماماً عارماً وأثارت لغطاً كثيراً.

وقد قيل في تأويل الحادث كلام كثير، ولكن التأويل المرهف البارع أكثر من سائر التأويلات (وهو في الوقت نفسه أقربها إلى التصديق) هو ذلك الذي أشاعته تقوُّلات بعض أولئك الأفراد الرصينين العقلاء الذين نراهم في كل طبقة من طبقات المجتمع والذين لا يعدمون أن يجدوا وسيلة لتأويل حادث من الحوادث للآخرين، فهذه هي رسالتهم في الحياة بل هذا هو عزاؤهم وتلك هي سلوهم في كثير من الأحيان.

ففي رواية هؤلاء أن الشاب ينتمي إلى أسرة كريمة المحتد، فهو أمير، وهو غني تقريباً، وهو محدود الفكر، ولكنه ديموقراطي ومتشيع لذلك المذهب العدمي المعاصر الذي أوضحه السيد تورجنيف. فهذا الشاب الذي لا يكاد يحسن التكلم بالروسية قد وقع في غرام ابنة الجنرال إيبانتشين، وظفر بأن يجعل الأسرة تستقبله في بيتها استقبال خطيب. ولكنه قد خدع هذه الأسرة بأسلوب يذكر بأسلوب ذلك الشاب الفرنسي، طالب اللاهوت، الذي نشرت مغامرته منذ مدة قصيرة. إن طالب اللاهوت هذا قد طلب عند تخرجه أن يُنصب كاهناً، وكان يبيت نية معينة، فبعد أن قام بجميع الطقوس والشعائر، وتلا جميع الأدعية والصلوات، وحلف جميع الأيمان، وتم تنصيبه كاهناً، نشر في الغداة رسالة مفتوحة إلى أسقفه يعلن فيها على رؤوس الأشهاد أنه لا يؤمن بالله، وأنه يرى أن من الحطة والدناءة من جانبه أن يخدع الشعب وأن يستغله ويعيش عالة عليه، فهو لذلك ينكل عما فعله بالأمس، وينشر رسالته هذه في الجرائد الليبرالية.

فعلى غرار ما فعله ذلك الملحد، انتظر الأمير سهرة فخمة أقامها أهل الفتاة، وقدموه أثناءها إلى كثير من الشخصيات البارزة المرموقة، فأعلن أفكاره صراحة أمام جميع الناس، وأهان عدداً من وجوه القوم وصفوة رجال المجتمع، وطرد خطيبته على مرأى ومسمع من الملاء بطريقة مهينة مشينة. وحين كلف الخدم بإخراجه من المنزل راح يقاومهم بطريقة مقاومة عنيفة فهشم أثناء ذلك إناء رائعاً من خزف صيني.

وهناك سمة بارزة من سمات الأخلاق السائدة في عصرنا تضاف إلى هذه القصة، هي أن ذلك الشاب الطائش كان يحب خطيبته ابنة الجنرال حباً صادقاً، ولكنه قطع صلته بها لا لسبب آخر غير إشهار تشييعه للمذهب العدمي. وهو من أجل أن يجعل الفضيحة أبهر للأبصار تحدى الناس فتزوج امرأة ضائعة ليبرهن بذلك على اعتقاده الراسخ بأنه ليس ثمة نساء ساقطات ونساء فاضلات، وإنما هنالك المرأة المتحررة فحسب. فهو لا

يؤمن بالتصنيفات البالية التي يأخذ بها المجتمع الراقي، وإنما يؤمن «بقضية المرأة» وحدها دون سواها؛ بل هو يزعم أن للمرأة الساقطة في نظره قيمة أكبر من قيمة المرأة التي لم تسقط.

لقد بدا هذا التأويل معقولاً جداً، محتملاً كل الاحتمال، وأخذ به أكثر المصطافين في بافلوفسك. ومما يسرّ عليهم ذلك مزيداً من التيسير أن الوقائع اليومية كانت تأتي مصدقةً له. صحيح أن كثيراً من التفاصيل ظلت أموراً لا سبيل إلى فهمها. لقد كان يُقال إن الفتاة المسكينة قد بلغت من حب خطيبها (وكان بعضهم يسميه «مغويها») أنها هرعت إليه غداة تركها ولحقت به في بيت عشيقته. وذهب بعض آخر إلى غير هذا فقالوا إنه استدرجها إلى بيت المرأة متعمداً، بدافع العدمية وحدها، أي ليجللها بالعار وليلطّخها بالدنس.

مهما يكن من أمر فإن الاهتمام الذي أثاره هذا الحادث كان يشتد يوماً بعد يوم، لا سيما وأنه لم يبق أي شك في أن ذلك الزواج المشين قد أصبح وشيكاً.

والآن، إذا سألنا أحد إيضاحات أو تفسيرات (لا عما يتصف به الحادث من أنه ينتمي إلى المذهب العدمي، لا...)، وإنما عن مدى انطباق هذا الزواج على رغبات الأمير، وعما كان الأمير يرغب فيه حقاً، وعن حالته النفسية في تلك الآونة، وعن أمور أخرى من هذا النوع، لوجدنا أنفسنا مرتبكين في الإجابة أشد الارتباك، يجب أن نعترف بذلك. ولكننا نعلم أن الزواج قد تقرر فعلاً، وأن الأمير قد كلف ليبيدوف وكيلر وصديقاً لليبيدوف قدم إليه وعُرف به في هذه المناسبة، كلفهم بأن يتخذوا جميع التدابير وأن يعدوا جميع الإجراءات في الكنيسة وفي البيت معاً، وأمرهم بأن لا يحفلوا بالنفقات وأن لا يبالوها. وقد ألحّت ناستاسيا فيليبوفنا على أن يتم الزفاف في أقرب وقت. وألحّ كيلر على أن يجعله الأمير فتى الشرف في عرسه، فلبى الأمير طلبه، ووقع اختيار ناستاسيا فيليبوفنا على بوردوفسكي فتى من جهتها، فارتضى بوردوفسكي هذا الاختيار متحمساً. وحُدّد أول تموز - يوليه موعداً لحفلة الزفاف.

وعدا هذه الوقائع الدقيقة الصحيحة كل الصحة، فنحن نعلم كذلك تفاصيل تحيرنا أشد الحيرة لأنها تناقض ما سبق. لهذا يحق أن نقدر أن الأمير ما إن كلف ليبيدوف والآخرين بإعداد كل الترتيبات حتى نسي أن هناك زواجا وزفافاً وعريساً وفتيان شرف وما إلى ذلك! ولعله لم يسرع إلى تكليف غيره بهذه الأمور إلا ليكفّ هو عن التفكير فيها والانشغال بها، وربما ليمحوها من ذاكرته محوا تاماً.

ولكن إذا صدق هذا ففي أي شيء كان يفكر؟ ما هو الشيء الذي كان يريد أن

يحتفظ بذكراه؟ ماذا كانت نياته؟ لا شك في أن الأمير لم يتعرض لأي ضغط أو إكراه (من جانب ناستاسيا فيليبوفنا مثلاً). صحيح أن ناستاسيا فيليبوفنا هي التي أرادت تعجيل الزفاف؛ وأنها هي التي تخيلت هذا الزواج، لا الأمير؛ ولكن الأمير قد وافق موافقة حرة لم يجبره عليها أحد، حتى أنه وافق وهو ذاهل الهيئة كأن الأمر أمر عادي ليس على شيء من خطورة الشأن.

إننا نعرف عدداً كبيراً من وقائع لا تقل غرابة عن ذلك، ولكننا نرى أن تلك الوقائع لن تساهم في إيضاح الحادث بل ستزيده بتراكمها غموضاً على غموض. ولنضرب مع ذلك مثلاً آخر.

نحن نعلم علم اليقين أن الأمير قد قضى في أثناء هذين الأسبوعين أياماً وسهرات كاملة مع ناستاسيا فيليبوفنا وأنه كان يصحبها في نزهاتها ويرافقها لسماع الموسيقى. كان يخرج معها كل يوم في عربة. وإذا انقضت ساعة دون أن يراها أخذ يقلق عليها (كانت كل المظاهر تدل إذن على أنه يحبها حباً صادقاً). كان يبقى إلى جانبها ساعات طوالاً يصغي إليها وهي تتكلم بابتسامة رقيقة عذبة أياً كان الموضوع الذي تتكلم فيه. وكان هو يصمت طول الوقت تقريباً.

ولكننا نعلم أيضاً أنه في تلك الأيام نفسها قد ذهب عدة مرات، بل مراراً كثيرة، إلى منزل آل إيبانتشين على حين فجأة، دون أن يكتم ذلك عن ناستاسيا فيليبوفنا التي كانت تلك الزيارات تهوي بها إلى حضيض الكمد والكرب واليأس. ونحن نعلم أن آل إيبانتشين قد رفضوا استقباله إلى آخر يوم من أيام إقامتهم في بافلوفسك، وأنهم اعترضوا دائماً على أن يتم لقاء بينه وبين آجلايا. فكان ينصرف دون أن يقول كلمة واحدة، ثم يعود في الغد وكأنه نسي رفض الأمس، ثم يرفض مرة أخرى طبعاً.

ونحن نعرف أيضاً أن الأمير، بعد هرب آجلايا من بيت ناستاسيا فيليبوفنا بساعة أو بأقل من ساعة، قد مضى إلى منزل أسرة إيبانتشين معتقداً إنه سيلقى الفتاة هناك. فما كان أشد الذعر الذي أحدثه في المنزل وصوله، لأن آجلايا لم تكن قد رجعت بعد، وعلم أهل الدار منه أول نبأ عن الزيارة التي قامت بها آجلايا في صحبتته لناستاسيا فيليبوفنا. قد حكي بعد ذلك أن إليزابيت بروكوفينا وبنيتها وحتى الأمير «شتش...» قد عاملوه بقسوة وخشونة وعداوة، وأعلنوا له بألفاظ غاضبة أنهم لا يريدون أن يعاشره بعد الآن ولا أن يعرفوه، لا سيما حين وصلت باربارا آرداليونوفنا تبلغ إليزابيت بروكوفينا فجأة أن آجلايا موجودة عندها منذ ساعة وأنها في حالة رهيبة وأنها لا تريد الرجوع إلى البيت فيما يبدو.

وقد ثبت صدق هذا النبأ الأخير الذي بثّ الاضطراب في نفس إليزابيت بروكوفينا أكثر من أي شيء آخر. والواقع أن أجلايا حين خرجت من عند ناستاسيا فيليبوفنا كانت تؤثر أن تموت على أن تظهر أمام أنظار أهلها من جديد. لذلك لجأت إلى نينا ألكسندروفنا. ورأت باربارا آرداليونوفنا من جهتها أن من الواجب أن تبادر إلى إبلاغ إليزابيت بروكوفينا كل ما جرى بغير إبطاء. فهرعت الأم وابنتها فوراً إلى عند نينا ألكسندروفنا، ولحق بهن الأب، إيوان فيدروفتش، إلى هناك منذ عاد إلى البيت. وركض الأمير ليون نيقولايفتش وراء السيدات إبيانتشين رغم أنهن صرفنه ورغم أنهن وجهن إليه كلمات جارحة. ولكن باربارا آرداليونوفنا أمرت هناك بمنعه من الوصول إلى أجلايا.

وقد انتهت القضية على النحو التالي: حين رأت أجلايا أمها وأختها يبيكين بسببها ولكنهن لا يوجهن إليها أي لوم، ارتمت في أحضانهن ورجعت معهن إلى البيت فوراً.

وحكي أيضاً - غير أن هذه الشائعة ظلت غير واضحة - أن جبريل آرداليونوفتش قد مني بسوء الحظ مرة أخرى: فإنه حين خلا إلى أجلايا أثناء ذهاب باربارا آرداليونوفنا إلى إليزابيت بروكوفينا، ظن أن عليه أن ينتهز هذه الفرصة ليحدث أجلايا عن حبه. فلما سمعته أجلايا نسيت حزنها ودموعها وانطلقت تضحك في قهقهة مجلجلة، ثم ألقّت عليه السؤال التالي: أهو مستعد، في سبيل البرهان على حبه، لأن يحرق إصبعه على لهب شمعة؟ ويبدو أن جبريل آرداليونوفتش قد تحيرّ وشده وصُعق لهذا الاقتراح، فلما رأت أجلايا ما تعبر عنه هيئته من هذا كله، اعترتها نوبة ضحك فظيع، وهربت إلى الطابق الأعلى، إلى عند نينا ألكسندروفنا، حيث وجدها أهلها بعد ذلك بقليل.

وقد نقل هيبوليت هذه الواقعة إلى الأمير في الغد. إن هيبوليت الذي أصبح لا يستطيع أن يترك مرقده قد استدعى الأمير خصيصاً لينقل إليه تلك الواقعة. لا نعرف كيف اطلع هو عليها. ولكننا نعرف أن الأمير حين سمع حكاية الأصبع والشمعة قد أخذ يضحك ضحكاً بلغ من الشده إن هيبوليت نفسه تحيرّ تحيراً كبيراً، غير أن الأمير لم يلبث أن أخذ يرتجف، وأجهش باكياً...

ولقد كان الأمير خلال تلك الأيام، على وجه العموم، فريسة قلق شديد واضطراب خارق وخوف غامض. حتى إن هيبوليت أعلن صراحة أن الأمير يشعره بأنه رجل أصابه اختلال عقلي. على أن هذا الظن كان يصعب بناؤه على أساس محسوس حتى ذلك الحين. إننا، حين نعرض هذه الوقائع جميعها ونرفض أن نفسرها، لا نهدف إلى أن نبين صفحة بطلنا وأن نبري ساحته وأن نسوِّغ سلوكه في نظر القارئ. بالعكس: نحن

مستعدون لأن نشارك في هذا الاستياء الذي أثاره سلوك الأمير حتى في نفوس أصدقائه. إن فيرا ليبيديفا نفسها قد أحنقها هذا السلوك مدة من الوقت. وإن كوليا وكيللر قد أظهر امتعاضهما كذلك. ولم يغير كيللر رأيه إلا حين اختاره الأمير فتي الشرف لزفافه. أما ليبيديف فقد بلغ استياؤه من الصدق إنه دفعه إلى أن يدبر للأمير مكيدة سنتحدث عنها فيما بعد. إننا من حيث المبدأ نؤيد بلا تحفظ بعض الأقوال التي تتصف بالشدّة والصرامة بل وتتصف كذلك بعمق النفاذ السيكولوجي، أعني الأقوال التي وجهها أوجين بافلوفتش إلى الأمير بغير لفّ أو دوران، أثناء حديث ودي قام بينه وبينه بعد انقضاء ستة أيام أو سبعة على الحادث الذي وقع عند ناستاسيا فيليبوفنا. يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن الأشخاص الذين تربطهم بأسرة إيبانتشين صلات مباشرة أو غير مباشرة قد اعتقدوا أن من واجبهم أن يشاركوا الأسرة في قطع أي صلة بالأمير. فالأمير «شتش..» مثلاً قد أشاح عنه وجهه حين لقيه، ولم يردّ تحيته. ومع ذلك لم يخش أوجين بافلوفتش أن يتعرض لشر إذا هو زار الأمير، رغم أنه قد استأنف ترده على آل إيبانتشين كل يوم، وأن الأسرة استقبلته بمودة ظاهرة واضحة.

ففي غداة اليوم الذي غادر فيه آل إيبانتشين بافلوفسك، ذهب أوجين بافلوفتش إلى الأمير. وكان حين دخوله عليه عالماً بالأقاويل التي كانت تروج في المدينة؛ بل لعله كان قد أسهم من جهته في نشرها. وقد سرّ الأمير برؤيته سروراً عظيماً، وسرعان ما أدار الحديث على آل إيبانتشين. فكان من شأن هذا الدخول في الموضوع على نحو صريح مباشر أن حلّ عقدة لسان أوجين بافلوفتش وأتاح له أن يمضي إلى هدفه رأساً.

كان الأمير ما يزال يجهل رحيل آل إيبانتشين. فحين أنبأه أوجين بافلوفتش بذلك تجمد دهشةً وامتقع لونه. ولكنه بعد دقيقة، هزّ رأسه مضطرب الهيئة شارد الفكر وقال مسلماً مدعناً: «لم يكن من ذلك بد»؛ ثم أسرع يسأل عن «محل إقامتهم الجديد».

وكان أوجين بافلوفتش أثناء ذلك يرقبه بانتباه، فأدهشه أن رأى الأمير يسرع في سؤاله هذا الإسراع، وأدهشه ما رآه من سداجة في الأسئلة التي يلقيها عليها، وما لاحظته فيه من اضطراب، وما لاح له في كلامه من نبرة صدق غريب، وما كان يظهر عليه من قلق واضطراب وعصبية. ومع ذلك أطلع الأمير على تفاصيل جميع الأحداث بكثير من الكياسة والبشاشة واللطافة. لقد أعلمه أشياء كثيرة، وكان أول من يحمل إليه الأنباء من عند آل إيبانتشين.

أكّد له أوجين بافلوفتش أن أجاليا قد مرضت فعلاً، وأنها قضت ثلاث ليال في حمى وأرق، وأن صحتها الآن قد تحسّنت فنجت من الخطر، ولكنها ما تزال في حالة شديدة من

حالات فرط الاهتياج... وأضاف: «من حسن الحظ على كل حال أن سلاماً تاماً يسود جوّ المنزل! إنهم يحاولون أن لا يتكلموا عن الماضي، لا بحضور آجلایا فحسب، بل حتى في غيابها. والأبوان يريدان أن تقوم الأسرة في الخريف برحلة إلى الخارج، بعد زواج آديلائد رأساً. وقد استقبلت آجلایا أولى التلميحات إلى هذا المشروع صامتة فلم تعقب عليه بشيء...»

أما هو، أوجين بافلوفتش، فقد يسافر إلى الخارج أيضاً. وحتى الأمير «شتش...» قد يقرر أن يغيب مع آديلائد شهراً أو شهرين، إذا سمحت له أعماله بذلك. فلا يبقى عندئذ إلا الجنرال. والأسرة كلها تقيم الآن في كولمينو، على مسافة عشرين فرسخاً من بطرسبرج، بمنزل ريفي واسع في إحدى الأراضي التي تملكها. ولم تكن الأميرة بيلوكونسكايا قد سافرت بعد إلى موسكو، ويظهر أنها تأخرت متعمدة. لقد ألحت إليزابت بروكوفيينا إلحاحاً شديداً على استحالة البقاء في بافلوفسك بعد كل ما حدث. وكان أوجين بافلوفتش ينقل إليها الشائعات التي تسري في المدينة، يوماً يوماً. واعتقد آل إيبانتشين أن الذهاب إلى فيلا إيلاجين مستحيل أيضاً. أضاف أوجين بافلوفتش يقول:

- لا شك أنك تسلّم يا أمير بأن الوضع قد أصبح لا يطاق... ولا سيما عند من يعرف ما يجري في بيتك كل ساعة، وبعد زيارتك اليومية «هناك»، رغم الإصرار على رفض استقبالك.

أجاب الأمير وقد عاد يهزّ رأسه:

- نعم، نعم، أنت على حق. كنت أريد أن أرى آجلایا إيفانوفنا.

فصاح أوجين بافلوفتش يقول فجأة بلهجة مؤثرة حزينة:

- آه يا عزيزي الأمير! كيف أمكنك أن تسمح إذن بحدوث كل ما حدث؟ صحيح أن الأمر كان لك مفاجأة غير متوقعة... فأنا أسلم بأنك لم يكن في وسعك إلا أن يطيش صوابك، ولم يكن في وسعك أن تصدّ تلك الفتاة عن الانقياد لنوبة الجنون التي اعترتها، فذلك كله فوق طاقتك! ولكن كان عليك أن تدرك مدى خطورة وقوة العاطفة... التي كانت تدفع تلك الفتاة إليك! إنها لم تشأ أن يشاركها أحد فيك، وأنت... أنت تركت هذا الكنز وحطّمته.

قال الأمير وقد أرهقه الحزن:

- نعم، نعم، أنت على حق. اسمع: إن آجاليا كانت هي الإنسان الوحيد الذي ينظر إلى ناستاسيا فيليبوفنا هذه النظرة!... ما من أحد غيرها كان يرى فيها هذا الرأي، ويحكم عليها هذا الحكم...

هتف أوجين بافلوفتش يقول باندفاع:

- ولكن هذا بعينه هو ما يثير الحنق: إن الأمر كله لم يكن فيه شيء من جد... معذرة يا أمير... لكنني... لكنني فكرت في المسألة، فكرت فيها ملياً.. وأنا أعرف جميع المقدمات. أعرف كل ما حدث قبل ستة أشهر. لم يكن في الأمر كله شيء من جد، لم يكن ثمة إلا فكر يعبث وخيال يهوّم، ووهم ودخان... والغيرة المروّعة، الغيرة التي عصفت بقلب فتاة غير ذات تجربة، هي التي استطاعت وحدها أن تجعلها تأخذ الأمر مأخذ الجد ومأخذ المأساة!

وهنا شعر أوجين بافلوفتش بارتياح كامل، فأطلق لسانه حراً يعبر عن استيائه بغير تحفظ. فإذا هو يرسم للأمير صورة للعلاقات بينه وبين ناستاسيا فيليبوفنا بأقوال ذكية واضحة، وبنفاذ سيكولوجي عميق، كما أسلفنا من قبل. إن أوجين بافلوفتش قد أوتي موهبة الكلام فكانت هذه الموهبة تلاحظ فيه دائماً، ولكنه ارتقى هذه المرة إلى مرتبة البلاغة النادرة. قال:

- لقد كان فيك منذ البداية شيء من كذب. ومن كان الكذب بدايته فلا بد أن يكون الكذب نهايته. ذلك قانون من قوانين الطبيعة. إنني لا أرى رأي أولئك الذين يعدونك أبله. حتى إنني أستاذ حين أسمع كلامهم. إنك أذكى من أن توصف بهذه الصفة. ولكن لا بد أنك تسلم أنت نفسك بأن فيك غرابة تميزك عن الناس كافة. لقد خلصت أنا إلى هذه النتيجة: إن سبب كل ما جرى يكمن قبل كل شيء فيما أسميه «اللاخبرة الفطرية» (لاحظ تعبير «الفطرية» يا أمير)، وفيما تتصف به من سذاجة شاذة غير سوية. وإنني لأضيف إلى ذلك أنك يعوزك حس الاعتدال عوزاً خارقاً (تلك آفة فيك كثيراً ما اعترفت بها أنت نفسك)؛ وينبغي أن نذكر أخيراً ذلك السيل المتدفق من المعاني المجردة المكتسبة التي يمتلئ بها دماغك والتي حسبتها بإخلاصك وبراءتك آراء أصيلة حقيقية صادقة طبيعية مباشرة! عليك أن تعترف أنت نفسك يا أمير بأن علاقاتك مع ناستاسيا فيليبوفنا قد قامت منذ البداية على فكرة «الديموقراطية الاصطناعية» (استعمل هذا التعبير للإيجاز) وتأثرت بما تتصف به «قضية المرأة» من فتنة وسحر (أقول هذا لمزيد من الإيجاز أيضاً). اعلم أنني مطلع على جميع تفاصيل الحادث الغريب الفاضح الذي جرى في بيت ناستاسيا فيليبوفنا حين

جاء روجويين بأمواله. سأحاول، إذا شئت، أن أحللك وأن أظهرك على صورتك كأنك تراها في مرآة. فألى هذه الدرجة من الدقة أعرف حقيقة القضية والسبب الذي جعلها تجري هذا المجرى! حين كنت شاباً تعيش في سويسرا، كان بك حنين إلى وطنك، وكانت روسيا تجذبك كأنها بلد مجهول، كأنها أرض موعودة. وقد قرأت حينئذ كتباً كثيرة عن روسيا. ولعلها كانت كتباً ممتازة، لكنها قد أضرت بك. فلما عدت إلى الأرض التي ولدت فيها كنت ممتلئاً بالحماسة ظامئاً إلى النشاط. فارتفيت على العمل ارتماء إن صح التعبير. وها أنت ذا، منذ وصولك أول يوم، تُحكى لك حكاية حزينة مؤلمة هي حكاية إنسان أهين وأوذى. لقد حكيت هذه الحكاية لك أنت، أنت الرجل العفّ الطاهر الذي يتصف بروح الفروسية، والإنسان الذي قُصّت عليك قصته الأليمة تلك، كان امرأة! وفي ذلك اليوم نفسه ترى تلك المرأة نفسها، فيسحرك جمالها، جمالها الخارق الشيطاني (ها أنت ذا ترى إنني أعترف بجمالها). أضف إلى ذلك حالة أعصابك، ومرض الصرع، وما يحدثه ذوبان الثلج ببطرسبرج من أثر حزين في النفس. أضف إلى ذلك أيضاً أنك أثناء ذلك النهار الأول الذي قضيته في مدينة مجهولة شبه أسطورية في نظرك، قد شهدت مشاهد عدة ولقيت أناساً كثيرين. لقد تعرفت، على نحو لم يكن في الحساب قط، بثلاث جميلات، الأنسات إيبانتشين، ومنهم آجلايا. أضف إلى ذلك أيضاً ما كنت فيه من تعب، وأضف إليه الدوار، وأضف إليه صالون ناستاسيا فيليبوفنا والجو الذي كان يسوده، و... فماذا يمكن أن تتوقع من نفسك في تلك اللحظة؟ هلا قلت لي، من فضلك..

قال الأمير هازاً رأسه وقد أخذ وجهه يحمر:

- نعم، نعم، تكاد تكون على حق. فعلاً، لم أكن قد نمت في الليلة السابقة بالقطار، ولا في الليلة التي قبلها... وكنت أشعر أنني في غير حالتي الطبيعية...

تابع أوجين بافلوفتش كلامه قائلاً:

- فهذا بعينه ما أردت أن أخلص إليه. واضح أنك، وقد أسكرتك الحماسة، ارتفيت على هذه الفرصة ارتماء لتبرز عظمة نفسك أمام الناس معلناً على رؤوس الأشهاد أنك على كونك أميراً بالولادة، وعلى كونك رجلاً طاهراً، لا ترى أن أي عار قد لحق بامرأة لم تُسقطها خطيئتها هي بل أسقطتها خطيئة رجل منحل كرية من أبناء المجتمع الراقي. أمر مفهوم جداً! ولكن ليست هذه هي المسألة يا عزيزي الأمير. إن الشيء الذي يجب أن نعرفه هو: أكانت عاطفتك حقيقية، صادقة، طبيعية، أم كانت ناشئة عن حماسة دماغية؟ ما رأيك؟ لئن غُفر في المعبد لامرأة من هذا النوع، فما من أحد قال

لها إنها أحسنت صنعاً، ولا أنها تستحق جميع الأمجاد وجميع أنواع الاحترام! ألم تر أن عقلك قد أرجع الأمور إلى نصابها من تلقاء نفسه بعد ثلاثة أشهر؟ لنسلم بأنها بريئة (هذه مسألة لا أريد أن ألحّ عليها). هل ينفي هذا أن أعمالها لا تسوّغ أي تسويغ ما يراه المرء فيها من عجب لا يطاق وزهو شيطاني لا يغتفر، ووقاحة شديدة، وأنانية مفرطة لا يرتوي لها ظمأ. معذرة يا أمير، إذا أنا اندفعت واسترسلت، ولكن...

تمتم الأمير يقول من جديد:

- نعم، ذلك كله ممكن، جائز أنك على حق... إنها في حالة شديدة من حالات فرط الاهتياج فعلاً. وأنت على حق يقيناً، ولكن..

- أتريد أن تقول إنها تستحق الشفقة يا أميري الطيب؟ ولكن هل من حقك، شفقة بها وإرضاء لها، أن تجلّ بالعار فتاة أخرى كريمة المحتدّ طاهرة، وأن تذللها أمام «تينك» العينين اللتين تفيضان احتقاراً وكرهاً؟ فأين تقف الشفقة بعد هذا؟ أليس ههنا غلوٌ لا يصدق العقل؟ حين يحب المرء فتاة فهل يستطيع أن يحقر شأنها ذلك التحقير أمام غريمتها، وأن يهجرها في سبيل أخرى على مرأى من هذه الأخرى، بعد أن خطبها خطبةً شريفةً؟... ذلك أنك خطبتها وأعلنت خطبتها بحضور أبويها وأختيها! أفيمكن بعد هذا أن توصف بأنك رجل شريف يا أمير؟ ثم... ألم تخدع فتاة تستحق العبادة حين أكدت لها أنك تحبها؟

جمجم الأمير يقول بحزن لا يغالب:

- نعم، نعم، أنت على حق. آه... أنا أشعر بأنني آثم!

هتف أوجين بافلوفتش يقول مستاء:

- ولكن هل يكفي هذا؟ هل يكفي أن تصيح قائلاً: «آ... أنا آثم!» أنت آثم، ولكنك مستمر في أخطائك وذنوبك. أين كان إذن قلبك، قلبك «المسيحي»؟ لقد رأيت وجهها في تلك اللحظة: فهل كان يعبر عن الألم أقل من وجه «الأخرى»، وجه «صاحبتك» التي تبثّ البلبلة والاضطراب؟ فكيف، وقد رأيت هذا المنظر، سمحت بحدوث ما حديث، كيف؟

تمتم الأمير المسكين يقول:

- ولكن... ولكنني لم أسمح بشيء...

- كيف لم تسمح بشيء!

- يميناً لم أسمح بشيء!... وما زلت حتى الآن لا أفهم كيف حدث ذلك كله...
لقد... لقد ركضت عندئذ وراء آجلايا إيفانوفنا، ولكن أغمي في تلك اللحظة على
ناستاسيا فيليبوفنا، ومنذ ذلك الحين لم يبيحوا لي أن أقرب من آجلايا إيفانوفنا.

- كان يجب عليك أن تركض وراء آجلايا وأن تترك الأخرى مغمى عليها!

- نعم، نعم، كان يجب عليّ... كانت ستموت من ذلك! كانت ستنتحر، إنك لا
تعرفها... و... على كل حال... مهما يكن من أمر... كنت سأقصّ كل شيء بعد ذلك
على آجلايا إيفانوفنا، و... اسمع يا أوجين بافلوفتش: يلوح لي أنك لست على علم بكل
شيء. هلأ قلت لي لماذا لا يبيحون إليّ الاقتراب من آجلايا؟ لو سمحوا لي أن أفعل،
لشرحت لها كل شيء. أعلم هذه الحقيقة: هما كلتاها لم تتكلما عندئذ عما كان
ينبغي الكلام عليه، وذلك هو السبب في أن الأمور جرت بينهما هذا المجرى. يستحيل
عليّ استحالة مطلقة أن أشرح لك هذا شرحاً واضحاً، ولكن قد أفصح في شرحه لآجلايا.
آه... رباه! رباه! إنك تكلمني عن وجهها في تلك اللحظة كيف كان، هربت.. آه.. يا
رب! أنني أتذكر كيف كان وجهها في تلك اللحظة!... قم بنا... قم بنا...

كان الأمير قد قام بغتة وهو يحاول أن يجبر أوجين بافلوفتش من كفه.

- إلى أين؟

- إلى عند آجلايا إيفانوفنا. لنذهب إليها فوراً!...

- ولكنني قلت لك إنهم رحلوا عن بافلوفسك. ثم... ما عسانا فاعلين عندها؟

دمدم الأمير يقول ضاماً يديه بحركة التوسل والضراعة:

- إنها سوف تفهم، سوف تفهم! سوف تفهم أن الأمر ليس «هذا»، بل هو شيء آخر
تماماً!

- كيف يكون شيئاً آخر تماماً؟ إنك سوف تتزوج مع ذلك! ما تزال إذن تعاند...
ألست مقبلاً على زواج؟

- بلى... سأتزوج... سأتزوج!...

- فكيف تقول إذن إن الأمر ليس «هذا»؟

- لا، ليس الأمر هذا، ليس الأمر هذا... ليس هاماً أن أتزوج... ما زوجي بشيء!...

- كيف يمكنك أن تقول إن زوجك ليس هاماً؟ ما زوجك مزحة على كل حال!

إنك تتزوج امرأة تحبها، من أجل أن تحقق سعادتها. وآجاليا ترى هذا وتعرفه. أهذا أمر لا قيمة له ولا شأن؟

- سعادتها؟ لا، لا. إنني أتزوج هكذا.. أتزوج وكفى. هي تحرص على أن أتزوجها. وما قيمة أن أتزوج؟ إنني... هذا كله لا شأن له عندي. لو فعلت غير ما فعلت لماتت حتماً. إنني أرى الآن أن فكرة زواجها بروجويين كانت جنوناً. الآن فهمت ما لم أكن أفهمه من قبل. اسمع ما أقوله لك: إنني حين تشجارتا لم أستطع أن أتحمّل رؤية وجه ناستاسيا فيليبوفنا.

ثم أضاف الأمير قائلاً وهو يخفض صوته كأنه يفضي بسرّ:

- أنت لا تعلم يا أوجين بافلوفتش... إنني لم أقل هذا لأحد في يوم من الأيام، أبداً، أبداً، لم أقله حتى لآجاليا.. ولكن الحقيقة هي أنني لم أطق أن أحتمل رؤية وجه ناستاسيا فيليبوفنا... إنك منذ قليل قد أجدت أيما إجادة وصف السهرة التي تمّت في بيتها. غير أن هناك أمراً تفصيلياً غاب عنك لأنك كنت تجهله: هو أنني نظرت إلى «وجهها». وقبل ذلك، في الصباح، حين رأيت صورتها لم أستطع أيضاً أن أحتمل تعبير هذا الوجه... انظر إلى وجه فيرا، بنت ليبيديف: إن لها عينيّن مختلفتين عن عيني ناستاسيا فيليبوفنا كل الاختلاف. إنني... إنني أخاف من وجه ناستاسيا فيليبوفنا.

أضاف الأمير هذه الجملة الأخيرة بلهجة تدل على أكبر الرعب.

سأله أوجين بافلوفتش:

- تخاف من وجهها؟

فأجاب الأمير قائلاً بهمس وقد امتقع لونه:

- نعم. إنها مجنونة.

فسأله أوجين بافلوفتش وقد لاحت في وجهه حيرة شديدة:

- أأنت متأكد من هذا؟

- نعم، متأكد، الآن أنا متأكد. لقد اقتنعت بهذا اقتناعاً راسخاً في هذه الأيام الأخيرة.

فصاح أوجين بافلوفتش يقول مرتاعاً:

- فماذا تفعل إذن أيها الشقي؟ أأنت تتزوج إذن بتأثير نوع من الخوف؟ ذلك أمر لا

يفهم المرء منه شيئاً... وربما كنت لا تحبها أيضاً؟

- بل بلى! إنني أحبها بكل نفسي! ما هذا الكلام الذي تقول!... إنها طفلة. هي الآن أشبه بطفلة تماماً! آه... إنك لا تعلم شيئاً!

- وفي الوقت نفسه أكّدت لآجلايا حبك؟

- نعم... نعم!...

- كيف تفسر هذا؟ أتزعم إذن أنك تحبهما كلتيهما في آن واحد؟

- نعم.. نعم!....

- فكر فيما تقول يا أمير!

- بدون آجلايا سوف يوافيني... يجب أن أراها حتماً. سوف يوافيني الموت وأنا نائم بعد حين.. لقد قدّرت أن أموت هذه الليلة أثناء النوم. آه... ليت آجلايا تعلم، ليتها تعلم كل شيء... أقصد أن تعلم كل شيء تماماً! ذلك أن الأمر الأساسي هنا هو أن يعرف المرء كل شيء! لماذا لم يكتب لنا قط أن نعلم «كل شيء»، عن شخص آخر حين يكون هذا لازماً، إذا ارتكب هذا الشخص الآخر ذنباً!... على كل حال، أصبحت لا أعرف ماذا أقول، لقد اختلطت في عقلي الأمور. إنك ألقيتني في اضطراب رهيب... هل يمكن أن تكون محتفظة إلى الآن بذلك التعبير الذي رأيته في وجهها حين هربت؟ آه... نعم... أنا آثم! الأرجح أن جميع الأخطار قد صدرت عني أنا. إنني لا أعرف ماذا كانت تلك الأخطاء على وجه التحديد، ولكنني مسؤول!... هناك شيء لن أستطيع أن أشرحه لك يا أوجين بافلوفتش، لأنني لا أملك الألفاظ التي يمكن أن تعبر عن. ولكن... آجلايا إيفانوفنا ستفهم! نعم، لقد قدّرت دائماً أنها سوف تفهم...

- لا يا أمير، لن تفهم! إن آجلايا إيفانوفنا قد أحبتك حبا إنسانياً، كما تحب امرأة... لا كما يحب روح صرف. هل تريد أن قول لك يا أميري المسكين: أغلب الظن إنك ما أحبت واحدة منهما أبداً لا الأولى ولا الثانية!

- لا أدري... جائز... جائز!... إنك على حق في نقاط كثيرة يا أوجين بافلوفتش. إنك ذكي ذكاء متفوقاً يا أوجين بافلوفتش. آه.. هذا رأسي قد عاوده الصداغ. لنذهب إليها. لنذهب إليها. ناشدتك الله... ناشدتك الله!

- ولكنني قلت لك إنها غادرت بافلوفسك! هي الآن في كولمينو.

- فلنذهب إلى كولمينو. لنسافر حالاً!

- مس-...-ت-...-حيل!

كذلك قال أوجين بافلوفتش بصوت ممطوط. ونهض.

قال له الأمير:

- اسمع. سأكتب رسالةً تحملها أنت إليها!

- لا يا أمير، لا! اعفني من مثل هذه المهمات. لا أستطيع أن أتولى حمل الرسالة.

وافترقا.

مضى أوجين بافلوفتش وهو يحمل إحساساً غريباً. لقد وصل إلى اقتناع راسخ بأن الأمير مختل العقل قليلاً. «ما معنى هذا الكلام عن «وجه» يخشاه كل هذه الخشية ويحبه كل هذا الحب؟ وليس مستحيلاً في الوقت نفسه أن يموت لفراق آجاليا فعلاً، فلا تعرف الفتاة مدى ما كان يحمله لها من حب. هاها!... وكيف يمكنه أن يحب امرأتين؟ وأن يحب كلاهما حباً يختلف عن حبه للأخرى؟ ذلك هو الشيء الطريف.. يا للأبله المسكين؟ ما عسى يصير إليه الآن؟....».

الفصل العاشر

مع ذلك لم يمت الأمير قبل زواجه لا في حالة اليقظة ولا «أثناء النوم» كما تنبأ بذلك لأوجين بافلوفتش. لعله كان ينام نوماً غير هادئ ولعله كان يرى أحلاماً سيئة. ولكنه أثناء النهار، في معاشرة الناس، كان يبدو حسن الصحة بل وراضي النفس. وإذا بدا في وجهه كثير من الاستغراق أحياناً فإن ذلك يحدث له حين يكون وحيداً.

لقد استعجلت إعدادات الزواج الذي كان سيتم بعد زيارة أوجين بافلوفتش بثمانية أيام. فكان يستحيل على أصدقاء الأمير الخلص، إذا كان له أصدقاء خلص، كان يستحيل عليهم وهم يرون ذلك الاستعجال كله إلا أن يعدلوا عن الأمل في أن تصل جهودهم إلى «إنقاذ» المجنون المسكين مما عقد العزم عليه. وسرت شائعة تقول إن زيارة أوجين بافلوفتش إنما تمت بإيحاء من الجنرال إيوان فيدروفتش وزوجته إليزابت بروكوفيتشنا. ولكن لئن دفعهما فرط طبيتهما كليهما إلى أن يتمنيا «إنقاذ» المختل المسكين من الوهدة التي وقع فيها، فلقد اضطرا أن يقتصر على تلك المحاولة الوحيدة الوجلة، فلا وضعهما ولا عواطفهما، في أغلب الظن (وذلك أمر طبيعي)، تسمح لهما بأن يبذلا جهوداً أكبر. وقد سبق أن قلنا إن المحيطين بالأمير عارضوه هم أنفسهم. واكتفت فيرا ليبيديفا بأن تسكب الدموع حين تخلو إلى نفسها. ثم إنها كانت تمكث في البيت أكثر الوقت، فقلت زياراتها للأمير.

وفي تلك الأثناء كان كوليا يقوم بآخر واجباته تجاه أبيه. لقد مات أبوه بنوبة جديدة وافته بعد النوبة الأولى بنحو ثمانية أيام. وشارك الأمير مشاركة كبيرة في حداد الأسرة. ف قضى في الأيام الأولى ساعات كاملة قرب نينا ألكسندروفنا. وسار في الجنازة وشهد الدفن وحضر القداس الذي أقيم على روح الفقيد في الكنيسة. وقد لاحظ أشخاص كثيرون أن وصوله إلى الكنيسة وانصرافه منها قد أثارا همسات تبادلها الناس في الحفل على غير إرادة منهم، وحدث مثل هذا في الشارع وفي الحديقة العامة. فكان الناس، إذا مرّ الأمير سائراً على قدميه أو راكباً عربة، تنتعش الأحاديث بينهم ويدل بعضهم بعضاً عليه، وينطقون باسمه وينطقون اسم ناستاسيا فيليبوفنا. وقد بحثوا عن ناستاسيا فيليبوفنا في جنازة الجنرال، لكنهم لم يجدوها. ولم تشارك (أرملة الكابتن)

في الجنازة، فقد استطاع ليبيديف أن يصدّها عن الخروج من البيت. وأحدثت صلاة الجنازة في نفس الأمير أثراً أليماً قوياً. فلما سأله ليبيديف عن ذلك أجاب بصوت خافت أنه لأول مرة يشهد دفناً على الطقوس الروسية، باستثناء حفل مماثل يذكر أنه رآه أثناء طفولته في كنيسة قرية.

قال ليبيديف هامساً:

- كيف يصدق المرء أن الرجل الراقد في هذا التابوت هو ذلك الرجل نفسه الذي انتخبناه رئيساً منذ مدة قصيرة؟ هل تتذكر؟ ولكن عمن تبحث؟

- لا أبحث عن أحد، ولكن خيل إليّ أنني...

- أترك تبحث عن روجويين؟

- أهو هنا؟

- هو هنا في الكنيسة.

- خيل إليّ فعلاً أنني رأيت عينيه، ولكن كيف... ماذا جاء به إلى هنا؟ هل دعوه؟

كذلك سأل الأمير مدمماً وقد لاح الاضطراب في وجهه. فأجابه ليبيديف:

- لم يخطر ببال أحد أن يدعوه. ثم إن الأسرة لا تعرفه. كل إنسان يستطيع أن يدخل الكنيسة. لماذا دُهِشت هذه الدهشة كلها؟ إنني ألقاه في هذه الأيام كثيراً. في الأسبوع الماضي رأيته أربع مرات، هنا في بافلوفسك.

تمتم الأمير قائلاً:

- لم أره حتى الآن مرة واحدة.. منذ ذلك اليوم.

وإذ إن ناستاسيا لم تقل للأمير يوماً إنها لقيت روجويين مرة واحدة «منذ ذلك اليوم»، فقد استنتج الأمير من ذلك أن روجويين قد غاب واختفى عامداً. وبدأ الأمير مشغول البال غارقاً في التفكير طوال ذلك النهار. ولا كذلك ناستاسيا فيليبوفنا فقد كانت مرحلة مرحاً غير مألوف، مرحاً امتد طوال السهرة.

وكان كوليا قد تصالح مع الأمير قبل موت أبيه، واقترح عليه أن يتخذ كلاً من كيلر وبوردوفسكي فتى شرف لحفلة الزفاف (فالأمير هام ومستعجل لا يحتمل أي تأخير). فأما عن كيلر فقد ضمن كوليا حسن سلوكه وأضاف إلى ذلك أنه ربما كان «مفيداً». وأما عن بوردوفسكي فلا حاجة إلى أي تزكية له، لأنه رجل (هادئ

ومتواضع). وقد قام ليبيديف ونينا ألكسندروفنا بتنبيه الأمير إلى أنه، إذا كان عزم أمره على الزواج فلا يمكن ثنيه عنه، يستطيع على الأقل أن يعفي نفسه من الاحتفال به هنا ببافلوفسك، في هذا الفصل الذي يكثر فيه توافد أبناء المجتمع الراقي إلى بافلوفسك. أليس الأفضل أن يتم الاحتفال بالزفاف في بطرسبرج، بل وفي البيت أيضاً؟ ولم يفت الأمير أن يدرك السبب الذي يكمن وراء هذه المخاوف، ولكنه اقتصر على أن أجابهما مؤخراً بأن ناستاسيا فيليبوفنا ترغب في إقامة الحفلة هنا قطعاً.

حين علم كيلر في الغداة أنه اختير فتى شرف لحفلة الزفاف جاء يمثل أمام الأمير. توقف أولاً في العتبة، فما إن أبصر الأمير حتى رفع يده اليمنى ونصب إبهامه في الهواء، وهتف يقول بصوت من يحلف يميناً ويقطع على نفسه عهداً:

– لن أشرب قط!

ثم دنا من الأمير وشدّ على يديه كليتهما وهو يهزّهما هزّاً قوياً، وقال إنه في حقيقة الأمر قد غضب في البداية حين علم بما حدث، حتى لقد أعلن غضبه أثناء لعبة بلياردو، ولكن هذا الغضب إنما يرجع إلى أن ما يحمله للأمير من صداقة تتصف بنفاد الصبر واستعجال الأمر كان يجعله يتمنى أن يرى الأمير يتزوج أميرة من أسرة روهان أو من أسرة شابو على الأقل. ولكنه أدرك الآن أن أفكار الأمير أنبل اثنتي عشرة مرة على الأقل من أفكار جميع من يحيطون به «جملة واحدة»! لأن ما يسعى إليه الأمير ليس هو الشهرة ولا هو الغنى حتى ولا هو المجد، وإنما هو الحقيقة. إن ميول الشخصيات السامية معروفة، وإن للأمير من سعة ثقافته ما يجعله شخصية من تلك الشخصيات السامية، بوجه عام... ولكن الأوباش والأوغاد لهم رأي آخر يختلف عن هذا الرأي كل الاختلاف. ففي المدينة، في البيوت، في الاجتماعات، في الفيلات، في حفلات الموسيقى، في الحانات، في صالات البلياردو، لا يتكلم الناس ولا يثرثرون إلا عن الحداث المقبل، حتى لقد سمعت إنهم يهيئون لك زينة موسيقية قبيحة تحت نوافذك، وذلك في الليلة الأولى!... فإذا كنت، يا أمير في حاجة إلى مسدس رجل شريف فأنا مستعد لأن أبادل مبادلة نصف دسنة من طلقات النار قبل أن تغادر مضجع عرسك في صباح الغد». حتى لقد نصح كيلر الأمير بإعداد مضخة من مضخات إطفاء الحريق في فناء البيت، كتدبير وقائي ضد الجمهور الفضولي عند العودة من الكنيسة. ولكن ليبيديف اعترض على هذا الاقتراح قائلاً إن بيته سيهدم من أساسه إذا استعملت هذه المضخة.

قال كيلر:

– أؤكد لك يا أمير أن ليبيديف هذا يدبر لك مؤامرات. إنهم يريدون أن يحجروا

عليك ويجعلوك تحت وصاية. هل تستطيع أن تتخيل هذا؟ سوف يحرمونك من ممارسة حريتك واستعمال مالك، أي من الشيئين الذين يميزاننا جميعاً عن الدواب! لقد سمعت ذلك، سمعته تماماً، هذه هي الحقيقة خالصة!

تذكر الأمير تذكرًا غامضاً أنه سبق أن سمع شيئاً من هذا القبيل، ولكنه لم يلق إليه بالاً بطبيعة الحال. ولم يزد الآن على أن ضحك لملاحظة كيلر، ثم سرعان ما نسيها فوراً.

وواقع الأمر أن ليبيديف كان يتحرك ويسعى هنا وهناك منذ مدة. إن خطط هذا الرجل تنشأ في نفسه دائماً بنوع من الوحي والإلهام، ولكنه من فرط حرارته واندفاعه في إنفاذها يبعثر جهوده في كل اتجاه، ويبتعد عن الهدف الذي يكون قد رسمه لنفسه في البداية. لذلك لم ينجح في حياته كثيراً. وقد جاء يعترف للأمير فيما بعد، يوم الزواج تقريباً (لقد كان هوساً عنده أن يأتي إلى من تأمر عليهم، فيعبر لهم عن ندمه وتوبته، لا سيما حين تخفق مؤامراته)، فأعلن له أولاً أنه قد خلق ليكون تاليران، ولكنه لتعثر حظه تعثراً لا يُفسر قد بقي ليبيديف لا أكثر، ثم كشف له عن تفاصيل مكيدته التي أثارت اهتمام الأمير وشاقته كثيراً. قال إنه بدأ يبحث في أول الأمر عن حُماة يستند إليهم ويعتمد عليهم عند الحاجة. فذهب لهذا الغرض إلى الجنرال إيغان فيدروفتش. فبدأ على الجنرال الارتباك، ثم قال له إنه «رغم ما يتمناه للشاب من خير كثير، ومهما تكن رغبته في إنقاذه قوية، فإنه لا يستطيع أن يتدخل، لأن الأعراف لا تسمح له بذلك». ولم تشأ إليزابيت أن تراه ولا أن تسمع عنه. أما أوجين بافلوفتش والأمير «شتش...» فقد رفضا هما أيضاً. ولكنه، هو ليبيديف، لم يفقد شجاعته ولا خارت عزيمته: كان قد استشار رجلاً خبيراً من رجال القانون هو شيخ محترم كان صديقاً حميماً له، بل وكان يدين له ببعض المنة. فانتهى رجل القانون هذا إلى أن الحجر على الأمير ممكن تماماً، بشرط أن يشهد شهود أكفاء بأن عقله مختل، وأن جنونه كامل؛ والمهم على كل حال أن يكون هنالك أشخاص من أصحاب النفوذ يمكن الاتكال على نفوذهم. ولم يفقد ليبيديف صبره، حتى لقد جاء إلى بيت الأمير في ذات يوم بطبيب. كان الطبيب هو أيضاً شيخاً محترماً يصطاف في بافلوفسك، ويحمل وسام القديسة حنة. لقد جاء به تحت ستار إنه يريد أن يريه منزله، متفقاً معه على أن يدرس حالة المريض وأن يطلعه على النتائج التي يصل إليها لا بصفة رسمية بل بصفة ودية مؤقتاً.

لقد تذكر الأمير زيارة الطبيب تلك. تذكر أن ليبيديف قد ألح عليه بالأمس ليقنعه بأنه مريض، فبعد أن رفض الأمير رفضاً قاطعاً أن يستعين بالطب، رأى ليبيديف

يدخل عليه بصحبة طبيب، مدّعيًا أنهما قادمان من عند السيد تيرنتيف الذي ساءت حالته كثيراً، وأن الطبيب يريد أن يقول للأمير شيئاً في موضوع المريض. وقد أثنى الأمير على ليبيديف، واستقبل الطبيب استقبالا يبلغ غاية المودة والبشاشة. وسرعان ما أخذوا يتكلمون عن هيبوليت. فطلب إليه الطبيب أن يقص عليه مشهد الانتحار تفصيلاً. فتكلم الأمير ففتن الطبيب بوصفه للحادث وتأويله إياه. ثم دار الحديث على طقس بطرسبرج، ومرض الأمير، وسويسرا، وشنايدر. فبلغ الطبيب من شغفه بما ذكر الأمير عن طريقة شنيدر في المعالجة أنه بقي معه قرابة ساعتين، مدخناً أثناء ذلك لفائف سيجار الأمير الممتازة، ومحتسباً ما قدمه إليه ليبيديف من شراب طيب جاءت به فيرا. ولم يفث الطبيب في هذه المناسبة، رغم أنه متزوج ورب أسرة، أن يغدق الثناء على فيرا إغداقاً بلغ من الجرأة أن الفتاة استاءت استياء عميقاً. وافترق الطبيب والأمير صديقين.

قال الطبيب لليبيديف وهو يخرج: «إذا أردنا أن نضع تحت الوصاية أناساً كالأمير فمن هم الذين يمكن أن نجعلهم أوصياء؟». فلما عرض له ليبيديف جانب المأساة في الحادث الذي يوشك أن يقع، هز الطبيب رأسه بمكر وخبث، وقال: «يجب أن ندع للناس أن يتزوجوا كما يشاؤون! ثم إن المرأة التي تتحدث عنها ليست جميلة جمالاً لا يضارع فحسب - وذلك وحده سبب كاف لأن يدير رأس رجل غني - وإنما هي تملك عدا ذلك، فيما سمعت، أموالاً طائلة آلت إليها من توتسكي وروجويين، وتملك عقود لؤلؤ، وجواهر ماس، وشالات ثمينة ورياشاً فاخرة. وهذا كله يشهد بأن الأمير، إذ يختارها، ليس رجلاً ضعيف العقل غريب الأطوار بل هو على عكس ذلك فتى حصيف الرأي، له ذكاء رجل من أبناء المجتمع الراقي، يعرف مصلحته ويجيد الحساب أيماً إجادة!». اعتقد الطبيب إذن أن من حقه أن يستخرج من ذلك كله تشخيصاً يشهد للأمير لا عليه، ويزكيه تزكية تامة...

وقد أحدثت هذه النتيجة في ليبيديف تأثيراً قوياً. وها هو ذا الآن يختم اعترافه للأمير قائلاً: «لن تجدني بعد الآن إلا رجلاً مخلصاً لك، متفانياً في سبيلك، مستعداً لأن يسفح دمه من أجلك، فلنك أقول لك هذا الكلام إنما جئت إليك».

وكان الأمير خلال هذه الأيام الأخيرة مشغولاً كذلك بهيبوليت. كان هيبوليت يستدعيه كثيراً. إن أسرة هيبوليت تسكن في بيت صغير غير بعيد من بيته. فالأولاد (أي أخو هيبوليت وأخته) يتمتعون هنا بلذة الحياة في الريف، وفي وسعهم أن يهربوا من المريض بالنزول إلى الحديقة على الأقل. ولا كذلك أمه، «أرملة الكابتن» المسكينة، فلقد كانت أسيرة إرادته وضحية عسفه وطغيانه. فكان الأمير يقضي وقته في

التوفيق بينهما وردّ الصلح إلى علاقتهما. وقد استمر المريض ينادي الأمير باسم «نونو»، مع عجزه عن منع نفسه من احتقاره لقيامه بدور الوسيط المصالح. وكان غاضبا على كوليا غضبا شديداً، لأن كوليا انقطع عن زيارته انقطاعاً يكاد يكون تاماً، لملازمته أباه حين كان على فراش الموت أولاً، ولملازمته أمه الأرملة بعد ذلك. وقد أخذ هيبوليت يصب مزاحاته أخيراً على زواج الأمير وناستاسيا فيليبوفنا في القريب. فاستاء الأمير وغضب غضباً قوياً وانقطع عن زيارته. وبعد ذلك بيومين جاءت «أرملة الكابتن» في الصباح المبكر ممتلئة العينين بالدموع، جاءت تـرجو الأمير أن يأتي إليهم، وإلا فإن ابنها سيشرب دمها. وأضافت أن هيبوليت يرغب في أن يكشف له عن سر كبير. فأذعن الأمير. فأعرب له هيبوليت عن رغبته في أن يتصالحا، حتى لقد أجهش باكياً وهو يقول ذلك الكلام. ولكن ما إن جفت دموعه حتى عاد أشدّ شراسة مما كان، دون أن يرخي العنان لغضبه مع ذلك. كانت صحته سيئة جداً، وكان كل شيء يدل على أنه لن يلبث أن يموت. ولم يكن لديه أي سر يكشف عنه، ولكن طفق يلح في «تحذير الأمير من رجويين» بانفعال لعله كان مصطنعاً. قال يصف رجويين: «هذا رجل لا يتخلى عما يملك. إنه ليس من طينتنا نحن يا أمير. إذا أراد شيئاً فليس يزعه وازع ولا يردعه رادع، إلخ.» أخذ الأمير يلقي عليه أسئلة مفضلة ليستخرج منه وقائع محددة. ولكن هيبوليت لم يذكر أي دليل غير إحساساته أو انطباعاته الشخصية. وقد أراضاه كثيراً في النهاية أن ألقى في نفس الأمير رعباً شديداً. كان الأمير في البداية يتحاشى الإجابة عن بعض الأسئلة الخاصة التي يلقيها عليه هيبوليت، وكان يقتصر على الابتسام حين يسدي إليه هيبوليت نصائح كهذه النصائح: «اهرب ولو إلى الخارج. سوف تجد في كل مكان كهنة أرثوذكسيين. في وسعك أن تتزوج هناك أيضاً». ولكن هيبوليت خلص بعد برهة إلى هذه الفكرة: «الحق أنني أخشى خاصة على آجلايا إيفانوفنا. إن رجويين يعرف مدى ما تحمل لها من حب. العين بالعين، والسن بالسن، والحب بالحب. لقد انتزعت منه ناستاسيا فيليبوفنا فسيقتل هو آجلايا إيفانوفنا. ورغم أن آجلايا إيفانوفنا لن تمت إليك بسبب بعد اليوم، فسوف يؤلمك مقتلها كثيراً، أليس كذلك؟». حقق هيبوليت هدفه وبلغ مأربه: لقد خرج الأمير من عنده مضطرباً أشدّ الاضطراب.

هذه التحذيرات من رجويين حدثت عشية الزواج. وفي ذلك المساء لقي الأمير ناستاسيا فيليبوفنا آخر لقاء قبل حفلة الزفاف. أصبحت المرأة الشابة لا تستطيع أن تهدئه. إنها في هذه الآونة الأخيرة لا تفلح إلا في مفاقمة اضطرابه. كانت قبل ذلك ببضعة أيام، أثناء خلوة بينهما، قد روعها ما رآته في وجهه من حزن. فبذلت جميع ما تملك من جهود لتفرحه وتبهجه. حتى لقد حاولت أن تسري عنه بالغناء. كانت في

أكثر الأحيان تبحث في ذاكرتها عما يمكن أن يسليه. وكان الأمير يتظاهر في جميع الأوقات تقريباً بأنه يبتهج كثيراً. حتى إنه كان يندفع أحياناً في ضحك صادق تجره إليه قوة الفكاهة وحلاوة النكتة لدى المرأة الشابة حين تقص ما تقصّه متوقدة القريحة، وذلك ما يحدث كثيراً. فكانت إذا رأت ضحكة تُسرّ سروراً عظيماً وتشعر بافتخار واعتزاز بنفسها لأنها استطاعت أن تحدث فيه أثراً طيباً. ولكنها تصبح الآن أشد حزناً وأكثر وجوماً وهما، ساعة بعد ساعة. وكان الأمير قد كَوّن لنفسه رأياً نهائياً فيها، فلولا ذلك لبدا له كل شيء فيها اليوم لغزاً لا سبيل إلى فهمه قطعاً. ولكنه ظل مقتنعاً اقتناعاً قوياً بأنها قد تبعث بعثاً جديداً. لقد كان على حق حين قال لأوجين بافلوفتش إنه يحبها حياً صادقاً عميقاً. والواقع أن حبه هذا كان يشتمل على شيء من اندفاعه الحنان التي يشعر بها المرء نحو طفل ضعيف هزيل مريض يصعب بل يستحيل تركه وشأنه. ولم يشرح الأمر لأحد عواطفه نحوها في يوم من الأيام، وكان يكره أن يتكلم في هذا الموضوع حين يستحيل تحاشيه. وكانا إذا خلا أحدهما إلى الآخر لا يتكلمان في «العواطف»، فكأنهما قد تعاهدا على ذلك؛ وكان جميع الناس يستطيعون أن يشاركوا فيما يجري بينهما من حديث هو في العادة مرح زاخر بالنشاط. لقد روت داريا ألكسيفنا فيما بعد إنها لم تشعر وهي تراهما خلال تلك الأيام إلا بالمسرة والفرح والافتنان.

وكان الرأي الذي قام في ذهن الأمير عن الحالة النفسية والعقلية لناستاسيا فيليبوفنا، يعفي فكره من كثير من أنواع الحيرة والبلبلّة إلى حدّ ما. إنها الآن امرأة مختلفة كل الاختلاف عن التي عرفها منذ نحو ثلاثة أشهر. أصبح لا يدهشه أن يراها تلجّ على استعجال الزفاف بعد أن رفضت في الماضي فكرة الزواج باكية لاعنة شاكية لائمة. إنه يقول لنفسه: «إذن لقد أصبحت لا تخشى أن تسبب لي الشقاء بالزواج كما كانت تخشى ذلك في الماضي». فكانت هذه السرعة في استرداد الثقة بالنفس تبدو له غير طبيعية. إن ناستاسيا فيليبوفنا لم تستمد هذه الثقة من كرهها لآجاليا فحسب، لأنها قادرة على الشعور بعواطف أعمق؛ لا ولا هي استمدتها من خشية الحياة مع روجويين. صحيح أن أمثال هذه العوامل وغيرها يمكن أن يكون لها أثر ووزن؛ ولكن الأمير يرى أن السبب الأوضح في هذا الانقلاب الذي حدث لناستاسيا فيليبوفنا إنما هو السبب الذي اشتبه فيه منذ مدة طويلة: وهو أن هذه النفس المسكينة المريضة لم تستطع أن تتحمل المحنة.

ورغم أن هذا التفسير قد أعفى الأمير من كثير من أنواع الحيرة والبلبلّة، ولو إلى حدّ ما، فإنه لم يوفر له أثناء ذلك الوقت كله شيئاً من راحة أو هدوء... وكان في بعض الأحيان يحاول أن لا يفكر في شيء.. أما الزواج فكان يبدو فعلاً أن الأمير يقبل

عليه إقباله على أمر شكلي لا قيمة له. إن مصير الأمير أهون شأنًا في نظر نفسه من أن يفكر غير هذا التفكير. وأما الاعتراضات والمناقشات التي تشبه تلك التي أثارها أوجين بافلوفتش، فما كان في وسع الأمير أن يجد لها أي جواب، لأنه كان يشعر بأنه عاجز في هذا المضمار كل العجز، لذلك كان يتحاشى أي حديث من هذا النوع.

ثم إنه قد لاحظ إن ناستاسيا فيليبوفنا كانت تعرف حق المعرفة وتدرّك كل الإدراك مكانة أجاليا في نفسه. إنها لا تتكلم في هذا الأمر، لكنه قد قرأ في «وجهها» حين باغتته مراراً (في الأيام الأولى) وهو يتهيأ للذهاب إلى آل إيبانتشين. وحين سافرت أسرة إيبانتشين صفا مزاجها وأشرق محياها. إنه مهما يكن ضعيف الملاحظة قليل الذكاء، قد خطر ببالي إن ناستاسيا فيليبوفنا ربما قررت أن تعتمد إلى القيام بفضيحة بغية أن تحمل أجاليا على ترك بافلوفسك، فأقلقته هذه الفكرة وعذبتة. ولا شك في أن الشائعات التي سرت في الفيلات عن الزواج قد ساهمت ناستاسيا فيليبوفنا في ترويجها من أجل أن تحنق غريمتها. وإذا كان من الصعب لقاء آل إيبانتشين فقد أركبت الأمير في عربتها ذات يوم، وأمرت الحوذي بأن يمرّ بهما تحت نوافذ بيتهم. فكان هذا مفاجأة للأمير رهيبة. لقد أحسّ ذلك بعد فوات الأوان، كالعادة، أي بعد أن تجاوزت المركبة المنزل. ولم يقل شيئاً، ولكنه بعد ذلك الحادث لبث مريضاً يومين، وقد حاذرت ناستاسيا فيليبوفنا أن تكرر التجربة. وخلال الأيام التي سبقت الزواج أصبحت كثيرة الوجوم والتفكير. صحيح أنها كانت تفلح دائماً في نفث حزنها واسترداد مرحها، لكن هذا المرح غداً أكثر رصانة وأقلّ تعبيراً عن نفسه وأضالّ إشعاعاً وإشراقاً. وضاعف الأمير اهتمامه بها ورعايته لها. وقد حيرّه أنه أصبح لا يسمعها تأتي على ذكر روجويين في لحظة من اللحظات. مرةً واحدة، قبل الزواج بنحو خمسة أيام، أرسلت إليه داريا ألكسيفنا من يقول له أن يأتي فوراً لأن حالة ناستاسيا فيليبوفنا سيئة جداً. فلما وصل وجدها في حالة تشبه الجنون: كانت تصرخ وترتجف وتصيح قائلة إن روجويين مختبئ في الحديقة المجاورة للفيلا، وإنها رآته منذ هنيهة، وإنه سيقتلها في الليل... سيقتلها بالسكين! ثم لم تسترد هدوءها طوال النهار. ولكن الأمير علم من «أرملة الكابتن» التي كانت عائدة من بطرسبرج بعد أن قامت فيها ببعض الأعمال الصغيرة، علم منها حين مضى يزور هيبوليت لحظة، أن روجويين قد زارها ببطرسبرج وسألها عن بافلوفسك. فلما سألها عن الوقت الذي زارها فيه روجويين حددت له ساعة هي على وجه التقريب الساعة التي خيل لناستاسيا فيليبوفنا فيها أنها ترى روجويين في الحديقة. فما من شك إذن في أن المرأة الشابة كانت رأت سراً لا أكثر!... وحين ذهبت ناستاسيا فيليبوفنا بنفسها إلى «أرملة الكابتن» لتسألها مزيداً من التفاصيل،

حصلت منها على وقائع مطمئنة إلى أبعد الحدود.

في عشية يوم الزواج ترك الأمير ناستاسيا فيليبوفنا وهي على أحسن حال من الحماسة الشديدة: كانت قد تلقت من خياطتها ببطرسبرج ما ستتزين به غداً في حفلة الزفاف، وهو ثوب العرس، وطريحة الرأس وما إلى ذلك. ولم يكن الأمير يتوقع أن يراها تتحمس لزينتها هذا التحمس كله. وقد أطرى كل ما اشتملت عليه هذه الزينة، فازدادت سعادة المرأة الشابة. لكنها لم تفلح في إخفاء ما كان يدور في ذهنها: كانت قد سمعت إن سكان بافلوفسك مستأثرون وإن عدداً من الخليعين يهيئون لها زينة تصاحبها موسيقى مع سماع قصيدة من الشعر نظمت لهذه المناسبة. وكانت هذه الإعدادات كلها قد أيدها باقي الناس وحبذوها. ومن أجل هذا بعينه إنما كانت تريد أن ترفع رأسها وأن تبهر المملأ كافة بما في زينتها من ذوق وأبهة وفخامة. «فليصرخوا، وليصفروا، إذا تجرؤوا!!". كانت عيناها تقدح شرراً من مجرد خطور هذه الفكرة ببالتها. وكانت عدا ذلك تمنى نفسها بأمل تتحاشى أن تفصح عنه. كانت تتصور أن أجاليا، أو شخصاً ترسله أجاليا، سيكون مع الحفل في الكنيسة متخفياً يفحصها. ومن ثم كانت تتأهب ذلك التأهب كله.

تلکم هي الخواطر التي كانت تملأ رأسها في الساعة الحادية عشرة من المساء، حين تركها الأمير. ولكن لم تكن الساعة قد بلغت الثانية عشرة حين هرع من عند داريا ألكسيفنا من يدعو الأمير أن يجيء بأقصى سرعة لأن الحالة سيئة جداً. فوجد الأمير خطيبته غارقة في دموعها. كانت قد أوصدت على نفسها الباب، واستولى عليها يأس شديد واعترتها نوبة عصبية قوية. حتى لقد لبثت مدة طويلة لا تسمع شيئاً مما كان يقال لها من خلال الباب الموصد. وفتحت أخيراً، ولم تدع لأحد غير الأمير أن يدخل، وأسرعت تغلق الباب ثانية على الفور، ثم سقطت جاثية على ركبتها أمام الأمير. (تلکم هي على الأقل الرواية التي أوردتها فيما بعد داريا ألكسيفنا التي استطاعت أن تلمح جزءاً من المشهد).

كانت ناستاسيا فيليبوفنا تصيح قائلة وهي تقبل قدميه في تشنج:

— ما هذا الذي أصنعه بك؟ ما هذا الذي أصنعه بك؟

بقي الأمير إلى جانبها ساعة كاملة. إننا نجهل ما تبادلاه من كلام. ولكن داريا ألكسيفنا روت أنهما قد افترقا في نهاية تلك الساعة هادئين سعيدين، وأن الأمير أرسل من يسأل عن أنباء خطيبته مرة أخرى في الليل، غير أن ناستاسيا فيليبوفنا كانت قد نامت. وفي الصباح، قبل أن تستيقظ، جاء إلى داريا ألكسيفنا من عند الأمير رسولان

آخران. وأعقبهما ثالث كلف بأن ينقل إلى الأمير ما يلي: «إن ناستاسيا فيليوفنا محاطة الآن بحشد من الخياطات والمزينين وفدوا من بطرسبرج خصيصاً، وأنها قد برئت من النوبة التي اعترتها في الليلة البارحة، وأنها مشغولة بزينتها كما تُشغل بزينتها لزواجها امرأة جميلة هذا الجمال، وأنها في هذه اللحظة بعينها عاقدة اجتماعاً للتشاور فيما يجب أن تختاره لزينتها من جواهر الماس، وفيما يجب أن تتبعه من أسلوب في تصفيف هذه الجواهر عليها وترتيبها». فاطمأن الأمير كل الاطمئنان.

إن كل ما سيلي سرده من تنمة قصة الزواج هذه إنما نقله أشخاص مطلعون. ويبدو أن ما ذكره صحيح. قالوا:

كان يجب أن يتم الزفاف في الساعة الثامنة من المساء. وقد أكملت ناستاسيا فيليوفنا استعدادها منذ الساعة السابعة. وكانت أفواج من العاطلين المتسكعين قد أخذت تتجمع حول فيلا ليبيديف ثم قرب منزل داريا ألكسيفنا منذ الساعة السادسة. وحوالي الساعة السابعة أخذت تمتلئ الكنيسة أيضاً. إن مخاوف شديدة قد استولت على فيرا ليبيديفا وعلى كوليا. إنهما خائفتان على الأمير. غير أن هناك أعمالاً كثيرة يجب أن ينجزها في البيت. فقد كُلفا بترتيب شقة الأمير استعداداً للاستقبال والمأدبة، رغم أنه ليس مقرراً أن تقام حفلة بمعنى الكلمة بعد الاحتفال الديني في الكنيسة. كان ليبيديف قد دعا، عدا الأشخاص الذين كان حضورهم الزواج أمراً لا بد منه، كان قد دعا بتتسين وزوجته، وجانيا، والطبيب الذي يحمل وسام القديسة حنة، وداريا ألكسيفنا. وحين استغرب الأمير دعوة الطبيب فسأل ليبيديف عن السبب الذي حمله على دعوته أجاب هذا معجباً بنفسه راضياً عن تصرفه: «وسام في العنق، شخصية محترمة، زينة للحفلة»، فضحك الأمير.

وقد ارتدى كل من كيللر وبوردوفسكي رداء «فراك»، فكان مظهرهما لائقاً جداً. إن كيللر وحده ما يزال يوقظ في نفس الأمير والذين حوله شيئاً من الخشية، لما يتصف به مزاجه من حب للعراك ظاهر. وكان كيللر ينظر بكثير من العداء إلى المتسكعين الذين كانوا يتجمعون حول المنزل.

وأخيراً، في الساعة السابعة والنصف، مضى الأمير في عربة إلى الكنيسة. يجب أن نذكر في هذه المناسبة أنه كان قد حرص على أن لا يهمل أي عادة من العادات التقليدية. كان كل شيء يتم على مرأى من الجميع «بالطريقة اللازمة». استطاع الأمير أن يشق لنفسه ممراً في الجمهور المزدحم، وسط وشوشات وهمسات وصيحات تعجب متكررة. كان يسير أمامه كيللر، ملقياً نظرات تهديد على يمينه وعلى شماله.

وانسحب الأمير إلى ما وراء الهيكل مؤقتاً، ومضى الملاك ليحيى بالعروس. فلما صار هذا أمام بيت داريا ألكسيفنا رأى جمهوراً أكثف مرتين أو ثلاثاً وربما أوقح مرتين أو ثلاثاً من الجمهور الذي كان يربط حول فيلا الأمير. وحين صعد درجات المدخل سمع صيحات من نوع جعله لا يستطيع أن يكظم غيظه فأوشك أن يوجه إلى الجمهور تقريراً مناسباً، لولا أن صدّه عن ذلك، لحسن الحظ، بوردوفسكي وداريا ألكسيفنا نفسها التي كانت قد هرعت تستقبله على درجات المدخل. أمسك به الاثنان واقتاده إلى داخل المنزل. وكان مهتاجاً احتياجاً شديداً، فاستعجل الذهاب، فقامت ناستاسيا فيليبوفنا، وألقت على المرأة نظرة أخيرة فلاحظت وقد تقلصت شفتاها في «ضحكة»، أنها كانت «صفراء كميّة». ثم انحنى أمام الأيقونة في تقى وورع، وخرجت فصارت على درجات الباب. فحيا الجمهور ظهورها بضوضاء. الحق أن ما سُمع في أول الأمر كان ضحكاً وتصفيقاً ساخراً وربما صغيراً. ولكن صيحات أخرى انطلقت بعد لحظة:

– ما أجملها امرأة!

– ما هي بالأولى ولا بالأخيرة!

– الزواج يستر كل شيء، يا حمقى!

– هاتوا جمالا كهذا الجمال إن استطعتم. مرحى!

بهذا الكلام الأخير كان يصيح القريبون منها.

وهتف موظف من موظفي المكاتب يقول:

– أميرة! ألا إنني مستعد لأن أبيع نفسي في سبيل أميرة كهذه الأميرة!

– أبيع حياتي بليلة واحدة!...^[50]

تقدمت ناستاسيا فيليبوفنا. كان وجهها شاحبا شحوبا رهيبا، لكن عينيها ترميان الفضوليين بنظرات محرقة كأنها الجمر. لم يستطع الجمهور أن يحتمل هذه النظرات. وحلت محل الاستياء صيحات حماسة. وكان باب العربة مفتوحاً، وكان كيلر مدّ ذراعه إلى العروس ليساعدها في الركوب، فإذا بالعروس تطلق صرخة على حين فجأة، وتبارح درجات المدخل، وتمضي تقتحم الجمهور قُدماً. تجمد الموكب ذهولاً. وابتعد الناس من أمامها. وظهر روجويين بغتة على مسافة خمس خطوات أو ست من درجات المدخل. لقد لمحت ناستاسيا فيليبوفنا نظرتة بين هذا الحشد الكبير كله. فركضت إليه كالمجنونة وأمسكت يديه وقالت له:

- أنقذني! خذني! خذني إلى حيث تشاء! حالاً!...

فاختطفها روجويين حاملاً إياها بذراعيه تقريباً، وطار بها نحو عربتها طيراناً إن صح التعبير. وفي مثل لمح البصر سرعة، أخرج من محفظته ورقة مائة روبل ومدّها إلى الحوذي قائلاً له:

- إلى المحطة! فإذا وصلت قبل سفر القطار نقدتك مائة روبل أخرى!

وقفز إلى العربة قرب ناستاسيا فيليبوفنا، وأغلق باب العربة.

وبدون أي تردد، ضرب الحوذي الخيل بسوطه فجرت العربة سريعة.

فيما بعد، حين روى كيلر الحادث اعتذر عن أنه دُهل عن نفسه وأمكن أن يؤخذ بغتة، وقال: «لو أمهلت ثانية واحدة، لعدت إلى صوابي، ولما سمحت بأن يقع ما وقع!». وقد أوشك هو وبوردوفسكي أن يركبا عربة أخرى كانت واقفة هناك، ليندفعا في ملاحقة الهاربين، ولكنهما لم يلبثا أن عدلا عن ذلك، بحجة أنه «قد فات الأوان، ولا مجال لإعادة بالقوة».

قال بوردوفسكي يحسم الأمر مضطرباً كل الاضطراب:

- ثم إن الأمير لن يريدها بعد الآن!

وصل روجويين وناستاسيا فيليبوفنا إلى المحطة في الوقت المناسب. وبعد أن نزلا من العربة، في اللحظة التي هما فيها أن يركبا القطار استوقف روجويين بسرعة فتاة كانت مارة وكانت تضع على رأسها منديلاً وترتدي خماراً قاتم اللون بالياً بعض البلى لكنه ما يزال لائقاً، وقال لها وهو يمد إليها خمسين روبلاً:

- هل تبيعين خمارك هذا بخمسين روبلاً؟

وقبل أن تفيق من ذهولها وتفهم ماذا يُراد منها، كان روجويين قد دس المال في يديها ونضا الخمار والمنديل عن كتفيها ورأسها وألقاهما على كتفي ناستاسيا ورأسها. فلولا أن فعل روجويين هذا لكان من شأن الثياب الفخمة التي كانت ترتديها ناستاسيا فيليبوفنا أن تلفت الأنظار في المحطة وأن تحدث بلبلة. ولم تفهم الفتاة السبب الذي حمل هذا الرجل على أن يشتري منها بهذا الثمن الباهظ خرقاً لا قيمة لها، إلا فيما بعد.

وصلت أنباء الحادثة إلى الكنيسة بسرعة لا يصدقها العقل. فحين شق كيلر لنفسه ممراً إلى الأمير استوقفه عدد كبير من الناس الذين لا يعرفهم البتة، استوقفوه ليسألوه

عما حدث. كانوا يتكلمون بصوت عال، ويهزون رؤوسهم بل ويضحكون. ولم يشأ أحد أن يخرج من الكنيسة. كانوا جميعاً يريدون أن يروا كيف سيستقبل الخطيب النبأ.

أصغى الأمير، ولكنه استقبل النبأ بهدوء، قائلاً بصوت لا يكاد يُسمع: «كنت خائفاً، ولكنني لم أكن أتوقع هذا مع ذلك...»، ثم أضاف يقول بعد لحظة صمت: «على كل حال.. إذا نظرنا إلى حالتها كان ذلك كله طبيعياً لا غرابة فيه...». إن كيللر سيصف هذه النتيجة التي خلص إليها الأمير بأنها «فلسفة لا نظير لها».

غادر الأمير الكنيسة دون أن يخرج عن هدوئه ورباطة جأشه: إن كثيراً من الناس على الأقل قد لاحظوا ذلك وعلقوا بعدئذ عليه. وكان يبدو على الأمير أنه يرغب رغبة قوية في العودة إلى بيته والخلو إلى نفسه بأقصى سرعة ممكنة. ولكنه لم يُمكن من ذلك. إن كثيراً من المدعوين قد تبعوه إلى غرفته، فمن هؤلاء بتتسين وجبريل آرداليونوفتش والطبيب الذي نوى مثل غيره أن لا يذهب. يضاف إلى ذلك أن المنزل كله قد هاجمه المتسكعون يريدون اقتحامه فعلاً. ها هو ذا الأمير يسمع كيللر وليبيديف في مناقشة حامية حادة مع أشخاص مجهولين تماماً يريدون غزو الشرفة عنوةً. إن هيناتهم تدل على أنهم من الموظفين في دوائر الدولة. اقترب الأمير وسأل عن الأمر، ثم أبعد ليبيديف وكيللر برفق وأدب، وتكلم بلهجة ملؤها الكياسة والتعذيب، متجهاً إلى سيد من المتجمهرين سمين الجسم شائب الشعر كان قد صعد درجات سلم المدخل على رأس مجموعة من الغزاة المحتلين، فرجاه أن يشرفه بزيارته. فخجل الرجل ولكنه قبل الدعوة، وجاءه بعده ثان فثالث. وانفصل عن الجمهور سبعة أفراد آخرين أو ثمانية، فدخلوا كذلك وهم يحاولون أن يصطنعوا هيئة عدم التخرج. ولم يقتد بهم الآخرون. وما لبث المتسكعون أن سُمعوا يلومون أولئك الدخلاء.

قدّمت للقادمين الجدد مقاعد يجلسون عليها، وبدأ الحديث، وصُب الشاي. وحدث ذلك كله بتواضع وبشاشة، ولكن بطريقة لائقة جداً، فلم يملك هؤلاء الضيوف الطارئون إلا أن يدهشوا. وقد قامت محاولات عدة لجعل الحديث مرحاً، ولتوجيهه نحو الموضوع «المنشود»، وألقيت أسئلة فيها شيء من عدم التحفظ، وقيلت ملاحظات فيها شيء من «خبث ومكر»، فكان الأمير يجيب جميع الناس ببساطة كبيرة وطيبة عظيمة، وكانت أجوبته في الوقت نفسه تشتمل على وقار وعلى ثقة بحسن نية سامعيه فلم تلبث الأسئلة الناشزة أن اختفت من تلقاء ذاتها. وشيئاً فشيئاً أخذ الحديث يدور على أمور هامة. فما هو ذا واحد كثير الكلام منهم، ينتهز فرصة كلمة قيلت فيحلف فجأة باستياء شديد، أنه لن يبيع أرضه في يوم من الأيام مهما يحدث من أمر، وأنه سيصبر وسيصمد

إلى النهاية، وأن «كل استثمار خير من أي مال»، «ذلك هو مذهبي الاقتصادي يا سيدي إن شئت أن تعرفه». وإذ كان يخاطب بكلامه الأمير فقد أیده هذا بحرارة، دون أن يعبأ بليبيديف الذي كان يهمس في أذنه أن هذا السيد لا يملك مالاً ولا عقاراً، وأنه لم يملك أرضاً في يوم من الأيام قط.

انقضى ما يقرب من ساعة. كان الضيوف قد فرغوا من احتساء الشاي، وصاروا يشعرون بحرج من البقاء مدة أطول. وجّه الطبيب والرجل الشائب إلى الأمير كلمات وداع مؤثرة. واستأذن الباقون بالانصراف وودّعوه بحرارة وصخب، وأعربوا له عن تمنيات وآراء من النوع التالي: «ليس لك أن تحزن، عسى أن تکرهوا شيئاً وهو خير لكم، إلخ إلخ». صحيح أنه وُجد بينهم أناس تجرأوا فطلبوا شمبانيا، ولكن سرعان ما ردّهم إلى الصواب وذكرهم بقواعد الكياسة أولئك الذين كانوا أكبر سناً منهم.

حتى إذا انصرف الجميع مال كيللر على ليبيديف وقال له:

– لو ترك الأمر لنا نحن، أنا وأنت، لصرخنا وشتمنا، وخضنا معركة، وجللنا أنفسنا بالخزي والعار، وجاءتنا الشرطة. أما هو فإنه لم يلبث أن كسب أصدقاء جدداً، ويا لهم من أصدقاء! إنني أعرفهم!

فقال ليبيديف متنهدا وكان قد سكر:

– إن ما أخفي عن الحكماء والأذكياء قد كُشف عنه للأطفال. ذلك قول أدركت منذ مدة طويلة أنه يصدق عليه، ولكنني أضيف إليه الآن أن الله وجميع القديسين قد حموا الطفل نفسه في هذه المرة وأنقذوه من الهوة!

وفى نحو الساعة العاشرة والنصف ترك الأمير ليخلو إلى نفسه أخيراً. انصرف كوتليا آخر المنصرفين، بعد أن ساعد الأمير في خلع ملابسه، ملابس العريس. وافترقا بوداع حار. لم يتلبث كوتليا على الحادث الذي وقع في ذلك اليوم، لكنه وعد بأن يعود في ساعة مبكرة من صباح الغد. وقد أكّد فيما بعد إن الأمير لم ينبئه بشيء، وإنه تركه جاهلاً بنياته حين ودّعه. وما انقضت برهة قصيرة حتى كاد يخلو البيت خلواً تاماً: ذهب بوردوفسكي إلى عند هيبوليت، ومضى كيللر وليبيديف لا يدري أحد إلى أين. ولم يبق غير فيرا ليبيديفا التي أخذت تعيد إلى البيت ترتيبته المألوف. وقبل أن تنصرف، مضت تنظر ماذا يفعل الأمير. فرآته جالساً إلى مائدته، مسنداً عليها كوعيه، مخفياً رأسه بيديه. فاقتربت منه برفق، ولمست كتفه. فنظر إليها مستغرباً، ولم يستطع أن يجمع شتات ذكرياته إلا بعد قرابة دقيقة. فلما ثاب إلى نفسه وفهم كل شيء، ظهر

عليه انفعال مفاجئ حاد. ورجاها أخيراً، بإلحاح شديد، أن تجيء فتقرع بابه صباح غد في الساعة السابعة، موعد أول قطار، فوعده الفتاة بأن تفعل. فاستحلفها عندئذ أن لا تكلم في هذا الأمر أحداً، فوعده أيضاً. وأخيراً، حين فتحت الباب وهمّت أن تنصرف، احتجزها مرة ثالثة، وتناول يديها فقبلهما ثم قبلها هي نفسها على جبينها وقال لها بلهجة غير مألوقة: «إلى الغد!». ذلك هو على الأقل ما روته فيرا. وقد خرجت من عنده خائفة عليه خوفاً شديداً. ولكنها اطمأنت في الغد بعض الاطمئنان حين جاءت تقرع بابه بعد السابعة قليلاً لتنبهه إلى أن قطار بطرسبرج سيسافر بعد ربع ساعة، كما اتفقا على ذلك، فبدا لها وهي تفتح الباب أنه مرتاح بل وأنه يبتسم. إنه لم يكد يخلع ثيابه للنوم، ولكنه نام مع ذلك.

قال إنه يقدر أن يعود في هذا اليوم نفسه. إن كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن فيرا هي الشخص الوحيد الذي رأى الأمير أن من الممكن ومن الضروري أن يطلعه على أنه ينوي السفر إلى بطرسبرج.

الفصل الحادي عشر

بعد ساعة كان الأمير قد وصل إلى بطرسبرج؛ وبين الساعة التاسعة والساعة العاشرة كان يقرع جرس منزل روجويين. لقد دخل من الباب الرئيسي، وانقضت برهة طويلة قبل أن يجيبه أحد. وأخيراً شُقَّ باب بيت العجوز، أم روجويين، وظهرت خادم مسنة مهيبية المنظر، فقالت دون أن تفتح الباب فتحاً كاملاً:

- ليس بارفيون سيمونوفتش في بيته. من ذا تريد؟
- بارفيون سيمونوفتش.
- ليس في البيت.
- وتفُرسّت الخادم في الأمير باستطلاع غريب.
- هل تستطيعين أن تقولي لي على الأقل أهو قضى الليلة هنا أم لا؟ ... هل عاد أمس وحده؟
- ظلت الخادم تحدد إلى، ولم تجب بشيء.
- هل كانت ناستاسيا فيليبوفنا معه هنا أمس.. أمس مساء؟...
- ولكن اسمح لي على الأقل أن أسألك أولاً من أنت؟
- الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين. أعرف بارفيون ويعرفني.
- ما هو في البيت.
- وخفضت الخادم عينيها.
- وناستاسيا فيليبوفنا؟
- لا أدري.
- انتظري. اسمعي! متى يعود؟
- لا أدري أيضاً.

وأغلق الباب. قرر الأمير أن يرجع بعد ساعة. ألقى نظرة على فناء المنزل، والتقى بالبواب.

- هل بارفيون سيمونوفتش في بيته؟

- نعم.

- فكيف قيل لي منذ لحظة إنه غائب؟

- قيل لك ذلك في شقته؟

- لا. إن خادمة أمه هي التي قالت لي ذلك. ولكنني قرعت باب بارفيون سيمونوفتش أيضاً فلم يفتح لي أحد.

قال البواب:

- جائز أن يكون قد خرج. فهو لا ينبى أحداً بغيابه حين يغيب. حتى لقد يخرج بالمفتاح أحياناً. فتبقى الشقة مغلقة ثلاثة أيام متتالية.

- أأنت واثق أنه عاد أمس إلى بيته؟

- نعم. يحدث أحياناً أن يدخل من السلم الكبير فلا أراه.

- هل كانت ناستاسيا فيليبوفنا أمس معه؟

- لا أدري. إنها لا تجيء إلا في النادر القليل. فلو أنها جاءت لكان من الجائز أن نلاحظ ذلك.

خرج الأمير، وراح يذرع الرصيف متحيراً. إن نوافذ شقة روجويين مغلقة كلها، وإن نوافذ الشقة التي تشغلها أمه مفتوحة كلها تقريباً. النهار مضيء دافئ. عبر الأمير الشارع ووقف على الرصيف المقابل ينظر إلى زجاج النوافذ مرة أخرى. لم تكن النوافذ مغلقة فحسب، بل كانت الستائر البيضاء مسدلة جميعها تقريباً.

لبث هنالك قرابة دقيقة. شيء غريب: خيل إليه أنه يرى أسفل إحدى الستائر يرتفع فيظهر وراءه وجه روجويين ثم ما يلبث أن يغيب. انتظر الأمير قليلاً، وهم أن يصعد وأن يقرع جرس الباب من جديد، لكنه عدل عن رأيه وقرر أن يعود بعد ساعة. «من يدري؟ لعل ذلك لم يكن إلا وهماً...؟».

إن الأمر الأساسي في نظره الآن هو أن يسرع إلى حي اسماعيلوفسكي، إلى آخر

عنوان لناستاسيا فيليبوفنا. إنه يعلم أن ناستاسيا فيليبوفنا، حين رجاها أن تترك بافلوفسك قبل ثلاثة أسابيع، قد نزلت في هذا الحي عند إحدى صديقاتها، وهي أرملة معلم مدرسة. إن هذه المرأة ربة أسرة محترمة، تؤجر شقة مفروشة جميلة وتجنّي من كرائها القسط الأكبر من رزقها. فمن الجائز أن تكون ناستاسيا فيليبوفنا حين عادت تقيم في بافلوفسك قد احتفظت لنفسها بذلك المسكن. ومن الجائز خاصة أن تكون قد قضت ليلتها فيها بعد أن صاحبها روجويين إليها في أغلب الظن. ركب الأمير عربة. وحدث نفسه أثناء الطريق بأنه كان ينبغي له أن يبدأ تحرياته هناك، إذ ليس محتملاً أن تكون المرأة الشابة قد ذهبت إلى منزل روجويين في الليل رأساً. وتذكر عندئذ أن البواب قال إنها في الأوقات العادية لا تجيء إلا نادراً، فلماذا يجب أن تكون الآن عنده؟ ولكن الأمير، رغم جميع هذه الاستدلالات المعزية المشجعة التي حاول بها أن يقوي نفسه، قد وصل إلى حي اسماعيلوفسكي وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

وهناك أذهله أن يعلم أن أرملة معلم المدرسة لم يبلغها شيء من أنباء ناستاسيا فيليبوفنا، لا اليوم ولا أمس. أكثر من ذلك: لقد هرعت الأسرة كلها لتراه كأنه إنسان عجيب، فجميع الأولاد، وهم بناتٌ تقع أعمارهن بين السابعة والخامسة عشرة، ولا يفصل بين واحدة وواحدة منهن في العمر إلا سنة واحدة قد جئن في إثر أمهن وأحطن بالأمير ينظرن إليه فاغرات الأفواه من الدهشة. وبعدهن جاءت خالة نحيلة صفراء، تضع على رأسها منديلاً أسود، ثم جاءت جدة الأسرة وهي سيدة طاعنة في السن جداً على عينيها نظارتان.

ألحّت أرملة معلم المدرسة على الأمير راجية منه أن يدخل وأن يجلس. ففعل. وأدرك فوراً أن جميع هؤلاء الأشخاص يعرفونه معرفة تامة، ويعلمون أنه كان يجب أن يتزوج أمس. وأدرك أنهم يحترقون رغبة في سؤاله عن ذلك الزواج، وعن المعجزة التي وقعت فجعلته يجيء إليهن ليسألهن عن امرأة كان ينبغي في هذه اللحظة أن تكون معه في بافلوفسك، ولكنهن يمتنعن عن سؤاله ذوقاً وأدباً.

وقد أَرْضَى شوقهن إلى الاطلاع ببضع كلمات قالها لهن عن ذلك الزواج. فكان من شأن صيحات الدهشة والاستغراب والتعجب التي رحن يطلقنها أنه اضطر أن يروي لهن الخطوط الكبرى من كل ما حدث. واستقر رأي هذا المجلس من السيدات المليئات بالحكمة والعاطفة على أن عليه، مهما كلف الأمر وقبل كل شيء، أن يذهب مرة أخرى إلى منزل روجويين فما يزال يقرع الجرس حتى يفتح له فيحصل من روجويين على

جميع الإيضاحات. فإذا كان روجويين غائباً بالفعل (وهذا ما يجب التأكد منه) أو إذا هو رفض أن يتكلم، كان على الأمير عندئذ أن يذهب إلى حي سيمونوفسكي، فيمضي هنالك إلى بيت سيدة ألمانية تعيش عند أمها وهي صديقة لنانستاسيا فيليبوفنا؛ فلعل الهاربة، وقد عصفت بها الانفعال وأرادت أن تختبئ عن أعين الناس، قد ذهبت تبيت عند هاتين السيدتين.

كان الأمير مهتماً حين نهض، وكان «شاحباً شحوباً رهيباً» كما ذكرت هاته السيدات فيما بعد. كانت ساقاه تلتويان تحته. واستطاع أن يفهم أخيراً من خلال كلامهن الكثير أنهن يعرضن عليه أن يساعدنه في البحث، وأنهن يسألنه عن عنوانه بالمدينة. وإذا لم يكن له بالمدينة عنوان فقد نصحنه بأن يستأجر غرفة في فندق. ففكر الأمير لحظة ثم ذكر لهن عنوان الفندق الذي سبق أن سكنه وأصيب فيه بنوبة.

ومضى متجهاً إلى منزل روجويين.

في هذه المرة أيضاً لم يُفتح له الباب، حتى إن باب مسكن العجوز ظل مغلقاً كذلك. نزل الأمير إلى الفناء وأخذ يبحث عن البواب إلى أن عثر عليه بعد عناء. كان البواب منصرفاً إلى عمله فنظر إليه بغير اكتراث ولم يكده يجيبه عن أسئلته، غير أنه أفهمه على نحو قاطع أن بارفيون سيمونوفتش قد «سافر في الصباح المبكر إلى بافلوفسك وأنه قد لا يرجع منها طوال النهار».

قال الأمير:

— سأنتظر. أتراه يعود في المساء؟

— قد لا يعود قبل أسبوع. من يدري؟

— لكنه قضى الليلة هنا على كل حال، أليس كذلك؟

— هذا... نعم!..

ذلك كله مشبوه غامض. جائز جداً أن يكون البواب قد تلقى في هذه الفترة أوامر جديدة. كان منذ قليل كثير الكلام، وهو الآن لا يكاد يفتح فمه. مع هذا قرر الأمير أن يعود مرة أخرى بعد ساعتين، وأن يربط أمام المنزل إذا اقتضى الأمر ذلك. أما الآن فلا يزال عليه أن يذهب إلى الألمانية يسألها فعسى أن يعرف منها شيئاً. وها هو ذا يسرع إلى حي سيمونوفسكي.

ولكنه لم يفلح هنالك حتى في أن يفهم الألمانية شيئاً. وأدرك من بضع كلمات

أفلتت منها أنها قد حدث شقاق بينها وبين ناستاسيا فيليبوفنا قبل خمسة عشر يوماً، فلم يمكنها أن تعرف عنها شيئاً منذ ذلك الحين؛ وهي تعلن الآن جهاراً أنها أصبحت لا تهتم بها أي اهتمام، «ولو تزوجت جميع أمراء العالم».

أسرع الأمير يودعها. وخطر بباله أن من الجائز أن تكون المرأة الشابة قد سافرت إلى موسكو، كما فعلت ذلك من قبل، وأن يكون روجويين قد تبعها، هذا إذا لم يكن قد صاحبها. «ليتنا نستطيع على الأقل أن نهتدي إلى أي أثر...».

وتذكر أثناء ذلك أن عليه أن يحجز غرفة في فندق. فأسرع إلى شارع ليتانيايا. فحُجزت له غرفة على الفور. وسأله خادم الطابق هل يريد أن يصيب وجبة خفيفة. فإذا هو من ذهوله يجيبه قائلاً «نعم»، ولكنه ما إن ثاب إليه وعيه حتى غضب من نفسه غضباً شديداً، لأنه بتناول هذه الوجبة قد ضيّع نصف ساعة سدى؛ ولم يدرك إلا فيما بعد أنه ما من شيء كان يجبره على أن يتناول الطعام الذي جاء به الخادم. وقد شعر وهو يتنفس الهواء الخانق في ذلك الممر المظلم أن إحساساً غريباً مقلقاً يغزو نفسه ويجنح إلى أن يصير فكرة. ولكن الأمير لم يستطع أن يتبين تلك الفكرة. وخرج من الفندق وهو فريسة اضطراب عميق وبلبل شديدة. كان رأسه يدور. إلى أين يجب أن يذهب؟ وأسرع مرة أخرى إلى منزل روجويين.

لم يكن روجويين قد عاد. قرع الأمير جرس الشقة مدة طويلة، فلم يجب أحد. فقرع عندئذ جرس شقة العجوز. ففتح الباب، وقيل له مرة أخرى إن بارفيون سيميونوفتش غائب، وإنه قد لا يرجع إلا بعد ثلاثة أيام. وشعر الأمير بحرج وضيق لأنه لاحظ أن النظرة إليه تشتمل على استطلاع غريب غير مألوف. وظل البواب في هذه المرة مختفياً لا سبيل إلى العثور عليه.

انتقل الأمير إلى الرصيف المقابل كما فعل في المرة الماضية، وأخذ يذرعه مدة نصف ساعة أو أكثر، في ذلك الحر الخانق، مثبتاً نظره على النوافذ. لم يتحرك في هذه المرة شيء: بقيت النوافذ مغلقة، والستائر البيضاء ساكنة. اقتنع الأمير اقتناعاً حاسماً بأنه قد توهم في المرة الأولى توهماً. ثم إن الزجاج متسخ اتساخاً شديداً، ولم يغسل منذ مدة طويلة، فلا يمكن أن يرى أحد من ورائه شيئاً، هذا إذا كان وراءه أحد.

اشتدت عزيمة الأمير بهذه الفكرة، فعاد إلى بيت أرملة معلم المدرسة في حي اسماعيلوفسكي. وكن ينتظره هناك. لقد ذهبت هذه السيدة إلى ثلاثة أماكن أو أربعة، ذهبت حتى إلى منزل روجويين، ولكنها لم تظفر بأي نتيجة. أصغى الأمير إلى كلامها صامتاً، ودخل إلى الغرفة، وجلس على الأريكة، وأخذ ينظر فيما حوله نظرة من لا يفهم

ماذا يقال له. هناك ظاهرة غريبة: إن ملكة الملاحظة عنده تكون تارة مشحودة شحناً قوياً، وتكون تارة أخرى ذاهلة ذهولاً شديداً لا يُصدق. لقد أكدت الأسرة كلها فيما بعد إن الأمير أدهشها يومئذ بغرابة حالته. «لعل اختلاله العقلي قد أخذ يظهر منذ ذلك الوقت». ونهض أخيراً، وطلب أن يرى الغرف التي كانت تشغلها ناستاسيا فيليبوفنا. هما حجرتان عاليتان مضيئتان، مؤثنتان تأثيثاً جميلاً، فلا شك أنها كانت تدفع كراءهما غالياً. وقد روت سيدات هذا البيت فيما بعد أن الأمير أنعم النظر في كل شيء من الأشياء التي رآها في الشقة. فلما لمح على منضدة صغيرة رواية فرنسية هي رواية «مدام بوفاري» التي كانت ناستاسيا فيليبوفنا قد استعارتها من قاعة مطالعة ثنى زاوية الصفحة التي كان الكتاب مفتوحاً عليها، واستأذن في أن يأخذ الكتاب، ثم وضعه في جيبه رغم أنه قيل له إن الكتاب مستعار. وجلس قرب نافذة مفتوحة. فلما رأى على مائدة لعب أرقاماً مدونة بالطباشير سأل عمن كان يلعب هنا. فأجيب بأن ناستاسيا فيليبوفنا كان تلعب مرة كل مساء مع روجويين. فهما يلعبان تارة لعبة «المعتوه»، وتارة لعبة «الويست»، وتارة لعبة «الشبيه»، أي كانا يلعبان كل اللعب، وهما إنما ألغا هذه العادة في الآونة الأخيرة، بعد مغادرة ناستاسيا فيليبوفنا ضاحية بافلوفسك للإقامة ببطرسبرج. لقد شكلت ناستاسيا فيليبوفنا مرةً من السأم لأن روجويين كان يقضي سهرات كاملة دون أن يقول كلمة واحدة، فليس عنده موضوع يدير عليه الحديث، وكان هي تبكي في كثير من الأحيان. فلما جاء في الغد استل من جيبه ورق لعب فجأة، فانطلقت ناستاسيا فيليبوفنا تضحك، وأخذا يلعبان. سأل الأمير أين الورق الذي كانا يلعبان به، فلم تستطع السيدات أن تريه ذلك الورق، لأن روجويين كان عند انصرافه كل يوم يحمل الورق القديم ويجيء في اليوم التالي بورق جديد دائماً.

نصحت السيدات الأمير بأن يعود إلى منزل روجويين مرة أخرى، وأن يقرع الباب قرعاً أشد. ولكن «في المساء»، لا الآن، فلعل شيئاً يكون قد عُرف قبل حلول المساء. وقد عرضت أرملة معلم المدرسة أن تذهب في النهار بنفسها إلى بافلوفسك لتري داريا ألكسيفنا، فلعلهم قد علموا هناك شيئاً. ودُعي الأمير أن يعود في نحو الساعة العاشرة من المساء، ولو لوضع خطة عمل مشتركة يتعاونون على تنفيذها في الغد.

كان يأس كامل يجتاح نفس الأمير رغم جميع هذه التشجيعات وها هو ذا يعود إلى فندقه سيراً على الأقدام وقد أزهقه حزن لا سبيل إلى مغالبتة. كان يحس كأنه مسحوق بين فكّي كلابة في بطرسبرج هذه التي كان جوها خانقاً وكان هواؤها مثقلاً بالغبار في الصيف. اصطدم أثناء سيره بأناس فظاظ أو سكارى. وكان يتفرس في المارة لا يدري لماذا. لعله مشى خطى كثيرة لا فائدة منها، ولعله لف ودار في غير

طائل. فلما وصل غرفته كان المساء يوشك أن يهبط على المدينة. قرر أن يرتاح قليلاً، ليعود بعد ذلك إلى روجويين كما نُصح. فجلس على أريكة، ووضع كوعيه على مائدة، وغرق في خواطره وتأملاته.

لا يدري إلا الله كم قضى من الوقت وهو على هذا الوضع، ولا ماذا دار في رأسه من أفكار. كان خائفاً من أشياء كثيرة، وكان يشعر بتفاقم هذا الخوف، فيعاني من ذلك ألماً ممضاً وقلقاً شديداً. فكر في فيرا ليبيديفا، ثم تساءل ألا يمكن أن يكون ليبيديف قد بلغ إلى علمه شيء من هذا الأمر. وقال لنفسه: حتى لو كان لا يعلم شيئاً فإنه أقدر مني على أن يحصل على بعض المعلومات بسرعة وسهولة. ثم وافته صورة هيبوليت فتذكر أن ليبيديف سيمضي يزوره. ثم تذكر أخيراً روجويين نفسه: كان قد رآه في الآونة الأخيرة، مرة في الجنازة، ومرة في الحديقة العامة؛ ورآه مرة كذلك قرب غرفته، في ذلك الممر المظلم، حيث تربص به مختبئاً في ركن ممسكاً بيده سكيناً. تذكر عينيه، عينيه اللتين كانتا تحدقان إليه في الظلمات. ارتعش: إن الفكرة التي كانت ترسم في ذهنه غامضة منذ قليل، تظهر الآن له واضحة بيّنة.

كانت تلك الفكرة هي التالية تقريباً: إذا كان روجويين في بطرسبرج فإنه مهما يختبئ زمناً طويلاً أو قصيراً، لا بدّ أن يعود باحثاً عنه ساعياً إليه، سواء أكانت نيّاته حسنة أم كانت نيّاته سيئة، وربما عاد إليه وهو على تلك الحالة النفسية ذاتها التي كان عليها في المرة الأولى. وفي أقل تقدير، إذا ارتأى روجويين لسبب من الأسباب أن يبحث عنه فسوف يبحث عنه هنا طبعاً، في هذا الممر نفسه. فإنه، وهو لا يعرف لي عنواناً، سوف يفترض أنني نزلت نفس الفندق الذي نزلته من قبل. ومهما يكن من أمر، فسوف يبحث عني هنا... وإذا شعر بحاجة قوية إلى رؤيتي. ومن يدري؟ لعله يشعر بهذه الحاجة القوية أشد ما يكون الشعور....».

كذلك كان يفكر الأمير؛ وكان هذا التفكير يبدو له محتملاً. لو سألته أن يحلل تفكيره لما استطاع أن يشرح لك مثلاً لماذا يرى أن روجويين سيشعر بمثل هذه الحاجة القوية إليه على حين فجأة، أو لماذا يستحيل أن نفترض أنهما لن يلتقيا بعد اليوم أبداً. غير أن الفكرة كانت أليمة. كان الأمير يقول لنفسه: «إذا كان سعيداً فلن يأتي. وإنما يأتي إذا كان شقيماً. وهو شقي حتماً...».

وما دام اقتناعه هو هذا فقد كان ينبغي له أن ينتظر روجويين في الفندق، في غرفته. ولكنه كان كمن لا يستطيع احتمال فكرته الجديدة هذه، فها هو ذا يندفع فيتناول قبعته ويخرج مسرعاً.

الظلام في الدهليز أوشك أن يصبح حالكاً. لما صار الأمير قرب ذلك المكان المشؤوم الذي سبق أن رأى فيه روجويين مشهراً سكينه، قال يحدث نفسه: «ماذا لو ظهر من ذلك الركن فجأة وأوقفني في السلم؟». ولكن لم يظهر أحد. وتجاوز الباب، ومضى إلى الرصيف، ونظر مدهوشاً إلى ازدحام الناس في الشوارع لحظة مغيب الشمس (وهذا منظر مألوف ببطرسبرج في أيام القيظ) ثم اتجه نحو شارع جوروخوفايا. حتى إذا صار على مسافة خمسين خطوة من الفندق، عند أول مفرق، شعر بأحد يلمس كوعه، وسمع صوتاً يقول له هامساً قرب أذنه:

– ليون نيقولايفتش، اتبعني يا أخي، يجب أن تتبعني.

إنه روجويين.

شيء غريب: لقد أخذ الأمير يروي له على الفور، فرحاً مرحاً متدفقاً في الكلام حتى ليكاد لا يتم النطق بألفاظه، كيف انتظره منذ لحظة في دهليز الفندق.

فقال له روجويين فجأة:

– كنت هناك فعلاً. هلم بنا!

فدهش الأمير من هذا الجواب، غير أن دقيقتين على الأقل قد انقضتا بين اللحظة التي فهم فيها الجواب واللحظة التي دهش فيها من هذا الجواب. وشعر عندئذ بخوف وأخذ يلاحظ روجويين. كان روجويين يتقدمه بنصف خطوة تقريباً. وكان ينظر إلى أمام، لا يلتفت يمناً ولا يسرة، ولا ينتبه إلى المارة أي انتباه، فإذا اقترب من أحدهم تحاشاه بحركة آلية على غير شعور.

سأله الأمير فجأة:

– لماذا لم تسأل عني في الفندق ما دمت قد ذهبت إليه؟

فتوقف روجويين، ونظر إليه، وفكر، ثم قال وكأنه لم يدرك السؤال إدراكاً واضحاً:

– اسمع يا ليون نيقولايفتش. سرّ أمامي قدماً إلى أن تبلغ منزلي، أتعرفه؟ أما أنا فأسير في الجهة الأخرى من الشارع. ولكن احرص على أن نمضي معاً... انتبه!

قال هذا وعبر الشارع منتقلاً إلى الرصيف الآخر، منتبهاً مع ذلك إلى الأمير ليري هل سار كما أمره. فلما لاحظ أن الأمير واقف ينظر إليه محملاً دله بيده على اتجاه

شارع جوروخوفايا، ثم استأنف سيره متلفتاً بغير انقطاع ليراقب الأمير ويحضه على أن يتبعه. حتى إذا تأكد من أن ليون نيقولايفتش قد فهم عنه وأنه لا يعبر الشارع ليلحق به عادت إليه طمأنينته. وقد خطر ببال الأمير أن روجويين يترصد مرور أحد وأنه انتقل إلى الرصيف الثاني حتى لا يفلت منه، فتساءل: «ولكن لماذا لم يحدد الشخص الذي يجب ترصده؟». وسارا على هذا النحو قرابة خمسمائة خطوة، فإذا بالأمير يأخذ يرتعش ارتعاشاً قوياً دون أن يعرف لماذا يرتعش. وكان روجويين ما يزال يلتفت إليه ولكنه لا يلتفت إليه الآن إلا من حين إلى حين. ونفذ صبر الأمير فحرك يده يستوقف صاحبه ويدعوه إليه. فسرعان ما عبر روجويين الشارع قادماً نحوه.

سأله الأمير:

– هل ناستاسيا فيليبوفنا عندك في البيت؟

– نعم.

– وهل أنت الذي نظرت إليّ من وراء ستارة النافذة؟

– نعم....

– اف... أفأنت...

ولكن الأمير لم يعرف كيف يكمل جملته، ولا ماذا يلقي من سؤال. وكان قلبه عدا ذلك يخفق خفقاناً بلغ من القوة أن الكلام أصبح يشقّ عليه.

صمت روجويين هو أيضاً، ونظر إليه نظرة من يحلم، كما فعل منذ قليل... ثم قال فجأة وهو يتهيا لعبور الشارع:

– هيا بنا. أنا ذاهب إلى هناك. اسبقني أنت... لنمش منفصلين... ذلك أفضل...
يمشي كل واحد في جهة... سوف ترى.

فلما دخلا شارع جوروخوفايا أخيراً، واقتربا من منزل روجويين شعر الأمير مرة أخرى بأن ساقيه تنثنيان تحته حتى ليكاد يعجز عن السير. كانت الساعة قريبة من العاشرة مساء. وكانت نوافذ الجناح الذي تقيم فيه العجوز ما تزال مفتوحة. وكان كل شيء في بيت روجويين مغلقاً، وكانت الستائر المسدلة تبدو في ضوء الغسق أشدّ بياضاً.

ووصل الأمير إلى مستوى المنزل وهو ما يزال على الرصيف المقابل. فلما رأى

روجويين يصعد درجات المدخل ويشير إليه أن يأتي بادر إلى اللحاق به وأدركه.

همس روجويين قائلاً له وهو يبتسم ابتسامة فيها مكر ويكاد يكون فيها رضى:

- البواب لا يعلم أنني عدت. قلت له منذ فترة إنني ذاهب إلى بافلوفسك، وقلت هذا الكلام نفسه لخادمة أُمي. سوف ندخل دون أن نسمعنا أحد.

وكان قد أخرج المفتاح فهو الآن في يده. وحين صعد السلم التفت نحو الأمير وأشار يأمره بأن يمشي بمزيد من الهدوء والرفق. وفتح باب شقته دون ضوضاء، وأدخل الأمير، وتبعه محترساً، فأغلق الباب ثانية ووضع المفتاح في جيبه.

قال بصوت خافت:

- هلم!

كان يهمس همساً منذ أن أخذ يكلم الأمير على رصيف شارع ليتاينايا. إن المرء يدرك أن نفسه مضطربة اضطراباً عميقاً رغم هدوئه الظاهر. وحين دخلا الصالة التي تقع قبل حجرة المكتب اقترب من النافذة، ودعا الأمير إليه وقد لاح في وجهه معنى السر. ثم قال:

- اسمع. حين قرعت بابي في هذا الصباح، كنت أنا هنا، وسرعان ما حُزرتُ أن القارع هو أنت. اقتربت من الباب ماشياً على رؤوس الأصابع، وسمعتك تكلم بافنوتيفنا. وكنت قد أمرتها منذ مطلع الصبح أن لا تجيب أي إنسان يقرع جرس بابي، أياً كان العذر الذي يتعلل به، سواء أكان القارع أنت أم كان شخصاً آتياً من عندك، أم كان أي شخص آخر. وكان الأمر الذي أصدرته إليها يستهدفك أنت خاصة، إذا بدا لك أن تجيء بنفسك سائلاً عني، وقد سميتك لها. فلما خرجت، خطر ببالي أنك ربما رحت ترابط في الشارع مترصداً مترقباً. فدنوت من هذه النافذة فأزحت ستارتها لألقي نظرة، فرأيتك واقفاً هناك تنظر إليّ فعلاً. هكذا جرت الأمور...

قال الأمير بصوت مختنق:

- ف... فأين ناستاسيا فيليبوفنا؟

أجاب روجويين ببطء بعد تردد قصير:

- هي... هنا.

- أين؟

فرفع روجويين عينيه إلى الأمير، وتفارس فيه محدثاً، ثم قال له:

- هيا. تعال.

إنه ما يزال يتكلم هامساً، ذاهلاً ذلك الدهول نفسه. حتى حين روى كيف أزاح الستارة كان رغم ما باح به، يبدو عليه أنه يريد أن يتكلم عن شيء غير هذا تماماً.

ودخلا حجرة المكتب. لقد أُجريت فيها تغييرات منذ الزيارة الأخيرة التي قام بها الأمير. إن ستارة من قماش البروكار تشطر الغرفة الآن شطرين، فتفصل حجرة المكتب بمعنى الكلمة عن مخدع النوم الذي يوجد فيه سرير روجويين. إن الظلام حالك في الغرفة. إن ليالي بطرسبرج «البيضاء» هي الآن في نهايتها، فلولا أن القمر كان بديلاً، لما كان في وسع المرء أن يميز أي شيء في هذه الشقة التي كانت ستأثرها المسدلة تزيدها ظلاماً. الحق أنه ما يزال في إمكان المرء أن يرى الوجوه، ولو رؤية غامضة. كان وجه روجويين أصفر كما عهد. وكانت عيناه ترسلان إلى الأمير نظرة ثابتة لكنها جامدة.

- ينبغي أن تشعل شمعة.

فأجابه روجويين وقد أمسكه من يده وأجبره على الجلوس:

- لا، لا ينبغي...

وجلس هو أمامه. إن كرسيه يبلغ من القرب أن ركبتيه وركبتي الأمير تكاد تتلامس. وكانت توجد بينهما منضدة صغيرة مدوّرة إلى جانب.

قال وكأنه يشجعه على البقاء:

- اجلس. لنسترح هنا لحظة.

وخيم الصمت دقيقة. ثم أضاف يقول بلهجة يصطنعها المرء حين يجري الحديث على تفاصيل تافهة فراراً من مواجهة المسألة الأساسية:

- قدّرت أنك قد تنزل ذلك الفندق نفسه. وحين ولجت الدهليز قلت لنفسني: من يدري؟ لعله هو أيضاً ينتظرني في هذه اللحظة هنا كما أنتظره! هل ذهبت إلى أرملة معلم المدرسة؟

قال الأمير بمشقة كبيرة بينما قلبه يكاد ينفجر من شدة الخفقان:

- نعم...

- قدّرت ذلك أيضاً. قلت لنفسي: سيكون هذا مبعث هذر أيضاً... ثم خطر ببالي أن أجيء بك إلى هنا لنقضي هذه الليلة معا...

- روجويين، أين ناستاسيا فيليبوفنا؟

بذلك دمدم الأمير فجأة وهو ينهض. كانت أعضاؤه كلها ترتعش.

نهض روجويين هو أيضاً. وقال مومناً برأسه إلى الستارة:

- هي هناك.

فهمس الأمير سائلاً:

- أهي نائمة؟

- هيه... هيا إلى هناك... ولكنك... بل هيا بنا.

وأزاح الستارة، وتوقف، والتفت نحو الأمير. وقال له أخيراً وهو يدعوه بإشارة أن يتقدم:

- ادخل!

قال الأمير:

- الظلام دامس.

فقال روجويين مجمجماً:

- لكنك تستطيع أن ترى.

- لا أكاد أميز إلا... السرير.

قال روجويين بصوت خافت:

- اقترب أكثر.

فتقدم الأمير خطوة، ثم تقدم خطوة أخرى ثم توقف. لبث دقيقة أو دقيقتين جامداً لا يتحرك، محاولاً أن يثقب بنظره الظلام. لم يقل أحد من الرجلين كلمة واحدة طوال المدة التي بقيا خلالها قرب السرير. كان قلب الأمير يخفق خفقاناً يبلغ من القوة أن دقاته تكاد تُسمع في صمت الموت الذي يخيم على الغرفة. حتى إذا ألفت عيناه الظلمة أمكنه أن يميز السرير. كان أحد ينام على السرير ساكناً سكواً مطلقاً. لا صوت يُسمع،

لا نسمة! كان النائم مغطى من الرأس إلى القدمين بملاءة بيضاء، لكن أعضائه لا ترسم إلا ارتساماً غامضاً. كل ما يراه المرء من نتوءات الملاءة أنه جسم إنسان مسجى تحتها. وفي كل جهة من حوله: على السرير، في أسفل السرير، فوق المقعد المقابل، وحتى على أرض الغرفة، بُعثرت ثياب متناثرة على غير نظام: فستان فخم من حرير أبيض، أزهار، أشرطة. وعلى منضدة صغيرة قرب السرير تلتصق جواهر ماسٍ وُضعت هنالك بإهمال. وفي آخر السرير كتلة من تطريزات يخرج منها طرف قدم عارية كأنها منحوتة من مرمر، قدم جامدة جموداً رهيباً مرعباً.

كلما أمعن الأمير النظر، بدا له صمت هذه الغرفة أعمق وأدل على الموت. واستيقظت ذبابة على حين فجأة وطفقت تدندن، وحرمت فوق السرير، ثم حطت على المنضدة الصغيرة إلى جانبه. سرت في جسم الأمير رعدة.

قال له روجويين وهو يلمس ذراعه:

- فلنخرج.

خرجا من مخدع النوم، وعادا يجلسان على مقعديهما متقابلين كما كانا. إن الأمير يرتجف مزيداً من الارتجاف لحظة بعد لحظة ولا يحول نظره المستفهمة عن وجه روجويين.

قال روجويين أخيراً:

- أرى يا ليون نيقولايفتش أنك ترتجف ارتجافك عند دنو نوبة مرضك. هل تتذكر كيف كان يحدث هذا بموسكو؟ أو كيف حدث هذا مرة قبل موافاة النوبة؟ إنني أتساءل ما عساني أفعل بك إذا وقع لك شيء من ذلك...

كان الأمير يصغي إليه بانتباه، جاهداً أن يفهم عنه، مستمراً على مساءلته بعينيه.

وقال يسأله أخيراً وهو يومئ إلى جهة الحاجز بإيماءة من رأسه:

- أأنت فعلت هذا؟

فهمس روجويين خافضاً رأسه:

- نعم أنا.

ولبثا خمس دقائق لا يتبادلان كلمة.

ثم عاد روجويين إلى فكرته كأن سؤال الأمير لم يقاطعه فيصرفه عما كان

بسبيله؛ قال يتابع كلامه السابق:

- إذا وافتك الآن نوبة، فإن صراخك سيُسمع في الشارع أو في فناء المنزل، فيدرك السامعون أن في الشقة أناساً، فيجيئون يقتحمون الباب ويدخلون... لأنهم جميعاً يظنون أنني غائب، إذا كنت لم أشعل شمعة، فمن أجل أن لا يرى أحد من الشارع أو من فناء البيت شيئاً. إنني حين أتغيب، أحمل مفاتيحي فلا يدخل أحد إلى هنا خلال ثلاثة أيام أو أربعة ولو لترتيب الشقة. تلك هي القاعدة التي وضعتها. فيجب أن ندبر أمرنا بحيث لا يعلم أحد أننا نبيت الليلة...

قال الأمير:

- انتظر... إنني سألت البواب والخادمة العجوز ألم تجيء ناستاسيا فيليبوفنا لتبيت هنا.. فهما إذن يعرفان أنها جاءت.

- لا أجهل هذا. لقد قلت للخادمة بافنوتيفا إن ناستاسيا فيليبوفنا جاءت إلى هنا أمس ثم سافرت ثانية إلى بافلوفسك بعد عشر دقائق. لا يعرف أحد أنها باتت هنا. ولقد دخلت معها بالأمس جلسة كما دخلت معك اليوم. كنت أقدر ونحن في الطريق أنها لن تحب أن تدخل، لكنني أخطأت التقدير! كانت تتكلم همساً، وتسير على رؤوس الأصابع، وتشمر فستانها من حولها حتى لا يُسمع له حفيف، حتى لقد فرضت عليّ الصمت بإشارة من يدها حين كنا على السلم. منك أنت إنما كانت ما تزال خائفة. حين كنا في القطار كان خوفها جنوناً مطبقاً. وهي التي طلبت أن تبيت هنا. كانت فكرتي الأولى أن أصحبها إلى عند أرملة معلم المدرسة، ولكنني لم أفجح في حملها على ذلك. قالت: «إذا ذهبت إلى هناك فسيهتدي إليّ الأمير في الفجر. خبّني عندك. وغداً أفرّ إلى موسكو متى طلع الصبح!». وكانت تنوي أن تذهب من موسكو إلى أوريل. لقد اضطجعت على السرير وهي تكرر أننا سنمضي إلى أوريل...

- انتظر: ماذا تنوي أن تفعل الآن يا بارفيون؟

- عجيب أمرك! إنك بهذا الارتعاد المستمر ترعبني! سنبيت الليلة هنا معاً. ليس عندي سرير إلا ذلك السرير. ولكنني دبرت الأمر على هذا النحو: نأخذ وسائد الأريكتين فنجعل منهما سريراً على الأرض قرب الستارة لي ولك، وهكذا ينام أحدهما إلى جانب الآخر. حتى إذا جاءوا وفتشوا الغرفة، عثروا عليها وحملوها. وسيسألونني عما حدث فأقول إنني أنا الفاعل، فيقتادونني فوراً. أما الآن، فلترقد الآن قريبة منا، قرية منك ومني معاً!...

قال الأمير محبذاً بحرارة:

- نعم، نعم!

- يجب إذن أن لا نعترف وأن لا ندع لأحد أن يأخذها.

قال الأمير:

- أبداً! بحال من الأحوال! لا، لا!...

- ذلك ما عقدت عليه عزمي يا بني... لن نتيح لأحد أن ينتزعها منا بحال من الأحوال، مهما كلف الأمر. سنقضي هذه الليلة بهدوء. لقد ظللت بقربها النهار كله، لم أخرج إلا ساعة واحدة في الصباح، ثم خرجت في المساء لأبحث عنك وأجيء بك. هناك شيء أخشاه: هو أن تنتشر من الجثمان رائحة بسبب هذا الحر الخانق. هل تشم شيئاً؟

- جائز. لست متأكداً. ولكن الرائحة ستشتد في الصباح حتماً.

- لقد غطيّتها بقماش مشمّع، قماش مشمّع أمريكي ممتاز، وفرشت الملاءة فوق ذلك الغطاء. وحوّلها وضعت أربع زجاجات مفتوحة من سائل جدانوف؛ وما تزال الزجاجات في موضعها...

- نعم... كما فعلوا هناك... في موسكو..

- بسبب الرائحة يا عزيزي. ليتك ترى كيف ترقد!... غدا في الصباح، حين يطلع النهار، انظر إليها. هيه، ماذا؟ أصبحت لا تستطيع النهوض؟

قال روجويين ذلك مدهوشاً خائفاً حين رأى الأمير يرتعد ارتعاداً يبلغ من الشدة أنه أصبح لا يستطيع النهوض على قدميه.

دمدم الأمير يقول:

- ساقاي لا تطاوعان... مرد هذا إلى الرعب.. أنا أعرف ذلك. فمتى زال الرعب أمكنني أن أنهض...

- انتظر.. سأصنع سريرنا، فتتمدد... وأتمدد أنا بقربك... ونصغي.. لأنني يا صديقي.. لا أعرف... يا صديقي.. لا أعرف الآن كل شيء بعد.. لذلك ألفت نظرك... حتى تعرف أنت... سلفاً..

كان روجويين وهو يتمتم بهذه الأقوال المضطربة المفككة قد أخذ يهيئ السرير.

واضح أنه ربما كان منذ الصباح يفكر في طريقة ترتيب الوسائد ليجعل منها سريراً. لقد قضى الليلة البارحة راقداً على الديوان. ولكن الديوان لا يتسع لشخصين، وهو يحرص حرصاً مطلقاً على أن يرقداً معاً. لذلك أخذ ينتزع عن الديوانين جميع وسائدهما المختلفة الأحجام، ويجرها من أول الغرفة إلى آخرها بكثير من العناء، ليصنع منها سريراً أمام الستارة. حتى إذا فرغ من ذلك كيفما اتفق، اقترب من الأمير بحنان وحماسة فأمسكه من تحت ذراعيه وأنفضه وساعده على الوصول إلى ذلك السرير. فلاحظ عندئذ أن الأمير كان قد استرد قدرته على السير وحده، فقال لنفسه: «انقضى إذن رعبه». ولكن الأمير كان ما يزال يرتعد.

أرقده روجويين على الوسادة اليسرى، أفضل الوسادتين، ورقد هو على الوسادة اليمنى مرتدياً جميع ملابسه عاقداً يديه وراء عنقه.

واستأنف كلامه قائلاً على حين فجأة:

- الجو حار حقاً يا صديقي، وسوف تنتشر الرائحة لا محالة... إنني أخشى أن أفتح النوافذ. عند أمي أصص أزهار كثيرة، عندها أزهار كثيرة عطرة عبقة. خطر ببالي أن آتي بها إلى هنا. لكن ذلك يمكن أن ينبّه بافنوتيفنا، فهي شديدة حب الاطلاع.

قال الأمير مؤكداً:

- هي شديدة حب الاطلاع.

- كان يمكن شراء باقات أزهار.. وإحاطتها بها إحاطة تامة.. لكنني قدّرت يا صديقي أنه أمر يمزق القلب تمزيقاً.. أن ترى مغطاة بالأزهار هكذا!!..

- قل لي...

كذلك بدا الأمير يسأله مرتبكاً، كإنسان يبحث في ذاكرته عن شيء يريد أن يسأل عنه ولكنه لا يكاد يتذكره حتى ينساه.

- قل لي.. بأي شيء فعلت؟ بسكين؟ بتلك السكين نفسها؟

- نعم بتلك السكين نفسها.

- انتظر أيضاً! أريد أن أسألك يا بارفيون.. هناك أسئلة كثيرة أريد أن ألقها عليك.. أسئلة عن أمور كثيرة.. ولكن قل لي أولاً لأعرف: هل كنت تنوي أن تقتلها قبل زواجنا، بطعنة سكين، على عتبة الكنيسة؟ أنعم أم لا؟

أجاب روجويين بخشونة، مدهوشاً من السؤال، حتى لكأنه لم يدركه:

- لا أعرف أكنت أنوي ذلك أم لا...

- ألم تصطحب سكينك أبداً حين جئت إلى بافلوفسك؟

- لم أصطحبها أبداً.

وأضاف يقول بعد لحظة صمت:

- عن هذه السكين، إليك كل ما أستطيع أن أقوله لك يا ليون نيقولايفتش: لقد تناولتها هذا الصباح من درج مقفل بالمفتاح، لأن كل شيء قد تم بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة. كنت أحتفظ بها دائماً بين صفحات كتاب... و.. و... إليك شيئاً آخر أدهشني: لقد نفذت السكين تحت الثدي الأيسر، إلى عمق سبعة سنتيمترات تقريباً.... فلم يكذب ينسكب دم. لم ينسكب من الدم أكثر من نصف ملعقة...

قال الأمير وهو ينصب قامته بتأثير انفعال فظيع رهيب:

- هذا أعرفه... أعرف هذا... قرأت عنه... ذلك ما يسمى نزيفا داخلياً... حتى ليتفق أن لا تنسكب قطرة دم واحدة. يحدث هذا حين تنفذ الطعنة إلى القلب مستقيمة...

قاطعه روجويين يقول فجأة وهو يجلس على مضجعه مذعوراً:

- صه! هل تسمع؟ هل تسمع؟

أجابه الأمير وهو ينظر إليه، قائلاً بلهجة الذعر تلك نفسها:

- لا!...

- صوت مشي! هل تسمع؟ في الصالة..

أصاخ الاثنان بسمعتهما.

وقال الأمير بثقة:

- سمعت!

- صوت مشي؟

- هل يجب إقفال الباب؟

- نعم..

أحكما وضع المزلاج، وعادا يرقدان. وأعقب ذلك صمت طويل.

وفجأة عاد الأمير يهمس بلهجة التعجل والاضطراب تلك نفسها، كأنه وقد استرد تسلسل تفكيره كان يخشى أن يضيعه من جديد. قال وهو يشب عن مضجعه:

- ها... نعم.. أردت أن أطلب منك ورق اللعب! ورق اللعب.. قيل لي إنك كنت تلاعبها بالورق.

قال روجويين بعد لحظة:

- نعم.

فسأله الأمير:

- فأين هو... ذلك الورق؟

قال روجويين بعد صمت أطول:

- هو ذا... خذ...

قال ذلك، وأخرج من جيبه ورق لعب ملفوفاً بغلاف، ومستعملاً من قبل، ومدّه إلى الأمير. فتناوله الأمير، ولكن دون أن يبدو عليه أنه يدرك ما يفعل. إن شعوراً أليماً بالحزن قد عاد يخنق صدره ويهصر قلبه. وأدرك أنه في هذه اللحظة ومنذ مدة غير قصيرة كان يقول ويفعل غير ما كان ينبغي أن يقول وما ينبغي أن يفعل. مثال ذلك أن ورق اللعب هذا الذي يمسكه الآن بيديه والذي أسعده كثيراً أن يحصل عليه لن ينفعه بعد اليوم في شيء. وها هو ذا ينهض ويضم يديه إحداها إلى الأخرى بحركة تدل على لوعة لا حدود لها. وكان روجويين مضطجعاً جامداً فلم يبد عليه أنه أبصر هذه الحركة، غير أن عينيه الثابتتين المحملقتين كانتا تتقدان في الظلام. جلس الأمير على كرسي ونظر إلى رفيقه مرتاعاً. وانقضى على هذا نصف ساعة. وفجأة قال روجويين وهو ينفجر في ضحك صاخب، ناسياً أن عليه أن يتكلم بصوت خافت:

- الضابط... هل تتذكر ذلك الضابط؟... هل تتذكر كيف جلدته بالسوط في

حفلة الموسيقى؟ ها ها ها!... هل تتذكر؟ وطالب الكلية الحربية... طالب الكلية الحربية.. الذي وثب..

انتفض الأمير وقد اعتراه رعب جديد. وهدأ روجويين فجأة، فمال نحوه برفق، وجلس إلى جانبه، وأخذ يلاحظه. كان قلبه يدق دقا قوياً، وكان يتنفس بمشقة وعناء.

كف روجويين عن الالتفات إليه، حتى لكأنه نسيه. لكن الأمير ظل يرمقه منتظراً. وكان الوقت يمضي، وأقبل الصبح. كان روجويين يأخذ يدمدم بين الفينة والفينة على حين فجأة، فيقول بصوت ثاقب كلمات مفككة، ويطلق صرخات تتخللها ضحكات: فكان الأمير عندئذ يبسط عليه يده المرتعشة، فيمسح له رأسه برفق، ويلعب بأصابعه شعره وخديه!... ذلك كل ما يستطيع أن يفعله. وكانت تعاوده الرعادات التي تسري في جسمه. ومرة أخرى أصبحت ساقاه تنثنيان تحته. إن إحساساً جديداً كل الجدة كان قد غزا قلبه، وملاً نفسه بقلق غير ذي نهاية.

وطلع النهار أثناء ذلك. اضطجع الأمير أخيراً على مرقدته، وقد هدّ التعب وأنهكه الألم، وأطبق بوجهه على وجه روجويين الشاحب الجامد. وسالت دموع من عينيه على خدي روجويين، ولكن لعله كان لا يحس انسكابها بل ولا يشعر بها...

المهم على كل حال أنه حين فُتح الباب بعد بضع ساعات وُجد القاتل هاذياً مغمى عليه، ووُجد الأمير جالساً بقربه، جامداً صامتاً على مضجعه: فكلما صرخ المريض أو هذى أسرع الأمير يمسح بيده المرتعشة شعره وخديه ملاطفاً مهدئاً. ولكن الأمير كان قد أصبح منذ ذلك الحين لا يفهم شيئاً من الأسئلة التي ألقى عليه ولا يتعرف الناس الذي دخلوا وأحاطوا به. فلو جاء شنايدر في تلك اللحظة من سويسرا ليرى المريض الذي كان يعالجه في الماضي لتذكر الحالة التي كان عليها المريض في السنة الأولى من معالجته بسويسرا، ولقال بحركة تنمّ على اليأس كما فعل حينذاك: «أبله!».

الفصل الثاني عشر

- الخاتمة -

هرعت أرملة معلم المدرسة إلى بافلوفسك ومضت رأساً إلى بيت داريا ألكسيفنا التي كانت ما تزال مشدوهة منذ الليلة البارحة. فقصت عليها كل ما كانت تعرفه، وألقته بذلك إلى رعب لم يستطع شيء أن يهدئه. وقررت المرأتان فوراً أن تقابلا ليبيدиф الذي اضطرب هو أيضاً من جهتين، جهة أنه صديق للأمير، وجهة أنه مالك للشقة التي يسكنها الأمير. وارتأى ثلاثة أشخاص هم داريا ألكسيفنا وفيرا وليبيدиф (بنصيحة من ليبيديف) أن يسافروا إلى بطرسبرج ليمنعوا بأقصى سرعة ممكنة «ما قد يحدث فعلاً». وهكذا فتحت الشرطة باب بيت روجويين منذ الغداة في الساعة الحادية عشرة من الضحى، بحضور ليبيديف والسيدات وأخي روجويين، سيميون سيميونوفتش، الذي يقيم في الجناح الآخر من المنزل. ومما شجع على اتخاذ هذه المبادرة أكثر من أي شيء آخر ما ذكره البواب من أنه رأى بارفيون سيميونوفتش يرجع إلى البيت متسللاً بخطى كخطى الذئب، من جهة سلم الباب، في صحبة رفيق. فلم يبق عندئذ أي تردد، فاقتحم باب الدخول الذي طالما قرع جرسه بالأمس في غير طائل.

أرقد روجويين مدة شهرين مصاباً باحتقان دماغي. فلما شفي حُقق معه وحُكم عليه. وقد جاءت أقواله في التحقيق صادقة كل الصدق دقيقة كل الدقة مقنعة كل الإقناع، فأخرج الأمير من القضية منذ البداية. أما في المحاكمة فقد كان صامتاً طول الوقت. لم يعارض المحامي البارع المكلف بالدفاع عنه حين برهن بكثير من الوضوح ومن المنطق في آن واحد على أن الجريمة إنما ارتكبت على أثر نوبة حمى دماغية سبقت بداياتها وقوع الكارثة بمدة طويلة، وليست تلك الحمى إلا نتيجة للأحزان والأشجان التي زخر بها قلب المتهم. ولكن روجويين لم يضيف شيئاً لتدعيم هذا الرأي، واقتصر - كما فعل في التحقيق - على أن يبسط تفاصيل الحادث بوضوح وجلاء ودقة وتحديد.

استفاد روجويين من الظروف المخففة فحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً في سيبيريا. وقد سمع الحكم دون أن يهتز أو يتأثر، وكان شارد

الفكر «حالم» الهيئة. والت ثروته الضخمة إلى أخيه، إلا جزءاً يسيراً كان قد بدّده في مجون الآونة الأولى. وقد سرّ أخوه سيميون سيميونوفتش بذلك سروراً عظيماً.

إن أمه العجوز ما تزال حية، ويبدو أنها تتذكر ابنها الحبيب بارفيون سيميونوفتش في بعض الأحيان، ولو تذكراً غامضاً مبهماً. لقد صان الله فكرها وقلبها من إدراك النازلة الفظيعة التي زارت بيتها.

وليبيدوف وكيبلر وجانيا وبتتسين وآخرون كثيرون من أشخاص روايتنا، ظلوا يعيشون في الماضي. إنهم لم يتغيروا كثيراً، فلا نكاد نجد ما نقوله عنهم. ومات هيبوليت وهو في حالة اضطراب شديد واهتياج رهيب، قبل الموعد الذي كان يتوقعه بقليل، بعد نحو خمسة عشر يوماً من مقتل ناستاسيا فيلييوفنا. وتأثر كوليا بهذه الأحداث كلها تأثراً عميقاً. فاقترب من أمه اقتراباً حاسماً. إن نينا ألكسندروفنا قلقة عليه. فهي تجده مسرفاً في التأمل والتفكير بالقياس إلى سنّه. ومن يدري؟ قد يصبح في المستقبل رجلاً ذا شأن. يجب أن نذكر في هذه المناسبة أنه هو الذي عني بترتيب الإجراءات التي حددت مصير الأمير في المستقبل. كان منذ مدة طويلة قد ميز أوجين بافلوفتش على جميع الناس الذين عرفهم في الآونة الأخيرة. فكان أول من ذهب إليه فقصّ عليه كل ما يعرفه عن الحادث وعن حالة الأمير الراهنة. ولم يخطئ ظنّه: فقد أظهر أوجين بافلوفتش اهتماماً كبيراً وعناية حارة بمصير «الأبله» المسكين؛ وبفضل جهوده ومساعدته وضع الأمير مرة أخرى في معهد شنابير بسويسرا.

وسافر أوجين بافلوفتش هو نفسه إلى الخارج منتوياً أن يقيم في أوروبا مدة طويلة. كان ينعت نفسه، مخلصاً كل الإخلاص، بأنه «رجل لا تحتاج إليه روسيا». وكان يزور صديقه المريض عند شنابير في أحيان كثيرة، مرة كل بضعة أشهر على الأقل. ولكن شنابير يبدو أكثر همّاً وغماً في كل مرة، فهو يهزّ رأسه، ويفهم الزائر أن أعضاء التفكير عند مريضه معطلة تعطلاً كاملاً، وأنه إذا كان لا يقطع بأن حالة المريض لا يمكن أن تشفى، فهو متشائم في تخميناته أشد التشاؤم. فكان أوجين بافلوفتش يبدو متأثراً تأثراً شديداً، لأنه رجل ذو قلب حساس. وقد برهن على ذلك إذ قبل أن يكتب إليه كوليا، وإذا كان يجب على رسائله أحياناً.

وقد ظهرت في هذه المناسبة إحدى صفات طبعه. ونحن نسمح لأنفسنا بأن نشير إليها لأنها صفة حسنة. إن أوجين بافلوفتش، بعد كل زيارة من زيارته لمعهد شنابير، كان - عدا ما يكتبه إلى كوليا - يرسل إلى شخص آخر بطرسبرج رسالة تشرح حالة الأمير الصحية شرحاً مفصلاً ولطيفاً إلى أبعد الحدود. وكانت مراسلاته هذه - إلى

جانب ما تشتمل عليه من احترام - تعبر (بحرية متزايدة) عن بعض الآراء ببسطها بصراحة وعن بعض الأفكار وبعض العواطف يعرضها بصدق. فذلك إذن أول مظهر لشيء يمكن أن يشبه علاقة صداقة حميمة. والشخص الذي كان يبعث إليه أوجين بافلوفتش بتلك الرسائل (وإن تكن قليلة متباعدة)، ويستحق منه كل هذا الاهتمام وكل هذا الاحترام لم يكن إلا فيرا، بنت ليبيديف. لا نعرف على وجه الدقة كيف انعقدت هذه الصلات. لا شك في أن منشأها هو كارثة الأمير التي حزن لها فيرا حزناً سقطت بسببه مريضة. أما الظروف الأخرى التي لا بدت انعقاد تلك الصلة فنحن نجهلها.

وإذا كنا قد تكلمنا عن تلك المراسلات فلأنها قد نقلت في بعض الأحيان أنباء عن أسرة إيبانتشين، ولا سيما عن أجاليا إيفانوفنا. ففي رسالة مكتوبة بباريس، غامضة بعض الغموض، يذكر أوجين بافلوفتش أن أجاليا إيفانوفنا قد عصفت بها غرام قوي فتزوجت رجلاً بولندياً مهاجراً، رغم إرادة أهلها، وأن أهلها لم يوافقوا على هذا الزواج أخيراً إلا لاتقاء فضيحة ضخمة. وبعد صمت دام ستة أشهر، بعث أوجين بافلوفتش إلى فيرا رسالة ملأى بالتفاصيل يذكر فيها أنه أثناء زيارته الأخيرة للبروفسور شنايدر في سويسرا، التقى بأسرة إيبانتشين، (عدا إيفان فيدوروفتش طبعاً، لأن أعماله تحتجزه في بطرسبرج)، والتقى كذلك بالأمير «شتش...»؛ وأن لقاءهم هذا كان غريباً؛ لقد استقبلوه جميعاً بحماسة، حتى إن أديلائيد وألكسندرا وجدتا أنه يقع على عاتقهما أن تشكرا له «اهتمامه الملائكي بالأمير المسكين». أما إليزابيت بروكوفينا فإنها حين رأت الأمير مريضاً مدلاً هذا الإذلال قد طفقت تبكي من كل قلبها. لقد زال حقدنا عليه زوالاً تاماً. وأما الأمير «شتش...» فقد قال في هذه المناسبة آراء صادقة وعبر عن حقائق وفق فيها كل التوفيق فجاء كلامه زاخراً بسلامة الحس وحسن الفهم. وقد بدا لأوجين بافلوفتش إنه لم يقم بين الأمير «شتش...» وبين أديلائيد اتفاق تام حتى الآن. ولكن بدا له في الوقت نفسه إنه لا بد أن يأتي يوم نرى فيه أديلائيد الحارة المندفعة تذعن بإرادتها إذعائاً صادقاً أمام ذكاء الأمير «شتش...» وتجربته وخبرته. ثم إن المحن التي ألمت بالأسرة قد أثرت فيها تأثيراً كبيراً ولقنتها دروساً كثيرة، ولا سيما مغامرة أجاليا مع الكونت البولندي المهاجر. إن ما كانت الأسرة ترتجف خوفاً منه حين رضيت أن تزوجه أجاليا قد تحقق في ستة أشهر، مع مفاجآت ما كان لأحد أن يتجرأ فيتصورها أو يخطر له بال. لقد اتضح إن هذا الكونت ليس «كونتا». وإذا كان مهاجراً فإنه لم يهاجر إلا في أعقاب قصة مشبوهة غامضة. لقد استطاع أن يستولي على أجاليا بالنبل العظيم الذي تتصف به نفسه الممزقة ألماً على وطنه؛ فبلغ من استيلائه على الفتاة أنها حتى قبل الزواج قد أصبحت عضواً في لجنة من المهاجرين أنشئت في الخارج

لإصلاح بولنده.... وعدا ذلك أصبحت مريدة من مريدات كاهن كاثوليكي شهير استولى على قلبها وفكرها حتى ملأها بالاندفاع والتعصب. أما الثروة الضخمة التي يملكها «الكونت»، والتي قدم لإليزابت بروكوفينا والأمير «شتش...» براهين على وجودها تكاد تكون قاطعة، فقد تبين إنها لم توجد في يوم من الأيام. أكثر من ذلك أن الكونت وصديقه الكاهن الشهير، قد أفلحا، بعد زواج آجلًا بستة أشهر لا أكثر، أن يفسدا علاقات آجلًا بأعضاء أسرتهما إفساداً كاملاً، فهم الآن لم يروها منذ عدة أشهر!... الخلاصة: هناك أشياء كثيرة يمكن أن تروى، ولكن إليزابت بروكوفينا وبنيتها والأمير «شتش...» كانوا قد بلغوا جميعاً من شدة الارتياح لهذا «الهول» الرهيب أنهم خشوا حتى من الإلماع إلى بعض الأمور في حديثهم مع أوجين بافلوفتش، مع علمهم بأن أوجين بافلوفتش كان، دون أن يحدثوه بشيء، مطلعاً إطلاعاً تاماً على آخر ما وصلت إليه آجلًا باندفاعات هواها. إن إليزابت بروكوفينا المسكينة تود لو ترجع إلى روسيا. يقول أوجين بافلوفتش إنها قد انتقدت بمرارة وحدة وتحيز كل ما هو أجنبي. «إنهم في أي مكان هنا لا يعرفون كيف يجب أن يُخبز الخبز. وهم في الشتاء يتجمدون كالفئران في قبو. على الأقل أتيح لي الآن أن أبكي على هذا الشاب المسكين كما يبكي الروس». كذلك قالت إليزابت بروكوفينا متأثرة وهي تومئ إلى الأمير الذي لم يتعرفها. ثم ختمت بكلامها شبه غامضة وهي تودع أوجين بافلوفتش: «كفى حماسات سخيفة! آنا لنا أن نسمع صوت العقل! كل هذا، كل هذه البلاد الأجنبية التي تشيدون بها، كل أوروبا هذه التي تعظمونها، كل هذا ليس إلا سراباً... ونحن أنفسنا لسنا في البلاد الأجنبية إلا سراباً... تذكروا ما أقوله لكم.. ولسوف ترون بأعينكم!».

الحواشي

[[1←](#)]

«قطار وارسو»: بقطار وارسو إنما كان يصل المسافرين إلى
بترسبرج آتين من الخارج، من فينا وبرلين (عن طريق آيدكونن).

[[2←](#)]

«آيدكونن»: آخر محطة بروسية على حدود روسيا.

«فهو اسم تاريخي»: ورد ذكر هذا الاسم مرة واحدة في «تاريخ كارامازين»، في القرن التاسع عشر؛ غير أن هذه الأسرة ما لبثت أن انطفأت. ولعل دوستويفسكي قد اختار هذا الاسم - المشتق من كلمة «ميشكا» ومعناها فأر صغير - إشارة إلى ما يتصف به طبع هذه الشخصية من تواضع وإمحاء.

«كارامازين» (نيقولا ميخائيلوفتش كارامازين): مؤرخ روسي شهير
(1766 - 1826)، هو مؤلف كتاب «تاريخ الدولة الروسية» الذي يقع
في اثني عشر جزءاً. وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية بين 1819 و1826.

«.... بورجوازي فخري وراشي»: إنّ الأَكْثَرِيّة الكبرى من التجار، في أواسط القرن التاسع عشر، إنما كانوا فلاحين اغتنوا من التجارة. فإذا انقطع هؤلاء عن دفع رسوم الانتساب إلى طبقة التجار، عادوا يهبطون إلى طبقة القرويين. وقد أسرع المشرع إلى ملافاة هذا الشعور الطبقي الذي أخذ ينشأ في ميدان التجارة، فأنشأ فئتين مستقلّتين عن دفع الرسوم، هما: «فئة البورجوازيين العاملين» و«فئة البورجوازيين الفخريين الوراثيين».

«يستحق النفي إلى سيبيريا»: إن كل جرم فيه خرق للمقدسات كانت القوانين تعاقب مرتكبه عقاباً صارماً. وكانت سرقة الأشياء الخاصة بالعبادة تدخل في حكم هذا الجرم.

«آرمانس، كورالي»: لا بد أنهما من النساء اللواتي كانت مرموقات في المجتمع، وأنهما من أصل فرنسي.

«إنها أميرة»: ليست ناستاسيا فيليبوفنا أميرة، والمقصود هنا المبالغة.

«خادم أمين، نعم، ولكن لا متملق دنيء» (وفي بغير تملق): مبدأ كان
الجنرال أراكتشيف الذي خلع عليه بطرس الأول لقب بارون، سنة 1789،
قد اختاره شعاراً له.

«صاحب السمو» أن هذا الكونت الذي لا يسميه المؤلف والذي سيرد ذكره فيما بعد قد يكون رئيس الجنرال إيبانتشين.

«في دير أجنبي...» من الأمثال الروسية السائدة: «في دير أجنبي لا تحاول أن تفرض قاعدتك».

«آرداليونتش»: النطق الشعبي لاسم النسبة إلى الأب: «آرداليونوفتش». وسوف يلاحظ القارئ أن اسم هذا الشخص من شخوص الرواية يرد تارة آرداليونتش، وتارة آرداليونوفتش.

منذ إعلان إصلاح 20 تشرين الثاني (نوفمبر) 1861، أصبحت جلسات المحاكم الروسية علنية، ودخل نظام المحلفين في جميع القضايا الجنائية. وكان دوستوفسكي يهتم كثيراً بهذه المحاكم الجديدة.

«من ذلك أن عقوبة الإعدام قد ألغيت»: الواقع أن عقوبة الإعدام في قضايا الحق العام قد ألغتها الإمبراطورة إليزابيت ضمناً سنة 1741، وصراحة، بقانون، سنة 1754، لكن عقوبة الإعدام لم يتم إلغاؤها في الجرائم السياسية. ففي، سبتمبر 1866 مثلاً تم تنفيذ عقوبة الإعدام شنقاً في كاراكوزوف الذي قام بمحاولة مخففة لاغتيال ألكسندر الثاني أثناء نزهة في «حديقة الصيف». وقد شنق على مرأى من المشاهدين في ميدان سمولنسكي بمدينة بطرسبرج. وهكذا نرى أن دوستويفسكي يسوق هنا نصف الحقيقة.

«نعم، رأيت إعداماً في فرنسا بمدينة ليون»: كانت إعدامات المجرمين في فرنسا كثيرة وعلنية. وبقي هذا النظام حتى نهاية القرن التاسع عشر. وقد وصف تورجينف تنفيذ إعدام من هذه الإعدامات في مقالة له بعنوان: «تعذيب تروبمان».

ربما كان يوجد في هذا العالم إنسان حكم عليه بالموت.. «: إن
دوستويفسكي يتذكر هنا الدقائق الرهيبة الفظيعة التي قضاها هو نفسه مهياً
للإعدام قبل وصول قرار العفو عنه.

[[17←](#)]

«جانیا»: تصغیر اسم جبریل.

«إن المطران الذليل بافنوس قد وقع هذا بخط يده»: هذا المطران هو مؤسس منسك في مقاطعة كوستروما. في القرن الرابع عشر. وقد نشر توقيعه المؤرخ وعالم الآثار ميشيل بوجودين في ألبوم من جزأين بعنوان «نماذج من الخطوط السلافية الروسية» (موسكو، 1840 - 1841).

«فردشتينكو» أن الأسماء التي تنتهي بـ«ينكو»، أوكرانية الأصل.

«أوترادانويي»: كلمة مشتقة من أوترادا، ومعناها وسط بين معنى كلمة «راحتي» ومعنى كلمة «لذتي».

«وصف الجنوب والمشرق منذ زمان طويل...»: استشهاد غير دقيق كل
الدقة بقصيدة للشاعر ليرمونتوف: «الصحفي والقارئ والكاتب».

«هو رجل اقتيد مع رجال آخرين محكوم عليهم بالإعدام، وقرئ عليهم قرار المحكمة بإعدامهم رميا بالرصاص لجريمة سياسية»: إن أنا، أرملة دوستويفسكي، قد كتبت تقول: «إن ذكريات كل ما شعر به فيدور ميخائيلوفتش دوستويفسكي أثناء الشروع في تنفيذ حكم الإعدام في جماعة بتراشفكي كانت تؤلمه كثيرا، فلا يتحدث عنها إلا في النادر. لكنني سمعته يرويها ثلاث مرات بهذه التعابير نفسها التي ترد في رواية «الأبله».

«وكان سيموت وهو في السابعة والعشرين من عمره...»: لقد ولد
دوستوفسكي في 30 تشرين الأول (أكتوبر) 1821، وكان عمره ثمانية
وعشرين عاماً حين صدر الحكم عليه بالإعدام.

«لقد رأيت في مدينة بال، منذ مدة غير طويلة، لوحة مماثلة...»: إن دوستويفسكي قد زار متحف مدينة بال في شهر آب (أغسطس) من سنة 1867، فأثرت فيه بعض اللوحات تأثيراً كبيراً. وهو هنا يشير إلى لوحة هانس فريس «قطع رأس القديس يوحنا المعمدان» (1514) التي تمثل النبي وهو ما يزال حياً تحت السيف الذي أشهره الجلاد.

«مادونا هولباين»: كان دوستويفسكي سنة 1867 قد أعجب في معرض درسدن باللوحة التي رسمها هولباين الشاب والتي سماها «مادونا مع أسرة جان ماير» (1525). ولقد كانت اللوحة الأصلية موجودة في متحف دارمشتات. ولكن كان المظنون في ذلك العهد أن لوحة درسدن هي اللوحة الأصلية التي رسمها هولباين.

[[26←](#)]

»كوليا«: تصغير اسم نيقولا.

كان كل لواء من ألوية الجيش بروسيا يسمى باسم المدينة أو المقاطعة التي أنشئ فيها أول ما أنشئ، وذلك بالإضافة إلى اسمه الرسمي. وكذلك يقال لواء فاسيلكوفسكي أو لواء بيبلوميريسكي.

«مدينة تفير»: مدينة بشمال روسيا، على خط موسكو - بطرسبرج.
و«إليزابتجراد»، مدينة بالجنوب في السهوب أنشئت في عهد الإمبراطورة
إليزابت.

«فوج مدفعية نوفو زمليانسكي»: الواقع أن هذا الفوج لا وجود له. وقد اخترعه الكاتب المسرحي جريبويديف في حوار الكولونيل سكالوزوب مع نفسه، في مسرحية «كثير من الذكاء ضرر». فهذا الاسم الوهمي يشير إلى ما يتصف به كلام الجنرال إيفولجين من أنه أخيلة كاذبة.

«حصار كارس»: إن حصار قلعة كارس التركية بالقوقاز قد وقع سنة 1855، وانتهى باستسلام القلعة للجنرال مورافيف في السادس من شهر تشرين الثاني نوفمبر 1855 بعد أن نفذت مؤن المحاصرين نفاداً تاماً.

«جريدة الاستقلال»: هي جريدة «الاستقلال البلجيكي» التي كانت تصدر في بروكسل منذ سنة 1830. وكان دوستويفسكي يقرأ كثيراً هذه الجريدة الحسنة الاطلاع، ولا سيما في السياسة.

«الحفلة المقنعة»: مسرحية كتبها لرمينتوف في مطلع صباه.

«أرسل بيروجوف برقية إلى باريس»: كان نيقولا بيروجوف (1810 - 1881)، وهو أشهر الجراحين الروس في ذلك الأوان، رئيساً للخدمة الطبية أثناء حصار سيبياستوبول (1854 - 1855). وكان أوجوست فيلاتون (1807 - 1873)، وهو جراح جاريبالدي ونابوليون الثالث، يتمتع بشهرة عالمية.

[[34←](#)]

»لینوتشکا«: تصغیر اسم هیلینا.

«تقضي بعض الوقت»: بالفرنسية في الأصل.

«أن لا يصده شيء في سبيل الحصول على مال»: في شهر كانون الثاني (يناير) من عام 1866 ارتكب طالب اسمه دانييلوف جريمة قتل المرابي بوبوف وخادمته بموسكو ليستولي على المال. وقد أشارت الصحف حينذاك إلى الشبه بين راسكولينكوف باطل رواية «الجريمة والعقاب» التي كتبها دوستويفسكي وسبق نشرها وبين فاعل هذه الجريمة. وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1867، شهد شخص اسمه جلاسكوف، وكان مع القاتل في السجن، شهد بان دانييلوف قد روى له أن أباه هو الذي حرضه على ارتكاب الجريمة. وكان الأب قد قال لابنه في الحقيقة: إن عليه أن لا تصده أية عقبة، وأن عليه لتحقيق سعادته (وهي زواج مرتقب) أن يحصل على المال ولو ارتكب في سبيل ذلك جريمة. وقد اهتم دوستويفسكي كثيرا بهذه المحاكمة فتحدث عنها في روايته الجديدة هذه «الأبله».

هو إيفان كيرلوف، الكاتب الروسي الشهير الذي كتب قصصاً أبطالها
حيوانات، على طريقة لافونتين. والقصة المشار إليها هنا هي قصة الحمار
الذي لبط أسداً دبّ فيه الهرم.

«من يخاف الذئب لا يذهب إلى الغابة»: من الأمثال الروسية السائرة.

«أوريكا»: كلمة من اليونانية القديمة معناها «وجدتها». وينسب إلى
أرخميدس إنه حين اكتشف أحد القوانين الفيزيائية وهو في الحمام، خرج
يركض صارخاً من فرحته «أوريكا، أوريكا» أي وجدتها، وجدتها.

«طلب نقله إلى القوقاز»: كانت بلاد القوقاز في ذلك العهد مناطق غير آمنة، بسبب حروب مستمرة ناشبة مع الشوار في الجبال. فكانت لذلك تعد منفى رسمياً للعسكريين والمدنيين، ومكاناً يختاره ويصطفيه اليائسون والشعراء...

[[41](#) ←]

«کاتیا»: تصغير اسم کاترين.

«مارلنسكي»: الاسم الأدبي المستعار للكاتب الديسمبري 202. بستوجيف
(1807 – 1837)، الذي نُفي إلى القوقاز جندياً بسيطاً، فكتب هناك سلسلة
من الروايات التاريخية بأسلوب متقعر غامض.

«جريدة أنباء البورصة»: هي جريدة يومية كانت تصدر حينذاك بمدينة
بطرسبرج.

[[44](#)←]

«باشا»: تصغير اسم بيلاجيا أوباراسيفا.

«فاسيلفسكي»: (أو فاسيلي أوستروف)، حي من أحياء العاصمة يقع في جزيرة.

«أو هم يأخذون سكيناً فيلفونها بحرير...»: في سنة 1866 دعا تاجر شاب من موسكو اسمه مازورين، دعا إلى بيته رفيقاً له هو بائع الجواهر كالميكوف وقتله. إن هذا التاجر الشاب المنحرف الذي كان قد ورث مليونين ثم أتلّفهما، قد اتخذهُ دوستويفسكي نموذجاً نقل عنه بعض سمات شخصية روجويين.

«إيكاتيرنهوف»: قرية تقع في ضواحي بطرسبرج، مع قصر صيفي
للإمبراطورة كاترين الثانية. وكان الناس يذهبون إلى هناك في الليل
ينشدون اللهو والتسلية.

«هذه مدينة سدوم»: يقصد الكاتب مدينة سدوم التي وردت قصّتها في الكتب السماوية، والتي تحكي قصة هلاك قوم لوط الذين مارسوا الشذوذ. وهنا يقارن دوستويفسكي ما يحصل من شذوذ بما حصل في مدينة سدوم الهالكة.

ويقصد بذلك عادات «الساموراي» في اليابان.

«من ذلك مثلاً أن الذين ادعوا أن لهم علي التاجر المتوفي ديوناً قد أبرزوا للمطالبة بحقوقهم مستندات يمكن إنكارها أو إهمالها»: تروي زوجة دوستويفسكي أن دوستويفسكي نفسه قد دفع أموالاً لدائنين جاءوا يطالبونه بعد وفاة أخيه بسداد ما كان على أخيه من ديون، وكانوا لا يملكون إلا مستندات «يمكن إهمالها»، أو كانوا لا يحملون مستندات البتة.

«أن أميراً اسمه «شتش-...»: هذه هي الشخصية الوحيدة التي لا يذكر المؤلف اسمها كاملاً بل يقتصر على الحرف الأول من الاسم (إن في الكتابة الروسية حرفاً واحداً ينطق «شتش-»)).».

إن القوانين الإصلاحية التي صدرت في أول كانون الثاني (يناير) 1864،
قد أدخلت إلى الأقاليم نظاماً للحكم المحلي. فكان النبلاء والفلاحون
ينتخبون نواباً يتشكل منهم «زمتوف» له ميزانيته الخاصة، ويعنى بالتعليم
والخدمات العامة وغيرها من شؤون الإقليم.

«أوجين بافلوفتش...»: سيرد اسم هذا الرجل فيما بعد، أوجين بافلوفتش
رادومسكي.

«من ضباط الإمبراطور»: لقب فخري يمنح لصفوة من الضباط يعرفهم الإمبراطور شخصيا.

«حي اسماعيلوفسكي»: حي في وسط بطرسبرج سُمِّي باسم الشكنات التابعة
للواء الحرس اسماعيلوفسكي.

«دون كيشوت دولامانش»: كان دوستويفسكي يقدر كتاب هذا الكاتب الإسباني العظيم، سرفانتس، قدراً كبيراً. وقد كتب يقول في «يوميات كاتب» (آذار 1876): «ليس في العالم كتاب أعمق ولا أقوى من هذا الكتاب. إنه حتى الآن آخر وأكبر كلام قاله الفكر الإنساني، وهو الذع سخرية مرة استطاع إنسان أن يعبر عنها». حتى لقد رأى بعضهم أن ثمة شبهة بين شخصية الفارس الحزين دون كيشوت وبين شخصية الأمير ميشكين.

«بافلوفسك»: قرية في جنوب بطرسبرج، وهي مصيف للمجتمع الراقى، فيها عدد كبير من الضيالات و«فوكسهول» تعزف فيه موسيقى سمفونية كان الناس يقدرونها قدراً كبيراً.

«حي الرمال»: حي في ضاحية متواضعة شرق العاصمة.

«صاحب السمو»: الواقع أن لقب صاحب السمو باللغة الروسية لا يخاطب به إلا أمراء الأسرة المالكة. وكان الأولى أن تترجم الكلمة هنا بقولنا: «الأمير المعظم» أو «الأمير المبجل».

[[60←](#)]

«تانيا»: تصوير تاتيانا.

«ليوبوتشكا»: تصغير الاسم النسوي ليوبوف، ومعناه «الإحسان» بالمعنى المسيحي، وهو اسم رائج جدا كالأسمين الآخرين اللذين يعبران عن فضيلتين مستمدتين من اللاهوت وهما «فيرا» (الإيمان) و«نادجدا» (الأمل). والنساء الروسيات اللواتي يحملن هذا الاسم (مثل بنت دوستويفسكي نفسه) يحولنه إلى اسم إيميه Aimée الفرنسي حين يذكرنه بالفرنسية.

«قاتل أسرة جيرامين»: في أول آذار (مارس) سنة 1868 قام طالب مدرسة ثانوية بمدينة تامبوف، واسمه فيتولد جورسكي، وهو بولندي الأصل، قام بقتل ستة أشخاص في آن واحد هم: التاجر جيرامين وأمه وابنه وإحدى قريباته وخادمين. وقد اهتم دوستويفسكي اهتماماً شديداً بهذه الجريمة وأرجعها إلى تأثير النظريات العدمية.

إن القضايا الصغيرة، مدنية كانت أو جزائية، إنما تنظر فيها محكمة الصلح في كل حي من أحياء المدينة، (القانون 1864)، حتى إذا استؤنفت نقلت إلى مجمع قضاة الصلح الإقليمي.

إن هذه العبارة الشهيرة قد وردت في القرار الإمبراطوري الصادر في 24 تشرين الثاني (نوفمبر) مقدمة للتشريعات القضائية. وقد نقشت بأحرف من ذهب على لوح من المرمر في إحدى قاعات قصر العدل بمدينة سان بطرسبرج.

المعنى الحرفي لكلمة بالكي هو «العصى»، واللعبة لعبة قديمة من ألعاب الورق.

«الكفاس»: شراب مسكر بخس الثمن مستخرج من الخبز الأسود أو من
الفاكهة.

«كونتيسة باري»: هي الكونتيسة جان ماري دي باري (1743 – 1793)،
أثيرة لويس الخامس عشر، وقد أعدمتم بالمقصلة في عهد الإرهاب.
و«المذكرات»، المزورة التي نسبت إليها ونشرت سنة 1829 – 1830
يستفيد منها دوستويفسكي هنا لعرض بعض وقائع حياتها.

«ابنة عمي»: وردت بالفرنسية في النص الأصلي.

«لحظة واحدة أخرى يا سيدي الجلال، لحظة واحدة أخرى»: بالفرنسية في النص الأصلي. وهذه الكلمات التي نطقت بها الكونتيسة دي باري على المقصلة قد وردت في المجلد الثالث عشر من «القاموس الموسوعي» الروسي الذي أصدره بلوشار سنة 1844 في بطرسبرج وكان دوستويفسكي يقرؤه.

«عذاب»: استعمل المؤلف كلمة *misère* الفرنسية التي درجت على ألسن عامة الروس بمعنى العذاب.

«نقولاً أرداليونوفتش»: إن ليبيديف يقصد هنا كوليا، وليس مألوفاً أن يسمّى طفل أو مرّاهق بهذه الطريقة المفخمة. أي أن يذكر اسمه واسم نسبته إلى أبيه.

«ثمنية قمح بدينار، وثلاث ثمنيات شعير بدينار»: رؤيا القديس يوحنا
(الإصحاح السادس، 6) رؤيا القديس يوحنا (الإصحاح السادس، 8).

إن الحفلات الموسيقية التي كانت تقام في حدائق محطة بافلوفسك كانت تتمتع بشهرة كبيرة، وكانت ملتقى أبناء الطبقة الراقية.

«الخصيان»: Scopets، أي مخصي، وهو عضو من أعضاء تلك الملة الدينية التي يخصي أفرادها أنفسهم تعصباً، هم يمارسون مهنة الصرافين في أكثر الأحيان.

«.... بورجوازي فخري وراثي»: إنّ الأكرية الكبرى من التجار، في أواسط القرن التاسع عشر، إنما كانوا فلاحين اغتنوا من التجارة. فإذا انقطع هؤلاء عن دفع رسوم الانتساب إلى طبقة التجار، عادوا يهبطون إلى طبقة القرويين. وقد أسرع المشرع إلى ملافاة هذا الشعور الطبقي الذي أخذ ينشأ في ميدان التجارة، فأنشأ فئتين مستقلّتين عن دفع الرسوم، هما: «فئة البورجوازيين العاملين» و«فئة البورجوازيين الفخريين الوراثيين».

هو سرجي ميخائيلوفتش سولوفييف (1810-1879)، المؤرخ الروسي الكبير، أعظم مؤلفاته كتاب «تاريخ روسيا» الذي ظهر في 29 مجلداً من 1851 إلى 1879، مجلداً كل عام، وأعيد طبعه في سبعة مجلدات سنة 1897. وكان دوستويفسكي شديد الإعجاب بهذا الكتاب، وقد حمل عدداً من مجلداته حين سافر إلى الخارج سنة 1867.

[77←]

«إنه لا يناسبك أكثر مما يناسب البقرة أن يوضع على ظهرها سرج»: من
التعابير الروسية السائرة.

«قصة بابا غضب من إمبراطور»: إشارة إلى إمبراطور ألمانيا هنري الرابع
الذي جاء للكفارة أمام البابا جريجوار السابع سنة 1077.

«ترسم إشارة الصليب بإصبعين»: هذه طريقة ملة «قدماء المؤمنين» في رسم إشارة الصليب.

«منسوخة عن لوحة هانس هولباين»: كان دوستويفسكي قد رأى سنة 1867 بمدينة بال، لوحة هولباين «المسيح في اللحد» (1521)، فأثرت فيه واقعتها تأثيراً أليماً رهيباً، ومما يروى عنه أنه قال لامرأته: «إن لوحة كهذه اللوحة خليفة بأن تفقد المرء إيمانه».

«... رجل اسمه س-...»: من الجائز أن يكون دوستويفسكي حين وصف هذه الشخصية الواسعة الثقافة التي لا تؤمن بالله بل تذهب مذهب الإلحاد، قد أراد الإشارة إلى نيقولا سبيشنيف، عضو حلقة بتراشفسكي، الذي سيتخذه دوستويفسكي فيما بعد نموذجا لتصوير ستافروجين بطل روايته «الشياطين».

«تريد أن نتبادل صليبينا؟»: كان كل روسي أرثوذكسي يحمل في عنقه صليبا منذ ولادته، صليبا من معدن أو خشب. وتبادل الصليبين بين شخصين طقس من الطقوس الدينية يعني خلق «أخوة» روحية.

«لن يكون يومئذ زمان»: رؤيا يوحنا الإصحاح العاشر، 6.

«سلاح يطلب صنعه وفقاً لرسم معين، وستة أشخاص يُذبحون دفعة واحدة...». هنا يتذكر المتكلم قضية قاتل أسرة جيرامين. إنّ الطالب الثانوي فيتولد جورسكي قد تسلح بمسدس هيّاه سلفاً، وكان قد أوصى حداداً بأن يصنع له سلاحاً خاصاً زاعماً له أنه في حاجة إليه لألعاب رياضية.

«محطة نيقولا»: إنّ السكة الحديدية التي تصل بين بطرسبرج وموسكو والتي أنشئت في عهد نيقولا الأول، كانت تحمل اسم نيقولايفسكي، وهو أيضا اسم محطتي نهايتي هذا الخط في بطرسبرج وفي موسكو.

«محطة خط تسارسكوي»: إن خط تسارسكوي - سيلو هو أول خط من خطوط السكة الحديدية في روسيا، وقد دشن سنة 1835 وكان يمرّ بضاحية بافلوفسك.

«الذكرى الألفية لروسيا»: إنَّ ذلك اليوم من صيف 1862، الذي شهد احتفالات فخمة هو يوم انقضاء ألف عام على وصول الأمير الأول روريك إلى نوفوجورود سنة 1062، وقد أقيم نصب تذكاري بتلك المدينة في ذلك الحين، ولا يزال قائماً فيها إلى الآن.

«لا تنزل الماء ما لم تضمن المخرج» من الأمثال الروسية السائرة.

«الفارس الفقير»: قصيدة للشاعر بوشكين نظمها سنة 1830 وفيها يتحدث
عن فارس من القرون الوسطى اختار مريم العذراء «سيدة» له.

إنَّ «الفارس الفقير» قد اختار هذه الأحرف الثلاثة شعاراً له «آ. م. د» وهي الأحرف الأولى من ثلاث كلمات لاتينية معناها «سلاماً أم الرب». ولكن آجالياً تبدل حرف «د» بحرف «ب»، وهو الحرف الأول من اسم عائلة ناستاسيا فيليبوفنا باراشكوف. وبعد قليل ستحل محل «آ. م. ب» الأحرف «ن. ف. ب» صراحة.

كان لا يجوز للعسكريين العاملين أن يرتدوا الثياب المدنية إلا ليسافروا إلى الخارج.

«على المرء أن لا يحطم الكراسي»: تعبير مستمد من مسرحية غوغول:
«المفتش العام»، وفيها يظهر (الفصل الأول، المشهد الأول) أستاذ للتاريخ
يؤخذ عليه أنه يتحمس إلى حدّ «تخطيم الكراسي» حين يتكلم عن الإسكندر
الكبير. لذلك فإن تعبير «تخطيم الكراسي» جرى على الألسن إشارة إلى
بذل طاقة في غير محلها.

«طبعة آننكوف»: هي واحدة من تلك الطبعات النقدية الأولى لأعمال الشاعر الكبير، وقد أصدرها آ.آ. نيكوف بين سنة 1855 و1857.

«عدميون»: إنّ هذه الكلمة التي يقال إنّ تورجنيف هو أول من وضعها في الاستعمال كانت ما تزال شيئاً جديداً.

«أن يبرهنوا على أن بوشكين لا نفع فيه»: إشارة إلى مساجلات مدوية قامت سنة 1865، وفيها سفّه الناقد العدمي بيسارييف تمجيد الشعر، وشن على ذكرى بوشكين هجوماً عنيفاً.

«جورسكي ودانييلوف»: القاتلان اللذان ورد الحديث عنهما سابقاً.

«جريدة أسبوعية ساخرة...»: إنّ هذه المقالة تحاكي ما كان ينشره
صحفي مغمور اسمه ستوبانوفسكي في المجلة الأسبوعية الهجائية
«الشرارة»، التي صدرت ببطرسبرج من سنة 1859 إلى سنة 1879.

«لا حظ إلا لفئة من الناس»: إنّ أصل هذا المثل هو «لا حظ إلا للأغبياء»
وهذا يحدد الفئة المقصودة هنا».

«فالمراء لا يكاد يصدق هذا الأمر رغم أنه قريب العهد»: بيت من الشعر
مستمد من مسرحية جريبويديف الهزلية الشهيرة «كثير من الذكاء
ضرر». والإشارة إلى همجية العهد الذي لم ينقض عليه زمن طويل.

«السحابة» (1815): واحدة من أجمل الحكايات الخرافية التي كتبها
الكاتب الروسي الكبير كريلوف.

«ملة الراسكولنيك»: هي ملة «قدامى المؤمنين»، ويرجع عهدا إلى
الانشقاق الديني الذي نشأ في أعقاب إصلاح الشعائر الدينية على يد
البطريك نيكون.

«ليوفا»: تصغير كلمة «الطرح». إن دوستويفسكي يحوّر هنا فقرة من مقالة كتبها عنه هو في إحدى المجلات ناقد تافه بعنوان «فيديا المغرور» وفيها يصوّر دوستويفسكي بأنه يعبث بقصة غوغول «المعطف»، ويضيع وقته في سفساف وترّهات. فهذا الناقد هو الذي يصفه دوستويفسكي هنا بأنه أحد شعرائنا الساخرين المشهورين.

«شنايدر»: اسم البروفسور السويسري الذي كان يعالج «الأبله» بسويسرا.

«الأميرة ماريا ألكسيفنا لن تقول عن هذا شيئاً»: إشارة إلى حوار فاموسوف مع نفسه في مسرحية جريبويدوف الشهيرة: «كثير من الذكاء ضرر» ففي المشهد الأخير من المسرحية نرى الشخص يصيح قائلاً: «آه... رباه... ما عسى تقول الأميرة ماريا ألكسيفنا؟».

«كوبفر»، «بيسكوب»: لا بد أنهما مرابيان.

«لأسقف الفرنسي بوردالوا» إنَّ بوردالو واعظ فرنسي يسوعي (1632 - 1704) له خطب مشهورة أعجبت الناس ببلاغتها وقوة حجتها. فأما أن نفترض هنا أن ليبيديف، الذي كان يحب الحديث في موضوعات غير متوقعة. قد تكلم فعلاً عن بوردالو، وأما أن نفترض أنَّ كيلر يتلاعب بالألفاظ مشيراً إلى الخمرة الفرنسية المشهورة، خمرة «بوردو»، أو إلى الكلمة الروسية بوردو وهي اسم مزيج من الشراب المسكر. أما إطلاق لقب الأسقف على الواعظ الفرنسي المشهور فهو محض خيال.

إنَّ بوردوفسكي مدين لا بمائتي روبل، بل بمائتين وخمسين. لأنَّه لم يردَّ إلا
مائة.

[[1←](#)]

«مصرف لومبارد»: هو المؤسسة الحكومية التي كانت صندوق ادخار وإقراض ثم توقفت عن العمل حين ظهرت البنوك الحديثة.

واحدة من الجُزر التي يشكلها فرعاً نهر نيفا، وفيها قصر من قصور
الإمبراطورية. وكان في تلك الجزيرة فيلات كثيرة لموظفين يمنعهم
عملهم من الابتعاد عن بطرسبرج.

كانت توجد في بافلوفسك قاعة كبيرة تجاور المحطة، وكانت توجد حديقة عامة. والقاعة والقصر يتبعان أملاك الدوق الكبير قسطنطين، ولكن القاعة والحديقة مفتوحتان للجمهور تقام فيهما أثناء الصيف حفلات موسيقية سمفونية ذات شهرة كبيرة.

في رسالة كتبها دوستويفسكي إلى ن.ن. ستراخوف في 5 نيسان - أبريل 1870، يعبر عن مثل هذا الرأي بصدد لومونوسوف وبوشكين، وينكر على تولستوي؛ حق أن يقارن بهما.

«فاموسوف»: شخصية من شخصيات مسرحية جريبيويدوف الهزلية «كثير من الذكاء ضرر».

[[6←](#)]

«وحيدين»: بالفرنسية في الأصل.

[7←]

بالفرنسية في الأصل.

جرح بوشكين في مبارزته مع دانتيس يوم 27 كانون الثاني (يناير) 1837؛ ومات يوم 29 في الساعة الثالثة بعد الظهر. إن رصاصة خصمه قد ثقتبت أحشاءه.

يجري المشهد في فترة «الليالي البيضاء» بمدينة بطرسبرج.

[[10←](#)]

ذکری بیت من الشعر ورد في «فاوست» جوته.

إن حصار كارس، أثناء حرب 1845-1855 قد انتهى بتسليم القلعة
للجنرال مورافيف في 6 تشرين الثاني (نوفمبر)، لأن الذخائر والمؤن قد
نفدت عند المحاصرين نفاداً تاماً.

يستخدم المترجم هذه العبارة في عدد من أعمال دوستويفسكي التي ترجمها،
والمقصود بها من يدعي التفقه، أو هي تصغير للفقيه.

ربما كانت هذه الفكاهة تقوم على الصلة اللفظية التي لا يمكن ترجمتها، بين كلمة بوروك الروسية (ومعناها الرذيلة)، وكلمة بوروكهود (ومعناها السفينة البخارية).

أغلب الظن أنه الدكتور بوتكين، طبيب الإسكندر الثاني.

استخدم المترجم كلمة الكنباوين ولم نشأ تعديلها، واليدين الكنباوين تعني:
اليدين الغليظتين، القاسيتين بسبب العمل.

[[16←](#)]

قطع ذهبية قيمة الواحدة منها عشرة روبلات.

«جبل العصافير»: تل صغير في ضاحية بجنوب شرق موسكو، منه تأمل نابليون وأركان حربه المدينة في اليوم الحادي عشر من شهر أيلول (سبتمبر) سنة 1812؛ وفي ذلك التل كان يجمع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة قبل ترحيلهم إلى سيبيريا. إن هذا التل هو اليوم مرتع نزهة ورياضة، ويسمى «جبل لينين».

[[18←](#)]

«قومي طليثا»، إنجيل مرقص، الإصحاح الخامس، 41.

[[19←](#)]

«اخرج لعازر»: إنجيل يوحنا، الإصحاح الحادي عشر، 43.

واضح أن أوجين بافلوفتش يرجع هنا إلى «شرح» هيبوليت، ولكن يجب أن نذكر أنه يستعمل هنا كلمة Chtouka التي تعنى «مقلباً»، في حين أن هيبوليت كان قد استعمل كلمة Chtouka التي تعنى مزاحاً. فتشابه اللفظين يبعث على المرء على أن يقدر أن الناشر ارتكب خطأ مطبعياً. فلعل المؤلف إنما استعمل كلمة واحدة.

«بودكوليوسين»: بطل مسرحية جوجول الهزلية «زواج». إنه نموذج الطبع الضعيف، مع انتفاضات استقلالية: لقد قفز من النافذة في لحظة الزواج.

[[22←](#)]

بالفرنسية في الأصل.

«بيروجوف»: شخصية رئيسية في قصة عنوانها «شارع نفسكي».

«نوزديوف»: شخصية مضحكة هزلية من شخصيات رواية جوجول
«النفوس الميتة»: نموذج بوهيمي، متشدد، شرير.

«ياروشكا»: تصغير اسم ياروم، وهو من يسمّى بالفرنسية جيروم.

[[26←](#)]

«کابیتوشکا»: تصغیر اسم کابیتون.

[[27←](#)]

ضاحية من ضواحي موسكو.

«الأرشيف الروسي»: مجلة تاريخية أسسها سنة 1863، ب. بارتنيف. ورغم أن عدد النسخ التي كان يطبع منها ضئيل، فقد كانت تعدّ على الدوام أفضل نشرة من هذا النوع.

هو كتاب «تاريخ حملة 1815، واترلو»، تأليف الليوتنان كولونيل شاراس؛ صدر الكتاب باريس سنة 1864.

[[30←](#)]

بالفرنسية في الأصل.

[[31←](#)]

بالفرنسية في الأصل.

[[32←](#)]

بالفرنسية في الأصل.

[[33←](#)]

بالفرنسية في الأصل.

[[34←](#)]

بالفرنسية في الأصل.

[[35←](#)]

بالفرنسية في الأصل.

«لأن يكون المرء مع نساء، خير من أن يخبط هنا وهناك خبط عشواء»:
يستغل الجنرال في هذه العبارة جناسا لفظيا بين كلمة bobami وكلمة
babami (ومعناها: نساء).

[[37←](#)]

«جریشا»: تصغیر جریجوری.

[[38←](#)]

بالفرنسية في الأصل.

[[39←](#)]

«كامني أوستروف»: جزيرة في نهر نيفا شمال بطرسبرج.

فريدريش شلوسر (1776 - 1860): مؤرخ ألماني وضع كتاباً بعنوان:
«التاريخ العام».

[[41](#) ←]

«جلاشا» تصغير آجلايا.

إن جيليبوف، عشيق المرأة التي طردها بطرس الأكبر، واسمها أودوكسيا،
قد اشترك في الثورة التي أقامها رجال الكهنوت على هذه الأميرة وابنها
ألكسي. وقد حوكم جيليبوف سنة 1718 في كينين، وحكم عليه
بالخازوق.

آندره إيفانوفتش أوسترمان (1686 – 1747)، ابن قسيس من فستفاليا،
جاء إلى روسيا في السنة الثامنة عشرة من عمره. وقد ألحقه بطرس الأكبر
بوزارة الخارجية. فاشترك في مباحثات صلح نيستاد سنة 1721 ومعاهدة
1723 مع إيران. وقد ترأس الحزب الألماني في عهد آنا إيفانوفنا، ونال لقب
كونت ورتبة مستشار. ونفي إلى سيبيريا بعد أن تم إسقاط إيفان الرابع
على يد إليزابيث بتروفنا.

يقال إن توماس موروس الذي حُكِّم عليه بالإعدام قد تضرع إلى الجلاد أن لا ينال لحيته بسوء، قائلاً له: «ليس يهمني كثيراً أن يصيب لحيتي أذى، ولكن يهلك أنت أن يقول الناس عنك إنك تجيد مهنتك إجابة تامة، لأن القرار ينص على أن عليك أن تقطع رأسي لا لحيتي».

[[45←](#)]

بالفرنسية في الأصل.

[[46←](#)]

باللاتينية في الأصل.

«الخليين» Khlistes ملة يرجع عهدھا إلى نهاية القرن الثامن عشر، وفي عقيدتها يمتزج نوع من التصوف المسف والانحلال الجنسي.

إن الدعوة السلافية التي كان ينتمي إليها دوستويفسكي لا تقتصر على أن تكون مذهباً يهدف إلى الانبعاث السياسي لجميع السلافين، بل كان كذلك فلسفة قومية تتضمن حلاً روسياً للمشكلات الاجتماعية والأخلاقية.

«هذه الأبيات السخفية»: إن هذه الأبيات جزء من قصيدة بوشكين التي عنوانها: «انطفاء فرح الأيام المجنونة»، والتي تعدّ من أجمل القصائد الغنائية. فلعل الفتى هيبوليت متأثر هنا بالتيار النقدي الأدبي الذي طلع في ذلك الزمان والذي يمثله بيساريف وأمثاله الذين كانوا يسفّهون بوشكين.

«أبيع حياتي بليلة واحدة»: بيت من قصيدة للشاعر بوشكين: «ليالي
مصر».

الف--ه--رس

الجزء الأول

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الجزء الثاني

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الجزء الثالث

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الجزء الرابع

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر - خاتمة

الحواشي